

كتاب

التربية لا تستقل الية

أمثال القرن التاسع عشر

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد

تأليف

الفونس اسكيروس

وترجمه بالعربية عن الفرنسية

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية سابقا

(قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب في ملائكتنا الثانوية).

[الطبعة الرابعة]

طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٩ - ١٩٣١

الحسن ٤٠ قرشا





”مَا تَحِلُّ وَالِدٌ وَلَدَهُ مِنْ نُحْلٍ أَفْضَلُ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ“^(١)

(١) النحل : العلية والحبة . (حديث شريف)

”لَا عِبَ وَلَدَكَ سَبْعًا وَأَدَبُهُ سَبْعًا وَصَاحِبُهُ سَبْعًا ثُمَّ اجْعَلِ الْحَبْلَ عَلَى غَارِهِ“

(حكم عربي)

(حقوق الطبع محفوظة للترجم)

(تَنْبِيْهُ) مَنْ طَبَعَ هَذَا الْكِتَابَ غَيْرَ مُتَرْجِمِهِ يُحَازَرُ . وَمَنْ وَجِدَتْ
بِيَدِهِ نُسْخَةٌ مِنْهُ (مِنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الْأُولَى) غَيْرَ مَحْتَوِيَةٍ بِخَتَمِ الْمُتَرْجِمِ يُسَالَلُ عَنْهَا قَانُونًا .

فهرس الكتاب

صفحة	
(أ)	مقدمة المترجم للطبعة الأولى
(س)	مقدمة للطبعة الثانية
(ف)	مقدمة للطبعة الثالثة
(ش)	مقدمة للطبعة الرابعة

الكتاب الأول - في الأم

١	الرسالة ١ - وصف حال المسجون
٤	» ٢ - خبر سار من المسجون لزوجته
٥	» ٣ - تسل المسجون بتعرف أماكن السجن
٦	» ٤ - السجن قيد للأشباح لا للأرواح
٧	» ٥ - مواساة الأصدقاء الخاطئين في حال الشدة
٨	» ٦ - قول الطبيب في الحمل (بأميل)
٩	» ٧ - تأثر الزوجة بزيارة سجين زوجها ومشقة الرجوع منه وتحذوها من ثقل فروض التربية
١٥	» ٨ - ثقل الزوج من سجين إلى آخر
١٦	» ٩ - خيبة الزوجة في زيارة السجن
١٧	» ١٠ - نهى الزوج زوجته عن السفر رعاية للبنين وما يلزم له
١٩	» ١١ - تفضيل الأمومة على الزوجية وأمان الأم في الولد
١٩	» ١٢ - وصف الزوجة للوندة وسفرها إلى بزناس
٢٦	» ١٣ - جبل القديس ميكايل والمزل الذي يصلح للتربية
٢٣	» ١٤ - محافظة الحامل على سلامتها
٣٧	» ١٥ - التربية الأولى من خصائص الأم

صفحة

- الرسالة ١٦ - تشابه السجون في جميع البلدان وتسمية هم المسجون بالمطالعة ... ٣٩
- » ١٧ - المسكن الجديدي ومجيء قويدون وزوجته جوريجية من فرسة والمقارنة بين
الفرنسيات والانكليزيات في تربية الأولاد ... ٣٩
- » ١٨ - موافقة الزوج لزوجته في انتقادها التربية عند الفرنسيين ... ٥٢
- » ١٩ - تسمية المولود وانتقاد طريقة التربية في فرسة ... ٥٣
- » ٢٠ - وصية الدكتور للحامل بالرياضة والنزهة والبعد عما يثير الاقناعات وباجتناب
المنظر الرائعة ... ٦٦
- » ٢١ - وصف تصوير الانكليز أطفالم الاستقلال والحرية ... ٧١
- » ٢٢ - انتقاد أخلاق الانجليز وخضوعهم لتقاليد أسلافهم ... ٨١
- » ٢٣ - أخبار الزوجة زوجها باقتراب ساعة الوضع وبرؤيا رأتها ... ٨٣

صحف مقتطفة من يومية الدكتور إراسم

- الصفحة ١ - أقل العقبات المعنوية يعوق العقل عن الانبعاث في سبيل الحرية ... ٨٥
- » ٢ - لا بد يوما أن يدال من المستبد وأن ترد الحقوق المنصوبة الى أهلها ... ٨٦
- » ٣ - من أعجب الظلم أن يداس العدل والحرية وتهضم حقوق الأمم في سبيل تحصيل
لذة الملك لرجل حالك ... ٨٦
- » ٤ - تمثيل الحكومة المستبدة في الأم الراقية بالدجاجة مع أفراسها ... ٨٧
- » ٥ - تمثل زوجة المسجون له في القبضة ... ٨٧
- الرسالة ٢٤ - البشارة بوضع « اميل » ... ٨٨
- » ٢٥ - القابلات والعناية بالمولود ... ٨٩
- » ٢٦ - مشاجرة « اميل » لأبيه وحكاية في التماثل بين الأحياء والأموات ... ٩٣
- » ٢٧ - ظن الأم أن ولدها أنثى يعرفها ويأمن فضله عليها في تحمين خلقها ... ٩٤
- » ٢٨ - سؤال الزوج عن حقيقة التربية وبدايتها ونهايتها ... ٩٦

الكتاب الثاني — في الولد

- الرسالة ١ — تعريف الترية وعصر تحديد زمني بدايتها ونهايتها ٩٩
- » ٢ — عمل الأم في الشهور الأولى من حياة الطفل وانتقاد ما يفعله الأمهات بأطفالهن ١٠٣
- » ٣ — أول علوم الطفل تأتيه من طريق الحواس وتربية الحواس وتأثير التمدد في قواها وتفضيل الترية في الريف وعمل الأم في تمرين حواس الطفل ... ١٠٥
- » ٤ — شعور الطفل من أول نشأته بأنه أرقى من الحيوان واستخفافه بالعالم واستعراف طباعه وذكر إهمال المربين ١١٣
- » ٥ — حسن رأى الزوجة في ولدها وسياسة ووصف الاقليم والأشجار ١١٦
- » ٦ — تلقيح الجدري وهم عوام التكليز فيه وذكر الأم لأحوال ولدها ١١٩
- » ٧ — بيان أن سبب خور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لضعف المشاعر قسما ووجوب تنبيه اليها وتدريب الطفل على المحافظة على نفسه بنفسه ... ١٢٣
- » ٨ — تعرف الأدواق «اميل» وانتقاد الوالدين اللذين ينشئان الطفل على مثالي في الطبايع والأذواق وبيان ماهية الطبع وارتعالات الطفل وأسبابها ودوائها ووجوب مقاومة الترية لأهوائه الفاسدة من طريق الهائه عنها وجعله يميز عن البواث المثيرة لها ١٢٨
- » ٩ — استعمال السلطة في سياسة الأطفال بقدر الضرورة وبيان ضرر قهر الطفل على الامتثال ١٣٧
- » ١٠ — اجتناب تخويف الطفل بالعقوبات الإلهية والخوض معه في المسائل الدينية وتركها له لينظر فيها متى كبر يفكر خال من المؤثرات ١٤٢
- » ١١ — بيان عدم فائدة أصول علم الأخلاق في الترية ١٤٥
- » ١٢ — بيان قلة وقع القدوة ومطالعة قصص الحيوانات في تربية الأطفال ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلمه غير الحيوانات بنفسه ١٥٠
- » ١٣ — بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة ١٥٣
- » ١٤ — تربية النفس وبيان أن في التكبير بإلقاء النصائح والمواعظ على الأطفال خطأ من كراتها وأن للاطفال حاسة يميزون بها بين الحب الصحيح والمنقوه ... ١٥٩

صفحة	
١٦١	الرسالة ١٥ - تفاهم الأم مع ولدها بالأصوات وطلبها أنها أصل اللغات
١٦٢	» ١٦ - استعداد الأم لتعليم ولدها بالبحث في أحوال النباتات
١٦٤	» ١٧ - تسنين إميل
»	١٨ - في تفكر الطفل . وأصل اللغات وفي تعليم اللسان للأطفال وسوء طريقة
١٦٥	المربين في ذلك
»	١٩ - التفكير مما يتعلمه الطفل - خطأ المربين في عنايتهم بالألفاظ دون المعاني ووجوب
١٧٢	توحيد الأطفال النظر والملاحظة تمرنا على التفكير
»	٢٠ - محاولة لإدراك الحرب من السجن وعوفاه انقطاع المراسلة
١٧٦	» ٢١ - بيان شغل «إميل» وإن الأعمال الصيانية ليست باطلة
»	٢٢ - أنس «إميل» بالدواجن وأنسها به وتعليل انقطاع أنس الحيوانات المتوحشة
١٧٧	» ٢٣ - تأثير الجمال في الأطفال واحتياجهم إلى كثرة التعلم
٨٤	» ٢٤ - أخبار الزوج وزوجه ينقله إلى سجن آخر واقناعها بالعدول عن السفر إليه ...
١٨٥	» ٢٥ - تعليم الأطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام
١٨٦	الزمن بحسن المعاملة
»	٢٦ - وجوب احترام المربي الطفل بجهل ما يبجله وانتقاد المربين في دعواهم العلم
	بكل شيء وانتقاد التعليم الديني والسياسي والطريقة المستحسنة في التربية
٢١٣	وبعض شروطها كفسيان المربي ما يتعلمه ليتعلمه مع الطفل
»	٢٧ - التدرج في تعليم العلوم للأطفال بلغت أذهانهم إلى ما حولهم وانتقاد الكتب
٢١٩	التعليمية
»	٢٨ - فوائد التصوير والمعارض في التربية
٢٢٦	» ٢٩ - التربية والتعليم بالقانون السحري والتثليل والمعارض
٢٣٢	» ٣٠ - السفر بالأطفال ومعركة الأرض بالعمل وتعليمهم الصناعة بمعالجة اللعب ...
٢٣٨	» ٣١ - تعليم القراءة والخط والرسم
٢٤٨	» ٣٢ - التدرج العنصري في تعليم الرسم والخط والقراءة
٢٥٦	»

صفحة	
٢٦٦	الرسالة ٣٣ - تربية الخيال والتلطف في معاورة الأطفال
٢٦٨	» ٣٤ - خطاب الأب لابنه وحده على تعلم الكتابة
٢٦٨	» ٣٥ - الصحة في تغيير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بحاسن القراء
٢٧٨	» ٣٦ - تعليم التاريخ الطبعي بتثيل الفانوس السحري
٢٨٦	» ٣٧ - بقية أخبار السفينة الغريبة وسرقة تفاهم الأطفال
٢٨٨	» ٣٨ - تعليم السباحة وتربية المضلات
٢٩٣	» ٣٩ - أخبار المسجون بالعفوة
٢٩٣	» ٤٠ - بشرى الحرية (خروج إرام من السجن)

صفحة

الكتاب الثالث في تربية اليافع

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور إراسم

- ٢٩٥ حب الزوجة والولد والوطن الشذرة ١
- ٢٩٨ تعليم المسميات قبل الأسماء ٢ >
- ٣٠٠ تربية المذكور مع الاناث وتعليمهما معا ٣ >
- ٣٠٦ انجزرتان والتعليم بضرب الأمثال ٤ >
- ٣١٢ انسلط الديوانى ٥ >
- ٣١٥ مذهب تشفييل المتعلمين بالأعمال المادية الشاقة ٦ >
- ٣١٩ رؤيا تمثل التربية الكاملة وآثارها في سعادة الأمة ٧ >
- ٣٢٨ تحمى العلم في العمل ٨ >
- ٣٣٤ انتقاد تعليم الأطفال اليونانية واللاتينية ٩ >
- ٣٤٢ التقليد والذاكرة ١٠ >
- ٣٤٩ المؤلفات المفيدة للناشرين واختيارها ١١ >
- ٣٥١ لا يسلم وجه الشمس من كلف وانتقاد اللتين اليونانية واللاتينية ١٢ >
- ٣٦٢ السفر من أركان التربية ١٣ >
- ٣٧٣ التربية بركوب البحر ١٤ >
- ٣٧٧ ما يتعلم في السفينة ١٥ >
- ٣٨٢ التربية بسفر البحر ١٦ >
- ٣٨٤ طريقة صيد خنازير البحر ١٧ >
- ٣٨٥ وصف ما يرى في البحر من المشاهد الطبيعية ١٨ >
- ٣٨٨ الأسماك الطائرة، وصيد كلاب البحر، والضوء القى رى في المياه ليلا ١٩ >
- ٣٩١ صيد السلاحف البحرية ٢٠ >
- ٣٩٢ نظام مظهرى الشروق والغروب قرب خط الاستواء ٢١ >
- ٣٩٢ أفعال الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء ٢٢ >

صفحة	
٢٢	— مرة تغير الإقليم بخط الاستواء والأعاصير المائية ٢٩٣
» ٢٤	— تبادل السفن صنائع الحروف ٢٩٤
» ٢٥	— موت ملاح والاحتفال بجزائه في السفينة حقيقة سبب تأثر الأطفال بفاجعة الموت ٢٩٤
» ٢٦	— أقاليم البلاد فصول ثابتة وفصول السنة أقاليم مرتبطة ٤٠٠
» ٢٧	— وصف بعض طيور بوزغا زما جلان وصيد نوع منها ٤٠١
» ٢٨	— الزواج في رأس القرن ٤٠٢
» ٢٩	— الشجاعة في الملاحين والجنود وكونها كسبية وشجاعة النساء المحمودات ... ٤٠٢
» ٣٠	— مرح « لولا » في السفينة بعد زوال الخطر ٤٠٧
» ٣١	— وصف جزر فرناندز التي كتبت من احداها قصة روبنسن كروزو المشهورة ... ٤٠٧
» ٣٢	— وصف خليج فلاد وذكروا من الخليج هناك ٤٠٩
» ٣٣	— فوائد الضيافة ٤١٠
» ٣٤	— التربية بالمعاشرة ٤١١
» ٣٥	— أخلاق أهل يمة وأحوالهم وأهل بيت « لولا » ٤١٥
» ٣٦	— فوائد الشدائد وبذل النفس للحبوب أول الحب ٤١٨
» ٣٧	— الآثار والمدن المجهولة في البر والبحر الموازنة بين الأعمال والقوى ... ٤٢٢
» ٣٨	— التربية بالتأثيرات الطيبة ٤٢٦
» ٣٩	— نخامة مشد الجبال ٤٢٩
» ٤٠	— انتهاء قضية « لولا » والعودة الى أوربية ٤٣٠
» ٤١	— بيان ما عاين على « اميل » من الفوائد في هذا السفر ٤٣١

صفحة

الكتاب الرابع — في تربية الشاب

- الرسالة ١ — مدارس ألمانية — معيشة إميل ووصف نادى الطلبة ومحاوراتهم ، ونهايتهم
على خدمة الحكومة وتعلمه اللغة الألمانية وذكره «لولا» واستيحاشه من غربته ٤٣٣
- » ٢ — فراق الولد لوالديه سنة قطرية — العلم في ألمانية — نقد الطالب ما يقرؤه من
أفكار غيره — التقصد في علوم المقولات — قمع الأمة بالقيام بالواجب
على قدر الطاقة — اختيار الشاب العمل الذى يشتغل به بعد — لاجرية لأمة
يتكالب شيانها على تولى أعمال الحكومة — التحذير من الملحدن — لاقية
للرأى العام إلا إذا كانت الحكومة شورى — خدمة الأمة لئلا تهازل بالجواز ٤٤٠
- » ٣ — عشق «إميل» قية عملة ومكاشفة أمه بذلك ٤٥٠
- » ٤ — شأن الوالدين مع الولد العاشق وتلطف الأم في نصحه ٤٥٧
- » ٥ — المدارس الجامعة في ألمانية ٤٦١
- » ٦ — التربية الدينية والحكوية ٤٦٥
- » ٧ — بدء العشق وغرور العاشق ٤٧٥
- » ٨ — حقيقة الحب وعاقبه بعد زواله ٤٧٩
- » ٩ — الاستقلال فى العلم وطمسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية — الاعتماد على
العقل دون الخطابة — حب الوطن ٤٨٣
- » ١٠ — يجب أن يكون للشاب المحلم رأى في سياسة بلاده ٤٨٧
- » ١١ — خاتمة الكتاب — يجب إنشاء الأولاد بالتربية أحرارا لتصلح البلاد ويستأصل
منها الشر والفساد وفيها الاحتفال بيلوغ إميل ٢١ سنة والمقدله على لولا وسفر
أهله به الى وطنهم فرنسة ٤٩٧
- كلمة المرحم الختامية للطلبة الثالثة ٤٩٩

مقدمة المترجم للطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى
يَسُوعَ الْحِكْمَةِ، وَنَبِيِّ الرَّحْمَةِ، الَّذِي أَدَّبَهُ رَبُّهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ، وَأَتَمَّ لَهُ مِنْ مَكَارِمِ
الْأَخْلَاقِ وَجَلَائِلِ الشِّيمِ نَصِيْبَهُ، فَصَارَتْ سِرِّيَّتُهُ الْمَحْمُودَةُ أَكْثَلُ مِثَالٍ لِلْمُرَبِّينَ،
وَأَفْضَلُ هَدْيٍ لِلْمُرْشِدِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَآصْحَابِهِ الْمُسَايِرِينَ الْمُتَهِدِّينَ .

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْإِنْسَانِ أَنْ يُخْلَقَ عَاجِزًا، جَاهِلًا مُحْتَاجًا
إِلَى الْكَافِلِ الَّذِي يُحَوِّطُهُ بِرِعَايَتِهِ، وَيُقِيمُهُ عَلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ فِي مَعِيشَتِهِ .
ثُمَّ يَتَدَرَّجُ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ حَتَّى يَبْلُغَ مَا أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ بِحَسَبِ
اسْتِعْدَادِهِ . وَعَلَى مِقْدَارِ عِنَايَةِ قِيَمِهِ يَتَرَبَّعُ .

مِنْ أَجْلِ هَذَا تَفَاوَتْ دَرَجَاتُ النَّاسِ تَفَاوُتًا عَظِيمًا فِي الْقُدْرَةِ وَالْعِزِّ وَالْعِلْمِ
وَالْجَهْلِ، وَتَوَعَّتْ آثَارُ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِيهِمْ تَوَعُّدًا لَا يَحْدُهُ وَصْفٌ، وَلَا يَشْمَلُهُ
حَصْرٌ، وَتَبَعَ ذَلِكَ اخْتِلَافُ الْأُمَمِ بِالتَّرَقِّيِّ وَالتَّوَدُّلِ وَالْعِزَّةِ وَالذُّلَّةِ .

فَإِنَّ أُمَّةً عُنِيَتْ بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا وَتَهَذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ وَتَقْوِيَةِ عُقُولِهِمْ وَإِنْسَانِيَّتِهِمْ
أَحْرَارًا عَشَاقًا لِلْعِلْمِ يُخْدِمُونَهَا وَيُخْدِمُونَهُ مُخْتَارِينَ كَمَا يُخْدِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَشْرَقَتْ
فِي رُبُوعِهَا شَمْسُ الْعِلْمِ، وَكَشَفَتْ لَهَا الْحِجَابَ عَمَّا تُخْفَرُ لَهَا مِنْ قُوَى الْكَوْنِ،

فَاسْتَعْدَمَتْهَا فِي حَاجَتِهَا وَحَاجَاتِ نَظَرَاتِهَا ، وَاسْتَعَانَتْ بِهَا فِي تَحْسِينِ أحوَالِهَا
وَتَرْفِيهِ مَعَاشِهَا ^(١) .

لَا نَ لَهَا الْحَدِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ وَشِدَّةِ بَاسِهِ فَاتَّخَذَتْ مِنْهُ سِجْنًا حَصِينًا لِعُدُوِّهِ
مُتَعَانِدِينَ هُمَا الْمَاءُ وَالنَّارُ ، فَكَانَ مِنْ كِفَاحِهِمَا فِيهِ ^(٢) أَنْ تَصَاعَدَتْ زَفَرَاتُ الْمَاءِ
وَوَظَلَتْ مَرَاجِلُ غَيْظِهِ ^(٣) ، فَاتَّمَسَ الْخِلَاصُ ، فَلَمْ يَسْمَعْ إِلَّا أَنْ طَارَ سِجْنِهِ ، فَكَانَ
ذَلِكَ سَبَبًا لِاسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْفَاتِكَةِ فِي طَيِّ الْمَسَافَاتِ السَّحَابَةِ ، وَتَقْرِيبِ
الْأُمَمِ الْمُتَنَائِيَةِ ، وَكَسْرِ نَحْوَةِ الْبَحَارِ وَالتَّخْفِيفِ مِنْ غُلُوِّهَا ^(٤) ، بِإِمْنَاءِ ظُهُورِهَا وَشَقِّ
أَحْسَانِهَا ، وَالْأَخْذِ بِسَكَائِمِهَا ^(٥) . نَمَّ وَفِي تَحْرِيكِ دَوَالِبِ الصَّنَاعَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ تَحْرِيكًا
خَفِيفًا مِنْ أَوْصَابِ الصَّنَاعِ وَمَتَاعِ الْعُمَالِ ، وَغَمَرَأَسْوَاقِ التَّجَارَةِ بِضُرُوبِ
الْمَصْنُوعَاتِ الْبَدِيعَةِ فَاصْبَحَ الْفَقِيرُ شَرِيكًا لِلغَنِيِّ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ بِهَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ
مَحْرُومًا مِنْهَا ، وَاتَّخَذَتْ لَهَا مِنَ الْحَدِيدِ أَيْضًا قُدَّافَاتٍ لِلنُّوْتِ ، جَلَابَاتٍ لِلنَّمَارِ
وَالْخِرَابِ ، لَا تُرَدُّهَا شَجَاعَةُ الشُّجْعَانِ . وَلَا تَقْنِي مِنْهَا مُصَاوَلَةُ الْفُرْسَانِ . فَمَلَكَتْهَا
نَوَاصِي الْأَعْزَاءِ . وَبَسَطَتْ لَهَا السُّلْطَانُ فِي جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ .

(١) رفه العيش : ألانه وأخصبه وأرفده .

(٢) الكفاح : في الأصل مواجهة العدو في الحرب ومضاربته والمراد به هنا المكافحة .

(٣) المراجل : جمع مرجل ، وهو القدر .

(٤) النخوة : الظلمة .

(٥) الغلواء : الغلو والنشاط .

(٦) الفكيكة : هي الأتفة وتطلق أيضا على الحديدية المعرقة في فم القوس وكل هذه الألفاظ يراد

منها سلعها المجازية التي تنلخص في التسلط على البحار بقوّة الجهار .

لَقَدْهَا فَصِيفُ الرِّمْدِ وَوَمِیْضُ الْبَرْقِ وَغِیْرُهُمَا مِنْ آثَارِ الْقُوَى الْكَوْنِیَّةِ، الَّتِي طَالَهَا
مَرٌّ عَلَيْهَا مِنْ غَبْرُوا مِنْ أَجْبَالِ الْبَشَرِ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ، فَحَدَسْتُ ^(١) أَنَّ فِيهَا قُوَّةَ عَظِيمَةٍ
لَمْ تُخْلَقْ سُدًى ، وَأَنَّهَا لَوْ لَكْتُ تَصْرِيفَ زَمَانِهَا لَأَسْفَدْتُ مِنْهَا مَا اسْتَفَادَتْهُ مِنْ
الْبُخَارِ ، فَأَتَبَرَى طُلَّابُ الْحَقَائِقِ مِنْ أَبْنَائِهَا الَّذِينَ أُمِّرَتْ فِيهِمُ التَّرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ
لِلْبَحْثِ عَنْهَا فِي مَكَانِهَا ، وَمَا زَالُوا يَصْلُونَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ فِي تَتَبُعِهَا ، حَتَّى اهْتَدَوْا
إِلَى يَنَابِيعِهَا ، وَجَمَعُوا شَتَائِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ شَعَاعًا هَمَلًا ، وَحَصَرُوهَا فِي سَبِيلِ ضَبَقَةٍ
لَا قَبِيلَ لَهَا بَعْدَئِهَا ، ثُمَّ انْقَلَبُوا مَقَالِيدَهَا إِلَى الْأُمَّةِ فَكَانَ مِنْ تَصْرِيفِهَا فِي مَرَافِقِ
الْإِنْسَانِ وَمَنَافِعِهِ مَا تَرَى مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَسِعَةِ إِمْكَانِ
عَقْلِ الْمَخْلُوقِ : رَعْدَةٌ تُحِيلُ الْمَاءَ هَوَاءً ! وَتَقْلِبُ اللَّيْلَ نَهَارًا ! وَبَنِيضُ أَقْرَبُ مِنْ
لَمْعِ الْبَصَرِ ، يَصِيرُ تَارَةً مُنَاجَاةً كِتَابِيَّةً بَيْنَ مُطَوِّحِينَ فِي مَطَارِجِ الْغُرَبِ ، تُسْتَنْجَزُ
بِهَا الْأُمُورُ وَتُقْضَى بِهَا الْمَارِبُ ! وَطَوْرًا يَكُونُ مُحَاطَبَةً شَفَوِيَّةً تُمَيِّزُ فِيهَا أَصْوَاتُ
الْمُتَخَاطِبِينَ عَلَى مَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا مِنْ بُعْدِ الشُّقَّةِ ! وَكَوَرَةً يَدْفَعُ جَارِيَاتُ تَطِيرُ طَيْرَانًا
عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ مُقَلَّةً مَا شَاءَتْ أَنْ تُهْلَ مِنَ النَّاسِ وَالْمَتَاعِ ! وَمَرَّةٌ يُزَيِّجُ فِي جَوْ
السَّمَاءِ طَيَّارَاتٍ تُسَمُّوْنَ فِي عُلُوهَا عَلَى السَّحَابِ ، وَتَسْخَرُ سُرْعَةَ طَيْرَانِهَا بِالْعُقَابِ ،
سَقَطَ بِهَا عَتَبَارُ الزَّمَانِ وَزَالَ الْإِكْتِرَاطُ يَتَرَايِ الْبُلْدَانِ .

وَلَوْ رُحْتُ أَعْدُدُ لَكَ آثَارَ التَّرِيَّةِ الْمُثَلِّ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ فِي الْأُمَمِ الرَّافِعَةِ لَاحْتَجْتُ
فِي تَفْصِيلِ ذَلِكَ إِلَى مُجَلَّدَاتٍ فَاجْعَرِي عَنْهُ بِمَا لَمَحْتُ إِلَيْهِ تَلْهِيمًا .

وَأَمَّةٌ أُخْرَى لَمْ تَبْلُغْهَا دَعْوَةُ الْعِلْمِ وَلَا رَأَتْ آثَارَ التَّرِيَّةِ فِي غَيْرِهَا ، فَلَازِمَتْ
حَالَتُهَا الْفِطْرِيَّةُ ، وَمَعِيشَتُهَا الْوَحْشِيَّةُ ، فَكَانَتْ ذَلِكَ مَدْعَاةً إِلَى وُقُوفٍ مُوَالِفٍ

فِي أَبْنَائِهَا ، وَأَنْعَمَاءَ مَا فِيهِمْ مِنْ ضُرُوبِ الْإِسْتِعْدَادِ ، وَكَانَ مَصِيرُهَا خُسْرَانٌ وَجُودُهَا
الَّذَانِي وَفَنَاعَا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ الْحَيَّةِ .

وَأَمَّةٌ ثَالِثَةٌ خُلِقَتْ مُسْتَعِدَّةً لِلرُّقَى ، وَسَارَتْ فِي سَبِيلِهِ شَوْطًا بَعِيدًا ، بِمَا نَشَأَتْ
عَلَيْهِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ ، وَارْتَضَتْ بِهِ مِنْ أُصُولِ التَّرِيصِ الدِّيْنِيَّةِ الصَّحِيحَةِ ، فَتَلَّتْ
فِي الزَّمَنِ الْيَسِيرِ مِنَ الْبِرَّةِ وَالْمَجْدِ وَبَسْطَةِ السُّلْطَانِ مَا لَمْ يَنْتَلِهُ غَيْرُهَا مِنَ الْأُمَمِ
فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ .

رَبَّاهَا مُرْسِلُهَا الْأَكْبَرُ يَسِيرَتِهِ السَّنِيَّةِ عَلَى حُبِّ الْعَدْلِ ، وَالْإِبْقَاءِ بِالْمُؤَدِّ
وِإِتْفَاقِ الْأَمْوَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ ، وَالتَّائِي فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ ، وَالتَّرَفُّعِ عَنْ سَفْسَافِ^(١)
الْأُمُورِ ، وَأَوْجَبَ طَلَبَ الْعِلْمِ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ عَلَى أَقْرَادِهَا نِسَاءً وَرِجَالًا غَيْرَ
مُخَصَّصٍ عِلْمًا بَعِيْنَهُ ، فَتَنَعَ فِيهَا رِجَالٌ لَمْ تَسْمَعْ الْأَيَّامُ يُنْظَرُائِهِمْ وَلَنْ تَلِدَ الْوَالِدَاتُ
أَمْثَلَهُمْ — مِنْهُمْ مَنْ مَاسُوا الرِّعْيَةَ أَفْضَلَ سِيَاسِيَةً لَمْ يَمَهِّدْهَا التَّارِيخُ فِي غَيْرِهِمْ مِنَ
السُّوَايسِ ، حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا مِنْ مَلَادِّ الْعَيْشِ ، وَصَبَرُوا عَلَى مَصْلَحَةِ النَّاسِ ،
وَحَاسَبُوا عَلَى الْقِيَامِ بِهَا أَشَدَّ مُحَاسَبَةٍ — وَمِنْهُمْ مَنْ قَادُوا الْجَبُوشَ وَفَتَحُوا الْإِلَادَ
وَدَوَّخُوا أَكْبَرِ دَوْلِ الْأَرْضِ لِمَهْدِهِمْ ، مَعَ تَمَامِ الْعَدْلِ فِي مُعَامَلَةِ الْمَغْلُوبِينَ ، وَبَذَلِ
الْأَمَانِ لِلْمُسْتَأْمِنِينَ — وَمِنْهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالْحُكَمَاءُ الَّذِينَ صَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ فِي طَلَبِ
الْحَقَائِقِ ، فَلَمْ يَدْعُوا أَبَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ إِلَّا دَخَلُوهُ ، عَلَى مَا كَانُوا يُلَاقُونَهُ فِي ذَلِكَ
مِنْ صُعُوبَةِ التَّحْقِيقِ ، لِنُدْرَةِ الْكُتُبِ وَتَبَاعُدِ مَعَاهِدِ التَّعْلِيمِ ، يَشْهَدُ لَهُمْ بِذَلِكَ

مَا خَلَقُوهُ مِنْ آتَارِهِمْ الَّتِي تَرَدَّانُ بِهَا دُورَ الْكُتُبِ فِي مُعْظِمِ الْبُلْدَانِ — وَمِنْهُمْ مَهْرَةُ الصَّنَاعِ الَّذِينَ أَقَامُوا مِنْ مَعَالِمِ الْحَضَارَةِ مَا يَحْكُمُ لَهُمْ بِالْتَبَرِيزِ^(١) عَلَى مَنَاسِبِهِمْ، وَيُوجِبُ لِإِخْوَانِهِمْ حَقَّ الْمُنَافَعَةِ بِهِمْ .

وَأَسْفَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ! أَسْفَى يَبْخَعُ النَّفْسَ أَسَى ، وَيُذِيبُ الْقَلْبَ حَسْرَةً ، مَا لَبِثَتْ أَنْ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، وَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ رَبِّهَا ، فَوَجَدَ عَلَيْهَا الزَّمَانُ ، وَاتَّابَتْهَا^(٢) نَوَائِبُ الْخِذْلَانِ ، طَالَ عَلَيْهَا أَمَدُ هِدَايَةِ الدِّينِ ، وَبَعْدَ عَنَّا عَهْدُ الْمُرْشِدِينَ ، فَكَسَتِ الْقُلُوبُ ، وَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ ، وَاسْتَحْكَمَتْ عَلَةُ التَّرَفِ مِنَ النُّفُوسِ ، فَلَمَكَمَهَا الطَّمَعُ ، وَتَوَلَّاهَا الْحَسَدُ ، وَمُنِيتَ بِالْحُكْمِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، وَالْأَمْرَاءِ الْغَائِبِينَ ، فَزَقُوا وَحَلَّتْهَا ، وَمَلَكُوا عَلَيْهَا أَمْرَهَا ، وَصَرَفُوهَا فِيمَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَامْتَحَلَتْ حُرِّيَّتَهَا رِقًا ، وَأَقْلَبَ عِزَّهَا ذُلًّا ، وَعَدَلَهَا ظُلْمًا ، وَأَنَسَهَا بِالْعِلْمِ وَحِشَةً .

لَمْ يَنْبِ سَوْءُ حَالِهَا عَمَّنْ يُجَاوِرُونَهَا مِنَ الْأَمَمِ الْقَوِيَّةِ ، بَلْ كَانُوا يُرَاقِبُونَهَا مُرَاقَبَةً الصَّائِدِ الَّذِي يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَ لَصَيْدِهِ ، وَمَا عَتَمُوا^(٣) أَنْ نَاصِبُوهَا الْعَدَاوَةَ وَكَادُوا لَهَا الْمَكَايِدَ ، فَوَقَعَ مُعْظَمُ بِلَادِهَا فِي قَبْضَتِهِمْ ، وَتَغَلَّقُوا فِي أَحْشَانِهَا ، وَأَصْبَحُوا لَهَا حُكَّامًا يُدِيرُونَ شُؤْنَهَا عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ مَصَالِحُ بِلَادِهِمْ ، وَفَحَّوْا عَلَيْهَا أَبْوَابَ مِنَ التَّرَفِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ أَلْهَتَهَا عَنِ الشُّعُورِ بِأَلَمِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَصَرَفَتْهَا عَنِ النَّظَرِ فِي مَصَالِحِهَا الْقَوْمِيَّةِ .

(١) التبريز : التفوق والسبق . (٢) يبخع : يهلك . (٣) عتَموا : وجد عليها : غضب .
(٤) اتتابتها : أعابها مرة بعد أخرى . (٥) الخذلان بكسر الخاء وسكون الدال وفتح ضمهما : جحشا : نوائب الدهر ومصائبه . (٦) ما عتَموا : ما تأخروا .

لَمْ يَصِبْهَا كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ مَدَمٍ عَافَظَهَا عَلَى حُرِّيَّتِهَا ، بِإِغْفَالِهَا التَّرْيِيسَةَ
الصَّحِيحَةَ وَهَجْرَهَا الْعِلْمَ النَّافِعَ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ شَأْنُ التَّرْيِيسَةِ فِي رَفْعِ الْأُمَمِ وَخَفِضِهَا ، كَانَ حَقًّا عَلَى الْعُقَلَاءِ
مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ أَنْ يَتَوَاسَّوْا بِهَا وَيَتَفَكَّرُوا فِي الْوُصُولِ إِلَيْهَا مِنْ أَقْوَمِ طُرُقِهَا ، وَيَسِينُوا أَصُولَهَا ،
وَيَدُونُوا فِيهَا الْكُتُبَ النَّافِصَةَ وَيَحْتَوُوا قَوْمَهُمْ عَلَى الْأَخْذِ بِمَا فِيهَا ، وَقَدْ نَجَّحَ مِنْ
عَهْدِهِ هَذَا الْحَقُّ عَلَاءُ الْأُمَمِ الْحَيَّةِ فِي أَوْرُبَةِ وَأَمْرِيكَةِ ، قَوْضَعُوا مِنْ قَوَاعِدِهَا
مَا ظَهَرَ آثارُهَا فِي أَقْوَامِهِمْ ، وَأَكْسَبَتْهُمْ حُسْنَ الذِّكْرِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَعَقَلَ عَنْ
ذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمَمِ ، الَّتِي تَتَنَازَعُهَا الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ لِغَلَبَةِ الْقُنُوطِ عَلَيْهِمْ ،
فَلَمْ يَوْجَدْ لَدَيْهَا مِنَ الْكُتُبِ الْحَدِيثَةِ فِي مَوْضُوعِ التَّرْيِيسَةِ إِلَّا بَعْضُ رَسَائِلَ لَا غَنَاءَ
بِهَا فِيهِ .

كَانَ الْأُسْتَاذُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُ طَيْبٍ اللَّهُ تَرَاهُ بِرَأْيِهِ قَوْمُهُ غُيُورًا عَلَى حَيَاتِهِمْ ،
حَرِيصًا عَلَى إِحْيَائِهِمْ مِنْ سُبَاتِ الْجَهْلِ ، وَإِنْهَاضِهِمْ مِنْ حَضِيضِ الذُّلِّ ، فَكَانَ
دَائِمَ التَّصَفُّحِ لِمَا كَتَبَهُ الْأَوْرَبِيُّونَ وَالْأَمْرِيكِيُّونَ فِي التَّرْيِيسَةِ وَالْحِكْمَةِ ، وَكَانَ مِنْ
كَثَرَةِ اهْتِمَائِهِ بِالتَّرْيِيسَةِ أَنْ تَرَجِّمَ فِيهَا كِتَابًا مُقِيمًا لِلْحَكِيمِ الْإِنْجِلِيزِيِّ "هَرِبَرْتِ سِينْسِر" .
غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَسَّعَ وَقْتُهِ لِتَصْحِيحِهِ وَتَهْدِيدِ تَرْجُمَتِهِ وَشِرْهِهَ فَبَقِيَ كَمَا هُوَ ، وَقَدْ وَقَعَ لَهُ
كِتَابٌ آخَرُ فِيهَا عَظِيمُ النِّفْعِ لِمُؤَلِّفِ فَرَنْسِيٍّ اسْمُهُ (الْفُونْسُ أَسْكِيُوسُ) فَأَعْجَبَ
بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعَانِي الشَّائِعَةِ . فَعَهِدَ إِلَى تَرْجُمَتِهِ وَشِرْهِهَ
فِي جَمَلَةِ الْمَنَارِ الْمُقِيمَةِ ، فَوَقَّعْتُ لِلْإِجَاءِ بِهِمْ مُسَاعَدَةً لَهُ عَلَى مَا كَانَ سَبِيلَهُ مِنْ

خُدْمَةِ الْمَصْلَمَةِ الْعَامَّةِ ، وَفِيهَا بِبَعْضِ الْمَفْرُوضِ عَلَى مِنْهَا ، فَالْكِتَابُ إِذَا أَثَرُ
مِنْ آثارِ سَعْيِهِ فِي تَرْقِيَةِ بِلَادِهِ ، وَيَدُّ مِنْ أَيْدِيهِ الْكَثِيرَةِ صَدَقَ قَوْمِهِ الَّتِي شَكَرَهَا لَهُ
مِنْهُمْ الشَّاكِرُونَ ، وَعَرَفَ لَهُ بِهَا فَضْلُهُ الْعَارِفُونَ ، أَجَزَلُ اللَّهُ لَهُ الْمَثُوبَةُ عَلَى حُسْنِ
مَقَاصِدِهِ وَغَمَرَهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَى مُجَاهَدَتِهِ فِي إِعْلَاءِ شَأْنِ أُمَّتِهِ .

هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أَتَقَدَّمُ بِتَرْجُمَتِهِ لِقُرَاءِ التَّرِييَةِ يَرَى مُؤَلِّفُهُ إِلَى غَايَةِ وَاحِدَةٍ
هِيَ إِنْشَاءُ الطِّفْلِ حُرًّا مُسْتَقِلًّا تَصْدُرُ أَعْمَالُهُ وَأَرَاؤُهُ عَنْ اخْتِيَارٍ وَعِلْمٍ لَا عَنِ اضْطِرَارٍ
وَتَقْلِيدٍ . وَمِنْ أَصُولِهِ فِي التَّرِييَةِ أَنْ لَا يُخَشَّرَ إِلَيْهِ قَوَاعِدُ الْعِلْمِ حَشْرًا وَبُرْغَمَ عَلَى
حِفْظِهَا ، بَلْ يُعْمَلُ لَهُ الدَّرْسُ مِنْ وَسَائِلِ التَّسْلِيَةِ ، بَأَن يُجَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ مِنْ
الْأَشْيَاءِ وَالْحَوَادِثِ وَيُفَتَّ ذَهَنُهُ إِلَيْهَا لِيَتَرَعَّ مِنْهَا بِنَفْسِهِ مَا يُؤَدِّيهِ مُرَاقِبَتُهَا إِلَيْهِ
مِنَ الْعُلُومِ .

تَمَكَّنَ هَذَا الْأَصْلُ مِنْ نَفْسِ الْمُؤَلِّفِ تَمَكُّنًا حَمَلَهُ عَلَى أَنْ يَبْعُدَ فِي تَأْلِيفِهِ
عَنْ أَسَالِيِبِ الْكُتُبِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْمَمْهُودَةِ : وَضَعَهُ عَلَى أَسْلُوبٍ يَقْرُبُ مِنْ أَسْلُوبِ
الْقِصَصِ لِيَكُونَ أَشْبَهَ لِلنُّفُوسِ ، وَأَتَى لِلْمَلَلِ عَنِ الْقُلُوبِ ، تَحْيَلُ زَوْجَيْنِ سَمَى
أَحَدَهُمَا إِرَاسَمَ وَالثَّانِي هَيْلَانَ ، مُنِياً بِالْفِرَاقِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمَا بِالْإِقْتِرَافِ ،
لِاتِّهَامِ الزَّوْجِ بِحَرِيمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ يُحِبُّ مِنْ أَجْلِهَا ، وَلَمْ يَلْبَثَا بَعْدَ اقْتِرَافِهِمَا أَنْ أَحْسَبَتِ
الزَّوْجَةُ بِالْحَمَلِ بَحْرَتَ بَيْنَهُمَا رَسَائِلَ فِي مَوْضُوعَاتٍ شَتَّى أُدِجَتَ فِيهَا أَصُولُ التَّرِييَةِ
الصَّحِيحَةِ إِدْمَاجًا . وَسَعَتْ لِلزَّوْجِ أَشْيَاءٌ يَجْنِيهِ سَوَائِحُ أَفْكَارٍ ، وَصَرَّتْ بَيْنَهُ
شَوَارِدُ خَوَاطِرٍ ، كَأَن يُقَيِّدَهَا فِي جَرِيدَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ ، فَاجْتَمَعَ لِلْمُؤَلِّفِ مِنَ الرِّسَالِ

وَالصُّحُفِ وَالشُّدَرَاتِ الْمُقَطَّعَةِ مِنْ جَرِيدَةِ الزَّوْجِ هَذَا السَّفَرِ الَّذِي وَسَّمَهُ (بَابِلَ)
الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ) وَقَسَمَهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ سَمَى كُلًّا مِنْهَا كِتَابًا ، أَوَّلُهَا فِي الْأُمِّ وَثَانِيهَا
فِي الطِّفْلِ وَثَالِثُهَا فِي الْيَافِعِ وَرَابِعُهَا فِي الشَّابِّ .

فَأَمَّا كِتَابُ الْأُمِّ فَمَسَائِلُهُ هِيَ : — مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مُرَاعَاتُهُ فِي طَوْرِ الْحَمْلِ مِنْ
النَّيَاطَةِ بِصِحَّتِهَا وَتَوْفِيرِ عَافِيَتِهَا ، وَمُلَازِمَةِ السَّكِينَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مَا يُثِيرُ
انْفِعَالَاتِهَا ، وَتَرْبُوحِ نَفْسِهَا بِالنَّظَرِ الْبَدِيعَةِ وَالْمَشَاهِدِ الرَّائِعَةِ ، وَبَيَانُ أَنَّ التَّرْبِيَةَ
الْأُولَى مِنْ شُؤْنِ الْأُمِّ خَاصَّةً — وَمَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنَ الْعِلْمِ بِتَدْيِيرِ صِحَّةِ الْمَوْلُودِ بَعْدَ
الْوَضْعِ ، وَإِرْضَاعِهِ بِنَفْسِهَا ، وَتَعْوِيدِهِ مِنْ نُعُومَةِ اخْطَارِهِ الْإِسْتِقْلَالِ فِي حَرَكَاتِهِ
وَسَكَاتِهِ — وَوَصْفُ مَا لِلنِّسَاءِ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى الْفَرَنْسِيَّاتِ فِي ذَلِكَ —
وَأَتَقَادُ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ الْأُولَى فِي فَرَنْسَةِ ، وَأَتَقَادُ اخْلَاقَ الْإِنْجِلِيزِ وَخُصُوعَهُمْ
لِتَقَالِيدِ أَسْلَافِهِمْ .

وَأَمَّا كِتَابُ الْوَلَدِ فَمَسَائِلُهُ هِيَ : — تَعْرِيفُ التَّرْبِيَةِ وَبَيَانُ الصُّعُوبَةِ فِي تَحْدِيدِ
زَمْنِ بَدَايَتِهَا وَنِهَائَتِهَا ، وَبَيَانُ عَمَلِ الْأُمِّ فِي الشُّهُورِ الْأُولَى مِنْ حَيَاةِ الطِّفْلِ ، وَأَتَقَادُ
مَا يَفْعَلُهُ الْأُمَمَاتُ بِأَطْفَالِهِنَّ فِي هَذِهِ السَّنِّ ، وَبَيَانُ أَنَّ أَوَّلَ عُلُومِ الطِّفْلِ تَأْتِيهِ مِنْ
طَرِيقِ الْحَوَاسِّ ، وَطَرِيقَةَ تَرْبِيَةِ الْحَوَاسِّ ، وَتَأْيِيدُ الْمَدَنِيَّةِ فِي قُوَى الْحَوَاسِّ ،
وَعَمَلُ الْأُمِّ فِي تَحْمِيلِهَا ، وَوُجُوبُ تَعْرِفِ طِبَاعِ الطِّفْلِ ، وَبَيَانُ إِهْمَالِ الْمُتَرَبِّينَ
لِهَذَا الْوَاجِبِ وَمَا يُلْزَمُ اتِّبَاعُهُ فِي سِيَاسَةِ الطِّفْلِ ، وَوُجُوبُ لَفْتِهِ إِلَى الْمَحْسُومَاتِ ،
وَتَدْرِيسِهِ عَلَى وَقَايَةِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَبَيَانُ خَطَا الْوَالِدَيْنِ فِي حَرِيصَتِهِمَا عَلَى إِنْسَاءِ

أَوْلَادِهِمَا عَلَى مَنَاحِمَا فِي الطَّبَاعِ وَالْأَنْوَاقِ ، وَكَوْنِ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي نُدْرَةِ الرِّجَالِ الْمُسْتَقِلِّينَ اسْتِقْلَالًا حَقِيقِيًّا ، وَبَيَانُ مَا هِيَ الطَّبِيعُ . وَهَلِ الْإِرَادَةُ خَلْقِيَّةٌ أَوْ كَوْنِيَّةٌ .

وَبَيَانُ أَنَّ مَا يُبْدِيهِ الطِّفْلُ فِي حَالِ غَضَبِهِ أَوْ تَأَلُّمِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ وَالْحَرَكَاتِ لَا زِمَةَ لَشَفَاءِ مَا بِهِ ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ فِي حَمْلِهِ عَلَى الْكَفِّ عَنْهَا أَخْذُهُ بِالتَّسْلِيَةِ وَالتَّنْهِيَةِ لَا بِالتَّبْسِطِ وَالْقَهْرِ ، وَوُجُوبُ مُقَاوَمَةِ التَّرْبِيَةِ لِأَهْوَاءِ الطِّفْلِ الْفَاسِدَةِ وَذَلِكَ بِطَرِيقَتَيْنِ أَحَدُهُمَا إِسْأَلُهُ عَنْهَا ، وَالثَّانِيَةُ جَعْلُهُ بِمَعَزِلٍ عَنِ الْبَوَائِحِ الْمُثِيرَةِ لَهَا ، وَضُرُورَةُ اسْتِمَالِ السُّلْطَةِ فِي سِيَاسَةِ الْأَطْفَالِ ، وَوُجُوبُ التَّعْجِيلِ بِالْكَفِّ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا مَتَى تَبَسَّرَ ذَلِكَ .

وَبَيَانُ ضَرَرِ قَهْرِ الطِّفْلِ عَلَى الْإِمْتِنَالِ ، وَوُجُوبُ اجْتِنَابِ تَخْوِيفِهِ بِالْعُقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْحَقُوضِ مَعَهُ فِي الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ ، وَوُجُوبُ تَرْكِهَا لَهُ لِيَنْظُرَ فِيهَا مَتَى كَبُرَ يَفْكُهُ خَالٍ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ ، وَبَيَانُ عَدَمِ الْفَائِدَةِ فِي أَصُولِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ لِلأَطْفَالِ ، وَقِلَّةُ جَدْوَى الْقُدُورِ ، وَمُطَالَعَةُ قِصَصِ الْحَيَوَانَاتِ لَهُمْ ، وَضُرُورَةُ اسْتِقْلَالِ طَبِيعِ الطِّفْلِ ، وَتَعَلُّمِهِ سِيرَ الْحَيَوَانَاتِ بِنَفْسِهِ .

وَبَيَانُ الطَّرِيقِ إِلَى تَرْبِيَةِ الْمَشَاعِرِ الْبَاطِنَةِ ، وَبَيَانُ أَنَّ فِي التَّبْكِيرِ بِالْإِفْهَاءِ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ عَلَى الْأَطْفَالِ حِطًّا مِنْ كَرَامَتِهَا ، وَكَيْفِيَّةَ تَفَاهِيمِ الْأُمِّ مَعَ ابْنِهَا بِالْأَصْوَاتِ ، وَرُبَّمَا كَانَتْ الْأَصْوَاتُ أَصْلَ اللُّغَاتِ ، وَوُجُوبُ اسْتِعْدَادِ الْأُمِّ لِلتَّرْبِيَةِ بِالتَّعْلِيمِ ، وَتَفَكُّرُ الْأَطْفَالِ ، وَأَصْلُ اللُّغَاتِ وَتَعْلِيمُهَا لَهُمْ ، وَسُوءُ طَرِيقَةِ الْمُؤَرِّثِينَ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ التَّفَكُّرَ مَا يَتَعَلَّمُهُ الطِّفْلُ ، وَخَطَأُ الْمُؤَرِّثِينَ فِي عِنَايَتِهِمْ

بِالْإِلْطَافِ دُونَ الْمَعَانِي ، وَتَعْوِيدُ الْأَطْفَالِ النَّظَرَ وَالْمَلَاَحَظَةَ لِيَتَمَرَّنُوا عَلَى التَّفَكُّرِ ،
وَيَبَيَّنَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّبِيَّانِيَّةَ لَيْسَتْ بِاطْلَةٍ رِيْمَتِيَا بَلْ مِنْهَا مَا يَكُونُ مُفِيدَا ، وَأَنْتُسُ
الطِّفْلِ بِالْحَيَوَانَاتِ وَأَنْتُسَا بِهِ ، وَتَعْلِيلُ اقْطَاعِ تَانِسِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَوَحَّشَةِ زَوَالِ
سَدَاجَةِ الْإِنْسَانِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَدْعُوهَا إِلَى الثَّغَةِ بِهِ ، وَتَأْثِيرُ الْجَمَالِ
فِي الْأَطْفَالِ ، وَاحْتِيَاجُهُمْ إِلَى كَثَرَةِ التَّعْلِيمِ ، وَتَعْلِيمُهُمُ الصَّدَقَ وَالْمُوَاسَاةَ وَالرَّحْمَةَ
بِالْحَيَوَانِ وَالْعَدْلَ فِي الْمَعَامَلَةِ وَاحْتِرَامَ الزَّمَنِ بِالْعَمَلِ وَالْمُمَارَسَةِ دُونَ الْحِفْظِ وَالتَّلَقِّيِ ،
وَوُجُوبُ اعْتِرَافِ الْمُرَبِّيِّ لِلطِّفْلِ بِمُجْهَلِ مَا يَجْهَلُهُ ، وَانْتِقَادُ الْمُرَبِّينَ فِي دَعْوَاهُمْ الْعِلْمَ
بِكُلِّ شَيْءٍ أَمَامَ الْأَطْفَالِ ، وَانْتِقَادُ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ ، وَأَنَّ مِنْ شُرُوطِ
التَّرْبِيَةِ أَنَّ يَلْسَى الْمُرَبِّيُّ مَا تَعْلَمُهُ لِيَسْتَأْنِفَ تَعْلُمَهُ مَعَ الطِّفْلِ ، وَوُجُوبُ التَّدْرِجِ
فِي تَعْلِيمِ الْعُلُومِ لِلأَطْفَالِ يَلْفِتْ أَذْهَانَهُمْ إِلَى مَا حَوْلَهُمْ ، وَانْتِقَادُ الْكُتُبِ التَّعْلِيمِيَّةِ ،
وَفَوَائِدُ التَّصْوِيرِ وَالْمَعَارِضِ فِي التَّرْبِيَةِ ، وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِالْقَانُونِ السَّحَرِيِّ
وَالْتَّمِثِ وَالْمَعَارِضِ ، وَتَعْلِيمُ الْأَطْفَالِ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ وَمَعْرِفَةُ جِهَاتِهَا
بِالْعَمَلِ ، وَتَعْلِيمُهُمُ الصَّنَاعَةَ بِمَا يُسْتَرَى لَهُمْ مِنَ اللَّعِبِ ، وَتَرْبِيَةُ خَيَالِ
الصَّغِيرِ بِالْقِصَصِ وَالْأَسَاطِيرِ ، وَتَعْلُمُ الْقِرَاءَةِ وَالْخَطِّ وَالرَّيْمِ وَالتَّدْرِجِ الْفِطْرِيِّ
فِي تَعْلِيمِهَا ، وَأَنَّ الصَّحَّةَ فِي تَغْيِيرِ الْمَوَاءِ ، وَتَرْبِيَةُ الْخَيَالِ وَالذَّاكِرَةِ بِمَحَاسِنِ
الْغُبَرَاءِ ، وَتَعْلِيمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ بِتَمَثِيلِ الْقَانُونِ السَّحَرِيِّ ، وَتَرْبِيَةُ تَفَاهُمِ الْأَطْفَالِ
بِالْيَسِيرِ مِنَ الْكَلِمِ ، وَتَعْلِيمُ السَّبَاحَةِ وَتَرْبِيَةُ الْمُضَلَّاتِ .

وَأَمَّا كِتَابُ الْيَافِيعِ فَسَائِلُهُ هِيَ : — حُبُّ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ وَالْوَطَنِ ، وَتَعْلِيمُ
الْمُسَمِّيَّاتِ قَبْلَ الْأَسْمَاءِ ، وَتَرْبِيَةُ الذُّكُورِ مَعَ الْإِنَاثِ وَتَعْلِيمُهُمَا مَعًا ، وَالتَّعْلِيمُ بِضَرْبِ

الأمثال، والكلام على الخط الديواني، وتدريب المتعلمين على الأعمال المادية الشاقة، وما يجب أن تكون عليه التربية، وأثارها إذا كانت كما يجب، وبجلى العلم في العمل، وانتقاد تعليم الياfeين اليونانية والأينية وإفرائهم كتبهما، والكلام على التقليد والذاكرة، والمؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها، وكون السفير من أركان التربية، والتربية برؤوب البحر وما يتعلم في السفينة، ونبجاة النساء المحمود، والتربية بالمعانية، وفوائد الشدائد، وكون بذل النفس للمحبوب أول الحب، وجوب الموازنة بين القوى والأعمال، والتربية بضروب التأثير الطبيعي.



وأما كتاب الشاب فمائله هي: — انتقاد حال الطلبة في المانية، وبيان حال العلم فيها، وجوب قد الطالب ما يقرؤه من أفكار غيره؛ وجوب القصدي في الإشتغال بعلوم المعقولات، وأن نفع الأمة يحصل بالقيام بالواجب على قدر الطاقة، وجوب اختيار الطالب للعمل الذي يستغل به في حياته، وأن لا حرية لأمة يتكالب شبابها على تولي أعمال الحكومة، وأن الرأي العام لا قيمة له إلا إذا كانت الحكومة شورية، وجوب أن تكون خدمة المرء لأمنه لا لجزاء، والكلام في الحب وابتدائه وغرور الشبان بالمعشوقات، وجوب عدم تدخّل الوالدين مع أولاديهما في شؤون الحب، وترك الفصل في تمحيص صحيجه من فاسده للتجربة، والكلام على المدرسة الجامعة في المانية، والإستقلال في العلم، وحيكة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية، وجوب الاعتماد على البراهين العقلية

دُونَ انْخِطَابِيَّةٍ، وَحُبِّ الْوَطَنِ، وَوُجُوبُ أَنْ يَكُونَ لِلشَّابِّ الْمُتَعَلِّمِ وَائِي فِي سِيَاسَةِ
يَلَدِيهِ، وَأَنْ تَرْبِيَةَ الرِّجَالِ الْأَحْرَارِ تُجَنَّبَتْ بِهَا جَرَائِمُ الشُّرُورِ الْمُحْزِنَةِ لِلْأُمَّةِ .

هَذِهِ هِيَ أَقْسَامُ الْكِتَابِ وَمَقَاصِدُهُ وَأَمَهَاتُ مَسَائِلِهِ أَجْمَلَتْهَا لِلْقَارِي إِبْحَالًا حَتَّى
إِذَا قَرَأَهَا حَرَّكَ الشَّوْقُ إِلَى اسْتِشْفَائِهَا فِي مَوَاضِعِهَا مِنْهُ فَحَصَلَ الْفَائِدَةُ الْمَقْصُودَةُ
لِلْمُؤَلِّفِ وَمُتَرَجِّمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

لَمْ يَنْ الْمُؤَلِّفُ بِتَلْقِيبِ مَبَاحِثِ كِتَابِهِ فَاضْطُرِرْتُ إِلَى أَنْ أَضَعَّ لَهَا أَلْقَابًا
اسْتَبْطَئْتُهَا مِنْ سِيَاقِ كُلِّ مَبْحَثٍ وَشَارَكَنِي فِي وَضْعِهَا الْأَسَاتِذُ الْفَاضِلُ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ
رَشِيدٌ رِضَا صَاحِبُ مَجَلَّةِ النِّمَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ عِنْدَ نَشْرِ الْكِتَابِ فِي مَجَلَّتِهِ كَمَا أَنَّهُ حَفِظَهُ
اللَّهُ كَانَ يُصَحِّحُ مَا كَانَ يَعْثُرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَغْلَاطِ وَأَنَا شَاكِرٌ لَهُ هَذَا الصَّبْرِ .

حَرَضْتُ كُلَّ الْخَرِيسِ عَلَى عَدَمِ التَّصَرُّفِ فِي التَّرْجِمَةِ وَقُوفًا بِهَا عِنْدَ حَدِّ الْمَعَانِي
الَّتِي قَصَدَ الْمُؤَلِّفُ أَنْ يَعْضَهَا عَلَى قَوْمِهِ، وَتَحَاشَيْتُ أَنْ يَتَمَرَّبَ إِلَيْهَا بِالتَّوَسُّعِ مَا لَيْسَ
مَقْصُودًا لَهُ، وَهَذَا هُوَ سَبَبُ مَا يَجِدُهُ الْقَارِي فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْ عُجْمَةٍ
الْأَسْلُوبِ، وَلَمْ أَشِدَّ عَنْ هَذَا إِلَّا فِي تَغْيِيرِ لَفْظِ الطَّبِيعَةِ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ أَوِ الْفِطْرَةِ
مُرَاعَاةً لِمُرِفِ التَّخَاطُبِ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ .

لِلْمُؤَلِّفِ رَأْيٌ فِي التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ مَبْنِيٌّ عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِالْمَكَانِ الَّذِي عَاشَ
فِيهِ، وَالْقَوْمِ الَّذِينَ نَشَأَ بَيْنَهُمْ لَا حَمَلَ لِدِكْرِهَا هُنَا، فَلَا أَعِيبُهُ عَلَيْهِ وَلَا أُوَافِقُهُ فِيهِ،
وَلَا سَبِيًّا أَنْ فِي مَطَاوِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَفِي مَوْضُوعَاتٍ أُخْرَى مَقَامَرٌ يُبَيِّنُ عَنْ

سوء عقيدته، وذلك الرأي هو : أَنَّ لَا يَتَكَلَّمُ مَعَ الصَّبِيِّ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ فِي صَغَرِهِ
وَأَن يُرَبِّصَ بِهِ حَتَّى يَكْبَرَ وَيُدْرَسَ الْمَذَاهِبَ الدِّينِيَّةَ بِنَفْسِهِ، فَيَعْتَدَّ مِنْهَا مَا يَشَاءُ.
وَيَكْفِينِي هُنَا أَنَّ أَقُولُ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ مَنْ يُشَايِرُونَهُ فِي رَأْيِهِ لَا يَلْفُحُونَ سِرَّ
الشَّبَابِ حَتَّى تَخْتَوِشَهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ عَنِ النَّظَرِ فِي الدِّينِ، وَتَصْرِفُهُمْ شَهَوَاتِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ
هَذِي النَّبِيِّينَ، فَيَبْذُلُوا الدِّينَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَيَقْشُوا فِيهِمُ الْإِلْحَادَ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْهُ
مِنَ الْإِبَاحَةِ وَالْفُسَادِ، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ مَعْرُوفٌ .

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَمْثَلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ اتِّبَاعِ هَذِي الدِّينِ نَفْسِهِ
وَمِنَ الْخَطِئِ فِي الرَّأْيِ أَن يُؤْخَذَ فِيهَا بِقَوْلِ غَيْرِ الْمُتَدِينِ .

بَدَأْتُ بِتَرْجُمَةِ الْكِتَابِ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ١٣١٧ هـ .
الْمُؤَافِقِ لِلْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ أَكْثَرِ بَرَسَةِ ١٨٩٩ م وَفَرَعْتُ مِنْهَا فِي أَوَّلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ
سَنَةِ ١٣٢٤ هـ الْمُؤَافِقِ لِلثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٩٠٦ م وَمَعَذَرَتِي فِي ذَلِكَ
الْإِبْطَاءِ الْمُفْرِطِ أَنِّي إِذَا اخْتَلَسْتُ السَّاعَاتِ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي تَرْجُمَةِ اخْتِلَاسٍ مِنْ
أَوْقَاتِ فَرَاحِي مِنْ عَمَلِي الْقَضَائِيِّ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ كَثِيرَةً تَسَعُ أَضْعَافَ هَذِهِ
التَّرْجُمَةِ لَوْلَا أَنِّي كُنْتُ كَثِيرَ الضَّنِّ بِهَا عَلَى صَرَفِهَا فِيَا بِنَفْعِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ
فِي مِصْرَ .

كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ نَشْرَ الْكِتَابِ فِي الْمَنَارِ يَكْفِينِي فِي تَحْقِيقِ الْإِنْتِفَاحِ بِهِ، وَلَكِنِّي
رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْإِخْوَانِ الَّذِينَ كَانُوا يُولُونَ مُطَالَمَةَ مَا كَانَ يُنْشَرُ مِنْهُ فِيهَا شِدِيدِي

السَّيْلَ إِلَى رُفُوبِهِ مَطْبُوعًا عَلَى حِدَةٍ ، وَاتَّفَقَ لِي أَنْ زُرْتُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ الْوَزِيرَ
الْجَلِيلَ رِيَّاضَ بَاشَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمَاضِي مَعَ الْأَسَازِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ فَالْقَبْتُهُ
مُعْجَبًا بِالتَّرَجُّمَةِ أَشَدَّ الْإِعْجَابِ حَاقًا عَلَى نَشْرِهَا مَجْمُوعَةً ، فَكَانَ كُلُّ هَذَا بَاعًا لِي عَلَى
نَشْرِهِ الْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً تَعِيمًا لِفَائِدَتِهِ ، وَمُوَافَاةً لِرَغَائِبِ الْكَثِيرِينَ نَ طَالَعُهُ
مُنْجَمًا .

وَجُلٌّ مَا أَبْتَغِيهِ مِّنْ أَقْدَمِهِ إِلَيْهِمْ مِّنْ إِخْوَانِي قُرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ لَا يَكُونَ حَظِّي
عِنْدَهُمْ مِّنْ عَنَائِي فِي تَرْجُمَةِ اطَّرَاحِهِ وَإِعْظَالِهِ ، بَلْ أَرْجُو مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ بِقُوَّةِ
وَيُقِلُّوهُ عَلَى مُطَالَعَتِهِ بِتَأَمُّلٍ ، لِيُقَارِنُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ غَيْرِنَا فِي الْعِنَايَةِ بِتَرْيَةِ النَّاشِئِينَ
وَيَسْلُمُوا أَيْنَ نَحْنُ مِّنْ قَوْمٍ هَذِهِ أَفْكَارُهُمْ فِيهَا ، حَتَّى إِذَا آلَمَهُمُ النِّقْصُ الْفَاضِحُ ،
وَأَسْجَلَهُمُ التَّقْصِيرُ الْفَاحِشُ ، هَبُّوا إِلَى مُجَارَاةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الرَّاقِيَةِ ، وَفَكَّرُوا طَوِيلًا
فِي تَرْيَةِ آبَائِهِمْ وَتَحْيَئِهِمْ عَنْ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ ، لَا عَنْ تَقْلِيدِ عَجْزٍ ، أَكْمَلَ الطَّرِيقَ لِإِنْشَائِهِمْ
أَحْرَارًا جَامِعِينَ بَيْنَ مَلَكَاتِ الْعِلْمِ وَفَضَائِلِ الدِّينِ ، وَلَنْ يَتِمَّ لَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ
وَالصَّبْرِ وَدَوَامِ الْإِسْتِعْثَالِ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ بِهِ الْخَوْلُ وَالْقُوَّةُ .

المترجم
عبد العزيز محمد

مقدمة المترجم للطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله أن أطلق لسانى بحمده على غامى إحسانه ، وهدى جنانى لشكره على عواريف فضله ، وجعل حمده مدعاة لفيض رحمته ، وشكره سببا لزيادة نعمه ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة ، سيدنا محمد بن عبد الله ، خير من حرر العقول من ربكة الجهالات وطهر النفوس من لوث الآوھام . وربى الأخلاق بقويم هديه الإلهى . وهذب الطباع بإقامتها على الصراط السوى وعلى آله وصحبه أئمة المربيين . وقادة المرشدين .

أما بعد فلا شئ يعدل اللذة التى يجدها العاقل إذا وجد عمله نافعا مقبولا عند قومه . تحقق صدق هذه القضية عند نشر (كتاب التربية الإستقلالية) عقيب طبعه لأول مرة . فأتى وجدت من إقبال العلماء والأدباء عليه وتفرغهم له وتوفرهم على مطالعته وحث الناس على اقتنائه . ما ملأ قلبي سرورا وغبطة . وأنسانى ما لا يقته من العناء فى إبرازه إلى العريّة . وزادنى سرورا أن قدرته قدره نظارة المعارف الجليلة فى عهد صاحب السعادة العالم الجليل سعد باشا زغلول فقررت إقرأه فى بعض مدارسها العليا . وتفضل صاحب السعادة أحمد حشمت باشا ناظرها الحالى الشغيف بحب العلم فأقر هذا القرار ، وكان من تواريد طلب الناس لنسخ الكتاب أن نسلت جميعها ، وهذا ما دعانى مع ناشره بالطبعة الاولى إلى

إِعَادَةِ طَبْعِهِ الْآنَ، وَهَاتَمُنْ ذَانِ تَقْدُمُ لِقُرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ طَبْعَتُهُ الثَّانِيَةَ وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُدِيمَ
النَّفْعَ بِهِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ مَا

المترجم
عبد العزيز محمد



(تَنْبِيْهُ) مَنْ طَبَعَ هَذَا الْكِتَابَ غَيْرَ مُتَرَجِّمِهِ بِحَاكَمٍ وَيُمَازَ. وَمَنْ وَجِدَتْ
بِيَدِهِ نُسْخَةٌ مِنْهُ (مِنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الْأُولَى) غَيْرَ مَحْتَوَمَةٍ يُخْتَمِ الْمُرْجِمُ يُسْأَلُ عَنْهَا قَانُونًا.

مقدمة المترجم للطبعة الثالثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) فَدَلَّ
مُسَبَّحَانَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا لَهُ مِنْ أَكْمَلِ قُدْرَةٍ وَأَعْظَمِ رَحْمَةٍ وَأَبْلَغِ حِكْمَةٍ، وَأَيُّهُ قُدْرَةُ أَكْمَلِ
مِنْ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ الطِّينِ خَلْقًا سَوِيًّا مُسَبَّحًا بِحَمْدِهِ أَوْ جَاهِدًا لِقَضَائِهِ، وَأَيُّهُ رَحْمَةٌ
أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّى هَذَا الْخَلْقَ الْعَاجِزَ الضَّعِيفَ مِنْ يَدَائِهِ فِي ظُلُمَاتِ الرَّحِمِ، إِلَى
نَهَائِهِ فِي غِيَابَةِ الْعَدَمِ، يُصْنُوفُ عَطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ وَضُرُوبَ عَوَافِدِهِ وَرَبِّهِ، عَلَى قَلَّةِ
شُكْرِهِ وَتَمَادِيهِ فِي جُحُودِهِ وَخِصَامِهِ وَكُفْرِهِ، وَأَيُّهُ حِكْمَةٌ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَتَدَرَّجَ بِهِ
فِي خَلْقِهِ هَذَا التَّدْرَجَ الْحَبِيبَ، فَيَسْتَنْظِفُهُ مِنَ الطِّينِ اللَّازِبِ، وَيَجْعَلُهُ مَاءً دَافِقًا
(يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (٢) فَيَقْدِفُهُ فِي قَرَارَةِ الرَّحِمِ الْمَكِينِ، لِيَمْتَرَجَ فِيهِ
بِمَثَلِهِ، فَيُصِيرُهُ عِلْقَةً ثُمَّ يَلْبَسُ الْعِلْقَةَ مُضْغَةً، ثُمَّ يَقْلِبُ الْمُضْغَةَ عِظَامًا، ثُمَّ يَكُونُ الْعِظَامُ
لَحْمًا، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ لِيَنْمُو وَتُسَدَّ أَرْكَانُهُ، ثُمَّ يُخَلِّقُ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ،
لِيَسْمَعَ وَيُبْصِرَ وَيَعْقِلَ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ خَطَايَاهِ، وَمَا يُحِيطُ بِهِ مِنْ آيَاتِ عَظَمَتِهِ، وَجَدِّدِي
هَذِهِ الْآلَاتِ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَسْلُكَهُ لِبُلُوغِ غَايَتِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ مِنْ
خَلْقِهِ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارَ لِيَكْمُلُوا يَهْدِيهِمْ تَقْصُهَا، وَيَقُومُوا مَا أَوْجَبَ مِنْ زَيْنِهَا،
فَسَبَّحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ تَوَكَّلْتَ الْعُقُولُ فِي جَلَالِ عَظَمَتِهِ، وَتَحِيرَتْ الْأَلْبَابُ فِي اكْتِنَاهِ

(١) لازب : ما يلبس باليد لشدة . (٢) الصلب : الظهر . (٣) التراب : جمع تربة وهي ما بين التربة إلى التربة وهي حبة التربة .

أَسْرَارِ حِكْمَتِهِ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي أُرْسِلَ (شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) سَيِّدَ الْهُدَاةِ الْمُرْشِدِينَ، وَإِمَامَ الْمُتَمَرِّينَ الْمُصْلِحِينَ، الَّذِي أَخْرَجَ النَّاسَ، بِوَأَضِحِ هُدْيِهِ وَعَظِيمِ خُلُقِهِ، مِنْ عَمَرَاتِ الْجَهَالَاتِ وَمَتَاهَاتِ الضَّلَالَاتِ، إِلَى نُورِ الْعِرْقَانِ وَمَنَهِجِ الْهُدَى، وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنْ اتَّبَعَ هَدْيَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَغَيْرِهَا يَمَّا وَرَدَ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُورِهِ الْكَرِيمَةِ، وَمِنْ مُعَايِنَتِكَ وَاخْتِبَارِكَ، أَنَّ الْإِنْسَانَ، مَعَ كَوْنِهِ أَشْرَفَ مَخْلُوقٍ فِي الْأَرْضِ وَأكْبَرَ مَادَبِّ عَلَى ظَهَرِهَا، وَأَتْزَمَهُمُ بِالْهُدَى وَالسُّلُوكِ فِيهَا، وَأَحَقَّهُمْ بِعِمَارَتِهَا وَتَسْخِيرِ جَمِيعِ حَيَوَاتِهَا وَنَبَاتَاتِهَا وَمَعَادِنِهَا فِي مِرَاقِفِهِ، وَتَصْرِيفِهَا فِي مَصَالِحِهِ، قَدْ خُلِقَ ضَمِيمًا فِي جِسْمِهِ وَعَقْلِهِ، نَاقِصًا فِي إِدْرَاكِهِ وَفِطْنَتِهِ، لَا يُؤْتَى الْكَمَالُ دَفْعَةً وَلَا يَنْلُغُهُ طُفْرَةً، وَإِنَّمَا يَصِلُ إِلَيْهِ رُويْدًا بِالتَّوْبَةِ وَالتَّائِبِ، وَالتَّحْمِينِ وَالتَّهْدِيدِ، وَهَذَا الْكَمَالُ فِيهِ نِسْبِيٌّ، تَتَفَاوَتْ دَرَجَاتُهُ بِتَفَاوُتِ دَرَجَاتِ اسْتِعْدَادِهِ، فَالْكَامِلُ الْمُطْلَقُ فِيهِ وَحْدُهُ، وَهُوَ مِنْ تَشَابُهِهِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ قَدْ فُرِضَ عَلَيْهِ، بِمُخْطَلَبِ رَبِّهِ وَبِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِ، أَنْ يَسْعَى وَيَكْدَحَ لِتَقْوِيَةِ مَلَكَائِهِ، وَتَحْصِيلِ مَعْنَى الْكَمَالِ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ خُلِقَ مُسْتَعِدًّا لَهُ، وَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِغْتِيَارِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهِ، فَمَنْ قَصَرَ فِي آدَاءِ هَذَا الْفَرَضِ، وَقَنَّ مِنْ حَيَاتِهِ بِالْمَعِيشَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ فَقَدْ سَفَهَ^(١) نَفْسَهُ، وَأَتْرَكَ فِي دَرَكَاتِ الْهُوْنِ، وَرَضِيَ لَهَا بِالْهُوْنِ .

(١) سَفَهَ قَسَمَ اسْتَهْنَأ وَأَذَلَّهَا وَاسْتَهْفَى بِهَا .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا وَاجِبًا وَحَتْمًا لَا زَبَا، عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِمَ، أَنْ يَتَعَاهدَ
نَفْسَهُ بِتَرْبِيَّتِهَا، وَتَقْوِيمِ أَخْلَاقِهَا وَتَتِمِّمَةِ مَلَكَاتِهَا، وَأَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِمَنْ بَعِنَهُ أَمْرُهُمْ
مِنْ أَهْلِهِ وَأَبْنَاءِ وَطَنِهِ مَا اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَلَا يَتَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ مَا أُوتِيَ
مِنْ وَمَائِلِ الْإِدْرَاكِ، وَهِيَ حَوَاسُّهُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ، وَالْإِهْتِدَاءُ بِمَا
يُرْشِدُهُ إِلَيْهِ عَقْلُهُ مِنْ نَتَائِجِ التَّفَكُّرِ فِي مَذَلُّوَاتِهَا، وَالرُّجُوعُ إِلَى هَدْيِ النَّبِيِّنَ وَوَحْيِ
الْمُرْسَلِينَ فِيمَا يَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، لِحُرُوجِهِ عَنْ مُتَنَاوَلِهِ، ضِنًّا بِنَفْسِهِ
أَنْ يَسْتَعِيدَهَا الْهَوَى قَرَرْدَى، وَيَعْقِلَهُ أَنْ يَعْتَسِفَ فَيَشْقَى .

وَقَدْ عَنَى عُلَمَاءُ كُلِّ جِيلٍ، وَالْعُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ قَبِيلٍ، فِي جَمِيعِ الْعُصُورِ بِالْبَحْثِ
فِي أَنْجَحِ الطَّرِيقِ وَأَحْسَنِهَا لِهَيْذِيبِ النَّفُوسِ وَتَتَقِيفِ الْعُقُولِ، وَالْقَوَا فِي ذَلِكَ الْكُتُبِ
الْجَمَّةِ وَالْمُصَنِّفَاتِ النَّافِعَةِ، فَكَانَ لَهَا مِنْ الْفَوَائِدِ الْغَزِيرَةِ وَالْعَوَائِدِ الرَّابِعَةِ مَا هُوَ
كَالشَّمْسِ ظُهُورًا .

وَمِنْ أَفْضَلِ الْوَسَائِلِ الْمَوْصَلَةِ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ الشَّرِيفِ : —

(أَوَّلًا) مُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفَهْمُهُ، وَمُتَابَعَةُ سِيرَةِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ وَمَنْ قَبْلَهُ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ، وَمُطَالَعَةُ سِيرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَفْضَلَ الْمُثَلِّ لِلتَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ
الْمُطَهَّرَةِ لِلنَّفُوسِ مِنْ دَنَسِ الشَّهَوَاتِ، الْمُبْعَدَةِ لَهَا عَنْ مَذَاحِضِ الشُّبُهَاتِ .^(١)

(ثَانِيًا) النَّظَرُ فِيمَا وَضَعَهُ عُلَمَاءُ كُلِّ جِيلٍ مِنْ الْكُتُبِ الْقِيَمَةِ فِي مُخْتَلِفِ الْعُلُومِ،
خُصُوصًا عِلْمُ التَّرْبِيَةِ، وَالْإِخْدُ بِأَحْسَنِ مَا كَتَبُوا وَأَقْرَبَهُ إِلَى الدِّينِ، وَبَثُّهُ فِي النَّاسِ
لِيَرْضَوْا نَفْسَهُمْ بِهِ، وَيَقْوَمُوا أَخْلَاقَهُمْ بِأَدَبِهِ، فَتَحْمَدُ فِيهِمْ أَكَاثَرُهُ، وَيَعْمَهُمْ نَفْعُهُ .

وَقَدْ قَضَى اللَّهُ لِي ذَلِكَ الْكِتَابَ الْقَيِّمَ الْمُسَمَّى بِأَمِيلِ الْقُرُونِ التَّاسِعِ عَشَرَ
فِي التَّرْبِيَةِ وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الْكُتُبِ الَّتِي أُلْفِتْ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَأَجْلَهَا أَثَرًا وَأَعْظَمَهَا
فَائِدَةً إِشْهَادَةً بِجَمِيعِ مَنْ طَالَعُوهُ، فَمَرَّبَتْهُ بِتَسْهِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ تَعَرُّيًّا
حَمْدَهُ جَهَادَةً لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَطَبَعَتْهُ مَرَّتَيْنِ نَقَدْتُ جَمِيعَ نُسَخَيْهِمَا مِنْ زَمَنِ بَيْسِدِ،
وَحَالَتْ بَعْضُ الْحَوَائِلِ ثُبُونَ إِعَادَةِ طَبْعِهِ، رَغْمًا مِنْ الْحَاجِّ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطُلَّابِ
الْعِلْمِ وَغِيْبِي الْكُتُبِ النَّافِعَةِ عَلَى فِي ذَلِكَ .

وَلَمَّا زَالَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ هَذِهِ الْحَوَائِلُ، طَبَعْتُهُ لِمَرَّةٍ ثَالِثَةٍ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي مُقَدِّمَةِ
طَبْعَتِهِ الْأُولَى فَوَائِدَ التَّرْبِيَةِ وَأَنَارَهَا، وَمَقَاصِدَ الْكِتَابِ وَمَوْضُوعَاتِهِ بِإِسْهَابٍ،
فَلَا حَاجَةَ إِلَيَّ تَكَرُّرِهَا، وَهِيَ أَنَا ذَا أُبْرِزُهُ لِقُرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَشَوِّفِينَ إِلَيْهِ فِي حُلَّةٍ
جَدِيدَةٍ، بِالْقُتْ فِي اتِّقَانِهَا وَتَجَرُّيدِهَا مِنَ النِّقْصِ وَالْعَيْبِ جُهْدَ اسْتَطَاعَتِي، مَعَ زِيَادَةٍ
فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّوْشِيَةِ بِبَعْضِ الْهَوَامِشِ النَّافِعَةِ وَالشُّرُوحِ الْمُفِيدَةِ، رَاجِيًا مِنَ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ وَيُوفِّقَ لِلْأَخْذِ بِأَحْسَنِهِ وَهُوَ حَسْبِي وَبِهِ تَقَيُّ .

المترجم

عبد العزيز محمد



(تَسْبِيْهُ) مَنْ طَبَعَ هَذَا الْكِتَابَ غَيْرَ مُتَرْجِمِهِ يُحَازَكُ وَيُحَازَرُ . وَمَنْ وُجِدَتْ
بَيْدَةُ نُسَخَةٍ مِنْهُ (مِنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الْأُولَى) غَيْرَ مَحْتَمِلَةٍ بِخَمِّ الْمَتْرَجِمِ يُسْأَلُ عَنْهَا قَانُونًا .

مقدمة المترجم للطبعة الرابعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ عَلَى عَوْنِكَ وَتَوْفِيقِكَ، وَمَا الْحَمْدُ إِلَّا مِنْ آثَارِ فَضْلِكَ، وَأَشْكُرُكَ عَلَى مُتَوَاصِلِ إِحْسَانِكَ وَمُتَرَادِفِ بَرَكَ، وَمَا الشُّكْرُ إِلَّا مِنْ كُفَرِيَّاتٍ نَعِيمِكَ، وَأَصْلَى وَأَسْلَمَ عَلَى خَيْرِ أَنْبِيَائِكَ الَّذِي طَبَعْتَهُ عَلَى الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَرَبَّيْتَهُ عَلَى الْأَدَبِ الْكَامِلِ، سَيِّدَنَا مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، الْمَبْعُوثِ لِلنَّاسِ بِأَمِّ دِينٍ، وَأَبْلَغِ هِدَايَةٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ، أَعْلَامُ الْهُدَى وَبَنَائِجِ الْعِرْقَانِ، الَّذِينَ آتَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، مِنْ مُحْكِمِ الْقُرْآنِ، تَنْبِيْهَا لِحَقِّهِ إِلَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْمُثَلِّ فِي التَّرْبِيَةِ الْكَامِلَةِ لِمَنْ يَحْتَدِي، وَأَفْضَلُ الْأُمَى فِي الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ لِمَنْ يَقْتَدِي، وَعَلَى كُلِّ مَنْ أَقْنَى سَلَتَهُمْ، وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ .

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ سَبَقَ لِي فِي مُقَدِّمَاتِ الطَّبَعَاتِ الثَّلَاثِ الْأُولَى لِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ أَمْهَيْتُ فِي بَيَانِ وَجُوبِ التَّرْبِيَةِ، وَوُجُوهِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَمَا لِلْأُمِّ الرَّاقِبَةِ مِنْ قَرِيطِ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَمَا لَهَا مِنَ الْآثَارِ الْجَمِيلَةِ فِي تَقْوِيمِ الطَّبَاعِ، وَتَهْدِيدِ الْأَخْلَاقِ، وَذِكْرُتِ الْبَاعِثِ لِي عَلَى تَرْجُمَتِهِ وَأَجْمَلَتْ مَبَاحِثَهُ وَمَسَائِلَهُ وَشَكَّرْتُ لِقَوْمِي وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَطْلَعُوا عَلَيْهِ شِدَّةَ تَاهِيلِهِمْ بِهِ وَحُسْنَ تَلَقِّيهِمْ إِيَّاهُ فَلَا أَعُودُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَسْبِي مَا ذَكَرَ فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَبَيَانِ مَكَاتِهِ بَيْنَ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ .

وَلَا يَسَعُنِي إِلَّا أَنْ أَسْتَاقَ الشُّكْرَ لِيُوزَارَةَ الْمَعَارِفِ الْجَمِيلَةِ عَلَى حُسْنِ تَقْدِيرِهَا لِلْكِتَابِ، وَعِرْفَانِهَا لِمَا نَدَّتْهُ، وَمَزِيدِ عِنَايَتِهَا بِهِ، فَإِنَّهَا بَعْدَ أَنْ أَفْعَدْتُ مُعْظَمَ نُسْخِ

طَبَاعَتِهِ الثَّلَاثِ الْأُولَى بِتَوَازِيْعِهَا عَلَى مَدَارِسِهَا ، كَلَفْتَنِي إِعَادَةُ طَبْعِهِ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ طَبْعًا مَشْكُورًا مَضْبُوطًا مَشْرُوحًا فِيهِ الْأَلْفَاظُ النَّوَوِيَّةُ ، لِأَنَّهُ مُقَرَّرٌ لِمَدَارِسِهَا الثَّانَوِيَّةِ ، فَوَاقَيْتُ رَغْبَتَهَا وَقَفْتُ بِهَذَا الْعَمَلِ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُهْدِ ، وَزِدْتُ بَعْضَ مَسَائِلِهِ إِضَاحًا ، وَعَلَقْتُ عَلَى بَعْضِ آخَرِهَا تَعْلِيْقًا يُزِيحُ الشُّبْهَةَ ، وَيُجَيِّدُ مِنَ الْغَوَايَةِ .

وَهَا أَنَا ذَا أَقْدَمْتُ لِأَبْنَاءِ وَطَنِي الْأَمَانِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُرَاءَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ ، فِي بَرَّةٍ جَدِيدَةٍ ، يَزِيْنُهَا جَمَالُ الطَّبْعِ وَحُسْنُ الشَّكْلِ ، بِمَا وَسِعَهُ الْإِمْكَانُ وَاحْتَمَلَتْهُ الطَّاقَةُ ، رَجَاءً أَنْ يَحِلَّ لَدَيْهِمُ الْمَحَلُّ الْأَتَقُّ بِهِ ، فَيَاخُذُوهُ بِقُوَّةٍ وَيَتَفَعَّلُوا بِمَا حَوَاهُ .

وَلَا أَزَالُ أُوصِيهِمْ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَلِمَتِي الْخَتَامِيَّةُ لِلطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ وَأَرْجُو أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ جُهْدَ اسْتَطَاعَتِهِمْ لِيَسْتَوْفُوا الْحَقْلَيْنِ ، وَيَفُوزُوا بِالْحُسْنَيْنِ ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ لِي وَلَهُمْ

الرُّشْدَ وَالتَّوْفِيقَ مَا

المترجم

عبد العزيز محمد



(تَبْيِيْهُ) مَنْ طَبَعَ هَذَا الْكِتَابَ غَيْرَ مُتَرَجِّمِهِ يُحَازَكُ وَيُحَازَرُ . وَمَنْ وَجَدَتْ يَدَيْهِ نُسْخَةً مِنْهُ (مَنْ غَيْرِ طَبْعَتِهِ الْأُولَى) غَيْرَ مَحْتَمِيَّةٍ بِخِصِّ الْمُرْتَجِّمِ يُسْأَلُ عَنْهَا قَانُونًا .

كتب في أول ذي الحجة سنة ١٣٤٩ (١٩ أبريل سنة ١٩٣١)

عبد العزيز محمد

الكتاب الأول

في الأرم

الرسالة الأولى

(١) (مِنَ الدُّكْتُورِ إِيْرَامَ إِلَى زَوْجَتِهِ فِي ٣ يَنَآيِرِ سَنَةِ ١٨٥٠)

فِي وَصِفِ حَالِهِ فِي السَّجْنِ

قَدْ مَضَى عَلَى يَا عِزِّي هَيَلَانَةٌ ثَمَانِيَّةُ أَيَّامٍ طَوَالٍ عَجَزْتُ فِيهَا عَنِ الْكِتَابَةِ
إِلَيْكَ وَأَعُوذْتُ بِالْعِبَارَةِ الَّتِي أَرْضَاهَا لَوْصِفَ مَا أَعَانِيهِ مِنْ مَضِضِ الْأَلَمِ . لَيْسَ
مَا يُقَاسِيهِ الْأَسِيرُ مِنْ عَذَابِ الْأَسْرِ هُوَ الْحَرَمَانُ مِنَ الْقُدُوِّ وَالرَّوَاغِ ، وَالْعَجْزُ عَنِ
الْمَشْيِ مُطْلَقِ السَّرَاحِ ، بَلْ عَذَابُهُ الْأَكْبَرُ هُوَ ضِيقُ الصَّدْرِ وَابْتِنَاسُ النَّفْسِ . تِلْكَ
الْقَبَابُ وَالْأَمْدَةُ وَالْهَالِيزُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لَا تَتَفَكَّرُ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْمَسْجُونِ هِيَ الَّتِي
تُبِيلُ مِنْهُ الْأَفْكَارَ ، وَتُوقِعُهُ فِي الدُّوَارِ حَتَّى يَقْدِفَهُ هَذَا الْعَنَاءُ فِي مَهْوَةِ الْفَنَاءِ
وَهَذِهِ الْأَحْجَارُ أَحْجَارُ الْبِنَاءِ تَمْسُخُهُ فَتَحِيلُهُ حَجَرًا مِثْلَهَا . وَفِي أَوَّلِ عَهْدِي بِالسَّجْنِ
كُنْتُ صَنَعًا لَا أَرْجِعُ لِلنَّاسِ قَوْلًا ، وَلَا أَمْلِكُ لَهُمْ وَلَا لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَكَدْتُ
أَعْدِمُ الْحَرَكََةَ وَالْفِكْرَ بَلْ كَانَ يُحِيلُ إِلَيَّ أَنِّي قَدْ فَقَدْتُ وُجُودِي وَفَنَيْتُ عَنْ نَفْسِي ،

(١) عن عين رقم ٥ في الأصل القرني قطعة (مفر) لإيهام السِّنة والأكفء بيان أن ذلك كان في النصف الثاني للقرن وقد جعلنا بدل القطعة خطأ مرصيا — المترجم .

وَأَتَقَلَّتْ حَيَاتِي إِلَى السَّجْنِ قَفْسِهِ ، لِحَصْرِهِ إِيَّايَ فِي دَائِرَةِ مَنْ الوجود مشؤمة
صِنَاعِيَّةٍ لَا جَوْلَانَ لِلْفِكْرِ فِيهَا . وَإِنِّي أَؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ مِنْ هَذِهِ حَالِهِ يَلْزَمُهُ عَمَلٌ كَبِيرٌ
لِلرُّجُوعِ إِلَى وُجُودِهِ . وَهَذَا الْعَمَلُ قَدْ قُتُّ أَمَّا يِهِ . وَالآنَ قَدْ نَأْتَيْتُ إِلَى نَفْسِي ،
وَأَصْبَحْتُ مَالِكًا لِحَيِّ . لَا تَرْجِنَنَّ مِنِّي أَنْ أَصِفَ لَكَ ... فَإِنَّ الْمَسْجُونَ قَلَمًا يَعْرِفُ
مَا يَسْكُنُهُ مِنَ الْمَحَالِّ وَإِنِّي قَدْ تَقَلَّتُ مِنْ ... فِي غُرُوبِ الشَّمْسِ وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى
السَّجْنِ كَانَ اللَّيْلُ قَدْ ارْتَحَى سُدُولَهُ وَلَمْ يَبْقَ لِي مِنَ الضِّيَاءِ إِلَّا بَقِيَّةٌ لَا أَكَادُ أُمِيزُهَا
فِي ظُلُمَاتِ الْجَوْغَرِ الْأَشْبَاحِ السَّوْدَاءِ لِبُرُوجِ السَّجْنِ الصَّغِيرَةِ ، وَأَسْمِهِ وَأَسْتِهِ
الْحَجَرِيَّةِ ، وَكَانَ يُخِيلُ لِي أَنَّ الْبِنَاءَ قَصْرَ مَتْنٍ شَيْدٍ بِالظُّلُمَاتِ . تَزَلْنَا مِنَ الْحَارِيَّةِ
(الْعَجَلَةِ) وَصَعَدْنَا مُشَاءَةً إِلَى طَرَبِ مَدْرَجٍ مَنحَوْتٍ فِي الصَّخْرِ يُفْضِي إِلَى بَحْنِ
الْحُكُومَةِ وَكُنْتُ أَمْسِي فِي هَذَا الطَّرَبِ كَأَنِّي فِي حُلْمٍ عَلَى أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَنْظَرَ شَيْئَيْنِ
فِي هَذَا الْمَكَانِ أَوَّلُهُمَا : جَمَالُ ذَلِكَ الْبِنَاءِ الْبَاهِي وَوُقُوعُهُ مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ الْمُظْلِمِ مَوْقِعِ
التَّاجِ مِنَ الرَّأْسِ — ثَانِيَهُمَا : أَصْطَخَابُ الْبَحْرِ وَتَلَاطُمُ أَمْوَاجِهِ .

وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْقِمَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا قِطْعَةٌ مِنَ الصَّوَانِ بَرَزَتْ مِنْ صَخْرَاءٍ رَمْلِيَّةٍ —
وَرَمَلُ هَذِهِ الصَّخْرَاءِ يَمْتَدُّ إِلَى الْبَحْرِ تَعْلُوهُ الْكَابَةُ وَالْحَزْنُ وَكُنْتُ أُمِيزُ الْمُحِيطَ مِنْ
بُعْدٍ فِي ضَوْءِ الصَّفَائِحِ الْمَكَائِيَةِ الْمُضْطَرِيَّةِ وَلَيْسَ الْحَالُ كَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ،
لِأَنَّ الْمُحِيطَ فِي إِبَانِ الْمَدِّ يَغْمُرُ السَّاحِلَ وَيَعْلُو وَيَصْطَخِبُ وَيُجِدُّ بِالْجَبَلِ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ فَتَغْمُرُهُ زَحْرَةٌ أَمْوَاجِهِ الْمُتَرَاخِمَةِ .

يَصِلُ النُّورُ إِلَى عَدَدِي مِنَ السَّجْنِ - وَهُوَ مُقَابِلٌ لِلْمُحِيطِ - مِنْ كُوَّةٍ صَغِيرَةٍ
 كَتَوَى الْأَسْلَمَةَ النَّارِيَّةَ فِي الْمَعَاوِلِ أَوْ كَالَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُتَهَنِّدُونَ « بَرْبَحًا » عَلَى أَنَّهَا
 مَعَ ضَيْقِهَا مَسْرَحٌ لِلنَّظَرِ لَا نِهَآيَةَ لَهُ . وَهِيَ مِنَ الْإِرْتِفَاجِ بَحِثٌ لَا أَشَاهِدُ مِنْهَا سَطَحَ
 الْبَحْرِ إِلَّا قَائِمًا عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِغِ الرَّجُلَيْنِ فَلَمَّا جَلَسْتُ لَا يَبْقَى لِي مَا أَسْتَعِ بِهِ
 نَظْرِي إِلَّا السَّمَاءَ وَلَا بَأْسَ فِي ذَلِكَ عَلَى فَإِنَّ لِي فِي السَّمَاءِ نَاحِيَةً مِنَ التَّكُونِ أَشَاهِدُ
 فِيهَا سَاعَاتٍ كَامِلَةً طَائِفَةً مِنْ طَوَاهِرِ هَذَا الْعَالَمِ لَمْ تَكُنْ تَسْتَرِي نَظْرِي إِلَى هَذَا
 الْعَهْدِ، وَهِيَ أَلْوَانُ الضُّوئِ الْمُتَغَيِّرَةِ وَالصَّوَاغِقِ وَالْبَرْدِ وَالضَّبَابِ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ مَا لِلْأَحْدَاثِ
 الْجَوِّيَّةِ مِنَ الْجَمَالِ الْخَيَالِيِّ إِذَا بَرَزَتْ مِنْ حُجُبِ الظَّلَامِ . غَيْرِي مِنَ النَّاسِ يُحِبُّ
 أَنْ يَشَاهِدَ السَّمَاءَ فِي الْبَحْرِ حَيْثُ يَنْتَرَى السَّحَابَ فِي مِرَاتِيهِ وَأَمَّا أَنَا فَأَحْأُفُّهُمْ
 فِي ذَلِكَ لِأَنَّ الْبَحْرَ بِالنَّسْبَةِ إِلَيَّ هُوَ الَّذِي يَنْعَكِسُ عَلَى السَّمَاءِ فَأَرَاهُ فِي مِرَاتِي .

قَدْ رَأَيْتُ بِمَا ذَكَرْتُ أَنَّ لِي مَرْقَبًا لِلْعَالَمِ وَحَظًا مِنْهُ قَمَا الَّذِي يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَحِيلَ
 فِي السُّحُبِ سَلَاسِلَ جِبَالٍ وَفِي سُهُولِ الْأَنْبَرِ أَرْيَاقًا وَمَزَارِعَ بَحِيلَةٍ . بَلْكَ الْمَنَازِلُ
 الْحَلَاثِيَّةُ الْمُعَلَّقَةُ فِي الْمَوَاءِ لَيْسَتْ كَمَا أَعْلَمُ إِلَّا خَيَالَاتٌ سَاحِمَةٌ لِأَفْكَارِي وَمَا أَتَذَكَّرُهُ مِنْ
 مَعْلُومَاتِي . قَدْ تَبَعْتُ الْإِنْسَانَ وَجَدْتُهُ عَلَى الْبَحْثِ فِي مُحِبَّتِهِ عَنْ صُورٍ مَا عَرَفَهُ مِنَ
 الْأَمَّاكِنِ وَمِنْ أَحَبَّهُمْ مِنَ النَّاسِ قَنَانَا الْآنَ بِسَبَبِ اسْتِحْضَارِي لِمِرَاتِي مَاضِي الْجَمِيلَةِ
 فِي حَيِّزٍ مِنَ النُّورِ - قَدْ أَنْفَتَحَ فَوْقَ رَأْسِي - أَرَى مِثَالِكَ فِيهِ .

إِنْ كَانَ قُدْرَتِي أَنْ أَصِيرَ خَيَالِيًا كَانَ ذَلِكَ آخِرَ عِقَابٍ لِعَقْلِ لَمْ يَسْتَغْلِ مِنْهُ
 عِشْرِينَ سَنَةً يَغَيِّرُ الْعُلُومَ الْحَقِيقِيَّةَ .

عَلَى أَنِّي لَسْتُ أَشْكُرُ مِنْ شَيْءٍ فَطَوَّبَ لِي لَمَنْ صَبَحَ لَهُ عِنْدَ سُقُوطِهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى
فِكْرَةٍ أَنَّهُ دَافِعٌ عَنْ حَوَازَةِ الْقَانُونِ وَدَبَّ عَنِ الْحَقِّ وَإِنِّي إِذَا كُنْتُ أَتَأَلَّمُ فَلَيْسَ ذَلِكَ
إِلَّا لِأَنِّي كُنْتُ سَبَبًا فِي تَأَلُّمِكَ . اهـ

الرسالة الثانية

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ٦ يَنَايِرِ سَنَةِ ١٨٥٠)

إِتَخَفَهُ إِيَّاهَا عَلَى بُعْدِهِ مِنَ الْعَالَمِ بِخَبَرِ سَارٍّ
حَدَّثَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ وَالْحَادِيَةِ عَشْرَةَ صَبَاحًا صَبَابٌ كَثِيفٌ غَمَّرَ
الشَّاطِئَ كُلَّهُ، وَالْعَادَةُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ تُدَقَّ الْأَجْرَاسُ^(١) إِذَا نَأَى بِالْخَطَرِ، فَلِذَلِكَ
طَفِقَتْ أَجْرَاسُ الْقَرْيَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ السَّجَنِ تُطْفِنُ وَتَسْرِي أَنْ أَهَمَّ الْمُقْصُودَ مِنْ
هَذِهِ الْإِشَارَةِ . ذَلِكَ السَّاحِلُ الْمُعْدِيُّ بِنَا مُمْتَلِئٌ بِالْأَخْطَارِ لِأَنَّ الرَّمَالَ الْمُتَحَرِّكَ
وَمُسْتَنْقَعَاتِ الْمَاءِ الرَّائِدِ وَالْمَدَّ وَالْجَزْرُ كُلُّهَا حَبَائِلُ تَتَقَرَّبُ^(٢) أَصْطِيَادَ السَّائِحِ الضَّالِّ
كَأَمَنَةٍ لَهُ تَحْتَ أَسْتَارِ الضَّبَابِ، لِذَلِكَ تُنَادِيهِ أَصْوَاتُ الْأَجْرَاسِ وَتُحْدِرُهُ مِنَ الْوُقُوعِ
فِي الْخَطَرِ وَتُرْشِدُهُ بِمَصْدَرِهَا إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يَلْزِمُهُ سُلُوكُهُ لِيَصِلَ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ
أَسْرَعَ مَا يَكُونُ . وَقَدْ سَأَلْتُ فِي مَسَاءِ هَذَا الْيَوْمِ سَحَابًا لَنَا يَسْكُنُ أَهْلُهُ الْقَرْيَةَ عَمَّا
حَدَّثَ فَأَخْبَرَنِي بِأَنْ طِفْلَيْنِ مَسْكِينَيْنِ قَدْ فَاجَأَتْهُمَا أَمْوَاجُ الْبَحْرِ فِي إِيَّانِ الْمَدِّ فَأَحَاطَتْ
بِهِمَا وَكَادَا يَفْرَقَانِ لَوْلَا مَا بَدَّلَهُ مِنَ الْجُهْدِ وَالْهَمَةِ صَيَادُو الشَّاطِئِ مِنْ ذَوِي النَّجْدَةِ
وَالْبَسَالَةِ فِي إِتْقَانِهِمَا مِنْ تَحَالِيْلِ الْمَوْتِ غَيْرِمُبَالِغِينَ بِالْخَطَرِ الَّذِي كَادَ يَذْهَبُ بِقَوَارِيهِمْ .
مِنْ هُنَا تَرَى أَنِّي عَلَى بُعْدِي مِنَ الْعَالَمِ وَحِرْمَانِي مِنْ مَعْرِفَةِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ قَدْ قَدَّرْتُ
أَنْ أَتُخَفِّكَ بِهَذَا الْخَبَرِ السَّارِّ . اهـ

(١) إِذَا نَأَى : إِعْلَامًا . (٢) الْحَبَالَةُ : الْحَبِيدَةُ .

الرسالة الثالثة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ٨ يَنَاسِيرَ — ١٨٥)

تَعْرِفُهُ أَمَّا كَيْنَ السَّجْنِ تَسْلِيَةً لِنَفْسِهِ

أَنَا فِي السَّجْنِ تَتَعَقَّبُ عَلَى السَّاعَاتِ وَكُلِّهَا مُتَشَابِهَةٌ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهَا فَلَيْسَتْ
 الْحَيَاةُ هُنَا إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا بِسَبَبِ مَا يُخْرِجُ الصَّدْرَ وَيَضِيقُ عَلَى النَّفْسِ مِنْ تَوْحِيدِ
 الْأَشْيَاءِ وَتَشَابُهِ الْأَطْوَارِ وَعَدَمِ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْهَا . آه لَوْ عَادَتْ إِلَى نِعْمَةِ الْعِلْمِ بِمَا يَقَعُ
 فِي الْخَارِجِ ، وَلَيْتَنِي أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِكَ . قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ مِنْ مَحْدَعِي
 لِتَنْتَهِ كُلَّ يَوْمٍ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ عَلَى رَصِيفٍ مُرْفَعٍ لِلْسَّجْنِ فَأَنَا أَصْرِفُ هَذَا الزَّمَانَ
 فِي إِجَالَةٍ نَفْثِي وَالسَّيَاحَةِ بِهِ فِيمَا حَوْلِي مِنَ الْأَشْيَاءِ لِأَتَعْرِفَهَا فَإِنِّي لِأَنَّ مَا كُنْتُ أَعْرِفُ
 شَيْئًا فِي هَذَا الْمَكَانِ بَلْ كُنْتُ أَجْنَبِيًّا مِنْهُ بِالْمَرَّةِ إِذْ كُنْتُ كَتَبْتُ أَلْفِي فِي مَكَانٍ
 لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ وَقَدْ ابْتَدَأْتُ مِنْذُ أُسْبُوعٍ أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ مُسْتَقَرِّي فَتَجِدُنِي الْآنَ
 أَهْمُ بِتَعْرِفِ شَكْلِ الْأَمَّا كَيْنَ الْمُحِيطَةِ بِتَعْرِفٍ صَحِيحًا بِعَيْنِي عَلَى ذَلِكَ وَجَدَانًا لَا شَكَّ
 فِي أَنَّهُ عَامٌ فِي جَمِيعِ الْمَسْجُونِينَ . وَلَا يَتَّفَقُ نَظَرَايَ عَنِ اسْتِكْشَافِ مَا لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ
 حَالِ دُخُولِي فِي السَّجْنِ وَإِحَاثِي قَلْدِيرًا عَلَى أَنْ أَرِيسَ فِي الْوَرَقِ صُورَةَ مَا أَحْدَثَهُ الْبَحْرُ
 فِي الشَّوْاطِئِ مِنَ التَّقَطُّعِ فَنَشَأَتْ عَنْهُ الْحُلُجَانُ وَالرُّعُوسُ الَّتِي تَمْتَدُّ كَالْأَلْسِنَةِ امْتِدَادًا
 عَرْضِيًّا وَصُورَةَ الصُّخُورِ الَّتِي تَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْبُرُوزِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْإِخْتِفَاءِ إِلَى
 نِصْفِهَا فِي ظُلَامِ الصَّبَاحِ الْبَعِيدِ . وَقَدْ عَرَفْتُ أَيْضًا رَسْمَ الْبِنَاءِ الَّذِي يُجَوِّنِي
 وَأَوْضَاعَهُ الْمُهَنْدِسِيَّةَ الْجَمِيلَةَ وَتَنْظِيمَاتِهِ الْحَرْبِيَّةَ ، وَمَعَاظِلَهُ الطَّبِيعِيَّةَ ، وَمُنْهَدِرَاتِهِ وَمَنَاطِقَ

أَسْوَارِهِ . وَلَمْ يَكُنْ أَهْتَايَ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ مَبْدَأًا عَلَى تَدْيِيرِ حِيلَةٍ لِلْهَرَبِ كَلَّا ! إِنَّهُ قَدْ
 حَاوَلَ ذَلِكَ غَيْرِي مِنَ الْمَسْجُونِينَ وَرَدُّوا بِالْخَبِيَةِ لِأَنَّا إِنْ أَمَكْنَا أَنْ نَسْجُو مِمَّنْ
 يَقُومُونَ عَلَى حِرَاسَتِنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ وَالسَّجَانِينَ الَّذِينَ يَتَسَمَّرُونَ عَلَيْنَا أَنْ نَحْدَعَ يَقْظَتَهُمْ
 وَالتَّفَاتَهُمْ ، فَإِنَّا لَا نَسْجُو مِنَ الْخِيْطِ وَالرَّمَالِ الْخَسَائِلِ يَوْعُوْنَهَا ^(٢) وَغَيْرَهَا مِنَ الْعَقَابَاتِ
 الْكَثِيرَةِ . وَإِنَّمَا أَنَا أَبْحَثُ فِي ذَلِكَ عَنْ طَرِيقَةٍ أُسَلِّي بِهَا نَفْسِي وَأَشْغُلُ بِهَا فِكْرِي ،
 فَلَا شَيْءَ مِنِّي يُرِيدُ الْهَرَبَ وَالتَّخَلُّصَ مِنَ السَّجْنِ سِوَى عَقْلِي . ١٠

الرسالة الرابعة

(مِنْ لِرَاسَمٍ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١٠ يَنَايِرِ سَنَةِ - ١٨٥٠)

السَّجْنُ قَيْدٌ لِلْأَشْبَاحِ دُونَ الْأَرْوَاحِ

أَتَعْلَمِينَ مَا لِلْسَّجْنِ عَلَى مِنَ الْفَضْلِ ؟ إِنَّهُ لَيُعَلِّمُنِي الْحُرِّيَّةَ وَيَدُلُّنِي عَلَى عَجْزِ
 الْإِنْسَانِ عَنِ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى مِثْلِهِ . ذَلِكَ مَا أَحْسَسُ بِهِ كُلَّمَا تَعَاقَبَتِ عَلَى الْأَيَّامِ فِيهِ
 وَأَتَسُّ مِنْ نَفْسِي نَوْعًا مِنَ الْفَرَحِ تَشْوِبُهُ الْمَرَارَةُ عِنْدَمَا أَجِدُهَا أَكْبَرَ وَأَقْوَى مِنْ أَنْ
 يَهَيِّظَهَا نَقْلُ وَطْأَةِ الظِّلِّ ، فَلَيْسَتْ أَسْوَارُ السَّجْنِ الصَّوَانِيَّةُ وَأَغْلَاقُهَا الْحَدِيدِيَّةُ ، وَحَفَظَتُهُ
 الْإِتْقَانُ ، إِلَّا هَبَاءَ فِي طَرِيقِ الْعَقْلِ لَا حَوَائِلَ تَحْبِسُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْجَوْلَانِ . بَلْ أَسْعَةُ
 نُورِهِ تَتَخَلَّى كُلَّ هَذِهِ الْعَوَاقِقِ وَلَا تَقِفُ عِنْدَ شَيْءٍ مِنْهَا . وَإِنْ عَزِمَ الْمَسْجُونُ
 لَتَقَاوِمَ عَزِيمَةَ سَاجِدِهِ وَمُضَفِّدِهِ . وَإِنَّهُ مَهْمَا جَدَلَ وَصَرَّحَ فَلَا يَسْتَسْلِمُ ، فَإِذَا هُوَ كَانَ

(١) الخاطلة : الحادثة . (٢) وعوة الرمال : لُبها وانخفاضها بمن يمشي عليها . (٣) أبهظه
 الأمر : ثقل عليه وغلبه . (٤) مصفده : مقبده وموثقه . (٥) جدل : رى بالأرض .

عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ غَالِيهِ وَأَسْمَى مِنْهُ مَكَانَةً وَمِنْ الْعَبَثِ مَا يُحَاوِلُهُ هَذَا الْغَالِبُ فَالْفِكَرُ كَالْهَوَاءِ لَا يَدْخُلُ فِي قَبْضَةِ أَحَدٍ . نَعَمْ إِنَّ مِنْ مَقْدُورِهِ أَنْ يُسَدَّ وَثَاقُ مَسْجُودِهِ وَلَكِنْ لِيَصِلَ بَعْدُ إِلَى أَعْمَاقِ قَلْبِهِ ، وَلِيَأْسِرَ مَا هُنَاكَ مِنْ عِزَّةِ نَفْسِهِ وَمَتَاعِ وَجْدَانِهِ ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي قُدْرَتِهِ؟ هِيَئَاتَ هِيَئَاتَ تِلْكَ الْمُنْعَةِ أَنْتِي أَجِدُهَا فِي نَفْسِي تَدْعُونِي إِلَى النِّعَةِ الْعَظِيمَةِ بِالْمُسْتَقْبَلِ . لَا أَقِيمُ بَغْيَابَاتِ السَّجْنِ (مُجَرَّمَاتِهِ الْمُظْلِمَةِ الضَّيْقَةِ الْمُعْدَّةِ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِمْ بِهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ) وَلَا بِأَشْبَاحِ أُولَئِكَ الَّذِينَ مَاتُوا هُنَا فِي زَوَايَا النَّسْيَانِ أَوْ فِي أَقْفَاصِ الْحَدِيدِ - إِنَّ الْحَقَّ وَالْحُرِّيَّةَ سَيَكُونُ لهُمَا النُّصْرُ وَالظَّفَرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا . اهـ

الرسالة الخامسة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١٢ يناير سنة - ١٨٥)

مُؤَاسَاةُ الْأَصْدِقَاءِ الْخَاصِّينَ فِي حَالِ الشَّدَةِ

قَدْ اهْتَدَيْتُ بَعْدَ الْعَنَاءِ إِلَى طَرِيقَةٍ إِيصَالِ هَذَا الْمَكْتُوبِ إِلَيْكَ فَسَيَصِلُكَ عَلَى يَدِيهِ الَّذِي تَفْضُلُ عَلَى أَنْ يَكُونَ رَسُولًا بَيْنَنَا عَلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَخَاطَرَةِ بِنَفْسِهِ . هَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَحْتَفُّ بِهِ فِي حَالِ رَخَائِهِ الْجُلَسَاءُ الْمُتَمَلِّقُونَ لَا يَبْعُدُ فِي حَالِ شِدَّتِهِ أَنْ يَرَى حَوْلَهُ أَحْيَانًا أَصْدِقَاءَ خَامِلِينَ يُخْلِصُونَ لَهُ الْوَدَّ . وَأَخْتُمْ قَوْلِي بِأَنِّي لَكَ طُولَ حَيَاتِي . اهـ

الرسالة السادسة

(من هيلانة إلى إراسم في ٢٠ يناير سنة ١٨٥٠)

إخبارها إياه رأي الطبيب في حملها وعزمها على السفر لزيارتها

قَدْ تَلَقَيْتُ مَكْتُوبَكَ أَيُّهَا الْحَبِيبُ مِنْ يَدِ الْبَرِيدِ السَّرِيِّ فَكَانَ لَهُ فِي نَفْسِي أَحْسَنُ
أَثَرٍ وَأَنْفَعُهُ . فَإِنِّي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ عَظْمَى إِلَى شَيْءٍ يُسَانِنِي وَيُسَرِّي عَنِّي بَعْضَ الْأَلَمِ
فَلَسَدُ مَا قَاسَيْتُهُ مِنْهُ مَدَّةَ شَهْرٍ وَقَدْ ضَعُفْتُ صِحَّتِي وَانْخَطَطَ قُوَّتِي وَالطَّبِيبُ الَّذِي
يُدَاوِينِي فِي غَيْبِكَ يُسَالِّي أَسْئَلَةً كَثِيرَةً وَلَهُ فِكْرَةٌ فِي سَبَبِ هَذَا الْمَرَضِ أَرَاهَا تَشْفِ
عَنْ جُودِهِ فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّي ... كَلَّا إِنِّي لَمُوقِنَةٌ بِمُخْطَئِهِ فِي ذَلِكَ . وَمَهْمَا يَكُنْ مِنَ الْأَمْرِ
فَقَسِي تَأْنِيقٌ لِرُؤْيِكَ فَإِنَّ هَذَا الْفِرَاقَ الْعَاجِلَ بَعْدَ الزَّوْاجِ الَّذِي لَمْ يَمُضْ عَلَيْهِ أَكْثَرُ
مِنْ سَنَةٍ خَطْبُ هَائِلٍ لَا يُطَاقُ ، وَلَا سَبِيلٌ إِلَى الْمَعِيشَةِ مَعَهُ ، وَإِنِّي مُسَافِرَةٌ مَسَاءً
الْأَيْلَةَ مِنْ بَارِيسَ وَمَعِيَ إِجَازَةٌ مَوْعُودَةٌ عَلَيْهَا مِنْ وَزِيرِ الْحَقَانِيَّةِ أَذِنَ لِي فِيهَا بِزِيَارَتِكَ
فَلَا بُدَّ أَنْ يُسَمَّحَ لِي بِدُخُولِ السَّجْنِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَحُلَّ اسْتِبْدَادُ الْمُسْتَبِدِّينَ مَا عَقَدْتَهُ
رَابِطَةُ الْحُبِّ .

لَا تَحْشَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الزِّيَارَةِ فَإِنِّي لَمْ أَقْصِدْ بِهَا الرِّغْبَةَ إِلَيْكَ فِي أَنْ تَسْتَمِيعَ
الْحُكُومَةَ عَفْوًا عَنْكَ لِأَنِّي وَإِنْ كُنْتُ كَثِيرَةً التَّائِبُ لِعُيُوبِكَ أَحْتَرِمُ وَجَدَانِكَ وَهَوَاجِسَ
نَفْسِكَ وَإِنْ لَمْ أَتُفَهِّمُ حَقَّ الْفَهْمِ . إَعْلَمْ أَنَّ فِي مَا فِي بَقِيَّةِ النَّسَاءِ مِنْ مَوَاضِعِ الضَّعِيفِ
وَمَظَانِّ الْعَجْزِ ، إِلَّا أَنِّي مُزْهَةٌ عَنْ دَنَاءَةِ الْخُلْدَيْنِ وَخِيَاتِمَتِهَا لِصَاحِبِهَا فَإِنَّ شَرَفَكَ دَاخِلٌ
فِيهَا لِحُبِّهِ مِنْكَ ، وَإِنَّكَ عَلَى احْتِبَاسِكَ عَنِّي وَبُعْدِكَ عَنِّي نَاطِرِي بِمَا فِيكَ مِنْ عِزَّةٍ

النَّفْسَ وَالنَّهَامَةَ وَإِبَاءَ الضَّمِّ لِأَجْلِ فِي نَفْسِي مِنْكَ وَأَنْتَ بَيْنَ يَدَيَّ لَوْ فَسَدْتُ مَبَادِئُكَ
وَمُعْتَقِدَاتُكَ الَّتِي جَرَّبْتَ عَلَى سَنَتِهَا طُولَ حَيَاتِكَ . إِنِّي لَمَّا تَزَوَّجْتُكَ تَزَوَّجْتُ شَيْئًا
الرَّحْمَنِي
أَخْرَمَكَ إِلَّا وَهُوَ صَمِيرُكَ وَوَجْدَانُكَ فَإِنْ بَقِيتَ عَلَى وَلَّائِهِ مُتَّبِعًا مَا يُرْسِدُكَ إِلَيْهِ
أَفْسَمْتُ لَكَ إِنِّي أَكُونُ فِي الْإِخْلَاصِ لَكَ كَمَا تَكُونُ فِي الْإِخْلَاصِ لَهُ طُولَ حَيَاتِي .
وَالآنَ أُوَدِّعُكَ لِأَرَاكَ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَأَكْشِفُكَ مَحَبَّةَ قَلْبِي إِيَّاكَ وَامْتِلَأْهُ بِالْحُزْنِ
عَلَيْكَ . اهـ

الرسالة السابعة^(١)

(مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٢٥ يناير سنة - ١٨٥)

إِنْفَعَالٌ نَفْسِيهَا بِزِيَارَةِ السَّجْنِ وَمَا لَاقَتْهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي الرَّجُوعِ مِنْهُ

وَإِخْبَارُهَا زَوْجَهَا بِالْحَيَاتِينَ وَتَحْوِفُهَا مِنْ ثِقَلِ فُرُوضِ التَّرْبِيَةِ

لَمْ يَتَسَّرْ لِي أَنْ أُحَدِّثَكَ بَشَيْءٍ مِمَّا أَرَدْتُ مُحَادَثَتَكَ بِهِ عِنْدَ الْلِقَاءِ مَعَ أَنَّ حَدِيثِي
دُوَّيْجُونِ^(٢) . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرَدْتُ أَنْ أَعْتَاضَ عَمَّا قَاتَنِي مِنْهُ بِالْمَكَاتِبَةِ فَسَطَرْتُ لَكَ
هَذِهِ الْكَلِمَاتِ .

علي بن عمر

كَأَنَّ مَجِيئِي إِلَى السَّجْنِ بِالْأَمْسِ وَأَسْتَفْتَاخِي بِأَبِي فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ
وَبَعْدَ أَنْ تَحَادَّثْتُ مَعَ مَدِيرِهِ هُنَا أَقْبَلَ نَحْوِي أَحَدُ خَزَنَتَيْهِ يَهْدُجُ فِي مَشْيِهِ وَأَنَا أَسْمَعُ
حَقْظُ^(٣)
خَفَقَ عَلَيْهِ شَدِيدًا عَلَى الْبَلَاطِ وَأَخَذَنِي إِلَى الْفُرْقَةِ الَّتِي كُنْتُ أَتَنَظَّرُكَ فِيهَا . كَانَ

(١) قد تضمنت هذه الرسالة أصدق عواطف الحب والرحمة التي ينبغي أن تكون في قلب كل زوجة
صالحة تزوجها والتي هي الغزوة الوثقى لنظام الأمير فليعمل تربيته وإيمانها بالإخلاص والوفاء - المترجم .

(٢) الشجون : الفنون المتشعبة . (٣) هجج : مشى في ارتعاش .

قَلْبِي قَدْ وَعَدَنِي قَبْلَ دُخُولِي السَّجْنَ وَرَوَيْتِي مَا فِيهِ أَنَّ يَسْتَجِمِعُ كُلَّ مَا لَدَيْهِ مِنَ
الْجَرَاعَةِ وَالنَّبَاتِ لِيُدْفَعَ بِذَلِكَ عَنِّي بَوَادِرَ الْحَزَنِ وَخَوَاطِرَ الْمَلَحِ . فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ دُخُولِي
هَذِهِ الْعُرْفَةَ أَنْ تَقْضَ مِيثَاقَهُ ، وَحَلَّ وَثَاقَهُ ، فَأَعُوْذَتْنِي رِبَاطَةُ الْحَاشِ وَنَبَاتُ الْحَنَانِ
لَمَّا رَأَيْتُنِي وَحِيدَةً لَا أُنَيْسَ لِي ، وَبَحَدَّ الدَّمُ فِي عُرْوِي لِمَا اسْتَوَى عَلَيَّ مِنْ
الدَّهْشَةِ وَالْوَحْشَةِ مَعَ انْقِطَاعِ الصَّوْتِ فِي قِيَابِ السَّجَنِ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ صِرِيرِ
الْأَبْوَابِ وَصَلْصَلَةِ أَغْلَاقِهَا مِنْ بَعِيدٍ أَتْنَاهُ فَتَحَهَا وَاقْفَالَهَا فَلَمَّا بَدَأَ حِمَاكِ لِنَاطِرِي
فَقَدْتُ بَقِيَّةَ رَشَادِي وَغِبْتُ عَنْ وُجُودِي فَإِنْ قَرَيْتُ بِرُؤْيَيْكَ بَعْدَ احْتِجَابِكَ عَنِّي وَحَزْنِي
لِوُجُودِكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ قَدْ أَثَارًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِ الْإِنْفَعَالِ فَفَدَحْنِي وَصَرَعْتَنِي ،
وَلَمْ تَبْقَ لِي مِنَ الْقُوَّةِ سِوَى مَا اسْكُبُ بِهِ الْعَبْرَاتِ ، وَأَرْدَدْتُ الزَّفَرَاتِ ، فَالْقَيْتُ نَفْسِي
طَلِيكَ ، وَكُنْتُ كَمَا تَعْلَمُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، رَأَيْتُكَ وَقْتُ التَّلَاقِ شَاحِبَ اللَّوْنِ مُتَمَقِّعَةً . فَهَلْ
كُنْتُ مَرِيضًا ؟ وَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ أَنِّي نَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنِّي إِذْ ذَاكَ
كُنْتُ فَانِيَةً فِيكَ فَمَا كُنْتُ أَفْكَرُ وَلَا أَرَى وَلَا أَحْسُ وَلَا أَقُولُ شَيْئًا .

أَتَعْلَمُ مَاذَا كَانَ يُقْلِقُنِي مِنَ الْأَفْكَارِ فَوْقَ ذَلِكَ ؟ إِنَّهُ كَانَ يُحْيِلُنِي إِلَى أَنَّ لِيْلَكَ
الْجُدْرَانِ جُدْرَانِ السَّجَنِ الْمُخِيفَةِ أَنْصَارًا وَأَسْمَاعًا وَإِذْرَا كَأَنَّهَا تُحْسِسُنِي لَوْصَاحَتِكَ
وَتَرَانِي لَوْ أَثَرْتُ إِلَيْكَ إِشَارَةً مَا ، وَتَسْمَعُنِي لَوْ أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِسِرِّ قَلْبِي . لَمَّا عَادَ

(١) الحاش : نفس الانسان ورباطتها ثباتها . (٢) الصرير : صوت خاص يكون للباب
عند فتحه أو إغلاقه والقلم عند جريه على القراطيس واللاستان اذا شقَّ ببعضها على بعض . (٣) الصلصلة :
ترجيع صوت الجرس ونحوه مما يمتد من المادن . (٤) فدحه الأمر : أقبله . (٥) شحوب
اللون : تغيبه . (٦) امتنع الرجل بالبناء الجهول تغيب لونه من حزن أو فرح أو روية .

إِلَيْنَا خَازِنُ السَّجْنِ وَنَهْنَا إِلَى أَنْ وَقَتِ التَّلَاقِ الْمَمْنُوحَ لَنَا قَدْ أَقْضَى مِنْ بَضْعِ دَقَائِقِ
 قَفِّ شَعْرِي وَأَقْشَعَرِّ جَنْبِي وَطَارَ لَبِّي ، وَلَوْ أَقْسَمْتُ لَهُ عَنْ سَلَامَةِ صَدْرِي أَنَّهُ لَمْ
 يَمِضْ عَلَى دُخُولِ السَّجْنِ شَيْءٌ مِنَ الزَّمَنِ وَأَنَّ فِي السَّاعَةِ خَلَّالًا أَدَّى إِلَى هَذَا الْخَطَايَا
 لَمْ أَكُنْتُ فِي اعْتِقَادِي حَائِثَةً وَوَدِدْتُ لَوْ بَعْتُ حَيَاتِي وَجَمِيعَ مَا أَمْلِكُهُ مِنْ حُطَامِ
 الدُّنْيَا وَإِنْ قُلْتُ بِسَاعَةِ أُخْرَى أَقْضِيهَا مَعَكَ .

لَمْ تَكُنْ لِي مَنُوحَةً عَنْ فِرَاقِكَ عَلَى غُصْنِي بِمَرَارِيهِ فَفَارَقْتُكَ مَمْلُوءَةً الْفُؤَادِ مِنَ
 الْحُزْنِ ، فَارِقَةً الْعَيْنَيْنِ مِنَ الدَّمْعِ ، مُعْتَقِلَةً اللِّسَانَ مِنَ الْوُجُومِ ، عَلَى شَرَفٍ مِنْ فَقْدِ
 الْإِدْرَاكِ وَالشُّعُورِ ، وَاجْتَرْتُ مَكَانَ الْأَسْلِحَةِ بِتَقْدِيمِي دَلِيلَ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا فِرَاتِ
 اللَّيْلِ كَانَ قَدْ جَنَّ عَلَى مَا ظَهَرَ لِي وَلَمْ يَكُنْ اعْتَادِي عَنْ حَضْرَتِكَ حَائِلًا بَيْنِي وَبَيْنَكَ
 وَلَا شَاغِلًا قَلْبِي عَنِ الْأَسْتِغْرَاقِ فِي شُهُودِكَ كَلَّا إِنِّي كُنْتُ إِخْطَايِي فِي كُلِّ خُطْوَةٍ
 أَخْطُوهَا أَتَمَعْتُكَ تَنَادِيَنِي مُسْتَرْجِعًا إِلَيَّ ، وَلَقَدْ اتَّفَقَتْ مَرَّةً لِاتِّبَاعِ هَذَا النَّدَاءِ الْوَهْمِيِّ
 فَلَمْ يَقَعْ نَظْرِي إِلَّا عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْحَجَرِ ، ذَلِكَ هُوَ أَحَدُ الْبَاقِينَ الْعَظِيمِينَ الْحَافِظِينَ
 لِمُدْخِلِ الْقَرْيَةِ . سَارَى ذَلِكَ الدَّلِيلُ الْخَرِيطُ الْوَاسِعُ الْخَبْرَةُ بِسَاطِئِهِ الْمُحِيطُ وَمَوَاقِعِهِ
 عَلَى حَافَةِ السَّاحِلِ مُتَّجِهًا نَحْوَ قَرْيَةٍ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ أَقْضِيَ لَيْلَتِي فِي نَامُوسِ
 الصَّيَّادِينَ . هَذَا الطَّرِيقُ وَعَثُّ امْضِي فِيهِ الْحُزْنَ وَالنَّصَبَ حَتَّى لَقَدْ كِدْتُ أَنْ أَجْلِسَ
 فِيهِ مَرَّتَيْنِ عَلَى الرَّمَالِ طَلِبًا لِلرَّاحَةِ وَأَسْتَمِيعُكَ الْعَفْوَانَ أَقُولُ إِنِّي كِدْتُ أَوْدُ لَوْ تَمَّ

(١) قف الشعر قام قرعا . (٢) الوجوم : السكوت أو العجز عن التكلم من شدة الغم .

(٣) على شرف : على وشك أو قرب . (٤) الناموس : لفظ مشترك بين جملة سكان منها منزل

الصيادين . (٥) الوعث : المكان السهل الكثير الدهس تقيب فيه الأقدام . (٦) امضى : آتلى .

لِي ذَلِكَ فَإِنِّي كُنْتُ أَطْلُ النَّفْسَ يَقُولِي إِنِّي يَحْلُوسِي ههنا أَنَامُ بِالْقُرْبِ مِنْ بَعْجِهِ عَلَى الْأَقْلَ وَإِنِ اغْتَالَنِي الْأَمْوَاجُ فَخَسِي أَنِّي قَضَيْتُ نَحْيِي وَاسْتَمْتُ عَلَى شَفَقِي .

كُنْتُ فِي سَبِيلِ تَوَطُّينِ نَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ وَتَسْجِيمِهَا عَلَى اخْتِيَالِ الْمَكْرُوهِ أُرْدُو
النَّظَرَ إِلَى جِهَةِ وَكَانَ اللَّيْلُ سَاكِنًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حَالِكَ الظَّلَامِ مُجْهِدًا
فَلَا كَوْكَبٌ فِيهِ وَلَا قَمَرٌ، وَكَانَ يَزِيدُ فِي كَثَافَةِ حُجُبِ الظَّلَامِ ذَلِكَ السَّحَابُ الْمُرْكُومُ
وَمَا يَجُودُ بِهِ مِنَ الرِّذَاذِ الْبَارِدِ . وَأَمَّا الْبَحْرُ فَكُنْتُ أَسْمَعُ لَهُ مِنْ بَعِيدِ رَجْمَةٍ وَهَدِيرًا
وَأَرَى فَوْقَهُ أَيْجَرَ سَنَابِيَةِ اللَّوْنِ . وَقَدْ تَنَوَّرَتْ عَلَى مَا وَصَفْتُ لَكَ مِنْ شِدَّةِ الظُّلْمَةِ
ضَوْأً ضَعِيفًا كَانَ يَطْهَرُ بِصَبْغِهِ مِنْ تَأْفِذَةٍ فِي جِهَةِ الْجَبَلِ وَتَعَذَّرَ عَلَيَّ أَنْ أَحْكُمَ إِنْ
كَانَ هَذَا الضُّوْءُ الْمُتَذَلِّبُ مُبْتَدَأًا مِنَ السَّجْنِ أَوْ مِنْ أَحَدِ مَسَاكِينِ الْقَرْيَةِ وَكُنْتُ أَسْمَعُ
هَذَا الشَّكَّ الَّذِي كَانَ يُخَامِرُنِي فِي مَضْمَرِهِ أَنْظُرْ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى أَثَرِ حَبِيبِهِ
وَكُنْتُ أَتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِنْ انْفَلَقَ يَنْطَفِئُ مَعَهُ نِيرَاسُ حَيَاتِي ثُمَّ وَصَلْنَا فِضْلَ هِمَةِ الدَّلِيلِ
وِخْبَرَتِهِ بَعْدَ الْخُذِّ فِي السَّيْرِ إِلَى نَقْطَةِ تَقَابُلٍ ... فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا سِوَى جَدْوَلٍ
يُخْتَارُ عَلَى الْمَرْكَبِ . جَلَسْتُ فِي الْمَرْكَبِ عَلَى مَقْعِدٍ مِنَ الْخَشَبِ أُرْسَدَنِي إِلَيْهِ
الْجِدَافُونَ لَمَّا أَضْثَنِي الْأَفْكَارُ وَنَهَكَتْ قَوَايِ الْخَوَاطِرُ فَكَانَتْ هَذِهِ الرَّاحَةُ وَاللِّسْكُونُ
الْمُسْتَتَبَّ حَوْلِي سَبَابًا فِي تَوْجِيهِ ذِهْنِي إِلَى فِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ قَبِينَا أَنَا أَفْكَرُ فِيمَا كُنْتُ أَفْضَيْتُ
بِهِ إِلَيْكَ مِنْ حَلَلَةٍ صَحِيحَةٍ وَمَا اسْتَجَّهَ الْعِلْمُ مِنْهَا إِذْ شَعَرْتُ عَلَى الْقَوْرِ بِحَرَكَةِ نَهْيٍ
حَتَّى تَحْتَ مِنْطَقَتِي . اللَّهُ أَكْبَرُ ! قَدْ كَانَ الطَّيِّبُ مُصِيبًا وَغَمًّا قَلِيلًا أَكُونُ أَمَا .

(١) الرذاذ : المطر الضعيف . (٢) تنور الشيء : أبصره من بعد . (٣) النيراس

بكسر النون وتثنيدها المصباح .

لَا أَحْسَبُكَ نَسِيتَ أَنَّ أَعْظَمَ أَمْنِيَّةٍ كَانَتْ لَنَا فِي أَيَّامِ الْمَنَاءِ الْمَاضِيَةِ أَنْ يَرْزُقَنِي
اللَّهُ وَلَدًا مِنْكَ وَإِنِّي لَتَرْتَعِدُ فَرَائِصِي عِنْدَ التَّفَكُّرِ فِي ذَلِكَ .

عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَخْفِيَ عَنْكَ تَبِعَةَ شُعُورِي بِالْحَمْلِ وَهِيَ أَنَّي بَعْدَ أَنْ تَكَدَّرْتُ
هَنِيئَةً أَحْسَسْتُ بِأَنَّ شُعَاعًا مِنَ الْقَرَجِ وَالْعِزَّةِ يُضِيءُ فِي جَوَانِبِ ظُلُمَاتِ حُرْنِي وَأَنِّي
فِي رُجُوعِي مِنْ عِنْدِكَ لَمْ أَكُنْ قَرِيبَةً مَحْرُومَةً مِنَ الرَّفِيقِ، وَخَلْتُ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُكَ
بَعْدَ فَقْدِكَ، نَعَمْ أَدْرَكْتُ مَعَ الزُّهْوِ وَالْإِجْتَابِ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي يُجِنُّهُ حَشَايَ وَتَضَمُّ عَلَيْهِ
جَوَانِحِي هُوَ أَنْتَ أَيُّهَا الْحَبِيبُ وَهَلْ هُوَ إِلَّا مِثَالُكَ الْحَيُّ وَبَضْعَةٌ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ؟
ثُمَّ خِيلَ إِلَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَظَّةٌ أَنَّ الْأَمْوَاجَ الْمُضْطَرِبَّةَ تُحْيِي بِلِسَانِكَ نَحْيَةَ الزَّوْجَةِ
وَالْأُمِّ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي قَدْ صَارَ فِي وَسْطِي الْآنَ أَنْ أَقْتَعِمَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالرَّيَالِ
الْوَعْنَ وَلَا أَبَالِي بِالسَّجْنِ وَلَا بِأَوَامِرِهِ الشَّدِيدَةِ وَحُرَامِهِ وَبَحَائِهِ، وَصَحْتُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ
لَيْسَ فِي قُدْرَتِهِمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنِّي وَأَنَّهُ هُوَ عَلَى الْجَمَلَةِ أَبُوهُ أَوْ عَلَى الْأَقْلِ بَضْعَةٌ مِنْهُ
يُمْكِنُنِي أَنْ أَخْفِيَهَا فِي مُسْتَقَرِّي فَأَجْعَلَهَا حُرَّةً بَعِيدَةً عَنْ عُدُونِ الْمُتَعَدِّينِ كَمَا تُخْفِي
اللبوة الجريئة شبلها في عرينها .
سبب الاسد

أَقُولُ هَذَا وَلَكِنِّي أَرَى أَمْرًا يَرُوعُنِي وَيُزِيلُ فِكْرِي وَهُوَ طَرِيقَةُ تَرْبِيَةِ هَذَا
الْوَلَدِ فَإِنِّي ظَلَمْتُ سَمْعَكَ تَسْكُمُ فِيمَا يَجِبُ عَلَى الْوَالِدِينَ لِأَوْلَادِهِمْ بِعَارَاتِ هِيَ مِنْ
سُوِّ الْبَلَاغَةِ وَقُوَّةِ التَّأْيِيدِ يَحِثُّ إِنْ قَلِي كَانَ يَحْفَقُ لِسَامِعَهَا أَمَلًا فِي أَنَّهُ سَيَكُونُ
الْمَقْصُودَ بِهَا وَالْيَوْمَ قَدْ اقْتَرَبَ تَحَقُّقُ هَذَا الْأَمَلِ وَأَنَا مِنْ تَحْقِيقِهِ فِي إِشْفَاقٍ وَرُعْبٍ .
مَنْ ذَا الَّذِي يَقُومُ بِتِلْكَ الْفُرُوضِ الَّتِي أَنْتَ تَعْلَمُهَا أَكَلِ الْعِلْمِ . فَقَدْ كُنْتُ تَقُولُ لِي :

لَوْ رَزَقَنِي اللَّهُ وَلَدًا لَوَقَفْتُ حَيَاتِي عَلَى تَعْلِيمِهِ وَتَرْبِيَتِهِ وَكُنْتُ تُجَاهِرُ كُلَّ مُجَاهِرَةٍ
بِإِنْكَارِ الطَّرِيقِ السَّائِدَةِ فِي تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ وَاسْتِجَابَتِهَا شَدِيدَ الْإِسْتِجَابَةِ . كُلُّ ذَلِكَ
لَا يَزَالُ مَتَّقُوشًا فِي ذَاكِرَتِي ، لِكَيْتِي بِمَقْدَرِ مَا كُنْتُ أُحِبُّ بِإِفْكَارِكَ وَمَقَاصِدِكَ
تَعْرِينِي الْآنَ رِعْدَةً خَوْفٍ أَمَامَ هَذَا التَّكْلِيفِ الَّذِي سَيَقَعُ ثِقَلُهُ عَلَيَّ وَحْدِي فَقَدْ فَرَّقَ
بَيْنَنَا الْقَانُونُ الْبَشَرِيُّ بِهُوَ حَفَرَهَا لِنَكُونُ حَاجِرًا يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ
فِي وَقْتٍ أَكُونُ فِيهِ أَشَدَّ حَاجَةً إِلَى الْإِسْتِشَادِ بِنَصَائِحِكَ وَالِاسْتِضَاءَةِ بِنُورِ مَعَارِفِكَ
وَالِاعْتِمَادِ عَلَى مَعُونَتِكَ الْأَدَبِيَّةِ . لَيْتَ شِعْرِي مَا سَيَكُونُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْوَلَدِ إِذَا كَبُرَ
وَهُوَ مُحْرَمٌ مِنْ رِعَايَةِ وَالِدِهِ وَعِنَايَتِهِ وَمَا عَسَى أَنْ أَفْعَلَ لَهُ وَأَنَا كَالْقَصَبَةِ الضَّيِّلَةِ
قَدْ رَزَحْتُ بِضَعْفِي وَضَعْفَتِي سَقَمِي .

قَدْ وَجَدْتُ قُوَّ بِيَدُونَ الزَّيْجِيِّ الْبَارِ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعَكَ مِنْ أَمْرِيكَ فِي انْتِظَارِي
هُوَ وَزَوْجَتُهُ عَلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ لِلْحَدُولِ فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَرَادَا تَقْبِيلَ يَدَيَّ رَغْمًا مِنِّي
قَائِلِينَ إِنِّي هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ صَاحَتَا يَدَيْكَ وَإِنَّ لَكَ الْفَضْلَ عَلَيْهِمَا فِي نَسِيلِ
حُرِّيَّتِهِمَا . وَمَا بَلَّغْتُ الشَّاطِئِ إِلَّا وَأَنَا فِي فَتَقَفَةٍ مِنَ الْبَرْدِ قَدْ وَصَلَ أَثَرُهَا إِلَى أَعْمَاقِ
نَفْسِي وَكَانَتْ ثِيَابِي مُبَلَّلَةً فَوَجَدْتُهُمَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ أَعَدَّا لِي فِرَاشًا فِي أَحَدِ نَوَامِيسِ
الصَّبَايِدِ الَّتِي عَلَى ضَفَةِ الْجَمْتُولِ وَأَذْكَا لِي بِهِ تَارًا مِنْ قُضْبَانِ أَشْجَارِ بَاسَةِ فَأَخَذَ
الْبَرْدُ يَزُولُ عَنِّي تَدْرِيجًا يَتَوَقَّدُ اللَّهَبُ فِي الْمُسْتَوْقِدِ وَارْتَحْتُ لِمَا كَانَ يُنْدِيهِ لِي كُلُّ

(١) ما أحسن هذه العاطفة وما أجدرها بأن تمر كل قلب يدرك ما يجب عليه للأولاد من التربية

والتدريب وليت الناس يدركون مبلغ الثبة التي تلحقهم من جراء التقصير في هذا الواجب — المترجم .

(٢) رزح : ألقي نفسه إعياء . وهو الأ .

مِنْ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ مِنْ إِخْلَاصِهِ فِي الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ . مَا أَشَدَّ عَدَوِيَّ لِلْإِنْسَانِ
وَأَعْظَمَ أَثَرِ إِحْسَانِهِ ؟ فَإِنِّي نَمْتُ هَذِهِ اللَّبْلَةَ أَحْسَنَ مِنْ نَوْبِي فِي سَوَابِقِهَا بَعْدَ ذَلِكَ
النَّهَارِ الَّذِي قَضَيْتُهُ مُتَعَبَةً الْحَسَمِ وَالنَّفْسِ وَكَدْتُ فِيهِ أَلَنُ الْحَيَاةِ وَأَسَامُهَا ، وَأَنَا
أَكْتُبُ إِلَيْكَ الْآنَ فِي نَامُوسِ الصَّيَادِينَ بَعْدَ اسْتِيقَاطِي مِنَ النَّوْمِ صَبَاحًا .

تَحِيدُ مَكْتُوبِي كَمَا اتَّفَقْنَا بِالْأَمْسِ مُحِبًّا فِيمَا أُرْسِلُهُ لَكَ مِنَ الْمَلَابِيسِ الَّتِي تَوَلَّيْتُ
طَيِّهَا وَإِصْلَاحَهَا بِنَفْسِي . وَوَرَقٌ هَذَا الْمَكْتُوبِ - وَإِنْ كَانَ رَقِيقًا - مَتِينٌ
وَقَدْ طَوَيْتُهُ طَيَّةً جَعَلْتُهُ فِيهَا عَلَى شَكْلِ زُرٍّ . فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَتَبَسَّرُ لَكَ قِرَاءَةُ
خَطِّي الَّذِي هُوَ كَارِجِلِ الدُّبَابِ .

سَأَعُودُ بَعْدَ غَدٍ إِلَى السَّجْنِ فَقَدْ وَعِدْتُ بِأَنْ يُؤَدَّنَ لِي فِي الدُّخُولِ السَّاعَةِ
الْأُولَى مَسَاءً وَعَسَى أَنْ أَتَجَلَّدَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَاسْتَجِيعَ شَتَاتَ فِكْرِي .

وَالْآنَ أَقْبَلُكَ قُبْلَةَ الْوَدَاعِ بِكُلِّ مَا فِي نَفْسِي مِنْ قُوَّةِ الشُّوقِ وَالْمَلَنِّ قَرِيبٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ . اهـ

الرسالة الثامنة

(مِنْ إِرَاسِمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ٢٦ يناير - ١٨٥)

تَقْلَهُ مِنْ مِجْنِهِ إِلَى مِجْنِ آخَرَ

أَكْتُبُ إِلَيْكَ هَذَا وَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَبَاحًا وَعَلِمْتُ أَنَّ
عَشِيرَتِي مَسْجُوتًا أَنَا مِنْهُمْ قَدْ فُصِّلُوا لِإِرْسَالِهِمْ إِلَى مِجْنِ ... وَبَلَّغَنِي أَنَّ أَمْرًا تَقْلَانَا وَصَلَ
إِلَى هُنَا لَيْسَ مِنْ بَارِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ لِإِتْبَانِكَ بِهَذَا الْخَبَرِ قَبْلَ الْآنَ وَلَمْ

يَقِي لِي أَمَلٌ فِي لِقَائِكَ فَإِنَّ السَّفَرَ سَيَكُونُ فِي السَّاعَةِ السَّاعَةِ صَبَاحًا وَسَيَصِلُ إِلَيْكَ
هَذَا الْمَكْتُوبُ وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَى الْخَزِيرَةِ الَّتِي جُمِعْتُ مَقَرًّا لِي فَأَوْدَعُكَ وَدَاعَ
حُبٍّ ثَابِتٍ عَلَى عَهْدِهِ لَا يَنْتَبِهُ عَنْ حُبِّكَ اعْتِرَاضَ الْحَوَائِلِ وَلَا يَلْوِيهِ عَنْ ذِكْرِكَ
تَطْوِيعُ الْمَطَاوِجِ .

(غَرَامٌ عَلَى يَأْسِ الْهَوَى وَرَجَائِهِ * وَشَوْقٌ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ وَقَرْبِهِ)^(١)

الرسالة التاسعة

(مِنْ هَيْلَانَةٍ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ١٧ يَنَايِرَ سَنَةِ ١٨٥٠)

خَيِّمَتُنَا فِي زِيَارَةِ السَّجْنِ وَعَزَمُهَا عَلَى اتِّبَاعِ زَوْجِهَا فِي مَتَفَاهِ
جَحْتِ الْيَوْمِ إِلَى السَّجْنِ لِزِيَارَتِكَ فَتُشَلُّ لِنَفْسِكَ مَا عَرَّائِي مِنْ هِزَةِ الطَّرَبِ
وَنَشْوَةِ الْفَرَجِ لَمَّا عَلِمْتُ بِأَنَّكَ أُخْرِجْتَ مِنْهُ . مَا كَانَ أَبْعَدَنِي عَنِ الْعَقْلِ وَأَقْرَبَنِي
مِنَ الْخُنُونِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِذْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ فُزْتَ بِرُجُوعِ نِعْمَةِ الْحُرِّيَةِ إِلَيْكَ ! ...
لَكِنْ لَمْ يَلَيْتُ كَاتِبُ السَّجْنِ أَنَّ أَبَانَ لِي خَطَائِي إِذْ أَخْبَرَنِي بِأَنَّكَ قَدْ وُجِّهْتَ
(هَكَذَا عِبَارَتُهُ) إِلَى جَزِيرَةٍ ... وَإِنِّي سَأَتُبِعُكَ قَاطِعَةَ أَجَوَازِ الْبَحَارِ، مُقْتَحِمَةً فِي سَبِيلِ
الْقُرْبِ مِنْكَ جَمِيعَ الْأَخْطَارِ، فَإِنَّمَا تَكُنْ وَإِنْ فِي آخِرِ الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْخَطَايَا بِكَ
لَا يَعُوقُنِي عَنْكَ هَيْجِرُ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ وَلَا أَخْطَارُ بَجَاهِلِ الصَّحَارَى وَالْقِفَارِ وَلَا اعْتِرَاضُ
سَلَاسِلِ الْحَبَالِ الشَّاعِيَةِ دُونَكَ لِإِنَّ غَايَتِي الَّتِي أَسْعَى إِلَيْهَا هِيَ أَنْ نَعِيشَ مُجْتَمِعِينَ
فَأَكْتُبُ إِلَيْكَ حَتَّى أَوْافِكَ لِأَمْتَعِ نَفْسِي بِلِقَائِكَ^(٢) .

(١) هذا البيت ليس من كلامه موجودا في الأصل المقبول عنه وإنما ذكرناه لفرط مناسبة القرضوع .

(٢) جزو الشيء وسطه ومظهره وجهه أجواز .

(٣) هكذا يكون شأن الزوجة البارة المخلصة في حب زوجها — المترجم .

(١) الرسالة العاشرة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِلَانَةَ فِي ٢ فَبْرَايِرِ سَنَةِ — ١٨٥)

نَهَيْهَا عَنِ السَّفَرِ إِلَيْهِ رِغَابَةً لِلْجَنِينِ وَمَا يَلْزَمُ لَهُ مِنَ السُّكُونِ

أَنَا وَائِقُ أَبْنَاءَ الْعَزِيزَةِ بِحُبِّكَ إِيَّايَ وَأَقْسِمُ عَلَيْكَ بِاطْهَرَمَا يُوجَدُ فِي هَذَا الْعَالَمِ
وَأَجْدَرُهُ بِالتَّقْدِيرِ أَنْ لَا تَقَارِبْنِي وَأَنْ تُهْرَوِي هَرَبًا مِنِّي . نَعَمْ إِنِّي قَبْلَ الْآنِ
بَشِيرٌ أَوْ شَهْرِي كُنْتُ أَقْبَلُ مِنْكَ هَذَا الْإِخْلَاصَ الشَّرِيفَ طَيِّبَةً بِهِ نَفْسِي مُنْشِرًا
لَهُ صَدْرِي إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلِيمًا بِحُبِّكَ وَكُنْتُ أَجِدُ فِيكَ وَحْدَكَ حِينًا بَعْدَ حِينٍ تَقْرِيبًا
لِكُرْبَتِي فِي وَحْدَتِي وَإِنْسَانًا مِنْ وَحْشَتِي وَكُنْتُ لَا عِزَّازِي بِوُجُودِكَ مَعِيَ وَاعْتِبَاطِي
بِقُرْبِكَ مِنِّي وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ أَنْتَى كُلَّ مَا أَقَاسِيهِ فِي لَحْظَةٍ مِنَ الْحَاطِظِ . أَمَّا الْيَوْمَ
فَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ وَتَبَدَّلَتِ الشُّؤُنُ تَبَدُّلًا عَظِيمًا فَأَصْبَحْنَا أَنَا وَأَنْتِ لَا تَمْلِكُ مِنْ
أَمْرِنَا شَيْئًا حَتَّى حُرِّيَةِ التَّحَابِّ وَالتَّوَادُّ . أَصْبَحَ مَا هُوَ فِي الْعَادَةِ سَبَبُ انْتِفَالٍ وَاقْتِرَابٍ
بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ سَبَبًا لِافْتِصَالِنَا ، وَحَائِلًا دُونَ اجْتِمَاعِنَا ، وَذَلِكَ لِلْحَالِ السَّيِّئِ الَّذِي
نَحْنُ فِيهِ . أَلَا يَجِبُ أَنْ تُهَيَّيَ هَذِهِ الْمُجَامَلَاتِ وَتِلْكَ الْآدَابِ لِدَلِكِ الَّذِي لَمْ يُوْجَدْ
بَعْدَ الْوُجُودِ الْكَامِلِ نَحِيْثُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ مَا يُعْبَرُ بِهِ عَنِ الْمَوْجُودِ ؟ أَلَا إِنَّهُ قَدْ وَجَبَتْ
لَهُ عَلَيْنَا حُقُوقٌ نَحْنُ مُطَالِبُونَ بِإِدَائِهَا . إِيَّاكَ أَنْ تَنْدِي أَنَّكَ مَسْئُولَةٌ أَمَامَ اللَّهِ عَمَّا
وَهَبَ لَكَ مِنْ حِلْيَةِ الشَّرَفِ بِأَنْ أَهْلَكَ لِأَنْ تَكُونِي أُمًّا .

إِنِّي أَخَاطِبُكَ مِنْ حَيْثُ أَنَا طَيِّبٌ وَزَوْجٌ — وَأَخْشَى أَنْ أَعْبَلُ فَأَقُولُ أَبُ —

بِأَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لَكَ الْآنَ هُوَ شَيْءٌ مِنَ السَّكِينَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ . وَأَنْصَحُ لَكَ بِأَنْ

(١) تتضمن هذه الرسالة نزاهة الأب البار وإثارة مصلحة ولده على مصلحة نفسه — المترجم .

(١١)
تُضَادِرِي بِلَادَنَا الْآنَ وَتُهَاجِرِي مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَمِيدُ بِزَلْزِلِ الْفِتَنِ ، فَبِعِي نَصِيجَتِي
وَأَتْبِعِيهَا ، وَأَعْلَمِي أَنَّ لِي صَدِيقًا فِي إِنْجِلْتَرَةَ مِنْ رُصَفَائِي الْأَطِبَّاءِ يُنَاجِينِي حُسْنُ
اعْتِقَادِي فِيهِ أَنَّهُ سَيَنْقُذُنِي وَيُرْشِدُنِي إِلَى كُلِّ مَا يَحِبُّ عَلَيْكَ عَلَيْهِ مِمَّا يَتَبَسَّرُ لَكَ بِهِ
تَوْطُنُ تِلْكَ الْبِلَادِ عَلَى حَالَةِ مُوَافَقَةٍ ، وَإِنْ لَنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَيَا جَمْعَتَهُ بِكَدِّي مِنْ سِيرِ
الْمَسَالِ سَدَادًا مِنْ عَوِزٍ بَلْ كِفَافًا مِنَ الْمَعِيشِ ، فَاسْتَجِمِّي بِهِ أَوَّلًا لِنَفْسِكَ كُلِّ وَسَائِلِ
الرَّاحَةِ وَمُعْدَاتِ الْمَعِيشَةِ الطَّيِّبَةِ ثُمَّ أَحْفَظِي مَا بَقِيَ لِتَرْبِيَةِ وَلَدِنَا آه لَوْ أَدْرِي
عَاجِلًا أَنَّكَ قَدْ فَارَقْتَ فَرَسَةَ وَابْتَعَدْتَ عَنْ مَشَاغِبِ الشَّقَاقِ الدَّاخِلِيِّ ، فَمَجَلِّي
بِالرَّحِيلِ أَتَيْهَا الْحَبِيبَةُ .

أَقُولُ - وَاللَّهِ عَلَى مَا أَقُولُ شَهِيدٌ - إِنَّكَ لَمْ تَكُونِي فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ أَعَزَّ
عَلَى نَفْسِي وَأَعْلَى قِيَمَةً عِنْدِي مِنْكَ هَذِهِ السَّاعَةَ الَّتِي أَرْغَبُ فِيهَا إِلَيْكَ فِي عَدَمِ
الْفَلَاقِ بِي فِي سَفَرِي الْمُحْزِنِ . لَا تُكْثِرِي هَمَّكَ بِمَا قُدَّرَ عَلَيَّ وَأَعْلَمِي أَنَّ جُلَّ مَا يُعَانِيهِ
الْمُسْجُونُونَ مِنَ الشَّقَاءِ هُوَ إِحْسَاسُهُ بِأَنَّهُ لَا نَفْعَ فِي وُجُودِهِ وَقَدْ دُفِنَتْ أُنَا هَذَا الْأَلَمُ
النَّفْسِيِّ وَبَلَوْتُ مَرَارَتَهُ لِكَيْتَى الْيَوْمَ قَدْ كَلَّفْتُ وَاجِبًا جَدِيدًا يَحْتَمُّ عَلَى آدَاؤِهِ وَإِنِّي
لَأَرْجُو أَنَّ أَقْوَمَ بِهِ مَهْمًا حَالَتْ دُونَهُ الْخَوَائِلُ .

وَفِي انْتِهَامِ أُرْدَعِكَ وَدَاعِ حَبِيبِ بَرِّي فِي قَلْبِهِ مِنْ إِجْلَالِكَ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الشُّكِّ
فِي حُبِّكَ إِيَّاهُ وَيَعْلَمُ بِهِ أَنَّكَ لَا تَسْكُنُ فِي حُبِّهِ إِلَّاكَ .

(حَاشِيَةٌ) إِنِّي مُرْسِلٌ طَيَّ هَذَا مَكْتُوبًا لِلدُّكْتُورِ وَارْتِيحُونَ فِي نُذْرَةِ ١٠ هـ

الرسالة الحادية عشرة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ١٥ فبرايِر سنة - ١٨٥)

تَفْضِيلُ الْأُمُومَةِ عَلَى الزَّوْجِيَّةِ وَأَمَانِي الْأُمِّ فِي الْوَلَدِ

أَطَعْتُ أَمْرَكَ وَسَمِعْتُ نَصِيحَتَكَ وَسَافِرُ غَدًا إِلَى إِنِجْلَتَرَّةَ، وَإِنِّي قَدِ اسْتَرْجَعْتُ
بَعْضَ مَنْ ثَبَاتَ جَنَانِي، وَفَتَحَ مَكْتُوبُكَ لِي أَبْوَابًا أَرَى مِنْهَا مَشَاهِدَ جَدِيدَةٍ . لِفَن
صِفَةُ الزَّوْجِيَّةِ فِي صِفَةِ الْأُمُومَةِ فَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ لَا يَحْصِي لِي مِنْ أَتْبَاعِهَا .
عَلَى أَنَّ هَذَا الْوَلَدَ الَّذِي وَعِدْتُ بِهِ سَيَكُونُ الرَّابِطَةُ بَيْنَنَا وَيَقْرُبُ شَفَّةَ الْبَيْنِ الَّتِي تَفْصِلُنَا
بَعْضَ التَّقَرُّبِ وَإِنِّي أَرْغَبُ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أَجْلِهِ وَمِنْ أَجْلِكَ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ يَوْمَ
يَمُنُّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِإِنْتَظَامِ الشَّمْلِ مَوْضُوعَ سَلَوَةٍ لِأَحْرَانِنَا وَقَرَّةَ لِأَعْيُنِنَا وَعِزَّةَ لِأَنْفُسِنَا .
حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَرْجُوهُ مِنَ الْأَمَلِ وَوَقَانَا بِفَضْلِهِ عَوَادِي السُّوءِ . ١٠

الرسالة الثانية عشرة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٢٥ مارس سنة - ١٨٥)

وَصَفُّهَا لِنُدْرَةٍ وَمُقَابَلَتُهَا الدُّكْتُورَ وَارْتِجَتُونَ وَسَفَرُهَا بِإِرْشَادِهِ إِلَى بَنَزَانَسَ

وَإِقَامَتُهَا مَعَ زَوْجِهِ وَوصفُهَا مَا لَاقَتْ

يَكُونِي إِلَيْكَ وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ بِي النَّوَى ^(١) الْآنَ فِي إِنِجْلَتَرَّةَ أَكْشِفُكَ فِيهِ مِمَّا وَجَدْتُهُ
فِي هَذِهِ الْبِلَادِ فَأَقُولُ . اسْتَاجَرْتُ مَسَاءَ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ الْمَاضِي عَجَلَةً اجْتَرْتُ بِهَا مَا بَيْنَ

الْفَنْطَرَةُ الْمَسَاءُ فَنَطَرَةُ لُنْدَرَةَ « لُنْدُنْ رِيْدِج » وَالْمَيْدَانِ الْمَعْرُوفِ مَيْدَانِ أَوْسْتُون .
وَكَاثِي بِكَ سَائِلِي عَمَّا شَاهَدْتُهُ مِنْ عَاصِمَةِ الْجَزَائِرِ الْبَرِيطَانِيَّةِ : لَمْ أَرْ مِنْهَا شَيْئًا أَوْ إِنَّ
مَا رَأَيْتُهُ لَا يَكَادُ يَكُونُ شَيْئًا يَذْكُرُ . كُنْتُ أَحْسُ أَحْيَاءًا بِأَنِّي أَتَوَرُّ فِي الظَّلَامِ مَعَ
الْعَجَلَةِ أَتَاءَ جَرِيهَا فِي الْمَبَادِينِ الْقَسِيحَةِ الْمُحْتَفَةِ بِالنِّسَاتِينَ وَالْيُتُوتِ الَّتِي كُنْتُ إِخَالَهَا
هَاجِعَةً . وَكُنْتُ أَرَى عَقَبَ ذَلِكَ مِنْ كُوْنِي الْعَجَلَةِ شَوَارِعَ طَوِيلَةٍ تَمْتَدُّ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ تَحْتُمِلُهَا الْمَخَازِنُ التِّجَارِيَّةُ مِنَ الْحَنَانِيِّينَ ، وَيَمْتَدُّ فِي جَانِبِي كُلِّ
مِنْهَا عَلَى مَدَى الْبَصَرِ صَفَّانِ مِنَ الْمَصَابِيحِ الْغَايَةِ ، فَكُنْتُ تَارَةً أَجْدُنِي فِي ظُلُمَاتِ
مُتَكَافِئَةِ الْحُجُبِ وَأُتْرَى أَرَانِي بَيْنَ طَوَائِفَ غَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَصَابِيحِ . وَقَدْ
كَانَ مَنْظَرُ ضَوْئِهَا الْمُتَعَكِّسِ عَلَى رُصُفِ الشَّوَارِعِ الْمُبْلَلَةِ وَعَلَى وَقَائِعِ الطَّرِيقِ ^(١) ، وَجَمَلُهُ
أَهْلُ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْدُونُ وَيَرْوَحُونَ وَيَسْمَتُ الْهَمَّ وَالْإِشْتِغَالَ بِأَدْبَارِهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؛
وَجَلْبَةُ الْغَوْضَاءِ ^(٢) الَّتِي كَانَتْ تَتَوَارَعُهَا السُّكُوتُ فَجَاءَةً — كَانَ كُلُّ هَذَا غَرِيبًا عِنْدِي غَيْرَ
مَعْهُودٍ لَدَيَّ ، وَكَانَتْ السَّمَاءُ مُطْمَرَةً وَكَانَ لَا مَطَرَ — ذَلِكَ أَنَّهُمَا كَانَتْ تُرْهِمُ إِرْهَامًا ^(٣)
خَفِيفًا جِدًّا يَقُولُ رَأَيْتُهُ إِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِرَّ هَكَذَا أَلْفَ سَنَةٍ ، وَقَدْ حَصَلَ فِي ذَهْنِي
مِنْ سَفَرِي هَذَا فِي سَدَفِ الظَّلَامِ مُجْتَازَةً مُسْتَنْقَعَاتِ الْمَاءِ جَائِلَةً فِيمَا أَجْهَلُهُ مِنَ
الْأَمَاكِينِ صُورَةَ مَدِينَةٍ لَا أَوَّلَ لَهَا وَلَا آخِرَ ، فِيمَا كَثِيرٌ مِنْ ضُرُوبِ الْعِظَمَةِ وَالْبَذَخِ ،
وَكَثِيرٌ مِنْ أَنْوَاجِ الْحَقَارَةِ وَالْمُسْكِنَةِ ، فَهَلْ هَذِهِ هِيَ لُنْدَرَةُ ؟

(١) الوقائع : جمع وقعة وهي الفترة في الجبل أو في السهل يستمتع فيها الماء .

(٢) الغَوْضَاءُ : طاعة الناس ، وجلبتهم : لنظهم غير المقهور .

(٣) أَرَهَمْتُ السَّمَاءَ : أَتَيْتُ بِالرَّهْمَةِ وَهِيَ يَكْسِرُ الرِّاءَ الْمَطْرَ الضَّعِيفَ الدَّامِ .

تَبَوَّأْتُ التُّزْلَ الَّذِي كَانَتْ وَصَفَتْهُ لِي السَّيِّدَةُ ... فَالْتَقَيْتُ كُلَّ مَا فِيهِ فِي غَايَةِ
النِّظَافَةِ وَالْمَلْدُوَةِ وَالنِّظَامِ . قُدِّمَ لِي الْعِشَاءُ فِي غُرْفَةٍ خَاصَّةٍ مِنْهُ ، فِيهَا كِفَافَتَاهَا مِنْ
الْفَرَشِ وَهِيَ مُلَاصِقَةٌ لِلْغُرْفَةِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِنَوْمِي . وَقَدْ رَاعَنِي مِنْ خَادِمَةِ الْمَائِدَةِ
جَاهِلُ الْبَارِعِ . فَبَعْنِي ذَلِكَ عَلَى مُرَاجَعَةِ ذَاكِرَتِي لِأَذْكَارِ الْقَلِيلِ مِنَ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ
الَّذِي كُنْتُ تَعَلَّمْتُهُ فِي الْمَدْرَسَةِ لِمُخَاطَبَتِهَا بِلُغَتِهَا ، فَكَانَتْ أَجْوِبَتُنِي فِي غَايَةِ الْإِخْتِصَارِ ،
وَلَمْ أَتَّبَعْ أَنَّ فِهْمْتُ مِنْ اخْتِرَاسِهَا فِي كَلَامِهَا وَظُهُورِ سِمَا الْجِعْرِ عَلَى وَجْهِهَا أَنَّ
الْخَادِمَاتِ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ لَا يَحْفَلْنَ بِخِطَابِ الْمَخْدُومِ إِيَّاهُنَّ خِلَافًا لِلْفَرَسِيَّاتِ . وَالَّذِي
أَدَهَشَنِي كَثِيرًا فِي هَذَا التُّزْلِ أَنَّ أَهْلَهُ لَمْ يَسْأَلُونِي عَنِ اسْمِي وَلَا عَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِي !!
حَبَّبًا لِهَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ أَنَّ أَهْلَهَا يَتَعَقَّدُونَ أَنَّي مَا أَتَيْتُ بِلَادَهُمْ إِلَّا لِقَلْبِ
حُكُومَتِهِمْ (تُرِيدُ التَّعْرِِيضَ بِبِلَادِهَا الْفَرَسِيَّةِ) .

إِتِّبَامًا لِنِصَائِيكَ قَدْ اخْتَدَيْتُ إِلَى مَحَلِّ الدُّكْتُورِ وَارْتَجَيْتُ وَدَهَبْتُ إِلَيْهِ فِي تَانِي
يَوْمٍ مِنْ وُصُولِي وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ مَكْتُوبَكَ - فَمَا كَادَ يَأْتِي عَلَى آخِرِهِ حَتَّى تَذَكَّرْتُ اسْمَكَ
وَأَقْبَلَ عَلَى تَلْوِخٍ عَلَيْهِ عَلَامُ الْوَقَارِ الْفِطْرِيِّ . أَنشَأَ هَذَا الدُّكْتُورُ يُخَاطِبُنِي بِالْفَرَسِيَّةِ
وَهُوَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ بِهَا بَعْضَ الْإِحْسَانِ فَقَالَ : «لَقَدْ أَصَابَ زَوْجُكَ فِي إِرْسَالِكَ
إِلَى بِلَادِ أَجْنِبِيَّةٍ فَسَرَّحَ نَفْسَكَ إِلَى الْمَقَامِ فِي إِنْجِلْتَرَّةٍ بِمَا سَجِدْنَاهُ فِيهَا مِنْ أَعْتِدَالِ
الصَّحَّةِ إِلَّا أَنَّي أَنْصَحُ لَكَ بِأَنْ تُقِيمَ فِي الْأَرْيَافِ فَإِنَّهَا أَجُودُ مَنَاحًا وَأَصْفَى هَوَاءَ
فَإِنَّ السُّكْنَى فِي الْحَوَاضِرِ الْعَظِيمَةِ لَا تُبَلِّغُ النِّسَاءَ فِي الطُّورِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ الْآنَ
وَلَا تُبَلِّغُ الْأَطْفَالَ أَيْضًا ، وَقَدْ أَنشَأَ الْكِبَرَاءُ مِنْ عُنَابَرِنَا فِي لُنْدَرَةِ فَهْمُونَ مَرَايَا
الْإِقَامَةِ فِي الْقَرْيَةِ وَيَقْدُرُونَهَا حَقَّ قَدْرِهَا قَرِينَهُمْ لَا يَمُوتُونَ بِالسَّيْرِ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ

فِي السَّكَةِ الْحَدِيدِيَّةِ وَلَا يَمَّا يُضِعُّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا السَّفَرُ مِنَ الْفَوَائِدِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي مِنْهَا
الْحُضُورُ فِي تَأْدِيهِمْ مَثَلًا وَذَلِكَ لِيَمْتَعُوا أَسْرَهُمْ بِقَلِيلٍ مِنْ نَضَارَةِ الْخَضِرَةِ وَمَنَافِعِ الشَّمْسِ
فَهُمْ يَصْرِفُونَ بِذَلِكَ نِسَاءَهُمْ عَنِ التَّرَدُّدِ عَلَى مَعَاهِدِ التَّمَثِيلِ وَمَوَاطِنِ اللّٰهُوِّ الْآلِيِّ . وَلِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ نَصِيبٌ مِنْ فَائِدَةِ هَذِهِ الْإِقَامَةِ غَيْرَ أَنَّ الْأَطْفَالَ هُمْ أَصْحَابُ
الْحِظِّ الْأَوْفَرِ مِنْهَا فَهُمْ يَنْشَاطُونَ فِي كَالِ الصَّحَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَعِيشَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي هَوَاءِ
الْفَضَاءِ ، وَلَا يَكَادُ يَرْغُبُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفَنَاجَاتُ الْمُتَوَرَّنَاتُ^(١) اللَّاهِيَاتُ بِالنَّافَةِ
وَالْمُحَقَّرَاتِ ، وَلَكِنْ مَا الْحِيلَةُ فِي إِرْضَائِهِنَّ وَلِلْأُمَمَةِ وَاجِبَاتٌ لَا بُدَّ مِنْ أَدَائِهَا ؟
تَأْمَلِي فِي الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَرَبُّونَ فِي الْمَدُنِ الْكَثِيرَةِ ، أَلَا تَرَيْنَ مُعْظَمَهُمْ شَاحِي
الْأَلْوَانِ مَقِيْمِي الْأَجْسَامِ كَالنَّبَاتَاتِ الْمُوشِمَةِ (النَّائِتَةِ فِي الظَّلِّ الْمَحْرُومَةِ مِنْ ضَوْءِ
الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا) أَنْظِنِي أَنَّهُمْ عَلَى هَذَا الضَّعْفِ يَزْدَادُونَ فِي عُقُوبِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَحْسِرُونَ
مِنْ حَقَّتِهِمْ ؟ كَلَّا إِنِّي لَا أَرَى هَذَا صَوَابًا لِأَنَّ جَوَّ الْمَدْنِ الَّذِي أَفْسَدُهُ مَا فِيهَا مِنْ
ضُرُوبِ اللَّذَائِدِ وَصُنُوفِ الْأَعْمَالِ لَا يُبَلِّغُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ نُمُوَّ الْعَقْلِ الْخَلْقِيِّ .
وَإِنَّ الْأَطْفَالَ لَيَسْلُفُونَ سِنَ الرُّجُولَةِ قَبْلَ إِبَانَةِ تَأْثِيرِ تِلْكَ الْحَرَارَةِ الصَّنَاعِيَّةِ الَّتِي
فِي الْمَدْنِ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي الْغَالِبِ يَكُونُونَ رَجَالًا نَاقِصِينَ لَا يَسْلُفُونَ فِي الْكَمَالِ الدَّرَجَةِ
الْمَطْلُوبَةِ .

فَإِنَّ الدُّكُورَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْأَخِيرَةِ وَابْتَسَمَ ابْتِسَامًا أَتَمَّهُ يَظْهَرُ خُطُوبُ
عَرَضِيَّةٍ عَلَى وَجْهِهِ السَّكْسُونِي الْمُسْتَدِيرِ الَّذِي يُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى خَدَيْهِ شَعْرُ الصَّدْفَيْنِ
الْقَصِيرِ الَّذِي قَدْ وَخَّطَهُ الشَّيْبُ^(٢) ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْخِطَابَ فَقَالَ :

(١) الفَنَاجَاتُ : ذَوَاتُ الْبِلَالِ . (٢) المتَوَرَّنَاتُ : الْمُبَالِغَاتُ فِي الصَّطِيحِ وَالنَّمِ . (٣) وَخَّطَهُ : خَالَطَهُ .

« دَعْنِي أَتَوَلَّى أَمْرَ سُخَّكَ فِي الْخَلَاءِ فَإِنِّي صَدِيقًا بِمَلِكٍ فِي قَرْيَةٍ مَرَّازِيُونَ
بَيْتًا لِلزَّهَةِ فِيهِ نَيْءٌ مِنَ الْجَمَالِ وَالنَّظَامِ وَمَوْقِعُهُ نِجَاهَ خَلِيجِ بَرْتَاسَ وَهُوَ يَحْتَضِرُ عَنْ
مُسْتَحْرِ يُجْرُهُ لَهُ يَجْمَعُ أَنَانِهِ وَرِبَاشُهُ لِأَنَّهُ عَلَى وَشِكِ الرَّحِيلِ إِلَى إِيطَالِيَةِ اللَّقَامِ بِهَا
لِأَسْبَابٍ صَحِيَّةٍ، فَإِنَّا أَرَّغُبُ إِلَيْكَ فِي الذَّهَابِ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ وَرُؤْيَتِهِ وَأَحْنُكَ عَلَى
ذَلِكَ وَأَرَى أَنَّ فِي هَذَا السَّفَرِ تَسْلِيَةً لَكَ وَتَرْوِيحًا، وَلَوْ أَنِّي طَيْبُكَ لَكَانَ مِنْ أَوَّلِ
مَا أَصِفُهُ لَكَ تَبْدِيلُ الْهَوَاءِ وَكَوْنِي عَلَى نِقْمَةٍ بِأَنَّ الْآلَمَ النَّفْسِ تَزُولُ بِتَغْيِيرِ الْمُؤَثَّرَاتِ،
فَقَلَّمَا يُوجَدُ مِنْ هَذِهِ الْأَلَامِ مَا يَتَعَاصَى عَلَى هَذَا التَّغْيِيرِ كَمَا ثَبَتَ لِي بِالتَّجَارِبِ، فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَشَاهِدَ خَلَائِفَةٍ جَدِيدَةٍ يَحْيَا حَيَاةً جَدِيدَةً . وَلَيْسَ لِي أَنْ أَمْدَحَ لَكَ
أَمِيرِيَّةَ (كُونِيَّةَ) كُورُنَوَايَ فَإِنَّهَا مَسْقُطُ رَأْسِي ، عَلَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى الْقَوْلِ
بِأَنَّهَا أَكْثَرُ جِهَاتِ بَرِيطَانِيَةِ الْعُظْمَى اعْتِدَالًا فِي الْإِقْلِيمِ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَبِيعُ فِي أَرْضِهَا
الرِّيحَانُ وَالْعِطْرُ وَالْعُودُ مُعْرَضَةً لِهَوَائِهَا الْمُطْلَقِ فِي جَمِيعِ الْفُصُولِ . إِنْ كُنْتُ مِنْ
يُرُوفُهُنَّ مَنَظَرُ الصُّخُورِ فَإِنَّكَ سَتَشَاهِدِينَ هُنَاكَ مِنْهَا جَمِيعَ الْأَشْكَالِ فِي أَبْهَجِ الْأَوْضَاعِ
وَأَجْدَرِهَا بِالتَّصْوِيرِ، وَلَسْتُ أَعْرِفُ حَقَّ الدَّعْرِفَةِ مِقْدَارَ الْأُجْرَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا صَدِيقِي
فِي سُكْنَى بَيْتِهِ لِكَيْ لَا أَشْكُ فِي أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِعْتِدَالِ فِيمَا يَطْلُبُهُ وَسَتَجِدِينَ
فِي بَرْتَاسَ زَوْجَتِي السَّيِّدَةَ وَارْتِمُوتُونَ فَإِنَّهَا هُنَاكَ هِيَ وَأَمْرُهَا حَتَّى الْآنَ وَسَتَقْبَلُ
بِاسْتِقْبَالِكَ وَأَمَّا أَنَا فَسَأَذْهَبُ لِزِيَارَتِهَا وَاسْتِنَاقِ هَوَاءِ مَوْلَدِي كُلَّمَا تيسَّرَ لِي الْخِلَاصُ
مِنْ أَشْغَالِي فِي لُنْدَرَةِ، فَإِنَّمَا مَعْتَرِ الْإِنْجِيلِ لَا نَقْدِرُ عَلَى إِطَالَةِ التَّوَالِي فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ
فَالْحَرَكَةُ وَالْفَقْصَاءُ مِنْ حَاجَاتِنَا . وَمَا كَانَ أَجْدَرَنَا بِاخْتِرَاعِ آلَةِ الْبَخَارِيَّةِ وَقَدْ اخْتَرَعْنَاهَا

وَلَا عَجَبَ وَأَصْبَحْنَا سَبَبَ هَذَا الْإِخْتِرَاجِ أَقْلُ الْأَيْمِ تَغْيِيرًا فَلَمَّا مَعَ سَفَرِنَا الدَّائِمِ فِي إِقَامَةِ
مُسْتَمِرَّةٍ لَأَنَّا فِي أَوْطَانِنَا أَيْمًا كُنَّا .

إِفْتَرَقْتُ أَنَا وَالذُّكُورُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الْوَقَاقِ وَالْمَوَدَّةِ وَقَدْ خَاطَبَنِي فِي شَأْنِكَ
بِمَا شَفَّ لِي عَنْ كُنْهِ إِجْلَالِهِ لَكَ وَإِعْظَامِهِ لِقُدْرِكَ، وَلَمَحَ لِي مَرَّةً وَاحِدَةً فِي مَطَاوِي
كَلَامِهِ تَلْبِيحًا خَفِيفًا إِلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْفُرْقَةِ الْحَاضِرَةِ فَأَبَانَ لِي بِهِ عَنْ عَطِيفٍ عَلَى
وَسِيلٍ إِلَيَّ وَلَمْ يَسْتَرْسِلْ اسْتِرْسَالَ النَّاسِ فِي عِبَارَاتِ التَّعْزِيَةِ وَالْتَّسْلِيَةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا أَذَلَّتْنِي
وَهَضَمْتَنِي حَقًّا إِذْ لَا لِي بِصِفَةِ الزَّوْجِيَّةِ . ثُمَّ الْإِتِّفَاقُ بَيْنَنَا عَلَى أَنَّ أَسَافِرَ فِي الْغَدِ إِلَى
كُورْنَوَى وَإِنَّمَا عَجَلْتُ بِالسَّفَرِ لِأَسْتَقِرَّ فِي مَكَانٍ مَا، وَقَدْ رَضِيتُ هَذِهِ الْبَلَدَةَ لِي مَقَرًّا
لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَمْكِنَةِ الَّتِي لَا أَرَاكَ فِيهَا سِوَاءٍ عِنْدِي .

لَمَّا وَصَلْتُ إِلَى بَرْزَانَسَ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ تَلَقَّيْنِي السَّيِّدَةُ وَارْتَجَحُونُ عِنْدَ زُرُولِي مِنْ عَجَلَةٍ
الْمُسَافِرِينَ وَكَانَتْ فِي انْتِقَارِي لِأَنَّ زَوْجَهَا كَانَ كَتَبَ إِلَيْهَا بِذَلِكَ، وَإِذَا أَرَدَتْ أَنْ
تَتَصَوَّرَ تِلْكَ السَّيِّدَةَ قَتْلَ لِنَفْسِكَ امْرَأَةً فِي نَحْوِ الْخَامِاسَةِ وَالْثَلَاثِينَ مِنْ عُمرِهَا لَيْسَتْ
حَسَنَةَ الْوَجْهِ وَلَا دَمِيمَةً^(١)، وَلَكِنَّا عَجِبُوهُ، سَوْدَاءُ الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعْرِ خَسَاءُ^(٢) الْأَنْفِ
عَظِيمَةُ الْقِيمِ بِاسْمِهِ سَمِيَّةٌ قَصِيرَةٌ عَلَى أَنَّهَا خَفِيفَةٌ تَسْبِطُهُ قَدْ أُوْتِيَتْ حَظًّا وَافِرًا مِنَ
الْحَنَانِ وَالرَّأْفَةِ .

لَقَدْ كَثُرَ مَا لَاحَظْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بَيْنَ شَخْصَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ
فِي الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ وَالْمَوْطِنِ تَشَابَهُ كَالَّذِي يُوجَدُ بَيْنَ أَفْرَادِ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ أَنَّ كَلًّا

(١) دميته : قبيحة .

(٢) خساء الأنف أى أقبحها منظر من وجهها وفى أرنبة ارتفاع .

مِنْهُمَا يَكُونُ أَجْنَبِيًّا مِنَ الْآخَرِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ . أَتَدْرِي مَنْ هُوَ الَّذِي حَضَرَتْ
صُورُهُ فِي ذَهْنِي عِنْدَ وَقُوعِ بَصَرِي عَلَى السَّيِّدَةِ وَارْتِجُوتُ ؟ ذَلِكَ هُوَ صَدِيقُكَ
يَعْقُوبُ قَوْلًا، خَلَّتْني أَرَاهُ بِدَانِهِ فِي زِيٍّ امْرَأَةٍ .

حَمَلْتُ أَمْتِي خَادِمٌ كَانَ يَصْحَبُ هَذِهِ السَّيِّدَةَ فَوَضَعَهَا فِي عَجَلَةٍ رَكْبَانَهَا فَأَوْصَلَتَنَا
إِلَى مَنَزِلِ الدُّكْتُورِ الرَّيْفِيِّ . وَلِهَذَا الْمَنَزِلِ مَنَظَرٌ بَرِّيجٌ إِذَا شُهِدَ لَيْلًا فِي صَوْنِ الْمَاءِ
فَإِنَّهُ لَيَكُونُهُ مَبْنًى بِالصَّوَانِ كَمْ مَطْمُ سُبُوتِ النَّتْرِهِ الْخَلَائِيَّةِ وَالْأَكْوَاجِ الَّتِي فِي تِلْكَ الْجِهَةِ
كَانَ حِجَارَتُهُ صَفَائِحٌ مِنَ الِيرْمَعِ وَالْمُهْوِ تَلْمَعُ كَأَنَّهَا شَهَبٌ تَسَاقُطُ مِنَ الْقَمَرِ ، وَفِي النَّهَارِ
أَيْضًا لَهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنْ جَمَالِ الْمَنَظَرِ ، فَإِنَّهُ قَائِمٌ فِي وَسْطِ حَدِيقَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ الْمَجْلُوبَةِ
مِنَ الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ ذَاتِ الْأَلْوَانِ الطَّيْفَةِ ، وَيَنَسِطُ عَلَى طُولِ مُقَدِّمِهِ إِيوَانٌ مَسْقُوفٌ
تُسَلِّقُهُ شُجَيْرَاتُ الْفُوشِيَاءِ الَّتِي تَرْتَفِعُ ارْتِفَاعًا غَيْرَ مَعْدُودٍ فَهُوَ مُزْدَانٌ مِنْ دَاخِلِهِ وَخَارِجِهِ
زِينَةً بَدِيعَةً مِنَ الْأَزْهَارِ لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهَا قَطُّ ، وَلِيُيَوِّتِ النَّبَاتُ الزُّجَاجِيَّةَ الْمَحَلَّ الْأَوَّلُ
فِي انْتِظَامِ هَذِهِ الدَّارِ عَلَى مَا أَرَى . لَا جَرَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْبَسَائِنِ الْمَسْقُوفَةِ بِالزُّجَاجِ
تَزِيدُ الْمَعِيشَةَ الْأَهْلِيَّةَ نَضَارَةً وَحُسْنًا . وَالْعُرْفَةُ الَّتِي تَفْضُلُ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ
بِإِعْدَادِهَا لِي وَاحْتِنَائِهَا السَّيِّدَةَ وَارْتِجُوتُ نَفْسَهَا بِمَا أُوتِيَتْهُ مِنْ كَامِلِ اللُّطْفِ وَفَتْقِ
الظُّرْفِ يَحَاكُمَا الْإِنْسَانَ جَنَّةً — لَوْ أَنَّ لِلْأَرْوَاحِ الْوَحِيدَةِ الْحَرِيحَةِ أَنْفُسَهَا مِنَ الْحَزَنِ
جَنَّةً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ... — وَمِنْ حَمَائِنِ هَذِهِ الْعُرْفَةِ أَنِّي عِنْدَمَا أَهْبُ مِنْ نَوْبِي فِيهَا
أَسْمَعُ تَغْرِيدَ الْقُبْرَةِ ^(١) فَيُرَوِّقُنِي لَحْنَهَا .

(١) اليرمع : هجاء يبيض تلمع في الشمس . (٢) المهور : حجر أبيض يقال له بصاق القمر .

(٣) الفوشياء : شجيرة أمريكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتزهر بألوانها ومزهرة

غرسها وهي من أشجار الزينة . (٤) القبرة — بضم القاف وتشديد الباء — : نوع من الصافير .

السَّيِّدَةُ وَارْتِجَتُونُ هِيَ وَالِدَةُ كَامِلَةَ عَاقِلَةً فَإِنَّهَا تَقْسِمُ وَقْتَهَا قِسْمَيْنِ ، أَحَدُهُمَا لِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهَا ، وَالثَّانِي لِلْعَنَاءِ بِأَمْرِ أَزْهَارِهَا ، وَلَهَا مِنْ كُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمَا شَيْءٌ مِنْ الْفَرَاغِ يَكْفِيهَا لِلْمُطَاعَنَةِ ، وَهِيَ عَلَى بَعْدِهَا عَنِ الدَّعْوَى بِالْإِحَاطَةِ بِالْعُلُومِ فِي الْمُنْطَوِقِ وَالْمَقْهُومِ لَهَا مِنْ طُرُقِ الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى مَسَائِلِ شَيْءٍ أَحْكَامٍ صَائِبَةٍ وَآرَاءٍ سَيِّدَةٍ .
وَأُسْرَةُ هَذِهِ السَّيِّدَةِ يُعْجَبُ بِهَا مَنْ يَرَاهَا ، فَيُنَادِيهَا الْكَبِيرَانِ الْتَّانِ إِحْدَاهُمَا رُبَّمَا كَانَ عُمُرُهَا مِئَةً عَشَرَ رِسْعًا — كَمَا كَانَ يُقَالُ فِي تَقْدِيرِ السَّنِّ سَاقِبًا — لِكُلِّ مِنْهُمَا وَجَتَانِ يَذُوبُ الْوَرْدُ مِنْهُمَا غَيْرَ وَحَسَدًا ، وَبَعْدَ هَاتَيْنِ الْبَنَتَيْنِ صَفٌّ مِنْ بَنَاتِ أَخْرِبَاتٍ وَبَنِينَ يَتَأَلَّفُ فِيهِ مِنْ اخْتِلَافِ رُءُوسِهِمُ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَتَبَائِنِهِمْ بِالطُّولِ وَالْقَصْرِ نِظَامٌ يَحْمِي أَجْمَلَ الْفُرُوقِ وَأَبْهَاهَا . كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ النِّسَاءَ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ نَثُرُ (كَثِيرَاتُ الْأَوْلَادِ) وَلَكِنَّ : اللَّهُ أَكْبَرُ ؟ مَا هَذَا الزُّخْرُفُ زُخْرُفُ الشُّعُورِ الشُّقْرَاءِ وَالْأَكْثَابِ الْمَكْشُوفَةِ وَالْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ الْقَضَّةِ الَّتِي مَا كُنْتُ أَسْمَعُ بِهَا ! اهـ

الرسالة الثالثة عشرة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٢٨ مَارِسَ سَنَةِ — ١٨٥٠)

زِيَارَتُهَا جَبَلَ الْقُدَيْسِ مِيكَائِيلَ وَوَصَفَهَا الْمَتَرِلَ الَّذِي اسْتَأْجَرَتْهُ لِلسُّكْنَى
نَحَرَجْتُ بِالْأَمْسِ لِلزَّهَةِ أَنَا وَالسَّيِّدَةُ وَارْتِجَتُونُ رَاكِبَتَيْنِ عَجَلَةً مَكْشُوفَةً سَلَكْتُ بِنَا
الْمَهْجِجَ^(١) الَّذِي يَتَدَيُّ مِنْ بَنَازِسٍ وَيَلْتَفُّ حَوْلَ الْخَلِيجِ الْمُسَمَّى بِخَلِيجِ الْجَبَلِ عَلَى شَكْلِ

(١) من لنا بيدات مثل هذه السيدة يفهمن قيمة الوقت ويستملن استعمالها فلا يضيعنه فيما يعود عليهن وعلى أولادهن وأزواجهن بالحسار والبرار كالترين والتبرج والاختلاف الى مواطن الهوى وغشيان الأسواق بقدر ضرورة — المترجم . (٢) المهجج الطريق الواسع الين .

نِصْفِ دَائِرَةِ عَظِيمَةٍ كَحِذَاءِ الْفَرَسِ فَمَا أَهَجَ مَا رَأَيْتُهُ وَأَجْمَلُهُ ! عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ أَوَّلُ شَيْءٍ أَمَالَ ذِهْنِي وَنَبَهَ فِكْرِي هُوَ الْبَحْرُ الزَّائِرُ أَوْ شَوَاطِئُهُ الْمُرْصَعَةُ بِالصُّخُورِ أَوْ حَرَكَةُ أَمْوَاجِهِ الْمُتَلَاطِمَةِ الْمُتَعَاكِفَةِ فِي تَلَاشِيهَا عَلَى رَمْلِ الطَّرِيقِ ، بَلِ الَّذِي اسْتَوْقَفَ نَظْرِي هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الصَّوَانِ يَعْلُوهَا بِنَاءٌ كَالَّذِيرِ أَوْ الْقَلْعَةِ الْحَصِينَةِ يُسَمِّيهِ الْإِنْجِيلُ بِالْحَيْلِ . وَهِيَ بَارِزَةٌ عَلَى يَسَارِ بَطْنِ الْخَلِيجِ وَلِذَلِكَ نُسِبَ إِلَيْهَا قَلِيلٌ لَهُ خَلِيجُ الْحَيْلِ . إِخَالَتْنِي رَأَيْتُ هَذِهِ الصُّخْرَةَ بِمَا فَوْقَهَا مِنَ الْأَبْرَاجِ الصَّغِيرَةِ فِي مَنَامٍ أَوْ فِي وَقْعَةٍ مِنْ وَقَعَاتِ الْكَابُوسِ عَلَى .

سَأَلْتُ السَّيِّدَةَ وَارْتَحِلُونَ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ مِنَ الرَّعْشَةِ عَنْ هَذَا الشَّجَجِ الْحَجَرِيِّ فَاجَابَتْنِي مُتَرَدِّدَةً لِمَا رَأَتْهُ مِنْ حَالَتِي يَقُولَانِ : هَذَا هُوَ جَبَلُ الْقُدَيْسِ مِكَائِيلَ عِنْدَنَا فَلَمَّا يَمَعْتُ مِنْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ أَحْسَسْتُ بِأَنَّ كُلَّ مَا فِي جِسْمِي مِنَ الدَّمِ قَدْ جَزُرَ عَائِدًا إِلَى قَلْبِي ، فَلَمَحْتُ مَا صُرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْاضْطِرَابِ وَعَرَضْتُ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْمَنْزِلِ فَنَصَحْتُ : لَا ، بَلِ لَا بُدَّ لِي مِنَ الذَّهَابِ إِلَيْهِ ، فَاضْطَرَرْنَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الطَّوَافِ حَوْلَ الْخَلِيجِ وَالذَّهَابِ إِلَى مَرَارِئُونِ .

لَمَّا أَنْ صِرْنَا حِذَاءَ الْجَبَلِ كَانَ الْبَحْرُ فِي إِبَانٍ جَزِيرِهِ وَكَانَتْ هَذِهِ الصُّخْرَةُ الصَّوَانِيَّةُ عَلَى شَكْلِ شِبْهِ جَزِيرَةٍ لِانْحِسَارِ الْمَاءِ عَنْ بَعْضِ جِهَاتِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جَزِيرَةً كَامِلَةً بَعْضُ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ ، سَلَكْنَا لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا شِعْبًا رَمْلِيًّا مُوَحَّدًا يَكْتَنِفُهُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ قِطْعٌ مِنَ الصُّخُورِ مَغْطَاةٌ بِالطُّحْبِ وَالْعَلَقِ الْمَبْلَلَةِ ^(٢) وَتَسَّرَ لَنَا بِهِ أَنْ نَجْتَازَ

(١) جزر : يمتد ربح .

(٢) العلق : نبت يكون واحداً وجمعاً فضيانه دفاق عسر رضا تخفف منه المكانس .

الْبَحْرَ بَسًّا وَمَا كَانَ يَرْمِضُ لَنَا مِنَ الْقِطْعِ الصَّخْرِيَّةِ كَمَا كَانَتْ تَمْشِي بَيْنَ أَطْلَالِ،
وَكُنْتُ كُلَّمَا جَدُّ بِنَا السَّيْرَ أَزْدَادُ دَهْشَةٍ وَارْتِبَاعًا لِتَشَابِهِ ذَيْبِكَ الْجَبَلَيْنِ الْمُتَحِدِي الْأَسْمَ
فَإِنَّ هَذِهِ الصَّخْرَةَ بِمَا فَوْقَهَا مِنَ الْبِنَاءِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْبَحْرِ تَكَادُ تَكُونُ عَيْنَ آتِي
فِي الْيَلَدِنَا، إِلَّا أَنَّ تِلْكَ أَسْعَدَ حَظًّا مِنْ هَذِهِ فَإِنَّهَا لَمْ تَدْنَسْ بِاتِّخَاذِهَا مَجْنَى فِي زَمَنِ
مِنَ الْأَزْمَانِ .

أَفْضَى بِنَا الْمَسِيرُ بَعْدَ حِينَ إِلَى سَفْحِ ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَإِذَا حَوْلَهُ لَيْفٌ مِنْ مَسَارِكِنَ
حَقِيرَةٍ يَتَأَلَّفُ مِنْ جُمُوعِهَا قَرْيَةٌ لِلصَّيَادِينَ وَالْمَلَّاحِينَ، فَوَقَفْنَا تُشْرِفُ عَلَيْنَا الصَّخْرَةُ
الصَّوَانِيَّةُ مِنْ سُموها الرَّائِعِ، ثُمَّ اقْتَحَمْنَاهَا فَاضْطَرَرْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى الصُّعُودِ عَلَى
شِعْبٍ بَلْ سُلِّمَ يُخْتِ دَرَجَاتُهُ فِي الصَّخْرَةِ وَقَدْ أَتَتْهُ الْأَمْرُ بِالسَّيِّدَةِ وَارْتِمَتْهُ إِلَى
أَنَّ ضَاقَتْ أَنْفَاسُهَا وَطَفَقَتْ تَلَهُثُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ، فَدَعَوْتُنَا إِلَى الْإِسْتِرَاحَةِ عَلَى
كُلَّةٍ مِنْ كُلِّ صَخْرِيَّةٍ كَانَتْ تَعْتَرِضُنَا فِي طَرِيقِنَا وَيَطْهَرُ أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَاطِنِ
الْجَبَلِ بِسَبَبِ انْفِجَارِ نَارِيٍّ فَمَا كَانَ أَسْرَعَ مَا أَجَابَتْ، وَجَلَسْنَا طَائِفَةً مِنَ الزَّمَنِ
لَا تَنْهَسُ بِكَلِمَةٍ لِمَا أَدْهَشَنَا مِنْ مَشْهَدِ الْعِظَمِ وَالْخَرَابِ، فَكَانَ الْبَحْرُ مُحْدِقًا بِنَا وَذَلِكَ
الْبِنَاءُ الْقَائِمُ الَّذِي هُوَ مِنْ آثَارِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى فَوْقَنَا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا وَعَنْ تِمَائِلِنَا أَطْلَالٌ مِنْ
الصَّخْرِ يَطْفِئُ جُزْءًا مِنْ عُرْجِهَا بَعْضُ الْأَعْشَابِ الْبَرِّيَّةِ . وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى مَا فِي هَذَا
الْمَكَانِ مِنَ الْمُحَوَّلِ زَهْرَةٌ زُرْقَاءُ نَاسِيَّةٌ فِي صُدُوعِ الصَّخْرِ عَلَى طَبَقَةٍ رَقِيقَةٍ مِنْ بَقَايَا
الْأَعْشَابِ الْمُتَعَفِّتَةِ فَقَطَعْتُهَا عَلَى ذِكْرِكَ لَعَلَّهَا تَكُونُ بُشْرَى السَّعَادَةِ . كُنْتُ إِلَى هَذِهِ
السَّاعَةِ الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا جَبَلَ الْقَدِيدِ مِثْكَائِيلَ مُتَرَدِّدَةً فِي اخْتِيَارِ الْبُقْعَةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا
مُتَبَوِّأً وَسَكَا، وَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ اسْتَقَرَّ لِمُجَرَّدِ مُشَاهَدَتِهِ رَأْيِي وَزَالَ تَرْدِيدِي . فَكَمَا

يُوجَدُ شَيْءٌ مِنَ السَّحْرِ فِي أَسْمَاءِ الْأَمْكِنَةِ وَأَشْكَالِهَا تَنْظَبُ عَلَى فِكْرِي فَحَمَلَنِي عَلَى
تَرْجِيحِ الْإِقَامَةِ بِهَذَا الْفَحْلِ عَلَى أَنَّهُ لَا بَدْعَ وَلَا سِحْرَ، فَهَاتَانِ الصَّخْرَتَانِ — اللَّتَانِ
تُتَرَاءَيَانِ وَتَتَنَاقِيَانِ مَعَ فَصْلِ الْمُحِيطِ بَيْنَهُمَا — وَهُمَا جَبَلَا الْقِدِّيسِ مِيكَائِيلِ أُخْتَانِ
فِي الْإِنْجِلَّةِ وَفَرَسَةٌ مُتَشَابِهَتَانِ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالْأَوْضَاعِ فَأَوَّلُ هَذَيْنِ الْحِصْنَيْنِ
وَهُوَ حِصْنُ الْإِنْجِلِيزِ كَانَ حَظُّهُ مِنْ كَرَّ السَّيْنِ عَلَيْهِ التَّرْكُ وَالْإِغْفَالُ، وَأَمَّا تَانِيَهُمَا
وَهُوَ حِصْنُنَا فَإِنَّ لَهُ صُرَاخًا يَصِلُ إِلَى كَيْدِ السَّمَاءِ دَالًّا عَلَى اسْتِبْشَاحِ حَالَتِهِ وَأَمَلِهِ
فِي الْخَلَّاصِ مِنْهَا .

دَهَبْنَا فِي نَفْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ لِرِيَاةِ الْمَنْزِلِ الَّذِي أَوْصَانِي الدُّكْتُورُ وَارْتِجُونُ
بِاسْتِجَارِهِ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مُؤَسَّسَ قَرْيَةِ مَرَاذِيُونِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ
كَانُوا يَنْجُرُونَ فِيهَا بِالْقَصْدِ قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ زَمَنٍ مَدِيدٍ . وَإِنِّي لَفِي شَكٍّ
مِنْ وَجُودِ كَثِيرٍ مِنْ دُرِّيَّتِهِمُ الْآنَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دَلَائِلِ وَجُودِهِمْ
فِي هَذِهِ الْجِهَاتِ إِلَّا اسْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ (أَمِيرِيسِيون) قَدْ ارْتَاخَتْ نَفْسِي لَهُ لِأَنَّهُ
يَذْكُرُنِي بِفَرَسَةٍ . تَتَأَلَّفُ تِلْكَ الْقَرْيَةُ مِنْ جُمْلَةِ مَسَاكِنَ جَدِيدَةٍ عَلَى بَعْضِهَا مَسْجِدٌ
مِنْ طَلَاوَةِ الْمَدِينَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَهِيَ قَائِمَةٌ مِنَ الْخَلِيجِ عَلَى شَاطِئِهِ الْمُقَابِلِ لِلْحَبْلِ
الْقِدِّيسِ مِيكَائِيلِ الَّذِي يَتَرَانِي مَعَهَا عَلَى بُعْدٍ، فَلَهَا فِي ذَلِكَ مَنْظَرٌ ذُو بَهَاءٍ وَجَلَالٍ
مِنْ عَاسِنِهِ أَنَّ هَذَا الْخَلِيجَ — وَهُوَ تِلْكَ الْقِطْعَةُ الْجَمِيلَةُ مِنَ الْمَاءِ الَّتِي تَكْتَسِفُهَا
الرَّمَالُ وَتَتَخَلَّلُهَا الصُّخُورُ وَخُصُوصًا مَا هُوَ مِنْهَا جِهَةُ الشَّاطِئِ الْمُقَابِلِ لِلْمَنَازِلِ —
تَكْثُرُ فِيهِ حَرَكَاتُ الْأَمْوَاجِ الْمُعْتَلِّةِ الَّتِي تُسَكِّنُ آلَامَ النَّفْسِ وَتُخَفِّضُ مِنْ رُحَانِهَا .

(١) تَنَاقِيَانِ : تَبَارِيَانِ فِي الِارْتِفَاعِ وَغَيْرِهِ مِنَ الصِّفَاتِ . (٢) الْبِرَاءُ : شِدَّةُ الْأَذَى وَالْمَشَقَّةِ .

يَقِي عَلَى الْآنَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنِ الْمَنْزِلِ فَقَوْلُ : إِنَّهُ لَا يَنْقُصُ شَيْءٌ مِنَ الْمَنَانَةِ وَالرَّصَانَةِ لِأَنَّهُ كُلُّهُ مِنِّي بِالصَّوَانِ الَّذِي يَكْثُرُ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَلَمَّا كَانَتْ مَادَّتُهُ شَدِيدَةَ الصَّلَابَةِ تَنَاصَى عَلَى النَّحْتِ اعْتَادَ الْبَنَاءُونَ الْإِكْتِفَاءَ فِي إِعْدَادِهِ لِلْبِنَاءِ بِتَرْقِيْقٍ قَطْعِيهِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ ظُهُورُ جُدْرَانِ الْمَسَاكِينِ عَلَى الْجُمْلَةِ خَشَنَةً وَغَيْرَ مُسْتَوِيَةٍ ، وَطَرِيقَةُ الْبِنَاءِ فِي الدَّخَائِلِ تُخَالِفُ كَذَلِكَ طَرِيقَتَنَا فِيهِ مُحَافَظَةً عَظِيمَةً لِأَنَّهُمْ لَا يَتَقَصَّرُونَ هُنَا عَلَى فَصْلِ الْيُوتِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ يَحِثُّ لَا تَتَلَصَّقُ بَلْ هُمْ يَقْصِلُونَ بَيْنَ الْغُرَفِ أَيْضًا يَحِثُّ تَكُونُ الْمَعِيشَةُ عَزْلَةً تَامَةً .

ذَلِكَ الْبَيْتُ قَائِمٌ عَلَى رُبُوعَةٍ رَمْلِيَّةٍ قَحْلَةٍ ، فَلِذَلِكَ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ مُعَرَّضًا لِهُبُوبِ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْآتِيَةِ مِنَ الْبَحْرِ ، لَكِنَّ النَّاسَ يُؤَكِّدُونَ لِي أَنَّ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي تَهْبُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ تَكُونُ قَاطِرَةً صَحِيحَةً فِي جَمِيعِ فُصُولِ السَّنَةِ . وَأَمَّا الْأَثَاثُ فَهِيَ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ وَالْمُلَامَمَةِ لِحَالَتِي ، وَأَكْثَرُ مَا دُهُشْتُ لَهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ هُوَ أَنِّي وَجَدْتُ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنْهُ غُرْفَتَيْنِ مُتَفَصِّلَةً إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى تَمَامَ الْإِنْفِصَالِ لَيْسَ لِهُمَا فِي ذَاتِهِمَا شَيْءٌ يَمْتَّازَانِ بِهِ أَمْتِازًا ظَاهِرًا لِكُنْهُمَا عَلَى هَذِهِ الْبَسَاطَةِ قَدْ أَحْسَنَ الْبِنَاءُ وَضَعَهُمَا فَكَانَ لِهُمَا أَجْمَلُ مَنْظَرٍ وَأَحْسَنُ مَوْقِعٍ تُشْرِقُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، فَالضُّوءُ يَسْبِغُ فِيهِمَا بِلا حِجَابٍ يَعْزِضُهُ لِأَنَّهُ نَوَافِدُهُمَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِالْكَرِيمِ تَكَادُ تَكُونُ مُجَرَّدَةً مِنَ السَّتَائِرِ وَهَذَا مِنْهَا نَوْعٌ مِنَ الْأَدَبِ وَالتَّرْجِيحِ بِلِسَانِ الْحَالِ فَكَانَتْهَا تَقُولُ لَهُ : تَفَضَّلْ فَهَذَا مَحَلُّكَ لَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ مَا نَبِغُ . نَعَمْ إِنْ عَلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ بَعْضُ قُضْبَانٍ مِنَ الْحَدِيدِ انْتَقَبَضَ قَلْبِي لِرُؤْيَيْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْإِنْفِعَالَ السَّيِّئَ قَدْ زَالَ عِنْدَ مَا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الْمَحَلَّ هُوَ مُسَكَّنُ الْأَوْلَادِ وَأَنَّ

هَذِهِ الْقُضْبَانِ لَمْ تُوضَعَ إِلَّا لِمَنْعِ مَا عَسَى أَنْ يَفْعَ مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَكْثُرُ عَادَةً مِنَ الْأَطْفَالِ بِمَا يُلَازِمُ سَنَهُمِ مِنَ التَّهَوُّرِ وَالْجَهْلِ بِالْخَطَرِ فَهِيَ إِذَنْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ التَّحْفِظِ لَا عَلَامَةٌ عَلَى الْأَمْرِ. فِي إِحْدَى هَاتَيْنِ الْغُرَفَتَيْنِ يَنَامُ الْأَطْفَالُ وَفِي الْأُخْرَى يَلْعَبُونَ بِالنَّهَارِ إِذَا كَانَ الْجَوُّ بَارِدًا أَوْ السَّمَاءُ مُمِطْرَةً وَقَدْ أَكْدَى النَّاسُ هُنَا أَنَّ هَاتَيْنِ الْغُرَفَتَيْنِ يُوْجَدُ لَهُمَا نَظِيرَتَانِ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْإِنْجِلِيزِ التَّامَّةِ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ.

وَلَا أَنْكِرُ عَلَيْكَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَدْ أَثَّرَ فِي نَفْسِي فَإِنَّ مُعْظَمَ الدُّورِ عِنْدَنَا فِي بَارِيسَ تَامَةً الْبُيُوتِ وَالْغُرُفِ وَالْمَرَافِقِ الْأَلَزِمَةِ، وَهِيَ حُجْرَةُ الْأَكْلِ وَقَاعَةُ الْإِسْتِقْبَالِ وَغُرْفَةُ النَّوْمِ وَالْمَكْتَبِ وَخَدْعُ الْخُلُوةِ وَغَيْرَهَا مِمَّا يُطَابِقُ عَادَاتِ الرَّجُلِ الدُّنْيَوِيِّ وَأَهْوَاءِ الْمَرْأَةِ الْمُتَرْبِيَةِ فَلَمْ يَنْسَ فِيهَا إِلَّا مَا يُلَازِمُ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ الطِّفْلُ.

الطِّفْلُ عِنْدَنَا بِسَبَبِ اضْطِرَارِهِ إِلَى مُلَازِمَةِ الْبِكَارِ فِي مَعِيشَتِهِمْ وَتَقْضِيَتِهِ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ فِي غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ وَالِدَتِهِ الْعَصْبِيَّةِ الرَّقِيقَةِ الْمِزَاجِ وَوَالِدِهِ الْمُثْقَلِ بِالْأَعْمَالِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ضَيْقًا مُقْلَقًا لِنَفْسِهِ وَأَسِيرًا كَاسِفَ الْبَالِ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَا مَنُودَحَةَ عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ يَدُهُ إِلَى الْأَتَاثِ فَتُفْسِدَهُ، وَتَنْدَاوِلَ الْكُتُبِ فَتَهْزِقَهَا وَالْأَيَّةَ الصَّبِيئَةَ فَتُكْسِرَهَا، وَيَجْرَعُ عَلَيْهِ هَذَا التَّرْقُّ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْإِثْلَافِ الْخَفِيفِ تَوْبِيخًا مُسْتَمِرًّا، يَفْقِرُهُ وَالِدَاهُ وَيَقَابِلَانِهِ عَلَى نَشَاطِهِ وَسُرُورِهِ وَلَغَطِهِ، أَعْنَى عَلَى كَوْنِهِ طِفْلًا.

وَلَيْسَ هَذَا كُلُّ مَا يَلَاقِيهِ عِنْدَنَا فَإِنَّهُ أَحْيَانًا قَدْ يُطْرَدُ مِنْ مَسْكَنِ أَبِيهِ لِيَضِيقَ الْمَحَلَّ، فَلَا يَجِدُ لَهُ مَأْوَى سِوَى فَنَاءِ الْمَنْزِلِ وَأَنْتَ تَدْرِي مَا هِيَ أَقْنِيَةُ الْيُوتِ فِي مُعْظَمِ الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ فَلَيْسَتْ هِيَ إِلَّا بِجُحُورِ ضَبَابٍ.

قَدْ فِهِمَ الْإِنْجِلِيزُ مُقْتَضِيَاتِ الْمَعِيشَةِ الْمَتَرِلِيَّةِ مِنْ حَيْثُ سُكْنَى الْأَوْلَادِ أَحْسَنَ
مِمَّا فِهِمَا مَا يَكْثِيرُ فِهِمْ يَتَبَرَّونَ الْمَوَادَّ عِنْدَهُمْ تَخْصَا مُسْتَقْلًا فَيُفَرِّدُونَهُ بِفَرْقَةٍ
قَائِمَةٍ بِذَاتِهَا .

لَمْ أَصِفْ لَكَ حَتَّى الْآنَ شَيْئًا مِنْ بُسْتَانِ الْبَيْتِ ، عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَخَذْتُ
بِهَجْتِهِ وَنَضَارَتِهِ يُلَى ؛ لَيْسَ لِهَذَا الْبُسْتَانِ سُورٌ مِنَ الْبِنَاءِ وَإِنَّمَا هُوَ مُحَاطٌ بِسِيَاحِ
مِنَ النَّبَاتِ تُحِيطُهُ فِي شَهْرِ يُونَيْسِهِ — عَلَى مَا يُقَالُ — تُجْبِرَاتُ الرَّثَمِ الشُّوكِيَّةُ ذَهَبًا
مِنْ أَزْهَارِهَا الْعَسَجِدِيَّةِ . وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَصَوَّرَ جَمَالَ هَذَا الْبُسْتَانِ فَمَثَلْ لِنَفْسِكَ
نَحْوَ أَكْرَيْنِ أَرْضًا تَطْطِيهَا جَمِيعًا تُجْبِرَاتُ الْوَرْدِ وَعِنَبِ الثَّلَلِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْجَارِ
الصَّغِيرَةِ . وَإِنَّمَا كَانَ مَا فِي هَذَا الْبُسْتَانِ تُجْبِرَاتٍ لِأَنَّ أَرْضَهُ رَمْلِيَّةٌ وَمَجَاوِرَةٌ لِلْبَحْرِ
فَهِيَ لَا تَصْلُحُ لِلْأَشْجَارِ الْكَبِيرَةِ ، وَلَكِنْ قَدْ أَنْشَأْتُ تَنْفُحَ بَيْنَ أَغْشَائِهِ الْعِطْرِيَّةِ
عُيُونٌ بَعْضُ أَزْهَارِهِ الْبَنْفَسِجِيَّةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ جَمَالُهُ بَعْدَ نَحْمَةِ أَسَابِيعِ أَوْسِنَةٍ
إِذَا كَسَاهُ الرَّبِيعُ بِلاِ حِسَابٍ مَا لَدَيْهِ مِنْ حُلِيِّ الْبَهَاءِ وَالنَّضَارَةِ ؟

قَدْ اسْتَأْجَرْتُ الْمَتَرِلَ وَسَأَسْكُنُهُ فِي الْأَسْبُوعِ الْمُقْبِلِ ، وَأَمَّا الْآنَ فَأَنَا سَاكِئَةٌ
عِنْدَ السَّيِّدَةِ وَارْتَجُونَ الَّتِي تُحِيطُنِي بِأَنْسَابِهَا الدَّائِمِ وَكَرَمِهَا الْفَاسِرِ ، وَكُلُّ مَا أَنَا فِيهِ
مِنْ وَسَائِلِ النِّعَمِ يُؤَلِّمُنِي وَأَوْجِحُ نَفْسِي عَلَيْهِ عِنْدَ مَا أَذْكُرُ مَجْنَنَكَ وَمَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ
الضَّبَقِ وَالْأَلَمِ .

(١) الرَّم : شجرة ذات أزهار صفراء ، أصلها من أسبانية .

(٢) الأكركا في الأصل مقياس سطحي قدره ٨٤٠ ياردة مربعة وأحسبه محرفا عن الإكارة
القرية في المعنى منه لأنها في عرف الفقهاء الإسلاميين ما يعطى من أرض للاكارة أى المزارعين لزراعتها .

أَنَا مُتَطَلِّعٌ لِأَخْبَارِكَ أَيُّهَا الْحَيِّبُ فَأَرْجُو أَنْ تُؤَافِقَنِي بِشَيْءٍ مِنْهَا ، فَهَلْ خَفَّتْ
عَلَيْكَ مَعِيشَةُ السَّجْنِ سَبَبٌ تَغْيِيرِ الْمَحَلِّ أَوْ زَادَتْ ثِقَلًا ؟ أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ أَنْ تَصْدُقَنِي
الْحَدِيثَ وَلَا تُخْفِنِي عَنْ مَنْهُ شَيْئًا .

وَفِي الْخَتَامِ أَقْبَلَكَ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ الْحِجَارِ الَّتِي وَإِنْ حَالَتْ بَيْنَنَا لَمْ تَفْرُقْ بَيْنَ
قَلْبَيْنَا . اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من مراسل إلى هيلانة في ٨ أبريل سنة ١٨٥)

وَجُوبٌ مُحَافَظَةٌ الْحَامِلِ عَلَى سَلَامَتِهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ

تَلَقَّيْتُ مَكْتُوبَكَ أَيُّهَا الْعَزِيزَةُ هِيلَانَةَ فَذَهَبَ بِهِ رَوْحِي وَتَابَتْ إِلَيَّ سِكِّينَتِي
وَاطْمَأَنَّ بِهِ قَلْبِي عَلَيْكَ كَثِيرًا لِشَفِيفِهِ لِي عَمَّا فِيكَ مِنْ الْإِقْدَامِ وَالسُّلْطَانِ
عَلَى نَفْسِكَ فَأَنْتِ حَقًّا أَشْرَفُ صَاحِبَةٍ عَزَقْتُهَا فِي حَيَاتِي . قُدِّرَ عَلَى السَّجْنِ وَعَلَيْكَ
النَّهْيُ فَاحْتَمَلْتِ نَصِيحَتِي مِنَ الْمُقَدُّورِ شَرِيفَةِ النَّفْسِ عَالِيَةِ الْهِمَّةِ .

إِنَّ نَصِيحَةَ صَدِيقِنَا الدُّكُورِ وَارْتِجُوتُ لَكَ بُسْكُنِي الْقُرَى صَادِرَةً عَنْ حِكْمَةٍ
وَسَدَادٍ فَإِنَّ الْإِقَامَةَ بِالْأَرْيَافِ أَوْلَى بِكَ الْآنَ مِنَ السُّكْنَى فِي الْمَدِينِ لِكَثْرَةِ مَا فِي هَذِهِ
مِنَ الصَّخْبِ وَالشَّغْبِ لِأَنَّ الْإِعْتِكَافَ وَالرُّجُوعَ إِلَى الْمَعِيشَةِ الْفُجَارِيَّةِ هُمَا اللَّذَانِ
يَتَبَسَّرُ لَكِ بِهِمَا وَلَا شَكَّ اسْتِجْمَاعُ قَوْلِكَ بَعْدَ مَا لَاقَيْتِهِ مِنَ الصَّدَدَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي
أَخْشَى أَنْ تَكُونَ زَعَزَعَتْ صِحَّتَكَ فَأَوْهَنْتَهَا .

(١) لشفيفه أى لكشفه .

إِنَّمَا أَنْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونِي صَحِيحَةً الْجَنِينِ سَلِيمَةً مِنَ الْأَدْوَاءِ،
لِأَنَّكَ مَسْئُولَةٌ مِنَ الْآنَ عَنِ الْوَدِيعَةِ الَّتِي اسْتَوْدَعَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ، وَلَا تَسْتَعْرِضِي مِنِّي
مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ بِاصْطِلَاحِ الْعُلَمَاءِ بِمَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ فَإِنِّي مَا تَعَلَّمْتُ الطَّبَّ عَبَثًا بَلْ تَعَلَّمْتُهُ
لِلْإِنْتِفَاعِ بِهِ . كُلُّ كَائِنٍ دَخَلَ فِي بَدَايَةِ الْحَيَاةِ عُرْضَةً لِلْمَرَضِ وَالْهَلَاكِ . وَلِذَلِكَ
كَانَ لِلْجَنِينِ أَمْرَاضٌ حَقِيقَةٌ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلَالِ الْخَفِيَّةِ مَا لَا شَكَّ
فِي عَجْزِ الْعِلْمِ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ ، وَلَكِنْ يَمِيقُ لَنَا كُلُّ الْحَقِّ أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ دَخْلًا
فِي بَعْضِ مَا يُوَلَّدُ بِهِ الطِّفْلُ مِنَ التَّشَوُّهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَلَا إِخْلَاكَ تَسَيِّتِ
تِلْكَ السَّيِّئَةِ د... الَّتِي فَتَنَتِ الْقُلُوبَ بِبَدِيعِ حُسْنِهَا ، فَإِنَّهَا لَمَّا أَصَابَهَا هَوَسُ الْمَرْقِصِ
وَبَعَثَهَا عَلَى أَنْ تَقْضِيَ فَصْلَ الشَّتَاءِ كُلَّهُ رُقَصًا فِي قَاعَاتِ بَارِيسَ — بَلْ أَدَّاهَا إِلَى
الِاسْتِمْرَارِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى فِي سَاعَةِ الْوُضْعِ — قَدْ وَضَعَتْ بِنْتًا فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَالِ
عَلَى أَنَّهَا حَدَبَاءُ .

إِذَا عَرَفْنَا أَنَّ لِأَعْمَالِ الْمَرْأَةِ تَأْثِيرًا فِي الْجَنِينِ كَمَا وَصَفْنَا ، تَأْتِي لَنَا أَيْضًا أَنْ نَقِفَ
عَلَى الْعَلَاقَةِ الَّتِي بَيْنَ انْفِعَالِهَا النَّفْسِيَّةِ وَبَيْنَ أَخْلَاقِ ذَلِكَ الْجَنِينِ الَّذِي يَحْيَا بِحَيَاتِهَا ،
وَيَسْمَلُهُ بِمَخْضِهَا وَنُضْمُهُ أَحْشَاؤُهَا ، فَقَدْ كَانَ الْحَكِيمُ هُوبُ يَعْلُلُ مَا فِيهِ مِنْ خُلُقِ
الْجَنِينِ بِمَا لَاقَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْأَحْوَالِ أَتَتْهَا حَمْلًا بِهِ حِينَمَا كَانَتْ الْعِمَارَةُ الْأَسْبَانِيَّةُ
الْمُسَمَّاةَ أَرْمَادًا الشَّيْخَةِ تُهْدِدُ بِإِجْلَازَةٍ وَتَطْوُفُ حَوْلَ سَوَاحِلِهَا ، وَكَانَ مَا يَتَخَيَّلُهُ أَهْلُهَا
مِنْ صُورَةِ إِغَارَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ يُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ .

(١) هوب هو توماس هوب الحكم الانجليزي الشهير المولود سنة ١٦٧٩ المتوفى سنة ١٧٥٨ ميلادية

وهو من أنصار ملهب الاستبداد في السياسة .

قَدْ طَاعَتْ وَقَائِعَ نَيْلٍ^(١) فَمَا أَشَدَّ مَا تَجِدْنِيهِ فِيهَا مِنْ مَسَكَةِ الْمَلِكِ يَقُوبَ
 الثَّانِي، فَلَسَدَ مَا كَانَتْ تَرْتَعِدُ قَرَائِصُهُ وَيَصْفَرُّ لَوْنُهُ عِنْدَ رُؤْيَةِ السَّيْفِ مُجَرَّدًا مِنْ
 قَرَائِهِ . فَبِحَبْنِ ذَلِكَ الْمَلِكِ - عَلَى كَوْنِهِ بِمَا يُضْعِكُ التَّكْلِ - رُبَّمَا كَانَ جَدِيرًا
 بِأَنْ يُجْرِكَ فِي الْإِنْسَانِ عَاطِفَةً أُخْرَى إِذَا صَحَّ أَنْ ضَعْفُهُ هَذَا نَتِجٌ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْمَصَائِبِ
 وَالرَّزَايَا الَّتِي كَانَتْ تُحِيطُ بِأُمِّهِ مَرِّمٍ إِسْتَوَارَتْ فِي أَثْنَاءِ الْحَمْلِ بِهِ .

يَضَعُ الْحُكْمَ الْبَاقِيَّ عَلَى دَرَجَةِ تَأَثُّرِ الْحَيَاةِ بِتَرْغُوعِ الشَّجَرَةِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي
 تَطْلُعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي حَالَةِ الْعِلْمِ الْحَاضِرَةِ، وَيَكْفِي وَجُودَ الشَّكِّ فِي تَأَثُّرِهِ مُوجِبًا
 عَلَى أُمِّهِ اتِّقَاءَ أَسْبَابِ الْإِنْفِعَالَاتِ الشَّدِيدَةِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَمَّاكِنِ الْمَشْتَوَةِ وَالِاتِّعَادِ
 عَنِ الْمَتَاعِ وَعَمَّا يَهْرُ الْإِخْلَاصُ فِي الْوَلَاءِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِ .

المرأة هي قالب للنوع الإنساني يُفَرِّغُ فِيهِ فَيَتَشَكَّلُ بِسُكُلِهِ إِلَى حَدٍّ مُعْدُودٍ ،
 فَيَجِبُ عَلَيْهَا لِهَذِهِ الصِّفَةِ رِعَايَةُ صِحَّتِهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا . فَيَلْزَمُهَا فِي الْحَمْلِ أَنْ تَكُونَ
 مُسْتَرِيحَةً الْجَنَمِ وَالْفِكْرَ مُسْتَجِمَّةً الْقُوَى ، وَلَكِنْ يَنْبَغُ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَ رَبَاتِ الْجَمَالِ
 مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَقْصِرُ فِيهَا جَرَى الْعُرْفِ بِمَسِيَّتِهِ الدُّنْيَا الْكُبْرَى عَلَى تَرْكِ اللَّذَائِدِ

(١) نيل كاتب قصص شهر .

(٢) يقوب الثاني هو أحد ملوك إنجلترا السابقين وهو ابن كارلوس الأول تولى الملك بسد أعياه
 كارلوس الثاني سنة ١٦٨٥ م وحاول رد المذهب الكاثوليكي إلى إنجلترا وإرجاع حكم الاستبداد فخلعه
 صهره غيوم أورانجا فالتجأ إلى لويس الرابع عشر ومات في فرنسا سنة ١٧٩١

(٣) مريم استوارت هي بنت يقوب الخامس ملك إيقوسية وأم مريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢
 وماتت سنة ١٥٨٧ م، تزوجت ولي عهد الحكومة الفرنسية الذي صار بعد الزواج فرنسيس الثاني ولما توفي
 زوجها عادت إلى إيقوسية وتزوجت بهنري دارتلي ثم تزوجت بيونويل ثم ثارت عليها رعيها فالتجأت إلى
 اليعاقبات ملكة إنجلترا وبقيت في الأسر خمسة عشر عاما حتى ماتت .

وَمَجَامِعِ الْأَفْرَاجِ وَمَلَاعِبِ التَّمْثِيلِ لِنَالِ شَرَفِ الْإِنْتَانِ بِأَوْلَادِ حِسَانٍ، بَلْ مِنْ خَسَارَةٍ
الْصَّفَقَةِ ^(١) لَنِيْنٍ أَنْ يَجِدَنَّ أَهْمَهُنَّ عَاجِزَاتٍ عَنِ اسْتِجَارِ غَيْرِهِنَّ لِنَادِيَةِ وَظَائِفِ
الْحَبْلِ كَمَا يَسْتَأْجِرُهُنَّ لِلرُّضَاعَةِ، فَإِنَّهُنَّ لَوْ وَجَدْنَ لِذَلِكَ سَبِيلًا لَأَسْتَأْجَرَتِ الْمُتَرِيَّاتُ
مِنْهُنَّ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ بَطُولِ نِسَاءِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى لِحَمْلِ أَجْنَتِهِنَّ ^(٢).

وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُنَّ لِكَدَّهِنَّ فِي وَسَائِلِ الْمَعِيشَةِ لَا يَجِدْنَ لَهُنَّ مِنَ الزَّمَنِ مَا يَتِمُّنَ
فِيهِ كَثِيرًا بِأَهْرِ ذُرِّيَّتِهِنَّ، فَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهُنَّ وَقَدْ أَثْقَلْنَ حَتَّى كِدْنَ يُسَارِفْنَ الْوَضْعَ ^(٣)
تُاجِهِنَّ ضُرُورَاتُ الْمَعِيشَةِ إِلَى غَيْلِ الْمَلَايِسِ فِي نَهْرِ السَّيْنِ زَمَنَ الشَّتَاءِ، فَكُنَّ
يَغْمِسْنَ أَذْرَعَهُنَّ فِي مَائِهِ الْمَثْلُوجِ أَوْ تَضْطَرُّهُنَّ إِلَى دَفْعِ عَجَلَاتِ مُحْمَلَةٍ لَتَمْسِيَتِهَا
أَوْ إِلَى حَمْلِ أَثْقَالٍ بِأَهْظَةٍ يَرْتَاعُ لَهَا الْأَشْدَاءُ مِنْ حَمَالِ الْأَسْوَاقِ. وَهَذَا تَعْلِمُنَ
مَا جَرَّ عَلَيْنَا مَا فِي اخْتِلَافِنَا مِنَ الْأَثَرَةِ وَحُبِّ الْإِخْتِصَاصِ مِنْ رَدَاءَةِ النَّسْلِ. كُلُّ
مَا يُضْعِفُ الْمَرْأَةَ الَّتِي هِيَ قَرِينَةُ الرَّجُلِ وَصَاحِبَتُهُ يُضْعِفُ الدَّرَجَةَ وَيَحُطُّ مِنْ شَرَفِ
الْخَنَاسِ، فَإِذَا أَرَادَ الْمُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِيُّ أَنْ يَضْمَنَ لِنَفْسِهِ إِنتَاجَ أَوْلَادِ حِسَانٍ الْخَلْقِ
يَكُونُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ رِجَالًا أَشْدَاءَ، فَلَا يَتَسَنَّى لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَحَرُّيِ الْعَدْلِ فِي تَقْسِيمِ
تُمَرَّاتِ الْعَمَلِ بِأَنْ يَعْرِفَ لِلْمَرْأَةِ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِحْتِرَامِ وَالْإِجْلَالِ.

(١) الصفة البعة وهي مستعملة هنا مجازا للدلالة على عقد الزواج.

(٢) كفى بذلك تهكما وسخرية وتقريبا للآراءات من النساء المنغمسات في شهواتهن اللاهيات بزيتهن
عما فرضه الله عليهن من واجبات الأمومة التاركات أولادهن بين أيدي من لا يبينه أمرهم من المراضع
والخادعات — المترجم.

(٣) يشارفون : يقاربون.

الرسالة الخامسة عشرة

(من إرأسم إلى هيلانة في ١٠ أبريل سنة ١٨٥٠)

التربية الأولى من خصائص الأم

عَرَضُهُ مِنْ تَرْبِيَةِ وَلَدِهِ أَنْ يَكُونَ حُرًّا لَا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَكَارِ الرِّجَالِ
لَيْسَتْ مَكْتُوبَاتِي إِلَيْكَ كَثِيرًا مِمَّا يَكْتُبُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَإِنَّمَا
هِيَ أَحَادِيثُ مَسْجُونٍ يُنَاجِي بِهَا فِي عَزَلَتِهِ أَعْظَمَ شَقِيقَةٍ لِنَفْسِهِ وَأَحْسَنَ قَسِيمَةٍ
لِرُوحِهِ .

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ سَبَقَ إِلَى ذَهْنِكَ مَا أَقْصَدُهُ مِنْهَا فَفَطِنْتُ إِلَيْهِ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
أَعْمَلَ مَا أَسْتَطِيعُ وَأَنَا فِي مَطَارِحِ التَّوَيِّ لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ لِذَلِكَ الَّذِي بَشَّرَنَا اللَّهُ بِهِ ،
فَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِفَكْرِي أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ رُبَّمَا لَا يَعْرِفُنِي وَلَا يَرَانِي أَبَدًا ، وَقَدْ يَتِمَّنِي يَوْمًا
مَا يَأْنِي أَهْمَلْتُ مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي تُحْفَظُ حُقُوقُهُ بِالْقِيَامِ بِهَا ،
فَيُخْرِجُ لِذَلِكَ صَدْرِي ، وَتَقْبِضُ نَفْسِي ، وَلَكِنِّي لَا إِخَالَتِي مُسْتَحِقًّا لِهَذَا اللَّوْمِ
إِذَا كُنْتُ عَلَى مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَجْزِ عَنْ حِيَاطَتِهِ بِضُرُوبِ الرَّعَايَةِ وَصُنُوفِ الْمُلَاطَفَةِ
أَدْفَعُ لَهُ دِينَ الْأَبْوَةِ مِنْ تَقْدِيرِ آخَرٍ .

إِنِّي مِمَّا أَكْتُبُهُ مِنَ الرِّسَائِلِ سَائِدِي عَلَى بُعْدِي مِنْ وَلَدِي مَا فُرِضَ لَهُ عَلَى
مِنْ حُقُوقِ التَّربِيَةِ ، لِإِعْوَازِ غَيْرِهَا مِنَ الطُّرُقِ الْمُثَلَّى لِأَدَاءِ هَذَا الْفَرِضِ ، فَقَدْ دَرَسْتُ
شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ فِي تَطَوُّاتِي حَوْلَ الْأَرْضِ مُشْتَغَلًا بِصِنَاعَةِ الطَّبِّ فِي السُّفُنِ ،

وَرَأَيْتُهُ فِي أَقَالِمِهَا الْمُخْتَلِفَةِ . وَفِي أَعْمَارِ جُمُوعَاتِهِ الْمُتَبَايِنَةِ ، وَلِذَلِكَ أَرَى فِي قُدْرَتِي
أَنْ أَسْتَنْجِجَ مِنْ أَفْكَارِي وَمِمَّا تَحْفَظُهُ ذَاكِرَتِي مِنَ الْحَوَادِثِ طَرِيقَةً لِلتَّرْبِيَةِ مُؤَسَّسَةً
عَلَى سُنَنِ الْكَوْنِ وَتَارِيخِ وَقَائِدِهِ ، فَعَلَيْتَ الْآنَ أَنْ تَبْدُلَ الْأَفْكَارَ فِي ذَلِكَ ،
فَمَا كُتِبُ إِلَيْكَ بِمَا يَتَوَلَّى وَتَكْتُبِينَ إِلَيَّ بِمَا يَنْ لَكَ ، حَتَّى تَهْدِيَ رُوحِي وَرُوحَكَ
فِي السَّهْرِ عَلَى مَهْدِ هَذَا الْوَلَدِ الْعَزِيزِ رِعَايَةً لَهُ وَعِنَايَةً لِشَأْنِهِ .

سَأَرَاهُ فِي مَنَامِي يَسِيبُ وَيَتَمَوَّ ، وَأَنْتِ سَعْدِيْنِي عَنْهُ فِي مَكْتُوبَاتِكَ وَسَخِرِيْنَهُ
بِوُجُودِي ، وَلَا مُوجِبَ لاهْتِمَائِكَ بِمُسْتَقْبَلِهِ ، فَإِنَّ تَرْبِيَةَ الطِّفْلِ الْأَوَّلَى هِيَ مِنْ
خَصَائِصِ وَالِدَتِهِ ، وَأَنْتِ أَهْلُ لِلْقِيَامِ بِهَا وَحْدَكَ بِمَا فِيكَ مِنْ يَقْظَةِ الْقَلْبِ وَتَوَقُّدِ
الدِّكَاةِ ، وَسَنَنْظُرُ بَعْدَ فِيمَا يَلْزَمُ مِنْ أُمُورِ تَرْبِيَتِهِ الْمُسْتَقْبَلَةِ .

عَلَى أَنَّنَا نَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُعَيِّنَ الْغَايَةَ الَّتِي يَلْزَمُنَا أَنْ نَزِمِيَ إِلَيْهَا فِي مَسَاعِينَا . إِنِّي
لَا أَعْلَمُ مُطْلَقًا بِوُجُودِ قَالِبٍ يُفْرَغُ فِيهِ الْأُسُ فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّابِغِينَ ، وَلَئِنْ كَانَ
فَلَيْسَ هُوَ لِلتَّرْبِيَةِ قَعْلًا بَلْ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَالِقِ (سُبْحَانَهُ) لِيُهَيِّئَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
لِمَا يَشَاءُ ، فَإِذَا جَاءَ وَلَدُنَا ذَكَرًا كَانَ غَرَضِي مِنْ تَرْبِيَتِهِ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا حُرًّا ،
وَلَا أَقْصِدُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَكَارِ الرِّجَالِ وَعُظَمَائِهِمْ ، اهـ ^(١)

(١) ان ما حوته هذه الرسالة من أن العناية بتربية الأولاد فرض لازم على الوالدين مما ينبغي أن
يكون منهم دائما على بال ، وأن يلزموا أنفسهم القيام به وإلا فنتيجة التقصير فيه جسيمة والحساب عليه عسير .
بين يدي البلى الكبير — المترجم .

الرسالة السادسة عشرة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١١ أBRIL سنة - ١٨٥)

تَشَابُهُ السُّجُونِ فِي بَاجِمِ الْبُلْدَانِ وَتَسْرِيَةُ هَمِّ بِالمُطَالَعَةِ

أَرَاكَ مُتَطَلِّعًا إِلَى أَخْبَارِي رَاجِبَةً إِلَيَّ فِي أَنْ أَوْافِكَ شَيْئًا مِنْهَا، فَهَآنَذَا أَخْبِرُكَ
بِأَنَّ السَّجْنَ وَاحِدٌ فِي بَاجِمِ الْبِلَادِ، فَلَيْسَ بَيْنَ الْمَكَانِ الَّذِي تَرَكْتُهُ وَبَيْنَ هَذَا الَّذِي
أَسْكُنُهُ الْآنَ عَلَى رَغْمِي كَبِيرُ فَرْقٍ، وَإِنِّي مِنْ عَهْدِ وُصُولِي إِلَيْهِ قَدْ لَحَاقْتُ إِلَى الْمُطَالَعَةِ،
فَلَمَّا وَجَدْتُ الْكِتَابَ فِي غَيْبَتِكَ عَنِّي أَحْسَنَ قَرِينٍ لِي يُؤَسِّسُنِي وَيُسَرِّعُنِي عَنِ الْهَمِّ .
مَاذَا أَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ غَايَةُ مَا أَقُولُ لَكَ : إِنِّي عَائِشٌ رَاجِحُ الْفَرْجِ ثَابِتٌ عَلَى حُبِّكَ
وَالسَّلَامِ . اهـ

الرسالة السابعة عشرة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ١٥ أBRIL سنة - ١٨٥)

قَرَارُهَا فِي الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ - مَجِيئُ قُوَيْدُونُ وَزَوْجَتُهُ جُورْجِيَّةَ مِنْ فَرَنْسَةِ -

مُقَارَنَتُهَا بَيْنَ الْفَرَنْسِيَّاتِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّاتِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ

قَدْ تَمَّ لِي الْقَرَارُ فِي الْمَنْزِلِ الَّذِي اسْتَأْجَرْتُهُ، وَفِي صَبَاحِ هَذَا الْيَوْمِ قَدِمَ عَلَيَّ
إِحْدَى السُّفُنِ التِّجَارِيَّةِ خَادِمَانَا الزَّيْجِيَّانِ قُوَيْدُونُ وَزَوْجَتُهُ جُورْجِيَّةُ آتِيَتَيْنِ مِنْ
فَرَنْسَةِ حَيْثُ كَانَا تَخْلُقَانِي لِحَزْمِ أَمْتِعَتِنَا . فَاسْكَنْتُهُمَا رُؤُوفًا مُلَاصِقًا لِلْمَنْزِلِ مِنْ
نَاحِيَةِ الْبُسْتَانِ، وَأَنَا الْآنَ أَسَاعِدُهُمَا فِي نَفْضِ كُتُبِكَ وَتَرْتِيبِ مَجْمُوعَاتِكَ .

لَمْ يَكْدُ يَسْتَقِرُّ هَذَا الزَّيْجِيُّ الْبَارِحَتِي وَجَهَ عَيْنَيْهِ إِلَى أَعْمَالٍ شَتَّى ، فَصَرَاحَ لِي
 أَنَّ فِي فَيْتِهِ قَلْبَ أَرْضِ الْبُسْتَانِ وَبَذَرَ الْحُبُوبِ وَتَطْعِمَ الْأَشْجَارَ وَغَرَسَ أَنْوَاعَ مِنَ
 النَّبَاتِ فِيهَا - إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَقَالَ لِي : إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَنْتِجْ بُسْتَانًا عَمَّا قَلِيلٍ
 أَطْيَبَ فَوَاكِهِ الْبَلَدَ وَأَجُودَ بَقُولِهِ فَلَا يَكُونُ هُوَ الْمَلُومَ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ يَذْكُرُ سَابِقَ
 اشْتِغَالِهِ بِزِرَاعَةِ الْأَرْضِ أَيَّامَ رِقَّةٍ ، وَهُوَ قَرِيبٌ خَوْفٌ بِأَنَّهُ يَنْبَغِتُ الْآنَ إِلَى الْعَمَلِ
 بِسَابِقِ الشُّكْرِ وَالْإِقْرَارِ بِالنِّعْمَةِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا يُجِئُهُ إِلَيْهِ إِلَّا خَوْفُهُ مِنَ أَلِيمِ الضَّرْبِ
 بِالسُّوْطِ ، وَيَقُولُ : مَا أَشَدَّ إِتْقَانًا مَا سَيَصِيرُ إِلَيْهِ شُغْلِي ، فَقَدْ أَصْبَحْتُ مَا لِكَأَنِّي
 مُنْفَكًّا مِنْ رِبْقَةِ الْإِسْتِعَادِ .

لَا أَخْفِي عَنْكَ أَنَّ الْمُقَارَنَةَ بَيْنَ اسْمِهِ وَالْمُسَمَّى كَانَتْ مَدَّةً لِلضَّحِكِ وَمَتَارًا
 لِلِاسْتِفْرَاقِ ، وَأَنَّ سُكَّانَ مَرَاذِيُونَ يَضْحَكُونَ مِنْهُ لِأَنَّهُمْ يَسْتَعْبِدُونَ التَّوْفِيقَ بَيْنَ
 مَعْنَى الْعِشْقِ ، وَبَيْنَ مَشْفَرَى ذَلِكَ الزَّيْجِيِّ الْغُلِيقَيْنِ وَأَنَّهُ الْأَفْطَسُ وَجِلْدُهُ الْأَسْوَدُ ،^(١)
 وَإِنِّي لَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِسْمُ لَمْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ مِنْ مَوَالِيهِ السَّالِفِينَ إِلَّا تَهْكِيًا
 وَخُفْرَةً ، وَلَكِنِّي عَلَى رَأْيِي هَذَا لَمْ أَجْمَرْ أَنْ أَكَلِمَهُ فِي تَغْيِيرِهِ فَإِنِّي لَوْ فَعَلْتُ لَكَانَ هَذَا
 اعْتِرَافًا مِنِّي لَهُ بِأَنَّهُ دَمِيمٌ ، أَوْ تَضَرُّعًا بِأَنَّ الْبَيْضَ لَا يُنْصَفُونَ مِثْلَهُ مِنْ سُكَّانِ أَفْرِيقِيَّةِ .

أَنَا فِي هَذَا الْبَلَدِ أَعِيشُ بِمَعَزِلٍ تَأَمَّ عَنِ النَّاسِ فَلَا أَتَرَدُّ إِلَّا إِلَى دَارِ السَّيِّدَةِ
 وَارْتَجَتُونَ حَيْثُ أَصَادِفُ أَحْيَانًا بَعْضَ سَيِّدَاتٍ مِنْ بَنَاتِيسٍ أَوْ مِنْ صَوَاحِي مَدِينَةِ
 لُنْدَرَةِ ، وَالَّذِي يَهْمُنِي كَثِيرًا فِي اخْتِلَاطِي بِهَؤُلَاءِ السَّيِّدَاتِ هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَجْرِي

(١) « قويدون » هو في خرافات اليونان أبن الزهرة الهة الجمال وهو عندهم إله العشق والجمال

والشعر من البعير كالشفة من الإنسان شهت به شفة الزنجي لثقلها .

عَلَيْهَا الْإِنْجِيلِيَّاتُ فِي تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِنَّ وَأَنَا مُجْتَمِدَةٌ مُلَاحِظَتِي إِيَّاهُنَّ فِي تَعْلِيمِ مَهْنَةِ
الْأُمُومَةِ .

سُكَّانُ كُورْنُوَايَ - وَإِنْ صَحَّ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ نَسْلِ الْإِنْجِيلِيِّ السَّكُونِيِّينَ لِمَا
يُقَالُ مِنْ انْتِسَابِهِمْ إِلَى فِصْلَةٍ مِنَ الصَّفَالِيَةِ وَلِمَا أَرَاهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَرِيْتُونِيِّينَ مِنْ
الْمُشَابَهَةِ الْبَاطِمَةِ فِي لَوْنِ الشَّعْرِ وَمَلَايِخِ الْوَجْهِ - يَعِيشُ بَيْنَهُمْ عِدَّةٌ مِنَ الْأَسِيرِ
« الْعَائِلَاتِ » الْإِنْجِيلِيَّةِ وَمَنْ كَانُوا مِنَ الْبَاقِينَ غَيْرِ إِنْجِيلِيٍّ فِي الْأَصْلِ فَقَدْ تَحَلَّقُوا
بِاخْلَاقِ تِلْكَ الْأُمَّةِ اتَّبَعُوا الْحَقَّ هَمَّا الْفَتْحُ، وَسَرَتْ فِيهِمْ عَادَاتُهَا عَلَى تَقَاوُفٍ فِي ذَلِكَ
قَلَّةٍ وَكَثْرَةٍ .

أُنْظُرْ كَيْفَ يَسْتَقْبِحُ النِّسَاءُ فِي إِنْجِلَتَرَةِ طَرِيقَةَ تَقْيِيطِ الْأَطْفَالِ وَيَسْتَهْجِنَهَا،
وَتَقُولُ الْوَالِدَاتُ مِنْهُنَّ اسْتِهْزَاءً بِنَا : إِنَّمَا نَدْخُلُ أَطْفَالَنَا فِي أَكْبَاسِ رِثَاءِ النَّاسِ، حَتَّى
إِذَا سَنَحَتْ لَنَا الْفُرْصَةُ عُلَقْنَاهُمْ عَلَى مَسَامِيرَ فِي الْجُدْرَانِ ، وَاكْتَفَيْنَا بِذَلِكَ مُؤَنَةً
مَا نَسْتَأْزِمُهُ خَالَتَهُمْ مِنَ الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ إِذَا كَانُوا غَيْرَ مُقْمَطِينَ . وَإِنَّمَا سَاغَ لِهُنَّ
أَنْ يَقُلْنَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَطْفَالَهُنَّ يَتَمَتَّعُونَ بِتَمَامِ الْحُرِّيَّةِ فِي حَرَكَاتِهِمْ ، لِأَنَّهُنَّ لَيْسَتْ لَهُنَّ
ثَوْبَاتٌ طَوِيلَاتٌ مِنَ الصُّوفِ اللَّيِّنِ (فَانِيَلَا) فَيَكُونُونَ فِيهِ مَا يَكِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى قَدَرِ مَا لَهُمْ
مِنْ الْقُوَى الصَّغِيرَةِ فِي تِلْكَ السَّنِّ ، وَإِنِّي وَالْحَقُّ أَقُولُ مُعْجَبَةٌ بِهَذِهِ الْعَادَةِ ، لِأَنِّي
كَثِيرًا مَا سَأَلْتُ رُؤْيَا الْأَطْفَالِ يُرْطَلُونَ ، وَتُحْصَرُ أَجْسَادُهُمْ فِي لَفَافٍ تُضَمُّ أَطْرَافُهَا
بِالدَّبَابِيسِ ، فَيَكُونُونَ كَحَدِيدٍ مُحْطَظَةٍ لَقَّتْ بِشَرَائِطِ مِنَ الْكَوْلَانِ (١) .

(١) البريتونيون هم سكان بريطانيا وهي أحد أقاليم فرنسا .

(٢) الكولان بنت البردي .

أَطْبَاءُ الْإِنْجِلِيزِ كَافَّةً يَمْتَنُونَ مَا يُعْمَلُ فِي أَتَوَابِ الْأَطْفَالِ مِنَ الْحَبَالِ الَّتِي
يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا فِي دَيْبِهِمْ، وَمَا يُتَّخَذُ لَهُمْ مِنَ الدَّرَاجَاتِ الْخَيْرُورِيَّةِ وَالْآلَاتِ
الْمُتَدَحِّرَةِ لِأَجْلِ مُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى الدَّرَجَانِ ^(٢)، وَيُؤَكِّدُونَ أَنَّ اسْتِعْمَالَهَا يَمَّا يُوَدَّى
إِلَى تَشْوِيهِ صَدْرِ الطِّفْلِ وَأَعْيَاجِ سَاقِيهِ بِمَا يَسْتَلْزِمُهُ ذَلِكَ الْاسْتِعْمَالُ مِنْ وَقُوعِ
ثِقَلِ الْجَسْمِ كُلِّهِ عَلَى الْعَقِيْنِ .

بَلِ الدُّكُورُ وَارِثِيَتُهُ قَدْ بَالَغَ فِي الْأَمْرِ حَتَّى قَالَ يُجُوبُ تَعْوِيدُ الطِّفْلِ مِنْ
نُومَةِ أَطْفَالِهِ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ عَنْ قَصْدٍ وَعَزِيمَةٍ، وَلِهَذَا يُجِبُ تَرْكُ إِقَامَتِهِ وَمِمَشِيَّتِهِ
بِالْآلَاتِ الصَّنَاعِيَةِ حَالِ تَجْزِئِهِ عَنْ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، لِأَنَّ فِيهِ إِضْلَالًا لَهُ فِي فَهْمِ مَقْدَارِ
قُوَاهُ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَدْرُجُ بِنَفْسِهِ وَالِدَارِجُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ تِلْكَ الْآلَاتُ الَّتِي
يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا، وَهُوَ وَهْمٌ يَصْحَبُهُ طُولُ حَيَاتِهِ وَيُظْهِرُ أَثَرَهُ فِي عَامَّةِ شُؤُونِهِ .

يَتَعَلَّمُ الْأَطْفَالُ هُنَا الْحَرَكَةَ وَالِاتِّقَالَ بِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَتَرَكُونَ وَشَأْنَهُمْ فِي التَّحْرُكِ
فَيَتَدَحَّرُونَ وَيَجْبُونَ عَلَى إِسْطِاقٍ يُفَرِّسُ لَهُمْ، وَيَتَأَلَوْنَ مِنَ الْقُوَّةِ تَدْرِيجًا مَا يُمْكِنُهُمْ
مِنَ الْوُقُوفِ، ثُمَّ يَتَحَايَرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فَيَخْطُونَ خُطَوَاتٍ مُسْتَعِينِينَ فِيهَا بِالْاعْتِمَادِ عَلَى
مَا يَكُونُ قَرِيبًا مِنْهُمْ مِنْ أَثَاتِ الْمَكَانِ، فَإِذَا اضْطَرُّوا لِإِضْعَافِهِمْ تَلَقَّتْهُمْ أَدْرَعَةُ أُمَهَاتِهِمْ
فَمَنْعَتْهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ .

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ — وَلَيْسَتْ سِوَى التَّخْلِيلَةِ بَيْنَ الطِّفْلِ
وَعَمَلِهِ — هِيَ أَكْثَرُ اتِّشَارًا فِي أَمْرِيكَةِ مِنْهَا هُنَا، فَقَدْ سَمِعْتُ مِمَّنْ سَبَّحَ الْكَلَامَ فِيهَا

(١) الخيزورية المنوعة من الخيزور وهو الخيزران .

(٢) الدرجان: المنى .

أَنَّ سَامِيًا إِنْجِلِيزِيًّا صَادَفَ يَوْمًا وَهُوَ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِأَمْرِيكَ صَبِيًّا فِي الثَّانِيَةِ
أَوِ الثَّلَاثَةِ مِنْ عُمْرِهِ يَرْحَفُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ عَلَى حَرْفِ قَنْطَرَةٍ مَدْعَرَةٍ يَتَدَفَّقُ مِنْ
تَحْتِهَا سَيْلٌ صَحْبٌ، فَارْتَاعَ لِقُحُومٍ هَذَا الْحَدَثِ الْمُتَهَوِّرِ فِي الْخَطَرِ، فَاسْرَعَ فِي الْفَتَاسِ
وَالِدَتِهِ فَاصَابَهَا جَالِسَةً مُطْمَئِنَّةً عَلَى حَافَةِ تَجْرَى هَذَا السَّيْلِ نَفْسُهُ تَفْسِلُ ثِيَابًا، فَتَقُلُّ
لَهَا مَا رَأَتْ مِنْ حَالِهِ وَلَدِهَا وَهُوَ فَزِعٌ مُتَخَوِّفٌ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ، فَمَا كَانَ جَوَابَهَا إِلَّا أَنْ
قَالَتْ غَيْرَ مَدْهُوشَةٍ وَلَا مُزِعِجَةٍ «إِنَّ الصَّبِيَّ مُعْتَادُ الْغَنَاءِ بِنَفْسِهِ وَوَقَاتِهَا، وَإِنِّي إِذَا
عَدَوْتُ إِلَيْهِ لِإِبْعَادِهِ عَنْ مَطْنَةِ التَّهْلُكَةِ مُظْهِرَةٌ لَهُ الْجَزَعَ وَالْهَلَاكَ كَانَ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ
مُدْهِبًا لِرَشَادِهِ مُضَيِّعًا لِسَدَادِهِ» فَلَمَّا سَمِعَ السَّامِيُّ الْأَجْنَبِيُّ مِنْهَا هَذَا الْقَوْلَ اقْتَصَرَ عَلَى
مُرَاقَبَةِ الطِّفْلِ لِيَنْظُرَ مَاذَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ فَرَأَهُ قَدْ مَكَّنَهُ مَا بَدَّلَهُ مِنْ قُوَاهُ مِنْ
تَكْنِيكِ طَرِيقِ الْهَلَاكِ (٤).

أَنَا إِنِ سَبَقْتُ لِي الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا عَلَى أَنْ أَرَى صَبِيًّا لِي فِي هَذِهِ الْحَالَةِ
مَا رَضِيتُ . وَلَكِنَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ لَمْ تُحِطْ بِخَطَأِ بَنِي فِي تَرْبِيَتِهَا وَلَدَهَا لِلْخَطَرِ عَلَى
مَا رَأَيْتُ كَمَا يَسْبِقُ إِلَى الدَّهْنِ ، بَلْ هِيَ قَدْ فَهِمَتْ فُرُوضَ الْأُمُومَةِ الْحَقِيقِيَّةِ أَحْسَنَ
مِمَّا فَهِمَتَاهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي سِيَاسَةِ الْأَحْدَاثِ مِنْ بَدَايَةِ نَسَبَتِهِمْ هِيَ سَبَبُ
مَا نَرَاهُ فِي سُكَّانِ أَمْرِيكَ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ مَبَاهِمْ إِلَى الْمُخَاطَرَةِ وَشَفِيفِهِمْ بِالْإِسْتِقْلَالِ .

(١) مدعرة : مهدومة مكسرة . (٢) صخب : كثير الصوت الشديد .

(٣) القحوم : الأوتاء في الأمر بجأة بلا روية .

(٤) يوجد لهذه الحالة نظير في أولاد الطبقة الدنيا من الأمة عندنا وفي كل أمة ، وسببها ضرورة اشتغال
الأمهات بتدبير حاجات المعيشة وبمجزئ عن استكثار غيرهن للقيام به ، وحذا لوجرى نساء إنا الطليقات
على هذه الطريقة التي توهم المرء للاستقلال من بداية حياته . المترجم . (٥) بحذاهاها بأسرها .

الوالدات الإنجليزيات كافة يتمنن من تغطية رؤوس أطفالهن ولا يقبلن أن يضعن عليهن القبعات المحشوة بالوبر التي هي تيجان الضعيف . نعم إنه قد يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الأطفال للخطر لما يتوقع من سقوطهم ، ولكنهن يدفنن هذا الاعتراض أولاً بأن رعايتهن لهم واهتمامهن بأمرهم ، يؤمنان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم ، وثانياً بأن الطفل كلما شعر بقله أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقه ، فليزم أن يربى فيه من صغره خلقاً لاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها ، لا أن يُعول في حفظه على بعض طرق احتياطية لا تفي عنه شيئاً ، وهي دائماً مبنيّة على الوهم والخطأ قل ذلك أو أكثر . إذا شاهدت الطفل الإنجليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خلت هرقلة صغيراً^(١) وإن كان لا يحنق الأفاعي لا يقطع دأريها من جزيرته ، ولكن قد بدت عليه مخالب الجسارة وسمات الجرأة والإقدام ، من أجل هذا كان لا يوجد دم أغزر مادة من دم الإنجليزي ولا نسل أقوى من تسليهم ، وأجسامهم مبرأة من الساعات فهي عندهم في غاية الندرة ، ولا إخالك تصدقني إذا قلت : إني إلى الآن لم يقع بصري على أحدب منهم ، وفي رأيي أن جمال النسل حجة قائمة تنطق بأفصح إسان مؤيدة منهج الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم .

المهمل المتدبّب الذي هو من لوازم الأطفال حنّداً قليل الاستعمال جداً فيما وراء (بوغاز) الناس (أي في بلاد الإنجليز) وإنما يوجد للأطفال سرور كثيرة

(١) هرقل هو ابن المشتري على ما في أساطير اليونان وهو من أشهر الشجعان طارعيه بأعماله التي منها

لَيْسَتْ مِنَ الْأَرَابِيجِ الَّتِي تَهْتَرُ بِالْيَسِيدِ كَالَّتِي عِنْدَنَا، فَلَا يُجْلِزُ عَامَةً يَسْتَرْذِلُونَ عَادَةً هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ وَيَقُولُونَ إِنَّهَا ذَرِيعَةٌ إِلَى تَقْوِيدِهِمْ أَنْ لَا يَنَامُوا إِلَّا بِوَسَائِلِ صِنَاعَةٍ .
تُعَلِّمُهُمْ هَذِهِ الْعَادَةُ أَنْ يَلْتَمِسُوا رَاحَةَ أَبْدَانِهِمْ عِنْدَ فَرَمِهِمْ عَلَى حَيْنِ أَنَّهُ يَلْزِمُهُمْ أَنْ لَا يَطْلُبُوهَا إِلَّا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا . نَحْنُ لَا نَهْتُمُ بِمَا يَنْشَأُ عَنِ اتِّخَاذِ تِلْكَ الْوَسَائِلِ الْبَاطِلَةِ الْمُوَافِقَةِ لِرَغَائِبِ أَطْفَالِنَا مِنَ الْأَثَارِ السَّيِّئَةِ فِي طِبَاعِهِمْ، وَلَا نُطِيلُ النَّظَرَ فِي ذَلِكَ . الطِّفْلُ قَبْلَ تَمْيِيزِهِ وَتَمَازُيْ أَنْوَاعِ الْوُجْدَانِ فِيهِ يَكُونُ فِي فِطْرَتِهِ مِنَ الْإِحْتِيَالِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْإِتِّفَاقِ بِضَعْفِهِ وَتَسَاحُجٍ مِنْ يَكْتَفِيئُونَهُ . فَكَمْ مِنْ أَنْاسٍ انْقَضَى دَوْرُ طُفُولَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِهْتِرَازِ طُولَ حَيَاتِهِمْ ! فَلَا تَعْرِفُ لِمُمْ نَوْمًا وَلَا يَقْظَةً، بَلْ تَرَاهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْ أَنْفُسِهِمْ يُحَرِّكُهُمْ عَوَامِلُ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، فَيَرَوْنَ فِي أَحْلَامِهِمْ وَخَيَالَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَهْتَرُونَ، وَكَانَ الْأَوَّلَى أَنْ تَصِيحَ بِهِمُ الذَّمَامَةُ لِيَهْبُوا مِنْ رُقَادِهِمْ وَيُسْمَرُوا عَنْ سَاعِدِ الْخُدِّ لِلْعَمَلِ وَالْمُغَالَبَةِ فِي مِيدَانِ الْحَيَاةِ .

أَخْشَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ كَلَامِي هَذَا قَرِيبَ الشَّيْبِ بِالْوَعِظِ الدِّينِيِّ، عَلَى أَنِّي لَمْ أَتِ بِهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي بَلْ تَمِيعَتُهُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ عِبَارَتِي مِنْ قَائِلَةٍ وَقَوْلٍ صَدِيقَةٍ لِلْسَيِّدَةِ وَارْتِجِئُونَ مَشْهُورَةً هُنَا بِأَن قَوْلَهَا حُجَّةٌ فِي قَنِّ التَّرْبِيَةِ فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ فِي إِنْجِلْتَرَةِ هِيَ أَوَّلُ عِلْمٍ يَتَلَقَّاهُ النِّسَاءُ .

إِحَالُ أَنَّ الْوِلْدَانَ فِي إِنْجِلْتَرَةِ أَقَلُّ بُكَاءٍ مِنْهُمْ عِنْدَنَا، وَلَسْتُ وَاهِمَةً فِي ذَلِكَ فَإِنَّ بُكَاءَ الطِّفْلِ إِنَّمَا يَكُونُ لِتَأْلِهِ مِنْ عَارِضٍ يُلْهِمُهُ، وَإِنْ مَامَتْهُ هُنَا مِنَ الْحُرْبَةِ وَمَا أَحِيطَ

بِهِ مِنْ ضُرُوبِ النَّبَاةِ الصَّحْبَةِ وَمَا سُنَّ لَهُ مِنْ قَانُونِ الْغِدَاءِ يُسَاعِدُ عَلَى صِحَّتِهِ وَنُمُوهَا .
وَلَا يَدْعُ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ لِلْإِنْجِلِيزِ عَنَايَةٌ كُبْرَى بِتَرْقِيَةِ تَسْلِيلِ السَّجَمَاتِ حَتَّى
لَا يَجِدَ أَجْمَلَ مِنْ خِيَامِهِمْ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ كَلَامِهِمْ ، فَكَيْفَ مَعَ هَذَا يُظَنُّ أَنَّهُمْ يَفْقَلُونَ
تَرْبِيَةَ الْأَدَمِيِّ الْجُمَانِيَّةَ .

الْوَالِدَاتُ الْإِنْجِلِيزِيَّاتُ عَلَى الْجُمْلَةِ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ مُنَاسِبَاتٍ فِي ذَلِكَ
بِمَلَكَتِهِنَّ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ لَفُظِ الْمَرْضِعِ عِنْدَهُنَّ لَا يُؤَدِّي الْمَعْنَى الَّتِي وَضَعَ لَهُ عِنْدَنَا ،
فَلَا يَرَادُ بِهِ إِلَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الْوَلَدِ فِي تَرْبِيَتِهِ فَالْمَرَاضِعُ عِنْدَ حِيرَانِنَا يَتَقَسَّمْنَ
إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَمَازَيْنِ كُلُّ التَّمَازُ (أَوَّلُهُمَا) الْحَاضِنَاتُ وَيُسَمَّيْنَ عِنْدَهُنَّ بِالْمَرَاضِعِ
الْجَائِفَاتِ (ثَانِيَهُمَا) الْمَرَاضِعُ الْحَقِيقِيَّاتُ وَيُوصَفْنَ بِدَوَاتِ اللَّيْلِ إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ أَقَلُّ
عَدَدًا مِنْ عِنْدَنَا ، وَلَا يُرْجَعُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ الْمُنِجِيَّةِ حَيْثُ تَكُونُ الْأُمُّ
فِي غَايَةِ الْعَجْزِ عَنْ إِرْضَاعِ وَلَدِهَا ، بَلْ كَثِيرٌ مِنَ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ يُفَضِّلْنَ الْقَامَ وَلَدَانِهِنَّ
زُجَاجَاتِ اللَّبَنِ عَلَى الْقَائِمِينَ يُدَيِّ الْأَطْفَارِ (الْمَرَاضِعُ الْمُسْتَأْجَرَاتِ) وَإِنَّهُنَّ لَيُوسِعُنَا
لَوْ مَا عَلَى تَفَرُّطِنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ . وَلَا إِخَالُفٌ إِلَّا مُحَقَّقَاتٍ فِي ذَلِكَ ، فَكَمْ مِنَ الْفَرَنْسِيَّاتِ
الْمُتَرَفَاتِ مَنْ يَكُنَّ إِرْضَاعَ وَلَدَانِهِنَّ الَّذِينَ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَعْمَرُ شَيْءٍ عَلَيْهِنَّ
فِي هَذَا الْعَالَمِ إِلَى نِسَاءٍ مِنْ أَهْلِ الْقَرْىِ جَائِفَاتِ الطَّبَاجِ قَدَرَاتِ الْأَبْدَانِ لَا يَرْضِيْنَهُنَّ
مُسَاعِدَاتٍ لهنَّ فِي التَّرْزِينِ وَالْتَحْلِي ^(١) .

(١) اللال — بكسر اللام — : ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن .

(٢) قد شاعت هنا أيضا عادة ترك الأطفال للراضع من نساء الخواص ، وما سببها إلا التزام مقتضيات
التحدث الفرنسي الفاسد ، فمن جذيرات أيضا بهذا اليوم القوي توجهه هذه الأم الحكيمة الى الفرنسيات -
المترجم .

النَّظَافَةُ عِنْدَ الْإِنْجِلِيزِ هِيَ فِي حَقِّ الْأَطْفَالِ أَسَاسُ تَدْبِيرِ الصَّحَّةِ وَهِيَ تَامَّةٌ فِي كُلِّ الطَّبَقَاتِ حَتَّى الْفُقَرَاءَ فَإِنَّهُمْ يَغْسِلُونَ أَوْلَادَهُمْ فِي كُلِّ صَبَاحٍ .

يُسَدُّ الْأَطِبَّاءُ هُنَا النِّكِيرَ كَمَا يَفْعَلُ رُصَّةٌ أَوْهُمْ فِي الْإِلَادِ الْأُخْرَى عَلَى لَيْسِ النَّسَاءِ الْفَلَائِلِ الْمَحْزُوقَةِ (الضَّيْقَةُ الضَّاعِطَةُ) فَلَا يُصْنِي لَهُمْ أَحَدٌ، فَالضَّيْقَاتُ يُتَفَنَّيْنَ أَقْدَامَهُنَّ بِالنَّعَالِ الضَّيْقَةِ وَتَحْنُ تُتَلَفُ قُدُودُنَا بِهَذِهِ الْفَلَائِلِ الْمَحْزُوقَةِ جَارِيَاتٍ فِيهِ عَلَى مَا حَكَمَتْ بِهِ الْعَادَةُ فَرَأَا مِنْ السَّعْنِ وَبُرُوزِ الْبَطْنِ عِنْدَ الْحَبْلِ، عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْإِعْتِرَافُ بِأَنَّ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ أَقَلُّ مَنَا عَنَابَةٍ بِإِخْفَاءِ حَبْلِهِنَّ . بَلْ هُنَّ يَفْخِرْنَ بِهِ ، فَقَدْ شَبِهَتْ إِحْدَاهُنَّ الْمَرْأَةَ الْحَبْلِيَّ بِالشَّجَرَةِ الْمُثْمِرَةِ فَقَالَتْ «مِثْلُ الْمَرْأَةِ فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ الْأُسْرَةِ كَمِثْلِ الشَّجَرَةِ تَحْمِلُ ثَمَرَتَهَا» .

الآنَ تَذَكَّرْنَا فِي أَيَّامِ الْهَنَاءِ الْخَالِيَةِ لَمَّا كُنَّا نَحْتَمِي فِي مَنَازِلِ التَّوِيلِيَّةِ أَوْ فِي حَدِيقَةِ لُوكِسمِبُورْجِ كَثِيرًا مَا تَأَلَّمْنَا لِرُؤْيَةِ أُولَئِكَ الْأَحْدَاثِ شُهَدَاءِ الْبِدْعَةِ الَّذِينَ يُخْرِجُهُمْ أَصُولُهُمْ مُتَبَرِّجِينَ بِالزَّيْنَةِ، قَتْلُهُمْ حَاضِنَاتُهُمْ بِنَاهِهِمْ وَزَيْنَتُهُمْ مِنَ الْقَدَمَيْنِ إِلَى الرَّأْسِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنَّ الطِّفْلَ الْحَسَنَ الْبُزَّةَ لَا يُعْتَبَرُ طِفْلًا وَلَا يَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْ إِخْرَاجِهِ تَسْلِيَتُهُ وَتَرْوِيجَ نَفْسِهِ ، بَلْ تَحْصِيلُ اللَّذَّةِ لِقَرْنِهِ، فَإِذَا أُولِعَ بِالْبَحْثِ فِي الْأَرْضِ بِسَيْدِهِ أَوْ جَرَى فِي مَهَبِّ الرِّيحِ فَعَبَّتْ نَبَاتَاتُ دَوَائِبِ

(١) سرائر التوابلية قصر كان مقرا للوك فرسة في باريس وكان بناؤه من أجل الملكة كاترين مديس والذي ابتداء هو المهندس فيلير دولورم وأتمه من بعده المهندس جان لولان ولوفو وأرق في مايو سنة ١٨٧١ في عهد حكومة الشعب ثم جدد .

(٢) لوكسمبورج قصر في باريس بنى لريم دومديس في مدة خمس سنين من سنة ١٦١٥ إلى سنة ١٦٢٠ والذي بناه المهندس يعقوب دو بروس .

شعره الجعد الجميل ونج وعنف على أنه وسخ نفسه، ولم يمثل ما أمر به من السكون فكان ذويه لا يرومون تربيته وإنما يريدون عرضه على الأنظار فليس الذي يقصد أولاً والذات من تلك التره هو إمتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء الفضاء اللذين يقويان صحته وينميان أعضائه مما يكون معهما من الرياضة والحركة، بل المقصود منها هو اتخاذ العوبة أتيقة بطاين بهاؤها وروتها من نخوة الأمهات الأخريات ويكسر من زهوهم، فلذا رأت الأم بنتها ترقل في ثوب من الخزمزين بالطراز المتق، (التاتلا) قالت في نفسها مفتبطة: لو رأتها السيدة فلانة أو السيدة فلانة لانتشفت مرارتها غيرة وكمداً. إلى هنا أميك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع فإني صرت عابة على ما يظهر لي.

النساء الإنجليزيات يحمن أولادهن أيضاً بفانح الثياب ويخرجن بهم إلى المتزهات بل هن يالغن في ذلك أحياناً فيصلن إلى حد الإفراط، غير أن هذا لا يكون إلا في أيام الآحاد، وأما الأطفال الذين ينشئون في القرى فيندران بأنسوا من أنفهم الحاجة إلى الخروج طول الأسبوع لأن القامعين عليهم يحلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت والمرج في حر الشمس، وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من الصوف ولا يديحون لأنفسهم التعرض لهم في الأعيام، وأما نحن فبحملنا هوساً بتدبير كل شيء وإدارته إلى التدخل في تتره الأطفال واستراحتهم بسياساتهم في ذلك وضبطهم بقواعد لا يتعدونها.

لم ينب عن ذاكرتك أننا كنا يوماً في قاعة السيدة... جالسين معها ندخل علينا ولها الكبير وهو وصي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه سمات

السَّامِعَةِ، وَالتَّفَتَ إِلَى وَالِدَيْهِ فَسَأَلَهَا قَائِلًا : أُمَامُ، مَاذَا بَدَأَ أَنْ أَفْعَلَ لِأَسْلَى وَأَرْوَحَ نَفْسِي ؟ لَا أَزَالُ أَتَذَكَّرُ أَنْدِهَاتِكَ لِهَذَا السُّؤَالِ وَمَا جَرَى مِنَ الْمِرَاجِ وَالصَّحِيحِ بَيْنَنَا بِسَبَبِهِ . عَلَى أَنَّ هَذَا الصَّبِيَّ الْمُسْكِينَ كَانَ لَهُ حَاضِنَةٌ تَقْدُّ أُجْرَةً كَبِيرَةً جِدًّا . وَلِذَلِكَ أَحْبَلَ عَلَيْهَا لِسْلِيَّهٖ، وَكَانَ يَظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا فِي غَايَةِ الضَّجَرِ مِنْ عَمَلِهَا .

فِي بَعْضِ الْأَسْرِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ أَيْضًا حَاضِنَاتٌ، إِلَّا أَنَّ الَّذِي عَرَفْتُهُ بِالشَّاهِدَةِ مِنْ أَمْرِهِنَّ أَنَّهُنَّ يَسْنَنُ رِعْيَتَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ كَمَا تَسْوُسُ مَلِكَةً إِنْجِلِيزِيَّةً رَعَايَاهَا، أَعْنَى بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَكُونُ لِمَنْ سُلْطَانٌ عَلَيْهَا خُصُوصًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَنْوَاعِ اللَّعِبِ وَضُرُوبِ السَّلَى . يَسْتَلِ جِيرَانُنَا عَلَى وَجُوبِ إِطْلَاقِ الْحُرِّيَّةِ لِلْأَطْفَالِ فِي الْأَعْيَمِ بِأَدِلَّةٍ سَدِيدَةٍ عَلَى مَا أَعْتَقِدُ، فَيَقُولُونَ إِنَّ الْكِبَارَ فِي اشْتِرَاكِهِمْ مَعَ جَمَاعَةِ الْأَحْدَاثِ الْفَرِحِينَ الْمَرِحِينَ فِي تِلْكَ الْأَلَايِبِ يَرْجِعُونَ دَائِمًا إِلَى أَذْوَاقِ أَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ رُجُوعِهِمْ إِلَى أَذْوَاقِ أُولَئِكَ الْأَحْدَاثِ ، فَيَقُولُونَ بِذَلِكَ اعْتِبَارَ رَأْيِهِمْ فِي مَسْأَلَةٍ لَا مَرِيَّةَ فِي أَنَّ مَوْضِعَهَا الْقِيَامُ لَمْ يَحْقُوقِهِمْ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْحَقُوقُ مِنَ الْكَثَرَةِ بِحِثِّ يَسْلَمُ الْمُطَالِبُ بِهَا مِنْ وَخَرٍ وَجَدَانِهِ إِذَا هُوَ هَضَمَ مِنْهَا شَيْئًا . وَلَمْ تَحْجُجْ أَقْوَى مِنْ هَذِهِ وَمِىَّ أَنَّ حِرْمَانَ الْأَطْفَالِ مِنَ الْإِخْتِيَارِ يُبَيِّتُ فِيهِمْ رُوحَ الْإِفْطَارِ (الِإِتْدَاعِ وَالْإِنْشَاءِ) وَالْإِنْبَاعِ النَّفْسِيِّ إِلَى الْعَمَلِ ، فَإِنْسَانِيَّةً تَمْحُو آثَارَ نَوْعِ مَيْلِهِمُ الْفِطْرِيِّ وَيُقِيمُ مِيزَانَهُمْ . فَهَلْ هَذَا هُوَ الْوَسِيلَةُ إِلَى تَرْبِيَةِ طِبَاعِهِمْ ؟ الطِّفْلُ إِذَا كَانَ نَشِيطًا صَحِيحَ الْجَنَمِ سَهْلٌ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ فِي التَّنْزِهِ وَالتَّرَوُّجِ فَإِذَا جَرَى عَلَى ذَلِكَ اعْتَادَ أَنْ لَا يَكُونَ تَائِبًا لِغَيْرِهِ فِي لَعِبِهِ وَمَرَمِهِ . أَلَمْ تَكُنْ عَادَةً عَدِمَ الْإِسْتِقْلَالَ عِنْدَ الْأَطْفَالِ

فِيمَا ذَكَرْهُ سَبَبَ مَا كَانَ يَتَوَرُّ أَوْلَيْكَ الْمُلُوكَ الْفَارِسِينَ مِنَ الْكَدْرِ
وَالضَّجْرِ فَيَضْطَرُّهُمْ إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا فِي حَاشِيَتِهِمْ مِنَ الْمَجَائِينَ مَنْ يُضَحِّكُهُمْ .

يَسْئَلُونَ بِدُخُلِ بَيْتٍ إِنْجِلِزِيًّا لِأَوَّلِ وَهَلَةٍ خُصُوصًا إِذَا كَانَ يَنْتَلِي لَا يَزَالُ
مُنَازَرًا بِالْأَفْكَارِ الْفَرَنْسِيَّةِ أَنَّ مَا بَيْنَ أَهْلِهِ مِنَ الْعَلَانِيَةِ وَالْمُعَامَلَاتِ عَلَيْهِ سِمَةُ الْفُتُورِ
وَالْإِحْتِسَامِ ، فَيَرَى الْوَالِدِينَ فِيهِ أَقْلَ تَمَلُّقًا لِأَوْلَادِهِمَا وَارْتِغَابَ عَنْ مُلَاطَفَتِهِمْ مِنْهُمَا
عِنْدَنَا ، وَكَذَلِكَ يَرَى الْأَوْلَادَ أَقْلَ أَنْسًا بِالْأَجَانِبِ وَمُبَاسِطَةً لَهُمْ ، وَكَلَامِي هَذَا إِنَّمَا
هُوَ عَلَى جَهْلِيَّتِهِمْ فَلَا يَتَأَنَّى أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ . وَإِنْ أَرَدْتَ
أَنْ تَعْرِفَ إِنْ كَانَ هَذَا الظَّاهِرُ مِنْ فُتُورِ الْعَلَانِيَةِ وَتَرَاحِيهَا مَنَشَأُهُ طَبْعُ الْأُمَّةِ الْغَرِيزِيُّ ،
أَوْ أَنَّهُ مَقْصُودٌ جَرْمًا عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبٍ أَوْ قَاعِدَةٍ فِي التَّرْبِيَةِ فَإِنَّكَ رَجَعَ صَدَى
مُحَاوَرَاتِي فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مَعَ الْقَائِلَةِ الْجَلِيلَةِ صَاحِبَةِ الْفَضْلِ عَلَى خُصُوصًا
فِي الْإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ قَالَتْ : إِنَّ الْإِنْجِلِزِيَّةَ يُحَذِّرُونَ إِظْهَارَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُرَاعَاةِ
لِأَوْلَادِهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ عَلَيْهِمْ لِلْمَزَاعِمِ السَّخِيفَةِ سَبِيلٌ . وَأَمَّا أَنْتُمْ فَإِنَّ الْفَضْلَ عِنْدَكُمْ
بِعَامِلٍ مَعَ الْإِرْتِيَاحِ مُعَامَلَةِ الْمَرْأَةِ فَكِلَاهُمَا يُعَوِّدُ أَنْ يُحِبَّ أَكْثَرِمَا يَجِبُ ، هَذَا
النُّوعُ مِنَ الْمُعَامَلَةِ يَنْتِجُ الْفَتِيحَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْعَارِمِينَ وَالْعَوَارِمَ مِنَ الْأَطْفَالِ .
الْمَحَبَّةُ تَدْعُو إِلَى الْمَحَبَّةِ وَأَمَّا أَنْوَاعُ التَّمَلُّقِ وَالْمُخَادَعَةِ فَإِنَّهَا تُنْتِجُ جَرَائِمَ الْأَثَرَةِ وَالزُّهْوِ ،
فَالطُّفْلُ الَّذِي يَتَرَلَّفُ إِلَيْهِ وَالِدَاهُ كَمَا يَتَرَلَّفُ النَّاسُ إِلَى الْعُظَمَاءِ لِنَيْلِ الْحُظُوفَةِ لَدَيْهِمْ .

(١) المجانون بتشديد الجيم جمع مجان وهو كيمبر المجنون أى الهزل .

(٢) النجيات : ذوات الدلال .

(٣) العارمون جمع عارم وهو المؤذى الشرس والموارم جمع عاربة .

وَهَذَا هُوَ شَأْنُهُمَا مَعَهُ فِي النَّسَابِ — لَا يَلْبُثُ أَنْ يَتَّبِعِي بِهِ الْأَمْرَ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ
النَّاسَ مَدِينُونَ لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ لَيْسَ مَدِينًا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ شَيْءٌ .^(١)

هَذَا مَا بَدَأَ لِي مِنَ الْمُلَاحَظَاتِ نَصَبْتُهُ لَكَ عَلَى عِلَالِيهِ مُوقِنَةً بِأَنَّهُ سَيُنَالُ حَقًّا
مِنْ أَطْلَاعِكَ وَبَحْثِكَ ، وَمَاذَا أَرِيدُكَ عَلَيْهِ ؟ لَمْ يَسِقْ عِنْدِي مَا أُخْفِكَ بِهِ سِوَى أَنَّ
مِثْلَكَ الْفَزِيرَ لَا يُفَارِقُ خَيَالِي وَجَبَّكَ الرَّايِخَ لَا يُزَايِلُ قَلْبِي . رَبَّتْ بَنِي جَعَلْتُهُ
لِسُكْنَى اثْنَيْنِ كَمَا لَوْ كُنْتُ سَتَحُلُّ بِهِ غَدًا ، وَنَظَّمْتُ مَكَبِكَ أَيْضًا جَعَلْتُ مَا فِيهِ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَوْرَاقِ كُلًّا فِي مَوْضِعِهِ ، وَهُوَ الْآنَ مَشُوقٌ إِلَيْكَ فَعَسَى أَنْ لَا يَطُولَ
عَهْدُ خُلُوهٍ مِنْكَ . هَذَا أَمَلُ أَرْجُو أَنْ لَا أُحْرَمَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَوْلَاهُ لَفَضَى عَلَى الْفِرَاقِ ،
وَقَدْ عَقَلْتُ رَسْمَكَ فِي مَطْعَمِنَا الصَّغِيرِ فِي سَاعَاتِ الْأَكْلِ أَجْلِسُ لِلْإِنْدَاءِ مُوَاجِهَةً
لَهُ فَأَرَى لِمُصَوِّرَتِكَ فِيهِ نَوْعًا مِنَ الْحَيَاةِ ، وَيُخِيلُ إِلَيَّ جَيْثِيذِي أَنِّي أَتَقَدَّى مَعَكَ وَجْهًا
لِوَجْهِهِ كَمَا أَتَى أَيَّامَ الْفُرْبِ وَالصَّفَاءِ . مَا أَوْلَعَنِي بِالنَّظَرِ إِلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَلَا بَدَّ أَنْ
وَلَدَنَا سَيَاتِي مُشَابِهًا لَكَ ، وَالسَّلَامُ فِي الْخِتَامِ .

حَاشِيَةٌ — أَسْأَلُكَ عَلَى ذِكْرِ هَذَا الْوَلَدِ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تُسَمِّيَهُ ؟ هـ ١ .

(١) يُنَالُ الْوَالِدُونَ الْمَوْلُونَ بِحُبِّ أَوْلَادِهِمُ الْعَاجِزُونَ عَنْ كِتْمَانِهِ عَنْهُمْ الْمُسْرِفُونَ فِي مَلَاحِظَتِهِمُ الْمَارِعُونَ
فِي مَرْضَاتِهِمْ فَيَا أَرَدَعَهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الطَّيِّبَةُ مِنَ الْحُكْمِ الْقَوِيَّةِ وَالْعَبْرِ النَّافِعَةِ وَلِيَجْمَعُوا فِي ذَلِكَ رَحْمَةً بِأَفْلَاحِ
أَكْبَادِهِمْ أَنْ تَهْدِي طِبَاعَهُمْ وَتُسَوِّ أَعْلَاقَهُمْ وَلِيَضْمَعُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ وَلِيَقْتَدُوا بِمَنْ قَالَ فِيهِ الْقَائِلُ :
فَقَسَى لِيُزِدُّوهُ وَمَنْ يَكْ رَاحِمًا * فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْسَمُ — الْمُتَرْجِمُ .

الرسالة الثامنة عشرة

(مِنْ إِرَاسْمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ٢١ إبريل سنة - ١٨٥٠)

مُوافَقَتُهُ لَهَا فِي اتِّقَادِهَا التَّربِيَّةَ عِنْدَ الْفَرَنْسِيِّينَ

قَدْ أَصَبَتْ أَيْتَهَا الْعَزِيزَةُ هِيلَانَةَ فِي اتِّقَادِكَ طَرِيقَتَنَا فِي سِيَاسَةِ الْأَطْفَالِ فَإِنَّهَا
جَدِيرَةٌ بِالِاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ ، وَلَكِنْ يَا لَهَا مِنْ طَرِيقَةٍ تُلَايِمُ أَخْلَاقَنَا وَأَوْضَاعَنَا
السِّيَاسِيَّةَ مُلَاعَمَةً عَجِيبَةً . فَلَا إِفْرَاطَ فِي التَّضْيِيقِ عَلَى الطِّفْلِ وَحَصْرِهِ فِي لَفَائِفِهِ إِذَا
كَانَ حَظُّهُ فِي مُسْتَقْبَلِهِ أَنْ يُقَمِّطَ وَيُسَدَّ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقَوَائِنِ وَالْأَوَامِرِ ، وَأَمَّا حِبَالُ
الْمَلَايِسِ الَّتِي تُنْسَكُ بِهَا عِنْدَ الْمَشِيِّ فَلَا نَعُوزُنَا وَعِنْدَنَا مِنْهَا مَا يَنْاسِبُ جَمِيعِ الْأَعْمَارِ ،
لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ لَا نُحْسِنَ الْمِشْيَةَ فَتُزِلُّنَا تِلْكَ الْحِبَالُ أَنْ نَمَشِيَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ،
وَأَنْ نَمْضِيَ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ مَنْ يَقُودُنَا . إِنْ الْقَائِمِينَ عَلَيْنَا فِي تَرْبِيَّتِنَا لَيْسَلْبُونَنَا مِنْ
أَوَّلِ تَسَاتُّبِ كُلِّ مَا أَوْدَعَ فِينَا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِأَنْفُسِنَا وَتَقِينَا بِهَا ، فَمَا أَغْلَهُمْ
وَأَبْعَدَهُمْ نَظَرًا فِي الْعَوَاقِبِ ! هَذَا يُعَلِّمُنَا أَنْ نَكُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا تَابِعِينَ لِغَيْرِنَا ،
مُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِ فِي حِفْظِنَا وَوَقَايَتِنَا فَإِنَّمَا يَتَعَوَّدُ النَّاشِئِينَ أَنْ يُقَادُوا فِي دَرَجَاتِهِمْ .
وَيَهْزُوا فِي مُهَوِّدِهِمْ ، وَيَسَاسُوا وَيُرَاقِبُوا فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ ، نُوْهِلُهُمْ لِأَنْ
يَعِيشُوا فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ بِأَعْيُنِ الشَّرْطَةِ وَتَحْتَ سَيْطَرَتِهَا فَمَا أَجْلَهَا طَرِيقَةُ نَسْلُسُلُ
أَجْرَاؤَهَا !! التَّسْلُسُلُ هُوَ أَحْسَنُ لَفِظٍ وَجَدْتُهُ لِلتَّعْيِيرِ عَنِ اتِّصَالِ غَايَاتِهَا بِمَبَادِئِهَا .

إِنْ مَا ذَكَرْتُهُ لِي مِنْ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَحْرَى عَلَيْهَا الْإِنْجِلِيزِيُّ فِي تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِمْ قَدْ
أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الْحِكْمَةِ فِي حُسْنِ أَحْوَالِ الْإِنْجِلِيزَةِ ، وَأَبَانَ لِي أَنَّهُ لَا سَبَبَ لَوْجُودِ مَالِهَا

(١) الشرطه : جماعة من خير أعوان الولاة على حفظ الأمن والواحد شرطى (البوليس) .

مِنَ الْأَوْصَاعِ وَالْقَوَانِينِ الْحُرَّةِ إِلَّا مَا تَتَّخِذُهُ مِنَ الطَّرِيقِ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا عَلَى مَبَارِيِ
الْحُرِّيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ. نَحْنُ فِي فَرَنْسَةِ نَفْرِطُ فِي تَعْلِيْقِ آمَالِنَا بِالْحَوَادِثِ ، وَنَفْرِطُ
فِي الْإِعْتِمَادِ عَلَى مَا أُوتِيْنَاهُ مِنَ الْقُوَى ، فَمَاذَا أَقُولُ فِي وَصْفِنَا غَيْرَ أَنَّنَا لَسْنَا فَرَنْسِيْسَ
بَلْ نَحْنُ يَهُودٌ لِأَنَّنَا دَائِمًا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ زُؤُلِ الْمَسِيحِ فِي صُورَةِ حَاكِمٍ يَرْفَعُ قَوَاعِدَ
الْعَدْلِ وَيُخَلِّصُ النَّاسَ مِنْ عَوَادِي الْجَوْرِ .

وَلَسْتُ أَقْصِدُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَنْ أُتَكِرَ قِيَمَةً مَا تَتَّوَابَ حُكُومَتَنَا مِنَ التَّغْيِيرِ
فِي صُورِهَا وَمَا تَنَجَّ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَزَايَا فَإِنَّ هَذَا يَعِيدُ عَنْ فِكْرِي لِأَنِّي لَوْ كُنْتُ مِنْ
لَا يَبْأَوْنَ بِالشُّؤْنِ السِّيَاسِيَّةِ لَمَّا وَجِدْتُ حَيْثُ أَنَا الْآنَ . عَلَى أَنِّي قَدْ وَصَلْتُ بَعْدَ
طَوِيلِ النَّظَرِ وَخَفِضِ الرَّأْيِ فِي ذَلِكَ التَّغْيِيرِ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مُلْكَ الْحُرِّيَّةِ لَا قَرَارَ لَهُ إِلَّا
فِي نُفُوسِنَا ، وَأَنَّنَا إِذَا أَرَدْنَا تَمْكِينَ دَعَائِمِهِ فِي الْأُمَّةِ وَجَبَ عَلَيْنَا أَوَّلًا أَنْ نُؤَسِّسَ
أُصُولَهُ فِي قُلُوبِنَا . اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(مِنْ إِزَاسَمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي أَوَّلِ مَایِو سَنَةِ — ١٨٥)

تَسْمِيَةُ الْمَوْلُودِ وَاتِّقَادُ طَرِيقَةِ التَّرْبِيَةِ فِي فَرَنْسَةِ

وَتَوْصِيَةُ زَوْجَتِهِ بِتَدْمِ اتِّبَاعِهَا فِي حَقِّ وَلَدِهِ

تَسَالَيْتَنِي فِي خَاتِمَةِ مَكْتُوبِكَ عَمَّا تُسَمِّي بِهِ وَلَدَنَا . تُسَمِّيهِ « إِمِيلَ »

إِذَا جَاءَ ذَكَرًا إِحْيَاءَ لِذِكْرِ هَذَا الْكَلَابِ الَّذِي كُنْتُ أَقْرَاهُ لَكَ فِي مُطَالَعَتِنَا^(١)

(١) يعنى بالكتاب كتاب بيان جاك روسو في التربية المنون « إميل القرن الثامن عشر » .

الْيَلِيَّةِ فَكَانَ فِي تَقْسِكِ مَبْعَثَ الطَّرَبِ وَالْإِعْجَابِ حَتَّى إِنِّي كُنْتُ أَكُفُّ عَنِ
الْقِرَاءَةِ حِينَ بَعْدَ حِينَ لِأَشَاهِدَ وَجْهَكَ فِي ضَوْءِ الْمَصْبَاحِ فَاتَّبِعْنِي فِيهِ ذَلِكَ . وَبِأَلِهَ
مِنْ عَهْدٍ تَحْفَظُهُ ذَا كِرَاتِي لَيْتَكَ الْيَوْمَ السَّعِيدَةَ .

مِنَ الْبَدْعِ الَّتِي جَرَتْ بِهَا أَلْسِنَةُ الْأَكْيَاسِ مِنَ النَّاسِ مُنْذُ حِينَ سَبَّحُوا جَانْ جَاكْ
رُوسُو وَاحْتِقَارُهُمْ إِيَّاهُ ، فَوَيْلَ لِّهْمٍ مِّمَّا يَرْمُونَ بِهِ قَبْرَ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْعَظِيمِ مِنْ نِبَالِ
الْقَلَمِ وَالْقَدَحِ . وَإِنَّهُمْ لَجِدِيرُونَ بِالرَّثَاءِ لِعُقُوبِهِمْ . لَمْ يَكُنْ ذَنْبُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ
سِوَى أَنَّهُ خَالَفَ سُنَّةَ أَهْلِ النَّظَرِ فِي عَصْرِهِ وَهِيَ اعْتِمَادُهُمْ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ
الْإِنْسَانِي عَلَى الرِّجَالِ وَمُخَاطَبَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيهِ بِأَنْ وَجَّهَ خِطَابَهُ إِلَى الْوَالِدَاتِ وَالْأَطْفَالِ ،
وَهُوَ أَمْرٌ هَدَاهُ إِلَيْهِ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ جُودَةِ الطَّبْعِ وَذَكَاءِ الْفَرِيحَةِ . عَلَى أَنَّنَا لَوْ جَرَدْنَا
كِتَابَ « أَمِيل » مِمَّا فِيهِ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْفَصِيحَةِ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا صُحُفُهُ وَالشَّنَائِمُ
الشَّدِيدَةُ الْمُتَّبَعَةُ عَنْ وَجْدَانٍ كَبُرَ عَلَيْهِ احْتِمَالُ الضَّمِيمِ وَالْهَوَانِ ، وَمِنْ الْحَمَاسَةِ فِي نُصْرَةِ
الْفَضِيلَةِ ، وَمِنْ الْإِنْفِعَالَاتِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْرِوْهُ مُؤَلَّفُهُ (الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ دُونَ
وَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ) عِنْدَ نَفْثِهِ فِي بَدَائِعِ الصَّنْعِ وَتَحَايِنِ الْكَوْنِ — لَوْ جَرَدْنَا الْكِتَابَ
مِنْ كُلِّ ذَلِكَ لَوْجَدْنَا هَيَّةَ مَا قَالَهُ الْمُؤَلِّفُ فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَرَادَ وَضْعَهَا لِلتَّرْبِيَةِ تَرْجِعُ
إِلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَهِيَ السَّيْرُ عَلَى مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَمُعَامَلَةُ الْأَطْفَالِ مُعَامَلَةَ الْمُقْلَاءِ ،
وَلَوْ أَنَا سَمِعْنَا لَهُ مَا يَقُولُ لَرَأَيْنَا أَنَّ اتِّبَاعَ الْفِطْرَةِ فِي كُلِّ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ يُفْضِي بِالطِّفْلِ
إِلَى حَالَةِ التَّوْحِشِ وَالْمَسْجِيَةِ . نَعَمْ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ فِي التَّرْبِيَةِ عَلَى رَأْيِ

هَذَا الْحَكِيم ، وَإِنَّهُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِ بِالْوَحْيِ كَانَ يَتَّقِدُ بِوُجُودِ الْكَلِّ فِي أَصْلِ
الْفِطْرَةِ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْوَحْيِ . وَأَمَّا كَلَامُهُ فِي مُعَامَلَةِ الْأَطْفَالِ مُعَامَلَةَ الْعُقَلَاءِ
وَمُخَاطَبَةِ عُقُولِهِمْ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ تُصَاغَ لَهُ مِنْ أَجْلِهِ أَجْمَلُ عِبَارَاتِ الْمَدْحِ
تَتَوِيهَا بِفَضْلِهِ ، وَلَا يَدْعَ فِي أَنْ عَرَفَ لَهُ الْقَرْنُ الثَّامِنَ عَشَرَ قَدْرَهُ بَعْدَ إِنكَارِهِ ،
فَأَقَامَ لَهُ مِنَ الْآثَارِ مَا خَلَّدَ ذِكْرَهُ وَأَحْيَا اسْمَهُ . غَيْرَ أَنَّ الْعَقْلَ مِنْ دُونِ جَمِيعِ قُوَى
الْإِنْسَانِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ فِي طَوْرِ الطُّفُولِيَّةِ أَقْلَهَا نُمُوًا ، فَكَيْفَ إِذَنْ يُعْتَمَدُ عَلَى هَذِهِ
الْقُوَّةِ الْكَامِنَةِ فِي إِیْصَالِ مَعْنَى الْخَيْرِ إِلَى نَفْسِ الطِّفْلِ .

لِرُوسُو فَوْقَ ذَلِكَ أَغَالِیْطُ أُخْرَى كَانَ يَتَّقِدُ صَحَّتَهَا ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ
عَنِ الْإِرْتِقَاءِ فِي أَخْلَاقِنَا وَأَوْضَاعِنَا . مِنْهَا اعْتِقَادُهُ بِوُجُوبِ الْإِمْتِثَالِ لِلْجُمْهُورِ
الْأَغْلَبِ مِنَ السُّلْطَةِ الْمُطْلَقَةِ ، فَإِنَّا نَجِدُهُ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْعَقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ قَدْ
انْتَصَرَ لِلْحُكُومَةِ فِيمَا تَدْعِيهِ لِنَفْسِهَا مِنْ حَقِّ تَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ بِمَا أَفَامَهُ عَلَيْهِ مِنْ
• البراهین .

وَإِنْ أُرِدْتُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ كَيْفَ خَدَمَ رُوسُو الْأَطْفَالَ خَاصَّةً بِمَا نَسَرَّهُ فِي كُتُبِهِ
مِنَ الْإِنْتِصَارِ لِنَفْسِهِمُ وَالِدِّفَاعِ عَنْ حُقُوقِهِمْ ، قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ إِمْكَانٌ بِمَا أَفْتَنُتُ تِلْكَ
الْكُتُبُ فِي نَفُوسِ الْفَرْدِیِّسِ مِنْ بَدْوَرِ الثَّوْرَةِ وَهَيَاتَهَا بِهِ لَهَا .

لَمْ يَقْدِرِ النَّاسُ مَا نَشَأَ عَنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْكُبْرَى فِي نِظَامِ الْبَيْتِ مِنْ ضُرُوبِ
التَّغْيِيرِ حَقِّ قَدْرِهِ ، فَإِنَّهَا قَدْ خَنَقَتْ مِنْ نِقْسِ الْوِلَايَةِ الْأَبَوِيَّةِ تَخْفِيفًا عَجِيبًا عَلَى غَيْرِ
عِلْمٍ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا ، لِأَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ قَلَمًا يَلْتَقِنُونَ إِلَى مَا يَحْصُلُ فِي الْبُيُوتِ

مِنْ تَهْدِيبِ الْأَخْلَاقِ وَصَلَاحِ الْعَادَاتِ ، فَلَمْ يَكَدْ رِجَالُ الثَّوَرَيْنِ اللَّتَيْنِ حَدَّثَا
 فِي سَنَتَيْ ١٧٨٩ و ١٧٩٢ يُدْرِكُونَ مَا يَحْتَوِرُ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ وَالْعَادَاتِ الْبَيْتِيَّةِ مِنْ
 الْإِسْتِحَالَةِ عَلَى قُرْبَاهَا مِنْهُمْ وَسَهْوَةٍ مُلَاحَظَتِهَا عَلَيْهِمْ . ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وَسْعِ
 أَحَدٍ أَنْ يُلَاحِظَ أَعْمَالَ جَمِيعِ النَّاسِ ، فَإِذَا أُريدَ الْوُقُوفُ عَلَى أَثَرِ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْإِسْتِحَالَةِ
 وَصُنُوفِ ذَلِكَ التَّغْيِيرِ وَجَبَ الرُّجُوعُ إِلَى مَا كُتِبَ مِنَ السَّيْرِ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ
 السَّابِعِ عَشَرَ أَوْ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ . هُنَاكَ يُرَى مَا كَانَ بَيْنَ الزَّوْجِ
 وَزَوْجِهِ وَالْوَالِدَةِ وَأَوْلَادِهَا مِنَ التَّكْلِيفِ فِي الْعِشْرَةِ ، وَالْمُقَاتَلَةِ وَالْمُجَافَاةِ^(١)
 فِي الْمَعَامَلَةِ ، نَهْمُ إِنْ قَوِي هَذَا خَاصٌّ بِأَهْلِ الْيُودِيَّاتِ لِأَنَّنَا لَا نَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ
 الطَّبَقَاتِ الْأُخْرَى ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَا بُدَّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِثَالَ سَرَاةِ الْأُمَّةِ وَزُعْمَائِ الدَّوْلَةِ .
 كَانَ الْبَيْتُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ مُؤَسَّسًا عَلَى إِحْدَى الْوَصَايَا الْعَشْرِ الَّتِي وَصَّى اللَّهُ
 (سُبْحَانَهُ) بِهَا مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَهِيَ « أَكْرَمَ أَبَاكَ وَأُمَّاكَ » فَلَمْ يُوصِ مُوسَى
 قَطُّ بِحُبِّمَا .

وَكَانَتِ الزَّوْجَةُ فِي النَّالِبِ تَدْعُو زَوْجَهَا سَيِّدًا وَهُوَ يَدْعُوهَا سَيِّدَةً ، فَكَانَ
 تَحَاطُّبُهُمَا بِاسْمَيْهِمَا مَعَ كَوْنِهِ هُوَلَّةَ الْعِشْرَةِ وَالْإِخْتِلَاطِ لَا يَكَادُ يَقَعُ مِنْهُمَا فِي حَضْرَةِ
 الْأَجَانِبِ ، فَالْثَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي أَدْخَلَتْ فِي الْيُودِيَّاتِ عَادَةَ التَّحَاطُّبِ بِضَمِيرِ الْمُفْرَدِ
 وَسَوَتْ بَيْنَ الْوَلَدِ الْبِكْرِ وَمَنْ يَتْلُوهُ مِنْ إِخْوَتِهِ فِي الْحُقُوقِ فَاجْتَنَّتْ بِذَلِكَ أُصُولَ
 التَّبَايُنِ وَالْإِخْتِلَافِ وَأَعْلَتْ مِنْ شَأْنِ الْمَرْأَةِ وَرَفَعَتْ مِنْ قَدْرِهَا ، كَمَا وَفَّقَتْ مَا يَرِيطُهَا

بِالرَّجُلِ مِنْ عَقْدِ النَّكَاحِ ، وَأَصْبَحَ الْبَيْتُ يُحْكِمُ الشُّؤْنَ وَيَجْرَى الْحَوَادِثُ مَرَجِمًا
لَا صَدَاءَ الْمَحَاوِرَاتِ وَالْمُنَاقَشَاتِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، وَصَارَ صَوْتُ الرَّجُلِ
وَزَوْجَتِهِ فِي مُحَادَثَتَيْهِمَا أَخْلَصَ وَأَشَدَّ مِمَّا كَانَ قَبْلُ . وَكَانَ لِلْكَنِيسَةِ فِي الطِّفْلِ
مِنَ الْحَقُوقِ إِلَى وَقْتِ قِيَامِ الثَّوْرَةِ فِي سَنَةِ ١٧٨٩ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لِأَهْلِهِ فِيهِ ،
فَإِنَّ الْبَيْتَ كَانَ قَدْ اسْتَعَارَ مِنَ الدَّيْرِ مَا فِيهِ مِنْ صَلَابَةِ الْمُعَامَلَةِ الْبَارِدَةِ سَبَبٌ أَنْ
الْوَالِدَةَ فِي الْغَالِبِ كَانَتْ تُرَبِّي فِيهِ . لَا أَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّ مَا كَانَتْ تُحِبُّ أَوْلَادَهَا
قَبْلَ الثَّوْرَةِ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَخْطُرَ هَذَا بِفِكْرِي ، وَلَكِنِّي مَعَ اعْتِقَادِي حُبًّا إِيَّاهُمْ
أَعْتَقَدُ اعْتِقَادًا ثَابِتًا أَنَّ الثَّوْرَةَ سَاعَدَتْ عَلَى تَحْلِيصِ مَحَبَّاتِ الْقُلُوبِ مِنْ قُبُودِ التَّكَلُّفِ ،
فَكَأَنَّ مَنَشَأَ جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ الْعُظْمَى لِلْأَرْضِ هُوَ مَا فِي بَاطِنِهَا مِنَ النَّارِ كَذَلِكَ
مَنَشَأُ حَوَادِثِ الْإِنْسَانِ الْكُبْرَى هُوَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْحُبِّ .

ذَلِكَ شَأْنُ الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ ، فَمِنْ حَيَاتِهِ فِي الْهِنْدِ حَيْثُ كَانَ الطِّفْلُ
لَا يُعْتَبَرُ إِلَّا بُرْعُومًا مِنْ نَبَاتِ قَبِيلَتِهِ ، وَفِي رُومِيَةِ آلِي كَانَ الْوَالِدُ فِيهَا يَمْلِكُ عَلَى وَلَدِهِ
حَقَّ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ ، إِلَى أَنْ صَارَ إِلَى هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي كَادَ يَكُونُ
لِلطِّفْلِ فِيهَا وَجُودٌ مُسْتَقِلٌّ . قَدْ رَفَى الْبَيْتُ فِي أَطْوَارِ وُجُودِهِ الْأَصْلِيَّةِ جَمِيعَ مَخَارِجِ
الْحُرِّيَّةِ ، فَلَا بُدَّ فِي تَغْيِيرِ شَكْلِ الْحُكُومَةِ وَإِصْلَاحِهَا مِنْ تَغْيِيرِ مَعْنَى الْأَبُوَّةِ أَيْضًا
وَرَدَّهُ إِلَى حَدِّهِ .

أَطْوَلُ جَمِيعِ الثَّوَرَاتِ بَقَاءً وَأَحْلَاهَا أَثَرًا هِيَ الَّتِي كَانَتْ لَهَا مِنَ الزَّمَنِ
مَا اسْتَحْوَذَتْ فِيهِ عَلَى عُقُولِ النَّاشِئِينَ — فَالْإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ مَثَلًا وَهُوَ مَذْهَبُ

البرؤوسات لا يزال حيا في ألمانيا وسويسرة وهولاندة وإيجيرة لأن رجاله في هذه البلدان وفي غيرها أسعدهم الحظ وتأسيس مدارس فيها لتربية الأحداث على أصولهم وعقائدهم . وأما الثورة الفرنسية فإن رجالها على العكس من ذلك لم يجدوا فترة من الزمن لتنفيذ مقاصدهم لأنهم كانوا قد خطوا على عجول - وإن شئت فقلو وهم في مهبط رياح الفتنة - خطة مثل للتعليم العام ، غير أن أعاصير الحوادث دافقتهم عنها قبل بنهم وبين ما كانوا يقصدون .

ولما وضعت الطريقة التي تجري عليها الآن في التربية كانت نيران الفتنة قد حمدت ، ومرآجل العصيان قد سكنت ، فهدى إلى رجال الحكومة النيابية - الذين حكموا على الثائرين من رصفائهم بالقتل حكم شيشيرون^(١) على كاتيلينا وأشيائه - بتجديد ما اندثر من التعاليم القديمة ، فابنت هذه العالم أن فاضت منها على الناس أصول الحكومة الفردية أي حكومة الاستبداد وأصبحت القوة الحاكمة هي مدير المدرسة والأستاذ الأكبر لتعليم الدين ورئيس الحنيد الأكبر ، والشارع الأكبر ، بل الكل الأكبر الذي انحصرت فيه جميع الولايات . ورجا الناس من هذا الإله الذي هو من صنيعهم أن يضيء عقول الأمة ، وأن يصنع لهم علماء واتصاف علماء ، فصار التعليم الاستبدادي والساوي بل صارت جميع درجات

(١) شيشيرون : هو مرقس طوليوس شيشيرون أشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٧ وتوفي سنة ٤٣

قبل المسيح ومن حاكاه سنة ٦٣ وأخذ ثورة كاتيلينا والحرب التي قامت بين بومبي وقيسر .

(٢) كاتيلينا شريف من أشراف رومية كان جمع حزبا وتاربه على مجلس الشيوخ وعلى رومية قهره

التعليم محوطة بسياج حصين من القوانين . معاذ الله أن أكون أسفا على ما أراه من انتشار العلوم وعموم المعارف ، ولكنى ضعيف اليقين بتأثير عمل الحكومة إذا كان الغرض من التعليم هو تربية رجال أحرار ، لأنها ما وضعت لذلك فإن لأعضاء المجتمع الإنساني كما لأعضاء الأجسام أعمالا لا يمكن تغييرها بمجرد توجيه العزيمة إلى ذلك . سمعت غير مرة : أن الجاهل كان العبء الكُبرى في طريق كمال الحرية ، وأنا مؤمن بصحة هذه القضية . وسمعت أيضا ممن قالوها : أن الحكومة قد قررت أن يكون التعليم مجانيا وإلزاميا وستكون الأحوال حينئذ على ما يُرام ، وأنا لا أصدق هذا وأضرب الصن مثلا لأولئك الذين يرون دوايب التعليم التي تديرها يد الحكومة وسيلة لتحرير العقول — يكاد كل رجل من تلك المملكة يعرف القراءة والكتابة ، ففيها من المدارس الابتدائية والثانوية وطرق الامتحان ما يفوق الحصر ، والصينيون هم الذين اخترعوا فن الطباعة وهو أكثر الننون اليدوية أثرا في قلب شؤون العالم ، وذلك قبل أن يعرف في أوربة بحجمها عام ، وأنت تعلمين نتيجة ذلك مني . لم يكن من التعليم الذي كانت الأساتذة يفرضه على الناس إلا أنه اتقن عجير الأوضاع الاجتماعية وجعلها أصلب مما كانت .

كذلك يكون الشأن عند جميع الأمم التي يكون الغرض من التربية فيها إيجاد رعايا للحكومة في القالب الذي تريده . ولو شئت لذكرت أمة أوربية ليس بينها وبين الصين من هذه الجهة كبير فرق ، فإن التعليم الابتدائي يُنبت كل يوم في شُوس الأطفال خلق الانقياد الأعمى بسبب تدخل السلاطين الدينية والسياسية

فيه، فالْمُعَلِّمُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ هُوَ بَطَانَةُ الْحَاكِمِ النَّائِمِ، فَهَلْ هَذَا لَا عَرَابَةَ مُطْلَقًا فَإِنَّ دَيْنِسَ لَمَّا خُلِعَ مِنَ الْمُلْكِ تَوَلَّى إِدَارَةَ مَدْرَسَةٍ .

مِنَ الْخَطِإِ أَنْ يَتَعَدَّ مَعْتَقِدٌ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمُطْلَقَةَ تَكْرَهُ تَقَدُّمَ سَيْرِ التَّعْلِيمِ الْعَامِّ وَتَعَادِيهِ عَنِ قَصْدٍ، فَمَا الَّذِي تَحْشَاهُ مِنْهُ وَلَيْسَ هُوَ إِلَّا جُمْلَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعِرْقَانِ هِيَ تُحَرِّرُهَا وَتُصَوِّرُهَا كَيْفَمَا شَاءَتْ ؟ أَلَيْسَ بِيَدِهَا مَقَالِيدُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ ؟ أَلَيْسَتْ طُرُقُ التَّعْلِيمِ الَّتِي تُفَرِّغُهَا وَهِيَ الْمُتَّبَعَةُ دُونَ غَيْرِهَا هِيَ أَحْسَنُ مَا وَجَدْتَهُ تَحْكِيكُ أَصْلِ الْإِقْدَادِ لِلْقُوَّةِ الْحَاكِمَةِ فِي نُفُوسِ الْمُتَعَلِّمِينَ ؟ إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُهُ عَلَى الْأُمَّةِ مِنَ اتِّخَاذِ الْمُهَيْتَةِ الَّتِي تَشِينُ شَرَفَهَا هِيَ الْعُبُودِيَّةُ فِي الْإِخْتِيَارِ، فَإِنَّ الْأَصْفَادَ الَّتِي تُقَيِّدُ الرِّقِّقَ قَدْ تَسْقُطُ بِمُقَاوَمَةٍ قَلِيلَةٍ (وَالنَّارِيجُ يَرَوِي لَنَا فِي ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَثَلٍ) وَأَمَّا مَا يَتَرَى بِهِ حَوَاشِي الْأَمْرَاءِ وَخَدَمَتِهِمْ مِنَ الْمَلَابِيسِ الرَّشْمِيَّةِ فَمَا أَطْوَلَ بَقَاءَهُ عَلَى أَرْبَابِهِمْ . إِذَا تَعَلَّمَتِ الْأُمَّةُ بِالتَّرْبِيَةِ الْفَاسِدَةِ الطَّاعَةَ وَالْإِقْدَادَ، وَكَانَ الْبَاعِثُ لَهَا عَلَيْهِمَا الْمَنْفَعَةُ أَوِ الْآثَرَةُ أَوِ الْوِجْدَانُ كَانَ ذَلِكَ كُلُّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهَا مُرَبِّيًا .

إِنَّ مَذْهَبَ الْفَائِلِينَ بِوُجُوبِ تَوْسِطِ الْحُكُومَةِ فِي التَّعْلِيمِ مُؤَسَّسٌ عَلَى أُمُورٍ الْإِعْتِقَادِ الْقَلِيدِ وَعَلَى أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يَأْتَمِرُونَ بِأَوَامِرِ مُدِيرِ الْمَدْرَسَةِ أَوْ رَئِيسِ الْفَرِيَةِ كَمَا نَقِلُ إِلَيْنَا ذَلِكَ فِي آثَارِهِمْ، فَلَا يُطَالِبُ أَصْحَابُ هَذَا الْمَذْهَبِ مَنْ يَعْلَمُونَهُ مِنَ الْأَطْفَالِ بِالِاسْتِقْلَالِ فِي الْفِكْرِ وَالْعَمَلِ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُونَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا يُقَالُ

(١) بطانة الرجل : صديقه الذي يكشفه أسرار له بوقته .

(٢) دَيْنِسُ هُوَ حَاكِمُ جَارَغَاشِمِ كَانَ فِي سِرَاكُوزَةِ فَطْرَدِهْ مِنْهَا دِيُونٌ ثُمَّ تَمِيلُونُ وَمَاتَ وَهُوَ مُدِيرُ مَدْرَسَةٍ

لَهُمْ فَكَوْنُ قُلُوبِ الْأَطْفَالِ بِأَيْدِي مُعَلِّمِهِمْ مَادَّةٌ لَيْتَهُ يَخْتَدُونَ مِنْهَا لِلْحُكُومَةِ رِعْيَةً نَافِعَةً مُطِيعَةً . وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ غَايَتُهُمُ الَّتِي يَرْمُونَ إِلَيْهَا فَهُمْ لَا يَبَالُونَ بِمَاعَدَاهَا بَلْ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ أَنْ تَصِيرَ الْمَدْرَسَةُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَرْبَى يَخْرُجُ فِيهِ أَوْسَاطُ النَّاسِ فَإِنَّ الْأُمَّةَ تَصِيرُ بِذَلِكَ أَسْلَسَ لِلْوَارِثِ قِيَادًا وَأَخْفَضَ جَنَاحًا .

لَا يُشْكُ أَحَدٌ فِي أَنَّ مَعَاهِدَ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا يَرَأْسُهَا كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ الْعَارِفِينَ الْأَحْرَارِ ، وَلِلْجَمَاعَةِ فَوْقَ ذَلِكَ مَرْبِيَّةٌ نَادِرَةٌ الْوُجُودِ فِي رَأْيِ أَهْلِ النَّظَرِ ، وَهِيَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الثَّوَرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ هِيَ الْأَصْلُ فِي وُجُودِ الْقِسْمِ الْأَكْبَرِ مِنْهَا كَانَ مِنَ الْمُتَعَسِّرِ أَنْ تَحُولَ عَنْ مَبَادِيهَا وَأَصُولِهَا مَهْمَا تَغَيَّرَتْ عَلَيْهَا الْأَحْوَالُ وَتَبَدَّلَتِ الشُّؤُنُ فَهِيَ الْمَعْقِلُ الرَّفِيعُ الَّذِي يَحْمِي الْأَفْكَارَ وَالْأَرَءَاءَ الْحَدِيثَةَ مِنْ إِيغَارَاتِ مَذَاهِبِ الْكَهَنُوتِ عَلَيْهَا ، وَكُلُّ يَوْمٍ يَخْرُجُ فِي مَدَارِسِنَا الْأَخْتِيَارِيَّةِ وَكَلِيَّاتِنَا عُقُولٌ سَامِيَةٌ بَلْ عُقُولٌ حُرَّةٌ أَيْضًا . نَعَمْ إِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوَامَاتِ أَنْ تَسُنَّ مَاشَاءَتْ مِنْ قَوَانِينِ التَّعْلِيمِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي وَسْعِهَا أَنْ تُبْطِلَ تَأْثِيرَ عِلْمِ الْحِكْمَةِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي وَلَدَتْهَا ثَوْرَةُ سَنَةِ ١٧٨٩ وَغَيْرَهَا مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي نُفُوسِ الْأَحْدَاثِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ قَانُونٍ وَنِظَامٍ ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَنَا لَا أَعِيبُ الْمَدَارِسَ لِدَانَتِهَا وَإِنَّمَا أَعِيبُ فِيهَا مَجْمُوعَ طُرُقِ التَّعْلِيمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُؤَسَّسٌ عَلَى أَوْهَامِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَعَادَاتِنَا .

التَّزْيِينُ الْخَاصَّةُ عِنْدَنَا هِيَ أَيْضًا أَقْلُ قِيَمَةٍ مِنَ التَّزْيِينِ الْعَامَّةِ ، فَإِنَّ الْوَلِيدَ عِنْدَمَا يَسْلُكُ سَبِيلَ الْحَيَاةِ لَا يَتَوَجَّهُ قَصْدًا إِلَّا إِلَى إِيْرَازِهِ الْجُرْحَى عَلَى مَا تُؤْفِ الْعَادَةُ . وَمَا يَلْقَى فِي ذِهْنِهِ مِنَ الْمَعَارِفِ كُلِّهِ مُجْرَبِيٌّ ، وَلَمْ يَفْكَرْ أَحَدٌ مِنَّا حَتَّى الْآنَ فِي جَعْلِهِ

(١١) مُساوفاً لِفِطْرَةِ الْإِنْسَانِ وَمُنَاسِباً لَهَا . إِنَّمَا مُنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ تَهْرِيباً قَدْ جَدَدْنَا طُرُقَ تَنَاوُلِ الْعُلُومِ الرَّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَقُنُونِ الْإِنْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ وَالتَّارِيخِ وَالْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ وَالْإِتْقَادِ وَكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِرَبِيبَةِ الْأَطْفَالِ « عَلَى أَنَّهَا هِيَ الَّتِي كَانَ يَجِبُ الْبَدَأَةُ بِهَا فِي التَّغْيِيرِ .

أَوَّلُ شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ يُحْتَرَمَ هُوَ وُجُودُ الْإِنْسَانِ حَتَّى فِي ذَاتِ الطِّفْلِ .

إِنِّي إِذَا انْفَقَى لِي سَمَاعُ خُطْبِ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ وَرِجَالِ الْحُكُومَةِ فِي مَذْهَبِ الْإِسْتِرَاقِيَّةِ لَمْ يَمُدُّ تَعَامُرِي فِي شَكٍّ فِي أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ قَاسِدٌ مَمْقُوتٌ مُغَايِرٌ لِلدِّينِ ، لِمَا يُقِيمُونَهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْحُجَجِ الْقَوِيَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ ، فَأَتَحَارَزُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ حَزَبُ الْإِسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ . هَذَا مَا يُقَالُ ، وَكَيِّنِي إِذَا دَخَلْتُ مَدَارِسَنَا الْإِسْتِدَائِيَّةَ أَوِ الثَّانَوِيَّةَ لَا يَسْمَعُنِي إِلَّا أَنْ أَعْتَرِفَ عَلَى الْفَوْرِ بِأَنَّ مَا شِئِدَ لَهَا مِنَ الْأَذْيَةِ وَوُضِعَ لِتَلَايِيدِهَا مِنْ ضُرُوبِ النِّظَامِ وَمَا فِيهَا مِنْ تَوْحِيدِ طُرُقِ التَّعْلِيمِ وَاخْتِلَاطِ الدَّرُوسِ ، لَمْ يُوضَعْ إِلَّا لِلْحَبْسِ الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمَا فَكَمَا أَنَّ الْمَصْرِينَ — عَلَى مَا يُرَوَى عَنْهُمْ — قَدِ اخْتَرَعُوا أَفْرَانًا لِتَوْلِيدِ فِرَاجِ الدَّجَاجِ قَدِ اكْتَشَفْنَا نَحْنُ أَفْرَانًا لِإِنْفَاجِ التَّلَامِيذِ ، عَلَى أَنَّ الْقُنُونَيْنِ اللَّتَيْنِ يُعْنَى بِإِنْصَاحِهِمَا فِيهِمْ أَشَدُّ الْعِنَايَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَرَارَةِ الصَّنَاعِيَّةِ — وَهُمَا قُوَّتَا التَّقْلِيدِ وَالذَّاكِرَةِ — لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُمَا أَقْلُ جَمِيعِ الْقُوَى الْإِنْسَانِيَّةِ كَشَفَا عَنْ حَقِيقَةِ الْعَقْلِ وَإِظْهَارًا لِلْمَلَكَاتِ الصَّحِيحَةِ ، فَكَانَ الْمَعْهُودُ إِلَيْهِمْ بِالزَّرْبَةِ وَالتَّعْلِيمِ قَصْدُوا أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ أَنْ يَحْصَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِ شَيْبًا بِجَمِيعِ النَّاسِ ، وَلَسْتُ أَعْدَمُ قَائِلًا يَقُولُ : إِنْ ذَلِكَ هُوَ مِنَ النَّاتِجِ الضَّرُورِيِّ لِنَطَائِمِنَا إِلَى نِظَامِ

الحُكُومَةُ الْجُمُهوريَّةُ وَنَحَقِّقُنَا بِأُصُولِهِ . فَأَجِيبُهُ : أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الْخَطِيطِ وَالْخَطِيطِ الْغَرِيبِ . فَكَيْفَ يُسَبِّهُ تَوْعُدَ الْمَعَارِفِ وَالْمَلَكَاتِ بِالمُساوَاةِ فِي الْحُقُوقِ؟ أَلَا يَرَى أَنَّ سُكَّانَ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ أَشَدَّ مِنَّا إِيمَالًا فِي الْأَخْذِ بِسُنَّةِ النِّظَامِ الْجُمُهوريِّ عَلَى الْعَكْسِ مِنَّا يَزْدَادُ فِيهِمْ شُعُورُ الْإِسْتِقْلَالِ بِالْوُجُودِ الذَّاتِيِّ — الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْحُرِّيَّةِ — حَيَاةً وَقُوَّةً تَتَّظَهَرُ آثَارُهُ فِي أَعْمَالِهِمْ ظُهُورًا جَلِيلًا .

إِنَّ فِي وَسْعِ كُلِّ شَأْنٍ — لَوْ سَحَّتْ عَيْنُيْئَهُ — أَنْ يَتَعَلَّمَ بِنَفْسِهِ مِنْ جَدِيدٍ مَا لَمْ يَكُنْ أَجَادَ تَعَلُّمُهُ فِي الْمَدْرَسَةِ وَهَذَا مَا وَقَعَ لِكُلِّ مِنَّا بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْهَا . وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُفَكِّهُ مِنْ أَغْلَالِ الْعَادَاتِ الَّتِي تَخَلَّقَ بِهَا فِي صِغَرِهِ؟ وَكَيْفَ يَتَسَنَّى لِهَذَا الْمُتَغَلِّبِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ أَنْ يَهْتَدِيَ فِي مُسْتَقْبَلِهِ بِمُجَرَّدِ مَا اكْتَسَبَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ، مَعَ أَنَّهُ إِلَى وَقْتِ مُبَارَحَتِهِ لَهَا كَانَ لَا يَسْتَقِيلُ بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِ، بَلْ كَانَ يَعْمَلُهَا جَمِيعًا بِأَعْيُنِ مَتَابِعِهِ؟ وَمَا الْحِيلَةُ فِي إِحْيَاءِ قُوَّةِ نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَهَا التَّادِيبُ الْمُؤَدِّي إِلَى دَرَكَةِ الْبَيْسِيَّةِ؟ وَمَا مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى الزَّائِرِ النَّفْسِيِّ إِذَا كَانَ وَجَدَانُ الْيَأْفَعِ يُسَلِّبُ مِنْهُ وَيُوضَعُ بِأَيْدِي مَنْ يُدِيرُونَ شُئُونَهُ؟ ذَلِكَ هُوَ أَخْصَ مَا أَخْشَاهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطَرِ .

وَمِنْ الْعَبَثِ أَنَّ يَتَمَثَّلَ هُنَا بَعْضُ مَشْهُورِي الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ طُفُولَتِهِمْ فِي أَشَدِّ الْمُرَاقَبَةِ وَالْحَصْرِ وَلَمْ يُؤْثَرْ هَذَا فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ ، فَيَقَالُ : إِنَّ فُوتِيرَ مَثَلًا تَرَبَّى فِي خِجْرِ الْيَسُوعِيِّينَ وَتَخَرَّجَ جَبَارَةً الْقُوَّةِ الَّتِي حَصَلَتْ سَنَةَ ١٧٨٩ عَلَى رِجَالِ

(١) فُوتِير: هو أرويت دوفولير الشاعر الحكيم الفرنسي المولود سنة ١٩٦١ المتوفى سنة ١٧٧١

الْكَهَنُوتِ . لِأَنِّي لَا أَتَكَلَّمُ هُنَا عَنْ أَفْرَادِ الرِّجَالِ وَشُدَائِهِمْ وَإِنَّمَا أَقْصِدُ بِكَلَامِي جُمْلَةَ
الْأُمَّةِ وَعَامَّتَهَا ، وَأَسْأَلُ نَفْسِي عَمَّا يُجِدُّهُ مِثْلُ هَذَا النِّظَامِ مِنَ الْأَثَرِ فِي طِبَاعِ أَوْسَاطِهَا .
كُونِي عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَسْئُورِ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَجِدَ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ
لِاسْتِزْجَاعِ مَا فَقَدَهُ مِنْ سُلْطَانِهِ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ أَلْقَى لِنَفْسِهِ زِمَامَ عِزِّ بَيْتِهِ .

قَدْ لَاقَيْتَ فِي النَّاسِ مَنْ جَرَى الْإِصْطِلَاحُ بِتَسْمِيَتِهِمُ : الشُّبَّانَ الْعَارِفِينَ : فَهَلْ
رَأَيْتَ مِنْهُمْ كَثِيرًا يَمْتَازُونَ بِجَرَاءَةِ الْحَنَانِ الْحَقِيقِيَّةِ ؟ أَلَمْ تَرَهُمْ يَقَاوِمُونَ غَالِبًا مِنْ وَسَائِلِ
التَّرَقِّي وَطُرُقِ الْإِصْلَاحِ مَا عَسَى أَنْ يَنْهَبَ بَعْضُ آمَالِهِمْ ، وَيَسْخَرُونَ بِهِ مِثْلًا مَعَ
الْأَثَرَةِ وَجِبًا لِلْإِخْتِصَاصِ ؟ أَلَا يَجِدِينَهِمْ أَشَدَّ عِدَاوَةً مِنْ جَهْلَةِ الْعَامَّةِ لِبَعْضِ الْعُلُومِ ؟
إِنَّهُمْ لَيُؤْمِنُونَ عَلَى السَّوَاءِ بِكُلِّ مَا قَدَّسَهُ مُرُورُ الزَّمَنِ عَلَيْهِ وَآرَأَهُ النَّاسُ فِيهِ ، غَيْرَ
مُهْتَمِينَ بِالْتَّمِيزِ بَيْنَ صَحِيحِهِ وَفَاسِدِهِ وَحَقِّهِ وَبَاطِلِهِ . وَمَا لَهُمْ وَلِهَذَا التَّمِيزُ إِذَا كَانَتْ
مَهَارَتُهُمْ تَوْصِلُهُمْ إِلَى مَقَاصِدِهِمْ ؟ وَهَلْ هُمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ حَتَّى يَسْتَعْمِلُوا بِمَصَالِحِ
غَيْرِهِمْ ؟ كَلَّا ، بَلْ هُمْ قَانِعُونَ بِتَقْصِيمِ الَّذِي يُظْهِرُونَهُ لِلنَّاسِ فِي مَظْهَرِ الْكَلِّ وَبِهَزَاوَنَ
بِمَا كَانَ مِنْ جِدِّ انْخِلَاقِيٍّ وَإِخْلَاصِ الْمُخْلِصِينَ وَصِدْقِ نَفُوسِ الصَّادِقِينَ ، وَهُمْ
لَمْ يَفِيهِمْ مِنْ خِيفَةِ الْأَحْلَامِ وَكَثْرَةِ الْمُجُونِ وَالْعُرُورِ وَالتَّرَفِ يَلْتَمِسُونَ فِي كُلِّ أَمْرٍ
وَسِيلَةً لِلِانْتِفَاعِ بِحَاضِرِهِمْ وَمَعَ قَلَّةِ مَا لَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ الصَّحِيحَةِ يَظْهَرُونَ فِي مَظْهَرِ
الْعَارِفِينَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ الْمُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِي حَالِيَّةٌ سِيَاقُ كِبَرِيَّ تَرْبِيَتِهِمْ يَعْمَلُونَ فِيهَا
لِمُزَاحَمَةِ غَيْرِهِمْ فِي الْحُصُولِ عَلَى سَبْقِهَا ^(١) أَوْ عَلَى الْأَلْقَابِ الَّتِي تُعْطَى عَادَةً لِمَنْ يَقَارِبُونَ

(١) السبق بضم السين وفتح الباء جمع سبقة وهي المكافأة التي تعطى للساقي في ميدان المسابقة .

فِي هَذَا السَّبْقِ، وَفِي هَذِهِ الْعَلِيَّةِ الْجَدِيدَةِ أَيْضًا لَا يُعَدُّ كَثِيرًا بِجِدَارَةِ الْجَدِيرِينَ،
وَلَا بِأَهْلِيَّةِ الْمُسْتَحِقِّينَ، لِأَنَّ الْجَوَازِي يُنَمِّحُ بِالمَحَابَةِ وَالْأَثَرَةِ وَالَّذِينَ يَنَالُونَهَا هُمُ أَهْلُ
الدَّسَائِسِ وَالْخِدَاعِ، فَلَا يَدْعُ إِذْنًا أَنْ كَدَحَ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنَ الشُّبَّانِ بَعْدَ تَقْصِيمِهِمْ مِنْ
رَبْقَةِ النَّظَامِ الْمَدْرَسِيِّ لِأَجْلِ الدُّخُولِ تَحْتَ وَلَايَةِ الْحُكُومَةِ .

إِذَا صَدَّقْتَ قَوْلِي، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ لَا نُزَيِّ وَلَدَنَا عَلَى الطَّرِيقِ الْمُتَبَعَةِ وَقَدْ يَكُونُ عَمَلُنَا
فِي ذَلِكَ أَحْسَنَ مِنْ عَمَلٍ غَيْرِنَا أَوْ مِثْلَهُ فِي الْقُبْحِ . إِلَّا أَنَّنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ نَكُونُ قَدْ
أَقْنَأَ حَقًّا مُقَدَّسًا، فَإِنَّ تَرْبِيَةَ الطِّفْلِ مَنُوطَةٌ بِالْبَيْتِ وَالْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ قَبْلَ أَنْ تُسَاطَ
بِالْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ، مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي قَدْ جَمَعَ بِهَا قَلْبِي؟ قُلْتُ إِنَّ التَّرْبِيَةَ مَنُوطَةٌ
بِالْبَيْتِ، وَلَكِنْ وَاسْتَقَى عَلَى بَيْتِنَا فَقَدْ هِدِمَ . نَعَمْ إِنَّ عَشَّنَا الَّذِي كُنَّا لَا بُدَّ أَنْ نَتَنَاجَى
فِيهِ بِأَحْسَنِ أَمَانِيَّتِنَا وَتُسْكِينِهِ أَعَزَّ أَمَالِنَا قَدْ نَارَتْ عَلَيْهِ عَوَاصِفُ الْحَيْنِ فَدَمَّرَتْهُ تَدْمِيرًا .
وَلَكِنْ لَا بَأْسَ عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ فَسَنُعِيدُ بِنَاءَهُ بِرَوَائِطِ الْحُبِّ فَوْقَ جَوِّ الْفِتَنِ فَأَكُونُ
مَعَكَ فِي هَذَا الْعَمَلِ بَقْلِي، وَأَنْتِ تَسْمَرِينَ وَتُؤْوِينَ عَنِّي فِي السَّهَرِ عَلَى حِرَاصَةِ دُنُورِنَا
فَلَأَيَّ قَدِ اسْتَوْدَعْتُكَ إِيَّاهُ وَالسَّلَامَ . اهـ

(١) الخلبة : الدفعة من الخليل في الرهان خاصة .

(٢) الجوازى جمع جازية وهى المكافأة على الثناء .

(٣) كدح فى العمل : سعى وعمل لنفسه .

(٤) التقصى من الشئ : التخلص منه .

(٥) الربة : العروة .

(٦) عسى أن يعى الرادون هذه الكلمة الحكيمة فيعزوا تربية أولادهم ، ويعملوا على تنقيتهم على
أحسن الطباع وأقوم الأخلاق ولا ينكروا فى ذلك على المدارس والمعاهد فإن التعليم فيها آلى لا علاقة له
بالنفس . المترجم .

الرسالة العشرون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٨ مايو سنة - ١٨٥)

وَصِيَّةُ الدُّكْتُورِ وَإِرِيخْتُونُ هَكَذَا بِالرَّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْتَنَزُّهُ وَالْبُعْدُ عَمَّا يُثِيرُ

الْإِنْفِعَالَاتِ وَاجْتِلَاءِ الْمَنَاطِرِ الرَّائِعَةِ ^(١)

أَتَدْرِي أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِرَاسْمُ أَنِّي فَكَّرْتُ كَثِيرًا فِيمَا خَتَمْتُ بِهِ مَكْتُوبَكَ الْآخِرَ وَوَرَدَ عَلَى ذَهْنِي مِنْهُ خَاطِرٌ يُجِبُّ عَلَى قَبْلِ الْإِقْضَاءِ إِلَيْكَ بِهِ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ كَيْفَ وَرَدَ ؟

جَاءَ الدُّكْتُورُ وَإِرِيخْتُونُ وَأَسْرَعَتْ إِلَى هُنَا وَامْضَوْا يَوْمَيْنِ فَسَنَ لِي شِسْبَةً قَانُونِ أَجْرِي عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِي - بَلْ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مُعْظَمُ الْإِنْجِلِيزِيَّاتِ الْخَوَامِلِ اللَّاتِي يُوصَفْنَ عَادَةً بِأَنَّهُنَّ فِي حَالَةٍ شَاغِلَةٍ . نَصَحَ لِي بِإِدَامَةِ الرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْتَنَزُّهُ ثُمَّ قَالَ مَا نَصَحُهُ « إِيَّاكَ وَالْإِقْتِرَابَ مِمَّا تَضُرُّ مَطَالَعَتُهُ مِنْ الْقِصَصِ الَّتِي تُتَوَلَّدُ مِنْ قِرَاءَتِهَا الْإِنْفِعَالَاتُ الشَّدِيدَةُ الْبَاطِلَةُ . كَانَ الْيُونَانُ أَعْقَلَ مِنَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحِيطُونَ نِسَاءَهُمْ مُدَّةَ الْحَمَلِ بِالتَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ الْمُنْسُوبَةِ لِمَشْهُورِي الْأَسَاتِذَةِ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ ، وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَجْزِمُ بِأَنَّ هَذَا كَانَ هُوَ السَّبَبَ فِي إِبْتِنَانِ أَوْلَادِهِمْ حَسَانَ الْخَلْقَةِ ، أَقُولُ : عَلَى كُلِّ حَالٍ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَشْيَاءِ الْبَدِيعَةِ الصَّنْعِ يُحْدِثُ فِي نُفُوسِ ذَوِي الْفِطَرِ السَّالِمَةِ مِنَ النَّاسِ شُعُورَ الْإِرْتِيَاجِ وَالْإِنْسَاطِ ، وَيَكُونُ فِيهَا مَدْعَاةٌ لِاعْتِدَالِ الْأَمْرِ جِهَةٍ وَتَوَافُقِ الطَّبَائِعِ فَلَمْ لَا يَكُونُ مِنْ مُوجِبَاتِ حِفْظِ الصَّعَةِ . كَثِيرٌ مِنَ السَّيِّدَاتِ عِنْدَنَا يَتَلَبَّ عَلَيْهِنَّ

فِي طَوْرِ الْحَمْلِ الْخُمُودُ وَقُتُورُ الْقَوَى بِسَبَبِ الْبَطَالَةِ الَّتِي هِيَ مَنَشَأُ الْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ
فَإِنَّهُمْ لَا شُغْلَ لَهُمْ فِيهِ سِوَى مُسَاوَرَةِ الْأَوْهَامِ وَمُطَارَدَةِ الْخَيَالَاتِ وَأَمَّا أَنْتِ فَلِمَا
أَعْهَدُهُ فِيكَ مِنَ الشَّغْفِ بِالنَّظَائِرِ الْخَلَّائِيَّةِ أَوْصِيكَ بِالسَّعْيِ وَرَاءَ اجْتِلَاءِ مَا فِي الْخَلْقَةِ
مِنْ رَائِعِ الْجَمَالِ وَرَائِقِ الْحُسْنِ وَإِنْ تَخْجِزِي لِنَفْسِكَ أَعْمَالًا مُرْتَبَةً تَسْتَعْمَلُ بِهَا
يَدُكَ وَعَقْلُكَ .

رَأَيْتُ أَنَّ هَذِهِ النَّصَائِحَ كُلَّهَا حِكْمَةٌ وَعِلْمٌ، فَاخَذْتُ نَفْسِي بِهَا وَخَرَجْتُ لِتَنْزِهِ
الْيَوْمَ التَّالِي لِتَلَقِّيَهَا بَعْدَ تَدْبِيرِ بَعْضِ الشُّؤْنِ الْبَيْتِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَيْتِي نِسَاءَ الْقَرْيَةِ مُبَكَّرَةً عَلَى
الطَّرِيقِ بَعْثَنَ كَرَمُ أَخْلَاقِهِنَّ عَلَى أَنْ يَتَدَرَّنِي بِالْحِجَةِ قَائِلَاتِ : صَبَاحٌ بِهَيٍّ وَبُكْرَةٌ
سَنِةٌ، وَلَمْ يَكُنِ الصَّبَاحُ كَمَا قُلْنَ وَلَكِنَّهَا عَادَةُ النَّاسِ هُنَا إِذَا تَبَادَلُوا الْحِجَةَ بِالْوَقْتِ،
فَهُمْ دَائِمًا يَمِيلُونَ إِلَى امْتِدَادِهِ قَلِيلًا فَشَكَرْتُ لَهُمْ حُسْنَ قَصْدِهِمْ .

لَمْ أَسِرْ فِي تَنْزِيهِ عَلَى الْخَلِيجِ بَلْ اعْتَسَفْتُ^(١) الطَّرِيقَ فِي رَيْفٍ يَتَسَّعُ فِيهِ
الْقَضَاءُ لِأَشْيَى كُلَّمَا جَدَّ بِهِ السَّيْرُ . وَمِمَّا لَاحَظْتُهُ أَنَّ نِسَاءَ كُورْنَوَايَ يَضَعْنَ عَلَى
رُءُوسِهِنَّ كُكَايَ مِنَ الْقَشِّ وَقَدْ اخْتَرْتُ أَنْ أَحْذُو مِثَالَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَوَضَعْتُ وَاحِدَةً
مِنْهَا اتَّقَاءَ لِحَرِّ الشَّمْسِ وَجَبًا لِمَا فِيهَا مِنَ الْبَسَاطَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَإِخَالَتِي أَرْوَقٍ فِي نَظَرِكَ
لَوْ رَأَيْتَنِي بِهَا . كُنْتُ أَتَقَدَّمُ فِي هَذَا الرِّيفِ عَلَى جَهْلٍ مَنِيَّ بَقْرَاهُ وَلِكِنِّي كُنْتُ أَمَنَةً
مِنَ الضَّلَالِ لِأَنِّي مَا كُنْتُ قَاصِدَةً جِهَةً مُعَيَّنَةً، وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي
كَثِيرًا مَا تُرَى فِي غَرْبِ إِيجَلْتَرَةِ فَكَانَتْ سَمَاؤُهُ مُحْتَجِبَةً بِالْجُهَامِ، وَكَانَتْ تَأْتِي مِنَ الْبَحْرِ

(١) اعتسفت الطريق : غطته على غير هداية . (٢) الككة - بالضم - : القانوسة المدورة .

(٣) الجهام : سحاب لا ماء فيه .

رِيحٌ بَلِيلٌ مُسْفِسِفَةٌ فَتَجْرِي بَيْنَ أَشْجَارِ الْعُلَيْقِ فَتُولَدُ فِيهَا رِعْدَةٌ طَوِيلَةٌ وَكَانَتْ الطُّيُورُ تَقْرُدُ حَوْلَ عِشَائِهَا .

قَدْ أَتَى عَلَى حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ كُنْتُ فِيهِ أُجِدُّ عَلَى الْخَلِيفَةِ إِذَا بَدَتْ عَلَيْهَا سِمَاتُ
الِإِغْتِيَابِ وَالسُّرُورِ وَأَنَا حَزِينَةٌ الْقَوَادِ مُتَبَلِّلَةُ الْأَفْكَارِ، فَأَزَلَّتْ بِي حَتَّى أَتَيْتُ لِي أَنَّ
هَذَا الْوَجْدَ وَالْإِنْفِعَالَ بَاطِلَانِ بَعْدَانٍ مِنَ الْإِنْصَافِ وَنَاسِئَانِ مِنَ الْأَثَرِ وَحُبِّ
الِاخْتِصَاصِ، فَأَصْبَحْتُ الْآنَ يَفْضِلُ نَصِيحَكَ لِي أَسْرُماً أَيْدُهُ فِي سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ
مِنْ آثَارِ الْفَرَجِ وَالِإِتِهَاجِ، وَقَدْ تَيَّنَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا أَنْبَعَتْ فِي قَلْبِي مِنْ وَجْدَانِ
الْحُتْنِ وَالرَّحْمَةِ، وَبِمَا عَاطَشَهُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ شَوَاهِدِ الْفَضْلِ وَالنِّعْمَةِ، أَنَّ اللَّهَ
(سُبْحَانَهُ) لَمْ يَلْعَنِ الْأَرْضَ وَلَمْ يَغْضَبْ عَلَيْهَا .

كَانَتْ بُكْرَتِي هَذِهِ مِنَ الْبَكْرِ الَّتِي تَعْرِفُهَا : تَدُورُ فِي هَوَائِهَا عَلَى سُكُونِهِ مَادَّةٌ
غَيْرِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ النَّصَائِرِ لِلتَّوْلِيدِ وَالْحَصْبِ، فَكَانَ يَنْبَعُثُ مِنْ أَشْجَارِ الْعُوسِجِ وَحُقُولِ
الْقَمْحِ وَالْمَخَارِفِ الْمُوَطَّاةِ نَسِمَاتٌ فَاتِرَةٌ مَقْوِيَةٌ كَانَتْ تَسْرِي بِسَبَبِهَا الْحَرَارَةُ فِي جَسَمِي
فَقَصَلْتُ إِلَى وَجْهِهِ، فَكَانَ الْأَرْضُ كَانَتْ مُصَابَةً بِحُمَى الرِّبْعِ، وَلَقَدْ تَذَكَّرْتُكَ
فِي تَسْيَارِي بَيْنَ هَذِهِ الْمَزَارِعِ وَفَكَّرْتُ فِيهَا سَأَالَهُ عَمَّا قَلِيلٍ مِنْ شَرَفِ الْأُمُومَةِ إِنْ لَمْ
يَخْدُثْ مِنَ الطَّوَارِي مَا يَقْطَعُ مَوْصُولَ آمَالِنَا ، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ أَحْسَنَ قَلْبِي بِمَا

(١) الريح البليل : هي الباردة البتية . (٢) المسفسفة : هي التي تجرى فوق الأرض .

(٣) أجد : أغضب . (٤) تشير إلى ما في إصحاح ١٧ : ٣ من سفر التكوين من الإنجيل

ونصه «ملعونة الأرض بسبك» . (٥) المخارف جمع مخرف : وهو الطريق بين الأشجار

والزروع والموطاة المهدة .

أَطْلَوْى عَلَيْهِ مَكْتُوبُكَ قَسَابَقْتُ إِلَى ذِعْنِي مِنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ وَهِيَ « فَأَيُّ قَدٍ اسْتَوْدَعْتُكَ إِيَّاهُ » .

عِنْدَ ذَلِكَ صَحَّتْ قَائِلَةً : لِمَ إِذَا لَا أَكُونُ أَنَا فِي الْحَقِيقَةِ مُعَلِّمَةً وَلَدِي ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْمَعْرُوفِ عَنْ نِسَاءِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ أَنَّ مُعْظَمَ تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ ذُكُورًا كَانُوا أَوْ إِنَاثًا مُوَكَّلُونَ لِلنِّسَاءِ ؟ بَلْ مِمَّا يُؤَكِّدُهُ الْمَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ يَفْضِلُونَ الرِّجَالَ فِي الْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ الصَّغِيرِ وَإِنِّي سَاجِرْبُ نَفْسِي فِي الْإِفْهَاءِ بِهِنَّ . عَلَى أَنَّ هَذَا هُوَ مَا يَرَاهُ زَوْجِي ، فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدْ عَوَّلَ عَلَى تَرْكِ الْمَزَايَا الَّتِي لِمَدَارِسِنَا وَغَيْرِهَا مِنْ مَعَاهِدِ التَّعْلِيمِ لِإِعْتِبَارَاتٍ أَقْدَرُهَا أَنَا حَقَّ قَدْرِهَا فَلَا بُدَّ أَنْ أَحُلَّ عَمَلُهُ وَلَوْ حِينًا مِنَ الزَّمَنِ فِي الْقِيَامِ عَلَى تَلْمِيزِنَا الْآلِي وَتَرْبِيَتِهِ وَسَيَكُونُ هَذَا آكَدَ فَرِيضٍ عَلَى وَأَخْصَ مَا أَتَخَوَّرُهُ وَأَزْهَى . أَشْهَدُ اللَّهَ عَلَى مَا أَقُولُ وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ أَيْضًا أُمُومَةُ الْفِطْرَةِ الْكُبْرَى الَّتِي تَدْعُونِي بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُدْوَةِ إِلَى الْعَمَلِ وَإِنْتَاءِ جَمِيعِ قُوَّاي .

رُبَّمَا أَحْصَيْتُكَ مَنَى هَذِهِ الْمَزَايِمُ وَإِنِّي لَعَلِّي عِلْمٌ بِكُلِّ مَا يُعْزِزُنِي لِإِدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الصَّغِيرِ الْمُغْضِلِ ، فَإِنَّهُ يَنْقُصُنِي كَثِيرٌ مِنَ الْمَعَارِفِ وَإِنْ كَانَ وَالِدَايَ لَمْ يُغْفَلَا تَرْبِيَتِي الْأُولَى . وَلَكِنْ لَا شَيْءَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْإِسْتِمْرَارِ عَلَى التَّعْلِيمِ بِنَفْسِي إِذَا كُنْتُ لَا أَزَالُ فِي السَّنِّ الْمَلَامَةِ لَهُ فَسَاعِلُمُ وَلَدَنَا فِي الزَّمَنِ الَّذِي يَشِبُّ فِيهِ وَيَنْمُو وَاعْلَمُ أَنَا أَيْضًا بِتَعْلِيمِهِ ، وَلَنْ أَعْتَقِدَ أَنَّي أُمُّهُ حَقًّا إِلَّا إِذَا نَفَسْتُ فِي رُوعِهِ أَفْكَارَكَ وَزَرَعْتُ فِي نَفْسِهِ أَصُولَكَ .

سَتَعَاوُنُ بِقَلْبِنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ فَفَعَلْتَكَ الْإِرْشَادَ وَعَلَى الْعَمَلِ، وَقَدْ وَعَدْتُكَ بِأَنْ أَكُونَ قَوِيَّةً وَهَذَا هُوَ قَصْدِي وَسَابِغُهُ مُلْتَمِسَةٌ مِنَ الرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمُطَالَعَةِ مَا يَلْزُمُنِي مِنَ الصَّحَةِ وَالْعَافِيَةِ فِي جِسْمِي وَعَقْلِي لِأَدَاءِ هَذَا الْفَرِضِ الْعَظِيمِ .
وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَصْدِي أَنْ أَصِيرَ إِلَى أَحْسَنَ مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ الْآنَ، نَعَمْ إِنِّي لَسْتُ مِنَ الْوَلِيَّاتِ وَلَا مِنَ النَّاسِكَاتِ فَقَدْ أَتَى عَلَى زَمْنٍ كَانَتْ تَجِدُنِي فِيهِ جَوَازِبُ اللَّذَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَلَيْسَ هَذَا الزَّمَنُ عَنِّي بِبَعِيدٍ فَإِنِّي لَمْ أَتَجَاوَزِ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمرِي ، وَلَمْ يَكُنْ تَرْكِي مَعَاهِدَ التَّهْنِيلِ وَمَلَاهِي الْغِنَاءِ وَأَنْدِيَةَ الظُّرْفَاءِ الَّتِي كُنْتُ أَتَخَيَّرُ فِيهَا بِمُصَاحِبَتِكَ مَبْنِيًّا عَلَى رَغْبَتِي عَنْهَا وَمَبْنِيٍّ إِلَى غَيْرِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَصَابَنَا مِنْ ضُرُوفِ الدَّهْرِ وَنَوَائِيهِ الَّتِي سَيَظِلُّ مَا جَرَتْهُ لِي مِنَ الْكَآبَةِ وَالْحَزَنِ مُحِبًّا عَلَى طَوْلِ حَيَاتِي، عَلَى أَنِّي لَسْتُ أَسَى عَلَى شَيْءٍ مِمَّا قَاتَ فَارْجُو أَنْ لَا تَقْطُنَ بِي ذَلِكَ . وَاعْتَقِدْ أَنِّي لَوْ كُنْتُ مُطْلَقَةً مِنْ قُبُودِ هَذِهِ الْمَصَائِبِ لَمَا انْفَكَّكَتُ عَنِ اخْتِيَارِكَ لِي خَلًّا وَقَرِينًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْفِرَاقَ لَمْ يَزِدْنِي فِيكَ إِلَّا حُبًّا وَإِنَّمَا أَنَا أَشْكُو مِنْ أَلَمٍ فِي نَفْسِي، وَلَكِنْ كَمَا تُوجَدُ طَرُقٌ مَادِيَّةٌ لِحِفْظِ صِحَّةِ الْبَدَنِ ، تُوجَدُ أَيْضًا طَرِيقَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لِحِفْظِ النَّفْسِ وَسَلَامَتِهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَهِيَ رَفْعُهَا إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ، وَسَاجِرُهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى مَا يُقَالُ يُسَكِّنُ مِنَ الْآلَمِهَا، وَإِذَا صَحَّ هَذَا فَأَيَّةُ غَايَةٍ تَسْمُو إِلَيْهَا أَفْكَارِي وَتَعْمَلُو بِهَا تَقْسِي أَشْرَفَ مِنْ رِعَايَةِ وَلَدٍ أَرْبِيهِ عَلَى أَصُولِكَ وَأَخْلَاقِكَ؟ إِنَّ هَذَا هُوَ أَكْلُ قَصْدٍ وَقَفَّتْ نَفْسِي عَلَى إِدْرَاكِهِ .

أَنَا مَعَ انْتِظَارِي لِهَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ أَشْتَغِلُ بِشُؤْنٍ بَنِيَّةٍ مَحْضَةٍ، وَأَمَّا قَوْلُ يَدُونُ فَإِنَّهُ صَحَّحَ أَنَّ عَلَى عَمَلِ الْمَزَارِعِينَ، فَجَلَبَ إِلَى مَسْرَجِ الدَّوَاغِينَ فِي بَيْتِنَا دَجَاجًا وَبَطًّا

وَمَاعِزًا وَغَيْرَهَا وَكَانَ فِي الْبَيْتِ بَرَجٌ عَتِيقٌ مَهْجُورٌ فَعَمَرَهُ بِالْحِمَامِ، وَأَنَا مُهْتَمَّةٌ غَايَةً
 بِالْإِهْتِمَامِ بِكُلِّ هَذَا الْعَالَمِ الصَّغِيرِ، وَكُنْتُ قَبْلًا أَعْتَقِدُ فِي نَفْسِي أَنَّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ
 الْحَيَوَانَاتِ لِمَا قَرَأْتُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ وَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لِي
 مِقْدَارُ خَطَايَ فِي هَذَا الْإِعْتِقَادِ، فَإِنَّ كُلَّ يَوْمٍ أَشَاهِدُ مِنْ عَجَائِبِ الْحَيَوَانَاتِ مَا لَمْ
 يَقُلْ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ شَيْئًا. وَأَنَا وَجُورِيَّةٌ نُوَزِعُ الْحُبُوبَ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الدَّوَابِّ الَّتِي
 يَظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا تُدْرِكُ مَحَبَّتَنَا إِيَّاهَا لِأَنَّهَا تَأْسُ بِنَا وَتَقْرَحُ لِرُؤْيَيْنَا .

الرسالة الحادية والعشرون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمُ فِي ٣١ يُونِيهِ سَنَةِ - ١٨٥٠)

وَصَفْتُ تَعْوِيدَ الْإِنْجِلِيزِ أَطْفَالَهُمُ الْإِسْتِقْلَالَ وَالْحُرِّيَّةَ مِنْ صَغِيرِهِمْ
 أَكْتُبُ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِرَاسْمُ قِيَامًا بِمَا أَخَذْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْ إِبْنَائِكَ بِكُلِّ
 مَا أَفْعَلُ وَمَا أَرَى وَمَا أَسْمَعُ فَأَقُولُ :

اتَّفَقَ لِي مُنْذُ بَضْعَةِ أَسَابِيعَ أَنَّ كُنْتُ فِي بَيْتِ صَدِيقِكَ الدُّكْتُورِ، فَرَأَيْتُ عَنْدهُ
 رَجُلًا مِنْ إِيقُوسِيَّةٍ هُوَ شَيْخٌ طَوِيلٌ نَحِيفٌ عَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْ أَصْدِقَاءِ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَأَنَّهُ
 غَادَرَ بِلَادَهُ لِأَسْبَابٍ مَجْهُولَةٍ عِنْدِي وَلِكُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَعِيشَةَ بَعِيدًا عَنْ مَنْظَرِ
 الْبَحَارِ وَالصُّخُورِ وَالرَّمَالِ قَدْ نَزَلَ بِكُورُنَوَايَ إِلَى حِينٍ . يَبْدُو هَذَا الرَّجُلُ مِنَ التَّنَطُّعِ
 وَالتَّشَدُّدِ فِي آدَابِهِ وَهَيَاتِ أَفْعَالِهِ مَا لَوْ أَبْصَرْتُهُ الْفَرَسِيَّاتُ لَضَحِكَ مِنْهُ كَثِيرٌ مِنْهُ عَلَى

مَا أَرَى إِلَّاهُ إِذَا سَعَلَ يَسْعَلُ بِإِنْتِظَامٍ، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَيِّدَةٌ فِي قَاعَةِ الْإِسْتِقْبَالِ وَتَبَّ قَائِمًا كَأَنَّهُ حُرُكٌ بِلَوَلِبٍ، وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فِيهِ مِنْ تَكَثُّفِ الْوَقَارِ وَالرَّزَانَةِ مَا يُحَاكِي تَكَثُّفَهُ فِي شَدِّ رِبَاطِ عُنُقِهِ وَإِقْنَانِهِ . وَمَهْمَا كَانَتْ حَالُهُ فَهُوَ هُنَا مُحْتَرَمٌ مَبْجَلٌ .

وَلَا غَرَوْ فَإِنَّهُ سَاحَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ وَيُحَسِّنُ التَّكَلُّمَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ ، وَلَدَيْهِ بِحَسَبِ مَا أَرَى ذُخْرٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَعَارِفِ . يُسَمَّى الرَّجُلُ الْمَرْجُونُ سَانْتُ أَنْدَرُوزُ وَأَخْصَ مَا اشْتَغَلَ بِهِ فِي سِيَاحَتِهِ الْبَحْثُ فِي التَّرْبِيَةِ وَزِيَارَةُ مَدَارِسِ الْإِنْجِلِيزَةِ وَابْتِغَاؤُهَا وَقَارَةُ أَوْرَبَةٍ . وَبِحِمْلَةٍ قَوِيٍّ فِيهِ أَنَّ حَدِيثَهُ يَهْمُنِي وَيُفِيدُنِي، وَلَمَّا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ مَوْضُوعَ أَنْظَارِهِ وَأَبْجَائِهِ دَاخِلٌ فِي نَوْعِ مَا نَبَحْتُ فِيهِ وَتَشْتَغِلُ بِهِ أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ لِأَجْلِ وَأَجَلِكَ فَمَا قَالَ لِي : إِنَّ النَّاسَ فِي بَرِيطَانِيَةِ الْعُظْمَى يَهْتَمُّونَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِإِنْمَاءِ الْقُوَى الْجَسَدِيَّةِ فِي النَّاشِئِينَ - فَالِرَّيَاضَاتِ الْبَدَنِيَّةِ تَنْشَأُ أَعْضَاؤُهُمْ مِنْ صِغَرِهِمْ قُوَّةً تَنَاسِبُ الرُّحُولَةَ وَتَهَيِّئُ أَجْسَادَهُمْ لِلْخِدْمَةِ عُنُقُولَهُمْ وَعَزَائِمَهُمْ ، وَهَذَا هُوَ سَبَبُ عَنَائِهِمْ بِالرَّيَاضَاتِ وَالْأَلْعَابِ الَّتِي تُخَالِفُ مَا عِنْدَنَا مُخَالَفَةً جَوْهَرِيَّةً .

نَمَّ إِنَّهُ يُوْجَدُ فِي الْمَدَارِسِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مَا نُسَمِّيهِ فِي مَدَارِسِنَا الْفَرَنْسِيَّةِ فَنَ التَّمْرِينِ الْبَدَنِيِّ (الجنباذ) إِلَّا أَنَّ التَّلَامِيذَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ لَا يَرْضَوْنَ فِيهِ كَثِيرًا، وَيُفَضِّلُونَ مَا يَكُونُ فِي أَلْعَابِهِمْ مِنَ التَّمْرِينِ وَالِارْتِيَاضِ عَلَى مَا فِي هَذَا الْفَنِّ مِنْ أَنْوَاعِ التَّدْرِيبِ الْمُنْتَظِمَةِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْ أَمْرِ الْمَعْلَمِ وَتَحْتَ رِعَايَتِهِ، فَهُمْ يَخْتَارُونَ بِكُلِّ حُرِّيَّتِهِمْ مَا تَرْتَأَى إِلَيْهِ نَفْسُهُمْ مِنْ أَلْعَابِ الْمَصَارَعَةِ وَالْمَغَالِبَةِ، فَلَهُمْ فِي أَلْعَابِ الْكُرَةِ أَتْيَ مِنْهَا ضَرْبًا بِالصُّوبِ لِحَاكِ وَمِنْهَا دَحْرَجَتَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَفِي الْعَدُوِّ وَالْمَلَاكَةِ وَخَيْرَهَا مِنْ

طُرُقِ التَّسَلُّيِّ وَسَائِلِ مُتَنَوِّعَةٍ تَسْمَى فِيهِمْ قُوَّةَ الْأَعْضَاءِ وَيَجْعَلُهُمْ يَزْدَادُونَ بِالتَّعَبِ شِدَّةً وَصَلَابَةً .

بِهَذَا صَارَ الْإِنْجِلِيزُ أَكْمَلَ النَّاسِ اسْتِعْدَادًا لِلْمُصَارَعَةِ وَالْكَفَاجِ وَأَوَّلَهُمْ افْتِحَامًا لِقِيَمِ الْحَبَالِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَهُمْ الَّذِينَ يُقَاوِمُونَ صُعُوبَةَ الْإِقْلِيمِ وَالْعَوَارِضَ الْكَوْنِيَّةَ وَالْأُتُمَ الْوَحْشِيَّةَ فِي الْهِنْدِ وَأُسْتْرَالِيَّةِ وَزِيلَانْدَةِ الْحَدِيدَةِ وَفِي جَمِيعِ بَقَاعِ الْأَرْضِ الَّتِي فِيهَا أَخْطَارٌ تَقْتَضِيهَا ، فَلَا تَأْتِيهِ لِلْعَقَبَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي تِلْكَ الْعَزَائِمِ النَّاتِيَةِ الَّتِي تَقُومُ لَهَا بِمِطَالِهَا عَضَلَاتُ هِيَ الْحَدِيدُ بَأْسًا وَشِدَّةً .

لَمْ يُوضَعْ الْقَانُونُ فِي مَعَاهِدِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَّا لِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ الْمُطْلَقَةُ مِنْ حِفْظِ النِّظَامِ فِيهَا ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مُدِيرَ مَدْرَسَةٍ مِنَ الْمَدَارِسِ الْكُبْرَى كَانَ قَدْ أَمَرَ مَرَّةً عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ أَنْ يُرَاقِبُ التَّلَامِيذَ فِي مَلْعَبِهِمْ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَبَيَّنَ خَطَاؤُهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَنِدِمَ عَلَيْهِ وَاعْتَرَفَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ بِأَنَّ هَذَا التَّضْيِيقَ كَانَ يَمِيلُ بِأَنْفُسِ النَّاشِئِينَ إِلَى الْإِثْمِ طَائِلًا ظَاهِرًا .

التَّلَامِيذُ الْإِنْجِلِيزِيُّ فِي سَاعَاتِ الْإِسْتِرَاحَةِ مِنَ الدَّرْسِ أَحْرَارٌ ، ظَهَرَ أَنَّ يَخْرُجُوا وَيَسْتَرْهُوْا فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي يَكُونُونَ فِيهَا أَوْ فِي الْمَزَارِعِ غَيْرِ مُحْتَاجِينَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ يَرِثُهُمْ أَوْ يُرَاقِبُهُمْ ، فَيَمْضِي كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ وَلَا يُطَالِبُهُمْ مُعَلِّمُهُمْ إِلَّا بِأَمْرِ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ يَكُونُوا فِي سِيرَتِهِمْ كَمَا يَكُونُ سِرَاةُ النَّاسِ أَدَبًا وَلَطْفًا مُعَامَلَةً .

وَالْكَلِمَةُ الْمُقَابِلَةُ فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِلْفِعْلِ سِرَاةٌ هِيَ « جِتْمِين » وَمِنْ الصَّغْبِ تَرْجَمَتُهَا بِالْفَرَنْسِيَّةِ ، وَيَعْنِي بِهَا مَنْ بَلَغُوا غَايَةَ الْكَمَالِ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ ، فَإِنَّ

وَصَفَ الشَّرَفَ وَالسَّعَادَةَ يُسْتَفَادُ مِنَ التَّرْبِيَةِ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِفَادَتِهِ مِنَ النَّسَبِ، فَقَدْ يَنْسَلِخُ عَنْ نَالِهِ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ وَلَوْ فِي نَظَرٍ غَيْرِهِ إِذَا هُوَ تَلَبَّسَ بِسَائِلِ الْعَادَاتِ وَسَفَسَافِ الْأَخْلَاقِ (١). مِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ الْخَوْفُ مِنْ انْخِطَاطِ الْقَدْرِ وَسُقُوطِ الْمَتَرَلَةِ فِي أَعْيُنِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ حَقٌّ عَلَى نَفُوسِ النَّاشِئِينَ مَا لَا تَبْلُغُهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمُرَاقَبَةِ الَّتِي يَتَصَوَّرُهَا الْعَقْلُ . يَقُولُ الْإِنْجِيلِيُّ : « إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُصْبِحَ ابْنُكَ رَجُلًا فِي طُفُولِيَّتِهِ فَعَامِلُهُ مُعَامَلَةُ الرِّجَالِ » وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَجْرُونَ عَلَيْهِ فِي التَّرْبِيَةِ .

إِذَاكَ تَدَهِّشُ إِذَا لَاقَيْتَ عَدَدًا عَظِيمًا مِنَ الْغِلْمَانِ الْإِنْجِيلِيِّ فِي السُّفُنِ التِّجَارِيَةِ وَالْمَرْكَبَاتِ الْعَامَّةِ وَمَرْكَبَاتِ السَّكِّكِ الْحَدِيدِيَّةِ يَسْعُجُونَ وَحَدَهُمْ بِإِذْنِ أَهْلِيهِمْ زَمَنَ عُظْلَةِ الْمَدَارِسِ وَهُمْ فِي حَدَاثَةِ السِّنِّ، وَلَكِنَّهُمْ عَلَى مَا فِي هَذَا مِنَ الْخَطَرِ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَتَوَقَّوْنَ الْمَعَاطِبَ وَكَيْفَ يَعُودُونَ إِلَى مَوَاطِنِهِمْ ، وَيَقُولُ الْإِنْجِيلِيُّ تَعْلِيلًا لِذَلِكَ فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ : إِنَّهُ هُوَ الْوَسِيلَةُ إِلَى اسْتِقْلَالِ هَؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ يَوْمًا مَا يَسْلُوكُ طَرِيقَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا .

يَتَّبِعُ الْإِنْجِيلِيُّ بِالْأَطْفَالِ نَقَّةَ تَامَّةٍ ، فَإِذَا أَحَلَّ بِهَا هَؤُلَاءِ أَجْنَانًا فَلَا يَدْعُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ يَرْجُو مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالذَّرَايَةِ فِي دَرَجَةٍ أَعْلَى مِمَّا تَقْتَضِيهِ سِنُهُمْ فَهُوَ وَاهِمٌ فِي مَعْرِفَةِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ شُوْهِدَ أَنَّ مَا قَعَّ مِنْهُمْ مِنَ الْخَطَا

(١) هذا مصداق لقول الشاعر العربي .

كن ابن من شئت واكتب أدبا * يفتيك بمجوده عن النسب
إن الفتى من يقول هاذا * ليس الفتى من يقول كاذب أبي - المترجم

(٢) الفسافى الردى من كل شئ .

يسهل أَنْ تُسَدَّ ثَمَّتُهُ ، وَأَمَّا تَقْيِيفُ^(٢) مَا أَعْوَجَ مِنَ الطَّبَاعِ بِسَبَبِ سُوءِ الظَّنِّ وَالْقَهْرِ
فَهُوَ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ .

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا النَّوعِ مِنَ التَّرْبِيَةِ قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ تُنَاثِرُهَا نُفُوسُ النَّاشِئِينَ
فَإِنِّي أَرَاهُمْ هُنَا أَهْلًا لِأَنْ يُدِيرُوا بَعْضَ أَعْمَالٍ تَقْتَضِي كَثِيرًا مِنْ وَفَرَةِ الْعَقْلِ وَتَمَامِهِ ،
وَقَدْ ضَرَبَ لِي الرَّجُلُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مَثَلًا نَاجِحًا مِنْ كِبَارِ التُّجَّارِ فِي لُونْدَرَةِ كَانَ
مُدَّ بَلَدَ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ يُحِبُّ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ مُتَابِعًا حَفَظَةً مَمْلُوءَةً بِأَوْرَاقِ
الْمَصَارِفِ (بنك نوت) وَيَعَامِلُ وَهُوَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عِدَّةً مِنَ الْمَحَالِّ التِّجَارِيَةِ بِاسْمِ أَبِيهِ .
وَلَيْسَ مَا يُلْقِيهِ الْإِنْجِيلُ فِي أَذْهَانِ أَوْلَادِهِمْ وَهُمْ صِغَارٌ مِنَ التَّقَى بِاتِّصَالِهِمْ وَالْإِعْيَادِ
عَلَيْهَا مَقْصُورًا عَلَى مَا يَكُونُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ التِّجَارِيَةِ وَالصَّنَاعِيَةِ ، بَلْ هُوَ يَسْمَلُ
أَيْضًا الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةَ كَالشَّعْرِ وَالْإِنْسَاءِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْفِكْرِيَّةِ ، نَعَمْ إِنَّ الْإِنْجِيلَ
لَيْسُوا بِأَلَّا رَبِّبَ أَحْسَنَ وَلَا أَعْلَمَ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لِيَتَعَوَّدَهُمْ مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ
الْإِسْتِقْلَالَ فِي سِيرِهِمْ بِمَعَارِفِهِمُ الذَّاتِيَّةِ وَتَحْمِلُهُمْ تَبْعَةَ أَعْمَالِهِمْ يَظْهَرُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ
أَكْثَرَ مِنَّا قِيَامًا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا لَمْ أَتَالِ بِالنَّصْرِيجِ بِكُلِّ مَا أُرِيدُهُ قُلْتُ : إِنَّهُمْ أَقَلُّ مِنَّا
شَبَّابًا بِخِرَافٍ بِأَنُورِجِ .^(٣)

السَّاعَاتُ الْمُقَرَّرَةُ لِلدَّرُوسِ فِي الْمَدَارِسِ الْإِنْجِيلِيَّةِ هِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَقْصَرُ مِنْهَا
فِي الْمَدَارِسِ الْفَرَنْسِيَّةِ . وَيُؤَكِّدُ النَّاسُ هُنَا أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقُصُ مِنْ نَتَاجِ التَّلَامِيذِ

(١) التُّلَّةُ فِي الْحَانِطِ وَغَيْرِهِ الْمَخْلُوقِ . (٢) التَّخْفِيفُ الْقَوِيمُ وَالْتِسْوِيَةُ .

(٣) بِأَنُورِجِ هُوَ أَحَدُ الْمَثَلَيْنِ فِي قِصَّةِ هَزَلِيَّةِ الْكَاتِبِ الشَّهِيرِ رِيلِي وَلَهُ خِرَافٌ عَلَيْهَا تَقْلِيدُ خُرُوفِ مَثَلِ

آخِرٍ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ إِسْمُهُ دَنْدِينُوتِلُ انتِقَامًا مِنْهُ فَصَارَتْ يَضْرِبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي التَّقْلِيدِ .

وَلَا يَصْرُ بِتَرْقِيَّتِهِمْ كَمَا قَدْ تَوَهَّاهُ لِأَنَّ الطِّفْلَ لَا يَقْتَصِرُ فِي تَعَلُّمِهِ عَلَى مَا فِي الْكُتُبِ
بَلْ هُوَ يَتَعَلَّمُ كَذَلِكَ مِمَّا يَرَاهُ أَتَسَاءَ تَتَرَهَّه فِي الْمَشَاهِدِ الْجَمِيلَةِ وَالْمَظَاهِرِ الْأَنْبَقَةِ
وَيَسْتَفِيدُ اسْتِفَادَةً حَقِيقَةً مِمَّا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رِفَاقِهِ فِي الْمَحَاوِرَاتِ وَالْمُعَادَاتِ
وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ أَهْلِهِ مِنَ الدَّرُوسِ النَّافِعَةِ فِي الْمَعِيشَةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورَةِ
الْمُؤَكَّدَةِ أَنَّ يَنْقَلِ عَقْلُ الطِّفْلِ مِنَ الصُّبْحِ إِلَى الْمَسَاءِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ مَشْهُورَى الرَّجَالِ.
لَا يَمْتَقِدُ جِيرَانُنَا ذَلِكَ قَطْعًا بَلْ يَرَوْنَ أَنَّ فِي رَاحَةِ التَّلَامِيذِ أَى تَرْوِجُ نُفُوسِهِمْ
بِالْأَلْعَابِ الرَّيَاضِيَّةِ الْمُتَنَوِّعَةِ نَحْنًا^(١) لِأَذْهَانِهِمْ وَتَقْوِيَةً لِعُقُولِهِمْ .

وَهُمْ فِي تَأْيِيدِ هَذَا الرَّأْيِ يَصِيرُونَ مَثَلًا مَدَارِسَ قَلَّتْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ
الْآخِرَةِ سَاعَتِ الدَّرُوسِ فِي فِرْقَتِهَا، وَشَغَلَتْ التَّلَامِيذَ فِيمَا وَقَرَّتْ مِنْهَا بِأَعْمَالٍ يَدَوِيَّةٍ
نَافِعَةٍ فَضَاعَفَتْ بِذَلِكَ فِيهِمْ قُوَّةَ التَّنْبِيهِ وَالْحُكْمِ. إِذَا كَانَ هَذَا كَذَلِكَ كَانَ مَا صِرَفَ
مِنَ الزَّمَنِ فِي تِلْكَ الْأَعْمَالِ غَيْرِ ضَائِعٍ بَلْ عَائِدًا بِالرَّجْعِ عَلَى التَّلَامِيذِ فِي اسْتِفَادَتِهِمْ
مِنَ الدَّرُوسِ، لِأَنَّ نَجَاحَهُمْ لَا يَقْدَرُ بِطَوْلِهَا وَإِنَّمَا يَقْدَرُ بِادْرَاجِهِمْ مَا فِيهَا مِنَ
الْعُلُومِ وَارْتِيَاضِهِمْ بِهَا^(٢) .

أَخْصَ غَايَةَ رِيٍّ إِلَيْهَا الْإِنْجِلِيزُ فِي التَّرْبِيَةِ هِيَ سَلَامَةُ الْعَقْلِ وَهُمْ يَقُولُونَ
مَاحِرِينَ مَا أَجْمَلَ مَا يُوَدُّ عَلَى الطِّفْلِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَزَايَا إِذَا كَانَ الْقَائِمُونَ عَلَى
تَرْبِيَتِهِ يَضْمَعُونَ فِيهِ الْأَعْصَابَ الْمُعَدَّةَ لِلْإِدْرَاكِ وَالْفَهْمِ بِالْإِفْرَاطِ فِي إِجْهَادِهَا،

(١) نَحْنًا لِأَذْهَانِهِمْ أَى تَقْوِيَةً لَهَا .

(٢) أَرَجُو أَنْ يَنْفَضَتْ لَهَا أَهْوَاءُ التَّلَامِ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمُعَادَاتِ الدَّفِيقَةِ عِنْدَنَا وَأَنْ يَلْاحِظُوا فِي مَوَاضِعِهَا
حَتَّى لَا يَرْتَفِعُوا الْمُتَعَلِّمِينَ وَيُلَوِّا أَذْهَانَهُمْ بِالْكَلالِ وَالْأَعْيَاءِ بِكَثْرَةِ مَا يَحْمِلُونَهَا مِنَ الْمَوَادِّ الْعِلْمِيَّةِ — الْمُتَرْجِمُ .

وَيُضَوِّت مَا فِي عُيُونِ قَرِيْبَتِهِ مِنْ مَادَّةِ الذِّكَاةِ الْغَزِيْرَةِ يَحْتَمِلُ عَلَى الْعَمَلِ لِإِحْرَازِ مَا لَا ثَمَرَةَ فِيهِ مِنْ قَصَبِ السَّبْقِ فِي امْتِحَانَاتِهِ . فَكَمْ مِنْ سَابِقٍ فِي هَذِهِ الْإِمْتِحَانَاتِ يَأْكُلُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مَا يَزْرَعُ قَبْلَ إِبَانِ صِلَاحِهِ : (يَعْنِي أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ كُلَّ مَا لَسِيْمٌ مِنْ الْمَوَاهِبِ الْعَقْلِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى ثَمَرَتِهَا) .

لَيْسَتْ الْعِبْرَةُ عِنْدَ الْإِنْجِلِيزِ بِتَعْلِيمِ الْمُعَلِّمِينَ بَلِ الْعِبْرَةُ بِمَا يَعْمَلُهُ التَّلِيْذُ وَتَعْلَمُهُ بِنَفْسِهِ . وَمِمَّا يَحْكِي تَأْيِيْدًا لِمَصْدَقِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِي إِحْدَى دَوَائِرِ الْخَوَارِيْزَةِ بِإِقْهَوسِيَّةٍ مَدْرَسَةٌ فِيهَا قِسَمَانِ مِنَ التَّلَامِيْذِ دَاخِلِيٌّ وَخَارِجِيٌّ ، وَكَانَ جُلُ عِنَايَةِ صَاحِبِهَا مُوجَّهًا لِلْقِسْمِ الْأَوَّلِ صُرُوْرَةً أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَتِمَدُّ عَلَيْهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ فِي إِنْشَاءِ كَتَبِهِ ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ يَقْضِي مَعَ تَلَامِيْذِهِ كُلِّ سَهْرَةٍ فِي إِعْدَادِهِمْ لِمَتَلَقَّى دَرْسَ الْفَتْحِ ، عَلَى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَحْصُلُ فِي الْمَدْرَسَةِ هُوَ غَيْرُ مَا كَانَ يَرْجُوهُ ، لِأَنَّ تَلَامِيْذَ الْقِسْمِ الثَّانِي - وَهُمْ مِنْ أَنْبَاءِ فُقَرَاءِ الْمُزَارِعِينَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْكُفُوْرَ وَالْخِصَاصَ الْمُجَاوِرَةَ لِلْمَدْرَسَةِ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ حِرْمَانِهِمْ مِنْ مُعِيْدٍ يَكْرُرُ لَهُمُ الدُّرُوسَ وَاشْتِغَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الْمَدْرَسِيَّةِ فِي زَوَايَا تِلْكَ الْخِصَاصِ عَلَى ضَوْءِ نَارِهَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِيْهِمْ عَنْهُمْ - كَانُوا يَظْهَرُونَ عَادَةً عَلَى تَلَامِيْذِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَيَقُوْقُونَهُمْ كَثِيْرًا مَعَ إِجْهَادِ مُدِيرِ الْمَدْرَسَةِ نَفْسُهُ فِي تَقْوِيْمِهِمْ وَتَمْرِئِهِمْ ، فَعَظُمَتْ بِذَلِكَ دَهْشَةُ ذَلِكَ الرَّجُلِ وَلِكُوْنِهِ كَانَ ذَا لُبٍّ وَفِكْرٍ أَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ سَبَبِ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي مَلَأَهُ سَآمَةً وَصَجْرًا ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَرَفَهُ وَهُوَ أَرَبُ التَّلَامِيْذِ الدَّاخِلِيْنَ كَانُوا يُفَرِّطُونَ فِي الْإِعْتِمَادِ عَلَى تَعْلِيْمِهِ إِثْمًا تَعْلِيمَ الْأَوَّلِيِّ الَّذِي لَا يَعْمَلُ لِفِكْرِهِمْ فِيهِ ، وَبَسْتَلُونُ

(١) الخوارزة جمع خورى أى كاهن وهو أيضا بمعنى "مدير القرية" .

وَلَكِنْ لَا يَنْقُصُهُمْ بَلْ كَالْآلَاتِ يُدِيرُهَا مُحَرِّكُهَا، وَأَمَّا التَّلَامِيذُ الْفُقَرَاءُ سُكَّانُ الْأَكْوَاجِ فَلَمَّا كَانُوا مُضْطَرِّينَ إِلَى حَلِّ رُمُوزِ مَا يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ فَهَمُّ مِنَ الْمَسَائِلِ بِأَنْقُصِهِمْ كَانَتْ أَذْهَانُهُمْ فِي تَبْقِظٍ وَلِذَلِكَ كَانُوا يَسْتَحْدُونَ قَرَائِحَهُمْ وَيَقْوُونَ مَدَارِكَهُمْ بِالْمُنَاقَشَةِ وَالْمُنَاقَسَةِ، وَكَانَ فِي انْقِطَاعِ الْمَعْلَمِ عَنْ رِعَايَتِهِمْ أَثْنَاءَ مَدَارِسَتِهِمُ اللَّيْلِيَّةِ مَرِيَّةٌ لَهُمْ، فَلَا جَرَمَ أَنَّهُمْ سَبَقُوا إِلَى الْمَقَاعِدِ الْأُولَى فِي فَرَقِهِمْ نَهَارًا . اسْتَفَادَ الْمُعَلِّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكْمَةِ الَّتِي أَهْدَتْهَا إِلَيْهِ التَّجَرُّبَةُ فَتَرَكَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ التَّلَامِيذَ الدَّاخِلِينَ وَشَأْنَهُمْ مُقْتَصِرًا عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ كَفِيرَهُمْ مَوَادَّ الْعَمَلِ وَأَدَوَاتِهِ مِثْلَ كِتَابٍ فِي النُّحْوِ وَمُعْجَمٍ فِي اللُّغَةِ وَكَانَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ سَاوَوْا أَقْرَانَهُمْ فِي دَرَجَتِهِمْ .

تَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ شَأْنَ جِيَرَانَا فِي التَّرْبِيَةِ كَشَأْنِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَهُوَ أَنَّهُمْ يَرْجُونَ مِنْ عَمَلِ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يَرْجُونَهُ مِنْ وَسَائِلِ الْمَعُونَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ كَأَنَّهُ مَا كَانَتْ، فَشِعَارُهُمْ فِيهَا هُوَ « اِسْتَعِنْ بِنَفْسِكَ بِعَدِكَ مَعْلَمُكَ » .

رُبَّمَا كَانَ أَهْلُ إِيكُوسِيَّةِ أَيْضًا أَكَلَّ مِنَ الْإِنْجِلِيزِ عَنَاءَهُ بِأَمْرِ التَّرْبِيَةِ فَقَدِ اسْتَفْلَوْا بِهِ كَثِيرًا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ .

يُوجَدُ فِي أَيْدنبُورجِ عَلَى مَا سَمِعْتُ مَدَارِسَ ابتدائيةً لَا يَكْتَفِي فِيهَا الْمُعَلِّمُونَ^(١) بِتَعْلِيمِ التَّلَامِيذِ مَوَادَّ الْعُلُومِ بَلْ يَبْدُلُونَ قُصَارَى جُهْدِهِمْ فِي تَأْدِيبِ طِبَاعِهِمْ وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ ، فَهُمْ يَمْلِكُونَ لِتَطْهِيرِ نُفُوسِهِمْ مِنْ خَبِيثِ الرَّذَائِلِ كَالْآثَرَةِ وَالنَّسِ وَالظُّلْمِ وَالْكَذِبِ وَالْقَسْوَةِ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ، وَلَيْسَتْ طَرِيقَتُهُمْ فِي ذَلِكَ مُجَرَّدَ إِفْقَاءِ الْقَوَاعِدِ

(١) أَيْدنبُورجِ عاصمة إيكوسية من بلاد الإنجليز .

وَالْعَالِيَمِ الْمُتَهِمَةِ الْمُجْمَلَةِ بَلْ هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى وَجْدَانِهِمِ الْفَطْرِيِّ وَيَذْكُرُونَهُمْ
يُشْرِفُ الْإِنْسَانُ وَنُمُو مَزَلَّتْهُ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، فَلَا تُطْقَلُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِسِ
هُمْ الَّذِينَ يَحْكُمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَيُقَدَّرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ دَرَجَةً
أَفْضَلَهُمْ فِي الْحُسْنِ أَوْ الْقَبِيحِ^(١).

وَلَوْ شِئْتُ لَسَدَدْتُ لَكَ كَثِيرًا مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَلَكِنِّي أَكْتَفِي
بِأَنْ أَقْصِ عَلَيْكَ وَاحِدَةً مِنْهَا لِيَكُونَ فِي ذَهْنِكَ صُورَةٌ لِنَتِكَ الطَّرِيقَةَ فَاقُولُ :

تَأَخَّرَ تَلْمِيزَانِ ذَاتَ يَوْمٍ عَنِ الْوَقْتِ الْمُقَرَّرِ لِدُخُولِ الْمَدْرَسَةِ بِرُبْعِ سَاعَةٍ
وَهُمَا أَخَوَانِ فِي الرَّابِعَةِ أَوْ الْخَامِسَةِ مِنْ عُمْرِهِمَا فَقَرَّرَ الْمُدِيرُ أَنْ يُسْتَلَا عَنْ سَبَبِ
التَّأَخُّرِ وَيَقْبَلَا فِي فَرْقِهِمَا بِلَا عِقَابٍ إِنْ أَبَدَا عُدْرًا صَحِيحًا، وَجَعَلَ الْحَكَمَ عَلَى حِجَّةِ
الْعُدْرِ وَقَسَادَةِ لِلْمَدْرَسَةِ بِمَا مَهَا كَمَا هِيَ الْعَادَةُ عِنْدَهُ فِي جَبَلِهَا مُحْكَمَةٌ شَرِيفٌ تَقْضِي
عَلَى النَّلَامِيزِ وَلَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ، فَلَمَّا مَثَلَ الْمُتَهِمَانِ الصَّغِيرَانِ أَمَامَ هَذِهِ الْمُحْكَمَةِ
اعْتَدَرَا مُتَعَاقِبَيْنِ عَنْ تَأَخُّرِهِمَا بِأَنَّهُمَا صَادَقَا فِي طَرِيقِهِمَا دُودَةً غَلِيظَةً لَمْ يَكُونَا رَأْيَا
لَهَا نَظِيرًا فِي حَيَاتِهِمَا فَرَاعَهُمَا مَنَظَرُهَا وَمِلْكًا مِنْهَا عَجَبًا، لِأَنَّ هَذِهِ الْحُشْرَةَ كَانَتْ
تَمَثَّلُ فِي أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ غَيْرِ مَعْهُودَةٍ لَهُمَا، فَكَانَتْ تَارَةً تَقِفُ عَلَى ذَنبِهَا وَطَوْرًا
تَمْتَدُّ عَلَى الْأَرْضِ وَأَوْنَةً تَكُونُ ذَاتَ أَشْيَاءٍ مُلْتَوِيَةٍ^(٢). وَأَنَّهُمَا يَتَنَمَّاهُ كَانَا يَبْصُرَانِ
زَمَنَهُمَا فِي مُشَاهَدَتِهَا، كَانَتْ تَلْسَابُ^(٣) حَتَّى بَلَغَتْ عَوِيجًا فَغَابَ عَنْهُمَا الرَّجَاءُ فِيهِ —

(١) ينبغي أن تكون هذه الطريقة في تقويم الطباع وتهذيب الأخلاق شاملا كل مرء يقدر التبعة

(٢) أثناء أى تضاعف وطبات .

المقاة على عاتقه قدرها — الترجم .

(٣) تساب تمشى بسرعة .

فَلَمْ يُجِبْهُمَا الْمُدِيرُ رِشْمًا يُبَيِّنُ قَوْلَهُمَا بَلْ سَأَلَهُمَا : لِمَاذَا لَمْ تَقْتُلَا هَذِهِ الشُّوَدَّةَ ؟
 حَقَّقَ^(١) إِلَيْهِ الْفُتْلَامَانِ وَلَمْ يُجِبرَا جَوَابًا ، فَاسْتَأْنَفَ السُّؤَالَ قَائِلًا : أَمَا كَانَ لَدَيْكُمَا
 مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يُعِينُكُمَا عَلَى قَتْلِهَا حَتَّى كُنْتُمَا بِذَلِكَ تَقْطَعَانِ سَبَبَ إِطْأَانِكُمَا
 فِي الطَّرِيقِ ؟ فَهَالَ لَهُ أَكْبَرُهُمَا : بَلَى كُنَّا قَادِرِينَ عَلَى قَتْلِهَا مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَكِنَّا
 لَوْ كُنَّا أَتَيْنَاهُ لَكَانَ ذَلِكَ مِنَّا شَرًّا وَقَسْوَةً . فَنُوبِلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ جَمِيعِ
 الْحَاضِرِينَ بِالِاسْتِحْسَانِ وَالتَّحْيِيدِ وَحُكْمِ بَرَاءَتِهِمَا مِنَ التَّقْصِيرِ .^(٢)

مَنْ ذَا الَّذِي لَا يَرَى فِي مُحَاكِمَةِ الطِّفْلِ إِلَى لِدَائِهِ وَأَقْرَانِهِ جُرْمًا وَضَعِ
 الْمُحَافِلِينَ^(٣) الَّذِي يَحْتَرُّهُ جَمِيعُ الْعَارِفِينَ بِهِ مِثْقَلًا يَدَادُ فِيهِ عَنْ حِمَى الْحُرِّيَّةِ بِجَمِيعِ
 أَنْوَاعِهَا فِي إِنْجِلْتَرَّةَ وَالْقَوْسِيَّةِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ تِلْكَ الْمُحَاكِمَةَ أَخَذَ بِالنَّاشِئِينَ فِي طَرِيقِ
 الْوُصُولِ إِلَيْهِ وَإِشْرَافِ بِهِمْ عَلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ ، وَلَا يَدْعُ فَإِنْ جِبرَانَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ التَّبَكُّيرَ
 فِي تَرْبِيَةِ وَجْدَانِ التَّكْلِيفِ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ لَا إِقْرَاطَ فِيهِ يَدْمُ مَهْمَا تَوَسَّعَ فِي التَّجَنُّبِ
 بِهِ ، فَفِي رَأْيِهِمْ أَنَّهُ مَتَى أُريدَ أَنْ تَكُونَ الْحُكُومَةُ عَلَى صُورَةٍ مَا يَجِبُ أَنْ تُهَيَّأَ لِقَبُولِهَا
 نَفُوسُ النَّاشِئِينَ وَأَنَّ مَا يَحْفَظُ الْقَانُونُ وَجُودَهُ وَيَضْمَنُ بَقَاةَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكِفَالَاتِ
 لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا بِارْتِيَاضِ النَّاسِ بِهِ مِنْ بَدَايَةِ عُمْرِهِمْ وَدَوَامِ اعْتِيَادِهِمْ إِيَّاهُ . وَمِمَّا قَالَهُ لِي
 الشَّيْخُ الْإِبْرَاقُوسِيُّ الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ : أَنَا لَا أُشِيرُ عَلَى أَى بَلَدٍ بِاخْتِيَارِ طَرِيقَتِنَا
 فِي التَّرْبِيَةِ مَا لَمْ يُقَارِنَهُ زَرْعُ مَا لَدَيْنَا مِنْ ضُرُوبِ الْحُرِّيَّةِ فِي نَفُوسِ أَهْلِهِ . فَتَحْنُ

(١) حَقَّقَ إِلَيْهِ نَظْرًا إِلَيْهِ بِحَدَّةٍ . (٢) التَّحْيِيدُ : الْمَدْحُ بِقَوْلِ حَدِيثٍ .

(٣) لِدَاتُ الطِّفْلِ : الْمَسَاوِينُ لَهُ فِي السِّنِّ . (٤) الْمُحَافِلُونَ : هَيَاةُ تَأْنَفٍ مِنْ عَدَدِ الْأَهْلِيْنَ
 لَا يَبْقَى عَنْ أَثْنَى عَشَرَ يَخْبُونُ وَيَحْفَظُونَ طَبَقًا لِلْقَانُونِ عَلَى أَنْ يَقْرَرُوا الْحَقَّ فِيمَا يَمْرُضُ طَبِيعَهُ مِنَ الدَّعَاوَى .

فِي بِلَادِنَا نَحْتَاجُ إِلَى رِجَالٍ مَطْبُوعِينَ عَلَى حُبِّ الْإِسْتِقْلَالِ مُوَافِقَةً لِمَا تَقْتَضِيهِ
قَوَائِدُنَا وَأَوْضَاعُنَا ، أَكْفَاءَ لِإِطَالَةِ مُدَّةِ بَقَائِهَا بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنْ
الْمُجَاهَدَةِ الشَّدِيدَةِ . وَإِنْ طَرِيقَتَنَا فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ إِذَا اتَّبَعْتَ فِي غَيْرِ بِلَادِنَا
نَسَأْتُ عَنْهَا رَعِيَةً يَتَعَدَّرُ حُكْمُهَا وَسِيَاسَتُهَا . اهـ

الرسالة الثانية والعشرون

(مِنْ هِيلَانَّةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٢ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٨٥٠)

إِنْتِقَادُهَا أَخْلَاقَ الْإِنْجِلِيزِ وَخُضُوعَهُمْ لِتَقَالِيدِ أَسْلَافِهِمْ وَإِتِمَاعُهَا عَلَيْهِ لَدَلِكَ
أَرَى مِنَ الْبَوَائِحِ الْكَافِيَةِ مَا قَدْ يَسُوقُنِي إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ الْكَمَالَ لَا يَخْلُو مِنْ
نَقِصٍ ، وَالْحُسْنَ لَا يَمُرُّ مِنْ قُبْحٍ . فَمَا عَاشَتْهُ مِنْ أَحْوَالِ الْإِنْجِلِيزِ وَأَخْلَاقِهِمْ
يَنْطَبِقُ أَنْطَبَاقًا تَامًا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ عَلَى مَا سَمِعْتُهُ عَنْهُمْ مِنَ الْمَرْجُوحِ سَفْتِ أَنْدَرُوزِ .
وَلَكِنْ تَصِفُنِي هَذِهِ الْأَخْلَاقُ وَتُرِيدُ فِكْرِي فِيهَا قَدْ اضْطَرَّنِي إِلَى الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ
فِي امْتِدَاحِهَا وَتَرْكِ الْمُجَازَفَةِ فِي إِطْرَافِهَا . لِأَكْثَرِ الْأُمَهَاتِ اللَّاتِي الْأَقْبَهُنَّ فِي بَيْتِ
السَّيِّدَةِ وَارْتِيحُنَّ أَوْلَادَ عَدِيدُونَ ، فَمَا عَجَبَ مَا يَرَى فِي جَمِيعِهِمْ مِنْ مِقْدَارِ ارْتِيَاظِهِمْ
بِمَا لِمُخَالِطِهِمْ مِنَ الْأَوْهَامِ وَسُرْعَةِ انْطِبَاجِ مُعْتَقَلَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ فِي نُفُوسِهِمْ فَتَرَاهُمْ
عَلَى قَلَّةٍ عَلَيْهِمْ بِالْأُمُورِ يَفْرُقُونَ بَيْنَ مُطْلَقِ رَجُلٍ وَالسَّرِيِّ الْمُهَذَّبِ مِنَ الرِّجَالِ وَمُطْلَقِ
امْرَأَةٍ وَالسَّيِّدَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ النِّسَاءِ قَرَفًا تَامًا ، وَيُمَيِّزُونَ مَنْ وُلِدُوا لِحِلْمَتِهِمْ مِمَّنْ يَحِبُّ

(١) المجازاة في الكلام ارسله بلا قانون . (٢) الاطراء المبالغة في المدح .

(٣) الارتياض : التخلق والاعتقاد .

لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْإِجْلَالُ وَالتَّعْظِيمُ لِأَوَّلِ نَظَرَةٍ إِلَى سَمِ غَيْرِ مُتَرَدِّدِينَ فِي ذَلِكَ وَلَا مُرْتَابِينَ،
وَيَحَافِظُونَ عَلَى شَرَفِ الْإِقْدَاءِ عِظَمَاءِ النَّاسِ فِي سِيرِهِمْ ، لَا لِأَنَّ ذَلِكَ مَطْلُوبٌ
لِدَانِهِ بَلْ لِعَدَمِ الْإِخْلَالِ بِمَا تَوَاضَعَ عَلَيْهِ أَوْلَئِكَ الْعُظَمَاءُ مِنَ الْأَدَابِ، وَإِنِّي عَلَى
يَقِينٍ مِنْ أَنَّكَ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ النَّاشِئِ لَوَجَدْتَ فِيهِ شَيْئًا مِنَ التَّصَلُّفِ،
فَلَسَدَ مَا يَرَى فِيهِمْ مِنَ الْعِجْرَةِ وَمَا يُسَدُّونَهُ أَمَامَ الْأَجَانِبِ مِنْ ظَوَاهِرِ الْأَهْجَةِ
الصَّبِيانِيَّةِ .

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْإِنْجِلِيزِ أَنْفُسُهُمْ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الْحُرِّيَةِ الْوَاسِعَةِ وَمَا فِيهِمْ
مِنْ كَيْلِ اسْتِحْقَاقِهَا هُمْ فِي غَايَةِ الْخَشْيَةِ وَالْخُضُوعِ لِرَأْيِ الْجُمْهُورِ، وَشَأْنُهُمْ فِي هَذَا
شَأْنٌ بِاسْكَالِ الَّذِي يُسَمَّى ذَلِكَ الرَّأْيَ : مَلِكِ الدُّنْيَا .

عَلَى أَنِّي لَا أَدْرِي أَى تَأْثِيرٍ لَهُ فِيهَا يَسْتَحِقُّ بِهِ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ، وَلَكِنِّي إِخَالُ
أَنَّ لَهُ فِي إِنْجِلِيزَةِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالسَّيْطَرَةِ مَالِيسَ مِثْلِهِ فِيمَكْتُورِيَا . فَإِنَّ جِيرَانَنَا يَنْشَأُونَ
مِنْ صِغَرِهِمْ عِبِيدًا مُخْتَارِينَ لِبَعْضِ مُوَاضِعَاتِ قَوْمِيَّةٍ فَيُوجِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَعْظِيمَ
مَاعَظِمِهِمْ مُجْهُورِ الْمُهْدِّبِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ بِدُونِ بَحْثٍ فِيهِ وَلَا نَظَرٍ، فَكُلُّ مِثْمٍ فِي سِيرَتِهِ
وَأَرَائِهِ يَنْبَغُ لِفَعْلِهِ مُعْتَمِدٌ عَلَى مَا لِهَذَا الْغَيْرِ مِنَ الْإِعْتِبَارِ وَعُلُوِّ الْكَلِمَةِ، وَتَرَاهُمْ فِي مُتَدَبِّاتِهِمْ
قَلِيلِي الْكَلَامِ بَلْ لَا تَخْرُجُ مُحَادَثَاتُهُمْ عَنْ حُدُودِ الْأُمُورِ الَّتِي قَدَسَهَا اسْتِقْرَارُ الْعَادَةِ
فَلَهُمْ حِجْلٌ مِنَ الْمَعْنَى وَالْأَفْكَارِ كَأَنَّهَا تَحْجَرَتْ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِلِهِمْ فَاجْتَمَعُوا عَلَى
عَدَمِ الْمُنَاطَرَةِ وَالْحِدَالِ فِيهَا .

(١) باسكال ويسمى بلز باسكال هو كاتب ومهندس فرنسي شهير ولد في كلير مونت فرائدسة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ميلادية وله مؤلفات شهيرة منها أفكار باسكال . (٢) فيكتوريا : ملكة الإنجليز .

إِنِّي إِلَى الْآنَ لَمْ أَعْرِفِ الْإِنْجِيلَ مَعْرِفَةً تَكْفِي لِإِدْرَاكِ سِرِّهِهِ الْمُبَيَّنَاتِ، وَإِنَّمَا
الَّذِي أَرَاهُ فِي كِبَارِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ غَايَةِ الْإِسْتِقْلَالِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَغَايَةِ التَّقْلِيدِ
فِي آرَائِهِمْ، وَأَمَّا صِغَارُهُمْ فَانَّهُمْ كَذَلِكَ أَحْرَارٌ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَفِي مُعْظِمِ مَا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ
عَزَائِمُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ - لَكِنَّهُمْ يَحْجُرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ تَتَعَلَّقَ هَذِهِ الْعَزَائِمُ مِنْ
الْأَعْمَالِ بِمَا يُخَالَفُ تَقَالِيدَ أَهْلِيهِمْ وَأَثَارَ سَلَفِهِمْ وَعَوَائِدَ الصَّالِحِينَ مِنْ مُخَالِطِهِمْ،
وَرُبَّمَا كَانَتْ الْحِكْمَةُ فِي كُلِّ ذَلِكَ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ رَأَوْا طِبَاعَهُمْ تَجْرِي بِهِمْ فِي بَحْرِ
بُحْيٍ مِنَ الْحُرِّيَّةِ جَرَى السُّفْنِ مَدَّتْ شُرْعُهَا، فَاضْطَرُّهُمْ ذَلِكَ إِلَى طَلَبِ مَرَسَاةٍ يُوقِفُونَ
بِهَا جَرَبَهَا فَاتَمَسُّوْهَا فِي ضَبْطِ الْأَخْلَاقِ الْبَيْتِيَّةِ وَفِي الْعَوَائِدِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْأَصُولِ
الْمِلِّيَّةِ (٢) . اهـ

الرسالة الثالثة والعشرون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٦ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٨٥٠)

إِخْبَارُهُ بِاقْتِرَابِ سَاعَةِ الْوَضْعِ وَرُؤْيَا رَأَتْهَا

كَأَنِّي أَيْهَا الْحَبِيبُ بِسَاعَةِ الْوَضْعِ قَدْ اقْتَرَبْتُ، وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَزَالُ فِي كِفَايَةِ
مِنْ جُودَةِ الصَّحَّةِ فَمَا أَخَوْفَنِي مِنْ هَوْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ وَمَا تَأْتِي بِهِ مِنْ الشَّدَائِدِ

(١) المرساة أخبر السفينة، أى الآلة التى ترسو بها على البر .

(٢) قد أحسن الإنجليز صناعات تقيدهم بربهم بتلك القيود التى هى البرقي عظمته واحتداد سلطانهم،
وهى التى صيرتهم أعظم الأمم شأنًا وأعلامًا فى ذرى المجد. كانوا كما فعلت بالعرب من قلوبهم، فالحرية المطلقة
من كل قيد مدعاة الى الشر والهمجية، فليتأمل ذلك طلاب الحرية وليبحثوا التفكير فيه وليجعلوا الناس على
الاحتفاظ بأدابهم الدينية وأخلاقهم القومية، ولا يكونوا كالترك فى عهدهم الجديد فان الأخبار المنقولة
عنهم تدل على تفصيصهم من كل قيد ونبتهم كل عادة وذلك تذكير سوء لا يعلم عاقبته إلا الله - الترجمة .

وَالْحَيِّ الَّتِي كَانَ شُهُودُكَ فِيهَا وَحَدُّهُ كَافِلًا تَخْفِيفَ آلَامِهَا عَنِّي . رَبَّاهُ ! كَيْفَ لَا تَكُونُ يَقْرِي أَيْهَا الْعَزِيزُ إِرَاسُكُمْ ؟ وَأَخْصُ وَقْتُ تَكُونُ فِيهِ الْمَرْأَةُ كَالْعَشَقَةِ (تَجَرَّةُ الْبَلَابِ) زَانَا عِلْنُ نَجْبِهِ وَتَعْلَقًا بِهِ إِيْمَابًا هُوَ أَمْسَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَنَاءِ وَالْخَطَرِ .

فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ رَأَيْتُ رُؤْيَا تَحْيَرَّتْ فِي تَأْوِيلِهَا . رَأَيْتُنِي أَزُورُ قَبْرَ وَالِدَتِي لَا يَسَةَ الْحَدَادِ، فَعَطَلْتُ دَعْمَتِي لِمَا رَأَيْتُهُ هُنَاكَ مِنْ شَجَرِ الْوَرْدِ وَالْأَيْسِ وَفَرِيهِمَا مِنْ الْأَزْهَارِ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ لَوَصِيْتُ بِنَفْسِهَا، وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ يَدًا مَجْهُولَةً قَدْ عَنَيْتُ بِأَخْرِ مَقْرِي لِمَنْ كُنْتُ أَحِبُّهَا فَرَيْتُهُ بِهَذِهِ الْأَزْهَارِ هَاجَتْ أَتَحَيَّانِي وَأَنْهَطَلْتُ عَبْرَانِي وَأَحْسَسْتُ بِالْبُكَاءِ فِي نَوْمِي وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَيْتَ شِعْرِي ! مَنْ هَذَا الَّذِي عَرَفَ كَيْفَ يَتَجَبَّبُ إِلَيَّ وَيَسْتَفْرِضِنِي عَنْهُ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ مِنْ جُمْلَةٍ وَقَائِعٍ مُتَابِعَةٍ مُبْهِمَةٍ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي غَرَسْتَهَا فَفَرِقْتُ فِي شِبْهِ الْجُلَّةِ مِنَ الْفَنَاءِ فِي حُبِّكَ، وَمَا عَمَى أَنَّ أَصْفَ لَكَ مِمَّا خَطَرَ فِي ذَهْنِي حِينَئِذٍ ! فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي جَمِيعُ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَلَاقَيْنَا فِيهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَمَا انْتَقَدَ بَيْنَنَا مِنْ رَوَائِطِ الْحُبِّ الْأَوَّلَى تَمَثَّلًا لَيْسَ كَالَّذِي يُحْصَلُ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَرْءِ حَوَادِثَ مَاضِيهِ ، بَلْ كَمَا يُحْصَلُ فِي الْحُلُمِ حَيْثُ تَنْشَكُّلُ فِيهِ الْأَشْيَاءِ الْحَيَّةِ وَغَيْرِ الْحَيَّةِ بِأَشْكَالِهَا الْحَقِيقِيَّةِ . فَمَا قَوْلُكَ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا ؟ وَأَمَّا أَنَا فَلَوْ كُنْتُ مِنَ الْمَوْسُوسَاتِ لَاعْتَقَدْتُ أَنَّ فِيهَا إِنْذَارًا بِبَعْضِ الْمَصَائِبِ .

أَبْشُرُكِ أَيْهَا الْحَبِيبُ بِأَنَّ أَوَّلَ مَكْتُوبٍ يَأْتِيكَ مِنِّي بَعْدَ هَذَا مَا كَتَبْتُهُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَمْ . وَكَلَّمَا دَفَرْتُ فِي ذَلِكَ تَعْرِوْنِي هِزَّةَ الْفَرَجِ وَنَشْوَةَ الطَّرِبِ، فَالآنَ أَوْدَعَكَ وَأَقْبَلُكَ بِكُلِّ مَا فِي نَفْسِي مِنْ قُوَى الْحُبِّ وَالشَّوْقِ . اهـ

صحف مقتطفة من يومية الدكتور إراسم

(صحيفه يوم ٦ يولييه سنه - ١٨٥)

أَقْلُ شَيْءٍ مِنَ الْعَقَبَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ يَعُوقُ الْعَقْلَ عَنِ الْإِنْبَعَاثِ فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَّةِ
دَخَلْتُ فَرَاشَةً مُخَدَّعِي مِنَ السَّجْنِ مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ، وَمَكَثْتُ رُبْعَ سَاعَةٍ
مُتَحَاوِلِ الْخُرُوجِ مِنَ الشُّبَّاكِ، يَدْعُوهَا إِلَى ذَلِكَ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الضِّيَاءِ وَالْفَضَاءِ وَالْحَيَاةِ
بِمَا تَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ وَلَكِنَّهُ عَلَى ضَيْقِهِ كَانَ مُحْكَمَ الْإِقْفَالِ،
فَانْقَضَتْ عَلَيْهِ بِنْتُ الْهَوَاءِ أَوَّلًا عَلَى جَهْلٍ مِنْهَا بِحَقِيقَةِ زُجَاغِهِ اللَّطِيفِ حَاسِبَةً
أَنَّهُ لَا وَجُودَ لَهُ أَمَامَهَا ثُمَّ أَخَذَتْ تُصَادِمُهُ وَتَلْتَصِقُ بِهِ وَتَقَاوِمُهُ وَكُلَّمَا رَدَّتْهَا صَلَابَتُهُ
خَائِبَةً أَعَادَتْ عَلَيْهِ الْكَرَّةَ .

هَكَذَا يَكُونُ شَأْنُ الْإِنْسَانِ مَعَ الْعَقَبَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ
لَا يَحْسِبُ لَهَا حِسَابًا، لِأَنَّهُ لَا تَكَادُ تَكُونُ شَيْئًا يَذْكُرُهَا كَسْمِكَ لَوْجٍ مِنَ الزُّجَاغِ
مَثَلًا - لَكِنَّ هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي لَا يُذْكَرُ - كَوَهْمٍ أَوْ عَقِيدَةٍ أَوْ مَعْنَى غَيْرِ صَحِيحٍ
أَوْ مُغَالِطَةٍ كَافٍ فِي تَعْوِيقِ عَقْلِهِ عَنِ التَّحْلِيلِ بِجَنَاحِهِ ^(٢) فِي سَمَاءِ الْحُرِّيَّةِ، فَلَا يُجِدِي
مَعَهُ اشْتِدَادُ الْعَقْلِ فِي افْتِحَامِ عَقَبَاتِهِ، كَمَا لَمْ يُجِدِ تِلْكَ الْحَشْرَةَ اصْطِدَامَهَا بِالزُّجَاغِ
وَأَيُّهَا جَنَاحُهَا فِي مُغَالِطَتِهِ .

(١) التعويق : الحبس والتضييق .

(٢) التحليل : الارتخاع في الجزو والاستدارة في الطيران .

(٣) الايهاء : الاضفاف .

فَلَمَّا رَأَيْتُهَا قَدْ عَجَزَتْ عَنِ الْخُرُوجِ فَتَحْتُ لَهَا الشِّبَاكَ وَقُلْتُ لَهَا : إِمْضِي
أَبْنَتُهَا الْمُسْكِنَةُ فِي سَبِيلِكَ وَطِيرِي بِمَنَاحِيكَ كَمَا كُنْتَ فِي خَالِصِ الْمَوَاءِ وَحَرَارَةِ
الشَّمْسِ ، فَهَذَا يَكْفِيكَ مِنْ مَسْجُونٍ فِي حُجْرَتِهِ . اهـ

(صَحِيفَةُ يَوْمِ ٨ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٨٥٠)

لَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُدَالَ مِنَ الْمُسْتَبِدِّينَ وَأَنْ تُرَدَّ الْحُقُوقُ الْمَغْصُوبَةُ إِلَى أَهْلِهَا
كَثِيرًا مَا شَاهَدْتُ سَاحِلَ الْبَحْرِ بَيْنَ حَرَكَتِي الْمَدَّ وَالْحَزَرَ وَأَبْصَرْتُ عَلَى سَطْحِ
رِمَالِهِ الْمُبِلَّةِ الرُّطْبَةَ آتَارَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْدَامِ وَالْمَجَلَاتِ وَنَمَالِ الْخَيْلِ وَرُسُومًا غَرِيبَةً
فِي بَابِهَا تَقَشَّنَهَا عَلَى صَفَحَاتِهَا أَيْدَى الْأَطْفَالِ ، وَأَسْمَاءُ كُتِبَتْ بِأَطْرَافِ الْعِصَى وَضُرَّ
ذَلِكَ مِنَ الْآتَارِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، فَلَمَّا مَدَّ الْبَحْرُ حَاظَهَا جَمِيعَهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ يَدُلُّ
عَلَى سَبْقِ وُجُودِهَا . كَذَلِكَ شَانَ الْعَدْلِ وَالذَّهْرِ فَإِنْ لُحِمَا كَالْبَحْرِ مَدًّا وَجَزْرًا . فَاعْمَلُوا
مَا شِئْتُمْ مِنْ تَأْلِيفِ الْكُتُبِ وَتَحْرِيرِ الصُّحُفِ وَإِقَامَةِ الْأَبْنِيَةِ وَوَضْعِ الْقَوَانِينِ ،
وَأَرْسُلُوا مَقَاصِدَكُمْ عَلَى الرِّمَالِ كُلِّ ذَلِكَ يَغْمُرُهُ مَدُّ الْعَدْلِ فِي يَوْمٍ بَلَّ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَالْبَحْرُ يَقُولُ فِي مَدِّهِ : إِنِّي أَعُودُ إِلَى مَا تَرَكْتُ مِنْ مَكَانِي ، وَالشَّعْبُ يَقُولُ فِي مَدِّهِ :
إِنِّي أَسْتَرِدُّ مَا اغْصَبَ مِنْ حُقُوقِي . اهـ

(صَحِيفَةُ يَوْمِ ٩ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٨٥٠)

مَنْ أَتَجَبَّ الظُّلْمُ أَنْ يُدَاسَ الْعَدْلُ وَالْحُرِّيَّةُ وَتُهْزَمَ حُقُوقُ الْأُمَمِ
فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِ لَذَّةِ الْمُلْكِ لِرَجُلٍ هَالِكٍ
كَانَ فِيمَا سَلَفَ مِنَ الْقُرُونِ رَجُلٌ مِنَ الْفَاتِمِيِّينَ دَمَّرَ الْمَمَالِكَ وَدَوَّخَ الْأَقْيَالَ^(١) ،
ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ وَقَائِعِهِ وَغَزَوَاتِهِ ، فَوَضَعَهُ رِجَالُ دَوْلَتِهِ عَلَى

سِرِيرٍ رَفِيعٍ مَحْفُوفٍ بِأَكْمَلِ مَظَاهِيرِ الْأَبْهَةِ وَالْجَلَالِ، مَعَ أَنَّهُ بِالمَوْتِ قَدْ خُلِعَ مِنْ
مُلْكِهِ وَأُنْزِلَ مِنْ عَرْشِ سُلْطَانِهِ، فَاتَّقِ أَنْ تَهَافَتَ عَلَى أَنْفِهِ ذِبَابَةٌ فَلَمْ تَسْتَطِعْ يَدَهُ
دَوْدَهَا عَنْهُ عَلَى مَا كَانَ فِيهِمَا مِنْ إِدَارَةِ شُؤْنِ الْمَمَالِكِ وَقَعَ نَحْوَةُ الْجَبَّارَةِ . يَاعَجِبًا !
الْلُوصُولِ إِلَى النِّفَايَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ بِوُطْأِ الْعَدْلِ وَالْحَسْرَةِ بِالْمُنَاسِمِ^(١)
وَتَهْضُمُ حُقُوقِ الْأُمَمِ ؟ اه .

(مَحْفِيفَةٌ يَوْمَ ١٠ يُولَيْهِ سَنَةِ - ١٨٥٠)

تَمَثُّلُ الْحُكُومَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ فِي الْأُمَمِ الرَّاقِيَةِ بِاللَّدَجَاةِ مَعَ

أَفْرَاحِهَا الَّتِي اسْتَنْتَ عَنْ وِلَايَتِهَا

أَرَادَتْ دَجَاةٌ أَنْ تُعْطِيَ يَمَنَاحِيهَا أَفْرَاحًا تَفْقِصُ عَنْهَا^(٢) الْبَيْضُ، وَكَبُرَتْ فَقُلْنَ
لَهَا : لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى عَنَائِكَ فَإِنَّكَ تَرْهَقِينَ أَنْفُسَنَا بِثِقْلِكَ ، فَكَانَ جَوَابُهَا عَلَى
ذَلِكَ أَنْ قَالَتْ لِهُنَّ : مَهْ فَإِنَّكُنَّ لَا تَدْرِينَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، أَمَّا عَدَمُ احْتِيَاجِكُنَّ إِلَيَّ
فَهَذَا مُمَكِّنٌ وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَسْتَغْنِي عَنْكُنَّ، أَوَّلًا لِأَنَّهُ يَلْزُمُنِي أَنْ أُلْقِيَ نِقْلِي عَلَى شَيْءٍ
فَإِنْ هَذَا يَرْفَعُ مِنْ شَأْنِي، وَثَانِيًا لِأَنِّي أَكُلُ مَا أُعِدُّ لَكُنَّ مِنَ الْحَبِّ .

هَذِهِ الْحِكَايَةُ تُمَثِّلُ الْحُكُومَةَ مَعَ الشُّعُوبِ الَّتِي بَلَغَتْ مِنْ دَرَجَاتِ التَّرَقِّي

مَا يَكْفِيهَا فِي الْإِسْتِقْلَالِ يُحْكَمُ نَفْسِهَا . اه

(مَحْفِيفَةٌ يَوْمَ ١٢ يُولَيْهِ سَنَةِ - ١٨٥٠)

بَيَانُ تَمَثُّلِ زَوْجَتِهِ لَهُ فِي الْبِقَظَةِ

كَانَتْ لَيْلَتِي هَذِهِ هَالِكَةً فَنَظِيفَةً، فَإِنِّي كُنْتُ فِي بَعْضِ سَاعَاتِهَا أَرَى مِنْ خَوَاطِرِي
مَا كَانَ يُمَثِّلُ أَمَامِي كَمَا تُمَثِّلُ الْأَشْيَاحُ فَكَأَنِّي صَافِرٌ إِلَى الْجَنُونِ ! لَقَدْ رَأَيْتُهَا ..
هِيَ يَنْقَسِبُهَا لَا فِي حُلْمٍ بَلْ فِي يَقَظَةٍ كَأَنَّهَا أَخْفَى مِنَ النَّوْمِ أَلْفَ مَرَّةٍ .

(١) النَّاسِمُ : أَخْغَفَ الْإِبِلَ . (٢) تَفْقِصُ : تَكْسِرُ . (٣) مَا أَيْ اسْكَنْتُ .

رَأَيْتُ هَيْلَةً نَائِمَةً عَلَى سِرِّيهَا، وَكُنْتُ الْأَحْظُ نَفْسَهَا الْمُحْتَقِقَ وَأَجْسُ نَبْضَهَا
الَّذِي دَلَّنِي عَلَى أَنَّهَا عُمُومَةٌ . وَاعْجَبًا ! إِخَالَنِي سَمِعْتُ صَوْتًا .

وَيْلَاهُ ! إِنَّهَا بَنِي وَنَسَأَمُ وَأَنَا بَعِيدٌ عَنْهَا . إِنَّمَا يُدْرِكُ ثِقَلُ وَطْأَةِ السَّجْنِ
وَيُحَسُّ بِضَيْقِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَاتِ الَّتِي تَغْلِبُ الْإِنْسَانَ فِيهَا حَيْرَتُهُ وَتَهْقُ نَفْسُهُ،
وَلَقَدْ كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ قُدُوةً لِزَوْجَتِي فِي الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ، فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ عَلَيَّ
فِيهَا السَّجْنُ عَلَى عَزَمِي فَأَنْتَنِي رَأْسِي وَانْجَرَحَ قُوَادِي بِمَا أَتَّقِيهِ مِنْ نَقِمِ الْقَانُونِ
الْبَشَرِيِّ .

لَوْ كَانَ حَقًّا مَا يُقَالُ : مِنْ أَنَّ فِي قُدْرَةِ الْأَمْوَاتِ أَنْ يَزُورُوا مَنْ كَانُوا يُحِبُّونَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَوَدِدْتُ أَنَّ أَمُوتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ حَتَّى أَرَاهَا . اهـ

الرسالة الرابعة والعشرون

(من الدكتور وَارِيْجَتُونِ إِلَى الدُّكْتُورِ إِرَاسْمَ فِي ١٢ يُولَيْهِ سَنَةِ ١٨٥٠)

البشارة بوضع إميل

أُبَشِّرُكُمْ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْبَرُّ بِفَلَامٍ جَمِيلٍ وَلَدَ لَكَ فِي السَّاعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ صَبَاحِ هَذَا
الْيَوْمِ بَعْدَ مَا قَامَتْهُ وَالِدَتُهُ مِنْ طَوِيلِ الْعَنَاءِ وَشَدِيدِ الْأَلَمِ . وَلَقَدْ كُنْتُ عَشِيَّةَ امْسِ
مُشْفِقًا مِنْ أَنْ يَحِلَّ بِهَا مَكْرُوهٌ لِبَعْضِ عِلَآمَاتِ بَدَنِهَا عَلَيْهَا، وَلَكِنْ قَدْ أَتَانَتْهَا قُوَّةُ
طَبِيعَتِهَا وَسَلَامَةٌ خَفِيَّتْهَا عَلَى النَّجَلَةِ مِنَ الْخَطَرِ وَأَصْبَحَتْ صِحَّتُهَا مِنَ الْجَوْدَةِ عَلَى مَا كُنَّا
نَرْجُوهُ لَهَا، وَأَمَّا الْفَلَامُ بِحُلٍّ مَا يَتَخَيَّرُهُ أَنْ يَسْهَى لِيُخَلِّدَ بِهِ ذِكْرَكَ وَسُلُوكَ بِنَاهَتِهِ قَدْرَكَ
وَيُعْظِمَ نَحْرَكَ .

وَهَذِهِ فُرْصَةٌ قَدْ أَتَتْهَا لِمُكَاشَفَتِكَ بِمَا فِي قَلْبِي لَكَ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَمَا
فِي نَفْسِي مِنْ جَوَازِبِ الْمِيلِ إِلَيْكَ وَرَجَائِكَ فِي أَنْ لَا تَنْزِلَ بِي عَلَى أَيْةِ خِدْمَةٍ يَلْزِمُ
لَكَ أَدَاؤُهَا، وَأَنْ لَا تَكُنَّ عَنِّي حَاجَةً يُعْوزُكَ قَضَاؤُهَا، إِنْ قِيلَ هَذَا الرَّجَاءُ اسْتَوْجِبَتْ
خَالِصَ شُكْرِي لِأَنَّكَ بِذَلِكَ تَكُونُ قَدْ بَرَّهْتَ لِي عَلَى أَنَّكَ لَمْ تَنْسَ صَدِيقَكَ الْقَدِيمَ .
نَحْنُ مَعَشَرَ الْإِنْجِلِيزِ مُتَهَمُونَ عِنْدَكُمْ بِأَنْ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْإِقْبَاضِ عَنِ النَّاسِ وَالِاحْتِرَاسِ
فِي مُعَامَلَتِهِمْ ، وَلَكِنْ رُبَّمَا كُنَّا خَيْرًا مِمَّا أَشْهَرْنَا ، وَإِنَّا عَلَى كُلِّ حَالٍ لَنَا قُلُوبٌ
تُعْطِفُ عَلَى الْبَائِسِينَ وَتُكْرِمُ الْمُنْكَوِبِينَ . اهـ

صَدِيقُكَ الْمَخْطُصُ

الرسالة الخامسة والعشرون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى لَارَاسَمَ فِي ٢ أَوْغُسْتُسَ سَنَةِ ١٨٥٠)

وَصَفَّ الْقَابِلَاتِ فِي إِنْجِلْتَرَةَ وَوَصِيَّةُ الدُّكْتُورِ وَارِنْجْتُونِ لَهَا بِالْعَنَاءَةِ بِمَوْلُودِهَا
لَا بُدَّ لِي أَنْ أَقْصِ عَلَيْكَ تَارِيخِي فِيمَا يُسَمِّيهِ الْإِنْجِلِيزُ : اعْتِكَافَ النَّفْسِ ،
مُتَرِمَةً فِي ذَلِكَ طَرِيقِ الْإِيْمَازِ فَأَقُولُ :

اسْتَأْجَرْتُ مُمْرَضَةً كَمَا هِيَ الْعَادَةُ هُنَا وَهِيَ أَمْرَأَةٌ وَاسِعَةُ الْخُبْرَةِ فِي أُمُورِ التَّمْرِيطِ
وَالْوِلَادَةِ ، أَرَأَيْكَ تَقْضِي مِنْهَا الْعَجَبَ لَوْ سَمِعْتَهَا تَتَكَلَّمُ فِي الْعَطَبِ وَالْجُرَاحَةِ وَالْقِيَامِ
عَلَى الْأَطْفَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَثَرَةِ دِرَاسَتِهَا فِيمَا يَلْزِمُ لِمَهْنَتِهَا . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ
يُوجَدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوَائِلِ فِي إِنْجِلْتَرَةَ قَلِيلَةٌ يَتِمَّهَا . وَعَمَلُنَّ فِي حَقِّ الْوَالِدَاتِ هُوَ

أَنْ يَرْضَدَنَّ مَنْ يَكُنْ مِنْهُمْ حَدِيثَاتِ عَهْدِ الْوِلَادَةِ إِلَى مَا يَعُودُ عَلَيْهِنَّ وَعَلَى أَوْلَادِهِنَّ
بِالنَّفْعِ، وَيُقَفِّدَنَّ مَا يَصِفُهُ الطَّبِيبُ مِنْ طُرُقِ التَّدَاوِي، وَعِنْدَهُنَّ بِحَسَبِ مَا يُسْمَعُ
مِنْهُنَّ عِدَّةٌ مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الدَّوَائِيَّةِ لِمُدَاوَاةِ بَعْضِ طَوَارِي الْعِلَلِ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا
الشَّفَاءُ، وَأَمَّا قِصَصُهُنَّ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فَلَهَا لَا تَفَادُ لَهَا، وَلَوْ أَنِّي اعْتَقَدْتُ صِدْقَ
كَلَامِهِنَّ فِي جَمِيعِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَدْعِينَ أَنَّهُمْ نَجَوْا عَلَى أَيْدِيهِنَّ مِنَ الْمَوْتِ لَبَطَّلَ
عَجْبِي مِنْ كَوْنِ إِنِجْلَتَرَةَ قَدْ وَجَدْتُ مِنْ أَبْنَائِهَا الْعِدَدَ الْكَافِيَ لِعِمَارَةِ أَسْرَائِلَ وَزِيَادَةِ
الْحَدِيدَةِ وَسَائِرِ مُسْتَعْمَرَاتِهَا .

وَأَتَى هُوَ عَلَى مَنْهُنَّ هِيَ - فَوْقَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الصِّفَاتِ - امْرَأَةٌ بَارِعَةٌ
ذَاتُ فَضْلٍ يَظْهَرُ أَنَّ صِفَةَ الْأُمُومَةِ الْعَامَّةِ قَدْ صَارَتْ غَرِيزَةً مِنْ غَرَائِزِهَا، وَهِيَ
قَصِيرَةٌ هَيَفَاءُ تُلَوِّحُ عَلَيْهَا سِمَاتُ الْإِسْتِقَامَةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ شَبَهَتْ فِي مَاضِيهَا -
كَمَا يُقَالُ - أَيَّامًا مِثْلَ فَلَانَا ^(١) كَانَتْ زَوْجَةً لِرَجُلٍ كَانَ مُلَاحِظًا لِلْأَعْمَالِ فِي أَحَدِ مَنَاجِمِ
كُورْنُوَايَ، وَقَتْلَ سَبَبٍ أُنْدِكَ ^(٢) هَذَا الْمَنْجَمِ فَتَرَمَلَتْ مِنْ بَعْدِهِ . وَقَدْ رَزَقَتْ هِيَ
أَيْضًا عِدَّةَ أَوْلَادٍ فَارْقَوْهَا مِنْ عَهْدِ بَعِيدٍ وَتَسْتَوُوا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ اتِّفَاءَ الرِّزْقِ - أَثْنَانِ
مِنْهُمْ مُلَاحِظَانِ صَالِحَانِ يَصِلَانِيَا حِينًا بَعْدَ حِينٍ بِصُنْدُوقٍ مِنَ الشَّيْءِ وَقِطْعَةٍ تَقْدِ مِنْ
الذَّهَبِ، وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ مُمَرِّضَةً فِي مُسْتَشْفَى كَبِيرٍ فَلَمْ تَقْبَلْ عَلَى مَا فِي
إِبَائِهَا مِنَ الْمُبَانِيَةِ لِمَصْلَحَتِهَا وَقَالَتْ : إِنِّي أَفْضَلُ أَنْ أَتَلَقَّى الْوَافِدِينَ إِلَى الدُّنْيَا
وَأَرْجُو لَهُمْ حَيَاةَ طَوِيلَةٍ فِيهَا عَلَى تَوْدِيعِ مَنْ يُفَارِقُونَهَا فِرَاقًا أَبَدِيًّا .

(١) مِثْلُ : أَيْ فَضْلٍ .

(٢) الْاِنْدَكَ : الْاِنْهَادُ .

كَانَ الدُّكْتُورُ وَارْتَجَتْهُ قَدْ أَوْصَى قَبْلَ سَفَرِهِ بِأَنْ يُؤَدِّتْ ^(١) بِذُنُوحِ سَاعَةِ الْوِلَادَةِ فَلَمَّا حَانَ الْوَقْتُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَكْتُوبٌ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ مِنْ لُنْدَرَةِ عَلَى أُنْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَضِرَّ نَبِيَّ الطُّنْقِ وَتَنْزِلَ فِي شِدَائِدِ الْمَخَاضِ وَأَهْوَالِهِ ، وَمِمَّا يُعْجِدُ فِي خِصَالِ الْإِنْجِيلِزِ أَنَّهُمْ إِذَا أَسَدَوْا إِلَى غَيْرِهِمْ مَعْرُوفًا لَا يَمْنُونُ عَلَيْهِ بِهَبْلٍ لَا يُظْهِرُونَ لَهُ أَنَّ قَصْدَهُمْ بِذَلِكَ خِدْمَتُهُ أَوْ إِسْدَاءُ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ رِقَّةٌ طَبِيعَ وَكَلِّ أَدَبٍ أَوْ كِبَرًا وَتَرْفَعًا عَنْ خِدْمَةِ سِوَاهُمْ ، يُنْكَرُ عَلَى مَا أَقُولُ أَنَّي لَمَّا شَكَرْتُ لِهَذَا الدُّكْتُورِ بِحَيْثُ وَتَرَكَهُ مَرْضَاهُ فِي لُنْدَرَةِ ، كَانَ جَوَابُهُ لِي أَنْ قَالَ : رُوبِيكَ فَإِنِّي مَا جِئْتُ مِنْ أَجْلِكَ وَإِنَّمَا جِئْتُ لِيَزَارَةَ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي ، فَهَذَا الْجَوَابُ يُعْتَبَرُ فِي رَأْيِنَا مَعَشَرَ الْمَرْئِسِيَّاتِ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ الظَّرْفِ ، وَبَعْدَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَارِئِسِيَّاتِ إِهَانَةً وَتَحْقِيرًا وَأَمَّا أَنَا فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَّا إِلَى قَصْدِ قَائِلِهِ وَهُوَ جَلِيلٌ ، فَإِنَّهُ عَلَى يَقِينِي بِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ بَحْثِهِ هُوَ غَيْرُ مَا يَقُولُ قَدْ أَرَادَ أَنْ يُقْنِعَنِي بِأَنَّ وُجُودَهُ عِنْدِي إِمَّا كَانَ اتِّفَاقًا لَا تَعْمَلًا ، فَلَا يَدَّ وَلَا مَنَّةَ لَهُ عَلَيَّ ، أَوْ أَنَّهُ إِنْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَلْبِغُنِي أَنْ يَتَمَدَّحَ بِهِ أَوْ أَنْ يَذْكُرَ .

ثُمَّ أَنَّهُ لَمْ يَقِفْ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيَّ عِنْدَ حَدِّ مَسَاعِدَتِي بِعَاقِبِهِ وَحَدِّقْهُ فِي فَنِّ التَّوَلِيدِ عَلَى النِّجَاحِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي كُنْتُ مُشْفِقَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ ، بَلْ قَدْ تَكْرَّمُ أَيْضًا بِأَنْ مَحْضَنِي النُّصْحَ شَانَ الصِّدِّيقِ مَعَ صَدِيقَتِهِ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلُودِ مِنْ ضُرُوبِ الْعِنَايَةِ فَقَالَ : إِنِّي أَخَاطِبُ الْآنَ غِرَّةَ لَا خِبْرَةَ عِنْدَهَا ، فَلَا تَدْهَشْ لِمَا سَأَلْتَنِي عَلَيْهِمَا مِنْ

أَفْكَارِي، فَإِنَّ أَقَلَّ مَزِيَّةٍ لَهَا أَنَّ أَسَاسَهَا التَّجَرِبَةُ وَالِاخْتِبَارُ. قَدْ تَبَّهَ كَثِيرٌ مِنْ رُصَفَائِي
أَفْكَارَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ إِلَى كَثَرَةِ عَدَدِ الْوَفَايَاتِ الْمُرَوَّعَةِ فِي الْأَطْفَالِ الْحَدِيثِ
الْعَهْدِ بِالْوِلَادَةِ وَيُمْكِنُ إِرْجَاعُ هَذِهِ الْبَلْوَى إِلَى عِدَّةِ أَسْبَابٍ كَفَافَةِ الْوَالِدَيْنِ وَفْسَادِ
أَخْلَاقِهِمَا وَعَدَمِ كِفَايَةِ أَقْوَانِهِمَا، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ أَحْصَى سَبَبٍ يَجِبُ أَنْ يُنْسَبَ
إِلَيْهِ ذَلِكَ هُوَ جَهْلُ الْأُمَمَاتِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِنَّ رِعَايَتُهُ فِي شَأْنِ أَوْلَادِهِنَّ، فَإِنَّ
الإِسَاءَةَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْعِنَايَةِ بِالْمَوْلِيدِ كَالْتَحَاذِهَا فِي غَيْرِ وَقْتِهَا أَوْ الْخَطَأَ فِي تَدْبِيرِهَا
لَا تَقِلُّ عَنْ إِهْمَالِ شَأْنِهِمْ شَوْماً وَسُوءَ مَقْيَّةٍ، وَإِنِّي لَسْتُ أَقْصِدُ هَهُنَا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى
الْأُمَمَاتِ أَنْ يَجْرِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْفِطْرَةُ جَرَى عِمَايَةٍ وَعَقْلَةٍ، فَإِنَّهُنَّ إِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ
بِعَصِيانِ اللَّهِ (سُبْحَانَهُ) يَتَحَلَّيْنِ عَنِ الْعَقْلِ الَّذِي لَمْ يَهَبْهُ لِهِنَّ إِلَّا لِمُرَاقَبَةِ سِرِّ الْفِطْرَةِ
فِي مَنَاجِيهَا وَإِقَامَتِهَا عَلَيْهَا إِذَا حَادَتْ عَنْهَا، وَإِنَّمَا أَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ الْأَوَاهِمَ وَالْعَادَاتِ
وَالْمَعَارِفَ الْفَاسِدَةَ هِيَ أَعْدَى أَعْدَاءِ الْمَوْلِيدِ فَيَجِبُ مُحَارَبَتُهَا وَمَحْوُوتَارُهَا، وَيَنْبَغِي
أَنْ تَعْتَقِدِي أَنَّنَا لَسْنَا أَسْوَأَ مِنْ غَيْرِنَا حَالًا فِي تَرْبِيَةِ مَوْلِيدِنَا لِأَنَّ شَعْبَنَا يَزْدَادُ زِيَادَةً
ظَاهِرَةً، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ صَافَتْ عَنْ سُكَّاهُ أَرْجَاءُ بِلَادِنَا، وَهَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ نُرْسِلُهُ أَقْوَابًا
إِلَى الْأَقْطَارِ السَّحْقِيَّةِ لِيَتَوَطَّنَهَا وَيَسْتَعْمِرَهَا، وَمِنْ هَذَا تَقْلِيلُ أَنْ أَزِيدَادَ الْأَجْنَاسِ
لَا يَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ عَدَدِ الْأَطْفَالِ الْمَوْلُودِينَ بَلْ عَلَى نِسْبَةِ عَدَدِ مَنْ يَتَخَطَّاهُمُ الْمَوْتُ
مِنْهُمْ، وَعِنْدِي أَنَّ هَذِهِ النَّبِيجَةَ الْحَسَنَةَ الدَّاعِيَةَ إِلَى الْإِغْتِيَاطِ فِي بِلَادِنَا تَرْجِعُ إِلَى
ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: وَهِيَ اسْتِعْدَادُ الدِّمِ الْإِنْجِلِيزِيِّ السَّكُونِيِّ لِلْحَيَاةِ . وَانْطِبَاحُ نِسَائِنَا عَلَى
حُبِّ بَيُوتِهِنَّ وَالْعِنَايَةِ بِهَا . وَمَا لِدَوَى الْعُقُولِ الْمُسْتَضْيِئَةِ بِنُورِ الْعِرْفَانِ مِنْ عُلَمَائِنَا

مِنَ النَّائِبِ فِي تَقْوِيسِ الْعَامَةِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ تَطْلُيسِ الْأَطْبَاءِ الطَّائِرِى الصَّبِيتِ عِنْدَنَا
لَمْ يَأْنِفُوا أَنْ يَهْوُمُوا بِثَبَّتِ الْأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَرَءِ السَّيْدِيَّةِ فِي قَنِّ الْقَبِيعِ عَلَى
الْمَوْلِيدَيْنِ أَفْرَادِ الشَّعْبِ . وَلَمْ يَكِدِ الدُّكُورُ يَهْرُغُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى بَاشَرَ الْعَمَلِ
بِنَفْسِهِ وَرَتَّبَ مَا رَأَهُ غَيْرَ مُرْتَبٍ فِي غُرْفَةِ تَقْوِي ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ وَجَدَ مَهْدَ (إِمِيل)
قَدْ وُضِعَ خَطَأً تَحْتَ الشُّبَالِكِ فَغَيَّرَ وَضْعَهُ وَقَالَ لِي : إِنِّي رَأَيْتُ أَطْفَالًا أَصْبَحُوا
عُمِيًّا أَوْ حَوْلًا بِسَبَبِ تَعْرِضِهِمْ بَعْدَ وَلَادَتِهِمْ بِأَيَّامِ لُضُوءِ شَدِيدٍ . هَذَا وَسَائِغُكَ
بِنَصَائِحِ أُخْرَى وَعَيْتَهَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ لِمَا رَأَيْتُهُ فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْحِكْمَةِ
وَالسَّادِدِ وَلَمْ أَخِلْ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَمَّا لَمْ لَا أَرْتَابُ فِي أَنَّهُ قَدْ تَكَلَّفَ مِنَ الْمَشَقَّةِ
وَالْعَبِّ مَا لَمْ يَتَكَلَّفْهُ لِعَمْرِي مِنَ النِّسَاءِ اللَّائِي يُدْعَى لِنَتَوَلِيدِهِنَّ وَعَامَلَنِي كَمَا يُعَامِلُ
الرَّجُلُ زَوْجَةَ صَدِيقِهِ . عَلَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَكْثَرُوا لِهَذَا الْأَطْبَالِ الْمَوْلِيدِينَ هُنَا
لَا يَرُونَ أَنَّ عَمَلَهُمْ قَدْ تَمَّ بِمُجَرَّدِ انْتِهَاءِ الْوِلَادَةِ بَلْ يُرِيشُونَ الْوَالِدَةَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى
جَمِيعِ مَا يَلْزِمُهَا فِي تَرْبِيَةِ وَلِيدِهَا . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

(مِنْ هَيْلَانَةِ آلِ إِرَاسَمَ فِي ٣ أَوْغُسْطُسِ سَنَةِ ١٨٥٠)

مُشَابَهَةٌ «إِمِيل» لِأَسِيَّةٍ وَحِكَايَةٌ فِي الْمَسَائِلِ بَيْنَ صُورِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ

كُلَّمَا رَدَدْتُ النَّظَرَ إِلَى «إِمِيل» رَأَيْتُ مَنَّاكَ مُحَقَّقًا فِيهِ ، وَلَا بُدَّ لِي أَيْهَا
الْعَزِيزُ إِرَاسَمُ أَنَّ أَحَدِي لَكَ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةَ حِكَايَةَ طَبَقَ ذِكْرُهَا الْآفَاقَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي

أَسْكَنَهُ. ذَلِكَ أَنَّ قَسِيصًا بَرْوَسَنَدِيًّا قَاطِنًا فِي جَنُوبِ إِنْجَلْتِرَّةٍ وَجَدَ اتِّفَاقًا فِي كُورُنَوَايَ
يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ فَطَلَبَ أَنْ يَزُورَ قَصْرًا عَتِيقًا جَدًّا فِي ضَيْعَةٍ هُنَاكَ كَانَتْ لِأَسْلَافِهِ
فِي غَايِرِ الْأَزْمَانِ وَلِذَلِكَ كَانَ كَثِيرَ الْأَهْيَامِ بِرُؤْيَاهِ أَمَّا كِتَابُهَا، فَلَمَّا حَلَّ بِهَا مَلَأَهُ الْعَجَبُ
وَأَخَذَ مِنْهُ الْإِنْدِعَاشُ كُلَّ مَا خَذَ إِذْ رَأَى فِي الرَّوَاقِ الْمُعَلَّقَةِ فِيهِ صُورَ أَهْلِ هَذَا
الْبَيْتِ السَّالِفِينَ صُورَةً كَانَتْ تُعْتَلُّ بِدَائِهِ مَرْسُومًا عَلَى نَسِيجٍ قَدِيمٍ لَا يَسِيحُ قَدِيمٌ لَا يَسِيحُ عُدَّةُ الْحَرْبِ
كَمَا كَانَتْ سُنَّةُ النَّاسِ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى، لَا يَمْلَأُ السُّودَاءُ الَّتِي يَلْبَسُهَا الْيَوْمَ،
وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَأَمَّلُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ وَفِيهَا يَلِكُهَا مِنَ الصُّورِ إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى صُورَةٍ
أُخْرَى زَادَتْهُ اِرْتِبَاعًا وَدَهْشَةً فَتَقَهَّقَرَ خُطَوَتَيْنِ إِلَى الْوَرَاءِ وَهِيَ صُورَةُ مُثَلِّ ابْنِهِ
الْيَكْرَ وَهُوَ قَتَى فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمرِهِ وَكَانَ مَعَهُ فِي هَذَا الرَّوَاقِ . فَمَآذَا تَظُنُّ
فِي هَذِهِ الصُّورِ الْوَرَاثِيَّةِ ؟ وَأَمَّا أَنَا فَلَوَّيْ أَكَادُ أَفْرَعُ عِنْدَ مَا أَتَصَوَّرُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ
الْأَحْيَاءِ يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَابْنَهُ فِي تَخْصِيصِ مَجْهُولَيْنِ مِنْ أَهْلِهِ مَاذَا مِنْ عِدَّةِ قُرُونٍ .
فَلَيْتَ شِعْرِي ! هَلْ نَحْنُ رَاجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ الْفَنَاءِ كَمَا رَوَى لَنَا التَّارِخُ
ذَلِكَ عَنْ يَوْمِ مُنُونٍ بِالرَّجْعَةِ وَالتَّنَاسُخِ ؟

الرسالة السابعة والعشرون

(مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٤ آغُسْطُسَ سَنَةِ - ١٨٥)

طَلَبْنَا أَنْ « أَمِيل » أَنْتَا يَعْرِفُهَا وَبَيَانُ فَضْلِهِ طَلَبْنَا فِي تَحْسِينِ خُلُقِهَا
لَا أَزَالُ أَشْعُرُ فِي نَفْسِي بِكَثْرَةِ الضَّغْفِ حَتَّى إِنِّي فِي تَحْرِيرِ هَذَا الْمَكْتُوبِ
إِلَيْكَ لَمْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَكْتُبُهُ مَرَّةً وَاحِدَةً بَلْ كُنْتُ أَرَاوِحُ فِيهِ بَيْنَ الْكِتَابَةِ وَالْإِسْتِرَاحَةِ

عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، فَقَدْ كُنْتُ لَزِمْتُ الْفِرَاشَ اثْنَى عَشَرَ يَوْمًا مُوَافَقَةً لِلْمَادَةِ الْمُتَّبَعَةِ فِي مُعْظَمِ
جِهَاتِ انْجِلْفَرَةٍ ، وَالْآنَ أَصْبَحْتُ قَادِرَةً عَلَى الْقِيَامِ وَالْمَشْيِ فِي الْبَيْتِ قَلِيلًا وَصَرْتُ
مِثْلَكَ أُجْبِلُ نَاطِرِي وَفِكْرِي وَأَسْبِغُ بِهِمَا فِيمَا حَوْلِي ، وَإِنِّي أَجِدُ لَذَّةً فِي حَبْسِي
لَأَنِّي أَنُورِي بِهِ مَشَارَكَتَكَ فِي حَبْسِكَ .

أَرَانِي لَا أَكُونُ وَاهِمَةً إِنِ حَسِبْتُ أَنَّ إِيمِيلَ مَا لَيْتَ أَنَّ عَرَافِي . فَإِنِّي لَا أُجِيزُ
لِنَفْسِي مُطْلَقًا أَنْ تَتَقَيَّدَ أَتَى لَسْتُ فِي نَظَرِهِ « إِلَّا تَذْيًا مَمْلُوءًا لَبَنًا » عَلَى قَوْلِ أَحَدِ
الْعُلَمَاءِ . عَلَى أَتَى اعْتَرَفَ اعْتِرَافًا تَامَ الصَّرَاحَةِ بِأَنَّ هَذَا الْمَوْلُودَ الضَّعِيفَ الَّذِي
يَكَادُ يَكُونُ جَمَادًا مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ كَثِيرًا مِنْ غَيْرِهِ وَلَا يَكَادُ يُعْطَى شَيْئًا . نَعَمْ
إِنَّ لَنَا فِيهِ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَنْشِرَاحَ صَدْرٍ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا اخْتِبَارُهُ فَهُوَ كَالْزَهْرَةِ
تَرْتَاحُ لَهَا النَّفْسُ وَيَتَهَيَّجُ بِرُؤْيَيْهَا النَّاطِرُ عَلَى غَيْرِ إِرَادَةٍ مِنْهَا وَلَا قَصْدٍ ، وَمَهْمَا
كَانَتْ حَالُهُ فَإِنَّا أَشَدُّ مِنْهُ أَتَرَةً لِأَنِّي أَنَا الْمُغْتَبِطَةُ بِحَبْسِي إِيَّاهُ ، ثُمَّ إِنِّي كَيْفَ يَسْمَعُنِي
أَنْ أَرْتَابَ فِيمَا لَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى فَإِنَّهُ قَدْ أَعَادَ لِي سَكِينَتِي وَكَفَّفَ عَنِّي مَا كُنْتُ
أَجِدُهُ مِنْ غُرْبِي ، ذَلِكَ أَنَّ خُلُقِي — وَلَا أَخْفِي عَلَيْكَ — قَدْ خَالَطَهُ مِنْ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ
شَيْءٌ مِنَ الْحِدَّةِ بِسَبَبِ الْعُزْلَةِ وَالْإِعْتِرَابِ ، وَمِنْ هَذَا تَعَلَّمُ الْعِلَّةَ فِي غَضَبِي عَلَى
جُورِيَّةٍ قَبْلَ الْآنَ بِأَيَّامٍ ، عَلَى أَنَّهَا أَحْسَنُ النِّسَاءِ وَأَكْثَرُهُنَّ الْفِقَاتَا لِوَأَحِبَّاهَا . وَحَقِيقَةُ
الْأَمْرِ أَنَّهَا تَسْتَقْبِلُ الْقَابِلَةَ وَلَا تُطَبِّقُ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَيُوجِدُهَا عَلَيْهَا أَنْ تَرَاهَا قَدْ اسْتَحَقَّتْ
نَصِيبًا مِنْ شُكْرِي لِأَنَّهُ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ لِمَنْ يَنْجِمُنَا . فَهَذِهِ الْغَيْرَةُ

(١) الغرب : الحدة .

(٢) يوجد بها فضها .

الْمُنْبَعِثَةُ مِنْ قَلْبِ مُحْلِسٍ لَمْ يَسْتَضِئْ بِنُورِ الْعِلْمِ هَاجَتْ غَضَبِي عَلَيْهَا فَلَمْ أَسْتَطِعْ كَظْمَ غَضَبِي وَلَا كَفَّ بَوَادِرِ لِسَانِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ . فَمَا كَانَ أَشَدَّنِي انْدِهَاشًا وَارْتِياعًا إِذْ ذَاكَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُ أَفْرُغُ مِنْ تَقْرِيعِهَا حَتَّى أَبْصَرْتُ وَجْهَ أَمِيلٍ قَدْ صَارَ أَحْمَرَ كَالْأَرْجَوَانِ وَطَفِيقٌ يَصْرُخُ صُرَاخًا شَدِيدًا . فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِلْتُ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ انْفِعَالَاتِ الْأُمِّ تُؤَثِّرُ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ فَيَكُونُ بِكَأَوِهِ وَتَغْيِيرِهِ رَجْعًا لِمَصْدَاقِهَا .

وَسَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا الْإِعْتِقَادُ صَحِيحًا أَمْ فَاسِدًا فَقَدْ عَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى أَنْ أَعْتَبِرَ بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، وَأَصْبَحْتُ الْآنَ كُلَّ مَا عَرَضَ لِي مَا يَكَادُ يَذْهَبُ بِحُلُمِي أَنْظُرُ إِلَى إِمِيلَ فَيَسْكُنُ غَضَبِي عَلَى الْقَوْرِ إِجْلَالًا لَوْلَدِي ، وَإِذَا كُنْتُ قَدْ صِرْتُ أَحْسَنَ خُلُقًا وَأَوْسَعَ صَدْرًا وَأَمْلَكُ لِنَفْسِي مِمَّا كُنْتُ قَبْلُ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بِسَبِيهِ وَيُسْمِنُ وَجُودِهِ . اهـ

الرسالة الثامنة والعشرون

(مِنْ هَيْلَاةٍ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٥ أَوْغُسْطُسَ سَنَةِ - ١٨٥)

سُؤَالُهَا إِيَّاهُ عَنْ حَقِيقَةِ التَّرْبِيَةِ وَزَمَنِ بِدَايَتِهَا وَنَهَايَتِهَا
تَلَقَّى الدُّكْتُورُ وَارْتِمَجْتُونُ مَكْتُوبَكَ وَأَطْلَعَنِي عَلَيْهِ فَرَأَيْتَكَ قَدْ تَجَنَّبْتَ عَلَى نَفْسِكَ إِذْ قُلْتَ : إِنَّكَ مُلُومٌ عَلَى مَا جَلَبَهُ لِي تَعَبُ حَقِّكَ مِنَ الْخُمُولِ وَالذَّلِّ ، وَإِنَّكَ لَسْتَ

(١) الأرجوان : مادة حمراء تستخرج من نوع من الحمار يصنع بها .

(٢) هذا المكتوب لم يشرطه .

(٣) تجنبني عليه ادعى عليه ذنبا لم يفعله .

جَدِيرًا بِأَنْ تَكُونَ وَالِدًا . رُوَيْدًا ، هَوْنٌ عَلَيْكَ الْخَطْبَ فَإِنِّي مِنْ عَهْدٍ أَنْ جَمَعْتَنَا
عُقْدَةَ النِّكَاحِ كُنْتُ رَاضِيَةً بِكُلِّ مَا وَقَعَ لَنَا فَهَلْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّي كَمَا تَقُولُ نَاشِئًا مِنْ
شَرَفِ نَفْسِي أَوْ مِنْ رِعَايَةِ وَاجِبِي ! لَا ! بَلْ كَانَ سَبَبُهُ مَا فِي قَلْبِي لَكَ مِنْ صَاحِقِ
الْحُبِّ وَخَالِصِ الْوُدِّ . فَمِنْ الْحُبِّ وَالْعَارِ أَنْ تَأْسَى الْيَوْمَ عَلَى مَا قَدْ كَانَ ، وَاعْلَمْ أَنِّي
لَسْتُ أَشْكُو أَبَدًا مَا ابْتَلَيْنَا بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْحَيْنِ ، بَلْ أَزْهَى بِهَا وَافْتَخَرُ بِاحْتِمَالِهَا ،
وَأَمَّا وَلَدُنَا فَقَدْ آتَى لَنَا — عَلَى مَا أَرَى — أَنْ نَسْرَعَ فِي تَرْبِيَّتِهِ ، فَأَمِي التَّرْبِيَّةُ
وَمَتَى تَبْدِئُ وَمَتَى تَنْتَهِي ؟ أَنَا فِي انْتِظَارِ جَوَابِكَ عَنْ ذَلِكَ .

حَاشِيَةٌ — إِمِيلٌ مُسْتَفْرِقٌ فِي نَوْمِهِ وَقَدْ قَبْلَتْهُ قَبْلَتَيْنِ فِي وَجْنَتَيْهِ عَلَى حَبِّكَ . اهـ

الكتاب الثاني

في الولد

الرسالة الأولى

(من إرثم إلى هيلانة في ١٠ أغسطس سنة ١٨٥٠)

بَيَانُ الصُّعُوبَةِ فِي تَحْدِيدِ زَمَنِ بَدَايَةِ التَّرْبَةِ وَنَهَايَتِهَا وَتَعْرِيفُ التَّرْبَةِ

تَسَالَيْتَنِي فِي خَاتِمَةِ رِسَالَتِكَ الْأَخِيرَةِ عَنِ التَّرْبَةِ مَتَى يَكُونُ ابْتِدَاؤُهَا فَأَقُولُ :

يَصِحُّ أَنْ يُبْتَدَأَ فِيهَا قَبْلَ الْوِلَادَةِ زَمَنٍ طَوِيلٍ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُحَقِّقِ الَّذِي لَا مَسَاحَ

لِلرَّيْبِ فِيهِ أَنَّ فِي أَجْيَالِ الْبَشَرِ أَنْوَاعًا مِنَ الْأَسْتِعْدَادِ الْوَرَائِي تَنْتَقِلُ مِنَ الْآبَاءِ إِلَى

الْأَبْنَاءِ ، فَأَبْنُ الْمُتَوَحِّشِ يُولَدُ مُتَوَحِّشًا وَيُولَدُ الْبَرِّ يَرَى يَخْلُقُ بَرًّا وَمَنْ كَانَ مِنْ

أَبَوَيْنِ مُتَمَدِّنَيْنِ فَإِنَّهُ يُولَدُ مُهَيَّأً لِلتَّمَدُّنِ .

كُلُّ مَنْ عَرَفَ ذَلِكَ يَرَى فِيهِ أَنَّ هُنَاكَ قُوَى سَابِقَةً لِنُحْلُقِ الْحَيَاةَ فِي الْإِنْسَانِ

تُحَدِّدُ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ دَرَجَةَ مَلَكَاتِهِ وَمَقْدَارَهَا نَوْعًا مِمَّنِ التَّحْدِيدِ . وَمَا نُسَمِّيهِ

بِالتَّصَوُّرَاتِ الْفَرِيضَةِ وَالْقُوَى الْحَدْسِيَّةِ وَالْمَوَاهِبِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْفَيْضِ الْخَفِيِّ وَغَيْرِهَا

رُبَّمَا لَا يَكُونُ شَيْئًا آخَرَ سِوَى مَا تَوَارَثَهُ مِنْ حَالَةِ الْعُمُرَانِ ، أَعْنَى نَتِيجَةِ عَمَلِ الْعَقْلِ فِيمَنْ سَبَقْنَا مِنَ الْقُرُونِ ، فَتَحْنُ الرَّاجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ الْفَنَاءِ كَمَا تَقُولِينَ .
إِنْ ظُهُورَ أَثَرِ أَعْمَالِ السَّالِفِينَ وَأَفْكَارِهِمْ فِي إِحْدَى مَتَانِي مُخِّنَا عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنَّا وَتَسْقُلُ الْمَادَّةُ الْحَيَّةُ مِنْ قَرْنٍ إِلَى قَرْنٍ مُرْتَبِئَةً عَلَى الدَّوَامِ فِي صُورِهَا بِعَمَلِ الْعَقْلِ ، وَخُرُوجَ الْمَوْلُودِ مِنْ غِيَابَةِ الرَّحِمِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ بِأَعْضَاءِ كُلِّهَا التَّقَدُّمَ وَسَوَاهَا التَّرَقُّى - بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ النُّمُوِّ الَّتِي يَصْحُحُ مَلَاحَظَتُهَا فِي التَّرْبِيَةِ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ عَزَائِمُنَا لَيْسَ لَهَا عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ أَذْنَى سُلْطَانٍ لِعُمُومِهَا وَخُرُوجِهَا عَنْ حَدِّ الضَّبْطِ كَانَ مِنَ الْعَبَثِ الْبَحْثُ فِيهَا .

لَكِنْ هُنَاكَ أَحْوَالًا طَبِيعَةً يَتَأَنَّى لِلْعِلْمِ فِيهَا أَعْتَقِدُ أَنَّ يَتَنَوَّلُهَا وَيُغَيِّرُهَا خِلَافًا لِلْأَسْبَابِ الْمَذْكُورَةِ . فَلَا نَتَى بِمَنْعِ الْمُشْتَفِلِينَ بِعِلْمِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ - مَثَلًا - أَنْ يَصِلُوا يَوْمًا مَا إِلَى تَحْدِيدِ مَا لَيْسَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَحَالَتُهُمَا الصَّحِيَّةُ وَطَرِيقَتُهُمَا الْغِذَائِيَّةُ مِنَ التَّأثيرِ فِي التَّنَاسُلِ . وَقَدْ وَجَّهَ فَرِيقٌ مِنْ قَائِمِي هَذَا الْعِلْمِ الذَّائِمِي الصَّبِيحِ أَنْظَارَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ وَأَعْمَلُوا أَفْكَارَهُمْ فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا أَدْرَكُوهَا وَتَقَرَّرَ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مِنْ ثَمَرَاتِهِ صَارَ عِلْمُ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ قَرَعًا مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ التَّرْبِيَةِ النَّفْسِيَّةِ .

(١) هذا وهم باطل فلا يصح اتخاذ التشابه الواقع بين صورة ميت مضى عليه جيل أو أجيال وبين صورة حي من الأحياء دليلاً على الرجعة إلى الدنيا بعد الفناء : فإن فظة واحدة من ظلمات التشابه لا تكون قاعدة يبنى عليها حكم كهذا مخالف للعقل والنقل على أن مجرد التشابه الحسى على فرض حصوله من جميع الوجوه لا يكتفى وحده للاستدلال به على صحة هذا الحكم ، بل لا بد من التشابه المعنوى أيضاً في كل شيء من الأخلاق والأفكار والمواطف مع استفاضة هذا التشابه بل الاتحاد في كثير من الأفراد وشيوعه وهذا ما لم يقل به أحد يعتد برأيه - المترجم .

إِذَا عَلِمْتَ بِمَا قَدَّمَ أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا تَحْدِيدُ الزَّمَنِ الَّذِي تَبْدَأُ فِيهِ
التَّربِيَّةُ أَفْضَحَ لَكَ أَنَّ تَعْيِينَ الْوَقْتِ الَّذِي تَنْتَهِي فِيهِ أَصْعَبُ وَأَكْثَرُ مُجَازَفَةً لِأَنَّهُ
تَسْتَعْرِضُ الْعُمُرَ كُلَّهُ ^(١).

وَأَمَّا حَقِيقَةُ التَّربِيَةِ - وَهِيَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَسْأَلِينَ عَنْهُ - فَنَ الْمَبْسُورِ لِي أَنَّ
أُجْبِيكَ عَنْهَا جَوَابًا سَدِيدًا وَهُوَ : أَنَّهَا - عَلَى مَا يُؤْخَذُ مِنْ مَعْنَى لَفْظِ التَّربِيَةِ
اللُّغَوِيِّ - عِبَارَةٌ عَنْ تَكْوِيلِ عَقْلِ النَّاشِئِ وَتَهْدِيبِ نَفْسِهِ بِإِظْهَارِ جَمِيعِ مَا اسْتَكَرَّ
فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الْإِسْتِعْدَادِ وَأَنْوَاعِ الْقُوَى وَإِعْمَالِهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ مَاخُذٌ مِنْ
رَبِّ أَيِّ زَادَ وَمَا، لِكُنِّي خَشْيَةَ أَنَّ تَحَالِي فِي هَذَا التَّعْرِيفِ لَهَا مَا أُعْجِلُ بِكَشْفِ
مَعْنَاهُ وَتَقْرِيرِهِ إِلَى ذِهْنِكَ فَأَقُولُ :

أَرَادَ جَمْهُورُ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ بِالتَّربِيَةِ الْوُصُولَ إِلَى مَا تَصَوَّرُوهُ فِي الْإِنْسَانِ مِنْ
مَعْنَى الْكَمَالِ، فَعَرَضَهُمْ مِنْهَا إِيجَادُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ وَهُوَ غَرَضٌ يَظْهَرُ لِأَوَّلِ نَظَرَةٍ
أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلْعَقْلِ تَمَامَ الْمُوَافَقَةِ لِكُنْهُ مَثَارٌ لِاعْتِرَاضَاتٍ كَثِيرَةٍ . فَلِقَائِلُ أَنَّ يَقُولُ :
إِنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ لَيْسَ لَهُ إِلَّا صُورَةٌ خَيَالِيَّةٌ لَا تَحَقِّقُ لَهَا فِي الْوُجُودِ الْخَارِجِيِّ
قَطْعًا، فَتَحْنُ إِذْنُ تَحْمِلُ بِهِ كُلَّ عَلَى حَسَبِ تَصَوُّرِهِ . فَإِنَّا وَالنَّشِئُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ
الْوَهْمِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُ بِهَا الْخَيَالُ أَنَّ يَتَغَلَّبَ عَلَى الْوَاقِعِ الْمُحَقِّقِ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَيْسَرُ عَلَيْنَا
مِنْ تَحْمِيلِ ذَاتِ عَاقِلَةٍ وَنَفْسٍ بِالْآلَافِ مِنْ نُوعَاتِ الْكَمَالِ الْخَيَالِيَّةِ حَتَّى تَكُونَ نُمُودَجًا

(١) هذه حقيقة ثابتة يشهد لها العقل ويصدقها الوجدان وتقتضها طبيعة الانسان فانه نظر عاجزا
نافس الادراك محتاجا الى تمية ملكاته وتكامل قواه بالنظر في ملكوت السموات والارض والاعتبار باحوال
المخلوقات وعمره اقصر من ان يبلغ به الكمال في شيء من ذلك - المترجم .

لِجَمِيعِ الْفَضَائِلِ ، وَلَكِنْ مَنْ لَنَا بِإِنزَالِ هَذِهِ الذَّاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِبْرَازِهَا لَنَا إِلَى عَالَمِ الظُّهُورِ .

مِثْلَ هَذَا الْاِعْتِرَاضِ عَلَى مَسْأَلَةِ التَّرْبِيَةِ يَكُونُ وَجِبْهًا لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَانَ ذَاتًا وَاجِبَةً الْوُجُودِ . لَكِنَّا فِي الْحَقِيقَةِ نَرَاهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ مُتَغَيِّرًا لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِنَّهُ وَهُوَ فِي الرَّحِمِ تَنَاقُوبُهُ أَطْوَارٌ جَنِينِيَّةٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ مَا يَتَقَدَّمُ وَلَدَتُهُ مِنَ الْحَوَادِثِ ، وَإِنَّمَا أَقُولُ : إِنَّ حَيَاتَهُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَيْسَتْ إِلَّا سِلْسِلَةٌ اسْتِحَالَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ فِي الْحُصُولِ مُرَّةً وَبَعْطًا . أَظْهَرِي إِلَى شَعْرِهِ (الَّذِي لَا يُوجَدُ عَادَةً حِينَ الْوِلَادَةِ) كَيْفَ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَإِلَى لَوْنِ جَسَمِهِ وَبَسْمَاتِ وَجْهِهِ وَبَنِيَتِهِ كَيْفَ تَتَجَدَّدُ كُلَّمَا كَبُرَ . تَأَمَّلِي فِي الْعِلَاقِ الصَّغِيرِ عِنْدَ مَا تَبْتَدِئُ تَنَاقُوبَهُ الْبَنِيَّةَ بِالزَّوَالِ يَجِدِيهِ قَدْ صَارَ شَيْعًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى ابْنِ الرَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ الَّتِي لَا تَزَالُ لَنَتِهِ مُحَلَّةٌ بِجَمِيعِ لَآئِيهَا ، فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ (سُبْحَانَهُ) لِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ فِي دَوْرِ عُمُومِهَا أَعْضَاءَ وَقْتِيَّةً ثَلَاثِي بَعْدَ انْقِضَاءِ مُدَّتِهَا ، وَأَعَدَّ لَهَا أَعْضَاءَ أُخْرَى تَتِمُّ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لِتَخْلُفَ الْأَوَّلَى . كَذَلِكَ الْقُوَى الْجَسَدِيَّةُ وَالْمَلَكَاتُ النَّفْسِيَّةُ تَتَعَاقَبُ وَيَخْلُفُ بَعْضُهَا بَعْضًا عَلَى نِظَامٍ مُعْدُودٍ ، فَإِنَّ الْمَوْلُودَ يَدُوقُ قَبْلَ أَنْ يُبْصَرَ وَيُبْصَرَ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ ، وَالذَّاكِرَةُ فِيهِ تَسْقِي الْقُوَّةَ الْحَاكِمَةَ ، وَوَجَدَانُهُ يَكُونُ قَبْلَ فِكْرِهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ . فَالْحَيَاةُ مِنَ الْوِلَادَةِ إِلَى الشَّبَابِ وَمِنَ الشَّبَابِ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ مَظْهَرُ قُوَى تَتَعَاقَبُ وَيُعْدِي بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَالْإِنْسَانُ مِنْ مَهْدِهِ إِلَى لَحْدِهِ يَسْلُكُ طَرِيقًا تَفَرَّقَتْ فِيهِ رُفَاتُهُ وَبَدَّدَتْ فِي جَوَانِيهِ بَقَايَاهُ .

أَنِّي يَكُونُ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ مَوْقِفٌ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ ، وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى غَايَةِ نَتَاجِئِ إِلَيْهَا ؟ فَالَّذِي أَرَاهُ هُوَ أَنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ ، وَأَنَّ أَهْمَّ مَا تَحِبُّ بِهِ الْعِنَايَةُ فِي عِلْمِ التَّرْبِيَةِ هُوَ اخْتِيَارُ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ سِنٍّ مِنْ أَنْفَعِ طُرُقِ النُّمُوِّ وَامْتِلَاقِهَا فَأَنَا الْآنَ أَقْصِرُ عَلَى الْكَلَامِ عَنِ التَّرْبِيَةِ فِي زَمَنِ الطُّفُولِيَّةِ ١٠ هـ

الرسالة الثانية

(مِنْ إِمَارَتِهِ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ١١ أَوْغُسْطُسَ سَنَةِ ١٨٥٠)

عَمَلُ الْأُمِّ فِي الشُّهُورِ الْأُولَى مِنْ حَيَاةِ الطِّفْلِ وَانْتِقَادُ مَا يَفْعَلُهُ الْأُمَهَاتُ بِأَطْفَالِهِنَّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ

إِعْلَمِي أَنَّ تَرْبِيَةَ الطِّفْلِ فِي الْأُسْبُوعَيْنِ الْأُولَيْنِ مِنْ حَيَاتِهِ بَلْ يَصِحُّ أَنْ أَقُولَ فِي الشُّهُورِ الْأُولَى مِنْهَا تَكَادُ تَنْحَصِرُ فِي مُجَرَّدِ وَقَائِتِهِ مِمَّا عَسَى أَنْ يُؤْذِيَهُ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ الْخَارِجَةِ ، فَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى نَوْعٍ مِنْ انْتِظَارِ الْفِطْرَةِ وَمُرَاقَبَتِهَا فِي عَمَلِهَا وَإِعَاتِهَا عَلَيْهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ .

الْمَوْلُودُ يَدْخُلُ عِنْدَ وَلَادَتِهِ فِيمَا أَصْطَلَحَ عُلَمَاءُ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِالْحَيَاةِ الْمُسْقِلَةِ وَلَكِنْ مَا أضعَفَ اسْتِقْلَالَهُ وَأَقْلَّ حُرِّيَّتَهُ فَأَنَّهُ بِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنْ غَيْرِزَةِ التَّنْصُدِ لَا يَكَادُ يَرَى إِلَّا مُتَقِمًا تَدَى أُمِّهِ ، فَتَكُونُ مَعَهُ كَالْفَضْلِ الْمُطْعَمِ بِأَخْرَ ، فَهُوَ إِذَنْ تَابِعٌ لِفَيْرِهِ فَفَيْرُهُ إِلَيْهِ فِي غَدَائِهِ وَسَدِّ حَاجَاتِ مَعِيشَتِهِ الْمَادِّيَةِ ، وَمَا أَخْفَى مَعْنَى الْإِسْتِقْلَالِ وَأَشَدَّ إِهْمَامِهِ فِيهِ وَهُوَ فِي هَذَا الطَّوَرِ مِنَ الْحَيَاةِ !

فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَقْمُورًا فِي شَيْءٍ مَحَابَةِ مِنَ الْجَهَالَةِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَوَّلُ أَمْرِهِ عَلَى مَا بَرَى
 مِنْ حَالِهِ أَتَى إِدْرَاكَ ظَاهِرٍ لَمَّا يَضْطَرُّ حَوْلَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ . مَسْكِبُ ذَلِكَ
 الْمَوْلُودُ الْأَعْمَى ! فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ نَدَى أُمِّهِ إِلَّا يَتَلَمَّسُهُ ، نَعَمْ إِنَّ لَهُ عَيْنَيْنِ لَكِنْ لَا يُبْصِرُ
 بِهِمَا وَأُذْنَيْنِ لَكِنْ لَا يَسْمَعُ بِهِمَا وَيَدَيْنِ لَكِنْ لَا يَعْرِفُ أَنْ يَبْطِشَ بِهِمَا . هَذَا
 الْمَوْلُودُ الَّذِي هُوَ وَثَنٌ لِأُمِّهِ تَبَدُّهُ وَتَحْصُهُ بِفَرْطِ مَحَبَّتِهَا قَرِيبُ الشُّبْهِ بِالْإِلَهَةِ الرَّحْمَنِ ^(١)
 الَّذِينَ تَخَرَّجَتْ مِنْهُمْ التَّوْرَةُ ، لِكُنْهٖ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الضَّعِيفِ وَالْعَجْزِ قَدْ عَاهَدَ إِلَيْهِ
 عَمَلُ دُوشَانٍ يُؤَدِّيهِ فِي الْعَالَمِ أَلَا وَهُوَ التَّمُورُ .

يَكَادُ عَمَلُ الْأُمِّ يَتَنَبَّهَ إِلَى عَدَمِ إِعَاقَةِ هَذَا الْعَمَلِ الْفَطْرِيُّ الْخَفِيُّ وَالْتَحَرُّزُ
 مِنْ تَشْوِيشِهِ ، وَإِنِّي طَالَمَا أُعْجِبْتُ بِمَا تَهْدِيهِ إِلَيْهَا أُنْثَى الطَّيْرِ مِنَ الْأَسْوَةِ الْحَسَنَةِ ،
 فَإِنَّهَا لَشَدَّ مَا تَعْنِي بِحَبِيبِ ذُنُوبِهَا الْحَيَّ عَنْ دَنَسِ الْأَنْظَارِ ، وَتَبَالِغُ فِي إِخْفَائِهِ
 بِعَشَّهَا الْمُسْتَرْتِ تَحْتَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، وَالْمَرْأَةُ أَقَلُّ مِنْهَا دِرَآيَةً بِمَا يَجِبُ لِلْأَوْلَادِ
 لِأَنَّهَا كَثِيرًا مَا تَرَاهَا تَتَّخِذُ مَوْلُودَهَا الْعُوبَةَ لِشَفَقَتِهَا وَحَنَانِهَا ، وَمَاذَا تَقُولُ فِي أُمَمَاتِ
 مَا يَتَفَكَّرْنَ بِرَيْنِ الْأَجَانِبِ أَوْلَادَهُنَّ قِيدَرَهُنَّ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ ، وَيَبْجِنُ أَنْفَعَالًا يَسْمُ
 بِمَا يَتَصَنَّعُهُ لَهُنَّ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالْإِشَارَاتِ ، وَيُعَذِّبُهُنَّ بِالْمَلَاطِفَاتِ الْمُنْبِعِثَةِ
 عَنْ جُنُونِ الشَّغَفِ بِهِمْ . أَقُولُ قَوْلًا لَا أَوْدُ مِنْكَ إِذَا عَظُّهُ وَهُوَ : إِنِّي أَخْشَى أَنْهُمْ
 فِي ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِلَى تَسْلِينِ أَوْ إِلَى زُهْوِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَى مَصْلَحَةِ الطِّفْلِ .

(١) لعل هؤلاء الآفة هم الذين يحرمهم سيدنا الياس عليه السلام لما اراد أن يتخلى الله عنه بقبول
 الله قربانه اذ طلب اليهم ان يقربوا فورا لآلهتهم ويقرب هو آخر ليظهر آى الآفة بقبول قربان عباده
 فقربوا نورهم ودعوا بملاهم من الصباح الى الظهر لينزل نارا تأكله فل يبيهم ففسر منهم نبي الله وقال :
 تابروا على الدعاء قلتمه قائم . (٢) الزنى : جمع زمن وهو ذر العاجة .

وَالْحَذَرُ الْحَذَرُ أَيْضًا مِنْ بَعْضِ الْأَوْهَامِ الشَّعْرِيَّةِ فَإِنَّ شُرْعَاءَ هَذَا الْمَصْرِ وَكُتَّابَهُ
 قَدْ بَالَغُوا فِي إِطْرَاءِ الطِّفْلِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ حَبَبَ إِلَيْهِمُ الْخَيَالُ أَنْ يَرَوْا فِيهِ مَلَكًا نَزَلَ
 مِنَ الْجَنَّةِ تَارِكًا فِيهَا جَنَاحَيْهِ ، نَعَمْ إِنِّي فِي الْحَقِيقَةِ لَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أَتَى ، وَلَكِنْ
 رَأَيْتُ فِيهِ هُوَانَهُ إِذَا كَانَ قَدْ رَأَى عَجَائِبَ فِي عَالَمٍ آخَرَ فَقَلَّمَا يَذْكُرُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَأَنَّهُ
 إِنَّمَا يُحْصِلُ عُلُومَهُ جَمِيعَهَا بَيْنَنَا ، وَسَابِقِينَ لَكَ فِي الرَّسَالَةِ التَّالِيَةِ كَيْفَ يُحْصِلُ هَذِهِ
 الْعُلُومَ ١٠٨

الرسالة الثالثة

(من إراسم إلى هيلانة في ١٢ أغسطس سنة - ١٨٥٠)

أَوَّلُ عُلُومِ الطِّفْلِ تَأْتِيهِ مِنْ طَرِيقِ الْحَوَاسِّ - تَرْبِيَةُ الْحَوَاسِّ - تَأْيِيدُ الْحَضَارَةِ
 فِي قُوَّاهَا - تَفْضِيلُ تَرْبِيَةِ « إِمِيل » فِي الرِّيفِ وَسَبَبُهُ - عَمَلُ الْأُمِّ
 فِي تَمْيِينِ حَوَاسِّ الطِّفْلِ

إِنَّ أَوَّلَ زَمَنِ فِي حَيَاتِنَا نَكُونُ فِيهِ أَكْثَرَ تَعَلُّمًا وَأَشَدَّ تَحْصِيلًا هُوَ ذَلِكَ الزَّمَنُ
 الَّذِي لَا يُعَلِّمُنَا الْقَائِمُونَ عَلَيْنَا فِيهِ شَيْئًا تَعَلِيمًا نَظَامِيًّا ، بَلْ جَمِيعُ الْأُمَمَاتِ يَعْرِفُونَ أَنَّ
 الطِّفْلَ يَتَرَقَّى فِي تَحْصِيلِ الْعُلُومِ مِنَ الشَّهْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْ حَيَاتِهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ سِنَةَ
 أَشْهُرٍ تَرْقِيًا غَيْرَ مَعْهُودٍ فِي هَذِهِ السَّنِّ ، وَقَدْ حَسَبَ لَهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ
 مَا يَكْتَسِبُهُ مِنَ الْعُلُومِ وَهُوَ فِي سِنِّ شَهْرَيْنِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مِنْ عُمرِهِ ،
 فَوَجَدَ أَنَّهُ يَكْتَسِبُ مِنْهَا ثُلُثَ مَا يَكْتَسِبُهُ تَحْصِيلُهُ أَوْسَاطَ النَّاسِ . هَذِهِ التَّرْبِيَةُ

الأولى لَا يَنْكَرَنَّ لِأَنَّهُ دَخَلَ فِيهَا ، وَلَكِنْ أَخَصَّ مُؤَثِّرَ فِي تَحْصِيلِهِ تِلْكَ الْمَعْلُومَ
هُوَ مَلَامَتُهُ لِمَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَتَسْأُلُ مَشَاعِيرُهُ إِيَّاهَا ، فَهَذَا الْبَنبُوعُ الْأَصْلِيُّ
مِنْ نَتَائِجِ الْعِلْمِ الْإِنْسَانِيِّ — وَأَعْنَى بِهِ الْإِحْتِكَالُ بِالْأَشْيَاءِ وَتَنَاقُضُهَا بِالْحَوَاسِّ —
هُوَ الَّذِي أُرِيدَ تَوْجِيهُ فِكْرِكَ إِلَيْهِ .

وَلِنَظَرِ اجْتِدَاءٍ إِلَى مَا يَجْرَى فِي الْوَاقِعِ ، فَلَمَوْلُودُ فِي مَدَّةِ الْأَسَابِيعِ الْأُولَى
مِنْ وَلَادَتِهِ يَكُونُ حَمْلُهُ لَا يَزَالُ فِي غَايَةِ الرِّخَاوَةِ وَأَعْضَاؤُهُ الْمُعَدَّةُ لِمَعِيشَةِ الْإِحْتِلَاطِ
بِمَا حَوْلَهُ فِي نَهَايَةِ الْعَجْزِ عَنْ إِجَابَةِ دَائِعِي مَا يَحْتَفُّ بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِجَابَةً يَكُونُ
مِنْ وَرَائِهَا عَمَلٌ ، فَإِنَّهُ يَرَى جَمِيعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كَأَنَّهُا شَفَقَتْ فَلَا يُمَيِّزُ مِنْهَا شَيْئًا .
وَيُسَهِّلُ لَكَ الْإِفْتِنَاعَ بِذَلِكَ مَا تَرِنُهُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ وُجُودِهَا وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِهَا ،
ثُمَّ تَنْدَرِجُ انْفِعَالُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي التَّبْقِظِ لَهَا ، فَيَكُونُ مَثَلُهُ فِي هَذَا التَّبْقِظِ بَعْدَ
نُحُودِهِ كَمَثَلِ صَنِمٍ مُتَوَكِّلٍ يَكُونُ سَاحًا فَإِذَا انْصَبَتْ عَلَيْهِ أَشْعَةُ الشَّمْسِ جَلَّ
يُصَوِّتُ كَمَا تَعْلَمُنَهُ . هَذَا هُوَ شَأْنُ الطِّفْلِ فَإِنَّهُ يَنْتَعِشُ بِمَا حَوْلَهُ انْتِعَاشَ ذَلِكَ
الصَّنَمِ بِالشَّمْسِ إِنْ سَمِعَ أَنَّ يُسَمَّى هَذَا انْتِعَاشًا .

هَلْ يَتَعَلَّمُ الْمَوْلُودُ الْإِبْصَارَ وَالسَّمَاعَ أَمْ يَأْتِيَانِهِ عَقْوًا؟ تِلْكَ مَسْأَلَةٌ يَصْعَبُ كَثِيرًا
عَلَى الْمُشْتَغَلِينَ يَعْلَمُ مَنَافِعَ الْأَعْضَاءِ الْإِتِّحَاقُ عَلَى الْإِجَابَةِ عَنْهَا فَلَهُمْ فِيهَا أَقْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ،

(١) ممنون في أساطير اليونان هو ابن البحر وابن تيتون ملك الحبشة وهو أيضا اسم لنتال (معبود
مصرى) كانوا يبدونه في طيبة وكان منه حل طريقة طلبة بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان
يسمع له صوت ناشئ من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس .

(٢) ما أبعد الشبه بين تبه الطفل لما حوله وتأثر مشاعره به بنفوذ التدريج وبين الصوت الذى يفرج
من جوف ذلك الصنم الذى هو جواد لا يحس ولا يدرك ولا ينجو — المترجم .

وَلَكِنَّ الَّذِي أَجْمَعُوا عَلَيْهِ أَنَّ الْمَوْلُودَ يَتَعَلَّمُ بِالْتَّمَرِينَ إِجَادَةَ هَذَيْنِ الْفِعْلَيْنِ ، فَلْيَكْفِنَا ذَلِكَ مِنْ جَوَابِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا أَنَّ مِنَ السَّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ أَنَّ كُلَّ عُضْوٍ يُجَسِّنُ عَمَلَهُ مَا وَاطَبَ عَلَيْهِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَنَّ قُوَّةَ الْأَفْعَالَاتِ عِنْدَ الطِّفْلِ تَزْدَادُ يَوْمًا فَيَوْمًا نَفْسُهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ اللَّذَّةِ فِي اسْتِخْدَامِ مَا أُوتِيَهِ مِنْ وَسَائِلِ الْعِلْمِ الصَّغِيرِ ، فَقَدْ قَالَ بُوْسُوِيَه : ^(١) إِنَّ لَذَّةَ الْإِحْسَاسِ قُوَّةٌ جَدًّا .

الْإِحْسَاسُ فِي الْغَالِبِ يَحْصُلُ فِي الْمَوْلُودِينَ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ مُعَانَاةٍ تَعْلِيمٍ فَلَا يَحْتَاجُ مَعْظَمُهُمْ إِلَى تَعْلِيمِ اللَّمَسِ وَالذَّوْقِ وَالْإِبْصَارِ وَالسَّمْعِ ، بَلْ هُمْ يَجِدُونَ فِيهَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْفَرَائِزِ مَا يَلْزَمُ مِنَ الْقُوَّةِ لِإِجْرَاءِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنَّ مِنَ الْمَيَسُورِ أَنْ تَعَاوَنَ الْفِطْرَةُ عَلَى آدَائِهَا ، بَلْ أَقُولُ : إِنَّ فِي قُوَّةِ اقْتِدَاءِ الطِّفْلِ بَقِيَرِهِ وَمُبَارَاتِهِ إِيَّاهُ وَفِي تَحْلِيلِ الْأَشْيَاءِ الْمُحِيطَةِ بِهِ — تَحْلِيلَهُ تَزْدَادُ بِهَا رَوْنًا يَجْذِبُ نَظْرَهُ إِلَيْهَا — مَا يُسَاعِدُ عَلَى تَنْبِيهِ مَشَاعِرِهِ وَدَفْعِهَا إِلَى الْقِيَامِ بِمَا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ . نَحْنُ نَرَى فِي الْبَهَائِمِ أَنَّ أَتْنَاهَا لَا تَكْفُفُ عَنْ إِرْشَادِ صِفَارِهَا إِلَى اسْتِخْدَامِ حَاسَّتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَحَمْلِهَا عَلَى الْإِنْتِفَاجِ مِمَّا ، وَهَذَا الْإِرْشَادُ هُوَ السَّبَبُ — عَلَى مَا أَرَى — فِيمَا يُوجَدُ مِنَ الْقُوَى الْبُدْهِيَّةِ لِبَعْضِ الْفَصَائِلِ الْحَيَوَانِيَّةِ .

كَذَلِكَ الْمُنُوحَشُ — كَمَا تَعْلَمِينَ — يَكَادُ يَكُونُ نَصِيْبُهُ مِنَ التَّرْبِيَةِ قَاصِرًا عَلَى الْمَشَاعِرِ ، وَلَشَدَّ مَا بَرَزَ عَلَيْنَا هَذَا السَّبَبُ فِي بَعْضِ الْقُوَى ، قَالَعَادَةُ وَالرِّيَاضَةُ الْبَدَنِيَّةُ

(١) بوسويه هو يعقوب بنى بوسويه المولود في ديجون ١٦٢٧ والمتوفى في سنة ١٧٠٤ ميلادية

كان اسقفا لكنكوم ثم «لو» ثم صار مربيًا لولي عهد لويس الرابع عشر وهو من أكبر كتّاب فرنسا وأعظم واعظ نخب فيها .

وَطَرِيقَةُ السَّيِّئَةِ تُنَمِّي فِي الْأَجْيَالِ الْبَدَوِيَّةِ عِدَّةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْإِذْرَاكِ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ فِي دَقِّهَا وَسَمْعِهَا ، وَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ سَبَبِ قَدِّ الْإِنْسَانِ بَعْضَ هَذِهِ الْمَوَاهِبِ الْأَصْلِيَّةِ يَمْدَنُهُ اِكْتِفَانًا فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ تَوْجِيهِ نَظَرِهِ إِلَى مَا حَصَلَ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ مِنْ ضُرُوبِ التَّغْيِيرِ عِنْدَ انْتِقَالِهَا مِنْ حَالَةِ التَّوْحِشِ إِلَى حَالَةِ الْاسْتِنْسَانِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَرَانِبَ إِذَا تَرَبَّتْ فِي حَاطِيَةِ نَسَبَتِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ بَطُونٍ طَرِيقَةَ اخْتِفَارِ الْأَجْحَارِ لِلشُّكْنَى فِيهَا ؟ وَهَذَا انْخِرُوفُ الَّذِي نَعْتَبِرُهُ مِثَالًا لِلدَّلِّ وَسَلَاسَةِ الْقِيَادِ وَالنَّبَاطَةِ لَمْ يَكُنْ كَمَا زَاهَهُ الْيَوْمَ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ ، فَإِنَّ أَصْلَهُ الَّذِي تَوَلَّدَ مِنْهُ وَهُوَ الْكَبْشُ الْوَحْشِيُّ عَلَى عَكْسِهِ فِي الطَّبَاعِ لِأَنَّهُ حَيَوَانٌ جَرِيءٌ يُرْهِى بِالْمُخَاطَرَةِ بِنَفْسِهِ فِي جِبَالِ قُورُصَةِ^(١) وَيَقَاوِمُ مَنْ يَتَنَبَّهَ صَيْدُهُ مِنَ الصَّيَادِينَ بِجَعْلِهِ الْإِنْسَانُ خُرُوفًا أَهْلِيًا زُرِّيَهُ (أَيُّ بِنَاءٍ زُرِّيَّةٍ لَهُ) وَتَكْلِيفَ رَاجِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَكَلَابِ حِرَاسَتِهِ .

كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ كُلَّمَا تَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُ بِالْمَدَنِيَّةِ وَتَحَضَّرَ تَدَرَّجَ فِي التَّخَلُّصِ عَنْ بَعْضِ خَوَاصِّ مَعِيشَتِهِ الْوَحْشِيَّةِ ، فَلَا تَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَكُونَ دَائِمًا التَّيَقُّظُ لِلْمُعَافَاةِ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا كَانَ غَيْرُهُ يَسْمُرُ لِحِفْظِهِ وَكَلَامَتِهِ ، فَمُرَاقَبَةُ الْحَيَوَانِ الْمُؤَذَى مِنْ بَعِيدٍ وَإِلصَاقُ الْأُذُنِ بِالْأَرْضِ تَعَرُّفًا لِحُطَا الْعَدُوِّ مِنْ بُعْدِ الثَّنَى أَوْ ثَلَاثَةِ آلَافِ مَيْلٍ لَا ضَرُورَةَ لَهُمَا إِلَّا فِي حَقِّ سُكَّانِ أَمْرِيكَةِ وَأُسْتْرَالِيَةِ الْأَصْلِيِّينَ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَفِي حَالَتِنَا الْعُمَرَانِيَّةِ مَا يَفْتِنُنَا عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ لَنَا الشَّرْطِيَّ وَالْجُنْدِيَّ الَّذِينَ نَسْتَأْجِرُهُمَا لِيُدْفَعَا عَنَّا

(١) قورصة جزيرة بالبحر الأبيض المتوسط وهي إحدى مقاطعات فرنسا على بعد ١٧٠ كيلو مترا

مَا نَحْشَاهُ مِنْ أَدَى الْمُعْتَدِينَ وَكَيْدِ الْخَائِنِينَ . فَإِذَا زَالَ الْخَطَرُ الْمُلَازِمُ لِلْمُعِيشَةِ
الْبَدَوِيَّةِ بِالتَّحْضِيرِ وَجَبَ حَتْمًا أَنْ يَزُولَ مَعَهُ مَا كَانَ لِحَاسَتِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ مِنَ الدَّقَّةِ
الْحَيَّةِ الَّتِي هِيَ عَوْنٌ وَجَدَانِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى النَّفْسِ .

كَأَنِّي بِكَ تَقْوَايَ : إِنَّ هَذِهِ الْمَزَايَا الْحَسَدِيَّةَ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا فِي جَانِبِ
الْقُوَى الَّتِي خَلَقَهَا الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ بِإِرْتِقَاءِ الْحَضَارَةِ إِنْ صَحَّ أَنْ يُنسَبَ لَهُ الْخُلُقُ —
وَأَنَا بِلَا شَكٍّ مُوَافِقٌ لِكَ فِي هَذَا . فَإِنْتَا — وَالْحَقُّ يُقَالُ — قَدْ رِيحْنَا مِنَ الْحَضَارَةِ
أَكْثَرِمَا خَيْرِنَا، وَلَكِنْ هَبَاتٌ أَنْ يُفْتِنَنِي هَذَا الْفِكْرُ لِأَنِّي أَرَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ عَلَى
الْإِنْسَانِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ أَنْ يَسْتَجِمَعَ فِي شَخْصِهِ جَمِيعَ الْمَوَاهِبِ الَّتِي كَانَتْ لِمَنْ
عَمَرُوا الْأَرْضَ مِنْ قَبْلِهِ، وَكُونِي عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَا لَوْ بَلَّغْنَا هَذِهِ الْغَايَةَ مَا عُدَّ ذَلِكَ مِنَّا
إِفْرَاطًا فِي الْفَنَى وَلَا وَصَلْنَا فِي الْحَيَاةِ مُطْلَقًا إِلَى دَرَجَةٍ تَكْفِي لَأَنَّ تُمَثِّلَ فِيهَا كُلَّ
مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْجِي، وَأَنَّ قُوَى الْأَدْرَاكِ الْحَسِيَّةِ تَكَادُ تَكُونُ فِي لُزُومِهَا لَهُمْ مَعْنَى
وُجُودِنَا مُسَاوِيَةً لِقُوَى الْفِكْرِيَّةِ .

أَمَّا كَوْنُ الْحَضَارَةِ بِمَا يَزِيدُ الثِّقَةَ فِي الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَقُوَى رَوَاطِبِهِمْ
الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَيُغَالِبُ الْفِطْرَةَ دَائِمًا مُغَالِبَةً يُقَلِّلُ بِهَا جِدًّا عِنْدَ الْبَلَايَا الَّتِي تَجْمَلُ الْبَدَوِيَّةُ
عَلَى خَطَرٍ مِنْ حَيَاتِهِ فَهَذَا كُلُّهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، وَأَمَّا كَوْنُ الشَّرْطَةِ تَحْفَظُ الْأَرْوَاحَ
وَالْأَمْوَالَ فَهُوَ أَمْرٌ لَا أَجِدُ مَسَاقًا لِلطَّغْنِ فِيهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا اسْتَكْرَهَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ
طَرِيقَةَ الْحِفْظِ هَذِهِ تَصِيرُ مَدْمَاةَ كَسَلٍ وَنُحُودٍ لِمُشَاعِرِنَا، وَقَدْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ

الْمُتَمَدِّدَةُ أَنْفُسُهَا تَمَامَ الْإِدْرَاكِ ، فَإِنَّهَا قَدْ أَقْبَتْ مِنْ عَادَاتِهَا الْقَدِيمَةِ بَعْضَ الرِّاضَاتِ
الْبَدَنِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَبْقَ لَوْجُودِهَا أَذْنَى مُوَجِبٍ - إِنْ لَمْ تَكُنْ قَدْ اعْتَبَرْتَهَا مِنْ وَسَائِلِ
إِحْيَاءِ قُوَى الْفِطْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ ، - وَذَلِكَ كَالصَّيْدِ وَالْعَابِ الْمُبَارَزَةِ وَالْمُصَارَعَةِ
مَثَلًا ، وَلَوْ أَنَّ رِجَالًا تَلَاكُؤُوا فِي الطَّرِيقِ لَقَبِضَ عَلَيْهِمُ الشَّرْطِيُّونَ وَسَافَوْهُمْ إِلَى
الْمُحَاكَمَةِ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا مَا يَفْعَلُهُ الْعَلَاكِيُونَ مِنْ شُبَانَتَا فِي مَلَاعِمِهِمُ الرِّيَاضِيَّةِ
(مَحَالُ الْجُنُبَانِ) وَإِنِّي أَرَى - مَا لَمْ أَكُنْ وَاهِمًا - أَنَّهُ كَلَّمَ تَرَقَّى بِمَجْمُوعِ الْأَلَاتِ
الَّتِي نَسْتَعْمِدُهَا لِسَدِّ حَاجَاتِنَا ، صَارَ مِنَ الضَّرُورِيِّ تَكْلُفُ اسْتِعْمَالِ الْقُوَى الْعَضَلِيَّةِ
بِمُجْتَمَعَاتِنَا . وَلَا أَصْبَحُ الْإِنْسَانُ عَمَّا قَلِيلٍ يَسْبَبُ إِحْلَالَهُ الْأَلَاتِ مَحَلَّهُ فِي مَشْيِهِ
وَعَمَلِهِ وَكَفَاحِهِ شَيْبًا (بِأَنَّا) غَشِيَهُ خَدَرُ التَّرَفِّهِ وَغَرِقَ فِي فُتُورِ الْبَطَالَةِ^(١) ، فَلَا يَدَّ لِمَنْعِ
تَطَرُّقِ الْفَسَادِ إِلَى النَّسْلِ مِنْ أَنْهَمَاكَ النَّاشِئِينَ فِي كُلِّ أَنْوَاعِ اللَّيْلِ الَّتِي هِيَ فِي الظَّاهِرِ
غَيْرُ مُفِيدَةٍ لِكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ مُعَدَّةٌ لِحِفْظِ الْحَيَاةِ . وَلَوْلَا هَذِهِ الْأَلْعَابُ الْمُقَاوِمَةُ
لِلضَّعِيفِ وَالْأَمْحِلَالِ لَكَانَتْ اخْتِرَاعَاتُنَا تَقْصُرُ سَيًّا فِي انْخِطَاطِ الدُّوَلَابِ الْإِنْسَانِيِّ^(٢)
مِنْ عَرِشِ سِيَادَتِهِ .

الْعِلْمُ أَيْضًا يُفْرِغُ جُهْدَهُ وَيُقَدِّمُ مَهَارَتَهُ وَحِدْفَهُ فِي تَكْيِيلِ نَقِصِ أَعْضَائِهِ
بِمَا يُوجِدُهُ لَهَا مِنْ طُرُقِ الْمُسَاعَدَةِ فِي آدَاءِ أَعْمَالِهَا ، وَإِنِّي لَكَثِيرُ الْإِنْجَابِ كَجَمِيعِ
النَّاسِ بِاسْتِكْشَافِ الْمَرْقَبِ (التَّلِسْكُوبِ) لِأَنَّهُ جَمُّ الْفَوَائِدِ ، وَلَكِنْ الْمَتَوَحَّشُ الْأَمْرِيكِيُّ

(١) لِيَأْمُلَ الْقَارِئُ اعْتِزَادَ عَلَمَا الْإِفْرِيجِ فِي أَعَاطِمِ رِجَالِ الشَّرْقِ (الْبَاشَوَاتِ) وَلِيَحْكَمْ فِيهِ بِإِنْصَافٍ

(٢) الْمُرَادُ بِالْأَلْعَابِ الْإِنْسَانِيِّ جِسْمُ الْإِنْسَانِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْقُوَى فَهُوَ شَبِيهُ الدُّوَلَابِ -

ذَا الْجُلْدِ الْأَحْمَرِ لَا يَحْتَاجُ فِي اسْتِكْشَافِ قِطْعَةٍ فَوْقَ الْأُفْقِ إِلَى شَيْءٍ يُطِيلُ بِهِ بَصَرَهُ
سِوَى مَا اسْتَقَرَّ فِيهِ مِنْ اعْتِيَادِهِ إِرْسَالِ أَشْعَةٍ بِصَرِّهِ الْمُجَرَّدِ لِيَتَفَدَّى فِي الْمَسَافَاتِ
السَّحِيقَةِ وَيَأْتِيَ إِلَيْهِ بِصُورِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ . إِنَّ فِي إِعَانَةِ الْمَشَاعِرِ بِالْآلَاتِ عَلَى
الْقِيَامِ بِأَعْمَالِهَا رَفْعَ جُزْءٍ مِنْ ثِقَةِ الْإِنْسَانِ بِفِطْرَتِهِ الَّتِي قَضَتْ أَنْ يَفُوقَ الْوَحْشِيَّ
الْمَدَنِيَّ وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ . وَلَسْتُ أُرِيدُ هَذَا - كَمَا لَا يَحْتَاجُ عَلَيْكَ - وَجُوبَ
الِاسْتِنَاءِ مُطْلَقًا عَنْ مُسْتَكْشَفَاتِ الْعِلْمِ وَالصَّنَاعَةِ ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِهِ أَنْ لَا تُخَذَ مَرَايَا
الْمَدَنِيَّةِ ذَرِيعةً إِلَى إِنْسَاءِ الطِّفْلِ الْمَدَنِيِّ مَرَقًا جَنَانًا قَصِيرَ النَّظَرِ ، فَإِنَّهُ لَوْ اعْتَادَا لِاعْتِيَادِ
فِي كُلِّ شُؤْنِهِ عَلَى تَرَقِّي وَسَائِلِنَا الصَّنَاعِيَّةِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ وَقُوَّةَ أَعْضَائِهِ نَصِيبًا مِنَ
الِاعْتِيَادِ عَلَيْهِمَا لَصَارَ إِلَى ذَلِكَ .

قَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ : هَلْ مِنْ وَسِيلَةٍ لِاسْتِرْجَاعِ بَعْضِ الْخَوَاصِّ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي
أَضَاعَهَا مِنَّا الْإِنْفِصَالُ فِي تَرَفِّ الْمَدَنِيَّةِ ؟ فَأُجِيبُهُ : رُبَّمَا وَجَدَ لَذَلِكَ سَبِيلٌ فَإِنِّي
كَثِيرًا مَا فَكَّرْتُ فِيمَا لِلْأَصْنَافِ الْإِنْسَانِيَّةِ - الَّتِي نَعْتَبُهَا أَحْطَى مِنْ صِنْفِنَا لَوْ قُوفُوهَا
عِنْدَ أَخْلَاقِ الطُّفُولِيَّةِ - مِنَ الشَّانِ الْإِجْتِمَاعِيِّ ، وَسَأَلْتُ نَفْسِي غَيْرَ مَرَّةٍ عَمَّا إِذَا
لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ مُعَدَّةً لِسَدِّ خَلَلٍ فِينَا وَهُوَ الْفَضَاءُ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
حَالَتِنَا الْفِطْرِيَّةِ .

الصَّنْفُ الْأَسْوَدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ وِلَايَاتِ امْرِيكَةِ الْجَنُوبِيَّةِ هُوَ الَّذِي يُعْهَدُ إِلَيْهِ
خَاصَّةً بِتَرْبِيَةِ مَوْلَايِ الصَّنْفِ الْأَبْيَضِ ، فَنِسَاؤُهُ مَرَاضِعُ لِهَوْلَاءِ الْمُتَوَلِّدِينَ ،
وَالرِّجَالُ يُرَبُّونَهُمْ عَلَى إِجَادَةِ النَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ تَرْبِيَةُ الْأَحْدَاثِ الْأَمْرِيكِيِّينَ

أَوْفَقَ لِمُقْتَضَى الْمَقْلِ بِكَثِيرٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَنَا فَإِنَّ الْمُرَيْنَ ، هُنَاكَ يَجْتَهِدُونَ فِي أَنْ يُعْطُوا الْأَطْفَالَ مَشَاعِرَ قَبْلَ أَنْ يُعْطَوْهُمْ عُقُولًا ، عَلَى أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْإِعْطَاءِ هُنَا خَطَأٌ لِأَنَّ التَّرْبِيَةَ لَا تُعْطَى شَيْئًا لِلطِّفْلِ وَإِنَّمَا تُسَمَّى مَا هُوَ مُوجُودٌ فِيهِ ، فَكَمْ مِنْ قُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ لَا يُشَكُّ فِي وُجُودِهَا فِيهِ تَبْقَى كَامِنَةً لِمُجَرَّدِ إِغْفَالِ اسْتِعْمَالِهَا .

نعم إن مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار في السن متنافين لا تخلو من منبهات للمشاعر ، ولكن أنديتنا وزحفنا لا تلامح حالة الطفل الملائمة المطلوبة ، فإنه يولد محبا للاستطلاع مقلدا لما يراه ، ففي إيمانه في مثل هذه الأندية جذب له إلى أدواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه ، وقلما يكتسب من يتربى من الأطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد ، فإنا أفضل كثيرا أن يتربى «إميل» في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويوصل إلى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعنا شيئا من صورته .

جميع المشتغلين يعلم منافع الأعضاء معترفون بما لتربية المشاعر من الأهمية ، بل قد أوصى بعضهم باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر ، ولكني لا أخفى عليك أن مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تنفع بها كثيرا فإن كل ما يذكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه ، فالواجب — على ما أرى — أن يعتمد في تربيته مشاعر هذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويحبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية ، والأهم هي التي من أعمالها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الأصوات والأشكال والألوان والروائح والطعوم ، وتنويع

هَذِهِ الْأَفْعَالَاتِ وَتَدْرِجُهَا، فَعَلِمَهَا أَنْ تَجْرِيَ فِي ذَلِكَ حَسَبَ مُتَغَيِّبَاتِ الْأَحْوَالِ،
وَالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ لَا يَقْتَضِي سِوَى الْوُلُوجِ إِلَى نَفْسِ الطِّفْلِ مِنْ طَرِيقِ مَشَاعِيرِهِ
فَيَكْفِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَبْقَى هَذَا الطَّرِيقُ مَفْتُوحًا مَعَ تَنَبُّهِ الطِّفْلِ عِنْدَ مَسِيسِ الْحَاجَةِ
إِلَى مَا يَسْتَحِقُّ التَّنْبِيَهَ .

إِنَّ بَيْنَ الْقُوَى الْحَسَدِيَّةِ وَالْقُوَى النَّفْسِيَّةِ — وَإِنْ كَانَتْ مُتَمَازَةً مُتَفَصِّلًا بَعْضُهَا
عَنْ بَعْضٍ — رَابِطَةٌ تَرْبِطُهَا، فَإِنَّ صِحَّةَ أَنْوَاعِ التَّصَوُّرَاتِ لَيْسَتْ بِمَعْزُولٍ عَنْ صِحَّةِ
التَّصَدِيقَاتِ، وَإِنَّ الذَّهْنَ بِمَا يَتَمَثَّلُ فِيهِ عَلَى التَّعَاقُبِ مِنْ صُورِ الْمُدْرَكَاتِ يَهَيِّئُ
مَوَادَّ الْفِكْرِ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَرْبِيَةُ الْمَشَاعِيرِ اِئْتِدَاءً مَقْصُودًا بِهَا تَرْبِيَةُ الْعَقْلِ . ١٠

الرسالة الرابعة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١٣ أَوْغُسْتُسَ سَنَةِ — ١٨٥٠)

شُعُورُ الطِّفْلِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِ بِأَنَّهُ أَرْقَى مِنَ الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ وَاسْتِخْفَافُهُ بِالْعَالَمِ
لَا تَنْسَايِهِ إِلَى الْإِنْسَانِ — بَيَانٌ أَنَّ لَهُ نَفْسًا — تَوْصِيَةُ زَوْجَتِهِ بِمُرَاقَبَةِ
« إِمِيلَ » لَتَعْرِفَ طَبَاعَهُ وَذِكْرُ إِهْمَالِ الْمُرَبِّينَ فِي ذَلِكَ

الطِّفْلُ يَتَلَقَّى عُلُومَهُ الْأَوَّلَى مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَلَكِنَّهُ هِيَئَاتِ أَنْ يَرْضَى
بِمُجَرَّدِ الْأَفْعَالِ بِالْمَوْزَوَاتِ الْأَجَنَبِيَّةِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَخْضَعُ لِمَا يُقَرَّرُ لَهَا
مِنْ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ سَاكِتَةً عَلَيْهِ، غَيْرَ مُفَرَّقةٍ بَيْنَ ضَارِهِ وَنَافِعِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ
يَخْرُجُ مِنْ ظُلُمَةِ الرِّحْمِ إِلَّا وَيَكُونُ قَدْ أَثْبَتَ حَرِيَّتَهُ بِصَرَاحِهِ الَّذِي يُعَارِضُ بِهِ

مِلْهَاتِ الْأَلَمِ وَفَوَاعِلِ الْخَلِيقَةِ ، فَتَرِيَهُ يَبْكِي وَيَتَبَرَّمُ مِنْ حَوْلِهِ مِنَ النَّاسِ وَالْأَشْيَاءِ
وَيُوجِدُ عَلَيْهِمْ إِنْ لَمْ يَحْرُوا عَلَى مُقْتَضَى رَغَائِبِهِ وَهُوَ عَلَى عَزْلِهِ (حُلُوهُ مِنَ السَّلَاحِ)
وَيَجْزِيهِ يَلُجُّ فِي الشُّكْوَى مِنْ سُلْطَانِ الْقَدَرِ وَيَتَدَمَّرُ عَلَيْهِ بِحَسَبِ حَالِهِ .

وَبَعْدَ بَضْعَةِ أَسَابِيعٍ أَوْ أَشْهُرٍ مِنْ وَلَادَتِهِ تَفْتَحُ عَيْنَاهُ وَأَذْنَاهُ تَدْرِيجًا فِي مَشْهَدِ
الْكُونِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِ أَحَدٍ أَنَّ هَذَا الْجِسْمَ الضَّئِيلَ الصَّغِيرَ لَا يَرْتَعِدُ لِمَا
يَرَاهُ يَتَوَرَّعُ حَوْلَهُ مِنْ قُوَى الْفَوَاعِلِ الْكَوْنِيَّةِ . بَلَى ! هُوَ لَا يَحْسِبُ لِمَا حِسَابًا
فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي هَذَا الدُّوَلَابِ الْأَرْضِيِّ الْعَظِيمِ ^(١) وَيَرْجِعُ فِيهِ بَصَرَهُ الرَّائِقَ
وَهُوَ هَادِي الْبَالِ آمِنٌ ، مَعَ أَنَّ أَقْلَ أَدَاةٍ فِيهِ رُبَّمَا كَانَتْ كَافِيَةً لِسَحْقِهِ وَعَقْدِهِ .
وَهُوَ وَإِنْ وُلِدَ أَسِيرَ الْفِطْرَةِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَكُونَ حَاكِهَا الْمُسْتَبِدَّ فَيَطْلُبُ إِلَى أُمِّهِ
يُلْفَنِيهِ الْمُهِمَّةِ الْخَفِيَّةِ الدَّلَالَةِ أَنْفَ تَجْمَعُ لَهُ بَيْنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ وَالْمَطَرِ وَالصَّخْوِ . بَلْ
رُبَّمَا اسْتَسْهَلَ أَنْ يَسْأَلَهَا أَنْ تَزَالَ الْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ مِنَ السَّمَاءِ تَحْصِيلًا لِلدَّيَةِ .
وَلَكِنْ لَمْ تَكُنِ الْأُمُّ فِي نَظَرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِلَّا مَثَالًا حَيًّا لِلنُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ ، كَانَ شُعُورُهُ
بِالْقُوَّةِ إِمَّا يُسْتَمَدُّ مِنْ انْتِسَابِهِ لِهَذَا النُّوعِ فَتَسْقُوقُ إِلَى ذَهْنِهِ الْعَاجِزِ عَنِ الْفِكْرِ
غَيْرِزَةِ السُّلْطَانِ الَّتِي لِيَتْلِكَ الذَّاتِ الْمُخْتَارَةِ عَلَى الْعَالَمِ . فَلَا يَبْقَى تَلَقَّاءَ هَذِهِ الْقُوَّةِ
الْمَعْنَوِيَّةِ — الَّتِي لَا يَدْرِكُهَا إِلَّا حَدْسًا غَيْرِيًّا ^(٢) — أَذَى تَأْثِيرٍ فِي نَفْسِهِ لِعَظَمِ
تَسَلُّطِ الْمَادَّةِ .

(١) يريد بالدولاب الأرض العظيم الأرض بجميع ما عليها وما فيها من الكائنات تشبها لها بالدولاب

في حركته وسرعة دورانه . (الترجم)

(٢) الحدس : الظن والتخمين .

لَيْسَ الطِّفْلُ كَمَا يُقَالُ لَوْحًا مَصْقُولًا مُجَرَّدًا مِنَ الْإِدْرَاكِ ، بَلْ لَهُ نَفْسٌ تَشْعُرُ
بِالْوُجُودِ وَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَلْبَثُ أَنْ تَنْبِتَ وَجُودَهَا بِمَا لَهَا مِنَ الطَّرِيقَةِ الْمَخْصُوصَةِ فِي الْمَعِيشَةِ
وَالْإِحْسَاسِ ، وَمِمَّا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنَ الْأَفْعَالِ اخْتِيَارًا وَمِمَّا لَهَا مِنَ الْفَرَائِزِ خَلْقَةً .
وَكَمَا أَنَّ مَشَاعِرَهُ قَدْ جَعَلَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ انْتِصَالًا ، كَذَلِكَ ضُرُوبُ مِيلِهِ
وَرَغَائِيهِ تَتَدَرَّجُ فِي تَعْرِيفِهِ مِنْ عَيْشِ بَيْنَهُمْ مِنَ النَّاسِ وَتَقْرِيبِهِ مِنْهُمْ ، نَعَمْ إِنَّ مُعْظَمَ
أَفْعَالِهِ النَّفْسِيَّةِ تَأْتِيهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنَ الْخَارِجِ فَيَكُونُ حُبُّ لُغَتِهِ وَضَحْكُهُ
وَكَلَامُهُ نَاشِئًا مِنْ حُبِّ ذَلِكَ الْغَيْرِ إِيَّاهُ وَرُؤْيَاهُ بِضَحْكِهِ وَسَمَاعِهِ بِتَكَلُّمِهِ . أَيْكُنْهُ عَمَّا
قَلِيلٍ يُبْدِي مَا يَسْتَقِرُّ فِي نَفْسِهِ مِنْ ضُرُوبِ النُّفُورِ وَالْمِيلِ وَالتَّرْجِيحِ وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ
أَنَّ طَبْعَهُ يَسْتَبِينُ وَسَاتَكَلَّمَ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي بَحْثٍ آخَرَ .

أَنَا لَا أَعْتَقِدُ مُطْلَقًا أَنِّي قَدْ أَجَبْتُ فِي رِسَالَتِي هَذِهِ عَنْ أَسْئَلَتِكَ الَّتِي سَأَلْتَنِيهَا
فِي التَّرْبِيَةِ ، فَإِنَّ تَوْفِيَةَ الْإِجَابَةِ حَقًّا تَسْتَلْزِمُ زَمَنًا ، وَأَنَا قَدْ عَدَوْتُ فِيهَا عَدْوًا أَسْرَعَ
مَا يَكُونُ ، فَوَصَّيْتُ إِلَيْكَ أَنْ تَقْرَضِي عَلَى نَفْسِكَ أَنْتِ أَيْضًا مُرَاقِبَةً « إِمِيل » فَإِنَّ
أَبْعَدَ الْأَشْيَاءِ عَنْ نَظَرِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ التَّرْبِيَةِ إِلَى الْآنَ وَأَكْثَرَهَا إِنْغِفَالًا هُوَ اخْتِيَارُ
الطِّفْلِ وَمَعْرِفَتُهُ .

كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِيكَ وَفِي « إِمِيل » كَانَ مَثَلِي كَمَثَلِ الْخُفْسَاءِ الطَّيَّارَةِ يُسْكِنُهَا
التَّمِيدُ وَيُرْبِطُ أَحَدَ أَطْرَافِهَا بِحَيْطٍ وَيُرْسِلُهَا قَطِيرُ فِي الشَّمْسِ نَاسِبَةً رِبَاطَهَا وَتَسْبَحُ
فِي الْهَوَاءِ وَتَعِظُنْ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّ يَحْدِثَ التَّمِيدُ الْخَيْطَ حَتَّى تَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ ،

فَهَا هُوَذَا السَّجَانُ يَدْعُونِي لِأَنَّ هَذَا الْوَقْتَ هُوَ وَقْتُ التَّنَزُّهِ عَلَى أَسْوَارِ السَّجْنِ ،
فَأَوَدِّعُكَ وَأَرْجُو أَنْ يَبْقَى الْحُبُّ بَيْنَنَا وَثِيقَ الْعُرَى . اهـ

الرسالة الخامسة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٣ أكتوبر سنة ١٨٥٠)

حُسْنُ رَأْيَا فِي وَلَدِهَا . قَوْلُ الدُّكْتُورِ وَارْتِجُتُونَ فِي سِيَّاسَةِ الْأَطْفَالِ

وَصَفُ الْإِقْلِيمِ وَالْأَخْبَارِ

«إِمْبِلُ» أَجْمَلُ غُلَامٍ فِي الدُّنْيَا . أَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَأَنَا عَالِمَةٌ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ
بَجِيعَ الْأُمَمَاتِ يَدْعِينَ ذَلِكَ مِثْلِي لِأَوَّلِ مَوْلُودٍ يُرْزَقُهُ ، وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّكَ تَرَى
أَيْضًا يَقُولُونَا أَكْثَرًا مِمَّا تَرَى بِإِبْصَارِنَا .

الْمَرْأَةُ تَتَعَلَّمُ الْحُبَّ وَتَتَعَلَّمُ كَيْفَ تَكُونُ أُمًّا . فَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَبْدُو لِي شَوَاهِدُ عَلَى
ذَلِكَ بِمَا يَبْعَثُهُ فِي نَفْسِي هَذَا الْغُلَامُ الْمَحْبُوبُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْحَنَوِّ الْمَتَرَايِدَيْنِ ،
لَكِنْ لَا يَدْعُونَكَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَخَافَ عَلَى الْأَسْتِعْبَادِ لِيُوجِدَانِي وَالْعَجَزَ عَنِ
الْقِيَامِ بِمَا قَرَضْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْ تَرْبِيَتِهِ ، فَإِنِّي أَتَّبَعُ لِنَصَائِحِكَ وَنَصَائِحِ صَدِيقِكَ
أَقْدَمُ مَصَالِحِهِ الْحَقِيقَةِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مِثْلِي وَذَوْقِي ، وَقَدْ أَقَامَ لِي الدُّكْتُورُ عَلَى
وُجُوبِ ذَلِكَ دَلِيلًا مُسْتَوْفَى الشَّرَاطِيطِ ، فَقَالَ بِمَا تَعَهَّدُهُ فِيهِ مِنْ أَدَبِ الْمَنْطِقِ
وَحُسْنِ اللَّهْجَةِ :

« خَلَقَ اللَّهُ لِسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ أَعْضَاءَ تَقُومُ لَهَا مَقَامَ الْأَسْلِحَةِ فِي الْقُوْدِ عَنْ
أَنْفُسِهَا . وَأَمَّا الطُّفْلُ فَلَا سِلَاحَ لَهُ إِلَّا ضَعْفُهُ وَصُرَاخُهُ ، وَلَكِنْ مَا أَشَدَّ مُقَاوَمَتَهُ لَنَا

بهما وما أكثر ما يستفيد منهما ! فهو وإن كانت أنواع الإحساس فيه لا تزال
مبهمة قد طُبعت فيه غريزة حب العدل من تشائه فلا يلبث أن يميزها ما يصدر
عنا من الأفعال في حقه صوابه من خطائه ، فأعلمي — ونبي بما أقوله لك — أن
الواجب في سياسة الأطفال خاصة هو أن تكون نحن المحققين لا هم لأنه لو انعكس
الامر فجعل الحق والسلطان لهوهم واستبدادهم لخسرنا كل شيء . ذلك أن الطفل
يبيكي أحيانا لتحقيق ما عوده أهله اشتباهه ابتداء موافقة لهوهم . فإذا لم
يأدروا إلى إرضاء شهوته إما إغفالا منهم لها أو غضبا عليه فإنه يستمر في بكائه
ساعات كاملة بل قد يبكي حتى يسارق الموت ، فإذا انتهى الامر بالإذعان إلى
رغبته كان ذلك أيضا شرا من مخالفته لأنه يقين منه أن والديه خلوا بما يدرعانه
لمقاومة شديد أهوائه . فلا ينبغي أن يعارض الطفل في شيء مما يشتهيه إلا إذا
كان في المعارضة خير له ، وإذ ذاك يجب أن تكون عزمنا كالقانون ثباتا وصرامة .

هذا ما قاله لي وإلى لإخاله عقودا من الذهب يلفظها من فيه ، فقد اتفق
لي — ولا أخفي عنك — أنني كنت أنسى أحيانا الأخذ بنصائحه في سياستي
« لإميل » وفي هذه الحالة كنت أنا وهو تتألم من عاقبة هذا النسيان .

قرأت الفصل الأول من كتابك وهو على ما أرى كتاب مؤلف في التربية
وأنا في انتظار قراءة باقيه لأكتشف رأيي فيه ، فأعتقد تمام الاعتقاد أن تربية

(١) يشارف : يقارب . (٢) ادع : لبس الدرع وهو من آلات الدفاع والمراد به هنا اتخاذ

الوسائل للقائمة .

« إِمِيل » سَتَكُونُ عَلَى وَفَى آرَائِكَ وَرَفَائِكَ، وَلَكِنْ لَا يَتَزَبَّدُ عَنْ فَكْرِكَ أَنَّ خَطَّ
الْمَعَانِي عَلَى الْوَرَقِ أَسْهَلُ مِنْ نَقْشِهَا فِي صُحُفِ الْحَيَاةِ وَبَجَارِي الْوَاقِعِ .

أَنْشَأَ وَرَقُ الشَّجَرِ هُنَا يَحْتُ وَيَسْقُطُ، لَكِنَّ فَصْلَ الْخَرِيفِ فِي هَذَا الْبَلَدِ جَمِيلٌ
وَأِنْ كَانَ غَزِيرَ الْأَمْطَارِ، فَهُوَ كَوَدَاعِ الْعَزِيزِ: ابْتِسَامٌ فِي بُكَاءٍ، وَتَأْتِي فِيهِ أَيَّامٌ قَدْ
يَتَوَهَّمُ الْإِنْسَانُ فِيهَا أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي فَصْلِ الصَّيْفِ، وَمِمَّا يَزِيدُ هَذَا الْوَهْمَ قُوَّةً أَنَّ
زَيْجِنَا الْبَارَ قَدْ غَرَسَ فِي حَدِيقَتِنَا الْمُرَبَّعَةِ الْمُقَابِلَةِ لِسَبَّاكِ غُرْفَةِ نَوْمِي أَشْجَارَ الْعُودِ
وَالصَّبَّارِ وَالْمَسَاوِيلَةِ، وَأَرَادَ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ اللَّطِيفَةِ أَنْ يَهْدِيَ إِلَى شَيْئًا مِنْ جَنَى أَرْضِ
بِلَادِهِ الَّتِي يَحْفَظُ لَهَا فِي قُوَادِهِ أَشَدَّ ذِكْرٍ . وَيُؤَكِّدُ النَّاسُ أَنَّ بَعْضَ نَبَاتَاتِ الْمَنْطِقَةِ
الْحَارَةِ يُمَكِّنُ إِذَا حِطَلَتْ بِبَعْضِ ضُرُوبٍ مِنَ الْعِنَايَةِ أَنْ تُغْرَسَ هُنَا وَتَتَمَوَّلَا بِنَاهَا
مِنْ فَصْلِ الشَّتَاءِ أَدْنَى أَذَى، فَقَدْ قَالَ لِي بُسْتَانِي السَّيِّدَةِ وَارْتِجُونِ مَا نَصَبُ: «لَيْسَ
السَّبَبُ فِي هَلَاكِ هَذِهِ النَّبَاتَاتِ فِي غَيْرِ إِقْلِيمِهَا هُوَ فَقْدَانُهَا مَا كَانَتْ فِيهِ مِنَ
الْحَرَارَةِ، بَلْ هُوَ مَا تَلَاقِيهِ مِنَ الْجَلِيدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْأُخْرَى، فَهِيَ حِينَئِذٍ تَنْجَحُ
فِي كُورُنَوَائِي لِأَنَّ إِقْلِيمَهَا مُعْتَدِلٌ إِذْ لَيْسَ فِيهِ إِقْرَاطٌ فِي الْحَرَارَةِ وَلَا فِي الْبُرُودَةِ» .

كَمْ مِنْ امْرَأَةٍ تَعِيشُ مَعِيشَةَ هَذِهِ النَّبَاتَاتِ مُطَوِّحًا بِهَا عَنْ مَطْلَعِ شَمْسٍ مَحْبَبَتِهَا
فَلَا تَمُوتُ لَتَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ هَذِهِ الْمَعِيشَةِ . اهـ

(١) يحْتُ : يَنْثَرُ .

(٢) الصَّبَّارُ: هو شجر التين الهندي الحامض الذي يتداوى به؛ والمسَاوِيلَةُ: نبات أميركي بهي الأزهار .

(٣) المَطْلُوحُ: قلى طرح به في الأرض أى ذهب به .

الرسالة السادسة

(من هيلانة إلى إراسم في أول يناير سنة ١٨٥٠)

تَلْقِيحُ « إِمِيل » بِمَادَّةِ الْجَدْرِيِّ وَبَيَانُ وَهْمِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ كُورْنُوَايَ
فِي التَّلْقِيحِ بِهَذِهِ الْمَادَّةِ — ذِكْرُ مَا بَلَغَتْهُ مِنْ تَعْرِفِ أَحْوَالِ « إِمِيل »

قَدْ حَبَّرَنِي سُكُونُكَ وَانْقِطَاعُ رَسَائِلِكَ عَنِّي، فَقَدْ مَضَى زَمَنٌ طَوِيلٌ جِدًّا لَمْ أَحَظْ
فِيهِ شَيْءًا مِنْ أَخْبَارِكَ، فَلَعَلَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ دُخُولَ الْمَكْتُوبَاتِ فِي السَّجَنِ أَيْسَرُ
مِنْ خُرُوجِهَا مِنْهُ وَإِنِّي عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّكَ لَا ذَنْبَ لَكَ فِي هَذَا، وَلَكِنِّي لِبُعْدِي عَنْكَ
تَرَانِي أَوْحِسُ خِيفَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

فَنَاشَى فِي كُورْنُوَايَ مِنْذُ بَضْعَةِ أَسَابِيعَ مَرَضٌ مُعِدُّ أَوْدَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَنْفُسِ،
وَيُقَالُ إِنَّهُ وَقَدْ عَلَيْنَا مِنْ جَنُوبِ إِنْجَلْتَرَة، تُرَى هَلْ كَانَ يَدُورُ فِي خَلْدِكَ أَنَّ مَسْقَطَ
رَأْسِ الطَّيِّبِ جَنَارٌ يَبْرَحُ^(١) أَنْ يَكُونَ أَحَدَ بِلَادِ أَوْرُبَة الَّتِي فِيهَا طَبَقَتَا الْعِيَالِ وَالْمَزَارِعِينَ
هُمَا أَشَدُّ النَّاسِ مُقَاوِمَةً لِنَشْرِئِ الْفَوَائِدِ الَّتِي نَجَمَتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ ذَلِكَ الطَّيِّبِ؟
فَكَثِيرٌ مِنَ الْيُيُوتِ (الْعَائِلَاتِ) يَرْتَضُونَ تَقْدِيمَ أَوْلَادِهِمْ لِلتَّلْقِيحِ إِمَّا بِلَادَةٍ فِيهِمْ
أَوْ حَدَرًا أَوْ وَسُوسَةً، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّقِدُونَ أَنَّ فِي إِبْعَادِ الْمَرَضِ بِاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ
الْوَاقِيَةِ مِنْهُ مَعَارَضَةً لِمَشِيئَةِ اللَّهِ (تَعَالَى)، ثُمَّ إِنَّ مَصْلَحَةَ الطَّيِّبَاتِ فِي هَذَا الْبَلَدِ
وَهُنَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْقَوَائِلِ يُطَبِّعْنَ فِي الْقُرَى عَلَى شَاكِلَتَيْنِ (طَرِيقَتَيْنِ) تَحْصِرُ
فِي تَرْوِيجِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَوْهَامِ^(٢) . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ النِّسَاءَ لَمَّا كَانَ مُعْظَمُهُنَّ يَجْهَلُ طَرِيقَةَ

(١) جارطيد انجليزي هو المختصر لتلقيح بالمادة الجدري في أوردية حوال سنة ١٧٧٦ م .

(٢) هذا الأمر منشأ الجهل ويشبه أن يكون عاما في الطبقة الدنيا من كل أمة - المترجم .

التَّقْيِجَ وَكَانَ شَأْنُهُنَّ أَقِيَامَ عَلَى مَنْ يُصَابُونَ بِالْمَرَضِ فَلَا يُسْتَعْرَبُ بَعْدَ هَذَا إِزْدِيَادُ
عَدَدِ وَقَائِهِ . لَمْ يَكْتَفِ الدُّكْتُورُ بِتَقْيِجِ « إِمِيسَل » بَلْ أَرَادَ أَنْ يُحَدِّدَ تَقْيِجِي
لِلتَّوَقُّي مِنَ الْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بِنَا .

إِنِّي — وَلَا أَخْفِي عَنْكَ — عِنْدَمَا أَفَكَّرُ فِي الْجُدْرِيِّ آتَسُ مِنْ نَفْسِي رُعْبًا
وَأَشْتِمُزَا لَا يُحِيطُ بِمَا الْوَصْفُ ، وَخُصُوصًا إِذَا تَمَثَّلَ فِي خَاطِرِي أَنَّهُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ
آثَارِ هَذَا الْمَرَضِ الشَّنِيعِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ رِجَالِ الْقَرْنِ الْمَاضِي وَنِسَائِهِ ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ
لَيَقْضِي يَوْمَهُ تَأَلَّمًا وَكَدْرًا إِذَا خَطَرَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَخْدَانِ الْمُلُوكِ كَالْأَنَسَةِ
لَا قَالِيرَ وَالسَّيِّدَةِ دُوبَارِي (١) وَغَيْرِهِمَا مِنْ رَبَّاتِ الْحُسْنِ اللَّاتِي طَارَصْنِيْنُ بِالْجَمَالِ
لِنَعَايَةِ حَظْنِ كُنَّ جَمِيعًا مَجْدُورَاتٍ بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ ، وَأَمَّا أَنَا (٢)

(١) الأكنة لا فالير واسمها فرنسية دوق: دولابوم لوبلان هي ابنة حاكم قلعة أمبواز ولدت على
مقربة من تورغرنه سنة ١٦٤٤ وماتت سنة ١٧١٠ ميلادية وأدخلت بلاط لويس الرابع عشر
ملك فرنسة لتكون من قرينات العروس ليلة الدخول بها فاشققها الملك وعشقه ثم رزقت منه بولدين
ثم انتهى أمرها بترك بلاط الملك والاقامة في دير نسبت فيه لوزير الرحمة وكتبت هناك كتابها المسمى
اعترافات مدام لا فالير .

(٢) مدام دوباري اسمها مريم حنا أميرة (كونتيسة) ماردوغورنيه ولدت في فوكولود سنة ١٧٢٦
وماتت سنة ١٧٩٣ كان أبوها كاتبًا في مصلحة العوائد وكانت هي من العملة في باريس ثم أدخلت حاشية
ظيوم دوباري بواسطة أخيه حنا دوباري وخادم فراشه ثم تزوجها غليوم ثم صارت خلية لويس
الخامس عشر ثم قاعها لويس السادس عشر ثم حكم باعلامها لاتهامها بآليب الناس على الجمهورية وقبض
فيها الحكم في ديسمبر سنة ١٧٩٣ م .

(٣) الخلدن : المشقة ، وكان حقها مهما برعت في الحسن ومهما بلغت مكاة طاشقها من السموة
أن تكون محلًا للقرابة والاحترار لأن تقضى المرأة المحترمة يومها في كدر اذا فكرت في أنها أصيبت
بالجدري ولكنها الحرة ترين القبح وتحسن المزدول — (المترجم) .

فَإِنِّي أَشْكُرُ لِعِلْمِ الطَّبِّ نِعْمَتَهُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَهِيَ تَحْرِيرُ وَجْهِهِ وَإِعْفَاؤُهُ مِمَّا كَانَ يُؤْدِيهِ مِنَ الْحِزْنَةِ لِذَلِكَ الدَّاءِ الْمُرَوِّعِ فِي أَغْلِبِ إِغَارَاتِهِ ، فَقَدْ كَانَتْ الْفَنَاءُ مِنَّا مَعْتَشَرِ النِّسَاءِ تَرَى أَمَلَهَا فِي أَنَّ نَحْبَ قَدْ انْقَطَعَ بِمَا كَانَ يَنْهَجِي بِسَبِيلِهِ مِنْ حَاسِنِهَا ، وَإِنِّي وَلَسْتُ الْآنَ فَتَاقَ أَقُولُ : لَوْ جُعِلَتْ لِي الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا عَلَى أَنَّ أَخْسَرَ مَا لِي مِنْ بَقِيَّةِ الْجَمَالِ الْقَلِيلَةِ مَا رَضِيْتُهَا مِنْهَا بَدَلًا ، فَإِنِّي إِخَالُ أَنَّنِي لَوْ فَقَدْتُ تِلْكَ الْبَقِيَّةَ لَأَنْكَرْتَنِي وَأَنْقَطَعَتْ عَنْكَ مَعْرِفَتِي ^(١) .

إِنَّكَ بِمَا كَلَّفْتَنِي مِنْ مُرَاقَبَةِ أَحْوَالِ الطُّفُولِيَّةِ وَاسْتِعْرَافِ شُؤْنِهَا فِي تَخْصِصِ «إِمِيل» كَأَنَّكَ قَدْ بَعَثْتَنِي لِاسْتِكْشَافِ بَلَدٍ مَجْهُولٍ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُحَقِّقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ وَجُودُهُ عَالِمٌ لِلْأَطْفَالِ عَلَى حَدِيثِهِ ، لِأَنَّ جَمِيعَ مَنْ رَأَيْتُهُمْ مِنْهُمْ لَا يَكَادُونَ يَحْتَلِفُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ إِحْسَاسِهِمْ وَإِبْدَاءِ أَنْفَعَالَتِهِمْ ، وَلَكِنْ مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا الرُّجُوعُ إِلَى دُخُولِ هَذَا الْعَالَمِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ . فَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَا نَذَكَّرُهُ مِنْ مَاضِينَا لِنُفَعِّلَهُ مَعْرِفَةَ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِ تَبَيَّنَا أَنَّهُ الْجَنَّةُ الْأَرْضِيَّةُ الَّتِي لَمْ يُخْرِجْنَا مِنْهَا إِلَّا بِجُرْدِ نَمُونَا وَكِبَرِنَا . وَأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْبَسِ الْبَحْثُ عَنْ مَوْعِدِهَا فِي خَارِئَةِ ذَاكِرَتِنَا ، وَرُبَّمَا مِلْتُ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ الطِّفْلَ سَاكِنَ تِلْكَ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ مَطْلَعُ فَجْرِ حَيَاتِهِ وَدَارُ هُدُوهِ وَسُكُونِهِ يَفْرُقُ مِنْ أَمْرِهَا أَكْثَرِيًّا تَعْرِفُ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ اللَّهُ (مُجَاهِدًا) قَدْ اسْتَوْدَعَهُ سِرَّهَا فَهَذَا السَّرُّهُوَ فِي غَايَةِ الْحِفْظِ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ،

(١) ليس الجمال وحده هو الذى يجب المرأة الى زوجها فقد يكون فيها من الحسنات الخفية والسجايا

النفسية ما يكون بالغ تأثيرا في قلب الرجل من الجمال الحسى المجرد - (الترجم)

إِذْ كَيْفَ يَصْحُحُ تَحْمِينًا مَا يَقَعُ فِي نَفْسِ ذَاتِ صَغِيرَةٍ عَاجِزَةٍ عَنْ بَيَانِ لَذَائِهَا
وَأَلَامِهَا؟ — اللَّهُمَّ إِلَّا بِلَهْجَةٍ مُبْهَمَةٍ وَأَصْوَاتٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةِ الْمَخَارِجِ . وَقَدْ تَبَيَّنَتْ
بِمَا أَلَحِظُهُ فِي الْأَطْفَالِ كُلِّ يَوْمٍ أَنَّ لَهُمْ لُغَةً تَكُونُ قَبْلَ الْكَلَامِ يَكْثِيرُ ،
وَلَكِنْ مَا أَهْمُهَا وَاعْتَصَرَ فَهْمَهَا حَتَّى عَلَى الْأُمَّهَاتِ أَنْفُسِهِنَّ ! وَإِنِّي إِخَالِي أَنَّهُمْ
بَعْضَ رَغَبَاتِ « إِمِيل » وَأَدْرِكُ أَفْرَاحَهُ وَأَتَرَاخُهُ وَهَذَا لَا يَكْفِي فِي مَعْرِفَتِهِ .

مُنْتَهَى مَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَقُولَ فِيمَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ اسْتِعْرَافِ أَحْوَالِهِ : هُوَ أَنِّي
لَا حَظُّتُ فِيهِ حُصُولَ اسْتِحَالَاتٍ كُبْرَى ، فَإِنَّهُ فِي مُدَّةِ الشَّهْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْ وَلَادَتِهِ
كَانَتْ مَعِيشَتُهُ كُلُّهَا فِي نَفْسِهِ (إِنْ صَحَّ تَسْمِيَةُ هَذَا مَعِيشَةً) فَلَمْ يَكُنْ لَهُ ارْتِبَاطٌ
بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ ، وَأَمَّا الْآنَ فَهُوَ يُمَيِّزُ بَعْضَ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ تَمَيِّزًا فِيهِ تَوَعُّدٌ
مِنَ الْوُضُوحِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ يَتَبَسَّمُ لِي .

يَوْمَنَا هَذَا هُوَ عِيدُ أَوَّلِ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَلَكِنْ مَا أَشَدَّ حُزْنِي فِيهِ وَأَعْظَمُ
كَدْرِي ! . وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَرْجُوا لِمَنْ يُحِبُّونَهُمْ
مِنَ الْخَيْرِ مَا يَشَاءُونَ ، وَأَنَا أَرْجُو لَكَ شَيْئًا وَاحِدًا وَهُوَ أَنْ تَعُودَ إِلَيْكَ نِعْمَةُ الْحُرِّيَّةِ .
حَاشِيَةٌ — هَدَيْتِي إِلَيْكَ فِي هَذَا الْعِيدِ هِيَ خُصْلَةٌ مِنْ شَعْرِ إِمِيلَ أَرْسَلْتُهَا فِي طَيِّ
هَذِهِ الرَّسَالَةِ . ١٠ هـ

الرسالة السابعة

(من هيلانة إلى لارسم في ٣ أبريل سنة ١٨٥٠)

بَيَانُ أَنَّ سَبَبَ قُتُورِ مَشَاعِرِ الطِّفْلِ عَدَمُ الْإِنْفَاقِ إِلَى الْمُحْسُوسَاتِ لَا ضَعْفُ

الْمَشَاعِرِ قِسْمًا وَوُجُوبُ تَنْبِيهِهِ إِلَيْهَا — تَدْرِيبُ الطِّفْلِ

عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ

قَدْ جَاءَنِي السَّيِّدُ ... يَتَنَبَّهٌ مِنْ أَخْبَارِكَ بَعْدَ طَوِيلٍ تَطَلَّعِي إِلَيْهَا فَأَطْمَآنَ قَلْبِي

قَلِيلًا بِمَا قَالَهُ لِي عَنْكَ وَزَالَ بَعْضُ مَا كُنْتُ أَحِدُهُ مِنَ الْجَزَعِ عَلَيْكَ .

لَا يُخْطَرَنَّ بِإِلَّاكَ أَنِّي تَسَبَّيْتُ مَا تَلَقَّيْتُهُ مِنْ نَصَائِحِكَ وَتَعْلِيمِكَ فِي تَرْبِيَةِ

« إِمِيل » فَإِنِّي بِإِذْنِ قُصَارَى جُهْدِي فِي تَعْرِيفِهِ بِمَا حَوَّلَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَفِي هَذَا

الْمَقَامِ أَقُولُ : إِنِّي أَحْسَبُنِي قَدْ تَبَيَّنْتُ أَنَّ قُتُورَ مَشَاعِرِ الطِّفْلِ يَنْشَأُ مِنْ عَدَمِ انْفَاقِهِ

إِلَى الْمُحْسُوسَاتِ أَكْثَرَ مِنْ حُدُوثِهِ مِنْ ضَعْفِ تِلْكَ الْمَشَاعِرِ فَإِنَّ فِي قُدْرَتِهِ أَنَّ

يُدْرِكَ أَصَوَاتَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجِيَّةِ وَالْوَانِيَا تَمَامَ الْإِنْدِرَاقِ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّفَ

نَفْسَهُ الْإِضْفَاءَ وَالنَّظَرَ إِلَيْهَا ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَا تَسْمِعُهُ كَانَ يُغْفِلُهَا

إِغْفَالًا تَامًا ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بَصَرَهُ وَلَا سَمْعَ إِلَّا فِيمَا يُحِبُّ إِبْصَارَهُ

وَسَمَاعَهُ ، وَإِذَا كَانَتْ هَذَا شَأْنُهُ فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَرُوقُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ

وَمَا لَا يَرُوقُهُ ؟ أَعْتَرِفُ — وَأَنَا صَاغِرَةٌ — بِأَنِّي كَثِيرًا مَا أَخْطَأْتُ فِي اسْتِعْرَافِ تِلْكَ

الْأَشْيَاءِ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا أَتَخَيَّرُهُ مِنْهَا لِتَنْشِيطِ حَاسَةِ الَّلَّمْسِ فِي « إِمِيل » يُحِبُّ أَنْ يُجِلَّ

فِيهِ يَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ ، ثُمَّ إِنَّ أَبَى الْأَلْوَانِ وَأَجْلَهَا فِي نَظَرِي تَمَرَّامًا عَيْنَهُ مُرُورَ
الظَّلَالِ فَلَا تَلْفَيْتُهُ أَذَى لَفِي ، وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّ مَعَشَرَ الْأَمْهَاتِ مَدْفُوعَاتٍ فِي هَذَا
الْأَمْرِ وَفِي غَيْرِهِ إِلَى إِحْلَالِ أَذْوَاقِنَا حَلَّ أَذْوَاقِ الْأَطْفَالِ .

وَجُورِحَةٌ — عَلَى كَوْنِهَا أَقَلُّ مِنِّي ارْتِيَاظًا بِالْعِلْمِ — كَثِيرًا مَا تَكُونُ أُتَمِّحُ مِنِّي
فِي سِيَاسَةِ «إِمِيل» فَأَنَا تَجِدُ بَغْيَ زَيْنَتِهَا مَا يُصْجِبُهُ وَيُسَلِّهِ وَيَنْبِئُهُ قُوَّةَ الْإِسْطِلَاجِ فِيهِ
وَرُبَّمَا كَانَتْ تَسْتَعْرِفُ رَغَائِبَهُ فَتَسْجَى فِي تَحْصِيلِهَا لَهُ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهَا — كَمَا تَعْلَمُ —
قَدْ كَانَتْ وَالِدَةٌ لِثَلَاثَةِ أَوْلَادٍ حَرَمَهَا مِنْهُمْ الرِّقَّ عَلَى التَّعَاقُبِ . وَلَا تَدْرِي ابْنُ هُمْ
الْآنَ . فَلَا يَدْعُ إِذَنْ فِي شِدَّةِ تَلَفُّفِهَا «إِمِيل» وَحُبِّهَا لَهُ ، وَأَنَا فِي وَجْدٍ عَلَيْهَا مِنْ حُبِّهَا
إِيَّاهُ أَكْثَرَ مِنِّي ، وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَدًّا فَإِنَّهُ مُسْتَحِيلٌ ، وَإِنَّمَا الَّذِي أَحْسَدَهَا
عَلَيْهِ هُوَ قُدْرَتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ طِفْلَةً مَعَ الطِّفْلِ وَكَأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي تَعْنِيهِ بِكَلَامِكَ
فِي اسْتِعْدَادِ الْمَرْأَةِ الرَّجِيئَةِ لِلْأُمُومَةِ .

لَا إِخْلَاكَ تُصَدِّقُنِي إِنْ قُلْتُ لَكَ إِنَّ (إِمِيل) قَدْ صَارَ أَصْدَقَ التَّائِبِينَ لَزُورِوِاسْتَر^(١٢)
أَعْنِي أَنَّهُ يَعْبُدُ الشَّمْسَ . وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَعْتَقِدَ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَرَاهُ لِتَنْظُرَ كَيْفَ يَسْطُرُ
ذِرَاعِيهِ إِلَى ضِيَائِهَا فَرَحًا بِرُؤُوسِهِ .

(١) وجد : أي غضب .

(٢) زورواستر هو شاعر يهودي لاثم البكر يانية وهم سكان قسم من آسيا كان يدعى قديما بكرة يانية
وهو الآن تركستان ، وهذا الرجل هو المؤسس للديانة الفارسية التي تدعو الآخزين بها للاعتقاد بالهين وهما
الضياء ، والظلام أو منشأهما وهما روحا الخير والشر ، ويسمى الأول أورومزد والثاني أهريمان أو أهرمن
وهذا هو أصل مذهب المانوية .

كَانَ الشَّتَاءُ عِنْدَنَا فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ فَلَمْ يَتَرَلْ فِيهِ التَّلُجُّ إِلَّا مَرَّتَيْنِ، عَلَى أَنَّهُ
كَانَ فِيهِمَا يَذُوبُ بِمُجَرَّدِ مَلَأَسَتِهِ الْأَرْضَ، وَلَا تَرَالُ الْأَشْجَارُ مُجَرَّدَةً مِنْ أَوْاقِهَا،
وَالرِّيفُ الْعَارِي مِنَ الْخُضْرَةِ كَالْبَيْتِ الْخَالِي مِنَ الْفِرَاشِ وَالْأَثَاثِ . عَلَى أَنَّ
نَفْعَةَ مِنَ الْحَيَاةِ أَنْشَأَتْ تَدَبُّ وَتَسْرِي فِي مَادَّةِ الْكَوْنِ جَمِيعِهِ وَلَا تَلَبُّ أَنْ تَمَلَأَ
مَا خَلَفَهُ الْفَصْلُ الْمُتَقَضِّي مِنَ الْفَرَاغِ ، وَقَدْ أَمَسَتْ الْأَصَالُ عِنْدَنَا فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ
وَالنُّطْفِ . وَلِذَلِكَ تَرَى (إِمِيلَ) إِذَا رَأَى الْجَوْ صَحَّوْا أَبَدَى مِنَ الْقَلْقَى مَا يَدُلُّ عَلَى
رَغْبَتِهِ . أَنَّ يُحْمَلَ إِلَى الْحَدِيقَةِ، وَلَمَّا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي كُورُؤَاوَى خُصُوصًا زَمَنَ
الرَّبِيعِ لَا ضَرَرَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ بَلْ هِيَ تَلَأُمُ الْأَطْفَالِ وَالشُّيُخِ اعْتَادَتْ جُورِجِيَّةُ أَنَّ
تَفْرِشَ سَجَادَةً عَلَى الْحَشِيشِ الْجَنَافِ وَتُجْلِسَ عَلَيْهَا (إِمِيلَ) لِيَلْعَبَ وَيَمْحَ كَمَا يَسَاءُ،
وَلَمَّا رَأَيْتَهُ يَتِمَدُّ عَلَيْنَا فِي حِرَاسَتِهِ مَدَّةَ وُجُودِنَا مَعَهُ قَصَدْتُ أَنْ أَعْلِمَهُ شَيْئًا مِنْ
الثَّقَةِ بِنَفْسِهِ وَالْإِرْتِكَانِ عَلَيْهَا . فَأَوْعَزْتُ إِلَى جُورِجِيَّةَ بِالنَّحْيِ عَنْهُ وَاخْتَفَيْتُ أَنَا
أَيْضًا عَنْ بَصَرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَغِيبَ عَنْ عَيْنِي، فَلَا حَظَّ أَنَّهُ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ خَافَ
عِنْدَ مَا سَمِعَ بِوُجُودِهِ وَجِدًا وَأَبَدَى بَعْضَ الْقَلْقَى، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ تَسَمَّعَ وَقَوَّى
قَلْبَهُ ، فَكُنْتُ حِينَئِذٍ أَرَاهُ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ وَيَلْتَفِتُ إِلَى كُلِّ مَا يَحْصُلُ حَوْلَهُ، وَيُحَرِّكُ
يَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ كَأَنَّهُ يَدُودُ ذِبَابَةٍ تَطُلُّ فَوْقَ رَأْسِهِ، فَاحْدَثْتُ عَلَى نَفْسِي مِنْ هَذَا
الْوَقْتِ أَنَّ أَكُفَّ عَنْهُ مُرَاقَبَتِي حِينَ بَعْدَ حِينَ حَتَّى إِذَا أَحَسَّ بِقِلَّةِ حِمَايَتِي لَهُ تَعَلَّمَ
كَيْفَ يَسْتَنْفِي عَنْ مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِ .

كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي فُرُوضِ الْأُمُومَةِ بَدَأَ لِي مِنْهَا مَعْنَى قَلْبًا يُشَاهِدُهُ مَا يَفْهَمُهُ غَيْرِي
مِنَ النِّسَاءِ، فَأَتَى أَرَى أَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيَّ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَكْبُرَ (إِمِيل) أَنْ أُحْرِمَ نَفْسِي
مِنْ لَذَّةٍ مُكَاشَفَتِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِأَتَى مُهِمَّةً بِهِ لِأَنَّ أَكْبَرُ شَيْءٍ يَبْغُو نُمُو الشَّاعِرِ
فِي بَعْضِ الْأَطْفَالِ وَيُعْطَلُ اسْتِقْرَارَ طَبَاعِهِمْ إِنَّمَا هُوَ — فِيمَا أَرَى — طَرِيقَةُ
الْقَائِمِينَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْبِيَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ بِكَثْرَةِ حَيَاطَتِهِمْ يَضُرُّوهُ مِنَ الْعِنَايَةِ الْبَالِغَةِ غَائِبًا
مِنَ الظُّهُورِ وَالنَّاشِئَةِ عَنْ قِرْطِ الْإِهْتِمَامِ بِهِمْ يُعَوِّدُونَهُمْ أَنَّ يَعْيشُوا غَيْرَ مُهِمَّةٍ
بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ الطِّفْلَ إِذَا كَانَ غَيْبًا مُتَجَرِّفًا لَا يَتَكَفَّفُ بِإِعْمَالِ مَلَكَةِ الْإِحْتِفَاطِ
بِنَفْسِهِ، بَلْ يَكُونُ شَأْنُهُ كُلُّوهُ الشَّرْقَ الْحَقِيقِي الَّذِي يَهْوِي عَلَيْهِمْ أَنْ يُسْمَوْا شَيْئًا دُوْلِمِ
«أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ» طَبِيعَةُ ذَلِكَ نَفْسُهُمْ، لِأَنَّهُ يَتَّكِدُ أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ابْصَارِهِ
وَسَمَاعِهِ بِالْمَرْبِّيَّاتِ الْقَائِمَاتِ عَلَيْهِ الْمَكَلَّفَاتِ خِدْمَتُهُ وَتَعَرَّفَ حَاجَاتِهِ لِقَضَائِهَا،
وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الطِّفْلَ الْمُبَالِغَ فِي حِفْظِهِ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ يَوْمًا مَا بَعْدَ أَنْ كَانَ
مُحَوَّلًا بِأَمْنٍ أَسْبَابِ الْوَقَايَةِ قَدْ خَلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقَلِّ خَطَرٍ يُلْمُ بِهِ يَكُونُ أَسْوَأَ النَّاسِ
حَالًا وَأَكْثَفُهُمْ بَلَاءً، بَلْ يَكُونُ هُوَ الشَّخْصَ الَّذِي يُحْكِي عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَخَافُ مِنْ
ظِلِّهِ .

يَدْعُونِي (إِمِيل) بِأَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَقَدْ ذَكَرْتُ بِالْأَمْسِ
تَخْصِيصًا مِنَ الْمَذْكُورِينَ فِي أُسَاطِيرِ الْأَقْدَمِينَ، ذَلِكَ أَنَّ الْأَطْفَالَ لَا حِسَابَ لِلْمَسَافَاتِ
عِنْدَهُمْ، وَهَذَا الْأَمْرُ فِيهِمْ مَنْشَأٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَغَالِيطِ الْبَعِيرَةِ فَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَدِيقَةِ
وَكَانَتْ جُورْجِيَّةٌ وَاقِعَةً لِمَاءِ شُبَّانٍ مِنْ شَبَابِيكِ الْمَتَزِلِّ الْمُشْرِفَةِ عَلَى مَكَانِي وَهُوَ صَ
يَدِيهَا، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ حَتَّى بَدَتْ عَلَيْهِ عَلَامَةُ الْإِهْتِمَاجِ وَمَدَّ إِلَى يَدَيْهِ

كَالْجَنَاحَيْنِ ، عَلَى أَنَّ الشَّبَاكَ الَّذِي كَانَ يُطْلُ مِنْهُ هُوَ فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَيْتِ ، فَلَمَّا لَمْ تَصِلْ إِلَى يَدَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْإِنْدِهَاشُ ، ثُمَّ أَفْضَى بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ غَضِبَ وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ، وَالَّذِي كَانَ يَتَخَبَّهَ مَنِّي يَحْسِبُ مَا يَحْلُو لِي أَعْتَقَادُهُ — هُوَ مَا أُبْدِيهِ لَهُ مِنْ صُنُوفِ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُدَاعِيَةِ ، بَلْ كَانَ يُرِيدُ أَيْضًا إِلْتِقَامَ نَدْبِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَضَعَ مِنْ بَضِيعِ سَاعَاتٍ . فَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْمَحْبُوبِ الْمَسْكِينِ مَثِيلٌ فِي عَذَابِهِ هَذَا إِلَّا طَانَتَالُ^(١) .

(إِمِيلُ) يَعْرِفُكَ بَلْ يَعْرِفُ صُورَتَكَ الَّتِي أُرِيهِ إِيَّاهَا ذَاكَ لَهُ إِسْمُكَ ، وَلَا إِحَاثِي . وَأَهَمَّةٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَحْمِلَقْتَهُ فِي مِثَالِكَ وَأَنْتَسَامِهِ لَهُ وَمَدَّ يَدَيْهِ نَحْوَهُ يَظْهَرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ وَالِدَهُ تَحْمِينًا .

(١) طانتال في أساطير الأقدمين هو ملك فرميجية التي هي قطر من أقطار آسية الصغرى ، وكان قدم للألهة أشلاء أولاده طاما ما فزوب بالجوع والعطش في جهنم ويضرب بعذابه المثل فيقال : فلان يذوب عذاب طانتال . اذا كان على الدوام يعتقد أنه قد صار من رغايبه بكان اللامس وهو في الحقيقة عاجز عن ادراكها .

الرسالة الثامنة

(مِنْ مِرَاسَمٍ إِلَى هِلَانَةَ فِي ١٥ يُونِيَّةِ سَنَةِ - ١٨٥٠)

تَصَوِّبُ رَأْيَا فِي تَعْرِفِ أَذْوَاقِ «إِمِيلَ» وَانْتِقَادِ الْوَالِدَيْنِ اللَّذَيْنِ يُنْشِئَانِ الطِّفْلَ

عَلَى مِثَالِهِمَا فِي الطَّبَاعِ وَالْأَذْوَاقِ، وَبَيَانِ مَاهِيَةِ الطَّيِّعِ وَانْفِعَالَاتِ

الطِّفْلِ وَأَسْبَابِهَا وَدَوَائِهَا، وَوُجُوبِ مُقَاوَمَةِ التَّرْبِيَةِ لِأَهْوَائِهِ

الْقَاسِدَةِ وَبَيَانِ أَنَّ لِهَذِهِ الْمَقَاوِمَةَ طَرِيقَيْنِ أَحَدُهُمَا

الْمُتَأَوُّةُ عَنْهَا، وَالثَّانِي جَعْلُهُ بِمَعْزِلٍ عَنِ

الْبَوَائِعِ الْمُثِيرَةِ لَهَا

لَا سَبَبَ لِانْقِطَاعِ رِسَائِلِي عَنْكَ إِلَّا تَرْفِي فُرْصَةٍ مُمَكِّنِي مِنْ إِصْلَاحِهَا إِلَيْكَ،

وَقَدْ تَلَقَّيْتُ مَكْتُوبَاتِكَ الْأَخِيرَةَ فَأَخَذْتُ مَا ذَكَرْتَهُ فِيهَا عَنْ (إِمِيلَ) بِجَمَاعٍ لِي وَبَعَثْتُ

فِي دَوَائِي الْحَنَانِ وَالرَّحْمَةَ، وَلَمْ أَكُنْ إِلَى الْآنَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِي الَّتِي

قَضَيْتُهَا فِي الْإِسْتِغَالِ بِالْعِلْمِ وَمُنَاطَرَةِ الْحُكَمَاءِ وَمُقَارَعَةِ خُطُوبِ الدَّهْرِ، وَلَا غَرَوَ

فَإِنِّي وَلِدْتُ مُسْتَعِدًّا لِلْأُبُوءِ وَأَوْدْتُ لَوْ أَرَى وَلَدِي وَلَوْ بَذَلْتُ فِي ذَلِكَ جَمِيعَ مَا أَمَّاكُهُ

مِنَ الْخَطَايَا وَلَئِي مُجَرِّدُكُمْ بِأَمْرِ - وَإِنْ كَانَ لَا يَنْبَغِي مُكَاشَفَتُكُمْ بِهِ - وَهُوَ أَيْ كُنْتُ

عَزَمْتُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ عَلَى دَعْوَتِكَ إِلَى الْحُضُورِ إِلَى يَهْ عَلَى مَا بَيْنَنَا مِنَ الْبَحَارِ الزَّائِرَةِ

وَالْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةِ، لِعِلْمِي بِأَنَّ مَا فِيكَ مِنَ الْإِقْدَامِ وَرَبَاطَةِ الْجَسَدِ تَتَضَامَلُ

دُونَهُ الْعَوَائِقُ، فَلَا يَنْبَغِي مِنْهَا شَيْءٌ عَنْ تَلِيَّةِ دَعْوِي، وَكَأَنِّي بِكَ بَعْدَ هَذَا تَسْأَلُنِي

عَنِ السَّبَبِ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَلَا يَزَالُ يَمْنَعُنِي مِنْهَا، فَأَقُولُ : إِنِّي قُلْتُ

فِي نَفْسِي قَدْ يَكُونُ مِنَ الْأَثَرِ أَنْ أُحْمِلَ سِجْنِي ذَاتَيْنِ هُمَا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ
وَأَخْفَضَ مِنْ حَالِهِمَا ، وَلَا حَقَّ لِي فِي أَنْ أُسْتَلَبَ مِنْ هَذَا الطِّفْلِ غِرَارَتُهُ وَغَفْلَتُهُ
وَبَوَاطِينُ سُرُورِهِ وَابْتِهَاجِهِ ، بِالصَّافِيَةِ بِي فِي مِحْنَتِي الَّتِي خَصَّنِي بِهَا الْقَدَرُ ، مَعَ اللَّهِ
أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنِّي ، فَلَيْسَبْ وَلَيْتَرَعَرَ حُرًّا مُغْتَبِطًا فِي جَنَاحِ وَالِدَتِهِ وَكَفَنِيهَا .

أَرَأَيْكَ حُكْمَةً فِي أَهْمَانِكَ بِتَعَرُّفِ أَذْوَاقِ (إِمِيل) ، فَإِنَّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْجُمْلَةِ
يُنْشِئَانِ أَوْلَادَهُمَا عَلَى مَنَاحِلِهِمَا فِي الطَّبَاجِ وَالْأَذْوَاقِ ، عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ الَّذِي
كَانَ يَنْبَغِي اجْتِنَابُهُ ، لِأَنَّ الطِّفْلَ إِذَا كَانَ أَلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الْكِبَارِ الْمُنُوطِينَ بِسِيَاسَتِهِ ،
وَالَّةَ تَفْعِيلٍ بِمَشَارِبِهِمْ وَأَنْكَارِهِمْ ، فَإِنَّهُ يَتَّعَدُّ مَوَاقِفَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَهَذَا هُوَ
السَّبَبُ فِي نُدْرَةِ الرِّجَالِ الْمُسْتَغْلِينَ اسْتِقْلَالًا صَحِيحًا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ . وَإِنَّمَا إِذَا قَشْنَا
عَنِ الْعِلَّةِ فِي وَشِكِ زَوَالِ مَا فِيْنَا مِنْ أَنْوَاعِ الْإِسْتِعْدَادِ وَالْقَابِلِيَّاتِ الْخَاصَّةِ وَالسَّيْرِ
النَّاتِيَةِ قُرْبًا وَجَدْنَاهَا فِي تَرْبِيَتِنَا الْأُولَى فَإِنَّمَا مَتَارَافَاتِنَا وَتَقَائِصُنَا النَّفْسِيَّةِ .

وَلَتَبَحِّثْ أَيْدَاءَ فِي مَاهِيَةِ الطَّبِيعِ فَقُولُ : جَرَى اصْطِلَاحُ الْعُلَمَاءِ بِإِطْلَاقِ هَذَا
الْفَلِظِ عَلَى مَجْمُوعِ مِنَ الْقُوَى الْمُؤَلَّفَةِ الَّتِي لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا تَرْجِعُ بِأَصْلِهَا إِلَى الْفِطْرَةِ ،
وَلِكِنِّهَا عَلَى الدَّوَامِ فِي تَغْيِيرٍ وَتَجَدُّدٍ لِأَسْبَابٍ بَاطِنِيَّةٍ وَظَاهِرِيَّةٍ ، فَمِنْ الْأَسْبَابِ الْبَاطِنِيَّةِ :
الْإِرَادَةُ ، فَإِنَّ لَهَا شَيْئًا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي أَهْوَانِنَا وَشَهَوَاتِنَا وَمَحَبَّاتِنَا ، وَكَأَنِّي بِسَائِلٍ يَقُولُ :
وَهَلْ هَذِهِ الْإِرَادَةُ نَفْسُهَا خَلْقِيَّةٌ أَوْ مُكْتَسَبَةٌ ؟ فَأَجِيبُهُ : إِنَّهَا تَجْمَعُ الْوُصْفَيْنِ عَلَى
مَا أَعْتَقَدُ لِأَنَّهَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي الطِّفْلِ بِمُجَرَّدِ وِلَادَتِهِ ، وَكُلَّمَا شَبَّ وَكَبُرَ قَوِيَتْ

(١) الفكرة : السذاجة وقلة التجربة . (٢) بواكير جمع باكورة وهي أول ما يبدو من الشيء .

وَحَدَّثَتْ وَجْهَهَا بِالتَّدْرِيبِ عَلَيْهَا وَالْمَارَسَةِ لَهَا ، وَأَمَّا الْأَسْبَابُ الظَّاهِرَةُ فَيَكْفِي
 أَنْ تُشَبَّلَ لَهَا بِالْبَيْتِ (الْعَائِلَةِ) وَالتَّرَبُّيَّةِ وَالِاخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ وَمُعَاشَرَتِهِمْ . فَلَوْ أَنَّ
 الْفَرَسِيَّ الْمَسِيحِيَّ وُلِدَ فِي الصِّينِ مِنْ أَبِي نَسَا عَلَى آدَابِ كُونْفُوشْيُوسِ (١) وَتَعَالَمِهِ
 لَكَانَ مُغَايِرًا لَنَا فِي آرَائِهِ وَسِيرَتِهِ .

الْقُوَى الْمُؤَلَّفُ مِنْهَا طَبْعُ الطِّفْلِ تَكُونُ فِي الْأَيَّامِ النَّالِيَةِ لِوِلَادَتِهِ كَأَنَّهَا مُحِبُّوهُ
 بِإِدْرَاكِ مَشَاعِيرِهِ وَهُوَ فِي هَذَا الْوَقْتِ يَشْعُرُ بِوُجُودِ ذَاتِهِ ، بَلْ هَذَا الشُّعُورُ قَدْ يَكُونُ
 أحيانًا هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ قَلْبًا يَسْدُو مِنْهُ إِلَّا بِحَرَكَاتٍ إِرَادِيَّةٍ ، وَأَعْنَى هَذِهِ
 الْحَرَكَاتِ ضُرُوبُ الرُّعْدَةِ وَالْهَيَاجِ بَلْ وَأَنْوَاعِ الصَّرَاحِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْهُ ، فَإِنَّ كُلَّ
 مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبْدَلَ الْمَا أَوْ يُحْدِثَ غَضَبًا يَكُونُ فِيهِ مَدْعَاةٌ إِلَى ظُهُورِ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ
 الْخَارِجِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَا تَبْدُو مِنْهُ حَرَكَاتٌ تَحَالُفُ مُحْتَلَّةٌ مُغَايِرَةٌ لِلْعَقْلِ لِعَدَمِ تَدْقِيقِنَا
 النَّظَرَ فِي السَّبَبِ الَّذِي يُحْدِثُهَا ، وَلَوْ دَقَّقْنَا النَّظَرَ لَظَهَرَ لَنَا أَنَّهَا لَا تَكُونُ مِنْهُ إِلَّا طَلَبًا
 لِحَصِيلٍ لَذَّةٍ أَوْ تَخْفِيفٍ أَلِيمٍ وَنَحْنُ بِذَلِكَ جَاهِلُونَ وَعَنْهُ غَافِلُونَ ، فَالْغُلَامُ الَّذِي
 فِي الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّلَاثَةِ مِنْ عُمُرِهِ إِذَا طَلَبَ مِنْ مَرْبِّتِهِ شَيْئًا فَمَنَعَتْهُ لِمَا هُوَ فَاسْتَلَقَى عَلَى الْأَرْضِ
 وَأَسَا يَتَمَرَّغُ وَيَنْتَفِ شَعْرُهُ غَيْظًا تَكُونُ أَعْمَالُهُ هَذِهِ مَعْقُولَةً فِي حَقِّهِ لِأَنَّهُ يُحِيدُ فِيهَا
 بِطَرِيقِ الْأَلْهَامِ شِفَاءَ لَأَعْصَابِهِ مِنْ تَهَيُّجِهَا فَيَتَلَاشَى بِهَا حَقِّقَةً وَتَكْتِمِرُ حُدُودُهَا ، وَكَذَلِكَ
 الشَّانُ فِي الْبُكَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَزُولُ بِهَا عَنْ أَعْضَاءِ الْجَسْمِ مَا تَجِدُهُ مِنَ
 الْأَلَمِ بِسَبَبِ تَوَثُّرِ أَعْصَابِهَا .

(١) كُونْفُوشْيُوسُ هُوَ أَحَدُ مَشْهُورِي تِلَافُظَةِ الْآدَابِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ فِي الصِّينِ وَلَدَ فِي سَنَةِ ٥٥١

وَمَاتَ فِي سَنَةِ ٤٩٩ قَبْلَ الْمَسِيحِ .

عَلَى أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ الْغَرِيزِيَّةِ يَبْقَى مُلَازِمًا لَنَا حَتَّى فِي زَمَنِ الرُّجُولِيَّةِ ،
فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَضْرِبُ يَسِيدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ إِذَا بَلَغَهُ خَبَرٌ سَيِّئٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ
يُزَغِرُغُ أَنْفَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا جَاءَتْهُ الْأُمُورُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ انْبَطَحَ فَوْقَ فِرَاشِهِ . وَمِنْ
هَذَا تَعْلَمِينَ أَنَّ أَعْمَلَ الرِّجَالِ تَصَدُّرُ عَنْهُ غَالِبًا وَهُوَ فِي شِدَّةِ انْفِعَالِهِ حَرَكَاتٌ لَا تَصْدُرُّ
إِلَّا عَنْ مَجْزُونٍ ، وَأَنَا لَا أَمَارِي فِي أَنَّهُ يَفْقِدُ مَالَهُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى نَفْسِهِ فِي هَذِهِ
الْحَالَةِ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ : إِنَّ فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَصْدُرُّ عَنْ غَيْرِ رُيَّةٍ حِكْمَةٌ وَإِنْ
كُنَّا لَا نَرَى فِيهَا إِلَّا جُنُونًا وَحَقًّا . ذَلِكَ أَنَّ لِلنَّفْسِ حَالَاتٍ تَقْتَضِي مِنَ الْجِسْمِ
أَوَاضَاعًا مَخْصُوصَةً لِعِلَّةٍ مَحْجُوبٍ عَنْهَا ، فَمِنْ الْأَلَامِ النَّفْسِيَّةِ مَا يَمِيلُ بِنَا إِلَى
الْمُجُوعِ وَالسُّكُونِ ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُنَا إِلَى الْمَتْنِي وَالْحَرَكَةِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى اكْتِنَاهِ عَلَيْهِ
هَذِهِ الْبَوَائِعِ الْوَقْفِيَّةِ الَّتِي تَدْفَعُ بَعْضَ أَعْضَائِنَا إِلَى التَّحَرُّكِ عِنْدَ حَدُوثِ شَيْءٍ مِنْ
ضُرُوبِ الْاضْطِرَابِ الْعَقْلِيِّ إِلَّا لِإِعْتَرَاْفٍ بِأَنَّ الْوُصُولَ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا السَّرِّ مِمَّا لَيْسَ
فِي مَقْدُورِنَا وَهُوَ سَرٌّ آخِرُ جَدِيدٍ بِالتَّفَتُّيشِ عَنْ سَبَبِهِ .

أَوَّلُ حَرِيَّةٍ تَحِبُّ عَلَيْنَا لِلطِّفْلِ هِيَ أَنْ يَكُونَ مُحْضَرًا فِي حَرَكَاتِهِ وَمَقْتَضِيَّاتِ
غَرَائِزِهِ ، وَإِنِّي - وَإِنْ كُنْتُ كَغَيْرِي مِنَ النَّاسِ لَا أَحِبُّ أَنْ أَرَى وَلَدًا مَسْكِينًا يَجْرُ
وَجْهَهُ مِنَ الْقَضْبِ وَيَبْلُغُ بِهِ الْإِنْفِعَالَ إِلَى دَرَجَةِ الْجُنُونِ - أَرَى أَنَّ الْإِغْضَاءَ عَنْ
بَوَادِرِ ذَلِكَ الْقَضْبِ أَخَفُّ ضَرَرًا مِنْ قَمْعِهَا بِالْإِفْرَاطِ فِي التَّسَلُّطِ أَوْ التَّقَهُّرِ ، فَإِنَّهُ
لَا شَيْءَ أَرَادُ مَغْبَةً فِي الْغَيْطِ مِنْ إِكْرَاهِ صَاحِبِهِ عَلَى كَلْمِهِ ، وَلَا أَسْوَءَ فِي الطَّبَاعِ .

(١) زغزغة الأنف : فركه وسكه .

(٢) انبطح : انكب على وجهه .

وَلَا أَحْسَ فِي الْخَلَائِقِ مِمَّا يُقْمَعُ دَائِمًا وَيُرْغَمُ صَاحِبُهُ عَلَى اخْفَائِهِ . عَلَى أَنَّ الطِّفْلَ
 سَيَتَعَلَّمُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ كَرَامَتِهِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ
 وَيَكْتَفِ سَوْرَةَ انْفِعَالَانِهِ وَأَنَّ الْبُكَاءَ وَحَرَكَاتِ الضَّجِيرِ وَخَفَةَ الْفَرْجِ الْخَارِجَةِ
 عَنْ حَدِّ الْإِعْتِدَالِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِالرَّجَالِ قَطْعًا ، بَلْ يَكُونُ كَاللَّاتِنَا الْبُخَارِيَّةِ تُخْرِقُ
 مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ دُخَانِهَا ، وَلَكِنَّا نَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَخَطَّرَ فِي بُلُوغِهِ هَذِهِ الْغَايَةَ رِثْمًا يَنْمُو
 عَقْلُهُ وَتَقْوَى إِرَادَتُهُ .

وَلَسْتُ أَعْنِي بِهَذَا أَنْ يَتْرَكَ الطِّفْلُ وَمَا يَعْتَوِرُهُ مِنَ الْانْفِعَالَاتِ لِعَدَمِ وُجُودِ
 مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُزِيلَهَا ، كَلَّا ! فَإِنَّ الْأَطِبَّاءَ قَدْ اخْتَرَعُوا لِعِلَاجِ الْجُنُونِ طَرِيقَةً سَمَوْهَا :
 التَّلْهِيقَ النَّفْسِيَّ ، يُمَكِّنُ اتِّخَاذَهَا فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ عَلَى مَا أَرَى . عَلَى أَنَّهَا مَعْرُوفَةٌ
 لِلْمَرَاضِعِ مِنْ زَمَنِ لَا تَارِخَ لِمَبْدئِهِ . فَقَلَّمَا تَوَجَّدَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمْ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ
 تُسَكِّنُ غَضَبَ الطِّفْلِ بِصَرْفِ وَجْهِهِ إِلَى مَا يُلْهِيه وَيَسْفَلُ فِكْرَهُ . وَيُمْكِنُ تَعْمِيمُ الْعَمَلِ
 بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، فَإِنَّ مِنَ الْأَطْفَالِ الْحَدِيثِيِّ السَّنَّ جَدًّا مَنْ يَكُونُ لَهُمْ شَغَفٌ بِالْمُوسِيقَى
 مِنْ صَغِيرِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْهَلُ لِلْمَأْوَمِّ بِمَجَرَّدِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ فِي رُؤْيَةِ
 الْحَيَوَانَاتِ لَذَّةً مُخْصُوصَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ هَذِهِ اللَّذَّةَ فِي رُؤْيَةِ بَعْضِ الْأَنْخَاصِ ،
 فَيَبْنِي النَّظَرَ فِي هَذِهِ الْأَذْوَاقِ الْخَلْقِيَّةِ لِأَنَّ جَمِيعَهَا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُمَكِّنُ الْإِعْتِمَادَ
 عَلَيْهَا فِي تَرْبِيَةِ الطَّبْعِ فِيهِمْ .

أَنَا لَا أَعْتَدُّ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ خَلَائِقَ شَرِّ مَحْضًا ، وَلَكِنْ يُوجَدُ مِنْ خَلَائِقِهِ مَا إِذَا
 غَلَبَتْ عَلَيْهِ وَأَسَىءَ تَصَرُّفُهَا فَانْهَارَ بِمَا تَوَدَّى إِلَى عَوَاقِبِ وَخِيمَةٍ ، فَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ :

هَلْ يَجِبُ إِعْدَامُهَا ؟ أَجَبَتْهُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ رَأْيِي لِأَنَّا مَعَ تَسْلِيمِ إِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ النَّهَايَةِ نَكُونُ قَدْ خَالَفْنَا مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ مُخَالَفَةً ظَاهِرَةً ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَبْنِي عَلَيْنَا عَمَلُهُ هُوَ مُعَارَضَةُ تِلْكَ الْفَرَائِزِ بِمَشَارِبٍ وَأَذْوَابٍ أُخْرَى .

أَجِدُ فِي نَفْسِي مَبْلًا إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ طَبْعٌ مَهْمَا كَانَ فَسَادُهُ إِلَّا وَقَدْ انْطَوَتْ فِيهِ وَسِيلَةٌ لِلْخَلَّاصِ مِنْهُ ، فَلَوْ أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى التَّوْبَةِ حَذَقُوا فِي التَّدَرُّعِ بِتِلْكَ الْوَسَائِلِ لِمُكَافَحَةِ الطَّبَاعِ السَّيِّئَةِ وَمُغَالَبَةِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِدَلِّكَ لَحْفَظُوا عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِي كَثِيرًا مِنْ أَفْرَادِهِ الَّذِينَ خَسِرَهُمْ خُسْرَانًا مُؤَبَّدًا فِي السُّجُونِ وَمَعَاهِدِ الْعِقَابِ بِالِاشْتِغَالِ الشَّاقَّةِ ، وَلَسْتُ أَضْرِبُ لَكَ تَأْيِيدًا لِهَذَا الْقَوْلِ إِلَّا مَثَلًا وَاحِدًا أَقْبَسُهُ مِنْ مُذَكَّرَاتِي الْخَاصَّةِ : حَدَّثَنِي لَيْسُ أَنَّهُ أَتَرَقَّى^(١) ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَلْهُى مُوسِيقَى فَبَلَغَ عَلَى أَحَدِ مَقَاعِدِهِ لَا يَسْمَعُ الْمُغْنِينَ بَلْ لِيَرْتَقِبَ فُرْصَةً تُمْكِنُهُ مِنْ سِرْقَةِ مَا عَسَى أَنْ يَجِدَهُ فِي جُيُوبِ مُجَاوِرِيهِ ، فَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ كَانَ مَهْنَةً لَهُ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ هُوَ الْمَسْرُوقُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لِأَنَّهُ كَانَ ذَا كَلْفٍ بِالمُوسِيقَى فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ سَمِعَ أَوَّلَ رَنَةٍ لِلِكَمَنْجَةِ حَتَّى أَحَسَّ بِأَنَّ عَقْلَهُ قَدْ سَلَبَ ، وَلَمَّا أَتَتْهُ الْمُغْنَى دُوبْرِيه^(٢) بَغْنَى صَارَ إِلَى حَالَةٍ أَسْوَأَ مِنْ ذَلِكَ لِغَنَائِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَيَا وَجْهَهُ مِنْ اللَّذَّةِ فِي ذَلِكَ اللَّحْنِ الْمَعْرُوفِ بِلَحْنِ الشَّيْطَانِ رُوِيَتْ الَّذِي فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ مِنْ تِلْكَ الْقِصَّةِ الْغَنَائِيَّةِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْمَعُ رَجْعَ صَوْدَاهُ ، وَبِحُلَّةِ الْقَوْلِ أَنَّهُ نَسِيَ الْإِشْتِغَالَ بِمَهْنَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، فَلَمَّا كَانَ مَسَاءَ الْيَوْمِ الثَّانِي عَادَ إِلَى ذَلِكَ

(١) اترقي : دخل خلعة .

(٢) دوبريه هو جيلبرت لويس مغن فرنسي شهير ومعلم لغن الغناء أيضا وله فيه تأليف .

الْمَاهِي نَفْسَهُ عَاقِلًا نَبِيَّهُ عَلَى أَنْ لَا يَفْتَنَنَّ بِنْتِ الْبَحْرِ وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ النَّبَةِ لَمْ يَحْسِبْ
حِسَابَ نَزِيلِهِ الَّذِي بَيْنَ جَنَبَيْهِ، أَعْنَى مِثْلَهُ الْفِطْرِيُّ إِلَى سَمَاعِ الْأَلْحَانِ، فَخَرَجَ
فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضًا مُتَمَلِّئًا الْأُذُنَيْنِ صَغَرَ الْيَسَدَيْنِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْخَبِيَةِ أَقْسَمَ أَنْ
لَا يَبُودَ فَيَضَعُ قَدَمَيْهِ حَيْثُ يَكُونُ الْمُغْتَرَنُ قَائِلًا إِنَّهُ إِنْ فَصَلَ خَيْرَ بِهِ مِثْلَهُ إِلَى
حِرْفَتِهِ، وَهُوَ قَوْلُ دَالٍّ عَلَى فَحْتِهِ وَاجْتِرَائِهِ عَلَى الْقَبَائِحِ .

الْأَهْوَاءُ الْفَاسِدَةُ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ قُوَى مُسْتَبِدَّةٌ يَبْعَثُهَا نَمُوها الْفِطْرِيُّ أَوِ الْمُنْكَسَبُ
عَلَى أَنْ تَمْلِكَ قِيَادَهُ فَتَتَلَبَّ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الْوُجْدَانِ أَوِ الْأَفْكَارِ، فَمِنْ الْبَدْيِ
أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوَاءَ هِيَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقَاوَمَهَا التَّربِيَةُ مِنْ أَوَّلِ النِّشْأَةِ، وَهَذِهِ الْمُقَاوَمَةُ
يَصِحُّ أَنْ تُكُونَ عَلَى طَرِيقَتَيْنِ أَوَّلَاهُمَا: الرَّجُوعُ إِلَى أَنْوَاعِ النَّهْيَةِ الَّتِي تَسْغُلُ الطِّفْلَ
عَنْهَا وَتَصْرِفُ ذَهْنَهُ إِلَى غَيْرِهَا كَمَا سَبَقَ لِي بَيَانُهُ. وَثَانِيتهما: جَعْلُهُ يَمْعَزِلٍ عَنِ الْبَوَاعِثِ
الْخَارِجَةِ الَّتِي تَسْجُجُ مِنْ غَرَائِزِهِ مَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ فِي تَحْرِيكِهِ وَبَالًا عَلَيْهِ،
فَإِنْ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ شَيْطَانًا رَجِيمًا كَمَا سَمِعْتُمُوهَا مِنْ حَادِثَةِ جَرْتِ فِي إِيقُوسِيَّةِ^(٢)
أَقْصَى عَلَيْكَ خَبَرَهَا لِتَقْهَمِي مَا أُرِيدُهُ بِالْبَوَاعِثِ الْخَارِجَةِ الَّتِي تَسْجُجُ اقْغَرَائِزَ :

وَهِيَ أَنَّ امْرَأَةً عَلَيْهَا سَعَةُ الْإِحْتِسَامِ وَالْحَيَاءِ دَخَلَتْ أَحَدَ حَوَانِثِ الطَّرْفِ^(٣)
فَلَمَّا انْتَفَتْ مَا أَرَادَتْ اتِّبَاعَهُ وَحَانَ وَقْتُ دَفْعِ الثَّمَنِ — وَكَانَ فِي تَحْنِيسِ طَالِعِهِ

(١) بنت البحر في أساطير الأقدمين هي ذات خيالة نصفها الأعلى نصف امرأة والأسفل نصف سمكة كانت تفتن السامعين بلذيق غنائها فتجذبهم إلى شباب صمبة حيث يهلكون والمراد هنا المتنى في الكلام استعارة .

(٢) إيقوسية جز. من الجزائر البريطانية .

(٣) الطرف جمع طرفة وهي الشيء البديع .

كُرِّعَ سَاعَةً رَأْيَاهُ^(١) - أَخْرَجَتْ مِنْ جَبْهَاءِ وَرَقَةٍ مَصْرِفٍ (بَنَك) فِيمَتَهَا خَمْسَةُ جُنَيْهَاتٍ أُنْجِلِيزِيَّةٍ فَلَمَّا نَقَدَهَا كَاتِبُ الْخَاتُوتِ لَمْ يَلْتَأَنَّ أَنْ عَرَفَ تَرْفُفَهَا، فَهَبَتْ الْمَرْأَةُ الْمُسْكِينَةَ وَأَخْرَجَتْ لَهُ أُخْرَى لِكَيْنَهَا لَمْ تُكُنْ بِأَحْسَنَ مِنَ الْأُولَى، فَارْتَابَ الرَّجُلُ فِي أَمْرِهَا وَسَامَهَا إِلَى الشَّرْطَةِ، وَلَمْ يَكِدِ التَّحْقِيقُ يَأْخُذُ بِمَجْرَاهُ حَتَّى ظَوَّرَ أَنَّهَا خَادِمَةٌ فِي بَيْتٍ اسْتَوْجَبَتْ احْتِرَامَ أَهْلِهِ لِإِيَّاهَا بِمَا لَهَا مِنْ حُسْنِ السَّيَرَةِ وَالصَّدَقِ فِي الْخِدْمَةِ وَأَنَّ الْأَيْقُوسِيَّ الَّذِي كَانَتْ فِي خِدْمَتِهِ كَانَ قَبْضَ مِنْ أَحَدِ مُعَامِلِيهِ قَبْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ بِرَضْعِ سِنِينَ هَاتَيْنِ الْوَرَقَتَيْنِ الْمَرْفُوقَتَيْنِ وَأَخْطَأَ فِي عَدَمِ تَمْيِزِهِمَا لِنَعَاسَةِ حَظِّ هَذِهِ الْمَحْدُودَةِ^(٢)، وَأَنَّهَا لِاعْتِيَادِهَا دُخُولَ مَجْرَتِهِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ لِلْقِيَامِ بِمُقْتَضَيَاتِ الْخِدْمَةِ كَانَتْ تَرَاهُمَا مُحْتَطِطَتَيْنِ بِأَوْرَاقٍ قَدِيمَةٍ فَلَمْ تَعْبَأْ بِهِمَا كَثِيرًا أَوَّلَ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ لَمَّا تَكَرَّرَ حُضُورُهُمَا أَمَامَ بَصِيرَتِهَا مِنْ يَوْمٍ إِلَى يَوْمٍ وَمِنْ أَسْبُوعٍ إِلَى آخَرٍ وَمِنْ شَهْرِ إِلَى تَالِيهِ - أَتَشَأَتْ مُعْرِضُ النَّظَرِ فِيهِمَا وَكَانَ هَاتَيْنِ الْوَرَقَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتْ تَحْلَاهُمَا - عَلَى يَلَاهُمَا - هَيَّجَتَيْنِ كَانَتَا تَرْتَوَانِ إِلَيْهَا مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ وَتَحْدَعَانِهَا وَتُتَاجِعَانِهَا بِنَصَائِحٍ غَرِيبَةٍ، فَفَرَضَتْ بَادِيَّ بَدْءِ فِكْرَةٍ أَخَذِيهَا، وَأَبْعَدَتْهَا عَنْ نَفْسِهَا فَارْتَجَعَ لِكَيْنَهَا لَمْ يَبْقَ فِي وَسْطِهَا أَنْ تَكْفُفَ النَّظَرَ عَنْهُمَا مَتَى وَحَدَّثَتْ فِي الْعُرْفَةِ الَّتِي هُمَا فِيهَا، ثُمَّ إِنَّمَا فِي ذَاتِ يَوْمٍ لَمَسَتْهُمَا بِيَدَيْهَا وَبَسَطَتْهُمَا وَأَخَذَتْ ثَقْلَهُمَا ثُمَّ رَدَّتَهُمَا قَوْرًا إِلَى

(١) رَأْيَاهُ هو كاتب قصص فرنسي مشهور واسمه فرانسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ م
انفق له أن حل في نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت المحاسبة على ثمن الأكل لم يكن معه ما يدفعه
في حصة فخرج صدره وكان الساعة كانت دقت الربع إذ ذاك فنضب بوقته هذا المثل لنحس الطالب .
(٢) المحدودة : الغير الموقفة .

(١) إضبارة الأوراق البالية التي كانت فيها ، كانت فيهما نارا كانت تحرق أصابعها ، وما زال بها هذا الإغراء حتى غلبها وأوقعها فيما علمت .

فإذا كان هذا تأثير الأشياء في الكبار ، فما ظنك به في الصغار ؟ نعم لهمم
 والله الحمد ليسوا كلهم لصوصا ، وفوق ذلك قلما تعرض لانتظارهم أوراق المصارف
 صحيحة أو مزيفة ، ولكن توجد عدة من الخلائق الأخرى التي يهيم المربى أن
 لا يقوّمها فيهم ينظر ما يوقظها من الأشياء . فإن ردائنا وقضائنا ليست مجرد
 ممان ذهنية بل لما بالخارج ارتباط قوى ، فهي تطابق فيه أمورا وأحوالا شتى
 يكون لها تأثيرها وعنها انفعالاتها ، فالشراهة مثلا تتحرك في الإنسان ينظره الى
 الطموم وتتمه رواحها . والغيرة تدقظ فيه بسماعه ما يقال لغيره من رقيق الكلام ،
 ورؤيته ما يعامل به من صنوف الملاطفة . فأول واجب على المربي هو البحث عن
 طبع الطفل ومعرفته ، والواجب الثاني هو أن يقطع عنه مواد الفتنة أغني البواعث
 المادية التي تتخذ مشاعره ذرائع لإغراء طبائعه السيئة وإتارتها ، فلكثير من
 الأطفال الحق في أن يقولوا للقاءين عليهم : نأشدناكم الله لا ندلونا بقرور .

ثم لا ينبغي أن يعزب عن ذهن المربي هذا التاموس الفطري وهو أن الطبايع
 والقرائن كما أنها تقوى وتتم بالممارسة هي تضمحل وتزول بعدمها ، فيه ملك قمع
 بعض المشارب الشديدة التي تظهر في الطفل على أنواعه الفطرية الأخرى وتمنعها
 من بلوغها غايتها . فأكبر عمل للإنسان في إصلاح نفسه مغرودا هو مكافئة

(١) إضبارة : أى حزمة .

(٢) دلاء بقرور : أوقعه فيما أراد من تفريره .

مَا يَتَلَبَّ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئِ الْأَخْلَاقِ وَرَدَى الطَّبَاعِ، كَمَا أَنَّ أَجَلَ سَعْيٍ فِي إِصْلَاحِ شَأْنِهِ مُجْتَمِعًا هُوَ رَدُّعُ الْمُعْتَدِينَ وَكَثْرَتُ نَحْوَةِ الطُّغَاةِ الظَّالِمِينَ^(١).

كَانَتْ بِقَائِلٍ يَقُولُ : هَلْ يَكْفِي فِي تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جَعْلِهِ بِعَزَلٍ عَمَّا يُشِيرُ فِيهِ غَرَائِزُ الشَّرِّ وَإِعْجَادِ التَّوَازُنِ وَالتَّسَاوِيِ بَيْنَ طَبَائِعِهِ ؟ فَأُجِيبُهُ : لَا شَكَّ فِي عَدَمِ كِفَايَةِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ هَذِهِ سَلْبِيَّةٌ وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا هُوَ أَنْ نُنَبِّهَ فِي الطِّفْلِ بِحُجْرَةٍ أَنْ يَشَبَّ ضُرُوبَ الْمَحَبَّةِ وَعَوَاطِفِ الْخَيْرِ . وَقَبْلَ الْخَوْضِ فِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْجَدِيدَةِ مِنَ الْمَسَائِلِ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَتَمَحَّثَ أَوَّلًا فِيمَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الطَّرِيقِ عَادَةً فِي تَرْبِيَةِ طَبِيعِ الطِّفْلِ كَحَمْلِهِ عَلَى الْإِمْتِنَالِ الْمُطْلَاقِ وَتَحْوِيلِهِ بِالْمُعْذِرَاتِ ، وَتَرْغِيهِ فِي الْمَكَافَاتِ ، وَكُمُومَةِ الْقُدُورِ وَالْإِعْتِقَادِ الدِّينِيِّ وَقَوَاعِدِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَسَائِلُ تَقْسِي عَمَّا تُسَاوِيهِ هَذِهِ الْحِيلُ الْمُخْتَلَفَةُ . ١٠ هـ

الرسالة التاسعة

(مِنْ إِزَاسَمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ٢ يُونِيهِ سَنَةِ ١٨٥٠)

ضُرُورَةُ اسْتِعْمَالِ السُّلْطَةِ فِي سِيَاسَةِ الْأَطْفَالِ وَالتَّحْجِيلِ بِالْكَفِّ عَنْهَا

مَتَى تَيْسَرَ ذَلِكَ ، وَبَيَّانُ ضَرَرِ قَهْرِ الطِّفْلِ عَلَى الْإِمْتِنَالِ

لَا مِرَاءَ فِي وُجُوبِ الْإِسْتِعَانَةِ بِضُرُوبِ السُّلْطَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ إِذَا كَانُوا حَدِيثِي السِّنِّ جِدًّا رِعَايَةً لِمَصْلَحَتِهِمْ ، فَيُؤَمَّرُ الطِّفْلُ مِنْهُمْ بِالْإِقْبَالِ فَيُقْبَلُ ،

(١) مَا أَدْرَعُ هَذَا الْقَوْلَ الْحَكِيمَ وَأَبْلَغَهُ فِي التَّفُوسِ وَقَدْ مَا أَجَلَ عَوَائِدِهِ وَأَبْهَرُ فَوَائِدِهِ لَوَانِعٍ وَلَكِنْ

مَا أَبْدَ الْمَسَاقَةَ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ — الْمُرْتَمِ

وَيَفْعَلُ كَذَا فَيَفْعَلُ ، وَيُهَيِّئُ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى جِهَةٍ كَذَا مَعَ قَوْلِنَا هَذَا النَّهْيُ يَفْعَلُ
يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذَّهَابِ إِلَيْهَا فَلَا يَذْهَبُ . مِثْلُ هَذِهِ الْأَوَامِرِ الصَّرِيحَةِ الَّتِي تُصْدِرُهَا
الْأُمُّ لَوْلَدِهَا مَعَ تَلَطُّفٍ شَدِيدٍ بِنَفْعَةِ الصَّوْتِ فِيهَا وَمُبَاشَرَةٍ ائْتِمَارِهِ بِهَا بِنَفْسِهَا مِمَّا
لَا بُدَّ أَنْ يُقْبَلَ عَنْدَهَا فِيهِ ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُخَاطَبُ بِهَا ذَاتًا مُجَرَّدَةً مِنَ الْعَقْلِ ، عَلَى
أَنَّ الْأَفْضَلَ التَّعْجِيلُ بِالْكَفِّ عَنِ الْإِلْزَامِ وَالْقَسْرِ مَتَى صَارَ ذَلِكَ مَيَسُورًا .

قَهْرُ الطِّفْلِ عَلَى الْإِمْتِنَالِ وَالزَّامَةِ إِطَاعَةِ الْأَوَامِرِ يَسْتَلْزِمُ حَتْمًا ائْتِمَادَ وَجَدَانِ
الْكَلْفِ فِي نَفْسِهِ ، خُصُوصًا إِذَا طَالَ أَمَدُ ذَلِكَ الْقَهْرِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ غَيْرُهُ يَتَكَلَّفُ
الْحُلُولَ مَحَلَّةً فِي الْإِرَادَةِ وَالْحُكْمِ الْمُطْلَقِ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْإِنْصَافِ وَالْجَوْرِ لَمْ يَبْقَ
لَهُ حَاجَةٌ فِي الرُّجُوعِ إِلَى وَجْدَانِهِ وَاسْتِفْتَاءِ قَلْبِهِ ، وَعَسَى أَنْ لَا يَكُونَ هَذَا شَأْنًا مَعَ
«إِمْلٍ» لِأَنَّ الْحُلُولَ مَحَلَّةً فِي عَمَلِهِ أَغْنَى الْزَّامَةَ اتِّبَاعِ أَوَامِرِنَا نُمِيتُ فِيهِ قُوَى عَزِيمَتِهِ
الشَّخْصِيَّةَ ، فَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ قِيَمَةٌ حَقِيقَةٌ يَجِبُ أَنْ يَصِيرَ خَيْرًا صَالِحًا بِاخْتِيَارِهِ
لَا رَغْمَ أَنْفِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ صَادِرَةً عَنْ إِرَادَتِهِ ، وَأَوْدُ كَثِيرًا أَنْ يَكُونَ مِنْ صِغَرِهِ
عَارِفًا بِمُحْصَايَصِهِ وَتَقَايِصِهِ لِيَزِيدَ فِي الْأَوَّلَى وَيَتَجَرَّدَ مِنَ الثَّانِيَةِ بِتَقْدِيمِهِ فِي سَبِيلِ
الْحَيَاةِ . فَعَلَيْنَا إِذَنْ أَنْ لَا نَتَعَمَّى مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ عَنْ حَقِيقَةِ وَلَا يَتَنَا عَلَيْهِ وَحُدُودِهَا ،
فَإِنَّ الطِّفْلَ لَا يَصِيرُ صَالِحًا بِعَمَلِ الْغَيْرِ بَلْ يَكُونُ كَذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، وَكُلُّ وَلَدَيْنَا
فِي تَرْبِيَتِهِ تَحْصِرُ فِي إِرْشَادِهِ إِلَى اسْتِخْدَامِ وَجْدَانِهِ ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَيْضًا ، فِي سَبِيلِ
إِرْجَاعِهِ عَمَّا يَجْعُ مِنْهُ مِنَ الْمَفْضُولَاتِ فِي سِرِّيَّتِهِ ، أَنْ نُقْنِعَهُ بِمَضَرَّةِ الْأَشْيَاءِ الْقَبِيحَةِ
يَمَا فِي تِلْكَ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْبَرَاهِينِ الدَّائِمَةِ عَلَى ضَرَرِهَا لَا يَمَّا لَنَا مِنَ الْحُجُجِ

الْمُسْلِسَةِ ، وَلَوْ أَنِّي أَسْعَدَنِي الْحُظُّ قَوَّيْتُ تَرْبِيَّتَهُ بِتَقْصِي مَا طَالَبَنِي بِطَاعَتِي فِيهَا أَمْرُهُ بِهِ . بَلْ مَتَى تَمَكَّنْتُ مِنْ مُحَاطَةِ عَقْلِهِ نَصَحْتُهُ بِأَنْ يَسِيرَ عَلَى مُقْتَضَى التَّوَابِينِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا شُئُونُ الْكَوْنِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَحَوَادِثُهُ الْمَادِيَّةِ .

يَجْرِي مُعْظَمُ الْأَبَاءِ مَعَ أَبْنَائِهِمْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَهِيَ : « اُعْتَمِدْ صِدْقَ مَا أَقُولُ لَكَ وَأَفْعَلْ مَا أَمْرُكَ بِهِ ، وَسَأُنَبِّئُكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ » وَأَنَا لَا أَسِيرُ عَلَيْهَا الْبَتَّةَ ، بَلْ أَجْتَهِدُ فِي إِقْنَاعِ « إِمِيل » بِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أَنْصَحُ لَهُ بِاتِّبَاعِهِ أَوْ اجْتِنَابِهِ هُوَ حَسَنٌ أَوْ قَبِيحٌ لَا لِأَنِّي أَرَاهُ كَذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مُفِيدًا لِلنَّاسِ أَوَّلُهُ أَوْ مُضِرًّا بِهِمْ ، وَكَأَنِّي بِكَ تَقُولِينَ إِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِلطِّفْلِ الْمَرْبِيِّ مَرَايَا عَقْلِيَّةً خَاصَّةً بِهِ يَقِلُّ وَجُودُهَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَطْفَالِ فَأَقُولُ : لَا ، بَلْ لَا يَقْتَضِي إِلَّا ذَوْقًا كَبِيرًا وَبَسَاطَةً كَلِيَّةً فِيمَنْ يَتَوَلَّوْنَ تَرْبِيَّتَهُ وَتَعْلِيمَهُ ، فَيَسِّرُ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ذَوْقِ الْأَطْفَالِ السَّلِيمِ هُوَ كَثْرَةُ الْكَلَامِ الَّذِي يُرْمَى بِهِ حِرَاقًا ، أَوْ طَوْلُ الشَّرْحِ فِي الْقَوْلِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُؤَثِّرُ فِيهِمْ هُوَ حُسْنُ الذِّيَاتِ وَنُبُلُ الْمَقَاصِدِ لِأَنَّهُمْ أَقْوَى بِصَبْرَةٍ مِمَّا تَتَوَهَّمُهُ أَلْفَ مَرَّةٍ .

الطَّاعَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ حُرِّيَّةٍ وَاخْتِيَارٍ تَرْفَعُ طَبْعَ الطِّفْلِ . وَالْإِدْعَاكُ النَّاشِئُ مِنَ الْقَسْرِ يَحْطِئُهُ ، فَلِلَّامِّ وَمَعْلَمِ الْمَدْرَسَةِ كَلِمَةٌ يَقُولَانِيهَا عَنِ الطِّفْلِ الْعَبِيدِ الْعَاصِي لِأَوَامِرِهَا وَهِيَ قَوْلُهُمَا « سَأُذَلِّلُهُ » وَالْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ النَّاشِئِينَ عَلَى طَرِيقَتِنَا الْفَرَنْسِيَّةِ فِي التَّرْبِيَةِ مُذَلَّلُونَ دَائِمًا . نَعَمْ قَدْ يُقَالُ إِنَّ فِي اتِّبَاعِهَا مَصْلَحَةً لِلْأَحْدَاثِ وَلِلْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَلَكِنَّ سَائِسَ الْخَيْلِ لَهُ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ لِلْخَصَانِ الَّذِي يَرُوضُهُ : لَا تَجْرَعْ فَلَانِي إِنَّمَا

أَقْلُ هَذَا بِكَ لِمَصْلَحَتِكَ» عَلَى أَنَّ إِطْلَاقَ التَّوْبِضِ عَلَى الْحِصَانِ أَصْلَحُ مِنْ إِطْلَاقِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ لِأَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ لَا يَحْمُرُ بِتَرْوِضِهِ بِاللِّجَامِ وَالْمِهْمَازِ إِلَّا حَدَثَهُ الْوَحْشِيَّةُ ، وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّكَ إِذَا أَخَذْتَهُ بِالْقَهْرِ وَسُسْتُهُ بِالْإِرْغَامِ وَالْقَسْرِ ذَهَبَتْ حُبُّ الْكَرَامَةِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَبَحَسَتْ قِيَمَتُهُ فِي نَظَرِهِ ، عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ وَازِعٌ ضَعِيفٌ فَإِنَّهُ لَا لِيَّ وَلَا فَاتِكَ إِلَّا وَهُوَ يَرْجُو النِّجَاةَ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى جَرِئِيَّتِهِ حَالَ ارْتِكَائِهَا ، وَلَا طِفْلٌ بَعْضُ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ قِيَمُهُ وَمَعْلَمُهُ أَوْ يَعْمَلُ الشَّرَّ إِلَّا وَهُوَ يَتَحَيَّلُ فِي نَفْسِهِ مَهَارَةً فِي الْخَلَاصِ مِنْ تَبِعَةِ ذَلِكَ ، فَإِذَا نَجَحَ فِي هَذَا وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً حَمَلَهُ هَذَا النَّجَاحُ عَلَى الثَّقَةِ النَّامَةِ بِنَفْسِهِ فِي خِدَاعِ الْقَائِمِينَ بِتَرْبِيَّتِهِ وَتَهْدِيَّتِهِ وَمَوَارِيهِمْ . وَالطِّفْلُ الَّذِي يُعَامَلُ بِالْقُسْوَةِ وَيُؤْخَذُ بِالْعُقُوبَةِ يَسْتَجِمْ قُوَاهُ وَيَسْتَجِنُّ بِكِبَرِهِ وَعِنَادِهِ عَلَى حَقَارَتِهِمَا لِيُقَاوِمَ سِرًّا حَمَلَتَنَا عَلَيْهِ بِيُولَانَتِنَا الْمَعْنَوِيَّةِ .

لَا شَيْءَ أَسْهَلَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ مِنْ إِقْنَاءِ نِيرِ اسْتِبْدَادِهِمَا عَلَى عُنُقِ الطِّفْلِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَصْعَبُ عَلَيْهِمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ اسْتِرْدَادِ مَا يَفْقِدَانِهِ مِنْ تَحْتِهِ يَهُمَا ، وَمَتَى شَعَرَ بِأَنَّهُمَا يَسُوسَانِيهِ بِالْهَوَى وَالْإِسْتِبْدَادِ ، لَا يَخْضَعُ لَهَا إِلَّا بِالضُّغْطِ وَالْإِلْزَامِ ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَرَى عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الْإِقْبَادِ وَالطَّاعَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَطْوِي جَوَانِحَهُ عَلَى نَوْعٍ مِنَ التَّدْمِيرِ وَالْعِصْيَانِ يَسْتَرْهُ الرِّاءُ ، وَتَتَرَقَّبُ إِرَادَتُهُ — إِذَا انْقَبَضَتْ فِي ظِلِّ السُّوْطِ — الْوَقْتُ الْمَلَأْتِمَ لِاسْتِعْمَالِ الْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ ، فَإِنَّ الْخِدَاعَ هُوَ سِلَاحُ الضَّعِيفِ بَعْدَهُ لِلِإِحْتِيَاءِ بِهِ مِنْ شَرِّ الْقَوَى ، وَلِكَوْنِ الطِّفْلِ عَاجِزًا عَنْ مُكَالَفَةِ أَهْلِهِ نَجْدُهُ يَبْحَثُ

(١) يستجم : أى يستجمع .

(٢) يستجن بكبره : أى يتخذ كبره جنة يعنى وقاية .

دَائِمًا عَمَّا يَحْتَلِصُهُ مِنْ وَلَايَتِهِمْ ، وَطَالَمَا عَجِثُ مِنْ خُبَيْهِ وَاجْتَرَأْتِهِ عَلَى الْإِخْتِلَاقِ
فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَطْفَالِ لَا يَلْتَفِتُونَ السَّاعَةَ أَوْ النَّامَةَ مِنْ عُمْرِهِمْ
حَتَّى يُحَاكُوا فِي الْمَكْرِ أَسْرَى بِلُوتَ ^(١) وَاسْقَابِيْنِي مَوْلِيرَ ^(٢) بِل وَفِي جَارُو بومارشيه ^(٣) .

وَمِنْ عَوَاقِبِ الْقَهْرِ الْوَحِيمةُ أَنَّهُ يُغِيضُ يَبُوعَ الْقَرَجِ وَالسُّرُورِ فِي نُفُوسِ
الْأَطْفَالِ ، فَمَا أَشَبَّهَ الطِّفْلَ الْمَحْرُومَ مِنْ حُرِّيَّتِهِ بِفَضْلِ الرَّبِيعِ الَّذِي لَا تُشْرِقُ فِيهِ
الشَّمْسُ ، أَمْحَسِينَ أَنَّ هَذِهِ الْمَوَاقِبَ تَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ سِنِّ الطُّفُولِيَّةِ فَلَا يَكُونُ لَهَا
أَثَرٌ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاةِ الطِّفْلِ ؟ كَلَّا ، إِنِّي لَا عَرِفُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ رُؤْيَا الرَّجُلِ
مَا كَانَ مِنْ نِعْمَتِهِ أَوْ بُؤْسِهِ فِي طُفُولَتِهِ : تَرَى الَّذِينَ يَرْوُونَ بِالْقَهْرِ جُبْنَاءَ عَائِسَى
الْوُجُوهُ كَاسِفِي الْبَالِ ، وَيَكُونُ لِذَلِكَ ظُلْمَةٌ فِي عَقُولِهِمْ وَعَصَلٌ فِي طِبَاعِهِمْ (أَيُّ
اعْوَجَاجٍ بِصَلَابَةٍ) .

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) أَنْ يَخْلَصَنَا مِنَ الْمُتَعَامِلِينَ وَالْمُعَامَلِينَ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ
يُفْسِدُونَ أَخْلَاقَ النَّاشِئِينَ ^(٤) .

(١) بلوت شاعر هنز لا نغني برع في أشعاره زمن الحرب البونية الثانية وكتب عشرين رواية كان
من المثنيين في بعضها جماعة من الأسرى جعلهم مظهر الخبز والحداد .

(٢) اسقابيني موليير هم أشخاص من الممثلين في بعض روايات موليير الكاتب الفرنسي الشهير جعلهم
عنوانا للدسائس والخبائث .

(٣) فيجارو بومارشيه أشخاص من الممثلين في روايات الكاتب الفرنسي الشهير بومارشيه فاطهم
بتقيل الدسائس والفتن .

(٤) ما أؤذي حكم المؤلف على هذه الفئة من الناس اللهم إلا أن كان الحال في زمنه يستوجبه بسبب
شيوع هذا النوع من التربية القهرية — المترجم .

الرسالة العاشرة

(مِنْ إِرَامَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ٣ يُونِيهِ سَنَةِ ١٨٥)

وَجُوبُ اجْتِنَابِ تَحْوِيلِ الطِّفْلِ بِالْعُقُوبَاتِ الإِلَهِيَّةِ وَالْحَوِصِ مَعَهُ فِي الْمَسَائِلِ

الدِّينِيَّةِ وَتَرْكِهَا لَهُ لِيَنْظُرَ فِيهَا مَتَى كَبُرَ يَفْكِرُ خَالَ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ

أَخْبُرْ أَنْتَ مَا يُنْسَبُ إِلَى الْإِعْتِقَادِ الدِّينِيِّ مِنَ التَّأْذِيرِ فِي طِبَاجِ النَّاشِئِينَ
وَأَخْلَاقِهِمْ مُبَالِغٌ فِيهِ كَثِيرًا وَعَلَى كُلِّ حَالٍ نَقُولُ : إِنْ التَّصْدِيقُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ

(١) معظم ما كتبه المؤلف في هذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكترائه بكلألفه التي لا يعتبرها الا من الأمور التي جرت بها العادة وكأنه لم يبلغه خبر الأمم التي وصلت بدينها الى أوج الكمال النفسى وغاية التقدم الحسى ، فأى شئ أخرج الأمة العربية مثلا من ظلمات الجهل الى نور العلم ، ومن رذائل الوحش الى فضائل المدنية سوى دينها القويم الذى جاء به الرسول الكريم ؟ ولست أدرى كيف أن الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من الثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال اذا هو غذى بالأعمال الصالحة وأسس على النظر فى ملكوت السموات والأرض ودعم بالفكر فى سير النبیین وهدى المرسلين فرح وصار فى مأمن من أعاصير التشبه ومن مزعزعات الفتن ؟ لاشك أن القائل بهذا منكر للبعث وهى ضلالة جره اليها الطرف فى الفركا جبر اليها كثيرا من أمثاله . ولا أراه الا مبانئا فى انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لاولادهم من التهديد بالعقاب الالهى ولا نسل أن هذا التهديد يكون له من الأثر ما يتوقه ، وكأنه يعتقد أن الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينبذ عقله عما وصف به نفسه من القهر والجبروت والانتقام ، وليس الأمر خاصا به بل قد لاحظته فيما كتبه غير واحد من أهل النظر وهو غلط بين يدل عليه العقل والنقل ، وترجيحه تخويف الأطفال بالأغوال المشوذة على تخويفهم بالعقاب الذى أعد الله لمخالفى أوامره اللعة التي ذكرها من غلط الرأى فيما أرى لاطلاعه القول فيه دون تقييده بسنعية ، لأنه لا ضرر على الطفل المميز من تحذيره من غضب الله عليه إذا خالف أوامره مادام أنه يرغب أيضا بفعل رضاه ورحمته اذا أطاعها ، على أن عبارة المؤلف فى تعليل هذا الترجيح بينة النفاضة لا تلقى بمقام الربوبية ، ثم أى ذنب للأديان التي لا يؤمن بها أربابها أو يكون إيمانهم بها ناقصا فيدعوه الى تحاميلها والحذر منها ووصفها بأنها «أخر الأديان بكرامة الانسان» ألا ترى أنت أقوم دين وأصح في نظر العقل وأدعى الى «مادة الآخزين به وفلاحهم» قد تحول دون الجارى على صراطه غلبت الهوى وعمائم الضلال فيقع أربابه فى مهوى الوبال ، فكيف تلقى تبعه ذلك عليه اللهم ان هذا بيتان عظيم فانه لادين إلا ما أرسلت به رسلك وليس =

يُوقَى جَزَاءَ أَعْمَالِهِ فِي دَارٍ أُخْرَى بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ يُعْرَضُ صَاحِبُهُ لِأَنْوَاعٍ مِنْ خِيْبَةِ
الْأَمَالِ، تَكُونُ أَلَمًا صَعْبَةً أَوْ خَيْمَالٍ، فَإِنَّهُ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِ أَعَاصِيرُ الشُّبْهِ فِي مُسْتَقْبَلِ
أَيَّامِهِ فَرَزَعَتْ أَرْكَانَ عَقِيدَتِهِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا الْفُرُوضُ وَالْوَحْيَاتُ لَا تَلْبُثُ
دَعَائِمُ تَرْبِيَتِهِ الْأُولَى أَنْ تَنَارَ أَنْهَارًا قَامًا، فَكَيْفَ نَزَجُوا إِذَنْ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي
تَارَتْ فِيهِ الشُّكُوكُ وَأُطْلِقَتْ حُرِيَّةُ النَّظَرِ أَنْ لَا تُؤَثِّرَ عَوَارِضُ الشُّبْهِ فِي عَقَائِدِ
الطِّفْلِ إِذَا كَبُرَ وَهِيَ إِيَّاهُ تُفْرَغُ فِي حُجَّةِ حَالِ صِغَرِهِ إِفْرَاقًا وَتُلَصَّقُ بِهِ إِلصَاقًا ؟
إِنْ صَحَّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ .

فَالَّذِي آمَنَاهُ « لِإِمْلٍ » هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْدَانٌ مُسْتَقِلٌّ عَنِ الْإِيمَانِ ،
وَلَيْسَ يَهْدَأُ لِي بَالٍ وَلَا يَطْمَئِنُّ لِي قَلْبٌ عَلَى سَلَامَةٍ شَرَفِهِ وَتَهْذِيبِ نَفْسِهِ إِلَّا بِحُصُولِ
هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ .

كثيراً مَا سَمِعْتُ بَعْضَ الْمَسِيحِيِّينَ إِذَا عَصَى أَوْلَادُهُمْ أَوْ أَمْرُهُمْ يَهْدِدُونَهُمْ تَهْدِيدًا
وَحَشِيًّا وَهُمْ فِي شِدَّةِ حَقِيقَتِهِمْ يَقُولُهُمْ لَهُمْ : سَيَعَاظِبُكَ اللَّهُ وَيُؤَلِّمُكَ . كُنْتُ كُلَّمَا
سَمِعْتُ مِنْهُمْ ذَلِكَ تَقْلَصُ جَمِيعُ دِمِي مِنْ عُرْوِي إِلَى قَلْبِي غِيظًا وَعَمًّا . فَلَبِثَ
شَعْرَى هَلِ الْإِسْتِعَانَةُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ عَلَى تَفْهِيمِ عُقُوبَاتِنَا السَّافِلَةِ عَلَى الْأَطْفَالِ
وَالْإِسْتِصْرَاحُ بِالذَّاتِ الْعَلِيَّةِ لِتَشْفِي غُلَانِنَا بِالْإِتِّقَامِ لَنَا مِنْهُمْ وَاقْتِضَاءُ فِعْلِ الشَّرِّ مِنْ

== فيه إلا ما يرفع شأن الإنسان ويطهره أن يضع نفسه في ذروة الكرامة والمجد . ثم إن ما تحوَّفه على الطفل
من انهيار دعاتم تربيته الأولى إذا هبت أعاصير الشبه في مستقبل أيامه على عقائده الدينية ومن تعرضه
بذلك لخيبة في آماله يصيب عليه احتمالها ما تحوَّفه من ذلك لا مبرر له لأن الطفل إذا كبر فتولته الشكوك
والشبه فراغت عقيدته لا يكون قد خسر شيئاً ، فإن كل ما تبعت عليه هذه العقيدة من العمل هو خير يقره
الطفل فلا موجب للدم عليه — المترجم .

الله لِيُسَكِّنَ بِذَلِكَ وَجَدَنَا عَلَيْهِمْ - هَلْ كُلُّ ذَلِكَ هُوَ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ بِتَأْمِيسِ عِلْمِ
الْأَخْلَاقِ عَلَى الْإِعْقَادِ الدِّينِيِّ؟

أَنَا لَا أُجِيزُ فِي أَىِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْأَسْتِعَانَةَ فِي تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ بِالْمُخَوَّاتِ
الْإِلَهِيَّةِ ، بَلْ أَفْضَلُ تَهْدِيدُهُ بِالْأَغْوَالِ وَمُشَوِّهِ الْخُلُقِ مِنَ النَّاسِ عَلَى جَعْلِ الْإِلَهِ
ذَاتًا مُزَيَّجَةً ، فَالْتَهْدِيدُ بِالْأَغْوَالِ وَالْمُشَوِّهِينَ يُعْتَمَدُ فِيهِ عَلَى رَوَايَاتٍ خَيَالِيَّةٍ يَزُولُ
وَمُهِمَّا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ يَتَقَدَّمُ الطِّفْلُ فِي السَّنِّ وَأَمَّا التَّخْوِيفُ بِاللَّهِ فَيُخْشَى مِنْهُ
أَنْ يَنْتَقِشَ مَبْدَأَ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ فِي مُخَيَّلَتِهِ مِنْ صَغَرِهِ عَلَى صُورَةٍ طَائِغَةٍ أَوْ غُولٍ .

كَأَنِّي بِكَ تَقُولِينَ : إِنَّكَ لَمْ تَحْتَرِ مِنْ أَمْثَلَةِ التَّرَبِّيَةِ الدِّينِيَّةِ لِتُوجِّهَ انْتِقَادَكَ
إِلَّا أَرْدَأَهَا وَأَحَقَّهَا بِالطَّمَنِ . فَأَقُولُ نَعَمْ وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّرَبِّيَةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ
فِيهَا عَيْبٌ شَنِيعٌ جِدًّا وَهُوَ إِلْزَامُ النَّاسِ فِي سِيرَتِهِ بِأَعْمَالٍ لَا يَدْرِكُ عَلَيْهَا ،
فَلَوْ أَنِّي قُلْتُ لِلطِّفْلِ : يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ مُؤَدَّبًا عَاقِلًا لِتَكُونَ مُحَبُّوبًا عِنْدَ اللَّهِ
لَكَانَ ذَلِكَ مِنِّي يَلَا شَكَّ الْغَاظَا وَتَعَمِيَةً لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَا اللَّهُ وَلَا يَعْرِفُ عَلَامَةَ يُمَيِّزُ
بِهَا مَا يُرْضِيهِ وَمَا يُغْضِبُهُ ، وَأَمَّا إِنْ قُلْتُ لَهُ ، يَجِبُ عَلَيْكَ التَّرَامُ الْأَدَبِ لِتُحِبَّكَ أُمُّكَ
فَإِنَّهُمْ فِيهِمْ هَذِهِ الْعِلَّةُ أَكْثَرَ مِنْ سَائِقَتِهَا بِكَثِيرٍ .

مَنْ تَكَلَّمَ فِي الدِّينِ مَعَ طِفْلٍ حَدِيثَ السَّنِّ جِدًّا فَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يُفْسِدَ مَعْنَى
مَا يُؤَدِّبُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَفْكَارِ الدِّينِيَّةِ وَيَقْلِبَ الْمُرَادَ مِنْهَا ، فَلَوْ أَنَّ الْأُمَّ أَشَارَتْ بِبَيْدِهَا
إِلَى السَّمَاءِ دِلَالَةً لَوْلَدِهَا عَلَى أَنَّهَا هِيَ مَحَلُّ النَّاتِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِدُعَائِهِ
لَتَوَهَّمُ أَنَّ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا الْمَادِّيَّةَ هِيَ إِلَهُهُ .

أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْآبَاءِ لَا يَهْتَمُّونَ بِهَذَا الْأَمْرِ كَثِيرًا وَلَا يَنْظُرُونَ فِيهِ نَظْرًا بَلِيغًا، وَلِكُونِهِمْ مِمَّنْ يُسْكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَرْبِيَتَهُمْ يُزِمُّونَ أَوْلَادَهُمْ أَدَاءَ بَعْضِ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَا يُؤَدُّونَهَا هُمْ أَنْفُسَهُمْ أَوْ إِمَّا يُؤَدُّونَهَا أَمَامَهُمْ فَقَطْ، فَكَأَنَّهُ لَا شَأْنَ لِلصَّوَابِ وَالْخَطَا فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ وَلَا تَبِيحَةَ لَهْمَا، وَأَنَّ أَهْمَ شَيْءٍ فِي حَقِّهِمْ هُوَ أَنْ تَكُونَ بَاكُورَةً أَعْمَا لَهُمْ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهِمْ اتِّبَاعَ مَا جَرَى عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْعَادَاتِ مَعَ إِرْجَاءِ النَّظَرِ فِيهَا إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، فَيَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْآبَاءُ بِتَسْبِيْبٍ فِي إِفْسَادِ وَجْدَانِ أَبْنَائِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ الْحَاكِمَةِ بِخَفْيَتِهِمْ وَطِيْشَتِهِمْ أَوْ عَدَمِ اكْتِرَائِهِمْ شَأْنَهُمْ، فَإِنَّا أَنْحَايَ الْأَدْيَانَ الَّتِي يَكُونُ شَأْنُ الْآخِذِينَ بِهَا فِيهَا كَشَأْنِ مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا بِالْمَرَّةِ أَوْ مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا إِلَّا بِإِمَانٍ نَاقِصًا فَإِنَّهَا أَضَرُّ الْأَدْيَانِ بِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ .

فَاحْتَرَامًا «لَا مِيلَ» وَلِطَائِفَةٍ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَنْظُرَ فِيهَا مَتَى كَبُرَ يَفْكَرُ حَالٍ مِنَ التَّأَثُّرِ بِغَيْرِهَا — أَوْدَأْتُ أَنْ يُحْتَنَبُ فِي تَرْبِيَتِهِ زَمَنَ طُفُولِيَّتِهِ الْخَوْصُ فِي الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ فَإِنَّا مُؤْمِنُونَ عَلَى عَقْلِهِ وَعَلَى حُرِّيَّةِ صَمِيرِهِ وَمَسْئُولُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَإِذَا نَحْنُ نَعْبَلُنَا بِحُرْمَانِهِ مِنْ حَقِّ النَّظَرِ فَقَدْ نَلَمْنَا أَمَانَتَنَا . اهـ

الرسالة الحادية عشرة

(من إرأسم إلى هيلانة في ٣ يونيو سنة ١٨٥٠)

بَيَانٌ عَدَمِ قَائِدَةِ أُصُولِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ فِي التَّرْبِيَةِ
مُعْظَمَ مَنْ كَتَبُوا فِي عِلْمِ التَّرْبِيَةِ يُنَالُونَ بِأُصُولِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَيَرْفَعُونَ مِنْ شَأْنِهَا،
وَأَنَا مِثْلَهُمْ أَعْتَقَدُ أَنَّ الْمَوَاعِظَ الْحَسَنَةَ وَقَوَاعِدَ التَّهْذِيبِ الْمُفِيدَةَ قَدْ تَبَعْتُ الْغَزَائِمَ

فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْقِيَامِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَلَكِنِّي لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ مَا يَلْقَفُهُ
النَّاشِئُونَ مِنْهَا مِنْ أَقْوَاهُ مَعْلَمِهِمْ فِي دُرُوسِهِمْ يُغَيِّرُ طَبَاعَهُمْ تَغْيِيرًا حَقِيقِيًّا ، وَهِيَاتَ
أَنْ أُعَوَّلَ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ فَإِنَّا نَرَى كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِي أَنَسًا مِنَ الظُّرْفَاءِ
الْآتِيَّاسِ جُفَاءً غُلْفَ الْقُلُوبِ ، عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْرَمُوا مِنَ النَّصَائِحِ الْعَامَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى التَّحَابِّ
وَالْتِرَاحُمِ الْمُرَغَّبَةِ فِي لَذَّةِ الْأَنْصَافِ بَيْنَهُمَا ، فَمَا مِنْ فَاسِقٍ أَوْ شَرِّيرٍ أَوْ بَخِيلٍ إِلَّا وَقَدْ
سَمِعَ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنَ الْإِنْسَةِ الْوَعَاظِ قَوْلَهُمْ « كُنْ حَكِيمًا مُهَذَّبًا تَكُنْ عَزِيزًا مُعْتَدًا ^(١) »
لَا تَفْعَلْ بِفِتْرِكَ مَا لَا تَرْضَى أَنْ يَفْعَلَهُ بِكَ ^(٢) » لَا تَجْعَلْ لِحَطَامِ الدُّنْيَا حِطًّا مِنْ قَلْبِكَ ^(٣)
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّصَائِحِ وَالْحِكَمِ .

الْإِنْجِيلُ كُلُّهُ مَوَاعِظُ رَاقِيَةٌ وَأَمْثَالُ شَائِقَةٌ ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ ذَا الَّذِي يُرَاعِيهَا ؟
هَلْ تَجِدِينَ كَثِيرًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ أَنْفَقُوا جَمِيعَ أَمْوَالِهِمْ عَلَى الْفُقَرَاءِ بَعْدَ سَمَاعِهِمْ آيَةَ « إِنْ
دُخُولَ الْجَمَلِ فِي سَمِّ الْحَيَّاطِ أَيْسَرُ مِنْ دُخُولِ الْفَنِيِّ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » ^(٤) ؟
هَلْ تُلَاقِينَ وَآوِيِ الْفَقِيرِينَ أَنْفُسَهُمْ عَدَدًا كَثِيرًا مِنْ مَنْ يُفَضِّلُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ
(سُبْحَانَهُ) عَلَى عِبَادَةِ الدِّينَارِ وَالدَّرْهَمِ ؟ هَلْ يَرْضَى أَوَائِلُ النَّاسِ أَوْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

(١) الحكمة واردة في أمثال سليمان عليه السلام في التوراة بهذا النص وهو « الرجل الحكيم في عزه » .

(٢) نص الكتاب المقدس في هذا المعنى هو « كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا بهم » .

(هكذا) راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١

(٣) نص الكتاب في هذا المعنى هو « لا تكتنزا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ
وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل آكتنزا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ »
راجع الأعداد ١٦ و ١٩ و ٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى .

(٤) راجع (٢٣ : ١٩) من انجيل متى « وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن
يدخل غنم إلى ملكوت الله » .

أَنْفُسَهُمْ كَذَلِكَ أَنْ يُعَامِلُوا مُعَامَلَةَ الْأَوَّاحِ ؟ هَلْ يَسْهُلُ عَلَى الْحَاكِمِينَ أَنْ يَقْبَلُوا
مُحْكَمِينَ ؟ لَا ! بَلْ تَرَى عُلَمَاءَ الدِّينِ يُفَالِطُونَ فِي قَهْمِ نُصُوصِ الْكِتَابِ مُحَادِّثِينَ
وَجَدَانَهُمْ غَاشِينَ صَمَائِرَهُمْ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُؤَلِّفُونَهُ مِنْهَا تَخَلُّصًا مِنْ قَضَائِهَا عَلَيْهِمْ وَفِرَارًا
مِنْ عَوَاقِبِ الْأَخْذِ بِصَرِيحِهَا ! .

جاء الْمَسِيحُ يَدْعُو إِلَى السَّلَامِ فِي كُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِهِ ، فَهَلْ رَأَيْتَ الْمَمَالِكَ
أَصْبَحَتْ أَقْلَ قِتَالًا ؟ نَدَبَ إِلَى التَّائِي يَقُولُهُ الْجَمِيلُ « كُلُّكُمْ إِخْوَانٌ » ^(١) فَهَلْ هَدَمَ
هَذَا الْقَوْلُ دَعَائِمَ الْإِسْتِعْبَادِ وَمَحَا مِنَ النُّفُوسِ مَبْلَهَا إِلَى التَّسْلِطِ ؟ تَوَعَّدَ مَنْ يُصَلِّتُ
سَيْفَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا بِالْهَلَاكِ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ « مَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ بِهِ قُتِلَ » فَهَلْ رَدَعَ
هَذَا الْوَعِيدُ مَنْ كَانَ بِيَدِهِمُ الْحَوْلُ وَالنَّمُوَّةُ عَنِ اتِّهَاكِ حُرْمَةِ الْقَانُونِ بِالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ « مَنْ أَخَذَ قَبِيضَكَ فَأَعْطَاهُ رِذَائَكَ » ^(٢) فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مِنَّا مَعَشَرَ الْفَرَنْسِيِّينَ
الْمُتَشَدِّدِينَ فِي التَّمَسُّكِ بِالَّذِينَ اتَّبَعَ هَذَا الْأَمْرَ وَجَرَى عَلَى نَصْبِهِ حَرْفٌ لَسُجِنَ
فِي شَارَنْتُونِ ^(٣) خُصُوصًا إِذَا كَانَ لَهُ مِنْ أَقَارِبِهِ وَارِثُونَ .

لَمْ يَخْتَصَّ الْمَسِيحِيُّونَ بِهَذِهِ الْمَوَاعِظِ الْحَسَنَةِ فَإِنَّ لِلْيَهُودِ أَيْضًا وَالصَّيِّتِينَ وَالْفَرُوسِ
كُتُبًا فِيهَا حِكْمٌ بَالِغَةٌ وَوَكَلِيمٌ نَابِغٌ وَلِكِنِّهِمْ لَمْ يَصِيرُوا بِهَا أَحْسَنَ مِنَّا حَالًا ؛ وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ

(١) راجع ٢٣ : ٨ من إنجيل متى « وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم واحد هو المسيح وأنتم
جميعا إخوة » . (٢) عبارة متى في هذا هي (٢٦ : ٥٢) « قال يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل
الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » . (٣) نص متى (٦ : ٤٩) « ومن أخذ رذائك فلا تغمه
ثوبك أيضا » . (٤) شارنتون اسم لقريتين من قرى فرنسا إحدى اسم شارنتون لو بونت وهي أشهر
قرية في إقليم السين بقضاء سوانة على نهر مارن والثانية تسمى شارنتون دوشير وهي أشهر قرية في إقليم
شير بقضاء سانت ارمند مونت ووند وفي الثانية مستشفى للجذائب .

يَكْفِي فِي تَحْسِينِ أحوَالِ النَّاسِ وَتَهْدِيبِ نُفُوسِهِمْ وَجُودُ كِتَابٍ مُفِيدٍ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ
لَكَانَتْ الدُّنْيَا قَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الْكِبَالِ مِنْ زَمَنِ طَوِيلٍ ، لِأَنَّهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَمْ تَحُلْ
مِنْ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ يَوْمًا ، عَلَى أَنْتَا لَا تَسْمَعُ فِي جَمِيعِ أَرْجَائِهَا إِلَّا أَصْوَاتَ آلَامِ
الْمُنْكَوِبِينَ وَالْمَكْرُوبِينَ ، وَتَحْرِيقِ الْأَرَمِ^(١) مِنَ الْمُقَهَّورِينَ الْمُتَنَيْظِرِينَ .

أَرَى أَنَّهُ لَا ارْتِبَاطَ بَيْنَ مَذْهَبِ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عَمَلِهِ غَالِبًا إِلَّا فِي الْخِيَالِ وَالْوَهْمِ ،
فَلَوْ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَالشَّرَّ كُلَّهُ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَعَزِلٍ عَنِ الْآخِرِ فِي تَجَرُّى الْحَيَاةِ وَسَبَاقِ
أَعْمَالِهَا لَسَهَّلَ عَلَى النَّاسِ الْحُكْمَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ آرَائِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، وَلَا قَطَعَ مِنْ
بَيْنِهِمْ سَبَبُ الْخِلَافِ بِأَسْرَعِ مَا يَكُونُ ، وَلَكِنْ هَيَّاتَ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَقَدْ
عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ مِنْهُمْ بِعِلْمِهِ إِلَّا الشَّدَّادُ ، أَنْظِرْنِي إِلَى أَصُولِ الْأَخْلَاقِ الْإِنْجِيلِيَّةِ
مَثَلًا يُجِدِّي أَنْ مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْوَهْيَةِ الْمَسِيحِيَّةِ هُمْ فِي الْغَايِبِ أَكْثَرُ اتِّبَاعًا لَهَا وَرِعَايَةً
يَمْنِ اتَّخَذُوا الْإِيمَانَ بِتِلْكَ الْأَوْهْيَةِ مَهْنَةً لَهُمْ .

أَنَا لَا أَعْنِي بِجَمِيعِ مَا قُلْتُهُ هُنَا أَنَّ عِلْمَ الْأَخْلَاقِ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي التَّربِيَةِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي
أُرِيدُهُ بِهَذَا الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ أَحْسَنَ مَا لِهَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْأَصُولِ فِي الدُّنْيَا بِأَسْرَعِهَا لَا يُثْنِي
رِجَالًا كَلَمَةً مُهْدِيَةً ، وَقَدْ فَهِمَ ذَلِكَ حَقَّ الْفَهْمِ وَأَضَعُوا الشَّرَائِعَ فَعَزَّزُوا مَا دُونَ
مِنْ تِلْكَ الْأَصُولِ فِي الْكِتَابِ بِوَضَاحٍ تَامَةٍ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .

(١) تحريق الأرم كناية عن شدة النياط ، والأرم : الأكل وهو من فعل الأسنان ومعنى ذلك أن

ثُمَّ إِنَّ الطِّفْلَ لَا يَسْتَفِيدُ مِمَّا يُلْقَى عَلَيْهِ مِنْ دُرُوسِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ
الِاسْتِعْدَادِ وَالْكَفَاءَةِ بِمِثْلِ يُقَدَّرُ أَسْبَابُ أَعْمَالِهِ وَعَوَاقِبُهَا ، فَأَتَى لَهُ إِذْنٌ أَنْ يَفْهَمَ
هَذَا الْأَصْلَ الرَّجْدَانِيَّ وَقَدْ حَبَّبَهُ عَنْهُ إِذْرَاكَ مَشَاعِيرِهِ الظَّاهِرَةِ وَاشْتِدَادُ أَهْوَائِهِ وَشَرُّهُ
غَرَائِزِهِ ؟ وَآتَى لَهُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْأَمْثَالِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ
يَأْخُذَ بِزَمَانٍ عَزِيزٍ عَلَيْهِ إِلَى الْخَيْرِ وَيَصْرِفَهُ عَنِ الشَّرِّ ؟ وَلَبَّتْ شِعْرِي هَلْ تَجْرِي أُمُّهُ
دَائِمًا عَلَى مُقْتَضَى مَا تُرِيدُهُ إِلَيْهِ مِنْ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ وَجَمِيلِ الصِّفَاتِ ؟ تَرَى الْوَالِدَ
يُلْقِي عَلَى وَلَدِهِ خُطْبَةً طَوِيلَةً فِي وُجُوبِ مُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَسَاكِينِ ،
ثُمَّ هُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَلُومَهُ إِذَا أَعْطَى لِفَقِيرٍ دِرْهَمًا مِنَ الْفِضَّةِ ، فَهُوَ بِذَلِكَ يَنْدُرُ بِإِحْدَى
يَدَيْهِ فِي ذَاكِرَتِهِ أَصُولَ الْإِنْجِيلِ ، وَيَنْقُشُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى عَلَى قَلْبِهِ صُورَ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ .

(١) شَرُّ غَرَائِزِهِ : حَقَّتْهَا .

(٢) جميع ما قاله المؤلف في هذه الرسالة من عدم كفاية علم الأخلاق في التربية وما ضربه من الأمثال
لذلك شبه بما رآه من عدم تأسيس التربية على العقائد الدينية ومنشأ هذا كله مذهبه الذي ارتضاه لنفسه
وهو حرية النظر التي لا يدين صاحبها بدين ، ومن الخطأ الذين الاستدلال على عدم كفاية أصول علم الأخلاق
في التربية بأنه لم يصلح الناس جميعاً فإن خروج كثير منهم على هذه الأصول وعدم اتباعهم لها لا يعتبر عيباً فيها
بل عيباً في عقولهم وقصفاً في قلوبهم ، وإنما كان عدم صلاحهم من انحرفهم عنها وعدم جريهم على سنتها ،
ولا يختلف جبل أثرها في التربية إلا إذا كان المربون غير مرتاضين بها فإذا ارتاضت بها ففهمهم وظهرت
آثارها في أفعالهم فلا جرم أن يكون لها في التربية أعظم الفوائد ، وما أظن المؤلف يجرؤ على القول بأن اتباع
طريقته في التربية وهي ترك الطفل وشأنه يتعلم مما يحيطه ينشئ الناس كلهم أُنصاراً صليحاً ، فالمشهود أن
هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل ناقصة بدليل تباین الناس في الآراء والأفكار والمشارب
وهذا ما أودعها الله التي أودعها دينه هي جماع الخير وقصد السبيل . — المترجم .

الرسالة الثانية عشرة

(من إرأسم الى هيلانة في ٤ يونيه سنة - ١٨٥)

بَيَانُ نَفْعِ الْقُدْوَةِ وَشَرْطِهِ، وَمُطَالَعَةِ قِصَصِ الْحَيَوَانَاتِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ

وَوُجُوبِ اسْتِقْلَالِ طَبْعِ الطِّفْلِ وَتَعَلُّمِهِ سِيرَ الْحَيَوَانَاتِ بِنَفْسِهِ

يُعَوِّلُ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ كَثِيرًا فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ عَلَى قُوَّةِ الْقُدْوَةِ وَتَأْثِيرِ الْأَسْوَةِ،

وَأَنَا فِي هَذَا مُوَافِقٌ لَهُمْ وَلَكِنْ : أَيْ وَالِدٍ يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَتَّبِعَ بِأَنَّهُ عَلَى الدَّوَامِ قُدْوَةٌ

صَالِحَةٌ لَوْلَايِهِ ؟

نَحْنُ عَلَى الْجُمْلَةِ نَسْعَى فِي غِشِّ الْأَطْفَالِ وَخِدَاعِهِمْ بِمَا نَتَرَبَّنُ بِهِ لَهُمْ مِنْ

لِبَاسِ الرِّيَاءِ الَّذِي يَجْعَلُنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَحْسَنَ مِنَّا نَحْنُ عَيْنُهُ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ

وَمَا يَصْدُرُ عَنْ كَثِيرٍ أَمَامَهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَدَابِ الْمُغَايِرَةِ كُلِّ الْمَغَايِرَةِ الْمُعْتَقَدَاتِنَا

وَأَرَاتِنَا الذَّاتِيَّةَ، وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّنَا قَصِيدُ أَنْ تُرَبِّي طِبَاعَهُمْ عَلَى مَا نَسْنَأُ عَلَيْهِ مُوَافَقَةً

لِحُسْنِ رَأْيِنَا فِي أَنْفُسِنَا وَرَغْبَةٍ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الرَّأْيِ لِغَيْرِنَا، وَأَنْتَ نَكْشُوهُمْ مِنْ

الْقَضَائِلِ مَا نَتَنَظَّاهُ لَهُمْ بِأَنَّنَا مُتَحَلِّوْنَ بِهِ، وَلَكِنْ هِمَمَاتُ أَنْ يَنْخَضِعُوا بِهَذِهِ الْحِيلِ،

وَمِنْ ظَنِّ يَوْمٍ ذَلِكَ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي فَهْمٍ مَعْنَى سَدَاجَتِهِمْ وَصَفَاءِ قُلُوبِهِمْ خَطَأً بَيِّنًا .

لَئِنْ الْأَطْفَالُ يَعْرِفُونَ كَيْلَ الْمَعْرِفَةِ مَا يَسْتَمِدُّونَ عَلَيْهِ فِي كَثْفِ مَقَاصِدِ آبَائِهِمْ وَالْوُقُوفِ

عَلَى سُئُوبِهِمْ ، وَهُمْ يُدْرِكُونَ بِالْحَدِيثِ وَالتَّخْمِينِ مَا يَحْتَمِدُ هَؤُلَاءِ فِي كِتَابَتِهِ عَنْهُمْ ،

وَأَيُّ لَفَى شَكٍّ مِنْ أَنَّ هَذَا الْيَكْتَانِ وَإِنْ حُدِثَ أَسْبَابُهُ يَزِيدُهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ

إِجْلَالًا وَتَغْلِيًا .

عَاقَبَ وَالِدُ ابْنَا صَغِيرًا لَهُ لَمْ يَتَجَاوِزِ الْخَامِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ عَلَى أَكْثَوِيَةٍ قَالَمًا وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَمِسُ مِنْ عِقَابِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ خَادِمُهُ مُحْمِرًا لَهُ بِأَنَّ زَائِرًا قَلِيلًا يَنْتَظِرُهُ فِي الْخَارِجِ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْوَقُورُ «أَخْبِرْهُ بِأَنِّي لَسْتُ دُنَا» قِيَالَهُ مِنْ دَرَسٍ يَسْتَعِيدُ الطِّفْلُ مِنْهُ الصَّدَقَ وَالْإِخْلَاصَ ! .

أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ «إِمِيلَ» لَنْ يَحْدَ فَيْكِ إِلَّا أَحْسَنَ أُسْوَةٍ وَأَكْلَ قُدْوَةٍ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَمَلَأُ قَلْبِي أَطْمِئْنَانًا عَلَيْهِ . وَلَكِنْ أَقُولُ لَكَ الْحَقَّ غَيْرَ مُدَاجٍ فِيهِ وَلَا مُدَارٍ ، وَهُوَ أَنَّ غَرَضِي مِنْ تَرْبِيَّتِهِ أَنْ يَكُونَ ذَا طَبْعٍ مُسْتَقِلٍّ لَا مُفَرِّغٍ فِي قَالِبٍ طَبْعٍ آخَرٍ مَهْمَا كَانَ لِهَذَا الطَّبْعِ مِنَ الْكَمَالِ ، وَأَذْكُرُكَ لِكِ هُنَا وَاقِعَةً حَضَرْتَنِي الْآنَ تَذْكُكَ عَلَى أَنِّي مُحِقٌّ فِي قَضَائِي ، وَهِيَ أَنِّي رَأَيْتُ ذَاتَ يَوْمٍ طِفْلًا فِي السَّادِسَةِ مِنْ عُمُرِهِ رَاجِعًا مَعَ وَالِدَيْهِ مِنْ تَشْيِيعِ جَنَازَةٍ ، وَهُوَ مِنَ الْأَطْفَالِ الْبَاحِجِينَ الَّتِي تَقْدِمُ جِدًّا عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادِ الْبَاسِ ، وَكَانَ يَبْكِي أَوْ يَتَبَاكَى فَارْتَبْتُ فِي أَمْرِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَحْطَى فِي مَعْرِفَةٍ مِنْ فُجِعَ بِهِ لِأَنَّ الْمَوْتَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ابْنَ عَمٍّ يَعْبُدُهُ (عَلَى أَنَّ الْأَطْفَالَ لَا يَفْهَمُونَ حَقِيقَةَ الْمَوْتِ كَمَا تَعْلَمِينَ) فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِ وَكَدَّرَهُ الْعَظِيمُ فَكَانَ جَوَابُهُ لِي أَنَّ قَالَ « لَا سَبَبَ سِوَى أَنِّي رَأَيْتُ الْآنَ وَالِدِي تَمْسَحُ عَيْنَيْهَا بِمِخْدِلَيْهَا فَبَكَيتُ » فَاصْطَكَيْتُ مِنْهُ هَذَا التَّأَثُّرَ التَّقْلِيدِيَّ وَإِنْ كَانَ صَادِرًا بِلاَ شَكٍّ عَنْ طَبْعٍ سَادِجٍ وَقَلْبٍ سَلِيمٍ . لَا أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ «إِمِيلُ» مِثْلَ هَذَا الْغُلَامِ فِي تَأَثُّرِهِ بَلْ أُرِيدُ أَنَّهُ يَتَى بَلْعَ السَّنِّ الَّتِي يَرِقُ فِيهَا لِمَنْ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ وَيَعْطِفُ عَلَيْهِ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُ نَاشِئًا عَنْ غَمٍّ كَارِثٍ أَلَمْ يَنْفَسِهِ وَحَزْنٍ مُخْصٍ يَضْطَرُّمْ فِي قَلْبِهِ .

(١) كَارِثٌ مِمَّا قَالَهُ مِنْ كَرِهَاتِهِ إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ وَبَلَغَ مِنَ الْمَشَقَّةِ . (٢) ضَرْمٌ مِنْ أَمْرِهِ إِذَا أَمَرَهُ وَآلَهُ .

هَلْ يَجِبُ أَنْ يُلْحَقَ مَا يَرَى مِنْ أَعْمَالِ الْحَيَوَانَاتِ وَسِيرِهَا فِي حَيَاتِهَا بِمَا لِلْفِدْوَةِ مِنَ التَّأثيرِ فِي التَّربيةِ؟ وَكَيْفَ لَا وَنَحْنُ نَرَى كُتَابَ الْأَمْثَالِ عِنْدَنَا - عَلَى بَعْدِ مُجْتَمَعَاتِنَا مِنْ مَعَاهِدِ الْفِطْرَةِ - تَرْدَانِ تَأْلِيْفَهُمْ وَتَرْدِيهِ دُرُوسُهُمْ بِمَا يُودِعُونَهَا مِنْ سِيرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَخْلَاقِهَا، وَإِنَّ الطِّفْلَ مِنْ أَوْلَادِنَا لَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ الْمَفْهُومِ وَالْحِفْظِ حَتَّى يُجْعَلَ عَلَى حِفْظِ أُسْطُورَةٍ مِنْ أُسَاطِيرِ لَافُونْتَيْنِ كَأُسْطُورَةِ الصَّرْصِرِ وَالنَّمْلَةِ مَثَلًا .

أَنَّا لَا أَنْكَرُ أَنَّ فِي حَيَاةِ الْحَيَوَانَاتِ عِبْرًا كَثِيرَةً وَعُلُومًا شَتَّى يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُهَا، وَلَكِنِّي أَقُولُ : أَلَا يَتَبَيَّنُ لِهَذَا الْعَالَمِ الصَّغِيرِ الَّذِي يَحْفَظُ سِيرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ رِوَايَةً الْكَوْنِ الْكُبْرَى فِي مَشْهَدِهِ الْأَعْظَمِ أَنَّ يَعْرفَهَا لِيَتِمَّ بِشَأْنِهَا اهْتِمَامًا حَقِيقِيًّا ، فَكَمْ نَرَى مِنْ أَطْفَالٍ تَنَسَّأُوا فِي حَوَاضِرِنَا الْكُبْرَى وَقَرَأُوا أُسَاطِيرَ ذَلِكَ الْكَاتِبِ الشَّهِيرِ لَمْ يَرَوْا فِي حَيَاتِهِمْ تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي يَحْكِي لَهَا قِصَصَهَا وَيُمَثِّلُ لَهَا أَحْوَالَهَا إِلَّا قَلِيلًا .

فَهُمْ عَلَى جَهْلٍ تَامٍّ بِأَخْلَاقِهَا وَعَادَاتِهَا . وَفِي رَأْيِي أَنَّ سُلَيْمَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَعْقَلَ مِنْ وَاضِعِي التَّعَالِيمِ الْحَدِيثَةِ إِذْ قَالَ لِلْكَلْبَانِ «عَلَيْكَ بِالتَّعَلُّمِ فِي مَدْرَسَةِ النَّمْلَةِ» ^(١) فَإِنَّهُ دَلَّ بِهَذَا الْإِرْشَادِ عَلَى بَيِّنَاتٍ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ الْفَيَاضَةِ لَا عَلَى حَيَاضِهِ الَّتِي - لِبُعْدِهَا عَنْ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ - لَا يُوجَدُ فِيهَا إِلَّا صُبَابَةٌ لَا تَرَوَى ظَمًا وَلَا تُبْرِدُ غَلَّةً .

(١) لافونتين واسمه جان دولافونتين من أشهر كتّاب الأساطير في فرنسا وله في شاتوتيري سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥ م ولمنحس أسطورة الصرصر والنملة هو أن صرصرًا ظل أيام الصيف كلها لاها يبتائنه من ادخار قوته بينا كانت تملأ جارة له تسقى وتكبح في جمع قوتها لوقت الحاجة فلما جاء الشتاء لم يجد الصرصر ما يسد به رقبته فالتفت الموعنة من جارة فسأله ماذا صنعت في الصيف فأجابها بقوله كنت أغنى هذالت له اذهب الآن فارقص .

(٢) عبارة الأمثال في هذا المعنى هي : اذهب الى النملة أيها الكلبان . تأمل طريقها وكن حكيما « هي » التي ليس لها قائم أو عريف أو متسلط وتعد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها .

راجع الباب ٦ من أمثال سليمان والأعداد ٦ و ٧ و ٨ .

الرسالة الثالثة عشرة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ٦ يُونِيهِ سَنَةِ ١٨٥)

بَيَانُ الطَّرِيقِ إِلَى تَرْبِيَةِ الْمَشَاعِيرِ الْبَاطِنَةِ

اعْلَمِي أَنَّ أَحْصَى مَا يَجِبُ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ فِي إِتْسَاءِ طَبِيعِ الطِّفْلِ هُوَ عِلْمُ مَنَافِعِ
الْأَعْضَاءِ، وَإِذَا كَانَتْ هُنَاكَ وَسَائِلُ أُخْرَى يُسْتَعَانُ بِهَا فِي ذَلِكَ فَلَا يَنْبَغِي إِغْفَالُهَا .

الْوَلِيدُ يَرَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مَحَبًّا لِنَفْسِهِ مُتَقَبِّضًا عَنْ غَيْرِهِ لَضَعْفِهِ وَتَعْجِزِهِ عَنِ
الِإِخْتِلَاطِ، فَعَمَلُ الْمَرْبِيِّ مَعَهُ هُوَ أَنْ يَعْمِدَ إِلَى مَا وَهَبَهُ اللَّهُ (سُبْحَانَهُ) مِنَ الْغَرَائِزِ
الْمَحْمُودَةِ الْكَافِلَةِ حِفْظَهُ فَيَجْعَلُهَا أَصْلًا يَفْرَعُ مِنْهُ بِالتَّدْرِيجِ صُنُوفًا مِنَ الْوُجْدَانِ
أَرْفَى وَأَشْرَفَ مِنْ مَحَبَّةِ النَّفْسِ وَالْإِنْتِبَاضِ عَنِ النَّاسِ — تَرْبِيَتُهُ بِأَمَثَالِهِ وَتَعَطُّفِهِ بِهِ
عَلَى أَضْرَائِهِ، وَلَا اعْتِدَادَ عِنْدِي بِمَا تُسَمِّي بِهِ هَذِهِ الْقُوَى السَّامِيَةَ الطَّبِيعِيَّةَ فَالْتَّسَمَاهَا
أَوَاصِرًا أَوْ عَوَاطِفَ مَثَلًا، وَإِنَّمَا الَّذِي أَعْتَدُ بِهِ وَيَهْمُنِي أَنْ أَقُولَهُ لَكَ: هُوَ أَنَّهَا لَيْسَتْ
خَيَالَاتٍ وَلَا صُورًا ذَهْنِيَّةً بَلْ هِيَ حَقَائِقُ ثَابِتَةٌ لَهَا أُصُولٌ رَاسِخَةٌ فِي نَفْسِنَا وَفِي الْخَارِجِ
فَكُلُّ عَاطِفَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعَوَاطِفِ النَّفْسِيَّةِ لَهَا ارْتِبَاطٌ فِي الْخَارِجِ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ،
فَالشَّفَقَةُ مَثَلًا تُوْجَدُ عِنْدَ رُؤْيَةِ آلَامِ الْغَيْرِ وَمَصَائِبِهِ، وَالشُّكْرُ يُوْجَدُ عِنْدَ الْإِحْسَانِ
وَإِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ، وَحُبُّ الْوَطَنِ مَنَشُؤُهُ اعْتِيَادُ النَّوَاءِ بِالْأَمْكِنَةِ وَالْإِنْتِفَاجُ بِمَا
فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ وَمَحَبَّةُ النَّاسِ تَنْشَأُ وَتَقْوَى بِمُحْسِنِ الْمَعَامَلَةِ وَلَطْفِ الْمَجَامِلَةِ .

جَمِيعُ الْعَوَاطِفِ الشَّرِيفَةِ وَالسَّجَايَا الْحَسَنَةِ تُوْجَدُ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ، لَكِنَّهَا
تَكُونُ كَالنَّبَاتِ فِي طَوْرِ الْبَدْرِ، فَالْعَالَمُ النَّبَاتِيُّ مَمْلُوءٌ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبُودُورِ رُبَّمَا لَا تَنْتَبِهُا

لَهَا ذَرَائِعُ النُّجُومِ وَالنَّبْتُ طُولَ حَيَاتِهَا، لِمَا يُعَوِّزُهَا مِنْ أَشْعَةِ الشَّمْسِ وَالْأَرْضِ
الصَّالِحَةِ لِلْإِنْبَاتِ وَالْمَاءِ بِنَسَبٍ مَخْصُوصَةٍ . كَذَلِكَ شَأْنُ أَصُولِ الْمَوَاطِفِ
وَضُرُوبِ الْوُجْدَانِ الْإِنْسَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ فِي ظُهُورِهَا وَمُؤَدَّهَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مَلَائِكَةٍ
وَمُؤَثَّرٍ خَارِجِيٍّ .

كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ طَبْعَ الطِّفْلِ يَنْمُو بِالْمُؤَثَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ مُؤَدِّهِ بِالْبَوَاحِثِ
النَّفْسِيَّةِ ، فَإِنَّ مَا تَفْعَلُهُ أُمَامُهُ مِنَ الْأَفَاعِيلِ وَمَا تَرْجِي بِهِ مِنَ الْأَفَاوِيلِ ، هُوَ الَّذِي
يَبْعَثُ فِيهِ الْفَرَحَ تَارَةً وَالْحُزْنَ أُخْرَى خُصُوصًا فِي أَوَائِلِ أَيَّامِهِ ، عَلَى أَنَّ مَا لَنَا مِنَ التَّأثيرِ
فِي طَبْعِهِ مُبَاشَرَةً لَا يَكَادُ يَكُونُ شَيْئًا يُذَكِّرُ إِلَّا مَا تَحُوطُهُ بِهِ أُمُّهُ مِنْ ضُرُوبِ الْعِنَايَةِ
وَمَا تُبْدِيهِ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَنَنِ وَالرَّعَايَةِ ، فَإِنَّهُ يَدْعُوهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ إِلَى حُبِّهَا ، وَلَكِنَّ
الطَّبْعَ كَمَا عَلِمْتَ يَتَأَلَّفُ مِنْ قُوَى مُتَمَايزَةٍ كُلُّ التَّمَايزِ يَقْتَضِي كُلَّ مِنْهَا بَاعِثًا خَاصًّا
إِنْ وَسِعْنِي أَنَّ أَقُولُ ذَلِكَ . فَلَيْسَ الْإِنْسَانُ ذَاتًا بَسِيطَةً بَلْ هُوَ عَلَى مَا اعتَقِدُ أَكْثَرُ
تَرَكُّبًا فِي نَفْسِهِ مِنْهُ فِي جَسَدِهِ .

الْمَشَاعِيرُ الْبَاطِنَةُ كَالْمَشَاعِيرِ الظَّاهِرَةِ فِي كَيْفِيَّةِ التَّأثيرِ ، فَالْثَّانِيَةُ كَمَا تَهْلِكُ لَا تَنَاسَرُ
إِلَّا فِي أَحْوَالٍ وَشُرُوطٍ خَارِجِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ ، لِأَنَّ مَشْعَرَ الْفُحْسِ مَثَلًا لَا يَتَأَثَّرُ إِلَّا مَتَى
لَاقَى أَشْكَالَ الْأَجْسَامِ وَجِهَاتِهَا ، وَمَشْعَرَ الذُّوقِ لَا يَنْفَعِلُ إِلَّا بِمَا يَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ
الطُّعْمِ ، كَذَلِكَ الْأَوَّلَى لَا تَتَّبِعُ إِلَّا عِنْدَ اجْتِمَاعِ أُمُورٍ وَاقِعِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ ، فَإِنَّ
حُلُولَ الْخَطَرِ مَثَلًا يُؤَلِّدُ لِحَاسِ الْخَوْفِ وَلَكِنَّهُ لَا يَبْعَثُ وَجْدَانِ الْإِنْصَافِ مُبَاشَرَةً

(١) النجوم : أقل ظهور النبات .

(٢) هذا مصداق لقولهم فيه إنه العالم الأصغر — المترجم .

وَرُؤْيَا الطِّفْلِ مَا يَغْمُرُهُ بِهِ أَهْلُهُ مِنْ صُنُوفِ الْبِرِّ قَدْ تَلَقَّى فِي نَفْسِهِ وَجْدَانِ حَبِيبِهِمْ
وَالْمِلَإِ إِلَيْهِمْ ، وَلَكِنَّهَا فَلَمَّا تُوقِفُ فِيهِ إِحْسَاسَ الْإِحْسَامِ وَالنَّوَاضِعِ . وَالْأَحْوَالِ
الَّتِي تُحَرِّكُ فِي النَّفْسِ عَاطِفَةَ الْمُرُوءَةِ أَوْ الشَّجَاعَةِ لَا تُؤَثِّرُ فِي رِفْقَةِ الطَّبْعِ كَمَا أَنَّ الصُّوْتِ
لَا يُؤَثِّرُ فِي الْعَيْنِ وَالضَّوْءِ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْأَذْنِ ، فَكُلُّ مَشْعَرٍ بَاطِنٍ أَوْ دَاطِفَةٍ نَفْسِيَّةٍ
تَقْتَضِي شَيْئًا يَنَاسِبُهَا وَيُلَاحِظُهَا ، وَالطِّفْلُ كَالْآلَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ كُلِّهِ أَوْ تَارٍ تَهْتَرُ إِذَا نَفَرَتْ ،
وَلَكِنَّهَا لَا تَهْتَرُ إِغْرَازًا حَقِيقِيًّا إِلَّا بِمَا يَقَعُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَلَا تَتَأَثَّرُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ
عَلَى السَّوَاءِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَتْبَعَالٍ قَلْبِي طَائِفَةٌ مِنْهَا تَلَامُهُ .

فَإِذَا أَرَدْنَا مَثَلًا أَنْ نُنْقِي فِي نَفْسِ الطِّفْلِ الَّذِي فِي السَّابِعَةِ أَوْ الثَّامِنَةِ مِنْ عُمرِهِ
وَجِدَانِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالزَّمْنَى فَإِنَّا وَالْخَطَابَةَ وَالْوَعظَ لِأَنَّ أَحْسَنَ مَوَاعِظِ
الْإِنْجِيلِ لَا تُفِيدُهُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا . بَلْ عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ بِهِ إِلَى خُصِّ حَقِيرٍ يَكُونُ فِيهِ
شَيْخٌ هَرِمٌ أَلْبَسَ الْأَيَّامُ قُوَاهُ وَتَهَكَّتْ الْحُمَى جِسْمَهُ وَقَدْ رَقَدَ عَلَى حَصِيرٍ وَمَدَّ يَدَهُ
يَسْأَلُ عَوَادَةَ قَدَحِ مَاءٍ بَارِدٍ ، وَتَنْظُرُ مَا يَكُونُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَإِذَا هُوَ لَمْ يَبَادِرْ
بِنَفْسِهِ إِلَى مَلَأِ جَرَّةٍ مِنْ أَقْرَبِ مَوْرِدٍ وَتَقْدِيمِهَا بَيْنَ يَدَيْ الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ فَقَدْ حَقَّ
الْيَأْسُ مِنْهُ ، وَأَمَّا إِذَا تَحَرَّكَ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ الْخَيْرِيِّ فَإِنَّا أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ قَصْدِهِ بِهِ
وَعَمَّا يَرْجُوهُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ فِي شَوْبِ أَنْبِعَائِهِ الصَّالِحِ إِلَى الْبِرِّ يَنْتَقِلُ حَبَّةٌ
مِنَ الْقَائِدَةِ الذَّائِمَةِ إِفْسَادًا لَهُ .

قَدْ بَانَ لَكَ مِمَّا قَدَّمْتُهُ الْغَايَةُ الَّتِي أَرَى إِلَيْهَا فِي قَوْلِي وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ
يُوجَدُ فِي الطِّفْلِ قُوَى كَامِنَةٌ تَنْبُذُهُ بِالْمُؤَثَّرَاتِ الْخَارِجَةِ الَّتِي تَدْعُوهَا إِلَى الدُّخُوصِ

لِلْمَعْلِلِ وَكَانَ لِهَذِهِ الْمُؤَثَّرَاتِ أَرْبَاطٌ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَالْوَقَائِعِ الْخَارِجَةِ
فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا هُوَ أَنْ نُنَبِّهَ فِيهِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ تَنْبِيْهَا مَا عَوَاطِفُ الْحَفَاوَةِ وَالسَّخَاءِ
وَاحْتِرَامِ النَّفْسِ وَالنَّاسِ وَالزَّاهَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ السَّجَايَا الْحَمِيدَةِ، فَطَرِيقَةُ تَرْبِيَةِ
الْمَشَاعِيرِ الْبَاطِنَةِ لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي بَيْنَهَا عِلْمَاءُ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ
فِي تَرْبِيَةِ الْمَشَاعِيرِ الظَّاهِرَةِ ، بَلْ لَا يُوجَدُ لِتَرْبِيَةِ جَمِيعِهَا إِلَّا طَرِيقَةٌ وَاحِدَةٌ
لَأَنَّهَا كُلُّهَا تَجْرِي عَلَى قَانُونٍ وَاحِدٍ لَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ .

يُوجَدُ فَرْقٌ وَاحِدٌ بَيْنَ التَّرْبِيَّتَيْنِ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْفِعَالَاتِ فِي تَرْبِيَةِ الْمَشَاعِيرِ
الْبَاطِنَةِ وَمَا يُولَدُهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ تَخَالِفُ مَا يُقَالُهَا فِي تَرْبِيَةِ الْمَشَاعِيرِ الظَّاهِرَةِ، فَإِنَّ
الشَّيْءَ الَّذِي تَتَّعِلُّ الْقَسِيْرُ بِرُؤْيَيْهِ مَثَلًا لَا تَتَّعِلُّ بِهِ النَّفْسُ دَائِمًا، فَعَلَى الْأَمِّ أَنْ
تَخْتَارَ نَوْعَ الْأَقَارِ الَّتِي تُرِيدُ إِحْدَاثَهَا فِي نَفْسِ وَلَدِهَا وَتَجْعَلَهَا صُنُوفًا وَأَشْكَالًا، وَلَيْسَ
يُعْوزُهَا فِي الْحَقِيقَةِ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمَلَامَةِ لِذَلِكَ فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ لَيْسَتْ
إِلَّا مَشْهَدًا لِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُؤَثِّرَةِ تُرَى فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ أَلَا مُمْحَرِّكُ عَاطِفَةٍ
الرَّحْمَةِ ، وَعَقَبَاتٌ تَدْعُو إِلَى التَّنْذِرِ بِالشَّجَاعَةِ ، وَهَنْ أَعْدَتْ لِيُبْتَلَى بِهَا الصَّبْرُ ،
وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ سَلِيمَةً اللَّوْقِ كَثِيرَةَ الْحِذْقِ فِي اخْتِنَامِ الْفُرْصِ الَّتِي
تُهَيِّئُهَا لَهَا الْحَوَادِثُ ، ثُمَّ اعْلَمِي أَنَّ الْكُتُبَ قَلِيلَةً الْجُتْوَى جِدًّا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ،
فَالَّذِي عَلَيْهِ أَنْ تَرْجِعِي إِلَيْهِ فِي سِيرَتِكَ مَعَ «إِمِيل» هُوَ قُوَّتُكَ الْحَاكِمَةُ وَمَا يُؤْمِلُهُ
عَلَيْكَ الْوَجْدَانُ مِنْ ضُرُوبِ الْإِلْهَامِ . وَلَمَّا كَانَ الطِّفْلُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَّا إِلَى الْأَشْيَاءِ

التي له فيها عملٌ كان من الحسن أحياناً أن تَدَسَّ له فيها العَرَّاقِبُ (الحِجْل) لِإِتَارَةِ عَوَاطِفِهِ الدَّائِيَةِ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي هُنَا أَيْضاً الإِحْتِرَاسُ الكُلِّيُّ مِنْ طُهُورِهِ عَلَى مَا يَتَّخِذُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِيلِ فَإِنَّ شُعُورَهُ يَجْدَاعُ الْمُرَبِّيَّ لَهُ هُوَ الْخَسَارَةُ الْكُلِّيَّةُ .

اخْتَرَعَ الْمُرَبِّونَ أَنْوَاعاً مِنَ الرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ مُوَافِقَةً لِإِتِمَاءِ الْأَعْضَاءِ وَخَاصَّةً بِهَا . وَالَّذِي أُعْرِضَهُ عَلَيْكَ أَنَا هُوَ فَنٌّ مِنْ فُنُونِ الرِّيَاضَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَقْوِي بِهَا الْغَرَائِزُ وَالْأَخْلَاقُ ، لِأَنَّ خَصَائِصَهَا وَنَقَائِصَهَا تَقْوِي بِالرِّمَاسِ وَالْإِعْتِيَادِ ، فَالْفَضِيلَةُ تُكْتَسَبُ بِالتَّعَلُّمِ وَلَكِنْ هِيَاتٌ أَنْ تَعْلَمَ إِلَّا بِمُمَارَسَتِهَا وَالْإِرْتِيَاضِ بِهَا . وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَمْثَالِ « بِطَرِيقِ الْحَدِيدِ يَصِيرُ الْإِنْسَانُ حَدَادًا » فَكَذَلِكَ هُوَ لَا يَكُونُ خَيْرًا إِلَّا بِعَمَلِ الْخَيْرِ فَالْعَمَلُ الْعَمَلُ مَا دَامَ حَيًّا .

أَرْجَى الْبَحْثِ فِي قَانُونِ الْأَخْلَاقِ الْحَقِيقِيِّ لِأَنِّي لَا بُدَّ لِي مِنَ النَّظَرِ فِيهِ عِنْدَ الْوُصُولِ إِلَى مَحَلِّهِ ، وَأَكْتَفِي الْآنَ مِنْهُ بِذِكْرِ قَاعِدَةٍ فِي غَايَةِ الْإِبْهَازِ وَالْبَسَاطَةِ وَهِيَ : أَنَّ الطِّفْلَ يَصْلُحُ طَبْعُهُ وَتَتَهَدَّبُ نَفْسُهُ كُلَّمَا زَالَتْ مِنْهُ غَرَائِزُ الْأَثَرَةِ وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا الْعَوَاطِفُ الَّتِي تَأْخُذُ بِرِيقَادِهِ إِلَى رِعَايَةِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ ، وَلَكِنْ هِيَاتٌ أَنْ يَكُنْ هَذَا النَّاشِئُ سَبَابَ سِيرَتِهِ مَعَ غَيْرِهِ خُصُوصًا مَعْنَى الْوَاجِبِ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْغَمُوضِ وَالْخَفَاءِ يَحِثُّ لَا يَنْفُذُ إِلَيْهِ ذِهْنُهُ الضَّعِيفُ ، وَغَايَةُ مَا يُمْكِنُهُ إِدْرَاكُهُ هُوَ رِضَاهُ عَنْ أَعْمَالِهِ وَرِضَى النَّاسِ عَنْهَا . عَلَى أَنَّهُ لِمَا يَجِدُهُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ اللَّذَّةِ الَّتِي لَا تَقُلُّ عَنْ لَذَّةِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَخْتَارَ الْأَوَّلَى وَبِرَجْحَمَا عَلَى الثَّانِيَةِ مَتَى

سَاعَدَانَهُ قَلِيلًا تَوَسِّطَ الْبَوَائِعِ الْخَارِجِيَّةِ، فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ كَمَا يُوْجَدُ فِيهَا شَيْطَانٌ رَّجِمٌ عَلَى مَا عَلِمَتْ يُوْجَدُ فِيهَا أَيْضًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مَلَكٌ كَرِيمٌ، فَإِذَا كَانَ بَعْضُهَا يُحَرِّكُ فِينَا دَوَاعِيَ الطَّمَعِ فَإِنَّ بَعْضًا آتَرَ مِنْهَا يَبْثُ فِينَا وَجْدَانِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ .

يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَعِينَ الطِّفْلَ عَلَى تَرْبِيَةِ مَشَاعِرِهِ الْبَاطِنَةِ، وَلَكِنْ عَلَيْنَا أَيْضًا أَنْ نَحْتَرِمَ إِرَادَتَهُ وَلَا نَقْطِعَهَا . فَلَوْ أَنِّي أُوتِيتُ الْقُدْرَةَ عَلَى تَدْبِيرِ مَا يَحْتَفُ «بِلَمِيلٍ» مِنْ بَوَائِعِ الْمَوَاطِفِ وَعَلَى مُرَاقَبَتِهِ فِي سِيرَتِهِ مُرَاقَبَةً تَامَةً وَأَمْكَنَنِي بِالْأَجْمَالِ اخْتِرَاعُ طَرِيقَةٍ لِلتَّرْبِيَةِ النَّفْسِيَّةِ تَسْمُو بِتَقَاصِيدِهِ حَتَّى إِلَى الْكَمَالِ لَمَا عَوَّلْتُ عَلَيْهَا فِي إِنْسَانِهِ مَهْمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْحُسْنِ ، فَإِنِّي أَرْجُو مِنْ صَمِيمٍ قُوَادِي أَنْ يَكُونَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ رَجُلًا خَيْرًا لَا حَيَوَانًا خَيْرًا، وَأَعِذُهُ بِاللَّهِ مِنْ فَضِيلَةٍ لَا يَكُونُ كَسَبَهَا بِسَعْيِهِ وَهَمَّتِهِ ، وَمِنْ سَعَادَةٍ لَا يَكُونُ هُوَ الَّذِي حَصَلَهَا لِنَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ أُوتِيَ عَفْوًا هَذِهِ السَّعَادَةُ الَّتِي هِيَ الْإِمْتِيَازُ النَّفْسِيُّ لِمَنْ خُلِقُوا لَهَا يَكُنْ قَدْ ابْتَاعَهَا بِشَيْءٍ غَالٍ جِدًّا وَهُوَ خَسَارَةٌ اخْتِيَارِهِ . كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي أُعِدَّ وَلَدْنَا لِلْمَعِيشَةِ فِيهِ مَسُوقٌ عَلَى الدَّوَامِ إِلَى الْجِلَادِ وَالْمَغَالَبَةِ فِي مِيزَانِ الْحَيَاةِ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاوِمَ مُقَاوِمَةَ الْهِسْلَاءِ آرَاءَ النَّاسِ وَتَأْثِيرَ الْأُمُورِ وَجَمِيعَ مَوْتَرَاتِ الْعَصْرِ الْخَادِعَةِ، وَإِلَّا خَسِرَ مَعْرِفَتَهُ قَدْرَ نَفْسِهِ وَأَقْدَارَ النَّاسِ . لِأَنَّ شَرَفَ الْإِنْسَانِ وَفَضْلَهُ مُشْرُوطَانِ يَأْتِ يَكُونُ ذَا إِرَادَةٍ تَقْصُرُ عَنْهَا أَفْعَالُهُ وَمَا عَلَى إِنْ تَكَدَّرَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ هَذَا الشَّرْطِ الْأَلِيزِمِ مَا دُمْتُ أَنَا مَمْرُورًا بِهِ . فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَمْرِ وَجُودٌ مُسْتَقِيلٌ وَوِجْدَانٌ قِيمٌ يَكُونُ شَرَفَ حَيَاتِهِ ؟ اهـ .

الرسالة الرابعة عشرة

(مِنْ هِلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ٢٠ سِبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٨٥٠)

مَوَافَقَتَهَا لَهُ فِي طَرِيقَتِهِ فِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ ، وَبَيَانُ أَنَّ فِي التَّبْكِيرِ بِإِلْقَاءِ النَّصَائِحِ
وَالْمَوَاعِظِ عَلَى الْأَطْفَالِ حُطَاءً مِنْ كَرَامَتِهَا ، وَبَيَانُ أَنَّ لِلْأَطْفَالِ حَاسَةً
غَرِيبَةً يُمَيِّزُونَ بِهَا بَيْنَ الْحُبِّ الصَّحِيحِ وَالْحُبِّ الْمُمَوَّهِ

لِمَا خَلَّنِي فِيهِمْ طَرِيقَتَكَ فِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَأَرَانِي مُرْتَاعَةً مِنْ عَظِيمِ الْعَمَلِ
الْمَعْهُودِ إِلَيَّ بِهِ وَالصُّعُوبَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُنِي فِي سَبِيلِ إِمْسَامِهِ ، لِأَنَّ أَمْرَ الطِّفْلِ
يَفْعَلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فَعَلُهُ أَمَّا أَنْ يَكْتَبِرَ مِنْ تَصَفُّجِ الْأَشْيَاءِ لَا يَجَادُ مَا يَبْعَثُهُ مِنْهَا إِلَى
صَالِحِ الْأَعْمَالِ . عَلَى أَنِّي سَاحَاوِلُ الْعَمَلِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَإِنِّي عَلَى يَقِينٍ تَامٍ مِنْ
أَنَّ الْكَلَامَ وَالنَّصَائِحَ وَالْمَوَاعِظَ لَا تَكْفِي لِتَهْدِيبِ الطَّبْعِ وَقَوِّيمِهِ . بَلْ قَدْ وَصَلْتُ
مِنْ هَذَا الْيَقِينِ إِلَى حَدٍّ أَنَّ أُحَدِّثَ نَفْسِي بِأَنَّ فِي التَّبْكِيرِ يُلْقِيَنَّ الطِّفْلُ بَعْضَ
الْمَوَاعِظِ وَإِدَاعِهَا ذَاكَرَتُهُ حُطَاءً مِنْ شَأْنِهَا وَقَصَا مِنْ قِيمَتِهَا مَهْمَا كَانَتْ حَسَنَةً
مُفِيدَةً . فَإِنَّهُ يَسْهَلُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ اعْتِيَادُ تَلَمُّسِ الْفَضِيلَةِ فِي الْكَلَامِ وَاعْتِبَارُ الْوِجْدَانِ
أُسْتَاذَ مَدْرَسَةٍ .

عَلَى أَنِّي إِلَى الْآنَ لَمْ أَبْلُغْ مَعَ « إِمِيل » هَذِهِ الدَّرَجَةَ . فَإِنِّي لَوْ كَلَّمْتُهُ فِي عِلْمِ
الْأَخْلَاقِ لَأَقْنَعْتُهُ بِلَا شَكٍّ فِي غَايَةِ الْعَجْزِ عَنْ فَهْمِ مَا أَقُولُهُ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى صِفَرِهِ لَهُ
دِينٌ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اتِّخَاذُ اللَّعِبِ الَّتِي يُعْطَاهَا إِلَهَةٌ يُحْصِيهَا بِفَرْطٍ مَحَبَّتِهِ وَمَزِيدَ عَنَانَتِهِ ،

فَلَوْ أَنِّي أَرَدْتُ مِنَ الْآنَ تَغْيِيرَ الْأَحْوَالِ الْمُقَارِنَةِ لِسِنِّهِ وَفِطْرَتِهِ فِي بَضْعِ سِنِينَ
لَأَضَعْتُ وَقِي عِبَتًا وَلَمْأَ تَجَحُّتْ إِلَّا فِي تَبْدِيلِ تَمَائِيلِهِ بِأَوْتَانٍ أُخْرَى .

لَا تَزَالُ عَوَاطِفُ «إِمِيل» فِي غَايَةِ الْقُصُورِ كَمَا رَأَيْتَ فَاصْبَتَ فِي رَأْيِكَ ، عَلَى
أَنَّ لِلْأَطْفَالِ مَهْمًا كَانُوا صِغَارًا حَاسَّةً عَجِيبَةً يَفْرُقُونَ بِهَا بَيْنَ الصَّحِيحِ مِنْ أَنْوَاعِ مِثْلِ
النَّاسِ إِلَيْهِمْ وَعَظَمَتِهِمْ عَلَيْهِمْ وَالْمَوَدَّةِ مِنْهَا ، فَهُمْ يُحِبُّونَ مَنْ يُحِبُّهُمْ وَقَلْبًا يَنْخَدِعُونَ
بِضُرُوبِ الرِّبَاءِ وَالْاِسْتِمَالَةِ وَأَنْوَاعِ التَّدْلِيلِ وَالْمَلَاظِفَةِ ، وَمِمَّا يَشْهَدُ لَذَلِكَ أَنِّي
فِي مُعْظَمِ أَوْقَاتِ زِيَارَتِي لِلْسَّيِّدَةِ وَارْتِجَافِ الْأَقْيِ عِنْدَهَا امْرَأَةً تَرَمَلَتْ فِي شَبَابِهَا
وَهِيَ تَزْعُمُ أَنَّهَا تَعْشَقُ الْأَوْلَادَ عِشْقًا ، وَتَقُولُ : لِمَ لَمْ يَهَبْ لِي اللَّهُ (سُبْحَانَهُ) وَلَوْ
وَلَدًا وَاحِدًا وَتَدَّعِي أَنَّهَا كُلَّمَا فَكَّرَتْ فِي ذَلِكَ يَكَادُ يُغْمَى عَلَيْهَا ، وَلَيْكِنِّي فِي رَبِّهِ
مِنْ أَنَّ قَلْبَهَا كَقُلُوبِ الْأُمَمَاتِ لِأَنَّ «إِمِيل» لَا يُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهَا .

لَا مَنَاصَ لَنَا مِنَ الْإِفْعَالِ بِمَا يُحِيطُ بِنَا مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ الْخَارِجِيَّةِ — كَمَا
تَقُولُ — وَالْأَقْبَالَ السَّرِّ فِي أَنَّنِي أَحْبَبُ التَّنَزُّهُ فِي طَرِيقِ غَخُوصِ كُلِّمَا تَلَقَّبْتُ
مَكْتُوبًا مِنْ مَكْتُوبَاتِكَ؟ وَكَيْفَ أَنَّ بَعْضَ الْأَفْجَاءِ يَحْدِثُنِي إِلَيْهِ وَيَدْعُونِي إِلَى تَفْقِيهِ^(١)
وَالْجُلُوسِ تَحْتَهُ فِي حَالِ ثَوْرَانٍ أَشْجَانِي خَاصَّةً؟ وَمِمَّاذَا أَفْسَرُ مَا أَحْدَهُ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ
بَيْنَ رُؤْيَيْهِ لِصَخْرَةٍ ، وَمَا أَحْسَنَ بِهِ إِذْ ذَاكَ مِنْ تَقْصِي فِي عَزَمِي وَوَعْنِي فِي تَبَاقِي؟
فَلَا شَيْءَ يُطَاقِي بِجَمِيعِ حَالَاتِ النَّفْسِ وَيُلَاقِيهَا سِوَى الْبَحْرِ عَلَى مَا أَرَى . اهـ

الرسالة الخامسة عشرة

(من هيلانة إلى إداسم في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٥ —)

تقاهما مع «إميل» بالأصوات وظننا أنها أصل اللغات

لَا يَزَالُ «إميل» عاجزًا عَنِ التَّكَلُّمِ غَيْرَ أَنَّ كُلًّا مِنَّا يَفْهَمُ مَرَادَ صَاحِبِهِ ، لِأَنَّ
الْأَطْفَالَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ فِي مَقْدُورِهِمْ إِنْتِرَاجُ الْحُرُوفِ مِنْ مَخَارِجِهَا يَنْبَغِ طَوِيلُ
يُعْبَرُونَ عَمَّا يَمُرُّهُمْ مِنَ الْفَرْجِ وَاللَّهْشَةِ وَالْخَوْفِ وَالْأَلَمِ بِضُرُوبٍ مِنَ الصَّيَاحِ
وَالشَّرَاحِ الْفِطْرِيِّ يَنْدُرُ أَنْ تُحْطَى الْأُمُّ فِي فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَهِيَ إِنْ لَمْ تَكُنْ لِسَانًا مَعْرُوفًا
فَأَقُلُّ مَا فِيهَا أَنَّهَا حُجَّةٌ تُفْصِحُ عَمَّا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ ضُرُوبِ الْوَحْدَانِ وَالْأَفْكَارِ ،
وَأَنَا فِي شَكٍّ مِنْ أَنَّ الْكَلَامَ يَكُونُ فِي إِعْرَاضِهِ لِي عَيْنِ انْفِعَالَاتٍ وَلَدَى أَكْثَرٍ مِنْ
هَذِهِ الْأَصَوَاتِ بَيِّنَاتًا ، عَلَى أَنَّي لَا إِخَالَ أَنْ صُورَةَ أُخْرَى مِنْ صُورِ التَّبَعِيرِ عَمَّا
فِي النَّفْسِ تُوَافِقُ حَالَتَهُ مُوَاقِفَةً هَذِهِ لَهَا .

لَمْ يَقْتَصِرْ «إميل» عَلَى هَذِهِ اللَّهْجَةِ بَلْ قَدْ اخْتَرَعَ مِنْ يَضَعُ آسَابِعَ طَرِيقَةً
لِلْمُحَادَثَةِ مَعِي ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَنِي عَنْ كَلْبِ الْبَيْتِ قَلَّدَ نُبَاحَهُ بِقَدَرِ مَا فِي أَعْضَائِهِ
الضَّعِيفَةِ مِنَ الْإِسْطِطَاعَةِ ، وَإِذَا حَمَلَتْهُ جُورْجِيَّةٌ وَخَرَجَتْ بِهِ لَلْتَنَزُّهِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ
فَإِنَّهُ عِنْدَ عَوْدِهِ يُخْبِرُنِي بِهَيْبِ الرِّيحِ ، وَذَلِكَ بِأَنَّهُ يَنْفُخُ فَيُحْدِثُ صَوْتًا مُخْصِصًا ،
وَإِذَا صَادَفَ قَطِيعًا مِنَ الْبَقَرِ أَوِ النَّعَمِ قَصَّ عَلَى مَا رَأَى بِأَصَوَاتٍ أَفْهَمُ مَا يُرِيدُهُ بِهَا ،
وَأَيُّ عَلَى مَا أَجِدُهُ فِي قِصَصِهِ هَذِهِ مِنَ اللَّذَّةِ قَدْ أَتَشَأْتُ أَفْلَقُ لِحَالَتِهِ وَأَحْدِثُ

نَفْسِي بِأَنِّي أَفْرَطْتُ فِي إِعْقَالِهِ وَإِسْلَامِهِ إِلَى الْفِطْرَةِ، وَأَنَّهُ رَبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ
حُدُوثَ بَعْضِ عَاقِبَاتٍ فِي قُوَاهُ النَّفْسِيَّةِ أَكُونُ أَنَا السَّبَبَ فِي حُدُوثِهَا . اسْتَفْتَيْتُ
فِي هَذَا الْأَمْرِ السَّيِّدَةَ وَارْتَبِجُونْ وَكَاشَفْتُمَا بِمَا أَحْدُ مِنَ الْخَوْفِ لِأَنَّهُمَا لَمَّا كَانَتْ
زَوْجَةً طَيِّبٍ كَانَ لَهَا هِيَ أَيْضًا بَعْضُ الدَّرَايَةِ فِي الطَّبِّ، فَاجْتَهَدَتْ كَثِيرًا فِي مَحْوِ
هَذَا الْفِكْرِ مِنْ نَفْسِي وَفِي تَسْكِينِ رَوْعِي وَقَالَتْ لِي : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ
الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يُرَبُّونَ فِي الْآرْيَافِ .

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَمَا أَذْرَانَا أَنَّ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ لَيْسَتْ هِيَ أَصْلُ اللُّغَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ؟
أَقُولُ هَذَا وَأَنَا عَارِفَةٌ أَنَّهُ رَبَّمَا أَصْحَكَكَ ، وَلَكِنْ مَا الْمَنَاعُ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَهُوَ
فِي زَمَنِ طُفُولِيَّتِهِ إِذْ كَانَتْ يَسْكُنُ الْأَجَامَ وَالْكَهُوفَ كَانَ يَتَلَمَّسُ مَبَادِي الْكَلَامِ
فِي الْأَلْفَاظِ الْغَابِيَةِ وَأَصْوَاتِ الْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ . اهـ

الرسالة السادسة عشرة

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي نَوْفَرِ سَنَةِ - ١٨٥)

اسْتَعْدَدْتُهَا لِتَعْلِيمِ «إِمِيلَ» بِالْبَحْثِ فِي أَحْوَالِ النَّبَاتِ

لَسْتُ أَذْرِي أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِرَاسَمَ مَتَى يَتِمُّ لِي إِبْصَالُ بَقَايَا هَذَا الْمَكْتُوبِ إِلَيْكَ .
فَقَدْ تَوَالَتْ عَلَى الْأَيَّامِ وَتَعَاقَبَتْ الشُّهُورُ فِي ارْتِقَابِ فُرْصَةٍ مُمَكِّنِي مِنْ ذَلِكَ .
وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ مَا أَكْتُبُهُ إِلَيْكَ خَلُوهُ مِنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُنْفَرِ الْحُكُومَةُ وَيُرْعَجَ بِهَا .
فَإِنَّ أَحْصَى مَوْضُوعٍ أَحَبُّ مَكَاتِكَ فِيهِ هُوَ الْحَلِيقُ عَنْ «إِمِيلَ» وَشُؤْنِهِ : وَأَنْتَ

تَعْلَمُ أَنَّ «إِمِيلَ» لَيْسَ مِنَ الْمُؤْمَرِينَ بِالْحُكُومَةِ الْمُغْرِبِينَ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهَا، وَلَئِنْ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي عَوَاطِفِنَا وَأَمَالِنَا يَدْعُو إِلَى مُلَاحَظَةٍ أَوْ يَسْتَوْجِبُ مُوَاخَذَةً، وَأَنَا أُرَاعِي فِي مَكْتُوبَاتِي الْحَيَاءَ وَالْإِحْتِشَامَ حَتَّى إِنِّي لَا أَفْضَلُ إِحْرَاقَهَا عَلَى إِطْلَاجِ غَيْرِكَ عَلَيْهَا.

هَاجَ غَضَبُ «إِمِيلَ» صَبَاحَ الْيَوْمِ هَيَاجًا شَدِيدًا بِمَا سَبَبَ مَعْرُوفٍ، وَلَا يَدْعُ فِي ذَلِكَ فَاثِتًا مَعَ تَبَجُّحِنَا بِالْعَقْلِ وَالرَّزَانَةِ لَا نَعْرِفُ عَلَى الْاَدْوَامِ عِلَّةَ جَزَعِنَا وَغَضَبِنَا، فَقَدْ يَكْفِي فِي إِسَاءَةِ خُلُقِنَا أَنْ نَرَى فِي السَّمَاءِ غَيْمًا كَرِهَ الْمَنْظَرُ، أَوْ فِي مَلْبَسِنَا ائْتِنَاءَ مُضَافًا، أَوْ نَسْمَعَ ذُبَابَةً تَطْنُ فِي أُذُنِنَا، وَأَيًّا مَا كَانَتْ عِلَّةُ غَضَبِ «إِمِيلَ» فَإِنَّ جُورِجِيَّةَ لَمَّا رَأَتْهُ فِي هَذَا الْحَيَاجِ قَدَّمَتْ لَهُ مِرَاءً جَعَلَتْهَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ فَأَثَرُ ذَلِكَ فِيهِ تَأْثِيرُ السَّحَرِ بِإِسْكَانِ غَضَبِهِ كَأَنَّهُ خَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ خَافَ مِنْ صُورَتِهِ .

أَنَا مُتَحِيزَةٌ مَا وَعَدْتُكَ إِذَا هُتِدُنِي الْآنَ أَطَالِعُ وَابْتَحُ وَأَعْمَلُ لَا يُمْكِنُ يَوْمًا مَا مِنْ تَعْلِيمِ «إِمِيلَ» وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَنِي فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَتَكْرَهْتَنِي لِمَا صُرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ وَالرَّزَانَةِ .

إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّي مَا بَرَحْتُ أَتَوَقُّ إِلَى عِلْمِ النَّبَاتِ، فَتَرَانِي الْآنَ مِنْ بَضْعِ شُهُورٍ مُسْتَعْتَلَةٍ يَدْرُسُ أَزْهَارَ النَّكَانِ لِأَنِّي وَجَدْتُ مِنْ ظُرُوفِ الْأَحْوَالِ مَا سَاعَدَنِي عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ النَّبَاتَاتِ الطَّالِمَةَ هُنَا عَلَى رِمَالِ السَّاحِلِ فِي غَايَةِ الْكَثَرَةِ وَالتَّنَوُّعِ، عَلَى أَنَّ هَذَا بِالْبَحْرِ اِزْتِبَاطًا كَثِيرًا وَيُوجَدُ أَيْضًا عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ قَرْيَةِ لِلصَّيَّادِينَ اسْمُهَا (نِيُولِين) مَغَارَةٌ شَمِيرَةٌ بِدَقَّةٍ وَرَقِ السَّرْحِيسِ النَّابِتِ عَلَى جُنْدَرَانِهَا وَجَمَالِهِ . فَإِنَّ الظِّلَّ وَالرُّطُوبَةَ اللَّذَيْنِ فِيهَا يُسَكِّلَانِهِ بِأَشْكَالٍ مُتَشَعِّبَةٍ مُشَوَّشَةٍ تَدْعُو إِلَى إِعْجَابِ الْحَيَرِينَ

بِأَحْوَالِ النَّبَاتَاتِ، وَلَكِنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَنْطِقُ بِتَأْلِيهِ وَمَرَضِهِ فَقُلْ مِنَ الْأَلَامِ وَالْأَمْرَاضِ
مَا يَكْسُو الصُّورَ رَوْنًا وَبَهَاءً ؟ .

بَيْنَمَا كُنْتُ رَاجِعَةً هَذَا الْمَسَاءَ مِنْ زُرَّةٍ قَضَيْتُهَا ارْتِيَادًا لِلنَّبَاتَيْنِ الْمَعْرُوفِ
أَحَدُهُمَا عِنْدَ النَّبَاتِيِّينَ بِالْفُورِيُحُولِ الشَّاطِئِيِّ وَالْآخَرُ بِالْأَرْجِيُونِ الْبَحْرِيِّ أَوْ لِحْيَةِ التَّيْسِ^(١)
بَصُرْتُ بِبِنْتٍ صَيَادٍ مُلْتَصِقَةً بِأَحَدَى نَوَافِذِ بَيْتٍ تَتَفَخُّ فِي زُجَاجِ هَذِهِ النَّافِذَةِ ثُمَّ
تَكْتُبُ بِظَفْرِ أَمْلِكِهَا الصَّغِيرَةِ أَسْمَ مَعْشُوقِهَا عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنَ الْكَلَفِ فِي صَفْحَةِ
الرُّجَاجِ، فَاسْتَمَاتَنِي ذَلِكَ إِلَيْهَا وَخَاطَبَتْنِي فَعَلِمْتُ مِنْهَا أَنَّ لَهَا خَاطِبًا فِي أَسْتِرَالِيَّةِ
وَأَنَّهَا تَتَرَقَّبُ حَيْثُ وَلَا تَعْلَمُ مَتَى يَجِيءُ لِتَحْطِيَ بِلِقَائِهِ . فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا
لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا يَقَاسِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ مَضِضِ الْغَرَامِ . ٥١

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة إلى إراسم في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٥٠)

تَبَشِيرُهُ بِبِنْتِ أَسْنَانَ «لَا مِيلَ»

بَعْدَ هَذَا الْإِنْتِظَارِ كُلِّهِ قَدْ تَعَهَّدَ أَحَدٌ مِنْ تَعْرِفُهُمْ بِإِصَالِ مَكْتُوبِي هَذَا إِلَيْكَ
فَأَسَلَمْتُهُ إِلَيْهِ وَأَسْتَوْدَعْتُهُ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ وَالْبَحْرَ الْمُضْطَرِبَّ وَحَوَادِثَ الْأَيَّامِ الْكَثِيرَةِ
لِأَنَّهُ لَا يَحِصُّ مِنْ ذَلِكَ وَلَكِنِّي لَنْ أَسْتَوْدِعَهَا أَبَدًا حُبَّكَ فَإِنَّهُ فِي حِيَاظَةِ مَا لَا يَعْتَرِيهِ
التَّحَوُّلُ وَلَا التَّقَلُّبُ^(٢) .

بُشْرَى فَقَدْ تَبَشَّرْتُ «لَا مِيلَ» أَسْنَانَ . ٥١

(١) لحية التيس بنت كورك الكراث لكن يرتفع . (٢) تريد به قلبها ولكن ما أشد تقلب

القلوب وأكثر تحولها — المترجم .

الرسالة الثامنة عشرة

(من مراسل إلى هيلانة في ١١ يولية سنة - ١٨٥٠)

بَيَانُ رَأْيِهِ فِي تَفَكُّرِ الطِّفْلِ وَفِي أَصْلِ اللُّغَاتِ وَفِي تَعْلِيمِ اللِّسَانِ لِلْأَطْفَالِ
وَسُوءِ طَرِيقَةِ الْمُعَرِّينَ فِي ذَلِكَ

قَطَعَ مَكْتُوبُكَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ جَمِيعَ الْعُقَابِ الَّتِي كَانَتْ تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُصُولِ
إِلَى وَهُوَ الْآنَ بَيْنَ يَدَيَّ أَرَى فِيهِ شُعَاعًا مِنْ شَمْسِ الْحُرِّيَّةِ قَدْ انْتَصَلَ بِهَا أَنَا ذَا
الْأَحْظَكُ يَفْكُرِي فِي تَرْتِيبِكَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَأَبْصُرُ «إِمِيل» مِنْ خِلَالِ مَا تُبْدِيهِ
مِنْ ضُرُوبِ التَّأَثُّرِ وَالْإِنْفِعَالِ وَإِخَالِي أُعْرِفُهُ .

رَبَاهُ كَيْفَ أَكُونُ وَالِدًا مِنْ سَتَيْنِ كَامِلَيْنِ وَلَا أَتَمَكَّنُ مِنْ تَقْيِيلِ وَلَدِي
إِلَى الْآنَ .

أَتْرُكُ هَذَا الْأَسْفَ الَّذِي لَا جَدْوَى لَهُ وَأَعَاوِدُ الْحَدِيثَ مَعَكَ فِيمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
أَهْمَ مَا يَنْبَغِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَأَقُولُ : إِنَّ مِنْ أَغْلَاطِ الْمُشْتَغِلِينَ بِالتَّرْبِيَةِ صَرَفُهُمْ جُلَّ
عَنَائِهِمْ فِي تَقْوِيمِ الْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَقِلَّةَ التَّفَاهُتِ إِلَى غَيْرِهَا ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُهُمْ
إِنْكَارَ مَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ قُوَى الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ ، وَلَكِنِّي فِي هَذَا
الْمَكْتُوبِ أَحِبُّ أَنْ أُوجِّهَ فِكْرَكَ إِلَى تَرْبِيَةِ الْإِدْرَاكِ الْعَقْلِيِّ بِنُوعٍ خَاصٍ .

كَأَنِّي بِكَ تَحُولِينَ : هَلْ يُفَكِّرُ الطِّفْلُ ؟ فَأُجِيبُكَ أَنَّ ذَلِكَ لَا زِمَ لَهُ لِأَنَّهُ حَيٌّ
وَلِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا كَانَ كَلْمًا فَقَدْ فِي أَسْرَارِ حَيَاةِ النَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ كَشَفَ لَنَا فِيمَا
بِدَايَةِ إِحْسَاسٍ ، بَلْ رُبَّمَا مَعَ أَنْ يُقَالُ بِدَايَةُ إِدْرَاكِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الطِّفْلُ إِذَا

أَقْلَ حَقًّا مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي هِيَ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ (تَعَالَى) ؟ نَعَمْ إِنَّ عُمَّهُ
فِي الْأَسَابِيعِ الْأُولَى مِنْ وَلَادَتِهِ يَكُونُ فِي نَظَرِنَا كَالْيَسَّادِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي وَصَفَهَا
الشَّاعِرُ الْأَلَيْبِيُّ بِأَنَّهَا مَمْلَكَةٌ عَفَارِيَتِ الْحَنِّ ، وَلَكِنَّهُ يَتَدَرَّجُ فِي تَمْيِيزِ الْأَشْيَاءِ
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَالْقِيَاسِ بَيْنَهَا وَآخِرَاجِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهَا ، وَإِنَّكَ لَا تَكَادِينَ
تَجِدِينَ طِفْلًا فِي الشَّهْرِ الْخَامِسِ عَشَرَ أَوْ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ عُمُرِهِ إِذَا رَأَى صُورَةَ
إِنْسَانٍ إِلَّا وَهُوَ يَفْكُرُ فِي أَنَّهَا لِشَخْصٍ مَعْرُوفٍ .

مَنْ الْأَسْبَابُ الَّتِي تُعِينُ عَلَى إِتْمَاءِ عَقْلِ الطِّفْلِ بَعْدَ تَرْبِيَّتِهِ بِمَا يَحْتَفِ بِهِ مِنْ
الْأَشْيَاءِ تَعْلِيمُهُ اللِّسَانَ .

وَأَنَا أَرْجِي مَا يَقُولُونَهُ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي عَهْدِ طُفُولَتِهِ كَانَ يَتَكَلَّمُ مَوَادَّ
الْكَلَامِ الْأُولَى فِي أَصَوَاتِ الْكَوْنِ الْمُحِيطِ بِهِ ، وَقَدْ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَصَوَاتَ
هِيَ أَصْلُ اللُّغَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَا تَجِدُهُ فِي جَمِيعِهَا خُصُوصًا مَا كَانَ مِنْهَا قَدِيمًا جِدًّا
مِنْ آثَارِ التَّوَافُقِ النَّاشِئِ عَنِ التَّقْلِيدِ ، وَمَا أَجَلَ - مَعَ هَذَا - كَلَامَ الْإِنْسَانِ وَأَعْظَمُهُ !
وَمِنْ الْعَبَثِ أَنْ أَقْنَعَ بِقَوْلِي : إِنَّ أَسْلَافَنَا الْفَارِسِينَ قَدْ جَمَعُوا فِي بَدَايَةِ نَسْلَانِهِمْ
الْأَصَوَاتَ الْمُبْهَمَةَ الْمُتَشَبِّهَةَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْكَوْنِ وَصَبَرُوا لُغَةً ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ
لَا يَكْتَفِ لِي جَمِيعَ مَا فِي كَلَامِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَعَانِي ، لِأَنَّكَ تَجِدِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ
فِي هَذَا الْعَالَمِ كَلَامًا ، فَالْمَعْنَى يَتَكَلَّمُ لِأَنَّهُ إِذَا قَرِصَتْ تَصَوُّبًا يُخْبِرُ بِمَا هِيَ
نَحَاسًا كَانَ أَوْ ذَهَبًا ، وَالْحَيَوَانُ يَتَكَلَّمُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ فِي كُلِّ حِينٍ بِمَا يُبْدِيهِ فِي صَوْتِهِ

مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى حَاجَاتِهِ وَضُرُوبِ وَجَدَانِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَالْمَسَوَاءِ وَالْبَحْرِ
وَالرَّعْدِ تَسْكُمُ لِأَنَّ أَصْوَاتَهَا تُنْبِئُ عَمَّا يَقَعُ بَيْنَ الْفَوَاعِلِ الْكُونِيَّةِ مِنَ الْكِفَاجِ
وَالْمُعَالِيَةِ ، وَلَكِنْ شَتَانٌ بَيْنَ كَلَامِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعَهَا وَكَلَامِ الْإِنْسَانِ وَلَوْ كَانَ
يُطْفَلًا ، فَإِنَّ الطِّفْلَ مَتَى قَدَرَ عَلَى النُّطْقِ بِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ وَلَوْ مَعَ التَّلْعُمِ فِيهَا وَاسْتَطَاعَ
مَثَلًا أَنْ يَقُولَ « أَنَا » — مُثَبِّتًا بِذَلِكَ اسْتِقْلَالَ الْإِنْسَانِ وَقِيَامَ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ بِهِ —
رَأَيْتُ أَنْ جَمِيعَ مَا فِي الْكَوْنِ أَمَامَهُ قَدْ دَخَلَ فِي شِبْهِ عُبُودِيَّةٍ وَخُضُوعٍ .

أَصْوَاتُ الْمَادَةِ مَعْلُولَةٌ لِلْفَوَادِثِ الَّتِي تُوجِدُهَا وَأَصْوَاتُ الْحَيَوَانَاتِ نَاشِئَةٌ
مِنَ الْفَرَائِزِ الْمُسْتَقْفَرَةِ فِي أَنْوَاعِهَا . وَأَمَّا لَفْظُ الْإِنْسَانِ فَهُوَ حَتَّى فِي حَالِ تَمَتُّعِهِ
الطُّفُولِيِّ دَالٌّ عَلَى ذَاتِ شَأْنِهَا الْحُرِّيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ .

عَلَى أَنَّهُ لَا يَذْبَحُنِي أَنْ نَعْمَى عَنِ الْمَائِدَةِ الْحَقِيقِيَّةِ مِنْ أَسَالِيبِ الْكَلَامِ مِنْ حَيْثُ
كَوْنُهُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ تَرْبِيَةِ الْإِنْدَرَاكِ . ذَلِكَ بِأَنَّ الطِّفْلَ لَا يَتَلَقَّى عَنَّا وَقْتَ الْكَلَامِ
مَعَهُ إِلَّا أَصْوَاتًا فَرَنَ أَجَلَ أَنْ يَكُونَ تَعْلِيمًا مُفِيدًا لَهُ يُجِبُّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَصْوَاتُ
الَّتِي يَسْمَعُهَا مَقْرُونَةً فِي نَفْسِهِ بِمَدُلُولَاتِهَا .

أَنْتِ تَذْكُرِينَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا إِلَى وَالِدَتِهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ
تَسْتَفْتِينِي فِي أَمْرِهَا ، فَقَدْ كَانَتْ شَبِيهَةً بِتِلْكَ الْمَغَارَاتِ الْمُقْفَرَةِ تُرَدِّدُ جَمِيعَ
الْأَصْوَاتِ غَيْرَ فَاهِمَةٍ شَيْئًا مِنْهَا ، وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّهَا لِحِمَا لَهَا الرَّائِعَ لَوْ كَانَتْ شَهِدَتْ
قُدَمَاءَ الْيُونَانِ لَا تَحْدُودُهَا إِلَهَةً لِصَدَى الْأَصْوَاتِ لِأَنَّهَا — لِفَرْطِ مَا أُوتِيَتْهُ مِنْ

قُوَّةُ السَّمْعِ الْمَيُوسِ مِنْ تَعْدِيلِهَا وَغَيْرِهَا التَّقْلِيدِ الْمُتَعَصِّبَةِ عَلَى التَّرْوِيسِ — كَانَتْ عَلَى الدَّوَامِ تَرْجِعُ مَا كُنْتُ أَوْجِّهُهُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَسْئَلَةِ بِدُونِ أَنْ يُجِيبَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَقَدْ عَابَلْتُهَا بِمَجْمِيعِ طُرُقِ الْعِلَاجِ النَّفْسِيَّةِ فَلَمْ يَفِدْهَا ذَلِكَ شَيْئًا .

فَأَنَا أَخْشَى كَثِيرًا أَلَّا يُوجَدُ بَيْنَ هَذِهِ الْبَلَهَاءِ الْمُسْكِنَةِ الَّتِي لَا تَفْهَمُ شَيْئًا مِمَّا تُرَدِّدُهُ مِنَ الْكَلَامِ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ يَرُدُّونَهُ عَلَى قِسْلَةٍ فَهَمِهِمْ إِيَّاهُ أَوْ عَلَى فَهْمِهِ مَقْلُوبًا إِلَّا فَرْقٌ خَفِيفٌ .

عَلَى أَنِّي أَرَى أَنَّ التَّعِيلَ إِلَى التَّكَلُّمِ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ الْعَقْلِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ ، فَكَمْ مِنْ نِسَاءٍ يَحْتَمِلْنَ فِي تَسْرِيَةِ مَا يَجِدْنَهُ مِنَ الصَّجَرِ وَالسَّامَةِ بِأَغَانٍ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَعَانِي الْمُعَيَّنَةِ ! . وَكُنْتُ أَعْرِفُ مَسْجُونًا كَانَ عَلَى قُصُورِ إِدْرَاكِهِ جِدًّا كَلَّمَا وَضَعَ فِي السَّجْنِ الْمُظْلِمِ عِقَابًا لَهُ عَلَى مَا كَانَ يَرْكَبُهُ مِنَ الذُّنُوبِ يَحْتَمِلُ فِي مُخَادَعَةِ الْعَزْلَةِ وَالظَّلَامِ بِأَحَادِيثَ خَالِيَةٍ مِنَ الْمَعَانِي .

يُوجَدُ فِي الشُّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ الْقَدِيمَةِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ صِغَرٌ مِنَ الْعَزَائِمِ وَالتَّعَاوِيذِ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلِمَاتٍ أَوْ جُمَلٍ مُرْتَبَةِ تَلْتُدُ بِسَمَاعِهَا الْأَذُنَّ وَلَكِنْ لَوْ أَرَادَ سَامِعُهَا الْبَحْثَ عَنْ مَعَانِيهَا لَكَانَ مُحَاوَلًا عَبَثًا . وَمَا لَنَا وَلِلرُّجُوعِ إِلَى تِلْكَ الْأَزْمَانِ الْغَائِرَةِ نَسْتَشْهِدُ بِمَا كَانَ فِيهَا عَلَى مَا قَوْلُ وَأَمَامَنَا كَنَاسُنَا الْكَاثُولِيكِيَّةُ نَسْمَعُ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ فِيهَا بِأَدْعِيَةٍ لَا يَبْدِيَنَّ لَهَا فَهْمٌ مَعَانِيهَا إِلَّا التَّرُّ الْقَلِيلُ مِنْهُمْ .

عَلَى أَنِّي أَرَى أَنَّ عَدَمَ صَرَفِ الْإِنْسَانِ عَنْ هَذِهِ الْوُجْهِهِ الْفَاسِدَةِ وَإِعَاتَتِهِ عَلَى الْخُرَى فِي مَضَاهِرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الشَّدِيدَةِ الْخَطَرِ عَلَى الْعَقْلِ فَإِذَا لَمْ يُحْتَرَسَ مِنْهَا أَصْبَحَتِ الْأَلْفَاظُ خُلُوعًا مِنْ مَعَانِيهَا وَصَارَتْ عَوْدًا لِلْعَقْلِ .

الطفل فيه شيء من خاصية البقاء ولا وجه للشكوى من ذلك فإنه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ، ولكن حل عقدة لسانه أسير من فتح مغلق عقله ، فالألفاظ لا تؤدي دائماً إلى فهم الأشياء التي وضعت لها . وفي لغة الخمرس مزية لا توجد في لغتنا معاشر الناطقين ، ذلك أن الإشارات عندهم هي رسوم للمعاني والوقائع ، وليس الأمر كذلك في النطق الذي هو عبارة عن أصوات متنوعة وأجرام مختلفة^(١) كما يعلمه كل منا . ثم اعلم أن عادة الأطفال بما لا شك في فائدته فإنها من دواعي ابتهاجهم وأنشراح صدورهم ، ولكن على شرط أن تكون الكلمات وسيلة إلى انتقال أذهانهم إلى مدلولاتها ، فيجب عند تلقينهم للدوال اللفظية أن ينموا إلى ما تدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الإرباط ، فهذه الطريقة تعود أذهانهم الإستقرار وعدم التشتت .

لست أدري لماذا نستم كثيراً بمقاومة ما يحمده الأطفال من اللذة في تقليد أصوات بعض الحيوانات ، فما أسعد حظ امرئ يكون فيه من المواهب الإلهية ما يؤهله لفهم جميع ما يعيش على وجه البسيطة : ولا أقصد بقولي هذا أن من يحاول محاكاة أصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها ، وليكني أريد به أن مثل هذا السعي في التقليد يدل على أن صاحبه قد وصل إلى درجة ما من النظر والملاحظة ، فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب أو الديك مثلاً قد لاحظ أن في هذا العالم مخلوقات أخرى غيره وأن لها في التعبير عما في أنفسها من ضروب الوجدان طريقة خاصة بها .

(١) أجرام جمع جرس وهو الصوت مطلقاً أو الخفى منه .

اللُّغَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَإِنْ كَانَتْ وَضِيعَةً فَاصُولًا عَلَى التَّحْقِيقِ فِطْرِيَّةٌ . أَفْطَرَى إِلَى
 الْأَطْفَالِ يَجِدِي لَهُمْ لُغَةً مَعْرُوفَةً فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَهِيَ — وَإِنْ اخْتَلَفَتْ
 سِيرًا مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُخْرَى — تَتَأَلَّفُ فِي الْأَصْلِ مِنْ أَصْوَابٍ أَحَادِيَةِ الْمَقَاطِعِ ،
 فَأَصُولُ الْكَلَامِ الْمَقْطُوعُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ لَا تَخْرُجُ عَنْ حَرْفٍ سَاكِنٍ وَحَرْفٍ لَيِّنٍ
 يَتَكَرَّرَانِ بِحَرَكَةِ الشَّفَتَيْنِ مِثْلَ «بَابَا، مَامَا، تَاتَا، دَادَا» وَغَيْرِهَا مَا عَادَا بَعْضَ نَوْبَاتِ
 خَفِيفَةٍ ، وَالطِّفْلُ يَقْضِي مِنْ طَوْرِ طِفُولِيَّتِهِ زَمَنًا طَوِيلًا لَا يَعْرِفُ فِيهِ أَدَاةَ التَّعْرِيفِ
 وَلَا الضَّمِيرِ ، وَأَمَّا الْفِعْلُ فَلَا يُدْرِكُ مِنْهُ إِلَّا الْمَصْدَرُ وَلَا يَنْفَعُ ذَهَنُهُ إِلَى فَهْمِ صَيِّغِ
 الْمَاضِي وَالْمُضَارِعِ وَالْأَمْرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَشْتَقَّاتِ ، وَلَا يَعْرِفُ مِنَ النُّعُوتِ إِلَّا
 قَلِيلًا وَأَقْلَ مِنْهَا مَعْرِفُهُ بِحُرُوفِ الْمُطْفِ قُلُوبَهُ شَبِيهَةً بِلُغَاتِ الْأَجَالِ الْأُولَى .

رَوَى لَنَا أَحَدُ السَّيَاحِ أَنَّهُ يُوْجَدُ فِي أَفْرِيقِيَّةٍ قَبِيلَةٌ يَتَأَلَّفُ لِسَانُهَا مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ
 كَلِمَةً لَا غَيْرَ ، وَقَالَ : إِنَّ أَفْرَادَ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ — عَلَى قَلَّةِ الْفَاطِ لُغَتِهِمْ إِلَى هَذَا الْحَدِّ —
 يَتَفَاهَمُونَ جَيِّدًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِإِضَافَةِ الْإِشَارَاتِ إِلَى الْأَصْوَاتِ ، وَكَمْ مِنْ أَطْفَالٍ
 يُفْهَمُونَ أُمَمَاتِهِمْ مَا يُرِيدُونَهُ بِمَا هُوَ أَقْلَ مِنْ كَلِمَاتِ تِلْكَ اللُّغَةِ ! مِثْلُ تَحْرِيكِ
 الْأَعْيُنِ أَوِ الْإِشَارَةِ أَوْ مَا لَا يَكَادُ يَكُونُ شَيْئًا يُدْكَرُ مَعَ إِفْصَاحِهِ عَنْ أَفْكَارِهِمْ وَإِظْهَارِهِ
 لِمَقَاصِدِهِمْ .

وَهَذَا أَمْرٌ أُخْرَى تَكَادُ تَكُونُ أُمِّيَّةً وَلَكِنَّا نَبْرُزُ عَلَيْنَا فِي عِلْمِ رَبِطِ الْوَقَائِعِ
 بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَاتِّزَاجِ الْأَحْكَامِ مِنْهَا فَالْعَرَبُ الْقَاطِنُونَ فِي مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ (الدَّجْلَةِ
 وَالْفُرَاتِ) لَا يَكَادُونَ يَقْرَأُونَ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ لِأَنَّهُ لَا مَدْرَسَةَ لَهُمْ سِوَى الصَّحْرَاءِ ،

وَلَكِنْ مِنَ الْمُحَقِّقِ أَنَّ الْبَدَوِيَّ مِنْهُمْ إِذَا رَأَى آثارَ الْخَطَا عَلَى الرَّمْلِ حَكَمَ فَوْرًا بِأَتَمِّهَا
آثَارُ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ، وَإِنْ كَانَ إِنْسَانًا عَرَفَ قَبِيلَتَهُ وَكَوْنَهُ عَدُوًّا أَوْ صَدِيقًا، وَقَدَّرَ
تَارِيخَ مُرُورِهِ سِوَاءَ أَكَانَ قَدِيمًا أَمْ حَدِيثًا . وَاسْتَنْجَحَ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ مِنْ
سَفَرِهِ وَحَكَمَ أَيْضًا بَعْضَ عِلَامَاتٍ يَرَاهَا مُتَشَتِّرَةً فِي الطَّرِيقِ عَلَى الْبَعِيرِ هَلْ كَانَ حَامِلًا
شَيْئًا أَوْ خَالِيًا، شَبَعَانِ أَوْ جَائِعًا . مُسْتَجِمَّ الْقَوَى أَوْ مَهْزُولًا، وَعَلَى صَاحِبِهِ هَلْ هُوَ
مِنْ سُكَّانِ الْحَضَرِ أَوْ الْبَدْوِ . فَإِذَا تَأَمَّلْنَا قَلِيلًا فِي سَبَبِ وُجُودِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ
هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ طَرِيقَةَ الْبَدَوِيِّ فِي رِبْطِ الْوَقَائِعِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَاتِّزَاعِ
الْأَحْكَامِ مِنْهَا هِيَ بَيْنِهَا الطَّرِيقَةُ الْمَعْرُوفَةُ فِي الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ .

مِنَ الْجَلِيِّ أَنَّ أَحَدًا لَا يَسْمَعُ إِنْكَارَ مَكَانَةِ اللُّغَاتِ وَمَا لَهَا مِنَ الْفَوَائِدِ فِي تَرْبِيَةِ
عَقْلِ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ مِمَّا يَنْبَغِي الْإِعْتِرَافُ بِهِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ إِذَا كَانَتْ تُعْفَى مِنْ
النَّظَرِ فِي الْأَشْيَاءِ وَمُلَاحَظَتِهَا كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِيهَا غَالِبًا فَهِيَ مُضِرَّةٌ بِالْإِدْرَاكِ لَا مُفِيدَةٌ
لَهُ . فَالْطُّفُلُ وَإِنْ قَدَّرَ عَلَى تَسْمِيَةِ الْفَرَسِ بِجُمُوسٍ لُغَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ لَا يَعْرِفُ فِي نَهَائِهِ
الْأَمْرَ إِلَّا حَيَوَانًا وَاحِدًا، فَلَوْ اتَّفَقَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ فِي حَيَاتِهِ كَانَ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا .

أَرَأَيْكَ تَذَكُّرِينَ مَا اشتهَرَ عَنْ هَامِلَتٍ مِنْ تَعَجُّبِهِ مِنْ تَسْبِيثِ النَّاسِ بِالْأَلْفَاظِ
حِينَ قَالَ: أَلْفَاظُ أَلْفَاظُ أَلْفَاظُ، فَهَذَا الْأَمِيرُ كَانَ دَرَسَ فِي الْمَدَارِسِ، وَكَانَهُ هَذَا
الِاسْتِغْرَابِ يَتَقَدَّرُ طَرِيقَتَنَا فِي التَّرْبِيَةِ، فَإِنَّ الْمُسْتَفِيلِينَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُوجِبُونَ عَلَى
الطُّفْلِ مِنْ أَجْلِ كَيْلِ تَرْبِيَتِهِ أَنْ يَحْفَظَ أَفْكَارَ غَيْرِهِ وَيُرَدِّدَهَا، مَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ

(١) هاملت أمير شبه جزيرة الدنمارك المشهورة بتولاند فظاهر بالجنون لبأخذ بأرأيه التي قتله

أَنْ يَسْأَلُوهُ دَائِمًا عَنْ أَفْكَارِهِ وَيُيَادِرُوهُ بِالْحُثِّ عَلَى النَّظَرِ فِي الْوَقَائِعِ وَالْقِيَاسِ بَيْنَهَا
وَعَمَرَيْنِ نَفْسِهِ عَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهَا .

قَدْ رَأَيْتَ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الْأَلَزِمُ فِي تَرْبِيَةِ الْعَوَاطِفِ الْفَاضِلَةِ وَضُرُوبِ
الْوُجْدَانِ الشَّرِيفَةِ ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْمُتَرَبِّينَ أَنْ يَكُونُوا مَرِجِحُهُمْ هُنَا أَيْضًا إِلَى
الْعَمَلِ لِإِحْيَاءِ جُرْئُومَةِ الْإِدْرَاكِ فِي الطِّفْلِ وَتَنْفِيحِهَا لِتُنْتِجَ الثَّمَرَاتِ الْمَطْلُوبَةَ . اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١١ يُونِيهِ سَنَةِ ١٨٥٠)

يَسَانُ أَنَّ التَّفَكُّرَ مَا يَتَعَلَّمُهُ الطِّفْلُ وَخَطَا الْمُتَرَبِّينَ فِي عِنَايَتِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ دُونَ
الْمَعَانِي وَوُجُوبِ تَعْوِيدِ الْأَطْفَالِ النَّظَرَ وَالْمُلاحَظَةَ لِيَتَمَرَّنُوا عَلَى التَّفَكُّرِ
قَدْ سَأَلْتُ سَائِلًا ، هَلِ التَّفَكُّرُ مَا يَتَعَلَّمُهُ الطِّفْلُ ؟ فَأَجِبْنِي : هَذَا مَا أَعْتَقِدُهُ ،
غَيْرَ أَنَّهُ يَنْبَغِي التَّمْيِيزُ التَّامُّ بَيْنَ مَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَبَيْنَ مَا يَسْتَنْجِهُ هُوَ
مِنْهَا بِنَظَرِهِ إِلَى الْأَشْيَاءِ ، وَنَحْنُ فِي تَحَاوُلِنَا مَعَهُ لَا نَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى تَأْدِيَةِ أَفْكَارِنَا
إِلَيْهِ عَلَى وَجْهِ التَّمَامِ أَوِ الْقَيْصِ ، مَعَ أَنَّ الَّذِي كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَصْرِفَ هِمَّتَنَا إِلَيْهِ
هُوَ إِيقَاطُ ذَهْنِهِ وَاسْتِنْبَاطُ أَفْكَارِهِ وَآرَائِهِ فَانْهَاجُ مَنْ يُعَاشِرُونَ الْكِبَارَ مِنَ الْأَطْفَالِ
مَحْشُوءَةٌ بِجُمْلٍ مِنَ الْكَلَامِ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهَا فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ إِلَّا مَعَانِي فِي غَايَةِ
التَّشَابُهِ وَالْإِتْيَاسِ ، وَلَيْسَ نَحْنُ أَذْعَانُهُمْ بِهَذِهِ الْجُمْلِ مِمَّا يُنْتَبِى فِيهِمْ قُوَى الْإِدْرَاكِ
وَالْفَهْمِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَكَيْفَهُ إِبْهَاطُهَا ، بِمَا لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا .

وَكَمْ لَاقَيْتُ فِي سَالِفِ أَيَّامِي أَطْفَالَ يَسْتَهْرَهُمُ النَّاسُ بِكَوْنِهِمْ آيَاتٍ فِي الدِّكَاةِ وَالْفِطْنَةِ
فَرَأَيْتُ أَنَّ كُلَّ مَا يُدْعَى لَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ يَنْحَصِرُ فِي انْطِلَاقِ أَلْسِنَتِهِمْ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ
مِنَ الْقَوْلِ، وَكُنْتُ عِنْدَ نَظَرِي إِلَيْهِمْ — وَهُمْ فِي تَوْفِيقِهِمْ وَإِعْلَانِهِمْ أَهْمُهُمْ لِنَيْلِ
الشَّهَادَاتِ الْمُدْرَسِيَّةِ — يَعْزُونِي مِنَ أَهْبَاضِ النَّفْسِ وَضِيقِ الصَّدْرِ مَا لَا أَحَدٌ سِوَيَّ
إِلَى دَفْعِهِ كَالَّذِي يَمْرُوكَ^(٢) لِرُؤْيَا الْمُتَصَنِّعِينَ الْمُدْعِينَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَكُنْتُ أَقُولُ
فِي نَفْسِي إِنَّ الْمُشْتَغَلِينَ بِتَرْبِيَتِهِمْ يَسْلُبُونَهُمُ السَّيْرَ الَّذِي آتَاهُمُ اللَّهُ (سُبْحَانَهُ) مِنْ
الْمَوَاهِبِ الْخُلُقِيَّةِ بِتَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ أَقَايِينَ الْقَوْلِ وَأَسَالِيبَ الْكَلَامِ لِيَسْمُوهُمْ بِإِسْمَاتِ
الْعَقْلِ الَّذِي لَمْ يَلْفُوا رُبَّتَهُ. أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ لِي الْخِيَارُ لَأَخَّرْتُ «لَا مِيلَ» أَنْ يَصْدَرَ
عَنْهُ فِكْرٌ سَادِجٌ وَلَوْ وَاحِدًا فَقَطْ يَكُونُ مُنْبَعًا عَنْ مَحْضِ اخْتِيَارِهِ وَكَسْبِهِ، وَلَقَضَلْتُ
هَذَا عَلَى كُلِّ ذَلِكَ الزَّنْحَرِفَ الْقَوْلِيَّ وَالْقَرَّةَ^(٣) الَّتِي لَا نِسْبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَقْلِ.

إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْكَوْنِ رَأَيْتُهُ مَمْلُوءًا بِأَنْاسٍ يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يُوجَدُ فِي الْكُتُبِ،
فَإِنَّ كُلَّ مَنْ يَسْمَعُهُمْ يَذْكُرُ أَنَّهُ طَالَعَ فِيهَا جَمِيعَ مَا يَقُولُونَهُ وَالْخَطَأُ فِي هَذَا الْأَمْرِ
رَاجِعٌ إِلَى تَرْبِيَتِهِمْ لِأَنَّهُمْ قَدْ تَعَلَّمُوا مِنْ نَسَائِهِمْ أَنْ يَرُدُّوا آرَاءَ غَيْرِهِمْ.

الْأُمُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَلَدِهَا هِيَ الْمُجْمَعُ الْإِنْسَانِيُّ بَلِ الْمَثَالُ الْحَيُّ لَا تَارَ السَّلَفِ،
وَلَا يَشْكُ أَحَدٌ فِي أَنَّهَا مُكَلَّفَةٌ أَنْ تَعْلَمَهُ كَثِيرًا وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهَا فِي تَعْلِيمِهَا هَذَا
النَّهْيَ الصَّغِيرَ أَنْ تَكُونَ عَلَى غَايَةِ الْحَذَرِ مِنْ أَنْ تُتْلِيَ فِي نَفْسِهِ الْخُضُوعَ لِلْإِثْقَاطِ
وَالْإِسْتِعْبَادِ لَهَا، ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْتَحَ مُفْلَقَ عَقْلِهِ بَلِ

(١) التوق : الدعوى الباطلة والمجرقة . (٢) يمرؤك : يهيك .

(٣) الزنحرف القولي : المحسنات القظية . (٤) القررة : تكثير الكلام وترديده في تحليط .

فِيهِ إِغَاضَةٌ لِيَنْبُوجَ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَلَا يَدْعَ فِي ذَلِكَ فَائِتَ تَرَيْنَ النَّاسَ قَدْ
 سَمَّوْا أَعْمَالًا كَثِيرَةً قَدَسَتْهَا الْعَادَةُ فُرُوضًا مَعَ رَفِضِ الْعَتَلِ إِيَّاهَا وَعَدَمِ تَسْلِيمِهَا ،
 وَتَرَيْنَ الْحَقَّ يَدْمَغُ^(٢) جَمِيعَ الْأَبْطِيلِ عَلَى التَّعَاقِبِ، وَالْقُوَّةَ فِي كُلِّ زَمَنٍ تَسْلُبُ الْحَقَّ
 مَالَهُ مِنْ مُوجِبَاتِ الشَّرَفِ وَالْإِعْتِبَارِ . فَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ بِهِ عِلْمُهُ إِلَى الْإِحْتِرَاسِ مِنْ
 غُرُورِ الْقَوْلِ وَبَاطِلِهِ وَالسَّيْرِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّغَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى هُدًى فَذَلِكَ الَّذِي
 يَعِيشُ دَهْرَهُ مُفْتُونًا يُزْخَرُفُهَا أَسِيرًا فِي رِبْقَتِهَا .

فَالَّذِي يَجِبُ عَيْنًا لِلطِّفْلِ هُوَ تَعْرِيفُهُ بِحَالَةِ الْكَوْنِ الْمُحِيطِ بِهِ تَعْرِيفًا يَكُونُ
 بِإِلَاشِكٍ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ عَلَى الظُّوَاهِرِ وَالْإِفْتِصَارِ عَلَى مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، فَإِنَّ
 الْكَوْنَ كُلَّهُ مَعَانٍ، وَارْتِدُّ بِذَلِكَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُؤَثِّرٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِي عَقْلِ
 الْإِنْسَانِ وَيُولِّدَ مِنْهُ فِكْرًا . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْأَطْفَالَ بَعْدَ اقْتِضَاءِ سِتِّينَ أَوْ ثَلَاثٍ مِنْ
 عُمْرِهِمْ لَا يَكُونُونَ مُفَكِّرِينَ فَقَدْ ظَلَمَهُمْ وَحَطَّ مِنْ قَدْرِهِمْ . نَعَمْ إِنَّ أَفْكَارَهُمْ
 لَيْسَتْ كَأَفْكَارِنَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَدْعُونَا أَيْضًا إِلَى اعْتِبَارِهَا وَعَدَمِ
 إِغْفَالِهَا، وَقَلْبًا يُوْجِدُ طِفْلٌ لَا يَهْتَدِي سَبْقِهِ إِلَى مَا يَعْلَمُهُ الْقَائِمُونَ عَلَيْهِ إِيَّاهُ إِذَا
 تَكَلَّفُوا إِقَامَتَهُ عَلَى طَرِيقِهِ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِالتَّجَرُّبَةِ وَالتَّوَمُّينِ عَلَى إِزَالَةِ بَعْضِ
 مَا تَقَعُ فِيهِ مَشَاعِرُهُ مِنَ الْأَغْلَاطِ ، وَأَنْ يَحْشَوْهُ بِالْإِشَارَةِ وَالْكَلَامِ عَلَى النَّظَرِ
 وَالْمَلَاخِظَةِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ سَهَّلَ عَلَيْهِ بِمَا يُجْرِيهِ مِنَ الْإِفْسَادِ- رَبطُ الْحَوَادِثِ
 بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَإِزْجَاعُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، كإِزْجَاعِ اسْتِطَالَةِ ظِلِّ الرَّمَحِ مَثَلًا إِلَى

(١) إغاضه اقضه .

(٢) يدمغ يطل ويحق .

أَيْحَدَارِ الشَّمْسِ عَنْ أَوْجِهَا ، وَأَصْبَحَ الْقِيَاسُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَلَكَةً رَاسِخَةً فِي نَفْسِهِ
عَلَى مَا يُفِيدُهُ إِيَّاهُ مِنَ الْعُلُومِ الْأَوَّلِيَّةِ فَإِنَّ فِي اسْتَادِ الْحَوَادِثِ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ تَعَلُّماً
لِلْحُكْمِ عَلَيْهَا .

الرسالة العشرون

مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ١٠ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٨٥

مَحَاوَلَتُهُ الْحَرْبَ مِنَ السَّجْنِ مَعَ الْمَسْجُونِينَ وَعَدَمُ إِفْلَاحِهِمْ
وَحَوْفُهُ اقْطَاعَ الْمُرَاسَلَةِ

قَدْ هَمَّ الْمَسْجُونُونَ بِالْحَرْبِ مِنْ بَحْنٍ ... وَشَرَعُوا فِي ذَلِكَ فِعْلاً
فَانْكَشَفَ أَمْرُهُمْ ، وَاسْتَقْرَيْنَ فِي الصُّحُفِ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ وَكَانَتْ الْأَحْوَالُ
كُلُّهَا مُسَاعِدَةً لَنَا عَلَى هَذَا الْحَرْبِ ، وَنَاهِيكَ بِلَيْلِ غَابِ بَدْرِهِ ، وَرِيحِ اسْتَدَتْ
عَوَاصِفُهَا ، وَمَطَرِ انْهَمَرَتْ سُيُولُهُ عَلَى جُودِرَانِ السَّجْنِ ، وَلَكِنَّا أَخْفَقْنَا بَعْدَ أَنْ
قَطَعْنَا أَصْعَبَ الْعُقَبَاتِ وَأَشَدَّهَا ، وَأَوْشَكْنَا أَنْ نَفُوزَ بِالنَّجَاةِ .

وَسَيَكُونُ مِنْ نَتَائِجِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ زِيَادَةُ التَّشْدِيدِ فِي مُرَاقَبَةِ
الْمَسْجُونِينَ ، وَأَنْ تَصِيرَ الْمُرَاسَلَاتُ مَعَ مَا كَانَتْ مُحْتَمَّةً بِهِ مِنَ الْعَوَائِقِ عَلَى خَطَرِ
الْإِقْطَاعِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَلَسْتُ أَدْرِي هَلْ يَصِلُ إِلَيْكَ هَذَا الْمَكْتُوبُ أَوْ تَحْوُلُ دُونَهُ
الْحَوَائِلُ ، وَأَرْجُو أَيُّهَا الْعَزِيزَةُ هِيلَانَةَ أَنْ لَا يُوَجِدَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ فَإِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ
أَنْ أَصْمُ أَذُنِي عَنْ نِدَاءِ الْفِطْرَةِ الَّتِي تَدْعُونِي إِلَيْكَ وَإِلَى وَلَدِنَا . اهـ

الرسالة الحادية والعشرون

(مِنْ هِلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي دَيْسَمِرَ سَنَةِ ١٨٥)

يَا بْنَ شُعْلٍ «إِمِيل» وَأَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّبِيَانَةَ لَيْسَتْ بِاطْلَةٍ بِرُمْتِهَا

بَلْ مِنْهَا مَا قَدْ يَكُونُ مُفِيدًا

كَتَبْتُ لِلْحُكُومَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَسْطَلِعُهَا شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِكَ ، فَصَدَرَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَمْرٌ رَسْمِيٌّ بِإِجَابَتِي أَنَّكَ بِخَيْرٍ ، وَذَلِكَ تَهْكُمُ وَخُفْرِيَّةٌ .

أَنَا لَا أَطِيقُ هَذَا السُّكُوتَ الَّذِي طَالَ أَمْدُهُ بَيْنَنَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمْضَى وَأَحْرَجَ صَدْرِي ، وَلَكِنِّي أَرَانِي قَدْ اهْتَدَيْتُ إِلَى جِلَّةٍ لَا بِصَالٍ مَكْتُوبَاتِي إِلَيْكَ سَتَرَى حَتَّى مَا يَكُونُ مِنْ نَجَاحِهَا ، وَسَوَاءٌ عَلَيَّ أَفْلَحْتُ فِيهَا أَمْ لَمْ أَفْلَحْ فَإِنِّي لَنْ أَلُوْجُهَا فِي مَلَازِمَةِ جُنْدَانٍ مَجْنُونٍ وَمُحَاصَرَتِهَا عَلَى النُّحُورِ الَّذِي أَعْرِفُهُ .

إِقْضَيْتُ كُلَّ هَذِهِ الْمُدَّةِ وَلَا سُلُوَانَ لِي عَنْ هَمِّي إِلَّا فِي «إِمِيل» أَوْه ! إِنِّي لَا يَزِلُّ أَنْفَسَ مَا عِنْدِي لَمَنْ يَأْتِينِي بِكَ السَّاعَةَ لَتَرَاهُ يَفْضُو وَيَرْوَحُ فِي الْبُسْتَانِ مَكْشُوفَ السَّاقَيْنِ إِلَى نِصْفَيْهِمَا عَارِي الذَّرَاعَيْنِ مُرْسِلَ الشَّعْرِ ، فَإِنَّ شَهْرَ دَيْسَمِرَ هُنَا كَمَا أَخْبَرْتُكَ فِيمَا سَبَقَ غَايَةً فِي اعْتِدَالِ الْإِقْلِيمِ وَيَقُولُ صَدِيقُكَ الدُّكُورُ إِنَّ شَدَّ أَعْضَاءَ الْأَطْفَالِ وَقَوِيَّتَهَا تَعْرِضُهَا لِمُسَوَاءِ الْجَوِّ يَوْمًا بِالْقَائِدَةِ عَلَيْهِمْ فِي أَبْدَانِهِمْ .

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ «إِمِيل» غُلَامٌ مُتَعِبٌ فَإِنَّهُ كَلَّفَ يَدَيْ كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَيْهِ ، فَهَلْ يَنْبَغِي مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ ؟ وَلَيْسَتْ تَرَى مَا يَحْدُثُ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْبُسْتَانِ مِنْ ضُرُوبِ الْإِنْبَاتِ الَّتِي كَانَ قَوِيْدُونَ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ يَتَوَجَّعُ مِنْهَا وَيَسْكُو فَلَمَّا أَعْيَتْهُ الْحِيلُ

انْتَهَى بِالضَّحِكِ عَجْزًا وَيَأْسًا . ذَلِكَ لِأَنَّ وَلَدَكَ لَهُ فِي الْإِسْتِمَالِ طُرُقٌ شَتَّى هُوَ
مُحْصَوْصٌ بِهَا ، فَهُوَ يَقْلِبُ الْأَرْضَ بِمَقْلَبِ صَغِيرٍ مِنَ الخَشَبِ ، وَيَبْرُسُ الْأَشْجَارَ ،
اسْتَفْهَرَ اللَّهُ بَلَّ أَظْنَهُ بَنِي أَيْضًا وَلَعَلَّكَ تَقُولُ إِنَّهُ بَنِي قُصُورًا فِي إِسْبَانِيَّة ^(١) — لَا !
وَأَمَّا هُوَ يَقِيمُ بِالْحَصَى مَنَارَاتٍ وَكُهُوفًا . ثُمَّ إِنَّ الَّذِي يُضْحِكُنِي وَيُسَلِّبُنِي مِنْهُ
أَنَّهُ يُسَمِّي تِلْكَ الْأَلَايِبَ سُفْلًا وَهِيَ تَسْمِيَةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَطْفَالَ مَجْبُولُونَ عَلَى
تَعْظِيمِ أَعْمَالِهِمْ فِي أَقْصِيهِمْ وَتَقْدِيرِهَا بِأَكْثَرِ مَنْ قِيَمَتِهَا ، عَلَى أَنَّ مَا يَصْدُرُ عَنْ
سَدَاجَتِهِمْ وَسَلَامَةِ طَبَاعِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ هَذَا التَّقْدِيرِ لَيْسَ بِمُحْمَلَةٍ بِاطْلًا بَطْلَانًا تَامًا .
فَإِنَّ ثَمَرَةَ الْبُلُوطِ مَثَلًا إِذَا سَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ يَدِ صَبِيٍّ صَغِيرٍ لَمْ يَحْسِنِ الْقَبْضُ
عَلَيْهَا لَا يَنُاسِي فِي ذَلِكَ أَنَّ تَصِيرَ يَوْمًا مَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ (فَكَيْفَ إِذَا هُوَ غَرَسَهَا
فِي الْأَرْضِ) ١٠ هـ

الرسالة الثانية والعشرون

(مِنْ هَبْلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ١٢ يَنَايِرَ سَنَةِ — ١٨٥)

أَنْتُسُ « إِمِيل » بِاللُّوَاجِنِ وَأَنْشَأُ بِهِ وَتَمْلِيلُ اقْطِاعِ تَأْنِسِ الْحَيَوَانَاتِ
الْمُتَوَحَّشَةِ بِزَوَالِ سَدَاجَةِ الْإِنْسَانِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَدْعُو

تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ إِلَى التَّقِيَّةِ بِهِ

أَتَّخِذُ « إِمِيل » لَهُ خَلِيلَةً وَلِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ يَنْبَغِي أَنْ أَقْصِ عَلَيْكَ حَادِثَةً وَقَعَتْ
عِنْدَنَا فَأَرْتَعْنَا جَمِيعًا بِسَهْمِهَا ارْتِيَاعًا عَظِيمًا : ذَلِكَ أَنَّ قُوَّيْدُونَ لَمَّا كَانَ قَلِيلَ النَّفْثَةِ

(١) مثل يضره الفرنسيون لمن يتشبث بالأمانى الرومية ويضر بالخيلات الكاذبة .

بِشَرَطَةِ الْحُكُومَاتِ الْمَدَنِيَّةِ فِي حِفْظِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ لِمَا هُوَ لَاصِقٌ بِهِ مِنْ أَفْكَارٍ مُتَوَحِّشِي أَفْرِيقَةٍ - قَدْ عَمَرَ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي عَلَى كَلْبَةٍ مَخْصِيَةٍ طَوِيلَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْكِلَابِ تَوَحُّشًا قَسَمَيْنَاهَا (الدُّبَّةُ) وَهُوَ اسْمٌ يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا كَمَالُ الْإِنْطِبَاقِ فِي شَعْرِهَا الْأَسْوَدِ وَقُوَّتِهَا الْعَظِيمَةِ وَغَرَاثِزِهَا الْعِدَائِيَّةِ، وَقَدْ وَضَعَتْ مِنْهُ شَهْرَيْنِ خَمْسَةَ جِرَاءٍ ثَمَّ ثَلَاثًا لِأَنَّهَا مِنْ حِينَ وَلَادَتِهَا بَدَتْ عَلَيْهَا سِمَاتُ الدَّمَامَةِ وَالْبَشَاعَةِ فَاسْكَنَاهَا فِي بَيْتِ الدَّجَاجِ وَكَانَ مِنْ وَرَاءِ وَضْعِهَا أَنْ زَادَ تَوَحُّشَهَا الْفِطْرِيُّ سَبَبٌ حُنُوهَا الْأُمِّيَّ كَمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ غَالِبًا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الضَّارِيَةِ، فَقَدْ تَحَلَّيْتُ أَنْ تُخْفِيَ جِرَاءَهَا فِي سَقِيْفَةٍ كَانَتْ تَحْرُسُ مَدَاحِلَهَا وَتَمْنَعُهَا بِنَفْسِهَا لِيُظَنَّ بِهَا بِلا رَيْبٍ أَنَّنَا نَأْخُذُهَا مِنْهَا، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُ بِأَنْ لَا يَدْخُلُ «إِمِيلُ» بَيْتَ الدَّجَاجِ بَعْدَ سُكْنَاهَا فِيهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهِ مُقَابَلَةَ هَذَا الْحَارِسِ الْجَهَنَّمِيِّ، وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟ وَهُوَ عَمَّ كَوْنُهُ لَمْ يَجَاوِزِ التَّهَادِي فِي مِشْيَتِهِ يَسْلُلُ وَيَتَدَخَّلُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَفِي عَصْرِ ذَاتِ يَوْمٍ اقْتَدَنَاهُ فِي الْبَيْتِ وَالْإِنْسَانُ فَلَمْ نَجِدْهُ، فَارْسَلْتُ قُوَيْدُونَ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ رَأَيْنَا بَيْتَ الدَّجَاجِ مَفْتُوحًا فَلَمْ يَبْقَ فِي قُفُوسِنَا رَيْبٌ فِي أَنَّهُ دَخَلَهُ، وَلَكِنْ ضَاعَ بِحُشْنًا فِيهِ سُدَى، فَأَوَّلُ خَاطِرٍ مَرَّ بِفِكْرِ الزَّنْجِيِّ هُوَ أَنَّ الْكَلْبَةَ أَقْرَبَتْهُ وَهُوَ خَاطِرٌ فِيهِ رِيحُ التَّوَحُّشِ حَقًّا.

لَمْ تَكُنْ دَهْشَةُ قُوَيْدُونَ بِأَقَلِّ مِنْ دُعْرِهِ ^(١) إِذْ دَخَلَ السَّقِيْفَةَ مُخَاطِرًا بِنَفْسِهِ فَرَأَى «إِمِيلَ» وَقَدْ رَقَدَ عَلَى الدُّبَّةِ وَآخَذَ بِأُذُنَيْهَا الطَّوِيلَتَيْنِ الْمُتَمَدِّلَتَيْنِ يَمْدَحُهُمَا إِلَيْهِ وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا خُرُوجًا عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ وَأَبْعَدُ مِنْهُ عَنْ مَعْهُودِهَا أَنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ

كَانَ يَتَسَاءَلُ لَهُ فِيمَا كَانَ يَفْعَلُهُ بِهِ وَيَتَحَمَّلُ مِنْهُ لِحَاجَتِهِ فِي تَحْكِيمِ سَهَامِهِ وَعُلُوِّ
 نَفْسِهِ لَا يَتَصِفُ بِهِمَا إِلَّا الْآخِذُونَ بِطَرِيقَةِ زَيْنُونٍ فَلَمْ يَلْبَثْ قَوْيْدُونَ أَنَّ فِيهِمْ
 وَهُوَ مُنْدَهَشٌ أَنَّ الْكَلْبَةَ قَدْ أَخَذَتْ (إِمِيل) خَلِيلًا وَأَكْرَمَتْ وَقَادَتْهُ فَقَبِلَتْهُ بَيْنَ
 أَوْلَادِهَا ، لَيْكِنَهَا لَمْ تَمْتَحِ الزَّيْجِيُّ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمُرَاعَاةِ لِأَنَّهَا لَمَّا رَأَتْهُ أَتَسَاءَلَتْ تَهْرُ
 وَتُكْشِرُ عَنْ أَنْبِيَاسِ زَجْرَالَهُ ، قَرَأَى مِنَ الْحَزْمِ الْفِرَارَ مِنْ أَمَامِهَا تَخْرُجَ دَائِعًا
 (إِمِيل) إِلَى الْخَلِيقِ بِهِ قَبْعُهُ جَدَلًا مُبْتَهَجًا غَافِلًا عَمَّا كَانَ قَدْ أَتَحَمَّهُ مِنَ الْخَطَرِ .
 وَمِنْ هَذَا الْحِينِ انْقَدَدَ التَّعَارُفُ بَيْنَ (إِمِيل) وَبَيْنَ الدُّبَّةِ ، وَكَانَتْهَا تَوْهَمَتُهُ جُرْأَوْ صَغِيرًا
 لَمْ تُحْسِنْ أُمُّهُ لِحَسَنِهِ فَكَانَتْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَعْتَبِرُهُ مِنْ تَجِبُ لِحَسَنِ حَيَاتِهَا ، وَتَلْحُسُ
 مَا انْكَشَفَ مِنْ أَعْضَائِهِ بِلِسَانِهَا الْعَرِيضِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ قَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّهَا حَمِيدَةُ
 الْمَقَاصِدِ فَلَمْ يَبْقَ لِي مِنْ مُوجِبٍ لِلْخَوْفِ مِنْهَا عَلَى وَلَدِي .

لَمْ يَقْصِرْ (إِمِيل) عَلَى مُصَادَقَةِ الدُّبَّةِ بَلْ لَهُ أَصْدِقَاءُ غَيْرُهَا بِجَمِيعِ سُكَّانِ بَيْتِ
 الدَّجَاجِ مَعَارِفُهُ ، وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنَّ تَرَاهُمْ فِي غَايَةِ الْإِتِّلَافِ وَالْوِثَامِ وَلَسْتُ أُخْفِي
 عَنْكَ أَنَّي مُهْتَمَّةٌ بِهَذَا الْعَالَمِ الْبَيْتِيِّ الصَّغِيرِ وَمُشْتَغَلَةٌ بِشَأْنِهِ كُلِّ الْإِشْتِغَالِ .

يُوجَدُ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ بُسْتَانِنَا بَرَكَةٌ فِيهَا وَشَلْ (مَاءٌ قَلِيلٌ) يَزْدَادُ بِمَا يَنْصَبُ
 فِيهَا مِنْ مَاءِ الْمَطَرِ الْمُتَحَلِّبِ مِنْ سَطُوحِ الْمَنَازِلِ نَحْطَرُ بِأَنَّا أَنْ نَضَعَ فِيهَا بَطًّا ،
 وَنَعْمَدُ بِذَلِكَ قَوْيِدُونَ فَاشْتَرَى ثَلَاثَ بَطَّاتٍ مِنْ كَفْرِ جُجَاوِرٍ لَنَا وَأَصْبَحْنَا نَتَسَلَّى

(١) رَأَى الْكَلْبَةَ : حَبَّاءُهَا . (٢) الْحُك : الْمُنَادَاةُ وَالْمُنَازَعَةُ وَاسْتِزْجَارُهَا لِفَاعِلَةٍ .

(٣) هُوَ الْمَسِيحُ بَزَيْنُونِ السِّيَرِي يُنْسَبُ إِلَى سَيْتِيومَ مَدِينَةٍ فِي جَزِيرَةِ قُبْرُسَ وَكَانَ فِي سَنَةِ ٣٧٢ وَمَاتَ

فِي سَنَةِ ٢٧٤ قَبْلَ الْمَسِيحِ وَهُوَ صَاحِبُ مَذْهَبٍ مُخْصُوصٍ فِي الْفَلَسَفَةِ أَسَاسُهُ الْعَبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ .

رُؤْيَةٍ رَيْشَهَا الْأَخْضَرُ الْجَمِيلُ الْمُحْتَلِ لِفِلْدِ الْمَعَادِنِ وَنَبْتِجُ بِمَا تُبْدِيهِ لَنَا مِنْ
ضُرُوبِ الْمَرْجِ وَاللَّيْبِ فِي الْمَاءِ وَمَا تُسْمِعُنَا مِنَ الْبَطْطَةِ وَتُرِينَا مِنَ الْإِتْلَافِ
الصَّحِيحِ الَّذِي جَمَعْتَهَا وَشَاجِحُهُ ، وَلَكِنَّ الزَّيْجِيَّ لَمْ يَلَيْتْ أَنْ لَا حَظَّ عَدَمِ التَّنَاسُبِ
وَالْتِلَافِ فِي تَأْتِفِ هَذِهِ الْجَسَاعَةِ فَإِنَّهُ وَجَدَ فِيهَا ذَكَرَيْنِ لِأُنْثَى وَاحِدَةٍ مَعَ أَنَّ الْبَطَّ
عَلَى مَا يَظْهَرُ يَمِيلُ إِلَى تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ عَلَى نَحْوِ مَا عَلَيْهِ التُّرْكُ : يَرْوِجُ السُّلْطَانُ الْوَاحِدُ
مِنْهُمْ كَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ . فَمِنْ أَجْلِ مُدَاوَاةِ هَذِهِ الْعِلَّةِ الَّتِي جَرَمَ قُوَيْدُونُ بِمُخَالَفَتِهَا
لِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ قَدْ اشْتَرَى زَوْجًا آخَرَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ هَذِهِ الدَّفْعَةَ
مِنْ أُنْثَى وَنَحَرَهَا كَمَا يَنْبَغِي وَبِذَلِكَ أَصْلَحَ الْخَطَأَ الْأَوَّلَ بَعْضُ الْإِصْلَاحِ وَبَقِيَ
أَمْرٌ مَا كَانَ يَحْطَرُّنَا عَلَى بَالٍ قَبْلَ شِرَاءِ هَذَا الزَّوْجِ فَاعْتَكَسَ فِيهِ تَقْدِيرُهَا وَخَابَ
حُسْبَانُهَا ، وَهُوَ سُوءُ اسْتِقْبَالِ الْبَطَّاتِ الْقَدِيمَةِ لِهَذَا الزَّوْجِ فَإِنَّهَا مُبْجَرَدٌ أَنْ رَأَتْهُ وَلَيْتَهُ

(١) الحاجن المسكن الذي يألف البيت .

(٢) الفلذة جمع فلذة وهي القطعة .

(٣) الوشائج جمع وشيجة وهي في الأصل عرق الشجرة وليف يفنل ثم يشد بين خشبتين والمراد بها

هنا الوصلة .

(٤) عجبا لقويديون وأمثال قويديون ممن يحكون على الأمور عن غير بيته ويسيرون عوائد قومهم
بلا نزو ولا بصيرة تقليدا للأجانب ومحاكاة لهم في مذاهبهم غليس صحيحا أن تعدد الزوجات مخالف
لمقتضى الفطرة كما يقول موافقة رأى سيده وتاميا عن حالة التمدد الفطرية التي نشأ هو وقومه فيها من
عهد الخليقة الأولى بل الفطرة تقتضى بقاء نسل كل ما دب على وجه الأرض من الحيوانات لاستمرار عمارة
الأرض والمشهود أن الإناث من كل قبيل أكثر عددا من الذكور لذلك كانت أدخل في مقتضى الفطرة
وأنسب لفرسها أن يكون للذكر الواحد أكثر من أنثى ولكن الله سبحانه الذي كرم الإنسان وفضله على
كثير من خلقه تفضيلا لم يتركه سدى بل أرسل له الرسل يحملون له محصفا مطهرة فيها كتب قيمة حددت له
المحدود في سيرته تهذبا فطرته وتقويما لسيرته فأباح له التعدد ما دعت إليه الضرورة ومنعه منه عند
عدمها حفظا للنسل ومنعا للفت ومحققا للعدل — المترجم .

ظهورها مصرة على مجابته وكذا حاول القرب منها نهرة وأوسعه قمرًا ، فأردنا
 الوسط في الصلح بين الفريقين فلم يجد ذلك نفعًا ، لأننا ما كدنا تفارقهما حتى
 عقدت الثلاث القديمات مجلسًا للشورى بينهما بميزل عن الحديتين وأنشأن
 سبططن طويلا ، ولم أعرف ما دار بينهما من التداول والتشاور بنصه لعدم معرفتي
 لسانهن ، ولكن معناه كان ظاهرًا فكانهن كُنَّ يقلن : إنا قد سكا هذا المكان
 قبلهما ، ولنا الحق من أجل ذلك أن نمتريهما ديلتين ، فأجدر بنا أن نؤسى على
 السفود شيئا^(١) وأن نجهز باللفظ طعما للاكين من أن قبلهما في جماعة فنحن بط ،
 وأما هما فليستا إلا من السقط .

لما لاحظت قويدون أن أحد أفراد هذه الجماعة — وهو ذكر أبض ذو
 قترمة^(٢) طويلا — كان أشدها حاجة في الثور صمم على ذبحه على نصب الوفاق
 فداء للإجماع والتألف فلما فعل أنتج هذا القربان — مع أسفى عليه — اثره المطلوب ،
 فأخذ كل فريق يتدرج في التقرب من الآخر حتى انتهيا بأن صارا جماعة واحدة ،
 وإن كانت البطلة القديمة هي السلطانة الحظية ، فما رأيك في ذلك التسم والترفع
 في هذا الجنس الحيواني ؟ أترى أن الميل للسودد والشرف هو الأصل الثابت
 في الفطرة وأن المساواة بالمعنى الذى فهمه منها أمر عارض عليها اكتسبه
 الإنسان بالعدل .

(١) السفود حديد يشوى عليها اللحم .

(٢) القترمة : خصلة من الشعر أو الريش تكون في أعلى الرأس .

(٣) نصب مكان ذبح الضحايا والقراين .

لَوْ شِئْتُ لَقَصَصْتُ عَلَيْكَ أَيْضًا وَقَائِعَ كَثِيرَةٍ فِي عَوَائِدِ الْحَمَامِ وَأَخْلَاقِهِ هِيَ
بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَدِيدَتِهِ، قَدْ تَبَيَّنَ لِي مِنَ النَّظَرِ فِي مَعِيشَتِهِ فِي بُرْحَانٍ أَنَّ أُمُورَهُ لَا تَجْرِي
تَمَامَ الْحَرِيِّ عَلَى مَا تَصِفُهُ الْكُتُبُ مِنْ جَعْلِهِ عَلَى الْجُمْلَةِ مَثَلًا لِلصَّدَاقَةِ وَالْوَفَاءِ بِعَقْدِ
الزَّوْجِيَّةِ لِأَنِّي رَأَيْتُ ذَكَرًا عَتِيقًا مَتْرُوجًا بِحِمَامَةٍ فَتِيَّةٍ كَانَ حَظُّهُ مِنْهَا حَظُّ أَوْلَيْكَ
الشُّبُوحِ الضَّعَافِ الَّذِينَ يُمَثِّلُ الرِّوَايَاتُ الْمِزَلِيَّةُ خُضُوعَهُمْ وَتَسْلِيمَهُمْ قِيَادَهُمْ لِمَنْ
يُحَاطُونَهُمْ، فَتَرَكْتُهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ وَاسْتَبَدَلْتُ بِهِ ذَكَرًا فَتِيًّا مُتَصَلِّقًا اسْتَمْلَاهَا مِنْهُ
بَلَا رَيْبٍ رَفِيقٌ كَلَامِهِ، وَبَجِيلٌ نَحِيَّتُهُ وَسَلَامُهُ، وَكَأَنِّي بِكَ قَوْلُ: أَيُّ الزَّوْجَيْنِ
كَانَ عُظْمًا؟ الزَّوْجَةُ لِأَنَّهَا طَائِشَةٌ وَسَرِيعَةُ التَّحَوُّلِ وَالْإِنْقِلَابِ؟ أَمِ الزَّوْجُ لِأَنَّهُ
أَغْفَلَهَا وَلَمْ يَرَاعِهَا كَمَا يَتَّبَعِي؟ فَأُجِيبُكَ: أَنَّهُ يَتَّبَعِي الْحَدْرَ مِنَ الْمُبَازَنَةِ فِي الْأَحْكَامِ عَلَى
غَيْرِ عِلْمٍ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أُمِسْتُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَيْنَ الْحُكْمِ: وَأَقُولُ إِنَّ الزَّوْجَ
الْمُخُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَدْ تَلَقَّى سُقُوطَ حُرْمَتِهِ بِعُلُوِّ نَفْسٍ يَدُلُّ عَلَى الشُّبَاعَةِ الْحَقِيقِيَّةِ،
فَكَانَ إِذَا اتَّفَقَتْ مُقَابَلَتُهُ لِزَوْجِيهِ الْخَائِنَةِ فِي طَرِيقِ يَمْرِ بِحَوَارِهَا يَدُونُ أَنَّ يَظْهَرُ
عَلَيْهِ أَنَّهُ رَأَاهَا وَأَنَّ يَدِي أَقْلَ أَمَارَةٍ عَلَى حَقِّهِ عَلَيْهَا، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْبَتَّةَ عَلَى هَذَا
التَّسَامُحِ مَعَ مَنْ اغْتَصَبَهَا مِنْهُ لِأَنَّهَا عِنْدَ مَا كَانَا يَتَقَابَلَانِ كَانَا يَتَبَادَلَانِ النَّقَرَ الْأَلِيمَ
الْوَقْعَ كَمَا كَانَ مِثْلَاسٌ وَبَارِيسُ يَتَبَادَلَانِ الطُّغْنَ وَالضَّرْبَ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ وَلَمَّا
قَضَيْتِ الْحِمَامَةُ الْمُطْلَقَةَ زَمَنَ الْعِشْقِ وَحَانَ وَقْتُ حَضَانَةِ الْبَيْضِ لَمْ تُحْصِنَهَا لِأَنَّهَا

(١) مَا كَانَ لِدُيُوتُ أَنْ يوصفَ بِعُلُوِّ النَّفْسِ وَالشُّبَاعَةِ وَمَا بِهِ الْإِنْخِلَاطُ النَّفْسِ وَالتَّهَوُّنُ فِي الْفَرْضِ
الَّذِينَ هُمَا مِنْ مَسَاوِي كُلِّ خَبِيسٍ لَيْمٍ . (٢) مِثْلَاسٌ هُوَ ابْنُ آتَرِيهِ وَأَخُو آغَا مَتُونِ مَارِطُكَ
لِاسْبَارَةِ بَرُورِجِه بِيَلَانَةِ بَنَتِ بِنْدَارُو بَارِيسِ هُوَ ابْنُ بَرِيَامِ وَضَعِيهِ وَكَانَ السَّبَبُ فِي انْتِشَابِ حَرْبِ تَرَوَادَةِ
النَّهْرَةِ بِحُلُقِهِ هِلَانَةِ زَوْجَةِ مِثْلَاسٍ مَلِكِ اسْبَارَةِ قَتَلَ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ اشْشِيلَ وَقَتَلَ هُوَ أَيْضًا بَسِيفَ
بِيرُوسِ — التَّرْتِيمُ .

وَرَفِيقَهَا كَانَا مِنْ قَرِطٍ اشْتَقَا لِمَا يَدَوَاغِي الْحُبِّ نَحِثُ لَمْ يَكُنْ لِيَسِيرَ لَهَا أَنْ
يُكْثِرَا مِنَ التَّفَكُّرِ فِي قُرُوضِ الْبَيْتِ، وَلَمْ تَعْزُبْ هَذِهِ الْحَالَةُ عَنْ ذَهْنِ الزَّوْجِ الْمَهْجُورِ،
فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ يُخْرِجُهُمَا مِنْ إِحْدَى الْمَعَاضِنِ حَيْثُ كَانَا مُشْتَغِلَيْنِ بِتَرْبِيَةِ
أَفْرَاحِهِمَا وَهَمَّ وَالْحَقُّ يُقَالُ مَا كَانَا يَتَرَانِ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا . وَكَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهَا
وَقَتَ إِخْرَاجِهِمَا « أَفْ لَكَا أَنْتُمَا لَا تَعْرِفَانِ مِنَ التَّرْبِيَةِ شَيْئًا فَخَلِيَا مَكَاتِكَا » فَلَمْ يَكُنْ
إِلَّا أَنْ خَلِيَاهُ بَعْدَ مُقَاوَمَةٍ ضَعِيفَةٍ وَجَعَلَ هُوَ يُحَسِّنُ الْعِنَايَةَ بِشَأْنِ أَدْعِيَائِهِ وَسَمَهُ الظُّفْرَ
وَالْفَخْرَ بَادِيَةً عَلَى وَجْهِهِ فَتَبَتْ فِكْرِي هَذِهِ السَّيْرَةَ الثَّرِيفَةَ ^(١) إِلَى أَمْرِ مِنَ الْمُحْتَمَلِ
أَنْ يَكُونَ هُوَ سَبَبُ شَقَائِهِ زَوْجَتِهِ وَهُوَ أَنَّ صِفَةَ الْأُبُوَّةِ فِيهِ غَالِبَةٌ عَلَى صِفَةِ الزَّوْجِيَّةِ .

«إميل» كَمَا لَا يَعْزُبُ عَنْ فِكْرِكَ يَحْهَلُ كُلُّ هَذِهِ الْإِعْتِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ أَنْتِي
لَا حَظَّهَا فِي مَعِيشَةِ الطُّيُورِ، وَيُرِيدِي أَنْ لَا يَفْهَمُ كُلُّ مَا فِيهَا وَإِنَّمَا الَّذِي أُعْجِبُ بِهِ
هُوَ مَا اسْتَقَرَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعْظَمِ سُكَّانِ بَيْتِ الدَّجَاجِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْإِرْتِبَاطِ ، هَذَا
وَلَمَّا كَثِيرًا مَا تَسَاءَلْنَا عَنِ السَّبَبِ فِي أَنَّ تَأْيِيسَ الْحَيَوَانَاتِ كَادَ يَقْطَعُ مِنْ عَهْدِ
أَنْ تُجِدَتِ الْمُجْتَمَعَاتُ الْمَدْنِيَّةُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عِلَّةَ ذَلِكَ لَيْسَتْ هِيَ إِعْوَاظُ الْحَيَوَانَاتِ
الْمُتَوَحِّشَةِ، فَإِنَّ فِي الصُّحْرَاءِ كَثِيرًا مِنْ أَنْوَاعِهَا النَّافِعَةِ الَّتِي يَكُونُ مِنْ فَائِدَتِنَا الظُّفْرُ
بِهَا لَوْ زَالَ الْمَنَاسِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا أَقُولُ فَقَدْ يَكُونُ السَّبَبُ فِي وَشِكِ
انْقِطَاعِ التَّائِيسِ هُوَ كَوْنُ الْإِنْسَانِ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ مِنْ سَدَاجَةِ الْفُطْرَةِ
مَا يَكْفِي لِشِقَةِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَوَحِّشَةِ بِهِ وَأَنَّ صِفَاتِ الطُّفُولِيَّةِ هِيَ الْإِلَازِمَةُ لِذَلِكَ . اهـ

(١) ما أبدى سيرة هذا البؤس من الشرف وإن قسا ترضى بحضارة ولد المير على حرجها واللع

في عرضها المنتكح له لى في غاية الضعة والخفارة لاحظ لها من الأفة والإباء — المترجم .

الرسالة الثالثة والعشرون

(مِنْ هَيْلَانَةٍ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ١٦ يَنَابَرِ سَنَةِ - ١٨٥)

تَأْثِيرُ الْجَمَالِ فِي الْأَطْفَالِ وَاحْتِيَاجُهُمْ إِلَى كَثَرَةِ التَّعْلَمِ

لَا حَظُّتُ أَنَّ إِمِيلَ جُلَّابًا صَحْبِي إِلَى دَارِ السَّيِّئَةِ وَارْتَجُوتُ وَوَجَدَ هُنَاكَ نِسْوَةً
مِنَ الْمَدِينَةِ اصْطَفَى لِمَعْرِفَتِهِ مِنْهُنَّ عَادَةً أَحْسَنَ خَلْقًا، وَرُبَّمَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ
لِلْجَمَالِ تَأْثِيرًا فِي نُفُوسِ الْأَطْفَالِ .

وَبَدَأَ لِي مِنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ يُحِبُّ الشُّبُوحَ وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِيهِ احْتِيَاجُ الْأَطْفَالِ إِلَى
كَثَرَةِ التَّعْلَمِ وَمِيلُ الشُّبُوحِ إِلَى الْأَكْثَرِ مِنَ التَّكَلُّمِ .

لَكِنْ لَا يَدْعُوكَ هَذَا إِلَى أَنْ تَتَصَوَّرَ فِيهِ أَنَّهُ مِثَالٌ لِأَتْرَابِهِ ، عَلَى أَنَّي لَا أُرِيدُ
أَنْ أَتَاتَ عَلَيْكَ بِالْحُكْمِ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَأَدْعُو لَكَ تَحَكُّمٌ فِيهِ بِنَفْسِكَ . أَنَا الْيَوْمَ نَفْسِي
وَأَبْكَيْتَهَا عَلَى اسْتِمَاعِهَا دُونَكَ بِمَا تَحِدُّهُ فِي مُتَأَنٍّ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْدُّعَا ، وَقَدْ
عَزَمْتُ مِنْ أَجْلِ هَذَا عَلَى أَنْ أَبْنِلَ نَفْسِي لَكَ كَمَا بَدَلْتُ مِنْ نَفْسِكَ فَاسْتَأْجَرْتُ
مُحَدِّثًا فِي سَفِينَةٍ سَقْلِعُ مِنْ بَرَانِسَ إِلَى ... فَعَلَيْكَ إِذْنٌ أَنْ تَرْتَقِبَ لِقَاءَنَا . اهـ

(١) الأتراب جمع تريب وهم الذين في سن واحدة .

(٢) أفاضت : أعطى .

(٣) المتأني : المتزب أي محل الاعترا بوالابتعاد .

(٤) الدعة : الراحة .

الرسالة الرابعة والعشرون

(من إزائيم إلى هيلانة في ٢٠ منه سنة - ١٨٥)

إِخْبَارُهَا بِصُدُورِ أَمْرِ بِنَقْلِهِ إِلَى مَجْنِ آخَرِ

وَأَقْنَاعُهَا بِالْعُدُولِ عَنِ السَّفَرِ إِلَيْهِ

تَرَدَّدْتُ حِينَ فِي الْكِتَابَةِ إِلَيْكَ لِأَنِّي لَمْ أَجِدْ فِي نَفْسِي مِنَ الْإِقْدَامِ مَا يَبْعَثُنِي عَلَى إِبْخَارِكَ بِأَخْرِ بَلَاءِ أَصَابَنِي وَأَنَا - عَلَى مَا أَعْلَمُهُ الْآنَ مِنْ أَنَّكَ قَدْ تُطَالَعِينَ خَبَرَ هَذَا الْبَلَاءِ فِي الصُّحُفِ - أَفْضَلُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ بِه عَلَى كُلِّ حَالٍ، ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي أَمْرٌ بِنَقْلِي

لَيْسَ شَأْنِي كَمَا تَعْلَمِينَ شَأْنَ الْمَقْضَى عَلَيْهِ بِعِقَابٍ فَهُوَ يَدُوقُ عَذَابَهُ لِأَنَّ هَذَا فِي قَبْضَةِ الْقَانُونِ، وَأَمَّا أَنَا فَفِي قَبْضَةِ الْقُوَّةِ تُصَرِّفُنِي كَيْفَمَا شَاءَتْ، فَلَسْتُ أَدْرِي مَنْ ذَا الَّذِي قَضَى عَلَيَّ، وَأَمْرُ أَتَهَامِي مِنْ رِيعَالِهِ اللَّهُ، وَإِذَا سَأَلْتُ: مَاذَا يُرَادُ بِي وَفَتَى وَإِنْ يَنْتَهَى عِقَابِي وَهَلْ هَذَا الْبَقْلُ الْحَدِيثُ آخِرُ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاهِلِ سَفَرِي الْأَلِيمِ الْمُمِضِّ؟ فَلَا أَجِدُ جَوَابًا لِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ.

عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَوَاعَى لِهَذِهِ الْمِحْنَةِ الْجَدِيدَةِ فَالْبَحَارُ تَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُهَا وَلَا عِيَادِي الْمَعِيشَةِ فِي أَقَالِيمَ مُخْتَلِفَةٍ أَصْبَحَ فِي اسْتِطَاعَتِي احْتِمَالُ حَرَارَةِ الشَّمْسِ وَرُطُوبَةِ السَّوَاهِلِ.

وَعَلَيْكَ الْآنَ أَنْ تَكُنِّي عَنِ التَّمَسُّكِ بِأَمْلِ الْإِقْدَامِ بَيْنَنَا بِحَرًّا كَالصَّحْرَاءِ وَأَرْضِينَ وَبَيْتَةٍ، وَأَنْ تَبْذِلِي نَفْسَكَ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَةِ وَلَدِنَا، وَعَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَدَافَ فِي عَمَلِنَا وَأَنْ نَتَأَنَّى كُلَّ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْعَقَابِ بِعِزَّةٍ صَادِقَةٍ وَقَصْدٍ ثَابِتٍ.

أَرْجُو مُوَافَاتِي بِأَخْبَارِ «إِمِيل» مَتَى تَسْرِكَ ذَلِكَ .
فِيمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ أَحْسَانِي أَمْرَانِ لَوْ اجْتَمَعَتْ قُوَى الْبَشَرِ عَلَى أَنْ تَسْلُبَنِي إِيَّاهُمَا
لَرَدَّتْ بِالْحَيَّةِ وَالنَّحَّاسِ الْأَوْهَمَا فِكْرِي وَحُبِّي، فَيَكْفِينِي مَالِدِي مِنَ الْبَرَاهِينِ الْبَقِيَّةِ
عَلَى أَنِّي مُحِقٌّ فِي تَقْوِيَّتِي عَلَى احْتِمَالِ مَا أَبْتَلَيْتُ بِهِ مِنَ الْإِضْطِهَادِ وَالظُّلْمِ ١٠ هـ

الرسالة الخامسة والعشرون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ٦ مايو سنة ١٨٥٠)

تَعْلِمُ الْأَطْفَالَ الصَّدْقَ وَالْإِحْسَانَ وَالرَّحْمَةَ بِالْحَيَوَانِ وَالْعَدْلَ فِي الْمُعَامَلَةِ
وَاحْتِرَامَ الزَّمَنِ بِالْعَمَلِ وَالْمُمَارَسَةِ دُونَ الْحِفْظِ وَالتَّقَيُّ

كَانَتْ عَاقِبَةُ جَدِّي فِي السَّعْيِ أَنْ فُزْتُ بِوَصْلِ حَبْلِ الْمُرَاسَلَةِ مِنْ وَرَاءِ مَا بَيْنَنَا
مِنَ الْمَسَافَاتِ النَّاسِغَةِ بَعْدَ طَوِيلِ انْقِطَاعِهِ ، وَلَسْتُ أَعُدُّ مِنَ التَّرْسُلِ مَا تَوَاتَرَتْهُ
مُنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ مِنَ الْمَكْتُوبَاتِ غَيْرِ الْمُهَمَّةِ الَّتِي كَانَ دَابُّ كُلِّ مَنْ فِيهَا الْإِفْقَالَ
مِنَ الْقَوْلِ جُهْدُهُ ، فَأَنَا مُحْتَاجَةٌ فِي تَخَاطُطِي مَعَكَ إِلَى مُنَاجَاةِ قَلْبِكَ بِفِكْرِ تَامِ الْإِخْتِيَارِ
وَضَمِيرِ كَامِلِ الْحُرِّيَّةِ .

لَا أَرْجِعُ إِلَى مَا مَضَى مِنَ الْحَوَادِثِ فَالْكَلَامُ فِيهِ عَدِيمُ الْجَدْوَى وَإِنَّمَا أَقُولُ :

إِنِّي قَدْ عَرَانِي لِحَبْرِ ثَقَلِكَ مِنْ سِجْنِكَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَلَمِ مَا لَجَّ بِي فِي التَّصْمِيمِ
عَلَى الْحَقَاقِ بِكَ لِلْحَاجَةِ لَمْ أَحْسُ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْمَضِيِّ مَعَهَا سِوَى

(١) هامش الأصل — لم نورد تلك المکتوبات التي ذكرتها لأننا لم نر فيها مصلحة للقارئ فأن

أكثر فائدة فيها إنما هي تكميل عدد الرسائل .

مَا عَلَّيْنِي مِنَ الْإِحْسَاسِ بِوُجُوبِ طَاعَةِ أَمْرِكَ وَتَمَسَّحِ نَصَائِحَ صَدِيقِكَ الدُّكْتُورِ
وِرْعَايَةَ مَصْلَحَةِ وَلَدِنَا فَانْصَبْتُ لِذَلِكَ الْإِحْسَاسِ آسَفَةً مُرَقَّبَةً تَحْقِيقِي أَمَلِي فِي الْفَقَاءِ .

عَلِمْتُ مِمَّا سَبَقَ مِنْ رَسَائِلِي مَا عَلَيْهِ «إِمِيل» مِنْ مَحَبَّةِ الْبَدَنِ ، وَأُرِيدُ الْآنَ
أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ تَقَدُّمِهِ فِي اكْتِسَابِ الْعِلْمِ فَأَقُولُ : لَيْسَ وَلَدُنَا بِدُعَا مِنْ الْأَطْفَالِ —
وَهُوَ أَمْرٌ اعْتَرَفَ بِهِ وَأَنَا فِي غَايَةِ الْإِسْتِكَاثَةِ وَالْقَضَايَةِ ^(٢) — بَلْ يَجِدُ النَّاسُ هُنَا فِيهِ
شَيْئًا مِنْ تَوْحِشِ سُكَّانِ أَطْرَافِ الْعَالَمِ ، وَلِكِنِّي أُحِبُّهُ كَمَا هُوَ لِأَنِّي أَرَى جَمِيعَ مَا فِيهِ
مُنْبَعَثَاتِ الْفِطْرَةِ ، وَلَمْ أَغْنِ حَتَّى الْآنَ تَتَلِيمِهِ مَوَاضِعَاتِ الْمَعَاشِرَةِ وَأَدَابِ الْإِخْتِلَاطِ
لِأَنَّهُ جُلَّ عِنَايَتِي كَانَ مَصْرُوفًا إِلَى النَّظَرِ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَحْوَالِ نَفْسِهِ وَالْإِجْتِهَادِ
فِي تَقْوِيمِ طَبِيعِهِ وَتَرْبِيَةِ إِدْرَاكِهِ . وَسَأَسْرُدُ لَكَ مِنْ تَجَارِبِي مَعَهُ مَا تَحْكُمُ بِهِ عَلَى مَبْلَغِ
تَجَاحِي فِي ذَلِكَ .

لَا حَظُّتُ أَنْ فِيهِ نَهَامَةٌ وَهِيَ غَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأَطْفَالِ فَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ،
وَلَكِنْ قَدْ أَتَتْ عَلَى مَعَهُ سَاعَةٌ ارْتَعَدَتْ فِيهَا فَرَائِصِي خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ تَلَوُّثِ نَفْسِهِ
بِرَذِيلَةِ أَفْطَحَ مِنَ النَّهَامَةِ وَأَشْنَعَ مِنْهَا كَثِيرًا أَلَا وَهِيَ الْكُذْبُ ، ذَلِكَ أَنَّ جُورَجِيَّةَ
كَانَتْ تَحْبِزُ ذَاتَ يَوْمٍ قَرَصًا فَطِيرًا فَلَمَّا اسْتَوَى أَنْزَجْتُهُ مِنَ الْقُرْنِ وَوَضَعْتُهُ سَاحِنًا
عَلَى الْخِوَانِ ^(٥) ثُمَّ دَعَمْتُ شُؤُونَ مُخْتَلِفَةً لِلْخُرُوجِ إِلَى الْبُسْتَانِ قَرَّرَكَاهُ وَخَرَجْنَا إِلَى «إِمِيل»
فَقَدْ لَاحَظْتُ مِنْهُ أَمْرًا دَعِشْتُ لَهُ وَهُوَ اجْتِنَابُهُ النَّهَابَ وَرَاءَنَا . فَلَمَّا عُدْنَا إِلَى

(١) البدع : الغاية في كل شيء . (٢) الاستكاث : القتل والخضوع . (٣) الفضاضة :

احتمال المكروه . (٤) المواضع : جمع مواضع وهي الاتفاق على أمر من الأمور .

(٥) الخوان بالكسر : المائدة .

الْمَطِيخِ لَمْ يَجِدْ لِلْقُرْصِ أَثَرًا فَاسْتَوَلَتْ عَلَى رِيَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي أَمْرِهِ ، وَلَكِنِّي تَجَاهَلْتُ
السَّارِقَ وَانْفَعْتُ إِلَى جَمِيعِ الْحَاضِرِينَ مُظْهِرَةً أَنِّي أَخَاطَبُ كُلَّهُمْ فَقُلْتُ : لَيْتَ
شِعْرِي مَنْ ذَا الَّذِي أَخَذَ الْقُرْصَ مِنْ فَوْقِ الْحَوَانِ ؟ فَأَمَّا قُوَيْدُونَ وَجُورِجَةُ فَإِنَّهُمَا
لَمْ يَنْبَسِا بِكَلِمَةٍ لِعِلْمِهِمَا الْبَرَاءَةَ مِنْ نَفْسَيْهِمَا وَأَمَّا «إِمِيلُ» فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ شَانَهُ كَذَلِكَ لَمْ
يَسْعَهُ إِلَّا أَنْ خَبَلَ وَصَاحَ قَائِلًا : هِيَ الدُّبَّةُ الَّتِي أَخَذَتْهُ .

فَلَمَّا سَمِعْتُ مِنْهُ هَذَا الْجَوَابَ انْجَرَحَ قُوَادِي غَمًّا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مِنْ أَحَدِ
مَكْتُوبَاتِي السَّالِفَةِ أَنَّ الدُّبَّةَ هِيَ كَلْبَةُ الْبَيْتِ ، وَلِمَا أَعْلَمَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنَ الْأُلْفَةِ
وَالِإِزْبَاطِ رَأَيْتُ أَنَّ هَذِهِ فُرْصَةٌ سَحَّحْتُ لِإِقْبَاطِ وَجْدَانِ الْعَدْلِ فِي نَفْسِهِ فَصَمَّمْتُ
عَلَى اخْتِنَائِهَا وَقُلْتُ إِنَّ كَانَتِ الدُّبَّةُ هِيَ الْأَثَمَةُ فَلَا بُدَّ مِنْ جَلْدِهَا ، وَأَثَرْتُ إِلَى
قُوَيْدُونَ بِتَنْقِيزِ هَذَا الْحُكْمِ وَكُنْتُ كُلَّ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَتَأَمَّلُ فِي وَجْهِ «إِمِيلِ» وَأَحْسُ
بِأَنَّ قُوَادِي يَطِيرُ شَمَاعًا ، وَلَا غَرْوَ فَأَيُّ شَيْءٍ كُنْتُ أَرْجُوهُ مِنْهُ إِذَا كَانَ أَصْرًا عَلَى
الِكِتَانِ وَإِنْكَارِ الْحَقِّ ؟ أَدْرَكَ الزَّيْجِيُّ بِلَا رَيْبٍ مُوجِبَ جَزَائِي وَفِيهِمْ مَا قَصَدْتُ
فَتَقَدَّمُ إِلَى الدُّبَّةِ الْمُتَجَنِّي عَلَيْهَا تَلَوُّحَ عَلَيْهِ سِمَاتُ جَلَادٍ يَمُنُّ بِمُثَلِّهِمُ الْقِصَصِ الْمُحَرَّزَةِ
وَكَانَتْ قَدْ بَدَتْ عَلَيَّهَا مِنْذُ حِينَ عَلَانِيَتِ الْأُنْثَى يَمُنُّ فِي الْبَيْتِ وَالسُّكُونِ إِلَيْهِمْ لِفِرَاقِهَا
مِنْ أَدَاءِ وَاجِبِ الْعِنَايَةِ وَالْحِمَايَةِ لِجَرَائِمِهَا ، وَكَأَنَّهَا أَدْرَكَتْ جَمِيعَ مَا حَصَلَ لِأَنَّهَا
كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى «إِمِيلِ» نَظَرَ الْمُسْتَغْنِيفِ الْأَمِلِ وَلِسَانُ حَالِمٍ يَحَاطِبُهُ بِقَوْلِهِ :
أَهْكَذَا تَدْعُنِي أَعَاقِبُ ظُلْمًا ؟ فَاضْطَرَبَ الْغَلَامُ مِنْ هَذَا النَّظَرِ ثُمَّ أَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ وَأَسْتَلْقَى
بَيْنَ يَدَيَّ قَائِلًا : كَلَّا ! لَيْسَتِ الدُّبَّةُ هِيَ الَّتِي أَخَذْتُهُ بَلْ أَنَا الْأَخِذُ ! ! عِنْدَ ذَلِكَ

(١) سُرِّي عَنِّي مَا كَانَ أَبْهَطَ نَفْسِي مِنْ مَتْرَا كَيْمِ الْكُدْرِ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى فِي هَذَا الْمَقَامِ الثَّبَاتَ وَعَدَمَ التَّعَجُّلِ فِي إِظْهَارِ الْحَنُوِّ فَصَحَّتْ قَائِلُهُ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَأَنَّكَ تَجَنَّبْتَ عَلَى الدُّبَّةِ مَا لَمْ تَجْنِبْهُ فِيهِ الَّتِي يَنْبَغِي الرُّجُوعُ إِلَيْهَا فِي طَلِبِ الْعَفْوِ، فَفَهِمَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ فَرَطَ مِنْهُ فِي حَقِّهَا هَفْوَةٌ يَجِبُ الْإِسْتِقَالَةُ مِنْهَا، فَعَمَدَ إِلَى جَيْبِ صُدْرَتِهِ فَأَخْرَجَ مِنْهُ نِصْفَ الْقُرْصِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَلْمُرُ لَهُ أَكْلَهُ كُلَّهُ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا قَائِلًا خُذِي، فَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ وَلَكِنَّمَا رَأَتْ أَنَّ اسْتِجَابَتَهُ الْعَفْوَ مِنْهَا صَادِرَةٌ عَنْ قَلْبٍ سَلِيمٍ أَزْدَدَتْ تِلْكَ اللَّقْمَةَ اللَّذِيذَةَ وَسَمَاتُ الرَّحْمَةِ، وَالشَّرَّ بَادِيَةً عَلَى وَجْهِهَا، فَبَسَمَتْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ قَهْقَهَنَ جَمِيعًا.

أَنَا وَإِنْ كُنْتُ لَا أَقُومُ طَاعَةَ الْأَطْفَالِ لِوَالِدَيْهِمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تَرَاهُ فِيهَا أَحَدُنِي فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مُضْطَرَّةً اضْطِرَّارًا شَدِيدًا إِلَى قَعِّ أَهْوَاءِ «إِمِيل» وَالْحِيلُولَةِ يَنْهَا وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى مَا قَدْ يَضُرُّهُ، وَرَأَيْتُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى أَنْ أَسْتَعِينَ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِاسْتِعْدَادِ فِطْرِي بِوُجْدِ قِطْعَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَطْفَالِ عَلَى السَّوَاءِ ذَلِكَ أَنَّ «إِمِيلَ» لَمَّا يَحْصُلُ فِي ذَهْنِهِ مِنْ حَوَائِثِ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ إِلَّا صُورَةً مُبْهَمَةً، فَقَرَاهُ بِعَيْبَرٍ مَا يَتَعَاضَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَا يُوَافِقُ فِي رَغْبَتِهِ ذَا قُوَّةٍ مُتَعَرِّدَةٍ وَإِرَادَةٍ مُتَصَرِّفَةٍ. خُذْ لَكَ مَثَلًا وَهُوَ أَنَّ لَهُ كَلْفًا بِأَنَّ يَقْلِبَ مُرَبِّعًا مِنَ الْهُسْتَانِ بِمِقْلَبِ صَغِيرٍ، فَإِذَا بَاسَرَ هَذَا الْعَمَلَ سَلَانِي وَأَصْحَكَنِي مِنْهُ أَنَّ أَرَاهُ يَسْحَقُ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْمَدْرِي رِجْلَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ مُبْدِيًا دَلَالِلَ الْإِنْتِهَاجِ بِالظُّفْرِ كَأَنَّهَا فِي كُلِّ مَدْرَةٍ مِنْهَا عَدُوٌّ لَهُ قَدْ أَرَعَمَهُ

(١) مرى عنى زال عنى . (٢) ازدردت ابتلت . (٣) المدرة القطعة من الطين الخاف .

وَأَنَّهُ ، وَإِذَا اخْتَرَقَ الْأَمْسِجَةَ النَّبَاتِيَّةَ فَأَصَابَهُ قَرَعٌ مِنْهَا فِي وَجْهِهِ تَنَوَّلَهُ يَسِدُهُ
وَجَمَلَ يَهْرَهُ وَيَعَبْتُ بِهِ وَلِسَانُ حَالِهِ يُحَاطِبُهُ مُوَجَّحًا لَهُ بِقَوْلِهِ «عَلَامٌ تُؤْذِنِي أَبَا
الْفَضْنِ الْحَقِيرِ» وَإِنِّي لِإِخْلَاكِهِ يَحْدِلُ الْبَحْرُ إِذَا أَغْرَقَ مَرْكَبُهُ الصَّغِيرَ عَلَى تَحْوِمًا فَعَلَّ بِهِ
كَرَّرَ سِيسَ (٢)

هَذِهِ الشَّكَاةُ الَّتِي فِي الْأَشْيَاءِ — وَإِنَّمَا أُسَمِّيَهَا بِذَلِكَ مُوَافَقَةً لِأَفْكَارِ
الْأَطْفَالِ — تَدْعُو «إِمِيلَ» إِلَى إظهارِ الطَّاعَةِ لِلْكَارِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مِنْ نَوَائِيسِ
الْكُونِ وَسُنَنِهِ أَكْثَرِمًا يَعْلَمُ . فَإِنَّ خُضُوعَ الْعَالَمِ لِلتَّوَامِيسِ وَالسُّنَنِ هُوَ الَّذِي
أَزَمَ الْإِنْسَانَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى رِعَايَةِ أَحْكَامِ التَّجَرِبَةِ وَاقْتِفَاءِ آثَارِ السَّلَفِ ، وَلِذَلِكَ قَدْ
اتَّفَقَتْ مَعَ قَوَائِدِ الْفِطْرَةِ عَلَى طَرِيقَةٍ بِهَا يُعَاقَبُ «إِمِيلُ» كُلَّمَا عَصَى أَوْ أَمَرَى وَأَغْفَلَ
الْأَخَذَ بِنَصَائِحِي بَحِثْ إِنِّي لَا أَتَوَلَّى عِقَابَهُ بِنَفْسِي بَلْ أَكَلُهُ لِلْجَمَادَاتِ الْمُحِيطَةِ
بِهِ ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَتَادُ أَنْ يَتَمَسَّ فِي الطَّاعَةِ جَنَّةً تَقْبِيهِ شَرُّ ضَعْفِهِ وَشَرًّا مَا لِلْفَوَاعِلِ
الْكُونِيَّةِ مِنَ الطُّفْيَانِ وَالْمَوْتِ .

جَرِيتُ مَعَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بَعَيْنًا فِي ضَرْبِ آخَرٍ مِنْ ضُرُوبِ سِرِّيَّتِهِ ، وَإِنِّي
وَإِنْ لَمْ أُصِلْ بِهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ إِلَى التَّجَاحِ الْمَقْصُودِ إِحَالِي عَلَى الطَّرِيقِ الْمَوْصَلَةِ
إِلَيْهِ ، ذَلِكَ أَنِّي رَأَيْتُهُ شَغَفًا بِالْإِنْدِلَاقِ مِنَ الْبَيْتِ ، وَكَثِيرًا مَا أُنْذِرُهُ أَنَّ فِي خُرُوجِهِ

(١) الأسبجة جمع سباج وهو السور — والمخاطب .

(٢) كوريس هو ابن داريوس الأول أحد ملوك الفرس خلف أباه سنة ٤٨٥ ق . م وابن
سنة ٤٧٢ ق . م أراد إتمام فتح البلاد اليونانية التي كان شرع فيه والده فأرسل أسطولاً إليها فاضطرب
البحر وأغرق قنطرة كان قد اتخذها من السفن فأمر بجلبه ثلثمائة جلدة كما يعاقب الأسير العاصي .

(٣) الجعة بالضم الرواية . (٤) اعتلى الشيء خرج من مكانه .

مِنْهُ وَحِيدًا ضَرَرًا عَلَيْهِ فَلَمْ يَحِدْ ذَلِكَ نَفْعًا، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ قَلَّةَ الْإِصْغَاءِ إِلَى نَصَائِحِي فِي هَذَا الْأَمْرِ أَوْعَزْتُ إِلَى قَوِيدُونِ بَأَن يُقَرِّى بِهِ بَعْضُ أَطْفَالِ الْقَرْيَةِ فَكَانُوا كُلُّهُمْ رَأَوْهُ فِي الْخَارِجِ تَظَاهَرُوا لَهُ بِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَهُ وَلِيدًا أَصْلَ بَيْتِهِ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ وَرَدُّوهُ إِلَى قَهْرًا، فَأَدْرَكَ مِنْ ذَلِكَ الْحَيْنِ الْمَوْعِظَةَ الَّتِي أَرَدْتُ أَنْ أُعْطَاهَا لِإِبَاهُ وَهِيَ أَنَّ الْإِنْقِيَادَ وَالطَّاعَةَ أَمَثَلُ مِنَ الْقَسْرِ .

عَلَى أَنِّي رَأَيْتُنِي قَدْ عَرَفْتُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِأَن يَبِيشَ وَحِيدًا وَلَا لِأَن يَقْضَى جَمِيعَ زَمَانِهِ مَعَ الْجُبَارِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ ذَا عَقْلٍ وَكَانَ مَقْصُورًا عَلَى مُحَالَظَتِنَا بِشَيْخٍ قَبْلَ بُلُوغِهِ سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ . وَأَمَّا إِذَا اخْتَلَطَ بِلَدَائِهِ وَعَاشَرَ أَتْرَابَهُ أَشْرَقَ فِي وَجْهِهِ نَوْرُ الْفَرَجِ بِإِتْبَاجِهِمْ ، وَسَرَى إِلَى نَفْسِهِ رُوحُ السُّرُورِ مِنْهُمْ ، وَلِهَذَا رَأَيْتُ مِنْ مَصْلَحَتِهِ أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ رُقَقَاءَ مِنْ أَطْفَالِ الْقَرْيَةِ جَعَلْتُ أَمْرَ اصْطِفَائِهِمْ مُوَكَّلًا إِلَيَّ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ فِيهِمْ أُمِّي سَيْنَةٌ ، وَلَمْ أَلَاقِ فِي هَذَا الْأَمْرِ صُعُوبَةً لِأَنَّ النَّاسَ هُنَا لَا شَيْعًا لَهُمْ طَوْلَ النَّهَارِ بِتَحْصِيلِ رِزْقِهِمْ يَرُونَ فِي تَسْلِيمِ أَطْفَالِهِمْ لِمَنْ يَقُومُ بِشَأْنِهِمْ تَخْفِيفًا مِنْ حِمْلِهِمْ ، فَأَصْبَحَ بَيْنَنَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ شَيْعًا بِمَلْبَأٍ مِنْ مَلَايِجِ الْأَطْفَالِ . أَذْكَرُكَ مِنْ أَحْصَاءِ « إِمِيل » اثْنَيْنِ فَقَطْ وَهُمَا غُلَامٌ اسْمُهُ « وَلِيم » يَكَادُ يُسَاوِيهِ فِي سِنِّهِ ، أَعْنِي أَنَّهُ فِي الْخَامِسَةِ أَوِ السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِهِ ، وَفَتَاةٌ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا عَلَيْهَا تَحْيِيلُ الْحَدِيثِ تُسَمَّى « إِزَابِلَا » وَلَكِنَّ النَّاسَ يَحْتَرِلُونَ هَذَا الْأِسْمَ اخْتِرَالًا لَا شُبْهَةً فِي وَجْهِهِ مَنَابِتَهُ فَيَدْعُونَهَا بِلَا (كَلِمَةُ تِلَابِيَّةٌ مَعْنَاهَا جَمِيلَةٌ) .

(١) لدات : جمع لدة وهو المولود مع غيره في زمن واحد .

(٢) الأُمِّي : جمع أُمُو ، وهي ما يَأْتِي بِهِ ، أَيْ يَتَدَي بِهِ .

أَخَصَّ مَا أَعْطَى بِهِ فِي شَأْنِ أَوْلَئِكَ الْأَطْفَالِ الثَّلَاثَةِ هُوَ إِيجَادُ رَابِطَةٍ اخْتِلَافٍ
وَعِشْرَةٍ بَيْنَهُمْ فَتَرَانِي إِذَا صَرَحْتُ لَهُمْ بِالْإِظْلَاقِ إِلَى السَّرِّهِ أَوْزَعُ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ
أَصْنَافٍ مِنَ الطَّعَامِ ، وَلِكَيْ أُرَاعِيَ فِي هَذَا التَّوْزِيعِ أَنَّ يَكُونَ الْخُبْزُ كُلُّهُ لِوَاحِدٍ
مِنْهُمْ وَالْحَمُّ الْبَارِدُ مِثْلًا لِلثَّانِي وَالْفَاكِهَةُ لِلثَّالِثِ فَإِذَا حَانَ لِمَوْلَايَ الْمُتَبَطِّلِينَ سَاعَةُ
اشْتِهَاءِ الْأَكْلِ — وَقَلَمَا تَتَأَخَّرُ لَانْتَهُم يَأْكُلُونَ أَكْلَ صِغَارِ الدَّثَّابِ — دَعَا مِنْ نَالَ
الْخُبْزَ مِنْهُمْ رَفِيقِيهِ إِلَى مُقَاسَمَتِهِمَا إِيَّاهُ عَلَى شَرْطِ أَنْ يُقَاسِمَهُ أَيْضًا مَا مَعَهُمَا مِنْ
الْحَمِّ وَالْفَاجِ مِثْلًا فَقَبِلُ مِنْهُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ لِأَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَصْلَحَةٌ
فِيهَا ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ يَتَعَلَّمُونَ بِالنَّزِيَةِ الْحَرَى عَلَى سُنَّةِ الْمُعَاوَضَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى
مَا أَرَى حَقِيقَةُ مَعْنَى الْمُسَاوَاةِ .

مِنْ أَصُولِ الرِّذَائِلِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَصْرَفُ فِي اسْتِنْصَالِهَا مِنْ نَفْسٍ « إِمِيل »
جَلَّ اهْتِمَائِي الْأَثَرَةَ فَإِنَّ الْأَطْفَالَ مَجْبُولُونَ عَلَى الْإِسْتِنْتَارِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ
الْفِطْرِيُّ مَبْنِيٌّ فِي الْغَالِبِ عَلَى الشَّرِّهِ وَالْعَرِضِ ، ذَلِكَ مَا أَرَانِي لِأَحْظَنَتُهُ فِيهِمْ وَأَوْدُ
أَنَّ أَكَاْفَهُ وَأَعَالِيَهُ . وَمِمَّا رَأَيْتُهُ أَنَّهُ لَا يَنْجَعُ فِيهِ زُخْرُفُ النُّوْلِ وَبَلَاغَةُ الْمَنْطِقِ ،
وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى — كَمَا رَأَيْتُ فَأَصَبْتُ — أَنَّ أَتَخَصَّصَ لِوَلَدِي مَا أُسَوِّقُهُ لَهُ مِنْ
الْعَبْرِ فِي الْأَعْمَالِ وَلَتَلْكَ مَسَائِلِي عَمَّا قَعَلْتُهُ لِلْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ فَقَوْلُ: إِنِّي انْتَقَيْتُ
مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ فِي بُسْتَانِنَا ثَلَاثًا جَعَلْتُ لِكُلِّ مِنْ غُلَامَانِي وَاحِدَةً مِنْهَا مُدَّةُ
السَّنَةِ وَلِكُونِي أَنَا الَّتِي تَوَلَّيْتُ تَوْزِيعَهَا عَلَيْهِمْ أَعْطَيْتُ « إِمِيل » كَرَزَةً

(٢) مجبولون مطبوعون .

(١) المتبطلين الذين لا عمل لهم .

(٢) الاستنثار : الاختصاص .

«وَلَوْلَيْمَ» خَوْخَةً «وَلَيْلًا» إِبَاصَةً طَعَمَهَا قُوَيْدُونُ وَلَمَّا شَمِرَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا لِتَأْخُرَ
فَصَلَ الصَّبْفُ، وَأَنَا وَالْحَقُّ أَقُولُ فِي شَكِّ مِنْ وَقَرَةٍ أَهْمًا هَذِهِ السَّنَةِ. وَحَلَى كُلِّ
حَالٍ أَرَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْبُسَاتَيْنِ الصَّغَارِ الثَّلَاثَةِ مُهْتَمُونَ بِمِلَاحَظَةِ مَا وَضَعُوا عَلَيْهِ
أَيْدِيَهُمْ، وَقَلَمًا يَقْرَءُونَ عَنْ دُودِ الْغُودِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْحَشَرَاتِ الْمُهْلِكَةِ عَنْهُ. وَلَيْسَ
يَبْعُدُ عَلَى «إِمِيلَ» فِي إِبَانِ الْكَرِّزِ أَنْ يَأْ كُلَّ جَنَى تَجَرَّتِهِ جَمِيعَهُ دُونَ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ
شَيْئًا لِرَفِيقِهِ. إِنْ نَعَلَ ذَلِكَ فَصَبْرًا لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ مُقَابِلَةُ الْجَزَاءِ بِمِثْلِهِ.
ذَلِكَ أَنَّهُ مَتَى أَنْشَأَ الْخَوْخُ وَالْإِبَاصُ يَنْضَجَانِ ذَكَرَ «وَلَيْمَ» وَ«بِلَا» مُعَامَلَةً «إِمِيلَ»
لَهُمَا وَقَابَلَاهُ بِنَظَرِهَا مَا لَمْ يَكُونَا أَكْرَمَ مِنْهُ نَفْسًا وَأَعْنَى كَفَا فَرِضًا مُقَاسَمَتُهُ مَا لَهُمَا
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَيْلِ مَعَ الْأَثَرِ وَفِي كُلِّمَا الْحَالَتَيْنِ عُقُوبَةٌ لَهُ.

مِنَ السَّهْلِ كَثِيرًا عَلَى الْأَطْفَالِ أَنْ يَدْرِكُوا مَعْنَى الْمَلِكِ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ
مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا إِفْتِنَاعُهُمْ بِأَنَّ لِلْغَيْرِ مَلِكًا يَجِبُ احْتِرَامُهُ.

يَسْهَدُ لِذَلِكَ مَا سَاقَصُهُ عَلَيْكَ وَهُوَ أَنَّ مِمَّا يُزْرَعُ فِي الْبَلَدِ الْوَالِدِ وَهُوَ نَبَاتٌ
يَسْمَى الْمَنْطَرُ شَدِيدُ الثَّمَرِ، يُعْرَفُ فِي مَزَارِعِهِ بِعَرِضِ أَوْرَاقِهِ وَعُلُوِّ سَوْقِهِ، يَدْخُلُهُ
أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ لِنُدْرَةِ النِّقَاحِ عِنْدَهُمْ فِي عَمَلِ أَقْرَاصٍ وَمُرَبَّيَاتٍ يُقَالُونَ بِهَا كَثِيرًا
سَوَاءً أَخْطَأُوا فِي هَذِهِ الْمُعَامَلَةِ أَمْ أَصَابُوا، فَتَرَى أَطْفَالَ الْقَرْيَةِ سَبَبَ بَقَاءِ أَذْوَاقِهِمْ
عَلَى حَالَتِهَا الْفَطِيرِيَّةِ كُلِّفِينَ بِأَكْلِ هَذَا النَّبَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَتَحَاجُّونَ فِي تَمَاطِيهِ إِلَى
تَسْوِيَتِهِ بِالنَّارِ وَلَا إِلَى إِدْخَالِهِ فِي الْأَقْرَاصِ بَلْ هُمْ يَأْكُلُونَ سَوْقَهُ الْغَضَّةَ فَجَةً^(٧)

وَيَجِدُونَ لَهَا طَعْمًا مَرًّا، مِنْ أَجْلِ هَذَا حَصَلَ أَنَّ تَلَامِيذِي (لَأَنِّي أَعْتَرِئُهُمْ كَذَلِكَ)
بَيْنَمَا كَانُوا يَتَزَهَّوْنَ وَحَدِّثُهُمْ فِي ضَوَائِحِ بَنَائِسٍ لَمَحُّوْا حَقْلًا مِنْ حُمُولِهِ خَرَّ كَتَمُهُمْ
إِلَيْهِ كَمَا حَرَكْتَ حِمَارَ الْأَسْطُورِ مَدْعُوَةُ الْفُرْصَةِ لَهُمْ إِلَى اغْتِنَائِهَا وَغَضُوضَةِ النَّبَاتِ
وَطَرَاءَتِهِ وَبَعْضُ زَنَافَتِ الشَّيْطَانِ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ تَحْطُوا مَا يُحِيطُ بِالْحَقِيقِ مِنْ
الْحَوَاجِزِ الْوَاهِيَةِ ثُمَّ انْقَضُوا بِقُوَّتِهِمْ عَلَى بَعْضِ أَشْجَارٍ مِنْهُ رَأَوْهَا أَطْرَى مِنْ غَيْرِهَا
فَأَكَلُوا مِنْهَا كِفَايَتَهُمْ وَكِنْ لَمْ يَلْبِثْ وَجَدَانَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا نَاجِيَهُمْ فِيمَا ارْتَكَبُوا،

(١) المراقبي بين الحلو والحامض .

(٢) تشير إلى حكاية الحمار والكلب من أساطير لافوتتين وهما كها منظرية من تخب البيوت اليراقط

عذارنا واسمه فلات	قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجيش	واسم ذا الجيش مرزبان
واتخذ الكلب حين ود	والكلب ذا اسمه أمان
فحصلوا ثابة فخطوا	راحة زانها المكاث
ونام مولد الجميع لما	رأى مروجها الأمان
أما الحمار اعترأ جوع	وحوله الند واللباث
فصار يرعى وما تواني	وأن من حظه الأوان
قال له الكلب يا حبيبي	الخبز في الخرج والدهان
أرقد على الجنب منك حتى	أكل فالجوع لى هوان
فاطرح القول ثم ود	ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم أن أناه ذئب	له اللع الدما لسان
فقال للكلب قم إليه	فأنق منك لا إهان
قال له الكلب كيف هذا	لا فالك الضرب والعلان
أرضني الأكل في نهاري	والجوع لا شك ترجان
ذق غصة الموت وامض عني	فالمرت أولى به الجبان
واغتاله الذئب وهو يجرى	ولم يدافع ولا أمان
وهكذا في الأصول قالوا	كما يدين الفسى يدان

فَقَالَ «إِمِيلُ» وَقَدْ بَدَأَ تَحْمِلُهُ : اَتَحْسَبَانِ اَنْنَا قَدْ اَحْسَنَّا فِيمَا فَعَلْنَا فَاَضْطُرُّ رَفِيقَاهُ
إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِأَنْهُمْ جَمِيعًا قَدْ أَسَاؤُوا .

ثُمَّ اسْتَأْذَنُوا الْكَلَامَ فَقَالَ «وَأَيْمُ» قَوْلَ الْقَدِيرِ الرَّزِينِ . لَقَدْ كَانَ مَا كَانَ
فَلَمْ يَبْقَ فِي قُدْرَتِنَا إِصْلَاحُهُ . فَاجَابَتْهُ «بِلَلَا» — وَهِيَ لِكُونِهَا أَكْبَرَ مِنْهُ سِنًا
أَعْرِفُ بِطَرِيقِ الْمُعَامَلَاتِ مِنْهُمَا — «بَلَى إِنَّ لَنَا سَبِيلًا لِلْخُرُوجِ مِنْ تَبِعَةِ هَذَا
الْخَطِإِ لِأَنَّهُ يَصْغَحُ لَنَا فِي كُلِّ حَالٍ أَنْ نَدْفَعَ عَنْ مَا أَتَيْنَا» فَكَانَ لِمَا قَالَتْهُ لِرَفِيقَيْهَا
لَمَعَةٌ ابْتِهَاجٍ أَشْرَقَ بِهَا ضَمِيرَاهُمَا لِأَنَّهُمَا عَوَّلَا عَلَى إِصْلَاحِ التَّلَفِ وَبِذَلِكَ يُؤْبُونُ إِلَى
بَيْتِهِمْ هَادِي الْبَالِ .

عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَأْشَوْا أَنْ وَقَعُوا فِي حَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ وَائِمٍ وَ «بِلَلَا»
مِنَ التَّقْوَدِ فَلسَ وَاحِدٌ . وَأَمَّا «إِمِيلُ» فَإِنَّهُ كَانَ غَنِيًّا بِوُجُودِ بَنِي (١) عَشِيرَتَيْهِمَا
فِي جَيْبِ صُدْرَتِهِ وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِخْرَاجِهِ لِيَدْفَعَهُ عَنْ يَمَانِهِ أَلْكُوهُ . وَلَمَّا لَمْ يَرَوْا
فِي الْحَقْلِ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامَ مَالِكِهِ فِي قَبْضِ الثَّمَنِ ادْتَمَنَ سَدَاجَتَهُمْ إِلَى أَنْ وَضَعُوا
قِطْعَةَ النَّقْدِ عَلَى وَرْقَةٍ عَرِيضَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الرَّائِدِ وَانْصَرَفُوا .

عَلِمْتُ بِتَفْصِيلِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ مِنْ بَدَايِهَا إِلَى نَهَايِهَا مِنَ الْجَنَازَةِ أَنَّهُمْ لَاقُوا
لَمَّا كُنْتُ لَا أَعْلَمُهُمْ بِالْعِقَابِ عَلَى مَا يَقْتَرِفُونَهُ كَانُوا يَحْسِبُونَنِي كَأَحَدِ مُعَلِّمِي الْإِعْتِرَافِ
فَيَقْرُونَ لِي بِمَا يَقْتَرِفُونَهُ مِنَ الذُّنُوبِ طَبِيعَةً بِهِ أَنْفُسُهُمْ ، وَلَمَّا خِفْتُ أَنْ يَكُونَ
مَا تَرَكُهُ الْأَطْفَالُ مِنَ الثَّمَنِ غَيْرَ كَافٍ فِي تَعْوِيضِ مَا أَتَدْلِفُوهُ تَرَاصَيْتُ مَعَ الْمَالِكِ عَلَى

(١) البني عملة انجبارية هي جزء من اثني عشر جزءا من الثلث الذي هو جزء من عشرين جزءا من الجنيه
الانجباري وقيمه بالعملة المصرية أربعة مليات .

فِيَمَتِهِ وَدَفَعْتُهَا لَهُ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ كَثِيرَةً ، وَبِذَلِكَ حَسَمْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِنَفَقَاتٍ قَلِيلَةٍ وَكُنْتُ أُنْذِلُ مَا يُطْلَبُ مِنِّي فِي مُقَابَلَةٍ مَا أَشْرَقَ فِي بَصَائِرِ أَوْلَيْكَ النَّهَائِينَ الصَّغَارِ مِنْ بَرِيقِ الْعَدْلِ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لَهُ . وَلَوْ كَانَ « إِمِيلُ » هُوَ الَّذِي صَدَرَتْ مِنْهُ فِكْرَةٌ وَدَفِيعَةٌ مَا سَلَبَ لَكَ أَنْ تُرَوِّدِي بِذَلِكَ أَعْظَمَ ، — كَمَا لَا أَخْفِي عَنْكَ — وَفَرِحِي بِهِ أَكْبَرَ ، عَلَى أَنَّ لَهُ فَضْلًا بِبَدْلِ مَا كَانَ مَعَهُ عَلَى قَلْتِهِ .

كَيْفَ يَكُونُ تَفْهِيمُ الْأَطْفَالِ أَنَّ كُلَّ مَا يَنْبُتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَيْسَ مُبَاحًا لِلْحَمِيعِ النَّاسِ ؟

أَرَى أَنَّ مِنْ أَحْسَنِ مَدَارِسِ الْأَخْلَاقِ لِلصَّغَارِ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْنِ « إِمِيلِ » الْمَدْرَسَةَ الْخَلْقِيَّةَ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ فِيهَا مِنْ تَطَرُّهِ إِلَى مَا يَنْهَكُ فِيهِ أَهْلُ الْقَرْيِ مِنَ الْأَشْغَالِ النَّافِئَةِ أَكْثَرِيًّا يَتَعَلَّمُهُ بِجَمِيعِ الْبَرَاهِينِ الْمُمَكِّنَةِ ، لِأَنَّهُ يَرَى فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنَّ الْقَمَحَ لَا يَنْبُتُ إِلَّا إِذَا بَذَرْتَ النَّاسُ حُبُّوبَهُ ، وَأَنَّ أَجُودَ أَرْضٍ لَا تَصْلُحُ لِلزَّرَاعَةِ إِلَّا إِذَا قُلِبَتْ وَحَرِثَتْ .

ثُمَّ إِنَّ الْحَيَوَانَاتِ أَيْضًا تُعَلِّمُهُ اخْتِصَاصَ كُلِّ مَنَّا بِمَا يَمْلِكُ . أَذْكَرُ مِنْ ذَلِكَ مَثَلًا فَأَقُولُ : يُوجَدُ فِي ضَوَاغِي بَنَزَاسٍ عَلَى شَاطِئِ جَدُولٍ يَجْرِي بَعْضُ أَمْبَالٍ ثُمَّ يَنْصَبُ فِي الْبَحْرِ لَفِيفٌ مِنَ الْأَنْجَبَارِ يَحُومُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ طَائِرٌ يَقِلُّ وَجُودُهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِنْجِلِيزِ بِمَلِكِ جَوَارِحِ الطَّيْرِ : وَعِنْدَ الْفَرَنْسِيِّينَ بِالْخَطَّافِ الصَّيَّادِ (لَعَلَّهُ الَّذِي يُسَمَّى بِالْعَرَبِيَّةِ الرَّجَجِ) .

لَقَدْ هَذَا الطَّائِرُ الْجَمِيلُ أَنْظَرَ أَوْلَادَنَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَهَاءُ ثَوْنِهِ، وَلَكِنِّي نَبَهُهُمْ
إِلَى أَنَّ شَهْرَهُ بِالْمَهَارَةِ فِي كَسْبِ قُوْتِهِ، لَيْسَتْ بِأَقْلَ مِنْ شَهْرِهِ بِجَالٍ مِرْبَالِهِ ^(١)،
ذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الْمَسْكِينَ يَكُدُّ فِي كَسْبِهِ وَيَنْصَبُ ^(٢) فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ سَاعَاتٍ كَامِلَةً فِي مَكَانِهِ ^(٣)
أَيَّ وَرَاءَ غُصْنٍ مِنَ الْأَغْصَانِ يَحْجِبُهُ عَنِ الْأَعْيُنِ وَلَا يَسْتَرِضُّ بَصَرَهُ حَيْثُ يَرِاقِبُ —
كَمَا تَعْلَمُ — يَمْنِيهِ الْيَقْطَاوِينَ اللَّتَيْنِ لَا يَقُوْتُهُمَا فَائِتُ مُرُورِ السَّمَكِ فِي الْمَاءِ، فَإِذَا
سَنَحَتْ لَهُ وَاحِدَةً مِنْهَا انْقَضَتْ عَلَيْهَا انْقِصَاصُ السَّهْمِ وَاصْطِلَادُهَا ثُمَّ ارْتَفَعَ بِهَا مُعَلَّقَةً
فِي مِثْقَالِهِ الْقَوِيُّ إِلَى حِمْلِهِ . وَبَعْدَ أَنْ يَمْزِقَهَا كُلُّ مُزْقٍ وَيَتَقِمَّهَا يَعُودُ إِلَى مَا كَانَ
فِيهِ مِنَ التَّرْقُبِ الشَّاقِّ لِغَلْمِهِ أَنَّ الْخُطُوطَ نَادِرَةٌ، وَلِأَنَّ شَهْوَةَ الطَّعَامِ حَاكِيَةٌ عَلَيْهِ .
فِي ذَاتِ يَوْمٍ شَهِدَ الْأَطْفَالُ قِتَالًا عَجِيبًا وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَارِحٍ آخِرَ أَرَادَ أَنْ
يَحْتَسِبَ ثَمَرَةَ صَيْدِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ « إِمِيلُ » أَنْ يَفْهَمَ أَنَّ هَذَا الطَّائِرَ الثَّانِي هُوَ السَّارِقُ
لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْلُبَ خَصْمَهُ مَا كَسَبَهُ بِجِدِّهِ وَسَعْيِهِ .

مِنَ الْعَوَاطِفِ الَّتِي أُرِيدُ أَيْضًا أَنْ أَغْرِمَهَا فِي نَفْسٍ وَلَدَنَا أَحْتِرَامُ مَا يُصِيبُ
النَّاسَ مِنَ الْعَاهَاتِ . وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ لِقَاءَ الْمَوَاعِظِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِمَّا يَضِيعُ بِهِ
الزَّمَنُ عَبَثًا، وَلَا حَظُّهُ أَيْضًا أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ يُخْطِئُونَ بِتَسْلِيمِهِمْ
عُيُوبَ الْخُلُقِ وَضُرُوبَ التَّشْوِهِ الْفُطْرِيِّ لِأَوْلَادِهِمْ فِي صُورَةِ عُقُوبَاتِ إِلَهِيَّةٍ،
وَمِنَ الْأَمْثَالِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قَتْلَ تَسْكُنِ النَّزْلِ الَّذِي آتَا فِيهِ شَبْتُ عَلَى هَذِهِ الْأَوْهَامِ
الشَّيْعَةِ فَكَانَتْ تَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا رَاسِخًا فِي عَجُوزٍ مِنْ جِيرَانِنَا شَوْهَاءَ قَوْسَاءَ أَنَّ الشَّيْطَانَ

(١) مِرْبَالُهُ : لباسه والمراد به ريشه . (٢) ينصب : يجتهد . (٣) يحتمل : (٢)

يطلب بالأرض . (٤) الاختياس : الخلف . (٥) شَوْهَاءَ : عابسة قبيحة الوجه .

(٦) قَوْسَاءَ : متحبة الظهر .

يَسْكُنُ حَدَبَهَا . فَالَّذِي أُريدُ إِفْتِصَاعَ « إِمِيل » بِهِ هُوَ عَكْسُ ذَلِكَ بِالْمَرَّةِ . أُريدُ أَنَّ أَفْهِمَهُ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ فِي تَنْبِيهِ عَاطِفَةِ الشَّفَقَةِ فِيهِ أَنَّ مَنْ مَلَبَّسَهُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ مُحَاسِنِ الْخَلْقَةِ عَوَّضَهُمْ مِنْهَا مَوَاقِبَ لَمْ تَقَسَمْ لِغَيْرِهِمْ . عَلِمْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ قَرْيَةِ مَرَاذِيُونَ غَلَامٌ أَكْمَهُ يَعْيشُ مِنْ ثَمَرَةِ كَدِّ وَالِدَيْهِ الَّذِينَ هُمُ مِنْ صُلَحَاءِ الْفَلَاحِينَ . فَرَأَيْتُ فِيهِ فُرْصَةً حَسَنَةً لِتَجْرِبَةِ الْفِكْرِ الَّذِي تَصَوَّرْتُهُ ، وَطَلَبْتُ مِنْ تَلَامِيذِي الثَّلَاثَةِ أَنْ يَقْبَلُوهُ رَفِيقًا لَهُمْ فَرَضُوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَتَى كَانَتْ الْمَقْصُودُ لِلْأَطْفَالِ السَّلِّ وَالْإِنْتِرَاحِ فَلَا يُعْتَبَرُ عَدَدُهُمْ كَثِيرًا بَالِغًا مَا بَلَغَ . وَقَدْ يَكُونُ لِرِضَائِهِمْ بِصَحْبَتِهِ سَبَبٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكْرَهُ مُطْلَقًا أَنْ يَكُونَ لَهُ رَفِيقٌ يُظْهِرُ عُلُوَّ دَرَجَتِهِ عَلَيْهِ لِعِلَّةٍ فِيهِ كَكُونِهِ مَعْرُومًا مِنْ بَصَرٍ يُضِيءُ لَهُ سَبِيلُهُ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الرَّفِيقُ فِي الْحَقِيقَةِ أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرَ سِنًا ، فَإِنَّا كَثِيرًا مَا تَسُوبُ حُنُونًا شَيْءًا مِنَ الْكِبَرِ وَالصَّلَفِ ، وَالْأَطْفَالُ مِثْلُنَا فِي ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِهِ عَلَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِي إِلَى اسْتِقْصَاءِ أَسْبَابِ أَعْمَالِهِمْ .

يَتَسَلَّى عِرْمَةُ الْأَطْفَالِ هُنَا فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ بِاصْطِيَادِ طَائِرٍ مِنَ الطُّيُورِ الْخَاصَّةِ يُكُونُ نَوَايَ وَهُوَ الْغُرَابُ الْأَعْمَى وَلِيَكُونَ هَذَا الطَّائِرُ تَقَرُّرًا فِي حَالَتِهِ الْفِطْرِيَّةِ تَرَاهُ لَا يَسْكُنُ غَالِبًا إِلَّا الْإِمَامَا كَنِ الْمَهْجُورَةِ وَلِعَالِمِهِ بِسِدَّةِ رَغْبَةِ النَّاسِ فِيهِ لِيُنْذِرْتَهُ يَدْعُوهُ إِدْرَاكُهُ إِلَى أَنْ يَتَّقِذَ وَكَتَنَهُ فِي وَسْطِ مَا لَا يَكَادُ يَنَالُ مِنَ الصَّخُورِ ، وَلَكِنَّ

(١) حديتها : خروج ظهرها ودخول صدرها وطلتها . (٢) الأكمة الذي يولد أعمى .

(٣) المرة جمع هارم وهو التزق المرح . (٤) الغراب الأعصم هو الأحمر الرجلين والمقار الذي

في جناحه ريشة بيضاء . (٥) الوكن بالفتح حش الطائر في جبل أو جدار أو مقرة في غير عش .

الصَّغَارَ الْبَحَّازِينَ الْمُتَّقِينَ لَا يُفِلْتُ شَيْءٌ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَبَعْضُهُمْ مَذْذُوعٌ فِي بَحْثِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ حُبِّ الاسْتِطْلَاحِ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْرُكُهُ إِلَى ذَلِكَ طَمَعُهُ فِي الرِّيحِ لِأَنَّ هَذَا الْقُرَابَ غَالِي الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ وَجُودِهِ فِي صَوَاحِي بَتْرَاسٍ بِالشَّعَافِ الْوَعْرَةِ الْمُتَشِيرَةِ حَوْلَ خَلِيجِ الْجَبَلِ حَيْثُ يَنْصَحُ فِي مَخْضُورِ الصَّوَانِ الْمُتَصَدِّعَةِ الْمُثْقَلَةِ بِسَبَبِ مَا انْتَابَهَا فِي غَايِرِ الْأَزْمَانِ مِنَ الرَّجَفَاتِ وَالزَّلَازِلِ . وَيُوجَدُ بِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الْمُنْزِلُ الْوَعْرِي الْقَرِيءُ لِلصَّيَّادِينَ تُدْعَى (مَوْسُ هُول) وَمَعْنَاهَا بَحْرُ الْفَارِ وَأَمَّا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَعَلُّقِهَا عَلَى السَّاحِلِ كَانَهَا بِحُجْرٍ فَارٍ فِي جِدَارٍ .

أَنَا لَا أَسْتَحْسِنُ بِحَالِ صَيْدِ هَذَا الطَّائِرِ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَلَكِنِّي رَبَّمَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ فِي التَّعَجُّيلِ بِإِظْهَارِ مَذْهَبِي فِي ذَلِكَ تِلْكَ الْمِيْذَى نُحُوجًا عَنْ مُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَالْحَزْمِ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ لَهُمْ أَسَى فِي أَطْفَالِ الْقَرْيَةِ يُحَرِّكُهُمْ إِلَى هَذَا الْفِعْلِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ أَمْتَعُهُمْ مِنَ الذَّهَابِ لِلصَّيْدِ . نَاطَلَقُوا فِي بُكْرَةِ ذَاتِ يَوْمٍ يَصْحَبُهُمُ الْآكَمُ وَيَتَّبِعُهُمْ قُوَيْدُونٌ مِنْ بَعْدِ عَلَى غَيْرِ مَرَأَى مِنْهُمْ لِحَوْفِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ خَطَرٌ فِي تَسْلُفِهِمُ الصُّخُورَ . وَكَانَ وَلِيٌّ وَبِلَا يَتَنَاقَبَانِ الْبِنَايَةَ إِسْنَانِ الْآكَمِ الْمِسْكِينِ وَيَقُودَانِهِ فَاقْتَضَى نَهَارَهُمْ عَلَى مَا يَرَامُ وَلَمْ يَكُنْ تَزُودُهُمْ عَلَى الْقَنْنِ الصَّوَانِيَةِ إِلَّا سَبَبًا لِازْدِيَادِ شُغُورِهِمْ بِمُلُودَرَجَتِهِمْ عَلَى الْآكَمِ لِأَنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَتْ تَرْلُ قَدَمُهُ فِي أَقْلِ الْعَقَبَاتِ . وَقَدْ أَسْنَتُهُمْ كَثْرَةُ اشْتِنَائِهِمْ أَقْصَاءَ الزَّمَنِ بِحَيْثُ إِنَّهُمْ لَمْ يَفْرُغُوا مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِهِمُ الشُّطْفِ الَّذِي تَنَاوَلُوهُ مَعًا حَتَّى رَأَوْا الشَّمْسَ عَلَى وَشِكِ الْغُرُوبِ

فَدَمَهُمُ اللَّيْلُ وَهُمْ لَا يَزُولُونَ عَلَى مَسَافَةِ بَيْعَةٍ مِنَ الْبَيْتِ وَكَانَ أَصْعَبَ مَا عَلَيْهِمْ
فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَمْيِيزُ طَرِيقِهِمُ الَّذِي صَعِدُوا الْجَبَلَ مِنْهُ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قُودُوا
فِي هَذِهِ الْحَيْرَةِ اشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُ فِي أَنْ يَظْهَرَهُمْ وَيُسَكِّنَ رَوْعَهُمْ وَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ
ذَلِكَ إِلَّا إِخْلَاصُهُ فِي اتِّبَاعِ مَا أَرَشَدَتْهُ إِلَيْهِ فَانْتَظَرَ حَتَّى يَرَى كَيْفَ يَتَخَلَّصُ هَؤُلَاءِ
التَّائِبُونَ مِنْ وَرْطَتِهِمْ .

أَتَدْرِي أَنَّهُ لَمَّا جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ انْعَكَسَ الْأَمْرُ فِيهِمْ كُلُّ الْإِنْكَاسِ فَأَمْسَى
الْأَكْمَهُ بَصِيرًا لِأَنَّهُ بِمَا حَفِظَتْ ذَاكِرَتُهُ وَدَقَّةُ لَمَسِهِ (الَّتِي هِيَ مِنْ خَوَاصِّ الْعُمَى)
مِنْ مَوَاقِعِ الطَّرِيقِ مِيزَ الشَّعَابِ الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي الصَّبَاحِ كُلَّ التَّمْيِيزِ قَبَاتٍ قَائِدًا
بَعْدَ أَنْ كَانَ مَقُودًا . فَلَمَّا رَأَى الْأَطْفَالَ عَلَى هَذِهِ الْجِبَالَةِ يَسْتَرْشِدُونَ فِي الطَّرِيقِ
بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَعْيُنًا كَادُوا يَتَبَرَّوْنَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَرْقَى مِنْهُمْ فَهُمْ
فِي ذَلِكَ كَالْمَتَوَحِّشِينَ يَسْهُلُ انْتِقَالُهُمْ مِنْ شُعُورٍ مُتَجَاوِزٍ حَدَّهُ إِلَى شُعُورٍ آخَرٍ لَيْسَ
أَقْلَ مِنْهُ خُرُوجًا عَنِ الْحَدِّ وَقَدْ يَدُلُّنَا هَذَا عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ
لَدَوَى الْعَاهَاتِ مِنَ النَّاسِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا السَّبَبِ .

عَلَى أَنَّ مِثْلَ (إِمِيلَ) وَرَفِيقِهِ إِلَى الْإِثْنَانِ يَمِثِلُ مَا آتَى بِهِ ذَلِكَ الْأَكْمَهُ قَدْ
بَعَثَ فِيهِمْ رُوحَ الْإِسْتِطْلَاحِ . فَالْمَوْجِبَةُ الَّتِي أَلُوْنِيهَا الْأَعْمَى قَدْ يَصْغُ لِنَيْزِهِ مِنَ
الْبُصْرَاءِ أَنْ يَكْتَسِبَهَا بِالْتَمَرْنِ لِأَنَّكَ تَرَى الْأَطْفَالَ يَدْلُجُونَ حُسْنَهُمُ الْفِطْرَى عَلَى
بَعْضِ طُرُقٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنَّهُ تَنْمَى فِيهِمْ قُوَّةُ السَّمْعِ وَدَقَّةُ اللَّامِسِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا ،

فَنَ ذَا الَّذِي اخْتَرَعَ اللَّعْبَةَ الْمُسَمَّاةَ بِالْمَسَةِ ^(١) ؟ لَا إِخَالَ أَنْ تُخْتَرَعَهَا هُوَ حَاوِي أَوْ غَيْرُهُ
 مِنْ أَعْضَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْعَالِمِيِّ (أَكَادِيمِيِّ) فَإِنَّ هَذِهِ اللَّعْبَةَ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْأَنْجَلِيزُ هُنَا
 ضَرْبَةً مِنَ الْأَعْمَى لَيْسَتْ إِلَّا تَعَامِيًا تُتَعَرَّفُ بِهِ الطُّرُقُ الَّتِي لِلْأَعْمَى فِي مَعْرِفَةِ مَا حَوْلَهُ .
 أَنْسَأُ (إِمِيلُ) وَرَفِيقَاهُ يُبَارِسُونَ فِيهَا يَدْنُهُمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَلْعَابِ وَطُرُقِ التَّدْرِبِ الَّتِي
 تَقْتَضِي الْإِلْتِقَاتِ وَأَعْيُنُهُمْ مَغْطَاةٌ وَمَعَ كَوْنِ الْفَضْلِ كُلِّهِ لِلْإِبْصَارِ بِالْعَيْنَيْنِ كَانَتْ
 أَثَرَتُهُنَّ الَّتِي هَيَّجَهَا فِيهِمْ مَا رَأَوْهُ مِنْ فِعْلِ الْأَكْمَةِ تُوجِي إِلَيْهِمْ أَنَّ النَّظَرَ الدَّقِيقَ هُوَ
 النَّظَرُ بِاللَّمْسِ ، وَأَنَا فِي شَكٍّ مِنْ أَنَّهُمْ يَنَالُونَ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ بِكَسْبِهِمْ مَا لِلْأَعْمَى مِنْ
 النَّظَرِ الطَّبِيعِيِّ وَلَوْ قَضَوْا فِي مُرَاوَلَةِ ذَلِكَ طُولَ حَيَاتِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ فَائِدَتِهِمْ أَنَّ
 يَتَعَلَّمُوا فِي اللَّعِبِ مَا بَيْنَ الْمَشَاعِيرِ مِنَ التَّعَاوُنِ وَقِيَامِ إِحْدَاهَا مَقَامَ الْأُخْرَى ، وَلَسْتُ
 أَنْسَى مَا كُنْتُ تَقُولُهُ لِي كَثِيرًا مِنْ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ طُرُقَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ
 إِلَّا مَنْ تَعَاوَرَهُ الْخَرَسُ وَالْعَمَى ^(٢) .

يَجِبُ عَلَى الْآنَ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَا كُنْتُ بِصَدَدِهِ مِنْ حِكَايَةِ أَصْطِيَادِ الْغُرَابِ
 الْأَعْصَمِ فَاقُولُ : لَمْ يَعْثُرِ الْأَطْفَالُ عَلَى وَكْنِي مَا فِي الصُّحُورِ وَذَلِكَ لِأَنَّ (إِمِيلَ)
 وَوَلِيَّهُ لَا يَزَالَانِ مِنَ الضَّعْفِ بِحَيْثُ إِنَّهُمَا لَا يَسْتَطِيعَانِ الْوُصُولَ إِلَى الشَّعَافِ الْوَعْرَةِ

(١) المسة : لعبة . للاهراب يقال لها الضبطة ، فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على يده
 أوراؤه أو كغضه فهي المسة واذا وقعت على رجليه فهي الأسن — كذا في معاجم اللغة . ويظهر أن
 هذه اللعبة طوعية توجد عند جميع الأمم ولها كيفيات وأسماء كثيرة .

(٢) حواشي : راجع والتين هو عالم فرضي ولد في سنة ١٧٢٥ م . ومات سنة ١٨٢٢ م .
 استبدل بالحروف الخطية الحروف الهجائية لتعلم أحداث السيلت القراءة والتكلم وأسس مدرستهم
 المشهورة في باريس . (٣) تعاووره أصله على التعاقب .

الَّتِي يَلْبِغُ أَيْهَا ذَلِكَ الطَّائِرُ، وَأَمَّا بِلَا فَلَيْكُونَهَا بِنْتُ رَجُلٍ يَدِينُ مَذْهَبَ الْمُتَحِفِّينَ^(١)
تَرَى أَنَّ اسْتِلَابَ أَفْرَآخِ الطَّيْرِ مِنْ أَمْهَارٍ مِنْ فِعْلِ الشَّرِّ . هَذَا الْمَذْهَبُ الدِّينِي - كَمَا
لَا يَحْفَى عَلَيْكَ - يُورِثُ أَصْحَابَهُ مِلًّا عَظِيمًا لِلْأَحْسَانِ إِلَى الْحَيَوَانَاتِ . وَلَيْكُونَ قُوَّيْدُونَ
أَقْلَ تَحَرُّجًا مِنْهَا فِي هَذَا الْأَمْرِ وَأَحْرَصَ دَائِمًا عَلَى فِعْلِ مَا يُرِضِي (إِمِيلَ) كَانَ أَمْرَهُ
مِنْهُمْ أَوْ أَسْعَدَ حَظًّا فِي بَحْثِهِ لِأَنَّهُ يَتْلُكَ الْخَفَّةَ فِي التَّسْلُقِ الَّتِي تُشْلُ الْإِنْسَانَ الْأَجَامِ
فِي تَخْصِيصِهِ كَانَ قَدْ اصْطَادَ مِنْ بَيْنِ الْفَنَنِ الصَّوَانِيَّةِ وَالْأَدْعَالِ زَوْجًا مِنْ هَذَا الطَّائِرِ^(٢)
صَغِيرًا نَبَتَ رِيشُهُ لَكِنْ أَجْبَحَتْهُ لَمَّا تَعْلَلُ لَتَسْتَطِيعَ الطَّيْرَانِ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَطْفَالُ
الزَّيْجِي دَهَشُوا دَهْشَةً عَظِيمَةً لِأَنَّهُمْ مَا كَانَ يَحْطَرُّهُمْ عَلَى بَالٍ أَنَّهُ هَذَا الْقُرْبِ
مِنْهُمْ يَتَدَخَّلُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهُوَ كَاللَّيْلِ فِي السُّكُونِ فَابْتَهَجُوا بِرُؤْيَيْهِ وَزَادَتْهُمْ فَرَحًا
رُؤْيَاهُ الْفَرَحَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا شَبِيهَيْنِ بِكُرْتَيْنِ مِنَ الزَّغَبِ رُكَّبَ فِيهِمَا مِيقَارَانِ أَحْمَرَانِ
حَتَّى إِنَّ « بِلَا » نَفْسَهَا أَبْدَتْ مِنَ الْإِشْرَارِ وَالْإِثْرِيَاكِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ مَا دَلَّ عَلَى
أَنَّهُمَا تَسَيَّتَ مَذْهَبَهَا الْقَدِيمَ .

وَلِيَعْلَمِي مَا يُعَامِلُ بِهِ الْأَطْفَالُ الطُّيُورَ غَادَةً إِذَا وَقَعَتْ فِي أَيْدِيهِمْ بَقِيَتْ وَحْدِي
غَيْرَ مُشَارِكَةٍ لَهُمْ فِي هَذَا الْإِبتِهَاجِ الْعَامِّ الَّذِي وَلَهُ أَصْطِيَادُ هَذَيْنِ الْفَرَحَيْنِ « وَلَكِنْ
مَاذَا كَانَ فِي وُسْعِي أَنْ أَفْعَلَهُ أَوْ أَقُولَهُ ؟ فَلَوْ أَنَّي قُلْتُ لَهُمْ خَلُّوا سَبِيلَ إِسِيرَتِكُمْ

- (١) المرتحفون لقب لجماعة الإخوان في إنجلترا وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس
المولود سنة ١٦٢٤ م . وأوَّل من قهَّم به دو جورج بنيت في دوبي (من أعمال إنجلترا) لأن جورج
فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله : إرتحفوا إذا سمعتم كلام الله : هكذا جاء في جريدة
جورج فوكس قسبه . (٢) تحرجا أى احتياطا من الوقوع في الحرج وهو الاتم والجرمة .
(٣) الفتن جمع فقة وهى الجبل الصغير والرأس . (٤) الاددعال جمع دغل وهو الشجر الكبير المتلف .

لَا تُطْلِقُهُمَا وَلَكِنْ مَعَ الْكَرَاهَةِ وَالْأَسَفِ . مِنْ أَجْلِ هَذَا رَأَيْتُ أَنَّ الْأَمْلَ فِي الرَّجُوعِ
إِلَى طَرِيقَةِ أُخْرَى وَهِيَ أَنِّي وَضَعْتُ الْفَرَحَيْنِ فِي حُجْرَةٍ سَفْلَى مِنْ حُجَرَاتِ الْبَيْتِ
كَمَا نَفَعُ فِيهَا أَدَوَاتِ الْبُسْتَانِ فَأَتَخَذْتُهَا بَيْتًا لِلطُّيُورِ ثُمَّ أَخَذْتُ أُبَيْنَ « لِإِمِيلَ »
أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ تَقْدِيرَهُمَا لِأَنَّهُمَا أَصْبَحَا مُحْرَمِينَ مِنْ أُمِّهِمَا الَّتِي
كَانَتْ تَوْلِيَهُمَا وَبَالِغَتْ لَهُ عَنْ قَصْدٍ فِيمَا يَسْتَلْزِمُهُ ضَعْفُهُمَا الشَّدِيدُ مِنْ ضُرُوبِ
الْعِنَايَةِ لِيَقُومَ ذَلِكَ مَقَامَ مَا كَانَ يَكْنُفُهُمَا مِنْ رِعَايَةِ وَلِيَّهِمَا الطَّبِيعِيِّ ؛ فَكَانَ مِنْ
ذَلِكَ أَنَّ حَسَّ نَفْسَهُ طَرَفًا مِنَ النَّهَارِ فِي بَيْتِ الطُّيُورِ وَلَمْ يَبْتَثْ يَهْدِهِ الطَّرِيقَةُ أَنَّ
عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ أَسِيرًا لِأَسِيرِهِ وَصَارَتْ كَرَاهَتُهُ لِهَذَا الْعَمَلِ أَمْرًا مُحْتَمًّا وَالَّذِي
اسْتَفَادَهُ فِيهِ مِنَ الْعِبَرَةِ هُوَ أَنَّهُ لَا يَتَأَنَّى لِلْإِنْسَانِ حِرْمَانُ غَيْرِهِ مِنْ حُرِّيَّةٍ إِلَّا يَفْقِدُ
بُحْرَهُ مِنْ حُرِّيَّةِ نَفْسِهِ ، وَلِلذَلِكَ لَمْ يَمُضْ بَضْعَةُ أَيَّامٍ حَتَّى جَاءَنِي رَاجِعًا إِطْلَاقَ الْفَرَحَيْنِ
لِيَمُضِيَا فِي سَبِيلِهِمَا .

لَمَّا رَأَيْتُنِي تَجَمَّعْتُ فِي سَوَاقِ الْعِبَرَةِ « لِإِمِيلَ » فِي الْأَنْكَبَةِ صَعَمْتُ عَلَى
الِاسْتِمْرَارِ فِي تَجَارِبِي فَقُلِمْتُ أَنَّ فِي ضَوَائِي قَرِينَتَا رَاعِيًا صَغِيرًا مَشْهُورًا بِالْبَلَهِ
يَسْتَحِرُّ مِنْهُ جَمِيعُ عَرْمَةِ الْأَطْفَالِ فِي الْقَرْيَةِ وَيَهْزَأُونَ بِسَدَاجَتِهِ وَكُنْتُ أَرْعُدُ خَشْيَةً
أَنْ يَقَعَلَ « إِمِيلَ » فَعَلَهُمْ لِأَنَّ الْقُدُوءَ شَدِيدَةَ الْعُدُوى ، وَالضَّحِكَ يُمَّا يَلْبِثِي الرِّثَاءَ
لَهُ وَاحْتِرَامُهُ هُوَ مِنْ ضُرُوبِ الْقَسُوءِ الَّتِي فِي الْأَطْفَالِ ؛ وَلَكِنْ أَعَانَنِي وَفَّقَنِي اللَّهُ الْحَمْدُ
عَلَى مَا كُنْتُ لِسَبِيلِهِ مَا أَعْمَلْتُهُ مِنَ الْفِكْرِ وَمَا سَنَحَ لِي مِنَ الْفُرْصَةِ . ذَلِكَ أَنِّي قَابَلْتُ
هَذَا الرَّاعِيَ الصَّغِيرَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْحُقُولِ فَتَبَيَّنْتُ فِيهِ أَنَّهُ يُمَيِّزُ كُلَّ شَاةٍ مِنْ شِئَانِهِ ^(٢)

عَلَى حِينٍ أَنَّ قِطْعَهُ كُلَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْثِي وَفِي نَفْثِ «إِمِيل» إِلَّا شَاةٌ وَاحِدَةٌ مُكَرَّرَةٌ
مِثْلَ مَرَّةٍ ، فَتِلْكَ إِذْنُ مَرِيَّةٍ لَهُ عَلَيْنَا عَاهَدْتُ نَفْسِي عَهْدًا أَكِيدًا عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِهَا
فِي مِيسَاتِي «لِإِمِيل» فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِتِلْكَ الْمَقَابَلَةِ أَنْ يَصْحَبَنِي إِلَى
الْكُتْبَانِ إِذْ عَلِمْتُ بِوُجُودِ ذَلِكَ الرَّاعِي هُنَاكَ فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ «وَيْكَافَى بِهِ الْمَجْنُونُ!»^(١)
وَهُوَ الْإِنْسُ الَّذِي يُطْلَقُ هُنَا عَلَى السُّخْفَاءِ وَالْبُلْهَةِ ، فَظَاهَرَتْ لَهُ بَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ إِلَى
مَا قَالَ وَوَجَّهَتْ نَظْرَهُ إِلَى خَصِيصَتِهِ فِي تَمْيِيزِ شَيْأِهِ بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ مُجَرَّدَ نَظَرِهِ
إِلَيْهَا عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ مَعَ تَسَاهُلِهَا عَلَيْنَا كَثِيرًا ، فَكَانَ ذَلِكَ بَاعَةً لِدَهْشَتِهِ وَمَوْضُوعَ
مُحَادَثَةٍ مَعَ ذَلِكَ الْأَبْلَهَةِ تَبَيَّنَ لَنَا مِنْهَا أَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ بِأَسَانِ شَيْأِهِ وَطَبَاعِهَا بَلْ يَلْقُلُ
الشَّيْءَ الظَّاهِرَةَ فِيهَا ، فَتَسَنَّى بِذَلِكَ «لِإِمِيل» أَنَّ يَتَنَبَّعَ فِي نَفْسِهِ بِأَنَّ هَذَا الْبَاحِلَ
الْمُسْكِنَ أَعْلَمُ مِنَّا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ بِهِ . وَلَكِنِّي اسْتَفِيدَ مِنْ هَذَا الْإِفْتِنَاعِ
طَلَبْتُ مِنَ الْأَبْلَهَةِ قَبُولَ وَلَدِي فِي مَدْرَسَتِهِ بِضَمَّةٍ أَيَّامٍ يُعَالِمُهُ فِيهَا مَا أُوتِيهِ مِنَ الْعِلْمِ
فَقَبِلَ ذَلِكَ طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ مُنْتَظِرًا مِنْ وَرَائِهِ مُكَافَأَتَهُ ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ أَيْضًا مُعْلَلًا
نَفْسَهُ بِحُسْنِ ظَنِّ النَّاسِ بِصَلَاحِيَّتِهِ لِبَعْضِ الْأُمُورِ وَكَانَ هَذَا بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ لِي
مِنْ حَالِهِ أَوَّلَ إِحْرَامِ نَالِهِ فِي حَيَاتِهِ .

وَأَمَّا «إِمِيلُ» فَإِنَّهُ كَانَ - عَلَى مَا يَظْهَرُ لِي - أَقْلٌ ارْتِيَا حَامِيَةً يَكْتُمُ لِهَذَا الْأَمْرِ
لِأَنَّهُ يُسَبِّبُ حُبَّ لِنَفْسِهِ وَغَيْبَهُ كَانَ يَتَأَلَّمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ تَلْمِيزًا لِشَخْصٍ يَتَبَرَّهُ هُوَ
وَرُقُقَاؤُهُ أَحَقُّ وَيَرَى أَنَّ فِي ذَلِكَ غَضًا مِنْ كَرَامَتِهِ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً أُثَرِي

(١) الكُتْبَانُ الخلال .

(٢) الخَصِيصَةُ : مَا يَخْصُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْفِرَاقِ .

(٣) التَّيَاتُ جَمْعُ شَيْءٍ وَجِي الْعِلَاقَةِ .

لِلْوُصُولِ إِلَى مَقْصِدِي . عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَلَشَدَّ مَا سَيَفْتَحِرُ عَلَى أَقْرَانِهِ
بِبَدْءِهِ مَا تَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنْ قَلَّ وَيُظْهِرُهُمْ مِنَ الشَّمِّ بِهِ مِثْلَ مَا كَانَ لِلْأَحْمَقِ عَلَيْهِ .
اسْتَفْذَتْ لَهُ مِنْ هَذَا التَّعْلِيمِ فَائِدَتَيْنِ : أَوَّلَاهُمَا أَنَّ مَلَكَهَ تَمَيَّزَ أَدَقَّ التَّرْوِيقِ الَّتِي بَيْنَ
أَفْرَادِ الْقَبِيلِ الْوَاحِدِ لَا تُقْصَرُ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا فِي الْغَنَمِ بَلْ مَتَى حَصَلَتْ صَحَّ أَنْ تُتَعَدَّى
إِلَى جَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ عَنْهُ عِلْمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ صُنُوفِ الْمَوْجُودَاتِ . وَالْفَائِدَةُ
الثَّانِيَّةُ وَأَرَاهَا أَنْفَسَ مِنَ الْأُولَى هِيَ أَنَّ يَلْمَ أَتْنَا عَلَى الدَّوَامِ مُحْتَاجُونَ إِلَى التَّعْلِيمِ حَتَّى
مِنْ أَوْفَعِ النَّاسِ عَقْلًا .

يَوْمَهُمْ (إِمْبِلُ) أَنَّهُ لَا يَكُونُ رَجُلًا إِلَّا إِذَا لَعِبَ كَمَا يَلْعَبُ الْجُنْدِيُّ وَلِذَلِكَ
تَرَانِي أُبَيِّحُ لَهُ شَيْئًا مِنْ هَذَا اللَّعِبِ مُوَافَاةً لِمَعْلِهِ وَمُرَاعَاةً لِسِنِّهِ ، وَلَكِنِّي مُنْذُ بَضْعَةِ
أَيَّامٍ رَأَيْتُ مِنْهُ فِي أَثْنَاءِ هَذَا اللَّعِبِ مَا رَأَيْتُ وَأَطَارَ لِي إِذْ رَأَيْتُ فَيَّانَ الْقَرْيَةِ
مُنْقَسِمِينَ إِلَى فِئَتَيْنِ مُتَحَارِبَتَيْنِ وَهُوَ فِي وَسْطِهِمْ يَجْعَلُ لَهُمُ اللَّوَاءَ .

نَعَمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ بِسُيُوفٍ مِنَ الْخَشَبِ وَلَكِنْ لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ الصُّلْبِ
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَيْدِي الصَّغِيرَةُ الْعَامِلَةُ بِهَا ذَاتَ أَعْصَابٍ قَوِيَّةٍ لَتَمَثَّلَ أَمَامِي قَطْعًا
مَشْهُدٌ مِنْ مَشَاهِدِ تِلْكَ الْمَذَابِجِ الْفُظِيحَةِ الَّتِي تَصْبُغُ أَدِيمَ الْأَرْضِ بِالْأَسْفَلِ وَيُسَمِّيَهَا
النَّاسُ حُرُوبًا ، فَقُمْتُ أَنَا وَلِلَّامِ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ قَدَمَاءُ السَّابِقِينَ أَعْنَى أَنَّنَا تَوَسَّطْنَا

(١) ما بلغ هذه الحكمة وأقع هذه الموعظة وما أجدر طلاب العلم وزداد الحقيقة أن يتقنوها
في قلوبهم ويخزونها شئرا لهم طول حياتهم — المترجم . (٢) السابقيون : أمة قديمة كانت
تقطع الجزء المتوسط من إيطاليا أقام قسم منها في رومية مع تاتيروس وابن القسم الآخر في الجبال حتى أحضروا
توريس دانتيروس .

بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَحَارِبِينَ وَحَجَزَنَا كُلًّا مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ . رَأَى «إِمِيلُ» مِثِّي حَتْمًا أَنِّي تَلَمَّتُ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَى نَحْبَ لَوْنُهُ وَالتَّى بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيَّ طَالِبًا مُسَاعِدَتَهُ .

وَأَيُّ فِي الْحَقِيقَةِ لَا أَخْفَى عَلَيْكَ قَدْ انْجَرَحَ قَلْبِي لِهَذَا الْمَنْظَرِ وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ فِي يَوْمٍ مَا سَتَعْلَمُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَنَّ هُنَاكَ حُرُوبًا مَبْنِيَّةً عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأَنَّ مِنْ أَجَلٍ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيُحَمَّدُ عَلَيْهِ الدَّوْدَ عَنْ حَوْزَةِ بِلَادِهِ وَالْمَوْتَ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْ رَأْيِهِ، وَلَكِنَّهُ فِي السَّنِّ الَّتِي هُوَ فِيهَا الْآنَ لَا يَفْهَمُ هَذِهِ الدَّقَائِقَ وَلَا يَرَى فِي الْكِفَاجِ عَلَى أَىِّ حَالٍ إِلَّا مَا يَرَاهُ مُعْظَمُ النَّاسِ مِنْ كَوْنِهِ وَسَبِيلَةَ لِلشَّهْرَةِ وَالْتِمَازِ وَذَرِيعَةً إِلَى ظُلْمِ الْأَكْفَاءِ وَالنُّظَرَاءِ . وَسَوَاءٌ اتَّخَذَ الْأَطْفَالُ لَوَاءَهُمْ مِنَ الْوَرَقِ أَوِ الْخَرَقِ الْبَالِيَةِ تَرَاهُمْ كَالْجُنُودِ مُتَقَادِينَ إِلَى وَجْدَانٍ وَاحِدٍ لَا تَقْوَى فِيهِ وَلَا إِيَّائِهِمْ، قَتَبَهُمْ غَرَارُهُمُ الْوَحْشِيَّةَ عَلَى أَنْ يَرْفَعُوا أَيْدِيًا لَا يَنْقُصُهَا مِنْ أَوَّلِ نَسَاتِهَا إِلَّا قُوَّةُ الْقَتْلِ لِيَضْرِبُوا بِهَا إِخْوَانَهُمْ. إِذَا كَانَتْ الْحُرُوبُ تَنْشِبُ بَيْنَ الْحُكُومَاتِ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ غَيْرِ بَرَّتَهَا قَدْ سَكَنَتْ قَلْبَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَمِدٍ بَعِيدٍ، وَكَيْفَ لَا تَسْكُنُهُ وَنَحْنُ نَرَى الْقَائِمِينَ عَلَى الْأَطْفَالِ بِغُرُفُونَ عِنَايَتِهِمُ الْكُبَرَى فِي إِعْلَاءِ شَأْنِ عَطِشِ الْإِنْسَانِ إِلَى شُرْبِ الدَّمِ الَّذِي يَحْمِلُنَا كَالْوُحُوشِ الضَّوَارِي؟ فَأَيُّ اسْمٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْجَمِيلِ ظَاهِرُهَا كَالشَّرَفِ وَالظَّفَرِ وَحُبِّ الْوَطَنِ لَمْ يُقَرَّنْ بِذَلِكَ الْمَيْلِ الَّذِي يَبْغِيهِ النَّاسُ كَمَا كَانُوا يَعْبدُونَ وَتَنْ مَلُوحٌ؟ وَأَنَا أَسْتَعِيدُ بِاللهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَلْبٌ وَلَدِي مَغْرَسًا لِهَذِهِ الشَّهْوَةِ الَّتِي كُلُّهَا كَذِبٌ وَقَسْوَةٌ .

لَمَّا انْتَهَى أَمْرُ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَخَذْتُ «إِمِيلَ» بِيَدِهِ وَأَطْلَقْنَا فَاتَّقَى أَنَّهُ رَأَيْتُ فِي طَرِيقِي نَازِلَ السَّاعَةِ كَاطِبَيْنِ ضَبَّائِلَيْنِ يَفْتَتِلَانِ وَيَبْعُضُ كُلُّ مَنِمَا الْأَخْرَعَى عَلَى عَظْمَةٍ قَدْ قُرِضَ نَصْفُهَا، فَقُلْتُ لَهُ : تَأَمَّلْ فَلَكَ صُورَةُ جَمِيعِ مَيَادِينِ الْفِتَالِ، وَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ أُدْرِكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ مَعْنَى ذَلِكَ الْكَلَامِ . وَلَكِنْ أَقْلُ مَا فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنَّهُ فِيمَ سَبَبٍ تَأَثَّرَ لِأَنَّهُ وَرَبَّكَ كَانَ بَالِغًا مَنَى مَبْلَغًا عَظِيمًا .^(١)

أَنَا مَعَ يَقِينِي بِمَا فِي تَقْيِيعِ هَذِهِ الْأَوْهَامِ السَّيِّئَةِ فِي نَظَرِ «إِمِيلَ» وَتَشْبِيرِهَا مِنْ الْفَائِدَةِ لَهُ لَا أَرْضَى أَنَّهُ يَكُونُ جَبَانًا وَلَوْ أُعْطِيتُ فِي ذَلِكَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا . تَرَى الْوَالِدِينَ عَلَى الْجُمْلَةِ يُفْرِطُونَ أَثَاءَ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ فِي إِسَاءَةِ التَّصَرُّفِ بِمَا فِيهِمْ مِنْ وَجْدَانِ الْخَوْفِ فَإِنَّهُمْ يَجْتَهُدُونَ فِي إِرْهَابِهِمْ بِكُلِّ مَا فِي وَسْعِهِمْ مِنْ طُرُقِ الْإِرْهَابِ، فَيَخَوِّفُونَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ مَحْبُوبٌ تَقَلُّ صَوَاعِقُ الْإِنْتِقَامِ، وَمِنْ الْأَرْضِ يَقُولُهُمْ «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ» قَدْ لَعَنَهَا وَغَضِبَ عَلَيْهَا بِسَبَبِ خَطِيئَةِ آدَمَ وَمِنْ الْحَيَاةِ بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا سَتُعْرَضُ عَلَى حَاكِمٍ يُحْصِيهَا جَمِيعًا . وَمِنْ الْمَوْتِ بِمَعْلِهِ مَخْوَفًا بِمَخَافٍ لَا تَنْقُضِي إِلَى الْآيِدِ .

هَذِهِ التَّرْبِيَةُ الَّتِي أَسَاسُهَا الْإِرْهَابُ وَالتَّخْوِيفُ إِنَّمَا تَلَامُ الْإِرْقَاءَ تَمَامَ الْمَلَامَةِ، وَلَكِنِّي فِي شَكٍّ مُرِيبٍ مِنْ أَنَّهَا تُنْشِئُ رِجَالًا أَحْرَارًا فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ «لِإِمِيلَ» أَنْ

(١) نَمَا هِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تَعْمَلُ لِطَهْرِ قَلْبِ وَلَدِهَا مِنْ جَرَائِمِ الشَّرِّ وَالْمَدَاوَةِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ

الْحَكِيمَةِ . الْقَرِيبُ (٢) تَقَلُّ تَحْمَلُ .

يَرْتَاعَ وَيَفْزَعُ فَلْيَكُنْ ارْتِيَاعُهُ وَفَزَعُهُ مِنْ وَجْدَانِهِ وَسِرَرِيَّتِهِ^(١)، وَلَكِنِّي خَلَقًا لِأُولَئِكَ
الْمُرَيْنِ أَجْتَهِدْ فِي تَطْلِينِ قَلْبِهِ وَتَسْكِينِ رَوْعِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَخَافِ الْمُبْهَمَةِ الْخَيَالِيَّةِ
الَّتِي كَثِيرًا مَا تَلَازِمُ أَذْهَانَ الْأَطْفَالِ ، وَأَوْدُ لَوْ أَرَاهُ مُجَاعًا جَرِيئًا عَلَى الْأَشْيَاءِ وَدِيمًا
مُخْفُوضَ الْجَنَاحِ لِلنَّاسِ . فَالْوَاجِبُ أَنْ تُكْشِيَ الشَّجَاعَةَ حَلَّةَ الشَّرَفِ الْحَقِيقِيِّ لَا أَنْ
تَتَحَلَّى مِنْهُ بِالْبَهْرَجِ الْكَاذِبِ .

رَأَيْتُ «إِمِيل» كَثِيرَهُ مِنَ النِّعَمَانِ الَّذِينَ فِي سِنِّهِ يَخَافُ مِنَ اللَّيْلِ وَمِنْ كُلِّ
مَا لَيْسَ مَعْرُوفًا لَهُ، فَيُوجِدُ فِي أَقْصَى الْبُسْتَانِ رَوْضَةً مِنْ شَجَرِ الْبُنْدُقِ الْمَتَوَسِّطِ
فِي الْكِبَرِ لَا يَجُوزُ عَلَى دُخُولِهَا وَحَدَهُ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ كَأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يُوْكَلَّ
فَجَاءَهُ، وَعَلَى أَيْ حَالٍ لَيْسَ فِي الْأَمْرِ مَا يَدْعُو إِلَى الْإِفْرَاطِ فِي الْإِسْتِقْرَابِ فَإِنَّ
الْأَطْفَالَ لَمْ يَكُونُوا لِيَسْتَعْمِلُوا بِأَحَدُوهُمْ الْأَصْبِيحَ كُلِّ هَذَا الْإِسْتِغَالِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ مِنْهُمْ

(١) كثير من أحرار الفكر من الغربيين ومن لف لفهم وأخذ إحداهم من الشرقيين يحملون الوجدان
قواما لسيرتهم وميزانا لأعمالهم وهم لا يرجون لله وقارا ولا يقيمون لدينه وزنا وما الوجدان الذي عليه
يعتمدون واليه يلجأون إلا حاسة باطنة كثيرا من الحواس الظاهرة أودعها الله - الذي أعظم كل شيء -
خلقه - قلب الانسان ليجزئها من الشر والطيب من الخبيث وهي عرصة لخلل والعلل كالحواس الظاهرة
سواء بسواء ومثل من يستهيا ويستشدها دون صانعها كمثل من يستشفى بالدواء دون الطيب . فليحذر
المربون من هذه الأوهام وليأدروا من وكل اليهم أمر تربتهم يجرد بلوغهم سن التمييز يترفعهم وبهم يأثروا
صحة البدع وجلال نفسه . المرحوم .

(٢) أسطورة الأصميص إحدى أساطير شارل برولت الكاتب الفرنسي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ المتوفى
سنة ١٧٠٣ م التي وضعها العنار وسماها أساطير الجن وملخصها : أن حطابا ضاقت به الحال لأن زوجها
كانت تنورا أقل حلها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لأكبرهم عشرين ولأصغرهم سبع وولد هذا ضنبلا
كالأصميص ضنبلي «الأصميص» وكان غصه لوالده مهضوما عندما على أنه أذكى إنعوت وأدهاهم . أصابتهم سنة
شبهاء اضطوت الواهين الى التواطؤ ليلا على إضلال الأولاد في غابة ليكلا يشاهد موتهم بنوم فسمعهما =

لَوْ لَمْ يَمَيِّقْ فِيهِمْ أَثَرُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْوَحْشِيِّ الَّذِي كَانَ يَبِيشُ مَحْوَلًا بِجَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ
مِنَ الْأَعْوَالِ، وَرُبَّمَا كَانَ الَّذِي يَمَيِّقُ «إِمِيلَ» مِنَ الدُّخُولِ فِي تِلْكَ الرُّوْضَةِ مَسَاءً هُوَ

== الأصمعي فبات مسهدا وبكر إلى الشاطئ فلا يجيبه صدى يرياء وكان يلقي كل يضع خطوات من طريقهم
إلى الغابة حصة ولما أضل الوالدان الأولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الأصمعي الطريق وسلبوا،
ثم توطأ والدان أخرى ولكن لم يتمكن الأصمعي من الخروج لأخذ الحصى فاذتر الكسرة التي أماسته من
الخبز فقتلها وألقاها في طريقهم إلى الغابة ولكنه لم يند اليها بعد الاضلال لأن الطير أكلها ففسد شجرة
فأنس صميص ناري الظلام فأبه باخوته فاذا هو بيت النول قبلت زوجته ضياقتهم في غرة بناتها لجمال النول
وشم ريحهم وحاول اغتيالهم فاستهلك إلى الصباح وسمع الأصمعي فاستبدل تيجان البنات الذهبية ببقاياهم
فاشبه الأمر على النول فذبح بناته ليللا وتسلل الاخوة لوإذا ثم تبعهم النول بنعله ذات الفراخ السبعة
فاوروا إلى كهف أدركه النول من الفساد فنام فوقه ليسترخ فسرق الأصمعي النمل وعاد بها إلى زوجته قائلا:
إن اللصوص قبضوا عليه وطلبوا منه الفداء فأرسله بالنمل ليحضره جميع ماله فصدقت العلامة وعاد بالمال
إلى إخوته فحملوه إلى البيت وحسنت به حاله . وموظة الكاتب المقصودة هي أن الناس يكرمون الجليل
من ولدهم ويتمنون الدمع مع أنه قد يكون سبب سعادة جميع أهله .

(١) يشير إلى أسطورة أخرى من أساطير ذلك الكاتب ملخصها أن جارية بارعة الجمال ألبستها أمها
قبيصة حمراء زادت بها جمالا فعرفت بها وأرسلتها يوما إلى جدتها — وكانت مريضة — بقرص وصحفة زبدة
فصادفها الثوب في الطريق ولكن صده عن اقتراسها خطاب قاستبان الثوب مقصدها فدلها على طريق بيد
وسلك القريب إلى جدتها فأكلها ونام في فراشها فلما جاءت الجارية دعاها إلى النوم معه مقلدا صوت جدتها
فعلقت ورعتها أعضاء جدتها التقليدية فقالت: أي جلدق ما أطول يدك . قال : ذلك لأحسن معافتك .
فقالت : ما أطول ساقيك ! قال : ذلك لأحسن الدنو . فقالت : ما أعلم صنيك ! قال : لأجيد
النظر . فقالت : ما أطول أنيابك . قال : إنما خلقت كذلك لأكلك . واقترسا .

قصد الكاتب أن الأطفال الحسان ولا سيما البنات مخبطون في الإغواء إلى كل من يكلمهم ولا غرو أن
يأكل الثوب كثيرا منهم ، وما كل ذنب القبيصة الحمراء فان من الناس ذنبا يصيبون ويمتلقون
للغنيات وينازلونهن متبعين خطواتهن في الأزقة والشوارع ولكنهم — على ما يظهرون لمن من اللطف
والحب لب أنظر طين من جميع الذناب لانهم يفترون شرفهن الذي هو أكرم من أجسادهن .

(١) لوإذا : مصدر لا ذأى استر وتحصن وتسلل منه لوإذا هرب مستترا .

إِشْفَاقُهُ مِنْ أَنْ يُفَالِقَهُ فِيهَا ذِئْبُ الْقَيْصِيَةِ الْحَمْرَاءُ وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهُوَ نَفْسُهُ لَا يَعْرِفُ
أَنْ يَبْرَحَ عَمَّا يَرْجُوهُ وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ يَخَافُ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يَسْمَعُ عَنْهُ أَنَّهُ يُجُولُ
فِي الظُّلَامِ .

لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ أَتَارَ الْخَوْفِ أَلْصَقُ بِالنَّفْسِ مِنْ جَمِيعِ الْأَثَارِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ ،
وَأَنَّ التَّظَاهِرَ بِمُقَاوَمَتِهَا لَا يَزِيدُهَا إِلَّا ثَبَاتًا أَقْصَرْتُ عَلَى أَنْ حَسَنْتُ « لِإِمِيلَ » دُخُولَ
الرُّوضَةِ الْمَذْكُورَةِ مُسْتَضْجِبًا الدُّبَّةَ لِأَنَّهَا لَا تَرْهَبُ شَيْئًا وَلَا تَسْتَعِدِّدُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ
لَا قِفَاءً أَثَرِهِ ، فَلَمَّا رَأَى بِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ أَنَّ لَهُ رَفِيقًا لَمْ يَمْتَنِعْ مِنَ الدُّخُولِ وَلَمْ
يَلْبَثْ أَنْ عَرَفَ أَنَّ الَّذِي كَانَ يُشَوِّشُ ذَهْنَهُ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ إِنَّمَا هُوَ وَحْشَةٌ
الْمَكَايِنِ وَخُلُوهُ مِنَ الْإِنْسِيسِ وَلَمْ تَفْتِنْنِي أَنَا أَيْضًا الْإِسْتِفَادَةُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَرَةِ لِأَنِّي قَدْ
فَهِمْتُ بِهَا جَمِيعَ مَا قَدْ زَادَ فِي قَيْسِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُوَّةِ بِسَبَبِ اخْتِلَاطِهِ بِالْحَيَوَانَاتِ
الْمُسْتَأْنِسَةِ فِي أَعْصَرِهِ الْأَوَّلِيِّ .

أَنَا إِلَى الْيَوْمِ مُلْتَزِمَةٌ مَعَ « إِمِيلَ » عَدَمَ الْخَوْضِ فِي الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ مُوَافَاةً
لِرَغْبَتِكَ ، وَلَكِنْ قَدْ حَصَلَتْ بَيْنَنَا وَاقِعَةٌ فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي يَبْغِي أَنْ أَقْصِصَهَا عَلَيْكَ :
ذَلِكَ أَنَّ رَأَيْنَا فِي عَصْرِ ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ ذَلِكَ الْأُسْبُوعِ هَيْدَبًا ^(١) مِنَ السَّحَابِ رَصَاصِيٍّ
الَّذِينَ كَانُوا أَوَّلَ مَا رَأَيْنَاهُ قُرْمًا ثُمَّ تَرَا ثُمَّ حَتَّى صَارَ مُكْفَهْرًا ثُمَّ اخْتَلَطَ فَصَارَ قِطْعَةً وَاحِدَةً
مُظْلِمَةً أَتَاخَتْ عَلَى الْمَاءِ بِكُلِّكَلِهَا ^(٢) وَكُنَّا نَرَى شُعَاعًا أَكْثَرَ مِنْ أَشْعَةِ الشَّمْسِ لَا يَزَالُ

(١) الهيدب : السحاب المتدل يدن من الأرض مثل هذب القطيفة . (٢) القزح : قلع

السحاب الصغيرة المنقرة . (٣) مكفهر : سودا غليظا . (٤) الكلكل : الصدر

والمراد به هنا الغل والكثرة .

يَعْتَرِقُ هَذَا السَّارَ الْحِدَادِيَّ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى غَابَ فِي شَيْءٍ
 دُجْنَةٍ مُخِيفَةٍ مُنْذِرَةٍ بِالْمَطَرِ ثُمَّ انْقَطَعَ هُبُوبُ الرِّيحِ فَلَمْ يَبْدُ مِنْهُ أَقْلٌ نَفْعَةٍ ، وَقَلَمَا
 كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ بَعْدِ تَنَفُّسِ الْخَالِيجِ بِأَمَوَاجِهِ وَهِيَ تَعْلُو وَتَخْفِضُ مُتَافِلَةً كَانَهَا صُورُ
 الْمَكْرُوبِينَ اللَّاهِنِينَ وَنَظَرْنَا إِلَى الشَّاطِئِ فَلَمْ نَرَفِ فِيهِ عُودَ حَشِيشٍ وَاحِدٍ يَتَحَرَّكُ ،
 فَكَانَ الْكَوْنُ فِي سُكُونِهِ هَذَا كَالْمَشْدُوهِ الْغَائِبِ عَنْ رَشَادِهِ يَتَوَقَّعُ حُصُولَ أَمْرٍ
 عَظِيمٍ لَهُ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَقْلٌ مِنْ سَاعَةٍ حَتَّى عَصَفَتِ الْعَاصِفَةُ بَعْدَ كُونِهَا ثُمَّ صَدَعَ
 الْبَرْقُ قُبَّةَ السَّحَابِ الْمُتَرَاكِبِ صَدْعًا مُتَمَعِّجًا وَقَصَفَ الرُّعْدُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ قَصْفًا اهْتَرَّ
 لَهُ جَمِيعُ الْبَيْتِ فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ « إِمِيل » وَاسْرَعَ إِلَى مُحْتِمًا بِمُسْتَنْدٍ إِلَى
 صَدْرِي كَانَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَمْنَهُ مِنْ هَبَاجِ الْفَوَاعِلِ الْكُونِيَّةِ ، ثُمَّ تَعَاقَبَتِ الْبُرُوقُ
 وَالصَّوَاعِقُ وَأَنْشَأَ مَاءُ الْخَالِيجِ يَغْلِي وَهُوَ أَكْثَرُ مُزِيدٍ كَالسَّكْبِ (الْبَرْزِ) صِهْرٍ
 فِي مِرْجَلٍ ثُمَّ أَخَذَتِ الرِّيحُ بَعْدَ ارْتِفَاعِهَا فَجَاءَتْ تَبَدُّدُ سَيُولِ الْمَطَرِ مِنْ مَجْرَةٍ ، وَكُنَّا نَسْمَعُ
 هَزِيمَ الرُّعْدِ فِي السَّحَابِ مِنْ بَعِيدٍ وَرَى وَمِضًا بِخَائِبًا مُتَنَابِعًا ، ثُمَّ تَبَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ
 الْهَدْوُ وَالسُّكُونُ .

وَلَمَّا كَانَ « إِمِيل » أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مَسْأَلَةً سَأَلَنِي وَهُوَ مُتَأَثِّرٌ قَائِلًا :
 « أُمَامُ ! مَا هَذَا الَّذِي نَارَ غَضَبِهِ فَوْقَنَا ؟ » خَرْتُ هَذِهِ الْمَرَّةَ حَيْرَةً شَدِيدَةً فِي إِجَابَتِهِ ،
 لِأَنِّي لَوْ قُلْتُ لَهُ إِنَّ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ لَكُنْتُ قَدْ أَلْقَيْتُ فِي ذَهْنِهِ مَعْنَى تَجَنُّبًا لِذَلِكَ
 الذَّاتِ الْكَامِلِ الْقُدْرَةِ الْبَالِغِ الْحِكْمَةِ الْمُبْرِمِ مِنَ الْإِنْفِعَالِ ، فَاقْتَصَرْتُ عَلَى أَنَّ

فَسَرْتُ لَهُ بِأَحْسَنِ عِبَارَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِفَهْمِهِ سَبَبَ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ الَّتِي أَرَجَعْتُهُ . عَلَى أَنَّ
الْعَلَامَ قَدْ أَدْرَكَ بِحُدُودِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي سَمِعَهَا مِنَ الْعَاصِفَةِ وَمِنْ
هَذَا الْجَوِّ الْمُحْتَلِّ بِالْمُفْرِغَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، بَلْ رُبَّمَا فِهِمْ أَيْضًا مِنْ عَيْنِي اللَّتَيْنِ كَانَتَا
عَلَى رَغْبَى أَكْثَرٍ مِنْ لِسَانِي كَلَامًا — نَعَمْ أَدْرَكَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ — أَنَّ مِنْ وَرَاءَ هَذِهِ
الْآثَارِ شَيْئًا آخَرَ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) لَيْسَ ظَاهِرًا لِلْعَيْنَانِ ، فَيُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَيِّنَانِ ،
وَلَكِنَّهُ مُوجُودٌ يُحْسِ بِهِ الْوُجْدَانُ ، وَيَعْرِفُهُ الْفِكْرُ وَالْحَنَانُ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قُلْتُ أَنَا
و «إِمِيلُ» وَادِّينَا قَرَضَ الْعِبَادَةَ لِذَلِكَ الْمُرِيدِ الَّذِي لَا حَدَّ لِإِرَادَتِهِ الْقَادِرِ الَّذِي
بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنْ كَانَ عَقْلُنَا لَا يَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِ كُنْهِ ذَاتِهِ .

كُلُّ يَوْمٍ تَبْدُو لِي صُعُوبَةُ الْعَمَلِ الَّذِي شَرَعْتُ بِهِ ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ التَّوْبَةِ
بِالْعَمَلِ الَّتِي أَسِيرُ عَلَيْهَا تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي الْمُرَبِّيِّ مَعَارِفُ أَنَا خَلُوٌّ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا
وَلَكِنْ هَذَا لَمْ يَمْتَنِعْنِي مِنْ اعْتِقَادِ أَنَّهَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِتَقْوِيمِ خُلُقِ «إِمِيلُ»
ثُمَّ اْعَلِمُ أَنَّ حَيَاتِي بِدُونِكَ إِنَّمَا هِيَ قَرَاغٌ أَجْتَهِدُ فِي مَلَكَةِ بِالْقِيَامِ بِذَلِكَ الْقَرِضِ الْعَظِيمِ ،
وَلَمْ يَبْقَ لِي مِنْ غَرْقِ سَفِينَةِ آمَالِي إِلَّا وَلَدْنَا الَّذِي أَتَسَبَّبُ بِهِ تَسَبُّبَ الْغَرِيقِ بِلَوْحِ
النَّجَاةِ وَأَحِبُّهُ لِذَاتِهِ وَلَكَ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ هَوَاجِسِ مَشْؤَمَةٍ تَمُرُّ بِخَاطِرِي مِنْ حِينٍ
إِلَى حِينٍ تَتَكَدَّرُ صَفَاءَ مَا فِي قَلْبِي مِنْ نَفِيسِ عَوَاطِفِ الْحُبِّ ، ذَلِكَ أَنِّي أَقُولُ
فِي نَفْسِي : مَا يَكُونُ الْحَالُ إِنْ كَانَ هَذَا الطِّفْلُ بَعْدَ مَا بَدَّلْنَاهُ لَهُ مِنْ صُنُوفِ
النَّيَاةِ يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِ عُهْدٌ وَالِدِهِ وَيُسْكِرُ مَبَادِيَهُ وَيُدْوِسُهَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ وَلَا
يَكْتَرِثُ بِمَا عَرَاهُ مِنَ الْأَلَامِ طَوْلَ حَيَاتِهِ؟ إِذَا لَاقَتْهُ ... كَلَامًا بَلْ أَقْلُ نَفْسِي ،

وَلَكِنْ تَحَقُّقُ هَذِهِ الْمَوَاجِيسِ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ، وَأَرْجُو أَنْ يَصِلَنِي كَلِمَةٌ مِنْكَ تُزِيلُ عَنِّي
هَذِهِ الْمَخَافَ الْمَكْدَرَةَ الَّتِي بَلَغَ تَشْوِيشُهَا لِي إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِي ٥٠ هـ

الرسالة السادسة والعشرون

(مِنْ لَدَارَمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ٣٠ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٨٥٠)

وَجُوبُ اعْتِرَافِ الْمُرَبِّي لِلطِّفْلِ بِمُجْهِلِ مَا يَجْهَلُهُ وَاتِّقَادِ التَّوْبَةِ فِي دَعْوَاهُمْ أَلَمْ
يَكُنْ شَيْءٌ وَاتِّقَادُ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَاسْتِحْسَانُ طَرِيقَةِ زَوْجَتِهِ
فِي التَّرْبِيَةِ وَبَيَانُ بَعْضِ شُرُوطِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي مِنْهَا أَنْ يَنْتَبِهُ
الْمُرَبِّي مَا تَعَلَّمَهُ لِيَعُودَ إِلَى تَعَلُّمِهِ مَعَ الطِّفْلِ

أَنَا أَبْنَاُ الْعِزَّةِ هَيْلَانَةَ أَعْرِفُ قَرِطَ حُبِّكَ لِي وَجَمِيلَ انْعِطَافِكَ نَحْوِي وَأَقْدَرُهُمَا
حَقَّ قَدْرِهِمَا، وَلَكِنِّي لَسْتُ مَعَكَ فَيَا مُخَاضِرَ^(١) قَلْبِكَ مِنَ الْمَخَافِ فِي شَأْنِ مُسْتَقْبَلِ
« إِيْمِيل » فَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ وَالِدُهُ لَا أَرَى لِي حَقًّا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي إِجَابَةِ أَنْ
يَكُونَ تَلْمِيزًا لِي، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَنْجَحَّ بِأَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْحَقِّ الْمُطْلَقِ
وَإِنْ حَسَنْتَ مِنْهُ النَّبْذَ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ يَدُوقُ الْمَكْرُوهَ مِنْ أَجَلِهِ . نَعَمْ إِنَّهُ
لَيُؤْلَعِنِي أَلَمًا شَدِيدًا أَنْ أَرَاهُ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِ مُخَالَفًا لِي فِي آرَائِي غَيْرَ آخِذٍ بِمُتَقَدِّمَاتِي
وَلَكِنِّي أَكُونُ أَنَا الْمُخْطِئُ الْمَلُومُ فِي ذَلِكَ دُونَهُ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ عَدَمُ حَذَرِي
فِي إِصْلَاحِ لُفْكَارِي إِلَى نَفْسِهِ أَوْ حُكْمُهُ عَلَى هَذِهِ الْأَفْكَارِ بِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هُوَ

الحَقِّ فِيهَا، أَعْنَى أَنَّهُا أَغْلَطُ عَقْلٌ صَادِقٌ فِي بَحْثِهِ عَنِ الصَّوَابِ مُخْلِصٌ فِي تَلَمُّسِهِ طَرِيقَ الرُّشْدِ .

عَلَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي الْإِسْتِفَالِ بِالْمُسْتَقْبَلِ فَإِنَّ الَّذِي يَبْعِنُنَا هُوَ الْوَقْتُ الْحَاضِرُ .

تَقُولِينَ : إِنَّ « إِمِيلَ حُبٌّ لِلْإِسْطِلَاعِ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ قَابِضٌ بِكَ يَأْتِي هَذِهِ أَمَارَةٌ حَسَنَةٌ عَلَى تَجَانُّهِ ، وَلَكِنِّي أَنْصَحُ لَكَ إِذَا سَأَلْتَ عَنْ شَيْءٍ تَجْهَلِينَ حَقِيقَتَهُ أَنْ تَعْتَرِ فِي لَهُ بِجَهْلِكَ اعْتِرَافًا خَلَصًا مِنَ الْمُوَارَبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُحَالًا لِمَا عَلَيْهِ مُعْظَمُ الْوَالِدِينَ وَمُعَلِّمِي الْمَدَارِسِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ - كَمَا وَرَدَ فِي الْأَمْثَالِ - « لِكُلِّ فِتْنَةٍ رَقٌّ ^(١) وَلِكُلِّ مَسْأَلَةٍ جَوَابٌ » فَكَانَهُمْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يَكُونُ لَهُمْ هَذَا نَوْعٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى عُقُولِ تَلَامِيذِهِمْ ؛ وَأَنْتِ بِمُحَمَّدِ اللَّهِ فِي غَنَى عَنِ التَّذَرُّعِ بِهَذِهِ الذَّرِيعَةِ الْخَطِيرَةِ لِإثْبَاتِ وَلَا تَيْسَرَ عَلَى « إِمِيلَ » ، أَقُولُ إِنَّهَا خَطِرَةٌ وَلَا أَحُولُ عَنْ وَصْفِهَا بِذَلِكَ : فَإِنَّ فِي تَعْوِيدِ الطِّفْلِ اعْتِقَادَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْنًى مُحَقَّقًا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ مِنْ غَيْرِهِ بِسَهُولَةٍ مُبَادَرَةٍ إِلَى إِتْحَادِ قُوَّةِ الدَّهْنِ وَدَعْوَةٍ لَهَا إِلَى التَّبَايُدِ ، لِأَنَّهُ مَتَى سَبَقَ إِلَيْهِ الْوَهْمُ بِأَنَّهُ يُوْجَدُ فِي النَّاسِ عِلْمٌ كَافِلٌ بِإِزَالَةِ جَمِيعِ الشُّكُوكِ الَّتِي تَعْتَرِضُ الدَّهْنَ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْأَشْيَاءِ لَا يَجِدُ مُوجِبًا لِتَكْلِيفِ الْبَحْثِ وَالْمُلاحَظَةِ ، وَأَمَّا إِذَا اعْتَرَفْتَ لَهُ بِأَنَّكَ لَمْ تُعْنِي النَّظَرَ فِيمَا يَسْأَلُكَ عَنْهُ إِمَعَانًا يَكْفِي لِإِبْدَاءِ رَأْيِكَ فِيهِ فَإِنَّكَ تَكُونِينَ قَدْ عَجَلْتَ بِتَسْلِيمِهِ أَنَّ إِصَابَةَ الْحَقِّ هِيَ ثَمَرَةُ عَمَلِ الْجَدَادِ وَتَتَبَعُهُ بِحَثِّهِ ، وَآيُّ جَوَابٍ يُسَاوِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ ؟

(١) الرق ضم أجزاء المقترب بعضها إلى بعض . (٢) تذرع بالشيء توسل به والذريعة الوسيلة .

(٣) كنى بهذا إرشادا إلى شغل ذهنه ودعوته إلى التفكير فيما يمرض له من المسائل وما يجوئحوه

ويجوز في سبيله قولهم من قال لا أدري فقد اتقى .

تَمْ لِحَذَرِ الْوَالِدُونَ وَالْمُعَلِّمُونَ أَنْ يَكُونَ فِي أَدْعَائِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ نَوْعًا مِنَ الْعِصْمَةِ فِي الْعِلْمِ اسْتِدْبَارًا لِلْغَايَةِ الَّتِي يَسْعَوْنَ إِلَيْهَا . ذَلِكَ أَنَّ النَّاشِئَ إِذَا كَشَفَ لَهُ الْمُسْتَقْبَلُ بَقْعَةً مَا بَقِعَ فِيهِ أُولَئِكَ الْمُسْرِفُونَ لِعَقْلِهِ مِنَ الْأَغْلَاطِ تَزَعُّزَعِ اعْتِقَادُهُ فِيهِمْ مَرَّةً وَاحِدَةً وَزَالَتْ مِنْ نَفْسِهِ الثِّقَةُ الَّتِي أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوهَا حِلًّا لَهَا ، وَلَيْسَ مَا أَخْتَى مَقْبَهُ عَلَى «إِمِيل» مِنْ أَنْوَاعِ الرَّبِّ هُوَ الْحَذَرُ النَّافِعَ الَّذِي يَكُونُ فِيمَنْ تَعَلَّمُوا مِنْ صَدْرِهِمِ الْبَحْثُ فِي الْأُمُورِ وَعَدَمُ التَّسْلِيمِ بِهَا قَبْلَ انْتِصَاحِ وَجْهِ الْحَقِّ فِيهَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي أَخَافُهُ عَلَيْهِ هُوَ مَرَضُ زَوَالِ الْإِعْتِقَادِ .

مِمَّا يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ أَنَّ الصَّبْغَةَ الْإِعْتِقَادِيَّةَ الَّتِي زَارَهَا فِي طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا نَاشِئَةٌ مِنْ جَمِيعِ مَقُومَاتِ أَوْضَاعِنَا الْإِجْتِمَاعِيَّةِ ، فَإِنَّهُ مَتَى اعْتَبَرْنَا الْقَائِمِينَ عَلَى الدِّينِ وَعَلَى السِّيَاسَةِ قَدْ فَكَّرُوا فِي مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ لَزِمَ بِطَرِيقِ الْبَدَاهَةِ أَنْ تَنْزِلَ مِنْ سَمَاءِ عَلَاهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلُومِ مُقَرَّرَةٌ فَيَفْرُضُ عَلَى عُقُولِ الْأَحْدَاثِ قَبُولَهَا بِلاَ نَظَرٍ وَلَا مُنَاقَشَةٍ : فَانْتِ تَجِدِينَ فِي التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ أَسْرَارًا يَتَعَصَّى عَلَى عَقْلِ الْإِنْسَانِ اكْتِنَاهُهَا ، وَأَعْمَالًا وَعَادَاتٍ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ تَفْسِيرُ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَأَحْكَامًا لَا تَقْبَلُ الرَّمْضُ عَلَى حَكِّ النَّظَرِ بَلْ تُقَيَّدُ قُوَّةُ الْإِدْرَاكِ إِلَى الْأَبَدِ ، فَلَا تَجِدُ سَبِيلًا إِلَى الْجَوْلَانِ فِيهَا وَأَمَّا التَّعْلِيمُ السِّيَاسِيُّ فَهِيَ هَاتِ أَنْ يَكُونَ مَا يُقْبَلُ فِيهِ الْأُسْتَاذُ عَلَى تَلَامِيذِهِ

(١) إنما دعا أراسم لوجه هذا الاعتقاد الى التعليم الديني كونه من غلاة أهل الظواهره ولأمثاله بعض العذوق هذا الاعتقاد لما دخل على الأديان من الفساد الذي دعا الى اختلاط الحق بالباطل ، والدين الحق لا يخالف النظر العقلي لأن الاسلام يعلمنا أن أساس الدين العقل وما أخبر به الكتاب الآلهي من أمور الغيب ليس فيه شيء ممنوع في نظر العقل . ومن لم يصدق إلا بما يراه لا يمكنه أن يشك بقول مؤرخ ولا طبيب ولا كيميائي ولا طبعي إذا قالوا أو استنبطوا شيئاً حتى يراه بيده ويستنبطه هو بنفسه وذلك يدعو الى أن يكون كل إنسان أجهل الجاهلين .

أَقْلَ مَا ذَكَرَ إِرَامًا لِأَنَّ الْأُسْتَاذَ لَمَّا كَانَ أَجِيرًا لِلْحُكُومَةِ كَانَ بِالضَّرُورَةِ صَدَى
يُرَدُّ أَصَوَاتُ أَحْكَامِهَا فَبَخَّ بَخْ لِهَذَا النِّظَامِ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مُؤَدِّيًا إِلَى اسْتِعْبَادِ النَّفْسِ^(١)
لَمَّا رَأَيْتُ لِي وَجْهًا فِي اتِّعَادِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُؤَدِّيًا إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَمَّا لَهُ مِنْ
الْأَثَرِ فِي إِمَانَةِ عَزِيمَةِ النَّاسِ يُحْصِرُ فَائِدَةَ التَّعْلِيمِ فِي مُجَرَّدِ تَمَرِينِ الْفَائِكَةِ ، فَوَارَحَمَتَاهُ
لِذَلِكَ الْمَسْكِينِ الَّذِي هُوَ كَالْبَعُوضَةِ حُمِلَتْ مِنْ تَوَارِيخِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَعُلُومِهَا
وَأَقْوَالِ الثَّمَنَاتِ فِيهَا مَا أَبْهَظَهَا فَعَاثَهَا عَنِ الطَّيَرَانِ .

عَلَى أَنَّهُ يَنْدُرُ — وَالْحَقُّ يُقَالُ — أَنْ يَصِلَ أَرْبَابُ الْحَضَرِ وَالتَّضْيِيقِ النَّفْسِيِّ
إِلَى تَمَامِ الْفَوْزِ الَّذِي كَانُوا يُؤْمَلُونَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الزَّمَانِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ
الطِّفْلُ أَوْ مَا يُوجَدُ فِي طَبْعِهِ أَحْيَانًا مِنَ الْمُقَاوِمَةِ وَالْمُعَارَضَةِ أَوْ مَا يَتَلَقَّاهُ مِنْ آرَاءِ
أَهْلِهِ الَّذِينَ يَتَرَبَّى بَيْنَهُمْ يُخَلِّفُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ طُنُوقَ الْقَائِمِينَ عَلَى التَّعْلِيمِ
الرَّسْمِيِّ وَيَأْتِي بِعَكْسٍ مَا كَانَتْ فِي حُسْبَانِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِعْرَافِ بِأَنَّهُ

== وقوله إنه متى اعتبر أن القائمين على الدين قد فكروا في مصلحة الأمة الخ . يدل على اعتقاده أن رجال
الدين هم واضعوا قواعده وأحكامه وفارضوا أعماله وعاداته التي يشكون من تماسي أسرارها على العقل أن
يكنها ومن عدم إمكان تغيير شيء منها ومن تهديدها قوة الإدراك تقيدا لا نجد منه سبيلا للجولان فيأوذاك منه
وهم محض لأن الأديان لو كانت من الأوضاع البشرية لأبلاها من القرون ودثرها كزك الدهور شأن كل
ما هو من عمل ذلك المخلوق الضعيف الفاني الذي لا حول له ولا قوة ولا يملك لنفسه حقا ولا ضرا فبقاؤها
على الأيام وملازماتها لكل جيل من أجيال البشر من أقوى الأدلة على أنها تنزيل من رب العالمين وهداية من
أرحم الراحمين بطلها خلفه سراجا منيرا يتلون به إلى سبيل الحق ويتكون بنوره عن مناهات النفي
والضلال إذا جمع بهم فيها ذلك العقل المبكين الذي يريد له أراهم التسلط على كل شيء حتى على خالقه
وواهبه وما ينزل منه على خلقه من معنى ورحمة ليعود بأفقه من علم يثقل بهما وفتح . المرجع
(١) بخ : اسم قل يقال عند الملح والرضا بالشيء . ويكرر الجافلة وهو مقول هنا القبح .

لَا يَنْجُو مِنْ وَحْدِهِ هَذَا الْقَالِبِ الَّذِي تُصَاغُ فِيهِ الْأَجْيَالُ النَّاشِئَةُ عَلَى الشَّكْلِ الْمَطْلُوبِ إِلَّا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ، وَأَمَّا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ فَإِنَّ مَدَارَ تَعْلِيمِهِ يَكُونُ عَلَى التَّسْلِيمِ وَالْإِعْتِقَادِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حَدٍّ مَا تَلْقَاهُ عَنْ مُعَلِّمِهِ الَّذِي يُعِيدُ عَلَيْهِ مَا أَخَذَهُ عَنْ أَسَاتِذَتِهِ، فَالزُّبْيَةُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ سِلَاحٌ ذُو حَدَيْنِ يَتَسَنَّى بِهِ اسْتِعْبَادُ الْعَقْلِ كَمَا يَتَسَنَّى بِهِ تَحْرِيرُهُ، وَمَرْجِعُ الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ إِلَى الْمُصَادَفَةِ وَالْإِنْفَاقِ، وَإِنِّي لَنْ أَرْضَى أَنْتَ أَكَلُ مُسْتَقْبَلِ «إِمِيل» إِلَى مَدَاحِصُ مُصَادَفَاتٍ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، وَتَعْتَوِرُهَا الْحَرِيَّةُ وَالْإِسْتِرْقَاقُ، وَلَوْ أُوتِيتُ فِي ذَلِكَ أَنْفَسَ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ.

عَلَى أَنِّي أُعَوِّدُ بِأَقْصَى أَجْمَدَ مَا لِأَنَارِ السَّلَفِ مِنَ الْمَزَايَا وَالْفَوَائِدِ، إِلَّا أَنَّ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ الْأَنَارِ كَمَا فِي الْأَخْذِ بِغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ حَدًّا وَسَطًا يَصْعَبُ تَمْيِيزُهُ، فَالطُّفُلُ الَّذِي لَا يَتَلَقَّى شَيْئًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ يَصِيرُ إِمَّا مُتَوَحِّشًا وَإِمَّا أَحَقَّ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي يَتَلَقَّى مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّسْلِيمِ مُرْتَكِّبًا عَلَى نِقْتِهِ بِهِ مُجْتَنِبًا مَشَقَّةَ النَّظَرِ فِيمَا تَلْقَاهُ مِنْهُ يَدْعُو أَنْ مِنْ سَبْقُوهُ قَدْ كَفَّوهُ مَوْنَةَ ذَلِكَ وَكَانُوا أَحَقَّ مِنْهُ نَظَرًا فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ أَبَدًا إِلَّا ضَعِيفَ الْعَقْلِ مُجَبَّلًا يَوْفِقُ نَفْسِهِ عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِ الْإِسْتِعْبَادِ.

ثُمَّ أَعْلَمِي أَنَّ مُعْظَمَ أَغْلَظِنَا وَمُعْتَقِدَاتِنَا الْبَاطِلَةَ مَبْنِيٌّ عَلَى آرَاءٍ يَتَدَاوَلُهَا النَّاسُ وَيُرَوْنَ تَسْلِيمَهَا وَاعْتِبَارَهَا حَقَائِقَ مَعْصُومَةٍ مِنْ تَطَرُّقِ الْبَاطِلِ إِلَيْهَا أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ

(١) مَدَاحِصُ جَمْعُ مَدْحَضَةٍ وَهِيَ الْمَرْزَلَةُ أَوْ مَكَانُ النُّورِ وَالسُّقُوطِ .

بِكثيرٍ من استقصائها واستجلاء الصواب فيها ينور العقل فتل هذه الآراء تسري
إلى نفوسنا من أول نشأتها وينتهي أمرها إلى أن تكون من الإمتراج بها بحيث
يلزم لاستقصائها في المستقبل بذل جهد عظيم في إعمال القوة الحافظة والاستعانة
بشيء من الإقدام والبسالة . نعم إنه من الصعب جدا أن لا يعلق بنفس «إميل»
شيء من تلك الأفكار الفاسدة ، ولكن الذي يهمننا هو أن يكون ما يتصل به منها
أقل ما يمكن وأن يجد في مستقبله من حرية نظره وسيلة لتمييزها وإخلاص منها .
وبجملة القول أن طريقك في تربية «إميل» قد نالت من رضائي
واستحسناني أكل حظ ووقعت من قلبي أجل موقع ، فإن التربية عمل ملاك
بذل النفس وقوامه الحب ، وأنا أعرف من كبار الرجال من دأبهم الإحتراس
والانقباض في معاشره الأخصاء ومخالطة الأصغياء ، فأمثال هؤلاء لا ينبغي أن
تعهد إليهم تربية الأحداث لأنه يشترط فيمن يتولونها أن يكون فيهم من انبساط
النفس ما يأخذ بملوب الناشئين إليهم ، وأن يكونوا من المحدثين فيها المبعودين^(١)
عليها ببعض البواعث الفطرية فربي الطفل ومعلمه الحق في المستكمل لهذه الشروط
إنما هو أمه .

ثم إنني مستحسن كذلك ما رأيته من إدامة الدرس والمطالعة ليتيسر لك
القيام بهذا الفرض الذي قدر لك ، وأكثي أعطك إن تجعل هذه الحقيقة دائما
نصب عينك ألا وهي : ليس أول شرط في التربية أن يكون المربي عالما وإنما
هو أن ينسى جميع ما تعلمه ليعود إلى تعلمه مرة أخرى مع الطفل . ١٠ هـ

(١) المحدثون بصيغة اسم المفعول مع تنديد الدال هم الملهون .

الرسالة السابعة والعشرون

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فى ٢٣ اغسطس سنة - ١٨٥)

بَيَانُ وَجُوبِ التَّدْرِجِ فى تَعْلِيمِ الْمُلُومِ لِلْأَطْفَالِ وَلَقَتِ أَذْهَانِهِمْ
إِلَى مَا حَوْلَهُمْ وَانْتِقَادُ الْكُتُبِ التَّعْلِيمِيَّةِ

أَذْكُرُ أَنَّ رَجُلًا فَاضِلًا مِنْ أَصْدِقَائِي كَانَ قَدْ وَجَدَ فى نَفْسِهِ انْبِعَاطًا إِلَى التَّربِيَةِ
فَأَوْجَبَ عَلَيْهَا الْإِشْتَغَالَ بِهَا، ثُمَّ إِنَّهُ نَدَبَ لِإِدَارَةِ مَدْرَسَةٍ كَانَ غَيْرُهُ أَنْسَاهَا فَالْفَى^(١)
نِظَامَ النَّائِبِ فِيهَا بِالْعَمَلِ مِنَ الشَّدَةِ غَائِبًا، إِذْ رَأَى فِيهَا أَفْرَادًا مِنَ التَّلَامِيذِ يُحْصُونَ^(٢)
بِالْعُقُوبَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ فَيَقْضُونَ سَاعَاتِ الْإِسْتِرَاحَةِ فى فَنَائِهَا كُلَّ يَوْمٍ جِدًّا أَوْ قِيَامًا
فى مَوَاقِفِ الْجُزْءِ، وَلَمْ يَكُنْ يُعَوِّزُهَا شَيْءٌ مِمَّا تَشْرُفُ بِهِ مِنْ طُرُقِ الْعِقَابِ
كَالتَّكْلِيفِ بِمُضَاعَفِ الْعَمَلِ وَالْحَبْسِ وَالْمَنْعِ مِنَ الْخُرُوجِ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْأَصُولِ
الْقَدِيمَةِ الْقَوِيَّةِ ! فَمَا لَيْتَ صَدِيقِي هَذَا أَنْ أَبْطَلَ كُلَّ ذَلِكَ النِّظَامِ التَّادِيْبِيِّ دَفْعَةً
وَاحِدَةً لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا يُرْهِبُ إِلَّا الْجُبْنَاءَ وَلَا يَنْشَأُ عَنْهُ أَثَرٌ لِلتَّهْذِيبِ فى نُفُوسِ الْمُتَعَلِّمِينَ،
وَقَالَ لِلتَّلَامِيذِ : أَنَا أَعْلَمُ مِنْ سَيِّاقِبِكُمْ بَعْدَ الْآنِ إِنْ أَنْتُمْ أَسَأْتُمْ . ذَلِكَ هُوَ وَجَدَانُكُمْ
الَّذِى لَا يَنْجُو مِنْ سَوَاطِ عَذَابِهِ مَنْ أَعْطَى مِنْ ضَرْبِ الْعَصَا .

كَانَ شِعَارُ هَذَا الْمُرَبِّىِّ فى تَعْلِيمِهِ . « لَا قَلَنْسُوءَ لِعَالِمٍ وَلَا لِحَسَّارٍ » .^(٣)

وَكَانَ التَّلَامِيذُ قَبْلَ وَجُودِهِ فى الْمَدْرَسَةِ لَا يَتَسَمَّى لَهُمْ أَنْ يَخْطُوا خُطْوَةً
فى دَهَالِيزِهَا الطَّوِيلَةِ وَفِى عَرَصَاتِهَا وَقَاعَاتِهَا الْفَسِيحَةِ إِلَّا وَهُمْ مُصْطَفُونَ مَتْنًى مَتْنًى

(١) الذى وجد . (٢) جثيا جالسين على ركبهم . (٣) القلنسوة فى نظام التعليم

الأوربى شارة العلماء، ينالها من أتم الدراسة وأقوى الامتحان فيها — المترجم .

تَحْتَ رِيعَةٍ كَبِيرٍ لَمْ يُسَمُّوهُ ضَابطَ الرِّجَالِ تَهَكُّمًا بِهِ وَيُكْرَهُونَهُ مِنْ صَمِيمٍ أَفْنَدْتِهِمْ
وَلَا يَقْتَرُونَ عَنْ مُمَاحَكَتِهِ وَأَتْلَانِهِ يَضْرُوبُ الْحَيْلَ وَالْخَبِيثَ، نَجَمَهُمُ الْمَعْلَمُ الْحَدِيدُ
لِيَلْفِي عَلَيْهِمْ نَبَأٌ عَظِيمًا فَقَالَ لَهُمْ : إَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مِنَ الْقِدِّ أَحْرَارٌ وَلَا سَيْطَرَةَ لِأَحَدٍ عَلَيْكُمْ
وَإِنَّهُ لَنْ يَرَاكُمْ فِي سَيْرِكُمْ وَمِيعَتِكُمْ سِوَى عَيْنِ الْوَاجِبِ الَّذِي تَسْمَعُونَ بِهِ . وَلَا أَرَانِي
بَعْدَ هَذَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ مُجَرَّدٌ سَمَاعِهِ هَذَا التَّنْبِيْهُ قَدْ اعْتَبَرَ طَاعَةَ
النِّظَامِ مِنْ أَمْسِ الْأُمُورِ بِهِ وَالزَّمَانِ لَهُ .

وَبَيْنَمَا كَانَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ مُجْتَازًا حَاضِرَةَ الْمَدْرَسَةِ بَصَرَ بِتَلْمِذٍ تَسْلُقُ عَرِيشَةَ
كَرَمٍ مُنْتَدٍ عَلَى جِدَارٍ عَتِيقٍ يَتَدَفَّقُ مِنْ فَوْقِهِ ضَوْءُ الشَّمْسِ وَأَنْثَى يَأْكُلُ مِنْ قُطُوفِهِ
أَكْلًا لَمَّا، فَظَاهَرَ لَهُ بِالْفَقْلَةِ عَنْ فِعْلِهِ وَرَجَاهُ أَنْ يَلْتَمِسَ لَهُ أَمِينَ الْمَدْرَسَةِ، فَأَنَاهُ
مِنْ قُوْرِهِ يَتَّبِعُهُ الْفَلَامُ النَّهَابُ وَالرِّبْسَةُ تَدْبُ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ الْمُدِيرُ لِلْأَمِينِ، كَيْفَ
يَصِحُّ أَيُّهَا السَّيِّدُ أَنْ لَا يُعْطَى هَذَا الْفَلَامُ مِنَ الطَّعَامِ كِفَايَتُهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكْدُ يَخْرُجُ مِنْ
قَاعَةِ الْمَائِدَةِ حَتَّى جَاءَ إِلَى الْكَرَمِ وَطَفِقَ يَخْنِي قُطُوفَهُ خِلْسَةً، فَأَرْجُو أَنْ تَأْخُذَهُ الْآنَ
بِنَفْسِكَ وَتَرُدَّهُ إِلَى الْمَطْعَمِ لِأَيُّ كُلِّ مَا يَكْفِيهِ .

كَانَ هَذَا الْمُعْرَبِيُّ أَقْلَ النَّاسِ شَبَهًا بِمُدِيرِ الْمَدَارِسِ وَكَانَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ
مُحْبُوبًا لِلتَّلَامِيذِ، فَإِنِّي كَثِيرًا مَا رَأَيْتُ لِحَالِ مُعَلِّمِ الْأَطْفَالِ الَّذِي هُوَ شَهِيدُ الشُّهَدَاءِ
لِمَقْتِهِمْ إِيَّاهُ مَعَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ لَسْتُ أَدْرِي هَلْ كُنْتُ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ
أَوْ مُصِيبًا، فَلَا إِحَالَ الْطِفْلَ كُفُورًا بِنِعْمَةِ مُعَلِّمِهِ وَلَكِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يُعْطِمُوهُ
مِنْ بَاكُورَةِ الْعِلْمِ صَابًا وَطَقْمًا، كَيْفَ لَا وَفِي التَّعْلُمِ سَعَادَةُ الْمُتَعَلِّمِينَ . وَفِي التَّعْمِيرِ

(١) لما: أي شديدا . (٢) الصاب: صلابة شجر مرمر . (٣) الطقم: الحظال إذا اشتدت حرارة .

والتدريب حياة لكل قوة من قوى الإنسان، ولا شيء إلا وهو يطلب الوجود والظهور والنمو . وهكذا شأن التلميذ، وإنما القهر هو الذي يحيل فرحه إلى ترج ومرح إلى حُودٍ ، فإنه ينجى إلى المدرسة والحياة فيه دوى كدوى النحل فيجد مديرها ماس الوجه متمسكا بالكتب وإثقاها ثقة الظالم الناسم، فيأله من تشيط للأحداث وترغيب لهم في التعلم .

الكتاب الذي ينبغي أن يتعلم منه الحدث هو صحيفه الموجودات والمدارس خلونها .

إليك إذا دخلت غرفة من غرف المدارس لا تجد فيها سوى مكاتب مطّخة بالمدايد، ومقاعد من الخشب غير مستوية القوائم، وجدرا نا أربعة عارية من الزينة وسقفا مرفوعا على خشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج المناكب التي هي عوامل الضجر المزعجة ، فإذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقه السراج مفردة في الجو كأنها تسخر من التلاميذ ، فإن الكون الخارجى كله أصوات وأضواء وأشكال والوان تدعو الطفل إلى التعلم بواسطة مشاعره وأما هذه الغرفة فلا شيء فيها يلفت نظره، فقلما يوجد فيها صورة شيء من خوارت تقويم البلدان ، وما عسى أن يوجد من الصور قديم قبيح ومن الخوارت فهو يسبه خط قدماء المصريين في غموضه وتجرده من الروق وقصوره عن تمام البيان ، فاقسم بالله على المتولين أمر التربية أن يدخلوا في هذه المقار التي أعدوها للأحداث قصّة من نفحات العالم الخارجى وشعاعا من أشعة الحياة .

كُلُّ أُمَّةٍ تُنْفَى بِالتَّوْبَةِ حَقَّ الْعِنَايَةِ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَحُلُوْا مَدْرَسَةً مِنْ مَدَارِسِهَا مِنْ
مِنْظَارٍ مُعْظَمٍ (ميكروسكوب) لِمُضَاعَفَةِ أَجْرَامِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَرَى بِمُجَرَّدِ النَّظَرِ ؛
وَمِنْ مِرْقَبٍ (تليسكوب) تَسْهُلُ بِهِ رُؤْيَا أَشْكَالِ أَقْرَبِ الْكَوَاكِبِ إِلَى الْأَرْضِ ،
وَمِنْ كُرَّةِ جَوْفَاءٍ تُحْمَلُ فِي بَاطِنِهَا أَقْسَامُ الدُّنْيَا (جيوراما) وَمِنْ مَرْبَى لِلْحَيَوَانَاتِ
وَالنَّبَاتَاتِ الْمَائِيَّةِ وَمِرْمَاةٍ لِلصُّوْرِ الْمَائِلَةِ (استريوسكوب) وَعَلَى الْجُمْلَةِ يَنْبَغِي أَنْ
يُوجَدَ فِيهَا جَمِيعُ الْأَدَوَاتِ اللَّازِمَةِ لِتَحْصِيلِ مَعْنَى الْكَوْنِ وَآيَاتِهِ الْكُبْرَى فِي أَذْهَانِ
الطَّالِبِينَ .

إِعْلَمِي أَنَّ اللَّفْظَ وَالْخَطَّ طَرِيقَتَانِ قَاصِرَتَانِ جِدًّا عَنْ إِحْصَالِ الْعُلُومِ إِلَى نَفْسِ
الْحَدِيثِ وَأَنَّ الْأَمْرَ لَهُ إِمَّا هُوَ رُؤْيَا الْأَشْيَاءِ ، فَلِمَرْبِيهِ تَوْجِيهِ فِكْرِهِ وَلَوْ قِيلَ تَعْلِيمُهُ
الْقِرَاءَةُ إِلَى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَا تَخْرُجُ بِحَالٍ عَنْ مُتَنَاوِلِ إِدْرَاكِهِ ، وَرَأْيِي فِيمَا عَلَيْهِ الْمُرَبُّونَ
الآنَ : هُوَ أَنَّهُمْ يُفْرِطُونَ فِي التَّعْجِيلِ بِتَعْلِيمِهِ بَعْضًا مِنْ فُرُوعِ الْعِلْمِ كَانَ حَقُّهَا
التَّأْجِيلَ وَفِي تَأْجِيلِ بَعْضٍ آخَرَ كَانَ أَوَّلَى بِالْتَّعْجِيلِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ فِي اخْتِيَارِ
الْعُلُومِ وَتَرْتِيبِهَا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى دَرَسِ الْقَوَانِينِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ فِي مُوْجِسْمِهِ
وَنَفْسِهِ وَعَقْلِهِ .

قَوْلُهُمْ «لَمَّا يَجِيئُ وَهْيُ» كَلِمَةٌ تَصُدَّقُ عَلَى مُعْظَمِ قُوَى الْإِنْسَانِ فِي سَاعَةِ مَا مِنْ
عُمْرِهِ ، فَالْطِّفْلُ الَّذِي وَصَلَ إِلَى أَنْ يُدْرِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَبْعَادَهَا وَعَلَامَاتِهَا الظَّاهِرَةَ
يَكُونُ عَقْلُهُ فِي غَايَةِ الْقُصُورِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِمَا يَنْبَغِي مِنَ الرُّوَاطِطِ ، وَيَكُونُ أَيْضًا أَشَدَّ
قُصُورًا عَنِ التَّفَوُّدِ فِيمَا تَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَانِينِ ، وَيَقْصُرُ عَقْلُهُ خُصُوصًا عَنْ تَتَبُّعِ

سِلْسِلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا ، فَأَلْبَاهُ بِنَاقِرٍ بِالْقَضَايَا الشَّعْرِيَّةِ وَتَرَاحُ نَفْسُهُ
إِلَيْهَا ، وَلَا يَمِيلُ إِلَى الْقَضَايَا الْمُنْطِقِيَّةِ وَالْأَصُولِ الْحِكْمِيَّةِ . وَمَنْ حَاوَلَ اسْتِمَالَتَهُ إِلَيْهَا
فَقَدْ عَثَّ ، وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ ضَرْبَ الْإِسْتِعْدَادِ الْمُنَاسِبَةَ لِهَذِهِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ
لَمَّا تَوَجَّدَ فِيهِ أَوَّاهٌ لَمْ يَوْجَدْ مِنْهَا إِلَّا جَرَائِمَهَا ، فَالْإِدْرَاكُ لَفَظٌ عَامٌ يَدْخُلُ فِي مَقْهُومِهِ
عِدَّةٌ قَوِيٌّ مُمَايزَةٌ كُلِّ التَّمَايُزِ لَا تَسْمُو إِلَّا بِالتَّدْرِيجِ ، وَلِكُلِّ مِنْهَا طَوْرٌ كَوْنٌ ثُمَّ تَنْظُهُرُ
نَائِعَةٌ فِي ذَلِكَ لِحُمْلَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ تَتَغَيَّرُ بَتَغْيَرِ الْأَشْخَاصِ وَمَا يُحِيطُ بِهِمْ وَلِكَيْهَا عَلَى
التَّحْقِيقِ مَحْدُودَةٌ بِسِنِّ الْكُونِ وَالزَّمَانِ ، فَافْكَارُنَا وَضُرُوبُ الْوُجْدَانِ فَيَنَالُهَا أَعْمَارُ
كَأَعْمَارِنَا .

النَّبِيُّ الْوَاحِدُ يَقْتَضِي أَنْ يَتَعَلَّمَهُ الْإِنْسَانُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَمِنْ وَجْهِ مُخْتَلِفَةٍ .
خَذِيَ لَكَ مَثَلًا : الطُّغْلُ لَا يَرَى فِي الْوَرْدَةِ بَادِيَّ بَدِيٍّ إِلَّا وَرْدَةً ثُمَّ إِذَا نَمَتْ فِيهِ قُوَّةُ
الْإِدْرَاكِ قَلِيلًا انْتَرَعَ مِنْ شَكْلِهَا وَلَوْنِهَا وَرَاحَتِهَا مِثَالًا عَقْلِيًّا مُمْتَازًا بِعَرِيفِ بِهِ الْوَرْدَةِ
كَلَّمَا وَقَعَتْ فِي يَدِهِ وَهُوَ فِي هَذَا الطَّوْرِ مِنَ الْحَيَاةِ لَا يَهْمُ بِمَرْتَبَتِهَا الَّتِي عَيْنُهَا لَهَا
عُلَمَاءُ النَّبَاتِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ وَلَا بِتَرْكِيبِهَا وَمَعِيشَتِهَا ، فَتِلْكَ طَائِفَةٌ مِنَ الشُّؤْنِ وَالْإِنْكَارِ
يَجِبُ عَلَى مُرَبِّيهِ الْإِحْقَاسُ التَّامُّ مِنَ الْخَوْضِ مَعَهُ فِيهَا إِذَا كَانَ يَعْنيهِ أَنْ لَا يُضِلَّ
مُدْرِكَتَهُ ، وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ .

إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُعَلِّمَ « إِمِيلَ » عِلْمَ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ (الحيولوجية) مَثَلًا وَهُوَ الْعِلْمُ
الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْمَارْفُونُ أَبَا الْعُلُومِ فَأَيُّ أَتْبَعُهُ أَوَّلًا إِلَى مَا يَوْجَدُ فِي الْأَشْجَارِ بَلْ فِي حَصَا
الطُّرُقِ مِنْ أَشْكَالِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُضَيَّعَةِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ حُبَّهِ لِلِاسْتِطْلَاعِ وَمِثْلِهِ

لِلإِسْتِنَارِ بِالْمَعْرِفَةِ مَعَ مُسَاعَدَةِ الْفَرَسِ يُعَوِّدَانِهِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ تَمَيِّزَاهُمُ الْعَلَامَاتِ
الَّتِي تُوجَدُ فِي دَفَاتِنِ الْأَرْضِ مِنْ بَقَايَا تِلْكَ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَجَمِيعُ ذَلِكَ مُنَاسِبٌ لِسِنِّهِ
أَوْ قَرِيبٌ مِنْهَا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَبْضِعُ سِنِينَ أَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَقِيَسَ مَا قَدْ يَكُونُ جَمْعُهُ مِنْ
هَذِهِ التَّمَوُّذَجَاتِ بَعْضُهُ بَعْضٍ وَأَنْ يَرْتَبَهَا عَلَى حَسَبِ مَا يَنْبَغُ مِنَ التَّشَابُهِ وَفِي هَذَا
الْوَقْتِ دُونَ غَيْرِهِ أَتَلَطَّفُ فِي تَسْرِيبِ مَعْنَى أَطْوَارِ الْأَرْضِ وَعُصُورِهَا إِلَى ذِهْنِهِ ،
وَأَقْصُ عَلَيْهِ تَارِيخَهَا مُسْتَعِينًا بِتِلْكَ الْحِصَا وَالْحِجَارَةِ فَقَدْ قَالَ شَكْسِير^(١) «إِنَّ فِي الْحِجَارَةِ
لَمَوْعِظَةً وَذِكْرًا» وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّ فِيهَا مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ ذَلِكَ فَهِيَ وَحْيٌ يَعْلَمُنَا
كَيْفَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ . ثُمَّ إِذَا بَلَغَ «إِمِيلُ» الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ أَوِ الثَّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ
عُمُرِهِ . أَيْ صَارَ فِي سِنِّ تَوَهُّلِهِ لِفَهْمِ كُلِّ مَا أَقُولُهُ لَهُ حَقَّ الْفَهْمِ اسْتَعْنَتْ يَعْلَمُ طَبَقَاتِ
الْأَرْضِ عَلَى تَعْلِيمِهِ حِكْمَةُ التَّارِيخِ فَهُوَ أَمثلُ مُقَدِّمَةٍ لَهَا .

فِيمَا كَاشَفْتُكَ بِهِ مِنْ أَفْكَارِي هَذِهِ غَنَاءٌ عَنْ تَعْرِيفِكَ أَتَنَّا لَا يَنْبَغِي لَنَا فِي تَعْلِيمِ
«إِمِيلُ» أَنْ نَقُولَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الْمَوْجُودَةِ . فَالْوَجِيزَةُ مِنْهَا وَالصَّغِيرَةُ
وَالْكُتُبُ الْمَدْرَسِيَّةُ الَّتِي يَمْسُكُ الْأَطْفَالُ جَمِيعُهَا وَضَعْتُ لِنَعْرِ الْوُجْهَةَ الَّتِي
نَقْصِدُهَا . فَإِنَّهَا مُخْتَصَرَاتٌ عَابِيَةٌ تَوْهَمُ وَأَضَعُوهَا أَنَّهَا تَكُونُ مَلَائِمَةً لِإِدْرَاكِ الْأَحْدَاثِ
سُهُولَةٍ عِبَارَاتِهَا ، وَلَيْسَ الْعَيْبُ هَا هُنَا فِي شَكْلِ الْكُتُبِ وَأَمَّا هُوَ فِي أَصْلِ
وَضْعِهَا ، فَإِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ يَنْتَسِي لِلطِّفْلِ إِدْرَاكُهُ مِنْ نِظَامِ الْكَوْنِ هُوَ مَا يُدْرِكُهُ مِنْهُ
الْإِنْسَانُ فِي أَوَّلِ نَسَاتِهِ قَبْلَ تَقَدُّمِ الْعُلُومِ وَتَهْيِئِهَا ، فَالْمَعْلُومُونَ لَا يَفْتَانُونَ يَنْسَوْنَ

(١) شكسبير هو أشهر شعراء الانجليز كما مر في سبق .

أَنَّ التَّعَارِيفَ وَالتَّقَايِمَ وَالْقَوَانِينَ لَا تُوجَدُ إِلَّا بَعْدَ التَّجَارِبِ، كَمَا أَنَّ عُلُومَ اللُّغَةِ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا فِي الوجودِ وَكَذَلِكَ عُلُومُ الدِّينِ، وَيَغِيبُ عَنْ أَذْهَانِهِمْ أَنَّ عُلُومَ الْإِنْسَانِ لَمْ تَتَكُونِ الْبَتَّةَ بِالصُّورَةِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ عَلَيْهَا الْأَحْدَاثُ الْآنَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَصِلْ إِلَى إِيجَادِ طَائِفَةٍ مِنَ الْعِلْمِ مَحْدُودَةٍ إِلَّا بِالِانْتِقَالِ مِنْ حَادِثَةٍ جُزْئِيَّةٍ إِلَى أُخْرَى وَمِنْ سِلْسِلَةٍ مِنَ الْحَوَاثِثِ مُرْتَبِطٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى غَيْرِهَا، وَبَعْدَ أَنْ وَجَدَتْ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْهَا أَنْشَأَ يَسْتَنْبِطُ مِمَّا الْقَوَانِينَ الَّتِي تَضْبُطُهَا ثُمَّ تَفْرَعُ دَوْحَةُ الْمَعَارِفِ وَمَا يَزُتْ فُرُوعُهَا وَانْفَصَلَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الْآخَرِ .

فَالْجَرَى فِي تَعْلِيمِ الطِّفْلِ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ قَلْبٌ لِنِظَامِ عَقْلِ الْإِنْسَانِ ، فَالْمُعَلِّمُونَ إِذَا مَا يُلْقُونَ عَلَيْهِ نَتَائِجَ الْعُلُومِ وَخَلَاصَاتِهَا قَبْلَ أَنْ تَوْسَسَ قُوَّتُهُ الْحَاكِمَةُ بِمَبَادِيهَا وَتُدْمَجَ بِمَقْدَمَاتِهَا، فَتَرْتِمُهُمْ يَنْحَدِرُونَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنَ الذَّرْوَةِ الَّتِي رَفَى إِلَيْهَا الْعِلْمُ فِي عَصْرِنَا بِعَمَلِ الْأَجْيَالِ الْمَاضِيَةِ إِلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حَضِيضِ الْجَهْلِ ، وَالَّذِي يَسْتَحْسِنُ أُولَئِكَ الْمُعَلِّمُونَ تَسْمِيَتَهُ مَبَادِي الْعُلُومِ إِذَا مَا هُوَ فِي حَقِّ الطِّفْلِ تَمَرَّاتُ الْعَقْلِ الْمُبَالِغُ فِي تَحْضِيرِهَا وَمِنْ نَتَائِجِ رِبْطِ الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ .

أَنَا لَا أَجْرِي عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي تَعْلِيمِ «إِمِيل» فَإِنِّي أَوْدَقْتُ أَنَّ أَعْلَمَهُ تَارِيخَ الْمَوْجُودَاتِ أَنَّ أَعْرِفُهُ بِمَا فِي الْكَوْنِ، فَاجْعَلْ لَهُ بِهِ أَتْسَا بِأَنَّ أَوْجَهَ نَظَرِهِ إِلَى حَوَاثِثِ الْحَرَارَةِ وَالضُّوءِ وَالْكَهْرَبَاءِ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ قَوَانِينَ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، وَأَعْلَمَهُ شَيْئًا مِنْ أَوْصَافِ أَشْكَالِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ وَمَوَاقِعِهَا مِنْ قُبَّةِ الْفَلَكَ قَبْلَ الْخَوْضِ مَعَهُ فِي عِلْمِ الْهَيَاةِ، بَلْ قَصِدِي إِلَى أَنْ أَشْرَحَ لَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا أَعْلَمُهُ مِنْ سُنَنِ الْكَوْنِ

أَقْلُ يَكْتَبِرُ مِنْهُ إِلَى إِحْظَاظِ وَجْدَانِ الْمَلْحَظَةِ فِيهِ ، فَإِنَّ تَعْلِيمَ الطِّفْلِ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُذَكَّرُ وَإِنَّمَا الْأَمْرُ الْخَطِيرُ هُوَ أَنْ يُؤْتَى وَسِيلَةَ التَّعْلِيمِ بِنَفْسِهِ وَيُحْرَكَ فِيهِ دَوَاعِي الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ ، فَدُرُوسِي «لَا مِيلَ» كُلُّهَا لَا يَكُونُ فِيهَا إِلَّا مَالُهُ شَأْنٌ فِي تَنْبِيهِ عَقْلِهِ وَتَقْوِيَتِهِ لِأَنَّهُ مَرْجِعُ جَمِيعِ عُلُومِنَا عَلَى اخْتِلَافِهَا .

رَأَيْتُ مِمَّا قَدَّمْتُهُ لَكَ أَنَّهُ قَدْ قُضِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونِي (لَا مِيلَ) كِتَابًا يَأْخُذُ عَنْهُ عِلْمُهُ فَلَا تَسْتَعِينِي بِشَيْءٍ مِنْ صِفَارِ الْكُتُبِ وَمُوجَزَاتِهَا وَمُخْتَصَرَاتِهَا ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَلْتَمِسَ لَهُ أَنْبَسَطَ الْمَعَانِي وَالْيَقِينَةَ بِحَالِهِ إِدْرَاكِهِ مَعَ التَّدرُّجِ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ ارْتِفَاعِهِ فِي الْفَهْمِ وَأَنْ تَجْعَلَ تَعْلِيمَكَ مُطَابِقًا لِأَحْوَالِ سِنِّهِ .

الرسالة الثامنة والعشرون

مِنْ إِرَائِمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ١٥ أَوْغُسْتُس سَنَةِ ١٨٥٠

فَوَائِدُ التَّصْوِيرِ وَالْمَعَارِضِ فِي التَّرْبِيَةِ

لَوْ أَنَّ عَهْدِي إِلَى رِبِّيَاءِ مَدْرَسَةِ كُبْرَى لِلنَّاشِئِينَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْعَظِيمَةِ لَبَدَأْتُ وَسُئِلَ فِي أَنْ أُبَيِّنَ فِي جُودَاتِهَا مِنَ الْعِلْمِ رُوحًا وَعَقْلًا .

ذَلِكَ لِأَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى التَّعْلِيمِ لَمْ يَزَالُوا فِي مُبَاتٍ مِنَ الْعَقْلَةِ عَمَّا كَانَ لِمَعَاهِدِ التَّرْبِيَةِ مِنَ التَّأثيرِ فِي خَيَالِ الْمُتَعَلِّمِينَ خُصُوصًا فِي سِنِّيهِمِ الْأُولَى . وَلَقَدْ كَانَ الْقُدَمَاءُ أَتَقَدَّ مِنْ إِدْرَاكِهَا فِي سِرِّ التَّعْلِيمِ بِالشَّاهِدَةِ ، جَرَوْا فِي ذَلِكَ عَلَى نَوَامِيسِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ :

لَيْسَتْ الْمَعَابِدُ وَالْبَيْعُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَّا مَدَارِسُ اتَّخَذَهَا الْكَهَنَةُ وَالْقَسْبِيُّونَ
فِي الْأَدْيَانِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ مَحَفًّا لِمَجْمُوعِ عَقَائِلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ بِمَا أَوْجَدُوهُ لَذَلِكَ
مِنَ الْوَسَائِلِ الْكُبْرَى فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ وَتَحْتَ التَّمَائِيلِ وَصِنَاعَةِ التَّصْوِيرِ، وَبَقَاءِ
الْعِبَادَاتِ إِلَى الْآنَ يَدُلُّنَا عَلَى دَرَجَةِ انْتِقَاشِ الزُّمُورِ وَالْأُصُورِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ فِي أَذْهَانِ
الْعَامَّةِ، فَإِنَّ مَخْتَرَعَاتِ الْخَيَالِ الَّتِي يُبْرِزُهَا الرَّسْمُ لِلْوُجُوهِ الْخَارِجِيَّةِ فِي صُورِ فَخْمَةٍ تَتَبَقَى
شَائِعَةً بَيْنَ النَّاسِ بَعْدَ فَنَاءِ الْفِكْرَةِ الَّتِي أَنتَجَتْهَا بَعْدَهُ قُرُونٌ، يَشْهَدُ لَذَلِكَ بَقَاءُ مَظَاهِيرِ
الْمُعْتَقَدَاتِ الْجَمَادِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الْأُمَمَ قَدْ كَفَّتْ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ عَنْ تَوْهَمِ أَنَّهَا لَا تَزَالُ
عَلَى عَادَاتِهَا فِي عِبَادَتِهَا .

إِذَا كُنَّا قَدْ رَفَعْنَا هِيَ كُلَّ لِلْإِلَهَةِ الْبَاطِلَةِ كَالْحَرْبِ وَالرُّوْعِ وَالظُّفْرِ بِالْأَعْدَاءِ
وَجَمِيعِ بَلَايَا الْإِنْسَانِ وَمَصَائِبِهِ، قَالْنَا لَا نَرْفَعُ لِلْعِلْمِ هَيْكَلًا؟ وَآى كُفَّةٍ فِي هَذَا الْعَمَلِ
عَلَى أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ؟ لَا يُقَالُ إِنْ أَوَّلَ عَائِقٍ دُونَهُ هُوَ قِلَّةُ الْمَالِ وَغَلَاءُ الْمَوَادِّ الْأَلَزِمَةِ
لِإِقَامَتِهِ لِأَنِّي أَرَى أَنَّنَا فِي غِنَى عَنِ الذَّهَبِ وَالْمَرْصَرِ وَالْخَشَبِ النَّفِيسِ، وَفِي مَقْدُورِنَا
أَلَّا تَتَعَرَّضَ فِي إِشْنَانِهِ لِشَيْءٍ مِنْ صُنُوفِ لَبَنَانٍ وَلَا مِنْ نَقَائِصِ الْمَعَادِنِ الَّتِي تَمَّ بِهَا الْعِظْمُ
وَالْجَلَلُ لِهَيْكَلِ سُلَيْمَانَ، فَإِنَّ فِي الْخَبْثِ بَلَّ فِي الْوَرَقِ الْمُقَوَّى غِنَاءً عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ
فِي سَبِيلِ التَّرْبِيَةِ إِذَا وَجَدَ لَهُ أَنْاسٌ صُنْعُ الْيَدَيْنِ يَبْتَئُونَهُ وَيَسْتَخْدِمُونَهُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى
الْمَعَانِي، وَقَدْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَ الْمَيَسُورِ تَحْصِيلُ أَهَمِّ مِثْلِ الْأَشْيَاءِ الْخَلْقِيَّةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ
بِنِزَاقَاتِ زَهِيدَةٍ، وَذَلِكَ بِفَضْلِ مَا اخْتَرَعَ مِنْ طُرُقِ إِفْرَاقِ الْمَوَادِّ فِي الْقَوَالِبِ،

(١) البيع : متبادات النصارى . (٢) ما قاله المؤلف هنا لا يصح قبوله على إطلاقه بل يجب
تقييده بالبادات الوثنية لأن البادات الخالصة من شوائب الشرك التي ما طهاها القلوب ليس فيها أشكال
ولا رسوم . الترجيم

وَأَنَّ فِيمَا يُوجَدُ بِمَعَايِدِ التَّمَثِيلِ عِنْدَنَا مِنْ تَمَثِيلِ الزَّيْنَةِ وَصُورِهَا لِبُرْهَانًا نَاطِقًا بِأَنَّ
فِي قُدْرَةِ الْمُصَوِّرِ أَنْ يَنْقَلِ الرَّأْيَ إِلَى رُومِيَّةٍ وَأَيْنِيَّةٍ وَمَنْفِيْسٍ بِبَعْضِ جَوَلَاتِ
يَحْرُكُ بِهَا قَلْبُهُ وَيَتَنَبَّأُ مِنَ الْمَغَالِطَاتِ الْبَصَرِيَّةِ ، لِأَنَّهُ مَتَى أَتَقَنَّ تَمَثِيلَ مَا يُمَثِّلُهُ
مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي شَكْلِهِ وَلَوْنِهِ كَأَدَّ أَنْ يُخْبِتَ فِي الْخَيَالِ مَا يُخْبِتُهُ أَصْلُهُ مِنَ الْأَثَرِ
فَلَا عِبْرَةَ بِالمَادَّةِ وَمِمَّا يُنْخَدُّ مِنَ الْوَسَائِلِ لَيْثَ الرُّوحِ فِيهَا مَا دَامَتِ الصُّورَةُ تَنْبَهَ
الْمَشَاعِرُ وَتُؤَدَّى إِلَى الْعَقْلِ مَعْنَى صَحِيحًا لِمَا يَرَادُ تَعْرِيفُهُ بِمَاءٍ .

كُلُّ دِينٍ إِذَا اسْتَكْنَهَ رَأْيَانَهُ يَرْجِعُ إِلَى فَهْمٍ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَرْبَابُهُ مِنَ الْأَرَآءِ
فِي خَلْقِ الْعَالَمِ ، وَنِظَامِهِ لَكِنَّ فَهْمَ هَذِهِ الْأَرَآءِ هُوَ فِي الْغَالِبِ غَايَةٌ فِي الصُّعُوبَةِ ،
وَأَنَّهُ لَوْلَا الِاسْتِعَانَةُ بِالرُّمُوزِ فِي إِدْرَاكِهَا لَنَبَتْ عَنْهَا عُقُولُ الْعَامَّةِ نَبْوَا كَلْبًا .
وَأَمَّا الْهَيْكُلُ الَّذِي أَقْصَدُ رَفْعَهُ لِلْعِلْمِ فَهُوَ مَعْرُضٌ تَجَلَّى فِيهِ الْخَوَادِثُ عَلَى النَّاشِئِينَ ،
بَلْ هُوَ تَارِيخٌ حَتَّى مُحْسُوسٌ لِلْعَالَمِ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ ، مَوَادُّ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ لِكُنْهَا

(١) رومية هي عاصمة إيطاليا الآن وكانت في غابر الأزمان عاصمة مملكة الرومانين ثم عاصمة لولايات
السلطة الروحية ومقر البابا كما أنها مقره الآن .

(٢) أئينة هي مدينة شهيرة من القدم في بلاد اليونان وهي الآن قاعدة حكومة تلك البلاد .

(٣) منفيس مدينة كانت عاصمة لمصر في الأزمان النافرة أطلقها قرية من النافرة .

(٤) في هذه القضية الكلية مجازة في الحكم دالة على أن قائلها بعيد بيدا كبيرا عن فهم حقيقة الأدیان
خصوصا الدين الاسلامي الذي جوهره الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقوامه التفكير
— في بدائع صنعه والنظر في ملكوت السموات والأرض للاستدلال عليه بآثار قدرته والافرار له بالعبودية
الخالصة من شوائب الشرك وملاكة تطهير النفوس من أرجاس الذنوب وتركيتها من الشر لتعمر الدنيا
أحسن عمارة مؤسسة على أقوى دعائم العدل وأوثق وأصر الأخاء . فستدب بفك لغائه في دار البقاء وتنال من
رضوانه أكبر الجزاء . فهذا الدين هو الله الخفية للسماء التي لا رموز فيها ولا إلهام ولا خفاء — المترجم .

(٥) ثبت : هزت ولم تقبل .

مُتَّفَرِّقَةً فِيمَا عِنْدَنَا مِنَ الْمَتَاحِفِ وَالْمَكْتَبَاتِ وَالْمَجْمُوعَاتِ وَنَحْنُ عَنْهَا غَافِلُونَ .
فَلَيْسَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُكَلِّفَ الْبَاقِعُ التَّمَسُّهَ فِي أَمَّا كَيْفَهَا لِأَنَّ مَا فِي هَذِهِ الْأَمَّا كَيْنَ
مِنَ الْعِظَامِ النَّخْرَةِ ، وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُصْبِرَةِ ، وَجُدَّاذِ الْأَوْتَانِ الْمُكْسَرَةِ إِنَّمَا يُفِيدُ
الْعُلَمَاءَ . وَأَمَّا الْأَحْدَاثُ فَالْإِلَازِمُ لِإِفَادَتِهِمْ إِعْجَادُ مُشْهَدٍ يَجْتَمِعُ لَهُمْ فِيهِ الْمَثَلُ الْحَيَّةُ
الْكُبْرَى لِلْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى صُورَةٍ جَادِبَةٍ لِقُومِهِمْ .

هَذِهِ مَعَارِضُنَا الْعَامَّةُ الَّتِي تُقَامُ فِي بَارِيسَ وَلَنْدَرَةَ قَدْ تَعَلَّمْنَا مِنْهَا الْجَهْلَةَ - وَهُمْ
فِي كُلِّ أُمَّةٍ سَوَادُهَا الْأَعْظَمُ - مِنْ مَنَاشِئِ الصَّنَاعَةِ وَتَوَزُّعِ الْأَجْيَالِ عَلَى سَطْحِ
الْأَرْضِ وَأَحْوَالِ التَّرَقِّي فِي الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ أَكْثَرِمَا يَتَعَلَّمُونَهُ مِنْ جَمِيعِ الْكُتُبِ
الَّتِي وَضَعَتْ فِي التَّدْبِيرِ السِّيَاسِيِّ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ ، فَكَيْفَ إِذَا عُرِزَتْ مُشَاهَدَةُ
الْأَشْيَاءِ وَكَلَّتْ بَتَعْلِيمِ خَاصٍ . تِلْكَ الْمَعَارِضُ لَا نَتَمَنَّى إِقَامَتَهَا مُسَاهَنَةً وَهِيَ فَوْقَ
ذَلِكَ لَا تَحْتَوِي إِلَّا عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالْأُمُورِ الْمُخْصُوصَةِ ، وَإِذَا كُنْتُ قَدْ
نَوَّهْتُ بِهَا فَإِنَّمَا قَصَدْتُ بِذَلِكَ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ مَا يَعُودُ عَلَى الْأَحْدَاثِ مِنَ الْفَائِدَةِ إِذَا
أَقِمَّ لَهَا مَعَهْدٌ آخَرُ لِلْعُلُومِ تُمَثِّلُ لَهُمْ فِيهِ صُورَهَا .

أَصْبَحَ عِلْمُ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ خُلُوعًا بِسِتْمِيلِ نَفُوسِ الْمُتَعَلِّمِينَ مُؤَرِّثًا لِلْسَّامَةِ
وَالضَّجْرِ بِيَمِينِ مَا رَسَمْنَاهُ لَهُ مِنَ الْخَوَارِثِ وَالْقَنَافَةِ فِيهِ مِنَ الْكُتُبِ ، أَفَلَا يَكُونُ الْحَالُ
عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الْخَوَارِثِ اسْتَعِضَّتْ بِنَسِيجِ نَصُورٍ عَلَيْهِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا

(١) النخرة : البالية المنفضة . (٢) المصبرة المحطة أى المدينة بمواد تحفظها من البرد .

(٣) الجذاذ : المكسر . (٤) الأجيال : أصناف الناس .

(٥) مساهنة كل سنة .

تَصَوِّراً إِذَا جَالَ الثُّورُ فِي أَرْجَائِهِ ضَاعَفَ مُعَاظَمَةَ بَصَرِ الطِّفْلِ فَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَاثِبِ
الْآخِرِ لِمَحِيطٍ مَثَلًا ؟ وَلَيْسَ يَلْزَمُ لَذَلِكَ إِلَّا مُصَوِّرٌ صَادِقٌ فِي عَزِيمَتِهِ بِأَذِلِّ نَفْسِهِ
مِنْ أَجْلِ الْبُلُوغِ إِلَى غَايَتِهِ .

قَامَ بِفِكْرِ أَمْرِيكِيِّ شَجَاعِ اسْمُهُ "جون بانفارد" يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ أَنَّ يَصُوِّرَ مَجْمَرِي
نَهْرَ الْمِيسِيبِيِّ فَرَكِبَهُ وَحَدَهُ فِي قَارِبٍ مَكْشُوفٍ مُصِرًّا عَلَى إِنْقَادِ فِكْرِهِ غَيْرَ مُبَالٍ
بِمَا كَانَ يَعْتَرِضُهُ مِنَ الصُّعُوبَاتِ الْكَثِيرَةِ وَيَعْتَرِيهِ مِنَ الْأَلَامِ الشَّدِيدَةِ فَيَسْتَبْدِ
يَدَاهُ وَخَشَنَتَا . بِسَبَبِ اسْتِعْمَالِ الْمِجْدَافِ وَاحْتِرَاقِ جِلْدِهِ بِحَرِّ الشَّمْسِ فَصَارَ عَمَّا قَلِيلٍ
كَوَاحِدٍ مِنْ هُنُودِ أَمْرِيكَةِ فِي لَوْنِهِ ، وَقَضَى أَسَابِيعَ كَامِلَةً بَلَّ شُهُورًا لَمْ يَصَادِفْ
فِيهَا إِنْسَانًا يَكَلِّمُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ رُفِيقٌ سِوَى قَرِيبَتِهِ ، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الرِّفِيقَةُ تَتَكَلَّمُ
بِأَعْلَى صَوْتٍ كَلَامًا حَقًّا لَا خَطَأَ فِيهِ يَفْهَمُ بَعْضُهُ طُيُورَ النَّهْرِ وَالْأَجْمَةِ ، وَكَانَ يَخْرُجُ
فِي كُلِّ مَسَاءٍ مِنْ قَارِبِهِ إِلَى الْبَرِّ وَيُوقِدُ نَارًا فَيَشْوِي عَلَيْهَا مَا يَصْطَادُهُ ثُمَّ يَرْفُدُهُ مُتَقَفًا
فِي غِطَائِهِ مُكْنِئًا فَوْقَهُ الْقَارِبَ لِيَكُونَ لَهُ جُنَّةٌ دُونَ الْحَيَوَانَاتِ الْوَحْشِيَّةِ وَسَقْفًا يَحْتَمِيهِ
طُلُّ اللَّيْلِ ، وَكَانَ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ يَهْبُ مِنْ نَوْمِهِ وَيَمْضِي عَامَّةَ يَوْمِهِ فِي اجْتِيَازِ
النَّهْرِ مِنْ شَاطِئِهِ إِلَى آخِرِ عَلَى التَّوَالِي طَلَبًا لِمَنْظَرٍ جَدِيدٍ ، فَكَانَ يَسْتَرْعى طَرَفَهُ فِي مَكَانٍ
خَلِيجٍ عَمِيقٍ وَفِي آخِرِ أَسْرَابٍ مِنَ الطَّيْرِ وَتَلَفَتْهُ فِي نَالِثِ جَرِيْرَةٍ صَغِيرَةٍ عَلَيْهَا خَضْرَاءُ
نَضْرَةٍ وَهُوَ لَا يَقْتَرَعُ تَسْوِيدَ مَا يَلَاظُهُ فَلَمْ يَنَادِرْ شَيْئًا مِمَّا يَسْتَحِقُّ التَّصْوِيرَ
إِلَّا رَسَمَهُ خَفِيفًا وَاخْتِلَاسًا ، وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَقْيِيدِ إِمَارَاتِهِ وَمُلَاحَظَاتِهِ اتَّخَذَ لَهُ فِي

(١) الميسيبى نهر عظيم في أمريكا الشمالية يصب في خليج المكسيك بالقرب من مدينة نوبل أورليانس

وموله ٥٥٠٠ كيلومترا . (٢) القرينة : نوع من السلاح الناري .

الْمَدِينَةِ الْمَسَاءَ "لُؤَيْسِفِيل" بُولَايَةِ "كَتُوكِي" بِتَا مِنْ الْخَشَبِ حَيْثُ أَسْنَا
يَصُورُ مَا قَبْدَهُ عَلَى النَّسِيجِ — وَمَا كَانَ أَطْوَلُهُ ! — فَقَدْ بَلَغَ ذَرَعُهُ ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ .
لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ الْمَصُورَ كَانَ أَهْلًا لِأَنَّهُ يَأْتِي بِطَرَفَةٍ مِنَ الطَّرَفِ وَإِنْ كَانَ رَسْمُ
مَنَاطِيرِ الْمَيْسِينِيِّ لَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا حِكَايَةً صَادِقَةً لِسَفَرِهِ خَطَّهَا قَلَمُ الرَّسْمِ خَطًّا بَاطِنًا ،
وَنَحْنُ عَلَى كُلِّ حَالٍ نَرْجُو اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) أَنْ يُقِصَّ لَنَا مِنْ يَحْتَدِي مِثَالِ "جُونِ بَانْفَارْد" ،
مِنَ الْمَصُورِينَ وَأَنَّ بِهِمْ مِنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِخْلَاصِ لِلْعَمَلِ مَا وَهَبَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْ تَحَقَّقَ
ذَلِكَ لَأَصْبَحْنَا نَسْطِجُ الْكُرَةِ أَنِّي نَسْكُنُهَا أَعْلَمُ مِنَّا الْآنَ بِكَثِيرٍ .

وَلَيْتَ شِعْرِي أَيْ مَا نَبَحَ يَحُولُ دُونَ إِتْقَانِ عَمَلٍ كَهَذَا يَكُونُ تَارِيخًا لِلْأَرْضِ
وَمَنْ يَقْطُنَهَا مِنَ الْأُمَمِ ؟ رُبَّمَا قِيلَ : ذَلِكَ هُوَ مَا يَقْتَضِيهِ مِنْ إِتْقَانِ الْمَسَالِكِ الْكَثِيرِ
فَأَقُولُ : هَذَا مُسَلَّمٌ وَلَكِنَّا نَتَفَقُّ فِي تَبْدِيلِ سِلَاحٍ بِأَنَحَرٍ أَوْ طَرِيقَةٍ مِنْ طُرُقِ الْقِتَالِ
يَغْيَرُهَا أَوْ فِي بِنَاءِ بَارِجَةٍ أَوْ إِقَامَةِ حُكُومَةٍ جَدِيدَةٍ مُدَّةً بِقَائِمًا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا
عَلَى الْأَكْثَرِ نَتَفَقُّ فِي هَذَا أَضْعَافَ مَا تَقْتَضِيهِ مِنَّا طَرِيقَةُ التَّرْبِيَةِ عَلَى سُنَنِ الْفِطْرَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ .

لَا شَأْنَ لَنَا فِي ذَلِكَ وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ وَالْإِمْتِنَالُ فَإِنَّ هَيْكَلًا كَالَّذِي وَصَفْتُهُ تَجَلَّى
فِيهِ الْوَقَائِعُ وَالْمَعَانِي إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنْ صُورِ الْخَيَالِ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْخَارِجِ وَلَنْ
يُوجَدَ إِلَّا شَكٌّ فَيَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا سَأَوُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فِي ذِهْنِ "إِمِيل" بِمَوَادِّ أُخْرَى .

(١) كتوكي هي إحدى الولايات المتحدة في أمريكا الجنوبية سكانها ١٨٥٥٤٥٠ قسا

وعاصمتها فرنكفورت . (٢) ذرعه مقاسه .

الرسالة التاسعة والعشرون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَامَمَ فِي ٣ فَرَايِرْسَنَةِ - ١٨٥٠)

التَّزْيِينَةُ وَالتَّعْلِيمُ بِالنَّافُوسِ السَّخَرِيَّةِ وَالتَّمَثِيلِ وَالْمَعَارِضِ

وَهَيْتُ أَيْهَا الْعَزِيزُ فِي دَعْوَى أَنْ ذَلِكَ الْهَيْكَلُ الَّذِي تَمْنَيْتُ إِقَامَتَهُ لِلْعِلْمِ لَا يُوجَدُ وَلَنْ يُوجَدَ فَإِنَّهُ مُوجُودٌ بِالْفِعْلِ فِي سَايْدِنَاهَم عَلَى غَايَةِ الْقُرْبِ مِنْ لُنْدَرَةِ وَاسْمُهُ «الْقَصْرِ الْبِلُورِي» وَفِي نَيْي أَنْ أَزُورَهُ أَنَا وَ«إِمِيلُ» مَتَى أَمَكَّنْتَنِي الْفُرْصُ وَصَارَ فِي سَنْ تَوْهَلُهُ لِإِدْرَاكِكَ مَا فِيهِ مِنْ مَوَادِّ التَّعْلِيمِ، نَعَمْ إِنِّي لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مُطَابَقَةِ طَرِيقَةِ بِنَائِهِ لِأَرَاكَ تَمَامَ الْمُطَابَقَةِ، وَلَكِنْ أَقَلُّ مَا فِيهِ عَلَى مَا سَمِعْتُهُ أَنَّ الْقَصْدَ مِنْ إِنْشَائِهِ مُوَافِقُ لِقَصْدِكَ وَقَدْ يُنْعِشُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَيْسَ لِلْحُكُومَةِ يَدٌ فِي بِنَاءِ هَذَا الْقَصْرِ الْعَامِيِّ (وَأَيْنَمَا أَصْفَهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْأَصْلِيَّ مِنْ إِقَامَتِهِ أَيْنَمَا هُوَ تَرْبِيَةُ طَبَقَاتِ الْعَامَةِ) فَإِنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنَ الْبَسَاتِينِ الْوَاسِعَةِ وَالْبِنَاءِ الْبِلُورِيِّ وَالْآثَارِ الْقَدِيمَةِ وَالتَّمَثِيلِ وَجَمَلِ الْأَشْيَاءِ الْمُفِيدَةِ مَلِكٌ لِحِبَاةٍ مِنَ الْمَتَسَاهِينَ وَقَدْ عَهِدَ بِرَفْعِهِ إِلَى مَشْهُورِي الْعُلَمَاءِ وَالصَّنَّاعِ وَالْأَتْرِيَيْنِ فَكَانُوا يُبَاشِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ إِفْرَاقَ الْمَوَادِّ فِي الْقَوَالِبِ وَتَحْصِيلَ مِثْلِ الْأَشْيَاءِ . ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْجِلِيزَ إِذَا قَصَصُوا تَحْقِيقَ غَرَضٍ مُفِيدٍ أَوْ إِنْشَاءَ مَعْهَدٍ جَدِيدٍ لِمَنْفَعَةٍ عَامَةٍ اعْتَمَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ مَا آتَتْهُمْ ضُرُوبُ الْحُرِّيَّةِ وَوَسَائِلُ الْعَمَلِ الدَّائِيَّةِ مِنْ قُوَّةِ الْعَزِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَاسِ غَيْرِ رَاجِينَ

(١) سايدينام قرية من قرى الحجرية واقعة على بعد ثمان كيلومترات من لوندرة بنى فيها القصر البلوري

للعرض العام الذي أقيم في سنة ١٨٥١

مِنَ الْحُكُومَةِ مَسَاعِدَةً مَالِيَّةً وَلَا قَوْلِيَّةً لِعِبَادِهِمْ أَنَّ الْمُمْرَ بَيَّضَى دُونَ الْوُصُولِ إِلَى مَا يَرْجُونَ، فَهُمْ مَتَى أَرَادُوا أَقَامُوا تَمَائِيلَ لِعُظَمَائِهِمْ وَرَفَعُوا هِيَ كُلَّ لِفِكْرَةٍ يُبْدِيهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ .

أَرَأَيْكَ تَشْكُرُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ مَعَاهِدِ التَّمَنُّيْلِ عِنْدَنَا خَاصَّةً لِلْأَطْفَالِ فَاعْلَمْ أَنَّ لْأَطْفَالِ الْإِنْجِيلِزِ وَاحِدًا مِنْهَا، ذَلِكَ أَنَّكَ فِي صَبِيحَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ تُجَدُّ مُعْظَمُ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ كَأَنَّهَا قَدْ انْفَكَّتْ عَنِ الْإِخْتِصَاصِ بِالْقِصَصِ الْحَدِيثِ وَالْهَزْلِيَّةِ وَلَا يُقْبَلُ فِيهَا مِنَ الْكِبَارِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُوَلَّعًا بِسَمَاعِ الْأَسَاطِيرِ كَأَسْطُورَةِ إِهَابِ الْحِمَارِ وَأَسْطُورَةِ الْأَصْبِيحِ،

(١) أسطورة أهلب الحمار من أساطير شارل برولت الذي سبق التنويه بذكره في هامش الرسالة الخامسة والعشرين وملخصها أن ملكا كلنت له زوجة يحبا جدا ووزقت معه بيتت فاقحة في الجبال ثم مرضت وعند احتضارها استطلعت أن لا يتزوج إلا بمن تكون أبجل منها فلم يجد في عقائل مملكته من يتحقق فيها الشرط إلا بنه فأضى إليها بيله إلى تزوجها فأكرت عليه الأمر فقصم فاشتكت إلى جنيته فأرشدتها إلى أن تطلب منه حلة كالزمن في لونه . فاستصنعا لها فأوعزت لها بطلب أخرى كلون القمر، فإكان أقرب من تقديمها لها، ثم بثالثة كلون الشمس فكان ماطلبت، وكان لأبيها جبار يحبه كثيرا لأنه كان يجد تحته كل يوم مقدارا وافرا من النقود فلما أعييت الحيلة تلك الأميرة وظنت أن لا خلاص لها إلا تلاقا قلبها حزنا فأوحى إليها الجنية بأن تطلب إهاب الحمار (جلده) فقدم لها بعد استغراب فزادها ذلك جزعا فقالت لها الجنية كفى فهذا وقت خلاصك فلبسي إهاب الحمار وأترجى فانه لا يشعر بك أحد وسأبعبك بحيليك وحلكك أينما قصدت فخرجت في ذلك الإهاب وساحت في الأرض فدخلت مملكة أخرى فاستخدمتها زوجة مزارع في رعاية الديكة وكسفت الخنازير لثامتها وقذارتها، فرأها ابن ملك تلك الجهة من خصائص (١) كونها وقد تمررت عن إهاب الحمار ليست حلة من حلالها ففتن بها وذهب إلى أهله مدقا سقيا وحرار الأطباء (٢) في أمره وقالوا انه لا مريض به إلا التفكير، وبعد الحاح من والديه طلب أن تصنع له الخادمة التي تلبس إهاب الحمار قرصا قطعت دست فيه خاتمها لأنها قد فهمت حقيقة الأمر فلما تناول الخاتم في فمه قال لوالديه =

(١) الخصاص : النخل والخرق يكون في الباب .

(٢) الكوخ : البيت المسم، أى المحدودب السقف المنخفض من الذهب أو الحطب ولا كوة له .

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَصْحُحُ أَنَّ يُعَنَّوْنَ بِمَعْنَى الرُّؤْسِ الشَّعْرِ لِأَنَّ الْأَطْفَالَ فِي شَهْرَيْنِ
أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ السَّنَةِ يَكُونُونَ هُمْ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي اخْتِيَارِ نَوْعِ الْأَلْهَى الْعَامَّةِ وَالْمُتَمَتِّعِينَ
بِكُلِّ مَا فِي الْمَعَاهِدِ مِنَ الْمَقَاعِدِ الْمُخْمَلَةِ وَالْمُوسِيقِ وَضَرْبِ الْغُرُورِ وَالْفِتْنَةِ ،
وَيُؤَكِّدُ لِي النَّاسُ هُنَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ يَحْصُلُ فِيهِ التَّمَثِيلُ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ
إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الظُّهْرِ لِمَنْ يَتَجَبَّلُ فِي النَّوْمِ مِنَ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ لَا يَقْوُونَ عَلَى السَّهْرِ
وَالثَّانِيَةِ فِي الْعِشِيِّ لِلْيَافِعِينَ وَالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَلِلشُّيُوخِ الَّذِينَ حَفِظُوا لِلشَّبَابِ
فِي نَاحِيَةٍ مِنْ أَذْهَانِهِمْ شُعَاعًا مِنْ ضِيَائِهِ وَلَمَعَةً مِنْ بَهَائِهِ، وَيَبْنِي عَلَى ذَلِكَ أَنَّ
أَوَّلَ شَرْطٍ يَلْزَمُ تَحَقُّقَهُ فِي النَّظَارَةِ أَنْ يَكُونُوا صِبْيَانًا أَوْ مُتَمَتِّعِينَ؛ وَإِلَّا فَكَيْفَ
يَرَوْهُمْ سَمَاعٌ مَا يَرَوِي هُنَاكَ مِنْ أَقَاصِيصِ الْخَنِّ وَمَا يُمَثِّلُ مِنَ الْأَضَاحِيكِ؟
فَعَمَّ إِنَّ مَوْضُوعَاتِ تِلْكَ الْأَلْهَى الْبَهِيَّةِ هِيَ عَلَى الْجُمْلَةِ ظَايَةٌ فِي الْإِثْتِدَالِ، وَإِنَّكَ
لَتَأْسَفُ عَلَى مَا يَضِيعُ فِي سَبِيلِ تَرْبِيَةِ الْإِدْرَاكِ بِهَذِهِ الْأَمَاكِينِ مِنْ نَفَقَاتِ الزَّيْنَةِ
وَالثِّيَابِ وَغَيْرِهَا مِنْ عَادِ التَّمَثِيلِ لِأَنَّ مَا يَحْصُلُ فِيهَا مِنْ تَغْيِيرِ الْمَنَاطِيرِ قَلْبًا يَقِيدُ
إِلَّا إِثَارَةً وَجِدَانِ الْإِعْجَابِ وَاللَّهْوَةِ، وَلَكِنْ مَا أَشَدَّ مَا يُبْذِرُهُ الْأَطْفَالُ عِنْدَهَا مِنْ
دَلَائِلِ الْفَرَجِ الْمُتَبَيَّنِ عَنِ السَّدَاجَةِ! وَمَا أَبْلَغَ مَا يَظْهَرُ مِنْ تَسْوِيفِهِمْ لَهَا وَأَعْظَمَ

= إنى أريد أنا أن تزوج بصاحبة هذا الخاتم فنودى في المدينة بأن أية فتاة يوافقها الخاتم الذى فى بيت الملك
تكون زوجة لولى عهدده وكانت نتيجة ذلك أن تزوجت به وعاشا فى نعيم ورضد وأسطورة الأصبغ تقدم
لتلخيصها فى هامش الرسالة الخامسة والعشرين .

(١) الحملة : الهروشة بالحملة وهى الغطفة .

(٢) النظارة : المنفرجون .

(٣) عناد التمثيل : عهده وأدواته .

مَا يَكُونُ مِنْ بَرِيقِ أَبْصَارِهِمْ وَحَمَلَتْهَا سَبَبِ اسْتِفْرَافِهَا وَالْإِفْتِنَانِ هَهَا ! خُصُوصًا
إِذَا جَاءَ دَوْرُ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْمَعْرُوفِ الْمُسَمَّى « مَنْظَرُ الْإِقْلَابِ وَالتَّحَوُّلِ » ،
فَلَسَدًا مَا تَحْفِقُ الْقُلُوبُ هُنَاكَ خِفَّةً وَمَرَحًا .

وَمَهْمَا كَانَ فِي تِلْكَ الْمَرَاثِي مِنَ الْإِفْتِنَالِ فَلَا يَذْنِي أَنْ يُسْتَخَفَّ بِمَا يَتَجَلَّى
لِلْأَطْفَالِ فِيهَا مِنْ تِلْكَ الْقُصُورِ الْمَسْحُورَةِ وَأَمْطَارِ السَّجَدِ وَالشَّرِّ وَالْأَوَارِ الْمُسْتَعْمَلَةِ
عَلَى جَمِيعِ مَا يَرَى فِي الْقَجَرِ الْقُطْبِيِّ مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَبَايِنَةِ وَالْجُزُرِ السَّيْدَةِ (الجزائر
الخالديات) وَالنِّسَاءِ الْعَانِسَةِ فِي السُّحْبِ وَفِي الْأَشْجَارِ وَالْأَزْهَارِ ، وَعَلَى الْجُمُعَةِ لَا تَصِحُّ
الِاسْتِهَانَةُ بِتِلْكَ الْمُخْتَرَعَاتِ الْخَيَالِيَةِ الْعَامِيَةِ الَّتِي تُمَثَّلُ فِي أَصَاحِيكِ الْمَنَاطِرِ ، فَايْمًا
طَارَ بِنَا الْخِيَالُ وَإِنْ عَلَى أَجْنَحَةٍ مِنَ الْوَرَقِ الْمُقَوَّى وَلَمْ يَفْهَمْنَا إِلَّا قَلِيلًا فَإِنَّهُ بِفُسْكَ
سَاعَاتٍ مِمَّا يَهَيِّظُنَا مِنْ أَغْلَالِ الْعَادَاتِ وَالْحَاجَاتِ . تِلْكَ الْمَنَاطِرُ الْفَرَادَةُ لَنْ تَتَفَكَّرَ
أَنْ تَكُونَ مَحْبُوبَةً لِلْعَامَةِ وَالْأَطْفَالِ لِأَنَّهَا تَفْتَحُ لَهُمْ جُزْأًا مِنْ أَبْوَابِ الْكَالِ الْمُطْلَقِ
الْبَالِغِ أَقْصَى غَايَاتِهِ .

لَمَّا رَأَيْتُنِي لَا أَمْلِكُ إِلَّا النَّهَابَ « بِأَمِيل » إِلَى الْقَصْرِ الْبُلُورِيِّ وَلَا إِلَى مَعْهَدِ
التَّمْثِيلِ عَوَلْتُ عَلَى الْإِسْتِمَانَةِ بِأَلَةٍ يُطَافُ بِهَا هُنَا فِي الْمُدُنِ وَالْقُرَى وَهِيَ الْفَانُوسُ
السَّحَرِيُّ ، وَكَأَنِّي بِكَ تَضَحُّكَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَيْ مَا نَبِيعَ يَمْنَعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ
تِلْكَ الْأَلَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ لِتَحْصِيلِ اللَّذَّةِ وَالْإِعْجَابِ مِنْ وَسَائِلِ التَّعْلِيمِ أَيْضًا ؟ فَلَيْسَ
ذَنْبًا لِلْفَانُوسِ السَّحَرِيِّ أَنَّهُ قَلَّمَا اسْتَعْمِلَ إِلَّا لِتَمْثِيلِ الصُّورِ الْمُضْحَكَةِ الْفَرِيسَةِ
فِي دَارَةِ مِصْهَرَةٍ بَلْ هُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُفِيدًا إِذَا قُصِدَ بِهِ الْجِدُّ ، وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ تَفَضَّلُوا

عَلَى الْمُصَوِّرِينَ بِإِرَادِهِمْ إِلَى مَا يَخْتَارُونَ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْعَمَلِ وَإِلَى طَرِيقَةِ التَّصْوِيرِ
عَلَى الرُّجَاجِ لَأَدَى الْفَرِيقَانِ لِلْأَطْفَالِ — فِيمَا أَرَى — فَوَائِدَ حَقِيقَةً ، وَقَدْ سَمِعْتُ
أَنَّ الْمُتَوَلِّينَ أَمَرَ التَّرْبِيَةَ فِي انْجِلَتَرَةِ سَبَقُوا إِلَى اخْتِزَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي بَعْضِ الْمَدَارِسِ
لِتَأْدِيَةِ شَيْءٍ مِنْ مَعَانِي عِلْمِ الْفَلَكَ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ وَالتَّارِيخِ إِلَى عُقُولِ النَّاشِئِينَ .

أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عُلَمَاءَ الْفَلَكَ قَدْ رَسَمُوا صُورَ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ الْكُبْرَى وَخَطَطُوا
أَثَرِ ذَوَاتِ الذَّنَبِ وَالشَّهَبِ وَالْخُسُوفِ وَالْكَسُوفِ أَوْ اتَّرَعُوا صُورَهَا بِآلَةِ التَّصْوِيرِ
السَّمْسِيِّ (الْفُوتُوغْرَافِ) فَلَوْ أَنَّسَا أَرَدْنَا أَنْ نَجْعَلَ الْفَانُوسَ السَّحْرِيَّ الَّذِي هُوَ الْآنَ
مَشْهُدُ الْأَوْهَامِ وَالْمُغَالَطَاتِ مَشْهُدًا لِلْحَقَائِقِ أَيْضًا لَكُنَّا فِي ذَلِكَ أَنْ نَنْسَخَ عَلَى
زُجَاجِهِ رُسُومَ السَّمَاءِ وَمَا فِيهَا مُصَوَّرَةً عَلَى الْحَالَةِ الْفِطْرِيَّةِ تَصْوِيرًا مُضَبُوطًا .

إِذَا كَانَ الْمُرَادُ تَمَثُّلَ الْأَرْضِ فِي هَذِهِ الْآلَةِ فَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ صَلَاحِيَّتِهَا
لِتَحْصِيلِ صُورِ جَمِيعِ مَا فِيهَا مِنْ سَلَاسِلِ الْجِبَالِ الْكُبْرَى وَجَمَارِي الْأَنْهَارِ الْعَظْمَى
وَجَاهِلِ الصَّعَارَى الْمُرَوَّعَةِ وَأَشْكَالِ السَّوَاخِلِ الْوَعْرَةِ الْمَغْمُورَةِ بِالْمُحِيطِ ، وَلَا حِيلَةَ
لَنَا فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ نَكْفِيَ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا مِنْ تَصْوِيرِهَا فِيهَا . عَلَى أَنَّ الطِّفْلَ يَرُوقُهُ
نَظَرُ الْأَشْيَاءِ تَفْصِيلًا أَكْثَرَ مِنَ النَّظَرِ فِيهَا جُمْلَةً فَهُوَ إِذَا نَظَرَ إِلَى صُورِ الْأَقَالِيمِ
وَهَيَاتِهَا فَإِنَّمَا يَتَمَسَّسُ أَثَرًا يَرُوقُهُ وَيُدْهِشُهُ كَصَخْرَةٍ غَرِيبَةِ الشَّكْلِ أَوْ نَبَاتٍ أَعْجَبٍ
أَوْ حَيَوَانٍ عَجِيبٍ أَوْ إِنْسَانٍ مُغَارِبٍ لَنَا يَلُونُ جِسْمِهِ .

وَأَمَّا التَّارِيخُ فَلَا شَكَّ فِي صَلَاحِيَّةِ الْفَانُوسِ السَّحْرِيِّ لِتَطْلِيمِهِ فَإِنَّهُ يَتَأَنَّى بِهِ
إِحْضَارُ خَيَالَاتٍ مِنْ يَحْدُثُ عَنْهُمْ مِنَ الْمُبَاضِينَ بِفَلَا مَانِعٍ مِنْ أَنْ يَرْسُمَ عَلَى

صَفَحَتِهِ صُورَ الشُّجَعَانِ الْغَايِرِينَ بَزِيَّتِهِمْ وَبَزِيَّتِهِمْ وَصَنُفُ مَا وَجَدَ مِنَ الصُّورِ الْغَرِيبَةِ
كَأَيِّ الْمُسَوَّلِ وَالتَّيْرَانِ ذَاتِ الْأَجْنَحَةِ وَذَاتِ الرُّؤُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيِّ السُّودَاءِ
وَالْحَيَّاتِ وَالْآلِهَةِ وَغَيْرَهَا مِنَ الصُّورِ الْخُرَافِيَّةِ لِأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ تَخَرَجَتْ مِنَ اللَّيْلِ
فَلَا تَحْجَبُ أَنَّ تَعُودَ إِلَيْهِ .

أَنَا لِسُوءِ حَظِّي لَسْتُ عَالِمَةً وَلَا مُصَوِّرَةً وَلَكِنِّي أَرَسَمُ رُسُومًا مُتَنَابِئًا لِحَالَتِي ،
وَكُنْتُ أَرَى مِنْكَ أَحْيَانًا اسْتِحْصَانَ رُسُومِي الْكَثِيرَةِ الْأَلْوَانِ ، نَعَمْ إِنِّي لَا أَحْسِنُ
طَرِيقَةَ التَّصْوِيرِ عَلَى الرَّجَاحِ فَإِنَّهَا حِرْفَةٌ تُتَعَلَّمُ وَكَلَامٌ سَافِتُخِرُ بِأَن يَكُونَ « أَمِيلٌ » هُوَ
صَاحِبُ الْفَضْلِ عَلَى فِي كُنْيَتِهِ ، وَأَصْعَبُ مَا عَلَى فِي ذَلِكَ - فِيمَا أَرَى - إِمَّا هُوَ
تَحْصِيلُ مَثَلٍ مُتَقَنَةٍ لِأَنِّي إِخَالُ أَنَّهُ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُرَبِّيِّ هُوَ أَنَّهُ يَكُونُ دَقِيقًا
فِيمَا يُعَلِّمُهُ الطِّفْلَ وَأَكْرَهُ أَنْ لَا أُبْرِزَ الْأَشْيَاءَ لَوْلَدِي فِي صُورِهَا الصَّحِيجَةِ ، وَقَدْ
وَعَدَنِي الدُّكْتُورُ « وَارِنْجُونُ » - وَهُوَ مُوَافِقٌ لِي فِي كَثِيرٍ مِنْ أَفْكَارِي - أَنَّ يَنْتَقِيَ
لِي مِنْ لَوْثَرَةٍ صُورًا مُنْتَرَعَةً بِآلَةِ التَّصْوِيرِ الشَّمْسِيِّ (الْفُوتُوغْرَافِ) أَوْ رُسُومًا
أَخَذْتُ مِنْ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ وَعُلَمَاءِ الْأَنْبَارِ وَالسِّيَاحِ ، وَأَنَا بِفَضْلِ مَعُونَتِهِ عَلَى أَمَلٍ
مِنْ إِتْشَاءِ مَشْهَدِي الصَّغِيرِ عَمَّا قَلِيلٍ اه .

الرسالة الثلاثون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمُ فِي فَبْرَايِرْسَنَةِ - ١٨٥٠)

تَعْلَمُ الْأَطْفَالُ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ وَمَعْرِفَةَ جِهَاتِهَا بِالْعَمَلِ وَتَعْلَمُهُمُ الصَّنَاعَةُ

مُعَالَجَةَ مَا يُسْتَرَى لَمْ مِنْ اللَّعِبِ

أَحِبُّ أَنْ أَصِفَ لَكَ «إِمِيل» قَامَا صُورَتَهُ فَقَدْ عَرَفْتَهَا فِي الرَّسْمِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيْكَ مُنْتَقَمًا يَا لَيْلَةَ دَاجِيَرِ التَّصْوِيرِيَّةِ (الفوتوغرافية) وَأَمَّا سِيرَتُهُ وَأَحْوَالُهُ فَبِهِي إِلَيَّ أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْهَا فَأَقُولُ :

أَرَى لَهُ جَرَامَةً عَلَى السَّيْرِ وَالْجَوَالِ لَا تُوجَدُ فِي أَتْرَابِهِ فَقَبِيهِ مَا أَطْنُكَ تُسَمِّيهِ بِفَرِيزَةٍ تَحْرِي الْأَرْضَ وَقَدْ بَلَغَ تَمَكُّنُ هَذِهِ الْفَرِيزَةِ مِنْ نَفْسِهِ مَبْلَغًا مَا أَرَانِي فِيهِ قَادِرَةٌ عَلَى اضْطِلَالِهِ وَلَا هُوَ يَحْتَاجُ فِي الْإِهْتِدَاءِ إِذَا أَنَا أَضَلُّتُهُ إِلَى الْإِقَاءِ الْحَصِيِّ وَقَاتِ الْخُبْزِ فِي الطَّرِيقِ لِيَكُونَ كَالصَّوْبِ وَالْأَعْلَامِ لِأَنَّهُ يَهْتَدِي بِنَفْسِهِ وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يُبَيِّنَ مَهَبَّ الرِّيحِ وَحَرَكَةَ السَّحَابِ الْجَهَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمَرْهَا وَأَرَى أَنَّ الَّذِي أَظْهَرَ هَذَا الْإِسْتِعْدَادَ فِيهِ هُوَ مَا اسْتَفَادَهُ بِالْعَمَلِ مِنْ مَحَبَّةٍ قُودِيْدُونَ قَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ فِي عَيْنِي هَذَا الرَّجُلِيَّ وَرَأْسِهِ بَيْتَ إِبْرَةِ مَقَاتِلِيَّةٍ .

لَا أَنْتَكِرُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْعُلُومِ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ، وَذَلِكَ يُؤَكِّدُ وَجُوبَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا الْأَطْفَالُ وَكَلَامِي فِي ذَلِكَ عَنْ خَبْرَةٍ وَتَجَرِبَةٍ فَإِنِّي تَرَبَّيْتُ فِي مَدْرَسَةٍ دَاخِلِيَّةٍ كَانَتْ

(١) نخرت الأرض (كنصر) عرفها ولم يحفظ عليه طرقها ولم يلفظ (الخارطة) أو الخريطة ما أخذ

من هذا اللفظ محرنا . (٢) تشير إلى أسطورة الأصمعي التي سبق ذكرها .

التَّمْيِذَاتُ فِيهَا غَافِلَاتٌ عَمَّا وَرَاءَ الْمَدْرَسَةِ مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاةِ وَمَتَاعِهَا . وَكُنْتُ
بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا حَرَجْتُ إِلَى الْمَزَارِعِ وَالرِّيَاضِ لَا أَعْرِفُ الشَّمَالَ مِنَ الْجَنُوبِ
وَلَا أُمَيِّزُ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْقَرْبِ ، وَانْجَمِلُ ذَلِكَ انْجَمِلَ الضَّارُّ أَنَّ أَسْأَلَكَ عَنْهَا خَشْيَةً
ظَهَرَ بِكَ عَلَى جَهْلِي ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْجَهْلُ خَاصًّا بِمَنْ لِي لَكَانَ الْخَطْبُ سَهْلًا ، وَأَرَانِي
صَادِقَةً إِذَا قُلْتُ ، إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ النَّهَايَةِ فِي الْعِلْمِ لَيْسُوا بِأَوْسَعَ مِنِّي مِلًّا
بِبَعْضِ مَوْضُوعَاتِ مَسَاحَةِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ . أَنَا لَا أَدْرِي بِالضَّرُورَةِ إِنْ
كَانَ كُتِبَ عَلَى « إِمِيل » أَنْ يَكُونَ سَاحًا وَجَوَابَ آفَاقٍ ، وَلِكِنِّي أَرَى أَنَّ النَّاسَ
مُتَحَاجُونَ فِي جَمِيعِ اطِّوَارِ الْحَيَاةِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْجِهَاتِ وَالْأَمَكِنَةِ إِحْتِيَاجًا مُتَخِلِّفَ
دَرَجَاتِهِ ، فَبَعْضُهُمْ أَحْوَجُ إِلَى التَّوَسُّعِ فِيهَا مِنْ بَعْضٍ وَإِنْ صَدَقَ النَّظَرُ إِذَا تَعَزَّزَ
بِالْجَارِبِ كَانَ لِلْأَنْسَانِ رُحْمًا مِنْ أَرْكَانِ الْحُرِّيَّةِ .

يَا كُلُّ « إِمِيل » عَلَى الْمَائِدَةِ كَالْإِنْجِيلِزِ أَعْنَى أَنَّهُ يَأْخُذُ السَّكِينِ بِيَدِهِ الْيُمْنَى
وَالشُّوْكَهَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى يَا كُلُّ يَهَا ، وَقَدْ أَنْكَرْتُ هَذِهِ الْمَادَّةَ أَوَّلًا ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا
أَسْهَلُ فَإِنَّ اسْتِعْمَالَ كُلِّ يَدَيْنِ مَعًا يُمْكِنُ مِنَ الْقَطْعِ وَالنَّائُولِ فَضْلَ تَمْكِينٍ ،
فَالْإِنْجِيلِزِ عَسَرُ فِي الْأَكْلِ دُونَ الْأَعْمَالِ الصَّنَاعِيَّةِ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ عُدْرَتُهُ فِي تَرْكِ
تَمْرِينِ عَضُومٍ مِنْ أَعْضَائِنَا عَلَى الْعَمَلِ ، فَهَلْ كَانَتْ أَعْضَاؤُنَا زَائِدَةً عَمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ
فِي اسْتِعْمَارِ الْأَرْضِ وَمُقَاوَمَةِ مَا يَبْتَرِضُنَا مِنَ الْعِقَابِ الْمَادِّيَّةِ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ
فَنَسْتَفْتِي عَنْ بَعْضِهَا وَنَعْفَلُهُ ؟

(١) عسر : جمع أعر وهو من لا يستعمل إلا يده اليسرى .

(٢) العقاب جمع عقبة وهي المرقى الصعب من الجبال .

قَرَأْتُ فِي تَرْجَمَةِ حَيَاةِ (جَمْس وَات) الْمُهَنْدِسِ الْإِنْجِلِيزِيِّ الشَّهِيرِ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعْمِلُ فِي طُفُولَتِهِ أَدَوَاتِ وَالِدِهِ النَّجَّارِ فِي اخْتِرَاعِ لَعِبٍ لِنَفْسِهِ أَوْ تَحْوِيلِهَا مِنْ شَكْلٍ إِلَى شَكْلٍ ، وَيُقَالُ إِنَّ هَذَا التَّمَرِينَ سَاعَدَهُ كَثِيرًا فِي تَدْرِيبِ يَدِهِ عَلَى الصَّنَاعَةِ وَقَوَّى مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِعِلْمِ الْآلَاتِ (الْمِيكَانِيكَ) حَتَّى صَارَ مَلَكَةً رَاحِمَةً فِيهِ . وَلَسْتُ أَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ «إِمِيلُ» مُحْتَزِعًا لآلَاتٍ جَدِيدَةٍ ، وَلَكِنِّي أَرْغَبُ أَنْ يَكُونَ مَاهِرًا فِي تَحْرِيكِ أَصَابِعِهِ وَلِهَذَا لَا أَسْنَعُهُ مِنْ تَكْبِيرِ أَعْيِهِ لِيَرَى مَا فِي جَوْفِهَا — كَمَا يَقُولُ — إِذَا تَعَهَّدَ لِي بِإِرْجَاعِهَا إِلَى أَصْلِهَا .

عَلَى أَنِّي لَأَحْظُتُ أَمْرًا أَحَبُّ أَنْ أُعْرِضَهُ عَلَيْكَ ، وَهُوَ أَنَّ لَعِبَ الْأَطْفَالِ تَكُونُ مُنَاسِبَةً لَطِيعَةِ الْإِلَادِ الَّتِي يَنْشُؤْنَ فِيهَا فَاهُلُ السَّوَاوِلِ يَلْعَبُ أَطْفَالُهُمْ بِمَا تُحْدِثُهُ فِي نَفْسِهِمْ صِنَاعَةُ الْمَلَاخَةِ . وَقَدْ أَجَابَ قُوسِدُونُ الَّذِي هُوَ كَالْقِرْدِ فِي الْخِفَةِ وَالْمَهَارَةِ رَغْبَةَ «إِمِيلُ» وَرَفِيقِيهِ فَصَنَعَ لَهُمْ بَسْكِينَ مَرَكَبًا شِرَاعِيًّا صَغِيرًا أَتَزَلُّوهُ فِي خَلِيجِ الْجَبَلِ بِاحْتِفَالٍ حَافِلٍ فَكَانَ بِذَلِكَ قُدْوَةٌ لَهُمْ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْبَحْرِيَّةِ حَتَّى إِنَّهُمْ أَنْشَأُوا لَهُمْ أَسْطُولًا مُؤَلَّفًا مِنْ طَرَادَاتٍ وَسُفُنٍ مِنْ ذَوَاتِ السَّارِيَةِ وَمِنْ ذَوَاتِ السَّارِيَتَيْنِ وَقَوَارِبَ وَزَوَارِقَ ، وَبَعْضُ هَذِهِ السُّفُنِ مُسَلَّحٌ بِمِدْفَعٍ مِنَ الْحَشَبِ ، فَكَانَ لِسَانِ حَالِهِمْ يَقُولُ : هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ مُسْتَعِدُونَ . فَلْيَهَاجِمْنَا الْمُهَاجِمُونَ ، وَكُنْتُ إِذَا سُلِّتُ عَنْ قِيَمَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ السَّامِعَةِ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ أَظْهَرُ تَرْجِيحَ مَا يَصْنَعُهُ الْأَطْفَالُ مِنْ سُفُنِ اللَّعِبِ عَلَى مَا يُتَاعَمَلُ مِنَ التِّجَارِ مِنْ نَوْعِهَا وَإِنْ كَانَ أَحْسَنَ مِنْهَا صُنْعًا .

يُحِبُّ «إمبِل» الْعَمَلُ وَيَمِيلُ إِلَى سَمَاعِ الْقَصَصِ كَمَا هُوَ الْمَهْمُودُ مِنْ مِثْلِهِ .
وَأَنَا مُوَافِقٌ لَكَ فِي انْتِقَادِ تَوْسِيعِ النَّاسِ فِي مُحَاطَةِ الْأَطْفَالِ خُصُوصًا مُحَاطَتِهِمْ بِمَا
يَعْلَمُونَ إِدْرَاكَهُمْ وَأَفْهَامَهُمْ وَيَنْبَغُ عَنْ مَشَارِبِهِمْ ، وَهَذَا مِنْ آفَاتِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي يَحِبُّ
تَجَنُّبَهَا ، وَمَا أَعْظَمَ الْفَوَائِدَ وَالْمَزَايَا الَّتِي يَسْتَفِيدُهَا الْأَطْفَالُ مِنْ تَعْلِيمِ أُمَمَاتِهِمِ الشَّفَوِيِّ
إِنْ تَجَنَّبْنَاهَا . وَإِنَّمَا حَدَّثَنِي إِلَى هَذَا الْفِكْرِ فِي مَا يُؤْثَرُ عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ قَبْلَ اخْتِرَاعِ
الْكِتَابَةِ وَالْتَّصِيفِ مِمَّا كَانَ الْإِعْتِمَادُ فِي حِفْظِهِ عَلَى الذَّاكِرَةِ فَقَدْ قَرَأْتُ فِي كِتَابِ
لَا أَذْكَرُ اسْمَهُ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْيُونَانِيِّينَ كَانُوا يُعَارِضُونَ «قُدْمُوس» فِي وَضْعِ الْحُرُوفِ
الْهِجَائِيَّةِ مُحْتَجِينَ بِأَنَّ اعْتِيَادَ النَّاسِ إِثْبَاتَ حَوَادِثِ التَّارِيخِ عَلَى الْأَلْوَانِ يُضْعِفُ
الذَّاكِرَةَ بِالتَّدْرِيجِ . وَكَانَ لَهُمْ وَجْهٌ فِي هَذِهِ الْمَعَارِضَةِ فَهِيَ تُشَبِّهُ الْمَعَارِضَاتِ الَّتِي
تُوجَّهُ الْآنَ إِلَى كُلِّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ارْتِقَاءِ الْإِنْسَانِ .

نَرَى الْأَطْفَالَ قَبْلَ تَعْلِمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ يَتَعَلَّمُونَ كَثِيرًا مِنَ الْأَكْثَارِ وَالْآرَاءِ
فَأَمُّ شَيْءٍ يَتَدَبَّأُ بِهِ الْمُرَبِّيُّ هُوَ النَّظَرُ فِي اخْتِيَارِ أَمْثَلِ مَا يُودِعُهُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ
الْمَعَارِفِ ثُمَّ فِي اخْتِيَارِ أَمْثَلِ الطَّرِيقِ لِإِيصَالِ ذَلِكَ إِلَى أَذْهَانِهِمْ الْخَالِيسَةِ وَقَفْهِهِ
فِي الْأَوَاجِ نَقُوسِهِمِ الصَّغِيرَةِ^(٤) ، وَكَثِيرًا مَا خَرَجْتُ مَعَ «إِمْبِل» عَنْ أَسَالِبِ لُغَتِي
وَقَوَاعِدِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ اغْتِيَابِي وَمُرُورِي عِنْدَ مَا كُنْتُ أَرَانِي قَدْ
مَلَكَتْ سَمْعَهُ يَتَكَلَّمُ بِلُغَتِهِ ، وَالنَّجَاحُ فِي هَذَا يَتَوَقَّفُ عَلَى إِخْلَاصِ الْقَلْبِ وَتَسْيِانِ
النَّفْسِ وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ إِنَّمَا يَحْصُلَانِ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمَزَاوَلَةِ عَلَى مَا أَرَى .

(١) حدادي : حافى . (٢) يؤثر : يتقل ويحكى . (٣) قد موس هو الرجل الفينيقي الذي

أنشأ مدينة طيبة ونقل الحروف الهجائية من مصر الى بلاد اليونان . (٤) الصغيلة : الصافية .

مِنَ الثَّابِتِ الْمُقَرَّرِ أَنَّ لِلْأَطْفَالِ شِعْرًا خَاصًّا تَعْرِفُهُ الْأُمَهَاتُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ وَلَكِنَّا نَحْكُمُ فِيهِ شِعْرًا وَخَيَالَنَا، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حِفْظِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الشَّعْرِيَّةِ وَبَقَاءِ غَضَائِهَا بِحَيْثُ لَا يُسْقِطُ عَنَّا يَمَّا زَهَرَهَا ، وَلَا يَذْوِيهَا وَيَذْهَبُ بِنُضْرَتِهَا لِاحْلَالِ شِعْرِنَا مَحَلَّهَا .

الدُّنْيَا مَمْلُوءَةٌ بِالْحِكَايَاتِ الَّتِي يُدْعَى أَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْأَطْفَالِ وَأَمَثَلَهَا حِكَايَاتُ (برولت) وَارَى أَنَّ مَا فِيهَا مِنَ الصَّنْعَةِ وَالْحَذَلَقَةِ يُخْرِجُ بِهَا عَنْ مَهْدِ الطُّفُولِيَّةِ إِلَى مُسْتَوَى الْكُھُولِ وَمَرْتَبَةِ الشُّبُوحِ . وَأَقْلُ الْحِكَايَاتِ فِي اسْتِمَالَةِ «إِمِيل» وَتَحْرِيكِ رَغْبَتِهِ وَمِيلِهِ لَيْسَ بِمَا يُعْهَدُ فِي الشُّعُورِ الْعَامِ وَالْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ أَغْنَى مَا يَجُولُ فِي أَذْهَانِ الْبَاطِنِينَ دُونَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ فِي السَّادِسَةِ أَوِ السَّابِعَةِ فَالْحِكَايَاتُ الْخُرَافِيَّةُ الْقَدِيمَةُ جِدًّا الَّتِي لَمْ يُخَفِّفِ الدَّرْسُ وَالصَّنْعَةُ مَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي الشَّعْرِ الْفِطْرِيَّةِ هِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ نَفْسِهِ مَوْقِعَ الْقَبُولِ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّنِّ .

فَإِنَّ الْحِكَايَاتِ الْمُتَدَاوِلَةَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي نَسْكُنُهُ مَا فِيهِ ذِكْرُ الْمَرْدَةِ وَالْأَغْوَالِ وَالْجِنِّيَّاتِ وَالتَّنَائِيلِ (الْقَصَارِ جِدًّا) وَهُوَ مَا يَذْهَبُ بِنَوْمِ الْأَطْفَالِ فِي لَيْالِي الشَّتَاءِ وَيَحْذِيبُهُمْ إِلَى السَّارِ لِسَمَاعِ تِلْكَ الْقِصَصِ مُحَدِّقِينَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّامِرِ، وَلِيَّ أَنَّ أَتَقَدَّرُ أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مُحْتَمَلَةٌ مِنْ أَشْعَارٍ وَقَصَائِدٍ قَدِيمَةٍ ضَاعَ أَصْلُهَا وَتَنَاقَلَتْ النَّاسُ مَا بَقِيَ مِنْ مَعَانِيهَا مُرَضِّعٌ عَنْ مُرَضِّعٍ وَأُمٌّ عَنْ أُمٍّ حَتَّى اتَّهَتْ الْبِنَاءُ فِي شَكْلِهَا بِخِلَافِ شَكْلِهَا الْأَوَّلِ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا .

(١) يذويها يذبلها . (٢) الحذلقه : إظهار الخلق واذعاء المرء ما ليس فيه .

(٣) السار بقصد المجمع سامر وهو الذي يحدث في الليل . (٤) محدقين ناظرين إليه شديدا .

زَعَمَ عَالِمٌ مِنْ كُورْتُوَايَ الْأَقْبَةِ أَحْيَانًا فِي مَنَزِلِ صَدِيقِنَا الدُّكْتُورِ أَنَّ لَدَيْهِ وَسِيلَةً
هُوَ وَابِقٌ بِأَنَّهَا تُوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَصْلِ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ وَمَنَاشِئِ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ ،
وَالَّذِي فَهِمْتُهُ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ هُوَ أَنَّهُ لَيَسْتَعِينُ عَلَى تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ مِنْ حَيْثُ هُوَ
عَالِمٌ أَثَرِيٌّ بِلُحْنِ^(١) تِلْكَ الْحِكَايَاتِ وَخَوَاطِئِهَا مِنْ^(٢) حَيْثُ مُشَابَهَاتُهَا لِمَا تَحْتَرِعُهُ مِنَ
الْحِكَايَاتِ وَعَدَمُ مُشَابَهَاتِهَا لَهُ ، فَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَلَّمَا كَانَ مَعْنَى الْحِكَايَةِ بَعِيدًا عَنْ
تَصَوُّرِنَا وَاخْتِرَاعِنَا كَانَتْ أَوْغَلُ فِي الْقِدِيمِ فَإِذَا بَحَثْنَا فِي شَأْنِ الْحَيَاتِ فِي هَذِهِ
الْحِكَايَاتِ نَرَى أَنَّهَا فِي الْأَعْصَرِ الْقَدِيمَةِ كَانَتْ تُوصَفُ بِأَنَّهَا جُرَدَاتٌ مَتْرُوبَةٌ عَنِ
النَّاسِ ، شَرِسَةٌ صَعْبَةُ الْمِرَاسِ ، وَقَوَى طَبِيعَةُ رُفِعَتْ إِلَى مَرْتَبَةِ الْإِلَهَةِ وَأُلْبِسَتْ
بِشَعَارِ الدِّينِ ثُمَّ مَا زَالَتْ تَقْرُبُ مِنَ النَّاسِ وَتَتَشَكَّلُ بِسَكَلِي الْإِنْسَانِ قَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ
وَتَأْتِسُّ بِهِ حَتَّى صَارَتْ إِنَانًا يَتَرَوَّجُ بِهَا الرِّجَالُ . وَمِمَّا يَرَوُونَهُ فِي هَذَا أَنَّ رَجُلًا
تَرَوَّجَ جَنِيَّةً وَعَاشَا مَعَا عُمَرَا طَوِيلًا فِي كُوَيْجٍ وَقَدْ كَانَ مِنْ طُولِ أَتْسِيبِهَا أَنَّ نِسِيَّ
كُونَهَا جَنِيَّةً إِلَّا أَنَّهَا فَرَّتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مُتَعَلِّقَةً بِبَعْضِ أَشْعَةِ الْقَمَرِ . كَذَلِكَ شَأْنُ الْمَرْدَةِ
فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلَاثَاتِ الْوَحْشِيَّةَ الْمُشَوَّهَةَ كَانَتْ تُعْرَفُ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ بِأَنَّهَا مَنَارُ
الْوَسَاوِسِ الْمُخِيفَةِ وَالْمَوَاجِسِ الْمُفْزِعَةِ وَيَكُرُّوَرِ الزَّمَانِ وَمُرُورِ الْأَيَّامِ اقْتَرَبَتْ
مِنَ الْإِنْسَانِ فِي أَحْوَالِ مَعِيشَتِهِ وَضَعُفَ سُلْطَانُهَا فِي نَفْسِهِ وَتَأَثَّرَ بِهَا فِي وَهْمِهِ وَخَيَالِهِ
وَتَحَوَّلَ الرَّعْبُ الَّذِي كَانَ مَقْرُونًا بِذِكْرِهَا وَتَصَوُّرِهَا إِلَى الضَّحِكِ وَالسُّخْرِيَّةِ وَهَكَذَا
تَنْتَهِي دَوْلَةُ الْخُرَافَاتِ وَتَرْوُلُ .

(١) لُحْنُ الْكَلَامِ : مَارِضُهُ وَمِزَاجُهُ .

(٢) الْقَحْوَى : الْمَعْنَى .

لَا رَبَّ أَنْكَ وَاقِفٌ عَلَى قِصَّةِ يَعْقُوبَ مُوَابِبِ الْمَرَدَّةِ وَقَاتِلِهِمْ الَّذِي كَانَ
يَعِيشُ فِي كُورُنُوآيَ عَلَى مَا يَرَوَى فِي الْأَسَاطِيرِ (قَامِيلٌ) يُحِبُّ حَدِيثِي عَنْ غَرَائِبِ
هَذَا الشَّابِّ الشُّجَاعِ ابْنِ أَحَدِ الزُّرَّاجِ، وَأَشْهَرُ وَقَاتِمِهِ الَّتِي سَارَ بِحَبْرِهَا الرُّبَّانُ
مَا يَرَوَى أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي جَبَلٍ مِيخَائِيلَ قَدِيسٍ انْجِلْتَرَةٍ وَهُوَ صَخْرَةٌ تَكَادُ تَكُونُ بِإِزَاءِ
مَتْرَلِنَا وَكَانَ الْمَارِدُ الَّذِي يَخْطِفُ النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ قَدْ تَبَوَّأَهَا مَتْرَلًا وَاتَّخَذَهَا مَثْوًى
لَهُ . وَقَدْ كَانَ أَكْثَمَ خِدْمَةٍ قَامَ بِهَا حُمَاةُ الْحَقِّ فِي عُصُورِ الْمَهْمِجَةِ — إِنْ لَمْ أَكُنْ
وَاهِمَةً — هِيَ مُقَاتَلَتُهُمُ السَّلْبَةَ وَالْوُحُوشَ الضَّرِيرَةَ وَقَتْلُهُمْ لَهْمَ فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ قَدْ
طَهَرُوا الْأَرْضَ مِنَ الْعَتَاةِ وَالْبَغَاةِ الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُونَ فِيهَا فَسَادًا . وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ
نَرَى الْيُونَانِيِّينَ قَدْ أَنْصَقُوا فِي رَفْعِ مَكَانَةِ هِرَقْلٍ (١) وَتَرْيِيزِهِ وَجَعَلِيهِمَا مِنْ أَنْصَافِ
الْإِلَهِ كَذَلِكَ فَعَلَ يَعْقُوبُ بِالْمَارِدِ فَإِنَّهُ هَاجَمَهُ فِي مُقَاتَلَتِهِ وَانْتَصَرَ عَلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ
الْوَحْشِيَةِ الْفَاتِكَةِ بِالْحِلْيَةِ فَكَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ خَلْقًا لِأُولَئِكَ الشُّجْعَانِ الْأَقْدَمِينَ .

لِهَذِهِ الْخُرَافَاتِ فَضْلٌ وَفِيْمَةٌ وَلَوْ أَنَّهَا أُلْغِيَتْ مِنَ التَّعْلِيمِ الْقَوْلِيِّ لَأَسِفْتُ
كَثِيرًا فَإِنَّ أَمَامَ الطِّفْلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كُلُّ حَقَائِقِ زَمَانٍ طَوِيلًا يَتَسَنَّى لَهُ فِيهِ
الْإِرْتِيَاضُ بِأَخْلَاقِنَا وَعَوَائِدِنَا الْحَقِيقَةِ، فَلَنَنُفِّسَ فُرْصَةً بِحَجَرِ حَيَاتِهِ الْقَصِيرِ الْأَمَدِ الَّذِي
تَرْتَاحُ فِيهِ نَفْسُهُ لِلْأَحَادِيثِ الْخُرَافِيَّةِ وَتَنَازُلُ بِغَرَائِبِ الْأَسَاطِيرِ لِنُودِعَ فِيهَا أَنْوَاعَ
الْوُجْدَانِ الْأَعْلَى، وَنَبْعَثَهَا عَلَى حُبِّ الْأَعْمَالِ الْحَلِيلَةِ وَالسَّجَايَا الْفُضْلَى، فَإِنَّ طَبْعَ
الطِّفْلِ يَتَكَوَّنُ وَيَتَشَأْ فِي قَوَالِبِ الْمَثَلِ الَّتِي تَكُونُ لَهَا مَكَانَةً فِي نَفْسِهِ عِنْدَ مَا يُلْقَى

(١) هِرَقْلٌ أَوْ هِرَقُولُ الْيُونَانِي كَاهِنٌ فِي الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ (مَنُولُوجِيَا) ابْنُ جُوَيْتِرَ (الْمَشْرِى) كَبِيرُ
الْأَلْفَةِ مِنْ زَوْجَةِ الْكَبَرِيِّ وَأَعْظَمُ الشُّجْعَانِ الْفَنِّ كَانُوا يَقْتُلُونَ النَّتَانِينَ وَالضَّرَارِي وَالْأَمَاعِي الْعَظِيمَةَ .
(٢) تَرْيِيزُهُ مِنْ شُجْعَانِ الْيُونَانِ الْمَشْهُورِينَ وَهُوَ ابْنُ (أَجِيهِ) مَلِكِ أَيْتَا قَتَلَ مِينُوتُورَ وَهُوَ بِسَبَبِ خُرَافَتِهِمْ
وَحُشٍّ نَصَفَهُ أَدَمَى وَنُصِفَهُ ثُورًا وَاشْتَهَرَ فِي وَقَاتِ حَصْرِ الْأَبْدَالِ .

إِلَيْهِ خَبَرَهَا وَنَمَثَلُ لَهُ صُورَهَا . نَعَمْ إِنَّ (إِمِيلَ) لَنْ يَكُونَ قَاتِلَ مَرَدَةٍ — وَأَيَّنَ
الْمَرَدَةُ الْيَوْمَ — وَلَكِنْ قُصَارَى مَا فِي قَصِّ هَذِهِ الْقِصَصِ عَلَيْهِ مِنَ الْفَائِدَةِ أَنَّهَا تَهْزُ
نَفْسَهُ وَتَحْرُكُ نَحْوَتَهُ بِمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ غُرَوَاتِ عَصِيرِ الْأَبْطَالِ، وَلَوْ كُنْتُ أَحَدُ
مِنْهُ اتِّبَاعًا وَشَكَا عِنْدَ مَا أَقْصَى عَلَيْهِ تِلْكَ الْوَقَائِعَ الَّتِي أَبَالِغُ عَنْ قَصْدِي فِي بَيَانِ
إِخْلَاصِ أَبْطَالِهَا وَعُلُوِّ مَقُوسِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ لَسَاءَنِي ذَلِكَ وَأَحْزَنِي .

نَحْنُ فِي سُؤْرِنِ الْحَيَاةِ لَا تَزَالُ دُونَ غَايَاتِ الْكَمَالِ الْمُتَبَعَةِ فَيَجِبُ عَلَيْنَا
— إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمَةً — أَنْ نَجِبَ بِمَا يَرَوَى عَنْ أَوْلَيْكَ الْأَبْطَالِ مِنْ فَضِيلَةِ
الشَّجَاعَةِ وَإِنْ بَدَأَ احْتِمَالُ وَقُوعِهَا حَتَّى لَا نَكُونَ فِي أَسْفَلِ دَرَكَاتِ الْخُنَى .

فِي نَفْسِي أَمْرٌ أَنَا فِي أَشَدِّ الْحَذَرِ مِنَ الْإِفْضَاءِ بِهِ إِلَى (إِمِيلَ) إِسْبِيْنِ أَحَدُهُمَا
أَنَّهُ لَا يَفْهَمُهُ وَالثَّانِي أَنَّهُ يَذْهَبُ بِمَا لِهَذِهِ الْخُرَافَاتِ مِنَ الشَّانِ الرَّفِيعِ عِنْدَهُ، وَهُوَ
أَنَّ تِلْكَ الْمَرَدَةُ الَّتِي هِيَ مَوْضُوعُ تِلْكَ الْأَسَاطِيرِ لَيْسَتْ سِوَى اشْتِخَاصِ هَذِهِ الصُّخُورِ
الْكَثِيرَةِ فِي كُورُونَوَى . فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْأَجْرَامَ الصَّوَانِيَّةَ الْهَائِلَةَ تَحْتَمِلُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ أَقْصَى مَا قَدَّرَ فِي هَذَا السَّالِمِ عَلَى كُلِّ قُوَّةٍ ذَاتِ مُقَاوِمَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ أَنَّ
تَحْتَمِلُهُ ذَلِكَ أَنْ تَبَالَا كَانَ يَسْلُقُ تِلْكَ الصُّخُورَ الْعَظِيمَةَ الْمُحِيطَةَ بِذَلِكَ الْمَبْكَانِ الَّذِي
يُسَمُّوهُ نِهَايَةَ الْأَرْضِ (Land's End) وَيَنْقُرُ بِأَدَاةٍ مِنَ الْحَدِيدِ ثُقْرَةً يَضَعُ
فِيهَا قِرْطَاسًا مِنَ الْبَارُودِ ذَا قِتْلَةٍ وَيُسْمِلُ الْقِتْلَةَ وَيَكْرِ رَاجِعًا فَيَكُونُ الْإِفْجَارُ
وَيَتَصَدَّعُ الصُّخْرُ وَتَتَزَلُّزُ الْأَرْضُ وَيَضْطَرِبُ الْبَحْرُ . فَيَعْدِلُونَ فِي الْأَسَاطِيرِ مِثْلَ
هَذَا التَّزَلُّزِ وَالْإِضْطِرَابِ يُسْقُوطُ الْمَارِدُ .

يَتَرَامَى لِي أَنَّ عَمَوَ الْخَيَالَاتِ مِنْ أَهْوَائِ الْأَطْفَالِ لَا يَفِيدُ الْمُرِينَ شَيْئًا فَإِنَّ
تِلْكَ الْحِكَايَاتِ وَالْقِصَصِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ الْأَطْفَالُ يُقْتَنُونَ بِهَا لِمَا فِيهَا مِنْ
السَّادَجَةِ وَالْفَرَاغَةِ ؟ لَقَدْ ضَاعَتْ وَتُسِيتْ وَصَارَ عَصْرًا هَذَا وَهُوَ عَصْرُ الْقِصَصِ
وَالرَّوَايَاتِ الْخَيَالِيَةِ أَعَدَّ الْأَعْصِرَ عَنِ الْقِصَصِ وَالْأَسَاطِيرِ الْمَذْكُورَةِ ، فَإِنَّ الْقِصَصَ
الَّتِي تُدَوِّنُهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ لَا تُمَثِّلُ إِلَّا الْوَقَائِعَ الْمَعْهُودَ لِلنَّاسِ نَظَائِرُهَا ، لِأَنَّهَا بِمَا
كُنَّا مِنْ أَهْلِ الْحَقَائِقِ الْمُعْتَمِدِينَ عَلَى الْوَقَائِعِ الثَّابِتَةِ وَمِنْ سُكَّانِ الْمُدُنِ الْأَهْلَةِ
وَالْحَوَاضِرِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْوَهْمِ وَالتَّخِيلِ كَانَتْ عَابِتِنَا فِي التَّرْبِيَةِ مَحْصُورَةٌ فِي إِيدَاجِ
جَمِيعِ أَذْوَاقِنَا وَرَغَائِبِنَا فِي نَفْسِ أَوْلَادِنَا . أَقُولُ مَا قُلْتُ لَا لِأَنِّي أَدْعِي الْحِكْمَةَ
وَالْعِلْمَ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ دَعْوَى الْإِشْرَافِ عَلَى الْغَيْبِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ ؛
وَلَكِنِّي أَسْأَلُ نَفْسِي عَنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ صَارُوا شُبُوحًا وَهَمًّا فِي سِنِّ
الْبَنَانِ ، وَقَدْ قَطَعْنَا عَلَيْهِمْ طَرِيقَ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ ، فَتَحْنُ نَمْلَهُمْ قِيَمَةَ النِّفْضَةِ وَهُمْ
فِي طَوْرِ يَجْهَلُونَ فِيهِ الْحَسَنَ الْمَطْلُوقَ وَالْجَمَالَ النَّاقِصَ . وَمِنْ الْعَبَثِ أَنَّ يُقَالُ إِنَّ
مَا تَصِفُهُ لَنَا الْأَسَاطِيرُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْمَزَايَا الْعَظِيمَةِ لَا أَثَرُ لَهُ فِي الْوُجُودِ ،
فَإِنْ عَدَمَ وَجُودَ أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ الْمَوْصُوفِينَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْمَزَايَا
فِي أُنْدِيَتِنَا وَمَنَازِلِنَا ، وَعَدَمَ تَجَمُّوْلِهِمْ فِي أَسْوَاقِنَا وَشَوَارِعِنَا ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ
الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحْمِلُنَا عَلَى عَدَمِ إِنْجَاحِهِمْ وَطَرْدِهِمْ مِنْ جَنَّةِ الطُّفُولِيَّةِ حَيْثُ يَتَمَعُّ
الْأَطْفَالُ ، فِي عَالَمِ التَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ . فَاسْتَحْلِفِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ التَّرْبِيَةِ بِاللَّهِ (تَعَالَى)
أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ مَتَبَوًّا فِي الْبُيُوتِ . وَأَمَّا أَنْتَ يَا عَالَمَ الْخَيَالِ مِنَ الْحَيَاتِ وَالْأَبْطَالِ
الَّذِي هَزَزْتَ قُلُوبَنَا فِي طَوْرِ الطُّفُولِيَّةِ ، وَحَرَّكَتَ نَفْسَنَا لِمَخَيَّرَاتِ وَالْقَضَائِلِ

النَّفْسِيَّةِ ، بِمَا كَشَفَتْ مِنَ النَّقَابِ عَنْ وَجْهِ الْكَمَالِ ، وَابْرَزَتْ مِنْ مَظَاهِيرِ الْجَمَالِ
وَالْجَلَالِ فَلَا تَزُلْ وَلَا تَحْتَجِبُ عَنَّا فِي جَوْ هَذَا الْعَصْرِ الْوَحِيمِ ، الْمُثْقَلِ بِضُرُوبِ
الْحُسْبَانِ وَالْهُمُومِ ، الَّتِي شَغَلَتْ أَهْلَهُ الْأَغْرَاضُ الْمَادِيَّةُ ، وَطَلَبُ الْمَنَافِعِ
الْحُسْبَانِيَّةِ ، فَإِنَّا نَصْغُرُ وَنُحْتَقِرُ إِذَا صَرَفْنَا أَوْلَادَنَا عَنِ الْإِعْتِقَادِ بِعَظَمَتِكَ الْخَيَالِيَّةِ
الَّتِي عَلَّمْتَنَا الْحُسْنَ الدَّائِيَّ وَالْعَظَمَةَ الْحَقِيقَةَ .

أَرَى مِنَ الْخَطَا أَنْ تُتَابَ هَذِهِ انْخِرَافَاتُ يُعِيدُنَا عَنِ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ هَذَا وَإِنْ
كَانَ مَذْمُومًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا فَهُوَ عَمُودٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى طَوْرِ آخَرِينَ أَطْوَارِ الْعُمُرِ فَإِنَّ
يُظْهِرُ لَنَا بَعِيدًا عَنِ الْحَقِيقَةِ حَقِيقَةً فِي فَظْرِ الطِّفْلِ . أَخَذْتُ هَذَا الْحُكْمَ مِنْ طَبَعِ
(إِيمِل) الَّذِي أَتَّبَعْتُ بِأَنِّي سَمِعْتُهُ وَخَبَرْتُهُ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ سَمَاعِهِ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ مُتَدِينًا
بِطَرِيقَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ ، وَلَهُ قُوَّةٌ عَجِيبَةٌ فِي ابْتِدَاعِ الصُّوَرِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي يَمْتَارُ بِهَا الْإِنْسَانُ
فِي طَوْرِ الطُّفُولِيَّةِ وَتَضَعُفُ فِي سَائِرِ أَطْوَارِهِ بِالتَّدْرِيجِ . فَإِنَّهُ يَرَى وَرَاءَ كُلِّ حَادِثَةٍ
كُوْنِيَّةٍ كَالْمَطَرِ وَالرَّيْحِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ قُوَّةَ حَيَّةٍ بَلْ ذَاتًا مُشَخَّصَةً ، فَقَدْ فَرَمْتُ
أَيَّامَ مِنَ الْبُسْتَانِ مَذْعُورًا لِأَنَّهُ رَأَى مَحَابًا مَرَكُومًا ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ بِأَشْكَالٍ غَرِيبَةٍ
وَقَالَ لِي إِنَّهُ رَأَى فِيهِ رَأْسَ شَيْخٍ ذِي لِحْيَةٍ بَيْضَاءَ . أَلَيْسَ لِمِثْلِ هَذَا التَّأَثُّرِ النَّاشِئِ
مِنَ الْخَوْفِ خَوْفِ الْإِجْلَالِ وَالْأَعْظَامِ الْمُفْضَلِ فِي إِدْرَاكِ أَوَّلِ مَعْنَى لِلْأُلُوْهِيَّةِ
فَهَيْمَةُ الْإِنْسَانِ ؟ ٩ اهـ

الرسالة الواحدة والثلاثون

(مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسَمَ فِي ١٥ مارس سنة - ١٨٥)

تَعْلِمُ الْقِرَاءَةِ وَالْخَطِّ وَالرَّسْمِ

مَكَاتِمَ (إِمِيلُ) الْقِرَاءَةِ وَلَا يَكَادُ يَعْرِفُ حُرُوفَ الْهَمَاءِ وَرُبَّمَا كُنْتُ أَنَا
 الْمُلُومَةُ عَلَى ذَلِكَ لِأَنِّي لَمْ أَحْتِ عَلَى التَّعْلِيمِ إِلَّا قَلِيلًا . ذَلِكَ أَنِّي لَا أَنْفَكَ أَذْكَرُ تِلْكَ
 الْقَضَايَةَ وَالْكَرَاهَةَ لِلتَّعْلِيمِ الْأَوَّلِ وَمَسَبِّهَا عَلَى مَا أَرَى - إِلَّا الْإِكْرَاهَ عَلَيْهِ وَهَضْمَ مَا كَانَ
 يَجِبُ لِطِفْلَةٍ صَغِيرَةٍ مِثْلِي مِنْ حَقِّ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِخْتِيَارِ . وَارَى أَنَّ حَمْلِي « إِمِيل » عَلَى
 اتَّعْلِيمِ - لِأَنِّ فِيهِ سَعْيٌ كَمَا كَانَ يُقَالُ لِي - جَنَابَةٌ عَلَيْهِ لِأَنَّ عَاقِبَةَ هَذِهِ الْحُجَّةِ أَنْ يُطْعَمَ
 النَّاشِئُ عَلَى التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَالْإِقْتِدَاءِ بِالنَّاسِ فِي جَمِيعِ عَادَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفَرُّقٍ بَيْنَ
 الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ . وَلَمْ تَخَارُ رُكُوبَ الصُّعْبِ فِي هَذِهِ السَّيْلِ وَلَدَيْنَا الْمَرْكَبُ الدَّلُولُ
 وَهُوَ حَمْلُ الطِّفْلِ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالنَّشِيقِ وَالتَّنْوِيهِ بِمَا فِي الْمَطَالَعَةِ مِنَ اللَّذَّةِ فَقَدْ
 يَسْتَعْنِي الْإِنْسَانُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجْهَلُ فَوَائِدَهَا وَمَزَايَاهَا .

أَنَا جَاهِدَةٌ فِي تَلْمِيزِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي تُنَبِّهُ اشْتِيَاقَ « إِمِيل » إِلَى الْحُرُوفِ الْمَطْبُوعَةِ
 وَتَبْعَثُ فِيهِ الْمِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا . وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الْقِصَصَ الْعَجِيبَةَ وَالْأَسَاطِيرَ الْفَرَسِيَّةَ
 الَّتِي أَفْكُهَا بِمِلْحَتِهَا وَأَقَاكِهَا كُلُّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكُتُبِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَّ يَهُ الْمِيلَ
 وَتَحْمِلُهُ الرُّغْبَةُ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ مِنْ مَصَادِرِهَا وَيَسْتَخْرِجَهَا مِنْ بَيْنَايِمِهَا
 بِنَفْسِهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . وَإِذَا تَوَلَّدَتْ فِيهِ الرُّغْبَةُ يَوْمًا مَا هَكُلَ مَا بَعْدَهَا يَتَجَمَّهَا
 مِنْ نَفْسِهِ وَاتَّبَعِي لَا أَقْنَأُ أَنْتَظِرُ تَوَلُّدَهَا وَإِنْعَانَهَا الْحَسَنَ فِيهِ وَقَدْ طَالَ تَأَخُّرُهَا .

تَحْنُ مَعَ صِدْرِيَةِ الْقِرَاءَةِ حَاسَّةً سَادِسَةً لَنَا بِمَا رَحَّخَتْ مَلَكَتُهَا فِينَا لَمْ نُحِطْ
خُبْرًا بِالْعُقَبَاتِ الَّتِي تُحَوِّلُ دُونَ وَصُولِ الطِّفْلِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ بِسُهُولَةٍ،
وَأَنَا بَاحِثُهُ عَمَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَفْشًا لِهَذِهِ الْعُقَبَاتِ النَّائِيَةِ الرَّاسِخَةِ وَيَسْقُ عَلَى
الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا كَانَ مَفْشُهَا أَنَّ مَا دُونَ عِلْمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ
يُسَاعِدُ بَعْضَهَا عَلَى مَعْرِفَةِ بَعْضٍ، وَيُعِدُّ مُتَعَلِّمَ أَحَدِهَا وَيُؤْهِلُهُ لِفَهْمِ الْآخَرِ إِذَا هُوَ
انْتَقَلَ إِلَيْهِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الصَّلَةِ وَاتِّحَادِ طُرُقِ الدَّلَالَةِ . وَأَمَّا عِلْمُ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ
فَإِنَّهُ يُخَالِفُهَا فِي ذَلِكَ لِإِقْطَاعِ الصَّلَةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَشْكَالِ وَالرُّسُومِ
الصَّنَاعِيَةِ الَّتِي وَضِعَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهَا . فَإِذَا انْتَقَلَ الْمُتَعَلِّمُ مِنْ مُسَمِّيَاتِ الْأَشْيَاءِ إِلَى
أَسْمَائِهَا الْمَرْسُومَةِ فِي الْوَرَقِ انْقَطَعَ الْإِتِّصَالُ بِهِ قَبْلًا .

لَا يَصْعُبُ عَلَى «إِمِيل» أَنْ يُمَيِّزَ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ صُورِ الْأَشْخَاصِ الْمَرْسُومَةِ وَجُوهَ
أَعْمَامِهَا إِذَا كَانَ رَآهَا لِأَنَّ الشَّكْلَ فِي الصُّورَةِ وَالْمُصَوِّرِ يَكَادُ يَكُونُ وَاحِدًا، فَأَمَّا
الْأَسْمُ الْمَكْتُوبُ فَإِنَّهُ لَا يُمَثِّلُ لَهُ شَخْصَ الْمُسَمَّى بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فَهَلْ تُوجَدُ طَرِيقَةٌ
لِرَبْطِ هَذَيْنِ التَّوَعَيْنِ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي فِكْرِهِ وَاعْنِي هِيَمَا الرَّسْمِ وَالْكِتَابَةِ ؟ هَذَا أَمْرٌ
يُطْلَبُ مِنْكَ الْجَوَابُ عَنْهُ .

أَنَا أَكَلَمُ (إِمِيل) بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ أَهْلِ كُورْنَوَيْ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ فَهُوَ يَهْدِيهِ
الطَّرِيقَةَ يَتَعَلَّمُ لَفْظَيْنِ مِنَ اللُّغَاتِ الْمُصْرِيَّةِ بِلَا مَشَقَّةٍ بَلْ لَا حَرَجَ عَلَى إِذَا قُلْتَ بِلَا
شُعُورٍ مِنْهُ بِذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْقُطُ فِيهِمَا غَلْطًا غَرِيبًا فَيَمِزُجُ أحيانًا بَعْضَهُمَا بِبَعْضٍ مَزْجًا
يَكُونُ مِنْ أَشَدِّ الْأَصَاحِيكِ اسْتِضْغَاكًا . مَثَلُ لِنَقِيسِكَ غُلَامًا يَقُولُ مُخْبِرًا لَكَ أَنَّهُ

يُرِيدُ الْخُرُوجَ (Je voudrais to go out) أَلَسْتَ تُقَرِّبُ لِهَذَا الْخَلِطِ صَحِيحًا؟
 لَا غَرْوً، فَمَا كَانَ تَكُونُ اللُّغَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ فِيمَا سَبَقَ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ وَهِيَ
 تَجَاوُرَ جَنْسَيْنِ مُتَمَازَيْنِ وَاخْتِلَاطُهُمَا زَمًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ . أَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّي أَعْلَمُ
 (إميل) وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُعَلِّمِي لِأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ عَيْنِي وَهَدَانِي إِلَى عِدَّةٍ مَسَائِلَ ذَهَبَ
 تَعَبِي فِي الْبَحْثِ عَنْ حَلِّهَا فِي الْكُتُبِ سُدَى . وَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُصَدِّقُنِي إِذَا قُلْتُ
 لَكَ إِنَّهُ يُعَلِّمُنِي النَّارِيخَ .

يَعْرِفُ (إميل) الرِّسْمَ وَالتَّصْوِيرَ وَإِنْ كَانَ لَمَّا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ فَهَلْ وَلِدَ
 مَصُورًا وَرَسَامًا؟ لَا أَنْكَرُ أَنَّ النَّظَرَ إِلَى خَرَائِشِهِ بَضْعُفٌ هَذَا الْإِعْتِقَادَ أَوْ يَذْهَبُ بِهِ
 وَلَيْكُنَّهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ صُورَ آدَمِيِّنَ وَحَيَوَانِيَّ وَمَسَاكِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهُوَ لَا يَكْتَفِي
 بِأَنْ يُحَاكِ بِأَقْلَمِهِ الْقَادِي أَوْ الرِّصَاصِي شَكْلَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بَصَرُهُ بِحَسَبِ مَا يَتَّفِقُ لَهُ بَلْ
 أَرَاهُ يُحَاوِلُ التَّعْبِيرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْوُجْدَانِ وَمَا فِي فِكْرِهِ مِنَ الْحِكَايَاتِ
 بِمَا يَرِثُهُ عَلَى هَذِهِ الْأَوْرَاقِ مِنْ خَرَائِشِ الْخُطُوطِ وَالصُّوَرِ . أَنْظُرْ كَيْفَ حَاوَلَ أَنْ
 يَكْتُبَ إِلَيْكَ مَكْتُوبًا — اسْتَغْفِرُ اللَّهَ قَدْ أَخْطَأْتُ فِي كَلِمَةٍ يَكْتُبُ مَكْتُوبًا وَكَانَ
 يَنْبَغِي أَنْ أَقُولَ : يَرِثُ لَكَ خَطًا بِرَبَائِيَا وَأَنَا لَاخْشَى أَنْ يَصْعَبَ عَلَيْكَ فَهَمَّ الرِّسْمِ
 الَّذِي يُرْسِلُهُ إِلَيْكَ نَارَجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا فِي هَذِهِ الدَّفْعَةِ شَامْبُولِيُونُ هَذَا الرِّسْمِ قَافُولُ :
 (١) مدعاة الضحك في هذا هي أن لفظي (Je Voudrais) فرنسيان ومعناها أود لو وكنتي

(to go) انجليزيان ومعناها أن أخرج نخلط بين اللفظين في جملة واحدة . (٢) لا غرو : لا عجب .

(٣) الخرائش جمع خرايش أو خريوش وهي الخطوط الفاسدة غير المنتظمة ويقال خربش الخط .

(٤) البرباي الخط الذي يوجد على جدران البرابي وهي هياكل ومعابد معروفة في مصر .

(٥) شامبوليون هو أول من حل الخط البرباي المير ولفظي بقراءة حجر رشيد المشهور .

يُمَثِّلُ لَكَ الرَّسْمُ رِيًّا عَصُوفًا هَبَّتْ لِلْبَلَتَيْنِ مِنْ شَهْرِ إِيرِيلَ وَظَلَّتْ تَعِصِفُ
إِلَى اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ مِنْهُ وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَحْصُلُ هُنَا نَادِرًا، وَلِلَّهِ بَيُوتًا فَإِنَّهَا مَبْنِيَّةٌ
بِالصَّوَانِ (وَهُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الصَّوَانِ) وَأَوَّلًا ذَلِكَ لَتَدَاعَتْ أَوْ لَتَدَكَّتْ بِقُوَّةِ
العَوَاصِفِ وَالْأَعَاصِيرِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَضْطَرِبُ لَهَا هُنَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْمَاءُ . عَلَى
أَنَّ الْبَحْرَ لَمْ يَرْمُدْ سِنِينَ يُمَثِّلُ هَذَا الاضطرابَ الَّذِي أَحْدَثَتْهُ هَذِهِ الْعَاصِفَةُ وَلَا يَجِدُ
الْوَاصِفُ لِهَذِهِ الْحَالَةِ وَصْفًا إِلَّا أَنْ يَقُولَ : إِنَّ حِجَابَ الرُّوحِ وَالْفَرْجَ قَدْ أُسْدِلَ
عَلَى هَذَا الْكَوْنِ الَّذِي لَا نِهَآيَةَ لَهُ .

لَا يُسْمَعُ مِنْ لَفِظِ النَّاسِ الْمَشْهُومِ فِي هَذِهِ الْحَالِ إِلَّا أَخْبَارُ الْغُرَقِ وَالْغُرَقِ تَرْدَدُ مِنْ
سَاحِلٍ إِلَى سَاحِلٍ، وَلَمْ يَكُنْ خُفَرَاءُ السَّوَاحِلِ يَوْمَئِذٍ هُمْ مَنْدُ طَلَعَ الصَّبَاحُ إِلَّا مَرَاقِبَةُ
الْبَحْرِ الْهَائِجِ بِمَنَاطِيرِهِمُ الْمُقَرَّبَةِ لِلْبَعِيدِ يَصُوبُونَهَا إِلَى الْأَفَقِ مِنْ عَلَى تِلْكَ الصُّخُورِ
الْوَعْرَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْخَلِيجِ، وَكَانُوا لَا يَكَادُونَ يُبْصِرُونَ فِي ضَوْءِ ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْمَلُونِ
يُخْضِرَةُ الْبَحْرِ الْخَوَاءِ (الضَّارِبَةِ إِلَى سَوَادٍ)، عَلَى أَنَّ أَشْعَةَ أَبْصَارِهِمْ قَدْ تَحَرَّقَتْ تِلْكَ
الْحُجُبَ الْجَوِّيَّةَ، وَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُمْ مَيَّزُوا عَلَى بَعْدٍ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ الْأَمْوَاجِ الْمُتَرَاكِبَةِ
الْمُصْطَلِحَةِ سَوَادَ سَفِينَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي شَيْءٍ مُخِيفٍ فَانْكَسَرَتْ سَارِيَتُهَا الْكُبْرَى
وَتَحَطَّمَتْ جَوَانِبُهَا فَسَقَطَتْ تَضْطَرِبُ كَحُوتٍ أُصِيبَ بِمُجْرُوحٍ عَظِيمَةٍ فَصَارَ يَقْلُبُ
عَلَى جَنْبِهِ وَكَانَ مِمَّا يُثِيرُ الْخَوْفَ أَنَّ الْأَمْوَاجَ الَّتِي كَانَتْ تَهْجِئُهَا الْعَوَاصِفُ قَعَلُوا
بِفَنَاءِ كَالْجِبَالِ رُبَّمَا تَدَاوَلُ السَّفِينَةُ الْمُتَلَفَّةُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَتَقْدِفُهَا عَلَى تِلْكَ

الصُّخُورِ الصَّمِّ . وَصَارَ يَتَسَنَّى لِلْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ الْحَوِّ الْمُطْبِقِ الْمُحْزِنِ أَنْ يُعَيَّرَ فِي صَوْنِهِ السَّنَجَابِيَّ اللَّوْنِ أَيْدَى النَّاسِ فِي السَّفِينَةِ تُشِيرُ بِقَطْعٍ مِنَ الشَّرَاحِ .

لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حَبْنٌ مِنْ أُمْنِيَّةٍ إِلَّا نَجَاةٌ هَؤُلَاءِ الْفَرَقِ، عَلَى أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ صُعُوبَةَ إِتْقَانِهِمْ وَتَمَسُّرَهُ، نَعَمْ إِنَّ أَهْلَ كُورَنَوَى أَوَّلُو تَعْجَاعَةٍ وَتَجَدَّةٍ وَلِكِنِّهِمْ مَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُ حَذَرٍ وَفُطْنَةٍ . هَذَاتِ الرِّيحُ قَلِيلًا بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ كَائِدَةً شَاحِبَةً وَالْبَحْرُ مَا زَالَ مُتَمَدِّيًا فِي طُفْيَانِهِ مُصْرًا عَلَى عُدُونِهِ، فَكَانَ يُجِبُّ لِرَأْيِهِ أَنَّهُ يُجَرِّكُ بِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ أَخَذَتْهُ حِمَى نَافِضٌ^(٢) مِنَ الْقَاصِفِ^(٣) فَاحْدَثَتْ فِيهِ هَذِهِ الْقُوَّةَ الْعَجِيبَةَ فِي الرُّعْدَةِ وَالْأَضْطِرَابِ، وَكَانَ بَعْضُ الصَّبَّادِينَ الْمُحَنِّكِينَ يَرْمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى الْأَمْوَاجِ يَتَّبِعُونَ حَرَكَاتَهَا بِأَعْيُنِهِمُ الْمُدْرِبَةَ ثُمَّ يَنْغَضُونَ رُءُوسَهُمْ وَتَعْلُو وَجُوهَهُمْ كَابَةَ الْيَأْسِ، وَكَانَ لِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ : لَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ عَلَى إِتْقَانِ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ .

أَتَى عَلَى النَّاسِ نَحْوُ نِصْفِ سَاعَةٍ وَهُمْ يَتَرَاوَحُونَ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالرَّجَاءِ كَانَ عَلَيْهِمْ كَنْصِفِ قَرْنٍ . ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ بَعْضَ إِخْوَانِهِمْ بَيْنَ مَحَلِّ الْمَوْتِ وَنَائِيهِ وَهُمْ يَرْجُونَ مِنْهُمْ النَّجْدَةَ فَلَا يَجِدُونَ لِإِتْقَانِهِمْ سَبِيلًا وَبَيْنَمَا هُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِذَا بِزُرُوقِ النَّجَاةِ قَدْ أَحْضَرَ فَصَاحَ النَّاسُ صَبِيحَةً وَاحِدَةً كَانَتْ مُنْبَعَثَةً عَنْ جَمِيعِ الصُّدُورِ، وَهَذَا الزُّرُوقُ يُعْدهُ الْمَلَاخُونَ لِلدَّوَاهِي الْكَبِيرَةِ وَقَدْ أَحْضَرَ قُوَّةَ السَّوَاعِدِ وَالْخَيُْولِ وَوُضِعَ فِي مَكَانٍ مِنَ السَّاحِلِ يَرْجَى مِنْهُ الْوُصُولُ إِلَى الْفَرَقِ وَمَا عَمَّ أَنْ أَمْتَلَأَ بِالنَّاسِ عَلَى وَهْنِهِ وَخِيفَتِهِ، وَعَظِيمِ الْخَطَرِ فِي رُكُوبِهِ، وَقَدْ تَحَمَّلَ «قُورِيدُونُ» الَّذِي تَطَوَّعَ

(١) الصم الغليظة الشديدة . (٢) حى نافض هو الحى الذى فيها رعدة .

(٣) القاصف الشديدة التى تكسر ما يلاقيها .

فِي هَذِهِ الْخِدْمَةِ مُنْذُ سِتِّينَ أَوْ ثَلَاثِ كُلِّ مَشَقَّةٍ فِي الدُّوْدِ عَنْ مَكَانِهِ وَحَفِظَ مَجْدَانِهِ
وَكَانَ الَّذِينَ رَكِبُوا الزُّورُقَ يَحْسُونَهُ عَلَى شَرَفِ التَّمَرُّضِ لِمَتَانِلِ الْمَحِيطِ وَفَخَاخِهِ،
وَمَا تَجَحَّ فِي ذَوْدِهِ وَدَفَاعِهِ هَذَا إِلَّا قُوَّةُ حُقُوقِهِ الْمُكْتَسَبَةِ بِسَابِقِ هَذِهِ الْخِدْمَةِ .
أُنْزِلَ الزُّورُقُ فِي الْبَحْرِ وَأَحْتَى الْمُجَدِّفُونَ الْجَارِشُونَ عَلَى مَقَاعِدَ تَعْلُو نِصْفَهَا الْأَمْوَاجُ
وَأَوْغَلُوا فِي الْبَحْرِ وَكَانَ «إِمِيل» عَلَى مَا أَرَى -يَأْسُفُ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ السِّنِّ وَالْقُوَّةِ
مَا يُؤَهِّلُهُ لِمُسَاهَمَةِ رَفِيقِهِ قُوَيْدُونَ فِي هَذِهِ السَّيَاحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى جَرَاءَةِ الْجَنَانِ، وَشَرَفِ
الْوَجْدَانِ، وَأَرَاهُ قَدْ اكْتَسَبَ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ مِنَ الْعِبَرَةِ بِإِخْلَاصِ الْمُتَخَلِّصِينَ،
وَالْأُسُوءَةِ بِإِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ، مَا لَا أُبِيعُ لِنَفْسِي التَّعْيِيرَ عَنْهُ بِالْكَلَامِ، وَحَاوَلَةَ
شَرْحِهِ بِقِصَصَاتِهِ الْبَيَانِ، لِثَلَا أَضْعَافٍ مِنْ قُوَّتِهِ، وَأَشْهُوهُ مِنْ صُورَتِهِ فَإِنَّ حُضُورَ
الْمَشَاهِدِ الْعِظَامِ، وَرُؤْيَا الْأَخْطَارِ الْجَسَامِ، تُعَلِّمُنَا بِغَيْرِ كَلَامٍ، وَتَرْبِيَانَا بِدُونِ إِزْزَامٍ.

غَابَ الزُّورُقُ سَاعَاتٍ وَالنَّاسُ فِي قَلْبِي مُيِّتٌ وَإِذَا بِصَائِحٍ يَصْبُحُ : هَا هُوَذَا
رَاجِعٌ، وَكَانَ يَقْرَبُ مِنْ الشَّاطِئِ حَقًّا وَالنَّاسُ فِي رَيْبٍ مِنْ تَجَاحِهِ فِي مَسْعَاهُ
الشَّرِيفِ . وَمَا كَانَ أَشَدَّ شَجَاعَتَهُ فِي مُسَاوَرَةِ غَضَبِ الْأَمْوَاجِ النَّارَةِ ! وَأَنْتَ وَلَا شَكَّ
تَعْرِفُ مَا تَأْتِي بِهِ صِنَاعَةُ الْمَلَاحَةِ مِنْ هَذِهِ الْعَجَائِبِ، أَعْنِي الزَّوَارِقَ الْمُتَشَاةَ مِنَ الْهَوَاءِ
وَالْبُلُوطِ الَّتِي هِيَ فِي الْخِفَةِ كَالرَّيْسَةِ وَفِي الْقُوَّةِ وَالْمَتَانَةِ كَمَا يُحِبُّ الْخَيْرَ وَرَضَى .
كَانَ يُحِيلُ لِلرَّائِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ إِنَّ الْفَوَاعِلَ الْكُونِيَّةَ الْمُصْطَلِحَةَ سَبَّلَتْ بِقُوَّتِهَا هَذِهِ
الصَّدْفَةَ الْحَشِيَّةَ الَّتِي تَطَاوَلَتْ بِجَرَاءَتِهَا إِلَى مُنَازَعَةِ الْبَحْرِ فِي غَنِيمَتِهِ وَلَكِنَّهَا تَطَاوَلَتْ
فَطَالَتْ وَحَارَبَتْ فَظْفِرَتْ؛ فَكَانَ هَذَا الزُّورُقُ كَانَ إِنْسَانًا يَسْبَحُ وَقَدْ أَعْطَتْهُ جِنَّةٌ

طَلَسْمَهَا لِيَتَّقِيَ بِهِ مُفْزِعَاتِ النَّوَى ، وَمَا كَانَ أَبَدَعَ مَنَظَرَ رِجَالِهِ وَالْمَاءُ يُتَدَفَّقُ مِنْ
فَوْقِ قَلَانِسِهِمِ الْمُشْعَمَةِ وَيَسَاهِمِ الْمُزَيَّتَةِ وَهُمْ رَاجِعُونَ أَعْرَاءَ ظَافِرِينَ ، وَإِنْ كَانَ
الْمَوْجُ نَالَ مِنْهُمْ وَرَكَ أَجْسَامُهُمْ كَأَجْسَامِ الضَّفَادِعِ وَتَحَوَّاهَا مِنْ حَيَوَانِ الْمَاءِ ،
وَقَدَفَ بِهِمْ أَحْيَانًا فِي مَهَاوِي عَمِيقَةٍ كَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَطَفَرَهُمْ أُخْرَى إِلَى قُنَيْنٍ
عَالِيَةٍ كَشَعَاغِ الْجِبَالِ يَظْهَرُونَ بِهَا لِلْأَبْصَارِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ السَّيِّمِ ، وَكُلَّمَا غَلَبَهُمُ
الْأَمْوَاجُ عَلَى مَجَادِيْفِهِمْ فَتَرَعَتْهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ بَادَرُوا إِلَى اسْتِرْجَاعِهَا بِقُوَّتِهِمْ كَمَا يَأْخُذُ
الشَّجَاعُ سِلَاحَهُ مِنْ عَدُوِّهِ . صَاحَ قَوْمٌ مِنَ الْمَلَّاحِينَ كَانُوا عَلَى صَخْرَةٍ قَائِلِينَ : « نَجُوا » .

فَلَمَّا سَمِعَتْ هَذَا الصَّبَاحُ شَخَصَتْ بِبَصَرِهَا إِلَى الزُّورِيِّ الَّذِي كَانَ يَدُونُ مِنَ
الشَّاطِئِ دُنُوًّا غَيْرَ مَحْسُوسٍ وَأَنشَأْنَا نُمِيزُ بَيْنَ رِجَالِ الزُّورِيِّ ثَلَاثَةً مِنَ الْفَرَقِ شَاحِبِي
الْلَوْنِ مُحُوبًا مُفْزِعًا وَقَاةً صَغِيرَةً لَيْسَ فِيهَا أَذَى عَلَامَةٍ عَلَى الْحَيَاةِ .

وَصَلَ الزُّورِيُّ بِمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَرَمَا فِي مَرَسِي مِنَ الْمَرَامِي الْمَحْمِيَةِ بِالْخَلِيجِ
فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ تَلَقَّقْتُ بَعْضَ التَّفْصِيلِ عَنْ حَادِثَةِ الْفَرَقِ فَلَمَعْتُ أَنَّ إِنْقَاذَ الْفَرَقِ كَانَ
عَسْرًا خَطِرًا ، وَأَنَّهُمْ لَقَوْا الْأَلَاقِي الشَّدِيدَةَ ، وَيُظَنُّ أَنَّهُمْ قَضَوْا يَوْمَيْنِ عَلَى الطَّوَى .
وَقَدْ وَجَدُوا مُعْشَشِينَ كَالطَّيْرِ الْبَحْرِيِّ حَوْلَ بَقَايَا أَدْوَاتِ السَّفِينَةِ الَّتِي لَمْ يَدْرَهَا
الْبَحْرُ كُلُّهَا تَدْمِيرًا ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ لَمَّا صَارُوا عُرْضَةً لِجَمِيعِ شَدَائِدِ الْجَوِّ تَسَلَّقُوا
هَذَا الْمَوْضِعَ الْحَرِجَ عِنْدَ اغْتِيَالِ الْأَمْوَاجِ سَطْحَ الْمَرْكِيبِ وَتَبَتُّوا فِيهِ بِخَوَارِقِ الشَّجَاعَةِ

(٢) الألاق : الشدائد .

(١) الثعاف دوس الجبال .

(٣) الطوى : الجوع .

وَقَدْ تَعَبَ مُتَقِدُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ الْحَبَالِ مِنْ أَيْدِيهِمْ الَّتِي أَيْسَسَهَا الْبَرْدُ، وَكَانُوا عَاجِزِينَ حَتَّى بَعْدَ تَجَانُّهِمْ عَنْ مُدَاقَعَةِ النَّعَاسِ الَّذِي كَانَ يُبْنِخُ عَلَيْهِمْ بِكَلَالِهِ .

كَانَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ : مَنْ هُمْ وَمِنْ أَيْنَ أَتَوْا ؟ وَمِمَّا كَانَ يَزِيدُ فِي سُوءِ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يُحْدِثُونَ جَوَابًا لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْهَمُونَ خَطَابًا فَحَسِبَتْ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ غَيْرَ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ نَفَا عَلَيْهِمْ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَالْأَلْمَانِيَّةِ بَلْ اسْتَفْتَدَتْ جَمِيعَ مَا أَعْرِفُ مِنَ اللُّغَاتِ فَلَمْ أَرِ فِي وُجُوهِهِمْ أَمَارَةً عَلَى فَهْمِ شَيْءٍ مِنْهَا، وَكَانَ فِي الْمِنَاءِ بَعْضُ الْمَلَّاحِينَ الرُّوسِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ وَالتُّرُكِيِّينَ فَلَمْ يَكُونُوا أَسْعَدَ مِنِّي حَظًّا فِي مُحَاطَبَتِهِمْ . تَجَلَّتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ بِسَكْلِ الْأُمُورِ الْغَرِيبَةِ فَكَانَ هَؤُلَاءِ الْفَرَقَى فِي نَظَرِ النَّاسِ أَمْوَاتٌ يُبْشَوْنَ وَلَمْ يَعْرِفُوا لُغَاتِ الْأَحْيَاءِ .

وَأَمَّا الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَظْهَرُ أَنَّهَا بِنْتُ نَحْسٍ فَكَانَتْ نَجَاتَهَا كَمُعْجَزَةٍ مِنْ الْمُعْجَزَاتِ فَقَدْ كَانَتْ أَبْصَارُ الْمَلَّاحِينَ زَاغَتْ عَنْهَا وَلَمْ تَهْتَدِ فِي الضُّبَابِ الَّذِي أَثَارَتُهُ الْأَمْوَاجُ إِلَيْهَا وَلَكِنْ قُوَّ سِدُونُ لَمَحَ بَعَيْنَهُ الَّتِي تُحَاكِ عَيْنَ الْفَهْدِ شِبْهَ كُلَّةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي بَقَايَا أَدْوَاتِ السَّفِينَةِ وَخَاطَرَتْ بِنَفْسِهِ فِي التَّسَاقُ لَاسْتِكْشَافِهَا أَشَدَّ الْمُخَاطَرَةِ فَأَلْقَاهَا بِنَاقٍ قَدْ لُفَّتْ فِي تَسِيجٍ وَلَبُوسٍ وَعُلَّقَتْ عَلَى ارْتِفَاعِ عَشْرِينَ قَدَمًا وَسَطَ الْحَبَالِ الْمُتَقَطِّعَةِ وَكَانَتْ مُقَمًى عَلَيْهَا مِنَ الْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَالْخَوْفِ فَأَخَذَهَا وَأَلْقَاهَا فِي الزُّورَقِ فَظَلَّتْ فِي غِيَبَةِ نَمَاسِهَا كَذَلِكَ الطَّائِرُ الْبَحْرِيُّ الْمُسَمَّى «مُؤَيَّة» الَّذِي يُرَى مُتَخَذِرًا طَائِفًا عَلَى سَطْحِ الْمَحِيطِ . أَدْرِكَ هَؤُلَاءِ الْفَرَقَى فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَجِبُ انْقَادُهُمْ

فِيهِ إِذْ لَمْ يَمِضْ عَلَى ذَلِكَ بَضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّى هَاجَ الْبَحْرُ هَيْجَةً حَطَمَتْ بِقَايَا السَّفِينَةِ
وَبَدَدَتْ أَلْوَحَهَا تَتَدِيدًا وَكَانَتِ الْقَرَارِئُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْجُ مِنْ رُكْبَانِهَا إِلَّا هَؤُلَاءِ .

أَخَذَ الْغُرُقُ إِلَى مَلَجَا الْمَلَّاحِينَ لِيُسَاعِدُوا عَلَى ضَعْفِهِمْ ، وَطَلَبْتُ أَنَا أَنْ تُضَمَّ
الْبُنْتُ إِلَى الْفَضْلِ كُلِّهِ فِي هَذَا الْبَرِّ لِإِخْلَاصِ قُودِيَدُونِ ، وَآيَتِ شِعْرِي مِنْ أَى
الْبِلَادِ هِيَ ؟ إِنَّ مَلَامِيعَ وَجْهِهَا وَشُعُورَهَا الْحَالِكَةَ وَجِلْدَهَا الذَّهَبِيَّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ
الْبِلَادِ الْجَنُوبِيَّةِ . هَلْ هِيَ بَيْتَمَةٌ ؟ وَهَلْ غَرِقَ أَبُوهَا ؟ وَمَنْ هُوَ صَاحِبُ الْيَدِ الَّتِي
عَلَّقَتْهَا فِي بَقَايَا السَّارِيَةِ ؟ تِلْكَ أَسْرَارٌ مُحْجُوبَةٌ عَنِّي وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ
الَّذِينَ يَجْأُونَ مِنَ الْغُرُقِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقِفَ قَرِيبًا عَلَى خَبَرِ السَّفِينَةِ وَمَنْ فِيهَا ، وَسَأَكْتُبُ
إِلَيْكَ بِمَا أَعْلَمُهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ قَائِلَةً إِنَّ مِنْ حُبِّكَ أَنْ أَتَأَثَّرَ بِمَصَائِبِ
النَّاسِ وَأَهْتَرَّ لَهَا .

(حَاشِيَةٌ) عُرِفَ اسْمُ السَّفِينَةِ وَهُوَ (اِيَا كوكو) وَغَرَقَهَا مِنَ الْيُورُوفِيِّينَ الَّذِينَ
يَتَكَلَّمُونَ الْأَسْبَانِيَّةَ غَيْرَ الصِّحِيحَةِ . هَذَا كُلُّ مَا عَلِمَ إِلَى الْآنَ عَنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ
الْبَحْرِيَّةِ الْمُحْزِنَةِ . اهـ

الرسالة الثانية والعشرون

(مِنْ الدُّكْتُورِ إِرَاسْمُ إِلَى زَوْجَتِهِ فِي ١٨ أَرِيلِ سَنَةِ - ١٨٥٠)

التَّوَرُّجُ الْفَطِيرِيُّ فِي تَعْلِيمِ الرَّسْمِ وَالْخِطِّ وَالْقِرَاءَةِ

تَلَقَّيْتُ رَسْمَ «إِمِيل» فَأَغْبَطْتُ بِهِ وَفِيَّ مَا تَفَضَّلْتَ بِإِضَافَتِهِ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرْحِ
الَّذِي كَانَ كَالْمِفْتَاحِ لِمُغْلَقِهِ فَلَوْلَاهُ لَمَا نَقَذْتُ ذَهْنِي فِي سِرِّ خَطِّهِ الْإِرْبَانِيِّ ، لَا شَكَّ

أَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ الْكَثِيرَةَ السُّودَاءَ تُمَثِّلُ الْعَاصِفَةَ وَالْبَحْرَ الْمَضْطَرِبَّ وَالسَّمَاءَ الْمَظْلَمَةَ
 بِالسُّحُبِ وَهَذِهِ يَدَي رَهْنٍ لِمَنْ شَاءَ، عَلَى أَنِّي أَرَى فِيهِ السَّفِينَةَ الْغَرِيقَةَ وَإِنْ كَانَتْ
 قَوَائِنُ عِلْمِ التَّرَبِّيَّاتِ لَمْ تَرَاعَ فِي الرَّسْمِ بِالتَّدْقِيقِ، وَذَلِكَ النَّثْيُ الطَّلَاقِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ
 لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ زُرُوقَ النِّجَاحِ، وَأَمَّا هَذَا الْوَجْهُ الْمَصْبُوغُ بِالْمِدَادِ فَلَا وَجْهَ لِلْخَطَا
 فِي مَعْرِفَتِهِ فَهُوَ وَجْهٌ قُوَيْدُونَ، وَكَأَنِّي أَرَى بَيْنَ الْإِرْتِيَّاحِ فِي الصُّورَةِ الصَّغِيرَةِ
 الْمُلقَاةِ عَلَى الْأَرْضِ تِلْكَ الْفَتَاةَ الْمُغْمَى طَلَبًا الَّتِي نَجَتْ مِنَ الْغَرَقِ، أُرَاكَ تَجِدِّنِي
 فَهَمْتُ ذَلِكَ الرَّسْمَ الَّذِي لَا أَعْرِفُ مِنْ آثَارِ وَلَدِي سِوَاهُ، وَقَدْ عُلِقَتْهُ هُوَ وَصُورُهُ
 عَلَى جُدَارٍ حُمْرِي .

إِنَّ صِنَاعَةَ الْأَطْفَالِ تُدَكِّرُنَا دَائِمًا بِطُقُولِيَّةِ الصَّنَاعَةِ، وَإِنْ تَصَوَّرَ بَعْضُ أَشْكَالِ
 هَذَا الْعَالَمِ الْخَارِجِي هُوَ مَلَكَةٌ غَيْرِ زِيَّةٍ فِي نَوْعِنَا وَرُبَّمَا كَانَتْ هِيَ الَّتِي تُمَيِّزُنَا عَنْ
 غَيْرِنَا مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ أَجْلَى تَمْيِيزٍ فَإِنَّ إِنْسَانَ الْعَالَمِ الْوَحْشِيِّ الَّذِي لَا تُعْرِفُ
 لُغَتَهُ وَلَا تَارِيخَهُ قَدْ عَلِمَ عَنْهُ الْيَوْمَ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ مَا يَنْقُشُ بِالظُّرَانِ (١) عَلَى الْحَجَرِ أَوْ عَلَى
 قَرْنِ الْأَيْلِ الْقُطْبِيِّ صُورًا سَمِيحَةً لَا أَثَرَ لِلْإِتْقَانِ فِيهَا كَصُورَةِ الْفِيلِ الْقَدِيمِ ذِي الْفُرُوعِ
 الْمُسَمَّى (بِالْمَعْوِثِ) كَمَا رَسَمَ بَعْضُ الْحَيَوَانَاتِ الْأَوَايِدِ الَّتِي كَانَ يُنَاقِشُهَا فِي السُّلْطِ عَلَى
 الْأَجَامِ وَالْعَالِبِ .

لَبِنَا كَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِ الْأُولَى مَارَسَتْ فُنُونَ التَّقْلِيدِ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ تَضَعَ لِنَفْسِهَا قَوَائِنَ ثَابِتَةً تَكْفُلُ لَهَا حَاجَاتِ مَعِيشَتِهَا .

(١) الظُرَانُ بِالضَمِّ وَالْكَسْرِ مَعَ تَشْدِيدِ الرَّاءِ جَمْعُ الظُّرِّ وَهُوَ الْحَجَرُ الْمَحْدَدُ .

اَسْتَجِبْ مَا قَدَّمْتَهُ أَنْ تَعْلِمَ الْأَطْفَالُ بِنَبِيٍّ أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِالرَّسْمِ وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ
الَّتِي تَسَلِّسُهَا لِتَقِلَّ الطِّفْلُ مِنَ التَّصْوِيرِ إِلَى الْكِتَابَةِ . قَدْ أَحْسَنْتِ النَّظَرَ إِذَا أَتَيْتِ
إِلَى أَنَّ حُرُوفَ كِتَابَتِنَا لِأَصْلَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا وَضَعْتَ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ بِشَكْلِهَا ، وَإِنَّهُ مَا تَمَّ^(١)
إِلَّا الْمَوَاضِعُ وَالْإِصْطِلَاحُ ، فَإِنَّ الطِّفْلَ مَا رَأَى فِي الْكَوْنِ شَيْئًا هُوَ (١) أَوْ (ب)
وَلَكِنْ اخْتَرَعَ هَذِهِ الْحُرُوفَ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَنْثَارِ وَضُرُوبِ فَوْزِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ
الْمُخَلَّدَةِ فِي صَفَحَاتِ تَارِيخِهِ . وَادْكُرِي أَنَّ الْأُمَّ الْقَدِيمَةَ كَانَتْ قَدْ اسْتَعَدَّتْ مِنْ
زَمَنِ طَوِيلٍ لِلْحُرُوفِ الْمِجَاجِيَّةِ عِمَارَةَ الرَّسْمِ ثُمَّ انْتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَيْهَا ، فَقَدْ اسْتَمَدَّ
الْفَيْدِيْقِيُّونَ حُرُوفَهُمْ مِنَ الْخَطِّ الْكُهْنُونِيِّ الْقَدِيمِ ، وَأَمَّا أَبْنَاءُ هَذَا الْعَهْدِ فَإِنَّ هَذَا
الْإِتِّصَالَ بَيْنَ الرَّسْمِ وَالْخَطِّ مَقْطُوعٌ فِي نَظَرِ الطِّفْلِ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ بِخَطِّهِمْ ،
فَإِنَّهُ يَنْتَقِلُ قَبْجَةً إِلَى عَالِمٍ مَعْنَوِيٍّ لَا يَجِدُ فِيهِ شَيْئًا يَسْتَرِيدُهُ وَلَا رَابِطَةَ الْقِيَاسِ
وَالْمِثَالَةِ . وَبَعْدَ هَذَا يَنْدَشُّ مُعَلِّمُهُ مِنْ اسْتِقْطَالِهِ مَا يَرَاهُ أَمَامَهُ مِنَ الْعُقَابَاتِ .
لَيْسَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ الْمُعَارَضَةُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمُضَادَّةِ لِلْعَقْلِ بَلْ
كُلُّ ذِي ذَوْقٍ سَلِيمٍ وَحَكِيمٍ صَحِيحٍ يَحِقُّ لَهُ ذَلِكَ .

كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَطِّ بِحِمْلِنَا عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّ الْحُرُوفَ الْمِجَاجِيَّةَ الَّتِي اخْتَرَعَتْ أَوَّلًا
رَبَّمَا لَا تَكُونُ إِلَّا صُورًا لِبَعْضِ أَشْيَاءَ كَانَتْ تُنْسَبُ إِلَيْهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا ، وَالْخَطُّ
ابْتَدَأَ بِإِخْتِصَارِ فِي الرَّسْمِ ، وَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ حَيَّتْ نَلِكِ الْأَنْثَارِ الرِّبَابِيَّةِ بَسَامِيهَا مِنْ
الْحُرُوفِ الْمِجَاجِيَّةِ لِللُّغَاتِ الْحَدِيثَةِ ؟ أَقُولُ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مَحَلٌّ لِلشَّكِّ ، وَإِنِّي أَعْرِفُ

رَجُلًا كَيْسًا كَانَ يَرْجِعُ أَشْكَالَ حُرُوفِ لُغَتِنَا الْمَطْبُوعَةِ إِلَى بَعْضِ الصُّوَرِ الْخَلْقِيَّةِ .
 نَعَمْ إِنَّ مَضَاهَا هُتَّةً كَانَتْ أَحْبَابًا تَشْفِ عَنْ بَعْضِ التَّكْلِيفِ ، وَلَكِنِّي أَوْدُ عَنْ طِيبِ
 نَفْسِ اتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِ لِلتَّوْفِيقِ فِي ذِهْنِ «إِمِيل» بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْأَشْكَالِ تَظْهَرَانِ
 لِأَوَّلِ نَظَرَةٍ مُتَبَاعِدَتَيْنِ كَانَ بَيْنَهُمَا بَحْرًا رَهَوًا . فَإِذَا رَسَمَ مَثَلًا مُسَطَّحًا مُسْتَدِيرًا يُمَثِّلُ
 بِهِ الشَّمْسَ أَكْتُبُ فِي أَسْفَلِ هَذَا الرَّسْمِ اسْمَ هَذَا الْكُوكَبِ بِالْفَرَنْسِيَّةِ (Soleil)
 مُعْتَبِرًا بِاطِّهَارِ حَرْفِ Q مُكَبَّرًا فَإِذَا كَانَ الرَّسْمُ «مَنْزِلًا» (Maison) أَوْ بُعْبَانًا
 (Serpent) أَوْ طَرِيقًا مُتَعَرِّجًا (Zigzag) أَوْ عَيْنًا بَاصِرَةً (œil) بِذَلِكَ جُهْدِي
 فِي بَيَانِ وُجُوهِ الشَّبهِ الَّتِي عَمَى أَنْ تُوجَدُ بَيْنَ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
 وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا فِي الذَّهْنِ فَإِنَّ «إِمِيل» يَفْهَمُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ أَنَّ الْخَطَّ هُوَ كَيْفِيَّةُ
 أُخْرَى لِلرَّسْمِ بِمَا يَبِينُ الْإِنْسَانَ مُرَادَهُ بِأَوْضَحِّ مِمَّا يُحَاوِلُهُ بِالرَّسْمِ فِي زَمَنِ أَقَلِّ .

إِنَّ الَّذِي يُحِبُّ الطِّفْلَ وَيُضِلُّهُ هُوَ إِزَامُهُ اتِّبَاعَ طَرِيقَتِنَا فِي النَّظَرِ بَدَلًا
 أَنْ نَسْتَدْرِجَهُ مِنَ الْمَعْلُومِ إِلَى الْمَجْهُولِ اسْتِدْرَاجًا سَهْلًا ، فَتَرِينَا تَبَادُرًا إِلَى صَبِّ
 الْمَعَانِي الْمَقْلِبَةِ فِي ذِهْنِهِ صَبًّا عَلَى حِينٍ أَنَّهُ لَمْ يَكْتَسِبْ بَعْدُ مَلَكَهَ تَمْيِيزِ هَيَاتِ
 الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَةِ — فَضْطَرُّهُ إِلَى ذَلِكَ بِفَضْلِ مَا لَنَا عَلَيْهِ مِنَ الْوِلَايَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ عَلَى
 اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِينَا ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ تَجْنِي عَلَى ذِهْنِهِ جُنَايَةً تَقْضِي
 بِالْأَسَفِ ، فَإِنَّ إِزَامَةَ التَّعَلُّمِ وَقَهْرَهُ عَلَيْهِ يَسْلُبَانِ مُعْظَمَ مَسِيلِهِ إِلَى الْمُلَاحَظَةِ وَالتَّعَلُّمِ
 بِنَفْسِهِ ، وَضُرُّرُ الْإِسْتِبْدَادِ فِي الْيُبُوتِ لَمْ يَكُنْ أَقَلَّ مِنْ ضُرِّرِ اسْتِبْدَادِ الْحُكُومَةِ .

أَرَى أَنَّ الرِّسْمَ وَالْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ هِيَ ثَلَاثَةُ ضُرُوبٍ مِنَ التَّمَرِّينِ مُرْتَبِطَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ يَحْتَاجُ لَا يَنْفَكُ التَّفَرُّيقُ بَيْنَهَا فِي التَّحْقِيقِ الْأَوَّلِيِّ؛ عَلَى أَنَّ الرِّسْمَ هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ الْبَدَأَةَ بِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَزَايَا كَثِيرَةً: أَوَّلُهَا كِفَايَةُ الطِّفْلِ مُؤَنَّةً مَا لِلدَّرْسِ مِنَ السَّامَةِ وَالْعَمَلِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ، فَإِنَّ مُعْظَمَ الْأَطْفَالِ يَكْرَهُونَ الْكُتُبَ، وَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا لَهُ مَيْلٌ إِلَى الصُّورِ، بَلْ فِيهِمْ دَافِعٌ طَبِيعِي يَحْمِلُهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى أَنْ يَرْتَمُوا بِأَيْدِيهِمْ مَا يَقَعُ تَحْتَ أَبْصَارِهِمْ، فَالرِّسْمُ عِنْدَهُمْ ضَرْبٌ مِنَ اللَّعِبِ خُصُوصًا إِذَا مَارَسُوهُ بِدَعْوَةِ الْفَرِيزَةِ وَاجْتَهَدُوا مِنْ تَلَاءِ أَنْفُسِهِمْ فِي أَنْ يُمَثِّلُوا أَشَدَّ الْأَشْيَاءِ اسْتِمَالَةً لَهُمْ. وَلَا أَنْكُرُ أَنَّ مَلَكَ التَّمَثِيلِ وَالْمُعَاكَاةِ لَا يَسْتَوِي فِيهَا جَمِيعُ الْأَطْفَالِ وَلَكِنَّ النَّاسَ^(١) كَانُوا فِي تَنْبِيهِهَا غَالِبًا.

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ وَلَدَ الْإِنْسَانُ رَسْمًا؟ هَذَا مَا لَا أَعْلَمُهُ وَإِنَّمَا الَّذِي يُشْبِهُهُ لَنَا التَّارِيخُ هُوَ أَنَّ فُنُونَ الرِّسْمِ كَانَتْ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ سَابِقَةً لِانْتِشَارِ الْكِتَابَةِ وَالْعُلُومِ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالتَّارِيخُ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِي الْأَطْفَالِ كُلِّ يَوْمٍ بِأَعْيُنِنَا. وَمِنْ مَزَايَا الرِّسْمِ أَيْضًا أَنَّهُ يَرْبِي الْقُوَّةَ الْحَاكِمَةَ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ، فَإِنَّ فِي فَتْحِ أَبْوَابِ الْكَوْنِ لَهُ قَبْلَ فَتْحِ الْكُتُبِ أَمَامَهُ مَبَادِرَةٌ إِلَى إِرْشَادِهِ إِلَى يَنْبُوعِ الْعِلْمِ، فَمُعَاكَاةُ الْحَمَادِ وَالْحَيَوَانِ أَوْ النَّبَاتِ تُوْجِّهُ نَظْرَهُ دَائِمًا إِلَى الصِّفَاتِ الْمُقَوِّمَةِ لِسَاهِيَةٍ مَا يُحَاكِهُ وَإِنْ جَاءَ الرِّسْمُ نَاقِصًا. الرِّسْمُ هُوَ تَمَثِيلُ أَشْكَالِ الْأَشْيَاءِ وَحُلُودِهَا بِمُحْطُوطٍ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الرِّسْمُ قَدْ رَأَاهَا وَقَامَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى مَا يُمَيِّزُهَا عَنْ ضَرِيحِهَا مِنَ الْعَلَامَاتِ وَالصِّفَاتِ الْأَصْلِيَّةِ.

وَأَمَّا الْكَلِمَاتُ الْمَكْتُوبَةُ فَإِنَّهَا لَا تَقْنِضِي هَذَا الْعَمَلَ فِي الْمُلَاحَظَةِ، فَإِنَّهُ مَتَى عَرَفَ
الطِّفْلُ التَّهَجُّجَ وَتَرَكِبَ الْحُرُوفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُسَمِّي عِدَدًا لَانِّهَاءَهُ لَهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ
الْحَيَّةِ وَالْجَمَادَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهُ بِهَا أَدْنَى مَعْرِفَةٍ، وَتُوجَدُ لَهُ بِذَلِكَ مَلَكَةٌ غَاشِيَةٌ
مَتَى قَوِيَتْ وَثَبَّتْ بِالْعَادَةِ أَضَلَّتْ مُعْظَمَ الْعُقُولِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا الْقُشُورَ.
لَا يُوْجَدُ الْإِسْتِفْصَاءُ وَالتَّعَمُّقُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا حَيْثُ يُوْجَدُ الْقِيَاسُ
وَالْمُضَاهَاةُ، فَإِذَا لَمْ يَتَدَّ الطِّفْلُ التَّفَكُّرَ فَيَا بَرَى وَمُلَاحَظَتَهُ يَكُونُ قَلِيلَ الْإِهْتِمَاءِ جِدًّا
بِتَفْهَمٍ مَا يَقْرَأُهُ.

آخِرَ مَا أَذْكُرُهُ مِنْ مَزَايَا الرَّسْمِ أَنَّهُ إِعْدَادُ أَوَّلِي كَثِيرِ النَّفْعِ فِي تَعَلُّمِ الْخَطِّ فَإِنَّ
«إِمِيل» يَخْطِيطُ صُورَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَسْتَمْلِحُهَا تَخْطِيطًا حَسَنًا أَوْ رَدِيئًا يَمُرُّ أَصَابِعُهُ
عَلَى الْحَرَكَةِ وَيَكْتَسِبُ نَوْعًا مِنَ الْخِلْفَةِ وَالذِّقَّةِ لِتَكْوِينِ الْخَطُوطِ الَّتِي مِنْهَا تَتَأَلَّفُ
حُرُوفًا الْمَجَانِيئَةُ، وَلَكِنَّ الْفَرْضَ إِنَّمَا هُوَ إِعْدَادُ الذَّهْنِ لِلِانْتِقَالِ مِنَ الرَّسْمِ الَّذِي
هُوَ كِتَابَةُ الصُّورِ إِلَى الْخَطِّ الَّذِي هُوَ رَسْمُ الْمَعَانِي فَلَوْ أَنَّا تَيَسَّرَ لَنَا أَنْ نَرْبِطَ فِي حُكْمِ
«إِمِيل» التَّمثِيلَ الْخَطِّيَّ لِلْأَشْيَاءِ الْمَشْهُودَةِ بِالْعَلَامَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ مَقَامَهَا
لَكُنَّا كَأَنَّا وَضَعْنَا عَلَى الْبَحْرِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا جِسْرًا، عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَيْسَرُ مِنْ تَصْفِيرِ
الرَّسْمِ فِي الْعَمَلِ فَإِنَّ «إِمِيل» كُلَّمَا رَسَمَ شَجَرَةً أَوْ ثَمَرَةً أَوْ حَيَوَانًا أَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ
رَسَمْتَ حُرُوفًا مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي غَيْرَهُ تَوْجَدُ حُرُوفٌ أُخْرَى أَصْعَبُ مِنْ هَذِهِ
رَسْمًا وَقِرَاءَةً يَكْتُبُهَا الْمُتَعَلِّمُونَ، فَإِذَا هِجْتُ فِيهِ هَذَا الْقَوْلَ دَاعِيَةَ الشُّوقِ وَحُبِّ
الْإِنْجَابِ هَبْجًا شَدِيدًا أَكْتُبُ لَهُ الْكَلِمَةَ الْمَوْضُوعَةَ لِلشَّيْءِ الَّذِي رَسَمَهُ وَأَحْرَضَهُ
عَلَى مَحَاكَاتِهَا أَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَأَنَا أَصْحَكُ.

سَوَاءٌ عِنْدِي أَنَّبَحَ فِي ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَنْبَحْ مَا دَامَ يَجْتَهِدُ فِي كِتَابَةِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ ،
وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَجْتَهِدُ فِي ذَلِكَ إِذَا حُمِلَ عَلَيْهِ بِالْحِنَقِ وَالْمَهَارَةِ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِعَادَةِ
الْكِتَابَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ قَبْلَ أَنْ يَكْتَسِبَ شَيْئًا مِنْ مُكَارَسَتِهَا وَلَكِنَّ الْأَصْلَ بَاقٍ عَلَى
كُلِّ حَالٍ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ يَعْرِفُ (إِمْبِلُ) مِنْ هَذَا الْحِينِ السَّبَبَ فِي الْكِتَابَةِ
وَكَيْفَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَبَدَّلُوا بِرِسْمِ الْأَشْيَاءِ حُرُوفًا اصطِلَاحِيَّةً تَبْدُلُ عَلَى مَا يَدُلُّ
عَلَيْهِ الرَّسْمُ وَتَفْضُلُهُ بِكَوْنِ مَسَاحَتِهَا أَصْفَرَ وَوَقْتُ وَضْعِهَا أَقْصَرَ . هَاتَانِ هُمَا مَزِيدَتَا
الْخَطِّ عَلَى الرَّسْمِ وَهُمَا اللَّتَانِ أَطِيلُ لَهُ الشَّرْحَ فِيهِمَا لِأَنَّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى فِهْمِهِ وَأَدْنَى
مِنْ عَلَيْهِ .

الطُّفْلُ يَجْرِي فِي تَعَلُّمِهِ تَكْوِينَ الْحُرُوفِ عَادَةً كَمَا يَجْرِي الدُّوَلَابُ فَمَا أَحْسَنَهَا
طَرِيقَةً لِلدُّخُولِ فِي عَالَمِ الْمَقُولِ !

نَعَمْ إِنِّي عَرَفْتُ بَعْضًا مِنَ الْمُصَوِّرِينَ كَانُوا لَا يَسْتَصَوِّبُونَ مُطْلَقًا تَرْكَ مَلَكَهَ
الْمُحَاكَاةِ وَالتَّقْلِيدِ مُطْلَقَةً بِلَا قَيْدٍ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْحَيَاةِ وَيَرَوْنَ أَنَّ الطُّفْلَ
إِنَّمَا يَرِيسُمُ فِي الْغَالِبِ بِالْمَوَى لَا يُمَقْتَضَى الْفِطْرَةُ كَمَا يَتَعَدَّدُ ، وَهَذَا الْإِطْلَاقُ يَفْسِدُ
عَلَيْهِ عَمَلُ يَدِهِ بِمَا يَتَّعَدُّهُ مِنْ عَدَمِ النِّظَامِ ، وَلَوْ صَدَّقْتَاهُمْ فِي ذَلِكَ لَقَلْنَا بِرُجُوبِ
الْوِلَايَةِ وَالتَّادِيبِ فِي تَعْلِيمِ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ ، هَذِهِ مَسْأَلَةٌ يُمْكِنُ اخْتِلَافُ آرَاءِ النَّاسِ
فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْمَسَائِلِ وَلَكِنَّهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَتْ مَحَلَّ نَظَرِي فَإِنِّي أُرَاهُنَّ
بِأَثَرِ إِزَاةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى أَنَّ (إِمْبِلُ) لَنْ يَدْعِيَ اسْتِحْقَاقَ جَازِيَةٍ رُومِيَّةٍ عَلَى الرَّسْمِ ، فَأَيُّ
وَجْهِ لِي فِي الْخُوفِ أَوِ الرَّجَاءِ فِي أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ مُصَوِّرًا ؟ الَّذِي أَتَّبِعِيَهُ هُوَ أَنْ يَكُونَ

رَجُلًا، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الثُّمُورَ مَا يُوجَدُ فِي الْكَوْنِ يُعِينُ عَلَى إِعْمَاءِ الْعَقْلِ وَالطَّبْعِ،
وَمَهْمَا كَانَتْ رَدَاءَةٌ رُسُومِهِ فَإِنَّ أَقْلَ مَا فِيهَا أَنَّهُمَا تَشْهَدُ لَهُ بِبَعْضِ النِّفَاتِ وَتَوَجُّهُ
إِلَى مَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَشْكَالِ وَهَذَا يَكْفِينِي مِنْهُ الْآنَ، فَإِذَا كَانَ مِنْ لَحْمٍ مَلَكَهٗ
حَقِيقَةً فِي الْفُنُونِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الْمَلَكَهٗ فِيهِ يَوْمًا مَا . أَلَيْسَ مِنَ الشَّوَاهِدِ
الَّتِي تُذَكِّرُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ ذَلِكَ الرَّاعِي الصَّغِيرُ ابْنِي كَانَ يَتَعَلَّمُ الرَّسْمَ بِنَفْسِهِ فِي أَتْنَاءِ
رَعْيِ نَعَاجِهِ وَلَمَّا تَكَلَّمَ فِيهِ بَعْدَ بَوَاسِطَةِ التَّعَلُّمِ فِي الْمَدْرَسَةِ صَارَ (الْأُسْتَاذَ رَفَائِيلَ) ؟

أَرَى أَيْضًا أَنَّ تَعَلِّمَ الْكِتَابَةِ كَاتِبٍ يَجِبُ أَنْ يَسْبِقَ تَعَلِّمَ الْقِرَاءَةِ أَوْ أَنَّ هَذَيْنِ
التَّمَرِينَيْنِ يَجِبُ أَنْ يَتَّصِلَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ . كَانَ أَنْدَرُوبُلْ — وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ عَصْرِهِ
وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونِي سَمِعْتِ شَيْئًا مِنْ سِرِّيهِ فِي انْجِلْتَرَة — يَبْحَثُ مِنْ سِنِينَ عَدِيدَةٍ عَنْ
طَرِيقَةٍ مَعْقُولَةٍ لِتَعَلِّمَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَلَمَّا كَانَ فِي الْهِنْدِ اتَّفَقَ أَنَّهُ رَأَى يَوْمًا مِنْ
الْأَيَّامِ فِي مَدْرَسَةٍ يَصُوحَى (مَدْرَاسَ) ^(١) ثَلَاثَةً مِنْ أَحْدَاثِ الْهِنْدُورِيمُونِ بِأَصَابِعِهِمْ
حُرُوفًا عَلَى الرَّمْلِ فَوَقَّفَ يُلَاحِظُهُمْ مُلَاحِظَةً مُتَمَامَةً، وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ طَرِيقَتَهُمْ
ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ قَائِلًا : « قَدْ وَجَدْتُ مَطْلُوبِي » . لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ كَانَتْ
هَذِهِ الطَّرِيقَةُ؟ هِيَ وَلَا شَكَّ طَرِيقَةٌ بَسِيطَةٌ جِدًّا، ذَلِكَ أَنَّ أَطْفَالَ الْهِنْدُورِيمُونِ كَانُوا
أَقْرَبَ مِنَّا إِلَى الْفِطْرَةِ وَكَانُوا لِلذَّكَاءِ أَعْمَلُ مُقْتَضِيَاتِ الْعَقْلِ كَانُوا يَبْتَدِئُونَ بِرِسْمِ
الْكَلِمَةِ الَّتِي يَرَوْنَهَا مَكْتُوبَةً ثُمَّ يَمْحَوْنَ عَنْ أَهْمَاءِ حُرُوفِهَا وَيَتَهَجَّوْنَ مَقَاطِعَهَا
ثُمَّ يَنْتَهَوْنَ بِقِرَاءَتِهَا .

أَخْصُ فَائِدَةٍ أَرَاهَا فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّهَا تَسْخُلُ الْيَدَ وَالْفِكَرَ مَعًا ، فَإِنَّ الَّذِي
يَتَعَبُ الطِّفْلُ وَيُسْتِثْمُهُ عِنْدَ مَا يَقِفُ أَمْلَمُ كِتَابٍ إِنَّمَا هُوَ التِّفْأَتَةُ الَّتِي يُطَلَّبُ مِنْهُ
بِلَا بَصِيرَةٍ ، فَإِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ وَبِحُجَّتِهِ وَتَحْمِيَّتِهِ وَسِيرِهِ مِنَ الْمَعْلُومِ إِلَى
الْمَجْهُولِ طَرِيقَةٌ فَضْلِي فِي مُحَاطَةِ الضَّجَرِ وَخَدَاعِهِ .

لَسْتُ سَوَالِحِي أَقُولُ مُعْجَبًا كَثِيرًا بِطُرُقِ التَّعْلِيمِ الْمُخْتَرَعَةِ فَإِنَّهَا تَقُوُّ الْحَصَرَ
وَمُعْظَمَهَا خَيَالِيَّةٌ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى مَا فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ مُطْلَقًا ، وَيَحْضُرُنِي أَنَّ هُوَ لَا نِدْبًا
أَعْرِفُهُ خَطَرَ يَفْكِرُهُ أَنْ يَجْمَعَ جَمْعُوعَةً مِنَ النَّعَالِ وَأَرَاكَ تَقُولِينَ ضَاحِكَةً : هَذَا
خَاطِرٌ غَرِيبٌ . نَعَمْ إِنَّهُ غَرِيبٌ وَلَكِنَّهُ وَقَعَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ هُوَ لَا نِدْبًا بِلَا
شَيْءٍ ، وَقَدْ وَجَدْتُ فِي خَزَائِنِهِ الْمُقْفَلَةِ بِالزُّجَاجِ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْمُودَجَاتِ الْمُفِيدَةِ فَمِنْهَا
مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ وَمِنْ جَمِيعِ الْبُلْدَانِ وَالْأَعْصَرِ : مِنَ الْبَابُوجِ وَنَعْلِ الْمُشْخَصِينَ إِلَى
جُرْمُوقِ الصَّبِيِّينَ ، وَمِنْ نَعْلِ مُتَوَحِّشِي أَسْرِيكَ الشَّمَالِيَّةِ إِلَى بَابُوجِ كُبْرَاءِ التُّرْكِ ،
فَفِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ مِنَ النُّمُودَجَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِطَبَقَاتِ التَّارِيخِ الْمُخْتَلِفَةِ قَدْ نَسِيَ
صُنَاعُ النَّعَالِ شَيْئًا وَاحِدًا أَلَا وَهُوَ شَكْلُ قَدَمِ الْإِنْسَانِ . إِذَا صَحَّ مَا أَقُولُ فَرُبَّمَا
دَعَانِي إِلَى تَوْجِيهِ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ إِلَى وَاضِعِي طُرُقِ التَّعْلِيمِ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَعَقَّلُونَ
كَمَا يَنْبَغِي وَبَعْضُهُمْ لَيْسَ مُجَرَّدًا مِنْ مَلَكََةِ الْإِخْتِرَاعِ وَلَكِنْ يَنْقُصُهُمْ شَيْءٌ مِنَ التَّفْصِيلِ
وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ هُنَا أَلَا وَهُوَ شَكْلُ عَقْلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ حَيَاتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ .

الطَّرِيقَةُ الْفَدَّةُ الَّتِي أَرَاهَا تُلَاحِظُ حَالَةَ التَّلْمِيذِ إِنَّمَا هِيَ سَلَامَةٌ ذَوْقٍ مُعَلِّمِهِ ،
وَلَا أَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا مُوَصَّلُ بَيْنَهُمَا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَرِشِدُ بِهِ فِي تَبِيَةِ التَّرْبِيَةِ ، بَلْ

(١) الفدة: الوجدة . (٢) التبه: المكان الذي يقف فيه السائر أي يضل فيه وتبه التربة طرفها للثعبنة .

أَعْتَقِدُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الطُّرُقِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا الْأَجْيَالُ الْفِطْرِيَّةُ وَلَا يَزَالُونَ يَسْتَعْمِلُونَهَا رُبَّمَا اسْتُعْمِلَتْ اسْتِعْمَالًا مُفِيدًا فِي تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ . لَا شَكَّ أَنَّكَ سَمِعْتَ الْحَدِيثَ عَنْ آلَةِ (الْحَاسِبِ الصَّنَاعِيِّ) الَّتِي أُدْخِلَتْ فِي بَعْضِ الْمَدَارِسِ لِتُسَهِّلَ بَعْضَ عَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِ عَلَى التَّلَامِيذِ بِوَاسِطَةِ اسْتِعْمَالِ كُرَاتٍ مِنَ الْعَاجِ ، هَذِهِ آلَةٌ وَإِنْ لَمْ أَقِفْ عَلَى مَزِيئَتِهَا تَمَامَ الْوُقُوفِ أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّكَ اخَذْتَاهَا عَنْ الصَّبْيَانِ وَهِيَ الْحَاسِبُ الْكُرِيُّ الْمُسَمَّى فِي مَمْلَكَةِ السَّيَاءِ (سُونَانُ بَانْ) .

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَتَقَدَّمَ مِثْلَ هَذَا الْأَخْذِ بَلْ أَسْفُ مِنْ عَدَمِ رُجُوعِنَا كَثِيرًا إِلَى الطُّرُقِ الصَّنَاعِيَّةِ وَالْمُبَارَسَاتِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْأَيْمِ الْمُتَأَنِّرَةِ لِتُسَهِّلَ الْوُصُولَ إِلَى بَعْضِ الْعُلُومِ الْأَوَّلِيَّةِ عَلَى الْمُبْتَدِئِينَ .

هُؤْلَاءِ الْأَقْوَامُ الْمُتَأَنِّرُونَ هُمْ أَطْفَالُ النَّارِخِ، وَقَدْ عُرِفَتْ الْأَنْ بَعْضُ الْقَوَانِينِ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْضِ تَكَوُّنُ اللُّغَاتِ وَالْكِتَابَةِ وَالْفُنُونِ وَالذِّبَانَاتِ وَالصَّنَاعَةِ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ حَدِّ مَعْرِفَةٍ مَنَاشِئُ الْعُلُومِ فَقَطْ بَلْ أَدَّى سَنَا الْبَحْثِ فِي دَوَالِ الْمَعَانِي أَنْشَاءَ أَطْوَارِ الْحَضَارَةِ الْأُولَى إِلَى مَعْرِفَةِ اسْتِعْدَادِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَطَرِيقِهِ الْمُتَعَقِّبَةِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْعُلُومِ ، فَمَا أَنْ أَكُونَ مُحْطًا خَطًا فَاحِشًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّرْتِيبُ الطَّبِيعِيُّ فِي التَّرَقِّيِّ هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ فِي تَرْبِيَةِ الْأَحْدَاثِ .

طُرُقُ التَّعْلِيمِ عِنْدَ الْأَيْمِ الَّتِي وَقَفَتْ فِيهَا حَرَكَةُ التَّرَقِّيِّ وَالتَّقَدُّمِ عِبَارَةٌ عَنْ شُؤْنٍ دَائِمَةٍ وَحَالَةٍ وَجُودٍ وَمَعْرِفَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلَّا وَسِيلَةً وَقَيْتَةً لِلطِّفْلِ

(١) لم يصل الباحثون في كل ما ذكره الى نتائج قطعية وانما هي غنونا وتخبرات عرضة للتغير

والتبديل في كل وقت - المترجم .

فِي الْأَجْيَالِ الْمُتَمَدِّنَةِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَصْلِ جَاهِلًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ يَمْتَازُ كُلُّ يَوْمٍ عَنِ الْوَحْيِيِّ وَالْبَرِّيِّ بِمَلَكَ التَّحْوِيلِ الَّتِي كَانَتْهَا مَرْسُومَةً فِي أَعْصَانِهِ . فَهُوَ يَرْجُ بِسُرْعَةٍ عَلَى مَعَارِجِ حَالَاتٍ بَيْنَ الْأَجْيَالِ الدَّيْنِيَّةِ وَبَيْنَهَا عَقَبَاتُ كُؤُودٍ ^(١) فَلَا يَقِفُ فِي عُرُوجِهِ هَذَا إِلَّا عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي تَضَعُهُ لَهُ ضُرُوبُ اسْتِعْدَادِهِ وَمَلَكَانُهُ الشَّخْصِيَّةُ وَنَوْعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعِيشُ بَيْنَهُمْ وَتَأْتِيرُ الزَّمَنُ فِيهِ . فَنَسْبَةُ طُرُقِ التَّعْلِيمِ إِلَى التَّرْيِيبَةِ كَنَسْبَةِ الْأَوْضَاعِ وَالْقَوَانِينِ إِلَى الْمُجْتَمَعِ : فَهِيَ لَا تُلَاقِي إِلَّا حَاجَةً وَقِيَّةً مِنْ حَاجَاتِ الْعَقْلِ فَيَجِبُ اعْتِبَارُهَا جَمِيعًا وَقِيَّةً فَيَكُونُ مِنَ الْحَقِيقِ حَصْرُ عَقْلِ التَّمْيِيزِ فِي بَعْضِ الْأَشْكَالِ التَّعْلِيمِيَّةِ كَمَا كَانَتْ مِنَ الْجَوْرِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ إِزَادَةً لِإِقْبَاءِ الْأُمَمِ عَلَى قَوَانِينِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَعَقَائِدِهَا . ^(٢)

الرسالة الثالثة والثلاثون

(مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى هِيلَانَةَ فِي ٢٢ أBRIL سَنَةِ ١٨٥٠)

تَرْبِيَّةُ قُوَّةِ الْخَيَالِ وَالتَّلَطُّفُ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَطْفَالِ

أَرَى أَنَّ (إِمِيلَ) عَلَى مَا وَصَفْتَهُ لِي قَدْ حُبَّتْ إِلَيْهِ بَدَائِعُ الْخَيَالِ وَغَرَائِئِهِ وَأَنَا مُسْرُورٌ بِذَلِكَ مَهْمَا بَلَغَتْ دَرَجَتُهُ فِي نَفْسِي لِأَنِّي لَا أُحِبُّ مِنَ الْأَطْفَالِ مَنْ كَانَ مُشْكَكًا مُرْتَابًا فَإِنَّ الْإِرْتِيَابَ فِيهِمْ مِنْ دَلَائِلِ نُضُوبِ قُوَّتِهِمُ الْخَيَالِيَّةِ

(١) كُؤُودُ صَبَّةِ الْمُرْتَقِ .

(٢) العقائد الصحيحة المطابقة للعقل لا تكون وقية تتغير بتدرج الانسان في التحوّل والرق لأن مناطها وهو الإله الحق ثابت لا يتغير وابق لا يزول وصفاته لا تحوّل ، وأما العقائد القاسدة المبنية على الأوهام والأخلايل فلا جرم أنها تضلّ وتبطل وتتلاشى بتقدم الانسان في مدارج العرفان — المترجم .

وَعَقِيمَهَا . وَلَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ حَيْنُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا وَرَاءَ هَذَا الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ مِنْ
 أَسْبَابٍ شَرَفِهِ أَوْ مِنْ أَمَارَاتِ خُسْئِهِ وَكَلَا الْأَمْرَيْنِ فِي نَظَرِي سِيَانٌ إِذَا كَانَ هَذَا
 الْحَيْنُ يُرْفَعُ نَفْسُهُ مِنْ حَضِيضِ هَذَا الْكَوْنِ الْمَادِّي وَيَسْمُو بِهَا إِلَى مَا يَتِمُّثَلُ
 فِي الْخَيَالِ مِنْ مَعَارِجِ الْكَمَالِ الرَّوحِيِّ، وَأَنَا أَقَاسِمُكَ الْأَسَفَ عَلَى مَا يَضِيعُهُ الْقَائِمُونَ
 عَلَى الْأَطْفَالِ مِنْ قُوَّةِ الْخَيَالِ الَّتِي كَانُوا يَحْبُوبُونَ بِهَا مَقَاوِزَ عَالَمِ الْغَيْبِ وَهُمْ مُتَعَلِّقُونَ
 بِشُعُورِ جَنِّيَاتِهِ . ذَلِكَ لِأَنَّ قَهَ (سُبْحَانَهُ) حِكْمَةً فِي قِسْمَةِ الْمَوَاهِبِ بَيْنَ النَّاسِ
 حَقٌّ فِيهَا هُوَ أَشَدُّهَا خَطَرًا وَهُوَ الْمَوَاهِبُ الْخَيَالِيَّةُ فَلَمْ يَهَبْهَا لَنَا عَيْنًا، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ
 نَسْعَى فِي إِمَانَةِ قُوَّةٍ مِنْ قُوَانَا لِمُجَرَّدِ حُكْمِنَا عَلَيْهَا بِأَنَّا وَهْمِيَّةٌ أَوْ خَلْقٌ مِنَ الْقَائِدَةِ،
 بَلِ الْأَجْدَرُ بِنَا فِي شَأْنِهَا أَنْ نَطْلُبَ لَهَا مَا يُقَابِلُهَا وَيُوزِنُهَا، قُوَّةُ الْخَيَالِ مَثَلًا سَيِّئَاتِهَا
 الزَّمَنُ بِمَا يُعَارِضُهَا مِنْ قُوَّةِ مُلَاحَظَةِ الْحَوَادِثِ وَمَلَكَةِ التَّحْقِيلِ وَالْإِسْتِدْلَالِ،
 فَاسْتَحْلِفَ الْمُرَيِّينَ بِحَقِّ الْحَيَاةِ وَقَدَرَهَا فِي نُفُوسِهِمْ أَنْ لَا يَقْسِرُوا مِنْ قُوَى الْأَطْفَالِ
 وَأَنْ لَا يَمْجُوهَا مِنْهَا شَيْئًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَسْلُغْ مِنَ الْغَنَى بِهَا حَدًّا تَرِيدُ فِيهِ عَنْ حَاجَتِهِ .
 إِنْ لَنَا فِي الْكَوْنِ لَعِبْرَةٌ فَلْنَنْظُرْ إِلَى حَوَادِثِهِ فَإِنَّمَا نَرَى جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ
 فِي حَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ وَتَغَالِبٍ وَجَلَادٍ وَتَرَقٍّ وَازْدِيَادٍ وَنُشَاهِدُ أَنَّ الْقُوَى الْمُتَعَادِلَةَ
 تَزْدُجُ قَوْلَهُ نَظَامًا، وَالْقَوَاعِلَ الْمُتَبَايِنَةَ تَاتِلِفُ قَنْشَى مُلَاعِمَةً وَوَلَامًا، فَأَيُّ ضَرَرٍ
 يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ إِذَا جَرَى فِي تَرْبِيَةِ نَفْسِهِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ .

الرسالة الرابعة والثلاثون

مِنْ إِدَامَمَ إِلَى هَيْلَانَةَ فِي ٢٣ أBRIL سنة ١٨٥

خَطَابُهُ لِإِمِيلَ وَحَتَّى عَلَى تَعْلَمَ الْكِتَابَةِ :

إِلَيْكَ مَكْتُوبًا «لِإِمِيلَ» فِي طَيِّ مَكْتُوبِي لَكَ وَهُوَ :

وَلَدِي الْغَزِيرُ ! لَقَدْ أَهَجَنِي مَكْتُوبُكَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِلَيَّ وَأَنْشَرَحَ بِهِ صَدْرِي
كَثِيرًا غَيْرَ أَنِّي أَنْبَهْتُكَ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى لِلْكِتَابَةِ هِيَ إِلَى الْكَلَامِ أَقْرَبُ
مِنْ طَرِيقَتِكَ إِلَيْهِ ، وَأَحْسَنُكَ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى تَعْلَمِهَا ، فَاسْأَلْ وَادِّتَكَ أَنْ تُعَلِّمَكَ
طَرِيقَتَهَا فِي قِرَاءَةِ رُسُومِي الْقَلْبِيَّةِ الَّتِي تُغَايِرُ رُسُومَكَ بَعْضَ الْمُغَايَرَةِ ، فِي نَفْسِي أُمُورٌ
كَثِيرَةٌ أُرُومُ الْإِفْضَاءِ إِلَيْكَ بِهَا ، فَهَلْ لَدَيْكَ مَا يُحِبُّ أَنْ تُكَاشِفَنِي بِهِ ؟ فَإِنِّي عَلَى
عَدَمِ تَعْنِي حَتَّى الْآنَ بِرُؤْيَاكَ ، مَشْغُولُ الْفِكْرِ بِكَ ، عَامِرُ الْفُؤَادِ بِحُبِّكَ ، فَإِذَا
وَأَتْنِي كَلِمَةً مِنْكَ اسْتَبْشَرْتُ بِهَا وَهَشَّتْ لَهَا نَفْسِي ، وَلَسْتُ أَذْرِي كَيْفَ أَصِفُ
مَا أَجِدُهُ مِنَ الْقَرَحِ لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى يَلْقَائِكَ فَضَمَّنَكَ إِلَى صَدْرِي .

الرسالة الخامسة والثلاثون

مِنْ هَيْلَانَةَ إِلَى إِدَامَمَ فِي ٢٠ يُونِيه سنة ١٨٥

الصُّحَّةُ فِي تَغْيِيرِ الْمَوَاءِ . وَتَرْبِيَةُ الْخِيَالِ وَالذَّاكِرَةِ بِمَعَانِي الْغُبْرَاءِ ^(١)

كَانَ «إِمِيلُ» عَلِيلاً وَكُنْتُ مُشْفِقَةً عَلَيْهِ فِي بَدَايَةِ مَرَضِهِ مِنَ الْحُمَّى الْحَصْبِيَّةِ ،
وَلَكِنَّهُ لَمْ يُصَبِّ بِالْحَصْبَةِ وَالسَّبَبُ فِي عَدَمِ إِنْخِبَارِكَ بِذَلِكَ هُوَ أَنَّ الدُّكْتُورَ كَانَ

قَدْ تَمَّهَدَ بَأَن يُكَاشِفَكَ بِسِيرِ الْمَرَضِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيهِ أَذَى خَطِرَ عَلَيْهِ رَأَى
مِنَ الْعَبَثِ أَنَّ يُوقِظَ مَا نَامَ مِنْ هُمُومِكَ وَيُحَرِّكَ مَا سَكَنَ مِنْ دَوَاعِي قَلْبِكَ ، وَلَقَدْ
تَجَلَّتْ إِلَيْهِ الْعَافِيَةُ فَلَمْ يَمِضْ عَلَيْهِ نَحْسَةٌ عَشْرَ يَوْمًا حَتَّى رُدَّ لَهُ لِبَاسُ الصَّحَّةِ ، وَتَلَبَّتْ
إِلَيْهِ أَوَايِدُ الْقُوَى ، وَأَمَّا أَنَا فَكَانَ شَأْنِي غَيْرَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَا قَامَتْهُ مِنَ التَّعَبِ فِي لَيْالِي
سُقْمِهِ الَّتِي لَأَزِمْتُ فِيهَا الشَّهَادَ ، وَمَا كَانَ يُسَاوِرُنِي فِيهَا مِنَ الْحُزَنِ وَالْإِشْفَاقِ قَدْ
تَوَعَّرَتْ لَهُ صِحَّتِي ، وَوَعَتْ بِهِ عَاقِبَتِي ، وَلِلطَّبِّ الْإِنْجِلِزِيِّ فِي شَيْءٍ حَالَتِي هَذِهِ دَوَاءٌ
لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ سَيِّدُ الْأَدْوِيَةِ عَلَى مَا أَرَى ، وَسَنَدِي فِي هَذَا الرَّأْيِ مَا أَرَاهُ مِنْ
ثِقَةِ الْأَطْيَاءِ بِهِ فِي وَصْفِهِ لِمَرْضَاهُمْ ، وَمِنْ إِذْعَانِ هَؤُلَاءِ لَهُ طِبَّةٌ بِهِ نَفْسُهُمْ ، وَهَذَا
الْأَوَاءُ هُوَ تَقْيِيرُ الْهَوَاءِ .

نَعَمْ إِنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي تَسْتَنَشَقُّهُ فِي مَرَازِيُونَ جَيِّدٌ ، غَيْرَ أَنَّ أَحْصَى مَا يُسْأَلُ
عَلَيْهِ أَطِبَّاءُ الْإِنْجِلِزِيِّ فِي إِصْبَاهِهِمُ الْمَرْضَى بِتَقْيِيرِ الْهَوَاءِ لِتَجْدِيدِ قُوَاهُمْ إِنَّمَا هُوَ
الْإِتِّفَاقُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرٍ وَالنَّظَرُ فِي مَجَالِي الْكَوْنِ وَمَشَاهِدِهِ وَتَقْيِيرُ مَا التَّمَوُّهُ
مِنْ عَادَاتِهِمْ ، وَإِنِّي وَالْحَقُّ أَقُولُ قَدْ أُعْجِبْتُ بِهَذَا الرَّأْيِ بَعْضَ الْإِعْجَابِ لِأَنِّي أَعْلَمُ
أَنَّ ضَوَائِحِنَا الَّتِي يَتَوَارَدُ عَلَيْهَا السُّبُوحُ كَثِيرًا غَاصَّةٌ يَضْرُوبُ الْمَحَاسِنَ الْحَقِيقِيَّةَ ،
وَلِهَذَا السَّبَبِ لَمْ أَطَافِ فِي هَذَا الرَّأْيِ بَلْ أَذْعَنْتُ لَهُ إِذْعَانَ الْمَرِيضِ الْمُطِيعِ الَّذِي
يُجِلُّ أَحْكَامَ الْعِلْمِ وَيُكْثِرُهَا .

(١) الأوايد : النافرة .

(٢) يساورني : يشب عليّ ويهاجمني .

لَمْ تُكَلِّفْنَا مُعْدَاتُ السَّفَرِ كَيْفَ عَمِلَ وَلَا مَزِيدَ عَنَانِيَّةٍ، فَإِنَّ السَّيِّدَةَ وَارْتَجَتْونَ
بِفَضْلِ خَبَرَتِهَا بِطَرِيقِ الْإِلَادِ وَجَهَاتِهَا قَدْ تَكَلَّفَتْ أَنْ تَتَرَعَّ لَنَا طَرِيقَ السَّيْرِ، وَسَقَطَ
قُوَيْدُونُ عَلَى مَرْكَبَةٍ عَتِيقَةٍ مِنَ الْمَرْكَبَاتِ الْمَكْشُوفِ مُقَدِّمُهَا مَرَّتْ عَلَيْهَا أَيَّامٌ كَانَتْ
فِيهَا أَسْعَدَ حَالًا بِأَصْحَابِهَا، وَعَلَى فَرَسٍ كَبِيرٍ السَّنَّ لَا يَزَالُ فِيهِ عَلَى كَابَةِ مَنْظَرِهِ مِنْ
الْقُوَّةِ مَا يُقَدِّرُهُ عَلَى احْتِمَالِ مَشَاقِّ الصُّعُودِ وَالْمُحْبُوطِ فِي أَنْجَادِ هَذِهِ الْجَهَةِ وَأَغْوَارِهَا
الْكَثِيرَةِ، فَاسْتَأْجَرْنَاهُمَا بِأَجْرَةٍ قَلِيلَةٍ، وَفِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ ظَعْنًا اسْتَوَى الزَّيْجِيُّ الْبَارُّ عَلَى
كُرْسَى الْمَرْكَبَةِ اسْتَوَاءَ السَّائِقِ الْمُخْتَالِ الْمُعْجَبِ بِنَفْسِهِ .

كَانَ وَجْهُ « إِمِيل » — وَقَدْ زَالَ شُحُوبُهُ وَعَادَ إِلَيْهِ لَوْنُهُ — يَتَلَا فَوْحًا
وَيَزُجُّ بَشْرًا وَطَلَاقَةً، لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ يَلْذُ لِلْأَطْفَالِ كَتَوَقُّعِ الْحَوَادِثِ وَلَكَّا لَمْ نَصَادِفْ
فِي طَرِيقِنَا شَيْئًا مِمَّنَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ حِكَايَتَهُ، فَلَمْ نَلَاقِ سَلْبَةً وَلَا وَحُوشًا وَلَا أَسَارَى
مُقِيدِينَ فِي مَقَارَاتِ الصُّخُورِ، مَعَ أَنَّا قَدْ جُبْنَا أَرْضِينَ مَقْفَرَةً مُتَحَدًّا سَوَاحِلُ قَهْلَةٍ^(١)
مُهْجُورَةٍ مُعْرَضَةٍ لِجَمِيعِ مَا يَطْرَأُ مِنْ ضُرُوبِ هَيَاجِ الْبَحْرِ وَطُغْيَانِهِ .

لَمْ يَكُنْ خُرُوجِي إِلَى التَّرْتُّهِ لِمَحْضِ التَّدَاوَى بِتَغْيِيرِ الْهَوَاءِ، بَلْ كُنْتُ أُرِي إِلَى
عَرَضٍ آخَرٍ أَيْضًا وَهُوَ أَنْ يَفْعَلَ « إِمِيلُ » بِمَا يُسَاهِدُهُ مِنَ الْمَنَاطِرِ الْخَلْقِيَّةِ
وَصُورِهَا الْمُتَنَبِّهَةِ فَتَنْتَشِشَ لَهَا فِي نَفْسِهِ آثَارُ حَيَّةٍ، فَإِنَّهُ يَقَالُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ بَعَثَ

(١) الانجذاب والأغوار المرتفعات والمنخفضات من الأرض .

(٢) مقفرة خالية من السكان .

(٣) قهله خالية من النبات .

فِي نَفْسٍ بَارُونٌ تَبَاشِيرٌ وَلَعِبُهُ وَلَهْجُهُ بِالشَّعْرِ إِنَّمَا هُوَ مَنْظَرٌ مَا يُوجَدُ فِي هَضَابٍ^(٢)
إِيقُوسِيَّةٍ مِنَ الْبُحَيْرَاتِ وَفِيمَ الْجِبَالِ، وَلَسْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ «إِمِيلَ» سَيَكُونُ بَارُونٌ
عَصِيرُهُ بَلَّ لَا أَحَدٌ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ فِي التَّطَلُّعِ إِلَى ذَلِكَ، وَلَكِنِّي أَتَكَدَّرُ وَأَحْزَنُ
إِنْ رَأَيْتُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لَا يَتَأَثَّرُ بِمَا هُوَ مُسَطَّرٌ فِي صَفَحَاتِ الْكَوْنِ مِنْ جَدِّ
الشَّعْرِ وَبَدْيِهِ.

قَدْ وَهَمْتُ فِيمَا عَلَّقْتُهُ عَلَى هَذَا السَّفَرِ الْقَصِيرِ مِنَ الْأَمَلِ الْكَبِيرِ فِي تَنْبِيهِ الْقَوَى
الْحَمَاسِيَّةِ فِي «إِمِيلَ» وَهَذَا أَنَاذِهِ أَعْتَرَفَ بِحِطَائِي صَاغِرَةً إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ لِي أَنِّي تَجَلَّيْتُ
فِي هَذَا الْأَمَلِ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ لَا يَشُوقُهُ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ وَاسْتِطْلَاعُ وَقَائِعِ
الْأَرْيَافِ وَهُوَ مِنْ حَدَائِثِ السَّنِّ يَحِثُّ يَضْعَبُ عَلَيْهِ إِدْرَاكُ الْأَشْيَاءِ فِي جُمْلَتِهَا
وَجَمْعُوهَا.

أَرَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثَلِّيَّ فِي تَنْبِيهِ الْأَطْفَالِ وَبَثُّ رُوحِ الْمُلَاحَظَةِ فِي نُفُوسِهِمْ
هِيَ أَنْ لَا تُطْلَبَ مِنْهُمْ الْمُلَاحَظَةُ وَلَا يُحْمَلُوا عَلَيْهَا، وَقَدْ سِرْتُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ
فِي سِيَاسَتِي «لِإِمِيلَ» فَلَمْ أَشَدَّ عَنْهَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً. ذَلِكَ أَنَّنَا كُنَّا فِي رَأْسٍ لِيَزَارْدَ^(٣)
— وَمَا أَكْثَرَ عَجَابَتِهِ —. وَإِنْ أَرَدْتَ تَحْلِيلَهَا فَتَنَلْ لِنَفْسِكَ مُحُورًا هَائِلَةً عَلَى جَمِيعِ
الْأَشْكَالِ بَعْضُهَا قَائِمٌ وَبَعْضُهَا سَاقِطٌ وَشَيْءٌ مِنْهَا مُتَمَصِّلٌ وَآخَرُ مُتَفَصِّلٌ يَبْجَعُ بَيْنَهُمَا

(١) بَارُونٌ هُوَ الْوَرْدُ بَارُونُ الشَّاعِرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ مُؤَلِّفِ الْقِصَصِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي مِنْهَا قِصَّةُ الْفِلَامِ هَار

وَقِصَّةُ الدُّوقِ جِرَانٍ وَهُوَ مَاتَ فِي سَنَةِ ١٧٨٨ وَمَاتَ سَنَةَ ١٨٢٤

(٢) الْهَضَابُ : جَمْعُ هَضْبَةٍ وَهِيَ الْجَبَلُ الْمُنْبَسِطُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

(٣) رَأْسُ لِيَزَارْدَ هُوَ رَأْسٌ مِنْ رُؤُوسِ سَوَاحِلِ انْجِلَازِيَّةٍ فِي الْغَرْبِ الْأَمْرِيَّةِ كُورْنُوَئِي .

الْبَحْرُ وَيَصْطَلِحُ ، وَمِنْهَا مَا غَمَرَهُ الْبَحْرُ فَطَوَّقَ جِدَّهُ بِقِلَادَةٍ مِنَ الزَّبَدِ وَلَمْ يَبْدُ مِنْهُ سِوَى رَأْسٍ مَحْرُوطٍ أَمْلَسَ مَصْقُولٍ لَا تَفْتَأُ الْأَمْوَاجُ تَفْسِيلُهُ ، ثُمَّ تَصَوَّرُ أَنْ بَصْرَكَ يَتَّبِعُ مِنْ بَعِيدٍ خَطَّ السَّوَاحِلِ فَيَرَى مَا يَتَخَلَّلُهَا مِنْ شُقَّةٍ إِلَى أُخْرَى مِنَ الصُّدُوعِ الْعَظِيمَةِ وَالْوَهَادِ وَالْمَقَارَاتِ الْمُظْلِمَةِ ، فَإِذَا وَقَفَ الْإِنْسَانُ وَسَطَ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْكُبْرَى كَانَتْ حَيْرَتُهُ فِي اخْتِيَارِ الْمَكَانِ الَّذِي يُشْرِفُ مِنْهُ عَلَيْهَا . وَفَقْتُ أَنَا وَإِمِيلُ نَجَاهُ (كَيْنَانَسْ كُونْ) وَهُوَ أَحَدُ الْخُلُجِّ الَّتِي يَرَى فِيهَا الْبَحْرُ أَجْمَلَ مَا يَكُونُ وَسَطَ الْأَطْلَالِ وَقَطْعِ الصُّخُورِ ، وَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : انْظُرْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ نَظْرًا بَلِغًا وَانْقَشُهُ فِي حَافِظَتِكَ فَلَعَلَّكَ لَنْ تَرَى هَذَا الْمَنْظَرَ بَعْدَ الْيَوْمِ .

كَأَنِّي بِكَ تَقُولُ؟ هَلِ الْقُوَّةُ الذَّاكِرَةُ مِمَّا يَأْتِي بِأَمْرٍ نَا قَنَامَرَهَا بِالْحِفْظِ وَالذِّكْرِ؟ فَأُجِيبُكَ بِأَنَّ لِي بَعْضَ الْحَقِّ أَنْ أَعْتَقِدَ هَذَا إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَادَتْنِي عَلَيْهِ تَجْرِبَتِي ، ذَلِكَ أَنِّي أَيَّامَ كُنْتُ فِيمَا يُقَارِبُ سَنَ « إِمِيل » سَافِرًا وَالْبَلَاءَ إِلَى مُقَاطَعَةِ أَوْفَرْنِي^(١) وَأَخَذَانِي مَعَهُمَا ، وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ إِقَامَتِنَا هُنَاكَ صَعِدْنَا إِحْدَى شِعَافِ الْجَبَلِ الْمُسَمَّى « مُنْدُور » وَهُنَاكَ تَشَدَّنِي آفَهُ وَاللَّيْ جَاهِرًا بِصَوْتِهِ أَنْ لَا أَسْنَى مَا كُنْتُ أَشَاهِدُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا دُمْتُ حَيَّةً . وَلَا أَرَاكَ إِلَّا سَائِلِي عَنْ نَتِيجَةِ هَذَا الْإِحْسَامِ ، فَأَعْلَمُ أَنَّ بَجِيعَ مَا كَانَ يَتَبَسَّطُ أَمَامَ نَظْرَتِي فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْمُحْدِثَةِ بِي وَيَحْيِ مَشَاهِدُ الْحَبَالِ وَالرَّبِّي وَالْوُدْيَانِ لَا يَزَالُ مَرُوسًا فِي تَوَاجُحِ ذَاكِرَتِي ،

(١) مقاطعة أوفرن هي اقلم قديم من أقاليم فرنسا قاعدته "كليرمونت فيراندا" تكونت منه ومن بنه الموت لوار "والكروز" مقاطعة "كانتال وبرى دودوم" .

(٢) الربي جمع وبرة وهي المرتفع من الأرض .

وَمِنْ هَذَا تَعْرِفُ السَّبَبَ الَّذِي حَلَّتْ عَلَى أَتْبَاعِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَعَ «إِمِيلَ»، تَمَّ
 إِنَّ وَالِدَيَّ قَدْ أَوْصَايَ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ بِحِفْظِ مَنْظَرِ آخِرِهَا أَذْكَرُهُ الْآنَ فَلَمْ يُجِدْ
 هَذَا شَيْئًا فِي الْحِفْظِ، وَأَنَا أَسْتَفْهِجُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ تَسَرَّعْتُ وَقْتُ مَا أَنْ يَكُونَ
 لِلْمَرْبِيِّ شَيْءٌ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى حَافِظَةِ الْأَطْفَالِ فَلَا يَذْبَحِي الْإِفْرَاطُ فِي إِسْتِعْمَالِهِ
 لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ قَعَالَةٌ .

إِذَا وَكَلَّ «إِمِيلُ» لِنَفْسِهِ كَانَتْ دَهْشَتُهُ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يَرَاهَا أَكْثَرُ مِنْ إِعْجَابِهِ
 بِهَا، وَهَذَا يُمْكِنُ عَلَيَّ اعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي رُؤْيَا الْأُمُورِ عَلَى حَقِيقَتِهَا كَمَلِ
 الرُّؤْيَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْخَيَالِ . خُذْ لَذَلِكَ مَثَلًا وَهُوَ أَنَّ الطِّفْلَ لَا يَعْرِفُ مِنَ الْبَحْرِ
 سِوَى دَائِرَةِ الْأَفُقِ الَّتِي يَحُولُ بِصَرِّهِ وَهِيَ دَائِرَةٌ ضَيِّقَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَاقِعِ، فَإِنَّ
 حِجَابَ الْمَسَافَاتِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا وَرَاءَهَا مِنْ بَقِيَّةِ الْبَحْرِ، فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ
 يَفْقَهُ عَنْ شُهُودِهِ وَتَرَفُّعِ نَفْسِهِ إِذَا وَقَفَ أَمَامَ مَشْهَدِ الْمَيَاهِ الْجَلِيلِ فَذَلِكَ لِأَنَّهُ
 يَنْظُرُ بِفِكْرِهِ إِلَى مَا وَرَاءَ الْأَفُقِ مِنْ امْتِدَادِ الْمَحِيطِ، فَإِنَّهُ مَتَى انْقَضَتْ سَاعَةٌ مِنْ
 رِبْقَةِ عَجْزِ الْمَشَاعِيرِ الظَّاهِرَةِ اتَّسَعَتْ فِي خَيَالِهِ حُدُودُ الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ فَيُضِيفُ إِلَى
 هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمَائِيَّةِ الْمُضْطَرِبَةِ - الَّتِي لَا يَرَى مِنْهَا إِلَّا جُزْءًا حَقِيرًا مَهْمَا كَانَتْ دَقَّةُ
 بَصَرِهِ - صُورَةً عَدِمَ الثَّنَائِي وَالْجَلَالَ وَكَلَاهُمَا مِنْ مُدْرَكَاتِ الْعَقْلِ لِأَدْخُلَ لِلْحِسِّ
 فِيهِمَا وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ يَرَى الْجَلَالَ وَالْعِظَمَ فِي مَاهِيَةِ الْبَحْرِ وَمِمَّنْهُ الذَّهْنِيُّ لِأَنِّي
 صُورَتِهِ الْمَرْبِيَّةَ .

فَخَلُّوا نَفْسِي (إِمِيلُ) مِنْ مَلَكَاتِ التَّفَكُّرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِ بِتَقْدِيمِهِ فِي السَّنِّ
 يَكْشِفُ لِي سُرْعَتَهُ أَكْثَرًا بِمَا يَرَاهُ مِنْ مَنَاطِرِ الْكَوْنِ بَلْ تَقْلِيدِهِ غَيْرُهُ فِي الْإِعْجَابِ بِهَا،

كَأَمِينٍ لِي سَبَبِ أَنْبَعَاتِ شَوْفِهِ إِنْ بَعْضُ حُرِّيَّاتٍ مَا كَانَتْ تَخْطُرُ بِأَلِي مُطْلَقًا وَلَهْجُهُ
يَهَامُ شَدِيدًا . ذَلِكَ أَنَّ مُعْظَمَ الصُّخُورِ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا رَأْسُ لِيْزَارْدَ وَلَنْدِسْ إِنْ
(طَرَفِ الْأَرْضِ) وَضِعَ لِكُلِّ صَخْرَةٍ مِنْهَا اسْمٌ خَاصٌّ بِهَا ، كَأَنَّهُ يُخَاطَبُ الْخَبَالُ
وَيُوقَفُ فِيرِيكَ الدَّلِيلُ الْخَرِيتُ مِنْهَا صُورُ الْعُمُودِ وَعَرِينِ الْأَسَدِ وَالْمَطْبِخِ وَالْمَنَافِخِ
وَالْفِلَاةِ وَالْفَرَسِ وَرَأْسِ الدُّكُورِ جُوسْنِ وَوَجْهِ الدُّكُورِ سَتَاكْسِ وَغَيْرِهِ ، فَمِنْ
هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَا يَنْطَبِقُ وَلَاشَكَّ عَلَى مُنَاسَبَاتٍ خُرَافِيَّةٍ تَخْتَلِفُ دَرَجَةً قُرْبًا أَوْ بَعِيدًا
مِنَ الْحَقِيقَةِ ، فَيَرَى أَنَّ مِنْهَا أَيْضًا مَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى وُجُودِ وَجْهِهِ شَبَهٍ ظَاهِرَةٍ لِلْعَيْنِ
بَيْنَ مُسَمِّيَاتِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَبَيْنَ تِلْكَ الصُّخُورِ الَّتِي وَضِعَ لَهَا ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ تَكُونُ
هَذِهِ الْأَلْعَابُ الْكُونِيَّةُ وَالصُّورُ الْإِتْفَاقِيَّةُ وَالْخَبَرَةُ الَّتِي تُمَثِّلُ هَيْئَةَ الْإِنْسَانِ أَوْ شَكْلَ
شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ مَعَ عَدَمِ تَحَيُّهَا بِالْمُنْعَادِ هِيَ الَّتِي بَعَثَتْ فِي نُفُوسِ الْأَوَّلِينَ فِكْرَةَ
صِنَاعَةِ التَّمَاثِيلِ ، وَمَهْمَا كَانَ أَصْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَإِنَّ هَذَا الْفَنَّ الْفَطْرِيَّ الْإِضْطِرَاريَّ
الَّذِي نَقَشَتْهُ عَلَى الصُّوَانِ يَدُ الْخَالِقِ الْقَادِرِ هُوَ مِنَ الْفَرَائِبِ غَيْرِ الْمَالُوفَةِ الَّتِي
هَاجَتْ شَوْقُ «إِمْبِل» إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْتَهِدُ مِنْ نَفْسِهِ فِي إِدْرَاكِ مَا بَيْنَ
قِطْعِ الصَّخْرِ وَبَيْنَ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ الْمَعْرُوفَةِ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ مِنْ وَجْهِهِ الشَّبَهِ الَّتِي لَمْ
تَعُزْبْ أَيْضًا — كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ أَسْمَاءُ تِلْكَ الْقِطْعِ — عَنْ فِكْرِ صَبَائِدِ السَّوَاوِلِ
السُّدُجِ الْبُسْلَاءِ .

مِنْ عَهْدِ أَنْ رَأَيْتُ جَمِيعَ النُّمُودَجَاتِ الْأَصْلِيَّةِ لِفَنِّ الْعِبَادَةِ ظَاهِرَةً فِي الْمَغَارَاتِ
وَسَلْسِلِ الصُّخُورِ لَمْ يَسَعْنِي إِلَّا الْإِرْتِيَابُ فِي أَنَّ هَذَا الْفَنَّ مِنْ مَخْتَرَعَاتِ الْإِنْسَانِ

ذَلِكَ لِأَنَّكَ تَجِدُ فِيهَا أَصْلَ النَّافِذَةِ الْقَوْسِيَّةِ وَالْقِيَابِ بِمَا يُقَوْمُهَا مِنَ الْأَرْتِفَاعِ
وَالِإِنْحِنَاءِ وَالِدُعَائِمِ الثَّقِيلَةِ وَالْعُمُودِ الرَّفِيعِ الْمُخَطِّطِ وَالشَّابِيكِ الطَّوِيلَةِ الْمُقْبُوَّةِ
وَالْعِمَادِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْكَالِ الْكَثِيرَةِ ، فَلَيْسَ عَلَى الْخِيَالِ إِلَّا أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى هَذِهِ
الْكُلِّ الصَّخْرِيَّةِ الْمُتَرَاكِمَةِ حَتَّى يُبَيِّنَ النَّظَرُ مِنْ بَيْنِهَا مَثَلًا لِمَعَايِدَ عَتِيقَةٍ ، وَصُفُوفًا
مِنْ تَمَائِيلَ صَخْرِيَّةٍ ذَاتِ وُجُوهِ نَاقِصَةٍ ، وَزُخْرُفًا رَمْزِيًّا ، وَوَحُوشًا خُرَافِيَّةً لَوْ فَصَلَتْ
مِنْ الصَّخْرِ لَكَانَتْ شُخُوصًا مُسْتَقِلَّةً .

كَانَ يُوَدِّي - عَلَى كَوْنِي لَسْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَلَا مِنَ الْأَثَرِيِّينَ - أَنْ أَعْلَمَ (إِمِيل)
فِي هَذِهِ الْفُرْصَةِ الْجَمِيلَةِ بِأَنَّ أَلْفِي فِي ذَهْنِهِ مَعْنَى لِلْآثَارِ السَّائِيَةِ الَّتِي لَا تَحْلُو مِنْهَا بَعْضُ
جِهَاتِ كُورَنُوآيَ ، وَأَكْثَرُهَا شَبُوحًا هُوَ - كَمَا تَعْلَمُ - الدَّوَائِرُ الْقِسْمِيَّةُ وَالْأَتَجَارُ الطَّوِيلَةُ
الْقَائِمَةُ فِي الْأَرْضِ عَلَى قَوَاعِدِمَا كَالْمَسَلَّاتِ ، وَالرُّؤُوسُ الصَّوَانِيَّةُ الطَّبِيعَةُ الَّتِي
صَارَتْ بَعْدَ عَمَلِ صِنَاعِي قَلِيلٌ حَتَّى الْحُصُونُ الْأُولَى لِلْبِلَادِ تَحِيهَا مِنْ لُصُوصِ
الْبَحْرِ ، وَكَانَ أَشَدَّ هَذِهِ الْآثَارِ اسْتِعْمَالَهُ لِي مُدْرَجٌ بِلَدَيْنِ فِي رَأْسِ لِي زَارْدَ ، وَمِمَّا يَحْمِلُ
عَلَى الظَّنِّ أَنَّ يَدَ الْإِنْسَانِ هِيَ الَّتِي نَحَتَتْ هَذَا الْمُدْرَجَ فِي الصَّخْرِ مَا يُشَاهِدُ
فِي بَعْضِ أَرْجَائِهِ مِنْ آثَارِ أَعْمَالِ تِلْكَ الْيَدِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي حَمَّا نَصَفَهَا كُرُورُ الْمُصَوِّرِ
وَمَا نَبَتَ مِنْ الْأَعْشَابِ الدَّقِيقَةِ عَلَى سَطْحِ الصُّخُورِ . وَمِنْ الْأَقْوَالِ الْمَرْوِيَّةِ
فِي شَأْنِ ذَلِكَ الْمُدْرَجِ أَنَّ الدَّوَائِرَ الْعَظِيمَةَ النَّائِيَةَ فِي سَمَكِ الْحَجَرِ كَانَتْ فِيمَا غَبَرَ مِنْ

(١) السنية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد النول وشمال ايطاليا
وبريطانية لعظمى وابلاندة . (٢) نسبة الى القميس لأن القميسين هم الذين كانوا يختصين بهذه
الدوائر فلا توجد في غير محالهم . (٣) الناقصة : البارزة .

الزَّيْنُ صُفُوفَ دَرَجَاتٍ وَأَنَّ السَّلْتَ قَدْ أَنْهَزُوا حَيْثُ فُرْصَةٌ وَجُودٍ مُنَحْنٍ خَطَّتُهُ يَدُ
الْفِطْرَةِ وَوَهْدَةٍ يُزِيدُ الْبَحْرَ فِي قَاعِهَا فَيَجْلُوهَا مَسْرَحًا لِأَبْصَارِ النَّظَارِ وَعَمَلُوا لِجَنَمِهِمْ
حَوْلَهَا، إِذَا حَمَّتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ فَلَيْتَ شِعْرِي مَاذَا كَانَ الْمَنْظَرُ لِلَّذِي كَانَ يُحْشَرُ النَّاسُ
لَهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ إِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْكَوْنُ وَعِظَمُهُ فَإِنَّهُ مُشْهَدٌ جَدِيدٌ بِإِتَارَةِ وَجْدَانٍ
الْإِعْجَابِ وَالْإِكْبَارِ خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ، وَلَكِنِّي أَرْجَحُ أَنَّ ذَلِكَ الْإِجْتِمَاعَ كَانَ
لِقَضَاءِ بَعْضِ الْمَنَاسِكِ الدِّينِيَّةِ لَوْجُودِ جُمْلَةٍ مِنَ الصُّحُورِ السُّودَاءِ نَاهِدَةً عَلَى سَطْحِ
الْأَمْوَاجِ تَحْتَ الْمُدْرَجِ بِقَالَ إِنَّ الْفَسَّهَيْنِ كَانُوا يَتَخَذُونَهَا مَذَابِحَ لِلْقَرَّابِينَ وَتِلْكَ
شَعَائِرُ أَقْلٍ مَا فِيهَا الْعِظَمُ وَالْجَلَالُ.

يُوجَدُ أَيْضًا فِي هَذِهِ اللَّاحِيَةِ حِجَارَةٌ عَمُودِيَّةٌ يَتَأَلَّفُ مِنْ تَسَاقُفِهَا دَوَائِرُ مُتَنَاسِبَةٍ
الْأَجْزَاءِ تُسَمَّى بِالْكُرُومِيكِ يَكْتَسِفُهَا نَبَاتُ الطُّنُجِ الْأَدْنَى الْمُحَرِّقُ فَيُورِثُ رَانِيَهَا
النَّمَّ وَالْخَوْفَ، وَلَكِنْ! أَيْ «لَا مِيلَ» أَنْ يَكُونَ لَهُ كَبِيرُ اشْتِغَالٍ يُمَثِّلُ هَذِهِ الْأَتَارِ
الْقَدِيمَةِ وَهِيَ خُلُوفٌ مِنْ أَثَرِ صِنَاعَةِ النَّقْشِ وَمَجْهُولَةُ التَّارِيخِ؟ وَكَيْفَ يُرْجَى مِنْهُ الْإِهْتِمَامُ؟
عَلَى أَنِّي أَرَى أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ انْقَمَلَتْ بِأَتَارِ كَامِنَةٍ فِيهَا لِمَا شَاهَدَنَاهُ سَطْطَهْرُ فِيهِ يَوْمًا مَا،
وَأَيُّ اسْتِنْدٍ فِي هَذَا الرَّأْيِ عَلَى أَمْرِ صِبْيَانِي جِدًّا غَيْرَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي حَالِمِ الطُّغُولِيَّةِ
هُوَ أَكْبَرُ مِمَّا يُظَنُّ بِهِ وَتَوَاتَكَ فِصَّةُ هَذَا الْأَمْرِ:

كَانَ يَوْمُ ١١ يُونِيهِ عِيدَ مِيلَادِ «إِسْمِيلَ» فَأَرَادَ أَنْ يُنْشِرَ هَذَا الْيَوْمَ الْعَظِيمَ بِمَادِيَّةِ
خَفِيفَةِ مَوَانَةِ لِمَا تَقْضَى بِهِ عَادَةُ أَهْلِ الْبَلَدِ الَّذِي تَسْكُنُهُ، وَإِنَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ قَدْ عَمَدَ

فِي هَذَا الْعِيدِ إِلَى اخْتِرَاعِ أَفْجَرِهِ أَفْجَرًا قَدْ أَخَذَ بَنُوِي وَسَارِي إِلَى بُسْتَانٍ فَرَأَيْتُ
فِيهِ سَوَاقًا فِي غَايَةِ الدَّهْشِ - كَرَمًا مِنَ الْأَحْجَارِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِي الْحَجِّيمِ مُرْتَبَةً مَرْصُوفًا
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ بَنُوَعٍ مِنَ الْحِذْقِ وَالصَّنَاعَةِ وَقَدْ عَدَدْتُهَا فَوَجَدْتُهَا سَبْعَةً فَعَلِمْتُ
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَفَادَ مِنْ مَدْرَسَةِ قُدَمَاءِ « السَّلْتِ » فَإِنَّهُ لَمَّا فُهِمَ مِنَ الْأَثَارِ الَّتِي
زُرَّاهَا عَلَى طُولِ السَّاحِلِ أَنَّهُ أُقِيمَتْ تَذْكَارًا لِحَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ طَبَقَ مَا رَأَى
عَلَى نَفْسِهِ فَأَصْبَحَ كَمَا تَرَى ، وَلَهُ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَهُ هُورَاسٌ مِنْ قَبْلِهِ وَهُوَ : « قَدْ رَفَعْتُ
لِنَفْسِي أَثَرًا » .

عَلَى أَنِّي أَسْأَلُ نَفْسِي : لِمَاذَا يُسَمَّى سَنُ « إِمِيل » سَنَ التَّمْيِيزِ وَالْمُقَسِّلِ ؟
قَالَتْ شِعْرِي أَيْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ الطِّفْلُ فِي السَّاعَةِ مِنْ عُمُرِهِ ؟ لَا أَرَاهُ يَتَصَوَّرُ الْحُزْنَ بَاتٍ
فَإِنَّهُ لَمْ يَعْمُرْ مِنَ الزَّمَنِ مَا يَكْفِيهِ تَصَوُّرُهَا ، وَلَا يُدْرِكُ الْكَلْبَاتِ فَإِنَّهُ يَجِبُ لِإِدْرَاكِهَا
أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ قَدْ وَصَلَ إِلَى حَدٍّ مَعْلُومٍ مِنَ الرُّشْدِ ، وَإِنِّي إِذَا حَكَمْتُ يُفْتَضَى
مَا أَذْنِي إِلَيْهِ تَجَرَّبَتِي وَاخْتِبَارِي أَقُولُ إِنَّ « إِمِيل » لَا يَزَالُ أَكْثَرَانَعَانًا إِلَى الْعِلْمِ
بِالْأَشْيَاءِ مِنْهُ إِلَى الْحُكْمِ عَلَيْهَا ، فَالَّذِي يَهْمُهُ وَيَسْغُلُهُ إِنَّمَا هُوَ كَيْفِيَّاتُ الْمَوْجُودَاتِ
الظَّاهِرَةِ وَبَعْضُ دَلَائِلِ الْفِكْرِ وَأَمَارَاتِهِ . وَسَائِبُ لَكَ مُرَادِي بِمَثَلِ أَخِي مِنْ
ضُرُوبِ تَسْلِيًا فَاتَّخِذْهُ فِي الْمَكْتُوبِ الْآتِي اه .

(١) اخبره : ابنته .

(٢) « هوراس » هو شاعر لاتيني شهير ولد في سنة ٦٨ ومات في سنة ٨ ق م .

الرسالة السادسة والثلاثون

(من هيلانة إلى إراسم في ٢ نوفمبر سنة - ١٨٥)

«تعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري»

فَرَعْتُ مِنْ إِمَامَةِ مَعَهْدِ التَّمْثِيلِ الصَّغِيرِ الَّذِي كُنْتُ حَدَّثْتُكَ عَنْهُ فِي بَعْضِ
مَكْتُوبَاتِي السَّابِقَةِ ، وَلِي أَنْ أَقُولَ وَلَا تَغْرِبْ إِنَّهُ نَاجِحٌ مُؤَدٍّ إِلَى الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ .
اسْتَحْضَرْتُ الدُّكْتُورَ وَارْمُجْتُونُ مِنْ لُونْدَرَةِ فَانُوسًا سَحْرِيًّا ، وَهُوَ آلهُ جَمِيلَةٌ
مُعَدَّةٌ لِأَنْ تَتَجَلَّى فِيهَا الْمَنَاطِرُ الْمُتَعَاكِفَةُ بِوَاسِطَةِ الضَّوِّ وَاللَّوْنِ ، وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَنَّهَا
تُكَبِّرُ مَا يُمَثَّلُ فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ تَكْثِيرًا فِي غَايَةِ الْمُنَاسِبَةِ وَتَرَسِّمُ عَلَى حِجَابِهَا الَّذِي هُوَ
مِنَ النَّسِيجِ صُورًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى أَظْهَرَ وَلَا أَوْحَشَ مِنْهَا ، لِذَلِكَ تَرَانِي قَدْ قُمْتُ بِمَا
أَخَذْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْ رَسْمِ مُعْظِمِ الصُّورِ وَتَلْوِينِهَا عَلَى زُجَاجِهَا مُحْتَرَةً مَا يَكُونُ لِلْوَهْمِ
مِنَ الْأَثَرِ فِي النَّفْسِ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْهَا ، وَقَدْ بَدَأَ لِي أَيْضًا مِنَ الْمَفِيدِ أَنْ أُؤَلِّفَ بَيْنَ
مَا تُمَثِّلُهُ هَذِهِ الْأَلَّةُ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْمُخْتَلِفَةِ بِتَنْسِيقِهَا^(١) وَجَعَلِهَا عَلَى شَكْلِ قِصَّةٍ وَجِبَةٍ
تَجْعَلُ التَّمْثِيلَ مُرْتَبًا مُتَوَاصِلَ الْأَطْرَافِ يَسْتَمِيلُ النُّفُوسَ وَيُهَيِّجُ الْأَنْظَارَ . وَلَمَّا
انْتَهَيْتُ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ دَعَوْتُ إِلَى الْمَعَهْدِ فِي الشَّتَاءِ الْمَاضِي عَشْرِينَ طِفْلًا مِنْ
الْوِلْدَانِ وَالْوَلَدَاتِ مُخَالَفَةً فِي ذَلِكَ سُنَّةِ الْأَمِيرَةِ «دِيكَارَ بَانِيَّاس» فَإِنَّهَا كَانَتْ تُشْخَصُ
فِي بَيْتِهَا الْقِصَصَ الْحَزَلِيَّ وَتَأْمُرُ بِوَأَبَايَا أَنْ لَا يُدْخِلَ أَحَدًا ، وَسَبَبُ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ

أَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَبْتَدِيَ شَيْئًا مِنْ مُرُوحَاتِ النَّفْسِ إِلَّا إِذَا كَثُرَ عَدَدُ حَاضِرِيهَا وَهُمْ إِذَا كَانُوا أَطْفَالًا تَكُونُ الْأَسْتَفَادَةُ أَعْظَمَ وَالنَّفْعُ أَكْثَرَ .

إِبْتَدَأْتُ التَّمثِيلَ بِعَرَضِ أَشْيَاءَ فِي غَايَةِ الْبَسَاطَةِ كَدَاخِلِ ضَيْعَةٍ أَوْ طَاحُونٍ، وَالْمَعِيشَةِ فِي سَفِينَةٍ، ثُمَّ مَثَلْتُ هَذِهِ السَّفِينَةَ فِي يَوْمٍ أَنْحَرَقَتْ قَتَلْنَا إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ وَكَانَ أَبْعَدُهَا عَنْ أَخْلَاقِنَا وَعَوَائِدِنَا أَدْعَاهَا إِلَى إِثَارَةِ الْإِسْتِغْرَابِ وَتَهْيِيجِ الشَّوْقِ فِي نُفُوسِ النَّظَّارَةِ الصَّغَارِ فَكَانُوا يُجَبُّونَ أَنْ يَرَوْا بَيُوتًا بَنِيَتْ عَلَى خِلَافِ طَرِيقَتِنَا فِي الْبِنَاءِ وَشَوَارِعَ وَسَاحَاتٍ وَرَحَابَاتٍ عَامَّةٍ فِيهَا رِجَالٌ وَلِسَاءُ غَرِيبُ الْأَزْيَاءِ وَالْهَيْئَاتِ وَكَانَ فِيهَا عَرَضُهُ عَلَيْهِمْ صُورَةُ صَيْدِ الْحَيَوَانَاتِ الْوَحْشِيَّةِ خُصُوصًا أَصْحَمَهَا وَأَضْرَاهَا كَالْفِيلِ وَفَرَسِ الْبَحْرِ وَالْكَرْكَدَنْ وَالْأَسَدِ وَالنَّمِرِ فَلَمْ أَعْدَمْ مِنْهُمْ تَحَمُّسًا فِي الدَّهْشِ وَالْإِعْجَابِ بِهَا، ثُمَّ أَزَيْتُهُمْ قَافِلَةً تَجُوبُ الصَّحْرَاءَ فَشَاقَهُمْ مَنَظَرُهَا كَثِيرًا، وَلَقَدْ كَفَّنِي هَذِهِ التَّجَارِبُ فِي الْإِفْتِنَاجِ بِأَنَّ فِي قَانُونِي السَّحَرِيِّ عَزِيمَةً « يَا مِسْمَعَةُ انْفَتِحِي »^(١) وَأَنِّي إِنْ لَمْ أَسْتَعِنْ بِهِ عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ الْمَجْهُولَاتِ لِأَصْدِقَائِي الْأَحْدَاثِ كُنْتُ مُخْطِئَةً مُلَوِّمَةً .

يَتَشَوَّفُ الْأَطْفَالُ كَثِيرًا إِلَى مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تَكُونِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ وَالصُّخُورِ وَتَشَوَّقُ نُفُوسُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ طَرِيقَةِ نُشُوءِ جَمِيعِ مَا يُشَاهِدُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ آدَتُ جَمَاعَةَ النَّظَّارَةِ جَهْرًا بِأَنَّنَا سَمَعْنَا عَلَى الدَّوَامِ قِصَّةَ ذَاتِ بَهِيمَةٍ وَجَلَّالٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ عِدَّةِ فُصُولٍ تُسَمَّى تَارِيخُ الْأَرْضِ .

(١) الغزالة هم المغربون . (٢) أضراها : أكثرها اعتيادا للصيد وغيره .

(٣) باسمعة اتمنى عزيمه سحرية خرافية لفتح الابواب المغلقة ذكرت في كتاب ألف ليلة وليلة .

اِسْتَمْت عَشِيَّةَ هَذَا التَّمْيِيلِ بِمَجْمِيعِ مَا فِي الْقَانُونِ مِنْ قُوَّةِ اِلسِتْعَادِ وَبُصُورِ
اِعْتِمَدٍ فِي رَسْمِهَا عَلَى آرَاءِ عَلَمَاءِ طَبَقَاتِ الْاَرْضِ مِنَ الْاِنْجِلِيزِ وَفِلِيلِ مَا حَصَلَتْهُ مِنْ
الْعِلْمِ بِمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ، وَاسْتَقَرَّرْتُ عَلَى اَنْ اَجْعَلَ فِي التَّمْيِيلِ لِفَوَاعِلِ الْكَوْنِ وَقُوَى
الطَّبِيعَةِ لِسَانًا تَفْصِحُ بِهِ عَنِ الْحَقَائِقِ وَالْحَوَادِثِ وَهُوَ تَجَوُّزٌ يُمْكِنُ اَنْ يُسْمَعَ بِهِ
فِي الْفَنَاءِ وَالتَّلْمِيحِ الشَّعْرِيَّ، عَلَى اَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ قَرَضُ الشَّعْرِ بِحَالٍ
بَلْ كَانَ الْقَرَضُ مِنْهُ لِيُضَاحَ مَا لَمْ تَكُنْ آثَارُ الضُّوءِ وَالْاَلْوَانِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي اِظْهَارِهِ
عَلَى الْحِجَابِ اِظْهَارًا تَامًا بِعِبَارَاتٍ فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ، مِثَالُ ذَلِكَ اَنْ اَقُولَ لِلنَّظَّارَةِ:
اَتَدْرُونَ مَاذَا كَانَ يَقُولُ الْمُحِيطُ الَّذِي هُوَ اَصْلُ الْاَشْيَاءِ لَمَّا عَمَرَ سَطْحَ عَالَمٍ اَزْهَقَتْ
رُوحُهُ مِيَاهُهُ؟ الْحَقُّ اَقُولُ اِنِّي لَمْ اَقِفْ عَلَى كَلَامِهِ بَلْ اِحَالَ اَنَّهُ كَانَ يَدْعُو الْحَيَاةَ
دُعَاءَ الْاَنْبِيَاءِ وَيَسْأَلُهَا اَنْ تُزِيلَ الْوَحْشَةَ مِنْ اَعْمَاقِهِ الْمُظْلِمَةِ وَبَلْحِجِهِ الْفَاحِلَةِ .

وَلَا غَرْوَ فَقَدْ بَدَأَ فِي اَشْعَةِ الضُّوءِ السَّحَرِيِّ اَقْدَمُ مَا عُرِفَ مِنْ اَشْكَالِ الْحَيَوَانَاتِ
كَالْاَوْدَامِيَّةِ وَاللَّجْجُولَةِ وَالْاَوْرْتوسِيرَاتِيَّةِ طَائِغَةِ الْبَحَارِ السِّلُورِيَّةِ^(١) وَالتَّرِيُولِيَّةِ^(٢) وَغَيْرِهَا
مِنْ مَخْلُوقَاتِ الْكَوْنِ الْاُولَى الَّتِي رُسِمَتْ صُورُهَا اِعْتِمَادًا عَلَى بَقَايَاهَا الْاَثَرِيَّةِ اَوْ عَلَى
مَا انْطَبَعَ عَلَى الصُّخُورِ مِنْ تِلْكَ الْبَقَايَا .

(١) الْاَوْدَامِيَّةُ حَيَوَانُ هَلَامِي مِنَ الْمَكْرُونَاتِ الْاُولَى تَوْجِدُ اَثَارَهُ وَلَا تَعْرِفُ اَخْبَارَهُ .

(٢) الدَّجْجُولَةُ حَيَوَانُ رَنْخُو ذُو مِحَارَةٍ مَخْرُوطِيَّةٍ مُسْتَلِطِلَةٌ يَشْمَلُ جَنْسُهُ عِدَّةَ اَنْوَاعٍ بَادَتْ وَلَمْ تَبْقِ اِلَّا اَثَارُهَا
وَأَعْضَاءُ الْحَرَكَةِ فِي هَذَا الْجَيَوَانِ تَوْجِدُ فِي رَأْسِهِ .

(٣) الْاَوْرْتوسِيرَاتِيَّةُ حَيَوَانُ هَلَامِي رَنْخُو يَقُومُ فِيهِ الذَّرَاعَانِ مَقَامَ الرِّجْلَيْنِ، مِحَارَتُهُ ذَاتُ ثَلَاثَيْنِ،
يُتِمَّلُ جَنْسُهُ عَلَى عِدَّةِ اَنْوَاعٍ بَعْضُهَا عَائِشٌ وَبَعْضُهَا بَائِدٌ فَلَمْ يَبْقِ اِلَّا اَثَارُهُ .

(٤) السِّلُورِيَّةُ نَسَبٌ اِلَى بِلَادِ السِّلُورِ وَهُمْ اَنْوَاعٌ كَانُوا يَقْطِنُونَ الْغَالِ فِي بَرِيطَانِيَةِ الْعَظْمَى .

(٥) التَّرِيُولِيَّةُ حَيَوَانُ رَنْخُو مِحَارَتُهُ ذَاتُ ثَلَاثَيْنِ .

ثُمَّ تَلَا ذَلِكَ ظُهُورُ أَوَّلِ أَرْضِ أَحْمَرَ عَنِ الْمَاءِ قَهَدَتْ عَلَى سَطْحِهِ، وَكَانَتْ طَوَائِفٌ مِنَ الْجَزْرِ كَأَن يُجِئِلُ لِلنَّظَارَةِ بِوَاسِطَةِ الْمُغَالِطَةِ الْبَصَرِيَّةِ أَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ الْأَعْشَابَ الْبَحْرِيَّةَ تَنْهَتْ مِنْهَا وَذَلِكَ كَالسَّيِّجِلَارِيَّةِ وَالِاسْتِجْمَارِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَثَلِ الْأَصْلِيَّةِ لِلنَّبَاتَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَلَسْتُ أَنْكَرَ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَنَاطِرِ هِيَ صُورٌ فِي نِهَآيَةِ الْحَقَارَةِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا مُثَّلَهُ مِنَ الْمَشَاهِدِ الْكُبْرَى لِلْكَوْنِ فِي عَصْرِهِ الْأَوَّلِ، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا — كَانَ قَدْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَشْهَدَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ — حَضَرَ فِي مَعَهْدِ تَمْثِيلِ تِلْكَ الصُّوَرِ لَمَّا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَضْحَكَ مِنْهَا لِأَنَّهُ لَا يَسْتَ إِلَّا أَشْبَاحَ لَاعِبٍ، وَلَكِنْ لَا يَعْزُبُ عَنْ ذِهْنِ هَذَا السَّاحِرِ أَنَّ هَذَا التَّمْثِيلَ إِنَّمَا جُعِلَ لِلْأَطْفَالِ، وَأَنَّ الْقَصْدَ مِنْهُ هُوَ تَعْلِيمُهُمْ وَهُوَ غَرَضٌ جَلِيلٌ يَجِبُ الْإِغْضَاءُ عَنْ حَقَارَةِ مَا يَتَّخِذُ مِنَ الْوَسَائِلِ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ.

كَأَن يَتْلُو كُلَّ عَصْرِ مِنْ عُصُورِ تَارِيخِ الْأَرْضِ قَفْزَةً جَهَالَةً عَمِيَاءَ وَسُكُوتٌ عَامٌ كَانَ يَدُلُّ — كَمَا نَبَّهْتُ النَّظَارَةَ إِلَيْهِ — عَلَى اشْتِغَالِ الدَّهْرِ بِعَمَلِهِ الْبَطِيءِ الْخَفِيِّ.

ظَهَرَ فِي الْقَفْصِ الثَّانِي مِنَ الْقِصَّةِ سِلْسِلَةٌ مَنَاطِرٌ مُخْتَلِفَةٌ آذَنْتْ بِحُصُولِ بَعْضِ الْحَوَادِثِ الْكُبْرَى عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، مِنْهَا أَنَّ جُزْرًا تَنَاتَتْ مِنَ الْمَاءِ وَتَوَاصَلَتْ

(١) السَّيِّجِلَارِيَّةُ نوع من النباتات البائدة التي لا يوجد منها إلا آثارها يحوى على نحو ستين صفاً و يوجد في الطبقات القمعية من الأرض . (٢) الاستجمارية نوع آخر من تلك النباتات .

(٣) جرت هيلانة في نسبة نشوء المخلوقات وتكون الكائنات الى عمل الدهر على مذهب الفلاسفة الماديين الذي ميناه الأوهام والظنون وما هي الا صنع رب العالمين وأبداع أحسن الخالقين وهيات للفعل الذى لا يعرف كنه نفسه أن يدرك كيف نشأت « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » . وإنما يدرك العقل منها شيئاً من القوانين التي أودعت فيها لجرى عليها في نموها التدريجي واستعمالها المستمرة .

فَكَانَتْ بَدَايَا تَكُونُ الْقَارَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَمِنْهَا أَنْظَهَرَتْ نَبَاتَاتٌ وَحَيَوَانَاتٌ جَدِيدَةٌ لَمْ يَكُنْ عَهْدُهَا وَجُودٌ فِي الْعَالَمِ إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ . وَأَخْصَ مَا أَثَارَ دَهْشِ النَّظَّارَةِ مِنْ تِلْكَ الْحَوَادِثِ وَهَاجَ إِعْجَابِهِمْ دَوْرُ طُحُورِ الزَّوَاحِفِ ، وَقَدْ حَمَلْنِي مَرَاتِبُهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّ بَيْنَ طُفُولِيَةِ الْكَوْنِ وَطُفُولِيَةِ الْخَيَالِ مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ لِمَا خَلَقَهُ مِنْ أَرْتِيَاكِ نَفُوسٍ تَلَامِيذِي الصَّغَارِ لِمُشَاهَدَةِ صُورِ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْبَائِدَةِ ، فَإِنِّي مَثَلْتُ لَهُمُ الْبِيرَاتِنُودُونَ^(١) وَهُوَ ضَفْدَعَةٌ كَالثُّورِ فِي الضَّخَامَةِ ، وَالْأَخْتُوزُورُ^(٢) ذَا الْعَيْنِ الْمَهَائِلَةِ ، وَالْبِيلِيزُورُ^(٣) الَّذِي عُنُقُهُ كَعُنُقِ الثَّعْبَانِ ، وَالْمِغَالُوزُورُ^(٤) فِيلُ الزَّوَاحِفِ الَّذِي رَأْسُهُ كَرَأْسِ الضَّبِّ ، وَالْمِيلِيزُورُ^(٥) ذَا الظَّهْرِ الشَّائِكِ ، وَصُنُوفَ الْحَيَاتِ الطَّيَّارَةِ الْمُسَمَّاةِ بِالتُّرُودَاكِتِيلِ الَّتِي تُشَابِهُ ذَلِكَ الْوَحْشَ الْخَرَّافِي ذَا الْأَجْنَةِ الَّذِي وَجْهُهُ وَجْهُ امْرَأَةٍ وَجِسْمُهُ جِسْمُ عُقَابٍ وَأَسْمُهُ الْمَازِيلِي ، فَأَثَارَتْ دَهْشَتَهُمْ وَإِعْجَابَهُمْ لَمَّا بِمَقَادِيرِ أَجْسَامِهَا الْمَهَائِلَةِ وَقُوَّةِ الدَّفَاعِ فِيهَا ثُمَّ تَلَاثَتْ نَوْعًا بَعْدَ نَوْعٍ كَمَا تَتَلَاشَى الْأَحْلَامُ .

كَانَتْ النَّظَّارَةُ يَتَقَدُّونَ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ كَانَتْ عَائِشَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِأَنِّي كُنْتُ أَؤَكِّدُ لَهُمْ ذَلِكَ بِدُمْنِي ، وَكَانَ هَذَا التَّأَكُّدُ مَصْدَرًا اسْتِغْرَابًا

(١) البيراتنودون : هو نوع من الزواحف البائدة أثبت وجوده العالم الانجليزى المسمى اوين بما عثر

عليه من بقاياها .

(٢) الاختوزور : نوع من الضب قى فلم يبق الا بقاياها .

(٣) البيليزور : نوع آخر منه .

(٤) الميغالوزور : نوع ثالث منه أخضع من السابعة .

(٥) الميليزور : نوع من الزواحف المالكة وجدت بقاياها في أرض الجزيرة .

جَدِيدٌ لَهُمْ ، عَلَى أُنَى مَا قَصَدْتُ إِضْلَالَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا التَّوْبِيهِ عَلَيْهِ بَلْ قَصَصْتُ عَلَيْهِمُ بِالْإِيحَازِ كَيْفِيَّةَ مَعْرِفَتِي إِيَّاهَا وَبَيَّنْتُ لَهُمْ مَا أَضَفْتُهُ مِنْ عِنْدِي إِلَى مَا عُرِفَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ مِنْ تَرْكِيبِهَا وَتَارِيخِهَا ، وَلَوْ أَنَّ سَائِلًا مِنْهُمْ سَأَلَنِي عَنْ سَبَبِ انْمِحَاطِهَا مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَأَعْضَلَنِي ^(١) سَوْأَلُهُ ، عَلَى أُنَى كُنْتُ أُجِيبُهُ : إِمَّا مَعَاشِرَ الْمَوْجُودَاتِ قَدْ زَجَّ بِنَا فِي مُحِيطِ الدَّهْرِ زَجًّا شَدِيدًا ، وَالْدَّهْرُ كَمَا تَعْلَمُ مَنْشَأُ الثَّقَلِ ، وَقَدْ وَجَدَ فِي طَبَائِعِنَا الْإِسْتِعْدَادَ لِجَمِيعِ مَا قُدِّرَ لَنَا مِنْ ضُرُوبِ تَصَارِيفِ الْحَيَاةِ وَاسْتِعَالَاتِهَا ، فَهَمَّا كَانَ عُمُرُ الزَّوَاحِفِ الْقَدِيمَةِ طَوِيلًا فَلَا بُدَّ أَنَّهَا قَدْ مَرَّتْ بِمَا قُدِّرَ لِلْكَوْنِ مِنَ النِّظَامِ الْعَامِّ كَمَا كَانَتْ تَمُرُّ أَشْبَاحُهَا عَلَى الْحِجَابِ الْمُعَدِّ لِقَبُولِهَا .

آذَنْ الْقِصَلِ الثَّالِثُ مِنَ الْقِصَّةِ بِمَنَاطِرِ خَلَائِيَّةِ اجْتَهَدْتُ فِي أَنْ أُثْمَلَ فِيهَا .
 آيَاتُ الْغَصْرِ الَّذِي يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ فَجَرَ حَيَاةِ الْأَرْضِ الْحَالِيَّةِ ^(٢)
 (أَيُوسِين) ، وَظَهَرَ بَعْدَ الزَّوَاحِفِ الضَّخْمَةِ أَجْسَامُ الْحَيَوَانَاتِ التَّنْدِيَّةِ كَالْمِجَاطِيرِيَوْمِ ^(٣)
 الْهَائِلِ ، وَالْدَّيْنُوتِيرِيَوْمِ مَارِدِ الْمَرْدَةِ فِي عَصْرِهَا ، وَالْمُسْتَوْدُونِ كَثِيرِ الْحَيَوَانَاتِ ^(٤)
 الْبَائِدَةِ الصَّفِيْقَةِ الْجُلُودِ وَغَيْرِهَا مِمَّا لَمْ أَذْكُرْهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَغْرِبِهَا ، أَحْضَرَهَا مَحْمَرُ
 الْقَانُونِ فَرَضَهَا عَلَى الْأَنْظَارِ بَرَهَةً ، ثُمَّ لَمَّا رَأَتْ أَنَّ هَذَا الْكَوْنَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ

(١) أَعْضَلَنِي : ظَلَمَنِي وَأَعْيَانِي .

(٢) آيَاتُ : عِلَامَاتُ .

(٣) الْمِجَاطِيرِيَوْمُ : نَوْعٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ التَّنْدِيَّةِ اقْرَضَ وَجَبَتْ بِهَا يَاهُ .

(٤) الدَّيْنُوتِيرِيَوْمُ : نَوْعٌ أَثَرُ مِنْهَا أَرَقَى مِنَ الْقَبِيلِ تَوْجِدَ بِهَا يَاهُ فِي الْأَرْضِ الرَّمْلِيَّةِ وَالْمَجْرِيَّةِ .

(٥) الْمُسْتَوْدُونُ : نَوْعٌ مِنَ الزَّوَاحِفِ الْبَائِدَةِ الْهَائِلَةِ .

لَمْ يَخْلُقْ لَهَا حَتَّى مَا كَانَ مِنْهُ فِي حِزِّ الْوَهْمِ وَالْمَغَالِطَةِ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ لَبَتْ دَعْوَةَ الْعَدَمِ قَرَأْتَ عَلَى التَّعَاقِبِ كَمَا بَدَتْ .

عَلَى أَنَّ مَا تَلَا هَذِهِ الْمُصُورَ الْأَوَّلَى مِنَ الْأَسْتَحَالَاتِ وَالْإِقْلَابَاتِ فِي النَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهَا قَدْ آذَنَ بِأَنَّ الْأَرْضَ صَائِرَةً إِلَى أَحْوَالِ الْمُصُورِ الْحَالِيَةِ فَأَنْشَأَ الْأَطْفَالَ يَتَدَرَّجُونَ فِي الشُّعُورِ بِأَنَّهُمْ فِي أَرْضٍ يَعْرِفُونَهَا مَعَ مَا كَانَ لَا يَزَالُ يُوْجَدُ مِنْ اثْنَيْنِ بَيْنَ مَا فِيهَا وَبَيْنَ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَرْضِهِمْ ، كَانَتْ تَتَجَلَّى أَمَامَهُمْ غَابَاتٌ تَقَارِبُ أَشْجَارُهَا أَشْجَارًا غَابَاتًا تَجُولُ فِيهَا آيَاتُ^(١) حُجْمَةِ الْأَجْسَامِ تَعْدُو وَرَاءَهَا السَّبَاعُ الَّتِي لَا يَزَالُ تَسْلُهَا يَفْتَرَسُ فِرَاسُهُ إِلَى الْيَوْمِ فِي الصَّحَارَى وَالْقَفَارِ .

لَمْ يَكُنِ الْبَرْدُ إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ قَدْ كَدَّرَ صَفَاءَ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الَّتِي كَانَ يَسْبَحُ فِيهَا ضَوْءُ الشَّمْسِ تَمْزُجًا بِحَرَارَتِهَا الْقَوِيَّةِ . وَلَكِنْ فِي آخِرِ الْعِشِيِّ بَدَتْ تَبَاشِيرُ التَّلَجِّ فَكَانَ لَهَا مَنَاطِرُ مُخِزَّةٌ مُتَعَاقِبَةٌ اسْتَعْنَتْ فِي إِبْرَازِهَا لِلْعَيْنِ بِكُلِّ مَا فِي فَنَائِمِي مِنْ قُوَّةِ الْإِسْتِعْدَادِ ، فَفَهِمَ مِنْهَا النَّظَّارَةُ أَنَّ حَيَوَانَاتِ الْمُصُورِ الْأَوَّلَى قَدْ أَهْلَكَتْهَا هَذِهِ الْمُؤَثَّرَاتُ الْمُبِيدَةُ أَوْ أَنَّهَا أَوَتْ إِلَى أَقَالِيمٍ أُخْرَى أَشَدَّ حَرَارَةً مِنْ أَقَالِيمِهَا الْأَوَّلَى ، وَكَانَ صَاحِبُ السُّلْطَانِ عَلَى هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْبَارِدَةِ هُوَ الْوَعْلُ الْقُطْبِيُّ وَالْقَبِيلُ ذُو الْقُرْوَةِ الْمُسَمَّى بِالْمَمُوثِ ، وَكَانَ يُحِيلُ لِلْأَطْفَالِ أَنَّ الْأَرْضَ صَائِرَةً إِلَى الْفَنَاءِ ، وَخَلْتَنِي أَطَالِعُ فِي عُيُونِ أَكْثَرِهِمُ اتِّفَانًا آيَاتِ الْفَلَقِ وَالْحَيَةِ وَلَمْ أَرِ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنَّ أُسْرِى عَنْهُمْ هَذَا الْفَلَقَ فَقَدْ تَكَلَّفْتُ ذَلِكَ الْحَوَادِثُ ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ بَلْ صُورَ الْحَوَادِثِ .

(١) الأيائل جمع أيل وأيل وهو ذكر الوعل .

(٢) الوعل : تيس الجبل .

بَدَتْ أَمَامَهُمْ مَغَارَةٌ مَحْتَهَا يَدُ الْفِطْرَةِ فِي شُبِّكَ الصُّخُورِ فَكَانَتْ مَلْجَأً أَوْتً إِلَيْهِ
الْحَيَوَانَاتُ الْوَحْشِيَّةُ كَالثَّبِّ وَالضَّبْعِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْكَلْبِ وَغَيْرَهَا مِنَ الثَّلَاةِ
الَّتِي تَرْجِعُ فِي نَسَبِهَا إِلَى أَنْوَاجٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ قَدْ أَصْبَحَتْ الْيَوْمَ مُسْتَأْنَسَةً . ثُمَّ ظَهَرَ
لَهُمْ خَلْقٌ جَدِيدٌ هُوَ عَجِيْبَةُ الْكَوْنِ ذَلِكَ هُوَ الْإِنْسَانُ ، رَأَوْهُ عَلَى ضَوْءٍ نَارٍ أَوْقَدَهَا
لِنَفْسِهِ فِي جَانِبٍ مَتَرِلٍ مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ شَبَّ حَتَّى عَرَفَ كَيْفَ يَمْتَقِطُهُ لِنَفْسِهِ . فَلَيْتَ
شِعْرَى مَا هُوَ ذَلِكَ الْخَلْقُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ هُوَ ؟ لَا شَكَّ أَنَّ مِثْلَ هَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ
هُمَا مِنَ الْأَسْئَلَةِ الْمُعْضِلَةِ الَّتِي يَحَارُّ الْإِنْسَانُ فِي الْجَوَابِ عَنْهَا وَالْمُنَاقَشَةِ فِيهَا أَمَامَ
أَطْفَالٍ لَا تَتَّبِعُ عَقُولُهُمْ لَهَا ، عَلَى أَنَّي لَسْتُ مُتَبَيِّنَةً فِي الْعِلْمِ بِالْإِجَابَةِ عَنْهُمَا ، مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ رَأَيْتُ مِنَ الْحَزْمِ أَنْ أُطْفِئَ فَنَاقُوسِي وَأَكْفَّ عَنِ الْخَوْصِ فِيهَا .

إِجَابَةٌ لَطَلَبِ بَجِيعِ النَّظَارَةِ — كَمَا يُقَالُ فِي إِعْلَانَاتِ مَعَاهِدِ التَّمَثِيلِ — قَدْ اسْتَعَدَّ
مَعَهْدُنَا لِإِيحَادِ عَدَدٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَشَاهِدِ سَتَمَثَّلُ فِي قِصَصِنَا .

عَقَدْتُ النِّيَّةَ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي دُرُوسِ التَّمَثِيلِ هَذِهِ وَعَلَى أَنَّ أَحَدِي لِأَصْدِقَائِي
الْأَحْدَاثِ بِوَاسِطَةِ الْفَنَاقُوسِ تَارِيخَ الْإِنْسَانِ وَمُغَالِبَتِهِ لِفَوَاعِلِ الْكَوْنِ وَمَا اتَّخَذَهُ مِنْ
آلَاتٍ صَيِّدِهِ وَأَدَوَاتٍ عَمَلِهِ الْأَوَّلَى وَتَجَارِيهِهِ الصَّنَاعِيَّةِ مُذْ كَانَتْ الصَّنَاعَةُ فِي مَهْدِ
طُفُولِيَّتِهَا ، ثُمَّ أَبَيَّنْ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَيْنَهَا مَا عُرِفَ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ
الْقَوْمِيَّةِ وَالْعَوَائِدِ الْقَدِيمَةِ وَأَنَارَ الْفَنُونِ الْأَوَّلَى ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ إِلَّا وَبِمَكْنٍ
أَنْ يَقْنَمَهُ الْأَطْفَالُ عَلَى شَرْطِ أَطْلَاعِهِمْ عَلَى كُلِّ مَا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَزْوَاجِ
مَعَهُمْ فِي التَّعْمِيرِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي تُطِيقُهُ أَنْفُسُهُمْ .

لَسْتُ أَغْبَى عَنْ قِيَمَةِ صِنَاعَةِ رَمِيمِ الْأَشْبَاحِ وَلَا أَجْهَلُ مَا تُسَاوِيهِ تِلْكَ الْأَلَا عَيْبُ
الْخَيَالِيَّةِ، وَلَا خَفَاءُ فِي أُنَى لَا أَدْعَى أَنِّي إِذَا اسْتَعْرَضْتُ أَمَامَ «إِمِيل» بَعْضَ الصُّوَرِ
لَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ وَالنَّاسُ فِي عُصُورِهِمُ الْقَدِيمَةِ أَكُونُ قَدْ عَلِمْتُهِ عِلْمَ الطَّبَقَاتِ
الْأَرْضِيَّةِ أَوْ عِلْمِ التَّارِيخِ، وَأَنِّي أَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الصُّوَرِ السَّحَرِيَّةِ لَا تَلْبَثُ
أَنْ يَزُولَ أَثَرُهَا مِنْ أَذْهَانِ الْأَطْفَالِ كَمَا يَزُولُ مِنْ حِجَابِ الْقَانُوسِ، وَلَكِنْ كُلُّ هَذَا
لَا شَيْءَ فِيهِ لِحَسَنِي أَنْ يَثْبُتَ فِي أَذْهَانِهِمْ صُورَةٌ أَوْ صُورَتَانِ، فَإِنَّ تَمَّ ذَلِكَ رَجَوْتُ
لَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ أَنْ يَتَحَدَّثُوا فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ بِأَقْسَمِهِمْ مِنَ الْمَدْرَسَةِ الْكُونِيَّةِ أَوْ مِنْ
مَدْرَسَةِ الْكُتُبِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ الْفَرْضُ مِنْ تَعْلِيمِهِمْ فِي الصَّغَرِ أَنْ يُحْصَلُوا
الْعِلْمُ وَإِنَّمَا الْفَرْضُ مِنْهُ أَنْ يُبْعَثَ فِيهِمْ رُوحُ الشُّوقِ وَالْمِيلِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ . اهـ

الرسالة السابعة والثلاثون

مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمُ فِي ١٤ يُولْيُو سَنَةِ ١٨٥

«بَقِيَّةُ أَخْبَارِ السَّفِينَةِ الْفَرِيقَةِ وَسُرْعَةُ نَهْائِهِمُ الْأَطْفَالَ بِالسَّيْرِ مِنَ الْكَلِمِ»
لَقَدْ رَزَاهَا «إِمِيلُ» بِالْمَكْتُوبِ الَّذِي أَرْسَلْتُهُ إِلَيْهِ وَأَعْجَبَ بِهِ إِعْجَابًا كَثِيرًا. وَكَانَ
فِيمَا رَأَيْتُهُ شَدِيدَ الْحَقِّقِ مِنْ عَجْزِهِ عَنْ قِرَاءَتِهِ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ عَلَى انْتِظَارِهِ بُلُوغِ أَهْلِيَّةِ
التَّرْسُلِ قَدْ طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ بِمَا لَفَفْتَاهُ مِنْ أَخْبَارِ حَادِثَةِ الْفَرِيقِ بَعْدَ
الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ فَأَقُولُ : قَدْ ابْتَلَى مَلَا حُوا السَّفِينَةِ بِضُرُوبِ الْمِحَنِ وَأَنْوَعِ الشَّدَائِدِ

ثُمَّ اخْتَرَمَتْهُمُ الْمَنِيَّةُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا وَاحِدًا اُنْثَىٰ يَسْتَحِمُّ وَيَسْتَجِمُّ مَا تَبَدَّدَ مِنْ قُوَاهُ ،
وَتَسِرَ اَلْفَاهِمُ مَعَهُ بِوَاسِطَةِ رَبَّانٍ اِسْبَانِيُولِي يَعْرِفُ لُغَتَهُ ، وَمِمَّا اسْتَفِيدَ مِنْ اَقْوَالِهِ
اَنَّ السَّفِينَةَ الْفَرِيقَةَ الْمُسَمَّاةَ (اَيَاكُوْكُو) كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي بِلَادِ الْبِيرُو^(٢)
تَحْتَهَا بِضَاعَةٌ وَقَصَدَ بِهَا اَلْمَجْلَرَةَ ، فَمَا هُوَ إِلَّا اَنْ اَحَاطَتْ بِهَا رِيحٌ عَاصِفٌ مِنْ اَشَدِّ
مَا يُمَكِّنُ تَحْيَلُهُ مِنَ الْعَوَاصِفِ فَاغْرَقَتْهَا ، وَمِمَّا يُوجِبُ الْاَسْفَ اَنْ غَرَقَ ذَلِكَ الرَّجُلُ
بِمَا لَا سَبِيلَ لِلرَّيْبِ فِيهِ ، وَقَدْ كَانَ اسْتَصْحَبَ بَنُوهُ وَهِيَ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ عُمْرِهَا
لِاَسْبَابٍ لَا تَزَالُ فِي طَيِّ الْخَفَاءِ ، وَكَانَ مِنْ فِي السَّفِينَةِ يَدْعُوْنَهَا « لُولَا » وَهُوَ اسْمُ
مُحْتَرِّلٍ فِيمَا أَظُنُّ مِنْ دُولُورِيَسَ .

عَهِدْتُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ هُنَا بِمُرَاسَلَةِ أَهْلِ الْفَتَاةِ فِي بَلَدِهِمْ وَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ
مِنْهُمْ ، وَيَقُولُ الْمَلَّاحُونَ إِنَّمَا فَدَدَتْ وَالِدَتَهَا مِنْ بَضْعِ سِنِينَ وَلَيْسَ لَهَا أَخٌ وَلَا أُخْتُ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهَا إِلَّا آبَاؤُهُمْ ، وَيُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِهِمْ أَنَّ صَاحِبَ السَّفِينَةِ كَانَ
مِنَ الْمُتَرِينَ ، وَلَكِنْ مَا أَدْرَانَا أَنَّ ثَرَوَتَهُ لَمْ تَكُنْ إِلَّا قُصُورًا فِي إِسْبَانِيَّةٍ لِأَنَّ الْبِيرُو^(٣)
هِيَ إِسْبَانِيَّةٌ وَرَاءَ الْبَحَارِ .

أَنَارَ سُوءُ حَظِّ هَذِهِ الْفَتَاةِ فِي قَفْسِي عَوَاطِفَ الرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ فَاَمْسَكْتُهَا حَتَّى
يَأْتِيَنِي فِيهَا أَمْرُكَ ، وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ عَمَلِي هَذَا لَا يَقَعُ مِنْكَ إِلَّا مَوْقِعَ الرِّضَا .

(١) اخترتهم أخذتهم .

(٢) بلاد البيروجهورية في أمريكا الجنوبية عاصمتها ليما وسكانها ٣.٠٠٠.٠٠٠ نس .

(٣) يشير بقوله قصورا في إسبانية الى المثل الفرنسي المشهور وهو قولهم إن فلانا يبنى قصورا في إسبانية

بصرفونه لمن يتحلل بالأمانى الباطلة ويحلم بأدراك المقامد الخيالية وقد مر ذكره .

نعم إني قد لاحظت في أحوالها وهيأت أفعالها شيئاً من الجفاء والوحشة ،
ولكنني أرى على هذا الجفاء الصباني مسحة من الحسنى والطلاوة كما أن وجهها
تبدو عليه مخايل الجمال والنضرة وهي الآن تعلم «إميل» ما تعرفه من الإسبانيولية
على قلبه وهو أيضاً يعلمها الفرنسية والإنجليزية ، ولا غرو فإن الأطفال يتفاهمون
بالزير من الكلام أسرع ما يكون . اهـ

الرسالة الثامنة والثلاثون

(من هيلانة إلى إراسم في ١٧ يولييه سنة ١٨٥)

تعلم السباحة وتربية العضلات

أنا مع اشتغالي بتربية عقلي «إميل» أرى أن أخص ما يجب الاشتغال به
في سنه هذه أن تعدد فيها أعضاء سليمة قوية لاحتيايل متاعب الحياة ، من أجل
ذلك تجدي أحنه على ممارسة الرياضات البدنية والابتكار من قبض عضلاته
وبسطها اختياراً ، وافتحام العقبات التي لا يخرج عن وسعه افتتاحها . نعم إن لي
رجاء قوياً في أن لا يصير من المصارعين ولا أحب أن أرى فيه مثالا صغيراً لذلك
المصارع الشهير المدعو «ميلون دوكزون» وإن أوتيت من أجله أنفس شيء
في الدنيا ولكنني أرى أن كل ضعيف يلحق الإنسان بدنياً كان أو عقلياً يصير سبباً
من أسباب استعباده .

بدت على قويدون منذ حين سمات الكدر لكون «إميل» لا يزال جاهلاً
بالسباحة ، ولما كان يفضي إلى بأسفه من ذلك كنت أعترض عليه بأنه لا يزال

مِنْ حَدَاتِهِ السَّنَّ يَحِثُّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْسِكَ نَفْسُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَهُوَ اعْتَراضٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ قِيَمَةٌ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَا يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنَ الْخَوْفِ عِنْدَ وُجُودِهِ فِي مَكَانٍ مَجْهُولٍ لَهُ هُوَ أَكْبَرُ الْعَوَائِقِ الَّتِي تُعْطِلُ جَرَى حَرَكَاتِهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَلَا يَكُونُ تَقْلِيمُهُ فِي السَّنِّ إِلَّا مِنْ أَسْبَابٍ أَزْدِيَادَ هَذَا الْخَوْفِ وَقُوَّتِهِ . وَالَّذِي يُسْتَفَادُ مِنْ كَلَامِ الرَّبِّحِيِّ الْبَارِّ أَنَّهُ كَانَ يَسْبَحُ مِنْ عَهْدٍ وَلَدَتِهِ ، وَهُوَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَدْرُكُ تَعْلِمُهُ السَّابِحَةَ كَمَا أَنَّهُ لَا يَدْرُكُ تَعْلِمُهُ الْمَشْيَ عَلَى الْأَرْضِ ، لِأَنَّ هَذَيْنِ النَّوَصَيْنِ مِنَ الرِّيَاضَةِ هُمَا فِي نَظَرِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْفِطْرِيَّةِ . انْتَفَتَ عَنْهُ شُكُوكِي وَعَاقِبِي بِنَاكِدِهِ أَنْ لَا خَطَرَ عَلَى «إِمِيل» مِنْ تَعْلِيمِهِ ذَلِكَ الْفَنَّ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ مِنْ مَرَايَا تَعْلِيمِهِ إِيْمَاءَ الْعَضَلَاتِ وَقُوَّتِهَا ، وَكَانَهُ يَوْسَعُ مَجَالَ حُرِّيَةِ الْإِنْسَانِ فِي حَرَكَتِهِ وَمَرَحِهِ فِي بَرَزِجٍ يَصِلُ بَيْنَ غَنْصَرِي الثَّرَابِ وَالْمَاءِ ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النِّجَاحِ وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ يَكُونُ تَعْلِمُهُ فَرْضًا عَلَيْنَا لِأَنْفُسِنَا وَلِنُظَرَاتِنَا ، عَلَى أَنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ فِي قُوَّيْدُونٍ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ التَّهَوُّرُ فِي تَعْرِيزِ نَفْسِهِ لِلْخَطَرِ يَحْرِصُ كُلُّ الْحَارِصِ عَلَى حَيَاةِ «إِمِيل» فَلَا يَرْضَاهَا لِمَا يَحْتَمِي مِنْهُ وَلَوْ سَبَقَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الدُّنْيَا بِحَذَائِفِهَا ^(١) .

يُوجَدُ عَلَى مَقَرَّةٍ مِثْلَ شِبْهِ بَحِيرَةٍ صَغِيرَةٍ نَاشِئَةٍ مِنْ اجْتِمَاعِ مِيَاهِ غَدِيرٍ يَصْرِفُهُ عَنِ الْإِنْصِبَابِ فِي الْبَحْرِ مَا يَعْتَرِضُهُ مِنَ الشَّطَابِ وَالْكُثْبَانِ ^(٢) ، رَأَاهَا قُوَّيْدُونُ مُوَافِقَةً لِتَعْلِيمِ

(١) أصل الحذافير المتهاون للحرب واشدد حذافيرك أي تها وأخذ الشئ بحذافيره أي بأسره .

(٢) الشطاب جمع شطب بكسر الشين وهو الطريق في الجبل .

(٣) الكثبان جمع كتيب وهو التل من الرمل .

«إِمِيل» مَبَادِي السَّابَحَةِ فَأَتَسَّاعِلُهُ فِيهَا غَيْرَ مُتَّخِذٍ لَهُ مَنَطَقَةً مِنَ الثَّلَاثِينَ وَلَا مَتَانَةً مَمْلُوءَةً بِالْهَوَاءِ وَلَا غَيْرُهَا مِنَ الْأَلَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي تُسْتَعْمَلُ أَحْيَانًا — إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمَةً — لِمُسَاعَدَةِ قُوَى الْمُتَبَدِّلِينَ فِي السَّابَحَةِ ، وَلَمَّا كَانَ يُقَالُ لَهُ فِي ذَلِكَ كَانَ يَجِيبُ بِلِسَانِهِ السَّادِجَ قَائِلًا : يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الطِّفْلُ فَلْيَنَ نَفْسِهِ ، وَارَى أَنْ طَرِيقَتَهُ فِي التَّعْلِيمِ سَهْلَةٌ جِدًّا عَلَى حَسَبِ مَا تيسَّرَ لِي مِنَ الْحُكْمِ عَلَيْهَا ، فَاهَمُّ شَيْءٍ بَيَّنْتُ عَلَيْهِ هُوَ بَثُّ رُوحِ الثَّقَةِ فِي نَفْسِ الْمُتَعَلِّمِ ، وَقَدْ أَكَّدَ لِي مَنْ رَأَاهُ فِي وَقْتِ التَّعْلِيمِ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ قُدْوَةً فِي ذَلِكَ لِتَلْمِيذِهِ كَانَ يَسْتَلْقِي عَلَى ظَهْرِهِ فِي الْمَاءِ نَاطِرًا إِلَى السَّمَاءِ سَادًّا فَاهُ مُتَّقَفَسًا بِأَنْفِهِ وَقَدْ بَرَزَ جُزْؤُهُ مِنَ الْمَاءِ ، فَكَانَ لِسَانُ حَالِهِ وَهُوَ فِي هَذَا الْوَضْعِ يَقُولُ لِطَلِيظِيهِ : هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبْصَحُ أَنْ يَفْرَقَ ، وَأَنَّهُ إِذَا فَرَّقَ بَعْضُ النَّاسِ فَلَمَّا يَفْرُقُونَ مُخْتَارِينَ .

لَمْ يَلْبَثْ هَذَا الْأَسَازُ أَنْ أَبْدَى كَثِيرًا مِنَ التَّيِّهِ وَالْفَخْرِ بِتَقْدِيمِ تَلْمِيذِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْمِي فِي سَبِيلِ مَجَاحِدِهِ إِلَى غَايَةِ أَهْمَرٍ مِنْ ذَلِكَ وَأَظْهَرَ ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يَهْمُهُمْ مُتَمَكِّمًا بِالسَّابَحَةِ فِي الْبُحَيْرَةِ قَائِلًا : مَا أَحْسَنَهَا سَبَاحَةً فِي مُغْتَسِلٍ ! دَعِينِي مِنَ الْبُحَيْرَاتِ وَحَدَّثَنِي عَنِ الْبَحْرِ تَجِدِي أَدْنَا صَاغِيَةً ، فَهُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ مِنْ يَسْبَحُ فِيهِ وَيَسْنِدُهُ وَيَزِيدُ فِي قُوَاهُ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أُعَارِضُهُ وَأَنْهَاهُ عَنِ الذَّهَابِ « بِإِمِيل » إِلَيْهِ وَعَنْ تَجْرِبَةِ سَبَاحَتِهِ فِيهِ لَمَّا كَانَ يُخَامِرُ قَلْبِي مِنَ الرُّوعِ وَالْفَزَعِ الْمُتَعَبِّثِ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي تَوْهَمٍ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَخْطَارِ ، لِأَنِّي أَكْبُرُ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ وَأَجَلُهُ إِجْلَالًا مَشُوبًا بِالرُّوعِ ، فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا اغْتَسَلَ أَنْاسًا فِي نَوَاحِينَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ

أَقُولُ : إِنَّ «إِمِيلَ» أَيْضًا كَانَ يُسَارِكُنِي فِي هَذَا الرُّوْعِ بَعْضَ الْمُشَارَكَةِ ، فَإِنَّ الْبَحْرَ خَلَقَ حَتَّى مُضْطَرِبُّ يَرْتَفِعُ وَيَحْتَضِبُ السَّابِجُ فِيهِ إِلَيْهِ مُضْطَجِبًا ، وَفِي كُلِّ صَفِيحَةٍ مِنْ صَفَائِحِ أَمْوَاجِهِ شَخْصٌ بَلْ عَدُوٌّ لَذَلِكَ السَّابِجِ عَامِلٌ عَلَى إِهْلَاكِهِ ، وَفِي دَوَامِ رَوَّاحَاتِ هَذِهِ الْأَمْوَاجِ وَجَيَّاتُهَا مَا يُمَثِّلُ لِلْإِنْسَانِ اضْطِرَابَ بَحْرِ الْأَزَلِ بِعَوَالِمِ الْمَخْلُوقَاتِ وَيَقُومُ لَهُ مِنْهُ أَكْبَرُ مَوْعِظَةٍ وَذِكْرَى تُنَبِّهُهُ إِلَى ضَعْفِهِ وَتَجْزِيهِ .

لَمْ يَطْلُ عَهْدُ نُفُورٍ «إِمِيلَ» مِنَ الْبَحْرِ وَخَوْفِهِ مِنْهُ ، وَهَذَا إِذَا مَبِينَةٌ لَكَ السَّبَبُ الَّذِي قَعَّ ذَلِكَ النُّفُورُ وَشَرَّدَ هَذَا الْخَوْفُ فَأَقُولُ :

إِنَّهُ يَفْهَمُ مِنْ مَحْنِكَ مَعْنَى مُبْهِمًا ، وَلَمْ أَرِدْ أَنْ أُكْشِفَ لَهُ حَقِيقَةَ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي يَهْبِجُ الْكَلَامَ فِيهِ سَاكِنَ آلَايَ وَيُسِيرُ كَامِينَ أَتَجَانِي لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا أَنَّهُ يَصْعَبُ عَلَيْهِ فَهْمُ مَرَادِي مِنَ الْكَلَامِ (فَأَذَا عَسَى أَنْ يَفْهَمَهُ مِنْ قَوْلِي لَهُ إِنَّ وَالِدَكَ مُجِنٌّ بِسَبَبٍ سِيَاسِيٍّ ؟) وَثَانِيهِمَا أَنَّ سُوءَ إِدْرَاكِهِ لِلْحَوَادِثِ الَّتِي حَصَلَتْ قَدْ يَتَعَثَّرُ فِي نَفْسِهِ بَغْضَ فَرَنْسَةَ وَعَدَاوَتَهَا ، لِذَلِكَ تَرَاهُ قَدْ جَرَّهُ إِسْكَانِي عَنِ الْخَوْضِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى أَنْ يَخْتَرِعَ لَهَا حِكَايَةً يَظَاهَرُ بِهَا : فَهُوَ يَتَوَهَّمُ أَنَّكَ أَسِيرٌ فِي قُبْضَةِ حَبِيبَةٍ أَوْ غُولٍ أَوْ تَيْنٍ ، وَأَنَّكَ رَهِينُ قَلْعَةٍ يُحْصِنُهَا الْبَحْرُ ، وَرُبَّمَا كَانَ الْبَايَعُ لَهُ عَلَى هَذَا وُجُودُهُ يَوْمًا مَا فَوْقَ صَخْرَةٍ وَغَشِيَانِ الْمَدِّ إِيَّاهُ وَإِحَاطَةِ الْأَمْوَاجِ بِهِ إِجَاطَةً ذَلِكَ الْكَلْبِ الْخُرَافِيِّ ذِي الرُّؤُوسِ الثَّلَاثَةِ الْمَقُولِ عَنْهُ فِي أُسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ بِأَنَّهُ حَارِسُ جَهَنَّمَ ، وَمَهْمَا كَانَ الْحَامِلُ عَلَى ذَلِكَ الْإِعْتِقَادِ

فَإِنَّهُ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَحْمِلَ حِمْلَهُ الْأَوَّلَى لِتَحْلِيصِكَ مُصَاحِبًا لِعَزِيمٍ كَعَزِيمِ
أَشْرَافِ الْمَائِدَةِ الْمَمْلُوءَةِ^(١) أَوْ كَعَزِيمِ شَابِّ بَاسِلٍ قَتَالٍ لِلْوُحُوشِ غَلَابٍ لِلْأَغْوَالِ ،
عَلَى أَيْ لَا يَسْمَعُنِي إِلَّا اتِّهَامُ الزَّيْجِيِّ الْخَلِيئِ بِأَنَّهُ زَيْنٌ لَهُ أَوْهَامُهُ وَجَبَّ إِلَيْهِ خَدَعُ
نَفْسِهِ لِيَحْمِلَهُ عَلَى مُشَابَعَتِهِ فِي آرَائِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِأَفْكَارِهِ .

دَخَلَ عَلَى أَيْتٍ كِلَاهُمَا ذَاتَ يَوْمٍ وَوَجَّهُ قَوَيْدُونَ تَعْلُوهُ قِفْرَةَ الرَّبَّةِ ، وَقَدْ
غَلَبَ عَلَى «إِمِيل» مَا يَغْلِبُ عَلَى كُلِّ ظَافِرٍ يَطْلُبُهُ مِنَ الْقَرْجِ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ فِطِنْتُ
إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ وَهَاجَ غَضَبِي عَلَيْهِمَا إِلَى حَدِّ أَنْ صَارَ وَجْهِي أَمْرًا
كَالْجَمْرِ ، وَعَقَفْتُهُمَا عَلَى مُحَالَفَتِهِمَا لِأَمْرِي ، فَلَمْ يَتَرَغَّزْ «إِمِيلُ» لِهَذَا الْمِجَاجِ ،
بَلْ تَلَقَّاهُ بِنَاتِ الشَّجْمَانِ ، وَأَجَابَنِي وَقَدْ بَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْإِصْرَارِ مَا لَمْ أَعْهَدُهُ
مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ السَّابِقَةَ لِأَفْكَ الْوَالِدِي مِنْ أَسْرِهِ وَأَتِيكَ بِهِ ، فَمَا
سَمِعْتُ مِنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَشَاهَدْتُ لِحَظَّهُ الْمُعْرِبَ عَنْ حُرِّيَّةِ صَمِيرِهِ وَخُلُوصِ
طَوِيَّتِهِ وَرَأَيْتُ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ الْمُنْعِنَةِ عَنْ سَدَاجَتِهِ وَعَلِمْتُ مَقَاصِدَهُ النَّبِيلَةَ — حَتَّى
سَكَنْتُ نَائِرَتِي وَكَفْتُ بِأَدْرَتِي^(٢) ، فَبَشَّشْتُ فِي وَجْهِهِ بَعْدَ الْعُبُوسِ وَتَبَسَّمتُ لَهُ
وَحَمَمْتُ إِلَى صَدْرِي وَأَشْبَعْتُ نَفْسِي فِي جَيْنِهِ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ مُنْدَى بِمَاءِ
الْبَحْرِ .

(١) أشرف المائدة المدورة هم رطل من الأشراف عدهم اثنا عشر يجلبهم كتاب القصص

القديمة من رقاء أرتوس وهو شجاع قصصى من شجمان برطانية العظمى .

(٢) الفترة : الفترة .

(٣) النائرة : الشغب والضجة .

(٤) البادرة : ما يدر من الإحسان عند حدة من شتم ونحوه .

الرسالة التاسعة والثلاثون

مِنْ هِيلَانَةَ إِلَى إِرَاسْمَ فِي ١٨ يُولْيُو سَنَةِ ١٨٥٠

إِخْبَارُهُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ

إِذَا سَمِعَ مَا نَشَرْتُهُ الْجَرَائِدُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ وَمَا ذَاعَ مِنَ الْإِشَاعَاتِ فِي الْهَوَاءِ لَمْ تَبَقْ
حَاجَةً « لِإِمِيل » فِي أَنْ يَسْلَحَ تَسْلَحَ الْأَشْرَافِ وَلَا أَنْ يَطْوِيَ الْبَحَارَ لِيُخَلِّصَكَ
مِنْ قَبْضَةِ التَّنِينِ^(١) الَّذِي يَتَقَدُّ أَنْكَ فِي أَسْرِهِ — لِأَنَّ النَّاسَ هُنَا يَتَكَلَّمُونَ بِمُحْصُولِ
عَفْوٍ سِيَاسِيٍّ ، وَإِنِّي كُنْتُ أَمْنَى أَنْ يَحْصُلَ لَكَ مِنَ الْحُكُومَةِ فَوْقَ هَذَا الْعَفْوِ
عَمَلٌ يَكُونُ جَزَاءً لِمَا لِحَقَّكَ مِنَ الضَّرَرِّ وَتَحْقِيقًا لِمُقْتَضَى الْإِنْصَافِ ، وَلَكِنِّي لَمْ
أُطَلِّبْ لَكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلَا تَعْجَلْ بِالرِّفْضِ وَاعْلَمْ أَنَّ قَلْبِي يَرْفُضُ طَرَبًا كُلًّا
فَكَرْتُ فِي وَقْتِ التَّلَاقِ . اهـ

الرسالة الأربعون

مِنْ الدُّكْتُورِ وَارِنْجْتُونِ إِلَى هِيلَانَةَ

بَشْرَى الْحُرِّيَّةِ

أَيُّهَا السَّيِّدَةُ .

عَلِمْتُ اللَّيْلَةَ فِي لُنْدَرَةِ خَبْرًا أَبَادِرُ بِإِبْلَاغِكَ إِيَّاهُ : ذَلِكَ أَنَّ زَوْجَكَ قَدْ مُنِعَ
نِعْمَةَ الْحُرِّيَّةِ وَفِي الْخِتَامِ لَكَ مِنِّي السَّلَامُ وَالْأَحْرَامُ . اهـ

الكتاب الثالث

(فِي الْيَافِجِ)

بَشَرَاتٌ مُقْتَطَعَةٌ مِنْ جَرِيدَةِ الدُّكُورِ إِرَاسَمَ

الشذرة الأولى

(حُرِّثَ فِي مَرَّازِيُونَ فِي سَنَةِ ١٨٥٠ الدَّخْلَةِ فِي سَنَةِ ١٨٦)

حُبُّ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ وَالْوَطَنِ

مِنْذُ سَنَةٍ تَغَيَّرَتْ شُؤُونُ حَيَاتِي كُلِّهَا .

وَجَدْتُهَا هِيَ يَمِينًا وَلَمَّا تَلَّاقَيْنَا كُنَّا لَمْ نَقْتَرِفِ فِي حَيَاتِنَا ، فَإِنَّ النَّوَى لَمْ يَغَيَّرْ
شَيْئًا مِنْ ضُرُوبِ وَجَدَانَا وَلَا مِنْ عَادَاتِنَا لِبَقَاءِ قَلْبَيْنَا عَلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرْبَاطِ
وَالِاتِّحَادِ ، وَغَايَةُ مَا حَدَّثَ أُنَى أُرَانِي الْآنَ آتَسَ مِنِّي فِي جَمِيعِ أَيَّامِي السَّالِفَةِ بِحُسْنِ
مُعَاشَرَتِنَا ، نَعَمْ إِنَّمَا لَمْ تَبْقَ طِفْلَةٌ كَمَا عَهْدَتُنَا وَلَكِنَّمَا لَمْ تَأْخُذْ مِنْ مُرُورِ الْأَيَّامِ
إِلَّا مَا يَزِيدُ الْمَرْأَةَ فِي الْقُلُوبِ مَحَبَّةً وَفِي الشُّفُوسِ تَأْثِيرًا ، فَكَانَ رُوحَهَا وَمَلَامِحُ وَجْهِهَا
تَكَلَّمَتْ وَتَطَهَّرَتْ بِأَدَانِهَا فُرُوضِ الْأُمُومَةِ الْمُقَدَّسَةِ .

كُنْتُ أَوْشَكْتُ أَنْ أَقْطَعَ مِنْ مَعْرِفَتِي لَوْلَدِي ، وَمَا يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ فِي هَذَا
الْمَقَامِ أَنَّ الدِّينَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ اشْتِغَالًا بِالْتَرْيِيَةِ لَمْ يُرْزُقُوا أَوْلَادًا أَوْ رُزُقُوهُمْ

وَحَرِّمُوا مِنْ رُؤُوسِهِمْ، وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ الْبَائِعَ لَمْ عَلَى الْإِفْتِيَامِ بِالتَّزْيِينِ وَجَعَلَ
الْبَيْتَ فِي شُؤْنِهَا غَايَتَهُمْ لِيُؤَدُّوا بِذَلِكَ مَا قَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا يَنْوِجَ آخَرِ مِنَ الْأَدَاءِ.

فَلَيْتَ شِعْرِي بِمَاذَا اسْتَحَقَّقْتُ أَنْ أَكُونَ أَسْعَدَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَعَ كَوْنِهِمْ أَجْدَرُ

مِنِّي بِالسَّعَادَةِ ؟

مَا أَشَدَّنِي حُؤُوتًا وَتَأَثُّرًا عِنْدَ تَقْيِيلِ وَلَدِي إِيمَى ! وَمَا أَعْظَمَ زَهْوِي وَمَعْجَابِي بِهِ
عِنْدَ مَا أَخَذَ بِيَدِهِ وَأَنْزَعَهُ مَعَهُ فِي الْمَزَارِعِ وَإِنَّ الدُّنْيَا لَتَرَى فِي عَيْنِي جَدِيدَةً وَهَوَّ
مَعِيَ كَأَنَّمَا لَمْ أَرَهَا مُنْذُ سَبْعِ سِنِينَ ، لَا جَرَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبْصُرُ وَهُوَ رَهْنُ السَّجْنِ
مَحْرُومٌ مِنَ الْحُرِّيَّةِ ، فَكُلُّ مَا كُنْتُ أَرَاهُ مِنْ أَشْجَارٍ وَمُخْتَوِرٍ عَمَرَتْ عُمُرَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةِ
كَأَنَّهُ يُخِيلُ إِلَيَّ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ إِلَّا بِالْأَمْسِ .

خَطَرِي فِي ذَهْنِي سَاعَةً خَاطِرُ الْعَوْدِ إِلَى فَرَسَةِ وَلَكِنْ أَلْفَ مَانِعٍ — وَإِنْ شِئْتَ
فَقُلْ أَلْفَ وَهَمٍ — قَدْ تَحَوَّلَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ مَعِيشَتِهِ فِي وَطَنِهِ ، وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ مِنْ
هَذِهِ الْمَوَانِعِ مَا يَتَغَرَّبُنِي مِنَ الْأَلَمِ الْمِصْصِ الَّذِي لَا اسْتَطِيعُ التَّخَيُّرَ عَنْهُ إِذَا رَأَيْتُ
أُمَّةً عَظِيمَةً عَهْدَتْهَا حُرَّةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي قَبْضَةِ حَاكِمٍ ، وَجَمِيعُ مَا يَحْصُلُ فِي هَذَا الْوَطَنِ
لَا يَهْلُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا لِلْقَلْبِ وَلَا إِذَا مَا لِلنَّفْسِ .

يُوجَدُ فِي جَمِيعِ عَصُورِ التَّارِيخِ رِجَالٌ بَرَّةٌ صَالِحُونَ رَأَوْا مِنْ الْوَأَجِبِ
عَلَيْهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَوْطَانِهِمْ أَنْ يَخْلَعُوا هَذِهِ الْأَوْطَانَ وَهُمْ يَمُزِلُ عَنْهَا ، فَيَقْتُلُ
هَؤُلَاءِ فَيَأْخُذُ بِأَشَدِّ حُبٍّ لَهَا لِأَنَّهُمْ سَوَاءٌ قَرُوبًا مِنْهَا أَمْ بَعْدُهَا عَنْهَا يَحْيُونَ

بِقَفَاتِهَا وَيَتَعَشُونَ بِمَجَاهِدَاتِهَا فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَمَا مِنْ أَلَمٍ فِي الْوُصُولِ
إِلَيْهِ ، جَرَحَهُمْ فِي صِمِّمِ أَقْدَتِهِمْ مَا مَسَّ أُمَّتَهُمْ مِنَ الْقُرُوجِ وَإِنْ كَانَ يَدُونُ مِنْ حَالِ
الْأُمَةِ عَدَمَ شُعُورِهَا بِأَلَمِهَا كَانَ فِي مُرُورِ الزَّمَنِ عَلَيْهَا وَاعْتِبَادِهَا احْتِمَالًا مِنْ قُوَّةِ
التَّأْيِيرِ مَا يَكْفِي لِأَنْدِمَالِهَا جَمِيعَهَا ، مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْمُتَطَوِّعِينَ بِالْإِغْرَابِ وَالْفَقْرِ يَلُومُونَ^(١)
النَّاسَ وَحَوَادِثَ الدَّهْرِ وَلَكِنْ إِذَا حَاوَلَ مُحَاوِلُ أَمَامَتِهِمْ أَنْ يَقْضِيَ مِنْ كَرَامَةِ^(٢)
فَرَسَةِ وَيَحْطُ مِنْ شَانِهَا اسْتَشَاوُوا غَضَبًا وَتَبَيَّحَ الدَّمُ فِي عُرُوقِهِمْ ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ^(٣)
الْقِطْعَةَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي تَنَازَلُوا عَنْ سُكَّانِهَا مُحْتَارِينَ قَدْ تَغَلَّلَ حُبًّا فِي أَحْسَانِهِمْ
وَأَخَذَ بِجَمَاجِمِ قُلُوبِهِمْ ، فَتَرَاهُمْ يَذُبُّونَ الْوَطْنَ تَقْصَهُ فِي إِعْزَازِ شَأْنِ الْمَعْنَى الَّتِي
قَامَ فِي أَذْهَانِهِمْ مِنْهُ وَيُفَضِّلُونَ الْحُكْمَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْبَعْدِ عَنْهُ عَلَى رُؤْيِهِمْ إِيَّاهُ
مُهِنًا ذَلِيلًا .

كَأَنِّي بِسَائِلٍ يَقُولُ: لِمَ إِذَا اخْتَدَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ وَهِيَ تَقِيدُ أَفْكَارَكَ وَمَدَّ كَرَامَتَكَ
كُلَّ يَوْمٍ بِحَسَبِ الْمَصَادِفَةِ وَالْإِتْفَاقِ؟ فَأَجِبُهُ: إِنَّ هَذَا مَطْوِيُّ أَيَّامٍ مَعِيشَتِي فِي السَّجْنِ
أُنْشِرُهُ لِلنَّاسِ لِأَنِّي لَمْ أَلَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ آيِسٌ أَطَارِحُهُ الْحَدِيثَ كُنْتُ أَكْتُبُ
كَأَنِّي أَوَاسِلُ نَفْسِي .

(١) - اعمل المرجح تماثل وراجع الى البره

(٢) يقض : يتقص .

(٣) استشاطوا : التهبوا غضبا .

(٤) تبيح الدم هاج وثار .

السذرة الثانية

تعليم المسميات قبل الأسماء

لَمْ تُخْلِفْ طَرِيقَتَهَا فِي تَرْبِيَةِ «إِمِيل» أَمَلًا مِنْ أَمَالِي، فَلَتَبَقَ عَلَى مَا هِيَ بِسَبِيلِهِ مِنْ تَهْذِيبِهِ وَتَقْوِيَتِهِ بِمَا قُدِّمَتْ لَهُ مِنَ الْأَسَى^(١) وَمِمَّا تُوجِّهِ إِلَى نَفْسِهِ مِنَ الثَّقَةِ بِهَا، عَلَى أَنَّهَا مِنْ عَهْدِ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْإِقْدَارِ رَأَيْنَا مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ نَقِيمَ الْعَمَلَ بَيْنَنَا لِأَنَّ التَّعْلِيمَ — إِنْ لَمْ أَكُنْ غَالِبًا فِي حُكْمِي — هُوَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ الْأَبُ غَالِبًا وَأَمَّا التَّرْبِيَةُ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْمَالِ الْأُمِّ وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَيْنَ نَحْنُ مِنْ قِيَامِ كُلِّ مَنَّا بِعَمَلِهِ فَأَقُولُ :

لَمَّا يَدْرُسُ «إِمِيلُ» شَيْئًا دَرَسًا مُنْتَظَمًا فَهُوَ إِيمًا لِقَفِّ دُرُوسِهِ الْأُولَى فِي عِلْمِ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ مُتَفَرِّقَةً عَلَى نَحْوِ مِنَ الْإِتِّفَاقِ، وَذَلِكَ مُعَايِنَةً مَا كَانَ يَجِدُهُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَعَارِ وَالصَّدَفِ ، ثُمَّ إِنِّي أُمَكِّنُهُ حِينَئِذٍ بَعْدَ حِينَ مِنْ النَّظَرِ بِالْمُنْظَارِ الْمُعْظِمِ (الْمِكْرِسْكُوبِ) — وَهُوَ آلَةُ شَائِعَةُ الْإِسْتِعْمَالِ جِدًّا عِنْدَنَا — مُحَرِّكًا أَجْزَاءَهُ بِنَفْسِي فَيُكَبِّرُ لَهُ بَعْضَ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ غَيْرِ الْمُنْتَاهِيَةِ فِي الصَّغِيرِ، وَأَرِيهِ بِالْمِرْقَبِ (الْتِيلِسْكُوبِ) وَهُوَ آلَةُ ارْتِصَادِهَا النُّجُومَ لَيْلًا — عَجَائِبَ الْمَخْلُوقَاتِ غَيْرِ الْمُنْتَاهِيَةِ فِي الْكَبِيرِ . وَقَدْ مَلَأْنَا إِثْنَاءَ مِنَ الزَّجَاجِ بِالْمَاءِ الْمِلْحِ وَوَضَعْنَا فِيهِ حَيَوَانَاتٍ هَلَامِيَّةً وَحَيَوَانَاتٍ قَشِيرِيَّةً وَأَسْمَاكَا وَكُنَّا نَجِدُهُ مَاءَهُ كُلُّ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، وَمِنْهُ تَلَقَّى «إِمِيلُ» كُلَّ مَا عَرَفَهُ — فِيمَا أَرَى — مِنْ عِلْمِ حَيَاةِ

(١) الأسى جمع أسوة وهي ما يتأسى به أى يقتدى به .

(٢) قف بكرة القاف تناول بكرة .

الحيوانات التي تعيش في جوف البحر . وفي بعض الأحيان أكرر بمشهد منه بعض تجارب سهلة جداً في الكيمياء والطبيعة ، وهو على جهله باسمي هذين العلمين يذكرك بعض الأدراك تأثير بعض الأجسام الفطرية في بعض . وفي ذات يوم رأي أضغ مقاييس للحرارة والهواء ومع كونها لم تكن من الإثقان في شيء بدا لي منه أنه أدرك استعماها على الجملة لا في رأيه يريد عما كاتها . جميع ما تقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن .

لا بد أن أكون أنا « وإميل » تابعين في التعليم لمذهب أرسطاطاليس لأن أغلب درسنا يحصل في وقت التثنية ، فإني أدع لأمر الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير معرض لما يشرح ولا تفسير إلا أن يكون إجابة عما يوجه إلى من الأسئلة مجتهداً في أن يكون الشرح واضحاً والبيان واقعياً ، وقد عرفت من محاورته أن الوسيلة إلى إصفائه إلى هي تتبع سلسلة أفكاره عند محادثته . إن كثيراً ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الأطفال ليبالغون لهم في البيان وفراطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة إلى أن يثبتوا بذلك لأنفسهم أنهم على معارف واسعة وعلوم جمّة . أنا لا أعلم « إميل » شيئاً بل أعلم منه ، فعوضاً عن كوني أعلمه طريقي في النظر أجتهد في معرفة طريقته وتمييزها ، وما لا يميل إلى معرفته يحال أجهله مثله أو أجاهله ، نعم إن هذه الطريقة ليس من شأنها أن تعلي قدر الأستاذ في نظري تلميذه ، وإنه لا بد في اتباعها من تزيه العقل عن الغرض وتنازله عن شهوته ، ولكن ما هو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها في أذهان الأطفال ليس هو إلا كرقم الألفاظ على الرمل .

مَلَكَةُ الْبَحْثِ عِنْدَ الطِّفْلِ هِيَ كَفَرِهَا مِنْ الْمَلَكَاتِ تَمَوُّ بِالْإِعْتِيَادِ وَالْمِرَاسِ
فَإِنَّ الشُّوقَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ يَتَوَلَّدُ فِي الْإِنْسَانِ وَلَا يُولَدُ مَعَهُ ، وَإِنَّمَا يَكْتَسِبُ ذَوْقُ
الْمُلَاحَظَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ بِالْمُلَاحَظَةِ نَفْسِهَا ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَعْيُنَ تَنَبُّهُ « إِمِيل » وَالتَّفَاهُ
يَأْنُ أَرِيَهُ مَا لَا يَرَاهُ فِي الْأَشْيَاءِ لِأَوَّلِ نَظَرِهِ إِلَيْهَا ، فَعَرَفَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَجِبُ أَنْ
يَكُونَ هُوَ مُصَدِّرُ الْمَيْلِ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ صُدُورُ هَذَا الْمَيْلِ مِنْهُ فِطْرِيًّا ،
ثُمَّ إِنَّ الْأَطْفَالَ عَلَى الْجُمْلَةِ مَدْفُوعُونَ جِدًّا بِسَائِقِ الطَّبِيعِ إِلَى الْإِثْكَارِ مِنَ السُّؤَالِ ، قَرَأْنِي
أَنَّ التَّحْجِيلَ لَهُمْ بِالْجَوَابِ قَبْلَ السُّؤَالِ وَتَجَاوُزَ حُدُودِ مَا يَطْلُبُونَ مَعْرِفَتَهُ هُوَ مِمَّا تَحْبُو^(١)
بِهِ نَارَ هَذَا الْإِسْتِعْدَادِ الْمُبَارِكِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُغْنِي بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى التَّرَامِ السُّكُوتِ
لِيَكْفُوا أَنْفُسَهُمْ مَوْثَنَ سَامَةِ الدَّرْسِ وَطُولِهِ اه .

الشذرة الثالثة

(تَرِيَةُ الذُّكُورِ مَعَ الْإِنَاثِ وَتَعْلِيمُهُمَا مَعًا)

إِنِّي أَخَشَى مَبَّةَ إِقْرَاطِي وَإِقْرَاطِ هِبَلَانَةٍ فِي مِيلِنَا إِلَى تِلْكَ الصَّبِيَّةِ الَّتِي أَلْقَتْهَا
الْمَاصِفَةُ بَيْنَ أَيْدِينَا لِجَوَازِ أَنْ يَطْلُبَهَا بَعْضُ ذَوِي قُرْبَاهَا يَوْمًا مَا ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ تَتَّبِعُهُ
هَذَا الْمَيْلُ فَلَا بُدَّ لِي هُنَا مِنْ إِثْبَاتِ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ تَرْكِيبِ الْإِنْسَانِ وَمَنَافِعِ أَعْضَائِهِ
فَأَقُولُ : كَانَتْ دُولُورِيُسُ لَمَّا اتَّقَطْنَاهَا وَأَوَيْنَاهَا إِلَى بَيْتِنَا مَحَلًّا لِجَمِيعِ الْعِيُوبِ الَّتِي
تُوجَدُ فِي نَظَائِرِهَا الْآلِيَةِ مِنْ قَبِيلِهَا وَبِلَادِهَا .

كَانَتْ مَعَ ظَرَافَتِهَا مِثْكَالًا^(١) وَأَنِيةً قَلِيلَةً الْعَنَابِ^(٢) بِشَانِ نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ
التَّصْرِيحِ قُلْتُ إِنَّهَا كَانَتْ كَثِيرَةً الْوَسَاحَةِ، وَكَانَ هَذَا الْإِغْفَالُ مِنْهَا لِنَفْسِهَا مَعَ مِقْدَارِ
عَظِيمٍ مِنَ التَّنَجُّجِ^(٣) وَالتَّنْدِيلِ مِنْ مُوجِبَاتِ كَدَرِ هَيْلَانَةٍ وَحَزْنِهَا، وَلَمْ يَنْجَعْ فِي الْكُسْرِ مِنْ
زَهْوِهَا وَالطَّامَنَةِ مِنْ حَلْفِهَا^(٤) مَا اتَّخَذَتْهُ لَذَلِكَ مِنَ الْعِظَاتِ وَضُرُوبِ التَّوْبِيخِ وَأَنْوَاعِ
الْإِبْلَامِ الْخَفِيفَةِ . وَلَمَّا كَانَ فِيهَا مِنْ حِدَّةِ الْمَزَاجِ بَلٌّ وَالتَّيَجُّجِ عِنْدَ مَخَالَفَتِهَا فِيمَا تَرِيدُ
كَانَتْ لَا تُبْدِي أَذَى اشْتِهَاءِ لِلتَّعَلُّمِ . أَفْرَغَتْ هَيْلَانَةُ جُهْدَهَا فِي إِقْطَاطِ عَقْلِ هَذِهِ
الْحَسَنَاءِ نَاعِصَةِ الْعَنَابِ مِنْ سُبَاتِيهِ فَخَفِقَ مَسَاعَاهَا وَبَطَلَ أَثَرُ مَا اسْتَعْمَلَتْهُ مِنَ التَّعَاوِيذِ
وَالطَّلَسَمَاتِ لَرَدِّ هَذَا السَّحَرِ الَّذِي لَا يُدْرَى آيَةُ جِنِّيَّةٍ خَبِيْثَةٍ مِنْ جِنِّيَّاتِ الْبُيُوتِ وَمَتَاهَا

(١) المِثْكَالُ والكِسُولُ نعت للجارية المنعمة التي لا تكاد تخرج من مجلسها .

(٢) الوَانِيَةُ : الفاترة للبطيخة .

(٣) التَّنَجُّجُ : التشكل والتدلل .

(٤) الطَّامَنَةُ : التخفيض والتسكين .

(٥) الصَّلف : ادِّعاء المرء ما ليس عنده تكبرا .

(٦) يلح المؤلف بقوله «هذه الحسناء ناعسة العنابة» الى أسطورة من أساطير الكاتب الفرنسي شارل بيرولت المسماة حكايات الجبل ملغصبا أن أحد الملوك وزوجه ابتلجا بالقمع مدة طويلة ثم رزقا فتاة حسنة فجعلها في كفالة سبع جنيات وأولها لحق وليلة أعدا فيها لكل واحدة منهن صحيفة قاترة لها كيس من الذهب الخالص فيملطقة وشوكة وسكين من الذهب أيضا وفي أثناء جلوسهن على المائدة جاءت جنية بعجوز ثامسة لم يكن حضورها في الحساب قدّمت لها صحيفة بلا كيس ظننت ذلك احتقارا لها تخافت احدى الجنيات أن نسيء الى هذه المولودة فخرجت ثم ان كلا من الأخرى تمنع المولودة صفة جميلة ما عدا البعوز فانها قالت : ان الفتاة متفوق يدها بعقول وتموت بلغات التي كانت خرجت وقالت : انها لا تموت ولكن ينشأها الناس مائة سنة ولا يموتها الا ابن ملك من الملوك ثم اخفق أن الفتاة رأت منزلا في يد بعجوز فتناولته فغرق يدها فسقطت ناعسة ثم قتلت الى قصر لوالدها في غابة وبعد مائة سنة أيقظها ابن ملك فتزوجها . المترجم .

يهِ عَلَى مَا يَظْهَرُ ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مِنَ الَّذِي أَبْطَلَ هَذَا السَّحْرَ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ «إِمِيلُ»
 ذَلِكَ لِأَنَّ مَبْلَ «لَوْلَا» إِلَى أَنْ تُعْجِبَهُ وَأَنْ تُسَاعِدَ صُرُوبَ شُجْرَتَيْهِ بِهَا وَأَنْوَاعَ
 زُرَايَتِهِ عَلَيْهَا — كَانَ أَشَدَّ تَأْثِيرًا فِي إِرَادَتِهَا مِنْ جَمِيعِ عِظَاتِنَا وَنَصَائِحِنَا .

كَانَ هَذَا أَوَّلُ سُلْطَانٍ «لِإِمِيلَ» عَلَى قَلْبِهَا وَلَا خَطَرَ فِيهِ فِي سِنِّهَا .

مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ وَقَعَ التَّنَافُسُ بَيْنَهُمَا ، أَمَّا مِنْ جِهَتِهِ فَلَشِدَّةُ زَهْوِهِ وَغَيْرِهِ بِمَا لَهُ
 مِنَ التَّقَدُّمِ عَلَيْهَا فِي عُلُومِهِ الْقَلِيلَةِ ، وَأَمَّا مِنْ جِهَتِهَا فَلِغَبَرَتِهَا وَرَغْبَتِهَا فِي مُنَازَعَتِهِ ذَلِكَ
 التَّقَدُّمَ ، وَالْمَرْجُوُّ مِنْ هَذَا التَّنَافُسِ أَنْ يَتَوَدَّ دَائِمًا بِالْفَائِدَةِ عَلَى كُلِّيْهِمَا فَإِنَّ دَرَسَهُمَا
 مُجْتَمِعَيْنِ أَحْسَنُ وَأَقْنَنُ مِنْهُ مُفْرَدَيْنِ لِأَنَّهُ إِذَا اعْتَبَرَ «إِمِيلُ» نَفْسَهُ أَعْلَمَ مِنْ «لَوْلَا»
 اجْتَهَدَتْ هِيَ فِي التَّبَرُّيزِ عَلَيْهِ فِي مِيدَانِ الْمُطَالَعَةِ .

أَرَى أَنَّ هَذِهِ الصُّحْبَةَ تُفِيدُهُمَا فِي أَخْلَاقِهِمَا أَيْضًا فَائِدَةً كَبْرَى فَإِنَّ الْأَطْفَالَ
 عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ يَأْتِي بِمَا يَسْتَرْكُونَ فِيهِ مِنَ الْعُيُوبِ ، وَلَا يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي تَشْبِيرِهَا
 وَتَصْيِيرِهَا ، لِذَلِكَ تَرَى «إِمِيلَ» قَلْبًا يُوَقِّرُ «لَوْلَا» فِيمَا يَرَاهُ مِنَ النَّقَائِصِ ، وَهِيَ
 أَيْضًا لَا تَقْصُرُ فِي أَنْ تُجَلَّ لَهُ الصَّاعَ بِمِثْلِهِ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْمُسَاعَاةِ
 الْحَقِيقَةِ مَا يَكْدُرُ صَفْوَ مَوَدَّتِهِمَا الشَّرِيفَةِ فِي شَيْءٍ ، وَكَأَنِّي بِقَائِلٍ يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ
 الْمَزَايَا بَيْنَهُمَا تَوْجَدُ فِي مُعَاشَرَةِ الْأَخِ لِأَخِيهِ وَوُجُودِهِمَا مَعًا ، فَاجْتِبَاهُ بَأَنِّي فِي شَكِّ
 مِنْ ذَلِكَ لِعَدَمِ تَمَامِ الشَّبَهِ فِي الْجِهَتَيْنِ .

زُرْتُ فِيهَا مَضَى مَدْرَسَةً لِلْعَمِّ وَالْبُكْمِ كَانَتْ تَقْسِمُ فِي أَوَّلِ تَسَنُّاتِهَا إِلَى قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا لِلذَّكُورِ وَالْآخَرُ لِلْإِنَاثِ ، فَلَمْ تَلْبَثِ التَّجَرِبَةُ أَنْ كَشَفَتْ عَيْبَ هَذَا الْقِسْمِ فَإِنَّ الصَّبَابَةَ الْإِلَاقِيَّةَ كُنَّ مَقْصُورَاتٍ فِي قِسْمَيْنِ كَانَ يَدُو عَلَيْهِنِ التَّنَاقُضُ عَنِ الْعِلْمَانِ سَنَةً أَوْ سَتَيْنِ ، وَلَمْ يَكُنِ الْعِلْمَانُ أَنْفُسَهُنَّ بَارِعِينَ فِي التَّقْدِيمِ وَالنَّجَاحِ ، لِحَظَرٍ فِي بَالِ الْقَائِمِينَ عَلَى الْمَدْرَسَةِ أَنَّ يَجْمَعُوا الْفَرِيقَيْنِ فِي غُرْفٍ وَاحِدَةٍ فَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا التَّغْيِيرِ مَحْمُودَةً ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمُضِ إِلَّا يَسِيرٌ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى زَالَ تَأْخُرُ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ وَأَخْطَا طُلُوعَ الْآخَرِ وَتَقَدَّمَ الْآخَرُ تَقَدُّمًا لَا زِنَاعَ فِيهِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُجِبَّ الَّذِي هُوَ خُلِقَ فِطْرِيًّا فِي الذِّكْرِ وَالْأُنْثَى ، وَالطَّمَعُ الَّذِي هَاجَهُ فِي نُفُوسِ الْعِلْمَانِ وَجُودُ مَنْاسِبَاتِ زَاهِيَاتٍ بِأَفْهَمِينَ بَيْنَهُمْ وَاهْتِمَامُهُمْ بِأَنْ يَطْهَرُوا فِي أَعْيُنِ مُتَازِرِينَ عَنْهُمْ ، كُلُّ ذَلِكَ سَاعَدَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى ازْدِيَادِ دَرَجَةِ مَعَارِفِهِمْ فِي دُرُوسِهِمْ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ التَّلَامِيذَ الْأَوَّلِينَ لَمْ يَتَغَيَّرُوا وَإِنَّمَا ظَهَرَ أَنَّ قُوَاهُمْ تَضَاعَفَتْ . لِمَاذَا لَا يَصِحُّ فِي حَقِّ النَّاطِقِينَ وَالنَّاطِقَاتِ مَا صَحَّ فِي حَقِّ الصَّمِّ الْبُكْمِ ؟

إِنَّمَا يُعَارِضُ الْقَائِمُونَ عَلَى تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الذَّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِمُجِبَّةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَعَارِضُ مَبْنِيَّةً عَلَى سَبَبٍ صَحِيحٍ لَكَانَتْ وَجْهَةً سَدِيدَةً ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يُجِيبَ هَؤُلَاءِ الْمَعَارِضِينَ بِأَنَّهُ لَمْ يُفَكَّرْ أَحَدٌ الْبَتَّةَ فِي جَمْعِ هَذَيْنِ الصَّفَتَيْنِ فِي قَاعَاتِ النُّوْمِ الْعَامَةِ وَلَا شَكَّ أَنَّ تَقْسِيمَ مَحَالِّ الْمَدْرَسَةِ وَأَقْبَتِهَا وَالرَّيَاضَاتِ الْمَدْرَسِيَّةِ بِالْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ يُجَنَّبُ كَثِيرًا مِنَ الْمَضَارِّ الَّتِي يُحْتَمَى مِنْهَا عَلَى الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ .

عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ الْعَقْلِيَّ إِنَّمَا جُعِلَ لِتَدْلِيلِ الْفَرَائِزِ وَالشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ وَقَمْعِهَا لَا لِتَنْبِيهِهَا وَتَقْوِيَّتِهَا، وَإِنِّي أَرَى — خِلَافًا لِأُولَئِكَ الْمُعَارِضِينَ — أَنَّ فِي التَّفْرِيقِ الْكُلِّيِّ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ خَطَرًا عَلَى الْفَضِيلَةِ ، فَإِنَّ فَرْطَ الْإِحْتِرَاسِ وَالْإِحْيَاطِ الصَّادِرَ عَنِ الرِّيَاءِ وَالْتِفَاقِ لَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَّا دَعْوَةُ الْقَسَادِ إِلَى الْإِحْتِيَالِ لِلتَّطَرُّقِ إِلَى الْأَخْلَاقِ مِنْ سَبِيلِ الشَّرِّ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَظْهَرَ فِيهَا، وَإِنْ كَثُرَتْ بَثُّ رُوحِ الْحَذَرِ فِي أَطْهَرِ الْمَعَامَلَاتِ وَأَعْقَهَا تَوْقُظٌ فِي الْيَافِعِينَ مَا هُوَ نَائِمٌ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ وَتُظْهِرُ مَا يَكُونُ كَامِنًا مِنْ أَشْوَاهِهِمْ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْحُدُودُ الْمَسَادِيَةُ وَيُعْتَاضَ مِنْهَا بِحُدُودِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا وَجَعَلَهَا فِي نَفْسِهِمْ سِيَاجًا لِمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ .

لَا أُرِيدُ بِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى فِي التَّرْبِيَةِ سَيَّانٍ يَصْلُحُ لِأَحَدِهِمَا كُلُّ مَا يَصْلُحُ لِلْآخَرِ، كَلَّا بَلْ كُلُّ مِنْهُمَا يَقْتَضِي تَرْبِيَةً خَاصَّةً لِاخْتِلَافِهِمَا فِي الْمَوَاقِبِ وَالْقُرُوضِ وَالْفَرَضِ الَّذِي خُلِقَ لِأَجْلِهِ ، عَلَى أَنَّنَا نَرَى النَّابِغِينَ وَالنَّافِعَاتِ مِنَ الصِّفَتَيْنِ يَتَكَافَوْنَ وَيَتَنَاسَبُونَ فِي بَعْضِ ذُرَى الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْحَمِيلَةِ وَالشَّعْرِ، فَلَا جَدْرَ بِنَا أَنْ نَفَكِّرَ فِي إِعْدَادِ الْأَزْدِوَاجِ بَيْنَ مَا أُوتِيَتْهُ الْأُنْثَى مِنْ رِقَّةِ الْوَجْدَانِ وَمَا أُوتِيَهُ الذَّكَرُ مِنْ حَصَافَةِ الْجَنَانِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةَ حَيَاةِ الصِّفَتَيْنِ ، وَإِنْ فِي تَرْبِيَةِ شَطْرَى النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَعَزِّلِينَ كَانَهُمَا لَا يَشْتَرِكَانِ فِي شَيْءٍ مِمَّا خُلِقَا لِأَجْلِهِ تَحْجِيلًا يَقْطَعُ الصَّلَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ ، وَأَمَّا تَقْدِيمُ الصَّبِيَّةِ إِلَى الصَّبِيِّ وَتَهْيِئَةُ أُنْثَى سَتُكُونُ لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِهِ رَفِيقَةً فِي الْعَمَلِ وَالْكُدْجِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ

(١) القرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء .

(٢) الحصة : جودة الرأي وإحكام العقل .

فَهُوَ أَكْثَرُ أَنْطَبَاقًا عَلَى مَقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ سَتَعَلَّمُ «لَوْلَا»
و «إِمِيلُ» مَعًا إِلَى أَنَّ تَقْتَضِي الْحَالِ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لِكُلِّ مِثْلٍ مِنْهَا
خَيْرًا كَثِيرًا مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْاِقْتِرَانِ الْعَقْلِيِّ . اهـ^(١)

(١) ما أرى أراسم إلا واحدا فيا رآه من الجمع بين الصبيان والبنات في المدارس ، اللهم إلا أن إواد
تقيده بمادون سن المراهقة فان نفوس الولدان تكون في هذا الطور من الحياة ظاهرة تقية بعيدة عن دواعي
الفننة وبراعت الفساد ، ولا نسلم له صحة الجمع بين الصغين على املاحه ، فان الواقع والعيان يشهدان بما فيه
من الخطر على الأخلاق ، وليس توقع هذا الخطر مقصورا على الاجتماع في غرف النوم ، بل هو متوقع
في قاعات الدروس نفسها لقصور مراقبة الأستاذ عن شمولها جميع تلاميذه كما هو معلوم خصوصا
في المدارس الكبرى ، وقوله ان العمل العقلي انما يجعل لتذليل الفرائز والشهوات الخبيثة وقعا لا لتنبهها
وتقويتها كلام مليح في ذاته على أنه ليس له في العمل ما يصدقه ، وليس ما يتخذ من وسائل الاحتراس
والاحتياط لديه المقاسد الخلقية صادرا عن الرياء والنفاق كما زعم ، وانما الرياء والنفاق الحقيقيان
في انكار المقاسد الشائسة الناجمة عن اختلاط الصغين ، وحذا لو كان ما يدعوا اليه من ازالة الحدود
المادية التي يبينهما والاحتياض عنها بمجدود الله التي ظهروا عليها مؤديا الى الفرض ، فليحذر العقلاء من
الاعتقاد بهذا الخرف القول وليناموا في الاحتياط الشديد الذي امر الله سبحانه به المؤمنين في خطاب
أمهاتهم وزوجات الرسول صلوات الله عليه ومكاتبن من التصون والعفاف لا يجهله مؤمن ، اذ قال جل
شانه : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاءً، وَلَكِنْ
إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلَا مَسْتَأْذِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُرْذَى فِي النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ
وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ،
وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَدْنِهِ إِنْ ذَلِكَ كَانَ عَنْهُ اللَّهُ عَظِيمًا» .
(سورة الأحزاب) .

فاذا كان هذا هو أمر الخلاق العظيم الذي جبل صفى النوع الانساني على ميل كل منها الى الآخر
وقد خاطب . أفرادا من أقوم الناس سيرة وأكلهم خلقا وأوفرهم أدبا أفلا يكون فيه موعظة وذكرى
لنم ليس لهم من هذه الصفات الفاضلة عشر معشار ما كان لهم ؟ أو ليس أمره تعالى للؤمنين في الآيتين
الكرتين الآخرين : «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فَرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكًى لَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ بِنِ
يَصْنَعُونَ ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُنَّ مِنْ أَبْصَارُهُنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُرُوجَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أُولَئِكَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
أَلْبَسَهُنَّ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الْقُصِيِّ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُحْمَلَ مِنْ خِثْفَيْنِ مِنْ
زِينَتِهِنَّ وَتَوَيَّرُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ نُصْلُوحٌ «(سورة النور) . أقول أو ليس في هاتين
الآيتين دليل ساطع على الأمر بالحجاب وعدم اختلاط النساء بالرجال فان لم يكن هذا هو المقصود به قتل =

الشذرة الرابعة

الْحَزْرَتَانِ وَالْعَلِيمُ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ

يَحْسُنُ أَحْيَانًا فِي حِوَارِ الْأَطْفَالِ أَنْ يَكُونَ تَفْهِيمُهُمُ الْحَقَائِقَ عَلَى طَرِيقَةِ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ .

سَأَلَنِي «إِمِيلُ» مُنْذُ أَيَّامٍ . لِمَاذَا وَجَدَ فِي الْبَاسِ فَقْرًا وَبَدَأَ لِي مِنْ «لَوْلَا» كَثْرَةُ اِهْتِمَامِي بِمَعْرِفَةِ الْعِلَّةِ فِي أَنْ فِيهِمْ أَعْيَاءَ .

جَرَى عَلَى الْأَلْسِنَةِ جَوَابٌ مَشْهُورٌ لِهَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ وَهُوَ « ذَلِكَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ » وَمَا كُنْتُ لِأُجِيبَهُمَا بِمِثْلِ هَذَا التَّعْلِيلِ ، لِأَنَّهُ فِيمَا أَرَى لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤَدَّى إِلَى أَهْدَانِ الْأَطْفَالِ مَعْنَى كَبِيرًا لِبَدْلِ الْمَذَاتِ الْعِلِّيَّةِ ، وَمَا كُنْتُ أَبْضَا لِادْخُلَ مَعَهُمَا فِي أَعْوَسِ مَسَائِلِ عِلْمِ الْاِقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ وَأَصْعَبِيَا . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ رَأَيْتُ أَنْ أَحْسَنَ جَوَابٍ أَخْرَجُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْحَيْرَةِ أَنْ أَقْصِ عَلَيْهِمَا قِصَّةً فَقُلْتُ :

== بربك كيف يسنن القيام بما تضمنته مع الاختلاط ، ولا سيما في هذا العصر الذي للبدعة فيه وحب التبرج السلطان القاهرة على قلوب النساء ، اللهم اني أشهدك اني مؤمن بك وبما أرسلت برسوك منج له ما استطعت فاعن عن تقصيري وعاملني برحمتك .

أكتب هذا وبين يدي الآن كلمة لأحد المهذبن أرسلها لمجلة « نور الاسلام » لنشرها فيها جاء فيها ما يلي : عقدت أخيرا قاعة المدرسات في إنجلترا مؤتمرا في لندن خطب فيه كثير من المشتغلين بالتعليم نساء ورجالا وكان مما قالته فيه الأئمة يدرقولها : « قد دلت التجارب على خطأ الجمع بين الذكور والاناث في فصل واحد لأن اختلاطهم يؤدي الى اضطرابات لا مفر منها ما دام ان كلا الصنفين لا يخلو من أفراد فهم فنة وجاهلية ، وهذا فضلا عن أنه من القبول بان عقولها متلعة تمام اللاؤم » .

وقال المستر هوات : « حينا يكن البنون والبنات في غرفة واحدة تكن المتاعب والفشل » .

ولم آت بهذين القولين تأييدا لما سبق من الآيات الكريمة ، ماذا الله من ذلك « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » وانما سقتهما ليتبرهما المفتونون بتقليد الغربيين في كل شيء — المترجم .

(١) الحوار بكسر الحاء المجاورة ومراجعة الكلام .

رُويَ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِي مَكَانٍ مَحْيِيٍّ مِنْ بَحْرِ لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَعْرِفَةِ جَزِيرَةٍ
بَنَى فِيهَا الْأَغْنِيَاءُ قُصُورًا مِنَ الْمَرْصَرِ وَزَرَعُوا فِي أَرْضِهَا بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
رَبُّوا فِيهَا مِنَ الْأَزْهَارِ مَا يَنْدُرُ وَجُودُهُ فِي غَيْرِهَا ، وَاحْتَفَرُوا بِرُكَا تَوْفِيرًا لِأَسْبَابِ
اللَّدَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا مَا يَعَادِلُ زُخْرَفَ مَوَائِدِهِمْ ، فَقَدْ كَانَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِصَحَافٍ مِنَ النَّحَبِ فِيهَا أَقْشَارُ حُصْنَةٍ طُبِخَتْ بِمِرْقَةِ سَرَطَانَ الْبَحْرِ (وَهُوَ أَلَذُّ الْأَوَانِ
الطَّعَامِ فِي ذَوْقِ « إِمْسَل ») وَكَانُوا فِي لِبَاسِهِمْ بِالْفَيْنِ حَدَّ الْإِفْرَاطِ فِي التَّائِقِ^(١)
خُصُوصًا نِسَاءَهُمْ ، وَكَانَ أَوْلَادُهُمْ يَلْعَبُونَ الْكِبَّةَ فِي الْمَيَادِينِ الْعَامَّةِ بِكُرَاتٍ مِنَ الْمَاسِ .

وَأَمَّا فَقَرَاءُ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ فَكَانُوا يَمْشُونَ حُفَاةً وَكَانَتْ صَبَائِهِمْ تَقْدُو كُلَّ يَوْمٍ
فِي أَسْمَالٍ مِنَ الثِّيَابِ فَتَقُوفُ بِأَبْوَابِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْنَامًا لِمَا أَلْقَاهُ خَدْمُهُمْ مِنْ قُفَا^(٢)
مَوَائِدِ الْعَشِيَّةِ . وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَغْنِيَاءُ فِي سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ عَلَى اسْتِعْمَالِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ
الشَّاقَّةِ الْمَمْقُوتَةِ بَلْ كَانُوا يَحْتَقِرُونَهُمْ ، وَيَلْفُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى حَدِّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْظَرُونَ
عَلَى ذَوِي الثِّيَابِ الرِّثَةِ مِنْهُمْ أَنْ يُوجَدُوا فِي الْمُنْتَزَهَاتِ الْعَامَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْحَظَرِ
مِنْ سَبَبٍ سِوَى خَوْفِهِمْ عَلَى بُسْطَاهَا السُّنْدُسِيَّةِ أَنْ تُدَنِّسَهَا أَقْدَامُهُمْ ، أَوْ خَشْيَتِهِمْ
أَنْ يَكُونَ مَنْظَرُ بُرْسِهِمْ قَدْ دُيِّ فِي عُيُونِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ .

(١) التائِق : المبالغة في تجريد الشيء وتخصيبه .

(٢) الكِبَّة : بالضم والتشديد لعبة : يأخذ الصبي خزعة فيدورها ويحلقها كأنها كرة ثم يندمرون بها

وتسمى هذه اللعبة في الحضر باسمين فأما الخزعة فيقال لها التون وأما الآجرة فيقال لها الكبة .

(٣) الأسمال : الثياب البالية .

(٤) التام : بضم التاء جمع قامة وهي الكفاة .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُلُّهُ غَادَرَ الْفُقَرَاءُ الْمَدِينَةَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَوَّوْا إِلَى جَبَلٍ لِيَأْمُرُوا
بِالْأَغْنِيَاءِ ، فَكَانَ رَأْيُ الشَّبَانِ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَيَسْطَوْا عَلَيْهِمْ وَهُمْ نِيَامُ
فِي مَضَاجِعِهِمْ وَيَقْتَسِمُوا أَمْوَالَهُمْ ، فَقَامَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَيْخٌ حَكِيمٌ وَتَرَبَّصَ بِهِمْ حَتَّى
قَرَّتْ شَقِيقَتُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا لِأَسْبَابِ ثَلَاثَةِ أَيْدِيهَا لَكُمْ :
أَوَّلُهَا أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ يَقُومُ عَلَى حِرَاسَتِهِمْ فِي صُرُوحِهِمْ خَدَمٌ هُمْ شَرُّ مِنْهُمْ ، وَكَلَّابٌ
أُضْرَى مِنَ الْحُرَّاسِ أَنْفُسِهِمْ ، ثَانِيهَا أَنِّي لَا أَعْتَقِدُ أَنْ سَطَوُكُمْ هَذَا عَلَيْهِمْ وَسَلْبُكُمْ
لِأَمْوَالِهِمْ يَكُونُ مِنَ الْعُدْلِ ، لِأَنَّهُمْ قَدْ كَسَبُوا هَذِهِ الْأَمْوَالَ الَّتِي تَحْسُدُونَهُمْ عَلَيْهَا
أَوْ كَسَبَهَا أَسْلَافُهُمْ مِنْ وَجْهِهِ شَرِيفَةٍ أَوْ خَسِيسَةٍ ثُمَّ مَلَكَوْهَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُقْتَضَى قَوَائِنِ
أَرَى — مَعَ كَوْنِي لَا أَدْرِكُ كُنْهَهَا كَمَالِ الْأَدْرَاكِ — أَنَّهُ لَا بُدَّ لَوْجُودِهَا مِنْ سَبَبٍ لِأَنَّ
جَمِيعَ النَّاسِ مُحَافِظُونَ عَلَيْهَا مُطِيعُونَ لِأَحْكَامِهَا حَتَّى الْآنَ ، نَالِهَا أَنْ مَا يَحُوزُ أَنْ تَزْعُمَهُ
الْيَوْمَ مِنْ أَعْلَانِكُمْ بَقَلَتِكُمْ عَلَيْهِمْ يَحُوزُ أَنْ يَسْلُبَهُ غَدًا مِنْكُمْ غَيْرُكُمْ بِقُوَّتِهِ وَضَعْفِكُمْ ، فَعَلَيْنَا
إِذَنْ أَنْ نُفَكِّرَ جَمِيعًا فِي اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ أُخْرَى : لَا بُدَّ أَنْكُمْ تَسْمَعُمْ بِوُجُودِ جُزُرٍ أُخْرَى
فِي الْبَحْرِ غَيْرِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الَّتِي قَعَضَى عَلَيْنَا تَحْسُ طَالِعِنَا بِالْوِلَادَةِ فِيهَا ، فَقَدْ حَكَى لَنَا
فُقَرَاءُ الْمَلَاحِينَ إِخْوَانَنَا — الَّذِينَ يَحْضُرُونَ إِلَى هُنَا بِسَفِينَتِهِمْ مَشْعُونَةً بِالْأَرْزَاقِ وَمَوَادِّ
الزُّخْرِفِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا الْأَغْنِيَاءُ — أَنَّهُمْ رَأَوْا غَيْرَ مَرَّةٍ فِي أَسْفَارِهِمْ أَرْضِينَ تَنْهَدُ مِنَ
الْمَاءِ مُكَلَّةً بِالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ الْكُبْرَى الْمُثْمِرَةِ ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ حِكَايَتِهِمْ أَنْ أَحَدَى

(١) اتَمَرُوا بَعْلَانِ يَأْتَمِرُونَ بِهِ هَوَاهُ وَتَشَاوَرُوا فِيهِ .

(٢) التَّقَشُّقُ : شَيْءٌ كَالرَّيَّةِ يُخْرِجُهُ الْبَحْرُ مِنَ فِيهِ إِذَا هَاجَ وَالْمَرَادُ بِهَا هُنَا فَصَاحَةُ الْكَلَامِ .

(٣) أُضْرَى : أَكْثَرُ احْتِدَادًا لِلصِّيدِ وَتَمَنُّكَ .

هَذِهِ الْجَزِيرُ خَالِيَةٌ مِنَ السَّكَّانِ وَلَا يَنْقُصُهَا إِلَّا إِرَادَتُكُمْ حَتَّى تُصْبِحَ جَنَّةٌ جَمَّةٌ ^(١) النَّارِ
 دَابَّةٌ الْجَنَى ، فَإِنَّ لَنَا سَوَاعِدَ قُوَّةٍ تُسَاعِدُنَا عَلَى الْعَمَلِ ، وَهَآ أَنَا ذَا مَعَ شَيْخُوخَتِي
 سَأَكُونُ لَكُمْ قُدُوةً فِيهِ وَأُمِدُّكُمْ بِصَاحِبِي عِنْدَ الْحَاجَةِ ، هَذَا هُوَ رَأْيِي قَدْ أَفْضَيْتُ
 بِهِ إِلَيْكُمْ فَانظُرُوا مَاذَا تَفْعَلُونَ .

فَتَلَقَّى جَمِيعَهُمْ نَصِيحَتَهُ بِالْقَبُولِ وَمَا عَمُوا أَنْ هَاجَرُوا إِلَى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ مُتَعَاتِقِينَ
 عَلَى سُنَنِ وَاحِدَةٍ صَنَعُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَلْوَجِ خِصَاصِهِمْ ، فَتَلَّ الْأَغْنِيَاءُ فَرَحًا لِسَفَرِ
 هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا كِتْمَانَ فَرَحِهِمْ بَلْ كَانُوا يُصَفِّقُونَ وَيَجْهَرُونَ بِقَوْلِهِمْ :
 حَبِذَا حَبِذَا هَذَا الْخِلَاصُ .

فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ السُّنُنُ ثَقُلَ إِلَّا الْأَفْخَاصُ الْمُهَاجِرِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ
 شَيْئًا . اسْتَغْفِرُ اللَّهَ ! بَلْ حَلُّوا مَعَهُمْ فِيهَا أَدَوَاتِ عَمَلِهِمْ .

مَضَى عَلَى سَفَرِهِمْ بَضْعُ سِنِينَ انْقَطَعَتْ فِيهَا أَخْبَارُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ
 الْجَزِيرَةِ فِي شَأْنِهِمْ ، فَمِنْ قَائِلٍ إِنَّ الْبَحْرَ ابْتَلَعَهُمْ وَمِنْ وَاهِمٍ يَأْتِسُّمْ أَكَلُ بَعْضِهِمْ
 بَعْضًا ، وَيَتَنَاهَمُ فِي هَذَا الْإِخْتِلَافِ إِذْ رَأَوْا ذَاتَ يَوْمٍ سَفِينَةً مَشْحُونَةً بِالْفِلَالِ
 وَعُرُوضِ التَّجَارَةِ رَسَتْ عَلَى مِينَاءَ جَزِيرَتِهِمْ فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَرَفُوا مِنْ لُجَّةٍ مَلَاحِيهَا
 وَبَعْضُ مَلَاحٍ وَجُوهِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ سُكَّانِهَا السَّالِفِينَ ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ هَؤُلَاءِ الْمَلَّاحُونَ
 أَنَّهُمْ آتُونَ مِنْ جَزِيرَةٍ أُخْرَى اسْتَقَامَتْ فِيهَا أُمُورُهُمْ وَبَحَّتْ نَجَاحًا عَظِيمًا ، لِأَنَّهُمْ

(١) جمه النار كقوتها .

(٢) الجنى ما يجنى من الشجر إذا كان غضا أى أخضر طريا .

(٣) ما هموا أن هاجروا ما لبثوا وما أبطأوا .

مَا حَرَّثُوا الْأَرْضَ وَأَحْيَوْا مَوَاتَهَا حَتَّى جَلَّتْهَا الْحَصَائِدُ وَمَلَأَتْهَا الْمُزَارِعُ وَالْمَوَاتِي
فَاعْتَبَرِ الْأَغْنِيَاءَ هَذِهِ الْأَخْبَارَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ وَفَهِّقْهُوا لِسَمَاعِهَا فَهَقْمَةُ الْمَجَانِينِ .

عَلَى أَنَّ الْمَلَاحِينَ لَمْ يَكُونُوا مُبَالِغِينَ فِي شَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَإِنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ
أَرْضِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْفَقْرَةُ عَلَى نَحْوِ مِنَ السَّحْرِ حُقُولٌ مَكْسُوءَةٌ بِالزَّرْعِ وَقَرْيٌ وَمَدَنٌ
وَطُرُقٌ وَتَرَعٌ، وَكَانَ سُكَّانُهَا فِي مَعِيشَتِهِمْ عَلَى وِفَاقٍ تَامٍّ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْهَا فِي غِبْطَةٍ
وَهَنَاءٍ، وَقَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ رِوَاقَهَا، وَكَانُوا يَتَسَرِّدُونَ أَبْنَاءَهُمْ بَدُورًا خَلِيفَ
أَرْقَى وَأَكْثَرِ مَنَّهُمْ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يَكْرَهُونَ تَعْلِيمَهُمُ الْعَمَلَ وَإِنْسَانَهُمْ عَلَى حُبِّهِ .

أَصْبَحَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فِي جَزِيرَةِ الْأَغْنِيَاءِ، فَكَانَتِ الْغُرَّةُ فِيهَا تَنْقُصُ
مِنْ يَوْمٍ إِلَى يَوْمٍ، لِأَنَّ سُكَّانَهَا لَمَّا كَانُوا مِنْ فَرْطِ الْكِبَرِ وَالْكَسَلِ يَحِثُّ إِلَيْهِمْ
يَسْتَنْكِفُونَ أَنْ يَتَوَلَّوْا بِأَنْفُسِهِمْ حَرَّتِ الْأَرْضُ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ امْتَلَأَتْ عَاقُولًا، وَتَعَطَّلَتْ
بِجَمِيعِ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ لِفَقْدِ عُمَّالِهَا، وَتَبَعَ ذَلِكَ زَوَالُ مَوَادِّ الزُّخْرِفِ، وَتَدَاعَتْ
الصُّرُوحُ وَالْقُصُورُ فَلَمْ يَوْجَدْ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يُقِيمُ مَنَادِحَهَا ^(١) .

فَزِعَ الْأَغْنِيَاءُ فِي بَدَايَةِ هَذَا الْإِنْخِطَاطِ إِلَى صُنَائِعِ الْجَزَائِرِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ فَلَمْ
يُجِيبُوا دَعْوَتَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِمَّا كَانُوا يُعَامِلُونَ بِهِ إِخْوَانَهُمْ فَلَمْ يَرْضَوْا
لِأَنْفُسِهِمْ مَا قَاسَاهُ هَؤُلَاءِ مِنْ ضُرُوبِ الْإِهَانَةِ .

نَعَمْ إِنْ مَنَّ بَقِيَ فِي الْجَزِيرَةِ مِنْ سُكَّانِهَا كَانُوا يَمْلِكُونَ كَثِيرًا مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ، وَإِنَّهُمْ اشْتَرَوْا مِنَ التَّجَارِ الْأَجَانِبِ كُلَّ مَا كَانُوا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ مُدَّةً مِنْ

الزَّمنَ ، وَلَكِنْ كُلُّ كَثِيرٍ لَا بُدَّ مِنْ نَفَادِهِ بِالْعَالَمِينَ الْكَثْرَةِ مَا بَلَغَ خُصُوصًا إِذَا كَانَ أَصْلُهُ لَا يَتَجَدَّدُ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يَمِضْ إِلَّا بِضْعُ سِنِينَ حَتَّى غَاضَتْ أَمْوَالُهُمْ ، وَأَنْشَأُوا يَنْدُمُونَ — وَلَاتِ حِينَ مَتَدِمٍ — عَلَى مَا قَرَطَ مِنْهُمْ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالظُّلْمِ فِي مُعَامَلَةِ الْفُقَرَاءِ .

صَارُوا إِلَى حَالَةٍ مُخْزِيَةٍ جِدًّا ، فَقَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ مَنْ كَانُوا يَحُوطُونَهُمْ مِنَ الْخِدْمِ وَالْحَشَمِ لِعَجْزِهِمْ عَنْ دَفْعِ أَجُورِهِمْ ، وَعَجَزَتْ خِيْلُهُمْ عَنْ جَرِّ عَجَلَاتِهِمْ لِفَقْدِهَا مَنْ كَانُوا يَقُومُونَ عَلَى تَغْذِيَّتِهَا وَإِصْلَاحِ شَأْنِهَا ، وَكَانَتْ نِسَائُهُمْ تَرَى فِي الشُّوَارِعِ مُتَعَلِّاتٍ نَمَلًا مِنَ الدِّيَاسِجِ مُشَوَّهَةِ الْأَعْقَابِ ، وَلَا سَايَ جَلَابِيبَ مِنَ الْحَبِيرِ الْمُنْعَبِ كُلُّهَا مَمْزُوقٌ وَمَحْرُوقٌ ، لِأَنَّهُ يُخْجَلُ أُولَئِكَ السَّيِّدَاتِ الْجَلِيلَاتِ أَنْ يَرَعْنَ ثِيَابَهُنَّ بِأَيْدِيَهُنَّ ، فَإِذَا نَظَرْنَ إِلَيْهِنَّ نَاطِرٌ وَهَنَّ فِي هَذِهِ الْأَهْدَامِ هَذَا الصَّلَفَ وَالْعَجْرَفَةَ دَعَتْهُ حَالُهُنَّ إِلَى الصَّحِيكِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِنَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْقَسْوَةِ وَاللُّؤْمِ الْإِسْتِهْزَاءُ بِالنَّعْسَاءِ الْبَائِسِينَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَشْرَارِ .

وَبِمُجْمَلِ الْقَوْلِ أَنَّ جَزِيرَةَ الْأَغْنِيَاءِ الْمُتَرَفِّفِينَ قَدْ أَصْبَحَتْ جَزِيرَةَ الْفُقَرَاءِ الْمُعْدِمِينَ .
كَانَ الْقَحْطُ يَزْدَادُ فِيهَا مِنْ سَنَةٍ إِلَى أُخْرَى ، فَقَدْ ضَعُفَتِ الْأَرْضُ عَنِ التَّحْصِيلِ لِعَدَمِ مَا كَانَ يَحْدِثُهَا مِنَ الْأَيْدِي ، وَكَادَ الْأَغْنِيَاءُ يَمُوتُونَ جُوعًا فِي صُرُوحِهِمْ ،

(١) غاضت : قصت .

(٢) ولات حين مدم : أى ليست الساعة ساعة دم .

(٣) الأهدام : جمع هدم يكثر الهاء وهو الثوب البالى .

(٤) الصروح : جمع صرح وهو القصر .

وَلَوْ لَمْ يَتَذَكَّرْهُمْ أُولَئِكَ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ بِالْإِفْرَاطِ فِي سُوءِ
مَعَامَلَتِهِمْ وَيُسَاعِدُوهُمْ بِمَا فَضَّلَ عَنْ حَاجَتِهِمْ لَهَلَكُوا عَلَى بَكْرَةِ^(١) أَبِيهِمْ .

كَانَ «إِمِيلُ» كَثِيرَ الْإِصْفَاءِ إِلَى فِي حِكَايَتِي لِهَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فَرَعْتُ مِنْهَا حَتَّى
ابْتَدَرَنِي بِقَوْلِهِ : يُسْتَفَادُ مِنَ الْقِصَّةِ إِذْنُ أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ سَبَبُ الْفَنَى وَالثَّرْوَةِ ، فَاجِبَتُهُ :
إِنَّ هَذَا لَيْسَ مُطَرِّدًا وَلَكِنْ أَقْلُ فَائِدَةٍ لَهُ أَنَّهُ يُغْنِي الْأُمَمَ الَّتِي تَعْرِفُ مَنَاجِجَ الْعَدْلِ
وَتَسْلُكُهَا اه .

الشذرة الخامسة

الخط الديواني

أَنْشَأَ «إِمِيلُ» يَخُطُّ بِالْقَلَمِ خَطًا مُنَاسِبًا لِحَالِهِ وَلِكُنِّي فِي شَكٍّ مِنْ جَرِيهِ عَلَى
قَوَاعِدِ الْخَطِّ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَكْتُبُهُ .

كَانَ الْخَطُّ فِيمَا مَضَى كَأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكُتَابِ الدَّانِيَةِ ، وَكَانَ يَدُلُّ عَلَى حَالَةٍ
مِنْ أَحْوَالِهِ سَوَاءٌ فِيهِ الْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ ، وَلِذَلِكَ وَجِدَ مُتَوَسِّمُونَ بِتَقْدِيرِهِمْ يَقْرَأُونَ^(٢)
فِي خَطِّ مَنْ لَا يَرْفَعُونَهُ مِنَ النَّاسِ ضُرُوبَ اسْتِعْدَادِهِ النَّفْسِيَّ ، وَلَا يَدْعُ فِي هَذَا
فَإِنَّ كُلَّ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ مُنْتَبِئَةٌ عَنْ أَخْلَاقِهِ وَبِجَبَابِهِ ، فَلَا شَيْءَ مِنَ الْإِسْطِحَالَةِ وَلَا مِنَ
الْبُعْدِ عَنِ الْحَقِيقَةِ — عَلَى مَا أَرَى — فِي أَنْ يَكُونَ الْخَطُّ — وَهُوَ الْأَثَرُ الدَّقِيقُ الْمَثْبُتُ
لِصُنُوفِ الْوُجْدَانِ وَأَنْوَاعِ الْمَعَانِي عَلَى الْوَرَقِ — نِعْمَةً مِنْ سِمَاتِ النَّفْسِ وَأَمَارَةً مِنْ

(١) على بكرة أبيهم : جميعهم .

أَمَارَاتِ الطَّيْعِ ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ خُطُّوهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا قَدْ غَيَّرُوا فِي حَيَاتِهِمْ طَرِيقَتَهُمْ فِي صَوْنِ حُرُوفِهِمْ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّغْيِيرُ — الَّذِي يَحِقُّ لَنَا الْمَرَاهَنَةُ عَلَى حُصُولِهِ بِغَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُمْ — أَجْتِنِيًا عَنْ بَعْضِ اسْتِحَالَاتٍ حَصَلَتْ فِي عُقُولِهِمْ ، وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي اعْتَقَدَ الْبَاحِثُونَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُمْ تَنَبَّهُوا إِلَيْهَا وَلَا حَظَّوْهَا أَنَّ أَقْرَبَ أَطْوَارِ الْكَاتِبِ إِلَى الْفِطْرَةِ هُوَ ذَلِكَ الطَّوْرُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ خَطُّهُ مُوسَمًا بِأَقْرَبِ السَّمَاتِ إِلَيْهَا أَيْضًا .

اخْتَرَعَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لِلْخَطِّ طُرُقًا لَا شَكَّ أَنَّ لَهَا مَزِيَّةً فِي تَهْدِيهِ وَتَقْوِيمِ يَدِ الْكَاتِبِ ، وَلَكِنَّهَا مَتَى انْتَشَرَتْ وَنَمَّ اسْتِعْمَالُهَا اتَّخَذَتْ الْخَطُوطُ وَتَشَابَهَتْ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهَا فُرُوقٌ تُمَيِّزُ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ ، فَفَنَعُنْ فِي هَذَا الْقَرْنِ — قَرْنِ السَّكِّ الْحَدِيدِيَّةِ وَالْأَقْلَامِ الْحَدِيدِيَّةِ — مُسَارِعُ كُلَّنَا إِلَى تَحْقِيقِ الْوَحْدَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

لَوْ أَنَّ هَذَا الْمِيلَ إِلَى الصَّنَاعَةِ اقْتَصَرَ عَلَى أَمَارَاتِ الْفِكْرِ وَقَوَائِبِ الْمَعَانِي لَكَانَ الْخَطُّبُ هَيَاً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفُتْ عِنْدَهَا بَلْ تَعَدَّاهَا إِلَى الْفِكْرِ نَفْسِهِ .

أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ وَفَرَةِ عُلُومِنَا وَمَعَارِفِنَا فَلَيْسَتْ هِيَ الَّتِي تَعُوزُنَا ، فَقَدْ وَجَدْتُ طُرُقًا سَهْلَةً صَيَّرَتْ مَبَادِيَ الْعِلْمِ وَأَدَابَ اللُّغَةِ وَالْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ قَرِيبَةً مُتَنَاوِلَةً لِلْجَمِيعِ النَّاسِ ، وَكُلَّ يَوْمٍ يَتَحَلَّتُ النَّاسُ بِاتِّشَارِ أَنْوَارِ الْعِرْفَانِ بَيْنَنَا ، وَهُوَ أَمْرٌ أَنَا بَعِيدٌ عَنِ الْمُنَازَعَةِ فِي جَلَالَةِ خَطَرِهِ وَعِظَمِ شَأْنِهِ . وَلَكِنِّي لَا أَرَى عَلَى حَرَجٍ إِنْ سَأَلْتُ نَفْسِي هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ وَهِيَ : هَلِ ارْتَفَعَ عَقْلُ الْإِنْسَانِ فِي هَذَا الْقَرْنِ إِلَى مَدَارِكَ أَسْمَى

مِمَّا بَلَغَهُ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ . هَلْ حَصَلَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَالْإِنْبِعَاطِ الذَّائِقِ
إِلَى الْعَمَلِ وَالْأَخْلَاقِ الْمُتَمَازَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي صُورَةِ مُجْتَمَعِهِ الْمُظْلِمَةِ وَالْأَعْمَالِ الْبَدِيعَةِ
أَكْثَرُ مِمَّا كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْقَرْنِ ؟ هَلْ ارْتَفَعَتْ قُوَّةُ الْإِدْرَاكِ مَعَ انْتِشَارِ تَسَاوَى
النَّاسِ فِيهَا كُلِّ يَوْمٍ ؟

وَأَسْفَى ! أَنَّى التَّفَتُّ حَوْلِي عَرَانِي الدُّهُولَ وَمَلَكَنِي الدَّهْشَ لِمَا أَرَاهُ مِنْ غَلَبَةِ
الْأَوَسَاطِ فِي الْعَقْلِ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَأَسْمَعَ النَّاسَ يُرَدِّدُونَ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْعَقْلَ وَالِاسْتِعْدَادَ
قَدْ شَاعَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ حَتَّى عَمَّا السَّائِلَةِ وَالْعَوَّاءِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
أَصْبَحَ فِيهِ عَقْلٌ غَيْرُهُ وَاسْتِعْدَادُهُ لَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ أَحْمَقَ وَأَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ ، نَعَمْ
إِنَّ قَرْنًا قَدْ وَصَلَ إِلَى طَرِيقَةِ بَدِيعَةٍ فِي الْإِنْخَارِ مِنَ الدُّوَالِبِ وَالْآلَاتِ الْمُعَاكِةِ
لِلْفِكْرِ ، وَقَامَتِ الْمَهَارَةُ فِي الْفُنُونِ مَقَامَ الْإِسْتِعْدَادِ الْفِطْرِيِّ وَالْعَزِيمَةِ ، وَأَزْهَقَ
التَّكَلُّفُ فِي آدَابِ اللُّغَةِ رُوحَ الْإِلْهَامِ وَالسَّابِقَةِ ^(١) ، وَاسْتَنْزَلَتِ الدِّيَسَةُ وَالْخَدَاعُ
فِي مَجْرَى الْحَيَاةِ وَشُؤُونِهَا الْفَضْلَ وَالْجَدَارَةَ عَنْ عَرْشِهِمَا وَحَلَا مَحَلَّهُمَا ، فَتَرَانَا الْآنَ
مَسْجُوفِينَ بِلَا شُعُورٍ مَتَا عَلَى طَرِيقِ عَامٍّ إِلَى مَحْوِ ضُرُوبِ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَانِ فِي الْعَقْلِ
وَالْخُلُقِ مَحْوًا تَامًا ، فَطَلِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْآنَ أَنْ تَقْنَعَ بِأَنْ تَكُونَ كَجَمِيعِ النَّاسِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ الَّتِي عَلَيْهَا الْقَوْلُ الْآنَ تَرْجِعُ إِلَى أَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ
مِنْ غَرَضِي اسْتِقْصَافُهَا هُنَا ، مِنْهَا نِظَامُ مَعِيشَتِنَا وَقَدْخَانُ الْحُرِّيَةِ السِّيَاسِيَةِ عِنْدَنَا
وَأَهْتِمَامُنَا الْمَتْرَائِدُ بِالصَّالِحِ الْمَادِيَّةِ ، وَمِنْهَا أَمْرٌ لَا يَسَعُنِي إِغْفَالُهُ وَإِلَّا اسْتَحَقَقْتُ

اللوم ، وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب إلى ستر عيوب الأطفال وإخفاء مواضع الضعف فيهم ببعض طرق التعليم السريعة التي تكاد تكون آلية محضة ، أقول : إنها أقرب إلى ذلك منها إلى استكشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتسميتها ، فترى القائمين على التعليم لا يرشدونهم إلى أن الغرض من مجاهداتهم وكدهم في التعلم إنما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالاً نافعين وهو الواجب ، بل يعملون غايتهم الإرتقاء إلى المناصب ونيل الغنى ، ويقتضون منهم أن يبلغوا إليها ، وهم بذلك يسكرون بحمل الأحداث على أن يتبينوا أن المواضع والتصنع هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح .

الشذرة السادسة

« منهب تسهيل المتعلمين بالأشغال المادية الشاقة »

توجد في بعض المدارس في إنجلترا عادة قديمة يدهش منها الأجانب كثيراً وهي أن التلاميذ — فيما يوجد منها بمدينتي أنون وهارو وهي التي يدخلها أبناء السراة غالباً — يخدم بعضهم بعضاً ، وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقاً بمكانة

(١) يقتضون : يطلبون .

(٢) المواضع الاصطلاح أى ما يتفق عليه الناس من العادات .

(٣) التصنع : التكلف .

(٤) أنون هي مدينة بمقاطعة بكنجهام في إنجلترا واقعة على نهر التايمز مشهورة بمدرستها الكلية التي هي أكبر الكليات الانجليزية الخاصة القديمة يتعلم فيها أبناء الخواص والسراة .

(٥) هارو هي مدينة بمقاطعة مدلسكس في إنجلترا تبعد عن لوندرة بأثنى عشر ميلا وهي مشهورة بمدرستها الموقسة في سنة ١٥٧١ التي يتعلم فيها أبناء الخواص والأغنياء .

التلميذ في قومه ولا يفتي أهله أو قريته، بل بالأقدمية وبعض الدرجات المدرسية، فيجوز أن يلزم الطفل الغني السرى تنقيص ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتظليل غرقته وإيقاد ناره وتسيوية طعامه وحمل كُتبه إليه في قاعة الدرس .
فيقع إيجاب الخدمة على من يجعلهم المدرسة في الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذي استتبعه من هذه المادة هو ما يكون بين التلميذ الخادم والمخدوم من رابطة التبعية الذاتية ، فإن الأقدمين من التلاميذ يسيرون أحياناً مع من يخدمهم خدماً لهم من إخوانهم سيرة في غاية القسوة حتى إنه ليقع منهم في حقهم ما نقرؤه في قصص مولير المضحكة من الشتم وضربات الألف وجميع ضروب سوء المعاملة التي كانت تقع من صغار الموالى على خدمهم بأرجلهم وأيديهم الحقيقية الحركية . أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالأمس أرقاء صبراً على النذل مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة قساة متجبرين، وهكذا شأن الدنيا، ويمثل هذا تتنقل جميع أنواع العنوة والطغيان من سلف إلى خلف .

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً في هذه الطريقة ، فإنه لا ضرر البتة في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم ، ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كانت يديرها رجل وأفر العقل على الفكر اختار هذا المذهب ويمسره أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين ، ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته إلى جماعات

(١) (مولير هو أكبر شاعر قصصى فرنسى ولد في باريس سنة ١٦٢٢ ومات سنة ١٦٧٣ مسجياً .

(٢) صير جمع صجود أى كثير الاحمال .

(٣) العنوة الاستكبار وتجاوز الحد .

مِنَ الْعِلْمَانِ وَالْيَافِعِينَ مُنْقَسِمِينَ إِلَى طَوَائِفَ عَلَى حَسَبِ مُقْتَضِيَاتِ أَذْوَاقِهِمْ وَضُرُوبِ
مِيلِهِمْ الْفِطْرِيِّ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ مُخْتَارِينَ مُنْطَوِعِينَ فَكَانَ الْوَاحِدُ
مِنْهُمْ إِمَّا لَبَّادًا أَوْ كَنَاسًا أَوْ قَادًا لِلْمَصْرِيعِ أَوْ مُوقِفًا لِإِخْوَانِهِ فِي الصَّبَاحِ أَوْ مُنْظِمًا
لِقَاعَةِ الدَّرْسِ ، وَكَانُوا يَتَنَابَوْنَ خِدْمَةَ الْمَائِدَةِ، وَكَانَتْ الْأَعْمَالُ الْمُسَخَّرَةُ الَّتِي
تَقْضِي أَكْثَرَهَا مِنْ غَيْرِهَا بِإِخْلَاصٍ أَجَلٌ مِنْ غَيْرِهَا أَيْضًا فِي نَظَرِ التَّلَامِيذِ ، لِأَنَّ
رَئِيسَ الْمَدْرَسَةِ كَانَ يَتَظَاهَرُ بِتَمَيُّزِهَا عَنْ غَيْرِهَا بِمَا كَانَ يُؤْزَعُهُ مِنْ شَارَاتِ الشَّرَفِ^(٢)
عَلَى مَنْ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِقْدَامُهُمْ إِلَى مُبَاشَرَتِهَا . وَلَيْتَكَ زُرْتَ هَذَا الْمَكَانَ حَتَّى كُنْتَ
تُشَاهِدُ مَقْدَارَ التَّحَمُّسِ الْمُفْرِجِ الَّذِي يُبْدِيهِ كُلُّ تَلَامِيذٍ فِي الْقِيَامِ بِعَمَلِهِ الَّذِي كَانَهُ
قُرْصُ اخْتِيَارِيٍّ عَلَى نَفْسِهِ . كَانَ مِنْ مَزَايَا هَذِهِ الْخِدْمَةِ السَّيِّئَةِ لِلتَّلَامِيذِ أَنَّهَا كَانَتْ
تَسِيلَةً لَهُمْ مِنْ عَنَاءِ الدَّرُوسِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ رَأْيِ رَئِيسِهِمْ أَنَّ^(٣) فِي الْمَرَاوَحَةِ بَيْنَ
الْأَعْمَالِ اسْتِرَاحَةً مِنْ مَشَقَّتِهَا، وَكَانَ مِنْ غَرَضِهِ فَوْقَ ذَلِكَ أَنْ يُبْلِي فِي نُفُوسِهِمْ مَعْنَى
احْتِرَامِ جَمِيعِ الْوُظَائِفِ وَكُلِّ فُرُوعِ الْعَمَلِ الْيَدَوِيِّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحْتَقِرُ مِنْ
غَيْرِهِ مَا يَبَاشِرُهُ هُوَ بِنَفْسِهِ .

تَعْرِضُ لِي فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَحْوَالُ تَحْمِلُنِي عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مَا نَدْعِيهِ مِنْ حُبِّ
الْمُسَاوَاةِ لَيْسَ إِلَّا رِيَاءً وَفَقَاقًا ؛ لِأَنِّي أَرَى مَنْ لَا تَهْتَرَأُ لِسِتْمَتِهِمْ عَنِ اللَّهِجِ بِهِذِهِ^(٤)
الدَّعْوَى لَا يَجُورُونَ عَلَى مُقْتَضَاهَا فِي أَعْمَالِهِمْ ، فَالطُّفُلُ الَّذِي يَرَى فِي الْمَدَارِسِ
أَوَ الْبُيُوتِ أَنَّاسًا اسْتَوْجَرُوا لِحِدْمَتِهِ يَسْتَنْتِجُ مِنْ ذَلِكَ طَبَعًا أَنَّ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ

(١) البادع عامل البود . (٢) الإشارة الزينة .

(٣) المراوحة بين العملين هي تداولها هذا مرة وهذا مرة . (٤) تفت : تقصر .

أَوِ الْكِرِيهَةِ هِيَ مِنْ حَظِّ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنْ قَوْمِهِ، وَلَا يُفِيدُهُ فِي مَحْوِ هَذَا الِاعْتِقَادِ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّ تُحَدِّثُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَنْ ضَرُورَةِ تَقْسِيمِ الْعَمَلِ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ عَنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ الْكَثِيرَةِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كَمَا الْعِلْمُ أَنَّ آيِسَ لِلْعَدَمِ أَنَّ يَأْكُلُوا عَلَى مَوَائِدِ سَادَتِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ يَتَوَسَّمُ فِي وَالِدَيْهِ أَنَّهُمَا يُعِدَّانِهِ لِأَنَّ يَكُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَيَكْفِيَانِهِ بِذَلِكَ مَوْنَةَ الْإِسْتِفَالِ بَعْضُ الْأَعْمَالِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوَجَّحَ يَدُهُ أَوْ تُقَدَّرَ وَجْهَهُ كَانَ رَأْيُهُ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى مَنْ يَقَارِفُونَهَا ^(١) مِنَ النَّاسِ فَيَحْكُمَ عَلَيْهِمْ بِحُكْمِهِ عَلَيْهَا وَبِذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَثِيرَ الْإِنْسِيَاقِ إِلَى احْتِقَارِ جَمِيعِ الصَّنَاعِ وَالزَّرَايَةِ عَلَيْهِمْ ^(٢).

صَحَّحْتُ أَنَا وَهَيْلَانُهُ عَلَى تَكْلِيفِ «إِمِيل» أَنْ يَعْمَلَ كُلَّ مَا يُلْزَمُ لِفِرَاشِهِ وَمُجَرَّتِهِ وَثِيَابِهِ، وَلَا أَكْرَهُ أَنْ أَرَاهُ يَمْسَحُ نَعَالَيْهِ وَيُسَوِّي عِنْدَ الْحَاجَةِ طَعَامَهُ، فَإِنَّ الْفَائِدَةَ الَّتِي تُعَوِّدُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى كَوْنِهِ يَتَعَلَّمُ عَدَمَ امْتِنَانٍ مَنْ يَكْسِبُونَ قُوَّتَهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، بَلْ فِيهِ أَيْضًا تَتِمُّ لِحُرِّيَّتِهِ الشَّخْصِيَّةِ بِتَعْوِيدِهِ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْ مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِ فَالْأَسِيرُ الْمُسْكِينُ مَنْ يَعْجُزُ عَنْ خِدْمَةِ نَفْسِهِ.

(١) يقارِفُونَهَا : يتماطلونها ويخالطونها .

(٢) الزَّرَايَةُ : اللَّيْبُ .

الشذرة السابعة

رُؤْيَا مَنَامٍ

فَيَا يَحِبُّ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ التَّزْيِيَةُ وَفِي آثَارِهَا إِذَا كَانَتْ كَمَا يَحِبُّ
رَأَيْتُنِي مُتَمِطِيًا جَوَادًا أَسِيحُ فِي بِلَادٍ مَجْهُولَةٍ لَا أَدْرِي أَمِي مِنَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةِ
أَمْ الْجَدِيدَةِ ، وَلَكِنِّي بِحَسَبِ مَا بَدَأَ لِي مِنْ ظَوَاهِرِهَا أَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ
وَاقِعَةً عَلَى نُحُومِ بِلَادِ الْأَلُورَادُو^(١) أَوِ الْأَوْتُوبِيَّةِ وَبَصُرْتُ فِي طَرِيقِي بِمَحَاطَرٍ مُسَيَّجَةٍ
بِأَسْبِجَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا قُطْعَانٌ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَجْتَرَةِ الَّتِي
لَا تُوْجَدُ قَطُّ فِي مَرَاغِبِنَا — تَسُومُ أَمْنَةً لَا تَكَلِّبُ بِحَرَسِهَا وَلَا رَاعِي يَرَاهَا ، وَلَا حَظَّتْ
فِي انْتِظَامِ طَرِيقِ الرَّيِّ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ وَحُسْنِ تَوْزِيعِ الْمَاءِ بَيْنَ جِهَاتِهَا — عَلَى نَمِطِ
يُثِيرُ الْإِسْتِحْسَانَ وَيَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ — أَنَّهُ كَانَ مِنْ مَزَايَاهُ امْتِلَاءُ جُورِيفِهَا
بِالنِّسِمِ الْبَارِدِ الْمُتَعِشِ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّهَارِ ، وَشَاهَدْتُ سَلَاسِلَ مِنَ الْهَضَابِ
مُكَلَّلَةً بِالْأَشْجَارِ كَانَتْ فِي تَتَابُعِهَا وَاتِّصَالِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ تَحُطُّ لِلرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ
طَرِيقَهُمَا ، ضَرَبَ الْغَيْيَ سُرَادِقَهُ حَوْلَ قُرَى هَذَا الرِّيفِ وَظَهَرَتْ عَلَى أَهْلِهِ آثَارُ
النِّعْمَةِ وَالْإِغْتِيَاظِ ، نِسَاؤُهُ حَسَنٌ وَلِدَانُهُ أَسْوِيَاءُ^(٢) إِحْمَاءُ الْإِبْدَانِ يَبْشُرُونَ حُكْمَهُمْ^(٣)
بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ أَسْلًا قَوِيًّا بِأَسْلًا .

- (١) الالهورادو كلمة آسيائية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس أن ضابطا من مدينة بيزار
اعتدى إليها في أمريكا الجنوبية وأنه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الأرض شيء كثير ثم أطلقت هذه
الكلمة على بلاد الرخاء والنسيم . (٢) الأوتوبية كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت
أمودها على أحسن ما يتجمل من النظام ووصفها كاتب اسمه توماس موريس في كتاب له .
(٣) المجتررة التي تأتي بالجرة بكسر الجيم وهو ما يكون في بطنها تمتصه تلالا به حتى يأتمها الملف .
(٤) أسوياء جمع سوى وهو المعتدل انطلق .

ثُمَّ رَأَيْتُ حَوَاضِرَ هَذَا الْقَطْرِ وَلَمْ أَكُنْ لِرُؤْيَيْهَا أَقَلَّ مِنِّي دَهْشًا لِرُؤْيَةِ قُرَاهُ ،
وَمِمَّا أُرِشِدْتُ إِلَيْهِ فِي إِحْدَاهَا بَنَاتَانِ أَقْبَا فِي عَصْرِ يُسَمِّيهِ أَهْلُهَا الْآنَ عَصْرَ
الْهَمَجِيَّةِ ، أَحَدُهُمَا يَخْنُ وَالْآخَرُ مَاوَى لِلْمَسَاكِينِ ، وَقَدْ أَصْبَحَا مِنْ أَهْلِهِمَا خَلَاءَ
لِعَدَمِ اللَّصُوصِ وَالْبَاسِنِ ، وَمَعَ أَنَّهُمَا لَمْ تَبْقَ لَوْجُودِهِمَا قَائِدَةٌ حَفِظَهُمَا الْقَائِمُونَ عَلَى
شُؤْنِ الْقَدِيمَةِ لِيَكُونَ فِيهِمَا ذِكْرٌ لِتَارِيخِهِمْ .

حُدِّدَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ مَا لِلنَّاسِ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقُوقِ وَالْفُرُوضِ وَمَا لِلْحُكُومَةِ
وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَّا زَبْعُهُ عَنْ بَعْضِ امْتِنَانِ بَنَاتٍ ، وَلِهَذَا يُجِدُ الرِّعَايَا لَا يُؤَلُّونَ
حُكَامَهُمْ مِنْ شُؤْنِهِمْ إِلَّا مَا لَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ أَنْ يَتَوَلَّوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ . وَحَقِيقَةُ
الْأَمْرِ أَنَّ الْقَوَائِينَ فِيهَا — عَلَى قِتْلَتِهَا جِدًّا وَصُدُورِهَا عَنْ رَأْيٍ مِنْ اخْتَارَتْهُمْ الْأُمَّةُ نَوَابًا
عَنْهَا — لَا سَبِيلَ لَهَا إِلَّا عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ مُتَعَلِّقًا بِالْحُكُومَةِ ، وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ
جَمِيعًا هُمُ الَّذِينَ قَدْ سَنَوْا لِأَنْفُسِهِمْ هَذِهِ الْقَوَائِينَ لِحِمَايَةِ كُلِّ مِنْهُمْ كَانَتْ مُخَالَفَتُهَا
وَعَدَمُ الْإِمْتِنَانِ لِأَحْكَامِهَا مُحَقًّا وَمُخَفًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ يُؤْمَلُونَ تَعْدِيلُهَا وَالتَّقْيِيلُ مِنْ
سُلْطَانِهَا بِتَرْقِيَةِ الْعُلُومِ وَبَثِّ أَضْوَاءِ الْعِرْفَانِ .

رَأَيْتُ هُوَ حَاكِمُهُمُ الْمَطَاعُ أَمْرُهُ ، النَّافِذُ قَوْلُهُ ، وَلَمْ يُعْهَدْ أَنْ يَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ
الْمُعْتَمِدِينَ فِي صِبَايِهِمْ ^(١) ، الْمُعْتَمِدِينَ بِمُحْصُونِهِمْ ^(٢) ، كَانَ لَهُ مِنَ الْمَعَاقِلِ وَالْمَتَارِيسِ ^(٣) ^(٤)

(١) الصبايح جمع صبيحة وهي الحصن .

(٢) الحصن : كل موضع محمي بمرز لا يوصل الى جوفه .

(٣) المعقل جمع سفل وهو الملبأ .

(٤) المتاريس جمع متراس وهي خنبة توضع خلف الباب لمنع قومه

مَا يُعَادِلُ مَا حَبِطَ بِهِ ذَلِكَ الْحَاكِمُ مِنْ ضُرُوبِ الْكَفَالَةِ ، وَأَنْوَاعِ الضَّمَانِ الْمُؤَيَّدَةِ لَهُ ، الْقَائِمَةِ عَلَى إِعْزَازِهِ ، فَالْقَوْمُ أَحرَارٌ يَتَفَكَّرُونَ فِي كُلِّ مَا يَكُونُونَ وَيَكْتُبُونَ كُلِّ مَا فِيهِ يَتَفَكَّرُونَ ، وَقَدْ يَدْهَشُهُمْ كَثِيرًا — عَلَى مَا أَرَى — أَنَّ يَعْلَمُوا أَنَّ فَوْقَ الْأَرْضِ أُمَّمًا فِي قُدْرَتِهَا أَنْ تَسْتَسْلِمَ لِحَاكِمِهَا ، وَتَقْبَلُ بِنَفْسِهَا فِي قَبْضَةِ ظَالِمٍ .

لَاقَبْتُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ شَيْخًا — لَا أَذْكَرُ أَيْنَ وَلَا كَيْفَ لَاقَيْتُهُ — وَقَعَ التَّعَارُفُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَشْرَحَ لِي نِظَامَ حُكُومَتِهِمْ وَيَطُوفَ بِي عَلَى الْمَعَاهِدِ الْمُعَدَّةِ لِلْمَنَافِعِ الْعَامَّةِ ، لِأَنِّي لَمْ أَرِ فِي الْمَدِينَةِ قُصُورًا يُنْبِتُ لِمِضِ الْأَفْرَادِ تَوْفِيَةً لِأَسْبَابِ لَذَاتِهِ وَلَا مَسَالِحَ^(١) وَلَا دُورًا لِلْجَيْشِ وَلَا مَوَاقِيرَ لِلْفُحْشِ .

لَمَّا رَاقَيْتُ مَا شَاهَدْتُهُ قُلْتُ لِلشَّيْخِ هَلْ لَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِأَمْرِ ذَلِكَ الْوَاضِحِ الْكَبِيرِ الَّذِي سَمِعْتُ لَكُمْ فِي هَذِهِ الْقَوَانِينِ ؟ فَجَبَسَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِي وَقَالَ : أَرَأَيْكَ أَتَيْتَا مِنْ عَالَمٍ آخَرَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ قَوَانِينَنَا لَيْسَتْ مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ ، وَإِنِّي أَرَأَيْتُ الْآنَ مُضْطَرًّا إِلَى أَنْ أَقْصِ عَلَيْكَ تَارِيخَنَا فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ فَاسْتَمِعْ لِمَا أَقُولُ : إِنَّمَا قَبْلَ الْيَوْمِ يَتَوَقَّرَيْنِ لَمْ نَكُنْ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِنَا مِنَ الْأُمَمِ ، وَآخِرُ مَلِكٍ تَوَلَّى عَلَيْنَا — وَلَا نَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى اسْمُهُ (لَأَنَّ النِّسْيَانَ أَحْسَنُ عِقَابٍ لِلْمُسِيئِينَ الْأَشْرَارِ) — خُلِعَ مِنْ عَرْشِهِ بَعْدَ حُكْمٍ أَتَخَطَّ عَلَيْهِ جَمِيعَ رَعَايَاهُ وَالْبَهْمِ عَلَى نَيْدِ طَاعَتِهِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ عَرَّضَ النَّاسُ بَعْدَ خُلْعِهِ صُورًا مُخْتَلِفَةً وَأَشْكَالًا مُتَنَوِّعَةً لِلْحُكُومَةِ ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اخْتِيَارِ حَاكِمِهِمْ لَوْلَا أَنَّ آبَاءَنَا — بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالنَّصِيحَةِ — تَرَجَّعُوا وَقَالَ

(٢) أَلِهم : استنبطهم وجمعهم .

(١) المالح جمع ملحة وهي موضع السلاح .

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّ الْأَوَّلَى لَنَا أَنْ نُزَيِّجَ الْفَصْلَ فِيهَا شَجَرَيْنَا ، وَأَنْ تَرُكَ لِأَعْقَابِنَا
النَّظَرَ لَأَنْفُسِهِمْ فِيهَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي أَحْسَنِ الْأَوْضَاعِ وَلَا فِي أَعْدِلِ
الْقَوَائِنِ إِنْ لَمْ يُجَدِّدْ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِثِينَ وَسِيلَهُ لِمُسْتَبَقَاتِهَا . وَحِينَئِذٍ اتَّفَقَ الْقَوْمُ عَلَى
أَنْ يُقْبَلُوا مِنْ قَوَائِنِهِمُ الْقَدِيمَةِ أَكْثَرَهَا مَطَابَقَةً لِحُكْمِ الْعَقْلِ حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ ، وَأَنْ
يُنْشِئُوا الْحِلَّ الْجَدِيدَ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ عَلَى حُبِّ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِخْذِ بِهَا . ثُمَّ لَعَلَّكَ لَمْ تَر
مَدْرَسَتَنَا ، إِنَّمَا أَصْلُ نِظَامِنَا السِّيَاسِيِّ فَهِيَ بِنَا إِلَيْهَا .

أَخَذَنِي إِلَى مَكَانٍ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَجْلِيَ لِنَظَرِي فِي أَشْعَةِ
الشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ قَصْرٌ أَوْ هَيْكَلٌ فَوْقَ رُبُوعٍ شَجَرَاءَ قَدْ عَادَلَ أَسَاسُهُ وَأَنْفَسَاحُ أَرْجَائِهِ
مَا لَهُ مِنَ الْفَخَامَةِ وَالْجَلَالِ ، لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَصِفَ لَكَ جَمْلَتَهُ لَعَيْتُ بِذَلِكَ ، بَنِي كُلِّ
قِسْمٍ مِنْ أَقْسَامِهِ الدَّاخِلِيَّةِ عَلَى طَرِيقَةٍ حَدِيثَةٍ فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ ، وَبَلَغَ مِنَ الْأَزْدِيَانِ بِمَا
وُضِعَ فِيهِ مِنَ التَّمَائِيلِ وَالصُّوَرِ وَأَثَارِ الْفُنُونِ إِلَى حَيْثُ إِنَّ جُدْرَانَهُ كَانَتْ تَكَادُ تَكْنِي
أَنْ تَكُونَ وَحْدَهَا طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ التَّعْلِيمِ ، لِكَيْ تَكُونَ مَاحُوْتُهُ يَنْقُشُ عَلَى أَذْهَانِ التَّلَامِيذِ
وَمَشَاعِيرِهِمْ ، وَيَنْقَسِمُ هَؤُلَاءِ إِلَى عِدَّةٍ أَيْمٍ يُنْتَلِ كُلُّ مِنْهَا جِيلًا مِنْ أَجَالِ الْإِنْسَانِ ،
وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ الْبِنَاءُ فِي وَسْطِ مَشَاهِدِ تَأْسِرِ الْقَلْبِ وَتَاخُذِ بِالْأَبِّ ، بِمَا فِيهَا مِنْ
ضُرُوبِ التَّبَاسُّنِ وَوُجُوهِ التَّخَالُفِ ، فَتَجِدُ حَوْلَهُ الْأَجَامَ وَالصُّخُورَ وَمَسَاقِطَ الْمَاءِ
وَحُجَّتَهُ الْبَحْرَ .

(١) شجر كان سبب النزاع والخسومة .

(٢) شجرا : كثيرة الشجر .

(٣) الأجام : جمع أجة وهي الشجر الكبير المتنف .

وَقَفْتُ عَلَى إِحْدَى حَلَقَاتِ الدُّرُوسِ فَإِذَا يَغْلَمَانِ يُمَارِسُونَ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً مِنْ الرِّيَاضَاتِ الْبَدَنِيَّةِ كَالْمُصَارَعَةِ وَالْعَدْوِ وَالرَّمَايَةِ بِالْقَوْسِ ، وَأَكْثَرُ مَا دِهَشْتُ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَلَقَةِ أَنَّ مُعَلِّمِيهَا كَانُوا مِنْ هُنُودِ أَمْرِيكَةِ الْحُمْرِ الْأَصْلِيِّينَ كَمَا تَبَيَّنَتْ ذَلِكَ مِنْ لَوْنِهِمْ وَخَفَافَةِ أَعْضَائِهِمْ وَمَا كَانَ عَلَى شُعُورِهِمْ مِنْ مَوَادِّ الزَّيْنَةِ الْوَحْمِيَّةِ .

قَالَ لِي الدَّلِيلُ : إِنَّ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ الْمُتَوَحَّشَةَ لَمْ تَأْتِ إِلَى بِلَادِنَا إِلَّا مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ ، وَإِنَّمَا جَذَبَهَا إِلَى حُدُودِنَا حُسْنُ أَخْلَاقِ قَوْمِنَا وَرِفَّةُ طِبَاعِهِمْ ، فَإِنَّا لَمْ نَعْتَرِهِمْ أَعْدَاءً لَنَا كَمَا يَقَعُلُ غَيْرُنَا ، بَلْ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى مُشَارَكَتِنَا فِي نَعِيمِ الْحَضَارَةِ وَأَرْشَدْنَاهُمْ إِلَى مَا مُحْصَلُهُ لَنَا مِنَ الْقَوَائِدِ وَالْمَزَايَا مُبَيَّنِينَ لَهُمْ مَقْدَارَ رُحْمَانِيَّتِهَا عَلَى الْبَدَاوَةِ ، وَلَمَّا كُنَّا لَا نَجْهَلُ مَا لَهُمْ مِنَ الْمَوَاهِبِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي نَحْنُ مَحْرُومُونَ مِنْهَا عَرَضْنَا عَلَيْهِمْ مُعَاوَضَةَ الْمَنَافِعِ وَمُبَادَلَةَ الْمَرَافِقِ ، فَقَبِلَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَلِكَ مِنَّا ، وَهَاهُمْ أَوْلَاءُ الْآنَ يَرُوضُونَ أَبْنَاءَنَا عَلَى أَحْيَالِ الْأَلَامِ الْجَسَدِيَّةِ غَيْرِ مُغْضِبِينَ مِنْ جِبَاهِهِمْ ، وَعَلَى اسْتِعْمَالِ أَبْصَارِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ فِي اجْتِنَابِ مَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِنَ الْخَبَائِلِ ، وَإِبْطَالِ أَثَرِ مَا يُكَادُ لِيَحْتَلِمُ مِنَ الْمَكَائِدِ ، وَبَعْدُوهُمْ الْبَسَالَةَ فِي تَقْيِ أَعْضَائِهِمْ وَلَيْسَ مُوَافَقَةَ سُلْطَانِ الْإِرَادَةِ وَتَعَرُّفِ أَخْلَاقِ الْحَيَوَانَاتِ وَعَوَائِدِهَا فِي حَالَتِهَا الْوَحْشِيَّةِ .

وَفِيمَا نَحْنُ نَجُولُ دَاخِلَ هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ مُتَقَدِّمٌ - كَمَا قُلْتُ - إِلَى دَارَاتِ مُخْتَلِفَةٍ لِلتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ شَهِدْتُ أَحَدَ الْأَعْيَادِ الَّتِي تُقَامُ فِي هَذِهِ الدَّارَاتِ التَّارِيخِيَّةِ أَوْ الْعِلْمِيَّةِ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ فَخَيَّلَ لِي أَسْنَا فِي أَيْمَنَةِ (عَاصِمَةِ بِلَادِ الْبُونَانِ) إِنْ لَمْ أَكُنْ

وَأَمَّا ، وَأَبْصَرْتُ فَلَقْتَهَا الْمُسَاءَ بِالْأَقْرَبِ بُولِ شَاخِصَةٍ أَمَامِي عَلَى صَخْرَةٍ يَقُولُهَا مَعْبُدٌ
وَتَمَازِيلُ وَالْهَيْ صُنِعَتْ مِنَ النُّحَاسِ الْأَحْمَرِ وَالْمَرْمَرِ ، وَرَأَيْتُ فِي الْجَانِبِ الْفَرَسَ لِهَذِهِ
الْقَلَمَةِ دَهَالِيزَهَا الَّتِي أَقَامَهَا رِيكْلِسُ ، وَكُنْتُ أَشَاهِدُ طَوَائِفَ مِنَ الْهَيْتَانِ فِي أَزْيَاءِ
يُونَانِيَّةٍ بِشَخْصُونَ الْيُونَانِ فِي أَطْوَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ تَشْخِصًا يَقْرُبُ مِنَ الْفِطْرَةِ ، وَيَتَكَلَّمُونَ
بِلُغَتِهِمْ وَيَمْتَلِكُونَ فِي تَرْتِيلِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ غَدُوهُمْ فِي مَرَاثِيهِ بِعِيهِ وَمُونِجِي وَفَالِيزِ ،
فَاسْتَقْرَبْتُ مَا رَأَيْتُ مَعَ قَلَّةِ اسْتِقْرَابِ الْحَالِمِ ، وَأَقْسَمْتُ بِأَيْدِيهِ بِرُومَا خُوسَ لَا أَكْنِهُنَّ
هَذَا السَّرَّ .

فَلَمَّا رَأَى صَاحِبِي شِدَّةَ وَلَمِي بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا رَأَيْتُهُ قَالَ لِي : إِنَّ الْأَمْرَ فِي غَايَةِ
السَّهُولَةِ : ذَلِكَ أَنَّنَا لَمَّا تَبَيَّنَ لَنَا بِالْإِخْتِيَارِ أَنَّ التَّارِيخَ فِي تَعْلِيمِهِ لِلْأَحْدَاثِ يَمُرُّ
بِأَذْهَانِهِمْ مَرُورَ الظِّلِّ غَيْرَ تَارِكٍ لَهُ أَثَارًا بَيْنَهُ اجْتِهَادًا فِي أَنْ يَجْعَلَ لَهُ جِسْمًا مُخَلَّدَ فِيهِ
صُورَتُهُ ، فَتَرَى تَلَامِيذَنَا لَا يَقْتَصِرُونَ فِي تَعْلِيمِهِ عَلَى مُطَالَعَةِ مَا كَانَ فِي الْعُصُورِ الْخَالِيَةِ ،
بَلْ هُمْ يَعِيشُونَ فِي تِلْكَ الْعُصُورِ ، فَقُلْتُ لَهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ جُمْهُورِيَّتُكُمْ قَدْ بَلَغَتْ مِنَ
الثَّرْوَةِ غَايَتَهَا حَتَّى تَقُومَ بِتَفَقَّاتِ هَذِهِ الْمَعَاهِدِ ، فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّهَا غَنِيَّةٌ لِمَهَارَتِهَا فِي طَرِيقِ
الْكَسْبِ وَلِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُدَبِّرُ تَفَقَّاتَهَا بِنَفْسِهَا ، عَلَى أَنَّي أَرْجُو أَنْ لَا تُجَدُّ بِمَا تَرَاهُ ،
فَإِنَّ مَا تَنْظُرُهُ بَدَلًا لِلْإِلَالِ وَإِسْرَافًا فِيهِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْبِيرٌ لَهُ وَتَوْفِيرٌ ، وَلَوْ صَحَّ مَا تَسْمَعُهُ
عَنْ أَوْرُبَةِ الْقَدِيمَةِ لَكَانَ مَا تَتَفَقَّهُ أُمَمَهَا عَلَى حُكُومَاتِهَا فِي جَانِبِ التَّبْذِيرِ ، وَمَا تَتَفَقَّهُ
عَلَى التَّعْلِيمِ الْعَامِّ فِي طَرَفِ التَّقْوِيرِ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَنُؤْمَرُ نَا تَجْرِي عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ،

(١) ريكليس أحد رجال حكومة أئينة الأقدمين (٣) و(٤) و(٥) بيرة ومونجي وقالب كلها مدن

يونانية فيها مرافي . (٢) مرافي جمع مراف وهو الميثاء .

فَحُكْمُنَا لَا تُكَلِّفُنَا أَوْ لَا تَكَادُ تُكَلِّفُنَا شَيْئًا وَنُنْفِقُ كُلَّ أَرْزَاقِنَا عَلَى مَدَارِسِنَا، فَكَانَ لَنَا
بِالسَّيْرِ عَلَى هَذَا السَّنَنِ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ التَّجَارَةِ صَفْقَةً رَاجِحَةً، وَلَهُ طَرِيقَتُنَا
فِي التَّرْبِيَةِ ! فَلَمَّا يَرَكْنَاهَا اسْتَقْبَلْنَا عَنِ اتِّخَاذِ جَيْشٍ دَائِمٍ وَكَهَنُوتٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَنْقَالِ
الَّتِي تُوقَعُ الْحُكُومَاتُ فِي مَهْوَاةِ الْفَاقَةِ وَتُؤَدِّيهَا إِلَى الْخُرَابِ .

هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي ضَلَّ عَنْهَا الْآنَ اسْمُهَا لَا تَقْصِدُ فِي تَرْبِيَةِ عُقُولِ أَبْنَائِهَا وَتَقْوِيمِ
طَبَاعِهِمْ إِلَى إِعْدَادِهِمْ لِأَنْ يَتَّبِعُوا فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ نِظَامًا مُقَرَّرًا كَأَنَّهَا مَا كَانَ ، بَلْ قَدْ
عَقَدَتِ النِّيَّةَ عَلَى أَنْ تُقْبَلَ مَا يَنْجُ مِنَ التَّرْبِيَةِ الْحُرَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ عَلَى نَوَامِيسِ الْكُونِ
وَأَصُولِ الْعِلْمِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، فَبَعَثْنَا إِقْدَامَهَا عَلَى أَنْ تَعْمِدَ مُسْتَقْبَلِ بِلَادِهَا إِلَى مَعَارِفِ
الْأَجْيَالِ الْجَدِيدَةِ وَعُلُومِهِمْ ، فَهِيَ تَعْتَرِ الْمَدْرَسَةَ أُمَةً فِي سَبِيلِ نَشْأَتِهَا لَهَا قَوَائِنُهَا كَمَا
أَنَّ لِلْحُكُومَةِ قَوَائِنُهَا ، وَتَرَى تِلْكَ الْقَوَائِنَ كَأَنَّهَا مُقَدَّمَةٌ لِهَذِهِ ، وَتَبْكُرُ تَتْلِمُ التَّلَامِيزَ
مُمَارَسَةً مَا يَتَحَلَّى بِهِ الرِّجَالُ مِنَ الْفَضَائِلِ الْقَوْمِيَّةِ .

لَيْسَ لِلْعُلَمَاءِ الْمَدْرَسَةِ عَلَى التَّلَامِيزِ أَذْنَى سَبِيلٍ إِلَى التَّأْدِيبِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
عَلَيْهَا بِمَا يَقْتَرِفُونَهُ ، فَالْمُخَالِفُونَ يُحَاكُّونَ إِلَى عَهْدَةٍ يَنْتَخِبُ أَعْضَاؤُهَا مِنْ إِخْوَانِهِمْ
لِلدِّعَةِ مَعْلُومَةٍ ، وَمِنْ مَصْلَحَةِ هَؤُلَاءِ الْأَعْضَاءِ أَنْ يَدُلُّوا فِي أَحْكَامِهِمْ وَأَنْ لَا يُطِيعُوا
فِيهَا دَوَاعِيَ الْمَرِي وَالْقَرَضِ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْأَعْيَادَ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ قَدْ يَسُودُ عَلَيْهِمْ
ضَرَرُهُ فِي الْحَالِ أَوْ فِي الْمَالِ ، وَيَقُومُ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ مُحَامِيَانِ أَحَدُهُمَا مِنْ جَانِبِ الْمُدْعَى
وَالثَّانِي مِنْ جَانِبِ الْمُدْعَى عَلَيْهِ فَيَبَيِّنَانِ لَهَا وَقَائِعَ الدَّعْوَى بِالرَّزَانَةِ وَالْوَقَارِ ، ثُمَّ

(١) الكهنة طائفة رجال الدين المسيحي . (٢) سلم عليه بكهنا نجا منه بذنبه .

(٣) يفترون يرتكبون .

يُصدرُ المحققونَ المتطوعونَ أحكامَهُمْ ، وَهِيَ وَاجِبَةُ الإِحْتِرَامِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَهَذَا يُحْكَمُ بِهِ مِنَ الْجَزَاءِ بِصِرٍّ — عَلَى كَوْنِهِ غَايَةً فِي الْخِفَةِ — شَدِيدَ الإِزْهَابِ وَالزَّجْرِ ، لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى لَوْمِ الْمُحْكُومِ عَلَيْهِ وَتَأْنِيهِهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ جَمِيعَهَا لَا مِنْ مُعَلِّمِهِ فَقَطْ .

يُقِيمُ الصَّبَايَا التَّائِبَاتُ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ فِي قِسْمٍ آخَرَ مِنْهَا غَيْرِ قِسْمِ الصَّبِيَّانِ ، وَلِكَيْنَ يَحْضُرْنَ مَعَهُمْ فِي غُرَفِ التَّعْلِيمِ بَعْضُ الدُّرُوسِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُلْقَى نَهَارًا .

قَالَ لِي الشَّيْخُ : إِنَّمَا نَعُولُ كَثِيرًا فِي طَرِيقَةِ تَرْبِيَتِنَا لِلنَّاشِئِينَ عَلَى مَا لِلنِّسَاءِ مِنَ التَّأثيرِ الْمَعْنَوِيِّ فِي النُّفُوسِ ، فَهِنَّ اللَّائِي نَعْتَدُ إِلَيْنَّ بِتَوَزِيعِ الْحَوَازِي وَالْمُكَافَّاتِ عَلَى التَّلَامِيذِ ، فَتَرَى الْمَهْرَةَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الرِّيَاضَاتِ الْبَدَنِيَّةِ يَحْتَرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَهُنَّ فِي سَاحَتِهَا بِبَعْضِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ الْبَاسِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْمُسْتَعِدِّينَ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ يَكُونُوا خُطَبَاءَ الْمُسْتَقْبَلِ يَمْتَلِئُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَى مَنبَرِ الْمَدْرَسَةِ وَيُثِيرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي مِيدَانِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَغَةِ حَرْبًا عَوَانًا ، كُلُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ إِرْضَائِهِمْ وَهَيْجِ إِعْجَازِهِمْ ، وَلَمَّا كَانَ الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ صَائِغَاتُ الرَّأْيِ سَيَدَاتُ الْحُكْمِ فِي مَوَادِّ الْفُنُونِ كَانَ مُعَلِّمُوا الْمَدْرَسَةِ يَطْلُبُ أَنْفُسَهُمْ بِالرُّكُونِ إِلَى رَأْيِهِمْ فِي امْتِحَانِ الشَّعْرِ وَالْمُوسِيقَى وَالتَّصْوِيرِ ، فَإِذَا حُصِرَتْ مُحْكَمَاتُ الذَّوْقِ أَعْلَنَ حِسَانُ الْأَعْمَالِ وَنَوَهْنَ بِقُدْرَتِهَا وَتَوَجَّهْنَ تَاجَ الشَّرَفِ وَالْفَخَارِ ، كَذَلِكَ يَتَادُ أَحَدَانَا أَنَّ يَسْتَشِيرُوا النِّسَاءَ وَيَسْتَشْدُوا بِأَرَائِهِنَّ وَيَلْتَمِسُوا تَصْدِيقَ وَجْدَانِهِنَّ لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ فِيمَا يُبْدِيهِ لَهُمْ مَنْ رَفَعَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ دَلَائِلِ اسْتِحْسَانِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بِتَلَقُّيْهَا بِالِاتِّسَامِ وَالْبَشَاشَةِ

وَيَشْؤُنَ عَلَى أَنْ يَتَّبِعُوا عِيُونَ رَبَّاتِ الْجَمَالِ مَرَايَا تَمَثَّلُ لَهُمْ فِيهَا الْفُرُوضُ الَّتِي
كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا .

لَا يَزَالُ صَدَى الْكَلِمَاتِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي سَمِعْتَهَا مِنْ ذَلِكَ الشَّيْخِ يَرِنُ فِي أُذُنِي ،
إِذْ قَالَ لِي فِي نَهَايَةِ حَدِيثِهِ : «لَوْ طَالَ زَمَنُ مَكْنُكَ بَيْنَنَا لَشَهِدْتَ مِنْ مُسْتَحْدِنَاتِنَا
مَا لَا أَشْكُ فِي أَنَّهُ كَانَ يَبْعَثُ فِي قَسِكَ رَوَاعِي الدَّهْشِ وَالْعَجَبِ ، فَحَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ
كَيْفَ أَنْتَا قَطَعْنَا مَا كَانَ يَرْبُطُنَا بِمَا ضَبْنَا مِنْ قِيُودِ الْمَلِّ وَالْبُؤْسِ وَالْإِسْتِعْبَادِ الَّتِي
كَانَتْ كَالْتَلْجِ جُحُودًا وَبُرُودَةً وَفَيًْا لِحَرَارَةِ الْحَيَاةِ ، وَأَنْ تَعْرِفَ أَنَّ الْأُمَمَ الْحُرَّةَ إِنَّمَا
تَنْشَأُ بِرَجَالِهَا الْأَحْرَارِ ، وَأَنَّ آبَاءَنَا لَمْ يُحْطِنُوا أَنْ التَّمَسُّوا فِي وَجْدَانِ كُلِّ إِنْسَانٍ أَقْوَى
نَاصِرٍ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ ، لِإِعْتِقَادِهِمْ أَنَّ أَحْسَنَ الْحُكُومَاتِ أَقْلُهَا وَجُودًا ، فَتَرَاهُمْ قَدْ
فَضَّلُوا أَنْ يَتَّقِشُوا فِي نُفُوسِ الْأَحْدَاثِ وَجِدَانَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ الَّذِي لَا تُغَيِّرُهُ الْحَوَادِثُ
وَلَا تَمَحُوهُ الْكَوَارِثُ عَلَى أَنْ يَدُونُوا لَهُمْ قَانُونًا نِظَامِيًّا فِي كِتَابٍ رُبَّمَا أَنْ رِيَّاحَ الْفِتَنِ
وَعَوَاصِفَ الثُّورَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ كَانَتْ مَرْقَتْهُ مِنْ زَمَنِ بَعِيدٍ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الْحُكُومَةَ
عِنْدَنَا لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي تُدِيرُ الْمَدْرَسَةَ بَلَى الْمَدْرَسَةُ هِيَ الَّتِي تُوجِدُهَا وَتَنْشِئُهَا ^(١) .

(١) ما أبدع هذا النظام لولا ما فيه من الإشارة الى امكان الاستفاء عن الهداية الدينية بتقش وجدان
العدل والحق في نفوس الأحداث ، فانه لا سبيل الى معرفة العدل والحق بدون هذه الهداية ، ولعل له عذرا
في أعمال رجال الكهنوت في بلاده ، ولولا دعوته الى قطع كل صلة بالماسي والبهمة بمستقبل البلاد الى
الأجيال الجديدة وعلومهم ، لأن علوم الانسان ومعارفه في جميع الأجيال سلسلة متصلة الحلقات لا يصح
فصل بعضها عن بعض ولا يستغنى بعضها عن بعض ، ولولا ما فيه من جمع البين والبات في أماكن الدروس ،
لما يجري اليه من الفتنة والفساد كما علمت قبلا ، على أن هذا النظام انما هو أمانى وأضغاث أحلام «ان الأمانى
والأحلام تضليل» المترجم .

الشذرة الثامنة

تَجَلَّى الْمَسْبِكُ فِي الْعَمَلِ

زُرْتُ بِالْأَمْسِ أَنَا وَإِمِيلُ وَ«لَوْلَا» مَسْبِكُ قَصْدِيرٍ فِي بَانْزَاسٍ وَإِقْعَا عَلَى
صِفَافِ خَلِيجِ الْجَبَلِ ، وَلَسْتُ أَقْضِي الْعَجَبَ مِنْ مُنْعَطِفِ هَذَا الْخَلِيجِ الَّذِي كَانَهُ
فِي عِظَمِهِ وَجَمَالِهِ صَدْرُ بَيْتِسَ ^(١) أَحَاطَتْ بِهِ السَّكَّةُ الْحَدِيدِيَّةُ فَجَعَلَتْ لَهُ مِنْ شَرِيطَتِهَا
قِلَادَةً . يُوجَدُ الْمَسْبِكُ تَجَاهَ الْخَلِيجِ وَيَتَأَلَّفُ بِنَاوُهُ مِنْ أَمَاكِنَ قَدِيمَةٍ ، تَقُومُ عَلَى أَعْمَدَةٍ
مِنَ الْخَشَبِ يُغَطِّيهَا سَقْفٌ مِنَ الْبَلَاطِ الْأَسْوَدِ ، لَا يَتَرَدَّدُ النَّظَرُ إِلَيْهَا فِي أَنْ يَحْسِبَهَا
سَقَائِفَ ، لِانْتِفَاضِهَا وَانْفِرَاجِهَا لِلرَّيَاحِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ .

رَأَيْتُ فِي إِحْدَى السَّقَائِفِ أَكْوَامًا مِنْ تُرَابٍ أَسْمَرَ يُسَمَّى بِمَعْدِنِ الْحَجَرِ ، جُمِعَتْ
فِيهَا وَوُزَعَتْ عَلَى غَيْرِ نِظَامٍ ، وَتَنْحَصِرُ أَعْمَالُ الْمَسْبِكِ فِي إِحَالَةِ هَذَا التُّرَابِ الْأَدْنَى ^(٢)
إِلَى مَعْدِنٍ يَطْلُبُهُ التُّجَّارُ كَثِيرًا .

كَانَتْ زِيَارَتُنَا لِلْمَسْبِكِ فِي نَحْوِ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْمَسَاءِ أَيْ بَعْدَ غُرُوبِ
الشَّمْسِ بَرَزَ طَوِيلٌ فِي لَيْلَةٍ ظَلَمَاءَ كَانَ يَتَخَلَّلُ ظَلَامَهَا بَصِيصُ نَارِ الْأَقْرَانِ الَّتِي
يُنْبَتُ بِالْأَجْرِ وَجُعِلَ لِكُلِّ مِنْهَا بَابٌ حَدِيدِيٌّ فِي وَسْطِهِ ثَقْبٌ مُسْتَدِيرٌ كَأَنَّهُ حَلَقَةٌ ^(٣)
مِنْ نَارٍ .

وَبَعْدَ مُكَابَدَتِهِ مَحْنًا مُخْتَلِفَةً يَتَجَرَّدُ مِمَّا كَانَ مُتَمَرِّجًا بِهِ مِنَ النُّوَادِ ^(٤)
الْمُكَدَّرَةِ لِصَفَائِهِ ، وَهِيَ الْحَصَا وَالْكِبْرِيتُ وَالنُّعَاسُ ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ حَانَتْ سَاعَةٌ صَبِيحِ

(١) بيتس جنية من جنات أساطير اليونان . (٢) الأدنى المائل إلى السواد . (٣) الأجر

الذي يبنى به . (٤) يهمر يذاب . (٥) نحنا جمع محبة وهي هنا الصفة والتلخيص بالنار .

وَهِيَ السَّاعَةُ الْمَشْهُودَةُ : يَخْرُجُ هَذَا الْمَعْدِنُ الثَّقِيلُ الصَّابِي مِنْ ثَقَبٍ فِي أَسْفَلِ
الْقُرْنِ وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْحَرَارَةِ دَرَجَةَ الْبَيَاضِ وَيَسْقُطُ فِي حَاسِيَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ الْمَضْبُوبِ ،
فَيَذْكُرُ النَّاطِلُ سَاعَةً بِاسْتِدَارَةِ سَطْحِهِ وَلَمَعَانِهِ الْقَمَرِ فِي إِحْدَى لَيَالِي الصَّيْفِ أَيْضَ
سَاطِعًا .

إِذَا صَبَّ الْقَصْدِيرُ فِي الْحَاسِيَةِ آخِرَ مَرَّةٍ (وَلَا بُدَّ مِنْ إِتَابَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ)
أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ أَغْصَانٌ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ خُصُوصًا أَغْصَانُ التَّفَاحِ فَتَفُورُهُ وَتَسْبِجُهُ ،
وَوَيْلٌ جِنْدٌ لِلْعُمَالِ وَالنَّاطِلِينَ الَّذِينَ لَا يُبَادِرُونَ بِالْإِتِمَادِ عَنْهُ لِيَتَّقُوا عَوَادِي هَذَا
الْمَعْدِنِ الْغَضْبَانِ ، ذَلِكَ أَنَّ فَحَاقِيعَ الْهَوَاءِ الَّتِي تَنْفِصِلُ مِنْهُ تَرْتَفِعُ مَعَهَا قَطِرَاتُ
مُحَرَّقةٍ تَسْمَعُ لَهَا تَشْدِيدًا تَنْجِسُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ أَنْجَاسَ الشَّرِّ مِنْ بَاقَةِ نَارِ الزَّيْتَةِ .

لَا جَرَمَ أَنَّ «إِمِيلَ» وَ«لُولا» لَمْ يَذْكُرَا السَّرَّ الْكِيمَاوِيَّ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْإِسْتِخَالَاتِ الَّتِي تَعَاوَرَتْ مَعْدِنَ الْحَجَرِ قَبْلَ صَيْرُورَتِهِ قَصْدِيرًا ، بَلْ رُبَّمَا لَمْ يَحْصُلْ
فِي ذِهْنِهِمَا مِنْ مَجْمُوعِ مَا حَصَلَ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَعْنَى فِي غَايَةِ الْإِبْهَامِ ، وَلَكِنْ قَدْ
شَاقَهُمَا مِنْ هَذَا الْمَنْظَرِ جِدُّهُ ، فَإِنَّهُمَا رَجَوَانِي أَنْ أَخْذُمَا إِلَى الْمَسِيكِ مَرَّةً أُخْرَى .

أَرَى أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ قَدْ أَقْرَبُوا فِي التَّفَرُّيقِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَبَيْنَ
مَا يَرْبِطُهُ بِالصَّنَاعَةِ مِنَ الرُّوَاطِيطِ ، وَمَعَ كَوْنِي لَا أَنْكَرُ أَنَّ مَا فِي الْمَدَارِسِ مِنَ
الْمَعَامِلِ الْكِيمَاوِيَّةِ وَالْمَجْمُوعَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَالْدَّرُوسِ الْعَامَّةِ هُوَ مِنَ الْمُسَاعَدَاتِ

(١) تفتيح جمع قاعة وهي قاعة الماء .

(٢) التشنج : صوت حركة الدروع والقرطاس والتوب الجديد .

(٣) تجبس : تجبر .

الْمُعَلِّمَى عَلَى التَّحْلِيمِ، وَأَقْصِدُ قَصْدًا أَكِيدُ أَنْ أَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى تَعْلِيمِ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِهِ،
تَرَانِي أَفْضَلُ أَنْ أَخْتَلِفَ بِهِ إِلَى مَعْهَدٍ آخَرٍ تَمَثَّلُ فِيهِ أَمَامَهُ الْأَعْمَالُ وَتَتَرَاءَى لَهُ
الْوَقَائِعُ .

زُرْنَا مَعًا مَتَحَفًا مِنْ مَتَاحِفِ الدَّفَاقِينِ الْأَثَرِيَّةِ فِي بَاتِرَاسٍ وَهِيَ أَسَتْ كَثِيرَةٌ
فِي بِلَادِ كُورُنَوَايَ وَالْكَثِيرُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ الْمَعَادِنُ الْمُفِيدَةُ كَالرَّصَاسِ وَالْقَصْدِيرِ
وَالنَّحَاسِ وَغَيْرَهَا مِنْ الْمَعَادِنِ الْحَجَرِيَّةِ الْغَرِيبَةِ، فَلَمْ يَلَفِتْ ذَهْنَ « إِمِيل »
مَا فِي خَزَائِنِ هَذَا الْمَتَحَفِ مِنْ قِطْعِ هَذِهِ الدَّفَاقِينِ الثَّمَرِيَّةِ إِلَّا قَلِيلًا، وَأَمَّا « دُولُورِسُ »
فَأَخْصَ مَا اسْتَرَعَى نَظَرَهَا مَا يُوجَدُ فِيهَا مِنْ فِلْذِ الْبُلُورِ وَبَعْضِ الْحِجَارَةِ الَّتِي لَوْ تَنَاوَلَتْهَا
يَدُ الصَّنَاعَةِ لَصَارَتْ مِنْ مَوَادِّ الزَّيْنَةِ الْجَمِيلَةِ .

ثُمَّ أَخَذْنَا طَرِيقَنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَتَحَفٍ كَبِيرٍ يَمْتَدُّ مَكْشُوفًا عَلَى ضِفَافِ الدُّحِيطِ
بَيْنَ جِبَالٍ مِنَ الصَّوَانِ بَسَّجَتْهَا يَدُ الْإِنْسَانِ فَكَانَ مَرَاهُ فِي نَظَرِ الْغُلَّامِينَ أَحْسَنَ مِنْ
جَمِيعِ مَتَاحِفِ الدُّنْيَا .

فَفَرَّقُوا عِنْدَ الطِّفْلِ بَيْنَ أَنْ يَرَى مِنْ وَرَاءِ الرُّجَاجِ مَعَادِنَ حَجَرِيَّةٍ رُتِبَتْ فِي رِوَاقٍ
تَرْتِيبًا خَالِيبًا مِنْ دَوَاعِي التَّأَثُّرِ وَيَنْ أَنْ تَمَثَّلَ أَمَامَهُ الصُّحُورُ فِي وَضْعِهَا الطَّبِيعِيِّ،
وَيُسَاهِدَ الْأَرْضِيْنَ وَقَدْ شَاهَ وَجْهَهَا وَانْقَلَبَتْ ظَهَرًا لِبَطْنٍ، وَكُلَّ الْبَلَاطِ الْأَسْوَدِ
وَالرَّخَامِ السَّاقِي فِي جَسَامَتِهَا الْمُرْوَعَةِ وَقَدْ تَنَاوَبَهَا الْمِصْدَعُ وَبَارُودُ الْمِدْفَعِ فَأَوْسَعَاها

(١) فلذ جمع قلعة وهي القطعة . (٢) المنحت محل تحت الحجارة أى قطعها من الجبل وتسويتها .

(٣) بسجتها خربتها . (٤) الساقى : العالى الشاخ .

(٥) المصدع بكسر الميم هو المنقوص وهو أداة من أدوات النحات يشق بها الحجر .

صَدَقًا وَأَشْبَعًا كَثَرًا، وَقَدْ هَاجَ شَوْقُ «إِمِيلَ» مَنْظَرَ أَعْمَالِ النَّحْتِ هَيَّاجًا شَدِيدًا فَطَفِقَ يُخَاطِبُ النَّحَّائِينَ، وَلَا يَدَعُ قَالِإِنْسَانٌ فِي مِثْلِهِ لَا يَسْتَنكِفُ أَنْ يُخَاطَبَ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ لِأَنَّ قَلْبَهُ حَيْنَزِدٌ لَا يَكُونُ أَفْسَدُهُ الْكِبَرُ، وَقَدْ اسْتَفَادَ مِنْ مُحَاوَرَتِهِ مَعَهُمْ، فَلَمْ تَذْهَبْ عَلَيْهِ عَيْنًا. إِنَّ قَتَى إِيقُوسِيَّا اسْمُهُ «هُوجُ مِيلَارُ» صَارَ مِنْ أَشْهُرِ الْعُلَمَاءِ فِي بَرِيطَانِيَةِ الْمُطْعَمِ بِبَرَكَتِ تَكْسِيرِهِ الْأَنْجَارَ وَنَحْتَهَا مِنْ مَنَحَتِ حَجَرِ رَمْلٍ قَدِيمٍ، وَاسْتَوَلَى اسْتِيلَاءُ الْمَالِكِ عَلَى إِفْلِيمَ ذَلِكَ الْمَنَحَتِ الْحَافِلِ بِالدَّائِنِ الْأَثَرِيَّةِ وَأَصْبَحَ اسْمُهُ كَأَنَّهُ عَلِمَ لَهُ.

رُبَّمَا اخْتَذَى «إِمِيلُ» مِثَالَ هَذَا الْعَالِمِ إِذَا زُرْنَا مَعًا إِفْلِيمَ «دِيُفُونَسَارِ» فَاقْتَضَصَ الْمَطْرُقَةَ وَحَلَّ الْمِنَحَاتِ^(١)، فَإِنِّي أَرَاهُ مَدْفُوعًا عَلَى ذَلِكَ بِسَائِقِي الطَّبْعِ، لِأَنَّهُ يَسْتَبْقَى كَثِيرٌ مِنْ أَتْرَابِهِ أَنْ يَجِئَ عَلَى مَا يَلَاقِيهِ مِنَ الْعَقَبَاتِ فَيُدْمِرُهُ وَيُزِيلُهُ، وَلِأَنَّ الدَّائِنِ الْأَثَرِيَّةَ الَّتِي يَسْتَخْلِصُهَا الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ مِنَ الصَّخْرَةِ أَعْلَى فِي نَظَرِهِ كَثِيرًا مِمَّا يَجِدُهُ مِنْهَا مُرْتَبًا فِي الْمَنَاحِفِ، ذَلِكَ لِأَنَّ آثَارَ الْأَجْسَامِ الْمُضْوِيَّةِ تَكُونُ غَالِبًا مِنَ الْإِخْتِيَاءِ فِي بَاطِنِ الْحَجَرِ يَحِثُّ إِنَّهُ لَا بُدَّ قَبْلَ اسْتِخْلَاصِهَا مِنْ تَمْيِيزِهَا مِنْهُ، بَلْ رُبَّمَا صَحَّ لِي أَنْ أَقُولَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَحْمِينِ وُجُودِهَا تَمَّا يَدُو مِنْ تَحْتِ غِطَائِهَا الْجَحَافِي مِنْ سِمَةٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا أَوْ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِهَا، ثُمَّ إِنَّ الصَّخْرَةَ تَارَةً تَكُونُ صُلْبَةً فَتَقَاوِمُ مَنَحَاتِ النَّاحِتِ وَتَحْتَمِلُهُ، وَطَوْرًا تَكُونُ هَشَّةً فَتَلَاثِي^(٢) وَتَفْتَقُ،

(١) اخذ المآل اقتدى به .

(٢) اعتضد الشيء أخذ في عضده وخصه واستعان به .

(٣) المطرقة آلة من حديد يضرب بها الحديد ونحوه كالجر .

(٤) المنحآت آلة النحت . (٥) هشة : رخوة لينة .

وَفِي كُلِّهَا الْحَالَتَيْنِ يَهْدُمُ الْخَرْقُ وَالْخَطُّ بَقَرَةً وَاحِدَةً عَمَلِ النَّهْرِ فِي قُرُونٍ كَامِلَةٍ،
وَمَا أَكْثَرَ مَا يَتَعَلَّمُ الطِّفْلُ فِي هَذَا الْجِهَادِ! نَعَمْ إِنَّ «إِمِيل» سَيَضِلُّ غَيْرَ مَرَّةٍ
وَسَيَتَفَقُّ لَهُ أَنْ يَحْسُرَ لِقَطَائِهِ أَوْ يَعْيِبَهَا عَلَى اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ حَصَلَ عَلَيْهَا سَالِمَةٌ مِنْ كُلِّ
نَقِصٍ، وَلَكِنْ لَا شَيْءَ فِي هَذَا فَإِنَّ مِثْلَهُ مِنَ الْيَافِيعِينَ إِذَا غَلَبَتْهُ الْعَقَبَاتُ الْمَادِيَّةُ
وَجِدَ عَلَيْهَا وَبَعَثَهُ ذَلِكَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ لِنَفْسِهِ مِنْهَا فَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَطْفُرَ بِهَا .

كَانَ مُشَاهَدَةُ الْمَنَاحِثِ وَاسِطَةً يَنْقَلُ بِهَا الذَّهْنُ مِنْ عِلْمِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ
إِلَى فَنِّ الْعِمَارَةِ، فَسَيَذْكُرُ «إِمِيلُ» إِذَا عَرَضَ لَهُ فِي طَرِيقِهِ مَا فِي الْمُدُنِ مِنَ
الْأَبْنِيَةِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ حِجَارَتَهَا تُخْتَمُ مِنْ قَاعِ الْبَحَارِ الْقَدِيمَةِ، وَإِذَا رَأَى الْمَعَابِدَ
وَالْقُصُورَ أَحْضَرَ نَوْعَ حِجَارَتِهَا فِي ذِهْنِهِ الصَّخْرَةِ الَّتِي تُخْتَمُ مِنْهَا وَالْمَخْلُوقَاتِ
الْمُضْوِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي صَارَتْ هَذِهِ الصَّخْرَةُ رَمْسًا لَهَا .

الْعِلْمُ الَّذِي يَحْصُلُهُ الْإِنْسَانُ بِعَرَقِ جَبِينِهِ رُبَّمَا لَا يَكُونُ وَاسِعًا وَلَكِنَّهُ يَكُونُ
مَتِينًا رَاسِخًا ، خُذْ لَدَاكَ مِثْلًا الزَّهْرَةَ الَّتِي تُجَنِّي مِنْ غُورٍ بَعْدَ اقْتِحَامِ مَا كَانَ دُونَهَا
مِنَ الْعَقَبَاتِ يَكُونُ لَهَا فِي ذَاكِرَةِ جَانِبِهَا آثَارُ أَقْوَى مِمَّا يَكُونُ لِزَهْرَةٍ رَأَاهَا
يَلَا عَنَاءٍ مُجَهَّزَةً مُحْفَوظَةً فِي إِحْدَى صُحُفِ الْمَجْمُوعَاتِ النَّبَاتِيَّةِ ، وَمَا يَجْمَعُهُ الْمَرْءُ
بِنَفْسِهِ مِنَ الْمَحَارِّ وَالصَّدَفِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ يُدْرِبُ بَصَرَهُ عَلَى إِدْرَاكِ مَا يُمَيِّزُهُ مِنْ
صِفَاتِهِ الظَّاهِرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يُدْرِبُهُ عَلَى ذَلِكَ مَا يُوْجَدُ مِنْهُ مُرْتَبًا وَمُعْتَوًى فِي رِوَاقِ
مَعْدَلِهِ ، فَالْبَحْثُ يَكْسِبُ الْبَصَرَ وَالْيَدَ دُرَّةً وَمِرَانَةً .

أَنَا لَا أَشْكُ فِي أَنَّ التَّجَارِبَ الْكِيمِيَاءِيَّةَ وَالطَّبِيعِيَّةَ مُفِيدَةٌ لِمَنْ مُنَحُوا الْمِيلَ إِلَى
 الْعِلْمِ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ عَامَّةَ الْأَطْفَالِ قَدْ يُدُون مِنَ الْإِزْتِياجِ إِلَى الْعِلْمِ مَعْمُولًا بِهِ
 فِي الصَّنَاعَةِ وَمِنَ الْأَفْعَالِ بِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا يُدُونُهُ لِنَثْلِ هَذِهِ
 التَّجَارِبِ، وَقَلَمًا يُوجَدُ مَعْمَلٌ مِنَ الْمَعَامِلِ الْكَبِيرَةِ إِلَّا وَهُوَ أَيْضًا مَدْرَسَةٌ كُبْرَى
 لِلْعَقْلِ، فَأَبْهَرُ مَا يَرَى فِيهِ مِنْ قُوَى الطَّبِيعَةِ مُقَدِّدَةٌ وَمُطَلَقَةٌ «وَمِنْ كُلِّ» مُؤَلِّفٌ
 مِنْ مَجَلَّاتٍ وَأَسَانِيْدٍ تَسْحَقُ الْحَجَرَ بِحَقِّهَا، وَتَمْضَغُ الْحَدِيدَ مَضْغًا، وَتَقَطِّعُ الْخَشَبَ
 قَطْعًا، وَأَلَا فِ مَوْلَفَةٍ مِنْ أَنْبَاضِ الْبُخَارِ الَّذِي يُحَرِّكُ جِسْمَ هَذَا الْكُلِّ، وَإِنْسَانٍ
 اسْتَبَدَلَ بِأَعْضَائِهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ الصُّلْبِيَّةَ فِي كَدِّهِ وَكَدِّهِ، فَحَلَّتْ مَحَلَّهُ وَجَرَتْ عَلَى
 مُقْتَضَى إِرَادَتِهِ، وَقَامَ هُوَ عَلَيْهَا بِإِلَاحِظٍ مُجَاهِدَاتِهَا الْعَجِيبَةِ بِعَيْنِ قَرِيرَةٍ مَا كَانَتْ، نَعَمْ
 إِنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ لَا يَأْخُذُ أَوَّلَ الْأَمْرِ إِلَّا يَبْصُرُ الْيَافِيعَ وَلَكِنَّهُ مَتَى كَانَ فِيهِ شَيْءٌ
 مِنَ الشُّوقِ إِلَى الْعِلْمِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سَبَبِ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ،
 وَعَمَّا لِلْمَوَادِّ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ مِنَ التَّأَثُّرِ الْمُتَنَاقِيبِ، وَبِالْجُمْلَةِ عَنْ سِرِّ الطَّرِيقِ
 الَّتِي تُحِيلُ الْمَادَّةَ الْفِطْرِيَّةَ إِلَى مُحْصُولَاتٍ صِنَاعِيَّةٍ .

لَيْسَ أَحَقُّ الْأَشْيَاءِ أَقْلَهَا إِثَارَةً لِلشُّوقِ فِي صُنْعِهِ دَائِمًا، وَلَا مُلَاحَظَتُهُ أَقْلَ
 جَدْوَى فِي التَّعْلِيمِ، فَغَلْبَةُ الْكِبَرِيَّةِ وَالْدَّبُومِ وَالشَّمْعَةِ — كَمَا يَنْبَغُ فَارَادَايُ حَقِّ
 الْبَيَّانِ — لَهَا يِعْلَمِي الطَّبِيعَةِ وَالْكِيمِيَاءِ تَعْلَقُ بِدِرْكِهِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ وَبِعَرَفِهِ
 لِأَوَّلِ فَنَظَرِهِ .

(١) الانباض جمع نبض وهو حركة القلب واستعير هنا لحركة البخار في المكبس لمشابهتها لحركة القلب .

(٢) فاراداي عالم إنجليزي من أشهر علماء الطبيعة اشتهر بتأليفه في الكهرباء . ولد سنة ١٧٩٤ ومات

أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ تَحْصِيلَ عِلْمٍ عَدَّةٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ وَالْإِخْتِصَاصِ بِهِ يَقْتَضِي أَنَّ يَعْيشَ الْإِنْسَانُ أَضْعَافَ عُمُرِهِ، وَلِذَلِكَ لَا أَرْجُو مِنْ «إِمِيل» إِذَا رَأَى غَيْرَهُ يَسْتَغْلُ يَعْرِفُهُ أَنْ يُحِيطَ خُبْرًا بِأَسْرَارِ الْعَمَلِ فِيهَا، عَلَى أَنَّ الشُّبَّانَ أَقَلُّ حَاجَةً إِلَى الْوَقْتِ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِ، فَلَوْ أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى التَّعْلِيمِ أَحْسَنُوا فِي تَوْجِيهِهِ إِلَى غَايَتِهِ مَا شَكَّكَتُ قَطُّ فِي أَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي بَيْنَ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَالثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ يَتَعَلَّمُ فِي الْمَعَامِلِ شَيْئًا كَثِيرًا .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ إِنَّ لَدَيْنَا فِي جَمِيعِ الْمُدُنِ الْكُبْرَى بَلَّ وَفِي الْقُرَى كَثِيرًا مِنْ مَعَاهِدِ الْعَمَلِ إِنِّي لَوْ اخْتَلَفَ الطِّفْلُ إِلَيْهَا لِأَدْرَكَ بِالْيَقِينِ وَالْحِسِّ بَعْضَ قَوَائِنِ الْمَادَّةِ وَتَعَلَّمَ حُبَّ الْعَامِلِ وَتَعْظِيمَهُ، وَلَكَانَ أَقَلُّ فَائِدَةً لَهُ مِنْ ذَلِكَ مُلَاحَظَةُ طُرُقِ الصَّنَاعَةِ أَوْ الزَّرَاعَةِ إِنْ لَمْ يَبَاشِرْ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهَا بِيَدَيْهِ، وَتِلْكَ مَرِئَةٌ أُخْرَى لَهُ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَصِحُّ فِي نَظَرِ الْعَمَلِ أَنْ تُغْفَلَ هَذِهِ الْبَنَائِعُ الْمُتَدَفِّقَةُ لِلْعُرْفَانِ وَتُجَسَّسَ حُقُوقُهَا مِنَ الْعِنَايَةِ، وَتَكُونَ دِرَاسَةُ الْأَلْفَافِ فِي مَوْضُوعِ الْأَهْتَامِ وَالرَّعَايَةِ^(١).

الشذرة التاسعة

انْتَقَادُ تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْإِلَانِيَّةِ وَإِقْرَانِهِمْ كُتُبَهُمَا
تَنَاطَرْتُ مَعَ هَيْلَانَةٍ غَيْرِ مَرَّةٍ فِي ضَرُورَةِ تَعْلِيمِ «إِمِيل» تِلْكَ اللَّغَتَيْنِ وَإِقْرَانِهِ
مَا أَلَفَ فِيهِمَا مِنَ الْكُتُبِ، وَلَسْتُ ذَا كِرَاكَ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاطَرَاتِ إِلَّا مُلَخَّصَهَا،

(١) ما أبلغ هذا البيان في الحُضْ على تعليم الأحداث العلم في دور الصناعة ولعمري أنها لم تكن الطريقة
الحل لتعليم الكافة لا تراض قوسهم بأصول العلم لما فيها من قربة بالعمل ومشاهدة آثاره فيه . المبرمج

فَأَقُولُ : الْوَاجِبُ أَنْ يُرَبَّى كُلُّ طِفْلٍ تَرْبَةً مِنْ يَدَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَكَارِ الرِّجَالِ ، فَتِلْكَ هِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي يُفْضَلُ بِهَا عَامَّةُ النَّاسِ وَيَتَأَنَّى عَنْهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ حَقًّا عَلَى الْمُرَبِّي أَنْ يَعْرِفَ طَبْعَهُ وَيَحْتَمِلَ فِي ضُرُوبِ مَبْلِهِ وَيَحْجِزَ أَنْوَاعَ اسْتِعْدَادِهِ الْعَقْلِيِّ ، وَلَمَّا كَانَ الْفَضْلُ وَالْإِمْتِيَازُ يَحْصُلَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِكَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَيَتَأَلَّانِ بِطَرِيقٍ شَتَّى كَانَ أَوَّلَ فَرِضٍ عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَمِلَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ عَمَّا يَلَايُمُ طَبْعَهُ وَيُنَاسِبُ اسْتِعْدَادَهُ .

فَالَّذِي أَعْيَبُهُ فِي طَرِيقَةِ الْمُرَبِّينَ عِنْدَنَا هُوَ إِغْفَالُ مَا لِلنَّاشِئِينَ مِنْ الْقُوَى وَضُرُوبِ الْإِسْتِعْدَادِ الذَّائِنَةِ وَعَدَمُ اعْتِبَارِهَا فِي شَيْءٍ مِنَ التَّرْبَةِ ، ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى بَعْضَ النَّاشِئِينَ مَثَلًا قَدْ وَلِدَ رَحَالَةً لِيُضْرَبَ فِي الْأَرْضِ وَيَحُوبَ آفَاقُهَا ، وَأَخْصُ حَاجَةً لَهُ فِيمَا خُلِقَ لِأَجْلِهِ هِيَ مَعْرِفَةُ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ لِيَتَفَاهَمَ بِهَا مَعَ الْأَجَانِبِ فِي بِلَادِهِمْ ، فَيَبْدَأُ الْمُرَبُّونَ بِتَعْلِيمِهِ لُغَتَيْنِ مُهِمَّتَيْنِ انْقِطَعَ النَّخَاطِبُ بِهَمَا مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَتَرَى آخَرَ خُلِقَ مَبَالًا إِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ الْقُوَى الْمُحَرَّكَ وَقَوَائِنِ التَّوَازُنِ (المِخَانِيكَا) يُلْقُونَ بِهِ فِي بَحْرِ مِنَ الْكُتُبِ مَالَهُ مِنْ قَرَارٍ ، وَيَجِدُ نَائِمًا أَعْدَّ لِلتَّجَارَةِ وَرَأِيًا مُخَرَّجًا لِلزَّرَاعَةِ لَا يَرَاعِي مَا لِكُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْبَلِ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُ ، بَلْ يُبْعِثُ فِي حَقِّهِمَا مَا قَضَتْ بِهِ السَّادَةُ وَجَرَى عَلَيْهِ الْعُرْفُ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَدْرِي مَنْ يُرِيدُ الْإِسْتِهَارَ بِالْعِلْمِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ بَحْثِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ ثَمَانِي سِنِينَ ، كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُتَعَلِّمِي اللَّاتِينِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ مَنْ يُقْضَى عَلَيْهِمْ بَأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّمُوهُمَا فِي حَيَاتِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ مَتَى نَرَجِعُوا مِنَ الْمَدَارِسِ وَاشْتَغَلُوا بِمَصَالِحِهِمْ قَلَّ وَائِمُ الْحَقِّ أَنْ يَخْطُرَ بِأَلْهِمُ تَصَفُّحُ

كَتَابِ فَرَجِيلٍ أَوْ دِيُونَعِيمٍ وَالنَّظَرُ فِي مُحْفِهِمَا الْبَالِيَةِ الَّتِي قَضَوْا فِي مُطَالَعَتِهَا كَثِيرًا مِنْ سَاعَاتِ النَّصَبِ وَالسَّامَةِ ، وَلَسْتُ أَقْصِدُ يَقُولِي هَذَا تَجْرِيدَ آيَةٍ مَعْرِفَةٍ مِنْ مَعَارِفِ الْعَقْلِ كَأَنَّهُ مَا كَانَتْ مِنَ الْفَائِدَةِ مُطْلَقًا ، وَلَكِنْ لَا حَرَجَ عَلَى إِنْ ارْتَبْتُ فِي أَنَّ مَا يَحْصُرُهُ كَثِيرٌ مِنَ التَّلَامِيذِ مِنْ زَمَنِهِمْ فِي تَعَلُّمِ تَيْتِكَ الْاَثْنَيْنِ يُسَاوِيهِ مَا يَسُودُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَوَائِدِ بِتَعَلُّمِهِمَا .

أَنَا أَعْلَمُ كُلَّ مَا لِلْمُنْتَصِرِ لِمَا مِنْ وَجْهِهِ الْاِحْتِجَاجِ عَلَى ضُرُورَةِ تَعْلِيمِهِمَا ، فَلَهُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ مَعْرِفَتَهُمَا حَاسَةً سَادِسَةً لَنَا نُدْرِكُ بِوَسْطِطِهَا دَقَائِقَ آدَابٍ لِفُنْتَا ، وَإِنَّهُ لَا يَسْبَحُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ إِنْكَارُ مَا كَانَ لِمُطَالَعَةِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ الْمُؤَلَّفَةِ بِهِمَا مِنَ النَّائِمِ الْمُبَارِكِ فِي عُيُولِ النَّاشِئِينَ الَّذِينَ تَقَدَّلُوا بِلِيَانِ مَعَارِفِ الْأَقْدَمِينَ حَقَّ التَّقْدِيرِ ، وَإِنْ مُطَالَعَةَ هَذِهِ الْكُتُبِ تَحْلَصُنَا مِنْ شَوَاغِلِ وَقْتِنَا الْمَادِيَةِ ، وَتُعَارِضُ عَصْرَنَا — الَّذِي تَسَاوَتْ فِيهِ النَّاسُ وَانْمَحَتْ دَرَجَاتُ التَّفَاضُلِ بَيْنَهُمْ وَاشْتَغَلَ أَهْلُهُ بِالْحَقَائِقِ الثَّانِيَةِ دُونَ غَيْرِهَا — بِمُصَوِّرِ الْأَبْطَالِ وَمَا سَمَّا وَأَفَادَ مِنْ مُحْتَرَعَاتِ انْتِبَاهٍ وَتَسْتُرِ مَوَاضِعِ الضَّمِيفِ فِينَا بِحَبَابِ الْجَمَالِ الطَّاهِرِ بِدُونِ أَنْ تُفْسِرَ مِنْ طَبِيعَتِنَا شَيْئًا ، ثُمَّ إِنْ بَعْدَ أَهْلِ تِلْكَ الْعُصُورِ عَنَّا وَمَيَّا يَنْتَهَمُ لَنَا فِي الْأَخْلَاقِ وَالْعَوَائِدِ مِمَّا يُسَاعِدُنَا أَيْضًا عَلَى أَنْ نُبْصِرَ مِنْ خِلَالِ كُتُبِهِمِ الشَّعْرِيَّةَ ضِيَاءَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ الْمَطْلُوبِ .

(١) فَرَجِيلُ هُوَ شَاعِرٌ لَاتِينِيٌّ مِمَّنْ وَلَدَ سَنَةَ ٧٠ وَمَاتَ سَنَةَ ١٩ قَبْلَ الْمَسِيحِ .

(٢) عَمِيرُ هُوَ أَشْرَفُ شُعْرَاءِ الْيُونَانِ الْأَقْدَمِينَ لَا يَعْلَمُ مَكَانَ وِلَادَتِهِ وَلَا تَارِيخَهَا وَبَعْضُهُمْ عَرَبٌ اسْمُهُ

هَوَسَرُ وَيُكْتَبُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ هُكَا (Homera) .

وَفَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ حَافِلَةٌ بِالْأَنَاشِيدِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَنَارِبَهَا مَا تَرَاهُ فِي عَهْدِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَمِيلِ مِنْ احْتِقَارِ الْمُلُوكِ وَجَرِّ ذَيْلِ الْخِيَلِ عَلَيْهِمْ ، فَلَقَدْ كَفَتْ نَفْحَةً هَبَّتْ مِنْ رُومِيَّةٍ أَوْ مِنْ أَثِينَةِ فِي إِتَارَةِ بَنِيضِ السُّلْطَانِ الْمُطْلَقِ بَقُلُوبِنَا فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ ، فَإِنَّ حُكَّاءَ هَذَا الْقَرْنِ وَزُعمَاءَ الْفِتْنَةِ الْقَرْنِيَّةِ فِيهِ قَدْ اسْتَمَدُوا مِمَّا وَعَوْهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمَدْرَسِيَّةِ أَصْلَحَ الصُّورِ لِإِقْطَاطِ الْعُقُولِ ، وَبَتَّ رُوحَ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي النُّفُوسِ ، وَكَانَتْ خِيَالَاتِ الْغَايِرِينَ فِي ذَلِكَ الْجِهَادِ الَّذِي قَامَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ مِنَ الْبَلَاءِ مَا كَانَ لِلْأَحْيَاءِ أَنْفُسِهِمْ فَلَا تَقُلْ لِي بِي غِرَاقُوسَ وَبِرُوتُوسَ وَقَاتُونُ أَوْ تَيْفَا إِنْهُمْ قَدْ مَاتُوا ، بَلْ هُمْ أَحْيَاءُ يَعْبُوثُنَا عَلَى كِفَاحِنَا ، وَيُضَادُّونَنَا فِي جِهَادِنَا ، وَيُسْمِعُونَنَا مِنْ أَصْوَاتِهِمْ وَيُنْهَدُونَنَا مِنْ أَسَاحِمِ مَا يَقْوَى عِزِّمَتُنَا عَلَى السَّعْيِ وَرَاءَ الْحُرِّيَّةِ ، الَّتِي هِيَ غَايَةُ النُّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

أَنَا لَا أَتَارَعُ فِي أَنْ مَعْرِفَةَ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ قَدْ تَكُونُ مِنَ الرِّيَاضَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْمُفِيدَةِ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ : إِنَّ لِرِيَاضَةِ النَّفْسِ وَتَرْبِيَةِ الْعَقْلِ طُرُقًا شَتَّى ، وَإِنْ مِنَ الظَّلِيمِ الْفَاحِشِ قَصْرُ مَعْنَى التَّعْلِيمِ عَلَى فَرْجِ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلُومِ ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَالِمًا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ ، وَخَطِيئًا بِأَهْرِ الْبَيَانِ ، وَسِيَاسِيًّا حَصِيفَ الْجَنَانِ — وَفِي أَمْرِيكَ مَا يَشْهَدُ لِبَصَحَةِ ذَلِكَ — وَهُوَ لَمْ يَقْرَأْ فِي حَيَاتِهِ كُتُبَ « أَرِسْطُو »

- (١) البلاء : السبل . (٢) غرايوس حاكم روماني اشتهر في اسبانية ورزق ولدين صبيًا بالعراقيين وكان من قضاة الشعب . (٣) بروتوس أحد قتلة القيصر الروماني . (٤) وإنما قانون أوتيقا فهو خفيد قانون القديم وهو ضابط روماني كان من حزب يرمبلي وبعد أن شهد منه واحدة فرملا إلى أفريقيا وكل نفسه . (٥) أسام جمع أسوه وهي القدوة . (٦) أرسطو حكم يوناني مشهور .

وَلَا دِيمُوسِيَّيْنَ وَلَا شِيثِيرُونَ بِاللُّغَةِ الَّتِي أَلْفَتَ بِهَا ، ذَلِكَ أَنَّ مُرَاقَبَتَهُ بِنَفْسِهِ
لِلْأُمُورِ وَمُعَامَلَتَهُ لِلنَّاسِ وَاخْتِلَاطَهُ بِهِمْ وَدِرَاسَتَهُ لِأَدَابِ لُغَتِهِ وَاسْتِعْدَادَهُ الْفِطْرِيَّ
كَثِيرًا مَا تُغْنِيهِ عَنِ الزَّخَاوِفِ الْمَدْرَسِيَّةِ ، فَرَأَى هُوَ أَنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي تَخْتَفُّ بِالطِّفْلِ
وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ الذَّاتِيَّةِ هِيَ الْوَاجِبُ التَّعْوِيلُ عَلَيْهَا فِي تَحْدِيدِ
الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَنْبَغِي سُلُوكُهَا فِي تَرْبِيَتِهِ ، فَإِنَّ طُرُقَ التَّعَالِيمِ إِنَّمَا أُوجِدَتْ لِلْأَحْدَاثِ
وَلَمْ تُوجَدْ الْأَحْدَاثُ لَهَا .

لَمَّا أَعْلَمَ حَقَّ أَيْلَمِ ضُرُوبِ اسْتِعْدَادِ «إِمِيل» وَلَا حَالَةَ عَقْلِهِ حَتَّى أَحْكَمَ عَلَى
أَلْيَقِ أَنْوَاعِ التَّعْلِيمِ بِهِ وَأَشَدَّهَا مَلَامَةً لَطِيعِهِ ، وَالَّذِي أَرْجُوهُ لَهُ هُوَ أَنْ لَا يَكُونَ بَعِيدًا
عَنِ الْعُلُومِ وَلَا عَنِ آدَابِ اللُّغَةِ ، وَلَسْتُ أَرَى مِنْ وُجُوهِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ
هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ مِنَ الْمَعَارِفِ سِوَى مَا يَقْتَضِيهِ تَعْلُمُ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ مِنَ الزَّمَنِ ، فَإِنَّ
إِتِّفَاقَ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ مِنَ الْعُمُرِ فِي تَحْصِيلِ لُغَتَيْنِ مُهِمَّاتَيْنِ تَحْصِيلًا فِي غَايَةِ
النَّقْصِ غَالِبًا هُوَ إِسْرَافٌ كَبِيرٌ فِي عَفْرِ لَا يُحْصَلُ الْإِنْسَانُ فِيهِ مُتَوَسِّطَ الْمَعَارِفِ
الضَّرُورِيَّةِ إِلَّا بِإِتِّفَاقٍ مُعْظَمٍ حَيَاتِهِ ، وَإِنِّي بَاحِثٌ الْآنَ فِيمَا إِذَا كَانَتْ إِضَاعَةُ ذَلِكَ
الزَّمَنِ الطَّوِيلِ فِي تَحْصِيلِهِمَا لَازِمَةً لَطِيعَةً الصُّمُوبَاتِ الَّتِي يُصَادِفُهَا الْمُعَلِّمُ فِيهِ أَوْ أَنَّهَا
لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِهَا وَأَنَّ مِنَ الْمَيَسُورِ التَّغْيِيرَ فِيهَا وَالتَّقْلِيلَ مِنْهَا .

(١) ديموستين أشهر خطيب يوناني أثار مقدونية على فيلوبس وألب أثينة على الاسكندر .

(٢) شِيثيرون واسمه مرقس طولوس هو أفصح خطباء الرومانين ولد سنة ١٠٦ قبل المسيح وقتل

أَوَّل سَبَبٍ — فِيمَا أَرَى — لِطُولِ مُدَّةِ تَعَلُّمِ هَاتَيْنِ اللُّغَتَيْنِ هُوَ إِفْرَاطُ الْمُعَلِّمِينَ فِي تَعْجِيلِ تَعْلِيمِهِمَا لِلْأَطْفَالِ ، لِأَنَّهُمْ يَدَّأُوهُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا تَعَلَّمُوا أَوْ رَاقِبُوا شَيْئًا بِأَنْفُسِهِمْ ، فَتَرَاهُمْ لِحِيلِهِمْ كَيْفَةَ صَوْنِ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبِ الْأَسَالِبِ الَّتِي هِيَ قَوَائِبُ الْمَعَانِي لَا يَكْدُونُ يَتَمَتَّعُونَ^(١) بِلَفْتِهِمْ نَفْسَهَا مَضْبُوطَةً ، وَحَسْبُهُمْ بَيْنَ جُذُرَانِ الْمَدْرَسَةِ مِنْ نَعْمَةٍ أَظْفَارِهِمْ اعْتَادُوا اعْتِبَارَهَا مِجْنًا تَتَعَاقَبُ عَلَيْهِ الْأَجْيَالُ النَّاشِئَةُ تَكْنِيمًا لِسَيِّئَةِ جَهْلِ آبَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ ، فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنَ الْكَوْنِ وَقَدْ حَالَتْ الْمَدْرَسَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَحَابِّ السَّيِّئَةِ وَالْجَوَائِبِ الْأَهْلِيَّةِ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّ الْعَمَلَ إِلَيْهِمْ وَتُشْعِرُ قُلُوبَهُمْ قَدْرَهُ ، فَأَصْبَحُوا لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ حَرَارَتُهَا إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ جِدًّا ، فَبَيَّ أَوَّلِ عَمَلٍ لَهُمْ يُمِرُّونَ بِهِ قُوَاهُمْ النَّاشِئَةَ فَتَاجِجُهُمُ الْفَاطُ وَحَشِيَّةٌ ، وَصِغٌ نَحْوِيَّةٌ ، وَتَرَائِيبٌ مَجْهُولَةٌ ، فَيَتَصَدَّقُونَ اتِّفَاقًا بِأَيْدِيهِمُ الْعُسْرَاءِ مِنْ عَابَرِهِمُ الْكَدْرَاءِ ، ضُرُوبًا مِنْ مَخَالَفَةِ الْقِيَاسِ ، وَأَنْوَاعًا مِنْ ضَعْفِ التَّائِيلِ ، تَجْرِي بِهَا أَقْلَامُهُمْ ، وَلَا تُدْرِكُهَا أَفْهَامُهُمْ ، فَرُحَى لَهُمْ مِنْ حَيَارَى ذَاهِلِينَ ، لَا يَنْفَعُهُمْ تَعَاقُبُ التَّكْرَارِ ، وَلَا تَتَابَعُ الْأَمْثَالِ ، فَلَيْسَ تَكَرُّرُ الْأَغْلَاطِ وَالْخَطَايَا الْوَاحِدَةِ فِي تَعَلُّمِ لُغَةٍ مَجْهُولَةٍ هُوَ الْوَسِيلَةُ إِلَى إِصْلَاحِهَا .

أَنَا أَحِبُّ أَنْ رَى وَلَدِي قَبْلَ تَعَلُّمِ اللَّاتِينِيَّةِ شَيْئًا مِنَ الْعَالَمِ وَأَنْ يَنْفَقَ زَهْنُهُ بِاحْتِكَائِهِ بِالصَّنَاعَةِ وَدِرَاسَتِهِ تَارِيخِ الْمَوْجُودَاتِ ، فَإِنَّ كُلَّ وَقْعَةٍ رُوقِبَتْ أَوَّلًا فِي نَفْسٍ مُرَاقِبًا لَدَنَةٍ وَتَمَّتْ فِيهِ شُعُورُ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ بِكْسِيهِ

(١) يتمنون بمجلون في كلامهم ولا يفهمون السامع .

بعض معانٍ يَتَنَصَّرُ صَارَ بِهِذِهِ الْوَاسِطَةِ أَحْسَنَ اسْتِعْدَادًا لَهُمْ مَا يَتَقَاءُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ
الْمَعَانِي وَلَوْ ظَهَرَتْ فِي صَنِيعِ مُبَهِّمَةٍ مِنَ الْأَلْفَاطِ .

ثُمَّ إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ طُولِ الْمُدَّةِ الَّتِي تُقْضَى فِي تَعْلُمِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ - عَلَى مَا رَأَى -
أَنَّ الْمُرَبِّينَ يَعْلَمُونَهُمَا لِلْإِطْفَالِ قَبْلَ أَنْ يُطَاعُوهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِ الرُّومَانِ وَالْيُونَانِ ،
وَالْإِنْسَانُ لَا يُحْسِنُ تَعْلُمَ لُغَةِ قَوْمٍ إِلَّا فِي بِلَادِهِمْ . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَاهَتْ عِنْدَ
تَعْلِيمِهِمَا « إِمِيل » ، يَأْنِ أَجَلَ لَهُ مِنْ آثَارِ أَهْلِهِمَا بِلَادًا يَتَعَلَّمُهُمَا فِيهَا ، وَفِي هَذَا
الْمَقَامِ تَظْهَرُ فَائِدَةُ إِنْشَاءِ مَعَاهِدِ التَّعْلِيمِ الَّتِي مِنْ قِبَلِ الْقَصْرِ الْيَلُورِيِّ ، نَعَمْ إِنِّي عَلَى
يَقِينٍ مِنْ أَنَّ مُشَاهَدَةَ مَا يَكُونُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَعَاهِدِ مِنَ التَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ وَمِثْلِ
الْمَعَاهِدِ وَالْمَبَانِي الْأَثَرِيَّةِ الْعَامَّةِ لَا تَعِينُ التَّلْمِيذَ عَلَى فَهْمِ شَعْرِ عُمَيْرَ وَفَرَجِيلَ وَلَكِنَّ
الْيُونَانِيَّةَ وَاللَّاتِينِيَّةَ إِذَا اقْتَرَبَتْ تَعْلِيمُهُمَا بِتَعْلِيمِ تَارِيخِ قَوْمَيْهِمَا وَمَا يَشْهَدُ لَهُمْ مِنْ
دَلَائِلِ التَّقْدِيمِ الْقَدِيمِ لَا تَبْقَانِ لُغَتَيْنِ مُتَدَثِّرَتَيْنِ انْدَثَارًا تَامًا كَمَا لَوْ عَلِمْنَا مُجْرَدَتَيْنِ .

ذَلِكَ أَنَّ لِفُنُونِ الرُّسْمِ مِنَ التَّأْيِيدِ فِي نُفُوسِ النَّاشِئِينَ مَا هُوَ فَوْقَ الْمَطْنُونِ يَهَا
كَثِيرًا بِسَبَبِ إِجَاتِهَا الْعَقْلَ فِي آثَارِ النَّازِرِينَ ، وَسِيَاحَتِهَا بِالنَّفْسِ فِي أَعْمَالِ الْمَاضِينَ ،
وَلِأَنَّ مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَسْهُلُ فِيهَا انْدِمَاجُ الْبَافِجِ فِي شَخْصٍ غَيْرِهِ لِسَبَبِ
سَهْلِ الْأَدْرَاكِ وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى الْإِسْتِقْلَالِ الدَّائِي لَا يَظْهَرُ إِلَّا قَلِيلًا فِي هَذَا الطُّورِ
مِنَ الْحَيَاةِ ، فَيَكْتَرِبُ هَذَا النَّوْجُ مِنَ الْمَعِيشَةِ مَعَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ فَيَأْتِي مِنْ
آثَارِهِمْ بِتَهْيِي التَّلْمِيذُ بِأَنَّ يَتَمَّ بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَدَاتِهِمْ وَشُؤْنِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ لُغَتَهُمْ ، فَتَرَاهُ

يَتَابِعُ بِمَقْلَعِهِ الْأَسْطُولَ اللَّاتِيْنِيَّ فِي سَلَامِيْنَ وَيَشْهَدُ خَلْفَ بُومَيَّ وَاقِعَةً فِرْسَالَا ،
وَلَا يَسْقِنُ إِلَى خَاطِرِكَ أَرْبَ هَذَا الْوُجُودِ الْفِكْرِيَّ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَنِ لَيْسَ هُوَ
إِلَّا وَهْمًا مَحْضًا ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِمَّا كَانَ فِي الْمَاضِي قَدْ مَاتَ مَوْتًا تَامًا .

لَمْ تُجِدْ طَرِيقَتَنَا فِي تَعْلِيمِ اللَّغَتَيْنِ اللَّتَيْنِ نَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنْهُمَا نَفْعًا لِأَنْهَا
لَا تَزَالُ عَلَيْهِمَا مِسْحَةٌ مِنْ تَعْلِيمِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَهِيَ آتِي طَبَعَهَا عَلَيْهَا الْقَيْسِيُونَ
وَالرُّهْبَانُ ، إِذْ لَا تَزَالُ الْعَقَبَاتُ تَقُومُ فِي سَبِيلِ دِرَاسَةِ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ دِرَاسَةً صَادِقَةً ،
وَأَوَّلَهَا مَا لِلدِّينِ الْمَسِيحِيِّ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْوَسَاوِسِ فِي إِلَهِيَّتِهِ الَّتِي تَرَاهُ عَلَى قَبْرِهِ إِيَّاهَا
لَا يَزَالُ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مُضِرَّةٌ حَتَّى فِي انْهِيَايَةِهَا أَمَامَهُ ، فَإِنَّ رِجَالَ هَذَا الدِّينِ مَعَ اسْتِثْنَائِهِمْ
عَلَى تَوَالِي الْقُرُونِ بِاللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ وَاحْتِكَارِهِمْ مَعْرِقَهَا كَانُوا يُعْنَوْنَ فِي تَعْلِيمِهِمْ بِإِزْهَاقِ
ذَلِكَ الرُّوحِ الَّذِي أَلْهَمَ الصَّنَاعَ مَا ظَهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ نُحَيْفِ الصَّنَائِعِ وَطُرُقِهَا ،
وَكَانَتْ فُنُونُ الْوَتَنِيِّينَ وَأَدَابُ لُغَاتِهِمْ مِنَ الْفَنَائِمِ الَّتِي احْتَمَّ أُولَئِكَ الرِّجَالُ بِحِفْظِهَا ،
غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْتَرِسُونَ كُلَّ الْإِحْتِرَاسِ مِنْ إِظْهَارِ آخِرِ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ أَسْرَارِهَا
لِلْأَحْدَاثِ ، وَكَانَ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ أَنْ لَا يُزِيلُوا عَنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ إِلَّا طَرَفًا مِنْ حِجَابِهَا ،
لِأَنَّهُ كَانَ لَا بُدَّ لَهَا يَحْيَا عِيْدَ الْخَلْفَاءِ مِنْ آثَارِ السَّلَفِ أَنْ يَرُدَّهُمْ يَوْمًا إِلَى عِبَادَةِ الطَّبِيعَةِ
وَحَبَا لَهَا ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ رُؤَسَاءُ الدِّينِ لَا يَفْتَلُونَ بِدُرُوكِ النَّاشِئِينَ بِأَنَّ آلِهَةَ
الْوَتَنِيِّينَ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا إِلَّا الْكِبَرِيَاءُ وَالْكَذِبُ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي النَّظَرُ إِلَيْهَا
إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ مَعَ الْإِسْتِزَادِ فِي ذَلِكَ بِهَيْدَةِ الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ .

(١) سلامين : ونسبى الآن كولورى هي جزيرة في خليج آتية .

(٢) بوماي : قائد روماني شهير له غزوات كثيرة كان فيها خافرا .

(٣) فرسالا : مدينة باقليم تساليا القديمة من بلاد اليونان هزم فيها قيصر الروم القائد بوماي

أَلَا أَحْتَرِسُ كُلَّ هَذَا الْإِحْتِرَاسِ فِي تَعْلِيمِ « إِمِيل » تَبْنِيكَ اللَّفْتَيْنِ وَإِقْرَائِهِ
 كُتُبَهُمَا ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِمَنْ يُزَوِّلُ دِرَاسَةَ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ
 الْأَعْتِقَادِ ، فَمَا ضَرُّهُ لَوْ أَنَّهُ اخْتَصَّ فِي الْإِشْتِغَالِ بِهَرَقْلٍ وَأَعْمَالِهِ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْقِمُ
 مِنْهُ إِنْ قَدَّمَ قُرْبَانًا لِلْإِلَهَاتِ الْعَفِيفَةِ وَلِغِنَاةِ الْحِكْمَةِ الْأَيَّةِ . فَإِنَّ فِي كَشْفِ
 حَقِيقَةِ الْأَشْخَاصِ الْخُرَافِيِّينَ الَّذِينَ وَجَدُوا فِي خَيَالِ الْأَقْدَمِينَ ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُمْ مُلَامَةً
 كُلِّ الْمُلَامَةِ لِخَيَالِ الْيَافِعِينَ ، وَفِي إِزَالَةِ الْوَهْمِ مِنْ عُقُولِ هَؤُلَاءِ فِي شَأْنِهِمْ ، تَعْجِيلًا
 بِزَعْرَعَةِ عَقِيدَتِهِمْ فِي النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَلَا يَظُنُّ ظَنَّ أَنِّي أَقْصِدُ بِمَا أَقُولُ أَنْ
 أَقِفَ « إِمِيل » عِنْدَ الْوَهْيَةِ فَإِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِمَنْ يُرِيدُ النُّفُوذَ
 إِلَى أَسْرَارِ لُغَةِ قَوْمٍ مِنْ اخْتِلَاسِ آلِهَتِهِمْ .

الشذرة العاشرة

التقليد والذاكرة

مَثَلُ هَاتَيْنِ الْقَوَتَيْنِ فِي فِتْنَةِ الْعَقْلِ وَالْتَّغْيِيرِ بِهِ كَثَلُ الْفَتَنَاتِ الْخُرَافِيَّةِ الَّتِي
 كَانَتْ تَظْهَرُ فِي بَحْرِ صَقْلِيَّةٍ وَتَسْمُوحِ الْمَلَّاحِينَ بِسَجَى صَوْتِهَا فُتُورِدُهُمْ فِي شِعَابِهَا
 مَوَارِدَ الْمَلَكَةِ ، فَإِنَّهُمَا يُلَوِّحُ مَكَاتِهِمَا وَجَلَالَ خَطَرِهِمَا فِي دِرَاسَةِ اللُّغَاتِ ، وَيَخْدَعُهُمَا
 الْعَقْلُ أَحْيَانًا فِي آدَابِهَا بِمَا يَأْخُذَانِهِ عَنِ الْغَيْرِ مِنْ مَحَاسِنِ الْقَوْلِ وَطَرَائِفِهِ يَأْكُلَانِ

(١) هرقل بلل نحراف مشهور بأعماله العجيبة .

(٢) الالهات العفيفة في اساطير اليونان هي الالهات الفنون التسعة بنات المشتري .

(٣) منزوة -- أو منزقا -- هي في الاساطير المذكورة الالهة الحكمة والفنون والحرب .

الْإِسْتِعْدَادَ الْحَقِيقِيَّ أَكْلًا، وَقَدْ يَكُونُ الذَّنْبُ فِي ذَلِكَ عَلَى أَمْرَيْنِ دُونَهُمَا لِمَا
يَتَجَوَّهُهُ مِنْ طَرِيقَةِ التَّرْسِيَةِ، فَإِنْ أَحَدًا لَا يَرْتَابُ فِي كَوْنِ تَبَيُّنِ الْقَوَاتِنِ مِنَ الْمَوَاقِبِ
الْخَلْقِيَّةِ الْمَيْمُونَةِ، بَيِّنَ أَنَّ هَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِلِإِفْرَاطِ فِي تَسْمِيئِهِمَا، فَإِنَّكَ
تَرَى التَّلْبِيدَ الَّذِي تَرَبَّى عَلَى طَرِيقَتِنَا يَصِفُ لَكَ بِمَا قَرَأَهُ فِي الْكُتُبِ أَشْيَاءَ لَمْ يَرَهَا
فِي حَيَاتِهِ، وَيَقُولُ أَمَّا مَكَ يَحْمِلُ مِنَ الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ أَوْ الْمَنْظُومِ تَدُلُّ عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ
الْوُجُودَانِ لَمْ يَسْمَعْهُ بَشَرٌ مِنْهَا قَطُّ، وَيُبْدِي مِنَ الْهَيْجِ وَالْإِنْفِعَالِ فِي بَعْضِ أَحْوَالِ
لَا عَلاقَةَ لَهُ بِهَا مِنْ حَيَاةٍ غَيْرِهِ مَا لَا أَثَرُ لَهُ فِي نَفْسِهِ، وَلَوْ أَنَّكَ سَأَلْتَهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ بِذِكْرِ
الْأَنْجَارِ وَظِلَالِهَا، وَالْأَنْعَامِ وَرُعَاتِهَا، وَالرَّيْسِ وَأَزْهَارِهِ أَوْ جَدِّهَا بِذِكْرِهِ مِنْ مُحْفُوظَاتِهِ
بَجَمِيعِ مَا قَالَهُ فِيهَا فَرَجِيلٌ ^(١) وَهُوَ رَأْسٌ مِنَ التُّعُوتِ وَالْأَوْصَافِ ^(٢)، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ
خَيْرًا لَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَزَارِعِ وَيَرَى بِنَفْسِهِ مَا يَحْصُلُ فِيهَا وَكَيْفَ يَحْصُلُ
تَرَاهُ شَدِيدَ الْإِحْتِرَاسِ مِنْ مُوَاعَاتِهَا خَشْيَةً أَنْ يَخْصُرَ فِيهَا اللَّابِيئَةُ وَمَا تَوَاضَعَ عَلَيْهِ
الْأَقْدَمُونَ مِنَ الصُّوَرِ اللَّفْظِيَّةِ لِتَأْيِيدِهِ مَا كَانَ يَعْزِضُ لِأَذْهَانِهِمْ مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَفْكَارِ،
وَإِذَا اسْتَوْصَفَتْهُ قِتَالًا أَنْبَرَى يَصِفُ لَكَ مَا اسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْأَلَاتِ، وَكَيْفَ كَانَ
اصْطِدَامُ الْجَنَيْشِينَ ^(٣)، بِالْقَافِظِ مُطْلَظَةً، وَعِبَارَاتٍ مُجَلَّجَةً وَهُوَ لَمْ يَشْهَدْ شَيْئًا مِنْ

(١) راجع الهامش عدد (١) من تعليقات الشذرة التاسعة .

(٢) هو رأس هو شاعر لاتيني مشهور ولد في سنة ٦٧ ومات سنة ٨ قبل المسح .

(٣) انبرى اعترض .

ذَلِكَ الْبَيْتَ ، فَإِنَّا كَانَ مُرَادُكَ اخْتِيَارَهُ فِي مُحَاصِرَةِ الْمَدِينَةِ وَجَدْتُهُ قَدْ انْتَهَى مِنْ حِصَارِهِ كَمَا انْتَهَى فِرْقَتُ^(١) .

عَرَفْتُ فِيمَا سَبَقَ تَلْمِيزًا كَانَ يَتَدُو عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ حَايِلِ النَّجَاةِ نَالَ إِكْلِيلًا مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى قُرْبِهِ شِعْرًا وَصَفَ فِيهِ رَجَّ سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ لَمْ يَرَفِ فِي عُمُرِهِ سَفِينَةً وَلَا بَحْرًا .

نعم إِنَّ الشُّبَانَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لَا يَكَادُونَ يَتَقَلَّبُونَ مِنَ الْمَدَارِسِ إِلَّا وَهُمْ رَافِضُونَ لِأَنَّا تَارِ السَّلَفِ تَابِذُونَ لِمَا ظَهَرِيًّا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا مَعْنَى لِهَذَا إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَنَاضَوْنَ عَنْ مَثَلِ الْقَائِرِينَ مَثَلِ الْحَاضِرِينَ ، لِأَنَّ مَحَوِّطَاتِ التَّقْلِيدِ وَغَضُونِهِ مِنَ النَّفْسِ وَإِرْجَاعِهَا إِلَى صَقَالَتِهَا الْفِطْرِيَّةِ لَيْسَ مِنْ السُّهُولَةِ بِالْمَقْدَارِ الْمُتَوَهِّمِ ، فَإِنَّمَا كُلُّ يَوْمٍ نَقْرًا فِي وَصِفِ الْكُتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ الْمُتَبَدِّلِينَ قَوْلَ وَاصِفِهِمْ فِي الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِنَّهُ نَائِفَةٌ يُفْتَشُّ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلْيَقُلْ لِي رَبِّهِ هَذَا الْفَتَّاشُ ابْنَ أَضَلِّ نَفْسُهُ حَتَّى أَصْبَحَ يَنْشُدُهَا .

إِنَّ تَرْبِيَةَ تَكُونُ بِدَائِبَتِهَا إِضْلَالٌ وَجِدَانٌ إِلَّا سِتْقَالَ إِلَى حَدٍّ أَنَّهُ يُنْبِئِي لِأَجْلِ الْإِهْتِدَاءِ إِلَيْهِ تَلَمُّسُهُ سِنِينَ طَوِيلَةً لِمَنْ الْغَرَابَةُ يَمَكَّانُ .

(١) فروت هو كاهن مؤرخ من الفرنجة ولد سنة ١٦٥٥ ومات سنة ١٧٣٥ م . وهو مؤلف كتاب الفتنة السويدية والفتنة الرومانية وتاريخ الأشراف الكرام . والمؤلف يلجح الى وائفة لهذا المؤرخ وهي أنه كان يكتب تاريخاً لحصار رودس وانظر طرطولا ورود أنباء صحيحة له عنه فلم تحضر فاتهم تاريخه قبل ورودها ثم قال انني متكدر من ذلك ولكن قد انتهيت من حصارى .

(٢) ما أشبه الالهة باللوحه قد فتنا في آياتنا هذا العالم . بتعليم الفرنجة على غير مدى ولا بصيرة ولعمري إنه القوق به والنورديه ودينه أى بكبه وغشائه . المترجم .

أَنَا لَا أَشْتَمِي وَلَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ «إِمِيل» مَبَالًا إِلَى وَقْفِ نَفْسِهِ عَلَى دِرَاسَةِ
آدَابِ اللُّغَةِ، وَلَوْ أُنِّي وَهَيْلَانَةً دَائِبًا فِي تَحْقِيقِهَا إِلَيْهِ وَأَفْلَحْنَا فِي حُجُبِ حَالَةِ عَقْلِهِ
بِزَخَارِفِ الدَّاكِرَةِ لِأَخْفَقْنَا فِي مَسْعَاةٍ إِلَى غَائِقَتِنَا الْمَطْلُوبَةِ، فَاقْتَاءَ لِهَذَا الْخَطَرِ تَرَانِي
مُصَمَّمًا عَلَى إِرْجَاءِ تَعْلِيمِهِ اللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ وَإِقْرَائِهِ كُتُبِ مُؤَلِّفِيهَا، وَقَدْ جَعَلْتُ لَهُ
مُشَاهَدَةَ الْأَشْيَاءِ مُقَدِّمَةً عَلَى عِلْمِ الْأَلْفَاظِ فَاصْبَحَتْ عُلُومُهُ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ النِّقْصِ لَهَا
أُصُولٌ فِي الْخَارِجِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَدَعَائِمٌ فِي الْوَاقِعِ تُسْتَقَرُّ عَلَيْهَا. وَسَعَيْتُ فِي إِيْتَانِهِ
مَا هُوَ لَا زِمٌ لِلْإِنْسَانِ فِي بَحْثِهِ عَنِ الْحَسَنِ وَالْحَقِّ مِنْ آلَاتِ الضَّبِطِ وَالِدَقَّةِ الْعَقْلِيَّةِ
أَكْثَرَ جِدًّا مِنْ سَعْيِي فِي الْإِقْضَاءِ إِلَيْهِ بِمَا لِي أَوْ بِمَا لِيُغَيِّرِي مِنَ الْمَعَانِي.

وَقَبْلَ أَنْ أَجْعَلَ الْبَحْثَ فِي مُثُلِ الْأَقْدَمِينَ فِي مَكْتَبِهِ سَاعَتِي كُلَّ السَّاعَةِ بِتَنْبِيهِهِ
إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُثُلَ لَا تُفْلَدُ، فَإِنَّهُ مِنَ السَّخْفِ الْمُحَقِّقِ أَنَّ نُبَارِي الْغَائِرِينَ مُبَارَاةً
نَحْنُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ غَلْبَتِنَا فِيهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَدْخُلَهَا، وَكَيْفَ لَا نَكُونُ مَغْلُوبِينَ لَهُمْ وَنَحْنُ
نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا طَرِيقَتَهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالْكِتَابَةِ؟ وَالَّذِي لَا غَضَاظَةَ عَلَيْنَا فِي أَخْذِهِ
عَنْ كُتَابِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ إِنَّمَا هُوَ رُوحُ آدَابِ لُغَتِهِمْ وَمَا يَنْسَبُ كُلَّ زَمَانٍ وَكُلِّ قَوْمٍ
مِنْ أَسَالِيبِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْتِيبِ الْمَعَانِي وَالِدَقَّةِ فِي التَّعْيِيرِ عَنْهَا وَاتِّقَاءِ الْأَلْفَاظِ اللَّائِقَةِ
بِهَا، فَكَمَا أَنَّ مَنْ يُعَاشِرُ بَعْضَ خَوَاصِّ الْأَجَانِبِ يَتَقَبَّضُ شَيْئًا مِنْ خَصَائِصِهِمْ يَغْيِرُ
أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُوجِبًا لِمُشَابَهَتِهِ لَهُمْ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، كَذَلِكَ مُعَاشَرَةُ الْأَقْدَمِينَ
بِوَاسِطَةِ مَا تَرَكُوهُ مِنْ آثَارِهِمْ تُورِي إِلَيْنَا شَيْئًا مِنْ عَوَائِدِ الْعَقْلِ وَاللِّسَانِ الْمُنَاسِبَةِ
لِسَائِرِ الْأَقْوَامِ الْمُسْتَضِيِّينَ بِضِيَاءِ الْعِرْقَانِ.

التقليد الخسيس - سواء أقلد فيه الغايرون أم الحاضرون - لا يقتصر سوء أثره على إضعاف الذوق والميل إلى الفنون بل يسلب الناشئين أيضاً شرف النفس وكرامتها، فلشد ما يتخدعون بما تؤديه لهم الألفاظ عند قبولهم إياها من المعاني صحيحة أو فاسدة، لأن أساليب الإنشاء والألفاظ والحمل تفعل في نفوسهم ما يفعله السحر الحقيقي، فتراهم يتوهمون أنهم يتفكرون فيما يقولون ويكتبون والحق أنهم يرددون ما ذكر فيه المفكرون، وعمري إن هذا هو أصل بعض الأباطيل التي تحاول من قرون عديدة إطفاء نور العقل، ذلك أن ضروب الاستعباد متلازمة فمن قبل واحدا منها قدس أحد على نفسه الانقياد إلى جميعها، ألا ترى الشاب المتعلم الذي اعتاد تقليد ما يصفه المقلدون بالمثل الحسنة يصاحبه في سيرته وأطواره روح اللين والانقياد الذي ألهم من التقليد فتحده يحبن ويفزع عند كل عزيمة ذاتية .

نعم إنه قد يخطر بخلاته في رآي أو يعرضها للهلكة في ساحة قتال، لأنه يرى ذلك مستحسناً في نظر الناس، ولكنه إذا دعى إلى مقاومة عادة بربرية أو تأييد حق قل ناصروه، ورأى أن من وراء ذلك الاستهداف للسخرية والزراية عليه، نكص على عقبيه نكص الجبان، وفر فرار الرعديد .

مثل هؤلاء المخلوقين المجردين عن ذواتهم يجدون طريق عيشهم ذلولاً ويأتينهم رزقهم بلا نصيب، ولكن ما أكثر ما يسومون أنفسهم من الخسيف !^(١)

(١) يومونهم الخسيف : يولونهم إياه ويريدونهم طيه .

(٢) الخسيف : القنصة .

وَمَا أَحَطَ مَا يَسْفُلُونَ بِهَا إِلَهٍ مِنْ دَرَكَاتِ الدَّلِّ ! عَرَفْتُ امْرَأَةً بَرَزَتْ مَحَبَّةً حَسَنَةً
 (١) (٢) الْمُحَاضَرَةَ وَكَانَتْ أَرْمَلَةً وَلَهَا وَلَدٌ كَانَ قَبْلَهُ أَمَالِيهَا، فَبَدَا لَهَا يَوْمًا مِنَ الْيَوْمِ أَنْ تُنْشِئَهُ
 عَلَى أَحْسَنِ آدَابِ الْمَوَاضِعِ الْمَعْرُوفَةِ، فَرَأَتْ أَنَّ الْإِسْتِشْهَادَ بِأَقْوَالِ الْكُتَّابِ اللَّائِيْنِ
 فِي الْمَقَامَاتِ الْمُنَاسِبَةِ مِنَ الْمُحَاضَرَةِ وَالتَّمَثُّلَ بِأَشْعَارِهِمْ وَإِبْرَادَ أَهْلِهِمْ مِنَ الْأُمُورِ
 الَّتِي لَا بَأْسَ بِهَا، بَلَى رَأَتْهُ يَكْسُو الْمُحَاضِرَ إِذَا كَانَ حَسَنًا بُرْدًا مِنْ الْخَطَرِ، وَيَبْقَى
 عَلَيْهِ مِسْحَةٌ مِنْ جَلَالِ الْقَدْرِ، فَأَرْسَلَتْ وَلَدَهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، فَقَادَرَهَا كَيَوْمِ دَخَلَهَا خَفِيفَ
 الْعَقْلِ، لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قُسُورًا، مَحْبُوبًا عِنْدَ النَّاسِ، وَلِكُونِهِ أَوْقَى ذَاكِرَةً
 مُبَارَكَةً كَانَتْ يَتَكَلَّمُ فِي كُلِّ مَوْضُوعٍ، وَيُنَاقِشُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يُبْذِرُ رَأْيًا إِلَّا قَوْلًا
 بِالْإِسْتِحْسَانِ، لِأَنَّهُ يَسْهَلُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ إِذَا سَلَّمَ لَهُمْ مَا يَقُولُونَ
 وَلَمْ يُعَارِضْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ آرَائِهِمْ، فَكَانَ ثَرَنَارًا فَاقِدَ الْخُلُقِ، حَسَنَ الصُّورَةِ عَقِيمَ
 الْفِكْرِ، أَرَادَتْ وَالِدَتُهُ أَنْ تُصَيِّرَهُ رَجُلًا مِنَ الْأَكْيَاسِ، أَوْ نَاتِبًا لِأَحَدِ الْحُكَّامِ،
 أَوْ مُعْتَمِدًا سِيَاسِيًّا لِحُكُومَتِهِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ، وَإِنْ أَحْبَبَتْ أَنْ تَعْرِفَ مَاذَا صَبَّرَتْهُ
 قُلْتُ إِنَّهَا صَبَّرَتْهُ طَفِيلًا .

طَرِيقَتُنَا فِي التَّرْبِيَةِ تَظْهَرُ بِأَدْنَى الرَّأْيِ سَخِيفَةً مُضْحِكَةً، وَإِنْ جَازَ أَنْ نَكُونَ مِمَّا
 يَتَعَاصَى عَلَى الْأَفْهَامِ إِدْرَاكُهُ، وَرُبَّمَا لَا تُطَاقُ أَيُّ طَرِيقَةٍ غَيْرَهَا مُطَابَقَتَهَا لِمَقَاصِدِ
 حُكَامِنَا وَنِظَامِنَا السِّيَاسِيِّ .

- (١) دركات : جمع دركة وهي المنزلة اذا اعتبرت النزول ويقال لها الدرسة اذا اعتبرت الصعود .
 (٢) البرزة المرأة الجليلة التي تظهر للناس ويختلف اليها القوم .
 (٣) الخطير : رفعة القدر .
 (٤) الثنار : كثير الكلام .
 (٥) الطفيل الذي يدخل ولية ولم يدع اليها والمراد به هنا من يتداخل في أمور الناس بلا حساب .

التَّلايِذُ فِي مَدَارِسَنَا مُقَرَّعُونَ مَدِينُونَ تَبَكَّرَ الْحُكُومَةُ بِتَأْهِلِهِمْ لِعَمَلِهِمْ عَلَى
نَظَامٍ مَعْنَوِي يَشْفُ عَنْ حَقِّقٍ وَإِضَاعِهِ ، فَانْتَرَى الْقَائِمِينَ عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ يُوَزَعُونَ
عَلَيْهِمْ مَتَاعًا مِنَ الْأَرْاءِ وَالْمُلُومِ الَّتِي يَجِبُ تَقْلِيدُهَا فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ ، مُرَاعِينَ فِي ذَلِكَ الدَّقَّةَ
الْعَسْكَرِيَّةَ الَّتِي تُرَاعَى فِي تَوْزِيْعِ مَتَاعِ الْجُنْدِ وَيَتَادُونَهُمْ « الْهُوَيَاتُ » أَيُّهَا الْأَحْدَاثُ
إِيَّاكُمْ أَنْتُمْ تَحِيدُوا عَنِ الْخُطْبَةِ الْمَضْرُوبَةِ لَكُمْ ، نَعَمْ إِنْ مِنْهُمْ مَنْ يُؤَلِّفُهُمْ أَدْبَارَهُمْ
وَلَا يَصْفُونَ إِلَى نَدَائِهِمْ ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَحَيَّرُونَ إِلَى فِتْنَةِ الْأَخْذِينَ بِحُرِّيَّةِ
النَّظَرِ وَيَتَضَاعَفُ عَدَدُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَلَكِنْ لَشَدَّ مَا يُلَاقُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْعِقَابِ ،
فَانْتَهَمَ يَحْرَمُونَ مِنْ تَهْلِيلِ الْأَعْمَالِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ الْجَامِعَةِ ، وَمِنْ الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ
الْإِدَارِيَّةِ فِي الْحُكُومَةِ ، فَلَا يُولَى أَحَدُهُمْ شَيْئًا مِنْهَا ، وَفَوْقَ ذَلِكَ تَرَاهُمْ إِنْ لَمْ يَسِيرُوا
سِيرَةَ مَرْضِيَّةٍ أَخَذَتِ الْحُكُومَةُ عَلَى نَفْسِهَا تَعْلِيمَهُمْ كَيْفَ يَسِيرُونَ بِمَا تَتَابَعُهُ لَهُمْ مِنْ
ضُرُوبِ الْإِبْدَاءِ ، وَمَا تَبْلُغُهُمْ بِهِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالنَّكَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَلَا غَرَوْا فَاثْنَمُ
فِي قَبْضَةِ حَاكِمٍ مَاهِرٍ ، وَالذَّنْبُ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ لَهُمْ وَالْيَا يَقُومُ
عَلَيْهِمْ وَأَسَاتِذًا يَرْشِدُهُمْ .

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْفَلَاحُ الَّذِي أَرْجُوهُ « لِإِمِيل » وَكَانَ الَّذِي يَشْنِي مِنْ
أَمْرِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِمَّا هُوَ حِفْظُ كَرَامَتِهِ وَشَرَفِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ، كَانَ
نَصِيبُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنِّي مَحْضَ الْإِعْجَابِ بِهَا دُونَ أَنْ أَرْضَاهَا لِتَرْبِيَتِهِ . اهـ

الشذرة الحادية عشرة

(فِي الْمَوْلَّاتِ الْمُفِيدَةِ لِلنَّاسِ وَأَخْتَارَهَا)

أَجِدُ فِي نَفْسِي انْبِعَاتًا كَثِيرًا إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَضُرُّ عَلَى كُتَابِ الْأَقْدَمِينَ
وَأَدْعَى إِلَى هَجْرِ مَوْلَّاتِهِمْ مِنْ إِطْرَاءِ الْمُعَلِّينَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِيَادِهِمُ الْإِعْجَابَ بِمَا كَتَبُوا .

ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ بِالزَّامِهِمُ الطِّفْلَ حِفْظَ مَا يَخْتَارُونَهُ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَوْلَّاتِ
وَإِرْشَادِهِمْ إِيَّاهُ إِلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرَاهُ فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْمَحَاسِنِ خَشْيَةً أَنْ يَقْصُرَ
فِي احْتِرَامِ آثَارِ سَلَفِهِ ، وَإِكْرَاهِهِمْ لَهُ عَلَى مُلَاحَظَةِ جَمِيعِ مَا فِيهَا حَتَّى عِلَامَاتِ الْفُضْلِ
وَالْوَصْلِ — بِذَلِكَ كُلِّهِ لَا يُفْلِحُونَ غَالِبًا إِلَّا فِي أَنْ يُكْرَهُوا إِلَيْهِ وَيَحْسَنُ أَعْمَالِ
عَقْلِ الْإِنْسَانِ .

فَالْإِفْرَاطُ فِي الْوَقَايَةِ مِنْ جَانِبِ الْمُعَلِّمِ بِصَيْرُ سَبَبًا لِلضَّعْفِ مِنْ جَانِبِ الْمُتَعَلِّمِ ،
وَإِفْرَاطُ ذَلِكَ فِي إِعْجَابِهِ بِمَا يَعْلَمُهُ يَنْهَبُ بِالْحِمِيَةِ مِنْ نَفْسِ هَذَا فِيمَا يَتَعَلَّمُهُ .

وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّعْلِيمِ عَلَى أَىِّ حَالٍ إِنَّمَا هُوَ إِنْشَاءُ الْقُوَّةِ الْحَاكِمَةِ فِي نَفْسِ
الطِّفْلِ ، وَأَنَا فِي شَكٍّ مِنْ بُلُوغِ هَذِهِ الْقَايَةِ بِالْحَرَرِيِّ عَلَى تِلْكَ الطَّرِيقَةِ ، فَإِنَّهُ عَلَى قَرِصِ
وُجُودِ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ يَكُونُ فِيهِمْ مِنَ الْإِمْتِشَالِ مَا يَكْفِي لَأَنْ يَرَوْا الْحُسْنَ فِيمَا
يُمْدَحُ لَهُمْ وَالْفُجْحَ فِيمَا يَذُمُّ (وَفِي التَّلَامِيذِ مَنْ هُمْ كَذَلِكَ) لَا تَكُونُ أَذْوَابُهُمْ مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ أَسْمَى مِنْ أَذْوَابِ غَيْرِهِمْ وَلَا أَكْثَرُ مِنْهَا دَرْبَةً ، بَلْ هَذَا بِمَا يَدْعُو إِلَى سَلْبِهِمْ قُوَّةَ
تَمْيِيزِهِمُ الْأُمُورَ بِنَفْسِهِمْ ، فَتَكُونُ هِمَّتُهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ مَصْرُوفَةً إِلَى تَلَقُّي آرَاءِ مَنْ تَعْتَبِرُ
آرَأُوهُمْ مُجَّةً مِنَ النَّاسِ لَا إِلَى النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهَا حُكْمًا مُسْتَقِلًّا .

سَادَعُ ابْنِي وَشَانُهُ فِي اتِّقَاءِ كُتُبِهِ فَلَا أُجَنِّبُهُ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْهَا ضَارًّا بِالْإِخْلَاقِ ،
لَأَنِّي أَوْدُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ صَاحِبَ الْخِيَارِ فِيمَا يَفْضَلُ فِي نَظَرِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَدَابِ ،
فَإِذَا ضَلَّ ذَوْقَهُ فِي الْإِخْتِيَارِ عَوَّلْتُ فِي رَدِّهِ إِلَى الصَّرَاطِ السَّوِيِّ عَلَى ضُرُوبِ نُموِّ عَقْلِهِ
لَا عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ كَدَرِي مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْبِيخِ وَالنَّاتِبِ ، وَمَعَ كَوْنِي لَا أَضِنُ عَلَيْهِ
بِالْإِرْشَادِ مَتَى سَأَلَنِي إِيَّاهُ يَحْدِثُنِي أَقْصِدُ أَنْ يَلْتَمِسَ فِيمَا يُطَالِعُهُ تَنْمِيةَ أَفْكَارِهِ وَتَرْبِيةَ
ضُرُوبِ وَجْدَانِهِ الدَّائِي .

نعم إِنِّي قَدْ أَشْتَهَى أَنْ أَقْدِمَ لَهُ بَعْضَ كُتُبِ مَحْصُوصَةٍ وَأَعْتَظُّهُ لَوْ أَنَّهُ اتَّفَقَ مَعِيَ
فِي التَّأَثُّرِ بِمَا فِيهَا ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُنِي مُحَقًّا فِي اقْتِضَاءِ ذَلِكَ مِنْهُ ، لِأَنَّ الْإِعْجَابَ بِالشَّيْءِ
مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ مُفِيدًا لَا بُدَّ أَنْ يَصْدُرَ عَنْ نَفْسِ الْمُعْجَبِ ، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ
فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ حَيَاتِهِ مُتَغَرِّدًا كَانَ أَوْ مُجْتَمِعًا يَتَصَوَّرُ لِلْحَسَنِ كَمَا لَا يُطَاقُ
— بِالضَّرُورَةِ — بَعْضَ أَحْوَالٍ تَتَعَلَّقُ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمَنَافِعِ أَعْضَائِهِ ، بِذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ
أَتَنَا لَا نَكَادُ نَعْرِفُ الْآنَ مَا قَرَأْنَاهُ فِي عَهْدِ شَبَابِنَا مِنَ الْكُتُبِ وَلَا مَوْلَفِيهَا ، وَلَا نَحْسُ
يَسَى مِنْ الْمِيلِ إِلَى كُتُبِ الْأَدَبِ الَّتِي طَالَعْنَاهَا فِي ذَلِكَ الزَّوْنِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشُّعْرَاءِ
أَوْ الْكُتَّابِ الَّذِينَ كَانُوا أَسَاتِئَتَنَا فِيهِ بِكُتُبِهِمْ مَنْ يَصْحَبُنَا فِي شَيْخُوختِنَا إِلَّا الْقَلِيلَ
الْبَاسِرَ .

الشذرة الثانية عشرة

لَا يَسْلَمُ وَجْهُ الشَّمْسِ مِنْ كَلْفٍ

فَضِيَّةٌ لَا يَحِصُّ مِنْ تَسْلِيمِهَا فَإِنَّا فِي طَوْرِ الْإِنْتِقَادِ الَّذِي لَا يَتَقَلَّبُ مِنْ تَحْلِيلِهِ وَتَفْصِيلِهِ شَيْءٌ ، فَقَدْ تَنَاولَ الْأَدْيَانَ وَآدَابَ اللُّغَاتِ وَالتَّارِيخَ وَالْأَوْضَاعَ الْقَوْمِيَّةَ ، فَلَا تَجِدُ عِبَادَةً مِنَ الْعِبَادَاتِ إِلَّا وَقَدْ وَجَّهَ إِلَيْهَا الْعِلْمُ ضُرُوبًا مِنَ الْبَحْثِ لَا قَبْلَ لَهَا مُقَاوَمَتَهَا ، وَأَصْبَحَ مَا كَانَ يَخَالُهُ النَّاسُ مِنَ اللُّغَاتِ وَالتَّقْوِيسِ الْإِرْبَائِيَّةِ وَالْحُرُوفِ مُعْجَمَاتٍ لَا سَبِيلَ إِلَى الْإِهْتِدَاءِ إِلَى مَعَانِيهَا ، وَقَدْ نَبَذَتْ مَغَالِقَهَا ، وَأَلْقَتْ مِنْ يَدَيِ الْعِلْمِ مَقَالِيدَهَا ، وَأَسْلَمَتْ إِلَيْهِ أَسْرَارَهَا ، وَلَمْ يَنْ عَنِ الْأَغَالِطِ الَّتِي شَبَّهَا مِنْ الدُّهُورِ أَنَّهَا قَبِضَتْ رُؤُسَهَا فِي ظُلُمَانِهَا وَسَرَّتْ نَوَاجِجَهَا فِي حَنَادِسِهَا ، ^(١) فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي مُكْنَتِهَا أَنْ تُفْلِحَ فِي التَّغْيِيرِ بِالتَّعْيَلِ بِمَا لَهَا مِنَ الْقَدَمِ ، فَقَدْ عُرِفَ سَبَبُ حُدُوثِهَا وَكُشِفَ السَّتَارُ عَمَّا كَانَتْ تَرْتَعِدُ لَهُ قَرَائِصُ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الْمُجَرَّدَاتِ الْخَيَالِيَّةِ فَعَرَفَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَكُلَّهُ دَهْشٌ وَاسْتِغْرَابٌ لِخَوْفِهِ وَفَزَعِهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ الْيَوْمَ كَيْفَ تَشَاتَّ الْأَلِهَةُ ^(٢)

(١) المغالِق : جمع مغلَق وهو ما يغلَق به . (٢) المغالِب جمع مغلِب وهو المفتاح .

(٣) قبضت : اخذت واستمرت . (٤) نواجم جمع ناجة وهي ما ظهر وطلع .

(٥) الحنادس : جمع حندس وهو الأسود الشديد السواد والمراد بها الظلمات الخالكة .

(٦) يشبه كلام المؤلف هنا أن يكون تقريراً لمذهب الماسدين ويدل بفخواه على أنه لا يعتقد بالله ولا بملائكة ولا بصحة المذاهب الدينية في هذين المعنيين وينسب الى التواميس الكونية كل ما كان وما يكون ويؤمن أن العلم قد هداه الى أصل معنى الألوهية وهذا كله من غرور العقل نعوذ بالله منه ومن الغلو في النظر وما يؤدي اليه من الأشر والبطر . كيف يصل العقل الى معرفة كنه الآله وهو لم يصل الى معرفة نفسه ! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، والمذلة ولأمثاله أنهم نشأوا على دين منافض للعقل ولعله يريد بالآله الآلهة الباطلة كآلهة الوثنيين والمجوس والصابئين وغيرها فإن العقل السليم والعلم الصحيح يوجبان وجود الإله العلي الكبير المتصف بكل صفات الجلال والكمال المنزه عن جميع صفات النقص .

وَرَأَى مَذَاهِبَ كَانَ لَهَا مَا لِلْبِدِيعَاتِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالرُّسُوجِ تَضَاعَلَتْ وَتَلَاسَتْ أَمَامَ
الْعِلْمِ بِالنَّوَامِيسِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنَّ هَذِهِ الْمَذَاهِبَ فَوْقَهَا، وَأَبْصَرَ أَسْرَارًا
مُسْتَغْلِقَةً كَانَتْ تَعَاصَتْ عَلَى الْعَقْلِ أَذْغَعَتْ إِلَيْهِ الْآنَ فَمَضَى يَحْكُمُ فِيهَا يَكْشِفُ
أَصْلَهَا وَيَبَيِّنُ مَنْشَأَهَا .

مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِجْحَافِ عَدَمُ اعْتِبَارِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي تَرْبِيَةِ النَّاسِ،
فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ لَا يَدْخُلَ الْمَدَارِسَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْ نَتَائِجِ بَحْثِهِ إِلَّا بَعْدَ
قَرْنٍ مِنْ ظُهُورِهِ لَوْ دَخَلَهَا .

(اِنْتِقَادُ آدَابِ اللَّغَتَيْنِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ)

أَنَا لَا أُرِيدُ الْآنَ أَنْ أَشْتَغِلَ مِنْ وَجْهِهِ الْإِنْتِقَادِ إِلَّا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِآدَابِ اللَّغَتَيْنِ
الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ فَأَقُولُ : قَدْ اعْتَادَ الْمُعَلِّمُونَ أَنْ يُفَرِّدُوا هَذِهِ الْآدَابَ بِالْمَدْرِسِ
دُونَ بَقِيَةِ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ كَمَا لَوْ كَانَتْ آدَابُ كُلِّ لُغَةٍ فَرَعًا مُسْتَقِلًّا عَنْ تِلْكَ الْآثَارِ،
وَلَا أَرَاهُمْ يَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِلَى وَهْمٍ عُيْتُ مِنْ قَبْلِ يَدْحِضِهِ وَلِهَذَا
تَرَانِي ذَكَرْتُ « لِإِمِيل » أَهْمَاءَ أَلِهَةِ عُمَيْرٍ (هُومِير) وَمَا وَرَدَ مِنْ صِفَاتِهِمْ فِي أَسَاطِيرِ
الْمُنُودِ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ أَشْهَرَ وَقَائِعِهِمْ وَسَبَّكُونُونَ مِنْ مَهَارِفِهِ الْقُدَمَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ
عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ كَانُوا يُوَاصِلُونَ الْأَسْفَارَ وَيَجُوبُونَ الْأَقْطَارَ، وَكَيْفَ كَانَ
الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَوَدَّى فِي حَيَاتِ مُتَبَايِنَةٍ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَحْيَ وَفَقْتُ .

ذَكَرْتُ مِنْ شُعْرَاءِ الْأَقْدَمِينَ عُمَيْرٍ وَلِهَذَا الْمُنَاسِبَةِ أَوْدُ لَوْ أَدْرَى مَا الَّذِي يُوَدُّ
عَلَى التَّلَاسِيذِ مِنْ تَفْهِيمِ الْمُعَلِّمِينَ إِلَيْهِمْ : أَنَّ دِيَوَانِيَّةَ الْمُوسُومِ أَحَدُهُمَا بِالْعِلَابَادِ

(الْأَلْيَافَةَ) وَالثَّانِي بِالْعُدَيْسِي هُمَا مِنْ اِنْكَارِ رَجُلٍ مِنَ الْفَارِسِينَ إِذَا كَانَ جَمِيعُ النَّاسِ
الْيَوْمَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ تَوَلَّدَتِ الْقِصَصُ الشَّعْرِيَّةُ الْحَمَاسِيَّةُ فِي الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ .
لَا رَيْبَ أَنَّ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ حَمَاسٌ كَبِيرٌ وَصَبْرًا جَلِيلًا ، غَيْرَ أَنِّي سَأَتَحَامِي
كُلَّ التَّحَامِي أَنْ أَجْمَلَ سِيرَةَ أَخِيْلَ^(١) مَثَلًا تَمُودَجًا « لِإِمْلِيل » يَتَّخِذُهُ فِي سِيرَتِهِ ، فَإِنَّ
هَذَا الْبَطْلَ - الَّذِي عَبَتْ وَلَمَّا عَنْ مَصْلَحَةِ أُمَّتِهِ وَقَعَدَ عَنْ مَنَازِلَةِ أَعْدَائِهَا فِي حَوْمَةِ
الْوَعَى أَنْ أَبِي عَلَيْهِ قَوْمُهُ جَارِيَةً رَقِيقَةً كَانَتْ عَمَلًا لِأَطْمَاعِهِ ، وَكَانَ هَذَا سَبَبًا
فِي طُولِ مَدَّةِ رَزَايَا الْحَرْبِ وَشِدَائِدِهَا - لَمْ يَكُنْ حَقِيقًا رِضَا الْإِلَهِ عَنْهُ وَمِثْلُهُمْ
إِلَيْهِ ، فَهُمْ بِاشْتِغَالِهِمْ بِهِ وَإِعَاتِيهِمْ إِيَّاهُ عَلَى خَصْمِهِ لِشَجَاعَتِهِ غَيْرُ مُرَاعِيْنَ إِغْفَالَهُ
لِوَأَجِبِهِ قَدْ جَعَلُوا غَاقِبَةَ الْحَرْبِ عِبْرَةً سَيِّئَةً وَهِيَ ظَفَرُهُ يَهْكُتُورُ^(٢) أَيْ ظَفَرُ الطُّيْسِ
الْحَرْبِيِّ بِالْوَطْنِيَّةِ الصَّحِيحَةِ .

لَمْ يَقْتَصِرِ الْأَقْدُمُونَ فِيمَا جَهِلُوا مِنَ الْأُمُورِ عَلَى نُكْرِهِمْ بَعْضُ الْأُصُولِ الَّتِي هِيَ
الْآنَ أَسَاسُ وَجْهَانِ الْإِنْسَانِ ، بَلْ تَرَكُوا لَنَا مِيرَاثًا مِنَ الْأَبَاطِيلِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَاسِدَةِ
الَّتِي تَدْعُو دِرَاسَةَ كُبُيْهِمْ إِلَى بَقَائِهَا إِنْ لَمْ يُقَارِنَهَا الْإِحْتِرَاسُ وَالْحَذَرُ ، فَإِنَّ سَحَرَ
مَا يَحْفَظُ النَّاسُ مِنْ آثَارِهِمْ قَدْ حَمَى كَثِيرًا مِنَ الْمَظَالِمِ الْقَوْمِيَّةِ قُرُونًا حَدِيدَةً مِنْ
وَثْبَاتِ الْقَلِيلِ وَلَا يَزَالُ يَدُوذُهَا عَتَمًا ، وَإِنَّ الْمُغْرَمَ مِنَّا بِالْمُطَالَعَةِ الْمُفْرِطَةِ فِي الْمَعِيشَةِ
بَيْنَ كُنْهِهِ الْمُفْرِطِ فِيهَا بَيْنَ أَبْنَاءِ وَقْتِهِ يَرَى أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ قَلِيلَ النَّاتُرِ جَدًّا بِمَا شَاعَ

(١) اخيل في أساطير اليونان هو بطل يوناني أبواه تينيس وبسيل قتلته باريس في حضارة طروادة .

(٢) هكورت في أساطير اليونان هو ابن ريام وعقوبة وزوج اندروماك وولد استياكس قتلته اخيل أخذا

فِي النَّاسِ مِنَ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَرْجِعُ أَصْلُهَا إِلَى أَخْلَاقِ الْأَقْدَمِينَ
وَعَوَائِدِهِمْ .

الْحَضَارَةُ الْيُونَانِيَّةُ كَانَ لَهَا مِنْ وَجْهِ الْحُسْنِ مَا يُبْهِرُ الْأَعْيَابَ بِهَا ، وَلَوْ أَنَّ «إِمِيل»
كَلَّفَ بِدِرَاسَتِهَا كَلْفًا صَادِقًا لَمَا كُنْتُ إِلَّا فِي غَايَةِ الرِّضَا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي لَا أَحِبُّ
أَنْ يَكُونَ خُدْعَةُ التَّشْدِيدِ فِي مَبْلِهِ إِلَيْهَا لِمَا فِيهَا مِنْ وَجْهِ الْقُبْحِ أَيْضًا ، فَلَشَدَّ
مَا اخْتَفَرَ فِيهَا الرِّقِيُّ وَنَحَسَتْ قِيمَتُهُ وَنَسَبَتْ حَقُوقَ الْبَانِسِينَ وَالْمَقْلُوبِينَ فَلَمْ يَحْضُ
عَلَيْهَا أَحَدٌ ، اللَّهُمَّ إِلَّا الصَّيْحَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا انْبَعَثَتْ مِنْ أَعْمَاقِ وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ وَوَصَلَتْ
إِلَيْنَا بَعْدَ اخْتِرَاقِ حُجُبِ مَا مَرَّ مِنَ الْأَزْمَانِ ، وَلَكَمْ هَلَكَ فِي سَبِيلِ تِلْكَ الْحَضَارَةِ مِنْ
أَجْبَالٍ وَبَادٍ مِنْ أَنْسَالٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ يَعْنِي بِتَخْفِيفِ مَضِضِ الْبُؤْسِ الَّذِي
كَانَتْ تَقَاسِيهِ الدِّهْمَاءُ ، وَلَمْ يَكُنِ الْعَمَلُ يَسْتَوْجِبُ لِلْعَامِلِ أَذْنَى حَقٍّ مِنَ الْحَقُوقِ
لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَصْلُحُ إِلَّا لِأَيْدِي الطُّغَامِ ، نَعَمْ إِنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْحَضَارَةِ وَمَنْظَرَهَا
كَانَ مُوقِعًا فَإِنَّ مَا أَزْدَانَتْ بِهِ مِنَ الْفُنُونِ وَالشَّعْرِ وَاللِّدَنِ السَّمْعِ وَالْأَلَمَةِ الْبَاسِمِينَ
فِي وَجْهِهِ الْأَبْطَالِ كَانَ يَكْشُو تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمُغْتَبِطَةَ بَرُودًا جَمَعَتْ كُلَّ مَا لِلْكَالِ
الْمَنْشُودِ مِنْ ضُرُوبِ الْعَظِيمِ وَالْبَهَاءِ وَلَكِنَّ الْعِبْرَةَ بِالْمَخْبَرِ لَا بِالْمَنْظَرِ .

التَّارِيخُ الرُّومَانِيُّ هُوَ دُونَ التَّارِيخِ الْيُونَانِيِّ بِكَثِيرٍ لَا لِأَنَّ رُومِيَّةً لَمْ تَنْتِجْ رَجَالًا
بِكَارًا بَلْ لِأَنَّهُمَا كَانَتْ مُقَرَّبَتَيْنِ فِي عِبَادَةِ الْقُوَّةِ ، وَقَدْ لَاقَتْ جَرَاءَ هَذَا الْإِقْرَاطِ ، فَإِنَّمَا

(١) الخلدعة من بخدعة الناس .

(٢) الطغام أروافد الناس ولتأهم الواحد والجمع فيه سواء .

(٣) موقعا : ممجبا .

بَعْدَ أَنْ اسْتَعِدَّتْ غَيْرَهَا مِنَ الْأُمَمِ آلَ أَمْرُهَا إِلَى اسْتِعْبَادِ قَسِيمَا . فَلَقَتُنِي لِي هَذِهِ
الْأُمَّةُ الْفَاتِحَةُ — وَقَدْ أَظْهَرَتْ لِلْعَالَمِ مَا لِفَتْحِ مِنَ النَّاتِجِ الْإِزْمَةِ — مَا هِيَ الْأُمَمُ
الَّتِي عَلِمَتْهَا وَالشُّعُوبُ الَّتِي أَصْلَحَتْ شُؤْنَهَا ؟ أَرَى النَّاسَ يُثَلِّمُهُمْ أَخْبَارُ غَزَاوَاتِهَا
وَتَهْزُمُ أَحَادِيثِ نَصْرَاتِهَا وَلَا أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ يَسْتَفْصِي أَسْبَابَ مَصَائِبِهَا لِيَسْتَفِي مِنْ
جُنُونِ الْحَرْبِ وَيَبْرَأَ مِنْ هَوَسِ الْقِتَالِ .

إِنِّي إِذَا أَقْرَأْتُ « إِمِيل » الْيُونَانِيَّةَ وَاللَّاتِينِيَّةَ وَجَحَرْتُ لَهُ بِذَلِكَ يَبْذُوعَ الْأَدَابِ
الْقَدِيمَةِ وَالنَّارِخِ كَانَ قَصْدِي مِنْهُ وَلَا شَكَّ تَوْسِيعَ عَقْلِهِ وَتَتِمَّةَ إِدْرَاكِهِ ، بَيْدَ أَنِّي
أَرَمِي إِلَى غَايَةٍ أُخْرَى أُمْكِنَ فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا وَهِيَ أَنَّ أَثْنِي فِي نَفْسِهِ الْإِسْتِعْدَادَ
لِلْسُلُوكِ فِي هَذَا الْكَوْنِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ تِلْكَ الْأَدَابُ مِنْ أَسَى الْإِقْدَامِ النَّفْسِيِّ
وَالْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ وَحُبِّ الْوَطَنِ أَشَدُّ فِي قَلْبِ الْيَافِعِ تَأَثُّرًا وَأَبْلَغُ فِي نَفْسِهِ
مَوْعِظَةً مِنْ جَمِيعِ مَا يَقُولُهُ الْخُطْبَاءُ وَيُوصِي بِهِ الْحُكَمَاءُ ، بَلْ فِي نَفْسِ التَّحْمِيسِ
الَّذِي يَدُومُ مِنْهُ فِي اسْتِحْسَانِهَا بِذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، لِأَنَّهُ يُخْرِجُهَا مِنْ مَعْقِلِ امْتِنَاعِهَا وَيَحْلُمُهَا
عَنْ عَرْشِ صَافِيهَا يُسَوِّبُهَا بِمَنْ اسْتَحَقَّ الْحَيَاةَ اسْتِحْقَاقًا صَحِيحًا ، وَإِنِّي لَا أَقْطَعُ مِنْ
فَلَاحِ الطُّفْلِ الَّذِي لَا يَرُوقُهُ شَيْءٌ ^(١) ، وَأَمَّا مَنْ آتَسَ مِنْ نَفْسِهِ التَّأَثُّرَ بِمَا لَيْفَرُهُ مِنْ
بَهَاءِ الْعِظَمَةِ وَرَوْحِهَا فَذَلِكَ الَّذِي أُوتِيَتْ نَفْسُهُ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ . إِنْ فَضَائِلُ
الْفَائِرِينَ أَبْلَغُ مِنْ فَضَائِلِ الْحَاضِرِينَ فِي خَلْبِ الْخَيَالِ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ مَسْحَةِ الْقُوَّةِ
وَالْبَسَالَةِ ، وَأَعْمَالُ الْيُونَانِ وَالرُّومِ إِنْ لُبِدْهَا عَنَّا بِحَسَبِ تَرْتِيبِ الْأَزْمَانِ يُجَاهِيهَا الْبَعْدُ
وَالْقَرَابَةُ يَمِيزُ السَّمَاتِ الَّتِي قَدْ تُغَالِي بِهَا فَتَجْعَلُ لَهَا مِنَ الْقِيَمَةِ قَوْقَ مَا تَسْتَحِقُّهُ ،

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَزِيدُهَا إِلَّا لِحَاجَةً^(١) فِي دَعْوَةِ النَّاشِئِينَ إِلَى إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِ قَدْرِهَا،
وَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ مُخْطِئٍ فِي التَّوِيلِ عَلَى تَأْثِيرِ الْأَقْدَمِينَ فِي تَرْفِيعَةِ أَفْكَارِ
وَلَدِي وَتَهْذِيبِ خُلُقِهِ .

عَلَى أَنِّي أَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ جَمِيعَ مَا خَلَقُوهُ لَنَا لَا يَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ عَلَى السَّوَاءِ،
فَمَسِيْبُونُ^(٢) الَّذِي جَنَدَلُ^(٣) أُنْبِيَالُ وَدَمَرُ قَرْطَاجَةِ مَثَلًا بِالْبَطْلِ الَّذِي سَأَسْتَرِي إِلَى
سِيرَتِهِ ذَهْنَ «إِمِيل» كَلَّا ! بَلْ مَسْأُوجُهُ كُلُّ هَمَّتِي إِلَى تَفْهِيمِهِ أَنَّ مَا يُلَاقِي مِنَ الْمُزَانِمِ
إِجْلَالًا لِيُوجِدَانِ الْحَقَّ أَعْلَى مَرْتَلَةٍ وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنَ الْإِنْتِصَارِ بِبَيْضِ الصَّفَاحِ وَشَمْرِ
الرَّمَاكِ ، وَأَنَّ الْمَجْدَ الصَّحِيحَ إِنَّمَا هُوَ فِي عُلُوِّ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا ، وَسَأَقُولُ لَهُ :
أَرَأَيْتَ الْيَوْمَ الَّذِي انْتَصَرْتَ فِيهِ رُومِيَّةً عَلَى قَرْطَاجَةٍ ؟ فَذَلِكَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي وَفَى
فِيهِ رِيْمُولُوسُ^(٤) بِمَهْدِهِ فَانْطَلَقَ إِلَى إِفْرِيْقِيَّةَ وَحَدَّهُ لَا يَتَّبِعُهُ عَنْهُ لِحَاجَةُ زَوْجَتِهِ
وَأَوْلَادِهِ وَلَا دُعَاءُ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ مَعَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مَلَأَ حَقْفَهُ وَسَاجَ إِلَى هَلَاكِه ،
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ظَهَرَ أَنَّ رُومِيَّةً قَدْ بَرَزَتْ عَلَى قَرْطَاجَةٍ فِي صِدْقِهَا وَوَفَائِهَا ، وَلَمْ يَكُنْ

(١) الحاجة الى الاحياء .

(٢) سيبون واسمه ايجليان الملقب بالافريقى الثانى كان رابع اولاد بولس اميل ولد فى سنة ١٨٥
ومات فى سنة ١٢٩ ق م تبعه عمه الذى هو ابن الافريقى الاول من أسرة سيبون وكان على يده انتهاء
الحرب الثالثة بين رومية وقرباطة فكانت هى خاتمة هذه الحروب فانه اخذ قرباطة فى سنة ١٤٦ ق م .

(٣) انيبال هو قائد قرباطة تولى قيادة الجيش فى الحرب الثانية التى حصلت بين قرباطة ورومية
وبعد انتصاره فى مواطن كثيرة هزمه سيبون فانخرع بالم تحلفا من انتقام الرومانيين وأما قرباطة فهى
مدينة افريقية قديمة .

(٤) ريجولوس قائد روماني قتله القرباطيون لأنه أرسل من قبلهم الى رومية للفاوضة فى المبادلة
بالأسرى فكلم فى مجلس الشيوخ بما ينافى هذا الطلب وعاد الى قرباطة فات صبرا . (٥) برزطيه : فاته .

تَبْرِزُهَا عَلَيْهَا فِي غَيْرِهَا تَيْنِ الْفَضِيلَتَيْنِ إِلَّا أَمْرًا مُرْتَهَنًا يَوْفِيهِ إِذْ كَانَ لَا بُدَّ لِقَرطَاجَةَ مِنْ الْغَلَبِ وَالْقَهْرِ .

لَا مِرَاءَ فِي أَنَّ الْجُمْهُورِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ أَيَّامَ مَجْدِهَا وَعُلُوِّهَا كَانَتْ تُسْفِرُ عَنْ أَخْلَاقٍ شَرِيفَةٍ وَطَبَاجِ كَرِيمَةٍ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ حَالُهَا فِي عَصْرِ تَدَلُّهَا وَاضْمِحْلَالِهَا ، وَلَوْ أَنِّي أَرَدْتُ تَبْصِيرَ «إِمِيل» عَلَيْهِ هَذَا التَّلَلَّى لَحَصَرْتُهَا فِي إِعْوَازِ الْفَضَائِلِ الْجُمْهُورِيَّةِ إِعْوَازًا كَانَ سَبَبًا لِنَجَاحِ الْحُكْمِ الْمُطْلَقِ فِي رُومِةٍ وَطُولِ مُدَّتِهِ . فَلَسْتُ أَخْشَى عَلَى الْحُرِّيَّةِ مَا قَدْ بَنَانَهَا مِنْ الْأَخْطَارِ الْمَادِيَّةِ وَلَا أَخَافُ عَلَى رُومِةٍ أَنْ يَقِفَ بِأَبْوَابِهَا التَّرْكِينِيُّونَ^(١) أَوْ بَوْرَشِيَّةُ^(٢) يَنْتَعُونَ^(٣) الْإِسْتِغْلَاءَ عَلَيْهَا مَا دَامَ فِيهَا أَمْثَالُ مُوشْيُوسِ سِيفُولَا^(٤) ، إِنَّمَا الَّذِي أَخَافُهُ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ هُوَ خِصَّةُ الضَّائِرِ وَلَوْثُمُ السَّرَائِرِ .

فَقُوسَنَا هِيَ مَوَاطِنُ الظُّلْمِ وَمَكَائِنُ الْبَغْيِ فَالَّذِي عَلَيْنَا هُوَ أَنْ نُحَارِبَهُ فِيهَا وَنُجْلِيَهُ عَنْهَا قَبْلَ مُحَارَبَةِ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ وَإِجْلَاءِ الْجَبَّارَةِ الْغَاشِمِينَ ، مِنْ أَجْلِ هَذَا لَمْ يَكْ يَنْفَعْ بَرُوتُوسُ^(٥) وَأَنْصَارُهُ أَنْ يَفْسُدُوا بَطْنَ الْقَيْصَرِ فَإِنَّ قَلْبَ رُومِةٍ كَانَ مَقْرُوحًا بِالْإِدَاءِ الْقَيْصَرِيِّ .

(١) أعواز الفضائل قصصا أو فقدانها .

(٢) التركينيون هم بعض ملوك رومة الأولين .

(٣) بورشيتة هو ملك أرومية حاول إعادة التركينين إلى ملك رومية فهدده موشوس سيفولا فولى

مذعورا .

(٤) موشوس سيفولا هو رجل روماني أراد أن يقتل بورشيتة ملك أرومية فأخطاه وقتل كاتب

اسراره وأراد أن يثبت لهذا الملك ثبات الرومانيين فوضع يده اليمنى في جذوة نار مستمرة .

(٥) بروتوس واسمه مرقس جوليوس أحد قتلة قيصر الرومان .

كَانَ أَوَّلَىٰ بِذَلِكَ الرَّجُلِ وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَرَعَ تَاجَ الْمُلْكِ مِمَّنْ كَانَ مُسْتَعِدًّا لَهُ أَنْ
يَرْجِعَ أَوَّلًا إِلَىٰ قَلْبِهِ فَيَتَرَعَ مِنْهُ كِبَرَ الْأَشْرَافِ ثُمَّ يَتَرَعَ إِنْ اسْتَطَاعَ مِنْ قُوسِ
قُرْنَانِهِ مَا عَلِقَ بِهَا مِنَ الرِّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ الَّتِي تَقْتَضِي وَازِعًا يَرُدُّ مِنْ جَمَاحِهَا
وَيَكْفُفُ مِنْ نَزَاطِهَا، وَلَوْلَا تَقْصِيرُهُ فِي ذَلِكَ لَأَسْتَحَقَّ مَا آتَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الدَّالَّةِ
عَلَى الشَّهَامَةِ وَالْبَسَالَةِ أَنْ تُبَيِّنَ بِهِ مُحُفَّفُ النَّارِخِ، بَلْ كَانَ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ
أَنْ تَوْخَّرَ اسْتِقْرَارُ حُكْمِ الْإِسْتِبْدَادِ وَلَيْكُنْهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقُومَ بِالْأَمَةِ مِنْ وَهْدَةٍ
أَخِطَّاطِهَا .

حَدَّثَتْ فِي أَخْرِيَّاتِ أَيَّامِ الْجُمْهُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ أَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ شَوَّهَتْ عَاجِسَهَا
كَالنَّظَامِ السَّكْرِيِّ الْوَحْشِيِّ وَإِهْدَارِ الدَّمَاءِ وَضُرُوبِ التَّعْذِيبِ وَالْأَطْمَاعِ الْخَسِيسَةِ
وَبَيْعِ الصَّمَايِرِ وَسَاوِبِ أَرْسَالِ الضَّمَمَاءِ الْأَوْعَادِ التَّعْلُوقِ بِعَجَلَةِ الظَّالِمِ . عَلَى أَنَّهُ كَانَ
لَا يَزَالُ يَطْهَرُ فِي جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ قَرَارَةِ الدُّهْمَاءِ الْمَنُحَوِّكِينَ الْمُتَحَطِّينَ بَعْضُ
الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ طُهورُ الصُّخُورِ إِلَى شُرُفٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا مِنْ الْمِيَاهِ الْمُنْخَفِضَةِ .
وَلَا قُتُوطٍ مِنْ ارْتِفَاعِ شَأْنِ الْحُرِّيَّةِ مَا بَقِيَ فِي النَّاسِ أَبَاقُ لِلضَّمَمِ مُوقِفُونَ يَظْفَرُهُمْ
فِي النُّودِ عَنْهَا ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهَا وَقَدْ يُلَاقُونَ الْمَزِيمَةَ فِيهِ ،
وَلَيْكُنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ انْدِتَارَهَا انْدِتَارًا لَا قِيَامَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا تَرْقُ رُوحُ الْأَمَلِ مِنْ
حَيَاتِهَا مَتَى انْحَاذَتْ الْعُقُولُ بَعْدَ كَلَالِهَا وَهِيَ صَامِتَةٌ إِلَى حُكُومَةٍ مُطْلَقَةٍ ، لَيْكُنْهَا
سَاكِئَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ ، تَلِينُ لِلْمُحْكُومِينَ كُلَّمَا شَعَرَتْ بِإِزْدِيَادِ أَمْنِهَا وَزَوَالِ مَخَافِهَا ، فَأَضْرُ

(١) الأرسال جمع رسل بالفتح وهو القطيع من كل شيء .

(٢) الدهماء : جماعة الناس .

نَظَامٍ سَيَّاسِيٍّ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا هُوَ الْحُكْمُ الْإِسْتِدَادِيُّ الْمُجَرَّدُ مِنَ الصَّرَامَةِ
وَالْقَسْوَةِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ أَغُسْطُسَ لِلرُّومَانِ .

كَانَ مُجِبُّ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ لَا يَزَالُ يَتَغَدَّى بِبَعْضِ ضُرُوبٍ مِنَ الْفُرُورِ
غَرِيبَةٍ ، كَتَوْنِهَا لَا تَزَالُ خَيْرُ أُمَّةٍ بَلْ أَمِيرَةُ الْأُمَمِ ، وَكَوْنِ أَغْلَامِهَا وَالْوَيْهَاءِ لَا تَزَالُ
مُجَبَّلَةً فِي الْخَارِجِ ، وَكَوْنِهَا تَنْتَصِرُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ ، وَكَوْنِهَا صَاحِبَةُ
الْإِلَهِيَّةِ وَصُحُفِ الْكَاهِنَاتِ ، وَالْفَنُونِ الْجَمِيلَةِ وَالْآثَارِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَرُوقُ الْأَجَانِبَ ،
وَكَوْنِهَا جَدَّدَتْ بِنَاءَ رُومِيَّةٍ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْأَيْدِيَّةُ مِنْ قَوَاعِدِهَا إِلَى سُقُوفِهَا — كُلُّ
هَذَا صَحِيحٌ وَلَكِنْ وَاحْشَرَاتُهَا ! فَلَيْسَتْ تَعْبِئَةُ الْجُيُوشِ وَلَا إِتْنَاءُ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ
وَلَا بِنَاءُ الْمَعَابِدِ مِمَّا يُفْنِي عَنِ الْأُمَّةِ مِنْ سُقُوطِهَا شَيْئًا ، فَقَدْ بَقِيَ مَعْبَدُ الْمُشْتَرَى
الْمُسَمَّى بِالْقَابِطُولِ فِي رُومِيَّةٍ بَعْدَ فَنَاءِ الرُّومَانِ .

لَيْسَ لِي إِلَّا كَلِمَةٌ أَقُولُهَا فِي شُعْرَاءِ عَصْرِ أَغُسْطُسَ وَهِيَ : إِنْ أَحْسَنَ هَؤُلَاءِ
الشُّعْرَاءِ قِطْعًا فِي نَظَرِ الْمُعَامِلِينَ هُمَا : (فِرْجِيلُ) وَ (هُورَاسُ) فَهُمَا اللَّذَانِ يُجِبُّ
هَؤُلَاءِ أَنْ يُجَمَّلَ كُتُبُهُمَا فِي أَيْدِي النَّاشِئِينَ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا وَإِنْ كَانَ كَلَامُهُمَا قَدْ تَجَرَّدَ
فِي مُعْظَمِهِ مَا كَتَبَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وَكَرَامَتِهَا ، أَلَمْ يَلَاظْ مِنْ قَرَأَتِهِ فِرْجِيلُ ^(١) أَنَّ
نَفْسَ مَغْزَاهَا مَلِكِيٌّ وَهُوَ مَغْزَى مَا كَانَ يَرِدُ — عَلَى مَا أَرَى — فِي ذِهْنِ شَاعِرِ زَاهِرِ
الْخَيَالِ فِي أَيَّامِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْجَمِيلَةِ فَقَدْ وَصَفَ فِرْجِيلُ مَمْدُوحَهُ الْمُسَمَّى (عَنَى)

(١) عنبة فرجيل : قصيده غامضا في مدح عنى وهو أمير طروادى بن انتبز والزهرة ، وصفه فيها بأنه

بِالْإِنْسَانِ الَّذِي تَجَلَّتْ فِيهِ السَّيِّئَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَتَوَحَّشَتْ فِي تَخْصِيصِ الْأَمَةِ وَإِنَّا الْمُنَجَّى لِأَمَّتِهِ،
 الْمَوْسُسُ لِجِيلِهِ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَعَانِي يُرَى عَلَيْهَا أَنَّهَا مَوْسُومَةٌ بِمِجْسِمِ الْمَلِكِ الَّذِي
 بَرَزَتْ فِي عَهْدِهِ، وَمَطْبُوعَةٌ بِطَاجِ الْقَرْنِ الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ، وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ حَسَنَةً
 أَمْ قَبِيحَةً مِنْ حَيْثُ الْقَنِّ، فَهِيَ تَسْفُ عَنْ حَالَةِ الْعُقُولِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَتُسْفِرُ عَنْ
 الْخُطَّةِ الَّتِي رَسَمَتْهَا لِنَفْسِهَا الْحُكُومَةُ الدَّائِيَّةُ حَتَّى فِي نَفُوسِ الْخِيَارِ مِنَ الْأُمَّةِ .

إِنَّ أَجْوَدَ الْأَشْعَارِ وَأَحْسَنَهَا لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَحْجُبَ دَنَاءَةَ النَّفْسِ،
 وَلَا أَنْ يَسْتَرْخِصَةَ الطَّمَعُ . وَلَقَدْ كَانَ شِعْرُ الْأَتِينِ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِحَلْفِهِمْ بِمَا كَانَ يَصْدُرُّ
 عَنْهُمْ مِنْ ضُرُوبِ التَّمْلِيْقِ الْخَسِيسِ وَأَنْوَاعِ الْمَدَائِحِ الَّتِي كَانُوا يَطْرُقُونَ بِهَا أُعْطُسَ
 تَحْقِيقًا لِأَغْرَاضِهِمْ وَتَبَلًا لِأَمَانِيهِمْ، فَاسْتَوْا بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ لَا يَسْعُرُونَ وَظِيفَةً
 الْكُتُبِ وَالشُّعْرَاءِ الْمُتَرَفِّفِينَ، عَلَى أَنْ فَرَجِيلَ وَ«هُوَارَاسَ» كَانَا أَمِيرَي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ .
 وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُهُمَا فِيهَا إِلَّا عِيَالًا عَلَيْهِمَا .

أُلْخِصَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ فَأَقُولُ : إِنَّ دِرَاسَةَ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ تَخْتَلِفُ عَمَرَاتُهَا بِإِخْتِلَافِ
 الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَبَاشَرُ بِهَا فَاجِلَالُ هَؤُلَاءِ لَا قَيْدَ وَلَا تَمَيِّزَ وَلَا قَيْدَ يُؤَدِّي إِلَى مَا يُؤَدِّي
 إِلَيْهِ جَمِيعُ ضُرُوبِ الْوَقْفِيَّةِ وَهُوَ صَخَارُ النَّفْسِ وَضَعَتْهَا، ذَلِكَ بِأَنَّ مَا يُوْثِرُ عَنْهُمْ مِنْ
 الْمُحْفَظَاتِ وَالْخُرَافَاتِ وَالْكَتُبِ وَالْأَشْعَارِ الْحَسَنَةِ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّحَكُّمِ فِي النَّفُوسِ
 مَا لَا تَهْلُ الْخَشْيَةُ مِنْهُ عَلَى النَّاشِئِينَ، عَنْ خَشْيَةِ ظُلْمِ الْحُكَّامِ الْفَاشِسِينَ، وَتَحَكُّمِ^(١)

(١) الميسم : المكرةة يومس بها الحيوان ويعلش به سلطان الملك وقهره .

(٢) الناشئين جمع غاشم وهو الظالم والغاصب .

الطغاة المستبدين ، وبهذا سيطر العجب من أنه يوجد اليوم من تلاميذ اليونان والرومان من يلمسون في علوم البيان وسائل للدود عن مصالح الغابرين ومغالطاتهم ، ومنهم من يؤمنون منها دوداً حصينة للحرية تكف عنها عوادي الباغين .

نحن على ما فينا من النقايس كلها أحسن من الأقدمين حالاً وارفع شأننا ، وإن جاز علينا التدلل والانحطاط كما جاز عليهم ، لأن فينا قوة النهوض والارتفاع إلى ما انحططنا منه ، وأن لنا عليهم فضلاً كبيراً بسمو وجداننا ، فكاننا بتأخرنا عنهم في الوجود قد أخذنا على أنفسنا أن نكون خيراً منهم ، لأن وجدان الواجب كوجدان الحق ينمو ويرقى بمرور الزمان ، ولعمري إنه لا ينكر ما للحضارة الحاضرة من ضروب التأثير في النفوس والعقول إلا مكايير حيث الطوية ، ولست أريد بما قلته أننا أصبحنا بهذه الحضارة أكثر من الأقدمين أخلاقاً فاضلة ، وطباعاً بأسلة ، ومعارف وإسعة ، ونحمساً في الميل إلى الحسن . لا ! البتة ، بل أريد أن معاني العدل واحترام حق الغير قد شاعت فينا ورسخت في نفوسنا فصرنا أكثر منهم اهتماماً بمن يُخالفوننا في العناصر والأحوال القومية والأقاليم والأوان الجلود ، فنحن الآن من حيث كوننا من بني الإنسان أقل من اليونان والرومان بعداً عن كل ماله مساس بالإنسانية^(١) .

(١) قد أبدع أرام كل الابداع في المقارنة بين بعض رجال التاريخ اليوناني والرومان وبعض عهد فياصرة الرومان وبعض وفي بيان العبر التاريخية التي تستفاد من تاريخ المملكة الرومانية ووضع للورخين مثالا حسنا وقلة لانتزاع هذه العبر من الحوادث فينبغي لكل مؤرخ أو مدرس أن يحدتها وإلا كان عمله غير مجد ، وأما مفاضلة بين الغابرين والحاضرين وتمضيه هؤلاء على أولئك فقها نظر لانه ان صح ان معاني العدل واحترام الغير قد شاعت في الناس من حيث هم أفراد فليس يصحح شيوخا قيم من حيث هم جماعات وأما فلا تزال الأمم القوية تحقر الأمم الضعيفة وتمطعها حقوقها — المترجم .

الشذرة الثالثة عشرة

السفر من أركان القرية

إِنِّمَا تَنَازَرِيهِ النَّفْسُ وَتَحْفَظُهُ الذَّاكِرَةُ فِي الصَّغَرِ مِنَ اللَّصُوقِ وَالتَّمَكُّنِ مَا لَا
يُنْبِي عَلَى أَحَدٍ، هَذَا شَكْسِيرٌ يَدْعُو حَالَهُ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مُعْظَمَ الْفَضْلِ فِي بُلُوغِهِ تِلْكَ
الْمَكَانَةُ الْعَالِيَةُ فِي الشَّعْرِ يَرْجِعُ إِلَى نَسَائِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ نَهْرِ الْأَوْنِ الْأَيْبِقِ الَّذِي تَفِيضُ
مِيَاهُهُ عَلَى مَدِينَةِ اسْتَرَاتُفُورْدَ وَمَا يُحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَوْدِيَةِ الْخِصْبَةِ الْغَنِيَّةِ بِالشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ
وَمَجَاوِرَتِهِ لِغَابَةِ أَرْدَانِ الَّتِي كَانَتْ مُتَزَهًا لَهُ فِي سِنِّهِ الْأُولَى مِنْ حَيَاتِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ
أَنَّهُ لَمَّا كَتَبَ فِيمَا بَعْدُ الْقِصَّةَ الْمَرْزُوقَةَ الَّتِي عُنَوَانُهَا «كَمَا يُحِبُّ وَتَرْضَى» اخْتَذَ هَذِهِ
الْغَابَةَ نَفْسَهَا مَحَلًّا لِأَهَمِّ مَنَظَرٍ مِنْ مَنَاطِرِهَا، وَمِثْلَ أَمَا كُنْهَا لِلْفُغُوسِ، وَجَلَّى مَوَاقِعَهَا
لِلْأَذْهَانِ، يَأْجِزُ الْعِبَارَاتِ، وَأَوْضَحَ الْأَشَارَاتِ، لَمْ يَكُنْ هَذَا إِلَّا لِكُونِهِ مَعَ زُرُوجِهِ
عَنْ مَرْكَزِ اسْتَرَاتُفُورْدَ الَّذِي هُوَ مَسْقُطُ رَأْسِهِ لَمْ يَنْسَ مَنَظَرَ هَذَا الرِّيفِ بَلْ حَفِظَهُ
فِي مَطْوِيٍّ مِنْ مَطَاوِي نَفْسِهِ . وَهَذَا أَوَّلُهَا رَجُولُهُ سَمِثَ ذُو الْعَقْلِ الْبَاقِبِ وَالذِّكَا .
الْمَتَوَقِّدِ، لَمْ يُبْهِلْهُ حِينَ أَقَامَ فِي لُونْدَرَّةَ مَا شَاهَدَهُ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ وَالتَّشْوِشِ عَنْ
ذِكْرِ قَرْيَةِ (لَشَوِي) الَّتِي تَنَسَّاهَا فِيهَا، وَلَمْ يَنْسَ مَا كَانَ يَرَاهُ هُنَاكَ مِنْ جَدْوَلِ الْمَاءِ

(١) ينبي عليه الأم . لم يظن له . (٢) شكسير هو أشهر شعراء الانجليز كما مر .

(٣) نهر الأردن هو أحد أنهار النكترة المشهورة وهو قريب من مدينة استراتفورد .

(٤) استراتفورد أهم مدينة في مركز استراتفورد . (٥) غابة أردان هي في هذا المراد أيضا .

(٦) زوجه بده . (٧) أولغايار جولد سميت هو شاعر وقصصى انجليزى شهير ولد

(١) وَالطَّاحُونِ وَالْكَنِيسَةِ وَفُتَيْقِ الْحَمَائِمِ الثَّلَاثِ وَسَيَاجِ الْعِضَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِهَا، بَلْ مَدَحَهَا فِي انْفِصَةِ الَّتِي كَتَبَهَا بَعْدُ وَسَمَّاها الْكُنَيْتَ (الْأَبْرَنَ) . وَكَانَ وَاشِنْجَتُونُ إِرْفِنْجُ الْكَتَابِ الْمُجَوِّي الرَّحَالَةَ الَّذِي اسْتَهْوَى النُّفُوسَ بِمَدَائِعِ ظَرْفِهِ، وَخَلَبَ الْأَلْبَابَ بِدَقَائِقِ وَصْفِهِ، يَحْمَدُ اللَّهَ (تَعَالَى) أَنْ أَنشَأَهُ عَلَى ضِفَافِ بَحْرٍ وَأَوْشُونِ وَيَقُولُ : إِنَّ مَا كَسَبَهُ طَبِيعِي الْمُخْتَلِفِ الْعَنَاصِرِ مِنَ الْخَيْرِ وَالتَّهْدِيبِ يَصْهَحُ أَنْ أَرْجِعَهُ إِلَى حَمِيَّتِي لِمَدَا النَّهْرِ فِي صِغَرِي، فَقَدْ كُنْتُ فِي حِدَّةِ الْحَبِيبَةِ الصَّبَايَةِ أَكْسُوهُ بَعْضَ الْخَصَائِصِ النَّفْسِيَّةِ وَأَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ رُوحًا يَقُومُ بِهَا وَأُعْجِبُ بِمَا فِي طَبِيعِهِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّدْقِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَنْهَارِ الَّتِي تَسِيمُ صَفَحَاتِهَا عَنْ خِذَايَ، وَتُضْمِرُ السُّوءَ بِمَا تَحْتَهَا مِنْ الشَّعَابِ الْمُهْلِكَةِ وَالصُّخُورِ الْغَدَارَةِ، بَلْ هُوَ طَرِيقُ مَائِي بِبَيْحٍ جَمَعَ إِلَى عَظِيمٍ عَمَقِهِ كَثْرَةُ أَنْشَاعِهِ، يَحْمِلُ السُّفْنَ الَّتِي تُوَكِّلُ إِلَى أَمْوَاجِهِ يَقْلِبُ سَلِيمٍ وَنِيَّةٍ شَرِيفَةٍ، وَكُنْتُ أَنْخَبِلُ نَوْعًا مِنَ الْمَجْدِ وَالْعَجَبِ فِي اسْتِقَامَةِ مَجْرَاهُ وَسَكِينَتِهِ وَسَلَامَتِهِ الْبَاهِرَةِ .

إِنَّمَا مَثَلْتُ بِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِمِ النَّفْسِيَّةِ فِي حَيَاتِهِمْ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَرْتَابُ أَبَدًا فِي أَنَّ مَا يَحْتَفُّ بِالنَّاسِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأُمُورِ الْخَارِجِيَّةِ لَا يُحْدِثُ فِي نَفُوسِ جَمِيعِهِمْ أَثَرًا وَاحِدًا وَأَنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ أَيْضًا فِي دَرَجَةِ التَّأَثُّرِ بِهَا، وَأَنَّ مَا شَاهَدَهُ الْإِنْسَانُ فِي صِغَرِهِ يَلَازِمُهُ فِي كِبَرِهِ وَيَصْبِرُ جُرْأً مِنْ نَفْسِهِ،

(١) العضاء بكسر الهمزة جمع عضاة وعضة وهي الشجرة العظيمة الشوكية .

(٢) واشنجتون ارفنج هو أديب وقصصى أمريكي ولد سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨٥٩

(٣) بمرأوتون هو خليج متسع على السواحل الشمالية لقسم الانكليزي في أمريكا .

وَمَا حَبَّبَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ يَافِعٌ لَا يُجَانِبُهُ فِي كِبَرِهِ ، بَلْ يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي صُورَةِ خَلْقَتِهِ وَفِي مَجْرَى أَفْكَارِهِ .

لَيْسَ كُلُّ مَا يُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ مِمَّا تَنَاقَلَهُ مَشَاعِرُهُ يَصْلُحُ عَلَى السَّوَاءِ لِحِفْظِ حَقِيقَةِ عَقْلِهِ ، فَتَدْرِي أَنَّ (مِثْوَنَ) كَانَ يَتَأَلَّمُ وَيَشْكُو مَرَّ الشَّكْوَى - وَهُوَ يَتَلَقَّى دُرُوسَهُ فِي مَدْرَسَةِ (كَبْرِدَج) الْكَلْبَةِ - مِنْ صَوَاحِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مُلَمَّلًا شَكْوَاهُ بِأَنَّهُا خَلُوتِ مِنَ الظَّلَالِ الْوَارِقَةِ الَّتِي تَجَنَّبُ إِلَهَاتِ الشَّعْرِ وَتُؤْوِيهَا ، وَكَانَ (رُورْتْ هُولُ) الْكَاتِبُ الْإِنْجِلِيزِيُّ الدَّائِعُ الصَّبِيحِ الَّذِي كَانَ يَتَعَلَّمُ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ (مِثْوَنَ) يَفْرِنَ وَيُنْصِفُ يَنْسِبُ أَوَّلَ نَوْبَةٍ أَصَابَتْهُ مِنْ نَوَابِتِ الْجُنُونِ إِلَى اسْتِوَاءِ الْأَرْضِ بِمَرْكَزِ (كَبْرِدَج) وَخَلُوهَا مِنَ الرَّبِيِّ وَالْهَيْضَابِ ، الشَّجَرَاءِ .

النَّاسُ وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي دَرَجَاتِ تَأْتِرِهِمْ يَفْقِدُ مَا هُمْ مُتَحَاجُونَ إِلَيْهِ لَا أَظُنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَأَثَّرُ الْبَتَّةَ بِمَا يَكُونُ مِنَ الْمَيُوبِ وَالْمَنَاقِصِ فِي الْمَنَاطِرِ الرَّيْفَةِ الَّتِي يَرَاهَا عَلَى الدَّوَامِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا قَلِيلًا لَا يُعْتَدُّ بِهِمْ ، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَلَشَدَّ مَا يَبْلُغُ هَذَا التَّأَثُّرُ السَّيِّئُ مِنْ أَذْهَانِ الْأَطْفَالِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْبَالِغَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَالْخَيَالِ مَا يَكْفِي لِمُفَاعَلَةِ مَا يَحْتَفُّ بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، فَحَبَّبَهُ فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ أَنْ يَمْتَرِقَ قَلْبُهُ شِعَاعٌ مِنْ أَشْعَةِ الْحُبِّ ، أَوْ يَكُونَنَّ فِي نَفْسِهِ وَجْدَانٌ قَوِيٌّ ، أَوْ تَجْتَمِعَ فِي ذَهْنِهِ بَعْضُ الْمَعَانِي حَتَّى يَرْتَقِيَ بِالرَّيْفِ الْمُتَبَدِّلِ الَّذِي لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي ذَاتِهِ مِنْ شُبُوحِ الْإِنْدَالِ ، إِلَى الْإِخْتِصَاصِ بِشَرَفِ الْخَيَالِ ، وَلَبَسَ هَكَذَا حَالٌ

(١) ملون شاعر إنجليزي شهير ولد سنة ١٦٠٨ ومات سنة ١٦٧٤

(٢) الورلة التمسحة المنطة .

الْحَدِيثِ الَّذِي بَيْنَ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَالثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ السَّنَ لَا عَمَلَ لَهُ فِي فِطْرَةِ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي اسْتِعْدَادِهِ إِذْ ذَاكَ مَا يَكْسُوهَا بَهَاءً، وَبِزِيدِهَا رَوْقًا وَرَوَاءً، بَلْ هُوَ يَتَأَثَّرُ بِهَا كَمَا هِيَ، فَمِنْ الْقَوَائِدِ الْكُبْرَى لَهُ أَنَّ يُولَدَ أَوْ يَتَرَبَّى بِالقَرَبِ مِنْ بَعْضِ الْمَنَاطِرِ الْكُونِيَّةِ الْعُظْمَى كَمَنْظَرِ نَهْرِ جَبَلٍ أَوْ بَحِيرَةٍ أَوْ جَبَلٍ أَوْ غَايَةٍ .

مَنْظَرُ الرَّيفِ فِي (كُورُنُوَايَ) مَنْظَرٌ مَهِيبٌ غَيْرَ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا تَغْيُرُ فِيهِ، وَلَيْتَ هَذِهِ الْبِلَادُ كَانَتْ أَكْثَرَ أَجْزَاءً مِمَّا هِيَ الْآنَ، فَإِنَّ مَثَلَ الْيَافِجِ الَّذِي لَا يَرَى إِلَّا نَاحِيَةً مِنْ نَوَاحِي الْكُونِ كَالصُّخُورِ أَوْ الْبَحْرِ كَمَثَلِ مَنْ لَمْ يَفْرَأْ إِلَّا كِتَابًا وَاحِدًا .

لَا بُدَّ فِي تَرْبِيَةِ الْإِنْسَانِ خُصُوصًا فِي صِغَرِهِ مِنْ تَتَوَّعِ الْقَوَاعِلِ لِتَنْتَوَعَ آثَارُ انْفِعَالِهِ بِهَا، ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ يَمِيلُ إِلَى بَعْضِ الْمَنَاطِرِ دُونَ بَعْضٍ، حَتَّى يَكُونَ هَذَا النِّبْضُ الَّذِي يَمِيلُ إِلَيْهِ كَطَبْعِهِ فِي الْإِخْتِصَاصِ بِهِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ ضُرُوبَ الْحُسْنِ فِي الطَّبِيعَةِ تُقَابِلُهَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ مُنَاسَبَاتٌ ذَاتِيَّةٌ، وَلَيْسَ الْمَنْظَرُ الَّذِي يَتَخَيَّرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَنَاحُ إِلَيْهِ بِأَيْتِهِ عَلَى الدَّوَامِ عَفْوًا، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ السَّعْيِ وَرَاءَ تَحْصِيلِهِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَنْشَأُ أَتْفَاقًا فِي سَهْلٍ مِنَ السُّهُولِ وَيَكُونُ مِيلُهُ لِلْمَنَاطِرِ الْجَبَلِيَّةِ، وَبِوَاقِفٍ هَذَا قَوْلُ أَحَدِ الْكُتَّابِ فِي وَصْفِ رَجُلٍ لَا أَذْكَرُ الْآنَ مَنْ هُوَ :
إِنَّهُ عَرَبِيٌّ وَلَدَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَفَاجَّ بِنُورِ مَنَدِيَّةٍ^(١) .

(١) الرواء حسن المظهر .

(٢) نورمنديّة اقليم من الأقاليم الفرنسيّة القديمة التي دخلها العرب للغنائم .

بَلَّغَ « إِمْبِل » السَّنَّ الَّتِي تَبْدُو فِيهَا حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى الْخِلَاطِ بِمَا حَوْلَهُ ،
وَالْمُرُونَ يَحْدَعُونَ هَذِهِ الْحَاجَةَ فِي مُعْظِمِ الْمَرَاهِقِينَ ، بِإِسْنَانِهِمْ قِصَصًا فِي الْأَسْفَارِ
هِيَ وَلَا رَيْبَ أَدْعَى الْكُتُبَ إِلَى التَّفَاتِهِمْ إِلَيْهَا وَاشْتَغَالِهِمْ بِهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ مِمَّا لَا نِزَاعَ
فِيهِ أَنَّ وَصَفَ الْبِلَادِ بِالْفَا مَّا بَلَغَ مِنْ قُوَّةِ الْبَيَانِ وَضَبِطِ التَّحْرِيرِ لَا يَرْتَقِي فِي نَاقِدَةٍ
الْعِلْمِ بِهَا إِلَى دَرَجَةِ الْمُعَانِيَةِ ، بَلْ هُوَ أَدْنَى مِنْهَا كَثِيرًا وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسْتَفْنَى بِهِ عَنْهَا .
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ سِنُّ الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ هِيَ السَّنَّ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا هَوَسُ
الْمِلَاحَةِ فِي رُؤُوسِ الصَّغَارِ مِنْ سُكَّانِ الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْبَحْرِ كَانْجِلْتَرَةَ ، فَكَمْ مِنْ
هَؤُلَاءِ الصَّغَارِ الْبَسَلَاءِ يُصِيبُهُمْ مِنْ وَلُوعِهِمْ بِالتَّجَوُّلِ فِي الْأَقْطَارِ السَّجِيقَةِ مَرَضٌ
لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ ! كَمَا يُصِيبُ الْمُصْفُورَ الْخُطَّافُ فِي الْفَصْلِ الَّذِي يُهَاجِرُ فِيهِ
رِفَاقُهُ ، فَيَتَسَلَّلُونَ مِنْ بُيُوتِ أَهْلِهِمْ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهَا فِي حَيَاتِهِمْ . وَأَمَّا سُكَّانُ الْبِلَادِ
الْآخَرَى فَإِنَّ حُبَّ السَّفَرِ لَا يَكُونُ فِي الْكَثِيرِ مِنْهُمْ إِلَّا حَاجَةً وَقْتِيَّةً لِأَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ
يَقْضُوا سَبْعَ سِنِينَ عَلَى سَفَرٍ يَرْكَبُونَ فِيهِ ^(١) مَتْنِ الْمَهَالِكِ يَرْجِعُونَ إِلَى أَوْطَانِهِمْ فَيَعِيشُونَ
مَعِيشَةَ الْأَسْتِقْرَارِ .

الَّذِي يُدْعِيهِ مِنَ الْمُرَيْنِ هُوَ قُودُهُمْ حَتَّى الْآنَ عَنِ الْبَحْثِ فِي الْإِنْتِفَاحِ
بِالْأَسْفَارِ فِي التَّرْبِيَةِ وَجَعَلَهَا رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِهَا ، إِنْ قِيلَ : مِمَّا يَمْتَنِعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَاجَتُهُمْ
إِلَى الزَّمَنِ ، قُلْتُ إِنَّ السَّفَرَ إِلَى أَمْرِيكَ مَثَلًا لَا يَقْتَضِي إِلَّا مِنْ الزَّمَنِ أَكْثَرَ مِمَّا
يَلْزَمُ لِتَعْلِيمِ التَّلْمِيزِ شَكْلَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ تَعَالِيًا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ . عَلَى مَا فِي السَّفَرِ

(١) المتن : النهر واستعمل السفينة تشبيها لها بالمطلة التي يركب على ظهرها وانما سميت متن المهالك

لأنها ممرضة للطب في كل وقت .

وَمُعَانِيَةِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا يَسْتَفِيدُهَا الْمُتَعَلِّمُ مِنْ أَىِّ دَرَسٍ مِنْ
 دُرُوسِ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ كَمَايَّةَ كَانَتْ أَوْ قَوْلِيَّةً . وَإِنْ قِيلَ إِنَّ مَا يَقْتَضِيهِ السَّفَرُ مِنَ
 الثَّقَاتِ هُوَ الَّذِي يُجِيفُ الْمُرِينَ مِنْهُ وَيَصُدُّهُمْ عَنْهُ ، قُلْتُ قَدْ فَهِمْتُ هَذَا
 الْإِعْتِرَاضَ ، إِلَّا أَنَّهُ يُوجَدُ مِنَ الطَّرِيقِ غَيْرِ وَاحِدَةٍ لِلْسَّفَرِ يَدُونِ كَبِيرِ نَفَقَةٍ ، وَإِنَّمَا أَكْبَرُ
 الْمَوَاقِفِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ هُوَ حَذَرُ آبَاءِ وَالِائِهَاتِ وَخَوْفُهُمْ عَلَى أَوْلَادِهِمْ ، فَإِنَّ فِكْرَةَ
 غَيْابِ الْعَلَامِ الْغَرَّ عَنْ نَظَرِ أُمِّهِ ، وَوَكَلِهِ لِأَمْوَاجِ الْبَحَارِ ، وَتَحَاوِفِ الْأَسْفَارِ ، وَتَحْلِيَةِ
 وَنَفْسِهِ بِمَا يَبْجِعُ نَفُوسَ الْأُمَمَاتِ وَتُثَوِّلُهُ قُلُوبَهُنَّ ، لَا جَرَمَ أَنَّ أَهْمِيَّتَهُنَّ بِأَوْلَادِهِنَّ
 حَقِيقٌ بِالْإِحْتِرَامِ وَالْإِجْلَالِ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهِمَهُنَّ الْقَائِمُونَ عَلَى التَّرْبِيَةِ أَنَّ لَيْسَ
 فِي الْغِيَابِ شَيْءٌ يَقْطَعُ أَوْاصِرَ الرَّحِمِ ، وَأَنَّ عُرَى الْمَحَبَّةِ وَالْوِدَادِ تَجْمَعُ بَيْنَ الْقُلُوبِ
 الشَّرِيفَةِ وَالنُّفُوسِ الْكَرِيمَةِ مَهْمَا تَسَعَتْ مَسَافَةُ الْبُعْدِ بَيْنَهُمَا ، وَأَنَّهُ لَا خَوْفَ مِنَ الْحُرِيَةِ
 إِلَّا عَلَى الْأَبْنَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُمُ الْإِسْتِقْلَالَ بِالسَّرِّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ . عَلَى أَنَّهُ
 لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَحَبَّةُ الْوَالِدَيْنِ لِأَوْلَادِهِمَا الْأَعْزَاءِ مَقْصُودًا بِهَا لَدُنَّهُمَا ، بَلْ لَا بُدَّ
 أَنْ تَكُونَ غَايَتُهَا الْحِرْصُ عَلَى مَصْلَحَتِهِمْ ، فَإِنَّ رَحْمَتَهُمَا بِهِمْ تَدْبُ إِلَيْهَا شَبْهَةُ الْأَثَرِ ^(١) إِذَا
 انْخَصَرَتْ فِي إِغَائِثِهِمْ فِي كَيْفِيَّتِهِمَا ^(٢) وَإِنْ أَخْلَ ذَلِكَ بِتِلْكَ الْمَصْلَحَةِ .

وَفَرَقَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَبَثِ أَنْ اسْتَعْمِلْتُ فِي آيَاتِنَا هَذِهِ قُوَّةَ الْبَحَارِ
 فِي طَيِّ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَةِ وَتَقْرِيبِ الْأَقْطَارِ الْمُتَنَانِيَةِ ، وَأَبَدَتِ الْمِلَاحَةَ فِي قُوتِهَا

(١) الأثر : اختيار الشيء . والاختصاص به دون الغير .

(٢) كيف الشيء : جانبه وناحيته وظله وكف الإنسان : حضه

وَرَخَّصَتْ لِلنَّاسِ أَسْوَارَهَا ، فَأَصْبَحَ السَّفَرُ إِلَى الْبِلَادِ الْمُسَامَةِ لَنَا مِنْ أَسْفَلٍ مُعْتَبَرًا
عِنْدَ شُبَّانِ الْإِنْجِيلِزِ مِنْ قَبِيلِ التَّزْهِ وَتَمْخِصَةِ وَقْتُ الْفَرَاغِ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ شَرَعَ النَّوْعُ
الْإِنْسَانِي نُمُوَ أَجْنَحَتِهِ لِلرُّقَى فَلَا يَحِصُّ مِنَ السَّلِيمِ ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ لَا تُقْنِي حِكْمَةُ
الشُّبُوحِ الزَّائِرَةِ عَنِ السَّفَرِ ، وَلَا الْجَدُولُ الْإِطْلَاقِي شَيْئًا مِمَّا يَجِدُهُ خَلْقُنَا فِي هُوسِهِمْ
مِنَ الْحِمِيَةِ وَالْحَاجَةِ إِلَى رُؤْيَةِ الْعَالَمِ .

جَمِيعُ الْأُمَمِ الْحُرَّةِ أُمَمٌ رَحَالَةٌ لَا يَمُوقُهَا بَعْدُ الْمَسَافَاتِ ، وَلَا اخْتِلَافُ الْأَقَالِيمِ ،
وَلَا الْعَقَبَاتُ الْمَادِيَّةُ ، بَلْ وَلَا تَعَقُّهَا الْمَتِينُ الْأَعْمَى بِالزَّائِيَةِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا مِنْ
الْأَرْضِ .

الْقَوَائِنُ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا تَوَزُّعُ أَجْيَالِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى الْبُلْدَانِ قَدْ تَحَدَّدَ
بَعْضُهَا بِالْفِطْرَةِ ، وَبَعْضُهَا بِالتَّارِيخِ ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا بِسِيَاسَةِ الْحُكُومَاتِ ، وَمَا زَالَ الْحَالُ كَوْنُ
فِي كُلِّ عَصْرِ يُعْنَوْنَ أَشَدَّ الْعِنَايَةِ بِأَنْ يَعْيشَ الْمَحْكُومُونَ وَيَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي
يَنْبَسِطُ عَلَيْهَا سُلْطَانُهُمْ ، سِوَاهُ فِي ذَلِكَ الْأَغْنَاءُ مِنْهُمْ وَالْفُقَرَاءُ ، وَقَدْ اسْتَنْجُوا مِنْ
كَوْنِ هَذَا الْأَمْرِ مُفِيدًا لِمَصَالِحِ مُلْكِهِمْ أَنَّهُ مِنَ الْقُرُوضِ الَّتِي لَهَا عَلَى رِعَايَاهُمْ ،
وَتَجَحُّوا فِي إِقْنَاعِهِمْ بِذَلِكَ ، وَكَانَ مِنْ أَوْهَامِ الثَّمَرِينَ ، وَخَيَالَاتِ الشُّعْرَاءِ ، وَأَفْكَارِ
رِجَالِ الدِّينِ ، مَا تَضَافَرَفِي قُرُونٍ طَوِيلَةٍ عَلَى أَنْ يَفْرَسَ فِي الْقُلُوبِ غَيْرَةُ يَشْتَرِكُ فِيهَا
الْإِنْسَانُ وَالْعَجَمَاوَاتُ ، وَهِيَ حُبُّهُ لِلْمَكَانِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ ، نَعَمْ إِنَّهَا مِنَ الْفَرَاغِ
الْحَسَنَةِ ، وَلَا تَلْسُ أَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِي تَأَلُّفِ الْجَمَاعَاتِ ، وَلَكِنْ لَا يَعْزُبُ عَنْ^(١)

ذِكْرَكَ أَيُّضًا أَنَّهُ يَسْهُلُ أَنْ يُسَاءَ اسْتِعْمَالُهَا لِيَسْقَى الْمُسْتَظْفُونَ مِنَ النَّاسِ عَيْنًا
لِلْأَقْوِيَاءِ الْعَاشِمِينَ .

لَمَّا كَانَتْ جَمَاعَاتُ الْإِنْسَانِ فِي بَدَايَةِ تَشَاتِيهِ قَدْ انْتَحَصَرَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا
فِي بُقْعَةٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، كَانُوا مُعْتَادِينَ مِنْ صِغَرِهِمُ الْمَعِيشَةَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي
يَحْدُونَ فِيهَا مَا يَقْتَاتُونَ بِهِ، وَوَصَلَتْ بِهِمْ هَذِهِ الْحَالَةُ إِلَى حَدِّ أَنْتَهُمْ قَدْ عُدُوا هَذِهِ
الْعَادَاتِ الْإِنْحِصَارِيَّةَ مِنَ الْقَضَائِلِ، وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَعُدُّهَا إِلَّا مَمِئَةً، وَلَا أَقْدُرُهَا بِمَا
لَا تَسْتَحِقُّ، فَمَا زَالَ الْفَلَّاحُ اللَّاصِقُ بِأَرْضِهِ يُقْلِبُهَا وَيَزْرَعُهَا أَدْنَى مَرَّةٍ عَلَى الْجُمْلَةِ
مِنَ الْمَدَنِيِّ، وَالْمَدَنِيُّ نَفْسُهُ يَسْتَفِيدُ وَيَرْفَى كَثِيرًا إِذَا أُنْسَعَ نِطَاقُ مُعَامَلَاتِهِ مَعَ
الْعَالَمِ .

الْأُمَمُ الَّتِي تُكُونُ عَالَةً عَلَى أَرْضِهَا، أَجْنَبِيَّةٌ عَنْ لُغَاتِ غَيْرِهَا، فِي وَسْعِهَا - وَلَا شَكَّ -
أَنْ تَقُومَ بِعَظَائِمِ الْأُمُورِ وَجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ، لِكِنَّهَا تُكُونُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا اسْتِغْنَاءً
لِقَوَارِعِ الْبَغْيِ السِّيَاسِيِّ، فَإِنَّهَا لَا تَسَاقُتُ مِنْ تَعْطِيلِ الْقَوَانِينِ، وَلَا مِنْ أَطْغَالِ كِفَالَاتِ
الْحُرِّيَّةِ، وَلَا مِنْ دُورِ حُقُوقِ الْأَفْرَادِ وَاهْتِزَاجِهَا، ذَلِكَ لِأَنَّ أَسْنَاءَهَا يَتَصَقُّونَ وَهُمْ
كَالْمُسْتَحْمِلِينَ بِقِطْعَةِ الْأَرْضِ الَّتِي تُؤْوِيهِمْ، وَقَدْ دَنَسَهَا الدَّمُ الَّذِي سَفَكَهُ عَدُوُّهَا
الظَّافِرُ وَجَعَلَ مِنْهُ قِرَابًا لِسَيْفِهِ، فَالْوَعْرَابُ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْمَصَائِبِ،
وَلَوْ أَحَاطَتْ بِهِمْ فَوَادِحُ الْخَطُوبِ الْقَوْمِيَّةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَإِذَا نَفَى بَعْضُ ذَوَى
الْوَجَاهَةِ وَالْفُؤُودِ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُسْتَظْفَةِ، إِمَّا بِمُحْكَمِ الضَّرُورَةِ أَوْ بِمَا يُتَّخَذُ مِنْ
طَرِيقِ الْقُوَى فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ، كَانَ النَّفْيُ أَبْلَغُ الْمَحْنِ فِي نُفُوسِهِمُ الْمَاءَ، فَتَرَاهُمْ حَبَّارَى

لَا يَدْرُونَ أَيَّ يَدْهَبُونَ، وَلَا مَاذَا يَصْنَعُونَ ، وَقَدْ صَارَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَهُمْ خَارِجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ حَمْرَاءَ يُوزَمُّ فِيهَا الدَّلِيلُ ، قَفْرًا مُوحِشًا لَا يَجِدُونَ فِيهِ إِلَّا بَيْسًا .
وَأَمَّا الْأُمَّةُ الَّتِي يَتَنَادُ أَفْرَادُهَا مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ قَطْعَ أَجْوَارِ الْبَحَارِ ، وَلَا يَكُونُونَ بِمَعْرِزٍ عَنْ لَفَاتِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى وَعَوَائِدِهَا ، وَيَدْرُسُونَ أَبْعَدَ ضُرُوبِ الْحَضَارَةِ عَنْهُمْ وَأَشَدَّهَا اخْتِلَافًا ، فَإِنَّهَا لَا يَكُونُ لِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَلَيْهَا سَبِيلٌ ، وَلَا يَتَحَشَّى بَنُوهَا بَطْشَ الْقَوَانِينِ الْخَاصَّةِ ، وَلَا التَّغْرِيبَ ، بَلْ يَكُونُونَ أَصْدَقَ مِنْ فُلَيْسُ الثَّانِي ^(١) إِذَا قَالُوا مُتَشَبِّهِينَ بِهِ : « مَا كَانَتِ الشَّمْسُ لِتَغْرُبَ عَنْ حُكُومَتِنَا » .

وَلِفَسَائِلُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ عَادَةَ السَّفَرِ قَدْ تَضَعُفُ فِي الْأَحْدَاثِ الْعَاطِفَةِ الْوُطَنِيَّةِ ، فَأُجِيبُهُ : إِنِّي لَا أَمِيلُ قَطْعًا إِلَى عُمُومِ مَعْنَى الْوُطَنِيَّةِ وَاتِّسَاعِهِ ، فَمَا أَتَسَّسَ مِنْ تَكُونِ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَطَنًا لَهُ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكُونُ إِنْسَانًا إِلَّا بِشَرْطِ أَنْ يَتَسَبَّبَ إِلَى طَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الْبَيْتِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ لُغَةٌ وَأُمَّةٌ خَاصَّتَانِ بِهِ ، غَيْرَانِهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَهَّمَنَّ أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ الْحَقِيقِيِّ يَضِيعُ كَثِيرٌ مِنْ مَعْنَاهُ إِذَا تَجَرَّدَ عَنْ رَوَابِطِ الْوُطَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ ، الَّتِي كَثِيرًا مَا تُشَوِّهُهُ وَتَبْخَسُ قِيَمَتَهُ ، فَلَيْسَ الْوَطَنُ مُطْلَقًا عِبَارَةً عَنِ الْحَبْلِ أَوْ السَّهْلِ أَوْ الْغَدِيرِ الَّذِي يُولَدُ الْإِنْسَانُ بِجَوَارِهِ اتِّفَاقًا ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْقَرَمِدِ أَوْ الْحَجَرِ ، وَلَا هُوَ بِالْمَكَانِ الَّذِي يَحْصُرُهُ سَطْحٌ يُقَدَّرُ بِالْفَرَاسِخِ الْمُرَبَّعَةِ ، كَلَّا ! لَيْسَ الْوَطَنُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ مَعْنَى يَقُومُ بِالذَّهْنِ ، بَلْ تَارِيخُ الْأُمَّةِ ، بَلْ

(١) فليس هو ابن أمتاس أحد ملوك مملكة النخبة الذين سموها بهذا الاسم حكيم من سنة ٣٥٩

الم سنة ٣٣٦ ق م وقع بلدا كثيرة . (٢) القرمد : الأجر المحرق .

آثَارَ سَلَفِهَا ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : إِنَّهُ وَجُودُ كُلِّ شَيْءٍ جُزْئِيَّاتُهُ بِالْمَعِيشَةِ فِيهِ ، وَلَا شَيْءَ مِنْ ذَلِكَ كَلَّهَ يَضِيعُ فِي رُكُوبِ مَتَنِ الْحَارِ وَلَا فِي اجْتِنَازِ الْمَفَاوِزِ وَالْفَقَارِ ، إِذَا يُقَسَّ عَلَى لَوْجِ الْقَلْبِ وَارْتَاضَتْ بِهِ النَّفْسُ .



جَاءَنَا أَخْبَارٌ مِنْ بِلَادِ الْيَرُودِ بِوَاسِطَةِ بَعْضِ مَعَارِفِنَا تَحْمِلُ عَلَى الْإِعْتِقَادِ بَأَنَّ دُولُورِسَ قَدْ سَلَبَتْ أَمْوَالَهَا سِتْرَاطِي حَصَلَ بَيْنَ أَقَارِبِهَا ، وَقَدْ اسْتَفْتَيْنَا الْعَارِفِينَ بِالْقَانُونِ فَمَكَدُوا يُجْعَمُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقِضِيَّةَ الْغَامِضَةَ لَا يَنْبَغِي عُيُوضُهَا وَلَا يَنْكَشِفُ سِرُّهَا إِلَّا فِي الْيَرُودِ ، وَأَنَّهُمْ يَقْتَضِي أَنْ نُوسِطَ فِيهَا صَدِيقًا يُعْهَدُ إِلَيْهِ بِمَصْلَحَةِ الْفَنَاءِ الْمَهْضُومَةِ ، فَتَقَبَّلْنَا عَنْ هَذَا الصَّدِيقِ فَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ .

صَنَائِعُ الْبَرِّ يَسْتَلْزِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَإِنَّا وَإِنْ لَمْ تَبْنِ هَذِهِ الْفَنَاءَ الْأَجْنِبِيَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْهَا ، وَأَوْيَئَهَا إِلَى بَيْتِنَا ، وَصَارَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْنَا إِنْصَافُهَا فِي بَلَدِهَا .

فَكَرَرْتُ فِي أَنْ أَسَافِرَ يَنْفِيسِي لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمَصْلَحَةِ ، فَرَأَيْتُ غَيْرَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْعُقَبَاتِ تُدَاوِنِي عَنْ تَفْهِيدِ هَذَا الْقَصْدِ ، مِنْ ذَلِكَ مَا يَقْتَضِيهِ قَطْعُ تِلْكَ الشَّمَةِ الْبَعِيدَةِ مِنَ النِّفَقَاتِ ، وَعَدَمُ احْتِمَالِ الْفُوزِ بِالْحَقِّ فِي الدَّعْوَى ، وَالرَّوَابِطُ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِالْبَقَاءِ فِي أَوْرُبَةٍ ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَإِنَّ سَبْعِينَ اعْتِرَاضًا قَوِيًّا قَدْ وَقَفَتْ بِي مَوْقِفَ الْمُتَرَدِّدِينَ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ ، فَقَدْ تَمَاهَدْتُ أَنَا وَهَيْلَانُهُ بَعْدَ الَّذِي دَفَعْنَاهُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ أَنْ لَا تَفْتَرِقَ ، وَلَا أَدْرِي إِنْ كَانَ فِي مُكْتَنَبِهَا احْتِمَالُ سَفَرٍ شَاقٍّ كَهَذَا ، وَلَوْ أَنَّهُ اقْتَضَى أَنْ تَحْتَمِلَ مَضَضَ الْفُرْقَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً لَمَا تَرْتَبُّتُ فِي أَطْرَاجِ حَاطِرِهِ .

عَلَى أَنَّ هَذَا الْخَاطِرَ لَا يَزَالُ يُسَاوِرُنِي، وَالْحَالَةُ الَّتِي أَصْبَحْنَا فِيهَا بِسَبَبِ كِفَالَتِنَا
لِتِلْكَ الْفَتَاةِ الْعَزِيزَةِ عَلَيْنَا، وَمَا يَلْحَقُنَا مِنْ تِعَابِ التَّقْصِيرِ فِي شُؤْنِهَا، لَمْ تَكُنْ تَتْرَكُ لِي
حُرِّيَّةَ الْإِخْتِيَارِ فِي السَّفَرِ، بَلْ قَدْ شَعَرْتُ بِوَارِدِ بِأَمْرِي بِهِ أَمْرًا .

وَأَقُولُ عَلَى أَىِّ حَالٍ : أَفَلَا يَحُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُتَأَفِّفًا بِتَعَدُّ الْمَقْدُورِ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُ سَتَارًا لِإِخْفَاءِ نَقَاطِهِ ؟ أَفَلَا يَصْغَحُ أَنَّنَا مَعَ اعْتِقَادِ امْتِنَانِنَا فِي الْعَمَلِ
لِحُكْمِ الضَّرُورَاتِ نَتَّبِعُ فِي أَغْلِبِ أَعْمَالِنَا مَا تُوجِّهُ إِلَيْنَا بَهَوَاتِنَا، أَوْ تَمْزِجُ الْمُصْلَحَةَ
الَّتِي نَتَحَيَّلُ أَنَّنَا قَوْمٌ بِهَا لَغِيرِنَا بَشَىءٍ مِنَ الْآثَرَةِ، أَوْ يَكُونُ مِثْلِي الْفَرِيزِيُّ إِلَى التَّجَوُّالِ
هُوَ الَّذِي قَدْ تَنَبَّهَ فِي نَفْسِي، وَاجْتَهَدْتُ فِي مَوَارَاتِهِ بِحَبَابِ صَنِيعَةِ الْمَعْرُوفِ، أَوْ أَنْ
تَكُونَ لِي غَايَةُ خَاصَّةٌ أَوْ سَبَبٌ خَفِيَ بِدَفْعِي إِلَى تَغْيِيرِ الْمَوَءِ الَّذِي أَنَا فِيهِ ؟

لَسْتُ أَقْطَعُ بَشَىءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنِّي كَلَّمَا تَسَاءَلْتُ خَيْلِي لِي أَنْ فَصِدِّي الْأَوَّلَ
إِنَّمَا هُوَ نَفْعُ الْوَلَدَيْنِ اللَّذَيْنِ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي تَرْبِيَتَهُمَا .

لَوْ كَانَ فِي وُسْعِي أَنْ لَا أَسْتَفْتِيَ إِلَّا مِثْلِي وَذَوِي، لَحَازَ أَنْ لَا تَكُونَ الْبُيُوتِي
الْمَكَانَ الَّذِي اتَّجِدُهُ مِنَ الْأَرْضِ مَوْضُوعًا لِلدَّرْسِ وَالْعَلِيمِ، وَذَلِكَ لِفِرْطِ بُعِيدِنَا،
وَلَكِنْ مَا أَوْسَعَ السَّفَرُ إِلَيْنَا مِنْ مَلْعَبٍ يَتَجَلَّى فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالْمَرَايِ !
إِذْ بَرَى الْمُسَافِرُ سَمَوَاتٍ مَجْهُولَةٌ لَهُ، يَمُرُّهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ مَا لَا يَبْصُرُ أَطَارَافَنَا الْكَامِدَةَ
لَيْلًا، وَبَحَارًا مَشْعُونَةً بِالْفَرَائِبِ، وَسَوَاحِلَ قَاصِيَةِ أَرْزَاقِهَا لِلْعِيَانِ فَمِلَ الْعِجَالِ النَّارِيَّةِ،
وَخَلِيطًا مِنَ الْأَجْبَالِ الْأَدَمِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَمِمْ امْتَرَاجُهَا وَلَمْ تُسْفِرْ أَخْلَاقَهَا عَنْ تَارِيخِ تَامٍ .

سِنُ الْمَرَاهِقَةِ هِيَ السَّنُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا التَّأَثُّرُ قُوًّا، فَيَمِىَ الَّتِي تَنْتَقِشُ فِيهَا عَلَى الْمَخْ صُورَةُ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ أَمْ أَنْتَقَاشَ وَأَدَقَّهُ، وَعِنْدَ «إِمِيل» الْآنَ مِنَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ - إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمًا - مَا يَكْنِي لِاشْتِغَالِهِ بِالْكُونِ، وَسَيُؤْهِلُهُ دَرَسُ الْوَقَائِعِ الْكُونِيَّةِ الْمُحْسُوسَةِ لِدَرَسِ الْمُعْقُولَاتِ، فَإِنَّ تَعْلِيمَ فَنِّ الْأَلْفَافِطِ وَمَحَسَّنَاتِ اللَّغَةِ لِحَدِيثٍ لَمْ يُنَاصِدْ شَيْئًا بِنَفْسِهِ وَرِاقَبَهُ وَيَحْسُ بِهِ كَثَرُ الزَّهْرِ فِي كَهْفِ اه .

الشذرة الرابعة عشرة

التَّزْيِيَةُ بِرُكُوبِ الْبَحْرِ

عَنْ مِينَاءِ لُونْدَرَةِ فِي ٣ مَارِسَ سَنَةِ ١٨٦٦

فِي الْبَحْرِ : - تَقَرَّرَ أَنْ يُفْلَعَ أَحْمَابُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقْلِنَا فِي يَوْمَيْنِ وَهَاتَيْنِ أَوْلَاءِ سَنَامٍ فِيهَا مِنَ الْآنِ .

ذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ قَرَأْتُ فِي الْمُصْحَفِ الْأَنْجَلِيزِيِّ مِنْذُ سِنَةٍ أَمَابِعَ إِعْلَانًا بِأَنَّ سَفِينَةً تُسَمَّى الْمُونِيْتُورُ تُسَافِرُ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَى يِلَادِ الْبِيرُو، فَلَمْ أَلْبَثْ عِنْدَ وُصُولِي إِلَى لُونْدَرَةِ أَنْ سَأَلْتُ عَنْهَا وَلَا قِئْتُ رُبَّانَهَا فِي أَحْوَاضِ الْمِينَاءِ وَهُوَ رَجُلٌ فِي نَحْوِ الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ، أَسْمَرٌ قَصِيرٌ بَادِنٌ^(١)، تُؤَدِّدُ بَدَانَتَهُ بِأَن تَنْتَبِىَ بِسَمَنِ مُفْرَطٍ مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ عَيْشَةِ الْجِدِّ وَالنَّشَاطِ، وَبَطْرِى النَّاسَ خِبْرَتَهُ وَمَنَانَةَ سَفِينَتِهِ، وَإِنِّي قَلْنَا صَادَقْتُ وَجْهًا أَطْلَقَ مِنْ وَجْهِهِ، وَلَا أَدَلَّ مِنْهُ عَلَى الذِّكَاةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لِي

أَنَّهُ عَرَفَ فِي أَسْرَافِيَّةٍ رُبَاتًا جَسُورًا أَقْطَعَ لِلْمَلَاخَةِ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهَا، كُنْتُ سَافَرْتُ
مَعَهُ فِيمَا سَبَقَ وَأَتَّخَذْتُهُ صَدِيقًا، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي صَدِيقُ صَدِيقِهِ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِصَدْرِ رَحْبٍ
وَقَلْبٍ سَلِيمٍ، وَكَانَ مِنْ بَتِيجَةِ هَذَا التَّمَارِفِ أَنَّ أَتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّ أَكُونَ طَبِيبًا لِلْسَّفِينَةِ كَمَا
كُنْتُ لِهَذَا الصَّدِيقِ، وَأَنْ يَكُونَ «إِمِيلُ» تَلْمِيزًا بِحَرِيًّا فِي مَدَّةِ السَّفَرِ .

لَمَّا تَمَيَّعَتِ وَالِدَتُهُ بِهَذَا ارْتَاعَتْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِمَا تَوَقَّعَتْ لَهُ مِنْ سُوءِ الطَّالِعِ
فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ، فَاجْتَهَدَتْ فِي تَسْكِينِ رَوْعِهَا مُبِينًا لَهَا مَقَاصِدِي مِنْهُ .

بَلَغَ «إِمِيلُ» الْآنَ مِنَ السَّنِّ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةً، وَأَصْبَحَ طَوِيلَ الْقَامَةِ
قَوِيَّ الْجِسْمِ، يَتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ تَامَةٍ، مِنْ أَسْبَابِهَا فِيمَا أَرَى نِظَامُ الْمَعِيشَةِ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ،
وَقَدْ بَدَأَ لِي أَنْ أَشْتَغَلَهُ بِتَعْلِيمِ الْمَلَاخَةِ فُرْصَةً مُفِيدَةً لِتَرْبِيَةِ قُوَّتِهِ الْبَدَنِيَّةِ، وَشَدَّ
أَعْضَائِهِ، وَتَدْلِيلِ عَضَلَاتِهِ، بِأَعْمَالٍ تَقْتَضِي مِنَ الْمَهَارَةِ مِثْلَ مَا تَقْتَضِيهِ مِنَ الشَّجَاعَةِ
الْحَقِيقِيَّةِ، فَإِنِّي وَهَلَانَهُ مَا قَصَدْنَا قَطْعًا أَنْ نَجْعَلَهُ وَاحِدًا مِنْ أَجْنَةِ الْعِلْمِ الْفَاسِدِ،
الَّذِينَ لَا حَيَاةَ لَهُمْ إِلَّا فِي رُؤُوسِهِمْ . فَلْيَعَجَبْ مَنْ شَاءَ بِأُولَئِكَ الْمُرَاهِقِينَ السَّقَامِ
الْمُخَدَّجِينَ الَّذِينَ أَنْجَزَهُمُ الدَّرْسُ عَنِ الْعَمَلِ، فَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي نَطْلُبُهُ «لَا مِيلَ»

رَأَيْتُ النَّاسَ فِي مَكَانٍ لَا يَحْضُرُ فِي اسْمِهِ الْآنَ يَمُحُّونَ بَاطِنَ الصَّدْفَةِ فِي بَعْضِ
الْحَيَوَانَاتِ الرَّخْوَةِ يَطْلِفُ خَنْجَرٍ لِيَحْمِلُوا هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى تَوَلِيدِ اللُّؤْلُؤِ بِالصَّنَاعَةِ،
فَذَلِكَ يُشِيرُ أَنَّ يَكُونَ شَأْنُ الْمُرَيْنِ نَعْمَ أَحْسَنَ التَّلَامِيدِ، فَهُمْ يَتَلَفُّونَ بَنَاهُمْ، وَيَنْهَكُونَ
أَجْسَادَهُمْ، وَلَا أُدْرِي أَيُّ قَصْدٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ سِوَى تَحْصِيلِ مَجْمُوعٍ مِنَ الْمَعَانِي

تَحَجَّرُ فِي أَذْهَانِهِمْ ، تَوَاضَعُوا عَلَى أَنْ يُسَمُّوَهَا عَلَبًا !! ! غَيْرَ أَنَّ فِي شَكٍّ مِنْ أَنْ
مَا يَحْصُلُهُ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي بِعَوَضِهِمْ شَيْئًا مِمَّا خَسِرُوهُ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِهِ
مِنْ قُوَّاهُمْ وَمَا أَتْلَفُوهُ مِنْ صِحَّتِهِمْ .

وَلَسْتُ أَقْصِدُ قَوْلِي هَذَا تَرْيِيطَ الْمُتَعَلِّمِينَ عَنِ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِيَعْلَمَ ،
وَلِأَمَّا أُرِيدُ أَنْ يَفْهَمُوا أَنَّ الْعَمَلَ الْبَدَنِيَّ وَالْعَمَلَ الْعَقْلِيَّ مُتَكَافِئَانِ فِي لُزُومِهِمَا لِقُوَّةِ
الْعَقْلِ وَإِحْصَائِهِ^(١) ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَرْبِّيَ كُلَّ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ لَنَا وَلَا نَسْتَحِفَّ بِشَيْءٍ مِنْهُ .

إِسْتَشَرْتُ «إِمِيلَ» قَبْلَ اعْتِرَاضِي عَلَى هَذَا الْفِكْرِ فَالْتَفَيْتُهُ مَمْلُوءَ النَّفْسِ بِهِ ، لِأَنَّهُ
كَجَمِيعِ أَتْرَابِهِ يُحِبُّ الْجَدِيدَ وَيَأْتُسُ مِنْ نَفْسِهِ نَحْرًا بِتَعَلُّمِهِ حِرْفَةً ، وَيَجِبُ فِي هَذَا
الْمَقَامِ أَنْ أُبَيِّنَ مُرَادِي ، وَهُوَ أَنَّي لَا أَعْتَقِدُ بِإِلْهَالِ أَنْ مِنْ حَقِّ أَنْ اخْتَارَ لَوْلَدِي عَمَلًا
تَقُومُ بِهِ مَعِيشَتُهُ ، كَمَا أَنِّي لَا ادَّعِي لِنَفْسِي حَقَّ إِلْزَامِهِ الْإِيمَانَ بِعَقِيدَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ ،
عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ وَقْتُ التَّفَكُّيرِ فِي الْحِرْفَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَغِلَّ بِهَا ، وَلَا أَدْرِي هَلْ
يَعْرِفُ بِنَفْسِهِ مَا يُلَائِمُهُ مِنَ الْحِرْفِ أَوَّلًا ، فَإِنْ تَرَيْتَهُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنْ نَهَائِجِهَا ،
بَلْ هِيَ فِي بَدَايِئِهَا ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّهُ مَهْمَا حَذَقَ الْمُرَبِّي فِي التَّبْكِيرِ بِإِنْسَاءِ الطِّفْلِ
عَلَى الْقَبِيلِ إِلَى التَّفْعِ وَالطَّمَعِ فِيهِ ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ عَجَلَةً مَذْمُومَةً ، وَلَقَدْ عَرَفَ «إِمِيلُ»
مِمَّا تَلَقَّاهُ عَلَى وَالِدَيْهِ مِنَ الدُّرُوسِ شَرَفَ الْعَمَلِ وَكَرَامَتَهُ ، فَتَرَاهُ يَتَخَيَّلُ الْآنَ أَنَّهُ
سَيَكْسِبُ أَجْرَ سَفَرِهِ بِتَسْلُفِهِ شُرْعَ السَّيْفِيَّةِ ، وَهُوَ نَحِيلٌ غَيْرُ صَحِيحٍ إِلَّا فِي جُرْئِهِ ، فَبَرَّ
أَنِّي نَحَامَيْتُ كُلَّ النَّحَامِيِّ إِزَالَةَ هَذَا الْوَهْمِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَتَرَكْتُ لَهُ أَنْ يَفْخَرُ بِأَنَّهُ يَطْعُمُ

خُبْرُهُ الْخَفَافُ بِكَلَمِهِ وَتَصْنِيهِ، فَإِنَّ أَقْلَ مَا فِي هَذَا أَنَّهُ مَقْخَرَةٌ كُنْتُ أَكُونُ جَدِيرًا بِاللَّوْمِ
لَوْ أَنِّي حَرَمْتُهُ مِنْهَا .

ثُمَّ إِنَّ التَّعْلِيمَ فِي سَفِينَةِ تِجَارِيَةٍ مُفِيدٌ وَمُقَوِّ لِلْعَقْلِ، خُصُوصًا إِذَا كَانَتْ مُدَّةُ
لَا تَتَعَدَّى بَضْعَةَ شُهُورٍ، فَحَرِيَّةُ الْإِنْسَانِ عَلَى ظَهْرِ الْبَحَارِ هِيَ أَنْ لَا يَخْضَعَ إِلَّا إِلَى
الْوَاجِبِ، فَطَاعَةُ الْبَحَّارِ فِي الْحَقِيقَةِ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْإِخْتِيَارِ، وَهَذِهِ هِيَ الْخَاصَّةُ الْفَارِقَةُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُنْدِيِّ، فَالرَّجُلُ الَّذِي يَرَى مِنْ نَفْسِهِ الْجَهْلَ يَبْغِضُ نَوَامِيسَ الْكُونِ
فَيُبْذِلُ مِنْ قُوَّتِهِ مَا يَكْفِي لِمِثَالِ أَمْرِ الرُّبَّانِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ بِقَوْلِ مُوجَزٍ مَا جَهْلُهُ مِنْ
تِلْكَ النَوَامِيسِ، يَكُونُ قَدْ جَمَعَ فِي عَمَلِهِ هَذَا بَيْنَ الْإِسْتِقْلَالِ وَالْحِكْمَةِ .

لَسْتُ أَبَالِغُ لِنَفْسِي الْبَتَّةَ فِيمَا لِهَذَا التَّعْلِيمُ مِنَ الْآثَارِ الْحَسَنَةِ وَالتَّأْتِجِ الْمُقْبِيَةِ،
فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ «إِمْلَ» لَنْ يَكُونَ بَحَّارًا لِمُجَرَّدِ مَا يُمَارِسُهُ مِنْ ضُرُوبِ التَّسَرُّنِ فِي حَبَالِ
السَّفِينَةِ، بَلَدَ أَنْ بَلَاءَهُ فِي ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ اسْتِفَادَتُهُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ
بِوَاسِطَتِهِ يَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ الْبَحْرِ، وَيَعْرِفُ أَجْزَاءَ السَّفِينَةِ الْأَسَاسِيَةَ وَمَا يُطْلَقُ
عَلَيْهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ، فَكَثِيرٌ مِنْ أَتْرَابِهِ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا السَّاجِدَةِ .

أَخْصَ مَا أَغْنَى بِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يَحْصَلَ فِي ذَهْنِهِ بِالْإِخْتِيَارِ وَالْمُشَاهَدَةِ مَعْنَى
مِنَ التَّوَكُّلِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظْمَى، وَمَا يَلْزَمُ لِلْإِنْسَانِ فِي مُقَاوَمَتِهَا أَوْ قَوْرَهَا مِنْ ثَبَاتِ الْجُنَاشِ
وَحُضُورِ الْفِكْرِ، وَمَيَّكُونُ هَذَا أَعْظَمُ دَرَسٍ لَهُ فِي سَفَرِهِ، وَمِمَّا لَا يَسْمُنِي إِلَّا أَنْ أَتَحَكَّ
مِنْهُ أَنِّي أَمْنَعُ بَعْضَ الْمُعَلِّمِينَ يَقُولُونَ لِنُظَمَائِهِمِ الْمُبْتَطِلِينَ^(١)، الَّذِينَ وَرِمُوا مِنْ صِغَرِهِمْ

كَبْرًا وَغُرُورًا، إِنَّهُمْ مُلُوكُ الْخَلْقِ ، فَهَلَّا وَصَفُوهُمْ أَيْضًا بِأَنَّهُمْ أَيْضًا الرِّقِيقَةُ
لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَتَقُودَ عَجَلَةَ الشَّمْسِ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ ! رَوَيْدًا أَيْهَا الْمَعْلُومُونَ ، قِفُوا هَؤُلَاءِ
الْمُلُوكَ أَمَامَ الْبَحْرِ فَانْظُرُوا مَا يَعْزِيبُهُمْ مِنَ الرَّعْبِ خَشْيَةً أَنْ تَبْصُقَ أَمَاجُهُ الْكَثِيفَةُ
فِي وُجُوهِهِمْ .

وَأَمَّا «إِمِيلُ» فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الْآنَ مَا يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِلَهُ الْإِنْسَانُ فِي سَبِيلِ
سَيَادَتِهِ عَلَى الْفَوَاعِلِ الْكُونِيَّةِ ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعَهَا فِي كِفَاجٍ مُسْتَعِيرٍ لِحِفْظِ
سُلْطَانِهِ عَلَى عَرْشِ الْمَاءِ .

حَدَّثْتُ الرُّبَانَ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَهْمٌ ، فِي شَأْنِ وَلَدِي وَكَاشَفْتُهُ بِفِكْرِي فِي تَرْبِيَّتِهِ ،
فَفَهِمَ حَقَّ الْفَهْمِ الدَّرْسَ الَّذِي أَرَدْتُ تَعْلِيمَهُ إِيَّاهُ ، وَهُوَ أَنَّ مِنَ الْمَقْرُوضِ عَلَى
الشُّبَّانِ أَنْ يَعْتَبِرُوا الْعَمَلَ الْعَقْلِيَّ جَزَاءً لِلْعَمَلِ الْبَدَنِيِّ وَمُكَافَأَةً عَلَيْهِ .

الشذرة الخامسة عشرة

مَا يُتَعَلَّمُ فِي السَّفِينَةِ

فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ شَهْرِ مَارِسَ بَلَعْنَا مِينَاءَ حِرَافَسَنْدَ ، حَيْثُ سَلِمَ مَعْرِفُ التَّامِيزِ ^(١) ^(٢) ^(٣)
زِمَامَ سَفِينَتِنَا إِلَى مُعَرِّفِ الرُّقَاقِ (الْبُوعَاذِرِ) الَّذِي أَخَذَ الْآنَ عَلَى نَفْسِهِ إِبْلَاعَنَا
مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

(١) حِرَافَسَنْدَ هي إحدى موانئ انكلترا وموقعها في الجنوب الشرقي لوندرة .

(٢) المعروف : الدليل .

(٣) التاميز نهر من أنهار انكلترا يمر بإكسفورد ولوندرة وصب في بحر الشمال .

فِي نَحْوِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْمَسَاءِ بَرَزَ الرِّبَانُ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَتَعَهَّدَ بِنَفْسِهِ مَا يُحِبُّ فِيهَا مِنَ الْمُسُونِ كَالْمَاءِ وَالْبُقْمَاطِ وَبَرَامِيلِ الْحَمِيمِ الْمُحْلَجِ وَاسْتَوْتَقَّ مِنْ سَلَامَتِهَا ثُمَّ قَضَيْنَا لَيْلَتَنَا عَلَى الْمَرَسَةِ .

وَقُرْبَ حَدِّ الظُّهَيْرَةِ مِنَ الْقَدِ سَارَتْ بِنَا السَّفِينَةُ تَجْرُهَا بِأَحْرَةٍ صَغِيرَةٍ الْحَجِيمِ شَدِيدَةُ الْقُوَّةِ تُسَمَّى «نِلْسَن» ، وَفِي وَقْتِ مُرُورِنَا حَيْثُ مَنَارَةٌ «نُور» هَبَّتْ عَلَيْنَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ فَأَمَكَّتَنَا مِنْ مَدِّ بَعْضِ الشَّرْعِ ، ثُمَّ تَغَيَّرَ لَوْنُ الْمَاءِ فَصَارَ ذَا خُضْرَةٍ كَدَرَاءٍ .

كَانَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ هِيَ الْمُعَيَّنَةُ لِنُزُولِي إِلَى مُجَرَّاتِ الْمُسَافِرِينَ لِعِبَادَتِهِمْ فِيهَا ، وَلَيْسَ الْفَيَّامُ شُؤُونِ الصَّحَّةِ فِي سَفِينَةِ انْجِلِيزِيَّةٍ كُبْرَى مِنَ الْأَعْمَالِ (الوظائف) الَّتِي يُؤَجَّرُ صَاحِبُهَا بِإِلَّا نَصَبٍ وَلَا كَدٍّ ، فَإِنَّ «الْمُونِيُور» تَحْمِلُ حَمْسَةً وَثَلَاثِينَ رَاكِبًا مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى ، وَقَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقْوَى عَلَى أَوَّلِ صَدْمَةٍ لِلْبَحْرِ عَدُوَّ الْإِنْسَانِ وَيَكُونُ آمِنًا مِنَ الْعِتَارِ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْ مَرَضِهِ إِلَّا هَيْلَانَةٌ وَأَمْرَاتَانِ أُخْرَانِ أَوْ ثَلَاثٌ .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ بَلَعْنَا حَوَالِي الْكُتُبَانِ ، فَالْتَقَى مُعَرِّفُ الرُّقَاقِ (البوغاز) مُقَابِلَ السَّفِينَةِ إِلَى رُبَانِهَا ، وَتَزَلَّ بِالسَّاحِلِ ، ثُمَّ رَجَعَتْ الْبَاحِرَةُ الْجَارَةُ بَعْدَ إِبْلَاغِنَا هَذَا الْمَكَانَ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ ، وَوَكَّلْنَا إِلَى قُوَانَا أَيْ إِلَى شُرْعِ سَفِينَتِنَا ، وَلَمَّا رَأَى الْمُسَافِرُونَ وَالْمَلَا حُونَ أَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ هِيَ آخِرُ مَوْقِفٍ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ بِالْإِقْتِرَابِ مِنَ الْبَرِّ حَمَلُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْمَعْرِفَ رَسَائِلَ لِأَصْدِقَائِهِمْ تُتَضَمَّنُ بِالْبَدَاهَةِ آخِرَ وَدَاعٍ لَهُمْ .

١) حبال : ازاء . ٢) الشرع : جمع شراع وهو قطع السفينة . ٣) الزقاق في الأصل :

الطريق الضيق والسكة سواء . أكانت نافذة أم غير نافذة وأسبغ هنا اللجاز من الماء . يكون بين أرضين موصلا لبحرين .

جَاءَ دَوْرُ الْبَحَّارَةِ الْآنَ فِي الْعَمَلِ قَدُوا أَيْلِسُهُمْ إِلَيْهِ بِهَمَّةٍ وَإِقْدَامٍ ، وَاشْتَلَّ
 الصَّابِطُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي لِلْسَّفِينَةِ بِقُرْبَيْبِ الْحَرَسِ ، فَمِينَا لِكُلِّ حَارِسٍ عَمَلُهُ ، ثُمَّ تَدَلَّى
 مِنْ جَمِيعِ السَّوَارِي وَهِيَ فِي نَصِيفِ ارْتِفَاعِهَا أَنْسِجَةً طَوِيلَةً فَفَحَّتْهَا الرِّيحُ وَصَفَقَتْهَا ،
 فَأَنْشَأَتِ السَّفِينَةُ تَمِيدُ ، وَكَانَهَا شَعَرَتْ بِاسْتِقْلَالِهَا مِنْ وَقْتِ أَنْ نَابَتْ إِلَيْهَا أَجْنَحَتُهَا ،
 وَكَانَتْ قُيِّلَ هَذَا تَبَدُّو عَلَيْهَا عَلَامُ الْكَتَابَةِ وَالْحَجَلِ أَنْ تَرَى مَقُودَةً بَغِيرِهَا .

أُذِيرَتْ عَلَى الْمَلَّاحِينَ كَأَسْ مِنْ نَحْرِ عَسَلِ السُّكْرِ اسْتَحَقُّوْهَا كُلَّ الْإِسْتِحْقَاقِ
 بِكُدِّهِمْ وَنَصَبِهِمْ .

مِمَّا عَرَفْتُهُ مِنَ الْأَمَّاكِينِ فِي مَسِيرِنَا (يَشَى هَد) وَهُوَ رَأْسُ فِي أَمِيرِيَّةٍ (فُونْتِيَّة)
 صَاسِفَسْ ، وَجَزِيرَةٌ وَابِتْ وَسَتَارَتْ بُوَيْنَتْ ، وَقَدْ صَارَ الْمَاءُ الْآنَ ذَا نُضْرَةٍ بَيْجَةٍ ،
 تَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ أَغْشَابُ بَحْرِيَّةٍ تُسَمَّى التَّنَّ الطَّوِيلِ . صَادَقَتْنَا سَفِينَةٌ رَاجِعَةٌ إِلَى
 إِنْجِلْتِرَةَ نَحَاطَبْنَاهَا بِأَعْلَامِنَا الْمُلَوْنَةِ وَسَلَّانَاهَا هَذِهِ اللَّغَةَ السَّرِيَّةَ أَنْ تُبَلِّغَ سَفَرِ سَفِينَتِنَا
 مَكْتَبَ الْمَلَّاحَةِ لِشَرَكَةِ لِيُودَ .

انْتَهَيْنَا مِنْ اجْتِبَازِ الرِّقَاقِ (البُوغَازِ) نَخْرَجْنَا مِنْهُ وَكَانَ الْجَوْ صَحْوًا فَصَعِدَ
 الْمُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ لِاسْتِنْشَاقِ النَّسِيمِ الْبَارِدِ .

قَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّحْجَ مَرَّةً ^(١) لَمْ يَكُنْ مَرَاهُ فِيهَا مَثَارًا لِلْعَجَبِ فِي نَفْسِي ، وَلَكِنْ أَحْصَى
 مَا شَغَلَ ذِهْنِي مِنْهُ الْآنَ هُوَ جُمْلَةُ الْمُلُومِ الَّتِي اسْتَفَادَهَا الْإِنْسَانُ مِنْ مُمَارَسَةِ الْبَحْرِ :

- (١) صفقتها : ضربتها . (٢) تميد : تحرك . (٣) نابتة : رجعت .
 (٤) الحج : معطم الماء .

انظر إلى النظام الكوني نجد علم الهيئة الذي يبحث فيه عنه إنما تولد من الملاحه ،
فإنه لولا أن حاجة الانسان إلى الإهنداء في سيره على ظهر البحار دفعته إلى درس
الفلك لكان من المحتمل أن لا يخطر بباله أصلاً أن يتقصى سرا من أسرارِهِ ،
فاحتياجه إلى السعي في طلب الغنى هو الذي اضطره إلى قياس الزمان والأبعاد
قياساً مضبوطاً ، فترى الملاح الساذج مع أنه لا يعرف القراءة حائراً بالتحقيق
لكثير من العلوم العميية ، سه أن شئت ، وليكن ذلك عن بعض الأمور الطبعيية
نجد كلامه فيها يرجع إلى ما قرره العالم الذي قضى سنين كاملة في دار من دُور
الكتب . وإذا كنا الآن قد أننا نظن أن للرياح والزوايج قانوناً فإما كان ذلك
يسبب ما جمع من ملاحظات البحارة المختلفين في السفن الموزعة على جميع
البحار ، فأصبح أشد الفواعل الكونيية استعصاء على الضبط مُتقاداً إلى قانون ،
ودخل أبعد الحوادث عن النظام في نظام العلم العام ، وكشفت المسابير أغوار قعر
المحيط وقفاره المفروشة بأسلاب فرائسه ، وأضحى الآن من المتيسور رسم خريطة
لتيارات البحر السفلية ، ثم إن الفضل فيما عرفناه من العلوم الصحيحة عن شكل
العالم راجع إلى الملاحين .

خلق البحر مثلاً للزلزل ، لأنه مثال للحركة ، فشهد تولد الياسات المتعاقبة
وانعدامها ، وارتفاع الجبال ، وما وقع على مر الدهور من ضروب فيل الأرض وانفعا لها

(١) يتقصى : يبلغ الغاية في معرفة . (٢) المسابير : جمع سبار وهو الآلة التي يسير بها
أى يمتحن بها الغور . (٣) الأسلاب : جمع سلب وهو ما يسلب .

(٤) إن أراد بكونه مثلاً لا زل بعد جهد خلقه فذلك صحيح وإن أراد أنه قديم أزل فذلك غير صحيح
لأنه مخلوق حادث — المترجم .

مَّا لَا يَزَالُ يَرْجِفُ مِنْهُ قُوَادُهُ ، وَهُوَ الْيَوْمَ كَمَا كَانَ فِي مَبْدِئِ الْعَالَمِ لَا يَتَوَرَّعُ نَسَبٌ
 فِي جِهَادِهِ وَجِلَادِهِ ، فَتَرَاهُ يَمْضُ بَعْضُ سَوَاحِلِهِ وَيَقْرِضُ مَا يَقَاوِمُهُ مِنَ الصُّخُورِ
 الصَّوَانِيَّةِ ، وَيَقْتَلِعُ بَعْضُ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ مِنْ أَمَا كُنْ مُخْتَلِفَةً ، فَيَقْلَعُهَا مِنْ أَحَدِ نِصْفَيْهَا
 إِلَى النِّصْفِ الْآخَرِ ، لِيُنِيَّ بِهَا سَوَاحِلَ جَدِيدَةٍ وَجَزْرًا وَرَعُوسًا لَا بُدَّ أَنْ يَهْدِمَهَا بَعْدُ ،
 وَيَبْدَأَ بِهِ عَلَى الْعَمَلِ يَتَحَوَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ عَلَى تَعَاقُبِ الْمُصُورِ بِالْقُوَّةِ السَّائِكَةِ
 الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا لَا يَمُوتُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَكَأَنَّهُ رَحِمٌ لِلْمَخْلُوقِ الْعُضْوِيَّةِ الْأَوَّلِ هُوَ
 أَيْضًا أَكْبَرُ مُسْتَوْدَعٍ لِلْحَيَاةِ .

مِنَ الْمُحَقِّقِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ أَنَّ مُمَارَسَةَ الْبَحْرِ قَدْ وَسَّعَتْ دَائِرَةَ عُلُومِنَا ،
 وَلَكِنَّا قَدْ اسْتَفَدْنَا مِنْهُ مَا هُوَ أَجَلُ مِنَ الْعِلْمِ نَفْسِهِ ، أَلَا وَهُوَ مَا يَتَحَلَّى بِهِ الرَّجُلُ مِنَ
 الْقَضَائِلِ الَّتِي يُنْمِيهَا فِي النَّفْسِ الْجِهَادُ مَعَ الْمُحِيطِ الْمُخَوِّفِ ، فَلَوْلَا هَذَا الْجِهَادُ لَمَا
 عَرَفَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْمَعْرِفَةَ ، فَمَا أَمْتَلِ الْمِلَاحَةَ طَرِيقَةً لِلرِّيَّاسَةِ ! فَذَلِكَ
 الْمُرَبِّي الْقَائِمِي الْعَبُوسُ وَأَعْنِي بِهِ الْبَحْرِي يَبْتُ كُلَّ يَوْمٍ فِي أَذْهَانِ غِلْمَانِهِ الَّذِينَ
 يَتَعَدُّونَ بِلْيَانِ مَعَارِفِهِ أَنَّ الثُّفُوسَ مُنْسَاوِيَةً ، وَأَنَّ الْفَلَاحَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْإِعْتَادِ عَلَيْهَا ،
 وَيَعْلَمُهُمْ مِنَ الْبَسَالَةِ مَا لَا تَرَعِزُهُ الْخُطُوبُ ، وَمِنَ الصَّبْرِ مَا يَقْوُونَ بِهِ عَلَى احْتِمَالِ
 كُلِّ ضُرُوبِ الْحَرَمَانِ وَافْتِحَامِ جَمِيعِ الْمَخَاطِرِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي وَسْمِهِ أَنْ يَصِفَ

(١) يشرع هذا القول بأن قائله يعتقد أنزاله البحر وأيديه وهي عقيدة باطلة يستند على بطلانها من قوله
 نفسه ، لأن ما دأ به التحول يستحيل عليه القدم والبقاء ، وجميع ما نسب إليه من الأضال هوفيه مقفل مقصور
 لا فاعل بخنار ، وما الأزلية والابدية إلا قه الواحد القهار "كل شيء هالك إلا وجهه" — المترجم .

(٢) الرحم بيت منبت الولد .

مَا آتَى الْجَنَانِ مِنَ الثَّبَاتِ ، وَمَا أَلْبَسَ النَّفْسَ مِنْ دِرْعِ الْقُوَّةِ ، وَهُوَ وَإِنْ غَلَبَهُ
الْمَلَا حُونَ مُتَابِرَتِهِمْ عَلَى قَهْرِهِ وَثَبَاتِهِمْ فِي طَلِبِ الظَّفِيرِ بِهِ ، يَحِقُّ لَهُ فِي نَفْسِ هَذَا
الْقَلْبِ ، أَنْ يَفْخَرَ بِقَالِيهِ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنشَأَهُمْ وَهُمْ تَلَامِيذُهُ .

الشذرة السادسة عشرة

(التربية بسفر البحر)

يوم ١٤ مارس سنة ١٨٦

إِضْطَرَرْنَا الرِّيحُ إِلَى أَنْ نَحْتَازَ خَلِيجَ بَسْكَايَ^(١) ، وَقَدْ أَكَّدَ لِي الرَّبُّ أَنْهُ وَأَمَثَالُهُ
يَتَحَامُونَ مَا اسْتَطَاعُوا التَّوَرُّطُ فِي هَذَا الْمَجَازِ الَّذِي يَهَابُ اسْمُهُ الْمَلَا حُونَ أَنْفُسَهُمْ ،
وَهُوَ عَلَى شِدَّةِ تَلَاطُمِ الْأَمْوَاجِ فِيهِ لَمْ يَعْثُرِ السَّفِينَةَ عَنِ الْمَسِيرِ ، وَرُبَّمَا حَدَا بِي
ذَلِكَ إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّ مِنَ الْحَارِ مَا هِيَ كَبَعْضِ النَّاسِ فِي كَوْنِهَا أَمْثَلُ مِمَّا اشْتَهَرَتْ بِهِ .

مُنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ أُتِيَحَ لِي فَرَاغٌ مِنْ عَمَلِي فَشَغَلْتُهُ بِدِرْسِ سَفِينَتِنَا ، فَإِذَا هِيَ دُنْيَا
صُغْرَى تَطْفُو عَلَى الْمَاءِ ، جَعَلَتْهَا جَمِيعُ الْعُلُومِ وَالصَّنَاعَاتِ مِيقَاتًا لِاجْتِمَاعِهَا ، تَرَى
الْمَلَا حَ فِيهَا يُلَجُّهُ عَوْرُهُ إِلَى اسْتِثْنَائِ الْتَمَدُّنِ كُلِّ يَوْمٍ ، فَكَأَنَّهُ رُوَيْسٌ فِي جَزِيرَتِهِ ،
يَحْتَرِعُ مُعْظَمَ الْفُنُونِ النَّافِعَةِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا ، ذَلِكَ أَنَّهُ لِحُلُوِّهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ يَتَوَلَّى

(١) خليج بسكاي ويسمى أيضا خليج تشقوفى هو خليج في المحيط الاطلنطى واقع غربى فرنسا

وشمال إسبانية . (٣) المقاتل الموعد الذى جعل له وقت .

(٥) يومى الى رويسن كروز صاحب القصة المشهورة الذى كان في جزيرة مقفرة يحترع كل ما يحتاج

اليه من امر المعيشة .

يَنْفِيسِهِ غَسَلَ ثِيَابَهُ وَفَرَّاشَهُ وَإِصْلَاحَهَا، وَتَذَكُّ نَظَافَتُهُ مُجَرِّتُهُ دَلَالَةً كَافِيَةً عَلَى مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ يَتُّهُ الْخَلَوِيُّ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، فَقَدْ أُوتِيَ هَذَا اللَّيْلُ الْبَحْرِيُّ مِنْ غَرَائِرِ الْعِنَايَةِ بِأَلَيْتٍ مَا أُوتِيَتْهُ النَّمْلَةُ^(١).

مِنْ مَزَايَا السَّفِينَةِ أَيْضًا أَنَّهُا تُوَدَّى إِلَى كُلِّ مَنْ تَرَاحَ نَفْسُهُ لِلْعَمَلِ مِنْ رُكَّابِهَا عَمَلًا يَسْتَعْلُهُ، فَقَدْ عَاوَدَ قَوْسِيْدُونَ الْإِسْتِفَالَ بِالطَّهَابَةِ الَّتِي سَبَقَ لَهُ أَنْ شَرَفَ بِإِجَادَتِهَا فِي أَسْفَارِ سَالِقَةٍ، وَجُمِلَتْ زَوْجَتُهُ قَهْرْمَانَةً، وَاخْتَصَّتْ هِلَانَةُ بِمُسَاعَدَتِي فِي التَّمْرِيزِ وَبِالْعَزْفِ عَلَى الْعِزْفِ (الْيَسَاوُ) نَسْرِيَةً لِلْسَّامَةِ عَنِ الْمُسَافِرِينَ وَتَقْوِيَةً لِقُلُوبِهِمْ وَقُلُوبِ الْمَلَاحِينَ أَنْفُسِهِمُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَى السَّطْحِ لِاسْتِمَاعِهِ.

جَزَاءُ «إِمِيل» التَّمْرِيزَاتِ الْأُولَى وَصَارَتْ قَدَمُهُ قَدَمَ بَحَّارٍ، وَأَنْشَأَ يَسْتَلْقِي سَلَامَ الْحَبَالِ الَّتِي عَلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ، وَهُوَ يُودَى الْأَعْمَالِ الَّتِي يَعْلَمُهُ الْمَلَاحُونَ تَأْدِيَتَهَا بِمَا يَكْفِي مِنْ الْحِلْظِ الْمُتَطَرِّفِ مِنْ غَيْرِ مِثْلِهِ^(٢)، وَمَعِيشَةِ الْمُتَعَلِّبِينَ الْبَحْرِيِّينَ أَمْثَالِهِ فِي سَفِينَةٍ تِجَارِيَةٍ، عَلَى مَا فِيهَا مِنَ النَّصَبِ وَالْعَنَاءِ مَعِيشَةً صَحِيَّةً، فَإِنْ تَعَرَّضَهُ لِنَسِيمِ الْبَحْرِ يُنْهَى إِلَيْهِ الطَّعَامُ، حَتَّى إِنَّهُ أَيْكَادُ يَلْتَمِسُ حُوتًا مِنَ الْحَيَّاتَانِ الْمُسَمَّاءِ بِالْكَلَابِ الْبَحْرِيَّةِ لَوْ قَدَّمَ إِلَيْهِ، وَفِي خِفَّتِهِ وَنَضَارَتِهِ فِي قِمِيصِهِ الْأَزْرَقِ ذِي الطُّوقِ الْمُنْكَسِرِ الَّذِي يُبَيِّنُ نَحْرَهُ: جَاءَتِي عُذُوَّةُ الْيَوْمِ إِتْرَعَمِلْ شَائِقُ بِالنَّسْبَةِ لَطْفِلٍ مِثْلِهِ وَالَّتِي رَأْسُهُ بَيْنَ رُكْبَتِي وَهُوَ يَتَصَبَّبُ عِرْقًا، فَاحْبَبْتُ أَنْ أَتَجَمَّعَ، لَا أَنْ أَطْرِيَهُ، لِأَنَّ الْأَطْرَاءَ هُوَ سَمٌّ

(١) كل من يراقب أحوال النمل يعرف مبلغ ماله من الدراية والحذق في بناء مساكنه وتديرها. المترجم

(٢) الطهابة : معالجة اللحم وضربه بالطليخ أو الشئ حتى ينضج . (٣) القهرمانة : الوجبة .

(٤) الفر الساذج الذي لا يجره له . (٥) أطريه : أبالغ في مدحه .

التُّقُوسُ ، يُقِرُّطُ فِيهِ الْآبَاءُ لِأَبْنَائِهِمْ بِمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَمِيَاءِ ، فَهُمْ بِذَلِكَ يَعُودُونَهُمْ إِرْضَاءَ غَيْرِهِمْ ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِمْ فِي رَأْيِي أَنْ يَعْلَمُوهُمْ إِرْضَاءَ وَجْدَانِهِمْ ،^(١) مِنْ أَجْلِ هَذَا أَقْصَرْتُ عَلَى ضَمِّ وَلَدِي إِلَى صَدْرِي وَتَقْيِيلِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَحْسَسْتُ حِينَئِذٍ بِالْعَبْرَةِ فِي عَيْنِي ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَدْ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْمَلَاطَفَةَ مِنِّي مَذْحَلَةً ، لِأَنَّهُ أَنْصَرَفَ مِنْ عِنْدِي لِلْمُضِيِّ إِلَى عَمَلِهِ مَمْلُوءَ الْقَلْبِ بِالْفَرَجِ ، وَلَا إِخَالُ أَحَدًا يُنْكِرُ اسْتِحْقَاقَهُ لِهَذَا الْمَدْحِ أَى لِتِلْكَ الْمَلَاطَفَةِ .

لَيْسَ فِي السَّفِينَةِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّي بِأَنْ يَكُونَ نَافِثًا مِنْ جِهَتِهِ حَتَّى «لَوْلَا» ، فَقَدْ فَاجَأَتْهَا بِالْأَمْسِ وَبَسِيعَهَا كَتَبُ كَانَتْ تُطْلِعُ عَلَيْهِ طِفْلَةً فِي الْخَمَاسَةِ مِنْ عُمْرِهَا اتَّخَذَتْهَا صَدِيقَةً وَتَعَلَّمَا فِيهِ الْمَجَاء . اهـ

الشذرة السابعة عشرة

طَرِيقَةُ صَيْدِ خَنَازِيرِ الْبَحْرِ

يوم ٩ مَارِسَ سنة - ١٨٦٠

نَحْنُ الْآنَ نِجَاهَ جَزِيرَةِ (مَادِيرَةَ) ، نَجْرِي بِتِلْكَ السَّفِينَةِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ كَانَتْ مِنْ بَدَايَةِ سَفَرِنَا تَهْبُ مِنْ الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ ، وَقَدْ أَحْدَقْتُ بِنَا فِي هَذَا الْمَكَانِ قُطْعَانٌ عَدِيدَةٌ مِنْ الْخَنَازِيرِ الْبَحْرِيَّةِ . وَأَنْشَأْتُ تَمَرُّحُ فِي الْمَاءِ وَتَلَهُّو بِالزَّيْدِ الْمُتَخَلِّفِ عَلَى غَوَارِبِ^(٢) الْأَمْوَاجِ مِنْ انْشِقَاقِهَا بِحِزْوَمِ السَّفِينَةِ فِي مَسِيرِهَا ، فَبَادَرَ جَمِيعُ الرُّكَّابِ إِلَى السُّطْحِ

(١) الوجدان في اللغة مصدر وجد ، وفي اصطلاح الصر الماخر حاسة باطنة يميز الانسان بها الخير من

الشر . (٢) غراب الأمواج : أعاليها . (٣) حيزوم السفينة : وسط صدرها الذي يشق الماء .

لِمُشَاهَدَتِهَا، وَكَانَ مِنْ «لَوْلَا» لَمْ رَأَتْهَا أَنْ قَالَتْ: وَيَكُنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ مُغْنِيَةً^(٢) لِمُعِيشَتِهَا، وَكَانَتْ لَمْ تَصَبِّ بِمَرَضِ الْبَحْرِ فِي حَيَاتِهَا.

إِسْتَعَدَّ ضُبَّاطُ السَّفِينَةِ صَيْدَهَا، فَوَقَفَ أَحَدُهُمْ عِنْدَ السَّارِي الْمَقْدَمِ وَرَمَى خُطَّافًا كَانَ مَعَهُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا ظَنٌّ أَنَّ إصَابَتَهُ أَتَسَّرُ، وَحِينَئِذٍ جَرَّ الْمَلَّاحُونَ الْحَبْلَ الْمُعْلَقَ بِهِ الْخُطَّافُ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا خِفَافَ الْأَيْدَى أَشْدَّاءَ السَّوَادِ، وَإِلَّا وَجَدَ الْخَنْزِيرُ الْمُصَابَ وَسِيلَةً لِلرُّجُوعِ إِلَى الْمَاءِ وَالْأَفْلَاتِ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَقَدْ تَجَحَّوْا فِي الرَّمِيَةِ الثَّانِيَةِ فَاصْطَادُوا أَحَدَهَا، وَمِمَّا شَاهَدْتُهُ فِيهِ أَنَّ كَيْدَهُ نِسْبُهُ كَيْدَ الْخَنْزِيرِ الْبَرِّ، وَلَحْمُهُ أَقْلُ جَوْدَةٍ مِنْ لَحْمِ الثَّوْرِ، عَلَى أَنَّهُ يَحْضَرُهُ فِي الدَّهْنِ إِنْ لَمْ يَكُنْ يَطْعَمُهُ قَيْلُونُهُ، لِأَنَّهُ أَحْمَرُ ضَارِبٌ إِلَى السَّوَادِ، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ لَحْمِهِ زَيْتٌ جِدُّ^(٣) لِلِاسْتِصْبَاحِ يُسْتَعْمَلُ فِي السَّفِينَةِ. ٥١

الشذرة الثامنة عشرة

(وَصْفُ مَا يُرَى فِي الْبَحْرِ مِنَ الْمَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ)

يوم ٢ مارس سنة — ١٨٦

نَحْنُ الْآنَ مَارُونَ أَمَامَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَرَهَا — وَهِيَ مُرْتَسِمَةٌ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ الْمُتَسَّجِ — إِلَّا كَرُؤْيَا الْحَالِمِ، وَقَدْ اضْطَرَّتْنَا الرِّيحُ الْمُتَنَاحِيَةُ^(٣) إِلَى التَّوَعُّلِ فِي الْمَحِيطِ.

(١) ويكن : أى عجب منها فكانها . (٢) مغنية : أى منبجة على حسن حال ومرة .

(٣) المتناوحة المتناوحة : أى التى تهب من جهات مختلفة متعاقبة .

إِنَّا مُنْذُ سَفَرِنَا نَشْعُرُ بِارْتِفَاعِ الْحَرَارَةِ ارْتِفَاعًا عَظِيمًا، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ أَحْضَنُ
يَوْمٍ أَحْسَنًا فِيهِ يَدْخُلُونَا إِفْلِيًا غَيْرَ إِفْلِيمِنَا، حَتَّى إِنَّ «لَوْلَا» نَفْسَهَا عَلَى مَا يَبَا مِنْ
شِدَّةِ النَّاتُرِ بِالْبَرْدِ خَلَعَتْ ثِيَابَ الشِّتَاءِ وَارْتَدَّتْ ثَوْبًا وَرِدِيًّا .

كَانَ غُرُوبُ الشَّمْسِ بِالْأَمْسِ مِنْ أَجْلِ الْمَنَاطِرِ وَأَبْهَآهَا، وَكَانَ اللَّيْلُ مِهْيَأًا
وَالْقُبَّةُ السَّمَاوِيَّةُ الْمُظْلِمَةُ تَرَهُوْ بِلَالِي النُّجُومِ الَّتِي هِيَ كَالرَّيْلِ عَدَا، وَمَالِي وَذِكْرِي أَسْمَانِيَا،
فَلَا قَائِدَةً فِي ذَلِكَ، وَيَكْفِينِي أَنَّ أَسْمِيَا بِالنُّورِ، وَمِمَّا مَيَّزَتْهُ مِنْهَا الزُّهْرَةُ، الَّتِي مَعَ كَثَمَهَا
عَنْ دَعَايِ الْأُلُوهِيَّةِ وَافْتِنَاعِهَا بِأَنْ تَكُونَ فِي مَصْنَفِ الْكَوَاكِبِ، لَمْ يَضِلْ عَنْهَا مَبْلُهَا
إِلَى التَّنْجِجِ النَّسَوِيِّ، فَلَا تَزَالُ يُحِبُّ أَنْ تَرَى نَفْسَهَا فِي مِرَاةِ الْبَحْرِ .^(١)

فِي تَحْوِ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ أَوْ الْخَامِسَةِ مِنَ الْغَدَاةِ انْتَشَقَّ النَّطَاقُ الْأَسْوَدُ، الَّذِي كَانَ
مَشْدُودًا حَوْلَ الْأَفْقِ بِلَاَمِ السَّمَاءِ بِالمَاءِ، رُويْدًا رُويْدًا، ثُمَّ بَدَأَ مِنْ بَيْنِ حَاقِيهِ
ضَوْءٌ مُحْضَرٌّ يُحَاكِ مَاءَ الْبَحْرِ فِي لَوْنِهِ، فَانْتَشَرَ عَلَى الْأَمْوَاجِ وَهُوَ ضَوْءُ الْفَجْرِ، وَسَاعَةً
طُلُوعِ الْفَجْرِ فِي الْعُرُوضِ الَّتِي تَحُنُّ فِيهَا الْآنَ مِنَ السَّاعَاتِ الْمَشْهُودَةِ، عَلَى قَصَرِهَا
وَقَصْرِ مُدَّةِ الشَّفَقِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ يُحِثُّ لِلرَّائِي فِيهَا أَنَّ الْعَالَمَ بَاسِرُهُ مُضَاءٌ بِالْكَهْرَبَاءِ،
وَرُبَّمَا كَانَ قَصْرُ مُدَّةِ الشَّفَقَيْنِ سَبَبًا فِي ذَلِكَ .

بِمَا حَمَلْنَاهُ مَعَنَا فِي السَّفِينَةِ دِيكٌ صَغِيرٌ وَضَعْنَاهُ مَعَ دَوَاجِنَ أُخْرَى فِي أَحَدِ
أَقْفَاصِهَا، أَسْمَتْنَاهُ بِصِيَاحِ النَّبِيِّ وَالْإِبْقَاطِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَكَانَ لِصَوْتِهِ الشَّيْءَ يَصُوتُ

(١) يقول إن الزهرة التي كانت الهة الجبال عند الأقدمين - مع زوال صفة الإلهية عنها - مازالت
في انعكاس ضوئها على سطح البحر شبهاً بالمرأة الحسناء في ثقلها وترانها في المرأة .

(٢) بلام يوصل ويجمع .

الْبُوقِ تَأْتِيرُ مُحَرَّنٌ قَائِصٌ فِي نُفُوسِنَا بِسَبَبِ أَحْوَالِ الْغُرْبَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا ، وَكَانَ
يَسِيرُ إِلَى الْقُلُوبِ بِلَا عَائِقٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ يُدَكِّرُ الْمَسَافِرِينَ بِأَوْرَثِهِمُ الْقَدِيمَةِ وَأَرْضَهَا ،
وَمَعِيشَةِ الْمَزَارِعِ وَمَا يُعَالِجُهُ الْمَزَارِعُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّافَةِ .

ثُمَّ نَتَابَعُ أَيْمَاءَ الْكَوَاكِبِ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاحْتَدَتْ تَطَوًى فِي أَعَالِيهَا وَتَصَطَّيْعُ
بِالْوَلْنِ الْأَزْدَرْخِيِّ^(١) .

ثُمَّ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ فَادَا الْأَمْوَاجُ نَفْسَهَا وَقَدْ مَلَكَهَا الْإِجْلَالُ وَتَوَلَّاهَا الْإِعْظَامُ ،
يُحْيِلُ لِلنَّاطِرِ أَنَّهَا خَشَعَتْ لِهَذَا الْيَنْبُوعِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الضِّيَاءِ وَالْحَيَاةِ ، وَصَارَتْ
السَّمَاءُ كُلُّهَا جَذْوَةً تَارٍ ، وَتَرْقُرْتُ سُبُحَاتُ^(٢) مِنَ الثَّوْرِ الذَّهَبِيِّ عَلَى صَدْرِ الْمُحِيطِ الَّذِي
نَهَدَتْ مِنْهُ الْأَرْضُ بِالتَّدْرِيجِ تَتَلَاُ^(٣) بَهَاءً وَنُفْرَةً .

لَمْ يَقَعْ بَصَرِي عَلَى «إِمِيل» وَ «لُولَا» مَعًا إِلَّا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَحَدَا مِنْ النَّهَارِ ،
رَأَيْتُهُمَا جَائِئِينَ^(٤) جَنَّةِ عِبَادَةٍ وَاسْتِفْرَاقِ فِي الْمُشَاهَدَةِ ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ اقْتَرَبَ كِلَاهُمَا
فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنْ إِدْرَاكِ مَعْنَى الْأُلُوهِيَةِ بِمُرَاقَبَةِ جَمَالِ الْكَوْنِ وَبَهَائِهِ ؟ ١٠ هـ

(١) اللون الأزدرخي هو لون مجتمع من الأزرق والوردي وهو منسوب الى الأزدرخت وأحسبه
شجرة فارسية زهرها بين الأبيض والأزرق والضارب الى الحمرة شبه به لون السماء قبيل طلوع الشمس .

(٢) سُبُحَات : أضواء .

(٣) نهدت : برزت .

(٤) جائيين : جالدين على ركبهما .

الشذرة التاسعة عشرة

« وَصَفَ الْأَسْمَاكَ الطَّيَّارَةَ وَكَلَابَ الْبَحْرِ »

« وَطَرِيقَةَ صَيْدِهَا وَضَوْءَ الْمَاءِ لَيْلًا »

نَحْنُ الْآنَ سَائِرُونَ تَحْتَ خَطِّ السَّرَطَانِ ، وَبَرَى عَلَى «لَوْلَا» أَنَّهَا لَفَرَارِيهَا ^(١) تُقَلَّبُ وَجْهَهَا فِي السَّمَاءِ تَفْتِيشًا عَنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الْبَشِيعِ الشَّيْبِ بِالسَّرَطَانِ الْبَحْرِيِّ فِي شَكْلِ أَرْجُلِهِ ، كَأَنَّهُ مَرْسُومٌ فِي التَّقَاوِيمِ الَّتِي جُعِلَ فِيهَا مِنْ عَلَامَاتٍ مَنَاطِقَ فَلَكَ الْبُرُوجُ ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَسْتَهْدِفُ لِسُخْرِيَةِ «إِمِيل» وَزِرَارَتِهِ .

تَجْرِي بِنَا السَّيْفَةِ بِأَفْصَى سُرْعَةٍ لَهَا ، تُرْجِيهَا رِيَّاحٌ شَدِيدَةٌ وَقَدْ مَدَّتْ جَمِيعُ سُرْعَهَا جَعَلَتْ جِبَالَهَا تَصْرُصِرُورًا . ذَلِكَ أَنَا أَرَدْنَا اغْتِنَامَ هَذِهِ الرِّيَّاحِ الْإِقْلَاسِيَةِ ^(٢) الَّتِي يُسَمِّيهَا الْإِنْجِيلُ رِيَّاحَ الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ التَّجَارِيَةِ .

يَتَدَرَّجُ النَّهَارُ فِي انْتِقَاصٍ ، وَيَكَادُ الْآنَ يُسَاوِي اللَّيْلَ .

تَتَقَدَّفُ مِنْ بَاطِنِ الْمِيَاهِ أَسْرَابُ كَالْعُيُومِ مِنَ السَّمَكِ الطَّيَّارِ وَتَسِفُ سَفِيفَ ^(٣) الْخُطَافِ ، فَيَمَّا كَانَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ الْبَسَاءِ يُوقِدُ مِدْخَنَهُ (عُودَ دُخَانِ التَّبَعِ) الْبَارِحَةَ إِذْ لَطَمَهُ جَنَاحٌ بَارِدٌ مُنْدَى عَلَى خَدِّهِ قَوْلَاهُ مِنْ ذَلِكَ دَهْشٌ عَظِيمٌ ، ثُمَّ انْفَتَحَ حَوْلَهُ فَإِذَا هُوَ بِسَمَكَةٍ مِنْ هَذَا الصَّنِفِ تَحْتَ قَدَمِهِ عَلَى ظَهْرِ السَّيْفَةِ ، وَيَنْدُرُ أَنْ يَصِلَ أَمْتًا فِي أَقْدَافِهَا إِلَى هَذَا الِارْتِفَاعِ ، وَإِنَّمَا جَلَبَهَا إِلَيْهِ ضَوْءُ الْمِدْخَنِ .

(١) غاراتها : سذاجتها وعدم تجربتها . (٢) ترجيها : تسوقها وتدفعها .

(٣) الرياح الانقلابية هي التي تهب بين دائرتي الاقلتين من منطقة فلك البروج . (٤) سف :

تمر على وجه الأرض . (٥) الخطاف : الصفور الأسود المدعو عند العامة صفور الجنة .

أَخَوْفُ سُكَّانِ الْبَحْرِ الْآخَرَى الَّتِي لَمْ يَرَهَا «إِمِيلُ» حَتَّى الْآنَ وَاهْبِئًا بِلَا نَزَاجِ
 كِلَابُ الْبَحْرِ، وَلِلْمَلَّاحِينَ فِي صَيْدِهَا نَوْعٌ مِنَ الْحِمَاسَةِ وَالنُّخْوَةِ، وَقَدْ اصْطَادُوا
 غُدْوَةَ الْيَوْمِ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْعَفَّارِيثِ - كَمَا يَقُولُونَ - لِأَنَّهُمْ أَطْلَقُوا عَلَيْهَا أَبْشَعَ
 الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا - وَذَلِكَ بِوِاسِطَةِ هَبْرَةٍ مِنْ لَحْمِ الْخَتِيرِ رَزَتْهَا نَحْوُ نَحْمَسَةِ أَرْطَالٍ، أَلْقَوْهَا
 إِلَيْهِ، وَكَانَ مَنَظَرُ صَيْدِهِ مُؤَثِّرًا، فَاسْتَرَعَى أَبْصَارَ جَمِيعِ الْمُسَافِرِينَ، وَبَعْثَهُمْ عَلَى الصُّعُودِ
 إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ لِمُشَاهَدَتِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ عَمَلٍ لَهُمْ بَعْدَ صَيْدِهِ أَنْ يَبْرُوا ذَنْبَهُ بِفَأْسٍ،
 وَهُوَ احْتِيَاطٌ أَرَاهُ ضَرُورِيًّا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْقَسْوَةِ، لِأَنَّهُ شُوهِدَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنْ إِغْفَالَهُ
 كَانَ سَبَبًا فِي أَنْ يَكْسِرَ بِذَلِكَ الطَّرْفِ الْمَرِينِ سَاقَ بَعْضِ الْفَرِيِّينَ مِنْهُ أَثْنَاءَ مُعَاجَلَتِهِ
 التَّفْلَتَ مِنْ أَيْدِي صَائِدِيهِ. وَيَأْكُلُ الْمَلَّاحُونَ أحيانًا صِغَارَ كِلَابِ الْبَحْرِ، غَيْرَ
 أَنَّهُمْ يَقْرُونَ بِالْيَسْتِهِمْ أَنْ لَحْمَهَا غَيْرُ جَيِّدٍ، وَهُمْ إِذَا قَتَلُوا هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ فَلَمَّا يَبْعَثُهُمْ
 عَلَى قَتْلِهَا بَغْضُهُمْ لَهَا.

وَلَشَدَّ مَا يُؤْذِنُهَا بِسَبَبِ هَذَا الْبُغْضِ! وَجَمَعَتْهُمْ فِيهِ أَنْ مَا يَصْطَادُونَهُ وَيَقْتُلُونَهُ
 مِنْهَا التَّقَمَ فَلَانًا أَوْ فَلَانًا مِنْ أَصْحَابِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الَّذِي التَّقَمَهُ كَانَ أَخَاهُ أَوْ أَحَدَ
 أَقَارِبِهِ، وَلَقَدْ حَاوَلْتُ صَلِّحَ عَنْ مُمَارَسَةِ هَذِهِ الْأَلَايِبِ الْوَحْشِيَّةِ مِينًا لَمْ أَنْ
 الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَذِّبَ عَدُوَّهُ بِعَذَابِهِ، فَذَهَبَ نُصْرَحِي أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ، وَلِكِنِّي
 أُمِّلُ أَنْ لَا تَفُوتَ «إِمِيلُ» هَذِهِ الْعِبْرَةُ.

تَبَقِيَ لِكِلَابِ الْبَحْرِ بَعْدَ مَوْتِهَا فِي السَّفِينَةِ رَائِحَةٌ خَبِيثَةٌ لَا تَزُولُ إِلَّا بَعْدَ بَضْعَةِ
 أَيَّامٍ، وَهَكَذَا الْأَشْرَارُ يُؤْذُونَ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِمْ مِنْ نَسَمَتِ الْخَلَاصِ النَّاسِ مِنْ شَرِّهِمْ.

قَلِمَا يَفْهَمُ الْأَطْفَالُ مِنَ الْقَوَائِنِ شَيْئًا إِلَّا قَانُونَ الْقِصَاصِ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَّاحِينَ
اصْطَادُوا دَلْفِينًا عَشِيَّةَ الْيَوْمِ الَّذِي اصْطَادُوا فِيهِ كَلْبَ الْبَحْرِ، فَمَا كَانَ مِنْ «لَوْلَا»
إِلَّا أَنْ قَالَتْ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَفْرًا يَشْفِ عَنِ الرَّحْمَةِ، لَقَدْ اسْتَحَقَّ هَذَا، فَإِنِّي رَأَيْتُهُ
لَتَهُمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَسْمَاكِ الطَّيَارَةِ الْجَمِيلَةِ .

لَقَدْ صَدَقَتْ، فَإِنَّ مَا لَتَهُمْ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا لُقْمَةً وَاحِدَةً مِنْ لُقْمِهِ، وَإِنْ سُنَّةُ
اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَكَلَ، وَقَدْ أَثْبَتَهَا الْمَلَّاحُونَ لَهَا بِجَمَلِهِ عَشَاءَ لَهْمٍ، وَلَهُمْ
هَذَا الْحَيَوَانُ إِذَا غُلِيَ فِي الْمَاءِ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْجَوْدَةِ إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ نَاشِقًا .

فِي نَحْوِ الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ عَشْرَةَ وَالْدَّقِيقَةِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْعَرَضِ الشَّمَالِيِّ، أَنْشَأْنَا نَرَى
فِي السَّمَاءِ بُرْجًا جَدِيدًا يُسَمِّيهِ الْمَلَّاحُونَ صَلِيبَ الْجَنُوبِ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ مِنْ خَمْسَةِ نُجُومٍ .

وَعَجَبِي أَنْتَرَى أَبْصَرْنَاهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَهِيَ أَنَّ الْمِيَاءَ يُضَيُّ أَيْلًا، وَقَدْ رَأَى
مَنْظَرُهَا «إِمِيل» و «لَوْلَا» فَلَمْ يَسْتَطِعَا أَنْ يُفِيَقَا مِنَ التَّلَذُّذِ بِجَمَالِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ بَسَتْ
فِيهِمَا شَيْئًا مِنَ الْخَوْفِ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا سَأَلَنِي مَنْ ذَا الَّذِي أَوْقَدَ النَّارَ فِي الْبَحْرِ، فَفَسَّرْتُ
لَهُمَا بِمَا فِي وَسْئِي مَا أَعْلَمُهُ مِنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي لَمْ تَعْلَمْ تَمَامَ الْعِلْمِ، وَقَدْ
عَلَّلَ الْعُلَمَاءُ وَجُودَ هَذَا الضُّوءِ فِي الْمَاءِ بِوُجُودِ حَيَوَانَاتٍ مُضِيئَةٍ تُشَبِّهُ النَّبَاتَاتِ فِيهِ .

كَانَ ذَلِكَ النُّورُ مِنْ شِدَّةِ سَطْوَعِهِ يَحِثُّ إِنْ «إِمِيل» تَأَوَّلَ كِتَابًا مِنْ جَنِبِهِ
وَقَرَأَ فِيهِ عَلَى انْعِكَاسِهِ عَنِ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَبِّبَةِ هَذَا الْبَيْتَ مِنْ قِصِيدَةِ لَشِكْسِيرٍ
وَعَرَبِيَّةٍ :

خَيْرُ جُزْءٍ فِي رُوحِي وَهِيَ بِالْتَحْقِيقِ رُوحُنَا

نَمَّ إِنَّ اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) لَمْ يُفِضْ عَلَيْنَا جَمِيعَ رُوحِهِ، وَمَا أَقَلَّ مَا أُفِضَ عَلَيْنَا مِنْهُ!
 غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْقَلِيلَ الَّذِي يَهْبُهُ لَنَا يَتَّصِلُ بِرُوحِنَا اتِّصَالًا حَقِيقِيًّا^(١) .
 وَالَّذِي يُدْهِشُنِي مِنْ حَادِثَةِ ظُهُورِ الضُّوءِ فِي الْبَحَارِ أَنَّهَا تَقَعُ عَادَةً فِي أَحْلَاكِ
 اللَّيَالِي . اهـ

الشذرة العشرون

(طَرِيقَةُ صَيْدِ السَّلَاحِفِ الْبَحْرِيَّةِ)

يوم ٣ أبريل سنة - ١٨٦

صِرْنَا نَجَاهَ الرُّأْسِ الْأَخْضَرَ، وَلَمَّا رَأَى الْمَلَّاحُونَ سُكُونَ الرِّيحِ فِي هَذَا الْمَكَانِ
 أَذَلُّوا قَوَارِبَهُمْ وَسَبَّحُوا لِصَيْدِ السَّلَاحِفِ الْبَحْرِيَّةِ ، وَهَذِهِ السَّلَاحِفُ مِنْ عَادَتِهَا
 أَنْ تَظْهَرَ قَرِيبًا مِنْ سَطْحِ الْمَاءِ فَتَكُونُ كَأَنَّهَا نَائِمَةٌ فَوْقَهُ، فَتُصْطَادُ بِنَوْعٍ مِنَ السَّهَامِ
 لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْنَانٍ يُسَمِّيَهَا مَلَّاحُو الْإِنْجِلِيزِ بِالْحُبُوبِ، وَكُلُّ مَا يُصَابُ مِنْهَا يَتَلَكَّ السَّهَامُ
 يُجَذَّبُ بَعْدَ صَيْدِهِ إِلَى الْقَوَارِبِ بِوِاسِطَةِ حِبَالٍ تَكُونُ فِي أَيْدِي الرَّمَاةِ، وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ
 اصْطَادُوا مِنْهَا فِي سَاعَتَيْنِ تَمَّانِي ، زِنَهُ كُلِّ مِثْمَالٍ مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ إِلَى خَمْسَةِ وَارْبَعِينَ
 رِطْلًا انْجِلِيزِيًّا .

(١) معنى بالروح الإلهي ما به حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شيء من الله ليس لتيره صنع فيه
 فأضيف إليه — المترجم .

الشذرة الحادية والعشرون

(نخامة منظرَي الشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ فِي بَعْضِ الْجِهَاتِ)

يوم ٤ أبريل سنة ١٨٦

أَعُوْزَتَنَا الرِّيحُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ مُوَابِهَةً لَنَا أَحْسَنَ مُوَابَهَةٍ عَلَى جَرِينَا فِي فِضَاءِ
الْمِجْهِطِ، وَعَوَّضَنَا عَنْهَا الْآنَ رِيَّاحًا خَفِيفَةً مُتَنَاوِعةً تَهْبُ عَلَى التَّعَاقُبِ مِنْ جِهَاتٍ
مُتَخِلِّفَةٍ لِلْأَفْقِ، وَانْتَقَبَتِ السَّمَاءُ فِي مَوَاضِعَ مُتَفَرِّقَاتٍ مِنْهَا يُسْحِبُ بَيْضَاءَ وَسَفَرَتْ
فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى زُرْقَةً شَاحِبَةً جَمِيلَةً . وَلِلشَّمْسِ فِي هَذَا الْمَكَانِ شُرُوقٌ يَحْطَفُ
الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ فَلَا تَقْوَى عَلَى احْتِمَالِهِ ، وَأَمَّا غُرُوبُهَا فَفَحْمٌ جَلِيلٌ . اهـ

الشذرة الثانية والعشرون

أَفَاعِلُ الْمَلَّاحِينَ عِنْدَ الْإِقْتِرَابِ مِنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ

يوم ٩ أبريل سنة ١٨٦

تُحْمِطَرْنَا السَّمَاءُ شَايِبٌ وَوَابِلًا حَارًّا، وَكُلُّ مَا نَرَاهُ يُؤْذِنُ بِاقْتِرَابِنَا مِنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ،
فَقَرَى الْمَلَّاحِينَ عَلَى ظَهْرِ مُقَدِّمِ السَّفِينَةِ مُسْتَغْنِينَ بِوَضْعِ لِحْيِ كَاذِبَةٍ لَهُمْ وَتَنْطِيطِ
رُءُوسِهِمْ بِعَوَارِ مِنْ الشَّعْرِ، وَارْتِدَاءِ ثِيَابٍ بَشِعَةٍ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُخِيلُ لِلرَّائِي أَنَّهُمْ

(١) المواناة : المرافقة .

(٢) انتفتحت المرأة في الأصل شدت الثياب أى البرقع على وجهها واستعملنا هنا التغطية والاحتجاب .

(٣) الشايب جمع شويوب وهو الدفعة من المطر . (٤) الحى جمع لحية وهى شعر الفم .

(٥) العوارى جمع عارية وهى الشعر المستعار .

فِي أَمْسٍ عِيدِ الْمَرَافِجِ، وَيَتَهَدَّدُ «إِمِيلُ» هَذِهِ الضُّرُوبَ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ شَهَادَةً
 الْخَائِفِ لِعَلِّهِ حَقَّ الْعِلْمِ بِمَا سَيَلْقَاهُ، فَإِنَّ كُلَّ تَلْبِيزٍ بَحْرِيٍّ لَمْ يَخْتَرْ خَطَّ الْإِسْتِوَاءِ
 لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَحِمَ صُنُوفَ بَلَائِهِ وَيَحْنِيهِ كَمَا هِيَ الْعَادَةُ، فَلَا تَزَالُ شَعَائِرُ الْمَلَّاحِينَ الْقَدِيمَةُ
 مُتَّبَعَةً، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ فَقَدَتْ كَثِيرًا مِنْ مَظَاهِرِهَا الصَّبِيانِيَّةِ الْوَحْشِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
 تَجْعَلُهَا مَخُوفَةً جِدًّا فِي قَلْبِ الْمُتَبَدِّئِ فِي الْمَلَاخَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالْمَلَّاحُ طِفْلٌ وَلَوْلَا
 ذَلِكَ لَمَا لَاعَبَ الْمَخَاطِرَ مُلَاعَبَةَ الْبَاسِلِ الْمَقْدَامِ .

الشذرة الثالثة والعشرون

سُرْعَةُ تَغْيِيرِ الْإِقْلِيمِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ، وَالْأَعَاصِيرُ الْمَائِيَّةُ

يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٦٠

إِصْطَفَعَ «إِمِيلُ» بِالْعُمُودِيَّةِ الْبَحْرِيَّةِ، فَصَارَ الْآنَ مِنْ أَوْلَادِ إِلَهِ الْبَحْرِ . حَالَةُ
 الْجَوِّ فِي اخْتِلَافٍ وَتَغْيِيرٍ، فَمِنْ رِيَّاحٍ شَدِيدَةٍ إِلَى سُكُونٍ عَامٍّ، وَمِنْ مَطَرٍ هَتَّانٍ إِلَى
 شَمْسٍ مُخْرِقَةٍ، تَرْمِي رُءُوسَنَا بِسَهَامِ أَشْعَائِهَا الْعُمُودِيَّةِ .

لَقَتْنَا الرِّبَابُ إِلَى إِعْصَارٍ مِنَ الْأَعَاصِيرِ الْمَائِيَّةِ الَّتِي يُخَشَاهَا الْمَلَّاحُونَ بِحَقِّ
 قُرَائِنَاهُ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَأَكْثَرُ مَا تُورِ هَذِهِ الْأَعَاصِيرُ فِي جِهَةِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ .

(١) المرافع عند المبحرين أيام مطومة تسبق الصوم يكثر فيها الرقت والمجون .

(٢) المتان ، النزرير .

(٣) الأعاصير هو الريح الهائجة تأتي بالنار تحرق ما يصادفها .

الشذرة الرابعة والعشرون

تَبَادُلُ السُّفُنِ صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ

يوم ١٥ أبريل سنة ١٨٦٠

صَادَقَتْنَا سَفِينَةٌ قَائِلَةٌ مِنَ الْهِنْدِ أَوْ مِنَ الصِّينِ إِلَى بَرِيطَانِيَةِ الْعُظْمَى وَأَذْنَتَنَا بِإِشَارَاتِهَا أَنَّهَا مُسْتَعِدَّةٌ لِحَمْلِ مَا نُحْمِلُهَا مِنَ الْكُتُبِ ، وَلَمَّا كَانَتْ تَبَادُلُ صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ مِمَّا تُحْفَظُ بِهِ الْمَوَدَّةُ فِي الْبَحْرِ أَرْسَلْنَا لَهَا بَعْضَ صُحُفِ الْإِنْجِيلِ مَضَى عَلَى نَشْرِهَا سِتَّةُ أَصَابِيعَ ، وَلَكِنْ أَخْبَارَهَا يَكُونُ لَهَا مِنَ الْخِدَّةِ عِنْدَ رُكْبَانِهَا مَا لِصُحُفِ الصَّبَاحِ عِنْدَ سُكَّانِ لُوندَرَةَ ، وَكَتَبْتُ وَكَتَبَ « إِمِيلُ » كَلِمَتَيْنِ لِصَدِيقِنَا الدُّكْتُورِ وَارْتِجُونَّ .

الشذرة الخامسة والعشرون

مَوْتُ أَحَدِ الْمَلَّاحِينَ وَالْإِحْتِفَالُ بِمَجَازِيهِ فِي السَّفِينَةِ
وَبَيَانُ الْحَقِيقَةِ فِي سَبَبِ تَأَثُّرِ الْأَطْفَالِ بِفَاجِئَةِ الْمَوْتِ

يوم ٣٠ أبريل سنة ١٨٦٠

تَنَاقَصُ الْحَرَارَةُ وَيَتَدَرَّجُ الْمَوَاءُ فِي الْبُرُودَةِ لِأَنَّنَا صِرْنَا فِي خَطِّ الْجَدْيِ (١) .
مُنْذُ يَوْمَيْنِ أَلَمْ نَقُوسَنَا فَقَدْ وَاحِدٌ مِنْ رِجَالِنَا .

ذَلِكَ أَنَّ قِطْعَةً مِنْ قِطْعِ الْأَخْشَابِ الْمُنْحَرِفَةِ الْوَضْعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي السَّفِينَةِ
لِشَدِّ حَبَالِهَا لَمْ يَكُنْ رَبْطُهَا وَثِيقًا قَاتَتْ عَلَيْهَا نَفْعَةٌ مِنَ الرِّيحِ فَهَوَتْ بِهَا عَلَى السُّطْحِ

(١) قافله : راجعة .

(٢) الجدوى هنا برج في السماء ملاصق لبرج الفلوق خطه هو خط الطول المار به .

فَصَادَتْ فِي هَوِيهَا رَأْسَ ذَلِكَ الْمَلَّاحِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الْحِرَاسَةِ ، فَلَمْ أَلْ جُهْدًا^(١)
 فِي تَجْرِيْبِ جَمِيعِ الْوَسَائِلِ الْفَنِّيَّةِ لِإِقْبَاضِهِ وَتَتَبِعِهِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَفْلِحْ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ
 أَدْنَى عِلَامةٍ عَلَى الْإِدْرَاكِ ، فَسَرَى الْوُجُومُ^(٢) فِي السَّفِينَةِ لِأَنَّ هَذَا الْمَلَّاحَ الْبَاسِلَ
 كَانَ مَحْبُوبًا عِنْدَ رَهَقَانِهِ ، وَصَاحَ الرِّبَانُ بِصَوْتِ أَحَشٍ وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ آثَارُ^(٣)
 الْحُزْنِ مَعَ انْتِقَابِهِ بِالتَّجَلُّدِ بِأَن تَنْقَلَ الْجَنَّةُ إِلَى غُرْفَتِهِ .

إِسْتَوَى سُكُوتُ الْحِدَادِ عَلَى السَّفِينَةِ فَكَانَتْ تَرَى عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا أَنْظَارًا
 تَشْفَعِي الْأَمْسَى ، وَوُجُوهًا نَكَرَتْهَا الْأَنْجَانُ ، وَأَسْدَلُ اللَّيْلِ عَلَى الْبَحْرِ بِالتَّدرِجِ حُجَبٌ
 ظُلُمَاتِهِ كُلُّهَا ، وَارْتَمَى عَلَيْهِ سُدُولُ أَحْرَانِهِ ، وَمَا رَأَيْتُهُ قَبْلَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِهَذَا الْمِقْدَارِ مِنْ
 الْعَظِيمِ وَالْكَاتِبَةِ ، وَكَانَتْ الْأَمْوَاجُ بِاصْطِحَابِهَا تَسْكُو شَكْوَى الْأَحْيَاءِ مِنْ مَضِضِ
 الْمِصْيَةِ ، حَتَّى خِيلَ لِي أَنَّهَا نَفُوسٌ تُنَاجِي نَفُوسَنَا .

وَارْبَاهُ ! مَا كَانَ أَشْأَمَ هَذَا الصَّخَبِ الْمُتَقَطِّعِ النَّاسِ مِنْ مُلَاطَمَةِ الْأَمْوَاجِ
 لِأَلْوَجِ سَفِينَةٍ تُقَلُّ مِيتًا ! .

أَقْبَلَ النَّهَارَ وَأَدْبَرَ اللَّيْلَ ، بَيْنَ أَنَّ أَضْوَاءَ الشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا لَمْ تَقَوْ عَلَى قَشْعِ
 مَا غَشِيَ النُّفُوسَ مِنْ حُجُبِ الْأَكْدَارِ اللَّيْلِيَّةِ ، فَبَقِيَتْ جَمِيعُ الْقُلُوبِ مُتَلَوِّجَةً مُتَبَدِّلَةً
 بِضَرْبِ مِنَ الْمَوَلِ ، ذَلِكَ أَنَّ وُجُودَ الْمَيِّتِ فِي بَيْتِ يَثُ فِيهِ عَلَى الدَّوَامِ الْحُزْنَ
 مَشُوبًا بِالْإِجْلَالِ وَالرَّعِبِ ، وَالسَّفِينَةُ يَثُ مُضْطَرِبٌ ، فَمَا يَسْهَلُ انْفِصَامُهُ مِنْ

(١) لم آل لم انصر . (٢) الوجوم : السكوت والعجز عن التكلم من شدة الغم .

(٣) الصوت الأَجَشُّ هو الصوت الغليظ . (٤) انتقابه : تسره .

عَرَى السَّوْدَةَ بَيْنَ مَنْ تَطَاوَحَتْ بِهِمُ النَّوَى مِنَ الْعَاشِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ كُدَّ بَيْنَ الْعَاشِينَ
فِي السَّيْفَةِ بِسَبَبِ اشْتِرَاكِهِمْ فِي الْحَاجَاتِ وَالْمَخَاطِرِ .

تَخَلَّفَ يَعْقُوبُ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ عَنْ إِجَابَةِ دَاغِي الشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ ، وَعَهْدَنَا بِهِ
أَنَّهُ كَانَ عَلَى الدَّوَامِ أَوَّلَ مَنْ يَسْمَعُ دَوَى صَوْتِهِ الشَّدِيدِ عَلَى ظَهْرِ السَّيْفَةِ ، فَأَصْبَحَ
وَقَدْ قُضِيَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَكُونَ هُوَ الصَّامِحُ بِكَلِمَةٍ « تَمَامٌ » .

كَانَ مِنْ أَسْبَابِ اشْتِغَالِ قُلُوبِ الْمُسَافِرِينَ وَالْمَلَّاحِينَ بِالْحُزْنِ أَيْضًا ارْتِقَابُهُمْ
لِمَا كَانَ قَرِيبَ الْوُقُوعِ مِنْ ذَفَنِ الْمَيِّتِ ، وَمَعَ كَوْنِ أَعْمَالِ التَّجْهِيزِ كَانَتْ تُؤَدَّى
فِي سُكُونٍ كَأَنَّهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، كَمَا تَخْلُسُ الْمَلَّاحِينَ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ رَوَاحٍ
وَحَيَاتٍ خَفِيَّةً ، وَقَدْ أَحْدَثَ السَّيْفَةُ بِنَدِكِيسِ الْأَعْلَامِ الَّتِي تَرْتَوِذُ رَوْثَهَا عَادَةً بِارْتِفَاعِهَا
فَوْقَهَا نَحْوًا بِالْأَلَمَةِ الْمُتَنَسِّبَةِ إِلَيْهَا ، وَفِي نَحْوِ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ بَرَزَ الرَّبَّانُ عَلَى ظَهْرِهَا
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَلَّاحِيهِ وَقَالَ بِصَوْتٍ مُتَخَفِضٍ : قَدْ حَلَّتْ سَاعَةُ النَحْسِ ، فَعَلَى بِالرَّبَّانِ
الثَّانِي ، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّنَا مُسْتَعِدُونَ ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ مِقْدَارَ مَا يُشْقَى عَلَى مَنْ تَأْدِيهِ هَذَا
الْفَرَضُ ، وَلَكِنْ مِنْ الْوَاجِبِ الْقِيَامُ بِالْوَاجِبِ .

رَبَّ الْمَلَّاحُونَ أَكْثَوَامَ الْحِبَالِ الَّتِي كَانَتْ تَمُوقُ السَّيْرَ يَتَّبِعُهَا عَلَى سَطْحِ
السَّيْفَةِ ، وَرَفَعُوا أَحَدَ الْأَجْرَاءِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا جُدْرَانُهَا ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ نَافِذَةٌ
شَبِيهَةٌ بِالْكُوَّةِ ، كَمَا نَرَى مِنْهَا الْبَحْرَ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ الصُّمُودِ وَالْمَجُوبِ .

(١) تخلص تأخذ في نهضة ونخافة .

(٢) أحدث وضعت أعلام الحداد وهي علامات الحزن .

كَانَ نَاقُوسُ السَّفِينَةِ يَبْطِئُ ، فَيَحْدُثُ عَنْ طَبِينِهِ الْمُؤَلِّمِ إِذَا انْتَشَرَ عَلَى وَجْهِ
الْأَمْوَاجِ أَوْ مَحْزُونٌ بِغَادِرِ جَمِيعِ الْقُلُوبِ وَاجْفَةً .

لَمَّا كَانَتِ السَّفِينَةُ خَلُوعًا مِنَ الْقَسْبِ كَانَ مِنَ الْعَادَاتِ الْمَضْطَّرَةِ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الْحَالَةِ بِالنَّجْدَةِ أَنْ يُعْهَدَ بِصَلَاةِ الْحِنَاذَةِ إِلَى رَبَّانِيهَا ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَخَذَ
الرُّبَّانُ مَجْلِسَهُ وَهُوَ مَكْشُوفُ الرَّأْسِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ ، وَالتَفَتْ عَلَيْهِ حَلْقَةٌ مِنَ
الْمُسَافِرِينَ وَالْمَلَّاحِينَ يُخَفِّفُهُمُ الْوَقَارُ وَالْحَشْيَةُ عَلَى تَسْوِشِ هَيَاتِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ ،
يَنْتَظِرُونَ الْبَدَأَ فِي الشَّاعِرِ الدِّينِيِّ .

أَشَارَ الرُّبَّانُ إِلَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ بِأَنْ يَبْطِئَا مِنْ أَحَدِ سَلَائِمِ السَّفِينَةِ الضَّيِّقَةِ ،
فَلَمْ يَلْبَثَا أَنْ صَعِدَا بِحِمْلَانِ الْمَيِّتِ عَلَى نَعْشٍ كَبِيرٍ مُثَقَّبٍ ، وَقَدْ لُفَّ فِي قِطْعَةٍ مِنْ
تَبْسِيجِ الشَّرَاحِ خِيطٌ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مِنَ الْمَبْسُورِ تَقْدِيرُ تَقْلِيلِهِ بِمَا كَانَا يُعَالِيَانِهِ مِنَ
الْجُهْدِ فِي حَمَلِهِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْعَادَةَ تَقْتَضِي فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ أَنْ يُوضَعَ فِي الْكَفَيْنِ
مَعَ الْجَنَّةِ قَذِيفَتَا مَدْفَعِ (الْقَذِيفَةُ الْكُرَّةُ الَّتِي تُقَذَّفُ مِنَ الْمَدْفَعِ) إِحْدَاهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهَا
وَالْأُخْرَى عِنْدَ رَأْسِهَا .

مَا بَرَزَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الْمَشْهُومَةُ مِنْ سَدْفَةِ السَّلَامِ (السَّدْفَةُ فِتْحُ السَّيْنِ مُشَدَّدَةُ
الظَّالِمَةِ) حَيْثُ كَانَتْ تَبْدُو مِنْهَا بَاطِلًا ، حَتَّى أَفْشَعَتْ لِمَرَّأَاهَا أَبْدَانُ الْحَاضِرِينَ ، وَقَدْ
بَسِطَ عَلَى صَدْرِ الْمُتَوَفَّى عِلْمٌ مِنَ أَعْلَامِ السَّفِينَةِ عَلَيْهِ شَارَاتُ السُّفْنِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ .

أَنْشَأَ الرُّبَّانُ يَتْلُو صَلَاةَ الْحِنَاذَةِ بِصَوْتٍ شَدِيدٍ مُعْتَادٍ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ ، فَيَرَاهُ كَأَن
يَعْتَوِرُهُ اللَّيْنُ حِينَئِذٍ بَعْدَ حِينَ ، فَتُخَلِّلُهُ نَعْمَاتٌ ضَعِيفَةٌ مُهَيَّزَةٌ كَأَنَّمَا تَلْبِثُ مِنَ الْقَلْبِ ،

وَكَانَ مَا يَحْصُلُ فِي نَفْسِهِ مِنَ التَّنَازُعِ بَيْنَ التَّمَالُكِ وَالسَّكِينَةِ الَّتِي يَرَاهَا لَا زِمَةَ لِكِرَامَتِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَجُلٌ ، وَبَيْنَ عَاطِفَةِ الرَّحْمَةِ الَّتِي كَانَ يَكَادُ يَبْدِي بِهَا — يَكْسُو وَجْهَهُ هَيَاةً غَرِيبَةً جَمَعَتْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّحْمَةِ .

وَكَانَ كَاتِبُ السِّفِينَةِ يَتْلُو فِي ذَلِكَ الْآثَابِ عَنِهِ الْحُكْمَ الْإِنْجِيلِيَّةَ ، وَمَا كَانَ يَسْمَعُ أَحَدًا مِنَ السَّامِعِينَ أَنْ لَا يَعْتَرِفَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَلَالِ لِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ التَّحَاوُرِ فِي مَعْنَى الْمَوْتِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مُسْتَهْدِفَيْنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ لآلِافٍ مِنَ الْمَعَاظِبِ ، قَدْ شَهِدَا كِلَاهُمَا كَثِيرًا مِنْ إِخْوَانِهِمَا يُخَرِّمُونَ مِنْ حَوْلِهِمَا ، وَيَتَبَوَّنَ فِي ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ السَّرْمَدِيَّةِ .

هَذَا الَّذِي كَانَ يَتَنَاقَبَانِ تِلَاوَتَهُ لَمْ يَكْ يُشْبِهُ الصَّلَوَاتِ بِحَالٍ ، فَالْكَنِيسَةُ الْإِنْجِيلِيَّةُ لَا يُصَلِّي فِيهَا قَطُّ عَلَى الْمُتَوَفَيْنِ (١) بَلْ كَانَ عِبَارَةً عَنْ فِكْرٍ مَأْخُودَةٍ مِنَ التَّوَرَاةِ فِي مَعْنَى قِصْرِ الْأَجَلِ وَمَصُوفَةٍ فِي قَوَالِبِ تَشْبِيهَا بِشِعْرِيَّةٍ ، كَتَشْبِيهِ الْحَيَاةِ بِعُشْبِ الْبَوَادِي ، يَنْحَضِرُ فِي الصَّبَاحِ وَيَدْبُلُ فِي الْمَسَاءِ ، أَوْ بِالظَّلِّ يَسِرَى عَلَى الْمَاءِ ، وَتَشْبِيهِ جَمَالِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ شَوْهَتِهِ السُّنُونِ يَتَوَبَّ اكْتَنَهُ الْأَرْضُ (٢) ، وَكَانَ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ يَقْبَهُمُونَ نَصَّ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ أَنْعَبَرِيَّةٍ لِأَنَّهُ كَانَ مُرَبِّجًا إِلَى الْإِنْجِيلِيَّةِ .

عَلَى أَنَّ السَّاعَةَ الْأَخِيرَةَ قَدْ اقْتَرَبَتْ ، فَكَفَّ الرُّبَانُ عَنِ التَّلَاوَةِ ، وَاجْتَذَرَ قُرْبُ عَظَمِ اتِّسَاعِ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ ، ثُمَّ صَوَّبَ نَظْرَهُ آخِرَ مَرَّةٍ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ وَهُوَ مُدْرَجٌ فِي تَسْيِيجِ

(١) الْإِيَّاك : ملك النفس وضبطها . (٢) يخرمون : نأخذهم المنية .

(٣) يتوبون : يقيمون . (٤) الأرض دودية تأكل الخشب .

يَعْرِفُ النَّاطِرُ إِلَيْهِ مِنْ خِلَالِهِ شَكْلَ آدَمِيٍّ مَعْرِفَةً مُبْهَمَةً ، وَقَدْ وُضِعَ عَلَى شَفَا الْقَوَاهِ
الَّتِي صُنِعَتْ فِي جِدَارِ السَّفِينَةِ لِيُلْقَى مِنْهَا فِي الْبَحْرِ .

وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا إِشَارَةً مِنَ الرَّبِّ أَنْ سَمِعَ صَوْتٌ غَلِيظٌ رَحُوَ لِسُقُوطِ رَجُلٍ مَيِّتٍ
فِي الْبَحْرِ ، فَشُوْهِدَ لِلْأَمْوَاجِ فَوْرَانٌ شَدِيدٌ ، فَتَرَجَّحَ خَفِيفٌ ، فَدَوَّارٌ مِنَ الْمَاءِ
مَتَدَاخِلٌ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، فَلَا شَيْءَ .

إِنْتَامَ الْآدَمِيُّ (الْمَوْجُ) عَلَى الْجُنَّةِ كَمَا يَلْتَمُ بِلَاطُ اللَّعْدِ ؛ وَقَالَ الرَّبُّ يَصَوِّتُ
خَفْنَتَهُ الْعَبْرَةَ وَالْإِنْفَعَالَ : أَنْتَ فِي وَدِيعَةِ الْبَحْرِ .^(١)

كُنْتُ فِي كُلِّ الْمُدَّةِ الَّتِي اسْتَرْقَقَهَا آدَاءُ هَذِهِ الشَّعَائِرِ أَقْرَبُ « إِمِيل » حِينَ
فَحِينًا فَأَجِدُهُ شَدِيدَ التَّأَثُّرِ ، وَأَمَّا « لُولَا » فَكُنْتُ أَرَاهَا بَاكِئَةً .

يَرْجِعُ نَائِرُ هَذَيْنِ الْفَلَاحَيْنِ إِلَى سَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا أَنَّ تَجْهِيْزَ الْمَيِّتِ كَانَ مَقْرُونًا بِمَا
يَهْزُ الْقُلُوبَ مِنَ الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ ، وَثَانِيَهُمَا أَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا شَهِدَا الدَّفْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْمَرَّةِ
لِجَهْلِهِمَا الْمَوْتَ حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ ، نَعَمْ إِنَّهُمَا كَانَا يَعْرِفَانِ بِالتَّحْقِيقِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ
صَارٍ إِلَى الْعَنَاءِ ؛ فَقَدْ شَهِدَا حَيَوَانَاتٍ تَزُولُ ، وَإِخْوَانًا يُسَخِّطُونَ مِنْ حَوْلِهِمَا ، غَيْرَ
أَنِّي فِي شَكٍّ قَوِيٍّ مِنْ كَثَرَةِ اشْتِغَالِهِمَا بِهَذِهِ الطَّوَارِيِ الطَّبْعِيَّةِ وَوُقُوفِهِمَا بِالْفِكْرِ عِنْدَهَا ،
وَالْإِنْسَانُ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا فَكَّرَ فِيهَا بِنَفْسِهِ ، وَلَا أَعْلَمُ

(١) ما كان البحر ليؤمن على وداعة ، فما أضيق ودائمه البشرية ! ولو أنه استودعه الله لكان خيرا !

وَاهِمًا يُنْقِ عَلَى بَعَّةَ هَذَا الْجَهْلِ، لَا نَى أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي، مِنْ أَجْلِ إِنْشَاءِ «إِمِيل» عَلَى الْأَصُولِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي يُجِبُّهَا ذَلِكَ الْوَاهِمُ، أَنْ أُرِيَهُ عَلَى الْخَوْفِ، وَأَنْ أُحِيطَ لَهُ الْحَيَاةَ فِي مَوَاعِظِ يَوْعِيدِ الْقَبْرِ وَمَخَاوِفِ الْخُلُودِ، وَلَكِنْ مَا حِثَّنِي إِذَا كُنْتُ لَمْ أَجِدْ مِنْ نَفْسِي إِقْدَامًا عَلَى ذَلِكَ، فَأَنَّى رَأَيْتُهُ كَثِيرَ الْإِغْتَابِ بِالْحَيَاةِ، فَصَرَفْتُ جُلَّ عَنَائِي فِي تَحْيِيبِ الْوَاجِبَاتِ إِلَى نَفْسِهِ، لَا فِي دَنَاءَةِ التَّخْوِيفِ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ أَوْ التَّائِمِلِ فِي مَثَوَاتِهَا الْغَيْبِيَّةِ .

الْمَوَاعِظُ الْمُحْزِنَةُ لَا تُرَبِّي الْوَجْدَانَ، بَلْ تُكَدِّرُ صَفَاءَهُ وَتُزَجِّجُهُ، فَوَاشَوْقَاهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي يَتَأَثَّرُ فِيهَا الْيَافِعُ مَشْهَدَ الْمَوْتِ، فَيَأْسُ مِنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةِ إِلَى سَبْرِ غُورِ مَا قَدَّرَ لَهُ فِي أَخْرَاءِ .

الشذرة السادسة والعشرون

أَقَالِيمُ الْبِلَادِ فُصُولٌ ثَابِتَةٌ كَمَا أَنَّ فُصُولَ السَّنَةِ أَقَالِيمٌ مُرْتَحِلَةٌ .

يوم ٦ مايو سنة ١٨٦٠

الرَّيَاحُ بَارِدَةٌ وَالسَّمَاءُ كَدْرَاءٌ، وَتَزْعُمُ «لَوْلَا» أَنَّ سَفَرَنَا اسْتَفْرَقَ الرَّبِيعَ وَالصَّيْفَ وَالْخَرِيفَ وَأَنْتَا دَاخِلُونَ فِي الشَّتَاءِ، وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ هِيَ أَنَّ أَقَالِيمَ الْبِلَادِ فُصُولٌ ثَابِتَةٌ كَمَا أَنَّ فُصُولَ السَّنَةِ أَقَالِيمٌ مُرْتَحِلَةٌ .

(١) ما كرهه الرب لولده من انشاءه على الخوف من العقاب والرجاء في الثواب غير مكروه، ووصفه هذين الأمرين بالدناة غير صحيح، وأمله في أن ولده يسرغور ما قدر له في أخراء وهم ظاهر، وخدعة زينا له شك في اليوم الآخر — التريخ .

صَارَتِ الْأَمْوَاجُ مِنَ الثَّقِيلِ وَالضَّخَامَةِ يَحِثُّ أَصْبَحَ مَسِيرِ السَّفِينَةِ شَاقًا وَقَدْ
هَبَّتْ عَلَيْنَا رِيحٌ خَبِيثَةٌ فَهِيَ تَرْفَعُنَا إِلَى الشَّرْقِ نَحْوَ جَزَائِرِ فُوقْلَنْدِ^(١) .

الشدرة السابعة والعشرون

وَصَفُ بَعْضِ أَنْوَاعِ الطُّيُورِ الَّتِي فِي زُقَاقِ (بُوغَازِ) مَاجِلَانَ
وَطَرِيقَةُ صَيْدِ نَوْعٍ مِنْهَا

يوم ٧ مايو سنة ١٨٦٠

إِفْتَحْنَا مَدْخَلَ زُقَاقِ (بُوغَازِ) مَاجِلَانَ وَهُوَ مَجَازٌ خَطِرٌ، وَرَأَيْنَا هُنَاكَ طُيُورًا
يُسَمِّيهِ الْمَلَّاحُونَ حَمَامَ الرَّاسِ، الْوَاحِدَةُ مِنْهَا فِي جَمْعِ الْبَطَّةِ الْبَرِيَّةِ، أَحَدُ نِصْفَيْهَا أَيْضُ
وَالثَّانِي أَسْوَدٌ، وَكَانَتْ نَحْمُ حَوْلَنَا أَسْرَابًا، وَتَضَطَّادُ شِبَاكِ مُعَدٍّ عَلَى كَوْنِ السَّفِينَةِ
(مُؤَخَّرَهَا) فَتَنْشِبُ فِيهَا أَجْنِحَتُهَا فِي غُدُوها وَرَوَاحِهَا عَلَيْهَا، وَتَتَوَرَّطُ فَلَا تَسْتَطِيعُ
انْفِكَاسًا .

وَشَاهَدْنَا طَائِرًا أَنْتَرَأَتَرَ التَّعَجَّبُ فِي نَفْسِ «إِمِيل» بِعُلُوِّ قَامَتِهِ وَارْتِفَاعِ طَيْرَانِهِ
وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْبَطْرُوشِ^(٢) .

(١) جزائر فوكلند هي أرخبيل في المحيط الاطلنطي شرق بوغاز ماجلان ملوك الانجليز .

(٢) زقاق ماجلان واقع بين بتاغونية وتيردوفو « أرض النار » عثر عليه رحالة برتغالي اسمه ماجلان وهو أول من بدأ بالطواف حول الأرض .

(٣) البطروش طائر من فصيلة الطيور الراحية الأرجل (لأرجلها راحة كراحة اليد) يعيش في بحار استرالية .

الشذرة الثامنة والعشرون

كثرة الزواجر في رأس القرن

يوم ١٠ مايو سنة ١٨٦

رأس القرن حقيقٌ إِنَّ يُسَمَّى رأس الزواجر، فقد هاجت علينا فيه هيجة خلنا
فيها أَنَّ المحيط بأجمعه ينبحُ بكلِّه على سيفيننا الضئيلة، على أنها تقاوم وتجري
مع ما يلاطمها من الأمواج ويتقاذفها من المهاوى، لا يقعدُها عن ذلك زججة
البحر، فهو بهيمة كبرى وجدت من يروضها .

الشذرة التاسعة والعشرون

« تجماعة الملاحين وتفضيلها على تجماعة الجنود »

« ويان أنها تكتسب بالتعلم »

يوم ١٤ مايو سنة ١٨٦

إتينا من الطواف بالرأس، ولكن ما أعظم ما بذلنا في سبيل ذلك من الجهد،
وما أشد ما عانينا من المساق! فقد كانت الريح تزف^(١) ثلاثة أيام وثلاث ليال زففة
بلغت من الشدة إلى حد أن سارى سيفيننا الأكر كان فيها ينود تنود^(٢) القصة^(٣)
من بيس الحشيش .

(١) تزفوف تهب شديدا .

(٢) ينود يهز .

(٣) القصة: كسر القاف القطعة ما يكسر .

لَمْ يَكُنْ يُؤْلَمُ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ سِوَى أَيْدِي الْبَحَّارِينَ فِي مُارَسَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا كَانَ أَشَدَّنِي إِعْجَابًا فِي تَقَمُّي سِيرَتِهِمْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي مُكَافَحَةِ الْبَحْرِ وَمُغَالَبَةِ الْخَطَرِ! فَلَيْسَتْ بِسَالَةِ الْمَلَّاحِ مِنْ قِبَلِ بَسَالَةِ الْجُنْدِيِّ، وَلَكِنَّهَا تَفْضُلُهَا فِي رَأْيِي، لِأَنَّ الْمَلَّاحَ مَمْلَأَهُ مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى الْمَوْجُودَاتِ وَالْقَوَاعِلِ الْكُونِيَّةِ يُكَادُجُ الْمَوْتَ مُوَاجِهَةً، فَلَا يَحْوُلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا سُمْكُ لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ، وَلَيْسَ غَرَضُهُ مِنَ الْكَفَّاجِ إِبَادَةُ نُظَرَانِهِ، بَلْ هُوَ فِي مُدَافَعَتِهِ عَنْ حَيَاتِهِ يَعْمَلُ لِتَنْجِيَّتِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، وَنَاهِيكَ^(١) بِالْبَحْرِ عَوًّا، أُوتِيَ مِنَ الْمُدَدِ مَا هُوَ أَشَدُّهَا رَهْبَةً فِي الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ، فَإِنَّكَ تَرَى السَّفِينَةَ - عَلَى وَهْنِهَا وَكُونِهَا لَيْسَتْ إِلَّا دُولَابًا مِنَ الْخَشَبِ - تُطَارِدُهَا الرِّيحُ وَالْبَرْدُ وَالتَّبَرُّقُ وَجِبَالُ مِنَ الْمَوْجِ، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تُقَاوِمُ قُوَى كَوْنٍ مِنَ الْأَكْوَانِ بِرُمْتِهَا . وَلَا مُشَابَهَةَ أَيْضًا بَيْنَ قَدْرِ الْمَلَّاحِ وَبَيْنَ مَا يُفَانِرُهُ السُّفْطِيُّ^(٢) مِنْ اجْتِرَائِهِ عَلَى مُعَانَدَةِ الْقَدَرِ بِاسْتِدْلَالَاتِهِ الدَّقِيقَةِ اجْتِرَاءً بَارِدًا خَالِيًا مِنَ الْعَمَلِ، هِمَاتٍ، فَإِنَّ قَدَرَ الْمَلَّاحِ هُوَ مَا يَتَجَلَّى فِي عَمَلِهِ مِنْ قُوَّةِ نَفْسِهِ وَهِمَّتِهَا، فَتَرَاهُ مَعَ اسْتِعَانَتِهِ رَبَّهُ لَا سَتِمَسَا كِهَ يَدَيْهِ لَا يَعْتَمِدُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، أَعْنَى عَلَى صِحَّةِ بَصِيرِهِ وَضَبْطِ حَرَكَاتِهِ وَقُوَّةِ أَعْصَابِهِ، فَإِنَّ قَهْرَهُ عُدُوهُ سَلَّمَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرَى آخِرَ سِرَاجٍ لَهُ قَدْ تَحَطَّمَ .

تِلْكَ الْبَسَالَةُ تَكْتَسِبُ بِاتِّعَظُمِ، وَهَذِهِ الثَّقَّةُ بِالنَّفْسِ تَسِيرُ بِالْمُعَاشَرَةِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ «إِمِيل» كَانَ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْمِلَاحَةِ شَدِيدَ الرُّوْعِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ ذَهَبَ عَنْهُ

(١) ناهيك كلمة تعجب منها حبسك

(٢) السفطى الذى ينكر الحيات والبهيات وغيرها

زَوْعُهُ بِالنَّاسِ يُرْفَقَانِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى مِنَ السَّارِ أَنْ يَرْجِفَ فُؤَادُهُ وَتَتَرَزَّلُ قَدَمَاهُ
أَمَامَ هَؤُلَاءِ الْإِطْطَالِ وَهُمْ تَائِنُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ ، كَانُوا يَسْغُلُونَهُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ بِإِدَارَةِ
الْمَصَصَاتِ (الطُّلُمَبَاتِ) وَمُعَالِجَةِ الْحِبَالِ ، فَلَا شَيْءَ يَعْمَلُ كَالْعَمَلِ الْبَدَنِيِّ فِي تَقْوِيَةِ
الْقَلْبِ ، فَبَطَالَةُ الْمُسَافِرِينَ هِيَ الَّتِي عِنْدَ أَدْنَى هَيْعَةٍ تَمَلَأُ قُلُوبَهُمْ بِالْمَخَافِ وَأَدَمَّتْهُمْ
بِالْخِيَالَاتِ ، وَأَمَّا الْمَلَّاحُ فَلَيْسَ لِلْخَوْفِ مَتَسَعٌ فِي وَقْتِهِ .

مِنْ مَرَايَا الْمَلَّاحَةِ أَيْضًا أَنَّ مَا فِيهَا مِنْ مُكَافَعَةِ الْخَطَرِ يُنَمِّي فِي قُلُوبِ الْمَلَّاحِينَ
حُبَّ الْحَيَاةِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَحْسَبُ أَنَّ الْإِنْتِحَارَ لَا يَكَادُ يَكُونُ مَعْرُوفًا بَيْنَهُمْ ؟ .

السُّجَرُ مِنَ الْحَيَاةِ مِنْ مُمَيَّزَاتِ الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ ، وَهُوَ أَخَوْفُهَا عِنْدِي عَلَى الشَّبَانِ
وَأَشَدُّهَا إِيْلَامًا لِلنَّفْسِ ، فَإِنِّي أَرَى الْأَطْفَالَ يُؤَلِّفُونَ غَيْرَ مُبَالِيْنَ بِشَيْءٍ ، سَامِعِينَ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ ، حَامِدِينَ الْإِحْسَاسِ ، مَتِّي الْقُلُوبِ ، فَكَمْ مِنْ قَتَاةٍ إِذَا انْكَشَفَ لَهَا وَهْمُهَا
لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِيمَا كَانَتْ تَعْتَقِدُ مَوَاقِعًا ، تَمَنَّتْ لَوْ أَنَّهَا مَاتَتْ قَبْلَ انْكَشَافِهِ ! وَكَمْ مِنْ قَتَاةٍ
كَسُولٍ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْهُ الْجِدُّ إِلَّا مُعَامَلَةَ الْغُلَامِ
الْعَارِمِ ، يَصِيحُ قَائِلًا « مَا فَائِدَةُ الْحَيَاةِ ؟ » وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِي هُنَا أَنْ أَجْعَلَ عَنْ
أَسْبَابِ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ الْمَلْمِيَةِ بِالنَّفُوسِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَإِنَّمَا غَرَضِي أَنْ أَقُولَ لِكُلِّ
هَؤُلَاءِ الْمُتَجَرِّبِينَ : « أَنْظَرُوا إِلَى الْمَلَّاحِ تَجِدُوا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَرَفَ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ ،
لِأَنَّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَنْوُدُ عَنْهَا أَخْطَارًا حَقِيقَةً لَعَايَةِ نَافِثَةٍ ، وَيَذَلُّكَ صَارَ أَهْلًا لِأَنْ
يَقْدُرَ مَا حَقَّ قَدْرُهَا » .

(٢) الجِدُّ فَتَحَ الْجِلْمَ مَتَاهُ هَذَا الْهَظِّ وَالْبَحْثِ .

(١) الهَيْعَةُ : صَوْتُ الْفَرْعِ .

(٣) الْمُتَجَرِّبِينَ : الْمُتَضَرِّبِينَ .

مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ كُلُّهَا أَرَى أَنَّ «إِمِيلَ» الْآنَ فِي وِلَايَةِ مُعَلِّمِينَ حَازِقِينَ،
وَأَمَّا «لُولا» فَلَهَا وَالْحَقُّ يُقَالُ لَمْ تَبْدِ مِنْ الْهَسَالَةِ شَيْئًا بَدُّكَ، لِأَنَّهُا لَبِثَتْ مُحْتَبَةً
فِي إِحْدَى زَوَايَا مُحْجَرِيهَا، فَكَانَتْ كَالنَّعَامَةِ الَّتِي يُؤَكَّدُ الْعَارِفُونَ بِأَخْلَاقِهَا أَنَّهَا تَتَوَهَّمُ
أَنَّ عَمَرَ رَأْسِهَا فِي الظَّلَامِ مَتَجَةٌ لَهَا مِنَ الْخَطَرِ الْمَلُومِ بِهَا، وَذَلِكَ مَا اضْطَرَّ هِلَانَةَ
إِلَى أَنْ تَكُونَ قُدُوةً لَهَا فِي الْإِقْدَامِ تَسْكِينًا لِرَوْعِهَا، وَكَانَ هَذَا مُوجِبًا لِلْإِعْجَابِ
بِهَا بِحَقٍّ.

شَجَاعَةُ النِّسَاءِ الْمُحْمَدَةِ

مِنَ الْخَطَرِ أَنْ يَتَوَهَّمُ مَوْتَهُمْ أَنَّ لَا فَائِدَةَ فِي الشَّجَاعَةِ لِلنِّسَاءِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ يُرِيدُ بِهَا
الشَّجَاعَةَ الْحَرْبِيَّةَ فَإِنَّ قَلِيلَ الْإِعْتِدَادِ بِهَا فِي الرِّجَالِ، فَأَكُونُ أَقْلَ اعْتِدَادًا بِهَا فِي الْمَرْأَةِ
الْمُتَرَجِّلَةِ، وَلَكِنْ لَا يَعْزُبُ عَنْ ذَهْنِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْ ضُرُوبِ الْأَقْدَارِ غَيْرُ وَاحِدٍ، فَإِنَّ
النِّسَاءَ مُسْتَهْدِفَاتٍ لِلْمَخَاطِرِ الَّتِي تَحْنُ عُرْضَةً لَهَا، وَمُضْطَرَّاتٌ لِمُخَالَفَةِ مَا تُغَالِبُهُ مِنْ
حَوَادِثِ الْكَوْنِ الْخَارِجِيِّ، وَقَدْ يُوجَدُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا تَتَوَقَّفُ حَيَاتُهُنَّ فِيهَا بَلْ
وَحْيَةً أَطْفَالَهُنَّ عَلَى سَكِينَتَيْنِ وَرَبَاطَةٍ جَاشِيْنٍ، فَقُوَّةُ الْعَزِيمَةِ وَثَبَاتُ الْجَنَانِ هُمَا
مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمَرْأَةُ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الرَّجُلُ.

مِنَ الْمَصَائِبِ أَنْ تَسُوءَ تَرْبِيَةُ الْفَتَيَاتِ إِلَى حَدٍّ أَنْ يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ تَكْلُفَ ضُرُوبِ
الْفَرْعِ الْقَائِلِ عِنْدَ كُلِّ مُتَأَمِّبَةٍ، خُصُوصًا بِحَضْرَةِ الشَّبَابِ مِمَّا يَلْفِتُ الْأَنْظَارَ إِلَيْهِنَّ،
فَيَقُولُ مَنْ يَرَاهُنَّ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِنَّهُنَّ يَقْصِدْنَ أَنْ يَظْهَرْنَ فِي شَكْلِ الْحَمَائِمِ
الْمُرُوءَةِ، وَيَجْمَلُ أَنْ يُوعَظَنَّ بِأَنَّ الْخَوْفَ لَا حُسْنَ فِيهِ مُطْلَقًا، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِنَّ
لَا نَفْسَهُنَّ إِذَا أَحْدَقَ مِنْ الْخَطَرِ أَنْ يَحْتَبِدْنَ فِي اسْتِشْعَارِ الْأُطْمِئْنَانِ وَالسَّكِينَةِ، إِنْ

كُنْ يُرَدُّ أَنَّ يَصْرَنَ مَتَارًا لِلْإِنْجَابِ وَالْإِسْحَاقِ، وَلَا حِصَّةَ لِمَا يَتَقَدَّرُ عَنْهُ عَلَى مَا يَظْهَرُ.
مِنْ أَنْ ثَبَتَ جَبَانُ الْمَرْأَةِ يُسَى خُلُقُهَا، بَلْ أَجْدُ جَمَالًا وَشَرَفًا فَاقْتَبَيْنِ فِي تِلْكَ
الذَّاتِ، إِذَا كَانَتْ مَعَ تَجَرُّدِهَا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمُهَاجَةِ، بَلْ وَمِنْ قُوَّةِ الْمُدَافَعَةِ،
تَقْتَحِمُ الْخَطَرَ بِقُوَّةِ جَائِشٍ تُكَافِي قُوَّةَ الرَّجُلِ .

أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِنَ الْأَوْهَامِ السَّخِيفَةِ اعْتِقَادُ أَنَّ جَفَاءَ الطَّبْعِ مِنْ لَوَائِمِ الشَّجَاعَةِ،
وَلَكِنِّي أَوْدَلُو أَدْرِي مَتَى سُوءِهَا أَنَّ الشَّجَاعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ غَيَّرَتْ مِنْ رِفَّةِ الْمَرْأَةِ وَرَحْمَتِهَا،
وغير ذلك مِنْ فَضَائِلِهَا، حَاشَاها مِنْ هَذَا، وَإِنَّ الْجَبْنَ وَالْآثَرَةَ لَهَا الْذَّانِ يُوجِبَانِ
قَسْوَةَ الْقَلْبِ وَغِلْظَهُ .

سَلْ أَمَا جَبَانًا أَنْ تَشْهَدَ عَمَلًا جَرَّاحِيًا يُعْمَلُ فِي جِسْمٍ وَلَدَهَا لِسُلَيْهِ وَتُسْرَى مِنْ
أَلَمِهِ، تُجْبِكُ بِأَنَّهُا شَدِيدَةُ الْإِحْسَاسِ، كَثِيرَةُ النَّائِثِ، وَتَبْسُ الْعُدُوَّ عَلَيْهَا، فَمَا مُرَادُهَا
إِلَّا الْإِحْتِمَاءُ مِنْ كُلْفَةِ التَّسْخِيرِ . ثُمَّ لَا يَتَخَلَّنَ أَحَدٌ أَنَّ قُوَّةَ الْعَزِيمَةِ وَالسُّلْطَانَ عَلَى
النَّفْسِ أَوْ الشَّجَاعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا يُنْفَعُ بِهَا إِلَّا فِي طَائِفَتَيْنِ مِنَ
الْأَعْمَالِ هُمَا الْحَرْبُ وَالْمَلَاخَةُ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ مَنَفْعَهَا تَتَعَدَّى إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ
الْآخَرَى، لِأَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ مُهْدَدَانِ كُلُّ يَوْمٍ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ يَعِيشَانِ بَيْنَهُمَا بِآلَافٍ
مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْمُعَاطِبِ، وَلِأَنَّ الْبَحْرَ لَا يَقْصِدُ إِلَّا إِزْهَاقَ أَرْوَاحِنَا، وَمَا أَكْثَرَ
مَا يَبْرُضُ لَنَا مِنَ الْأَحْوَالِ الْخَطِرَةِ الَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا تَقْصُصُ أَعْرَاضِنَا وَالذُّهَابُ
يُحْرَمَانِنَا . اهـ

الشذرة الثلاثون

مَرَحُ «لُولَا» فِي السَّفِينَةِ بَعْدَ زَوَالِ الْخَطَرِ

يوم ٣٠ مايو سنة ١٨٦٠

تَشُقُّ سَفِينَتُنَا «الْمُونِيُور» بِجَلَالَةِ خَطَرِهَا عِبَابَ أَمْوَاجِ الْمُحِيطِ الْهَادِي، وَتَتَّخِذُ
لَهَا فِيهِ سَيْلًا، وَقَدْ عَادَتْ «لُولَا» بَعْدَ زَوَالِ الْخَطَرِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ
الْإِتِّبَاحِ وَالسُّرُورِ، فَهِيَ تَمْرَحُ وَتَعْدُو عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ الْحَرَكَاتِ
حَافِظَةً لِتَوَازُنِهَا، وَتَبْدُو قَدَمَاهَا الصَّغِيرَتَانِ فِي خَبِيئَةٍ مِنْ تَحْتِ حُلِيِّمَا كَأَنَّهُمَا
فَارَتَانِ ١٠ هـ

الشذرة الحادية والثلاثون

(وَصَفُ جُزْرِ جَوَانِ فِرْنَانْدِزَ)

وَيَبَيِّنُ أَنَّ إِحْدَاهَا هِيَ الَّتِي كُتِبَتْ عَنْهَا قِصَّةُ

«رُوبِنْسَنُ كَرُوزُو الْمَشْهُورَةُ»

يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٦٠

رَسَوْنَا غَدَاةَ الْيَوْمِ فِي جَوَانِ فِرْنَانْدِزَ لِنَضْبِطَ مِقْيَاسَ الزَّمَنِ (الْكُرُونُومِتْرَ)،
وَهَذِهِ الْبُقْعَةُ مَرَكَبَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ ثَلَاثِ جُزُرٍ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا بِمَجْمُوعٍ مُتَلَاصِقٍ
الْأَجْزَاءُ، وَتُسَمَّى الْأُولَى مَاسَاتِيرَةَ وَالثَّانِيَةُ مَاسَافِيرَةَ وَالثَّالِثَةُ إِسْلَادُ وَلُوبُوسُ،

(١) عباب الأمواج مستطها وأرتفاعها وكثرتها .

وهي صخرة تكاد تكون جرداء، أكثر الثلاث تطوحاً نحو الجنوب ويلقبها السلاحون
بجزيرة القبطس (عجل البحر)، لأن القباطس تأوى إليها طلباً للراحة والدفء .
الجزيرتان الأولىان ماسائية وماسافورية معشوبتان شجران، ومع اجتهاد
الحكومة التائمتين لها في تمييزهما لا تزالان قفرًا، لا يعمرها إلا المعز الوحشية
وهي كثيرة فيهما، ويقال إنها كانت تريد عن ذلك لو لم تسلط عليها كلاب وحشية
مثلها تقاطعها وتقترب منها، ولبت شعري إلى أية حالة تصير هذه الكلاب إذا أبادت
جميع ما هنالك من المعز؟ لا بد أن يأكل بعضها بعضًا . وجزيرة جوان فرناندز
تدكر بواقعة عظيمة جرت فيها وهي :

أنه في سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الإنجليزي دامير على ماسائية، فالتقى فيها وكرله
على القوارب المدعو إسكندر شالكرك، إثر مشاجرة أخدمت بينهما، ترك هذا
التمس في هذه الجزيرة الفقير غير موزع إياه إلا بشيء يسير من الغذاء والعديد،
فعاث هناك أربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته، وفي سنة ١٧٠٩ انفق
لاثنين من صيادي الثيران الوحشية أن نزلا بالجزيرة، فمزا على ذلك الرجل، فرقا
لحاله وحملاه معهما إلى أوربة .

وكان شالكرك قد قيد بعض مذكرات في طريقة عيشته على تلك الجزيرة
البلقع، فاستعان بها دانيال ثوفويه فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذي عرفه
الناس جميعًا، ولشد ما يئديه الآن «إميل» و«لولا» من الإهتمام بمطالعة وقائع
روينسن كروزويه . اه

الشذرة الثانية والثلاثون

« الْوُصُولُ إِلَى خَلِيجِ قَلَاوِ وَوَصْفُهُ »

« وَدِ كُرُتُوعٍ مِنَ الطَّيْرِ فِي تِلْكَ الْجَهَةِ »

يوم ٥ يونيه سنة ١٨٦ —

يَا بُشْرَى ! هَذِهِ أَرْضُ ! هَذِهِ أَرْضُ !

بَعْدَ أَنْ سَافَرْنَا تِسْعِينَ يَوْمًا دَخَلْنَا خَلِيجَ قَلَاوِ ، وَهُوَ مِنْ أَجْمَى مَنَاطِيرِ الدُّنْيَا ،
وَأَبْصَرْنَا جَزِيرَةَ لُورْزُو تَرْتَفِعُ حَيَالَنَا ، أَقُولُ تَرْتَفِعُ ، وَأَقُلُّ مَا فِي هَذَا اللَّفْظِ أَنَّهُ
حَقِيقَةٌ فِي اسْتِعْمَالِهِ هُنَا ، فَقَدْ تَتَجَّ مِنْ حِسَابِ أَحَدِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ سَوَاحِلَ سَانَ لُورْزُو
كَسَوَاحِلِ الشَّاطِئِ الْمُجَاوِرِ لَهَا ، أَرْتَفَعَتْ عَنْ سَطْحِ الْبَحْرِ نَحْسًا وَتَمَانِينَ قَدَمًا إِنْجِلِيزِيَّةً
مِنْ عَهْدِ الْمُصَوِّرِ الَّتِي يَعْرِفُهَا التَّارِخُ .

صُحُورُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِعُمُرِهَا آلَافٍ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الطُّيُورِ ، أَخْصُ بِالذِّكْرِ مِنْهَا طَائِرًا
رَأْسُهُ سَمَرٌ إِلَى السَّنَجَابِيَّةِ (١) وَبَطْنُهُ أَيْضًا نَاصِعٌ وَذَنْبُهُ أَسْوَدٌ ، يُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي
يُحْصَلُّ مِنْهُ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ السَّمَادُ الْمَعْرُوفُ بِالْعُوانُو ، وَهُوَ ثَرَوَتُهُمُ الْكُبْرَى ، لِأَنَّ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ كَادَا يَنْضَبَانِ مِنْ مَعَادِينِ بِلَادِ الْيُورُو ، فَيَهِي نَقْسَلَى عَنِ الْحَرَمَانِ مِنْهُمَا
بَيْعَ الْقَدَرِ ، وَلَا غَرَوُ قَالَ الذَّهَبُ مُدْهِبٌ وَمُفْسِدٌ ، وَالْقَدَرُ مُوجِدٌ وَمُخْصِبٌ . اهـ

(١) السنجابية : لون السحاب .

الشذرة الثالثة والثلاثون

« بَيَانُ فَوَائِدِ الْعُقْبَانِ »

يوم ٦ يونيه سنة ١٨٦٦

رَسَوْنَا فِي مِينَاءِ سِيدُوْدَالْ دُولُوسْ رَيسْ .

أَخْصُ مَا أَذْهَشَ «إِمِيلَ» وَ «لُولَا» عِنْدَ هُجُوطِهِمَا عَلَى الْبَرَكَتَةِ الْعُقْبَانِ الَّتِي تَسْكُنُ سَوَاحِلَ هَذِهِ الْجِهَةِ ، فَإِنَّمَا رُئِيَ عِنْدَ كُلِّ خَطْوَةٍ فِي الشُّوَارِعِ وَعَلَى سُطُوحِ الْمَسَاكِينِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهَا طَائِفَةً تَبْلُغُ السَّنِينَ أَوِ الثَّمَانِينَ نَائِمَةً ، وَهِيَ جَائِعَةٌ عَلَى جِدَارٍ وَرُؤُوسُهَا مُحْنِيَةٌ تَحْتَ أَجْنَحَتِهَا ، ذَلِكَ أَنَّهُمَا لَيْسَ مِنْ خُلُقِهَا الْجَفْلَانُ ، وَلَا تَحْشَى مِنَ السَّكَّانِ شَيْئًا ، لِأَنَّهُمْ يُعْلُونَهَا ، هَذِهِ الطُّيُورُ فِي غَايَةِ الشَّرِّ ، وَشَرُّهَا نَفْسُهُ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ ، لِأَنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى حِفْظِ الصَّحَّةِ فِي الْمَدِينِ ، وَكَانَ «لِإِمِيلَ» فِيمَا أَرَى أَخْطَاءً غَرِيبَةً فِي شَأْنِهَا ، فَإِنَّهُ لَمَّا جَمَعَ الزَّرَايَةَ طَلَبَهَا مِنْ دَرَسُوا أَخْلَاقَهَا فِي الْكُتُبِ كَانَ يَخْتَلِفُهَا سَلَابَةٌ تَسْكُنُ الْهَوَاءَ ، أَكَّالَةً ذَبِيذَةً لِلرَّمَمِ ، فَلَمْ يَمِضْ إِلَّا سَاعَاتٌ قَلِيلٌ حَتَّى زَالَ الْوَهْمُ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ خِلَافُ مَا كَانَ يَتَوَهَّمُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّهَا مُحْسِنَةٌ ^(١) مَحْضَرُهَا الْخَالِيقُ (سُبْحَانَهُ) فِي الْبِلَادِ الْحَارَّةِ لِلْقِيَامِ عَلَى تَنْظِيفِ الطَّرِيقِ الْعَامَّةِ ، فَبِهِ تَنْقِيهَا مِمَّا يُلْقَى عَلَى الْأَبْوَابِ مِنَ الْقِمَامِ وَاللَّحُومِ الْفَاسِدَةِ وَمِمَّا يُطْرَحُ فِيهَا مِنَ الْحَيْفِ ، وَبَدُلَ مَا تَبْدِيهِ هَذِهِ الطُّيُورُ مِنَ الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَالثَّقَّةِ بِهِ حَقَّ الدَّلَالَةِ عَلَى عَلَى شُعُورِهَا بِنَفْعِهَا لَهُ .

الْمَسَافَةُ بَيْنَ قَلَاوِ وَلِيْمَةِ قَرْمَخَانِ إِسْبَانِيُولِيَانِ وَسَبْلِفُهَا غَدَا . اهـ

(١) المحسب مأمور من قبل الولى لضبط الموازين والقيام على الشؤون الصحية وغيرها شبت به

العقبان لقيامها ببعض أعماله .

الشذرة الرابعة والثلاثون

التربية بالمعينة

يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٦٠

مَدِينَةُ لِمَّةٍ فِي تَطَرِي كَثِيرَةٍ الشَّبَهِ جِدًّا بِأَحَدَى مَدَنٍ أُرُوبِيَّةٍ، وَإِنَّ الْأَوْرُيَّ
الَّذِي يُسَافِرُ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى الْجَنَابِ الْآخَرِ مِنَ الدُّنْيَا، يَقْطَعُ فِي ذَلِكَ خَمْسَةَ آلَافٍ
وخمسمائة وتسعة وعشرين مِيلًا انْجِلِيزِيًّا لِيَسْتَحِقَّ أَنْ يُقَالِيَ بِعَدِّ هَذَا السَّفَرِ مَنْ
تَرَكَهُمْ هُنَاكَ مِنَ الْيَسُوعِيِّينَ وَالْمُتَنَوِّلِينَ وَالْبَغَايَا وَالرَّاهِبَاتِ وَمُعَاهِدِ الْفُجُورِ .

فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَوَارِعُ لَهَا مِنَ الرُّوْقِ مَا يَسَابِهَا ، وَفِيهَا مَبْدَأٌ أُنِيقٌ يُدْعَى
«بِالْبَلَا زَامِير» ، فِي وَسْطِهِ بَرَكَةٌ نَعْمَةٌ مِنَ الْبُرْزِ ، يَنْبَغِي مِنْهَا الْمَاءُ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَاضٍ ،
عَلَى أَنَّ هُنَاكَ جَدُولًا يَخْتَرِقُ الْمَدِينَةَ أَفْضَلُهُ كَثِيرًا عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ الْفَنِيِّ ، وَهَذَا
الْجَدُولُ الْمُسَمَّى بِالرِّيمَاقِ يَأْخُذُ مِيَاهَهُ مِنْ مَتَالِجِ جِبَالِ الْقُورْدِيرِ ، وَبَعْدَ أَنْ يَجْرِيَ
ثَلَاثِينَ فَرْسَخًا يَصِلُ إِلَى لِمَّةٍ فَيَقْسِمُهَا إِلَى قِسْمَيْنِ مُتَسَاوَيْنِ قَرِيبًا ، وَاسْتُ أَدْرَى
أَضْلَلُ أَمْ حَقٌّ أَنَّ أَحْسَّ بِرُودَةِ مِيَاهِهِ إِذَا غَمَسْتُ إصْبَعِي فِيهَا كَانَ مَاءُ الثَّلُوجِ
لَمْ يَمِهِلْهُ انْدِفَاعُهُ أَنْ يَسَخَنَ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ .

أَيْسَتْ الْحَرَارَةُ فِي تِلْكَ الْحِقَةِ مِنَ الشَّدَةِ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي قَدْ يَتَوَهَّمُ ، مَعَ كَوْنِهَا
لَا تَبْعُدُ عَنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَّا عَشْرَ دَرَجَاتٍ ، وَتَمَلُّ هَذِهِ الْحَالَةَ يُعَلِّي مُخْتَلِفَةً ،
فَإِنَّ أَحْصَاهَا وَضَعُ الْمَدِينَةِ ، فَإِنَّ الْمِحِيطَ الْمَدَى يَكْتُمُهَا مِنْ أَحَدِ جَانِبَيْهَا ،

وَيَكْتَفُهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ جِبَالُ الْقُرْدِيرِ الْقَائِمَةُ شَرْقِيَّهَا مُكَلَّلَةٌ بِالثَّلُوجِ الدَّائِمَةِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُسَاعِدُ بِلَارِيَّ عَلَى تَرْطِيبِ الْجَوِّ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ قَرِيحَتَانِ إِسْبَانِيُولِيَّانِ، وَلَا تَبْعُدُ الْجِبَالُ عَنْهَا إِلَّا ثَمَانِيَةَ وَعِشْرِينَ قَرِيحَةً، فَكَأَنَّ الْبَحْرَ وَالْجِبَالَ مِثْلَ مَرْجُوحةٍ تَخْطُطُ بِهَا السَّاحِلُ لِقَبْلِ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ .

الَّذِي يُدْهِشُ (إِمِيل) وَ(لَوْلَا) كَثِيرًا هُوَ أَنَّهَا بِحَسَبِ مِثْرَةِ الشَّمْسِ الْآنَ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ، مَعَ أَنَّ فِي شَهْرِ يُونِيَّةِ، عَلَى أَنَّ الْحَقَّ أَنَّ لَا شِتَاءَ فِي بِلَادِ الْبَيْرُو، فَإِنَّ السَّنَةَ فِيهَا تَقْسِمُ إِلَى فَصْلَيْنِ: فَصْلِ الرُّطُوبَةِ وَفَصْلِ الْجَفَافِ، فَفَصْلُ الرُّطُوبَةِ يَبْتَدِئُ مِنْ شَهْرِ إِبْرَيْلِ وَيَسْتَمِرُّ إِلَى أَكْتُوبرِ، وَفِيهِ يَغْشَى الْمَدِينَةَ ضَبَابٌ ثَقِيلٌ قَاتِرٌ يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْبِلَادِ بِالْفُرُوءِ، وَقَدْ يَبْلُغُ أَحْيَانًا مِنَ الْكَثَافَةِ وَالْإِسْفَافِ (الدُّوْمَنِ الْأَرْضِ) - خُصُوصًا فِي الْغَدَاةِ - حَدًّا لَا تَكَادُ تَرَى فِيهِ مَا هُوَ شَدِيدُ الْقُرْبِ مِنَّا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَيُقَالُ إِنَّ هَذَا الْحِجَابَ يَتَمَرَّقُ فِي شَهْرِ أَكْتُوبرِ أَوْ نُوفَمْبَرٍ فَتَرْتَفِعُ قُبَّةُ السَّمَاءِ سَنَجَابِيَةَ اللَّوْنِ، وَلَا يَلْبَثُ الطَّلُ أَنْ يَتَلَاشَى بِحَرَارَةِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ النَّفَاذَةِ، وَجَيْثُذٍ يَبْتَدِئُ فَصْلَ الْجَفَافِ أَيَّ الصَّيْفِ .

لَا يَبْقَى أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا فَصْلَ الرُّطُوبَةِ الْفَصْلُ الْمُمِطِرُ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمُضِي قَرْنٌ وَلَا تَسْقُطُ عَلَى طُولِ هَذَا السَّاحِلِ كُلِّهِ قَطْرَةٌ مِنْ مَطَرٍ، عَرَفْتُ ذَلِكَ لِأَنِّي مِنْذُ بَضْعَةِ أَيَّامٍ كُنْتُ أَسْأَلُ شَيْخًا مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ : هَلْ تَذْكُرُ أَنَّكَ شَهِدْتَ مَطَرًا فِي حَيَاتِكَ؟ فَكَانَ جَوَابُهُ لِي « قَطْ » فَسَأَلْتُهُ عَنْ عُمُرِهِ فَقَالَ إِنَّهُ ثَمَانُونَ سَنَةً .

الضَّبَابُ نَدَى يُحِيلُ التُّرَابَ إِلَى وَحْلِ، وَيَكْفِي لِإِخْصَابِ الْأَرْضِ هُنَا إِخْصَابًا مُتَوَسِّطًا، عَلَى أَنَّهُ يُوجَدُ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى مِنْ بِلَادِ الْبَيْرُو وَدِيَانٍ وَرُبِّي قَرْيَةً مِنْ

الْجِبَالِ يَنْزِلُ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ مِيُولٌ حَقِيقَةٌ، إِذَا أَصَابَتِ الرِّمَالُ الْقَطَلَةَ أَصْبَحَتْ عَمَّا قَلِيلٍ حَافِلَةً بِالنَّبَاتَاتِ، فَالْأَرْضُ لَا تَسْأَلُ السَّمَاءَ إِلَّا أَنْ تَتَصَدَّقَ طَلِبًا بِالمَاءِ .

فَصُلِّ الْجَفَافُ بِالضَّرُورَةِ أَشَدَّ الْمُصْلِينَ حَرَارَةً، عَلَى أَنَّ النَّاسَ هُنَاكَ كَدُونٌ لِي أَنَّهُمْ يَجِدُونَهُ مُبَرَّدًا بِمَا يَهْبُ مِنْ تَسِيمِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَكَانَ هَذَيْنِ النَّسِيمَيْنِ يَفْتَسِمَانِ الْيَوْمَ بَيْنَهُمَا، فَيَهْبُ نَسِيمُ الْبَحْرِ عَلَى الْجُمْلَةِ حَوَالِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْغَدَاةِ وَيَسْتَمِرُّ عَلَى هُبُوهِ مُتَرَاوِعًا بَيْنَ الشَّدَةِ وَاللَّيْنِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، ثُمَّ يَرْكُدُ وَيَسْتَتِبُ السُّكُونُ، فَإِذَا كَانَتِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةُ أَوِ الثَّاسِعَةُ مِنَ الْعَشِيِّ جَاءَ دُورُ نَسِيمِ الْبَرِّ الَّذِي يَهْبُ مِنَ الْجِبَالِ فَيَقْبُ عَلَى هُبُوهِ إِلَى الْغَدَاةِ .

فِي رَأْيِي أَنَّ سُكَّانَ لَيْمَةِ أَشَدَّ مَا فِيهَا غَرَابَةً وَأَدْعَاهُ إِلَى الْمُرَاقَبَةِ، فَلَا أَظُنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي سُكَّانٍ بُقْعَةً أُخْرَى مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ مَا يُوجَدُ فِي مَلَامِجِ وُجُوهِهِمْ مِنَ الْإِخْتِلَافِ الْعَظِيمِ، وَفِي أَلْوَانِ جُلُودِهِمْ مِنَ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الْوَاضِحَةِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ سُلَالَةِ الْمُسْتَعْمِرِينَ (وَأَعْنِي بِهِمُ الْأَشْخَاصُ الْمَوْجُودِينَ فِي أَمْرِيكَ مِمَّنْ هَاجَرُوا إِلَيْهَا مِنَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةِ، خُصُوصًا أَعْقَابَ الْبُيُوتِ الْإِسْبَانِيُولِيَّةِ الْعَتِيقَةِ وَمِنَ الْمُتَنُودِ وَالزُّنُوجِ وَالْخِلَاسِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَصْنَافِ، فَتَرَى مِنَ أَلْوَانِ وُجُوهِهِمْ كَلَمًا تَقْفَهُمُ الْأَبْيَضُ الشَّاحِبُ وَالْأَصْفَرُ النُّحَامِيُّ وَالْأَسْوَدُ الْكَهْرَبِيُّ وَمَا يَتَخَلَّلُهَا مِنْ ضُرُوبِ الْإِخْتِلَافِ الصَّغِيرَةِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنْ اشْتِبَاكِ الْأَرْحَامِ وَاخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ،

(١) الخلاسى هو الذى يولد بين أبوين أحدهما أبيض والثانى أسود .

(٢) تقفهم : لقيتهم .

وَإِنِّي إِذَا عَتَبْتُ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ مَا قَامَ يَنْقُصِي مِنْ آثَارِ الْأَفْعَالِ يُرْفِئُهُمْ لِأَوَّلِ
مَرَّةٍ حَكَمْتُ بِأَنَّهُمْ مُتَشَابِكُونَ بِالْأَرْوَاحِ كَمَا تَسَابِكُوا بِالْأَشْبَاحِ .

تَمَازُ النَّسَاءُ الْبَيْضُ وَالْخَلَائِيَّاتُ عَرَبٌ غَيْرُهُنَّ يَمِينِيَّ نَجْلَاوِينَ سَوْدَاوِينَ ^(١)
تَتَوَقَّدَانِ ذَكَاءً، وَيَسْعُورُ طَوِيلَةَ غَدَائِرِهَا الثَّقِيلَةُ مُرْسَلَةٌ، وَلَوْ أَنَّ تَقَاوِمَ وَضَاحَتَهُ
الْفُطْرِيَّةُ حِلَّةَ الشَّمْسِ، وَأَنْفٌ مَعَ خُلُوهِ مِنْ شَبَهِ الْأُتُوفِ الْيُونَانِيَّةِ لَا يُعَوِّزُهُ شَيْءٌ
مِنَ الْقَتَا، وَفِيهِ مُزْدَانِ بِالثَّنَايَا الْجَمِيلَةِ عَلَى مَا قَدْ يَكُونُ فِيهِ مِنَ السَّعَةِ أَحْيَانًا، وَقَامِيَّةٍ
وَسِبْطَةٍ مُعْتَبِلَةٍ، وَقَدَمَيْنِ بَلَنَّتَا مِنَ الصَّغَرِ حَدًّا يَدْعُو إِلَى الْمَجَبِّ، وَيَدَيْنِ صِيغَتَا
صِبَاغَةٍ دَقِيقَةٍ، وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي وَصْفِهِنَّ أَنَّ صُورَتَهُنَّ هِيَ صُورَةُ «لَوْلَا» إِذَا كَثُرَتْ .

أَنَا لَا أَعْلَمُ إِلَى الْآنَ شَيْئًا مِنْ أَخْلَافِهِنَّ، اللَّهُمَّ إِلَّا مَا يَظْهَرُ لِي مِنْ أَنَّهُنَّ (أَعْنِي
الْغِيَاثِ مِنْهُنَّ) يَقْضِينَ أَوْقَاتَهُنَّ بَيْنَ الزُّهُورِ وَالْعُطُورِ وَالْأَقْرَاصِ الْعُطْرِيَّةِ وَالْمَرَبِّيَّاتِ
وَالْحَلَاوِيَّاتِ، وَلَتَيْنِ اعْتَمَدْتُ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِنَّ عَلَى مَا أَسْمَعُهُ عَنْهُنَّ مِمَّنْ يَحْتَفُونَ بِي،
لَقُلْتُ إِنَّهُنَّ يَقْسِمْنَ وَقْتَهُنَّ بَيْنَ دَسَائِسِ الْمَشَقِّ وَشَعَائِرِ الْعِبَادَةِ، وَلَا إِخَالَ أَحَدًا
لَا يَدْهَشُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْأَذْيَارَ وَالْكَائِسَ تَسْغُلُ مِنَ الْمَدِينَةِ رُبْعَهَا، وَبِمَا أَكَّهْدُ لِي أَهْلُ
لِئِمَةٍ أَنَّ الرِّجَالَ مِنْهُمْ شَدِيدُو الْغَبَرَةِ عَلَى نِسَائِهِمْ، وَلَكِنِّي لَا أَعْتَقِدُ شَيْئًا مِمَّا يَقُولُونَ،
فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا كَذَلِكَ حَقِيقَةً لَمَا أَبَاحُوا لِمَنْ الدَّهَابَ لِلْإِعْرَافِ فِي أَغَابِ
الْأَوْقَاتِ . ^(٢) ١٠

(١) نجلاديين واسمين . (٢) غدايرها : ذوائبها أى الشعور التي تكون في أعلى الرأس .

(٣) القتا مصدر فى الاف أى ارتفع اعلاه واحد ودب وسطه وسبق أى طال طرفه .

(٤) لبأمل المفكر ما فى هذه العبارة من التعريض بمادة الاعتراف عند المسيحيين وما فيها من مظان

التهم والريب، وليذكر أنها صادرة من رجل يتسبب الى المسيحية — المترجم .

الشذرة الخامسة والثلاثون

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ لَيْمَةَ وَأَحْوَالِهِمْ
وَأَهْلِ بَيْتِ «لَوْلَا» وَوَالِدَتِهَا

يوم ٣٠ يونيه سنة ١٨٦٦

مَا لَيْتُ مُنْذُ وَصَلْنَا إِلَى لَيْمَةَ أَنْ التَّرَمْتُ الْإِشْتِقَالَ بِمَصَالِحِ دُولُورِيسَ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ رَأَيْتُ مِنَ الْوَاجِبِ الْبِدَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ أَنْ أَجْمَعَ تَفَاصِيلَ مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُوثُوقِ بِهَا فِي شَأْنِ مَوْلِدِهَا وَوَالِدَتِهَا، وَدُونِكَ بِالْإِيجَازِ نَتِيجَةَ مَا هَدَيْتَنِي إِلَيْهِ أَبْنَانِي :

أَمَّا وَالِدُهَا فَهُوَ مِنْ بَيْتِ إِسْبَانْيُولِي كَانَ رَحَلَ إِلَى بِلَادِ الْبِيرُو وَاسْتَوْطَنَهَا بَعْدَ الْفَتْحِ زَمَنٍ يَسِيرٍ ، وَأَمَّا وَالِدَتُهَا فَكَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ ذَوَاتِ اللَّوْنِ ، وَيُعْنَى بَيْنَ الْخِلَاسِيَّاتِ بِحَسَبِ اصطِلَاحِ النَّاسِ هُنَا ، وَكَانَتْ مَعَ اخْتِوَاءِ عُرُوفِهَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدَّمِ الْهِنْدِيِّ ، لَا يَتَأَتَّى لَعَيْنٍ غَيْرَ عَيْنِ الْمُسْتَعْمِرِ الْخَالِصِ الْغُبُورِ أَنْ تَكْشِفَ فِيهَا بَقَايَا سِمَاتِ صِفَتِهَا الَّتِي أَمْتَحَى أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِهَا ، فَإِنَّهُ لَا قُدْرَةَ لغيرِ الْمُسْتَعْمِرِينَ عَلَى أَنْ يُمِيزُوا فِي الذَّاتِ الْجَمِيلَةِ لِأَوَّلِ نَظَرِهِ مَا يُسَمِّيهِ الْإِنْجِلِيزُ بِأَنَرِ ظَلِيفِ الشَّيْطَانِ الْمَشْقُوقِ ، فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ هَذَا الْأَثَرَ حَتَّى فِي شَكْلِ الْأُظْفَارِ .

وَيَحِقُّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ ، مَعَ خُضُوعِ هَذِهِ الْبِلَادِ لِلْحُكُومَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَمَعَ تَسَاكُ الْأَجْيَالِ فِيهَا ، لَا يَزَالُ بَعْضُ الْيُونَتَاتِ الْإِسْبَانْيُولِيَّةِ يَرُونَ مِنَ الْإِمْتِيَازِ أَنْ يُنْفِصُوا صِرَاحَةَ أَنْسَابِهِمْ وَهَوَاتِمَهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ ، وَأَنْ يَحْرِصُوا عَلَى بَقَائِهَا كَذَلِكَ ،

فَإِنَّ هَذَا فِي رَأْيِهِمْ شَارَةٌ مِنْ شَارَاتِ الشَّرَفِ ، وَفِي رَأْيِ غَيْرِهِمْ وَالْحَقُّ يُقَالُ
نِعْمَةٌ يَحْسُدُونَهُمْ عَلَيْهَا ، يَذْكُكُ عَلَيْهِ أَنَّ الْخِلَاسِيِّينَ فِي الطَّبَقَةِ الْخَامِسَةِ بَلْ
وَفِي الطَّبَقَةِ السَّادِسَةِ يَدْعُوهُمْ عَجَبُهُمْ إِلَى التَّأَلُّمِ مِنْ أَنَّ يَعْرِفُهُمُ النَّاسُ بِهَذِهِ الصَّفَةِ ،
حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَبْذُلُونَ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ لَوْ ضَمِنَ لَهُمُ الْإِنْفِكَافُ مِنْ أَمَارَاتِهَا ، الَّتِي تَرَاهَا
مَعَ نَهَايَتِهَا فِي الْخِلْفَاءِ وَقُرْبِ تَلَاشِيهَا تَتِمُّ عَلَى خِصَّةِ أَصْلِهِمْ ، كَمَا تَقَرَّرُ فِي الْأَرَاءِ وَالْأَفْكَارِ .
ذَلِكَ مَا حَدَّثَنِي إِلَى أَنَّ أَحَدَتَّ نَفْسِي غَالِبًا بِأَنَّ مَعِيشَةَ النَّاسِ مُجْتَمِعِينَ رُبَّمَا
كَانَتْ فِي بِلَادِهَا مُؤَسَّسَةً عَلَى حَاجَتِهِمْ إِلَى احْتِقَارِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا .

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ فَقَدْ كَانَ زَوَاجُ ذَلِكَ الْإِسْبَانِيُولِيِّ الْحُرِّيَّتِكَ
الْخِلَاسِيَّةِ مُعْتَبَرًا عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ سُوءِ الْخَطِّ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ عَلِقَ بِأَذْعَانِهِمْ
نُزْعِيَلَاتٌ مُتَطَلِّقَةٌ لِلْجِلْدِ الْأَحْمَرِ ، وَرَمَخَتْ فِيهَا شَدِيدَ الرُّسُوجِ ، وَكَانُوا يَرْفَعُونَ
صَوْتَهُمْ أَفْخَارًا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَكُونَ عَنْ تَحْمِيلِ الْأَمَهَاتِ ، وَلَا أَدْرَى أَكَانَ هَذَا مِنْ
أَسْبَابِ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ فِيمَا بَعْدَ أَمَ لَا ، ضَرَّاهُ قَدْ عُرِفَ أَنَّ اقْتِرَانَهُمَا لَمْ يَقْرَنْ
بِالْمَنَاءِ وَالنَّبَاطَةِ ، فَقَدْ مَاتَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ الْخِلَاسِيَّةُ فِي السَّاعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا بَعْدَ أَنْ
وَضَعَتْ بَنَاتًا .

لَمْ يُطَوِّحْ وَالِدُ « لَوْلَا » بِنَفْسِهِ فِي الْأَعْمَالِ الْبَحْرِيَّةِ تَطَوُّيًّا تَامًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ
تَأْيِيهِ ، وَكَانَتْ السَّفِينَةُ الَّتِي غَرِقَتْ فِيهِ حِيَالَ سَوَاحِلِ بَرْنَانَسِ مِلْكَالَهُ ، وَقَدْ أَجْمَعَ

(١) الخزعيلات الأمور المضحكة .

(٢) تأييه ضرورته أي مهابا بفقد زوجته .

النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الْفَخْرِ بِيَتْنِهِ وَأَنَّهُ لِعَزِيمِهِ عَلَى تَرْبِيَتِهَا تَرْبِيَةً أَعْلَى مِنْ الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا أَغْلِبُ النِّسَاءِ فِي لِيْمَةٍ، حَمَلَهَا مَعَهُ لِيَضَعَهَا فِي إِحْدَى مَدَارِسِ لَوْنْدَرَةِ الدَّاخِلِيَّةِ .

كَانَ يُحِبُّ هَذِهِ الطِّفْلَةَ ، وَفِي هَذَا أَقْوَى مُوجِبٍ لِلظَّنِّ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَلَقَهَا بِمَزِيدِ الْإِحْتِرَاسِ وَالْعِنَايَةِ فِي أَدَوَاتِ السِّفِينَةِ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ الْأَمْوَاجُ .

بَلَغَ خَبْرَ الْفَرَقِ مَا وَرَاءَ الْبَحَارِ، غَيْرَ أَنَّهُ شَاعَ أَيْضًا فِي لِيْمَةٍ أَنَّ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ شَمِلَتْ الرَّجُلَ وَبَنَتَهُ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ مَا أَرْسَلْتُهُ أَنَا وَهَيْلَانُهُ مِنَ الرِّسَالِ بِإِعْلَامٍ بِتَجَاةِ «لُولَا» وَمُطَابَلَةِ بِحَقُوقِهَا قَدْ حَجَّزَهَا مِنْ لَهِمٍ مُصْلِحَةٍ فِي إِعْدَامِهَا .

مَا نَجَّاهُ مِنَ الْفَرَقِ إِلَّا مَلَّاحٌ وَاحِدٌ لَمْ يَرْجِعْ بَعْدَهُ إِلَى لِيْمَةٍ قَطُّ لِسَبَبٍ لَا أَعْلَمُهُ ، فَلَمْ يَتِمَّسِرْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَ مَا أُذِيعَ هُنَاكَ عَمْدًا مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمَوْضُوعَةِ .

لَمَّا وَصَلْنَا إِلَى لِيْمَةٍ عَرَفْتُ «لُولَا» بِلَادَهَا — إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمًا — مِنْ خِلَالِ مَا حَفِظْتُهُ ذَاكِرَتِهَا مِنْ أَتَارِهَا فِي الصَّغَرِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ لَمْ تَعْرِفْهَا قَطُّ، فَقَدْ كَانَ مِنْ عَرَفْتُهُمْ بِهَا مِنْ آلِ بَيْتِنَا يَنْظَاهِرُونَ بِالرَّيَّةِ فِيهَا، فَيَقُولُونَ نَعَمْ إِنَّهُمْ كَانُوا سَمِعُوا بِسَفَانٍ غَرِيقٍ فِي الْبَحْرِ وَأَنَّهُ عَمَّهُمْ أَوْ ابْنُ عَمِّهِمْ ، وَلَكِنْ مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْفَتَاةَ الَّتِي عَرَفْتُهُمْ بِهَا بِنْتُهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُحِقِّينَ كُلَّ الْحَقِّ أَنْ يَقْتُلُوا مَوْتَهَا ، وَأَمَّا مَا قَدَّمْتُهُ لَهُمْ مِنَ الْأُورَاقِ الدَّالَّةِ عَلَى ثُبُوتِ نَسَبِهَا لَهُ فَكَانُوا يَتَعَلَّلُونَ عَلَيْهَا بِأَنَّهُا مَكْتُوبَةٌ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَهُمْ لَا يَفْهَمُونَهَا، بَلْ هُمْ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا قِرَائَتَهَا .

ذَلِكَ مَا اضْطَرَّنِي إِلَى أَنْ أَقْصِدَ الْعَارِفِينَ بِالْقَانُونِ ، فَكَانَ رَأْيُهُمْ فِي الْقَضِيَّةِ أَنَّهَا مِنَ الْقَضَايَا الْمُعْضِلَةِ الْمُرتَبِكَةِ، وَأَنَّهُ قَتْنَضَى فَرَاغًا وَإِسْلَافَ قُودٍ وَعَبَثًا كَثِيرًا

مِنْ عِبَتِ الْمُحَامَاةِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ حَالَةَ الْقَضَاءِ فِي بِلَادِنَا، وَهُوَ فِي بِلَادِ الْبُيُوتِ أَذْنَى مِنْهُ
أَيْضًا إِلَى الطُّفُولَةِ .

عُمَالُ الْحُكُومَةِ الَّذِينَ سَأَلْتُهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَإِنْ كَانَ أَغْلَبُهُمْ يَنْتَبِهُ إِلَى
بَيْتِ وَالِدِ الْفَتَاةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ تَرَكَ بَعْضَ الْمَالِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ - وَفِي قَوْلِهِمْ
أَمَارَاتُ الرَّبِيبَةِ - إِنَّ جُلَّ هَذَا الْمَالِ ضَاعَ فِي سَدَادِ دُيُونِ الْمُتَوَقِّ، وَالَّذِي ظَهَرَ لِي
أَشَدَّ الظُّهُورِ هُوَ أَنَّ الْمُضَيَّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ يَجُرُّ إِلَى تَشْوِيشِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَالِحِ
الْخَاصَّةِ الَّتِي لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا اتَّسَعَتْ بِمُصِيبَةِ السَّفَانِ . تِلْكَ هِيَ حَالَةُ الْأُمُورِ .

الشذرة السادسة والثلاثون

« فَوَائِدُ الشَّدَائِدِ - بَذْلُ النَّفْسِ لِلْمَحْبُوبِ أَوَّلُ الْحَبِّ »

يوم ١٥ بوليه سنة - ١٨٦٦

كَانَ مِنَّا خُرْقٌ وَطَبِيشٌ كَادَتْ عَوَاقِبُهُ تَكُونُ عَلَيْنَا خَسَارًا مُبِينًا ، ذَلِكَ أَنِّي
وَ « إِمِيلَ » وَ « لُولَا » خَرَجْنَا عَشِيَّةَ أَمْسٍ نَتَتَرَهُ وَالسَّاحِلَ مُتَمِطِينَ أَفْرَاسًا ، فَأَوَّغَلْنَا
فِي سَيْرِنَا مُعْتَسِفِينَ وَلَا يَلْبَثُ الْإِنْسَانُ بِإِدْنِي بَحْثٍ فِي شَكْلِ هَذِهِ السَّوَابِحِ الظَّاهِرِيَّ
أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ الْبِلَادَ تَسَاقَتْ مِنَ الزَّلَازِلِ الْأَرْضِيَّةِ .

(١) عبت المحاماة ما لها من الطرق والحيل في تشويش القضاة وتأجيل الفصل فيها ويظهر أن هذا

من لوازمها بدليل وجوده في أغلب البلدان - المترجم .

مِنْ أَسْمَى الْأَقْهَامِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا حِكْمَةُ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ عَلَى مَا أَرَى - إِدْرَاكَ أَنَّ
لِلنَّاسِ قَوَائِدَ فِيمَا يُبْتَغُونَ بِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ، فَإِنَّ لَهَا دَخْلًا عَظِيمًا فِي تَكُونِ الْعَالَمِ
الْمَادِيِّ .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَذِهِ الْمَصَائِبُ؟ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَتَوَلَّاهَا الْإِضْطِرَابُ
عَمَّ الْفَرْعُ كُلُّ مَنْ عَلَى ظَهْرِهَا مِمَّنْ يَشْهَدُونَ زَلْزَلَهَا، وَرَأَيْتَ الْحَيَوَانَاتِ جَافِلَةً حَيْرَى
لَا تَدْرِي مَاذَا يَرَادُ بِهَا .

وَإِنَّ لِمَنْ شَهِدَ الزَّلَازِلَ مِنْ سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلَادِ قِصَصًا عَنَّا يَرَوْنَهَا لِلْأَجَانِبِ
تَحَاكِي قِصَصِ التَّوَرَةِ، فَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ بِالْأَمْسِ عَامِرَةً سَعِيدَةً أَصْبَحَتْ
خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا، فَلَا يَجِدُ الْبَاحِثُ عَنْهَا فِي عَرَصَاتِهَا إِلَّا أَطْلَالًا بَالِيَةً وَرُسُومًا
دَارِسَةً^(١)، وَإِذَا انْقَضَتْ الزَّلَازِلُ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ جَدِثٌ مَدَّةَ الشَّهْرِ التَّالِي لَوْقُوعِهَا
إِلَّا قِصَصَهَا الْمُخِزَّةَ، فَمِنْ رِجَالٍ ذَهَبَتْ عَقُولُهُمْ مِنَ الْفَرْعِ، وَأَمْوَالُ لَبِثَ بِهَا أَيْدِي
الضَّيَاعِ، وَنِسَاءٌ وَأَطْفَالٌ وَشُيُوخٌ نَحَرَتْ عَلَيْهِمْ بَيُوتُهُمْ نَحْنَقَهُمْ رَدْمَهَا .

(١) لقد طاش رأيه فان القرآن الكريم نطق بهذه الحكمة التي رآها حديثة في آيات كثيرة جدا،
كقوله تعالى: «وَلْيَبْلُغْكُمْ بَشْيٌ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَقِصَصٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْعِمَارَاتِ بِشَرِّ الصَّابِرِينَ»
الذين اذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك
هم المهتدون» وقوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَمِ
الْبَاسِ وَالضُّرَاءِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» وقوله
تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَلَعِنَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُكَافِرِينَ أُولَئِكَ يَرْجَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ الْعَظِيمَ»
شر لكم واقع يعلم وأنتم لا تعلمون» ويداولها المسلمون في مثورهم ومظلوهم ولكنه لا يعلم ذلك .

(٢) وكان يعنى وكثير من القرى . أو وكم من قرية .

(٣) دارسة، طافية أى ضائعة آثارها .

لَا يَسْلَمُ تَارِيخُ هَذِهِ الزَّيَا مِنْ اخْتِلَاطِ الْقِصَصِ بِهِ، فَمَا يَحْكِيهِ النَّاسُ هُنَا أَنَّهُمْ شَاهَدُوا فِي زَلْزَلَةٍ لَيْلِيَّةٍ عَلَى وَبِضِ الْبُرُوقِ الْمَشُومِ أَنَّ الْأَرْضَ قَدْ انْشَقَّتْ وَبَرَزَتْ هَيَاكِلُ قَدَمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ^(١) مِنْ قُبُورِهَا ثُمَّ عَادَتْ فَنِيَّتْ فِي هَذِهِ الْمَهَاوِي الَّتِي مَا لَيْتَ أَنْ التَّامَّتْ عَلَيْهَا .

سُكَّانُ سُطُوطِ الْمُحِيطِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَشَدُّ تَعَرُّضًا لِلْعَاطِيبِ فَإِنَّ الْبَحْرَ فِي بَدَنِ الزَّلْزَالِ يَتَقَهَّقُ عَنِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُ قَدْ مَلَكَهُ الدَّعْرُ، ثُمَّ يُعَاوِدُ الْكَرَّةَ وَقَدْ هَاجَ غَضَبُهُ، وَاشْتَدَّ خَضْبُهُ وَبَلْبُهُ^(٢)، وَهُنَالِكَ تَتَكَسَّرُ أَنْحَارُ السُّفُنِ وَتَقْطَعُ سَلَاسِلُهَا، وَتَأْخُذُهَا أَعَاصِيرُ الْمَاءِ فَتَدُورُ بِهَا دَوْرَانًا، وَأَمَّا جُسُورُ الْمِيَاهِ فَلَهَا تَسْتَسْلِمُ لِنَفْطِ الْأَمْوَاجِ فَتَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلْغَرَابِ وَالْهَلَاكِ .

وَالْبَيْرُوتِيُّونَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الصَّحِيحَةِ بِمَا لِأَرْضِهِمْ، الَّتِي اسْتَوْدَعُوا حَيَاتَهُمْ وَعِيَالَهُمْ وَأَمَالَهُمْ، مِنْ ضُرُوبِ الْخُتْلِ مَا يَجْعَلُهُمْ فِي عَامَّةِ أَوْقَاتِهِمْ عَلَى حَذَرٍ مِنْهَا، فَتَرَاهُمْ لَا يَلْبُثُونَ النَّوْمَ إِلَّا غَرَارًا^(٣)، مُسْتَعِدِّينَ عَلَى النِّوَامِ لِلْهُبُوبِ مِنْ بُيُوتِهِمْ لِأَقْلَ لَفِيطٍ أَوْ أَدْنَى رَجَّةٍ سَائِلِينَ مَا الْخَطْبُ؟ فَإِذَا قِيلَ زَلْزَلَةٌ بَرَزُوا جَمِيعًا .

عَلَى أَنَّ لَهُمْ بِهَذَا الْقَطْرِ الَّذِي تَمِيدُ بِهِمْ أَرْضُهُ كَلَفَ الْعَاشِقِينَ لِحَالِهِ وَخِصْبِهِ، فَإِنَّكَ تَجِدُ فِي الْبِقَاعِ الْمَزْرُوعَةِ مِنْهُ حُقُولَ الذَّرَةِ وَقَصَبِ السُّكَّرِ وَالْقُطْنِ وَالْقَوَاحِ الْإِسْبَاطِيَّةِ، كَالْبَهْقَالِ وَاللِّيمُونِ وَالرُّمَانِ وَالسِّينِ وَالزَّيْتُونِ، قَدْ ازْدَوَجَتْ يَجْمَعُ قَوَاحِ الْمَنْطِقَةِ الْحَمَارَةَ كَالْمُوزِ وَالْأَنَانِاسِ، فَتِلْكَ الْأَرْضُ الْمُرْتَزِلَةُ حُبْلَى بِالْحَيَاةِ

(١) الْأَنْبِيَاءُ جَمْعُ أَنْبَى وَهُوَ أَحَدُ أَشْرَافِ قَدَمَاءِ الْهِنْدِ بِأَمْرِيَّةِ .

(٢) بَلْبُهُ : هِيَ وَاضْطِرَابُهُ . (٣) غَرَارًا : أَيْ قَلِيلًا .

فَهِيَ تَمُوتُ وَتَمْلُؤُ وَتَنْفَسُ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَمَّ مِنْهَا أَنَّهَا فِي عَمَلِهَا هَذَا تُسَوِّمُ عَمَلِ
الْإِنْسَانِ أَحْيَاءًا بِمَا لَهَا مِنْ صُنُوفِ التَّدِيرِ وَضُرُوبِ التَّخْرِيبِ .

لَمْ يَسْلَمْ الشَّاطِئُ الَّذِي كُنَّا نَتَرَقُّ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلِ الزَّلَازِلِ الْأَرْضِيَّةِ الَّتِي لَا شَكَّ
فِي أَنَّهَا تَبْتَدِئُ مِنْ سِلْسِلَةِ جِبَالِ الْأَنْدَلُزِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِيمَا يَلَاقِيهِ هُنَاكَ مِنَ الشَّقُوقِ
وَالْأَنْجَادِ وَالْأَغْوَارِ الَّتِي لَا تَلْبُثُ بَعْدَ انْخِسَافِهَا أَنْ تَرْتَفِعَ، لَا يَزَالُ يَعْرِفُ مِيدَانَ
تَكَافُحِ الْفَوَاحِلِ النَّارِيَةِ .

كَانَتْ « لَوْلَا » تَسِيرُ عَلَى السَّاحِلِ وَكُلُّهَا زَهْوٌ وَعُجْبٌ بِاسْتِقْبَالِهَا « إِمِيل »
فِي بِلَادِهَا وَمَرَحَبَتِهَا إِيَّاهُ، فَبِمُفَكَّرَةٍ فِي شَيْءٍ عَمَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَبَائِلِ تَحْتَ هَذَا
السَّاحِلِ الْمُتَبَايِنِ الَّذِي دَعَرَتْهُ الْعَوَاصِفُ وَالْأَعَاصِيرُ، فَهَمَزَتْ جَوَادِهَا بِحِدَّةٍ مُفَرِّطَةٍ
وَأَخَذَتْ بِهِ شَطْرَ الْبَحْرِ، وَكَأَنَّهَا تَنْبَعُهَا وَلَكِنْ مِنْ بَعْدِ لِبَلَادَةٍ قَرَسِينَا، عَلَى أَنَّ
« إِمِيل » لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَفَّ إِلَيْهَا خِطَّةُ الْمُسْتَنِيْسِ، لَمَّا نَبَهَتْهُ هِيعَاتِي إِلَى الْخَطَرِ الَّذِي
كَانَتْ مُلَاقِيَةً لَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ تِلْكَ الْقَارِصَةَ الْمَرِحَةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا عَلَى نَحْوِ مِائَةِ مِثْرٍ مِنْ
هُوَّةٍ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ كَانَ لَا يَحِيصُ لَهَا مِنْ التَّرْدِي فِيهَا بِجَوَادِهَا مُرْسَلَةً الشَّعْرِ فِي الْهَوَاءِ
مُشْرَعَةً السُّوْطِ، فَأَخَذَ يِعْنَانِ قَرَسِهَا وَقَسَرَهُ عَلَى التَّحَوُّلِ يُسْرَةً فَرَفَعَ يَدَيْهِ قَائِمًا
عَلَى رِجْلَيْهِ . ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَقَفَ كَأَنَّهُ الْهَيْمُ الْوُقُوفُ بِحَاقَةٍ .

(١) سلسلة جبال الاندلس سلسلة عظيمة من الجبال في أمريكا الجنوبية .

(٢) دَعَرَتْهُ : هدمته وكسرت . (٣) شطر البحر : جهة الجبر أو ناحيته .

(٤) لا يحيط : لا مفر . (٥) التردى : السقوط في الهوة .

وَأَمَّا «لَوْلَا» فَقَدْ انْتَقَعَتْ (تَقَرَّرَ لَوْ أَنَّ وَجْهَهَا) وَارْتَمَلَتْ قَرَأْنَهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ
أَبْصَرَتِ الْمَوْتَ وَشَكَرَتْ «لِإِمِيلَ» مِنْهُ بِأَنَّ قَبْلَتَهُ تَقِيلًا يَشْفِي عَنِ الْوَدَاعَةِ وَسَلَامَةِ
الْقَلْبِ كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ أُخْتٍ لِأَخِيهَا .

وَفِي يَقِينِي أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ لَمْ تَرَدْ شَيْئًا عَلَى مَا يُضْمِرُهُ كُلُّ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنَ
الْمَحَبَّةِ وَالْوَدَادِ ، وَلَكِنِّي أَحْسَبُ أَنَّي لَأَحْظُتُ مِنْ عَهْدِ حُصُولِهَا فَرَقًا دَقِيقًا
فِي رِعَايَاتِ «إِمِيلَ» لَهَا بِزِيَادَةِ تَحَدُّبِهِ (تَعَطُّفِهِ) عَلَيْهَا ، فَكَانَ بَذْلُ النَّفْسِ
لِلْمَحْبُوبِ أَوَّلُ الْحُبِّ .

ذَلِكَ أَمْرٌ لَا يُدْرَأُ أَنْ تَكْشِفُهُ لَنَا الْأَيَّامُ ، لِأَنِّي وَهِيَ لَنَافِعٌ قَدْ عَوَّدَنَا هَذَيْنِ الْعُلَمَاءَيْنِ
أَنْ نَصَدِّقَهُمَا لِمَجْرَدِ قَوْلِهِمَا فَلَا إِخَالُفَ لِمَا يَحْكُمَانِ عَلَى غِسَّتَا . ١٠ هـ

الشذرة السابعة والثلاثون

الآثَارُ وَالْمُدُنُ الْمَجْهُولَةُ فِي الْبُيُوتِ

وَالْمُوازَنَةُ بَيْنَ الْقُوَى وَالْأَعْمَالِ

يوم ٢٨ يولييه سنة ١٨٦٠

كَثِيرًا مَا نَلَاقِي هُنَا هُنُوْدًا أَصْلِيَيْنَ يَسْتَفِلُّ بَعْضُهُنَّ بِالنِّفَاسِ التَّلَجِّ مِنْ رُغْوَسِ
الْحَبَالِ وَقَلِيلُهُ عَلَى ظُهُورِ الْبَغَالِ إِلَى (لَيْعَةٍ) ، حَيْثُ يُعْتَبَرُ مِنْ أَوَائِلِ مُشْتَبِهَاتِ الْمَسَائِدَةِ ،
وَبَعْضُهُمْ يَنْقُلُ الْمَلْحَ إِلَيْهَا مِنْ سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى قُطْعَانِ الْأَمَةِ .

(١) الامة حيوان من حيوانات البرو بأمر يكة يشبه الجمل ، وقطعان جمع قطع وهو الطائفة من الغنم
أو الإبل .

يَالَهُ مِنْ بَوْنٍ بَعِيدٍ بَيْنَ مَا عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْهُنُودُ الْآنَ مِنَ الذَّلِّ وَالشَّقَاءِ وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالرَّخَاءِ !

مَمَائِدُ الْأَقْيَنَ الَّتِي يُرْشِدُ أَهْلَهَا السَّائِحَ إِلَى زِيَارَتِهَا، وَطَرِيقَهُمُ الْحَرِيَّ الْمَشْهُورُ الَّذِي اخْتَطَوْهُ لِمَقَاتِلَتِهِمْ، وَنِظَامُ رَيْبِمُ الْعَجِيبِ الَّذِي كَانُوا يُسَلِّغُونَ بِهِ مِيَاهَ الْجَدَاوِلِ الصَّغِيرَةِ إِلَى الْحُقُولِ، بِمَا كَانُوا يَحْتَفِرُونَهُ مِنَ الْخَنَادِقِ لِيُخْصِبُوا بِهِ مِنَ الْأَرْضِينَ مَا صَارَ بَعْدَهُمْ عَمَلًا، — كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَحْمِلُ عَلَى الْإِعْتِقَادِ أَنَّ الْأَجْيَالَ الْأَصْلِيَّةَ، الَّتِي كَانَتْ مُتَوَطِّنَةً وَسَطَ أَمْرِيكَةِ، وَقَفَتْ فِي سَبِيلِ تَقْدِيمِهَا بِحُلُولِ الْحِيلِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي أَتَقَصَّ عَلَيْهَا فِي بِلَادِهَا انْقِصَاضَ الْعُقَابِ فَعَاقَهَا عَنْ رُقِيَّهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَسْعَى إِلَيْهِ، وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُحَرِّنَا بِمَا كَانَ يَحْصُلُ لَوْ أَنَّهُمْ أَهْمَلُوا حَتَّى بَلَفُوا أَمثالَ تَمْدِينِهِمُ الصَّحِيحِ ؟ رُبَّمَا كَانَ انْعَكَسَ الْأَمْرُ، فَذَهَبَ مِثْلُ خَرِيسْتُوفْ كَلُومَبَ مِنْ حَرِّ الْجُلُودِ فَكَشَفَ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةَ .

قَبَائِلُ الْهُنُودِ الَّتِي لَمْ تَخْضَعْ إِلَى الْيَوْمِ لِلْحُكُومَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ تَحْذَرُ مَا يُقَدِّمُ لَهَا مِنَ الْمَهْدَايَا وَمَا تُوعَدُ بِهِ مِنَ الْمَزَايَا عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْقَائِلِ :

(١) «الرُّومُ أَخْشَى»

(١) «الرُّومُ أَخْشَى» جزء من بيت شعر للشاعر لاتيني أذكر منه شطره الأول وترجمته : «الرُّومُ أَخْشَى

وَأَنْ مُمْ قَدَمُوا تَحْفَا» .

وَلَمْ تَقْلَحِ الْحُكُومَةُ فِي إِزْسَالِ الدُّعَاةِ إِلَيْهِمْ لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، فَاتَّهَمُوا بِمُؤْمَنُونَ أَنَّ لَفْظَ إِنْجِيلٍ فِي فَمِ الْأَبْيَضِ مَعْنَاهُ الْإِسْتِعْبَادُ لِحِلْيَتِهِمْ وَمُصَادَرَتُهُمْ فِي أَرْضِهِمْ^(١) .

يَعْتَقِدُ بَعْضُ أَهْلِ لِيْمَةِ أَنَّ مِنَ الْمُدُنِ الْيُورُوبِيَّةِ أَوِ الْمَكْسِيكِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مَا لَا تَرَالُ مَوْجُودَةً لَمْ يَلْفِهَا الْفَاتِحُونَ مِنْ إِسْبَانِيَّةٍ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ أَيْنَ هَذِهِ الْمُدُنُ لَا يُجِدُ مِنْهُمْ أَحَدًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِيبَكَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ ، ثُمَّ إِذَا قُلْتَ كَيْفَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ سَائِمِي الْيَوْمِ لَمْ يَعْتَرِ عَلَيْهِمْ ؟ أَجَابُوكَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ الْقَدَمَاءَ سُكَّانَ تِلْكَ الْمُدُنِ مَكْنُوفُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِالصَّحَارَى وَالْأَجَامِ وَالْمُسْتَنْقَعَاتِ وَسَلَائِلِ الْجِبَالِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْعَقَبَاتِ الْكَثِيرَةِ ، وَبِذَلِكَ حَفِظُوا اسْتِقْلَالَهُمْ ، عَلَى أَنَّ الْوُصُولَ إِلَيْهِمْ يَقْتَضِي وَطَاءَ قَبَائِلَ مُتَوَحِّشَةٍ ، تَمْنَعُ الْأَجَانِبَ مِنْ دُخُولِ أَرْضِهَا ، وَتَجْزِي عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ مِثْلَ الْمُنُودِ الْبُسْلَاءِ (أَنْدِيُوسَ بَرَأْفُوسَ) ، وَهُمْ جِيلٌ حَرْبِيٌّ يَسْكُنُ الْهَضَابَ الْوَاقِعَةَ شَرْقَ الْيُورُ وَ (الْفُونُتُوسِ) وَيَقَالُ إِنَّهُمْ مِنْ أَكَلَةِ لَحُومِ الْبَشَرِ .

وَلَقَدْ ذَهَبَ قَرِيبُ آخَرَيْنَ الْيُورُوبِيِّينَ فِي دَعَاوِهِمْ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى الْقَوْلِ بِوُجُودِ الْمُدُنِ الْمَذْكُورَةِ ، بَلْ قَالُوا إِنَّ بَعْضَ رُكَّابِ التَّعَاسِيفِ^(٢)

(١) ليعبر بذلك الشرقيون عامة والمسلمون خاصة وليفكروا طويلا فيما جر عليهم التسامع مع الأجنبي من بلاد الاستعمار الذي صيرهم عبيدا في بلادهم وأزال من قلوبهم حية الدين وحرمة الانتساب للوطن فأصبحوا لا يهونوا لاحتلال الأمم الغربية لبلادهم واستنثارهم بمراققتها ومصالحتها ودنهم وأهملهم مصالحهم الذاتية وشبهاتهم الجسدية عن النظر فيما يصلحهم من حيث هم جماعات وأم قذهبوا أبايد (مبدين) وأسوا طرائق قذرا (طوائف مضرة الأهواء) فن لنا بأمثال تلك القبائل الأبية الفوس الحية الأنوف التي أتت أن تبع حربنا بأغلى الأثمان ، لتعلمنا كيف تحب أوطاننا وقتديها بكل عزيز لدينا ، وكيف ينبغي أن نعيش أحرارا في بلادنا ، وإن في ذكره منهم الخوف لدرسا مفيدا وعظة نافعة صيرة لأولى الأنباب (الترجم)

(٢) ركاب التعاسيف الذين يسلكون مجاهل اليد والصحارى دون الطرق المروية .

الْحَامِلِي الذَّكَرِ الْمُرْتَفِقِينَ مِنَ الثُّجَارِ وَطُلَّابِ الْمِهْنِ ، زَارُوهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الزُّوَارِ مِنْ أَتَقَطَعَ ذِكْرُهُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ عَنْهُمْ شَيْءٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَكَّوْا مَا عَلَيْهِ مِنْهَا ، فَهُمْ مَصْدَرُ مَا عَرِفَ عَنْهَا ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَبِعْدِهِمْ عَنِ الْحَضَارَةِ بَلْ وَعَنِ الْعِلْمِ لَمْ يُخْبِرُوا بِمَا كَشَفُوهُ إِلَّا بَعْضُ الثُّجَارِ الرَّحِلِ أَوْ الصَّيَّادِينَ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ هَؤُلَاءِ عِنْدَ حِكَايَتِهِمْ لِمَا وَعَوْهُ أَنْ يُؤَدُّوا لِمَنْ تَعَمَّعُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَخْبَارًا مُبْهَمَةً جِدًّا ، وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَقَدَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ هُوَ أَنَّهُ يُحْسَنُ قَبْلَ تَبَيُّنِهَا وَاصْتِبَارِهَا مِنَ الْأَسَاطِيرِ أَنْ يُصَكَّرَ فِيهَا مَرَّتَيْنِ ، لِأَنَّهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَتْ بَعِيدَةً عَنِ الْحَقِيقَةِ بَعْدَ أَنْ كَشَفَ اسْتَفْزَسَ^(٢) وَغَيْرُهُ مِنَ السَّائِحِينَ الَّذِينَ جَاءُوا وَسَطَ أَمْرِيكَ مَا كَشَفُوا مِنَ الْأَتَارِ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَبَعْدَ الْأَبْحَاطِ الَّتِي حَصَلَتْ وَسَطَ الْغَابَاتِ الْكَثِيفَةِ وَلَمْ يَتَبَهَّهْهَا إِلَّا الْبَغَاآتُ وَالْقِرَدَةُ ، وَخُصُوصًا بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لِقَالِمِ حَقَّةٍ بَعْضُ الْأَتَارِ الْمَرْوِيَةِ عَنِ الْمُنَوِّدِ ثُبُوتًا وَاحِصًا ، مِنْ أَطْلَالِ الْمُدُنِ الْمَكْشُوفَةِ مِثْلُ قُوبَانَ ، وَقَيْشِي ، وَأَوْفُوزِجُو ، وَبَالَاتَقَا ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمُدُنِ الْكَثِيرَةِ الْمَدْفُونَةِ تَحْتَ جُذُورِ الْأَشْجَارِ مِنْ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ .

نَعَمْ إِنْ مَوْضُوعَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ هَاهُنَا لَيْسَ مُدُنًا بَائِدَةً ، بَلْ هُوَ مُدُنٌ حَيَّةٌ قَدْ يُعْتَرَفُ بِهَا أَنَّ وَجِدَتْ عَلَى تَارِيخِ جِيلٍ مِنْ أَجْيَالِ الْبَشَرِ رُمْتَهُ ، وَمَعَا يَدِيهِمْ وَأَلْهِيهِمْ وَقَسَمِيهِمْ وَشَرَائِيهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ .

(١) المرتفقين الذين يتداولون المرافق وهي كل ما يتفق به .

(٢) استفنس هو سانغ أمريكي شهير . وهو حقلوه .

رُبَّمَا مَالٌ «إِمِيلٌ» وَ «لَوْلَا» إِذَا سَمِعَا مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ فَاتَّقَدَّتْ هَا
 مُحِلَّتُهُمَا إِلَى أَنْ يُبَاشِرَا الْبَحْثَ عَنْ تِلْكَ الْمُدُنِ الْمَجْهُولَةِ، فَإِنَّ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمَا فِي سِنِّ
 الْمُرَاقَبَةِ لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَقَابِ، وَلَا يُحَسِّبُ لَهَا حِسَابًا، فَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْحِمَّةِ شَيْبَانِ
 بِعَامَةِ النَّاسِ، وَلَوْ أَنِّي بَطَلْتُ عَزَمَ هَذَيْنِ الْقَرْنَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ وَأَتَّخَذْتُ تَوَقُّدَ
 ذَهْنِهِمَا لِلْمُتْ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنِّي أَتَهَزَّتُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ فَقُلْتُ لَهَا إِنَّهُ لَا يَزَالُ
 فِي بِلَادِ الْيَرُوكَا فِي غَيْرِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَلْزَمُ كَشْفُهَا، غَيْرَ أَنَّهُ يُجِبُ عَلَى
 الْإِنْسَانِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَزِنُ قُوَاهُ بِطَبِيعَةٍ مَا يُرِيدُ مُبَاشَرَتَهُ مِنْ
 الْأَعْمَالِ . اهـ

الشذرة الثامنة والثلاثون

«التَّزْيِيَةُ بِالتَّأَثُّرَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ»

يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٠

صَادَقْنَا غَدَاةَ الْيَوْمِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ لِيْمَةِ زَيْجِيَا آتِيًا إِلَيْهَا يَتِمُّسُ رِزْقُهُ مِنْ عَرَضِ
 حَيَوَانٍ يُسَمَّى الْبُومَةِ، وَهُوَ الْمُمَثِّلُ لِلْأَسَدِ فِي أَمْرِيكَا، كَانَتْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْمُتَوَحِّشِينَ
 أَصْطَادَتُهُ حَيًّا، وَكَانَ رَبُّهُ وَهُوَ شَبَّهَ مُشْعُوذٍ ^(٢) يُؤْمَلُ أَنْ يَنَالَ بَعْضَ التَّقْوَدِ مِنْ عَرَضِهِ
 عَلَى النَّظَارَةِ (الْمُتَفَرِّجِينَ) .

(١) القرنين: الكهوين: الظهيرين في الشجاعة .

(٢) المشعوذ: من يسمل الشعوذة وهي خفة في اليد وأخذ كالسحر يرى به الشيء في رأى العين عل

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَلَى شِدَّةٍ فَأَقْتَه وَغَضِبَهُ عَنِ الْقِيَامِ بِفَقَّةٍ نَفْسِهِ مَضْحُوبًا
بَصِيَّةٍ زَنْجِيَّةٍ عَلَيْهَا طُمْرٌ أَزْرَقُ، رَأَيْتُ فِي مِشْيَتِهَا قَرْلًا، فَسَأَلْتُهَا بِالْمَسَانِيُولَةِ الَّتِي
لَا أَحْسِنُهَا عَمَّا أَصَابَهَا فَجَعَلَهَا تَعْرُجُ كَمَا رَأَيْتُ، فَكَانَ جَوَابُهَا أَنْ أَرْتَنِي إِحْدَى سَاقَيْهَا،
فَإِذَا فِيهَا جُرْحٌ دَائِمٌ، وَرَأَيْتُ قَدَمَيْهَا قَدْ وَرِمَتَا وَرَمًا مُفْرَطًا، وَلَمَّا أَمَعَنْتُ النَّظَرَ
فِي سَاقِهَا الْمَجْرُوحَةِ عَرْتُ عَلَى طَرَفِ شَوْكَةٍ فَلَيْظَلَةٍ فِي لَحْمِهَا، وَهِيَ الَّتِي تَسَبَّبَ عَنْهَا
الْجُرْحُ قَطْعًا ثُمَّ خَبْتُ^(١) بِمَا اعْتَوَرَهُ مِنَ الْمَشْيِ وَالْوَصَبِ^(٢) وَلَدَغِ الْحَشَرَاتِ، فَإِنَّ
هَذَيْنِ الْمَسَافِرَيْنِ كَانَا آتِيَيْنِ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ جِدًّا .

مَا زِلْتُ بِهَذِهِ الشَّوْكَةِ حَتَّى تَجَحْتُ فِي سَلَامَتِهَا، ثُمَّ صَحَمْتُ أَجْزَاءَ الْجُرْحِ بَعْضَهَا إِلَى
بَعْضٍ، وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ خِرْقَةً أَغْصِبُ بِهَا نَاقِلَتِي «لَوْلَا» مَنِّدِلَهَا، وَلَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ
بَلْ دَعَتْهَا رَحْمَتُهَا بِهَذِهِ الْفَتَاةِ إِلَى خَلْعِ نَعْلَيْهَا وَوَضْعِ قَدَمَيْهَا الْمَرْضُوضَتَيْنِ فِيهِمَا،
فَلَا مَتَاهُمَا أَشَدُّ الْمُلَامَةِ كَأَنَّهَا صُنِعَتَا لِهَذِهِ الْمُسْكِينَةِ، فَأَعْرَبْتُ «لَوْلَا» عَنْ شُكْرِهَا
ثُمَّ غَادَرْتَاهُمَا وَمَضَيْنَا فِي سَبِيلِنَا .

إِنْبَغَثْتُ «لَوْلَا» إِلَى عَمَلِهَا هَذَا بِبَاعِثٍ مِنْ بَوَاعِثِ الْخَيْرِ الْقَلِيلَةِ، إِلَّا أَنَّهَا
مَا لَبِثَتْ أَنْ أَذْرَكَتْ صُعُوبَةَ الْإِحْتِقَاءِ فِي أَرْضِ صُلْبَةٍ خَشِنَةٍ كَارِضِ الْيَبْرِ، فَإِنَّ
طَرَفَهَا لَا مُشَابَهَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَخَارِفِ الْبَسَاتِينِ الْكُبْرَى فِي انْجِلْتَرَةِ^(٥) .

(١) الطمر : الثوب البالى . (٢) القزل : العرج .

(٣) خبث : فسد . (٤) الوصب : المرض .

(٥) المخاريف جمع مخرف وهو الطريق بين الأشجار .

أَتَأْتَا «إِمِيل» أَوَّلًا يَسْخَرُ مِنْ حَيَرَةٍ صَدِيقَتِهِ فِي مَسِيرِهَا حَافِيَةً، وَلَكِنَّهُ لَتَأْثُرُهُ مِنْ صَنِيعِهَا دَبَّتْ فِيهِ النَّخْوَةُ فَاحْتَمَلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَقَبِلَتْ ذَلِكَ مُبْتَسِمَةً .

لَمْ يَكُنِ الْبَاقِي مِنْ طَرِيقِنَا طَوِيلًا جَدًّا، وَمَعَ ذَلِكَ وَقَفَ «إِمِيل» فِي أَشْأَانِهِ لِلِاسْتِرَاحَةِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا مُتَبَعًا فِي ذَلِكَ نَصِيحَتِي، وَفِي آخِرِ وَقْفَةٍ مِنْهَا بَصُرْنَا مِنْ بَعْدِ بِالشَّعْوِذِ بِقُودِ الْبُومَةِ، وَعَرَفَتْ «لُولَا» الصَّبِيَّةَ الزَّانِجِيَّةَ وَقَدْ حَلَمَتِ النَّعْلَيْنِ وَحَلَمَتُمَا فِي يَدَيْهَا، فَمَا كَانَ أَشَدَّ عَمَّهَا لِهَذَا الْمُرَآى، أَنْظَرَ كَيْفَ بَحَسَّتَهَا عَطِيبَتَهَا وَكَيْفَ اسْتَعْمَلَتَهَا !

فَسَرَيْتُ عَنْهَا مَا خَافَ قَلْبُهَا مِنَ الْكَدْرِ بِأَنْ قُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْعَادَةَ طَبْعُ ثَانٍ، وَإِنَّ هَذِهِ الصَّبِيَّةَ لَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ تَعَبْتُ مِنَ الْإِتِّعَالِ لِاعْتِيَادِهَا الْإِحْتِفَاءَ^(١)، عَلَى أَنَّ نِيَّةَ إِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ مَحْمُودَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَوْ أَخْطَأَ صَاحِبُهَا فِيمَا يَتَّخِذُهُ مِنَ الْوَسَائِلِ لَا يَصَالِ النِّفْعُ إِلَيْهِمْ .

وَالَّذِي رَأَيْتُهُ خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الْعِظَةِ كُلُّهَا هُوَ أَنَّ مَا وَجَدَهُ قَلْبُهَا الطَّاهِرُ مِنَ السُّرُورِ بِاحْتِمَالِ «إِمِيل» إِيَّاهَا قَدْ كَدَّمَا فِيمَا أَرَى عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحْتَمِرُ شَيْئًا مِمَّا يُسَدِّدُهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ اهـ .

(١) الاحتفاء: شئ الإنسان حافيا والانتقال منه في نعلين .

الشذرة التاسعة والثلاثون

« بَيَانُ نَخَامَةِ مَشَاهِدِ الْجِبَالِ »

يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٠

زُرْنَا بَعْضَ أَجْزَاءِ مِنْ جِبَالِ الْقُورْدِيَّيْرِ، وَلَمْ يَكُنْ سَبَقَ (لِإِمِيل) أَنْ شَاهَدَ مِثْلَ هَذِهِ الْجِبَالِ الَّتِي يَصُحُّ أَنْ تُسَمَّى بِالْأَلَيْبِ الْأَمْرِيكِيِّ، قَرَأَهُ كُلُّ الرُّوحِ مَا لِهَذَا الْخَلْقِ الْهَائِلِ مِنْ مَظَاهِرِ الْفَخَامَةِ وَالْعَظِيمِ، مَعَ أَنَّنَا لَمْ نَبْلُغْ مِنْهَا إِلَّا أَدْنَى شَعَائِفِهَا .

لَا بُدَّ أَنْ الْأَحِظَ هُنَا أَنَّ الْقُدَمَاءَ كَانُوا قَلِيلِ التَّأَثُّرِ بِمَا لِلْجِبَالِ الشَّائِعَةِ مِنَ الْمَحَاسِنِ الرَّائِعَةِ، فَإِنَّا لَمْ نَرِ لُشَعْرَاءَ الْأَلَايِنِ مِنَ الْكَلَامِ فِيهَا إِلَّا النَّدْرَ الْبَسِيرَ، وَمُعْظَمُ مَا قَالُوهُ اسْتِهْجَانٌ وَاسْتِقْبَاحٌ، وَقَدْ يَحْدُو بِي ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ كَانَ يَلِزُّمُ أَنْ يَدْمَهُمْ مِنَ الْكَوَارِثِ الْمُحْزِنَةِ مَا تَهْتَرَلُهُ نَفُوسُهُمْ، وَأَنْ تَسْتَضِيَ بِبَصَائِرِهِمْ بُيُورُ الْعِلْمِ، وَيَتِمَكَّنَ مِنْهَا الْإِسْتِعْدَادُ لِلْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَزَايَا الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ، وَلَوْ تَمَّ لَمْ هَذَا لَأَدْرَكُوا أَنَّ فِي سَبَارِنَا الَّذِي نَعِيشُ عَلَى ظَهْرِهِ (الْأَرْضِ) مِنَ الْمَظَاهِيرِ الْهَائِلَةِ الْبَدِيعَةِ مَا يَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ الْحَقِيقِيِّ اه .

(١) جبال الألب هي سلسلة جبال عظيمة في أوربة .

الشذرة الأربعون

«إِتْهَاءُ قِضِيَّةِ لَوْلَا بِالصَّلَاحِ وَعَزْمِ الدُّكْتُورِ إِرَاسَمَ عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى أَوْرُبَهُ»
«وَتَرْكِهِ قُوَيْدُونَ وَزَوْجَتَهُ هُنَاكَ»

يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٦٦

كَسَبَتْ (لَوْلَا) دَعْوَاهَا وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ خَيْرَتَهَا، فَكَلَّا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ بِاعْتِبَارِ
جِهَةِ النَّظَرِ .

إِضْطُرَرْنَا إِلَى الْمُصَالَحَةِ فِي هَذِهِ الْقِضِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الْإِرْتِيَاكِ لِمَا يَقْتَضِيهِ الْفَصْلُ
فِيهَا مِنَ الْإِنْتِظَارِ أَشْهُرًا بَلْ سِنِينَ، فَعَرَضَ عَلَى الْخَصْمِ أَنْ يُعْطُوا بِنْتُ السَّفَانِ مِقْدَارًا
زَيْدًا مِنَ الثَّقُودِ وَبَعْضَ مَا كَانَ لَوَالِدِهَا مِنَ الْأَرْضَيْنِ، وَالْأَرْضُ هَا هُنَا لَا قِيَمَةَ لَهَا
الْيَوْمَ أَصْلًا، مَا لَمْ يَسْتَفْظِلْهَا صَاحِبُهَا بِنَفْسِهِ أَوْ بِوَاسِطَةِ وَكِيلٍ لَهُ يُقِيمُ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ .
فَأَمَّا أَنَا وَهَيْلَانُهُ فَمَا جِئْنَا لِنُقِيمَ فِي (لِيْمَةِ) ، بَلْ قَدْ اتَّهَتْ مُهِمَّتُنَا وَلَمْ يَبْقَ
إِلَّا السَّفَرُ، لَا سِيَّامَا وَقَدْ تَلَقَّيْتُ مَكْتُوبًا مِنَ الدُّكْتُورِ وَارْتِجُونِ يَدْعُونِي إِلَى لُونْدَرَةِ
لِأُمُورٍ نَافِعَةٍ لِي بَيْنَهَا فِيهِ .

وَأَمَّا قُوَيْدُونَ وَجُورِجِيَّةُ فَإِنَّهُمَا خَيْرَانِ بَعْنِ الزَّرَاعَةِ خُصُوصًا زِرَاعَةَ الْأَقْطَارِ
الْبَارَةِ، وَآيَسَا مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ الضَّعِيفَةِ، وَأَمَّا تَهُمَا فَيَقُومُ بِكُلِّ مَا فِي بِلَادِ الْيُورِومَنِ
الدَّهَبِ، وَلَا أَرَى مَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَهْدِ إِلَيْهِمَا بِزِرَاعَةِ أَطْلِيَانِ (لَوْلَا) .

وَأَنَّهُ لَبَشَقٌ عَلَى مُفَارَقَةِ هَذَيْنِ الشَّهْمَيْنِ، غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنَّ إِقْلِيمَ الْإِنْجَلِرَةِ لَمْ يَخْلُقْ
لِعَيْلَتِهِمَا مِنَ الزُّوْجِ، وَأَمَّا إِقْلِيمُ جَنْوُبِ أَمْرِيكَ فَإِنَّهُ يُؤْذِنُ بِأَنْ سَيَكُونُ لُهُمَا فِيهِ
يَتَوَالِي الْأَيَّامِ مَنَاخٌ جَمِيلٌ وَوَطَنٌ سَعِيدٌ اهـ .

الشذرة الحادية والأربعون

بَيَانُ مَا عَادَ عَلَى «إميل» مِنَ الْقَوَائِدِ فِي هَذَا السَّفَرِ

يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٦٠

رَجَعَتِ السَّفِينَةُ الَّتِي كَانَتْ حَمَلَتَنَا مِنْ لُوندَرَةِ إِلَى قَلَاوْ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ، وَيَعْلَمُ
اللَّهُ مَتَى يَكُونُ مَجِيئُهَا، وَلِهَذَا رَأَيْنَا بَدَلًا مِنْ اجْتِنَازِ رَأْسِ الْقَرْنِ أَنَّ نَزَكَبَ هَذِهِ الْمَرَّةَ
فِي سَفِينَةٍ تِجَارِيَّةٍ عَلَى سَهْرِ الْأَمَازُونِ، تَسِيرُنَا وَالشَّاطِئِ حَتَّى تَبْلُغَ سَوَاحِلَ الْبِرَازِيلِ،
حَيْثُ نَجِدُ سَفِينَةً تَكُونُ مُسَافِرَةً إِلَى أَنْجِلْتَرَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ أَقْصَرُ مِنَ الْأَوَّلَى
بِمَسِيرَةِ عِشْرِينَ يَوْمًا .

تَتَوَى (لَوْلَا) أَنْ تَعُودَ مَعَنَا، لِأَنَّ بِلَادَهَا لِقَلَّةٍ مَا عَرَفَتْهُ مِنْهَا لَمْ تَبْعَثْ فِي نَفْسِهَا
شَيْئًا مِنَ الرِّغْبَةِ فِي تَوَطُّنِهَا، وَلِأَنَّهَا تَعْلَمُ فَوْقَ ذَلِكَ أَنَّهَا مُجِبُّهَا .

مَا نَدِمْتُ عَلَى هَذَا السَّفَرِ بِحَالٍ، «إميل» قَدْ قَضَى وَقْتَهُ هُنَا فِي الْإِلْتِقَافِ
إِلَى الْعِلْمِ وَالْإِمْتِنَانِ فِي مَسَائِلِهِ، فَهُوَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِهِ الْآنَ نَاقِلًا إِلَيْهَا جَمَائِعَ فِي عِلْمِ
التَّارِيخِ الطَّبْعِيِّ، بَلْ حَامِلًا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا : ضُرُوبَ الْإِنْفِعَالِ الْكَثِيرَةِ بِمَا رَأَى،
وَصُنُوفَ الذِّكْرِ لِمَا وَعَى، وَقَدْ تَرَبَّى طَبْعُهُ فِي مَدْرَسَةِ الْإِخْتِيَارِ وَالْحَيَاةِ الَّتِي لَا يُرْبِي
الرِّجَالُ خَيْرَهَا .

(١) المعروف أن الأمازون أكبر أنهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهير أحد فروعه القريبة

نعم إني لا أعني بهذا القول أن أُلْزِمَ بِجَمِيعِ مَنْ هُمْ فِي سِنِّهِ مِنَ الْمُرَافِقِينَ أَنَّ
يَتَعَدُّوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ بِقَدَرِ انْتِعَادِهِ ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ الَّذِي لَا أَحُولُ عَنْهُ هُوَ أَنَّهُمْ
لَوْ نَزَحُوا قَلِيلًا مِنْ أَصْدَانِهِمْ وَرَأَوْا الْكَوْنَ فِي الْكَوْنِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهُ فِي الْكُتُبِ
لَفَتَنُوا مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرِمًا يَخْطُرُ فِي الْوَهْمِ . اهـ

الكتاب الرابع

في تربية الشاب

الرسالة الأولى

(من «إميل» إلى والده)

عن مدينة بُن في ٨ يناير سنة ١٨٦

وصف معيشته - نادى الطلبة الألمان ومعاونتهم - تآقهم

على خدمة الحكومة - فكر «إميل» في أمره - تآله

من عدم فهمه اللغة الألمانية - ذكره «لولا» -

استيحاشه من غريبه

انتظمت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لا بد من تأديته، وصرت

أدعى منذ أسبوع بالسيد الطالب .

من المفروض على أن أكاشفك بشئ من تفاصيل معيشتي وأنا طالب :

أما نهاري فأصرفه في تلقى دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان

والنبات ومنافع أعضائهما ، والمقارنة بين اللغات وغير ذلك ، وأما ليلى فأفضيه

في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا ، وأما طعامي فأتسأله

في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولداً^(١) ، وبعد العشاء تارة

(١) الصولدي جزء من عشرين جزءاً من الفرنك قديمة طلمحه هي فرنك ونموس .

أَوَى إِلَى مُجَرِّقِي ، وَطَوَّرَا أَنْتَرَهُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَلَمَّا أَطْلَعَ عَلَى أَسْرَارِ طَائِفَةِ الشُّبَّانِ
كُلُّهَا لِكُونِ أَجْنَبِيًّا ، عَلَى أَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ أَخَذَنِي مَعَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَى مَدْحَنٍ (مَكَانٍ
لِلتَّدخينِ التَّبغِ) ، يَجْتَمِعُ فِيهِ بَعْضُ الطُّلَبَةِ الْأَلْمَانِيِّينَ ، فَمَا تَنَحَّ بِأَبِهِ حَتَّى رَأَيْتُ نَائِمًا
مَغْمُورًا بِسَحَابٍ مَرْكُومٍ مِنَ الدُّخَانِ ، حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ رُؤْيَةِ جُذُرَانِ الْمَكَانِ وَسَقْفِهِ
بَلْ رُؤْيَةِ الْمَكَانِ بِرُمْتِهِ ، وَكَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ يَمْتَدُّ إِلَى غَيْرِ نَهَائِهِ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ
أَصْوَاتًا وَأَغَانِي وَفَهْمَاتٍ وَلَا أَبْصُرُ شَيْئًا مِنَ الصُّورِ الْحَيَّةِ ، وَارَى أَضْوَاءَ حُمْرَاءَ
تَبْدُو فِي بَعْضِ جِهَاتِ هَذَا الْمَكَانِ يَفْشَاهَا ذَلِكَ السَّحَابُ ، كَأَنَّمَا تَسْبُحُ مِنْهُ فِي بَحْرِ
لُجِّي ، وَكُنْتُ أَمِشِي كَمَا يُطِيطُ لَيْلٍ وَرَاءَ الدَّلِيلِ وَعَلَى مَقَرِّبَةٍ مِنْهُ ، بَيْنَ صَفَيْنِ مِنَ
الْمَوَائِدِ خَيْلٌ إِلَيَّ أَنَّهُ تَعُومُ فِي الضُّبَابِ ، وَرَأَيْتُ عَلَيْهَا رُؤْيَةً غَيْرَ مُسْتَبِينَةٍ آتِيَةً مِنَ
الْقَصْدِيرِ كَأَن لَمَعَانَهَا الْمَعْدِنِيَّ يَجْهَدُ فِي صَدْعِ حِجَابِ الظَّلَامِ الدُّخَانِيَّ الْمُتَسَدِّلِ
عَلَى الْقَاعَةِ كُلِّهَا ، ثُمَّ لَمَحْتُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْآتِيَةِ وَجُوهًا آدِمِيَّةً ، لِأَنَّ بَصِيرِي كَانَ
يَتَدَرَّجُ فِي اعْتِنَادِ هَذَا الْجَوِّ الْغَرِيبِ وَالْأُنْسِ بِهِ ، وَلَمْ يَكْشَفْ عَنِّي الْحِجَابُ كَشْفًا
تَامًا إِلَّا عِنْدَ مَا بَلَغْتُ نَهَايَةَ الْقَاعَةِ حَيْثُ أَقِمَ مُصْطَلًى عَظِيمٌ ، فَرَأَيْتُنِي فِي جَمْعِ حَافِلٍ
مِنَ الشُّبَّانِ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْقَلَنْسَوَاتُ ، وَفِي أَيْدِيهِمْ أَكْوَابُ الْجَمْعَةِ ، وَفِي أَفْوَاهِهِمُ الْمَدَاخِنُ ،
وَبَيْنَ هَذَا التَّشْوِيشِ وَاللَّغْطِ عَثَرْتُ عَلَى حِلَاقٍ (جَمْعُ حَلْقَةٍ) مِنَ الطُّلَبَةِ قَامَتْ بَيْنَهُمْ
مُنَاطَرَاتٌ فِي مَسَائِلٍ مُهِمَّةٍ ، وَلَمْ تَقْطَعْهُمْ عَنِ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الشُّرْبِ وَالتَّدخينِ .

لَمْ تَمْتَدِّ أَذُنِي سَمَاعَ الْأَصْوَاتِ الْأَلْمَانِيَّةِ اعْتِيَادًا بِكَفِّي لِمُتَابَعَةِ مَجْرَى الْحَدِيثِ
وَفَهْمِهِ ، عَلَى أَنِّي فَهِمْتُ مِنْ حَوْرَى مَا سَمِعْتُهُ أَنَّهُمْ يَتَنَاطَرُونَ فِي مَقَاصِدَ وَوَسَائِلَ

بعضها أتمى من بعض تتعلق بإصلاح أحوال البشر ، وَكَانَتِ الْبَرَاهِينُ وَالْتَكْتُفُ
وَالْمَعَانِي تَتَبَعُ مِنْ أَقْوَاهِمُ كَانَهَا مِهَامٌ نَارِيَةً تَقْدِفُ بَيْنَ أَنْفَاسِ الدُّخَانِ ، وَلَمَّا
أَنْصَفَ اللَّيْلُ غَادَرَ الْقَاعَةَ جَمِيعُ الطَّلَبَةِ ، وَرَأَيْتُ بَعْضَ مَنْ لَاحَظْتُ فِيهِمُ الْحِمِيَّةَ
وَالْفِتْرَةَ عَلَى مَصَالِحِ الْإِنْسَانِ مُنْصَرِفِينَ إِلَى بُيُوتِهِمْ ، وَقَدْ جَمَعُوا يُغْنُونَ جَهَارًا فِي وَسْطِ
الشَّارِعِ أَغَانِي مُبْتَلَّةً ، وَلَمْ يَدَّ عَلَيْهِمْ حِينَئِذٍ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ ذَا كُرُونٍ لِمَا تَمَاهَدُوا
عَلَيْهِ مِنْ إِصْلَاحِ شُؤُونِ الْكَوْنِ .

أَخْصُ غَايَةَ لِلطَّلَبَةِ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ إِلَى الْمَدَارِسِ الْجَامِعَةِ هُنَا بِحَسَبِ مَا سَمِعْتُ
هِيَ أَنَّ يُلَوَّعًا مِنْ أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ ، فَكُلُّهُمْ يُؤْمَلُ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لَهَا عَلَى
تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِذَا حَصَلَ أَحَدُهُمْ عَلَى لَقَبِ دُكْتُورٍ مَثَلًا ، رَأَيْتُهُ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهَا
حَامِلًا شَهَادَتَهُ رَاجِعًا أَنْ تُؤَلِّيه أَحَدَ الْأَعْمَالِ الْخَالِيَةِ فِي إِدَارَتِهَا ، وَمُعَظَّمُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ
لَا يُوَلَّى إِلَّا بِالْإِمْتِحَانِ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ يَظْهَرُ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَحِينَئِذٍ يُعَوَّلُ
الَّذِينَ يُجَيَّبُونَ فِيهِ عَلَى الْإِسْتِغَالِ بِالْأَعْمَالِ الْمُسْتَقْلَةِ ، وَلَا أَذْرِي أَهْذِهِ الْحَالَةَ ، وَهِيَ
فَرْطُ الرَّغْبَةِ فِي تَقْلِيدِ الْمَنَاصِبِ الْعَامَّةِ ، هِيَ الَّتِي يَتَّبِعِي أَنَّ يُنْسَبَ إِلَيْهَا التَّغْيِيرُ الَّذِي
يَحْصُلُ فِي عُقُولِ شُبَّانِ الدَّكَاتَرَةِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْجَامِعَةِ أَمْ لَهُ سَبَبٌ آخَرُ .

فَالْوَاقِعُ هُوَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ أَخْلَاقِ الطَّلَبَةِ وَأَخْلَاقِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَلْمَانِيِّينَ أَدْنَى
مُشَابَهَةٍ .

الطَلَبَةُ يَتَظَاهَرُونَ بِالتَّفَجُّعِ وَالشُّذُوزِ وَالْعَرَبِدَةِ، وَيُخِيلُ إِلَى مَنْ يَرَى غِيَمَهُ مِنَ
 الْأَلْمَانِيِّينَ أَنَّهُمْ مُتَمَثِّلُونَ سَكِينَةً بَلْ جُودًا وَبِلَادَةً، وَالْأَوَّلُونَ مَشْهُورُونَ بِالْمِيلِ إِلَى
 الثَّوَرَةِ، وَيُحِبُّ الْحُكُومَةَ الْجُمْهُورِيَّةَ، وَيَعْدِمُ الْمُبَالَاهُ بِالْخَوْصِ فِي أَى بَحْثٍ نَظَرِيٍّ،
 وَبِالْمُجُومِ عَلَى جَمِيعِ الْمَسَائِلِ سِيَاسِيَّةً كَانَتْ أَوْ دِينِيَّةً أَوْ قَوْمِيَّةً بِمَا يُنْهَشُ مِنْ جُرَاةٍ
 الْجَنَائِفِ، وَهَيْبَةُ الْأُمَّةِ يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ التَّشَدُّدُ فِي الْإِسْتِمْسَاكِ بِالْعَوَائِدِ الْقَدِيمَةِ
 وَبِالْحُكُومَةِ الْمَلِكِيَّةِ، وَتَرَى الطَّلَبَةُ يَتَبَاهَوْنَ بِاحْتِقَارِهِمْ جَمِيعَ الْمُعْزِيَّاتِ الَّتِي لَا مَنَاشَأَ
 لَهَا إِلَّا اتِّفَاقُ النَّسَبِ، عَلَى حِينٍ أَنَّ أَوَاسِطَ النَّاسِ يُحِبُّونَ أَلْقَابَ الشَّرَفِ إِجْلَالًا
 لَا حَدَّ لَهُ. قَرَى الْقَرِيقَيْنِ كَاتِبَيْنِ مُتَمَّا زِتَيْنِ، وَلَيْسَ لِلطَّلَبَةِ فِي الْحَقِيقَةِ ارْتِبَاطٌ
 يَبَاقِي الْأُمَّةَ إِلَّا رَغْبَتُهُمُ الْعُظْمَى فِي أَنْ يُلَوَّا لَهَا بَعْدَ مُبَارَحَةِ الْجَامِعَةِ أَعْمَالًا رَسْمِيَّةً،
 عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِرْتِبَاطُ كَافٍ فِي عَدَمِ اكْتِرَافِ الْحُكُومَةِ كَثِيرًا بِمَا يُبْدُونَهُ مِنْ حَدَّةِ
 أَفْكَارِهِمُ الْحُرَّةِ.

دَعْنِي سِيرَةَ هَؤُلَاءِ الشُّبَّانِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي سِيرَتِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ الْتَاسِعَةَ عَشْرَةَ
 مِنْ عُمرِي وَلَا مَقَامَ لِي بَيْنَ النَّاسِ، بَلْ لَمْ يَقِفْ لِي الْإِخْتِيَارُ حَتَّى الْآنَ عَلَى صِنَاعَةٍ
 نَافِعَةٍ أَشْتَغِلُ بِهَا، وَإِذَا أَرَدْتَنِي عَلَى الْإِقْرَارِ لَكَ بِمَا أَحِبُّهُ، قُلْتُ لِي أَحْيَانًا أَنَسُ مِنْ
 نَفْسِي قُتُورًا فِي الْهَمَّةِ، وَضَعْفًا فِي الْعَزِيمَةِ وَأَسْأَلُهَا عَمَّا أَصْلَحُ لَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ وَأَنَا
 ضَائِقٌ بِذَلِكَ صَدْرًا، فَمِمَّ إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ مِنِّي تَقْدَمًا مَرِيعًا مُتَنَاسِبًا لِحَالِي فِي الْعُلُومِ
 وَدَرَسِ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي أَرْبَعِ مِئَتِينَ أَوْ خَمِيسَ مَضَتْ، وَمَا ذَلِكَ وَلَا شَكٌّ إِلَّا مِنْ

(١) اللُّغْجُ اخْتِيارُ الْإِنْسَانِ بِأَكْثَرِ مَا عَدَهُ .

(٢) اتِّفَاقُ النَّسَبِ أَى مُصَادَقَةُ أَنْ يَكُونَ الرَّفْسُ شَرِيفَ .

الطَّرِيقَةَ الَّتِي أَهْلَتَنِي بِهَا أَنْتَ وَوَالِدَتِي لِلْعَمَلِ الْعَقْلِيِّ، وَهِيَ مُرَاقَبَةُ الْأُمُورِ وَالْإِسْتِغْرَارُ وَمَا تَلْقَيْتُهُ مِنْكُمْ مِنَ الدُّرُوسِ النَّافِعَةِ، وَلَا أَشْكُ أَنَّ لِي طَمَعًا فِي الْعِلْمِ، وَلَكِنَّهُ أَجْهَدُ فِكْرِي فِي اسْتِقْصَاءِ مَا يُعَوِّزُنِي مِنَ الْخَصَائِصِ، فَأَوْنَةُ أَوْنِهِمْ أَنِّي أَحْسُ فِي نَفْسِي بُرُوجَ إِلَهِي يُقَدِّرُنِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَسَاعَاتٍ يُحْسِلُ إِلَيَّ أَنِّي قَدْ فَيْتُ فِي عَجْزِي وَتَجَرَّدْتُ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي، وَتَارَةً تَمْلِكُنِي الْأَفْكَارُ، وَطَوْرًا يَسْتَحْوِذُ عَلَيَّ وَجْدَانُ الْحَاجَةِ إِلَى الْعَمَلِ، وَالَّذِي أَرَاهُ يَقِينًا أَنِّي لَمْ أَجِدْ إِلَى الْآنَ اسْتِقَامَةً وَاسْتِقْرَارًا فِيمَا لِنَفْسِي مِنَ الْقُوَى، إِنْ صَحَّ أَنْ يُطْلَقَ ذَلِكَ عَلَى مَا لِي شَابٌ مِثْلِي مِنَ الشَّهَوَاتِ الْقَوِيَّةِ، الَّتِي تَدْعُوهُ إِلَى السَّعْيِ لِإِدْرَاكِ مَقَامٍ لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا .

لَمَّا بَلَغْتُ مَدِينَةَ "بُن" مُنْذُ شَهْرَيْنِ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنِّي عَلَى عِلْمٍ بِاللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ لَمَّا قَرَأْتُ مِنْهَا فِي الْكُتُبِ، قَدْ لَبِثْتُ أَنْ تَبَيَّنَ لِي خَطَايَا فِي ذَلِكَ، وَمِنْشَأُ هَذَا الْخَطَأِ أَنِّي كُنْتُ أَحْسِنُ قِرَاءَةَ الصُّحُفِ، وَعَنَّاوِينَ الْحَوَائِثِ، وَأَسْمَاءِ الشُّوَارِعِ، وَمَعَ أَعْلَى الْجُدْرَيْنِ الْأَعْلَانَاتِ، فَإِنَّ الْجُدْرَ هُنَا كَمَا تَعْلَمُ تَتَكَلَّمُ بِالْأَلْمَانِيَّةِ، فَإِذَا جَرَتْ حَوْلِي الْمُعَلَّوَرَاتُ أَصْفَيْتُ إِلَيْهَا، وَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ إِلَّا أَصْوَاتًا لَا أَفْقَهُ شَيْئًا مِنْ مَعَانِيهَا، وَكُنْتُ مُطْلَقَ الْبَصَرِ أَسِيرَ السَّمْعِ، لِأَنَّ مِنَ الْأَمْرِ الْمَعْنَوِيِّ الْحَقِيقِيِّ أَنَّ يَمِيشَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَفْهَمُ لُغَتَهُمْ، كَانَ الْقَلَامُ الَّذِي فِي النَّاتِلَةِ مِنْ عُمرِهِ - وَهُوَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لَا يَعْرِفُ مِنْ تِلْكَ اللُّغَةِ إِلَّا التَّلَعُّمَ بَعْضَ أَفْظَاظِهَا - يَعْرِفُ مِنْهَا أَكْثَرُ مَا أَعْرِفُ، حَتَّى إِنِّي لَمَّا كُنْتُ أَجْهَلُ مُحَاطَبَتِهِ كَانَ يُنْفِضُ إِلَى رَأْسِهِ اسْتِزْأَةً كَأَنَّهُ يَقُولُ : « إِلَيْكَ عَنِّي فَلَسْتُ أَفْقَهُ لَكَ قَوْلًا » .

كُنْتُ بَيْنَ أَوْلَيْكَ الْقَوْمَ كَالْأَصَمِّ الْأَبْكَمِ الَّذِي قَدَّ كُلَّ وَسِيلَةٍ لِلتَّفَاهِيمِ حَتَّى لُغَةِ
الْإِشَارَاتِ، فَقُلْتُ يُمَكِّنُ أَنْ يَنْشَأَ عَنِ الْأَمْوَاجِ الصَّوْتِيَّةِ إِذَا اخْتَلَفَ انْتِقَالُهَا إِلَى الْأَذْنِ
اخْتِلَافًا سِيرًا بِاخْتِلَافِ كَيْفِيَّةِ تَحْرِيكِ الشَّفَتَيْنِ مِثْلُ هَذِهِ الْحَوَائِلِ وَالْحُجُبِ الَّتِي
تُبْعِدُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ .

اسْتَأْذَنْتُ جِدًّا مِنْ هَذِهِ الْعُزْلَةِ، فَجَاهَدْتُ جِهَادًا عَظِيمًا فِي التَّجَرُّدِ مِنَ الْإِنْجَاشِ
الَّذِي أَجِدُهُ مِنْ حَيَاتِي الطَّبِيعِيِّ، وَأَنْشَأْتُ الْيَوْمَ أَنْطِقُ بِالْأَلْفَانِيَّةِ نَطْقًا مَفْهُومًا، وَإِنِّي
لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَعْزِزُنِي تَحْصِيلُ الْكَثِيرِ مِنْهَا، وَلَكِنْ مَنْ هُوَ فِي مِثْلِ سِنِّي قَدْ يَهْدُ
أَنْ لَا يَحْصَلَ فِي قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ لُغَةٌ هُوَ لَا يَنْفَكُ يَسْمَعُ أَصَوَاتَهَا مِنْ أَقْوَاهِ جَمِيعِ
النَّاسِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، وَلَيْسَ أَصْعَبَ مَا فِي هَذِهِ اللُّغَةِ التَّكَلُّمُ بِهَا فِيمَا أَرَى، بَلْ هُوَ
قَهْمٌ مَا يَسْمَعُ مِنَ التَّحَاوُرِ بِهَا بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَدْ كُنْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي الْمَلْعَبِ
وَكَانَ اثْنَانِ مِنَ الْمُثْمَلِينَ يَتَحَاوَرَانِ، فَمَا اسْتَطَعْتُ فِي مَرَّةٍ تَحَاوُرَهُمَا أَنْ أَفْهَمَ كَلِمَةً
مِنْهُمَا، أَلْهَمَهُمْ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ نَحْوَةِ الْمَسَاءِ وَهِيَ "لَيْلَتُكَ سَعِيدَةٌ" .

مِثْلُ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ — إِنْ لَمْ أَكُنْ وَاهِمًا — كَمِثْلِ دُخَانِ الْقَبْعِ بِالنَّادِي الَّذِي
حَدَّثْتُكَ عَنْهُ، فِي كَوْنِهِ كَانَ يَحْجُبُ عَنِّي بَادِيَّ بَدْيِ رُؤْيَاهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ
وَالْإِتِّخَاصِ، نَهَى حِجَابَ سَيَرُؤُلٍ عَلَى التَّعَاقِبِ، وَأَمَلْتُ أَنْ سَيُظْهِرُنِي النُّورُ عَمَّا قَلِيلٍ .
أَتُوجُّوْكَ أَنْ تُتَوَبَّ عَنِّي فِي تَقْيِيلِ «لَوْلَا»، وَأَوْدُ لَوْ أَدْرَى هَلْ هِيَ مُوَاطِبَةٌ عَلَى
مَعْنَى الْأَزْهَارِ، وَتَحَامِ الْبِنَايَةِ بِالطُّبُورِ، وَتَنْسِقِي جَمَائِعِ الْأَعْشَابِ وَالْأَفْئَاتِ^(٢) ؟ وَأَمَلْتُ
حَتَّى إِصْبَاعَهَا بِأَنْ تَدُكُرْنِي كَمَا أَذْكُرُهَا . اهـ

(١) تسيق: ترتيب . (٢) الأفئدة جمع دفة وهي آثار الأقدام التي كانت مدفونة في باطن الأرض .

إِذَا أَنَا كَتَبْتُ إِلَيْكَ فَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى وَالِدَتِي، فَأَتْنِمَّا فِي قَلْبِي لَا مَحْتَرِقَانِ، وَلَمَعًا
لَا أَزِيدُهَا شَيْئًا إِلَّا أَسْنَى عَلَى حِرْمَانِي مِنْ مُحْجَرِي الصَّغِيرَةِ، الَّتِي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْهَا حَرَكَةً
غُدُوِّكَ وَرَوَاحِكَا فِي الْبَيْتِ، وَمِنْ أُنْسِي بِقُرْبِكَ عِنْدَ اضْطِلَالِ النَّارِ لَيْلًا، فَإِنِّي هُنَا
فِي وَحْشَةٍ أَى وَحْشَةٍ . أَخْتِمُ لَكَ هَذَا الْمَكْتُوبَ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ اللَّيْلِ،
عَلَى ضَوْءِ مِصْبَاحٍ يَلْعَلُهُ تَاكِسُ ضَوْئِي، يَسْقُطُ مِنْهُ نُورٌ ضَارِبٌ إِلَى الْخُضْرَةِ،
وَفِي إِحْدَى زَوَايَا مُحْجَرِي سَاعَةً دَقَاقَةً، مِنْ الصَّنِيفِ الَّذِي يُصَوِّتُ تَصَوُّيتَ الطَّائِرِ
الْمَعْرُوفِ بِالْكُوكُو، عِنْدَ انْقِضَاءِ كُلِّ سَاعَةٍ، تُكَرَّرُ تَكَتُّكُهَا الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ، وَأَسْمَعُ
حَسْبَسَ احْتِرَاقِ الْحَطَبِ فِي التَّنُورِ، وَصَرِيرِ الْبَابِ مِنْ صَفْقِي الرِّيحِ ^(١) إِيَّاهُ، وَأَرَى
الْبَدْرَ خَارِجَ الْحُجْرَةِ شَاخِبَ الْوَجْهِ، يَرُونِي ^(٢) إِلَى مِنْ خِلَالِ سِتَارَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مُوشَتَيْنِ ^(٣)
بُصُورِ الْأَنْجَارِ وَالْأَزْهَارِ، مَا بَيْنَ بَيْضَاءَ وَحُمْرَاءَ، وَقَدْ أَحْسَسْتُ بِأَغْرِيقِ عَيْنِي، مَعَ
أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي ذَاتِهَا لَا تَدْعُو إِلَى الْحَزَنِ، وَلَكِنْ لَا تَلْنِي فَإِنِّي مَا زِلْتُ طِفْلًا،
وَلَسْتُ أَسَى عَلَى بِلَادِي، وَإِنَّمَا أَسَى عَلَى مُفَارَقَةِ مَهْدِي، فَإِنِّي أَحِبُّكَ وَأَرْجُو مِنْ
هَذِهِ الْجَهَةِ عَلَى الْأَقَلِّ أَنَّ أَعِيشَ طَوْلَ عُمُرِي طِفْلًا اهـ .

(١) التودد للكاون بخبر فيه .

(٢) صفق الريح ضربها .

(٣) يرونو يدم النظر اليه بسكون . اطرف .

(٤) موشاتين متقوشتين .

الرسالة الثانية

« من إرأسم الى إميل »

عن لوندرة في ١٣ فبراير سنة - ١٨٦

(فراق الولد لوالديه سنة فطرية - العلم في ألمانية - قد الطالب ما يقرؤه من أفكار غيره - التمسد في علوم المعقولات - فاع الأمة بالقيام بالواجب على قدر الطاعة - اختيار الشاب العمل الذي يستغل به بعد - بيان أنه لأحرية لأمة يتكالب شبنها على تولى أعمال الحكومة - التحذير من الملعدين - بيان أن الرأي العام لا قيمة له إلا إنا كانت الحكومة شورى - خدمة الأمة لذاتها لا للجزاء) .

إذا كنت يا عزيزي « إميل » تألم من استيعاشك ، فنحن تألم من فراقك ، ولكن يجب علينا التسليم والرضا بما لا بد منه ، وأعلم أنه لو كان في وسمي أن أبرح لوندرة ، وأخلف من أقوم عليهم من المرضى لمراقبتك إلى حيث أنت الآن لكنت فيه متريدا ، فقد أن لك أن تعلم كيف تسير سيرة الرجال ، الطيور يجب أفرأخها ، ولكنها متى آنت فيها من القوة ما يكتفي لاستقلالها بنفسها في الطيران فتجتها على تجريب أجنتها فيه ، سنة الله الذي أراد أن يهب الحرية لجميع البرايا .

أنت تعلم حق العلم أني لم أرسلك إلى « بن » إلا لأسهل عليك درس لغة الألمان وأخلاقهم وأفكارهم ، وأنا أعلم أنك إلى الآن قد استقلت في تعلمك ، فكنت في باطن الأمر وحقيقته استاذاً لنفسك ومرشداً ، وليس ما أخذته عني

مِنَ الدُّرُوسِ شَيْئًا يَذْكُرُ ، وَلَكِنْ قَدْ اقْتَضَتْ أَحْوَالُ هَذَا الْعَالَمِ أَنْ تُوجَدَ مَذَاهِبُ
وَطُرُقٌ ، لَا بُدَّ فِي تَعْلِيمِهَا أَنْ تُتَمَسَّسَ مِنْ بَنَائِعِهَا ، وَالْمَأْنِيَةِ فِي يَوْمِنَا هَذَا هِيَ مُقْتَسَدُ^(١)
نُورِ الْعِرْفَانِ ، وَهِيَ الْبِلَادُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ لَهَا الْفَضْلُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالنَّقْدِ
وَأَدَابِ اللَّفْظِ ، وَمَدَارِسُهَا الْجَامِعَةُ مَحْطُ رِحَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أَفَاضِلِ الْأَسَاتِذَةِ
وَجِهَاتِ بَذَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَلَسْتُ مَعَ ذَلِكَ أَذْعُوكَ إِلَى قَبُولِ تَعْلِيمِهِمْ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ ، وَتَلَقِّي^(٢)
أَقْوَاهُمْ وَآرَائِهِمْ قَضَايَا مُسَلِّمَةً ، إِنَّنِي أَكُونُ قَدْ تَخَلَّيْتُ عَنْ جَمِيعِ الْأُصُولِ الَّتِي
أَسِيرُ عَلَيْهَا ، فَلِلْإِنْسَانِ شَيْءٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّحَ بِهِ لِأَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ حُرِّيَةُ الْفِكْرِ ،
فَالْعُلُومُ الَّتِي سَلَفَاقَا فِي الْجَامِعَةِ لَا يُمكنُ أَنْ يَنْسَحَ بِهَا نِطَاقُ عَقْلِكَ ، وَيَقْوَى بِهَا
إِدْرَاكُكَ ، مَا لَمْ تَرَاقِبْ مَا فِيهَا مِنْ أَفْكَارٍ غَيْرِكَ مُرَاقَبَةً ذَاتِيَّةً ، وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ
تَهْكَ قَوْلَكَ الَّتِي أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي الْعَمَلِ ، بِفَرْطِ الْإِنْكَابِ عَلَى دِرَاسَةِ الْمَعْقُولَاتِ
بِالْقَفَّةِ مَا بَلَّغْتَ مِنَ الطَّلَاوَةِ وَبُعْدِ النُّورِ ، فَإِنَّ الْبَحْثَ فِي الْمَعْقُولَاتِ لَا قِيَمَةَ لَهُ
إِلَّا إِذَا أَدَّى الْبَاحِثُ إِلَى وَسِيلَةٍ يَنْفَعُ بِهَا نَظْرَاءَهُ ، وَالْمُحِبُّ لِنَفْسِهِ مَنْ يَقْصُرُ ثَمَرَةَ
فِكْرِهِ وَدَرَسِهِ عَلَيْهَا ، لَا مِرَاءَ فِي أَنَّ الْإِتِّصَافَ بِالْعِلْمِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ ، وَلَكِنْ
أَجَلٌ مِنْهُ وَأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُحِبًّا لَوْطِنِهِ ، نَاقِمًا لِأَهْلِهِ ، وَلَا يَمُزُّ عَنْ ذِهْنِكَ
أَنَّ الْمَأْنِيَةَ لَيْسَتْ بِبِلَادِكَ ، وَأَنَّ آثَارَ سَلَفِكَ هِيَ حِكْمَةُ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ ، وَأَنَّ أَمَكُ
هِيَ الثُّورَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ .

(١) مقبس أى مكان الاقتباس أى الأخذ والمراد به هنا مكان الاستفادة من العلم .

(٢) جهابذة جمع جهيد وهو الناقد العارف يتميز الجيد من الردى .

الَّتِي عِبَارَةٌ مِنْ مَكْتُوبِكَ، وَهِيَ قَوْلُكَ : «إِنِّي أَحْيَا أَنَسَ مِنْ نَفْسِي قُتُورًا
فِي الْحِمَّةِ، وَضَعْفًا فِي الْعَزِيمَةِ، وَأَسْأَلُهَا عَمَّ أَصْلَحَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَأَنَا ضَائِقٌ بِذَلِكَ
صَدْرًا»، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ لِتَحْقِيقِ النَّفْعِ فِي الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كِبَارِ
الرَّجُلِ، فَأَيَّمَا رَجُلٍ صَدَقَتْ يَتُّهُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَصَحَّ قَصْدُهُ لِلنَّفْعِ، فَإِنَّهُ يَغْيُرُ مِنْ حَالَةِ
النُّفُوسِ الَّذِينَ يَعِيشُ فِيهِمْ بِقَدَرٍ مَا مِنَ التَّغْيِيرِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَتْ الْحَيَاةُ إِلَّا تَبِيجَةٌ
الْغِيَامِ بِمُرُوضٍ صَغِيرَةٍ، فَمَنْ أَدَاهَا كُلَّهَا بِمَا فِي وَسْعِهِ مِنَ الْوَسَائِلِ كَانَ فِي الْغَالِبِ
أَفْضَلَ مِمَّنْ يَسْعَى فِي الْإِشْتِهَارِ بِعَمَلٍ خَطِيرٍ. وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَفْكَارِنَا وَلَا مِنْ أَعْمَالِنَا
يَضَائِعُ عَلَيْنَا، فَإِنْ آثَرَهَا تَظْهَرُ فَيَمُنُّ حَوْلَنَا مِنَ النَّاسِ، أَوْ فَيَمُنُّ يَخْلُفُونَنَا، وَمَنْ
ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ الْحَرَكَاتِ الْكُبْرَى، الَّتِي غَيَّرَتْ أَحْوَالَ الْعَالَمِ مِنْ جِهَةِ
السِّيَاسَةِ وَالْعِمَارَةِ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا لِلْمُسْتَغْنَيْنِ الْخَامِلِينَ مِنَ الْخِدْمَةِ وَالْعَمَلِ
مَا لِلرُّؤَسَاءِ الْمُسْتَطِيرِينَ؟ كَلَّا ! بَلْ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ ظُهُورُ هَؤُلَاءِ وَاشْتِهَارُهُمْ إِلَّا صُورَةٌ
مُحْكَمَةٌ لِفَضَائِلِ أَوْلَئِكَ وَمَسَاعِيِهِمُ الْمُحْمُودَةِ .

إِنَّمَا يَقَعُ بِأَنْ تَكُونَ كَمَا أَنْتَ، مَعَ مُوَاصَلَةِ السَّعْيِ فِي تَنْمِيَةِ غَرَائِزِكَ وَتَوْسِيعِ نِطَاقِ
مَوَالِيكَ، بِالْإِدْبَارِ فِي الْعَمَلِ وَالْمُنْدَارَةِ، وَإِذَا احْتَجَّتْ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِكَ إِلَى تَكْثِيرِ
قَاطِرَةِ وَجُودِكَ، فَتَصَفَّحْ دَوَابِّ الشُّعْرَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ، وَكُتُبَ أَعْيَانِ النُّظَّارِ الْمَشْهُورِينَ،
وَتَمَتَّعْ بِمَا تَجِدُهُ فِي نَفْسِكَ عِنْدَ مُطَالَعَتِهَا مِنْ عَظِيمِ الْقَدْرِ وَسُوءِ الْمَسْكَانَةِ الَّتِي يَتَبَرَّى
إِلَيْكَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ غِطَّةً لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ، فَإِذَا هَبَطْتَ مِنْ هَذِهِ

(١) ما أجل هذا القول وادله على انصاف قائله وعرفانه لكل امرئ قيمة عمله وادعاه الى تشييط

الخالصين الخالصين — الترجمة .

الْمَقَامَاتِ الْعُلَى، لَمْ تَعْدَمْ حَوْلَكَ مِنَ النُّفُوسِ الصَّغِيرَةِ الْمُحْتَاجَةِ لِلِاسْتِضَاءَةِ بِنُورِ الْعِلْمِ،
 مَنِ يُبْنِيكَ الْإِسْتِغَالُ بِهِمْ عَنِ الْإِهْتِمَامِ بِغَيْرِهِمْ، وَمِنْ صَنَائِعِ الْعِلْمِ مَا فِيهِ تَسْلِيَةٌ لَكَ عَمَّا
 يُعْزُوكَ مِنَ الْخَصَائِصِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتَأَلَّمُ مِمَّا فِي قَلْبِهِ مِنْ مَوَاضِعِ الضَّعْفِ
 وَالْقُصُورِ إِلَّا أُحِبَّ لِنَفْسِهِ، أَوْ خَيْبَتْ، وَأَمَّا مَنْ يَسْتَسْلِمُ وَيَرْضَى بِقِسْمَتِهِ، وَيَتَعَلَّمُ
 لِيَعْمَلَ، فَإِنَّهُ لَا يَطْلُبُ فَوْقَ مَا قِيمَ لَهُ مِنَ الْعَقْلِ شَيْئًا، بَلْ يَكُونُ مُبْتَطِلًا بِغَيْرِ حَاسِدٍ
 لِنَفْسِهِ ^(١).

أَرَأَيْكَ أَيْضًا تَقُولُ فِي الْإِهْتِمَامِ بِاخْتِيَارِ مَا تُمَارِسُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ مِمَّا
 لَا مَرِيَّةَ فِيهِ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنَ النَّاسِ يَحِبُّ عَلَيْهِ أَنْ يَبِيعَ مِنْ كَسْبِهِ وَكَدِّهِ، وَإِنِّي
 أَغْتَمُّ لَوْ رَأَيْتُكَ مُفْرَطًا فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ فَرِيضٍ عَلَى الْإِنْسَانِ — يَنْبَغِي أَنْ
 تَعْلَمَ أَنَّ جُمْلَةَ الدَّرُوسِ الَّتِي تَتَلَقَّاهَا الْآنَ، مَعَ كَوْنِهَا تَوَدَّى إِلَى جَمِيعِ الْحِرَفِ، لَا تَخْتَصُّ
 لَكَ بَابَ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَلَا أَرَى فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَى كَدِّكَ، لِأَنَّ كُلَّ عِلْمٍ مُخَصَّصٌ
 هُوَ ذَخِيرَةٌ لِعَقْلِكَ، فَإِنْ لَمْ يُفِدِكَ فِي نَفْسِكَ، فَقَدْ تَجِدُ فِيهِ وَسِيلَةً لِنَفْعِ غَيْرِكَ، عَلَى
 أَنَّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَطَبَقَاتِ الْحَوَادِثِ الْمُبْتَايَةِ، مُرْتَبِطٌ
 بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَلَا بُدَّ فِي مَعْرِفَةِ أَمْرِ مِنْهَا مَعْرِفَةً صَحِيحَةً مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لَهَا
 بِهَذَا الْأَمْرِ تَعَلُّقٌ بَعِيدٌ، وَلَسْتُ يَهَذَا الْقَوْلِ أُرْزَمُكَ السَّعْيَ فِي تَحْصِيلِ مَا يُسَمَّى
 بِالْعِلْمِ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالْأَوْهَامِ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ بِهِ تَهْيِئَتَكَ

(١) صنائع جمع صنعة، وهي الاحسان والمراد بها أعمال الخير.

(٢) نعماء هي الثروة التي يكون من مبادئها الرضا بما قسم الله بين خلقه من المواهب، فإن فيها ترويحاً
 للناسين على طمأنينة القلب، وسكون النفس، والانصراف إلى العمل، لتبعية ما أوتوا من المكافات، لأن
 الضعيف منها والقليل لا يقوى ولا يكثر إلا به — المترجم.

أَنَّ لِلْعُلُومِ قَضَايَا عَامَّةً لَا بُدَّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرِ حُدُودِهَا الْأَصْلِيَّةِ قَبْلَ تَقَرُّغِكَ لِتَحْصِيلِ
عِلْمٍ مِنْهَا عَلَى حِجَالِهِ .

أَنْتَ وَلِيُّ أَمْرِكَ فِي الْحُكْمِ عَلَى مَا يُبْلَغُكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَلَيْسَ عَلَى إِلَّا أَنْ
أَسْأَلَكَ عَمَّ النَّاسِ فِي ذَلِكَ بِإِخْوَانِكَ مِنَ الطَّلَبَةِ ، فَكُنْ كَمَا يُرْشِدُكَ إِلَيْهِ خُلُقُكَ
وَمِثْلُكَ ، إِمَّا طَبِيبًا ، أَوْ مُحَامِيًا ، أَوْ مَهْنِدِسًا ، أَوْ صَانِعًا ، أَوْ آيًّا ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ،
وَلِكُنِّي أَسْأَلَكَ بِاللهِ أَنْ لَا تَكُونَ عَامِلًا لِلْحُكُومَةِ .

أَيُّ حُرِّيَّةٍ تُرْجَى لِقَوْمٍ يَتَطَلَّعُ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنْ سَبَابِهِمْ إِلَى الْإِنْتِظَامِ فِي سِلَكِ
عُمَالِ حُكُومَتِهِمْ؟ قَدْ كَانَ فَنُ عِلْمِ الْحُكْمِ لِلنَّاسِ فِي الْأَيَّامِ الْحَالِيَةِ مِنَ الْقُنُونِ الصَّعِيَّةِ
الْكثِيرَةِ الْمُشْكَلاتِ ، الَّتِي يُلْزِمُ لِعَلْمِهَا اسْتِعْدَادُ خَاصٍّ وَنَفْسٌ كَنَفِيسٌ مَكِينٌ قَلِيلٌ ،
وَأَمَّا الْآنَ فَيُظْهِرُ مِنْ أَحْوَالِ الرِّعِيَةِ أَنَّهُمْ يُعْنَوْنَ أَشَدَّ الْعِنَايَةِ بِكِفَايَةِ حَاكِيمِهِمْ مُؤَنَّةً
اسْتِعْبَادِهِمْ بِالْحِيلَةِ أَوْ الْفَهْرِ ، لِأَنَّهُمْ يَتَهَاقُونَ عَلَى أَحْتِمَالِ نِيرِ عُبُودِيَّتِهِ ، فَأَيُّ مَلِكٍ
أَوْ عَاهِلٍ يَجِدُ حَوْلَ أَرْبَكْتِهِ رُعُوسًا خَاضِعَةً ، وَأَطْمَاعًا سَافِلَةً نِهْمَةً كَاطْمَاعِ الْكِلَابِ
الَّتِي لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا قَضَمُ الْعِظَامِ ، مَا دَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْوَافِرَةِ مَا يُنْفِقُهُ كَيْفَ
يَشَاءُ ، وَمِنَ الْمَنَاصِبِ وَالْأَقَابِ الشَّرَفِ وَالرُّتَبِ الْكَثِيرَةِ مَا يُوزَعُهُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ .

لَيْسَ الْإِلْحَادُ وَالْوَقَاحَةُ مَقْصُورَيْنِ عَلَى أَحْدَاثِ الْمَنَانِيَةِ ، فَإِنَّكَ حِينَئِذٍ حَلَلْتَ
تَجِدُ مِنَ الشُّبَّانِ مَنْ لَا يَتَّقِدُونَ شَيْئًا وَلَا يُوقِرُونَ شَيْئًا ، فَكُنْ مِنْهُمْ عَلَى حَذَرٍ ،

(١) للناسي الاقتداء .

(٢) ميكائيل هو أحد رجال الحكومة الإيطالية ومن كتباها المشهورين ومن كتبه كتاب الأمير وهو

مختصر في السياسة الفسدة للاخلاق . (٣) القضم الأكل بإطراف الأسنان .

لَأنَّ هَذَا الْقُسُوقَ الْعَقْلِيَّ يَسَاعِدُ قَطْعًا عَلَى تَثْبِيتِ الْأَوْضَاعِ الْقَدِيمَةِ ، ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَلْعَنُونَ لَا تُفْسِدُهُمْ حُرِّيَّةُ الْفِكْرِ لَمْ يَحْطُصُوا مِنْ قَيْدِ الْأَثَرَةِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ تَأْخُذُ الْحُكُومَةُ مِنْهُمْ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ، أَعْنَى أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِنَجْعِ مَسَاعِيهِمْ ، وَطَمَعَهُمْ فِي الْوُصُولِ إِلَى مَا يَتَنَوَّنُونَ ، وَظَمَأَهُمْ إِلَى الْمَنَاصِبِ وَالتَّمَتُّعِ بِمُرْتَبَاتِهَا الْجَسِيمَةِ ، لَا تَأْتِي أَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْفِيرِ النَّظَامِ الَّذِي سَقَتْهُ الْحُكُومَةُ وَإِجْلَالِهِ ، وَإِنِّي لَا أَعْتَدُ بِمِرَاةِ الْعَقْلِ مَا لَمْ تَصَحِّبْهَا بِسَالَةِ النَّفْسِ وَتَتَرَهَّأَ عَنِ الْأَغْرَاضِ ، ثُمَّ إِنَّهُمَا كَانَا بُلُوعًا كُلُّ أُمْنِيَّةٍ فِي الدُّنْيَا مُمَكَّنًا بِمَحِصٍ هَوَى النَّفْسِ وَرِضَاهُ ، لَمْ يَعْدِمِ الْمُسْتَبِدُّونَ صَيِّدًا مَتَحَمِّسِينَ فِي خِدْمَتِهِمْ ، يَعْمَلُونَ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ ، وَيَجِدُ مَنْ كَانُوا مِنَ الشُّبَّانِ بِالْأَمْسِ مَنَظِّفِينَ مُتَعَدِّقِينَ يُصَيِّحُونَ وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ مُجُودًا لِلْقُوَّةِ وَاسْتِكَانَةً لِلسُّلْطَانِ .

وَلَا يَلَايَ أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ هِيَ بَلَاءُ الْأَيَّامِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، فَالْبَلَادُ الَّتِي رَأْسُ حُكُومَتِهَا هُوَ الَّذِي يُوزَعُ مَنَاصِبُهَا ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ آرَاءُ النَّاسِ فِيهَا إِلَّا تَتَّبِعَةُ عَمَلٍ حِسَابِي لِمَا يُرِيحُ مِنْهَا ، فَإِذَا وَقَعَ خَطَأٌ سِيَاسِيٌّ أَوْ دِينِيٌّ مِنَ الْحَاكِمِ ، وَكَانَ يُنْتَجِجُ لِلْمُؤَافِقِينَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْحِسَابِ عَشْرَةُ آلَافٍ فَرَنْكَ مَثَلًا ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ جَبْنٌ صَوَابًا ، وَإِذَا أُنِيَ أَمْرًا خَسِيسًا وَدَفَعَ ضِعْفُ هَذَا الْمِقْدَارِ ، قِيلَ إِنَّهُ قَامَ هَذِهِ الْمَرَّةُ بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْهَمَّةُ وَالْبَسَالَةُ ، فَيَجِبُ الْإِخْلَاصُ لَهُ .

(١) الأمانة كل ما يتناهى المرء من محابه .

(٢) متعاطفين مظهرين الحقد .

(٣) الاستكانة القل والانضوع .

يَلْهَجُ النَّاسُ كَثِيرًا بِذِكْرِ الرَّأْيِ الْعَامِّ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ أَقْوَى كِفَالَةً لِلْحَقِّ وَالْحَقَرَةِ، وَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا كَانَ أَمْرُ الْأُمَّةِ بِيَدِهَا، وَكَانَتْ هِيَ الَّتِي تَلِي شُؤُونَ إِدَارَتِهَا، وَأَمَّا إِذَا كَانَ حَالُهَا غَيْرَ هَذَا فَالرَّأْيُ الْعَامُّ نَفْسُهُ قَدْ يَكُونُ فِيهَا آلَةٌ لِلِاسْتِبْدَادِ، فَإِنْ أَكْفَلَ وَسِيلَةً لِنَظْمِ الْأُمَّةِ هِيَ إِعْدَامُ شَرَفِ النَّفْسِ مِنْ أَقْرَابِهَا، وَإِزْهَاقُ رُوحِ الْإِسْتِقْلَالِ بَيْنَهُمْ، بِتَحْيِيْبِ الْحُكُومَةِ الْقَائِمَةِ إِلَيْهِمْ، وَحَمْلِهِمْ عَلَى رَجَاءِ بَقَائِهَا . وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ إِنَّ عَدَدَ الْعُمَالِ فِي الْحُكُومَةِ لَا يُدْكَرُ فِي جَانِبِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْأُمَّةِ، فَاجِبُهُ أَنْ هَذَا الْإِعْتِرَاضُ عَبَثٌ، لِأَنَّهُ قَدْ نَبَى أَنَّ بِإِزَاءِ كُلِّ عَامِلٍ ثَلَاثَ مَنَصِبَاتٍ أَلْفًا مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُونَهُ، وَيَرْجُونَ رَجَاءً قَوِيًّا أَنْ يَتَأَلَّوهُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، فَعَالَمُ الْعُمَالِ يُكَافِئُهُ عَالَمُ آخَرٍ مِنَ السَّائِلِينَ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَمِيعُ طُلَّابِ الْأَمْوَالِ، وَإِذَا كَانَ تَحْوِيلُ النَّاسِ مِنَ الْإِسْتِعْدَادِ لَا يَتَأَنَّى إِلَّا مَتَى أَعَانُوا عَلَيْهِ بِإِرَادَتِهِمْ، فَأَيُّ وَسِيلَةٍ تَبْنِيهِمْ عَلَى إِرَادَةِ النَّفْسِ مِنَ رِيقَتِهِ، إِذَا كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ يَقُومُ لَهُمُ الْحُكُومَةُ بِتَفَقَّاتٍ مَطْعِمِهِمْ وَمَلْبَسِهِمْ وَمَسْكَنِهِمْ، قَدْ بَلَّغَتْ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ يَكُونُوا اسْتِعْبَادُهُمْ قَوَامَ مَعِيشَتِهِمْ، وَالْفَرِيقُ الْآخَرُ يُضْطَرُّونَهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَلَا يَأْسِفُونَ إِلَّا عَلَى تَحْجِزِهِمْ عَنْ مَشَارَكَتِهِمْ فِيهَا .

لَسْتُ أَقْصِدُ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ الْمَنَاصِبِ الْعَامَّةِ تَصْغِيرُ نَفُوسِ الْقَائِمِينَ بِهَا، أَوْ السَّاعِينَ فِي تَقْلِيدِهَا، حَاشَ قَلْبُهُ، فَإِنَّهَا فِي الْحُكُومَاتِ الْحُرَّةِ، كَحُكُومَةِ أَمْرِيكَةِ

(١) هذا القول من أصح الحقائق، يشهد له الواقع من أحوال الأمم ووقائعها — المترجم .

(٢) يكافئه بمعنى يكفأ لكثف . (٣) النفس : التلصص .

(٤) الرقعة : التيد .

مثلاً، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُسَمَّى فِيهِمْ قُوَّةُ الْعَزِيمَةِ وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، لِأَنَّ الْحُكْمَ فِي اخْتِيَارِهِمْ رَاجِعٌ إِلَى اسْتِخَارَةِ الْأُمَّةِ، وَلِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَمْرُونُ بِالْأَعْمَالِ مُرُوراً، وَلِأَنَّ جَمِيعَ الْوِلَايَاتِ لَا تَلْتَبِثُ أَنْ يَبُودَ أَمْرُهَا إِلَى الْأُمَّةِ فَتَقْلِدُهَا مِنْ نَسَاءُ، وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّي لَا أَتَكَلَّمُ عَنِ الْأُمَمِ الَّتِي حُكُومَاتُهَا مُؤَسَّسَةٌ عَلَى الشُّورَى، وَإِنَّمَا أَتَكَلَّمُ عَنِ الْأُمَمِ الَّتِي تُوَلَّى الْأَعْمَالُ فِيهَا بِالْمُعَابَاةِ وَالْمَسْوَى، فَشُبَّانُهَا يَتَدَلَّوْنَ وَيَصْغُرُونَ بِسَمْعِهِمْ فِي تَقْلِيدِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّ حُكُومَاتِهَا لَا تَبْنِي فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا تَقْوِماً سَلْسَلَةِ الْقِيَادِ، تَلْصُقُ بِمَا جَرَى عَلَيْهِ الْعَمَلُ مِنَ التَّجَالِيدِ الْإِدَارِيَّةِ، وَطَبَاقاً لِنَيْتَةِ عَطِيفَتِ عَلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا وَجْهَةٌ ذَاتِيَّةٌ، وَعُقُولاً مُتَقَفَّةٌ — وَلَوْ لَمْ تَسْمَعْ عَنْ عُقُولِ الْعَامَّةِ — تَسْتَعْمِلُ زُخْرَفَ الْقَوْلِ فِي تَصْوِيرِ مَا وَضَعَ مِنَ النِّظَامِ بِصُورَةٍ مَعْقُولَةٍ، وَإِنِّي لَتَمَرُّ بِسَاعَاتٍ أُحَدِّثُ فِيهَا نَفْسِي بِأَنَّ مِنْ ظُلْمِ الشُّعُوبِ أَنْ يُلْوَموا حُكَّامَهُمْ عَلَى اسْتِعْبَادِهِمْ، فَأَيُّ مَعْنَى لِلْوَيْهِمْ إِذَا كَانُوا قَدْ جَعَلُوا مَقَادَتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَكَانَ الْأَبَاءُ لَا يَتَمَنُّونَ لِأَبْنَائِهِمْ إِلَّا تَقْلِيدَ الْمَنَاصِبِ ذَاتِ الرُّوَاتِبِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَا عَمَلَ فِيهَا، بَدَلًا مِنْ صَرْفِهِمْ إِلَى وَجْهِهِ الْكَسْبِ الْأُخْرَى، بَلْ إِذَا كَانَ كُلُّ النَّاسِ يُؤْمَلُونَ أَنْ يَكُونُوا عَالَةً عَلَى الْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ، وَيَبُودُونَ لَوْ أَنَّ لِلْحُكُومَةِ مِنَ الْعَقْلِ وَالْوَدَاعَةِ مَا يَكْفِي لِمَتْنِهَا مِنَ الْإِسْتِخَارِ بِمَا يَبْدُو مِنْهُ لَهَا مِنَ الْفَوَائِدِ، قَبْلَ أَنْ تَخْفَ عُقُولُهُمْ! إِذْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ رَبَّاءَ ثُمَّ هُمْ يَتَهَشُّونَ مِنْ وَطْءِ الْحُكَّامِ إِيَّاهُمْ!

أَنَا لَا أَنْكَرُ أَنَّ نَيْلَ الشَّابِّ مَنَاصِبَ الْكَثِيرَةِ الْمُقَرَّرَةِ فِي الْحُكُومَةِ اسْتِهْلَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ أَنْ يَفْتَحَ لِنَفْسِهِ بَابًا لِلْكَسْبِ فِي قَوْمِهِ، بِجِدَارَتِهِ وَأَهْلِيهِ الذَّائِنَةِ،

وَلِهَذَا لَا يَلْبَثُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْرِفَ الْأُمَمَ الَّتِي اعْتَادَتْ الْإِزْزَاقَ مِنْ حُكُومَاتِهَا، لِمَا
يَكُونُ فِيهَا مِنْ فَقْدِ الْإِسْتِعْدَادِ لِإِنْشَاءِ الْأَعْمَالِ وَابْتِكَارِهَا، قَرَى فِيهَا الصَّنَاعَةَ وَالزَّرَاعَةَ
والتَّجَارَةَ تَنَسَّقُ فِي سَجَرِ الْمَادَةِ بِتَكْلُفٍ وَجُهْدٍ، وَالْأَمْوَالُ تَحْذَرُ الْخُرُوجَ مِنْ
جُيُوبِ الْمُتَمَوِّلِينَ، وَالْقَاوِمِ التَّجَارِيَةِ الَّتِي تَأْتِي الْحُكُومَةُ حِمَايَتَهَا، يَشُقُّ عَلَيْهَا — كَمَا
يُقَالُ — أَنْ تَطِيرَ بِأَجْنِحَتِهَا، وَالصَّنَاعَاتِ الْحُرَّةِ تَحُومُ حَوْلَ السُّلْطَانِ لِنَيْلِ الْأَعْمَالِ
بِالْمُحَابَاةِ، وَتَرْقُبُ فُرْصَةَ التَّطَفُّلِ عَلَى مَائِدَةِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، وَأَذَابُ اللُّغَةِ وَالْفُنُونِ
تَسْأَرُ بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ، وَتَتَدَلَّى بِتَدَلَّى الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَحُطُّهَا سُلْطَانُ رَجُلٍ وَاحِدٍ،
وَحَاجَةُ التَّفَدُّيِّ مِنْ يَدِ الْحُكُومَةِ تَزِيدُ عَلَى الدَّوَامِ عَدَدَ طَائِفَةِ النَّدَامِ وَالْمُتَمَلِّقِينَ .

كَأَنِّي بِكَ تَقُولُ لِي : إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي وَصَفْتَ عَيْبٌ فِي شَكْلِي مِنْ أَشْكَالِ
الْحُكُومَةِ، وَذَنْبٌ لِمَجْمُوعِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَرْضَى هَذَا الشَّكْلَ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَا يُعْتَدُّ بِهِ
كَثِيرًا أَنْ يَزِيدَ عَدَدُ عَمَالِ الْحُكُومَةِ وَاحِدًا أَوْ يَنْقُصَ وَاحِدًا، لَا لَهُمْ جَيْشٌ لَا يُعَدُّ،
فَأَجِيبْكَ عَلَى هَذَا بِأَنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ لَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ أَنْ يُغَيِّرَ
أَحْوَالَ أُمَّةٍ بِأَمْرِهَا، وَلَكِنْ إِذَا ارْتَمَكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا عَلَى هَذِهِ الْمُعَاظَةِ،
فَاسْتَسْلَمَ لِلتَّيَّارِ الْمَحْتَوِمِ الَّذِي يَسُوقُ غَرَّهُ، فَلَا يَبْنِي أَنْ يُرْجَى شَرَفٌ لِلْأَوْضَاعِ
الْقَوْمِيَّةِ، وَلَا حُرِيَّةٌ لِلنَّاسِ . إِنَّ الْأُمَمَ إِذَا تَدَلَّتْ وَفَشَتْ فِيهَا عَدَوَى النَّاسِ، وَجَبَ
عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ، حَقِيقٌ بِأَنْ يُسَمِّيَ إِنْسَانًا، أَنْ يَرْفَعَ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ لَوَاءَ الْمَجْدِ، وَيَدْعُوهَا
إِلَى التُّهُيْضِ، فَإِنَّهَا لَا تَنْهَضُ مِنْ انْحِطَاطِهَا إِلَّا بِالْمُجَاهَدَةِ وَبِذِلِ الْقُوَّةِ الدَّائِيَةِ .
وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يَشْكُو مِنْ خِسَّةِ السَّرَايِرِ فِي قَوْمِهِ، وَيَتَأَلَّمُ مِنْ دَنَاءَةِ نَفْسِهِمْ، وَهُوَ

شريكٌ لِمُسْمٍ بِالْوِاسِطَةِ فِي فِعْلٍ مَا أَذَاهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، يَكْثَرُ خَشْيَتُهُ وَتَحَرُّجُهُ فِي سِيرَتِهِ! فَإِنَّهُ إِذَا تَعَقَّفَ هُوَ عَنْ تَوَلَّى الْمَنَاصِبِ الرَّسْمِيَّةِ قَدْ يُرِيدُهَا لِابْنِ أَخِي لَهُ أَوْ لِأَحَدِ الْأَلْيَدِينَ بَيْنَهُ، وَبِهَذَا يَصِيرُ شَرِيكًا فِي الضَّرَرِ الَّذِي يَنْدُبُ سُوءَ مَقْبَلَتِهِ .

هَذِهِ يَأْبَى أَفْكَارِي، قَدْ أَفْضَيْتُ بِهَا إِلَيْكَ صَرَاحِيَّةً، فَإِنْ كُنْتَ رَاجِعًا فِي بُلُوغِ مَنَاصِبِ رِسْمِيٍّ فَوَسِيْلَتُكَ إِلَيْهِ مُسْرَّةٌ جِدًّا، وَهِيَ أَنْ تَدُلَّ وَتَسْتَكِينَ، وَأَمَّا إِذَا فَضَّلْتَ كَرَامَةَ نَفْسِكَ وَاسْتِقْلَالَكَ وَشَرَفَكَ عَلَى الْمَزِيَّةِ الَّتِي تَجِدُهَا فِي سُهولةِ فَتْحِ بَابِ الْكَسْبِ وَسُرْعَتِهِ؛ فَإِنَّ أَهْمَّتَكَ عَلَيْهِ مِنْ صِيْمٍ فَوَادِي، وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَكَ حِينَئِذٍ أَنْ تَعْرِفَ مَا أَنْتَ دَاخِلٌ فِيهِ، فَإِنَّكَ بِنَتَازُكَ عَنْ رِعَايَةِ الْحُكُومَةِ فَضْطَرُّ إِلَى كَسْبِ قُوَّتِكَ بِالْعَمَلِ وَالْجِهَادِ، وَلَا تَجِدُ مِنْ أَحَدٍ حَمْدًا عَلَى كَدِّكَ وَنَصَبِكَ، وَتَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْخَرُونَ مِنْ بَسَائِكَ وَإِقْدَامِكَ، فَعَلَامَ يَحْبُوكَ إِذَا كُنْتَ تَسْفَهُهُمْ وَتُزْزِي عَلَيْهِمُ بِالنَّهْجِ الَّذِي تَسِيرُ عَلَيْهِ فِي عَمَلِكَ وَفِكَرِكَ ؟ .

إِخْدِمِ الْأُمَّةَ وَلَا تَرْجُ مِنْهَا جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَإِنَّهَا لَا تَمْلِكُ مَا تَجْزِيكَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِهَا شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِ الْبِلَادِ، وَلَا مِنْ أَلْقَابِ الشَّرَفِ، وَلَا مِنْ وَسَائِلِ التَّنْوِيهِ وَإِعْلَاءِ الذِّكْرِ، عَلَى أَنَّهَا قَدْ تُشْكِرُ مَالَكَ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ فِي خِدْمَتِهَا، فَلَيْسَ عَلَيْكَ حِينَئِذٍ إِلَّا الْإِعْتِمَادُ عَلَى قُوَّاتِكَ الْجَسَدِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ... وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا الْإِنْكَارِ الْمُتَوَقَّعُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرُوعَكَ، فَلَيْسَتْ أَمُّ مَسْأَلَةٍ لِلْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ أَنْ يَبْلُغَ مَقَامًا سَامِيًّا، بَلِ الْمَسْأَلَةُ الْكُبْرَى هِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْرُهُ أَعْلَى مِنَ الْمَقَامِ الَّذِي يَشْغَلُهُ .

وَأَمَّا أَخْبَارُ النَّيِّبِ فَمِنْهَا أَنَّ «لَوْلَا» عَهَدْتُ إِلَى إِعْلَامِكَ بِأَنْ طُورَكَ وَزُهُورَكَ فِي حَالَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَنْ دَفَائِكَ بَعْدَ أَنْ حُفِظَتْ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ مِلْيُونَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ

مِنَ السَّيِّئِ سَالِمَةً مِنَ التَّغْيَرِ تَغْيَرَتْ قَلِيلًا مِنْ غَيْرِ لُتْدَرَةٍ وَدُخَانِهَا ، وَبِأَنِّهَا قَدْ رَتَبَتْ
جَمْعُوعَ حَشَائِشِكَ وَأَنَّهَا أَشَدُّ لَكَ ذِكْرًا مِنْكَ هَا .

وَفِي الْخِتَامِ أَقْبَلَكَ أَنَا وَأَمَّا قُبَلَةُ الْوَدَاعِ وَزَجُّوْا أَنْ نَكُونَ دَائِمًا عَلَى عِلْمٍ
يُدْرِيكَ وَمَقَاصِدِكَ وَحَالَةَ مَعِيشَتِكَ فَكُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِكَ يَعْنِينَا اهـ ^(١)

الرسالة الثالثة

مِنْ «إِمِيل» إِلَى أُمِّهِ فِي ١٢ مايو سنة ١٨٦٠

إِفْضَاؤُهُ إِلَيْهَا بِحُبِّهِ لَقِينَةٍ مِنَ الْمُثَلَّلَاتِ — كَيْفَ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا —
اسْتِعْلَامُهُ سِيرَتَهَا — تَمَنِّيهِ إِقْنَادَهَا بِمَا هِيَ فِيهِ —
طَلَبُهُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ أُمِّهِ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ لَهَا بِالْحُبِّ .

إِنِّي مُنْذُ عَرَفْتُ نَفْسِي أَبْنُكَ جَمِيعَ مَا يَسُوءُنِي وَبِأَيُّ شَيْءٍ ، وَمَا أَكْرَهُ وَمَا أَحِبُّ ،
وَأَكْلَشُفُكَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا أَكْتُمُ عَنْكَ شَيْئًا ، حَتَّى إِنِّي لَمَّا كُنْتُ بِمَحْضَرَتِكَ مَا كُنْتُ
فِي حَاجَةٍ إِلَى الْبَيَانِ ، لِأَنَّكَ كُنْتَ تُطَالِعِينَ أَفْكَارِي فِي عَيْنِي ، وَتَتَحَيَّرِينَ بِهَا تَجَوُّلُ عَلَى
جَنِبِي ، وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ لِي فِي حَيَاتِي أَسْرَرْتُ فِيهَا سِرًّا ، وَلَيْتَ شِعْرِي أَلْبُوْخُ بِهِ

(١) قد تضمنت هذه الرسالة الحكيمة الجليلة من عيوب الحكم المطلق وافسادة لأخلاق الأمم مالا
يستطيع أحد أن يمارى في صحته ، لأنه يحس به ويشهده ، فليكن ذلك دائما على ذكر من الوالدين والمربين
الذين يمتنعون أن ينشئوا أولادهم أحرارا وليوصوهم بما أوصى به هذا الرجل الحكيم ولده في خاطمة الرسالة .
[المترجم]

إِلَى قَصَبِ نَهْرِ الرِّينِ؟ إِذَا تَضَاحَكْتَ مِنِّي كَمَا تَضَاحَكْتَ مِنْ أَذْنِي الْمَلِكِ مِيدَاسَ،
أَمْ أَبْنَاهُ إِلَى الْقَمَرِ؟ لَا! فَقَدْ سَمِعَ كَثِيرًا مِنْ أَمثَالِهِ، أَمْ أَكُنْتُ فِي قَلْبِي؟ إِذَا لَأَبْنِي
عَلَيْهِ سِرِّي، مَا أَنَا بِفَاعِلٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ أُودِعَهُ صَدْرَ أُمِّي .

عَلَى أَنَّ الْإِفْضَاءَ بِهِ لَيْسَ مِنَ السَّمُولَةِ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي كُنْتُ أَتَوَهُمُهُ، فَإِنِّي
مَا أَتَشَأْتُ أَخْطُ هَذِهِ السُّطُورَ الْأُولَى مِنْ مَكْتُوبِي، حَتَّى ارْتَعَسَتْ يَدَيَّ وَخَفَقَ قَلْبِي،
وَلَسْتُ إِخَالِكِ إِلَّا سَاخِرَةً مِنِّي، وَلَكِنْ أَقَلَّ مَا أَنَا وَائِقٌ بِهِ مِنْكَ أَنَّكَ لَنْ تَجِدَنِي عَلَى
إِنْ صَدَقْتُكَ الْخَبَرَ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ إِفْشَائِهِ وَهُوَ: أَنِّي أُحِبُّ .
الآنَ أُرَاكَ تَسْأَلِنِي، مَنْ هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا؟ وَآيْنَ رَأَيْتَهَا؟ وَآيْنَ عَرَفْتَهَا؟
وَفِي هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ مَا يَزِيدُنِي حَيْرَةً وَارْتِبَاكَ .

فِي مَدِينَةِ «بُن» مُلْعَبٌ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ مَشْهُورٌ بِحَسَنِ اخْتِبَارِ الْفِيصِصِ
الْتِمِثِيَّةِ، فَمَا يُمَثِّلُ فِيهِ قِصَّةُ مَرْيَمِ اسْتَوَارَتِ، وَقِصَصُ شِيلَارَا، وَقِصَّةُ غُوَيْتِ،

(١) ميداس بحسب ما جاء في أساطير اليونان هو ملك، فريجية وهو قطرم من أقطار آسية الصغرى، اشتهر
بواقفين نذكر احدهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع وهي ان أبولون بن المشتري حكمه في المظاهرة التي
قامت بينه وبين ابنة الاله الزعاة في الموسيقى والشم والفنون، وكان بان صديقا لذلك فحكم له فلم يكتب أبولون
في الانتقام من ميداس بسلح جلده حيا، بل جعل له بدلا من أذنيه أذن حمار، فظاهما ميداس بتاج حتى
لا تظنهما للناس ولما علم أن حلاقه لا بد له من رؤيتهما عاهده على كتمان أمرهما ولكن الحلاق لم يابث
أن يقل عليه الكتمان فاحفر حفرة في الأرض يعزل عن الناس وأسرهما فوله «ان تلك ميداس أذن حمار»
فاثق بعد حين أن أن بنت في هذا المكان قصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول .

(٢) تجلدى قضى وقد سبق تفسيرها .

(٣) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية ومريم لورين — ولدت سنة ١٥٤٢م
وماتت سنة ١٥٨٧م تزوجت بولي عهد فرنسا (من أول حكم فرنسيس الثاني) وبعد موت زوجها
رجعت الى ايقوسية وتزوجت جئري دوتلي ثم بالكونت بوثويل ثم ثار عليها رعاياها فلاذت بالإصابات
ملكه انجلترا التي حبسها ١٩ سنة ثم أمرت باعدامها .

(٤) شيلار شاعر ألماني ولد سنة ١٧٥٩م ومات سنة ١٨٠٥م وأشهر قصصه الخزنة والنبية والانشين وظلوم تل .

عَنْ قُوسْتٍ وَمَرْغَرِيْتَهَ وَغَيْرِهَا مِنْ الْقِصَصِ الشَّيْئَةِ، وَلِلْمُوسِيقِ وَالْأَغَانِي الْمَوْقِفَةِ
عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَلْعَبِ يَوْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، تَحِلُّ فِيهَا مَحَلُّ الْأَدْبِيَّاتِ وَالْوَقَائِعِ التَّمثِيلِيَّةِ
وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا تَرْوِيجُ نَفْسِي مِنْ عَنَاءِ
الدَّرْسِ، وَثَانِيَهُمَا إِيْلَافُهَا أَصْوَاتَ اللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ ، فَنَ تَحْوِشُنِي ابْتِدَآتُ قِيْنَتِهِ
بِأَفْيَرِيهِ قِيْنَتُهُ نَغْنَى عَلَى الْمُوسِيقِ هُنَاكَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا غَنَتْهُ قِصَّةُ النَّبِيِّ مِنْ تَوْقِيعِ
مَا رِيْرِيهِ، فَبَلَغْتُ مِنَ الْإِجَادَةِ فِي تَغْنِيَتِهَا إِلَى حَدٍّ أَنْ جَمِيعَ طُلَبَةِ الْحَامِعَةِ كَانُوا يَلْهَجُونَ
بِذِكْرِهَا، كَأَنَّهَا آيَةٌ مِنَ الْآيَاتِ، بَحَرَيْتُ مَعَهُمْ فِي مَسَاقِ الْإِغْتَابِ بِهَا، وَلَمَّا انْطَلَقْتُ
إِلَى الْمَلْعَبِ وَرَأَيْتُهَا دَاخِلَةً فِي بَاحَةِ التَّمثِيلِ كَانَ كُلُّ عِيُونَا تُبْصِرُ وَأَذَانَا تَسْمَعُ، وَلَيْسَ
صَوْتُهَا هُوَ الَّذِي اشْتَدَّ إِغْتَابِي بِهِ، مَعَ كَوْنِهِ مِنْ أُنْدَى الْأَصْوَاتِ وَأَنْدَرِهَا، بَلِ الَّذِي
مَلَأَنِي إِغْتَابًا هُوَ مَا فِي تَغْنِيَتِهَا مِنَ الرُّوحِ ، بَلِ مَا فِي خَلْقِهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالْإِنْتَانِ ،
قَبْتُ لِي كُلَّهُ أَحْلَمُ بِهَا، وَلَا يُفَارِقُنِي طَيْفُهَا، وَكُنْتُ أَرَاهَا بَيْنَ الْأَفْلاكِ السَّمَاوِيَّةِ، وَأَسْمَعُ
أَنْفَاسَ الْكَوَاكِبِ الْمُوسِيقِيَّةِ، فَكَأَنَّ فَيْثَاغُورِسَ كَانَ يُحِبُّ قِيْنَتَهُ مِثْلِي عِنْدَ مَا كَانَ
يُحَدِّثُ تَلَامِيذَهُ عَنْ حُسْنِ الْحَنَانِ النُّجُومِ .

وَلِحَوْفِي مِنْ أَهْضَاءِ إِغْتَابِي بِهَا فِيمَا يَلِي مِنَ التَّمثِيلِ ، عَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى أَنْ
لَا أُخْتَلِفُ إِلَى الْمَلْعَبِ لِيَالِي تَغْنِيَتِهَا، وَلَكِنِّي مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوفِيَ بِعَهْدِي، وَقَدْ

(١) غوبت واسمه جان ولف جانج هو أكبر كاتب ألماني ولد في فرنك فورسبرلين سنة ١٧٤٩ م ومات سنة ١٨٣٢ م وفوست اسم لشخص خرافي مشهور في حكايات الألمان بأنه يتهاهد مع الشيطان .

(٢) القبة في اللغة الأمة المغنية أو الأمة مطلقا والمراد بها هنا المرأة المغنية .

(٣) بافيريته نسبة الى بافيري إحدى ولايات ألمانيا .

(٤) فيثاغورس فيلسوف يوناني ولد في ساموس سنة ٤٦٩ ومات سنة ٥٧٠ م أقام بمصر وبابل مدة طويلة ثم رجع الى بلاده اليونان وأسس مدرسة في كروثون وهو أول من قال بالتناضح وعرف بنظام العالم الحقيقي .

انْتَفَى عَنِّي كَثِيرًا خَوْفُ إِقْلَالِي مِنَ التَّحْمُسِ فِي حُبِّهَا، بِمَا كَشَفَتْهُ فِيهَا عَلَى تَوَالِي
الْأَيَّامِ مِنَ الْخَصَائِصِ الْجَمَّةِ الَّتِي لَمْ أَكُنْ لَاحِظَهَا مِنْ قَبْلُ، وَلَا بَدَّ مِنَ الْإِعْتِرَافِ
لَكَ يَا نِي كُنْتُ أَجْلِسُ فِي الصَّفِّ الْمُوَاجِهِ لِبَاحَةِ التَّمَثِيلِ بِحَيْثُ أَكُونُ مَرْتَبًا لَهَا،
وَقَدْ حَسِبَ لِحَظِي مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَنَّهُ لَا قِيَّ لِحَظَهَا... وَلَكِنْ رُبَّمَا كَانَ هَذَا ضَلَالًا
وَوَهْمًا، وَمَعَ أَنَّ التَّمَثِيلَ كَانَ يَمُكِّثُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ، كُنْتُ دَائِمًا أَجِدُهُ
فِي غَايَةِ الْقَصْرِ، وَأَغَادِرُ مَقْعَدِي فِي خَتَامِهِ وَقَلْبِي مُنْعَمٌ بِمَا لَا يُوصَفُ مِنَ الْإِضْطِرَابِ.

خَطَرَ فِي ذَهْنِي أَنَّ أَخَاطِبَهَا بِأَيَّاتٍ مِنَ الشَّعْرِ، أَنْظِمَهَا وَأَرْسِلَهَا إِلَيْهَا غَيْرَ مُنْمَضَةٍ
مِنِّي، عَلَى يَدِ بَوَابِ الْمَلْعَبِ الْحَرِيمِ، فَفَعَلْتُ وَكُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي وَقْتُ نَظْمِهَا: أَقُلْ
فَائِدَةٍ لِي مِنْهَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ يُحِبُّهَا، وَلِكِنَّهَا كَانَتْ أَيْبَانًا رَدِيئَةً، وَأُفْرَأُ بِهَا
مَا كَانَتْ تُؤَدِّي نِصْفَ مَا كُنْتُ أَضْمِرُهُ لَهَا مِنْ عَوَاطِفِ الْمِيلِ، وَهَذَا مَا دَعَانِي
إِلَى عَدَمِ اعْتِقَادِ صِحَّةِ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الشَّعْرَ مِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ، كَمَا قَرَأْتَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ
فِي بَيْضِ الْكُتُبِ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ - حَاشَا الْمُصْطَفِينَ مِنَ الْخَلْقِ - أَنْ يُبْعَثَ
عَنْ كُلِّ مَا يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ، وَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ التَّوَابِغِ الْمُتَنَازِلِينَ.

كُنْتُ مِنْ مَسَاعِي فِي التَّقَرُّبِ مِنْ هَذِهِ الْفَتَاةِ وَاقِفًا عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي يَسْتُهُ لَكَ،
قَبْلِي أَنَا فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْأَحَادِ أَجُوبُ الْمُتَنَزِّهِ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ نِسَاءُ الْمَدِينَةِ فِي نَحْوِ
السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ إِذَا بِهَا أَقْبَلَتْ آخِذَةً تَحْوِي فِي حَرْفٍ ^(١) غَطْرِي بَالِي أَوَّلًا أَنْ
أَتَكَبَّ هَذَا الْمَخْرُوفَ بِسُلُوكِ إِحْدَى السُّبُلِ الْمُقَاطِعَةِ لَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يُحِيلُ لِي أَنِّي

سَاصِقُ مِمَّا قَامَ بِنَفْسِي مِنْ ضُرُوبِ الْإِنْفَعَالِ وَالْإِضْطْرَابِ، غَيْرَ أَنِّي تَهْتُّ وَمَشَيْتُ
مِثْلَةَ الْحُنْدِيِّ الْبَاسِلِ الذَّاهِبِ إِلَى حَوْمَةِ الْوَعَى، فَوَازَيْتُهَا فِي بَرَّةٍ بِالْعَةِ مِنَ الرَّوْتِ غَايَتُهُ عَلَى
بَسَاطَتِهَا، وَارْبَاهُ ! تَمْ وَدَدْتُ لَوْ كُنْتُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قُفْزَهَا، أَوْ زَهْرَةً قَلَسُوتَهَا،
أَوْ مَظْلَلَتَهَا، الَّتِي تَقِيهَا حَرَّ الشَّمْسِ ؟ أَقُولُ ذَلِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مِنِّي قِيحًا، وَلَكِنْ
لَا يَنْبَغِي أَنْ أَكْتُمَ عَنْكَ شَيْئًا مِنْ مَوَاضِعِ ضَعْفِي .

فِي اللَّحْظِ خَاصَّةً الْحَذَبِ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ مِنْ لَحْظِي إِذَا رَنَوْتُ إِلَيْهَا أَنَّ كُلَّ
إِقْرَارٍ وَتَصْرِيحٍ بِالْحُبِّ ، وَلَمَّا مَرَّ كُلُّ مِتَا حِدَاءٍ صَاحِبِهِ، جَرَى عَلَى وَجْهِهِ لَأَلَاءُ^(١)
حُسْنِهَا كَمَا يَجْرِي لَمَعَانُ الْبَرَقِ، وَلَمْ أَجْسُرْ عَلَى الْإِنْتِقَاطِ خَلْفِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَاوَزْتُهَا
بِثَلَاثِينَ خُطْوَةً . فَرَأَيْتُهَا قَدْ بَعْدَتْ عَنِّي مَهْرُولَةً، غَيْرَ أَنِّي بَصُرْتُ فِي الْمَسَافَةِ الَّتِي بَيْنِي
وَبَيْنَهَا نَيْسًا أَقْبَصَ يَحْفِقُ خُفُوقَ جَنَاحِ الْحَمَامَةِ مِنْ صَفْقِ الرِّيحِ إِيَّاهُ، فَمَا تَرَيْتُ
فِي التَّقَاطُطِ . فَإِذَا هُوَ مَنْدِيلُهَا، قَدْ سَقَطَ مِنْهَا . . . أَوْ تَعَمَّدَتْ إِسْقَاطَهُ، فَعَدَوْتُ
خَلْفَهَا، وَدَفَعْتُهُ إِلَيْهَا فَأَظْهَرَتِ الدَّهْشَ مِنْ ضِيَاعِهِ، وَتَلَطَّفَتْ فِي إِسْدَائِي الشُّكْرَ عَلَى
رَدِّهِ، وَرَاقَنِي أَنْ سَمِعْتُهَا تُحْسِنُ التَّكَلَّمَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ، فَلَاحَ فِي ذَهْنِي أَنَّ أَعْرَفَهَا أَنِّي صَاحِبُ
الشَّمْرِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ مِنْ شِدَّةِ الْإِضْطْرَابِ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى نَفْسِي
يَحِثُّ لَمْ أَسْطِغْ تَحْرِيكَ شَفْقِي بِكَلِمَةٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ حِسْبَتِي أَبْلَهُ .

يَزْعُمُ الْعَارِفُونَ تَرْكِيبَ الْحَيَوَانِ وَمَنَافِعَ أَعْضَائِهِ أَنَّ الذَّاكِرَةَ لَا تَحْفَظُ الرُّوَاقِعَ^(٢)
وَعُدْرَهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَجُودُوا فِي حَيَاتِهِمْ، فَإِنَّ مَنْدِيلَهَا وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّسِيجِ الْبَاسِطِ

(١) اللآلأ الضوء والمعان .

(٢) الباسط نسبة الى باسط وهو أول مانع لهذا النسج .

الرَّقِيقُ كَانَ يَتَضَوَّعُ عَنْ عَطِيرِ لَطِيفٍ لَنْ أَنْسَاهُ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي
 لِهَذَا اللَّقَاءِ انْطَلَقْتُ إِلَى مَا حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الرَّبِيِّ الزَّاهِرَةِ فَجَنَيْتُ بَاقَةً مِنَ الْأُطْفِ
 مَا وَجَدْتُهُ مِنَ الزُّهُورِ الْبَرِّيَّةِ وَأَدَلَمَّا عَلَى الْعَفَافِ ، وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ التَّمَثِيلِ خَبَأْتُهَا
 فِي قَلَنْسَوِي الْمَدْرَسِيَّةِ ، وَأَخَذْتُ بِجُلُوسِي فِي الْمَلْعَبِ ، فَفَنَنْتُ كَمَا دَتَهَا بِصَوْتٍ يَسْمُو
 بِسَامِعِيهِ إِلَى السَّحَابِ ، وَلَكِنْ كَانَ يُحِيلُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَرْءَةَ الَّتِي لَا قِيَّتَهَا فِي الطَّرِيقِ
 أَمْسَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَكْمَلَ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإِنْ كَانَ اسْتِعْدَادُهَا لِلتَّغْنَةِ مَشَارًا لِلْإِعْجَابِ .
 وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ مِنْ غَنَائِهَا وَانْصَرَفَتْ اسْتِعَادَهَا جَمِيعُ السَّامِعِينَ ، فَهَاطَلَتْ حَوْلَهَا بَاقَاتُ
 الزُّهْرِ مِنْ غُرَفِ الْمَلْعَبِ وَالْكَرَاسِي الْمُقَابِلَةِ لِإِحَاتِهِ ، وَأَنَّ لِي أَنْ أَلْقِيَ إِلَيْهَا بَاقِيَّ ،
 فَاهْتَمَمْتُ غَايَةَ الْإِهْتِمَامِ بِأَنْ تُبَصِّرَنِي عِنْدَ انْقِائِثِهَا ، مَعَ تَطَاهُرِي بِالْإِخْتِفَاءِ خَلْفَ
 حِجْرَانِي ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا فَهَلْتُهُ حِينَئِذٍ ؟ أَقَدْ أَهْمَلْتُ كُلَّ مَا أَلْقَاهُ غَيْرِي مِنَ الْأَزْهَارِ
 النَّادِرَةِ بِمِثْلِ زَهْرِ الْكَامِلِيَّةِ وَزَهْرِ التِّينِ الْهِنْدِيِّ وَالْوَرْدِ ذِي الْأَشْنَةِ ، وَعَدَدْتُ إِلَى
 بَاقِيِ الْحَقِيرَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ أَزْهَارِ بَرِّيَّةٍ فَتَنَّاوَلْتُهَا وَصَمَّمْتُهَا إِلَى قَلْبِيهَا ، أَفَلَا تَرَى فِي ذَلِكَ
 بُرْهَانًا عَلَى حُبِّي لِي ؟

سَقُولِينَ لِي : أَنْتَ لَا تَعْرِفُهَا ، وَقَدْ تَكُونُ مُحَالِفَةً تَمَامَ الْمُخَالَفَةِ لِمَا تَحْيِيهِ مِنْهَا ،
 وَإِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَكَ قَبْلَ أَنْ تُعَلَّلَ نَفْسَكَ بِالْأَمَانِيِّ وَالْأَوْهَامِ أَنْ تَكُونَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ
 أَخْلَاقِهَا ، وَكَيْفِيَّةِ مَعِيشَتِهَا ، فَأُجِيبُكَ : إِنَّ هَذَا أَيْضًا لَمْ يَفْتِنِي ، وَأَقْرُبُ بَأَنِّي لَمْ أَقِفْ مِنْ

(١) يتضوع يشرك فيقتصر منه الطر .

(٢) الربيع رطوبة وهي ما ارتفع من الأرض .

(٣) الكاملية : زهرة يابانية جلبها الى اوردية مرسل دني اسمه كاملي فنسبت اليه .

تَحَرَّى سِيرَتَهَا إِلَّا عَلَى أَخْبَارٍ لَا يَزَالُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الضُّمُوضِ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ لَدَى فِي هَذَا
 الصَّدِّ إِلَّا أَقْوَالٌ فِي غَايَةِ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ، فَانَّتِ تَعْلِيمِينَ مِقْدَارَ مَا لِلشُّبَّانِ فِيهَا
 بَيْنَهُمْ مِنَ الْقِسْوَةِ عَلَى النَّسَاءِ، وَلَا سِيَّامَا الْمُثَلَّاتُ، فَقَدْ بَلَغَ الْحَسَدُ مِنْ إِفْسَادِ خُلُقِ
 الْإِنْسَانِ إِلَى حَدٍّ أَنْ جَعَلَ مِنْ لَذَائِهِ تَمْزِيقَ أَعْرَاضِهِنَّ، مَعَ مَا لَمْ يَنْجُ مِنَ الْمَلَكَاتِ الَّتِي
 هِيَ مَبَاطُ الْأَسْتِحْصَانِ الْعَامِّ، وَلَسْتُ بِمُخْفِيفٍ عَلَيْكَ شَيْئًا يُمْمًا يَقُولُونَ، فَبَعْضُهُمْ يَنْسُبُ
 لَهَا مِنْ هِنَاتِ الشَّبَابِ مَا يُغَيِّرُ دَمِي وَيُثِيرُ غَضَبِي، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا تَعِيشُ مَعَ أُمِّهَا
 فِي حَيٍّ مُنْعَزِلٍ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ أَرَانِي الطَّلَبَةَ هَذِهِ الْأُمُّ تَصْغُبُهَا لَيْلًا عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ
 الْمَلْعَبِ فَلَمْ أَجِدْ بَيْنَهُمَا مُشَابَهَةً مَّا، وَإِنْ أَرَدْتِ الْوُقُوفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ نَعْتِهَا، فَتَخَلِّي
 أَمْرًا هَظْمَةً مِنْ عَامَّةِ النَّسَاءِ قَدْ ذَرَّ شَارِبَهَا، وَإِنِّي لَمُتَّالِمٌ مِنْ تَصَوُّرِ أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ
 الزُّهْرَةِ قَدْ نَبَتَتْ مِنْ هَذِهِ الْمُدْرَةِ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ وَضَاعَةٍ أَصِيلَ تِلْكَ الْجَارِيَةِ،
 فَيَنْ الْقَضِيلِ أَنْ تُعَامَلَ بِجَمِيعِ مَا يَجِبُ لِفَتَاةٍ مُخْلِصَةٍ مِثْلَهَا مِنْ صُنُوفِ الرَّعَايَةِ
 وَالتَّكْرِيمِ .

عَلَى أَنَّنَا إِنْ سَلَّمْنَا حُصُولَ أَسْوَأِ مَا يَتَأَمَّلُ فِي حُصُولِهِ مِنْهَا، وَفَرَضْنَا أَنَّ سِيرَتَهَا
 لَمْ تَكُنْ دَائِمًا مَرْضِيَّةً، أَفَلَا يَكُونُ الذَّنْبُ فِي ذَلِكَ عَلَى مِهْنَتِهَا، وَعَلَى مَنْ يُعَاشِرُونَهَا
 مِنَ النَّاسِ؟ إِنِّي أَرَاهَا بِالْفَسَادِ مِنَ الظَّرْفِ وَالْيَكِاسَةِ مَبْلَغًا أَسْتَبْعِدُ مَعَهُ أَنْ لَا تَكُونَ
 لَهَا نَفْسٌ زَكِيَّةٌ، وَرُبَّمَا لَمْ يَتَّفِقْ لَهَا فِي حَيَاتِهَا أَنْ تَمَثَّلَ لَهَا الْحُبُّ الصَّحِيحُ الْمُطَهَّرُ
 لِلنَّفْسِ بَشَرًا فَاضِلًا كَرِيمًا. وَأَرَبَاهُ! أَيُّ تَغْيِيرٍ أَتَاهُ لَوْ أُتْبِعَ لِي أَنْ أُمْدِدَ يَدِي إِلَى تِلْكَ

(١) هِنَاتِ الشَّبَابِ الْأَصَالُ الْمَوْجِبَةُ الرُّومِ الَّتِي تَحْصُلُ فِيهِ .

(٢) يَغْيِرُ بِجَمَلِهِ يَغُورُ . (٣) ذَرَّ شَارِبَهَا طَلَعَ شَمْرُوقَ شَفَتِهَا الْبَلِيَا .

الرُّوحَ الْمَلَكِيَّةَ ، فَاتَّانَسَهَا مِنْ دَرَكِ الْإِنْحِطَاطِ الَّذِي هَبَطَتْ فِيهِ ، تَعُودَ إِلَى نُورِ
الْهُدَى وَالْفَضِيلَةِ .

هَآ أَنَا ذَا قَدْ كَشَفْتُ لَكَ مَكُونَ سِرِّي ، وَتَجَوَّتُ بِهَذَا الْإِعْرَافِ مِنْ شَدِيدِ
زَجْرِ سِرِّي ، وَالْآنَ أَقْعُ بَيْنَ يَدَيْكَ رَاجِيًا مِنْكَ غُفْرَانَ خَطِيئَتِي .

الرسالة الرابعة

(مِنْ مِيلَانَةِ إِلَى وَلَدِهَا)

عن لندرة في ٢٣ مايو سنة ١٨٦

فِي بَيَانِ وَجُوبِ عَدَمِ تَدَاخُلِ الْوَالِدَيْنِ فِي حُبِّ وَلَدِهِمَا
وَتَلَطُّفِ الْأُمِّ فِي نَصِيحِهِ وَبَيَانِ انْخِدَاعِهِ

لَقَدْ رَافَقَنِي مِنْكَ يَا بَنِي الْعَزِيزِ صَرَاحُكَ ، وَمُوَافَقَةُ سِرِّكَ لِعَلَانِيَتِكَ ، وَإِنِّي مُجَنَّبَةٌ
كُلَّ الْاجْتِنَابِ مُمَارَاحَتِكَ فِي غَانِيَتِكَ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا أَمَانِيَتُكَ ، وَمَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ مَا قَصَصْتُهُ
عَلَيَّ فِي شَأْنِهَا لَا يَحُلُومِنْ أُمُورٍ تَدْعُونِي إِلَى التَّفَكُّرِ ، وَيُبَيِّحُ لِي أَنْ أَنْبَهَكَ فِي أَمْرِهَا
إِلَى تَفَاصِيلِ إِخْلَافِ مُرِيَّةٍ ، أُنْحَايَ أَنْ أُجَرِّدَ تِلْكَ الْأَمَانِيَّ مِنْ زُهُورِهَا وَأَعْرِضَ بِهَا
مِنْ رُؤَايَاهَا ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَذْكُرَ أَنَّكَ شَابٌّ غَرٌّ ، لَمْ تَحْتَرِّ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ،
وَأَنَّكَ وَأَسْفَى ! - لَمُرْعَانِ مَا تَعْلَمُ أَنْ لَا تَقْدَرُ بِالظُّوَاهِرِ ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ
فِي ذَلِكَ خَسَارًا عَلَيْكَ .

قَدْ تَمَاهَدْتُ أَنَا وَأَبُوكَ عَلَى عَدَمِ التَّدَاخُلِ فِي مَحَبَّتِكَ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ،
فَأَنْتَ حِينَئِذٍ آمِنٌ ضُرُوبَ عَذْلٍ وَتَأْيِيٍّ ، وَلَكِنَّكَ بِمَا صِرْتَ وَلِيَّ نَفْسِكَ مَسْئُولٌ
عَنْ جَمِيعٍ مَا يَقْتَرِفُهُ قَلْبُكَ فِي سَبِيلِ الْحُبِّ مِنَ الْأَثَامِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ مَنْ هُوَ فِي مِثْلِ
سِنِّكَ يَكُونُ شَدِيدَ الْإِرْتِيَاحِ إِلَى الْإِفْتِرَارِ وَالْإِنْخِدَاعِ ، فَكَمْ مِنْ شَابٍ يَحْسُبُ
مَنْ الْحُبِّ ، أَلَيْسَ هُوَ إِلَّا اضْطِرَابًا فِي مَشَاعِيرِهِ ، وَسَرَابًا يَتَوَلَّى لِحَوَاسِهِ ، لِأَنَّ
الْحُبَّ الصَّحِيحَ هُوَ الْإِسْتِيلَاءُ عَلَى نَفْسِ الْمَحْبُوبِ ، وَلَا يُلْفَهُ إِلَّا مَنْ كَانَ حَقِيقًا
بِهِ وَأَهْلًا لَهُ .

لَمْ يَلْقَ بِنَفْسِي أَدْنَى أَثَرٍ مِمَّا لِلنَّاسِ فِي الْمُثَلَّلَاتِ مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَإِنَّهُمْ لَطَّالِمُونَ
فِي حُكْمِهِمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَحَاشَا أَنْ أَحْكَمَ عَلَى تِلْكَ الْقَيْنَةِ الَّتِي فَتَنَتْكَ بِمَحَاسِنِهَا
وَأَنَا لَا أَعْرِفُهَا ، وَإِنَّمَا أَنْبَهَكَ إِلَى أَنَّكَ لَيْسَ لَكَ حَتَّى الْآنَ أَدْنَى وَجْهِ صَحِيحٍ فِي أَنْ
تَسْتَنْجِ مِنْ بَعْضِ أَحْوَالِهَا مَعَكَ أَنَّهَا تُفْضِلُكَ عَلَى غَيْرِكَ مِنْ عِبَادِهَا ، فَمِنْ غُرُورِ
الشَّبَابِ أَنْ يَتَقَدَّروا أَنَّهُمْ مَحْبُوبُونَ لِأَنَّهُمْ مُحِبُّونَ ، عَلَى أَنَّي أُسَلِّمُ لَكَ أَنَّ قَلْبَهَا مَلَبَّ
لِعَوَاطِفِكَ ، فَالَّذِي تَعْرِفُهُ مِنْهَا ، وَالَّذِي تَتَأَسَّسُهُ مِنْ وَرَاءِ حُبِّهَا ، لَيْسَ مِنَ الْخَصَائِصِ
الْمَقُومَةِ لِلْمَرْأَةِ فِي شَيْءٍ ، لِأَنَّكَ إِذَا تَعَشَّقْتُ مِنْهَا تَغْنِيهَا وَحُسْنَهَا وَدَعَابَتَهَا ، وَهِيَ
مَرَايَا تَسْتَفِيدُ الْعَامَّةُ مِنْهَا أَكْثَرِمًا يَسْتَفِيدُهُ الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ تَصِيرُ صَاحِبَةً لَهُ ،
فَهَلْ تَدْرِي مَا يَتَّقِي لِتَمْتَلِكِ حُبَّكَ الَّذِي تَقْبَلُهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ ، إِذَا زَالَ عَنْهُ زُخْرُفُ
الْمَلَبِّ وَرَوْقُهُ وَغُرُورُ الْعِشْقِ وَخَدَعُهُ ؟ .

(١) السراب ما يرى كالماء في نصف النهار وقت اشتداد الحر .

(٢) دعابتها لعباً ومزاحها .

أَنْتَ نَفْسُكَ - فِيمَا يَظْهَرُ لِي - مُرْتَابٌ مِنْ مَاضِي سِيرَتِي، لِأَنَّكَ تَتَمَتَّى
 لَوْ أُتِيحَ لَكَ إِتْقَانُهَا مِنَ الدَّرَكِ الَّذِي هِيَ فِيهِ، وَهِيَ فِكْرَةٌ كَرِيمَةٌ جَمَلَهَا أَدْبَاءُ الْعَصْرِ
 بِدَعَةٍ مِنَ الْبَدْعِ، وَمَعَادَ اللَّهِ صَيَانَةٌ لَشَرَفِ الْمَرْأَةِ نَفْسِهَا أَنْ أَعْتَقَدَ أَنَّ ذُنُوبَهَا
 لَا تُكَفِّرُ، بَلْ أَسْلَمَ مَا قُلْتُهُ مِنْ أَنَّ الْحُبَّ قَدْ يَمْحُو بَعْضَ الْأَذْنَانِ، وَلَكِنَّا لَا نَعْلَمُ
 كَثِيرًا مِنْ أَمْثَالِ النِّسَاءِ اللَّاتِي أَبْنَ^(٢) إِلَى الرُّشْدِ بَعْدَ النِّقَى، ثُمَّ إِنِّي لَا أَظُنُّكَ فَكَّرْتَ
 فِيمَا يَتَرَضُّ مَقْصِدَكَ الدَّالُّ عَلَى الْبَسَالَةِ مِنَ الصُّعُوبَاتِ وَالْعَوَاقِبِ، فَإِنَّ إِتْقَانَ
 الْخَاطِطَاتِ الَّذِي يُحَسِّنُ الطِّيشَ لِبَعْضِ الشُّبَّانِ الْأَغْرَارِ أَنْ يَدْعُوهُ لَا نَفْسِهِمْ، بِإِلَابَتِهِ
 فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ مِنَ الْكِبَرِ وَالْعَجَبِ أَكْثَرُ مِمَّا يُصَاحِبُهُ مِنَ الْإِحْلَاصِ الْحَقِيقِيِّ،
 فَكَأَنَّهُمْ يَهْدُوْنَ هَذَا يَتَقَدُّونَ أَنَّ مَلَائِكَةَ الْعِشْقِ اللَّاتِي أُهْطِنَ إِلَى حَضِيضِ الرِّذِيلَةِ لَيْسَ
 لَهُنَّ مِنَ الصِّلَفِ وَالْإِبَاءِ مِثْلُ مَا لَهُمْ .

إِنْ مَنْ يُجَاوِلُ ذَلِكَ الْعَمَلَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَالِغًا مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ وَلُطْفِ الذُّوقِ
 مَبْلَغًا عَظِيمًا، يَسْمُو بِهِ عَنِ الْقَضِّ مِنَ الْمَرْأَةِ الْخَاطِطَةِ وَإِذْلَالَهَا، ثُمَّ هَلْ أَنْتِ فِي سِنِّكَ
 هَذِهِ تَأْسُ مِنْ نَفْسِكَ قُوَّةً وَإِقْدَامًا عَلَى كِتْمَانِ الْقِيَرَةِ؟ فَإِنَّهَا تَبْكِيكَ وَمُواخَذَةُ الْمَرْأَةِ
 الَّتِي لَمْ تَكُنْ طَوْلَ حَيَاتِهَا عَظِيمَةً، وَهَلْ لَكَ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى نَفْسِكَ مَا يَكْفِي لِإِخْفَاءِ
 مَا يَكُونُ فِي مُعْظَمِ الْأَحْيَانِ مَثَارًا لِلرِّيْسَةِ مِنْكَ . وَهُوَ تَدَمُّكَ عَلَى إِجْلَالِكَ لِمِثْلِ تِلْكَ
 الْمَرْأَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَا يُسْمَحُ بِهِ عَادَةً إِلَّا لِلزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ ؟ فَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَسْتَخِذْ

(١) أُتِيحَ : قَدِرَ . (٢) ابْنِ رَجُلَيْنِ .

(٣) الحَضِيضُ القَرَارُ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ مَقْطَعِ الْجَبَلِ وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا السَّفَالَةُ وَالْهَانَةُ .

(٤) الْقَضُّ الْإِتْقَانُ .

هَذِهِ الصَّفَاتِ ، فَخَلَّ الْجِهَادَ عَنْكَ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ وَرَائِهِ إِلَّا زِيَادَةٌ مِنْ تَرْغَمِ
إِنْقَادَهَا خُسْرًا .

مِنَ الْأَمْهَاتِ مَنْ يَكْتُبُنِ لِابْنَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ عَلَى أَشْلُوبٍ مُغَايِرٍ لِهَذَا
تَمَامِ الْمُغَايِرَةِ ، فَقَدْ يُؤَنِّبُهُنَّ وَيَحْتَشِدُنَّ فِي تَحْوِيلِهِنَّ مِنْ عَوَاقِبِ طَيْشِهِمْ ، وَغَيْرِ الْأَمْهَاتِ
رُبَّمَا لَا يَرَيْنَ فِي كُلِّ هَذَا إِلَّا مُقَدِّمَةً لَوَاقِعَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ الشَّائِعِ حُصُولُهَا بَيْنَ
الشُّبَّانِ ، وَهَفْوَةٍ عَادِيَةٍ مِنْ هَفَوَاتِ الطَّلَبَةِ ، وَرُبَّمَا قَانَ فَوْقَ ذَلِكَ وَهَنْ مُبْتَسِمَاتٍ :
تَهْوِينًا ، تَهْوِينًا ، فَمِنْ الْوَاجِبِ إِقَالَةُ عَثَرَاتِ الشُّبَّانِ . وَأَمَّا أَنَا فَاعْلَمْ أَنَّكَ جَادٌ فِيمَا كَتَبْتَ
وَالْأَمَّا أَفْضَيْتَ إِلَى سِرِّكَ ، وَلِهَذَا أَجَبْتُكَ بِالْحَدِّ ، وَلَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ خُدْعَةً لِي فِي خِيَالِكَ مِنَ التَّوَقُّدِ الَّذِي هُوَ مِنْ لَوَازِمِ سِنِّكَ ، وَمِنْ الْعَبَثِ
الْقَوْلُ بِالتَّسَامُحِ فِي أَمْرِ الْحُبِّ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ يَسْلُمُ عَلَيْهِ بِالِاسْتِخْفَافِ بِهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا
لَمْ يَرْفَعْ النَّفْسَ وَزَكَّيَهَا ، فَإِنَّهُ يَسْقُلُهَا وَيُدْسِيهَا ، وَحَسْبِيَ مَا قُلْتُهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ،
فَلَا أَرِيدُكَ عَلَيْهِ شَيْئًا .

جَاءَتْنَا أَخْبَارُ مِنَ الْبُيُوتِ ، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْنَا قَوِيْدُونَ وَجُورِجِيَّةٌ بِأَنَّهُمَا يَدْكُرَانِكَ
أَنْتَ وَ «لَوْلَا» ذِكْرًا كَثِيرًا .

وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَهُ أَيْضًا أَنَّ «لَوْلَا» تُفَكَّرُ فِي اخْتِيَارِ مِهْنَةٍ لَهَا ، فَقَدْ قَالَتْ
لِي مِنْ أَيَّامٍ مَضَتْ «أُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ حِرْفَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ ...» وَمَا عَتَمْتُ أَنْ قَرِئْتُ
إِلَى مُجَرَّتِهَا قَبْلَ أَنْ تُتِمَّ كَلَامُهَا ، وَقَدْ احْمَرَّتْ وَجْهَهَا تَحْجَلًا .

(٢) يَدْسِيهَا : يَتَوَيَّا وَيُدْسِيهَا .

(١) يَسْلُمُ عَلَيْهِ : يَبْغِيهِ .

(٣) حَسَتْ : لَبِثَتْ وَتَنَبَّهَتْ .

وَأَرَانِي أَدْرَكْتُ مُرَادَهَا ، وَهُوَ أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي لَا مَالَ لَهَا وَلَا حِرْفَةً لَيْسَتْ حُرَّةً ،
فَإِذَا تَزَوَّجَتْ فَلَمَّا تَخَرَّجَ فِي الْغَالِبِ مَقَامَ زَوْجِهَا وَمَكَاتَهُ ، وَ « لَوْلَا » لِعِزَّةٍ فَيَسْهُا
وَأَبَانَهَا تَتَنَمَّرُ مِنْ هَذَا الْإِحْتِيَاجِ وَلَا تَرْضَى الْإِسْتِكَانَةَ لَهُ ، فَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ
يَوْمًا مَا لِمَنْ يَرْوُقُهَا مِنَ النَّاسِ : إِنَّ فِي اسْتَطَاعَتِي أَنْ أَعِيشَ بِعَمَلِي ، وَإِنِّي إِذَا أَخْلَصْتُ
فِي تَحْصِيلِ الْإِغْتَابِ وَالسَّعَادَةِ لَكَ فَتِلْكَ لِأَنِّي أُحِبُّكَ .

اَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ يَا بَنِي الْعَزِيزِ وَأَوْسَعُ صَدْرِي عَلَى الدَّوَامِ لَتَلْقَى أَسْرَارَكَ وَمُشَارِكَكَ
فِي الْأَمِكِ ، وَأَبْعَثُ لَكَ فِي هَذَا قُبْلَةَ الْحُبِّ الَّتِي لَا يَتَغَيَّرُ ، أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ الَّذِي
لَكَ فِي قَلْبِ أُمِّكَ . ١١

الرسالة الخامسة

مِنْ «إِمِيل» إِلَى أَبِيهِ
الْمَدْرَسَةُ الْجَامِعَةُ

في ١٠ يولييه سنة ١٨٦٠

كَفَّنْتَنِي أَنْ أَجْعَلَكَ عَلَى عِلْمٍ بِدُرُوسِي ، فَمُؤَاظَةً لِرَغْبَتِكَ أَقُولُ : الْجَامِعَةُ الَّتِي أَخْتَلِفُ
إِلَيْهَا بِنَاءً فِي غَايَةِ الْحِدَّةِ ، وَتَفْتَحُ قَاعَاتُهَا لِلتَّدْرِيسِ فِي فَضْلِ الصَّيْفِ مِنَ السَّاعَةِ
السَّاعَةِ صَبَاحًا إِلَى السَّاعَةِ الْأُولَى بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَمِنَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَهُ إِلَى السَّاعَةِ

(١) لِيَتَأَمَّلَ الشَّبَابُ وَالْمُسْتَغْفِلُونَ بِالتَّرْبِيَةِ فِيَا احْتَوَاهُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ الْقِيَمَةُ مِنَ الْأَدَابِ الرَّائِعَةِ وَالْعُلُطَاتِ
الرَّشِيدَةِ وَحَسَنِ الطَّلُفِ فِي بَيَانِ خَدَعِ الْحُبِّ الْمُنْصِ وَالنَّبِيهِ إِلَى الْإِحْسَاسِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي حِبَالِهِ ، وَمِنْ لَنَا
بِأَهْمَاتِ كَهَذِهِ الْأُمِّ الْحَكِيمَةِ الْبَارَةِ بَوْلَهُمَا فِي حَزْنِهَا وَسِدَادِ رَأْيِهَا — الْمُرْتَجِمُ .
(٢) اخْتَلَفَ : سَبَقَ تَهْنِئَتُهَا .

السَّادِسَةِ، وَتَقْسِمُ دُرُوسُ الْأَسَانِدَةِ فِيهَا إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، فَلأَوَّلَى تُلْقَى بِالضَّرُورَةِ مَجْمَعًا، وَيَدْفَعُ الطَّلَبَةُ فِي مُقَابِلِ تَلْقَى الثَّانِيَةِ « فِرِيدريكسن » ذَهَابًا (٥٠ فرنك) كُلِّ سَنَةٍ أَشْهُرًا، وَتَقْسِمُ جَامِعَةُ « بن » مِثْلَ كُلِّ الْجَامِعَاتِ فِي أَلْمَانِيَةِ إِلَى أَرْبَعِ مَدَارِسَ اخْتِيَارِيَّةٍ، إِحْدَاهَا لِلْقَوَانِينِ، وَالثَّانِيَةُ لِلْحِكْمَةِ، وَالثَّالِثَةُ لِلطَّبِّ، وَالرَّابِعَةُ لِلْإِلَهِيَّاتِ، وَيَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مَنْ هَذِهِ الْمَدَارِسِ الْأَرْبَعِ فُرُوعٌ مُخْتَلِفَةٌ يَدْرُسُهَا فِيهَا رِجَالٌ اخْتِصَّاصِيُونَ فِيهَا .

الْجَامِعَةُ تُحَلِّي بَيْنَنَا وَبَيْنَ حُرِّيَةِ التَّصَرُّفِ فِي وَقْتِنَا، إِمَّا بِإِضَاعَتِهِ أَوْ بِالِانْتِفَاعِ بِهِ، لِأَنِّي لَا أَرَى لِأَحَدٍ مِنْهَا أَدْنَى تَفْتِيْشٍ وَلَا أَقَلَّ هِمْمَةٍ عَلَيْنَا فِي سِيرَتِنَا، عَلَى أَنِّي أَعْتَقِدُ مَا قُلْتُهُ لِي كَثِيرًا مِنْ أَنَّ النِّظَامَ التَّادِيْبِيَّ النَّاجِعَ هُوَ مَا يَفْرِضُهُ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَلْتَزِمُ اتِّبَاعَهُ .

لَا مِرَاءَ فِي أَنَّ أَسَانِدَةَ جَامِعَتِنَا مُضْطَلَّعُونَ مِنَ الْعُلُومِ، غَيْرَ أَنِّي كَثِيرًا مَا شَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَتَّبَعَ سِلْسِلَةَ أَفْكَارِهِمْ فِي الدُّرُوسِ، لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَفْكَارَ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهَا وَاصِحَّةً، وَثَانِيَهُمَا أَنِّي لِقَلَّةِ تَعَوُّدِي تَصْوِيرِ فِكْرِي بِالْأَلْمَانِيَةِ حَتَّى الْآنَ، أَجِدُ مِنَ الصُّعُوبَةِ فِي فَهْمِ تِلْكَ الْأَفْكَارِ أَكْثَرًا مِمَّا يَجِدُهُ غَيْرِي مِنَ الْمُتَعَوِّدِينَ . وَيَدْهَشُنِي مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ عَلَى مَوْجِ مَكَاتِبِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَبَعْدَ صَبْتِهِمْ، مَقْبُورُونَ فِي أَجْرِ عَمَلِهِمْ، إِذَا اسْتَدْلَّتْ عَلَى هَذَا بِمَا يَبْدُو عَلَيْهِمْ مِنْ رِقَّةٍ الْحَالِ، (٢) وَبِقَنَاعَتِهِمْ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَيْشِ، وَرِثَانَةِ مَلْبَسِهِمْ (٣) الَّذِي يَكَادُ يَكُونُ وَجِيحًا . وَفَقْرُهُمْ

(١) الهيمّة : الرقابة . (٢) رقة الحال قلة المال . (٣) رثانة ملبسهم أى بلاها وخلقتها .

هَذَا يُؤَلِّمُنِي وَيَزِيدُهُمْ فِي نَفْسِي إِجْلَالًا عَلَى إِجْلَالِهِمُ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ مَعَارِفُهُمْ،
فَأُولَئِكَ رِجَالٌ يُحِبُّونَ الْعِلْمَ لَا لِكَسْبِ الْمَالِ، وَلَا لِتَمَتُّعِ بِالْخَطَايَا، وَإِنَّمَا يُحِبُّونَهُ
لِمَا يَحْصِلُهُ لِّلْعَقْلِ مِنْ لَذَائِهِ وَضُرُوبِ اغْتِيَاظِهِ ^(١) .

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَ الْمُدَرِّسِينَ يَرْتَجِلُونَ الدُّرُوسَ مُطِيعِينَ فِيهَا ، وَبَعْضُهُمْ وَم
أَلَّا كَثُرُونَ يَأْتُونَ بِهَا مَكْتُوبَةً فَيَقْرَئُونَهَا عَلَى الطَّلَبَةِ ، وَهَؤُلَاءِ يُصْغَوْنَ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِمْ
وَيَكْتُبُونَ مَا يُمْلَقُونَ مِنْهُ ، وَقَدْ وَضَعْتُ لِنَفْسِي نَمَطًا فِي اخْتِرَالِ الْكُتَابَةِ ، وَهُوَ وَإِنْ
كُنْتُ لَا أَشْكُ فِي قُصُورِهِ لِأَوَّلِيَّتِهِ ، يُمَكِّنُنِي مِنْ إِثْبَاتِ الْحُدُودِ الْأَسَاسِيَّةِ لِمَا أَسْمَعُهُ
مِنَ الْجَمَلِ .

يَنْقَسِمُ الطَّلَبَةُ بِاخْتِيَارِ مَذَاهِبِهِمْ إِلَى كَاثُولِيكِيِّينَ ، وَبُرُوسْتَانْتِيِّينَ مُتَشَدِّدِينَ ، يُعَدُّ^د
بَعْضُهُمْ نَفْسَهُ لِلْأَعْمَالِ الْخَطَايَايَةِ ، وَحُكَّاءَ يَحْتَمِدُونَ فِي تَأْوِيلِ الْمَذَاهِبِ تَأْوِيلًا
مُطَابِقًا لِلْعَقْلِ ، وَهَادِدِينَ وَمُحِبِّينَ ، يُصْرِحُونَ بِأَنَّ زَمَنَ الدِّيَانَاتِ قَدِ انْقَضَى ، وَأَنَّهُ
لَا يَنْبَغِي إِضَاعَةُ الْوَقْتِ فِي الْعُكُوفِ عَلَى مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ مِنْ هَوَاجِسِ الْقُرُونِ
الْوُسْطَى وَأَحْلَامِهَا .

رَأَيْتُكَ دَائِمًا تَجْتَنِبُ الْخَوْصَ مَعِيَ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْأَسْرَارِ الدِّيْنِيَّةِ ، وَأَسْتَنْجِدُ
مِنْ سَكُونِكَ عَنْهَا أَتَكَ قَصَدْتَ مِنِّي الْإِسْتِقْلَالَ يَنْقُصِي فِي الْإِعْتِدَادِ ، وَلَقَدْ حَمَلْتَنِي

(١) كذلك كان شأن العلماء وطلاب العلم عندنا في الأيام الخالية ، كما تشهد به آثارهم وما حفظته لهم
التاريخ من سيرهم المحبودة ، وقد خلف من بعدهم خلف لا يعطون العلم إلا بمقدار ما يبالون به ورقة قليلة
الفائدة تسمى شهادة يبالون بها قوتهم من الحكومة ثم تنقطع صلحتهم به فيحرمون فطوره الشبهة ولذاته العقلية
وهذا هو السرف في نزوب العلم واقطاع التبوغ فيه المرحم .

عَظِيمًا، فَأَتَى حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنْ مَعْرِفَةِ مَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ فِكْرِي فِي كَثِيرٍ
 مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي تُرْجَفُنِي مُحَاوَلَةً سَبْرٍ غَوْرَهَا ، عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِقْرَارِ لَكَ يَا نَبِيَّ
 لَسْتُ مُطَرِّحًا هَذِهِ الطَّائِفَةَ مِنَ الْأَفْكَارِ ، وَلَا مُغْفِلًا لَهَا ، فَكُنْ مِنْ مَرَّةٍ نَظَرْتُ إِلَى
 السَّمَاءِ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ ، وَحَاوَلْتُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّي وَجْهِي أَنْ أَقْرَأَ فِي نُجُومِهَا حَلًّا لِلْغُزْرِ
 هَذَا الْعَالَمِ ، وَإِنِّي مِنْذُ الْيَوْمِ الَّذِي شَهِدْتُ فِيهِ إِقْنَاءَ جُنَّةِ الْمَلَاحِ فِي الْبَحْرِ —
 وَإِخَالَاكَ تَذَكُّرُهُ — لَا يَتَفَكَّرُ عَنِّي التَّفَكِيرُ فِي سِرِّ الْمَوْتِ حَتَّى فِي أَحْلَامِي ، وَقَدْ
 سَأَلْتُ الْقُبُورَ أَنْ تَكْشِفَهُ لِي فَلَمْ تُجِبْ جَوَابًا ، فَعَمَدْتُ مِنْ عَهْدِ دُخُولِي الْجَمَاعَةِ إِلَى
 مُطَالَعَةِ تَرْجَمَةِ الْفَيْدَا الْأَلْمَانِيَّةِ وَالزُّنْدَاوِيَسْتَا وَالتَّوْرَةِ فَأَثَرَتْ قِرَاءَتُهَا فِي نَفْسِي
 تَأْثِيرًا بَلِيغًا ، وَكَانَ يَتَرَأَى لِي مِنْهَا عَالَمٌ جَدِيدٌ ، وَلَكِنْ مِنْ خِلَالِ ظُلُمَاتٍ لَا تَسْعُنِي
 إِلَّا الْأَقْرَارُ بِأَنَّهَا لَمْ تَقْشَعْ ، وَلَسْتُ أَدْرِي أَعْيِيفُ عَلَى دِرَاسَةِ هَذِهِ الْكُتُبِ
 أَمْ أَعْيِلُ عَنْ إِمَاطَةِ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ عَمَّا لَا يَنْتَاهِي ، فَلَا أَشْتَغِلُ إِلَّا بِمَا هُوَ نَائِبٌ
 مُحَقِّقٌ مِنْ نَتَائِجِ الْعِلْمِ .

أَنَا الْآنَ أَحْوَجُ إِلَى إِرْشَادِكَ وَالِاسْتِضَاءَةِ بِثَوْرِ عِلْمِكَ مِنِّي فِيمَا مَضَى ، وَمِنْ
 ذَا الَّذِي أَسْتَرْشِدُهُ وَأَسْتَهْدِيهِ سِوَاكَ .

جَمِيعَ الطَّلَبَةِ يَتَعَلَّمُونَ الْمَجَالِدَةَ وَالْمُنَاصَلَةَ وَأَنَا مُقْتَدٍ بِهِمْ فِي ذَلِكَ ، فَلَ كُلِّ يَوْمٍ
 سَاعَةٌ أَوْ سَاعَتَانِ أَقْضِيهِمَا فِي مُمَارَسَتِهِمَا ، لِأَنَّ فِي هَذِهِ الْمُمَارَسَةِ تَمَرُّبًا مُفِيدًا فِي تَقْوِيَةِ

(١) الفيدا كتاب اليهود المقدس وهو اسم عام تحته أربعة كتب خاصة وهي الريبفيدا واليهافيدا
 والياجورافيدا والآثارفيدا . (٢) الزاندوستا مجموع ما لأتباع زردشت من الكتب المقدسة .
 (٣) المجالدة : المضاربة بالسيف . (٤) الماضية : المارة في روى السهام .

(١) الْأَعْضَاءُ وَتَمِيمَتِهَا، وَيُؤَكِّدُ الْعَارِفُونَ مِنَ الطَّلَبَةِ أَنَّ أَمَهْرَ الْمُجَالِدِينَ مَنْ يَنْدُرُ التَّحْرُشَ بِهِ . وَمَعَ أَنِّي لَا أَرْجُو مُطْلَقًا أَنْ أَبْلُغَ فِي الْمُجَالِدَةِ وَالْمُضَاضِلَةِ مَبْلَغَ الْفَارِيسِ سَانٍ جُورْجَ، أَوْدَلُو أَثْبُتُ فِي قَاعَةِ الْمَارَسَةِ ثُبُوتًا كَافِيًا أَنِّي عَلَى عِلْمٍ بِاسْتِعْمَالِ السَّلَاحِ، حَتَّى يَحْسَبَ الطَّلَبَةُ حِسَابِي فَلَا يَسْتَحْفُونَ بِأَغْضَائِي، فَإِنَّ الْمُبَارَزَةَ كَثِيرَةُ الْوُقُوعِ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَجْرَحُونَ فِيهَا أَحْيَانًا، وَلَكِنْ يَنْدُرُ وَالْحَمْدُ لَهُ أَنْ يُقْتَلُوا، وَمَنْ يَجْرَحُ مِنْهُمْ لَا يُسَالِي بِجُدِيشٍ وَجْهِهِ بَلْ يَتَبَرَّ نَدْبَ الْجُرُوحِ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ التَّشْوِيهِ لِخَلْقِهِ مِنْ مُوجِبَاتِ إِجْلَالِ النِّسَاءِ لَهُ .

أَخْتُمْ مَكْتُوبِي رَاجِيًا أَنْ تَقِيَ مِنِّي بِدَوَامِ مَحَبَّتِي لَكَ وَتَعْلِقَ قَلْبِي بِكَ أَه .

الرسالة السادسة

مِنْ إِرَاسَمَ إِلَى «إِمِيل»

فِي التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكْمِيَّةِ

(٤) قَدْ حَزَرْتُ يَا وَلَدِي مَقَاصِدِي فِي تَرْبِيَتِكَ الدِّينِيَّةِ، فَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُخَلِّ بِنَبِكَ وَبَيْنَ عَقَائِدِكَ، مَعَ عَلَمِي بِمُخَالَفَتِي فِي هَذَا مُخَالَفَةً تَامَةً لِمَا تَجَرَّى عَلَيْهِ الْأُمُورُ مَادَّةً، ذَلِكَ أَنَّ الطِّفْلَ لَا يَكَادُ يُوَلَّدُ حَتَّى يُنْسَبَ إِلَى أَحَدِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي تَتَنَازَعُ حُكُومَةُ الدُّنْيَا، فَيَتَكَلَّمُ وَالِدَاهُ بِتَقْلِيدِهِ دِينًا، مُحْتَجِّينَ فِيهِ بِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِ (وَهُوَ أَمْرٌ يَبْهَتُ الْبَدَاهَةَ)

(١) التحرش التعرض .

(٢) سان جورج شخص يذكر في الأساطير أنه أمهر المجالدين والمناضلين .

(٣) التدب جمع ندبة وهي اثر الجرح . (٤) حزرْتُ يعني قدرت بالخدم والتخمين .

لأنَّ يَحْكُمُ بِنَفْسِهِ، وَيَسْبِقُ عَرَفَ بِلَادِهِ وَعَوَانِدُ قَوْمِهِ وَتَقَالِيدُ بَيْتِهِ إِلَى تَحْدِيدِ الدِّينِ
الَّذِي يَحِبُّ انْتِسَابَهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ عَلَى نَفْسِهِ . قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ إِنَّ الْوَالِدَيْنِ
إِذَا فَعَلَا ذَلِكَ فَهُوَ لَاتَهُمَا يَتَبَرَّانِ أَنْفُسَهُمَا بَيْنَ الْأُمَّةِ فِي الْقِيَامِ عَلَى الْمَوْلُودِ
قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، فَأُجِيبُهُ أَسْلَمَ لَكَ ذَلِكَ، وَلَكِنِّي أَقُولُ: إِنْ كَانَ مِنْ
حَقِّ الْأُمَّةِ أَنْ تُودَى إِلَى الْمَوْلُودِ دِينًا، كَانَ حَقًّا عَلَيْهَا أَيْضًا أَنْ تَخْتَارَ لَهُ حِرْفَةً أَوْ عَمَلًا
مِنْ أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ، وَإِذَا نَصِيرُ فِي حُكُومَةٍ دِينِيَّةٍ اشْتَرَاكِةٍ .

لَا يَتَّبِعُنِي أَنْ تُجْعَلَ وَلَادَةُ الْمَوْلُودِ سَبَبًا لَسَلَابِ حُرِّيَّتِهِ، فَإِنَّ انْقِسَامَ الْوَالِدَيْنِ
فِي ضُرُوبِ الْوُجْدَانِ، وَاخْتِلَافُهُمَا فِي الْأَنْظَارِ حَتَّى فِي آيَاتِنَا هَذِهِ، يَجْعَلُ وَلَا يَتَّهِمُ
عَلَيْهِ مُشْكِلَةٌ مَرْتَبَكَةٌ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَا حَرْبَ إِلَّا حَرْبُ الْيُبُوتِ، فَإِنَّ شَأْنَ الْوَالِدَيْنِ
فِي الدِّينِ غَالِبًا أَنْ يَكُونَ الْأَبُ كَافِرًا وَالْأُمُّ مُؤْمِنَةً، فَكَيْفَ يَكُونُ الْوَلَدُ إِذَا تَنَازَعَهُ
هَذَانِ الْمُؤْتَرَانِ؟ أَقُولُ إِنَّهُ يَكُونُ كَاهِلٍ زَمَانِهِ حَيْرَانٍ عَاجِزًا، فَإِنَّا كَثِيرًا مَا نُلَاقِي
فِي النَّاسِ شُبَّانًا مَشْغُولِينَ بِتَرْفِيعِ سَرَائِرِهِمْ يَخْرُقُ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُتَدَبِّينَ، يَجْطَوْنَهَا
مَعَ آرَاءِ الْأَحْرَارِ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ، وَنُصَادِفُ آخَرِينَ شَاكِينَ حَاضِرِينَ، مَعَ بَقَا
اسْتِنْسَاسِهِمْ بِأَوْهَامِ الْوَاهِمِينَ، وَقَدْ فَشَا فِي النَّاسِ التَّبَايُؤُ وَالْتَفَاقُصُ، وَعَمَّ بَيْنَهُمُ
التَّشَوُّشُ وَالْإِخْتِلَاطُ .

وَأَمَّا أَنْتَ فَإِنَّكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَمْ تُبْتَلْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَحَنِّ، لِأَنِّي أَنَا وَأُمُّكَ
لَمْ نَمُتِقِدْ أَنْ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نَنْتَقِمَ فُرْصَةَ نَوْمِ عَقْلِكَ، فَندْعُوكَ إِلَى اتِّبَاعِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ،

يُدُونُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رِضَاكَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ لِي ، كَكُلِّ إِنْسَانٍ غَيْرِي ، رَأْيًا فِي الْمَذَاهِبِ
الدِّينِيَّةِ وَالْحِكْمِيَّةِ الَّتِي يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِيهَا ، وَهُوَ لَا يُلْزِمُكَ شَيْئًا ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَحْفَلُ بِهِ .

أُكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ ، وَلَكِنْ لَا تُطْعِمُ إِلَّا قَلْبَكَ ، فَأَنْتَ حُرٌّ ، وَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تَسْعَى
وَرَاءَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ ، مُسْتَعِينًا فِي ذَلِكَ بِالْهَمَةِ وَالْبَسَالَةِ وَالْتِزَاهَةِ ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا
السَّعْيُ إِلَى النَّوْمِ خَارِجًا عَنْ وَسْعِكَ وَبَعِيدًا عَنْ مَقْدُورِكَ ، فَيَجِبُ الْآنَ أَنْ يَكُونَ
هُوَ عَمَلَكَ فِي جَمِيعِ حَيَاتِكَ .

وَمِنْ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكَ ، قَبْلَ أَنْ تَقْتَنِعَ بِشَيْءٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْخَطِيرةِ ،
أَنْ تَبْحَثَ فِيهَا وَتَدْرُسَهَا ، فَإِنَّ مَثَلَ مَنْ يَرُفِّضُ الْمَذَاهِبَ الدِّينِيَّةَ أَوِ الْحِكْمِيَّةَ عَلَى غَيْرِ
عِلْمٍ بِهَا كَمَثَلِ مَنْ يَقْبَلُهَا بِدُونِ بَحْثٍ فِيهَا وَلَا نَظَرٍ ، كَلَامُهُمَا مُنَاقِضٌ لِنَفْسِهِ ، غَيْرُ
مُسَدِّدٍ فِي رَأْيِهِ ، وَلَا شَيْءٍ فِي الْحَقِيقَةِ أَدْعَى إِلَى الصَّحِيحِ مِنْ وَقَاحَةِ أَحْدَاثِ الدَّكَاتَرَةِ
الَّذِينَ يَمْجُرُونَ بِأَنَّ الْمَبَاحِثَ النَّظَرِيَّةَ الَّتِي أَرْتَاضُ بِهَا أَمْثَالُ دِيكَارْتِ وَأَسْپِينُوزَا^(١)
وَبَاسْكَالِ^(٢) وَلَا يَنْتَرُوهِجِلِ^(٣) أَيْسَتْ خَالِيقَةً بِالتَّفَاتِيهِمْ وَمِثْلِهِمْ ، فَلِلْجَهْلَةِ الْأَغْيَاءِ مِنْهُمْ
كَلِمَةٌ يَطْنُونُ بِهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَهِيَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ : وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ فِي حَيَاتِهِ صَحِيفَةً

(١) ديكارت هو عالم رياضيات ومهندس طبيعي وأخص ما يصرف به أنه حكم فرنسي شهير يدعونه

أبا الحكمة الحديثة لكلامه عن طريقة البحث عن الحق ولد سنة ١٥٩٦ م ومات سنة ١٦٢٠ م

(٢) اسپينوزا حكم ولد في أمستردام سنة ١٦٣٢ م ومات سنة ١٦٧٧ م .

(٣) باسكال هو مهندس كبير وكاتب شهير ولد في كلير مونت فزاد سنة ١٦٢٣ م ومات سنة ١٦٦٠ م

اثبت نقل الهواء في سنة ١٦٤٨ وفي سنة ١٦٥٤ اعتزل في بورو وال دوسان حيث كتب أغلبياته

وأفكاره . (٤) لا ينتز هو عالم شهير ولد في لاينبرج وهو مخترع حساب الفروق الدقيقة .

(٥) هيجل حكم ألماني ولد سنة ١٧٧٠ م ومات سنة ١٨٥١ م .

مِنْ تَكْلِيبِ الْكَوْنِ ، « مَا لِي وَلِإِضَاعَةِ وَقْتِي فِي حَلِّ مَا لَا يُسْبِرُ غَوْرهُ مِنْ مَسَائِلِ
وُجُودِ اللَّهِ ، وَخُلُودِ الرُّوحِ ، وَوَحْدَةِ الرُّوحِ ، وَالْحَسْمِ أَوْ تَقَابُرِهَا ؟ فَهَسْبِيَ الْإِسْتِغْنَاءُ بِالْعِلْمِ » .

أَنَا لَا أَشْكُ فِي أَنَّ الْعِلْمَ الْآنَ مُسْتَعِيلٌ بِاسْتِغْنَائِهِ عَمَلِ الدِّيَانَاتِ ، سَالِكًا فِيهِ طُرُقًا
أُخْرَى مُغَايِرَةً لَطُرُقِهَا كُلِّ الْمُغَايِرَةِ ، فَإِنَّهُ يَرْجُو مِنَ الْبَحْثِ فِي الْحَوَادِثِ بَحْثًا تَجْرِيديًا
وَمُرَاقِبَةً مُرَاقِبَةً قَرِيبَةً ، أَنْ يَصِلَ إِلَى حَقِّ الْيَقِينِ الَّذِي كَانَ أَهْلُ الدِّينِ يَرْجُونَ
بُلُوغَهُ مِنْ طَرِيقِ الْمَدَايِةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَإِنِّي لَجَازِمٌ بِأَنَّهُ قَدْ سَلَكَ أَقْوَمَ الْمَنَاجِجِ لِبُلُوغِ
الْحَقِّ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَعَسِّرِ مَعْرِفَةُ النَّتَائِجِ الَّتِي يُؤْدِي إِلَيْهَا بِحُثُّهُ ، وَإِذَا فَهَمْنَا حَالَةَ
الْمَعَارِفِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ ، وَجَدْنَا شَأْنَهُ الْمُطْرِدَّ أَنَّهُ لَمْ يَفِدْنَا فِي بَعْضِ مَا قَدْ
يَهْمُنَا اسْتِغْنَاؤُهُ مِنَ الْمَسَائِلِ إِلَّا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ قَلِيلًا جِدًّا .

فَإِنَّا إِذَا اسْتَنْبَنَّا عِلْمَ تَرْكِيبِ الْحَيَوَانِ ، لِأَنَّهُ قَدْ امْكَنَهُ أَنْ يُؤْدِيَ إِلَيْنَا مَعْنَى
مِنْ مَعَانِي الْإِنْسَانِ ، عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُتَعَارِضَةِ وَالْأَرَائِ الْمُتَنَاقِضَةِ ، وَعِلْمَ
طَبَقَاتِ الْأَرْضِ ، لِأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ لِعُقُولِنَا مَنَافِذَ نَدْخُلُ مِنْهَا عَلَى بَعْدِ مَنَاشِئِ الْحَيَاةِ ، رَأَيْنَا
أَنَّ الْعُلُومَ الصَّحِيحَةَ لَمْ تَكْشِفْ لَنَا السَّارَ حَتَّى السَّاعَةِ عَنْ عِلْمٍ مَا مِنْ الْعِلَالِ الْأُولَى
الَّتِي هِيَ أَهْجُ لِنَسْوِقَ الْعَقْلَ مِنْ سِوَاهَا ، وَلَكِنْ قَدْ يُجِبُنِي جُحُوبُ أَنَّ هَذِهِ الْعِلَالِ
لَا يَبْنِي الْإِسْتِغْنَاءُ بِهَا قَطْعًا ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ مُتَنَاوِلِ الْعَقْلِ ، فَأَقُولُ لَهُ : مَا هِيَ
طَائِفَةُ طَائِفِكَ فِي هَذَا ؟ أَتَنْظُرُ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنْ تَجَارِبِ الْإِنْسَانِ فِي بَضْعَةِ آلَافٍ
مِنَ السِّنِّ يُسَوِّغُ تَحْدِيدَ قُوَاهُ وَمَلَكَاتِهِ الْمُتَقَابِلَةِ ؟ أَمْ تُرِيدُ أَنَّهُ يَكْفِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ
أَنْ يُسَيِّدَ الْحِجَابَ عَلَى مَا يَمِيزُهُ لِيُنِيمَ طَمَعُ عَقْلِهِ وَيُحْدِثَ شَوْقَ إِدْرَاكِهِ ؟ أَنَا لَا أَعْقِدُ

مِنْ هَذَا شَيْئًا، بَلْ أَقُولُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ الْإِسْتِغْنَاءُ لِلْجَهْلِ وَالْإِسْتِكْنَاءُ لَهُ، إِمَّا لِشَرَفٍ فِي طَبِيعِهِ أَوْ لِحُسْنَةٍ فِيهِ .

وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ يَكْفِي لِلتَّخْلُصِ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُحِيرَةِ أَنْ تُوصَفَ بِأَنَّهَا مُعْضَلَةٌ لَا حَلَّ لَهَا، لَكَانَ التَّفَضُّي مِنْهَا فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ . كُلُّ حَيٍّ يَطْلُبُ النُّمُوَّ لِجَسَمِهِ مَا عَدَا الْإِنْسَانَ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَخْتَصُّ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكَائِنَاتِ الْمُضَيُّوَّةِ يَطْلُبُ الْإِرْتِقَاءَ بِفِكْرِهِ إِلَى مَا وَرَاءَ حَاجَاتِهِ الْمَادِّيَّةِ، فَطَلَبُهُ الْإِرْتِقَاءَ الْفِكْرِيَّ مُوجُودٌ فِيهِ، سَوَاءٌ مَتَى خَيَالًا أَوْ غَيْرَ زَمَانِيَّةً، وَاسْتُ أَدْرَى مُطْلَقًا مَا عَمِي أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَامِلِينَ عَلَى إِزَالَتِهِ مِنَ الْعَالَمِيَّةِ، بِتَكْلُفٍ اخْتِقَارِهِ وَالزَّرَايَةِ عَلَيْهِ، وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي وَسْعِهِ مِنْهُمْ أَنْ يَتَرَعَهُ مِنَ الثُّغُورِ الشَّعْرِيَّةِ ؟ فَإِنَّ تَطَلُّعَ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ عَقْلِهِ مِنْ مُقْتَضَيَّاتِ خَلْقَتِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّهَا أَنْ تَعْتَرِبَ بَعْضُ الْأُمُورِ الَّتِي يَطْلُبُهَا الْفِكْرُ خَادِعَةً أَوْ وَهْمِيَّةً لِمَجْرَدِ أَنَّهَا تُحْبِرُ عُقُولَنَا، أَوْ تَذُبُّ عَنْ إِدْرَاكِنَا، فَأَمَّا إِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ تَحْرِيدَ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْعَقْلُ مِنْ مُنْتَهَى غَايَاتِ الْكَمَالِ ، مِمَّا يَقَارِنُ تَصَوُّرَهُ مِنْ مَرْوَعَاتِ الْوَسَاوِسِ وَالْأَوْهَامِ، وَالْأَعْمَالِ الْمُتَّبَعَةِ عَنِ التَّفَاقِ وَالرِّيَاءِ، فَهِيَ وَنِعْمَتْ ، وَأَمَّا مُدْرَكَاتُ الْعَقْلِ الَّتِي شَقَلَتْ مِنَ التَّارِيخِ مَكَانًا كَثِيرًا فَلَا يَذْنِي التَّعَرُّضُ لَهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَيْضًا حَقٌّ فِي تَرْبِيَةِ النَّاشِئِينَ .

وَمِنْ هَذَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَزَالُ مِنْ حَقِّ الْحِكْمَةِ أَنْ تُوجَدَ مَعَ الْعِلْمِ ، وَأَنَّهُ لَيَعْدُ عَلَيْهِمَا التَّنَافُرُ وَالتَّنَاقُ ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهِمَا التَّضَافُرُ وَالتَّوَاقُفُ .

إِنْ كَثِيرًا مِمَّنْ يَمِيلُونَ إِلَى حُدُودِ دَرَسَةِ الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكْمِيَّةِ، مُتَقَادُونَ فِي هَذَا إِلَى حَاجَةِ طَبِيعِيَّةٍ لِلإِتْقَامِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ رَأَوْا الْحِكْمَاءَ وَرُؤَسَاءَ

الْأَدْيَانَ الْمَقْرَرَةَ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ بَلَّغُوا مِنْ تَعَاطِيهِمْ لِلْمَطَالِمِ ، وَمَتَابَرَجَتِهِمْ بِالْأَسْرَارِ ، وَمُقَارَفَتِهِمْ لِلْفُظَائِحِ ، مَبْلَغًا لَبًّا بِالْعَقْلِ فِي اسْتِمْرَازِهِ مِنْ سِيرَتِهِمْ إِلَى الْجُحُودِ الْمُطْلَقِ ، فَالْقَسِيُونَ هُمْ دُعَاةُ الْإِلْحَادِ لَا الْمَادِّيُونَ .

وَمِنَ اللَّغْوِ تَجْسِيمُ أَمْرِ الْإِلْحَادِ ، فَإِنَّهُ ذَنْبٌ ضَعِيفٌ فِي ذَاتِهِ ، يَتَرَلَّزُلُ مَدْعُورًا أَمَامَ وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ ، وَإِنَّمَا الْأَنَامُ الْمُئِنَّةُ ، وَالْحَرَائِمُ الْقَوِيَّةُ ، الْحَقِيقَةُ بِأَنْ تُدَافِعَ نُورَ الْهِدَايَةِ وَالْعِرْفَانِ ، هِيَ الَّتِي يَمُرُّ أَصْحَابُهَا عِنْدَ اقْتِرَافِهَا عَلَى التَّسْتُرِ بِرِدَاءِ الدِّينِ ، نَعْمَ تِلْكَ الْأَنَامُ هِيَ الَّتِي تَمَازُ بِذَلِكَ الْإِمْتِيَازِ الْمَائِلِ ، وَهُوَ قَلْبُ شُرُونِ الدُّنْيَا ، وَتَشْوِيشُ أَحْوَالِهَا . فَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَمَارُجِحُ إِنْ تَكَيَّهَ مِنَ الْأَهْبَةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَسْرِى مِنْ عَقَائِدِ مُرْتَكِبِيهَا إِلَى مَا يَنْتَصِبُونَهُ مِنْ ضُرُوبِ السُّلْطَةِ وَالْقُوَّةِ ! تَسْمَعُ بَعْضُ النَّظَارِ إِذَا رَأَوْهُمْ تَقَلَّبَ الشَّرُّ عَلَى الْخَيْرِ ، يَصِيحُونَ قَائِلِينَ : لَأَنْ لَا يَكُونَ لَنَا إِلَهٌ خَيْرٌ مِنْ وُجُودِ إِلَهٍ ظَالِمٍ ^(١) .

وَيَعِيبُ آخَرُونَ عَلَى الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْحِكْمِيَّةِ أَنَّهَا لَمْ تُبَيِّنْ لِلنَّاسِ بَيَانًا مُقْنِعًا ، شَيْئًا مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنِظَامِ الْعَالَمِ ، وَتَنَازُعِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْإِضْطِرَارِ وَالْإِخْتِيَارِ ، وَأَنَا أَسْلَمْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَيَرَأَى أَقُولُ : إِنَّ كُلًّا مِنْهَا قَدْ سَمَا بِفِكْرِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْعُلَى ، وَغَيْرِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ ، وَهَدَى النَّاسَ إِلَى طَوَائِفِ الْفُنُونِ ، وَأَحْيَى مِنَ الطَّرْفِ وَالْمُلُجِّ مَا لَوْلَاهُ لَطَلَّ عَجُوبًا فِي جَاهِلِ الْعَدَمِ ، وَكَمْ رَأَى مِمَّنْ يُوَدُّونَ عَمَّا الدِّينِ

(١) أجدر بآمال هؤلاء النظارة أن يسموا عما فاتهم عوا عن سنن الله تعالى في الكون وجهلوا أن الشر الذي يضحون به إنما ينتج من مخالفة الناس لتلك السنن ، فهم الذين جلبوه على أنفسهم « وما ربك بظلام للعبيد » « وما ظلماتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » تعالى الله عن الظلم علوا كبيرا — المترجم .

الْمَسِيحِيِّ مِنْ تَعْلِيمِ النَّاشِئِينَ، مَنْ لَمْ يُحْسِنِ التَّفَكُّرَ فِيمَا كَانَ لِهَذَا الدِّينِ مِنَ التَّأثيرِ
فِي آدَابِ لُفَتِنَا، وَأَخْلَاقِنَا وَعَوَائِدِنَا، فَهَمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ رُؤْيَا خَيْبَةً رَأَاهَا النَّوعُ
الْإِنْسَانِي فِي مَتَامِهِ، وَإِنَّهُ يَنْشَأُ فِي طَوْرِ التَّدَلُّ وَالْهَمَجِيَّةِ حَبَسَ رُوحَ الشُّعُوبِ
فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ^(١)، وَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمَلٌ لِلنَّظَرِ وَالْبَحْثِ، وَإِكْنَ هَيَّاتَ أَنْ يُقْنَعُوا
وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ بِأَنَّ التَّيَّارَ الْفِكْرِيَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ ذَلِكَ الدِّينُ فَفَسَّرَ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا
لَمْ يَكُنْ ثُمَّ مُوجِبٌ لَوْجُودِهِ !

أَنَا أَدْعُوكَ إِلَى دِرَاسَةِ هَذَا الدِّينِ، الَّذِي أَنشَأَ مَدَنِيَّتَنَا الْحَاضِرَةَ أَنْشَاءً حَسَنًا
أَوْ سَيِّئًا، خِلَافًا لِلْقَائِلِينَ بِإِبْطَالِهَا، وَاحْتَكَّ عَلَى أَنَّ تَأْخُذَ فِيهَا بِالْحَدِّ وَتَرْجِعَ فِيهَا
إِلَى أَصُولِهِ، لِأَنَّ مَا يَخْلُصُ إِلَيْكَ مِنْ مُطَالَعَةِ الْأَنَاجِيلِ، لَا شَبَهَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُؤْخَذُ

(١) ما أشنع هذه من مقالة، وأدناها على غباوة قائلها وإيغالها في الجهالة ! فليست الأديان أحلاما
للإنسان، بل هي حقائق أنزلها الرحمن، ليخرجه بها من ظلمات الجهالة إلى نور الحضارة الحقيقية، وقد
أطلقت للأرواح والعقول — على خلاف ما يزعم النصارى — عنان التفكير والبحث في الأكوان،
وجعلت جميع المخلوقات مسخرة لها وفي ذمام تصرفها، ألم يسموا قول الله سبحانه في القرآن الحكيم :
« قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَمَا تَقَى الْآيَاتِ وَالتَّذَرُّعِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » وقوله جل شأنه
« إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاعْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » وقوله « أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهُ يَخْتَلِفُ أَلْوَانُ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْفَلَ عَلَيْكُمْ قَدَمُهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ » إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، وكفى بها برهانا على فساد
عقول أولئك الجاحدين يدهشون بإبطالهم ويدفع أرواحهم، وليست مقاصد الأديان إلا عسكرة الأرض
بالعدل ومنع العدوان بين الناس وتطهير النفوس من دنس الشرك ومن الرذائل لتسعد بالحياة الطيبة
في عاجلها ولتستعد للكرامة بمجوار ربها في آجلها، وما ذكره المؤلف من آثار الأديان ليس من مقاصدها
في شيء، بل ربما كان موارضا لهذه المقاصد ان لم تصحب العمل فيه نية الخير والبر بالناس وبمجانبه
الفاق والرياء — المترجم .

عَنْ رِجَالِ الَّذِينَ يَحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَأَنْتَ تَرَى فِي الْأَنَاجِيلِ مَثَلًا، أَنَّ الْمَسِيحَ كَانَ
يَأْتِي دَائِمًا امْتِنَالِ أَىِّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَكَانَ يَسْتَهْدِفُ لِرِايَةِ الْيَهُودِ
عَلَيْهِ وَلَوْ مَعَهُمْ لَهُ، يُخَالَفْتَهُ لَهُمْ كُلَّ وَقْتٍ فِي السَّبْتِ، وَالصَّوْمِ، وَغَسِيلِ الْيَدَيْنِ
قَبْلَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ، وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ يَهْتَرُ لِسَمَاعِ
بَعْضِ الْمَوَاعِظِ الْأَنْجِيلِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِبَذِيعٍ، فَإِنَّ الْمَسِيحَ إِذَا جَاءَ لِيُحِلِّنَ لِلنَّاسِ
شَرَفَ صِغَارِهِمْ، وَسُوءَ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْهُمْ، وَوُجُوبَ تَكْرِيمِ الطِّفْلِ، وَالْحَنُوَّ عَلَى
الْمَرْأَةِ الْخَاطِئَةِ، وَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي غَيْرِ كِتَابِهِ أَكْثَرًا مِمَّا تَجِدُهُ فِيهِ مِنَ الْمَيْلِ الْعَاطِفِ
إِلَى كُلِّ مَكْرُوبٍ، وَالرَّحْمَةِ لِكُلِّ مُهَانٍ وَمُحْتَقِرٍ، وَلَا أَكْثَرَ مِنْ ضُرُوبِ الْحِرْمَانِ
لِلْمُنْكَبِرِينَ الْمُسْتَأْثِرِينَ، الَّذِينَ يَتَغَوَّنَ الْعُلُوَّ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَقَدْ كَانَ
لِحُبِّهِ لِلْفُقَرَاءِ، وَلِكُونِهِ قَفِيْرًا، يَتَّبِعُ الْأَغْنِيَاءَ عَلَى الدَّوَامِ دُونَ غَيْرِهِمْ يُسُدُّهُ
وَأَمثالُهُ الرَّائِعَةُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ تَمَسُّكَ النَّصْرَانِيَّةِ - مَعَ مِثْلِ هَذَا الْأَدَبِ الَّذِي جَاءَ بِهِ
الْمَسِيحُ - مِنْ قُوَّةِ أَمْتِيَّازِ الدَّرَجَاتِ فِي الْأُمَمِ الْحَالِيَةِ، وَتَأْيِيدِ مَرَايَا الْأَنْسَابِ وَفَرْطِ
التَّغَايُرِ فِي الْغَنَى - لَمْ يَخْضَلْ إِلَّا بِكُلُوغِ رِجَالِهَا فِي الْمَكْرِ حَذِّ الْإِعْجَازِ، فَنَلَّكَ الْأُمَمُ الَّتِي
نُسِمَتْ نَفْسُهَا مَسِيحِيَّةً وَتَمَقَّدَتْ أَنَّهَا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ، لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهَا قَطْرًا .
إِنَّمَا أَنْ مَعْرِفَةَ الشَّيْءِ فِي وَقْتٍ مَا مِنْ أَوْقَاتٍ وَجُودِهِ لَا تُعَدُّ مَعْرِفَةً، وَإِنَّمَا
يُعْرَفُ إِذَا عُرِفَ أَصْلُهُ وَتَارِيخُهُ وَمَصِيرُهُ، وَقَدْ تَنَجَّ مِنْ اتِّبَاعِ الْبَحْثِ فِي الْحَوَادِثِ
الْكُونِيَّةِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ، عُلُومُ كُلِّهَا جَدِيدَةٌ، كَلِمٌ تَكُونُ الْأَرْضَ، وَعِلْمُ الْأَجْنَةِ،

فَطَرُقُ الْبَحْثِ هَذِهِ، هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَيْكَ تَطْبِيقُهَا عَلَى دِرَاسَةِ الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ وَالْحُكْمِيَّةِ، وَلَيْسَ عَلَى أَنْ أَمْرَضَ بِالتَّصْوِيبِ أَوْ التَّخْطِئَةِ لِلنَّاتِجِ الَّتِي يُوَدِّعُ إِلَيْهَا بِحُكْمِكَ، إِذَا حَسَنْتَ فِيهِ نِيتَكَ وَحَمَمْتَ عِزَّيْمَتَكَ، وَغَايَةُ مَا أَسْتَبِغِيهِ مِنْكَ أَلَّا تَقْبَلَ مِنَ الْأُصُولِ عَلَى أَنَّهُ صَحِيحٌ إِلَّا مَا تَكُونُ قَدْ عَرَفْتَ الْحَقَّ فِيهِ بِنَفْسِكَ.

أَقُولُ ذَلِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَمْرًا عَظِيمًا، وَلَكِنْ مَاحِيَتِي وَلَا وَسِيلَةَ غَيْرِهِ لَتَنْوِيرِ عَقْلِكَ وَهَدَايَتِكَ، نَعَمْ إِنَّ فِي الدُّنْيَا كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ التَّقَاتِ الْمَشْهُودِ لَمْ، قَدْ عَهَدَ إِلَيْهِمْ تَحْدِيدُ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ، فِي الدِّينِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالْأَخْلَاقِ، فَهُمْ يَعْرِفُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ نِصْفَ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنَ النَّاشِئِينَ يَمْنَادُونَ أَنْ يُفَكَّرُوا بِمَخَاجِ بَعْضِ أَفْرَادٍ مِنَ النَّاسِ — إِنَّ صَحَّ لِي التَّعْيِيرُ عَلَى هَذَا النُّحْوِ — عَلَى أَنَّ نَمَّةَ أَمْرًا لَنْ تَعَلِّمَهُ قَطْعًا فِي مَدْرَسَتِهِمْ، إِلَّا وَهُوَ عِلْمُ الْحُرِّيَّةِ، فَإِذَا كُنْتَ تَطْلُبُ الْحُرِّيَّةَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَطْلُبَ الْحَقَّ فِي نَفْسِكَ، مُسْتَعِينًا فِي طَلْبِهِ بِجَمِيعِ مَا لَدَيْكَ مِنْ عُنْدِ الْإِسْتِدْلَالِ وَالْبَظَرِ، وَإِنَّكَ سَيَحْصُلُ لَكَ غَيْرُ مَرَّةٍ، مَعَ اخْتِرَاسِكَ وَتَبْقِطِكَ، أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ آرَاءَ غَيْرِكَ هِيَ آرَأُوكَ، وَتُخْطِئُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ أَغْلِبَتَكَ، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنَّ قُوَّةَ الْعَقْلِ كَقُوَّةِ الْجَسَمِ، لَا يُكْسَبُ إِلَّا بِعَرَقِ الْحَيِّينَ، وَأَنَّ مَنْ أَخْلَصَ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْهُدَى قَدَّمَ أَظْهَرَ هَذَا الْبَحْثِ نَفْسِهِ أَنَّهُ جَدِيرٌ بِالْإِهْتِدَاءِ.

(١)
وَفِي خِتَامِ مَكْتُوبِي أَقُولُ لَكَ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي : إِنِّي وَلِيكَ الْحَمِيمُ اه .

(١) غلب وهم إراسم في هذه الرسالة صوابه ، وغمر فيها باطله حقه ، وتحيل فيها فرط غروره بالعلم ، وبالفن في الاعداد على الوجدان ، وسوء إدراكه لمقاصد الدين ، ذلك أنه زعم أن العلم يشغل الآن باستئناف عمل الديانات بطرق أخرى يؤمل بها أن يصل الى حق اليقين ، وهو وهم لأن أساس الدين الاعتقاد بوجوده إله واجب الوجود متصف بجميع صفات الكمال ، منزّه عن جميع صفات النقص ، خلق جميع الأكوان وطرها على أبداع نظام ، وأوحى في كل كون منها أمره ، ودبر شؤونه بحكمته ، وصرف أموره بقدرة ، وأرسل الى عباده رسلا منهم ، إجتاهم من أكلهم فطرة وأقومهم سيرة ، وأكرمهم خلقا ، وأوحى اليهم شرائع يلغونهم إياها ، تضمن مايجب عليهم لخالفهم من التزبه والتقديس والعبادة الصحيحة والشكر ، وما يجب على كل منهم لنفسه ولنظرائه من الخلق ، انتم باتباعها السعادة في العاجل والآجل ، وليست معرفة الوحي من تناول العلم ولا هي مما تجرى فيه تجاربه وبجته حتى يصل فيه الى حق اليقين ، والله أكبر وأعظم من أن يتناوله انخراصون بأبحاثهم المقيمة وتجاربهم الفاصرة ، ولعمري إنه لا هداية إلا هداية الله التي جاءتنا على ألسنة رسله فليقتنع بها العقل وليشكر ربه عليها فإن عاقبة الكفران الخسران . وزعم إراسم أن المذاهب الدينية لم تبتين للناس بيانا مقنا ، شيئا من المسائل المنطقية بنظام العالم ، وتنازع الخير والشر ، والاضطراب والاختيار ، وهو وهم في ذلك أيضا ، لأن القرآن الكريم مشحون بهذا البيان ، ومن استراب في ذلك فليقرأ متدبرا قوله تعالى : (أولم يرا الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففقتاهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن يمد بهم وجعلنا فيها بساتين سبلال لهم يمشون . وجعلنا المياه سقفا محفوظا وهم من آياتها معرضون) وقوله تعالى : (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . قضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمورها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحففا ذلك تقدير العزيز العليم) . وليتدبر قوله جل شأنه في الانسان (ألم نجعل له عينين - ولسانا ولسنتين - وهديناه النجدين - « أي طريق الخير والشر ») . وقوله جلّت قدرته في الانسان أيضا (إنا هدينا السبل إما شاكرا وإما كفورا) . وقوله : (وما تقسمون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليا حكيا يدخل من حيث يشاء في رحمة والطالين أعد لهم عذابا أليما) وقوله : (ما أصابك من حسرة فمن الله وما أصابك من سعة فمن نفسك) . وقد بين علماء الاسلام هذه الموضوعات بيانا شافيا فليرجع إليه من شاء في مقامه من كتبهم . — ثم انه من السفه أو المغالطة - توبيه أمر الاخلاص وقوله أنه ذنب ضعيف في ذاته يتزلزل مذعورا أمام وجدان الانسان ، ولا شك أن من المباحة التي تقع منه ومن أخرايه لخصومهم ، ربه رجال الدين بأنهم أهل الآثام الملية والجرائم القوية التي يقرّفونها تحت ستار الدين ، وليلقلى لى ربه إن كان مؤثما أى هداية ترضى لمن ران الاخلاص على قلبه ، وأى وجدان يهدي بعد أن همت بصبره ؟ — وما أشنع قوله فيما يقوله الملحدون في الدين ، من أنه رؤيا خيطة وآها النوع الانساني في مناه ، “ انه محل للنظر والبحث ” ، فان القائل بذلك مسترب في دينه وهو عنى غير يينة منه .

الرسالة السابعة

مِنْ «إِمِيل» إِلَى أُمِّهِ

عَنْ مَدِينَةِ بَن فِي ٢٨ سِبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٨٦١

« فِي ابْتِدَاءِ الْعَشِيِّ وَغُرُورِ الشَّابِّ الْغَرِّ بِالْمَعْشُوقَةِ »

لَقَدْ كَانَ قَوْلُكَ حَقًّا أَيَّتُهَا الْوَالِدَةُ الْعَزِيزَةُ، فَإِنِّي قَدْ خَدَعْتُ نَفْسِي، وَلَا حَقَّ لِي فِي الشُّكْوَى بِحَالٍ مِمَّنْ كُنْتُ أُحِبُّهَا، لِأَنَّهُمَا لَمْ تَكُنِ التَّرَوُّثَ لِي شَيْئًا، وَلَا وَعَدَتْنِي الصَّدَقُ فِي حُبِّي، بَلْ هِيَ، بِمَا كَانَتْ مَغْمُورَةً فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ التَّبْجِيلِ وَالتَّكْرِيمِ، تَفَضَّلَتْ فَقَلَبَتْ مِنِّي اعْتِبَاطًا صُنُوفَ إِجْلَالِي وَدَلَائِلَ إِعْظَامِي، وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْهَا لِي تَشْرِيفًا كَبِيرًا، وَأَطْنُ أَنْ مِنْ كُفْرَانٍ نِعْمَتِهَا أَنْ أَتَمَّهَا بِخِيَاتِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذُنُوبِهَا أَنْ كُنْتُ جَادًّا فِيهَا لَمْ يَكُنْ بِأَتِيهِ غَيْرِي إِلَّا هَازِلًا .

غَيْرَ أَنِّي إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنِّي كُنْتُ أَفْكَرُ فِي أَمْرِهَا دَائِمًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ كُنْتُ كَاذِبًا، فَإِنَّ الصَّدْمَةَ الَّتِي هَدَمَتْ صَرْحَ غُرُورِي بِهَا، تَلَتْهَا سَاعَةٌ دَهْشٍ وَذُحُولٍ، خَبَلَ إِلَيَّ فِيهَا أَرْبَ السَّمَاءِ خَرَّتْ عَلَى رَأْسِي، وَصِرْتُ كَأَنِّي فِي حِزِّ الْفَنَاءِ . قَدْ تَقُولِينَ لِي : إِنَّكَ لَسْتَ أَوَّلَ مَنْ ابْتُلِيَ بِهَذِهِ الضَّرْبِ مِنْ انْكِشَافِ الْأَبَاطِيلِ وَزَوَالِ الْأَوْهَامِ، وَهُوَ قَوْلٌ لَا رَبَّ عِنْدِي فِي صِحَّتِهِ، غَيْرَ أَنَّ مَا يَنْتَابُ الْإِنْسَانَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ، يُحِبُّ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، فَكُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ فِي الْبَرِيَّةِ مَنْ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا فِي الْحَيَاةِ؟ أَوْ لَيْسَ الْإِنْسَانُ إِلَّا نَفَابًا لِلنَّفَاقِ؟ وَأَقُولُ إِنَّهَا لَشَدَّ مَا مَحَيَّرَتْ مِنِّي لِسْلَامَةِ نَبِيِّ وَسُرْعَةِ تَصْدِيقِي ... وَأُحْسِنُ بِقَسَمِ بَرَةِ الْغَيْبَةِ تَدَبُّبٌ فِي جِسْمِي حَتَّى تَبْلُغَ حُجَّاعَ عِظَامِي .

وَأَوَّلَ يَوْمٍ قَامَتْ بِنَفْسِي فِيهِ الرَّبِّ مِنْ صِدْقِهَا، فَرَرْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ هَامًا عَلَى
وَجْهِ كَالْمَجْنُونِ، أَخْطِطُ خَبَطَ عَشَاءٍ، وَقَدْ تَعَاقَبَتْ عَلَى بَصَرِي فِي مَسِيرِي مُشَاهِدُ
بَحْمَةٍ مِنْ سَنَابِلِ الْحِنْطَةِ الْمُدْرَكَةِ، وَالْقَنَابِيرِ الْمُفْرَدَةِ، وَمَا فِي الْمَوَاءِ مِنَ الرُّوحِ
الْخَائِفِ وَجَدًا وَحُبًّا؟ وَالْمَزَارِيعِ وَالطَّوَاغِينِ الَّتِي تَكْشِفُ لِلرَّائِي، فِي أُمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ،
مِنْ خِلَالِ مُجِيبِ الْأَنْجَارِ، وَقَدْ مَرَّقَهَا يَدُ الرِّيحِ، وَتَحْرِيرِ الْمَاءِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ بَنَائِعِهِ
الْمُتَحَبِّةِ تَحْتَ الْخَضِرَةِ، وَالْدَيْكَةِ الْمُغْتَبِطَةِ الْمُتَغَطِّرَةِ وَاقِفَةً عَلَى الدَّمَنِ وَرَافِعَةً
عَقِيرَتَهَا زُقَاتِهَا النَّفَازِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ، وَأَسْرَابِ الْمَصَافِيرِ ثَانِرَةً مُتَعَقِبَةً فِي الْجَوِّ
مُتَنَاقِرَةً، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَاطِرِ الَّتِي لَوْلَا هَذِهِ الْأَحْوَالُ لَمْزَتْ نَفْسِي وَشَرَحَتْ
صَدْرِي، فَلَمْ تَلْقِنِي عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الثَّابِتَةِ فِي ذَهْنِي وَهِيَ أَنَّهُا تَغْشَى .

لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ اللَّيْلُ قَدْ جَنَّ، فَلَمَحَتْ شَبَعًا مُبْهِمًا يَسْرِي وَجُدْرَانَ
الْيُوبِ كَأَنَّهُ ظِلٌّ، فَلَمَّا بَلَغَ مُنْعَطَفَ الشَّارِعِ سَقَطَ عَلَيْهِ سَاطِعُ نُورِ الْغَازِ الْمُنْعَكِسِ،
فَارَانِي أَنَّهُ فَاةٌ شَاحِبَةُ اللَّوْنِ رَهَةُ الثَّيَابِ، تَحْمِلُ طِفْلًا عَلَى يَدَيْهَا، وَلَسْتُ أَدْرِي تَمَامَ
الدَّرَايَةِ لِمَاذَا خَطَرَ بِفِكْرِي لِرُؤْيَيْهَا أَنَّهُا خُدِعَتْ ثُمَّ هَمِرَتْ، وَسَأَلْتُ نَفْسِي سُؤَالَ مُحِقِّ^(١)
هَلْ تَقْسِمُ النِّسَاءُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَى طَائِفَتَيْنِ، طَائِفَةٍ خَادِعَةٍ وَطَائِفَةٍ مُخْدُوعَةٍ؟
تَأَثَّرَتْ هَذِهِ الْفَتَاةُ بَعْضًا مِنَ الزَّمَنِ، يَحْذِبُنِي إِلَيْهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَطِيفِ لَا أَعْرِفُ سِرَّهُ^(٢)
حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، فَلَمَّا كَانَتْ تَمُرُّ عَلَى نُورِ مِصْبَاحٍ كُنْتُ إِخَانِي أَقْرَأُ فِي وَجْهِهَا خَاطِرَ

(١) غفرتها : صوبتها . (٢) الزَّفَا : صباح الديكة .

(٣) محق : مشاط . (٤) تأثرت : تجعت .

الِإِتِّحَارَ، وَقَدْ كُنْتُ مِنْ تَسَخُّطِي لِحَالَتِي بِحَيْثُ إِنِّي كُنْتُ أَوْدُ لَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ إِلَى
 عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَمَا حَمَمْتُ الْفَتَاةُ أَنْ دَخَلْتُ فِي مَازِيٍّ مِنْ حَارَاتٍ ضَبَقَةٍ مُظْلِمَةٍ،
 يَنْتَهِي إِلَى فَنَاءٍ تَكْتَفِيهِ أَطْلَالٌ دَارِسَةٌ، وَفِي رُكْنٍ مِنْ هَذَا الْفَنَاءِ يَرُودُ قُوْهُهَا
 بِنِظَامٍ غَلِيظٍ مِنْ خَشَبٍ مُسَوَّسٍ مُشَقَّقٍ، فَرَفَعَتْ الْغَطَاءَ بِإِحْدَى يَدَيْهَا الْعَارِيَتَيْنِ وَأَتَكَتْ
 بِمِرْفَقَيْهَا عَلَى فِمْ الْبُتْرِ، وَأَرَسَلَتْ بَصَرَهَا فِي غِيَابَتِهَا وَعَلَيْهَا سِمَةُ الْقُنُوطِ، وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ
 انْقَلَبَتِ الْقَمَرُ مِنْ قَبْضَةِ السَّحَابِ، فَالَّتِي نُورُهُ الْأَغْثَرُ عَلَى بِلَاطِ الْفَنَاءِ الْمُتَوَحِّلِ، وَكُنْتُ
 إِذْ ذَاكَ مُخْتَفِيًا خَلْفَ جُزْءٍ مِنْ جِدَارٍ أَتَّبَعُ جَمِيعَ حَرَكَاتِ الْفَتَاةِ الْمُسْكِنَةِ بِإِمْعَانٍ،
 لِأَنِّي لَمْ يَكُنْ بَقِيَ عِنْدِي رَيْبٌ فِي أَنَّهَا قَدْ صَمَّمَتْ عَلَى الْإِتِّحَارِ، وَكُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي
 أَقُلْ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي هَاهُنَا لَا مَنَعَهَا مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أَجْسُرُ حَتَّى هَذِهِ السَّاعَةِ أَنْ أَظْهَرَ
 لَهَا، خَشْيَةً أَنْ تَرِيدَهَا رُؤْيُهَا لِمَنْ شَاهَدَهَا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ غَضَابَةً وَفَلَةً، فَبَعْدَ
 أَنْ تَرَوْتُ هُنَيْهَةً كَانَ جِدُّهَا الْكَثِيبُ فِي أَشْنَائِهَا مَسْرَحِ الْإِنْفِعَالِ وَالْإِضْطِرَابِ،
 نَظَرْتُ إِلَى وَلَدِهَا، وَهَمَمْتُ بِكَلِمَاتٍ مُبْهِمَةٍ وَهِيَ تَهْزُرُ رَأْسَهَا، ثُمَّ هَرَوَلْتُ دَاخِلَةً
 أَحَدَ الْأَتْرَاجِ الْحَقِيرَةِ وَأَغْلَقْتُ بَابَهُ عَلَيْهَا .

هَذَا كُلُّ مَا عَلِمْتُهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا سَأَعْلَمُهُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْبَالِسَةِ
 فِي حَيَاتِي، وَقَدْ كُنْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ غَيْرَ أَهْلِ لِفِعْلِ الْخَيْرِ، إِذَا قُرِضَ أَنْ مِنَ الْخَيْرِ
 سَجِيَّةَ نَفْسٍ مِنَ الْمَوْتِ، كَانَتْ تُؤْمِنُ بِالْحُبِّ ثُمَّ اضْطُرَّتْ إِلَى الْكُفْرِ بِهِ وَلَعْنِهِ .

(١) اطلال جمع طلال وهو ما يخص من آثار الدار المهتمة .

(٢) غيابتها : قمرها .

(٣) الأغثر : ما لونه كالأغبر التي تخالطه حرة .

كَأَنِّي بِكَ تَسْأَلِنِي : كَيْفَ ظَهَرَ لَكَ أَنَّكَ كُنْتَ أَلْعُوبَةً لِمَوَى امْرَأَةٍ طَائِثَةٍ
 أَجِيرَةٍ ؟ فَاسْتَأْذَنُكَ فِي تَزْيِيدِكَ عَنْ سَمَاعِ تَفَاصِيلِ هَذَا الْأَمْرِ ، لِأَنَّهُ لَا تَلِيقُ بِكَ ،
 وَبِكَيْفِي فِي ذَلِكَ أَنَّ أَحْبَبَّكَ بِأَنَّهَا كَانَتْ مُحَرَّضُ طَالِبِينَ أَوْ ثَلَاثَةٍ غَيْرِي عَلَى التَّقَرُّبِ
 مِنْهَا ، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بِمَبُولِ مَسَاعِيمٍ ، وَهَذَا يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ أَمِيرٍ وَرَتَمَبُورَعِي ^(١) يُقَالُ
 إِنَّمَا يُحِبُّهُ لِمَالِهِ ، فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبْصَرَ أَحَدٌ فِي حَيَاتِهِ نَظِيرَةَ لِنَيْكَ الْمَرْأَةَ ؟

لَمْ يَكُنْ هَمِيلْتُ مِثْلِي فِي سُوءِ الْحِظِّ لِمَا كَانَ يَقُولُ لِمَعشُوقَتِهِ "أَوْفِيلَا" « أَتَيْتُهَا
 الْمَرْأَةُ اسْمُكَ الْخُورُ » فَإِنَّ اسْمَ صَاحِبَتِي هُوَ الْكَذِبُ وَالْمَكْرُ وَالْغَشُّ . هَذَا هُوَ التَّمَثُّلُ
 الَّذِي بَحْثُهُ بِخُورِ أَمَانِي ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَيْنَ الْإِلَهَاتِ الْعَفِيفَاتِ مَكَانًا ، وَكُنْتُ
 أَمْنِي لَوْ دَنْتُ مِثْلِي الْكَوَكِبُ فَأَنْتَرَعْتُهَا مِنْ نِظَامِهَا وَنَظَّمْتُ لَهُ مِنْهَا إِكْلِيلًا ،
 عَلَى أَنَّ لِي أَمْرًا يُسَلِّبُنِي ، وَهُوَ أَنِّي لَمْ أَذْنِسِ الْحُبَّ فِي حَالِ جُنُونِي بِهِ .

فَاعْلَمِي يَا أُمَامُهُ لَا يَزَالُ مِنْ حَقِّي أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْكَ غَيْرَ خَجِيلٍ ، لِأَنَّ خَطِيئَتِي
 إِنَّمَا كَانَتْ سُوءَ حُكْمٍ ، لَا ارْتِكَابًا لَشَيْءٍ مِنَ الْفُجُورِ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَقْلُلُ مِنِ
 اسْتِمَاحَتِي لِعَفْوِكَ ، فَاعْفِرِي لَوْلَيْكَ هَفْوَتُهُ حَتَّى يُمَكِّنَهُ أَنْ يَغْفِرَهَا لِنَفْسِهِ . اهـ

(١) ورتمبورغ نسبة إلى ورتمبورغ إحدى ولايات ألمانيا .

(٢) هملت هو أمير جوتلاند الذي تظاهر بالجنون ليأخذ بثأر أبيه الذي قتل أخوه باسم وقد مر ذكره
 وهو الذي كتب عنه شكسبير قصته التمثيلية المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالديا تارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦
 نسًا وعاصمتها فيبورغ . (٣) الفجور : الانبعاث في المعاصي والزنى والنسق — نعم هذا الخلق
 الذي يمكن الشاب من ضبط نفسه والتغلب على هواه وعدم استسلامه لشراته ويجب إليه التزام الفضيلة
 والتجافي عن مزالي الرذيلة — المرحوم .

الرسالة الثامنة

من هيلانة إلى «إميل»

عن لوندرة في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٦

« غرور الشاب في الحب وبيان حقيقته »

إِعلم يا ولدي العزيز أن ما وقع فيه من ضروب النوى هو الذي يهيننا سيل
الرُشد ، وأن ما نقتربه من الذنوب هو الذي يبيتنا - إذا تأملت منه صمائرنا -
بأن لنا في نفوسنا قانوناً زاجراً ، وأن الحكمة في رأيي هي أن نستفيد من كليهما
لشعلم .

لم تدهشني نهاية قصتك ، وسأحمي كل التحامى أن أعيب سيرتك فيها ، لأنك
قد عبتنا بنفسك ، ولم يكن كل ما كان في وسعي تأديته إليك من النصائح قبل
ختمها المحزن ليساوى ما وعظتك به تجربتك الذاتية . إن في أمور الكون لعدلاً .
وإن الدهر ليضطرها إلى أن تظهر للناس على حقيقتها ، وإن كان يلد لمخيلة
الإنسان أن ترينها بالألوان المموهة وتغشها بالآستار الحاجية ، وبهذا كان الدهر
أستاذنا جميعاً .

على أنى إن لم أقر لك بأن مكتوبك الأول سبب لي أشد ضروب القلق
والحيرة ، كنت قد كتمتك بعض الحق ، نعم قد كان لي من الثقة بطيب عنصريك ،
وبما أعرفه فيه من أصول الشرف ، ما يكفيني للإطمئنان إنك لا تسفل لارتكاب
دنيئة ما ، وليكني كنت أخاف عليك وأنت في هذه السن خدع القلب ، وجمعات

الْعُجْبِ الْمُقْتُونِ، وَأَمَّا نِيَّ الْبَسَالَةِ الْخَادِعَةِ، فَمَا يُوجِبُ الْأَسْفَ أَنْ أَصْدَقَ النَّاسِ فِي الْحُبِّ، وَأَخْلَصَهُمْ لَهُ، هُمْ كَذَلِكَ أَشَدُّهُمْ تَعَرُّضًا لِمَخَاطِرِ دَسَائِسِهِ، وَأَمَّا الشَّبَّانُ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ قُدْوَةً لَهُمْ فِي سِيرَتِهِمْ، فَإِنَّ قُلُوبَهُمُ الْجَامِدَةَ لَا تُخَدِّعُ بِكَذِبِ الظُّوَاهِرِ، وَهُمْ الَّذِينَ جُعِلَتْ لَهُمُ الْمَعَجَاتُ الْمُهَيَّجَةُ، كَمَا جُعِلَتْ الْخُمُورُ الْمُتَبَلَّةُ لِلْسَّكِينِ .

تَرَاهُمْ يَبْدُلُونَ مِنَ الْهَمَةِ وَالنَّشَاطِ فِي تَحْصِيلِ الْغِبْطَةِ أَكْثَرًا يَلْزَمُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا فِي أَسْوَى عَيْشٍ وَأَنْكَدِهِ، هَؤُلَاءِ الْجَوَّالُونَ فِي مِيزَانِ الْفَرَامِ، الْمُتَعَاطُونَ لِدَسَائِسِهِ، قَدْ اعْتَاضُوا عَنِ الْحُبِّ بِظُلْمِهِ (أَعْنَى الظُّرْفَ وَالْكِيَّاسَةَ فِي مُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ) وَإِنَّ خِصَّةَ عَوَاطِفِهِمْ لَتَلْتَلِ عَلَى خُلُومِهِمِ مِنَ الْإِدْرَاكِ، وَهُمْ شَبِيهُونَ عِنْدِي بِاتِّجَارِ الصَّفَصَافِ الْجَوْفَاءِ الَّتِي تُصَادَفُ عَلَى حَافَةِ السَّوَادِي (الْأَنْهَارِ الصَّغِيرَةِ) فِي أَنَّهَا لَتَمَفِّنُ قُلُوبَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا حَيَاةٌ إِلَّا فِي قُشُورِهَا .

الْأُمُّ الَّتِي لَا تُجِلُّ رَجَالَهَا نِسَاءَهَا، وَلَا نِسَاءَهَا أَنْفُسَهُنَّ، غَيْرُ جَدِيرَةٍ بِالْحُرِّيَّةِ، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّ جَمِيعَ عَصُورِ الْإِسْتِعْبَادِ وَاتِّخَاطِ النَّفُوسِ، كَانَتْ هِيَ عَصُورَ فَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَالْإِنْهِيَامِ فِي الرِّذَائِلِ، فَإِذَا زَالَتْ هَيْئَةُ الدِّينِ مِنَ النَّفُوسِ، وَأَنْعَمَ إِحْسَاسُ النَّاسِ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْفُرُوضِ الْكُبْرَى، رَأَيْتَ النَّاشِئِينَ إِذَا أَعُوْزَهُمْ مَا يَضِيعُونَ فِيهِ أَوْقَاتَهُمْ، يَتَّصِدُونَ الْمَلَأْدَ الْمُهْلَةَ، فَارْبَابُ نَفْسِكَ عَنْ هَذِهِ الرَّدْعَةِ ^(١) فَلَا مَقَرَّكَ فِيهَا .

إِنِّي رُبَّمَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْكَ بِنَفْسِكَ ، لِأَنَّهُ يَتَّفِقُ كَثِيرًا لِمَنْ هُمْ فِي سِنِّكَ أَنْ
يَضِلُّوا ، فَيَسْطُوا فِي طَلَبِ مَسَالٍ مِنَ الْوَاقِعِ لِمَا يَتَخِيلُونَهُ مِنْ مَتْنَبَى الْكَلَالِ فَيَمَنْ
يُرِيدُونَ أَنْ يَحْمِلُوا مَنَاطِلَ حُبِّهِمْ ، وَهُوَ قَرِيبُ الْمَنَالِ مِنْهُمْ ، حَاضِرٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . أَرَى
أَنَّكَ فَوْقَ حَقِّكَ عَلَى مَنْ غَرَّتْكَ ، نَادِمٌ عَلَى أَنَّ كُنْتَ غَيْرَ صَادِقٍ فِي حُبِّكَ ، فَتَأَمَّلْ
فِي بَاطِنِ مَا تَحْفَظُهُ ذَاكَ كُنْتُ ، تَحْدِثُنِي قَدْ أَصَبْتُ الْمَرْمَى فِيهَا أَقُولُ ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ بِوُجُودِ
ذَاتٍ مِنْ أَتْرَابِكَ تُفَكِّرُ فِيهَا ، وَلَا تَتَكَلَّمُ فِي شَأْنِهَا ، وَتَذْكُرُ مَلَاحِجَ وَجْهِهَا ، وَأَنْسَامَهَا
وَنَبْرَاتِ صَوْتِهَا ، وَكُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، حَتَّى تَنْبَاتِ حُلَّتُهَا تَمَامَ الذِّكْرِ ، وَإِنْ مِثَالَهَا
الطَّاهِرَ لَيَسْرِى سَرِيانَ الشَّعَاعِ فَوْقَ كِتَابِكَ ، إِذَا فَتَحْتَهُ لِقَرَأٍ فِيهِ مَا صَنَفَهُ الشُّعْرَاءُ ،
وَرَأَيْتَ تَوَدُّ لَوْ تُسَاهِدُ مَعَهَا كُلَّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْجَمَالِ ، وَتَسْمَعُ جَمِيعَ مَا لِلْبَرِيَّةِ مِنَ
الْأَغَارِيدِ ، وَيَعْنِي الَّتِي يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا مَا تَتَخِيلُهُ مِنْ مَعْنَى الْفَضِيلَةِ ، وَتَوَدُّ مِنْ أَجْلِهَا لَوْ
تَكُونُ أَفْضَلَ الْفَضَلَاءِ ، فَتَلِكِ الذَّاتُ هِيَ الَّتِي تُحِبُّهَا ، فَإِنْ لَمْ تَأْنَسْ مِنْ نَفْسِكَ شَيْئًا
مِنْ هَذَا ، لَمْ تَكُنْ حَتَّى الْآنَ إِلَّا طِفْلًا ، وَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْتَقِدَ فِي نَفْسِكَ أَنَّكَ مُحِبٌّ .
فَالْحُبُّ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّفْسَ وَيَبْعَثُ عَلَى طَلَبِ الْخَيْرِ ، وَعَلَى أَنْ يَقْتَضِيَ
الْمُحِبُّ مِنْ نَفْسِهِ لِحَبُوبِهِ كُلَّ مَا يَقْتَضِيهِ لِنَفْسِهِ مِنْهُ ، لِأَنَّ الْحُبَّ هُوَ انْصَافٌ
بِالْقَلْبِ .

فَإِذَا تَرَبَّصْتَ حَتَّى يَحْصُلَ فِي نَفْسِكَ هَذَا الْوِجْدَانُ الطَّاهِرُ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُدَنَّسَ
اسْمُهُ بِإِجْرَائِهِ عَلَى لِسَانِكَ قَبْلَ حُصُولِهِ ، وَإِلَّا نَدِمْتَ فِيمَا بَعْدَ أَنْ لَوُثَتْ شَفَتُكَ
بِالْكُذِبِ .

وَالشَّبَابِ خَطَا آخَرٍ فِي الْحُبِّ، وَهُوَ تَوَهُّمُهُمْ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ بِدَسَائِسَ وَقَائِعِ
كَأَلِي تَرَوِي فِي الْقِيَصِصِ، أَزْدَادَتْ لَذَّتَهُ وَكَثُرَ الْإِتِّجَاعُ بِهِ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهُّمُونَ
لِأَنَّ فِي الْحُبِّ مِنَ الْعَظْمَةِ الذَّائِبَةِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ زَخَارِفِ الْحَيَالِ، فَالْفَلَاحُ الْبَارِ إِذَا
رَاحَ إِلَى بَيْتِهِ مَسَاءً، بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ عَمَلِهِ، وَجَلَسَ لِتَنَاوُلِ مَرْقَتِهِ وَآخَذَ بِلَحْظِ زَوْجَتِهِ
وَبِهِ تَفْزِيلٌ أَوْ تَحِيْطٌ بِحَايِبِ الْمُصْطَلَى، ثُمَّ يَمْسَحُ رُؤْسَ أَوْلَادِهِ غِلَاطِ الْوَجَنَاتِ مُنَادِيًا
كُلًّا مِنْهُمْ بِاسْمِهِ، وَيَذْكُرُ فِي نَفْسِهِ زَمَنَ تَرْقِيهِ لِرُوحَتِهِ «جَنَّة» يَوْمَ الْأَحَدِ، فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ
الدَّرْدَارِ الْكُبْرَى فِي الْمَرْزَعَةِ، وَيَرَاهَا لَا تَزَالُ غَضِبَةَ الْحُسَيْنِ، مَوْفُورَةَ الشَّبَابِ —
كَانَ أَهْجَ خِيَالًا أَضْعَافًا كَثِيرَةً مِنْ حِطْلَى الْإِلَهِ مِنْ الْأَهَاتِ الْحُبِّ الْجَدِيدَةِ .

الشَّبَابُ هُوَ مِنَ الْأَمَانِيِّ وَالْأَحْلَامِ، وَطَوْرُ الْخَيَالَاتِ وَالْأَوَاهَامِ، ثُمَّ إِنَّ كَثَرَةَ
الْمُطَالَعَةِ لَا تَمُتُّ لَهَا فِي أَغْلِبِ الْأَحْيَانِ إِلَّا إِنْسَادُ حُكْمِ الْقَلْبِ، حَتَّى أَنَّ الْحُبَّ
فِي غَايَةِ الْفَنَى عَنِ الْقِيَصِصِ الْخُرَافِيَّةِ، لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ تَارِيخٍ لِأَصَحِّ مَا فِي فِطْرَتِنَا مِنْ
ضُرُوبِ الرِّجْدَانِ وَأَشَدِّهَا اسْتِقْلَالًا، فَوَيْلٌ لِمَنْ لَا يَعِشُقُ وَيَتَوَلَّى إِلَّا فِي الْحُلْمِ، لِأَنَّهُ
لَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْكَشِفَ وَهْمُهُ إِذَا حَانَ وَقْتُ انْتِبَاحِهِ .

يَجِبُ عَلَيْكَ قَبْلَ اهْتِمَامِكَ بِاخْتِيَارِ امْرَأَةٍ مُجِبِّهَا، أَنْ تُوَجِّدَ لِنَفْسِكَ بَيْنَ النَّاسِ
مَقَامًا، فَإِنَّ كُلَّ عَمَلٍ تَعْمَلُهُ فِي سَبِيلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ، وَرَفْعِ شَأْنِكَ فِي نَظَرِ نَفْسِكَ،
وَمُغَالَبَةِ مَا لِلآثَرَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَمِيلِ الْأَعْمَى، وَبُلُوغِ مَا لِلْإِنْسَانِ مِنَ الشَّرَفِ، يُفِيدُ الْمَرْأَةَ

(١) المصطل : محل الاصطلاح والاسطقا . بالنار .

(٢) الحطلى المحبوب المرفوع المزلة .

الَّتِي سَتَجِبُهَا كَمَا يُهَيْدُكَ، وَكُنْ وَأَمَّا بَأْنْ هَذَا لَا يُعْدُ مِنْكَ فِي حَقِّهَا كَثِيرًا، إِذَا كَانَ
سَهْلًا أَنْ تَكُونَ أَهْلًا لِإِجْلَالِهَا لَكَ، حِفْظًا لِشَرَفِكَ وَصَوْنًا لِعِرْضِكَ .

حَاشِيَةٌ : فَأَتَنِي أَنْ أَخْبِرَكَ بِأَنْ « لَوْ لَا » تَعَلَّمُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَقْبَلَهَا بِجَمِيعَةِ
الطَّبِيبَاتِ بِلُونْدَرَّةٍ فِي عِدَايِهِنَّ وَكُلُّنَا نُحِبُّكَ ^(١) اهـ

الرسالة التاسعة

مِنْ « إِمِيل » إِلَى أَبِيهِ

عن هَيْدِلِرِغٍ فِي ١٨ يَنَايِرِسْتَه — ١٨٦

«الْإِسْتِقْلَالُ فِي الْعِلْمِ — حِكْمَةُ الْخَلْقِ وَالْشُّكُوبِ وَالْإِجْتِمَاعِ وَالْمَدَنِيَّةِ»

«الْإِعْتِمَادُ عَلَى الْعَقْلِ دُونَ الْحُطَّابَةِ — حُبُّ الْوَطَنِ»

غَادَرْتُ مَدِينَةَ «بُنْ» وَتَقَلْتُ كَثِيرًا — وَهِيَ كُلُّ مَا أَمْلِكُكَ تَقْرِيًّا — إِلَى مَدِينَةِ
«هَيْدِلِرِغٍ» . وَمِنْ نِظَامِ الْمَدَارِسِ الْجَامِعَةِ فِي الْمَنَاقِبِ أَنَّهُ يُحَوِّزُ لَطَبِيبَتَهَا مُطْلَقًا
أَنْ يَتَقَبَّلُوا مِنْ إِحْدَاهَا إِلَى الْأُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ ضَيَاعٌ لِحُقُوقِهِمْ
فِيمَا نَالُوهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ، عَلَى أَنَّ هَذَا التَّنَقُّلَ يُمَكِّنُ الطَّلَبَةَ مِنَ الْإِخْتِلَافِ إِلَى دَرَسِ
أَتَنِجِ الْأَسَاتِذَةِ وَأَشْهَرِهِمْ فِي كُلِّ فَرْجٍ مِنْ فُرُوجِ الْعُلُومِ الْبَشَرِيَّةِ .

(١) لقد أصابت هيلانة الحق ونظقت بالحكمة في بيانها البالغ لعنى الحب الصاهر، وولجت غاية اللطيف
في دلالة ولدها على من هي جديرة بحبه، وهي تربه «لولا» التي تنفذ منه بلان القضية وترتت مشبه
في كيف ذنبك الزوجين الحكيمين تربية جمعتهما أو اصرها فامتزجت روحها بروحه وتناسبا طبعيا وشيئا
ضمار كل منهما خليقا بحب صاحبه . المترجم .

إِخَالِي تَعَلَّمْتُ كَثِيرًا مِنْ دُرُوسِ هَؤُلَاءِ الْأَسَاتِذَةِ الْمُفِيدَةِ ، وَلَكِنِّي كُلَّ يَوْمٍ أَتَبَيَّنُ أَنَّ تَعْلِيمَ الْمَدَارِسِ بِجُودِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ لِطَالِبِ الْحَقِّ مَقَامَ عَمَلِهِ الذَّائِقِ ، الَّذِي يَجْرِي فِيهِ عَلَى مَا تُرْشِدُهُ إِلَيْهِ سِرُّهُ .

أَرَى مَذْهَبَيْنِ يَتَنَازَعَانِ عُقُولَ الْبَشَرِ ، أَحَدُهُمَا أَيْمًا وَجِهَتْ فِكْرِي ، فَأَجِدُهُمَا فِي الْعِلْمِ ، وَالْحِكْمَةِ ، وَالدِّينِ ، وَالسِّيَاسَةِ ، وَمُقْتَضَى الْمَذْهَبِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعَالَمَ خُلِقَ مَقْصُورًا ، أَيَّ أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ خُصَّصَ بِإِرَادَةِ أَزَلِيَّةٍ ، وَأَنَّ صُورَ الْحَيَاةِ فِي الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، فَتَنْدَجُ الْأُصُولُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَتَنْتَجِجُ الْفُرُوعُ نَاقِلَةً مُحْصَصَاتِ كُلِّ نَوْعٍ عَنْ مِثَالِ أَزَلِيٍّ لَهُ ، وَمُقْتَضَى الْمَذْهَبِ الثَّانِي أَنَّهُ وَجِدَ مُخْتَارًا بِمَعْنَى أَنَّ الْكَائِنَاتِ لَمْ تُوجَدْ مِنَ الْقَدَمِ ، بَلِ اسْتَحَالَتْ مِنْ طَوْرِ إِلَى طَوْرٍ ، وَأَنَّ الْقُوَى لَمْ تَسْقُ فِي الْوُجُودِ بَلْ نَمَتْ ، وَأَنَّ الْأَنْوَاعَ النَّبَاتِيَّةَ وَالْمَعْدِنِيَّةَ (هَكَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَّ صَوَابَهُ وَالْحَيَوَانِيَّةَ) مُسْتَمِرَّةٌ الْبَقَاءَ غَيْرَ أَنَّهَا تَتَغَيَّرُ وَتَرْقِي عَلَى مُقْتَضَى نَوَامِيسٍ طَبِيعِيَّةٍ .

وَإِذَا انْتَقَلْتُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى التَّارِيخِ ، وَجَدْتُ هَذَا الْإِخْتِلَافَ بَيْنَهُ فِي آرَاءِ النَّاسِ ، فَيَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّمَدُّنَ قَدِيمٌ وَجِدَّ مَعَ الْإِنْسَانِ ، بِمَعْنَى أَنَّ الْإِجْتِمَاعَ أَوْجَدَتْهُ قُدْرَةُ أَهْلِ مِنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ ، وَأَنَّ أُمَّةً مِنْ الْأُمَمِ لَيْسَ لَهَا أَنْ تَخْتَارَ قَوَائِمَهَا وَلَوْضَاعَهَا ، وَأَنَّ لِلْحُكُومَةِ مِثْلًا لَا تَحِيدُ عَنْهَا الْأُمَمُ حَتَّى تَسْقُطَ فِي مَهَاوِي الْقُوضَى ، وَيَرَى بَعْضُ آخَرٍ خِلَافًا لِلأَوَّلِينَ أَنَّ الْإِنْسَانَ نَسَاءً مُتَوَحِّشًا ، أَيُّ أَنَّهُ كَانَ قَرْدًا مُتَقَنَّ الخَلْقَةِ ، فَفَرَمَ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ ، وَأَنشَأَ عَلَى التَّعَاقُبِ قَوَائِمَهُ وَمَعَايِشَهُ وَمَكَاتِنَهُ فِي الْبَرِّيَّةِ ، بَعْدَ أَنْ خَلَقَ نَفْسَهُ — إِنْ مَعَ التَّعْيِيرِ عَلَى هَذَا النُّعْوِ — وَأَنَّ الْأُمَمَ

قَدْ مَرَّتْ فِي أَطْوَارِ مُجْوَها بِدَايَا أَوْضَاعٍ ، لَمْ تَلْبَثْ أَنْ ابْتَدَعْتَ مِنْهَا بِنَائِبِ الرُّقَى
الَّذِي لَا رَادَّ لَهُ ، فَكَمَا أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ بِنَفْسِهَا ، يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ وَيُؤَلَّفُ بِجَمْعِهِ
بِقُوَاهُ الذَّائِيَةِ .

وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الدِّيَانَاتِ وَصَدَقْتَ أَقْوَالَ مُؤَلِّيهَا ، كَانَتْ كُلُّهَا مُوَاحِدَةً مِنْ أَفْهَمِ
فَإِذَا سَأَلْتَ خُصُومَهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ فِيهَا ، نَالُوا بِهَا أُمُورَ طَبِيعَةٍ تَدْخُلُ فِي قَوَائِنِ إِدْرَاكِ
الْإِنْسَانِ الْمَالُوفَةِ .

وَمَا أَشَدَّ التَّبَايُنَ وَأَوْسَعَ مَسَافَةَ الْخُلْفِ ، إِذَا سَأَلْتَ أَهْلَ وَطَنِي عَنْ آرَائِهِمْ
فِي الْأُمُورِ السِّيَاسِيَةِ ! وَقَدْ اسْتَخْلَصْتُ مِنْ اخْتِلَافِ طُرُقِ النَّظَرِ هَذِهِ نَتِيجَةً ، هِيَ
أَنِّي مَعَ بَعْثِي فِي أَفْكَارٍ غَيْرِي وَآرَائِهِ ، لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعَوَّلَ إِلَّا عَلَى شَهَادَةِ عَقْلِي
وَسِرِّي ، هَذِهِ هِيَ السَّبِيلُ الَّتِي صَحَّمتُ عَلَى سُلُوكِهَا ، وَهِيَ الَّتِي أَوْصَحْتُ لِي أَنَّ
أَيْضًا ، وَيَعْدُ كُلُّ الْبَعْدِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الضَّرُورَةُ الْمُلْجِئَةُ لِي إِلَى الْحُكْمِ بِنَفْسِي عَلَى
الْأُمُورِ مَدْعَاةً إِلَى الْكِبَرِ وَالصَّلَافِ ، بَلْ هِيَ تَبَعْتُ فِي نَفْسِي الدَّلَّةَ وَالِاسْتِكَانَةَ ، لِأَنِّي
أَكُونُ مُضْطَرًّا فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَى الْإِعْرَافِ لِنَفْسِي بِأَنِّي لَا أَعْرِفُ شَيْئًا ، وَأَنَّهُ يَجِبُ
عَلَيَّ أَنْ أَتَدَرَّجَ بِالْإِقْدَامِ وَأَنْ أُوسِّعَ نِطاقَ مَعَارِفِي ، وَأَخْتَلِسَ مِنَ النَّظَرِ فِي الْحَوَادِثِ
مُقَدِّمَاتِ افْتِنَاعِي ، وَأَمَّا الْبَرَاهِينُ الْخَطَاطِيَّةُ ، الَّتِي كُنْتُ أَعْتَقِدُ فِي سَاعَةٍ مِنَ السَّاعَاتِ
أَنِّي أَدْرِكُ بِهَا مَا لَا حَدَّ لَهُ مِنَ الْعَوَالِمِ ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا شِبْهَةٌ بِتِلْكَ الْأَصْدَافِ الَّتِي
يَنْتَاقِلُهَا الْأَطْفَالُ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى آذَانِهِمْ ، مُتَخَيِّلِينَ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ فِيهَا
اصْطِطَابَ الْبَحْرِ .

عَلَى أَنِّي لَا أَدْرُسُ وَأَبْحَثُ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَكُونَ عَالِمًا ، فَكُلُّ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ
 طَمَعِي يَنْحَصِرُ فِي فَهْمِ حَاجَاتِ الْعَصْرِ الَّذِي أَعِيشُ فِيهِ وَالْأَخْذِ بِنَاصِرِ الْحَقِّ ،
 وَهَيْهَاتَ أَنْ أَنْسَى بِلَادِي ، أَوْ أَعِيشَ غَيْرَ مِثَالِ مُجَاهِدَاتِهَا ، فَإِنِّي وَإِنْ وُلِدْتُ فِي بِلَادٍ
 أَعْجَنِيَّةٍ ، أَسْجُدُ فَرَسَةً حَيْثُمَا نَفَرْتُ ، فَإِنَّمَا تَبْدُو لِي فِي انْتِصَارِهَا الْكَثِيرِ الَّذِي انْتَشَرَ
 فِي أَرْجَاءِ الدُّنْيَا ، وَأَرَاهَا حَتَّى فِي مَصَائِمِهَا الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا ، عِقَابًا لِرَجُلٍ مِنْ رَجَالِهَا
 عَلَى تَقَطُّرِهِ وَتَجْبُرِهِ ، هَذَا الْوَطَنُ الَّذِي مَا رَأَيْتُهُ فِي جِيَانِي ، هُوَ فِي نَسَبَتِهِ إِلَى أُمِّي
 الثَّانِيَّةُ ، فَلَا يُذَكَّرُ إِلَّا وَبِقَشَعِ جِلْدِي لِذِكْرِهِ ، وَلَا يَنْقُصُ إِلَّا وَبِتَبَيُّغِ دَمِي كُلِّهِ
 انْتِقَامًا لَهُ . وَلَيْسَ الَّذِي يُشِيرُ بِإِعْجَابِي بِهِ هُوَ غَزَاؤُهُ وَوَقَائِعُهُ الْحَرِّيَّةُ ، وَإِنَّمَا هُوَ
 تَارِيخُ مُكَاثَمَاتِهِ وَوَبَائِهِ الْبَاسِلَةِ فِي طَرِيقِ الْحَرِّيَّةِ ، وَإِنِّي أُحِبُّ مُفَكِّرِيهِ الَّذِينَ
 يَسْلُونَ فِيهِ وَهُمْ يَضْحَكُونَ . وَأُعْجِبُ بِكُنَاهِهِ الَّذِينَ يَسْجُونَ الْقُلُوبَ وَهُمْ لِنُورِ الْعِلْمِ
 يَشْتُونَ ، فَأَنَا مِنْ صِغِيرِ قَلْبِي مُلْكٌ لَهُ ، وَمَا فِي نَفْسِي مِنَ الْأَمَلِ فِي خِدْمَتِهِ يَوْمًا
 مَا يَجِدُنِي مُقْبِطًا وَمُعْتَرًّا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَيْكَ . ا هـ^(٣)

(١) ينقص أى يقع فيه الناس ويدونه .

(٢) باغ اللهم وتبغ فاروهاج .

(٣) إن ما زعمه "إميل" في هذه الرسالة من اكتشافه في البحث عن الحق ، فما اختلف الناس فيه من
 حدودك العقول ، بشهادة عقله ومرتبه ، فيه من النور والوهم ما فيه ، فان هداية العقل نافعة لأنه لا مجال
 له فيما رواه استداده ، ولأن البريرة والوجدان ليست إلا حاسة باطنة كما قلنا فيما سبق يتاورها الخلل
 وتوصيها الطل ، ولولا ذلك لاهدى الناس جميعا الى الحق ، ولا قطعت بينهم مادة الخلاف ، وإنما الهداية
 الكاملة التي لا يمتورها النقص ولا ترقى الى ضلال إنما هي هداية الله المستفاد من وجهه الى رسله فمن
 سبها فلا يضل ولا يشق ومن أعرض عنها فان له مبيشة ضنكا ويحشر يوم النيامة أحمى — المترجم .

الرسالة العاشرة

(من اراسم الى ولده)

عن لوندرة في ٥ فبراير سنة ١٨٦ —

بَيَانٌ وَجُوبٌ أَنْ يَكُونَ لِلشَّابِّ الْمُتَعَلِّمِ رَأْيٌ فِي مِيسَايَةِ بِلَادِهِ

لَا حَقَّ لَكَ يَا عِزْرِي «إميل» فِي أَنْ تَكُونَ بِلا رَأْيٍ سِيَاسِيٍّ، فَأَيْمًا رَجُلٌ
يَعِيشُ فِي قَوْمٍ وَيُظْهِرُ مُعْتَرِلًا لِمَا يَتَعَارَضُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَصَالِحِ، غَافِلًا عَمَّا يَتَقَاسَمُ
عُقُوبَتُهُمْ مِنَ الْمَذَاهِبِ، فَهُوَ فِي غَايَةِ الْحَقَارَةِ وَالْخِصَّةِ، وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَنْشَأَ بَيْنَ
الْمُتَوَحِّشِينَ، بَلِ الْمُتَوَحِّشُونَ يَسْتَفِلُّونَ بِمَصَالِحِ قَبِيلَتِهِمْ بِغَيْرَةِ وَجْهِةٍ .

نَمَّ قَدْ كَانَ رُؤَسَاءُ الْحُكُومَاتِ أَكْثَرًا لِلنَّاسِ فِي الْأَزْمَانِ الْفَارِغَةِ، أَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِسِيَاسَتِهِمْ وَتَدْيِيرِ شُؤْنِهِمْ، وَكَانَ عَمَلُ الرِّعَايَا عَلَى هَذَا الْقَرَضِ قَدْ قُصِرَ
عَلَى الطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ لِأَوَامِرِهِمْ، فَكَانُوا يَلْكَأُ لَوْلَاتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ، كَمَا تَمْلِكُ الْأَرْضُ،
وَلَا حَقَّ لِلْأَرْضِ فِي أَنْ تُسَوَّرَ عَلَى الْبَيْدِ الْعَامِلَةِ فِيهَا، وَأَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْبِلَادِ
الْمُتَهَدِّيةِ بِهَدْيِ الْعِلْمِ مِنْ أَنْصَارِ هَذَا الْحَقِّ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَزْعُمُهُ الْمُلُوكُ إِلَّا الْقَتْدُ
الْبَاسِرُ، وَقَدْ قَضَى الْعَقْلُ عَلَى بَعْضِ الْمَذَاهِبِ السِّيَاسِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ مِنَ الْقَوَائِنِ الْإِلَهِيَّةِ،
ثُمَّ دَلَّ التَّارِيخُ عَلَى أَنَّ السَّلَاطِينَ كَانُوا يَسْقُطُونَ مِنْ عُرُوشِهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عِنَايَةُ اللَّهِ
تَأْخُذُ سِلَاحَهَا لِتَصْرِفَهُمْ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَيْسُورِ لِلأُمَمِ كُلِّ الْبَاسِرِ أَنْ يَسْتَغْنُوا عَنْهُمْ .

(١) ما اذمه الكاتب من تأكيد بعض الملوك لرعاياهم أنهم مرسلون من عند الله أمر ثابت في التاريخ
بل قد بلغ الغلو في هذه الدعوى بعضهم أن ادعى الألوهية، والصحيح المعروف لدى العقول المطهرة من
عرب من مذهب الماديين أنهم حيد استنطقهم الله في الأرض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم، فإن =

هَذَا السُّلْطَانُ الْمَعْصُومُ الَّذِي لَمْ يَكْدَ يَبْقَى لِلْإِنْسَانِ جَرَأَةٌ عَلَى ادْعَائِهِ
لِلْإِخْتِصَاصِ فِي وَجْهِ عَيْرِ التَّجَرُّبَةِ الرَّابِعَةِ، لَا يَزَالُ يُدْعَى لِلْأَوْضَاعِ الْبَشَرِيَّةِ، فَلَا تَكَادُ
أَيَّةُ حُكُومَةٍ مِنَ الْحُكُومَاتِ تَسْتَقِرُّ حَتَّى تَدْعَى أَنَّهَا خَلَّتْ مَحَلَّ الْمَحْكُومِينَ
فِي أَفْكَارِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْإِلَادَ الَّتِي وُضِعَتْ حُكُومَتُهَا عَلَى هَذَا النَّمِطِ، يَكُونُ مِنْ عَادَةٍ
شُبُوحٌ بَيُوتُهَا لِقَرِطِ حَرِصِهِمْ وَبُلُوغِهِمْ فِيهِ حَدُّ الْحُبْنِ، أَنَّ يَعْطُوا شَبَابَهَا إِنْ لَا يَسْتَغْلَوْا
بِالْسِّيَاسَةِ .

تَسْمَعُ الْأَبَّ مِنْهُمْ يَقُولُ لِأَبْنِهِ « يَا بَنِيَّ إِنْ لَكَ أَنْ تَقْنِي وَتَرْوِجَ وَتَجْعَلَ
لِنَفْسِكَ فِي النَّاسِ ذِكْرًا، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّكَ الْإِشْغَالُ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ، لَوْجُودُ رِجَالٍ
عَهْدَ إِلَهِمُ الْحَاكِمُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْصِلُوا فِي جَمِيعِ الْمَسَائِلِ، وَيُوزَعُوا الْمُثُوبَاتِ
وَالْعُقُوبَاتِ عَلَى النَّاسِ، فَهُمْ كَمَا يَقُولُ التَّوْرَةُ أَنْفَاسٌ مِخْرَاجُهَا الَّتِي تُحْرِقُ أَمْوَالَ
الْمُعَايِدِينَ لِلنِّظَامِ الْمُقَرَّرِ، كَمَا تُحْرِقُ السَّمُومُ نَبَاتَ الْمَزَارِعِ، فَلَا حَزَمَ لَكَ أَنْ تُحْلِيَ

== أحسنوا الاخلاقه سدوا وسجد بهم ورايهم وان اساقها شقوا وشقوا بهم « يا داود انا بطناك خافه
في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله أن الذين يضلون عن سبيل لم
غذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » . وما يزيم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين
الالهية ليس صحيحا على اطلاع ، فان القوانين الالهية المحفوظة من التعريف هي أس العدل والحرية
وهي موافقة للعقل لا مصادمة له ، واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم ، وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره
من ذلك ، لا يدل إلا على أنه جاهل أن الله لا ينصر إلا من نصره باتباع أوامره وحسن السيرة في خلقه ،
وأنه نزه أن يحتاج في النصرة الى الاستعانة بقوة أو سلاح . « إنما أمرنا لشيء اذا أردناه أن نقول له
كن فيكون » .

(١) السوم : الرمح الحارة .

بَيْنَ الْحُكُومَةِ وَحَمَلِهَا، وَإِنَّا كَانَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ رَأْيٍ، فَلَا بَأْسَ فِي أَنْ تَخْتَارَ لِنَفْسِكَ مَا يُلَاقِيهَا مِنَ الْأَرَاءِ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَقْصُرَهُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ لِلْعَمَلِ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِمَصَالِحٍ غَيْرِهِ، «وَالْمَاقِلُ مَنْ يَتَوَقَّى إِدْخَالَ أَصْبُعِهِ بَيْنَ الشَّجَرَةِ وَلِحَائِهَا»^(١).

وَأَمَّا الْأُمَمُ الْحُرَّةُ فَالْأُمُورُ فِيهَا تَجْرِي عَلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ، فَلَا يَكَادُ طَالِبُ الْعِلْمِ فِيهَا يَمْلِكُ الْبَسِيرَ مِنْ فَصَاحَةِ الْمَنْطِقِ، حَتَّى يُمَارِسَ الْمُنَاطَرَةَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَكُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَرِيقًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَمِيَ إِلَى حِزْبٍ مِنَ الْأَحْزَابِ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ كُلُّ الْبَعْدِ أَنْ يَتَقَدُّوا أَنْ فِي مُجَاهَدَاتِ الْمَعِيشَةِ السِّيَاسِيَّةِ ضَرَرًا بِالْمَعِيشَةِ الْبَيْتِيَّةِ، بَلْ هُمْ يُجْلُونَ الْفَضَائِلَ الْخَاصَّةَ، عَلَى نِسْبَةِ أَنْسَاعِهَا وَامْتِدَادِهَا فِي مِيدَانِ الْقُرُوضِ الْعَامَّةِ، وَلَوْ أَنَّ وَجَدَانَ الْعَدْلِ كَانَ قَاصِرًا عَلَى الْمَعَامَلَاتِ الْخَاصَّةِ، لَعُدَّ مِنَ الظُّلْمِ فِي حَقِّ عَامَّةِ النَّاسِ^(٢).

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، قُلْتُ إِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ خُلِقَتْ لِتَكُونَ أَحْرَارًا، وَمِنْ الْعَبَثِ أَنْ يَزْعُمَ زَاعِمٌ أَنَّ مِنْهَا مَنْ هِيَ مُفْرِطَةٌ فِي الطُّغْيَانِ، وَمِنْهَا مَنْ هِيَ غَالِبَةٌ فِي التَّحَمُّسِ، وَمِنْهَا مَنْ هِيَ غَالِيَةٌ فِي الْجَهْلِ، وَمِنْهَا مَنْ هِيَ مُنْتَظِمَةٌ فِي التَّأْتِي، فَقَدْ نَبِىَ أَنَّ الْوَسِيلَةَ إِلَى تَرْفِيعِ أَخْلَاقِ الْأُمَمِ إِتْمَاعُ هِيَ تَرْفِيعُ أَوْضَاعِهَا وَقَوَائِنِهَا، وَلَا مِرَاءَ فِي أَنَّ

(١) المثل العربي « لا تدخل بين الصا ولحائها » ولما قلنا قسرها .

(٢) يعني بذلك ان شعور الانسان بوجوب العدل لو كان قاصرا على معاملة كل فرد في نفسه لكانه

ظلمًا بالنسبة لمجموع الناس فينبغي أن يكون الشعور بوجوب العدل تاما .

(٣) غالبة : مبالغة . (٤) منتظمة : منسقة .

(٥) التأق : عمل الشيء بالآفاق والحكمة .

هَذِهِ الْأَوْضَاعَ الْمُؤَسَّسَةَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ لَنْ تَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْحَقِّ
وَالْحَقُّونَ أَنْ تَنْظُرَهَا أُمَّةٌ مِنْ حُكَّامِهَا ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْحُكُومَاتِ الْمُسْتَبِدَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى
قَاعِدَةٍ أَنَّ النَّاسَ عَاجِزُونَ عَنْ سِيَاسَةِ أَنْفُسِهِمْ ، فَكَيْفَ يَرْضَى الْحُكَّامُ جَبْدَ أَنْ
يُكَذِّبُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّخَلِّي عَنْهَا ، وَقَدْ يُرْخُونَ زِمَامَهَا أحيانًا حَذَقًا مِنْهُمْ فِي تَصَرُّفِهَا
وَحَزْمًا ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ عِنْدَ الْحَاجَةِ كَيْفَ يَرْتَجِعُونَ تَصَرُّفَ شَكِيمَتِهَا ^(١) إِلَى أَيْدِيهِمْ .
لَبِستِ الْحُرِّيَّةُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا مِمَّا يُعْطَى وَيُوهَبُ ، بَلْ هِيَ مِمَّا يُفْنَى بِالْجِهَادِ
وَالْمُكَافَاةِ ، فَشِدَّةُ كِمَاجِ الْقُؤُولِ وَالْعَزَائِمِ ، وَجُمْلَةُ إِخْلَاصِ الْمُخْلِصِينَ الْخَاطِلِينَ ،
وَتَصَلُّبُ مَنْ لَا يَسْتَعْدُونَ ^(٢) لِلذَّلِّ مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ، هِيَ الَّتِي يَضْرُورَةُ الْأَحْوَالِ نَفْسَهَا
تُكْرِهُ غَاصِبِي حَقِّ الْحُرِّيَّةِ عَلَى إِرْجَاعِهِ إِلَى نَصَائِهِ ، وَرَدَّهُ إِلَى أَرْبَابِهِ ، وَمَا يَحْصُلُ
مِنْ التَّعْذِيرِ فِي أَثْنَاءِ الْجِهَادِ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ ، وَمَا يَبْقَى مِنَ الرِّقِّ دَائِمٌ لَا فَنَاءَ لَهُ ،
فَإِنَّ الْفَاطِعَ يَبْلِي بِعَمَلِهِ ^(٣) فِي الْمَقْطُوعِ .

لَيْسَ مِنْ قَصْدِي مُطْلَقًا أَنْ أَهْبَتْ فِي نَفْسِكَ كَرَاهَةَ الْأُمَّةِ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْمَعِيشَةِ
فِيهَا ، فَأَنْتَ صَاحِبُ الْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ زَمَانِكَ ، وَلَكِنْ حَذَارٍ مِنَ الْإِحْقَارِ لِنَفْسِكَ
وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ ، فَإِنَّ عَصْرَنَا سَيَشْتَهَرُ فِي التَّسَارِيخِ بِحُطُوبِهِ وَمَصَائِبِهِ ، لِأَنَّا قَدْ
عَمَلْنَا فِي الْحُكُومَاتِ الَّتِي تَعَاقَبَتْ عَلَى الْبِلَادِ ، وَهِيَ حُكُومَةُ الْإِصْلَاحِ ، وَالْحُكُومَةُ
الْمُقْبِدَةُ ، وَالْجُمْهُورِيَّةُ ، وَحُكُومَةُ نَابُلْيُونَ ، وَلَبِستِ الْعُصُورُ الَّتِي تَعْنِي وَتُؤَلِّقُنِي هِيَ

(١) شَكِيمَتِهَا : هُنَا مَتَابَهَا مَقَادَتَهَا .

(٢) يَسْتَعْدُونَ : يَخْضَعُونَ .

(٣) التَّعْذِيرُ : الْعُقَابُ .

(٤) يَبْلِي : يَضْمَلُ وَيَفْنَى .

الَّتِي تَسْعَى فِيهَا أُمَّةٌ عَظِيمَةٌ لِتَحْصِيلِ الْحُرِّيَّةِ مِنْ خِلَالِ الْحَوَادِثِ ، وَإِنَّمَا هِيَ الَّتِي تَحُلُّدُ فِيهَا إِلَى الدَّعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنَالَ حُرِّيَّتَهَا .

إِنَّ لِدَاتِي^(١) مِنْ جِبِلِّ بَدَلِ نَفْسِهِ فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَّةِ ، وَأَنَا أَشْتَهِي بِمَجَامِعِ قَلْبِي أَنْ يَكُونَ النَّاشِئُونَ أَسْعَدَ مِنْهُمْ حَظًّا وَأَوْفَرَ غِطَّةً ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ زَوْلَاتِنَا وَتَجَارِينَا .

نَحْنُ ضَلُّوْنَا فِيمَا رَجَوْنَاهُ مِنْ أَعَارِيفِ الزَّمَانِ ، وَكَلَّمَا سَأَلْتُ نَفْسِي عَنْ سَبَبِ مَصَائِبِنَا ، خَلَّتْني أَجَدُهُ فِي عُيُوبِ تَرْبِيَتِنَا السِّيَاسِيَّةِ ، فَاشْدُنَا بَعْدًا عَنْ الْإِيمَانِ يُؤْمِنُ بِالْمُعْجَزَةِ ، ذَلِكَ أَنَّهُ يَتَعَدَّدُ إِمْكَانُ تَغْيِيرِ أَحْوَالِ الْأُمَّةِ بِأَمْرِ مِنْ أَوْامِرِ حَاكِمٍ مُطْلَقٍ مُؤَقَّتِ الْحُكُومَةِ ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ بِأَمْرِ مَجْلِسٍ حَاكِمٍ . شَهِدْتُ فَرَسَةً غَيْرَ مَرَّةٍ تَلَاشِي بُيُوتَ حَاكِمَةٍ كَانَتْ تَعْتَقِدُ مَتَانَةً دَعَائِمَهَا ، وَحُبُوطَ مَقَاصِدَ لِبَعْضِ الطَّامِعِينَ مِنْ رِجَالِهَا ، الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ الْمُسْتَقْبَلَ لِأَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّمَا لِمَا انْتَصَرَتْ إِنْتَصَارَهَا لِقِيَمِ الْقَصِيرِ الْمُدَّةِ ، كَانَ اسْتِنْفَالُهَا بِتَحْرِيرِ نَفْسِهَا وَاسْتِخْلَاصِ مَصَارِيرِهَا أَقْلًا يَكْتُمُ مِنْ اسْتِنْفَالِهَا بِاخْتِيَارِ الرِّجَالِ الَّذِينَ أُلْقِيَ إِلَيْهِمُ الْإِتْمَانُ وَالْمُصَادَفَةُ زِمَامَ سِيَاسَتِهَا ، نَعَمْ إِنَّ شَكْلَ الْحُكُومَةِ وَاخْتِيَارَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يُصَرِّفُونَ زِمَامَهَا لَيْسَ بِمَا لَا يُعْبَأُ بِهِ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ هِيَ الْمُنْشِئَةُ لِحُرِّيَّتِهَا عَلَى اخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا . مَضَى زَمَنُ الْمُسَعَاءِ ، فَلَنْ يُرَى بَعْدَ الْآنَ ، لَا فِي شَكْلِ حُكُومَةٍ مُنْتَخَبَةٍ وَلَا فِي صُورَةِ حُكُومَةٍ تَأْتِي إِلَى الدُّنْيَا بِالنُّورِ وَالْهُدَى ، فَهَلَيْتَا أَنْ نُخَلِّصَ أَنْفُسَنَا مِنْ خِدَاعِ النَّاسِ ، وَنُظْهِرَهَا

(١) لِدَاتِي الَّذِينَ هُمْ مِنْ سَنَى .

(٢) ضَلُّوْنَا أَيْ تَشَدَّدْنَا وَتَجَاوَزْنَا الْحُدُودَ .

مِنْ وَثْنَةِ الْأَوْهَامِ ، لِأَنَّ الْأُمَمَ لَا تَسْأَلُ حُرِّيَّتَهَا بِإِتْفَاقٍ ، وَلَا بِسُلْطَةِ غَيْبِيَّةٍ قَاتِمَةٍ لِلطَّبِيعَةِ ، وَلَا بِالْبَحْثِ ، فَلَتَنْظُرُ فَرَسَةٌ فِي نَفْسِهَا تَجِدُ أَنَّ جَبْهَتَهَا هُوَ عِزُّهَا .

أَنْتَ حَدَثٌ وَمُعْتَرِبٌ عَنْ بِلَادِكَ ، فَوَسَّيْتَنِي إِلَى خِدْمَتِهَا هِيَ أَنْ تَفْنَى عَنْ عَقْلِكَ الْجَهْلُ وَالْأَوْهَامُ وَالْأَضَالِيلُ الَّتِي تَبْدُرُ فِي الدُّنْيَا بُدُورَ الطُّغَاةِ الْغَاشِمِينَ ، إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ آدَيْتَ فِي سَعْيِكَ إِلَى الْحُرِّيَّةِ شَيْئًا مِنَ الْعَمَلِ . التَّعَلُّمُ اِتِّبَارٌ بِالْشَّرِّ لِاسْتِئْصَالِهِ ، فَلَوْلَمْ يَكُنْ نِظَامُ تَرْبِيَتِنَا يَرْمِيهِ مِنْ شَأْنِهِ تَجْيِيدُ ابْنَاءِ الْوَطَنِ مِنْ مَلَكَةِ الْإِسْتِقْلَالِ بِالْفِكْرِ وَالْإِرَادَةِ ، لَكَانَتْ فَرَسَةٌ قَدْ اهْتَدَتْ الطَّرِيقَ إِلَى الْحُرِّيَّةِ مِنْ زَمَانٍ بَعِيدٍ ، فَإِنَّمَا أَنَّ يَكُونَ هَذَا هُوَ يَنْبُوعُ مَا أَصَابَنَا مِنْ ضُرُوبِ الْعَجْزِ ، وَإِنَّمَا أَنَّ أَكُونَ مُحِطًا خَطَأً فَاحِشًا . لَا حَقَّ لَنَا أَنْ نَعِيبَ عَلَى التُّرْكِ اعْتِقَادَهُمْ^(١) بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ،

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعني انه جل شأنه في حرية الأمم اثر من آثار المنهج المادي القائل بأن لا وجود لهذه السلطة ، نزه الله عقولنا من لونه .

(٢) يعني بالترك المسلمين . وعيبه على الترك وغيرهم انتقادهم بالقضاء والقدر جهل منه بحقيقة هذه العقيدة وما لها من الآثار الحسنة في أحوال من يفقهون حقيقتها ، فقتضاهم الايمان بأن كل ما يقع في الوجود إنما يكون في زمانه ومكانه بعلم الله وبمشيئته على سنن ثابتة قدرها بحكمته ولقاصد سامية دبرها على وفق ارادته اقرارا له ، بالألوهية المبرأة من كل عيب ، وتزجها لعلها المحيط أن يصوره النفس ، ولا رادته الكلمة أن يلحقها العجز ، ولا منافاة البتة بين هذه العقيدة وبين أن يكون الانسان حرا في عمله وفكره في دائرة امكانه ، ولو تأملت فيما كان عليه سلفنا الصالح من شدة الاستسكان بها وما أفادهم من الصبر في مواطن البأس ، وبذل المهج في اعلاء كلمة الحق ، وما أكسبهم ذلك من العزة والسلطان على الأمم ، ونظرت الى ما هو حاضرا بين أيدينا الآن من جهاد أبطال مرakash وقائدهم العظيم عبد الكريم في سبيل تحرير بلادهم من الاسبانيين المغيرين عليها ومصابرتهم في الكفاح مع ما بينهم وبين عدوهم من التفاوت في العدد والعدد وتمكنهم بذلك من طرده واجلائه عنها ثبنت ان ذلك من آثار تلك العقيدة التي يزعم الجاهلون من الافرنج ومن تبعهم أنها من أسباب انحطاط المسلمين وتآخرهم ، ولا يقدح في ذلك ما حصل لهم من الانكسار فيما بعد لانضمام فرسة الى اسبانية في قتلهم واقتطاع النسبة لهذا السبب بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد . — ولعمري ان دواء الانتصار الذي فشا في أوروبا وانتقلت عدواه الى الشرق لا حلة له الا فقدانها وعدم ارتياض النفوس بها .

فَتَحْنُ أَثْبَتَ مِنْهُمْ فِيهِ أَلْفَ مَرَّةٍ، ذَلِكَ أَنَّنَا نَأْمُرُ لِيَحْتِ يَوْمَنَا، خَاصِمُونَ لِمُقَدُّورٍ
سِيَاسَتِنَا، مُؤَدُّونَ مِيثَاقِ الطَّاعَةِ لِحُكُومَتِنَا، حَتَّى لَوْ انْتَقَلَتْ إِلَى أَيْدِي الْكُفَّارِ .
وَقَدْ أَصْبَحَ نُمُودُ الْيَهْمِ وَاتِّحَالُ الْعَزَائِمِ مَلَاذًا يُلَوِّدُ بِهِ أَشَدُّنَا أَفْغَةً وَإِبَاءً ، تَرَاهُمْ
لَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْكَابَةِ وَكُسُوفِ الْبَالِ ، يُحَوِّلُونَ وُجُوهَهُمْ عَمَّا يَجْرَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
مِنَ الْأُمُورِ، كَمَا لَوْ كَانَ لِأَيِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقْنَطَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَمِنْ يَلَادِهِ .
إِذَا ظَهَرَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ فِي الْأُمَّةِ ، كَانَ حَقًّا عَلَى الْإِنْسَانِ وَمِنْ مُقْتَضَى عَظَمَتِهِ ، أَنْ
يُجَاهِدَ فِي إِزَالَةِ سَبَبِهِ ، وَلَيْسَ يَكْفِي الرَّجُلَ الصَّالِحَ اخْتِخَارُهُ أَحْيَانًا إِنْ يَتَخَيَّلُ فِي نَفْسِهِ
عَلَّا أَنْ يَطْلُوعَ فِيهِ مُتَقَدِّدِيهِ وَيُشْرِفَ مِنْ أَعَالِيهِ عَلَى أُمُورِ دَهْرِهِ فَيَحْفَرَهَا ،
بَلْ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنْ لَا يَدْنِرَ سِلَاحًا فِي مَكَانَتِهِ .

لَيْسَتْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ مِنْ هَذَا الْعَجْزِ فِي شَيْءٍ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَلِمَةَ جُوفِيئَالٍ إِذَا قَالَ:
«لَكِنْ لَنْ يَعْدَمَ الْمَغْلُوبُونَ سِلَاحًا»، فَالَّذِي يَبْقَى مِنَ السِّلَاحِ فِي أَيْدِي الْأُمَمِ الْمَغْلُوبَةِ
هُوَ الْخَطَابَةُ وَبَثُّ الْأَفْكَارِ وَالْمَقَاوِمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ، وَلَنْ تُخْضِعَ الْحُكُومَةُ رِعِيَّتَهَا مَا دَامُوا
لَا يَسْتَكِينُونَ لِلْخِذْلَانِ، نَعَمْ إِنَّهَا تَسْتَطِيعُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَنْ تَسْلُبَ حُقُوقَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ، وَتُعْلِمَ مَنْ يُسَيِّطُونَهَا مِنْهُمْ، وَتُرْهِبَ أَنْدَاهُمْ، وَتَخْدَعُ جُهَاثَهُمْ، وَلَكِنْ
هِيَ مَا أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ ظَفَرُهَا النَّهَائِي بِهَيْمِ عَنُودَ ، لَا تَنْظُرُ بِهِمْ إِلَّا مَتَى أَزْهَقَتْ
رُوحَ الْكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ قُلُوبِهِمْ . الْأُمَّةُ الْحُرَّةُ وَهِيَ أُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ تَرِيدُ وَتَنْمُو
فِي ظِلِّ حُكُومَةِ الْإِسْتِبْدَادِ، وَتَسْتَصِيرُ إِذَا قَوَتْ بِمَا تَكْتَسِبُهُ مِنَ الْمَعَارِفِ، وَبِمَا

(١). جوفِيئَال كَلْب لَاتِي هَانْ شَمِرْ كَانْ بِيئِي فِي آخِرِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمِيلَادِ وَمَاتَ فِي عَهْدِ

الْأَتُونِيَّينَ وَهَمَّ بَيْتَ مِنْ بِيُوتِ الْمَلِكِ فِي رُومَةِ -

يُوجَدُ فِيهَا مِنْ صَوَاطِفِ الْإِنصَافِ، الَّتِي تَخْلُصُ إِلَيْهَا مِنَ الْبَحْثِ فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ،
وَمَا تَسْتَفِيدُهُ مِنَ الْقُوَى الَّتِي يَخْتَلِسُهَا الْعِلْمُ مِنَ الطَّبِيعَةِ .

لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ مَخْلُوقًا لِأَنَّهُ يُؤَدِّي عَمَلًا سِيَاسِيًّا،
فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مَلَكَاتٍ وَمِثْلِ خَاصٍ، وَلَكِنْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَرْتَأَى لِنَفْسِهِ
رَأْيًا فِي مَصَالِحِ عَصْرِهِ وَبِلَادِهِ ، وَلَسْتُ مُلْزَمًا أَنْ تَأْخُذَ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِيٍّ وَلَا مِنْ
آرَائِي، فَكُلُّ جَبِلٍ مُسْتَعِدٌّ لِأَنَّهُ يَمْعَلُ عَمَلَهُ بِنَفْسِهِ، وَمُلْزَمٌ أَنْ يَسْتَرِشِدَ فِيهِ بِمَا يَسْتَعِدُّ
مِنْ حَاجَاتِ أُمَّتِهِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَكْفِيكَ أَنْ تَطْعَنَ فِي الْأَوْضَاعِ
الْقَدِيمَةِ لِمَدَمِ بُنْيَانِهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُثَبِّتَ لَكَ الْعِلْمَ كَذِبَهَا أَوْ عَدَمَهَا، وَإِذَا أَرَدْتَ
أَنْ تَنْظُرَ بِخَصْمِكَ فَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَنُورَ فِكْرًا .

(١)
إِنَّ مَا يَشْكُو مِنْهُ جَمِيعُ النَّاسِ فِي أَزْمَانِ التَّدَلِّي، مِنْ نُحُودِ النُّفُوسِ وَأَثَرَةِ التَّوَاكُلِ
وَبَلَاءِ الْإِسْتِسْلَامِ لِحُضُورَةِ الْأَحْوَالِ، مَنْشُؤُهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَيْضًا، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَرِيكٌ
فِي الْمَلَكِ الْعَامِّ، إِمَّا مُسْكُوتهٌ وَإِمَّا بِإِمْتِنَاعِهِ اخْتِيَارًا عَنِ الْعَمَلِ، عَلَى أَنَّ تِلْكَ
الْأَزْمَانِ هِيَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا لِلنُّفُوسِ الْأَيُّبَةِ أَنْ تَسْتَدَّ وَتَشَبَّثَ فِي تِيَارِ الدَّمَارِ، فَقَلِيلًا
إِنْ لَمْ تَأْتِ مِنْ نَفْرَسٍ كَفَايَةٍ فِي الْقُوَّةِ، أَنْ تَسْتَعِينَ مِنْ سَبَقَتْ لَهَا الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ
الْحَقِّ، وَمَنْ مَاتُوا مِنَ النُّكَابِ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ الْإِسْتِبْدَادَ وَيُمَاجِلُونَ عُيُ الْبَصَائِرِ،
قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا حِمَارَ كَدِّهِمْ، وَمَنْ تَخَرَّوْا مِنْ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْخَطْبَاءِ مُخَضَّبِينَ بِدِمَائِهِمْ،

(١) التواكل : تكال كل إنسان على غيره .

(٢) يأتى : يدنو ويغرب .

وَمِنْ حُكْمِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقَلَاءِ بِسَاقِ الْأَعْمَالِ ، وَشُكُلُوا خِلَالَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ^(١)
 فِي سَلَاسِلِ الْعُبُودِيَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَلِتَتَأَمَّلَ فِي مَاضِينَا ، قَلْبَانَا نَجِدُ فِيهِ مِنَ السُّجُونِ
 وَالْمَتَانِي وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، مَا يَشْهَدُ لَنَا بِزَاهَةِ مَقْصِدِنَا زَاهَةً لَا تُدْفَعُ .
 أَلَا إِنَّ لَوَاءَ الْحُرِّيَةِ يُظِلُّ جَمِيعَ الْمُقَاوِمِينَ ، وَالْمَكْرُوبِينَ ، وَالْمَهْضِينَ^(٢) ، فِي سَبِيلِ
 تَأْدِيَةِ مَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ ، وَبِهَذَا اللِّوَاءِ سَيَكُونُ لَنَا الْقَوْزُ وَالظَّفَرُ ، وَعَلَى هَذَا الْإِعْتِقَادِ
 أَقْبَلْتُ قُبْلَةَ الْوَدَاعِ . ١٥

الرسالة الحادية عشرة

(وَيْهِ خَاتِمَةُ الْكِتَابِ)

مِنَ الدُّكْتُورِ وَارْتِيخُونِ إِلَى زَوْجَتِهِ

« بَيَانُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَسْعَى إِلَى إِنْسَاءٍ وَلَدِهِ حُرّاً لِيُجَنِّثَ » .

« بِذَلِكَ جَرَائِمُ الشُّرُورِ الْمُحْزِنَةِ لِلْأُمَّةِ »

عَنْ لُونْدَرَةِ فِي ١٤ مَآيُو سَنَةِ ١٨٦٦

شَهِدْتُ بِالْأَمْسِ أَيُّهَا الْحَبِيبَةُ الْعَزِيزَةُ عِدَا أَهْلِيَا ، أَقَامَهُ الدُّكْتُورُ إِرَانْمُ
 وَزَوْجَتُهُ احْتِفَالًا بِبُلُوغِ وَلَدِهِمَا الْوَاحِدَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَكَانَ عَدَدُنَا اثْنَيْ عَشَرَ
 صَدِيقًا .

(١) شكّلوا : قيدا من خلاف .

(٢) المهضين : المكسورين .

كَانَ الْعِيدُ وَلِيْمَةً رِجَالٍ زَانَتْهَا الْمَهَابَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَمْ يَمْنَحْ كَوْنَهَا كَذَلِكَ مِنْ
 انْتِعَاشٍ جَمِيعِ قُلُوبِ الْمَدْعُوِّينَ ابْتِهَاجًا وَسُرُورًا ، وَفِي خِتَامِ الْمَائِدَةِ ابْتَدَأَ رَفَعُ
 الْأَقْدَاجِ، لِمَعَاطِي الرَّاحِ عَلَى عَجَبِ «إِمِيل»، جَرًّا عَلَى الْعَادَةِ الْأَنْجِلِيزِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، فَقَامَ
 إِرَاسْمُ وَاسْتَأْذَنَ فِي أَنْ يَتَرَبَّ تَحَبُّ وَلَدِهِ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي حَيَاتِي أَفْصَحَ مَقَالًا مِنْهُ
 حَيَظًا، فَقَدْ أَفَاضَ فِي الْقَوْلِ عَنِ الْفُرُوضِ الَّتِي تَحِبُّ عَلَى الشَّابِّ فِي مَبِشَّتِهِ الْقَوْمِيَّةِ،
 وَعَنِ التَّرْبِيَةِ وَوُجُوبِ أَنْ تَكُونَ عَمَلُ كُلِّ مِثْلٍ فِي جَمِيعِ حَيَاتِهِ، وَعَنِ الْأَزْمَانِ الْحَاضِرَةِ
 وَأَقْبَضَانِهَا مِنَ الْمُفَكِّرِ أَنْ يَسْتَمِيسِكَ بِالْأَرَاءِ الْمُؤَسَّسَةِ عَلَى الْبَحْثِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَأَنْ
 يَبْتَ عَاطِيهَا، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَلَيْسَ فِي وَسْطِي أَنْ أُؤَدِيَ إِلَيْكَ أَثَرَهُذَا الْخُطَابِ
 الْأَبَوِيِّ الَّذِي كَانَتْ مَرِيئَتُهُ الْكُبْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَخُطْبِ الْخُطَبَاءِ .

وَمَا فَرَّغَ مِنْهُ حَتَّى انْجَهَتْ جَمِيعُ الْأَبْصَارِ نَحْوَ «إِمِيل» — وَأَنْتِ قَدْ اسْتَطَعْتِ
 مِنْ مُنْذُ عَوْدِهِ مِنَ انْجِلْزَةَ أَنْ تَعْرِفِي مَا هُوَ مُتَعَلِّ بِهِ مِنْ ثَبَاتِ الرَّأْيِ وَعُلُوِّ الْأَدَبِ
 وَسَعَةِ الْمَعَارِفِ — فَشَكَرَ لِأَصْدِقَاءِ أَبِيهِ أَنْ تَفَضَّلُوا بِاجَابَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الْعِيدِ
 الْبَنِيِّ الْحَقِيرِ، بِعِبَارَاتٍ تَشْفِي عَنْ لُطْفِ ذَوْقِهِ وَمَزِيدَ تَوَاضُعِهِ، ثُمَّ ارْتَقَى إِلَى الْكَلَامِ
 عَنْ بَعْضِ الْمَسَائِلِ الْعَامَّةِ فَبَيَّنَ الْخُطَّةَ الَّتِي يُؤْمَلُ أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهَا فِي النَّاسِ، بِالْفَاطِ
 جَلِيَّةٍ مُؤَدِّيَةٍ تَمَامِ الْمَعْنَى — وَقَدْ أَحْسَنَ كُلُّ مَنْ سَمِعَ قَوْلَهُ بِأَنْ يَجِيعَ مَا فَاهُ بِهِ
 صَادِرٌ عَنْ فِكْرِهِ الْمُسْتَقِلِّ .

ثُمَّ تَمَاقَبَتِ الْكُؤُومُوسُ وَتَوَالَتِ الْأَخْطَابُ، وَبَيْنَمَا كُنَّا عَلَى أَهْبَةِ الْقِيَامِ مِنَ الْمَائِدَةِ
 أَلْتَقَتَ إِلَى وَالِدَيْهِ، وَأَخْبَهْمَا ^(١) بِأَنْ لَدَيْهِ خَبْرٌ يُرِيدُ أَنْ يُعْلِيَهُمَا لِإِيَّاهُ، وَقَدْ لَوْنَتْ جِيئَتُهُ

(١) آذَنَهُمَا أَطْلَهُمَا .

جَبْنَتْ حُمْرَةَ الخَجَلِ، مَعَ أَنَّ مَلَايَحَ وَجْهِهَ كُلَّهَا كَانَتْ تُتْرَبُ عَمَّا فِيهِ مِنْ ثَبَاتِ
الرُّجُولِيَّةِ .

مَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشِي وَدَهْشَ الحَاضِرِينَ إِذْ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ : — بِصَوْتٍ قَوِيٍّ
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الإِحْتِسَامِ — إِنَّهُ مِنَ الْأُمْسِ مُتَّفِقٌ مَعَ دُولُورِسَ عَلَى التَّرُوجِّ بِهَا .
ثُمَّ أَعْقَبَ هَذَا الإِخْبَارَ أَنْ انْخَى أَمَامَ وَالِدَيْهِ قَاتِلًا : « هَلْ لِي أَنْ أَرْجُو مِنْكُمْ
اسْتِخْصَانًا لِهَذَا الإِخْتِيَارِ ؟ » .

هُنَالِكَ غَشِيَتْ وَجْهِي الْفَتَاةُ السُّمْرَاوِينِ بِحَبَابَةٍ مِنْ حُمْرَةِ الخَجَلِ، وَاعْظَمَتْ
عَيْنُهَا، فَلَالَتْ بَيْنَ أَهْدَابِهَا السُّودَاءِ الطَّوِيلَةِ عِبْرَاتِ الفَرَجِ وَالْهَنَاءِ .

لَمْ تَجِدِ السَّيِّدَةَ هِلَانَةَ جَوَابًا لِمَسْئَلَةِ ابْنِهَا إِلَّا إِكْبَابَهَا عَلَى عُنُقِهِ تَقْبَلُهُ، وَقَدْ كَادَتْ
تَحْتَقُّ سُرُورًا وَاعْتِبَاطًا، وَأَمَّا إِرَاسُهَا فَنَاقُضٌ مَعَ تَأْثُرِهِ مِثْلَهَا بِمَا سَمِعَ مِنْ وَلَدِهِ؛ كَانَ أَمْلَكَ
مِنْهَا لِعَوَاطِفِهِ . وَأَجَابَهُ بِصَوْتٍ بَنِيٍّ عَنْ سَكِينَتِهِ وَوَدَاعَتِهِ فَقَالَ : « إِذَا كُنْتُ
مُحِبًّا فَهِيَ ابْنَتِي » ثُمَّ قَبَلَ هَذِهِ الْفَتَاةَ الْحَسَنَاءَ بِصَدْرِ مُنْشَرِّحٍ وَنَفْسٍ مُنْبَسِطَةٍ .

فِي خِلَالِ هَذَا الْمَنْظَرِ الْمُؤَثِّرِ طَرَقَ الْبَرِيدُ بَابَ الشَّارِعِ طَرَقَيْنِ، فَاضْطَرَبَ
كُلُّ مَنْ فِي الْبَيْتِ، وَكَانَ يَحْمِلُ رِسَالَةً كَانَتْ يُرَى مِنْ غِلَافِهَا أَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْ بِلَادِ
بَيْسَلَةِ .

كَانَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ « لِإِمِيلَ » فَاسْتَأْذَنَ فِي قَضِّ خِتَامِهَا، لِأَنَّهُ مَا لَيْتَ أَنْ عَرَفَ
فِي عُنْوَانِهَا خَطَّ قُورِيْدُون، وَقَرَأَهَا وَكَانَتْ بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ الرَّكِيكَةِ — انْجِلِيزِيَّةِ زَنْجِيٍّ —
فَإِذَا هِيَ تَتَضَمَّنُ تَهْنِئَةً مِنْ هَذَا الْإِفْرِيْقِيِّ الْبَارِّ « لِإِمِيلَ » بِعِيدِ مِيلَادِهِ وَرَجَاءَهُ —

كَمَا هِيَ الْعَادَةُ — عَوْدَ كَثِيرٍ مِنْ أُمَّتَالِهِ عَلَيْهِ بِالْغَبْطَةِ وَالْمَنَاءِ، وَتَشْتَمِلُ فَوْقَ ذَلِكَ عَلَى خَبَرٍ سَارٍّ، وَهُوَ أَنَّ الزُّرُوعَ الَّتِي زُرِعَتْ فِي أَرْضِ «لُولَا» قَدْ نَجَحَتْ بِفَضْلِ حَذَقِهِ وَحَذَقِ زَوْجَتِهِ، وَأَنَّهَا رُبَّمَا كَفَلَتْ لَهَا صَدَاقَهَا عِنْدَ الزَّوْاجِ.

إِنِّي عَلَى جَنَلِي بِإِعْتِبَاطِ أَصْدِقَائِنَا، مَحْزُونٌ لِنَفْكَرِي فِي مُقَارَفَتِهِمْ لَنَا، لِأَنَّ هَذِهِ الْوَيْمَةَ الْعِيدِيَّةَ كَانَتْ وَلِيْمَةً وَدَاعٍ أَيْضًا، فَهُمْ رَاجِعُونَ إِلَى فَرَنْسَةِ، يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا مَا وَقَعَ فِيهَا أُخِيرًا مِنَ الْحَوَادِثِ السِّيَاسِيَّةِ، وَحُبِّ مَسْقِطِ رُءُوسِهِمْ، وَإِنِّي مُشِعُّهُمْ بِأَحْسَنِ آمَالِي لَهُمْ، وَلَسْتُ أَنْسَى كَلِمَةً مِنْ كَلِمَاتِ إِرَاسَمِ الْأَخِيرَةِ، الَّتِي فَاهَ بِهَا عِنْدَ مُصَاحَفَتِنَا، بِصَوْتٍ مِلْؤُهُ الْوَقَارُ وَالْهَيْبَةُ، وَهِيَ قَوْلُهُ: عَلَى كُلِّ مَنَّا أَنْ يَسْمَى فِي جَعَلٍ وَلَدَهُ رَجُلًا حُرًّا، فَإِنَّا بِذَلِكَ نَجْتَنِّهِ جَرَائِمَ الشُّرُورِ الْمُحْزِنَةِ لِلْأُمَّةِ اهـ

المُتَرَجِّمُ : فَوُغْتُ مِنْ تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُفِيدِ قُبَيْلَ ظَهْرِ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ غُرَّةَ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ١٣٢٤ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُوَافِقِ لِلثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٩٠٦ لِلْمِيلَادِ الْمَسِيحِيِّ وَتَمَّ طَبْعُهُ الطَّبْعَةُ الْأُولَى بِمَطْبَعَةِ مَجْمَلَةِ الْمَنَارِ بِمِصْرَ الْقَاهِرَةِ سَلَخَ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ١٣٢٦ هِجْرِيَّةً — ثُمَّ تَمَّ طَبْعُهُ فِي الْمَطْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ١٣٣١ هِجْرِيَّةً — ثُمَّ تَمَّ طَبْعُهُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ بِمَطْبَعَةِ السَّعَادَةِ فِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ١٣٤٣ هِجْرِيَّةً . ثُمَّ تَمَّ طَبْعُهُ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ فِي مَطْبَعَةِ دَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٣٤٩ هِجْرِيَّةِ الْمُوَافِقِ لِلْأَيَّامِ الْآخِرَةِ مِنْ شَهْرِ أَبْرِيلِ وَالْأَوَّلِ مِنْ شَهْرِ مَآيُو سَنَةِ ١٩٣١ مِيلَادِيَّةِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ التَّحَامُّ مـ

كلمة المترجم الختامية

لِلطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ

الآن وَقَدْ فُرِغَ مِنْ طَبْعِ هَذَا السَّفَرِ الْجَلِيلِ الْخَطِيرِ الْعَظِيمِ الْآثَرِ، بَعْدَ مَا بَدَّلْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَجَهْدٍ فِي تَصْحِيحِهِ، وَتَهْذِيبِهِ، وَتَمْشِجِ مَا عَمَّصَ مِنْ أَلْفَاظِهِ، وَفِي التَّعْلِيقِ عَلَى مَا لَا يَلَايُمُ أَحْوَالَنَا الْإِجْتِمَاعِيَّةَ مِنْ أَفْكَارٍ مُؤَلَّفَةٍ، مِمَّا خَلَّتهُ كَافِيَا لِدَفْعِ مَا قَدْ بَعَلَقَ بِأَذْهَانِ مُطَالِعِيهِ مِنَ الشُّبْهِ وَالْأَوْهَامِ، أَقْدَمَهُ مَرَّةً ثَالِثَةً لِأَبْنَاءِ وَطَنِي الْأَعْرَاءِ، مُكْرَرًا لَهُمُ الشُّكْرَ عَلَى سَابِقِ اخْتِفَائِهِمْ بِهِ، وَحُسْنِ تَقْبِيلِهِمْ لِإِيَّاهُ، رَاجِيًا مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُمْ قِرَاءَتُهُ أَنْ يَسْتَأْنِفَهَا، فَإِنَّ الْإِسْتِفَادَةَ مِنَ الْكُتُبِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِمُطَالَعَتِهَا مَرَارًا، لِرَتْنَاضِ النُّفُوسِ بِمَا وَعَتْ، وَتَسْتَظْهِرِ الْقُلُوبُ مَا أُوْدِعَتْ، وَحَاقًا حَدِيثَ الْعَهْدِ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَتِهِ أَنْ يَصْطَفِيَهُ لِنَفْسِهِ جَائِسًا يَلْتَمِذٌ بِحَدِيثِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَغِهِ وَأَيْنَسًا يَلْهُو بِهِ فِي سَاعَاتِ رَاحَتِهِ .

« تَحْفِيزُ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرَجٌ سَائِحٌ * وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ »

عَلَى أَنِّي لَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذَا التَّرْوِيقِ وَالتَّشْوِيقِ فَنِي حُسْنِ وَضْعِهِ وَبِجَالِ تَسْيِيقِهِ وَبَلَاغَةِ بَيَانِهِ عَنْهُ غَنَاءٌ .

وَأَرْجُو أَنْ لَا يَفُوتَ قَارِئِيهِ، خُصُوصًا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِالرُّجْعَى، أَنَّ مَا اخْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ أُصُولِ التَّرْيَةِ لَمْ يَقْصُدْ بِهِ إِلَّا تَنْمِيعَ الْأَجْسَامِ وَالْمَقُولِ وَالْمَلَكَاتِ، لِيَقْوَى بِهَا عَلَى اخْتِمَالِ مَا خُلِقَتْ لَهُ مِنَ الْكَدَجِ وَالنَّصَبِ فِي مَسِيلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي مُعْظَمِ مَا يَكْتُبُهُ عُلَمَاءُ الْإِفْرَنْجِ فِي هَذَا الصِّدِّدِ، فَقَدْ قَصَرُوا أَكْبَرَ هِمَمِهِمْ، وَصَرَفُوا جُلَّ عَنَائِهِمْ، فِي الْبَحْثِ فِي الْقُوَى الْمَادِّيَّةِ وَطُرُقِ الْإِنْتِفَاجِ بِهَا، وَبَدَّلُوا وَلَا يَزَالُونَ يَدُلُّونَ كُلَّ جُهْدِهِمْ الْفِكْرِيَّةِ، وَجَمِيعَ مَوَاهِبِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ، فِي اسْتِكْثَالِ لَبَاتِ

الْحَيَاةَ وَتَخْفِيفَ أَوْصَالِهَا وَآلَامِهَا، وَتَحْصِيلَ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ فِيهَا، وَقَطْعُوا النَّظَرَ جُمْلَةً
عَمَّا يُؤْهِلُ النَّفْسَ لِلِقَاءِ بَارِيهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْحُظُوفَةَ فِيهَا بِقُرْبِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَهُوَ
الْمَقْصُودُ الْأَتَمُّ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ هُمْ قَدْ قَتَنُوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ الدِّينِ
الَّذِي هُوَ سَبِيلُ الْفَوْزِ فِي تِلْكَ الدَّارِ، بِتَسْرِيبِ الشُّبْهِ إِلَى عَقَائِدِهِ، وَإِلْقَاءِ جَرَائِمِ
الشُّكُوكِ فِي أَصُولِهِ وَمَذَاهِبِهِ، حَتَّى أَضَلُّوهُمْ عَنِ سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَرَغَبُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ —
عَلَى تَفَاهُتِهَا وَحَقَارَةِ خَطَرِهَا — عَنِ الْآجِلَةِ الَّتِي هِيَ مَصِيرُ الْإِنْسَانِ وَمُسْتَقَرُّهُ، عَلَى
مَا أُعِدَّ لِلْمُتَّقِينَ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ، وَالْمُلْكِ الْكَبِيرِ، وَاللَّذَّةِ الَّتِي لَا يَسُوبُهَا أَلَمٌ، وَالسُّرُورِ
الَّذِي لَا يَمُكِّرُهُ حَزَنٌ.

فَلْيَأْخُذْ مُطَالَعُوا هَذَا الْكِتَابِ بِأَحْسَنِ مَا يَقْرَأُونَ مِنْهُ لِدُنْيَانِهِمْ، وَلَا يَنْسُوا تَرْبِيَةَ
أَرْوَاحِهِمْ وَتَرْكِيبَتَهَا، وَمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ تَرْبِيَةَ نَفْسِهِ عَلَى أَقْوَمِ الْأَخْلَاقِ، وَتَشْيِئَتِهَا عَلَى
أَكْمَلِ الْأَدَابِ، لِإِعْدَادِهَا لِلْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ، وَالنِّعَمِ الْمُقِيمِ، فَسَبِيلُهُ إِلَيْهِ اسْتَظْهَارُ
كِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاقْتِضَاءُ آثَارِ النَّبِيِّينَ، وَالْإِتِمَامُ هَدْيِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَاتِّبَاعُ سُنَنِ
أَصْحَابِهِ الْمَهَادِينَ الْمُهْتَدِينَ، «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ» (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ
تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سَأَلَ اللَّهُ جَلَّ
شَانَهُ أَنْ يُوَفَّقَنِي وَإِيَاهُمْ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ وَالسَّيْرِ عَلَى مَنَاجِحِهِمْ وَهُوَ حَسْبُنَا بِهِ تَفَتُّنَا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى التَّمَامِ وَلَهُ الشُّكْرُ فِي الْبَدْرِ وَالْخَتَامِ.

عبد العزيز محمد

وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الأربعاء

١٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هجرية (٦ مايو سنة ١٩٣١ ميلادية).

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

إصلاح خطأ

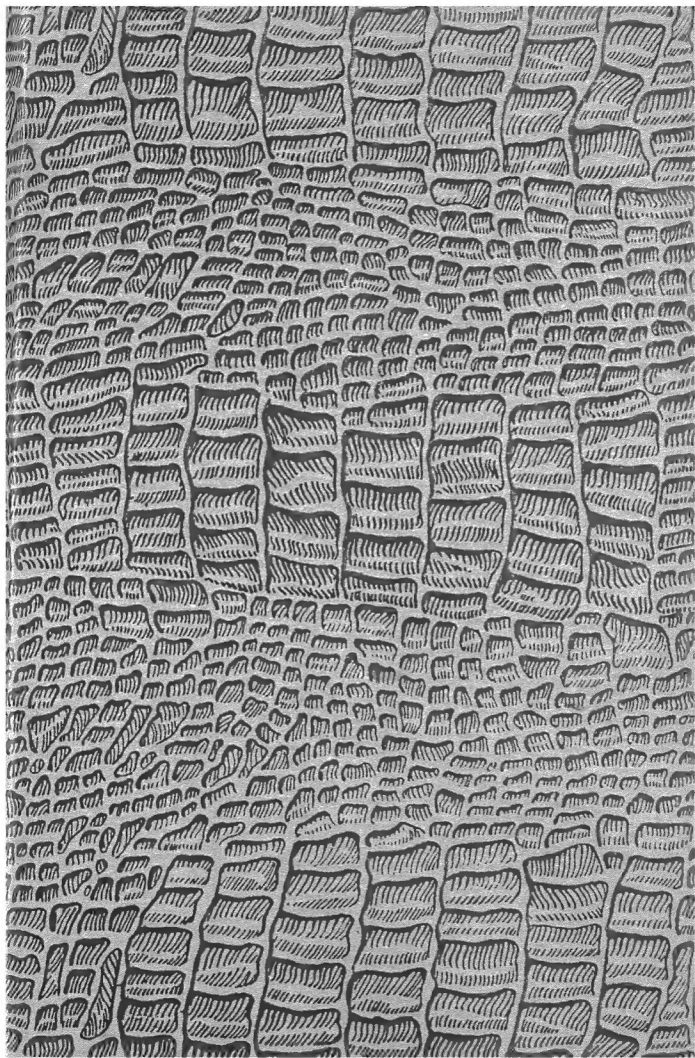
وقعت بعض أخطاء مطبعية أثناء الطبع فأثبتناها هنا إستاندرتها القارئ
في الصحف التي جاءت فيها وهي :

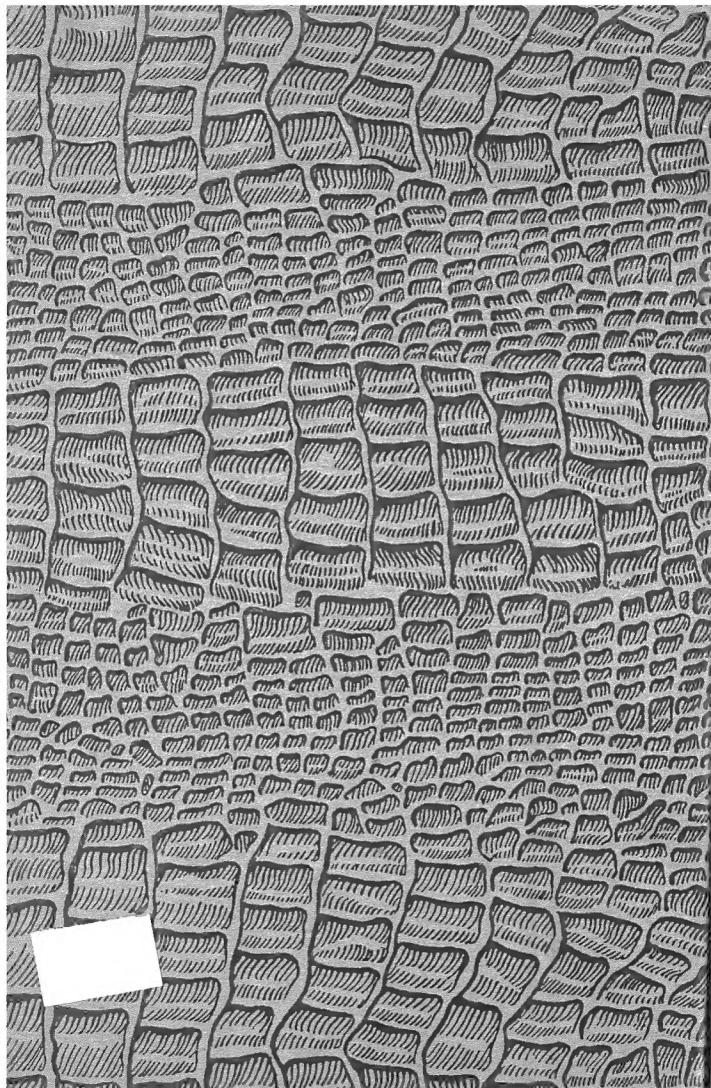
صواب	خطأ	صفحة	سطر
على	عل	١٧	١
ضمها	يمعنى بفتح العين	١٢	٣
كسرة	همزة أسفل يا خلائية	١٤	٣
فتحها	منعة بتسكين النون	٥	٧
التشديد مع الفتح	الخلق بتشديد الياء مع كسرها	١٣	٢٢
ضمها	سأؤدى بفتح الهمزة الأولى	١٦	٣٧
كسرها	قدم بضم الدال	١٦	٣٩
السلام	السليخ	١	٤٠
فتحها	اكلمه بضم الميم	١٤	٤٠
حياته	جباته	٢٣	٤٣
فتحها	هضم بكسر الضاد	١٤	٤٩
كسرها فقط	تنفير (مكررة) بتشديد الياء الأولى مع كسرها	١٦	٥٧
فتحها	يكون بضم الياء	١٦	٥٩
كسرها	تبدلت بسكون التاء	٩	٦١
ارتضنا	تحققنا	٢	٦٣
كسرها	حراسة بفتح الحاء	١٣	٦٥
ضمها	يضحفون بفتح الياء	١٧	٧٦
فتحها	الشيء بضم الهمزة	١٣	٨٥
بين ياء وياء	بين يباءين	٤	٩٣
فتحها	تجنبت بضم التاء الثانية	٦١	٩٦
تسكينها	لتخلف بفتح الخاء	١٤	١٠٢

صواب	خطأ	صفحة	سطر
فتحتان	معدة بضمين على التاء	١١١	١٥
ضمهما	استخفافه بكسر الفاء الثانية والماء	١١٣	١٣
يحد بفتح الياء وكسر الجيم	يوجد	١١٤	٣
كسرهما	من بفتح النون	١١٨	١٥
فتحها	الوانها بكسر النون	١٢٣	١٣
كسرهما	حياتهم بتسكين الميم	١٤٥	٦
الف مهموزة	فاعطه بالف غير مهموزة	١٤٧	١١
كسرهما	الألوهية بفتح التاء	١٤٨	١٢
بالتاء	التواضع بالنون بعد اللام	١٥٥	٣
تسكينها	اسنان بكسر السين وتشديدها	١٦٤	١٤
ضمتان	اسنان بضمة واحدة على النون الثانية	١٦٤	١٩
كسرتان	احساس بكسرة واحدة أسفل السين الثانية	١٦٥	١٩
كسرهما	من بتسكين النون	١٨٢	١٥
كسرهما	متيلاس بتسكين النون	١٨٢	١٦
جيم وجيم وفتحان فوق التاء	لحاجة بجاء وجيم وكسرتين تحت التاء	١٨٦	١٨
الفتح مع التشديد	ما بفتح الميم	٢٠١	١٤
هاء	نبذة بالتاء	٢٠٣	١
فتحها	ادرك بضم الكاف	٢١٢	٥
فتحها	غرق بتسكين الراء	٢١٢	١٤
الكسر مع التشديد	الطفل بفتحة مشددة على الطاء	٢١٢	١٧
ضمها	قلنسوة بفتح السين	٢١٩	١٦
فتحها	الجلت بكسر الدال وفتحها	٢٢٢	١٠
كسرهما	خلقت بتسكين التاء	٢٢٤	٩
عدمها	يذهب بكسرة أسفل الماء	٢٤٢	٤
ضمها	قتلهم بفتح اللام	٢٤٤	٨
تسكينها	فلنغنم بفتح الميم	٢٤٤	١٥
فتحها	عدم بكسر الميم	٢٤٦	١٦

صواب	صحيفة	سطر خطأ
فتحها مع التشديد	٢٤٨	١٨ ما بفتح الميم
وانى	٢٥٠	١٥ وأنا
كسرها	٢٥١	١١ بمنّا عليهم بسكون الميم الثانية
المصطبة : شديدة الصوت	٢٥١	٢١ المصطبة بلا تفسير
لا نجادهم سيلا	٢٥٢	١٤ لا نجادهم، سيلا
القاصف : الريح الشديدة	٢٥٢	٢٠ القاصف الشديدة
فتحها	٢٥٤	١٧ المركب بكسر الكاف
فتحها	٢٥٥	١ قويدون بضم النون
كسر ثان أسفلها	٢٥٥	١٣ كلمة بفتحيتين على التاء الثانية
كسرة واحدة	٢٥٦	٨ لأحد بكسرتين أسفل الدال
والثلاثون	٢٥٦	١٦ والعشرون
فتحها	٢٥٨	٤ ولأنه بكسر المعزة
التشديد مع الفتح	٢٧٥	١٣ أشد بتشديد الدال فقط
الفتح مع التشديد	٢٧٦	١٤ ما بفتح الميم فقط
الفتح مع التشديد	٢٩٧	٧ يحط بضم الطاء وتشديدها
تسكينها	٣٣٢	٢ انحرق بضم الراء
فتحها	٣٣٢	٦ وجد بضم الواو
للطفل	٣٣٣	٦ للعقل
فتحها	٣٣٧	١٤ قصر بضم الراء
الضم مع التشديد	٣٣٨	٤ تحتف بفتح الفاء مع التشديد
فتحها	٣٤٦	١٦ مثل بضم الميم
ضمها	٣٥٤	١٦ تتج بفتح التاء الأولى
فتحها مع التشديد	٣٨٤	١٦ الشمال بكسر الشين مع التشديد
فتحها	٤٠٤	٢ تمرزل بضم اللام الثانية
عدمه	٤١٣	١٣)

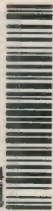
صواب	خطأ	صفحة	سطر
فصحتان	مؤسسة بضمين على التاء	٤١٦	٨
ضمها	المنافخ بفتح الميم	٤٣٠	٢٠
فتحتها	وتررى بضم الواو	٤٤٩	١١
التهبة والانشتين	والتهبة والانشتين	٤٥١	٢٦
ضمها	زهورها بفتح الزاي	٤٥٧	١٥
ضمها	اختلف بفتح الفاء	٤٦١	١٥
ضمها	جميع بفتح العين	٤٦٤	١٦
التمريض في الحب	حقيقة الحب وخطأ الشبان فيه	٤٨١	١
التمريض في الحب والتقل في المدارس الجامعة	حقيقة الحب وخطأ الشبان فيه	٤٨٢	١
الشبان فيه			
التقل في المدارس الجامعة	المذهبان اللذان يتنازعان عقول البشر	٤٨٣	١
فتحتها	الاختلاف بكسر الفاء	٤٨٤	١٣
ضمها	رجعت بفتح التاء	٤٨٥	٥
تسكين القاف وضم الاء	وصدقت بفتح القاف وتسكين التاء	٤٨٥	٥
ضمها	سألت بفتح التاء	٤٨٥	٦
ضمها	يتعارض بفتح الضاد	٤٨٧	٧
سبيل الله لهم	سبيل لهم	٤٨٨	١٥
فتحها معا وتشديد الثانية	لما بكسر اللام وفتح الميم	٤٩١	١٢
ضمها	تبذر بفتح الراء	٤٩٢	٥







Bibliotheca Alexandrina



0407996